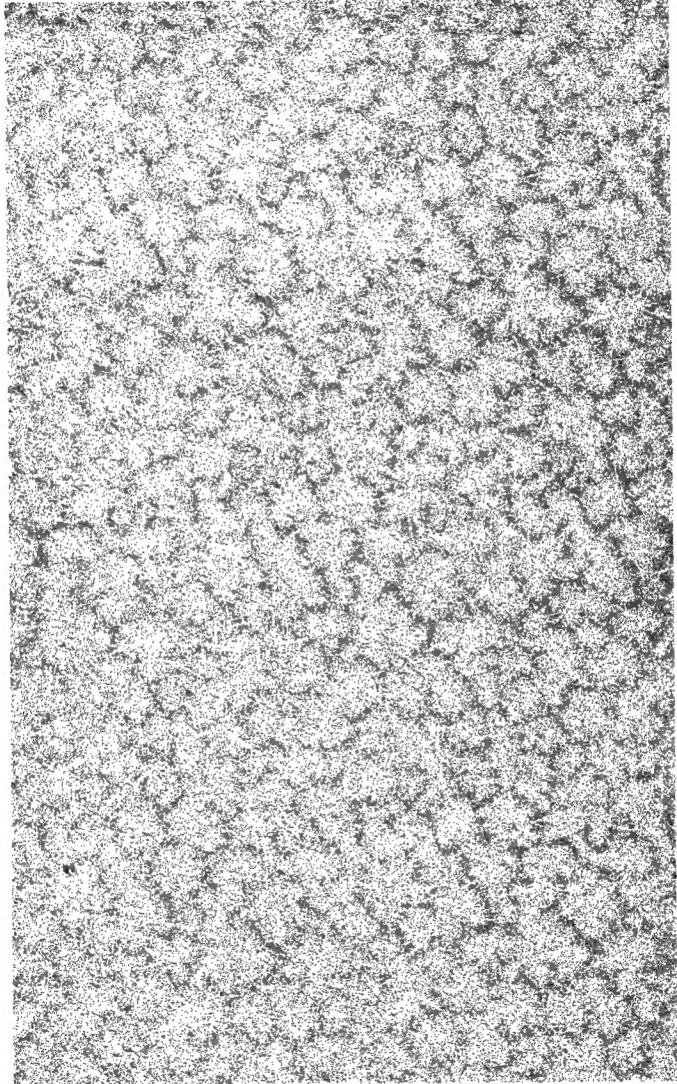


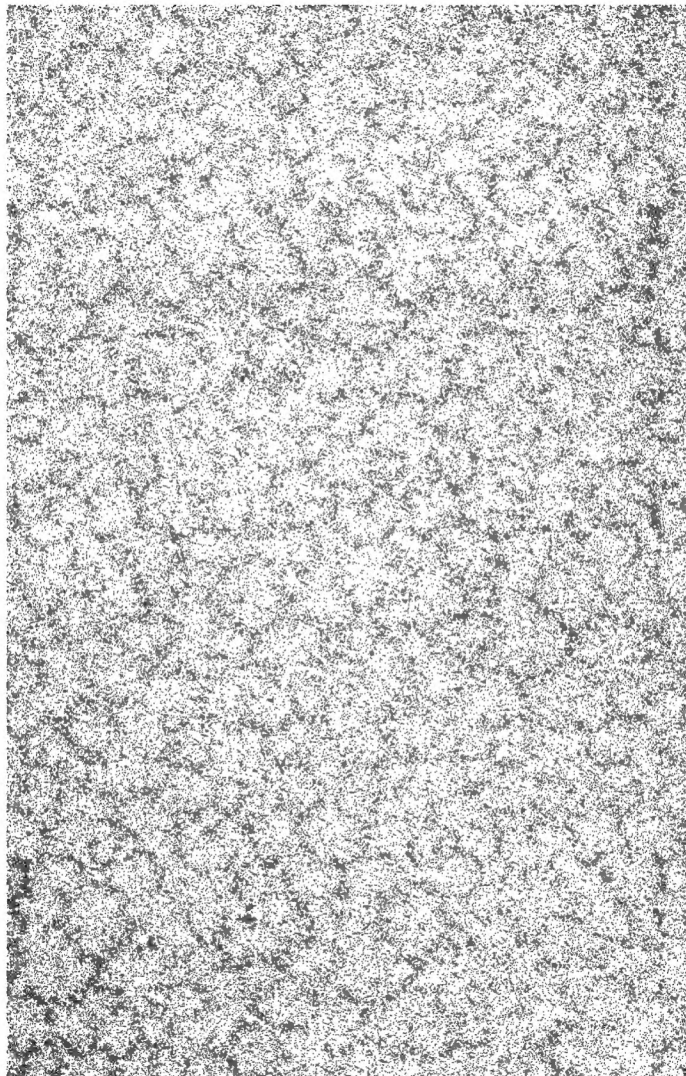


Biblioteca Nacional de España



0170232





اهداءات ٢٩٩٩

مُتَرَبِّية

ا.د. محمد الحميد وحدي

القاضي بمساعدة العدل الدولية

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع الأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن نصر بن أبي الفرج

الجزء التاسع

الطبعة

نطبعة دار الكتب المصرية

١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

فهرس الجزء التاسع

تفسير سورة هود

صفحة

القول بمكيته . الترغيب في تلاوتها يوم الجمعة . الأحاديث الواردة في أنها شيت
النبي صلى الله عليه وسلم وتأويل ذلك . أقوال الصحوين في تنوين لفظ «هود»

وعدم تنوينه إذا جعل اسمًا للسورة ١

تفسير قوله تعالى : « أَلَمْ تَكُنْ أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ ... » الآيات . بيان معنى إحكام
الآيات وتفصيلها . ما قيل في عطف التوبة على الاستغفار . الاستغفار

بلا إقلاص توبة الكذابين . معنى المتاع الحسن . الأقوال في الأجل المسمى ... ٢

تفسير قوله تعالى : « أَلَا إِنَّهُمْ يَمْتَنُونْ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ... » الآية . سبب
نزولها . القراءات في « يمتنون » ومعناها ٤

تفسير قوله تعالى : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ... » الآية .
معنى « على » في الآية . ظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص ، أوهى عامة .

وجه نظم الآية بما قبلها . معنى الدابة . حقيقة الرزق . لا يجوز أن يكون
الرزق بمعنى الملك . قصة الأشعرين لما هاجروا وقدموا على النبي صلى الله

عليه وسلم وقد نفذ زادهم . الأقوال في المستقر والمستودع ٦
تفسير قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... » الآية .

بيان أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء . الآثار في بدء الخلق ... ٨
تفسير قوله تعالى : « وَلَئِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أَمَةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ... »

الآية . معنى الأمة هنا وأصلها . الأمة اسم مشترك يقال على ثمانية أوجه ... ٩
تفسير قوله تعالى : « وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْخَسُ

كَقُورٍ ... » الآيات ١٠

تفسير قوله تعالى : « فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ ... » الآيات . سبب
النزل . من قال : « لولا أنزل عليه كثر أو جاء معه ملك » هو عبد الله

ابن أبي أمية الخزرجي ١١

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ... » الآية . فيه مسائل : هل « كان » هنا زائدة ، أو هي في موضع جزم بالشرط .
- ١٣ اختلاف العلماء في تأويل الآية
- تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ... » الآية . إشارة الآية الى التخليد في النار . تأويلها إذا أريد بها المؤمن . آقتضاؤها
- ١٥ الوحيد بسلب الإيمان
- تفسير قوله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ... » الآية .
- ١٦ أقوال العلماء في الذي على بينة والشاهد
- تفسير قوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ... » الآيات . الكلام على الأشهاد
- ١٨ تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين خسروا أنفسهم ... » الآيات . أقوال العلماء
- ٢٠ في إعراب « لا جرم » ومعناها
- تفسير قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة ... » الآيات . بيان معنى الإخبات وأصله . الحكمة في ذكر
- ٢١ قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وسلم
- تفسير قوله تعالى : « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثنا ... » الآية . فيه مسائل : بيان معنى « الملأ » . مفرد « أراذل » « رذل » أو « أرذل » . معنى الرذل في اللغة والمراد به هنا . اختلاف العلماء في تعيين السفلة . التماك من السفلة أم لا
- ٢٢
- تفسير قوله تعالى : « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ... » الآيات ...
- ٢٥ تفسير قوله تعالى : « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ... » الآيات ...
- ٢٧ تفسير قوله تعالى : « وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ... » الآيات
- ٢٩ تفسير قوله تعالى : « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ... » الآيات .
- ٣٠ قصة السفينة
- تفسير قوله تعالى : « وقال اركبوا فيها بأسم الله مجريها ومرساها ... » الآيات .
- ٣٦

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « ونادى نوح ربه فقال رب إن أبني من أهلي ... » الآيات .
فيه مسائل : بيان استحلال نداء نوح عليه السلام لأبنه . هل كانت خيانة
أمرأته له في الفراش ، أو في إختيار قومها بفوران التنور . في الآية تسلية للخلق
في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين . فيها دليل على أن الابن من الأهل لنفسه
وشرعا . فيها دليل على أن الولد للفراش على القول بأن الولد كان أبن أمرأته ... ٤٥
- تفسير قوله تعالى : « وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله
غيره ... » الآيات . عاد آمن رجل آتسبوا إليه . كان قوم هود أهل بساتين
وزروع وعمارة . كانت مساكنهم الرمال ٤٩
- تفسير قوله تعالى : « وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من
إله غيره ... » الآية . فيه مسائل : اختلاف القراءة في صرف ثمود وعدم
صرفه . بيان معنى الاستمرار هنا . المعاني في كلمة استغفل . العمري وحكمها
عند الفقهاء ٥٥
- تفسير قوله تعالى : « قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ... » الآيات ... ٥٨
- تفسير قوله تعالى : « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام ... »
الآيات . في قوله تعالى : « فمالئت أن جاء بعجل حنيذ » مسائل : الكلام على
الضيافة . الجمهور على أن المراد بضحك سارة هو الضحك المعروف لا الخيض .
التسمية في أول الطعام والحمد في آخره مشروع في الأمم قبلنا ٦٢
- تفسير قوله تعالى : « قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ... » الآية .
فيه مستلطان : أصل « يا ويلتا » ودلالاتها ٦٩
- تفسير قوله تعالى : « قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل
البيت ... » الآية . فيه مسائل : إنكار الملائكة على سارة تعجبها من أمر الله .
في الآية دليل لأكثر العلماء على أن الذبيح إسماعيل . فيها دليل على أن زوجة
الرجل من أهل البيت . فيها دليل على أن منتهى السلام وبركاته ٧٠
- تفسير قوله تعالى : « فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى بمجادلتنا في قوم
لوط ... » الآيات . ما قيل في مجادلة إبراهيم عليه السلام للرملة ٧٣

- تفسير قوله تعالى : « ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ... » الآيات . قصة لوط عليه السلام . هل بناته كن من صلبه ، أو المراد بهن جملة النساء ، أو كان الكلام مدافعة . ليس ألف « أطهر » للتفضيل ٧٣
- تفسير قوله تعالى : « وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره ... » الآيات . مدين بنو مدين ، أو أنه أسم مذيتهم فسبوا إليها . قوم شعيب عليه السلام كانوا يقطعون الدراهم والدنانير أيضا . قاطع الدراهم والدنانير ترد شهادته ويعاقب ٨٤
- تفسير قوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ... » الآيات ... ٩٣
- تفسير قوله تعالى : « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ... » الآيات . اختلاف العلماء في تأويل : « مادامت السموات والأرض » . اختلافهم في استثناء :
- « إلا ما شاء ربك » على عشرة أقوال ٩٤
- تفسير قوله تعالى : « وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم ... » الآية . اختلاف القراء في قراءة « وإن كلا لما » ١٠٤
- تفسير قوله تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظالموا فتمسكم النار ... » الآية . فيه مسائل : حقيقة الركون والمراد به هنا . القراءة في « تركنوا » . دلالة الآية على هجران أهل الكفر والمعاصي . محبتهم عن ضرورة مباحة ١٠٧
- تفسير قوله تعالى : « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ... » الآية . فيه مسائل : المراد بالصلاة هنا المفروضة . الرد على من زعم من الصوفية أن المراد بها استغراق الأوقات بالعبادة فرضا وفلا . اختلاف العلماء في المراد بطرفي النهار . المحسنات ها هنا هي الصلوات الخمس أو هي عامة . سبب نزول الآية رجل من الأنصار خلا بإمرأة فقيها . دلت الآية على أن القبيلة الحرام لا يجب فيها الحد . الصلاة ذكرت في القرآن جملة وبينها النبي صلى الله عليه وسلم ... ١٠٨
- تفسير قوله تعالى : « وأصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ... » الآيات ... ١١٣
- تفسير قوله تعالى : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ... » الآيات ١١٤
- تفسير قوله تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ... » الآيات ١١٦

تفسير سورة يوسف عليه السلام

منه

- تفسير قوله تعالى : « آتاك آيات الكتاب المبين ... » الآيات . السورة مكية كلها
 أو لا أربع آيات منها . سبب نزول السورة ... ١١٨ ...
 تفسير قوله تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص ... » الآية . اختلاف
 العلماء في تسمية هذه السورة بأحسن القصص ... ١١٩ ...
 تفسير قوله تعالى : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا ... » الآية .
 ذكر أسماء الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام ... ١٢٠ ...
 تفسير قوله تعالى : « قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك
 كيذا ... » الآية . فيه مسائل : الكلام على الرؤيا ... ١٢١ ...
 تفسير قوله تعالى : « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ... » الآية .
 معنى الاجتهاد وأصله . كان تفسير رؤيا يوسف عليه السلام بعد أربعين سنة
 تفسير قوله تعالى : « لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ... » الآيات .
 السائلون عن قصة يوسف هم اليهود بالمدينة . أسماء إخوة يوسف وعددهم .
 اختلافهم في القائل بقتل يوسف أو طرحه ... ١٢٢ ...
 تفسير قوله تعالى : « قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الحب يقطعله
 بعض السيرة ... » الآية . فيه مسائل : الاختلاف في القائل بطرح يوسف
 في الحب . تدمير إخوة يوسف يدل على أنهم لم يكونوا أنبياء . معنى الاكتقاط
 والكلام على اللقطة والضوال ... ١٢٣ ...
 تفسير قوله تعالى : « قالوا يا أبانا مالك لا تأمننا على يوسف ... » الآيات ... ١٢٤ ...
 تفسير قوله تعالى : « قال إنى ليحزنى أن تذهبوا به ... » الآيات ... ١٢٥ ...
 تفسير قوله تعالى : « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يحملوه في غيابة الحب ... » الآية
 تفسير قوله تعالى : « وجاءوا أباهم عشاء يبكون » . فيه مستلذان : بيان سبب
 مجيئهم ليلا ، ووقع الخبر عند يقوب عليه السلام . في الآية دليل على أن بكاء
 المرء لا يدل على صدق مقاله ... ١٢٦ ...

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ... » الآية . فيه مسائل : الكلام على المسابقة . مسابقة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر ... ١٤٥
- تفسير قوله تعالى : « وجاءوا على قيصه بدم كذب ... » الآية . فيه مسائل : الدم الكذب كان دم مخطئة أو جدى ذبحوه . استدلال يعقوب عليه السلام بسلامة التميمي على كذبهم . استدلال الفقهاء بهذه الآية على إعمال الأمارات في مسائل من الفقه ١٤٩
- تفسير قوله تعالى : « وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ... » الآية ... ١٥٢
- تفسير قوله تعالى : « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ... » الآية . فيه مسائل : اختلاف العلماء في معنى « بخس » هنا . أصل النقيدين الوزن . اختلاف العلماء في الدراهم والدنانير هل تعين أولا . في الآية دليل على جواز شراء الشيء بالخطيئة بالثمن اليسير ... ١٥٤
- تفسير قوله تعالى : « وقال الذى اشتراه من مصر لامراته أكرمى مثواه ... » الآية ١٥٧
- تفسير قوله تعالى : « ولم يبلغ أشده آتناه حكما وعلما ... » الآية ... ١٦١
- تفسير قوله تعالى : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه » الآيات ... ١٦٢
- تفسير قوله تعالى : « وأستبقا الباب وقدت قيصه من دبر ... » الآية . فيه مسئلتان : في الآية دليل على القياس والعمل بالعرف ... ١٧٠
- تفسير قوله تعالى : « قال هى راودتنى عن نفسى ... » الآيات . فيه مسائل : الاختلاف في الشاهد . إذا كان الشاهد طفلا فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات . قول محمد في متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل ... ١٧٢
- تفسير قوله تعالى : « وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ... » الآيات ... ١٧٥
- تفسير قوله تعالى : « قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ... » الآيات ... ١٨٤
- تفسير قوله تعالى : « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه ... » الآية . فيه مسائل : بيان علامات براءة يوسف . مقدار المدة التى أقامها فى السجن . حكم ما إذا أكره الرجل على الزنى ... ١٨٦

- تفسير قوله تعالى : « ودخل معه السجن فتيان ... » الآيات . مواساة يوسف لأهل
 ١٨٨ السجن . قصة الخليز والساق
 تفسير قوله تعالى : « يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد
 ١٩٢ القهار ... » الآيات
 تفسير قوله تعالى : « يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقر به نهما ... » الآية . فيه مسئلتان :
 تأويل رؤيا الساق والخليز . من كذب في رؤياه ففسرها له العابر أليزمها حكمها
 ١٩٣ تفسير قوله تعالى : « وقال للذي ظن أنه ناج منهما أذكرني عند ربك ... » الآية .
 فيه مسائل : الظن هنا بمعنى اليقين ، أو هو على بابه . النهى عن دماء السيد
 بالرب ، والمملوك بالعبد . الأقوال في تفسير البضع . في الآية دليل على جواز
 ١٩٤ التعاقب بالأسباب
 تفسير قوله تعالى : « وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ... » الآية
 ٢٠٠ تفسير قوله تعالى : « قالوا أضغاث أحلام ... » الآية
 ٢٠١ تفسير قوله تعالى : « وقال الذي نجا منهما وأدكر بعد أمة أنا أنبيكم بتأويله ... » الآيات
 تفسير قوله تعالى : « قال تزرعون سبع سنين دأبا ... » الآية . الآية أصل في القول
 بالمصالح الشرعية
 ٢٠٢ تفسير قوله تعالى : « ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ... » الآية . الآية أصل
 في صحة رؤيا الكافر
 ٢٠٤ تفسير قوله تعالى : « وقال الملك أئتوني به أستخلصه لنفسي ... » الآية
 ٢١٠ تفسير قوله تعالى : « قال أجمعني على خزائن الأرض ... » الآية . فيه مسائل :
 بيان تقليد يوسف الإمارة وترويعه زليخا . في الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن
 يعمل للرجل الفاجر والسلطان الكافر . وفيها دليل على جواز أن يخاطب الإنسان
 ٢١٢ عملا يكون له أهلا
 ٢١٧ تفسير قوله تعالى : « وكذلك مكأ ليوسف في الأرض يتبوا منها حيث يشاء ... » الآيات
 ٢٢٠ تفسير قوله تعالى : « وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم ... » الآيات
 تفسير قوله تعالى : « قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله ... » الآية .
 ٢٢٥ الآية أصل في جواز الجمالة بالعين والوثيقة بالنفس

- تفسير قوله تعالى : « وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد ... » الآية . فيه مسائل :
 ٢٢٥ التحرز من العين . واجب المسلم إذا أعجبه شئ أن يترك ...
 ٢٢٨ تفسير قوله تعالى : « ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ... » الآيات ...
 تفسير قوله تعالى : « قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ... » الآيات . فيه مسائل :
 ٢٣١ الكلام على الجعل والكفالة ...
 ٢٣٤ تفسير قوله تعالى : « قالوا تافقه لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض ... » الآيات ...
 تفسير قوله تعالى : « فبدأ بأوعيتهم قبل وطاء أخيه ... » الآية . فيها دليل على جواز
 التوصل إلى الأغراض بالحيل إذا لم يخالف شريعة . للرجل أن يتصرف
 في ماله قبل حلول الحول إذا لم ينو الفرار من الصدقة ...
 ٢٣٥ تفسير قوله تعالى : « قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ... » الآيات ...
 ٢٣٨ تفسير قوله تعالى : « أرجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن أنسك سرق ... » الآية .
 تضمنت الآية جواز الشهادة . الكلام على الشهادات ...
 ٢٤٤ تفسير قوله تعالى : « وأسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ... » الآية .
 فيها دليل على أن للإنسان أن يرفع التهمة عن نفسه إن كان على حق ...
 ٢٤٥ تفسير قوله تعالى : « قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ... » الآية .
 الواجب على المسلم أن يتلقى المصائب بالصبر الجميل ...
 ٢٤٦ تفسير قوله تعالى : « وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف ... » الآية . الالتفات
 في الصلاة نقص فيها . أجوبة العلماء عن معنى شدة حزن يعقوب عليه السلام
 ٢٤٧ تفسير قوله تعالى : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف ... » الآيات ...
 ٢٤٩ تفسير قوله تعالى : « فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مستأأهلنا الضر ... » الآية .
 فيها دليل على جواز الشكوى عند الضر . وفيها دليل على أن أجرة الكيال
 والوزان على البائع ...
 ٢٥٢ تفسير قوله تعالى : « قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ... » الآيات ...
 ٢٥٥ تفسير قوله تعالى : « ورفع أبويه على العرش ونحروا له بجنبا ... » الآية . السجود كان
 آتخاء وقد نسخ في شرعنا . حكم الإشارة بالإصبع في السلام . الترغيب في المصافحة
 ٢٦٤ تفسير قوله تعالى : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ... » الآيات
 ٢٦٩

سورة الرعد

- صفحة
- ٢٧٨ ... تفسير قوله تعالى : « اكسر تلك آيات الكتاب ... » الآيات ...
- ٢٨٠ ... تفسير قوله تعالى : « وهو الذي مد الأرض وجعل فيها روافي وأنها را ... » الآيات
- ... تفسير قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما تزداد ... »
- ... الآيات . اختلاف الفقهاء في حيض الحامل . الحامل تضع حملها لأقل من
- ٢٨٥ ... تسعة أشهر أو أكثر . اختلاف العلماء في أكثر الحمل ...
- ٢٩١ ... تفسير قوله تعالى : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه ... » الآية ...
- ... تفسير قوله تعالى : « هو الذي يرجم البرق خوفاً وطمعاً ... » الآيات . بيان
- ٢٩٥ ... سبب نزول قوله تعالى : « ورسول الصواعق » ...
- ... تفسير قوله تعالى : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم
- ٣٠٠ ... بشيء ... » الآيات ...
- ٣٠٣ ... تفسير قوله تعالى : « قل من رب السموات والأرض قل الله ... » الآية ...
- ٣٠٤ ... تفسير قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ... » الآيات ...
- ... تفسير قوله تعالى : « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » فيه مستلطان :
- ٣٠٧ ... هل الميثاق هنا عام أو خاص . التوكل لا ينافي الأخذ في الأسباب ...
- ٣٠٩ ... تفسير قوله تعالى : « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ... » الآيات ...
- ... تفسير قوله تعالى : « كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم ... » الآية .
- ٣١٧ ... سبب نزولها ...
- ٣١٨ ... تفسير قوله تعالى : « ولو أن قرأنا سيرت به الجبال ... » الآية . سبب نزولها ...
- ٣٢١ ... تفسير قوله تعالى : « ولقد استهزئ برسل من قبلك ... » الآيات ...
- ٣٢٥ ... تفسير قوله تعالى : « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ... » الآيات ...
- ... تفسير قوله تعالى : « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ... »
- ٣٢٧ ... الآية . سبب نزولها . هذه الآية تحض على التكاح ...
- ٣٢٩ ... تفسير قوله تعالى : « يحو الله ما يشاء ويهت ... » الآيات ...

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « آزر كآب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى
النور ... » الآيات ... ٣٣٨
- تفسير قوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات
إلى النور ... » الآيات ... ٣٤١
- تفسير قوله تعالى : « قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض ... » الآيات
٣٤٦
- تفسير قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لرسلم لتخرجنكم من أرضنا أو لتمودن
فى ملتنا ... » الآيات ... ٣٤٨
- تفسير قوله تعالى : « وأسفتحووا وخاب كل جبار عنيد ... » الآيات . ما حكى
من تفاقول الوليد بن يزيد وتمزيقه المصحف ... ٣٤٩
- تفسير قوله تعالى : « مثل الذين كفروا برهم أعمالهم كرماد أشتت به الريح ... » الآيات
٣٥٣
- تفسير قوله تعالى : « ألم تركف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ... » الآيات
٣٥٨
- تفسير قوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ... » الآية ... ٣٦٢
- تفسير قوله تعالى : « ألم ترى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ... » الآيات ، بيان سبب نزولها
٣٦٤
- تفسير قوله تعالى : « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة ... » الآية ... ٣٦٥
- تفسير قوله تعالى : « الله الذى خلق السموات والأرض ... » الآيات ... ٣٦٦
- تفسير قوله تعالى : « ربنا إنى أسكنت من ذريقى بواد غير ذى زرع عند بيتك
المحرم ... » الآية . فيه مسائل : قصة خروج إبراهيم عليه السلام بالسيدة هاجر
وبانها من الشام ، ووضعهما عند البيت الحرام . لا يجوز لأحد أن يتعلق
بالآية فى طرح أولاده بأرض مضية . تضمنت الآية أن الصلاة بمكة أفضل
من الصلاة بغيرها ... ٣٦٨
- تفسير قوله تعالى : « ربنا إناك تعلم ما نخفى وما نعلن ... » الآيات ... ٣٧٤
- تفسير قوله تعالى : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ... » الآيات ... ٣٧٦
- تفسير قوله تعالى : « وأنذر الناس يوم يأتهم المذاب ... » الآيات ... ٣٧٨
- تفسير قوله تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ... » الآيات .. ٣٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة هود عليه السلام

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقادة : إلا آية ؛ وهي قوله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ » . وأسند أبو محمد الديلمي في مسنده عن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقرءوا سورة هود يوم الجمعة » . وروى الترمذى عن ابن عباس قال قال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله قد شبهت ! قال : « شِيتْنِي هُوْدُ وَالرَّافِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَحَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » . قال : هذا حديث حسن غريب ، وقد روى شئ من هذا مرسلًا . وأخرجه الترمذى الحكيم أبو عبد الله في « نوادر الأصول » : حَدَّثَنَا سَفِيَانُ بْنُ وَكَيْعٍ قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشْرٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ صَالِحٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي جُبَيْفَةَ قَالَ : قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ نَرَاكَ قَدْ شَبِهْتَ ! قَالَ : « شِيتْنِي هُوْدُ وَأَخَوَاتُهَا » . قال أبو عبد الله : فالفرع يورث الشَّيْبَ وذلك أن الفرع يُنْزِلُ النَّفْسَ فَيَنْشَفُ رَطوبُهُ الْجَسَدَ ، وَتَحْتَ كُلِّ شَعْرَةٍ مَنِيْعٌ ، وَمِنْهُ يَمْرُقُ ، فَإِذَا نَشَفَ الْفَرْعُ رَطوبَتَهُ يَبْسُتُ الْمَنَاجِمُ فَيَبْسُ الشَّعْرُ فَأَبْيَضَ ؛ كَمَا تَرَى الزَّرْعَ الْأَخْضَرَ يَسْقَاهُ ، فَإِذَا ذَهَبَ سِقَاقُهُ يَبْسُ فَأَبْيَضَ ؛ وَإِنَّمَا يَبْيَضُ شَعْرُ الشَّيْخِ لَذَهَابِ رَطوبَتِهِ وَيُبْسُ جِلْدُهُ ، فَالنَّفْسُ تَذْهَلُ بِوَعْدِ اللَّهِ ، وَأَهْوَالُ مَا جَاءَ بِهِ الْخَبَرُ عَنْ اللَّهِ ، فَتَذْبَلُ ، وَيُنْشَفُ مَا هَا ذَلِكَ الْوَعْدُ وَالْمَوَلُ الَّذِي جَاءَ بِهِ ؛ فَهُوَ تَشْيِبُ . وقال الله تعالى : « يَوْمًا يُجْعَلُ الْوِلْدَانُ شَيْبًا » فإنما شابوا من الفرع . وإنما سورة « هود » فإنما فيها ذكر الأئم ، وبما حل بهم من حاجل بأمر الله تعالى ، فاهل اليقين إذا تلوها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولخفاته البطش بأعدائه ، فلو ماتوا من الفرع لحق لهم ، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يُلْطِفُ بِهِمْ فِي تِلْكَ الْأَحْيَانِ حَتَّى يَقْرَءُوا كَلَامَهُ . وإنما أخواتها ما أشبهها من السور ، مثل « الحاقة » و « سأل سائل » و « إذا الشمس كورت »

وقد يقع اسم الجنس على النوع ؛ فيقال : أكلت طعام زيد ؛ أى بعض طعامه . وقال
الجنين وأبو العالية : « أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ » بالأمر والنهى ((ثُمَّ فَصَّلَتْ)) بالوعد والوفيد
والنواب والمقاب . وقال قتادة : أحكمها الله من الباطل ، ثم فصلها بالحلل والحرام .
بجاهد : أحكت جملة ، ثم يثبت بذكر آية آية بجميع ما يحتاج إليه من الدليل على التوحيد
والنبوة والبعث وغيرها . وقيل : جمعت فى اللوح المحفوظ ، ثم فصلت فى التنزيل . وقيل :
« فَصَّلَتْ » نزلت فجاءت بما تشدّد . وقرأ عكرمة « فَصَّلَتْ » مخففا أى حكمت بالحق . ((مِنْ لَدُنْ))
أى من عند . ((حَكِيم)) أى محكم للأموار . ((خَبِير)) بكل كائن وغير كائن .

قوله تعالى : ((أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)) قال الكسائي والفراء : أى بالا ، أى أحكت
ثم فصلت بالا تعبدوا إلا الله . قال الزجاج : لثلا ، أى أحكت ثم فصلت لثلا تعبدوا إلا
الله . قيل : أمر رسوله أن يقول للناس ألا تعبدوا إلا الله . ((إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ)) أى من الله .
((نَذِيرٌ)) أى مخوف من عذابه وسخطه لمن عصاه . ((وَيَشِيرُ)) بالرضوان والجنة لمن أطاعه .
وقيل : هو من قول الله أولا وآخرا ؛ أى لا تعبدوا إلا الله إنى لكم منه نذير ، أى الله نذير
لكم من عبادة غيره ، كما قال : « وَيَحذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ » .

قوله تعالى : ((وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ)) عطف على الأول . ((ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ)) أى
أرجعوا إليه بالطاعة والعبادة . قال الفراء : « ثم » هنا بمعنى الواو ؛ أى وتوبوا إليه ؛ لأن
الاستغفار هو التوبة ، والتوبة هى الاستغفار . وقيل : استغفروهم من سالف ذنوبكم ،
وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم . قال بعض الصلحاء : الاستغفار بلا إقلاع توبة
الكاذبين . وقد تقدم هذا المعنى فى « آل عمران » مستوفى . وفى « البقرة » عند قوله :
« وَلَا تَحْمِلُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُومًا » . وقيل : إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هى الغرض
المطلوب ، والتوبة هى السبب إليها ؛ فالمغفرة أول فى المطلوب وآخر فى السبب . ويحتمل
أن يكون المعنى استغفروهم من الصغائر ، وتوبوا إليه من الكبائر . ((يَمْتَنِعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا))

هذه ثمرة الاستغفار والتوبة ، أى يمتنع بالمتاع من سعة الرزق ورغد العيش ، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بن أهلك قبلكم . وقيل : يمتنع بكم ، وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه أمتع الله بك ومتع . وقال سهل بن عبد الله : المتاع الحسن ترك الخلق والإقبال على الحق . وقيل : هو القناعة بالموجود ، وترك الحزن على المفقود . (إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) قيل : هو الموت . وقيل : القيامة . وقيل : دخول الجنة . والمتاع الحسن على هذا وقاية كل مكروه وأمر مخوف . مما يكون في القبر وغيره من أهوال القيامة وكربها ، والأول أظهر لقوله فى هذه السورة : « وَيَأْتِيهِمْ رُبُّكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » . وقيل : هو الموت وهو الأجل المسمى . والله أعلم . قال مقاتل : فأبوا فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابتلوا بالقطط سبع سنين حتى أكلوا العظام المحرقة والفقر والجيف والكلاب . (وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) أى يؤت كل ذى عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله . وقيل : ويؤت كل من فضلت حسنته على سيئاته « فَضْلَهُ » أى الجنة . وهى فضل الله ، فالكتابة فى قوله : « فَضْلَهُ » ترجع إلى الله تعالى . وقال مجاهد : هو ما يحسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه ، أو عمل يعمل به بيده أو رجله ، أو ما تطوع به من ماله فهو فضل الله ، يؤت ذلك إذا آمن ، ولا يتقبله منه إن كان كافرا . (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَنَاقٍ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) أى يوم القيامة ، وهو كبير لما فيه من الأهوال . وقيل : اليوم الكبير هو يوم بدر وغيره : و « تَوَلَّوْا » يحوز أن يكون ماضيا ويكون المعنى : وإن تولوا فقل لهم إني أخاف عليكم . ويحوز أن يكون مستقبلا حذف منه إحدى التائين والمعنى : قل لهم إن تولوا فإني أخاف عليكم .

قوله تعالى : (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ) أى بعد الموت . (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) من ثواب وعقاب .

قوله تعالى : أَلَا إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ بِمَا هُمْ صَادِقُونَ لَيْسَتْ خِفَافًا مِنْهُ إِلَّا حِينَ يَنْتَشِرُونَ شَيْئَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْسِرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ إِلَّا اللَّهُ عَالِمُ الْغُيُوبِ (١٠)

قوله تعالى : « **أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ** » أخبر عن معادة المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم . « **يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ** » أى يطوئونها على عداوة المسلمين فقيه هذا الحذف ، قال ابن عباس : يخفون ما فى صدورهم من الشحناء والعداوة ، ويظهرون خلافه . نزلت فى الأخنس بن شريق ، وكان رجلا حلو الكلام حلو المنطق ، باقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب ، وينطوى له قلبه على ما يسوء . وقال مجاهد : « **يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ** » شكاً وأمتراء . وقال الحسن : يتبونها على ما فيها من الكفر . وقيل : نزلت فى بعض المنافقين ، كان إذا مرّ بالنبي صلى الله عليه وسلم ففى صدره وظهره ، وطأاً رأسه وغطى وجهه ، لئلا يراه النبي صلى الله عليه وسلم فيدعوه إلى الإيمان ، حكى معناه عن عبد الله بن شداد فإلهاء فى « منه » تعود على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : قال المنافقون إذا غلقنا أبوابنا ، وآستشينا ثيابنا ، وثبتنا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا ؟ فزلت الآية . وقيل : إن قوماً من المسلمين كانوا يتنسكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فبين الله تعالى أن التنسك ما أشتمت عليه قلوبهم من معتقد ، وأظهروه من قول وعمل . وروى ابن جرير عن محمد بن عباد بن جعفر قال سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : « **أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ** » قال : كانوا لا يمايعون النساء ، ولا يأتون الفناط وهم يقضون إلى السماء ، فزلت هذه الآية . وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس : « **أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ** » بغير نون بعد الواو ، فى وزن تنطوى ، ومعنى « **يَتَّبِعُونَ** » والقراءتين الآخرين متقارب ، لأنها لا تتنوى حتى يتنوها . وقيل : كان بعضهم يخفى على بعض يساره فى الطعن على المسلمين ، وبلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفى على الله تعالى .

(١) فى الأصل : « **يَتَّبِعُونَ** » بغير نون بعد الواو فى وزن تنطوى ، وهو يخالف ما فى صحيح البخارى وتفسير الطبري عن محمد بن عباد ، فقد صوّبناه عنهما ؛ وأما رواية « **يَتَّبِعُونَ** » المذكورة بالأصل فقد نسبها ابن عطية إلى ابن عبيد ، ويضده ما فى (إعراب القرآن للحاس) حيث قال : وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس « **أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ** » بغير نون بعد الواو فى وزن تنطوى ... الخ ، وهى البارة الآتية بالأصل . وتعقب بعض المفسرين هذه القراءة بأنها غلط فى النقل لا تجميع . راجع روح المعاني والبحر وتفسير ابن عطية .

« لَيْسَتْ قُوتُوا » أى ليتواروا عنه ؛ أى عن محمد أو عن الله . ﴿ الْآخِينَ يَسْتَنْشُونَ بِأَبْهَمٍ ﴾^(١)
أى يُنْظَرُونَ رُؤُسَهُمْ بِأَبْهَمٍ . قال قتادة : أخفى ما يكون العبد إذا حَتَّى ظَهَرَ ، واستنشى
ثوبه ؛ وأصغر في نفسه همه .

قوله تعالى : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ
مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ « ٢٠ » فى « من » زائدة
و « دابة » فى موضع رفع ؛ التقدير : وما دابة . « إِلَّا عَلَى اللَّهِ » « على » بمعنى « من » ، أى
من الله رزقها ؛ يدل عليه قول مجاهد : كُلُّ مَا جَاءَهَا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ . وقيل : « على الله » أى
فضلا لا وجوبا . وقيل : وعدا منه حقا . وقد تقدم بيان هذا المعنى فى « النساء » وأنه
سبحانه لا يجب عليه شيء . « رِزْقُهَا » رفع بالابتداء ، وعند الكوفيين بالصفة ؛ وظاهر الآية
العموم ومعناها مخصوص ؛ لأن كثيرا من الدواب هلك قبل أن يُرْزَق . وقيل : هى عامة ،
وكل دابة لم ترزق رزقا تعيش به فقد رُزِقت رُوحها ؛ ووجه النظم بما قبل : أنه سبحانه أخبر
برزق الجميع ، وأنه لا يغفل عن تربيته ، فكيف تخفى عليه أحوالكم يا معشر الكفار وهو
برزقكم ؟ والدابة كل حيوان يَدْب . والرزق حقيقته ما يتغذى به الحي ، ويكون فيه بقاء
روحه ونماء جسده . ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك ؛ لأن البهائم تُرْزَق وليس يصح
وصفها بأنها مالهكة لملقها ؛ وهكذا الأطفال تُرْزَق اللبن ولا يقال إن اللبن الذى فى الثدي
ملك للطفل . وقال تعالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » وليس لنا فى السماء ملك ؛ ولأن الرزق
لو كان ملكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك
محال ؛ لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه . وقد تقدم فى « البقرة » هذا المعنى والحمد لله .
وقيل لبعضهم : من أين تأكل ؟ فقال : الذى خلق الرزق يأتينا بالطعين ، والذى شدد

(١) رابح ج ٥ ص ٢٧٣ طبة أول ارفاقية .

(٢) رابع ج ١ ص ١٧٧ وما بعدها طبة ثانية ارفاقية .

الأشدق هو خالق الأرزاق . وقيل لأبي أسيد : من أين تأكل ؟ فقال : سبحانه الله والله أكبر ! إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد ! . وقيل لحاتم الأحم : من أين تأكل ؟ فقال : من عند الله ؛ فقيل له : الله يترك لك دنائير ودرهم من السماء ؟ فقال : كأن ماله إلا السماء ! يا هذا الأرض له والسماء له ؛ فإن لم يؤت رزق من السماء ساقه لي من الأرض ؛ وأنشد :

وكيف أخاف الفقر والله رازقي * ورازق هذا الخلق في العسير والبسير
تَكْفُل بالأرزاق الخلق كلهم * وللضب في البيداء والحوت في البحر

وذكر الترمذي الحكيم في «نوار الأصول» بإسناده عن زيد بن أسلم : أن الأشعرين أبا موسى وأبا مالك وأبا طمر في نفر منهم ، لما هاجروا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وقد أرمَلُوا^(١) من الزاد ، ف أرسلوا رجلا منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله . فلما انتهى إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يقرأ هذه الآية « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » فقال الرجل : ما الأشعريون بأهون السواب على الله ؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لأصحابه : أيسروا أتاكم القوت ، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعده ؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما مملوءة خبزا ولحما فاكلوا منها ما شاعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : لو أنا رددنا هذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضى به حاجتنا ؛ فقالوا الرجلين : أذهب بهذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإننا قد قضينا منه حاجتنا ، ثم إنهم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ما رأينا طعاما أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به ؛ قال : « ما أرسلت إليكم طعاما » فآخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم ؛ فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فآخبره ما صنع ، وما قال لهم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك شيء رزقكوه الله » .

(١) أرمَلوا من الزاد ؛ أي قد زادم ؛ وأصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل ؛ كما قيل لتغير الترتيب :

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ أى من الأرض حيث نأوى إليه . (١) وَمُسْتَوْدَعُهَا ﴿ أى الموضع الذى تموت فيه فتدفن ؟ قاله مَقْسَمٌ عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال الربيع ابن أنس : « مستقرها » أيام حياتها . « ومستودعها » حيث تموت وحيث تبعث . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : « مستقرها » فى الرِّحْم . « ومستودعها » فى الصُّلب . وقيل : « يعلم مستقرها » فى الجنة أو فى النار . « ومستودعها » فى القبر ؛ يدل عليه قوله تعالى فى وصف أهل الجنة وأهل النار : « حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » « وَسَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » . ﴿ كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ لَأَنْتُمْ مُبَعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١﴾ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ تقدم فى « الأعراف » بيانه والحمد لله . ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ بين أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء . قال كعب : خلق الله ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبه فصارت ماء يرتعد من مخافة الله تعالى ؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ساكنا ، ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ، ثم وضع العرش على الماء . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : إنه سئل عن قوله عز وجل : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ فقال : على أى شيء كان الماء ؟ قال : على متن الريح . وروى البخارى عن عمران بن حصين . قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه قوم من بني تميم فقال : « أقبلوا البشرى يا بنى تميم » قالوا : بَشَرَتَنَا فَاعِطْنَا [مرتين] فدخل ناس من أهل اليمن فقال : « أقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم » قالوا : قِيلَنا ، جئنا لتفقه فى الدين ، وللسالك عن هذا الأمر ما كان ؟ قال : « كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب

(١) راجع ج ٧ ص ٢١٨ وما بعدها طبعه أدل أو ثابته . (٢) الزيادة عن صحيح البخارى .

في الذِّكْر كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ أَغْنَى رَجُلٌ قَقَال : يَا عِمرَان أدرك ناقطك فقد ذهبت ، فانطلقت أطلبها فإذا هي يقطعُ دونها السَّرَابُ ؛ وَأَيْمُ اللَّهِ لَوِ دِدْتُ أَنَا قَدْ ذَهَبْتُ وَلَمْ أَقُمْ .

قوله تعالى : ﴿ لِيَسْأَلُوْكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أي خلق ذلك لِيَبْتَلِي عِبَادَهُ بِالْإِعْتِبَارِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَلَى الْبَيْتِ ، وقال قَتَادَةُ : معنى « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أَيْمٌ عَقْلًا ، وقال الحسن وسفيان الثَّوْرِيُّ : أَيُّكُمْ أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا ، وَذَكَرَ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّ بِرَجُلٍ نَائِمٍ فَقَالَ : يَا نَائِمُ قُمْ فَمَعْبُدٌ ، فَقَالَ : يَا رُوحَ اللَّهِ قَدْ تَعَبَّدْتُ ، فَقَالَ : « وَمَا تَعَبَّدْتَ ؟ » قَالَ : قَدْ تَرَكْتُ الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا ، قَالَ : ثُمَّ قَدْ فَتَّ الْعَابِدِينَ ، الصَّبَاطُ : أَيُّكُمْ أَكْثَرُ شُكْرًا .

مقاتل : أَيُّكُمْ أَتَى اللَّهَ . أَبُو عَباس : أَيُّكُمْ أَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ عز وجل ، وَرَوَى عَنْ أَبِي عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » قَالَ : « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَقْلًا وَأَرْوَعَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ وَأَسْرَعَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ » بَجَمْعِ الْأَقْوَابِلِ كُلِّهَا ، وَسَيَأْتِي فِي « الْكَهْفِ »^(١) هَذَا أَيْضًا إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى الْإِبْتِلَاءِ . ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ أي دَلَّلْتَ يَا مُحَمَّدُ عَلَى الْبَيْتِ ﴿ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ وَذَكَرْتَ ذَلِكَ لِلشَّرْكَينَ لِنُفَالُوا : هَذَا صَحْرٌ ، وَكَسِرَتْ « إِنَّ » لِأَنَّهَا بَعْدَ الْقَوْلِ مُبْتَدَأَةٌ ، وَحَكَى سَيَبَوِيهِ الْفَتْحَ . ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فَتَحَتْ اللَّامُ لِأَنَّهُ فَعَلٌ مُتَقَدِّمٌ لَا ضَمِيرَ فِيهِ ، وَبَعْدَهُ « لَيَقُولَنَّ » لِأَنَّهُ فِيهِ ضَمِيرٌ ، وَ﴿ يَسْجُرُّ ﴾ أي غُرُورٌ بِاطِلٍ ، لِإِبْطَالِ السَّحْرِ عِنْدَهُمْ ، وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكَسَاءُ « إِنَّ هَذَا إِلَّا سَاحِرٌ مُبِينٌ » كِتَابَةُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ . إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿ ٨ ﴾

.. قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ لِلَّامِ فِي « لَئِنْ » لِلتَّسْمِ ، وَالْجَوَابُ « لَيَقُولُنَّ » . وَمَعْنَى « إِلَى أُمَّةٍ » إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ وَحِينَ مَعْلُومٌ ، فَلِأَنَّ هُنَا

(١) راجع المسئلة الثانية في تفسير قوله تعالى : « إِنَّا بَاسِلُونَ عَلَى الْأَرْضِ زَيْتَةً لَهَا » آية ٧ .

الملة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين . وأصل الأئمة الجماعة ؛ فعبّر عن
الحسين والسنتين بالأئمة لأن الأئمة تكون فيها . وقيل : هو على حذف المضاف ؛ والمعنى
إلى مجيء أئمة ليس فيها من يؤمن فيستحقون الهلاك . أو إلى أنقراض أئمة فيها من يؤمن
فلا يبقى بعد أنقراضها من يؤمن . والأئمة اسم مشترك يقال على ثمانية أوجه ؛ فالأئمة
تكون الجماعة ؛ كقوله تعالى : « وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ » . والأئمة أيضا أتباع
الأنبياء عليهم السلام . والأئمة الرجل الجامع للخير الذي يقتدى به ؛ كقوله تعالى : « إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا » . والأئمة الدين والملة ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى
أُمَّةٍ » . والأئمة الحسين والزمان ؛ كقوله تعالى : « وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ »
وكذلك قوله تعالى : « وَأَدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » . والأئمة القامة ، وهو طول الإنسان وارتفاعه ؛ يقال من
ذلك : فلان حسن الأئمة أى القامة . والأئمة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يشتركه فيه أحد ؛
قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يُعَيِّمُ زَيْدٌ بَنَ عَمْرٍو بَنَ نُفَيْلٍ أُمَّةً وَحِدَهُ » . والأئمة الأم ؛ يقال :
هذه أئمة زيد ، يعنى أم زيد ، (لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ) يعنى العذاب ؛ وقالوا هذا إما تكذيبا للعذاب
لأنهم عنهم ، أو استعجالا واستهزاء ؛ أى مالىذى يحبسهم عنا . « أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا
عَنَّهُمْ » قيل : هو قتل المشركين ببدن ؛ وقتل جبريل المستهزين على ما باتى . (وَحَاقَ بِهِمْ)
أى نزل وأحاط . (مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أى جزاء ما كانوا به يستهزئون ، والمضاد محذوف .
قوله تعالى : وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ رَزَعْنَاهَا مِنهُ
إِنَّهُ لَيَكْفُرُ بِكُفْرٍ كَثِيرٍ ﴿١٠﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَكُولُنَّ
دَهَبَ السَّيِّغَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١١﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً) الإنسان اسم شائع للجنس فى جميع
الكفار . ويقال : إن الإنسان هنا الوليد بن المغيرة وفيه نزلة . وقيل : فى عبد الله بن أبى
(١) (يعنى زيد أئمة) لأنه كان تبرا من أديان المشركون ، وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل مجيئه .

أَمِيمُ الْخَزَوِيِّ . « رحمة » أى نعمة . (ثُمَّ رَزَعْنَاهَا مِنْهُ) أى سلبناها إياه . (إِنَّهُ لَيُؤَسِّرُ) أى يأْس من الرحمة (كَقُورٍ) للنعم حاجد لها ؛ قاله ابن الأعرابي . النحاس : « لِيُؤَسِّرَ » من يَأْس يَأْسُ ؛ وحكى سيبويه يَأْس يَأْسُ على فَعِل يَفْعَل ، ونظيره حَسِب يحْسِب ويَعِم يَعِم ، ويَأْس يَأْسُ ؛ وبعضهم يقول : يَأْس يَأْسُ ؛ لا يصرف في الكلام إلا هذه الأربعة الأحراف من السالم جاءت على فَعِل يَفْعِل ؛ وفى واحد منها اختلاف ، وهو يَأْسُ و « يَأْسُ » على التكسير كقصور للبالغة .

قوله تعالى : (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُمْ نِعْمَاءَ) أى صحة وبرحاء وسعة في الرزق . (بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَهْ) أى بعد ضر وفقر وشدة . (لَيَقُولُنَّ نَحْنُ السَّابِقَاتُ) أى الخطايا التى تسوء صاحبها من الضر والفقر . (إِنَّهُ لَفَرِحٌ بُحُورٌ) أى يفرح ويفرح بما ناله من السعة وينسى شكر الله عليه ؛ يقال : رجل فاجر إذا افتخر — وفخور للبالغة — قال يعقوب القارئ : وقرأ بعض أهل المدينة « لَفَرِحَ » بضم الراء كما يقال : رجل فطن وحذو ونُدُس . ويحوز فى كتابنا الفلطين الإسكان لثقل الضمة والكسرة .

قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا) يعنى المؤمنين ، مدخهم بالصبر على الشدائد . وهو فى موضع نصب . قال الأخفش : هو استثناء ليس من الأول ؛ أى لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فى حالى النعمة والمحنة . وقال الفراء : هو استثناء من « وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ » أى من الإنسان ، فإن الإنسان يعنى الناس ، والناس يشمل الكافر والمؤمن ؛ فهو استثناء متصل وهو حسن . (أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) ابتداء وخبر . (وَأَجْرٌ) معطوف . (كَبِيرٌ) صفة .

قوله تعالى : فَالْعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١١﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشِيرٍ سِوَىٰ مِثْلِهِ مَفْتَونٍ وَأَدْعُوا مَن أَسْتَعْطَعُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ أى فلما لك لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب توهم أنهم يزولونك عن بعض ما أنت عليه . وقيل : إنهم لما قالوا « لولا أنزل عليه كُتُورٌ أو جاء معه ملكٌ » هم أن يدع سب آلهتهم فزلت هذه الآية ؛ فالكلام معناه الاستفهام ؛ أى هل أنت تارك ما فيه سب آلهتهم كما سالوك ؟ وتأكد عليه الأمر في الإبلاغ ؛ كقوله : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » . وقيل : معنى الكلام النفي مع استبعاد ؛ أى لا يكون منك ذلك ، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك ؛ وذلك أن مشركي مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سب آلهتنا لاتبعناك ، فهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدع سب آلهتهم ؛ فزلت .

قوله تعالى : ﴿ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ عطف على « تارك » و « صدرك » مرهفوع به ، والماء في « به » تعود على « ما » أو على بعض ، أو على التبليغ ، أو التكذيب . وقال : « ضائق » ولم يقل ضيق ليشاكل « تارك » الذى قبله ؛ ولأن الضائق عارض ، والضيق أزم منه ، ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ فى موضع نصب ؛ أى كراهية أن يقولوا ، كقوله : « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا » أى لتلا تضلوا . أولان يقولوا (لولا) أى هلا (أنزل عليه كُتُورٌ أو جاء معه ملكٌ) يصدقه ؛ قاله عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة المخزومي ؛ فقال الله تعالى : يا عبد (إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ) إنما عليك أن تنذرهم ، لا بأن تأتهم بما يفترونه من الآيات . (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) أى حافظ وشهيد .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْهُ ﴾ « أم » بمعنى بل ، وقد تقدم فى « يونس »^(١) أى قد أزعجت عليهم وإشكالم فى نبؤك بهذا القرآن ، وحججهم به ؛ فإن قالوا : افتريته — أى آخلفتك — فليأثروا بمثله مفترى بزمهم . (وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أى من لا ينفعهم من دون الله من الكهنة والأعوان .

قوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمُوا أَلَمْ أَنْزِلْ يُعْلِمِ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

(١) فى تفسير قوله تعالى : « أم يقولون اقترأه ... » آية ٣٨ .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ أى فى المعارضة ولم تنبأ لهم فقد قامت عليهم
 الحجة ، إذ هم البشر البلاء ، وأصحاب الألسن الفصحاء . ﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾
 وأعلموا بصدق محمد ، وأعلموا ﴿ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَبَلَّ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ استفهام معناه الأمر .
 وقد تقدم القول فى معنى هذه الآية ، وأن القرآن معجز فى مقدمة الكتاب . والحمد لله . وقال :
 « قُلْ فَأْتُوا » وبعده « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ » ولم يقل لك ؛ ف قيل : هو على تحويل المخاطبة
 من الأفراد ، إلى الجمع تعظيما وفخيا ؛ وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة . وقيل :
 الضمير فى « لكم » وفى « فأعلموا » للجميع ؛ أى فليعلم الجميع « أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » ؛ قاله مجاهد .
 وقيل : الضمير فى « لكم » وفى « فأعلموا » للشركين ؛ والمعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعونه
 إلى المعاونة ، ولا تنهات لكم المعارضة « فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » . وقيل : الضمير فى « لكم »
 للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وفى « فأعلموا » للشركين .

قوله تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفٌ لِّإِيْتِمَنِ
 أَعْمَلُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ ﴾ ^(١) كاف زائدة ، ولهذا جزم الجواب فقال :
 ﴿ نُوفٌ لِّإِيْتِمَنِ ﴾ قاله الفراء . وقال الزجاج : « مَن كَانَ » فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه
 « نُوفٌ لِّإِيْتِمَنِ » أى من يكن يريد ، والأول فى اللفظ ماض والثانى مستقبل ، كما قال زهير :
 وَنَّ هَابَ أَسْبَابِ الْمَنِيَّةِ يَلْقَاهَا * وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّيِّئِ بِسُلْمٍ

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ ف قيل : نزلت فى الكفار ؛ قاله الضحاك ، واختاره
 النحاس ؛ بدليل الآية التى بعدها « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَسْهُمُ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ » أى من أتى
 منهم بمصلحة رحيمة أو صدقة تكافئه بها فى الدنيا ، بمصلحة الجسم ، وكثرة الرزق ، لكن لا حسنة

(١) قال فى البحر : ولعله لا يصح إذ لو كانت زائدة لكان فعل الشرط « يريد » ، وكان يكون مجزوما .

له في الآخرة . وقد تقدم هذا المعنى في « برائة » مستوفى . وقيل المراد بالآية المؤمنون ؛ أى من أراد بعمله ثواب الدنيا فحُجِّل له الثواب ولم يُنقص شيئا في الدنيا ، وله في الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا ، وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » فالعبد إنما يعطى على وجه قصده ، وبحكم صميمه ؛ وهذا أمر متفق عليه في الأئمة بين كل ملة . وقيل : هو لأهل الرياء ؛ وفي الخبر أنه يقال لأهل الرياء « ضُئِمَ وصليتهم وتصدقتهم وجاهدتهم وقرأتهم ليقال ذلك فقد قيل ذلك » ثم قال : « إن هؤلاء أول من تُسعر بهم النار » . رواه أبو هريرة ، ثم بكى بكاء شديدا وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا » وقرأ الآيتين ، نحرجه مسلم بمعناه والتزمذى أيضا . وقيل : الآية عامة في كل من ينوى بعمله غير الله تعالى ، كان معه أصل إيمان أو لم يكن ؛ قاله مجاهد وميمون بن مهران ، وإليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى . وقال ميمون بن مهران : ليس أحد يعمل حسنة إلا وُقِيَ ثوابها ؛ فإن كان مسلما غلصا وُقِيَ في الدنيا والآخرة ، وإن كان كافرا وُقِيَ في الدنيا . وقيل : من كان يريد [الدنيا] بغزوه مع النبي صلى الله عليه وسلم وُقِيَها ، أى وُقِيَ أجر الغزاة ولم يُنقص منها ؛ وهذا خصوص والصحيح العموم .

الثانية — قال بعض العلماء : معنى هذه الآية قوله عليه السلام : « إنما الأعمال بالنيات » . وتدل هذه الآية على أن من صام في رمضان لا عن رمضان لا يقع عن رمضان ، وتدل على أن من توضأ للتبرد والتنظيف لا يقع قربة عن جهة الصلاة ، وهكذا كل ما كان في معناه .

الثالثة — ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة ؛ وكذلك الآية التي في « الشورى » : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » الآية . وكذلك « مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » فيها وفسرها التي في « سبحة » : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ » إلى قوله : « محظورا » فأخبر سبحانه أن العبد ينوى ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد ، وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما

في قوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أنها منسوخة بقوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَآخِذَ » .
والصحيح ما ذكرناه ؛ وأنه من باب الإطلاق والتقييد ؛ ومثله قوله : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي
عَنِّي لَأَقُلَّ قُرْبُ أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » فهذا ظاهره خبر عن إجابة كل داع دأما
على كل حال ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ » . والنسخ
في الأخبار لا يجوز ؛ لاستحالة تبديل الواجبات العقلية ، ولا استحالة الكذب على الله تعالى ؛
فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه ، على ما هو مذكور
في الأصول ؛ ويأتي في « النحل » ^(١) بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ) إشارة إلى التخليد ، والمؤمن
لا يُخلَّد ؛ لقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ » الآية . فهو
محلول على ما كانت موافاة هذا المرائي على الكفر ، وقيل : المعنى ليس لهم إلا النار في أيام
معلومة ثم يخرج ؛ إما بالشفاعة ، وإما بالقبضة . والآية تقتضي الوعيد بسلب الإيمان ؛
وفي الحديث [الماضي] ^(٢) يريد الكفر وخاصة الرياء ؛ إذ هو شرك على ما تقدم بيانه في « النساء »
ويأتي في آخر « الكهف » . (وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ابتداء وخبر ؛ قال أبو حاتم :
وسُئِلَ الهاء ؛ قال النحاس : هذا لا يحتاج إلى حذف ؛ لأنه بمعنى المصدر ؛ أي وباطل عمله ؛
وفي حرف أبي وعبد الله « وَبَاطِلًا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وتكون « ما » زائدة ؛ أي وكانوا
يعملون باطلا .

(١) في المسئلة الثانية من تفسير قوله تعالى : « ومن ثمرة التخليل والأعقاب تخلدون منه سكرًا ... » آية ٦٧ .

(٢) في الأصل (الماضي) وهو محريف ، والمراد بالحديث الماضي حديث أبي هريرة المتقدم في عمل البراءة
فهم وصلتم ... » (٣) راجع ج ٥ ص ٢٢ طيبة أولى وأخيرة .

(٤) في تفسير قوله تعالى : « فمن كان ينجو لقاءه فليعمل عملا صالحا ... » آية ١١٠ .

قوله تعالى : **أَفَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ**
وَمِن قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن
يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ قَالَنَارُ مَوْعِدِهِ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : **(أَفَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ)** ابتداء وأنجز عذوف ؛ أى أفن كان على
 بيّنة من ربه فى اتباع النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعه من الفضل ما تبين به كغيره من يريد
 الحياة الدنيا وزينتها ؟! عن بن على بن الحسين والحسن بن أبى الحسن . وكذلك قال ابن زيد :
 إن الذى على بيّنة من أتبع النبى صلى الله عليه وسلم . **(وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ)** من الله ، وهو
 النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل المراد بقوله : **« أفن كان على بيّنة من ربه »** النبى صلى الله
 عليه وسلم ، والكلام راجع إلى قوله : **« وَصَافِيٌّ بِهِ صَدْرُكَ »** ؛ أى أفن كان معه بيان من الله ،
 ومعجزة كالقرآن ، ومعه شاهد بكبريل — على ما يأتى — وقد بشرت به الكتب السالفة يضيّق
 صدره بالإبلاغ ، وهو يعلم أن الله لا يسأله . والهاء فى **« ربه »** تعود عليه . وقوله :
« وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ » روى عكرمة عن ابن عباس أنه جبريل ؛ وهو قول مجاهد والنخعي .
 والهاء فى **« منه »** لله عز وجل ؛ أى ويتلو البيان والبرهان شاهد من الله عز وجل .
 وقال مجاهد : الشاهد ملك من الله عز وجل يحفظه ويستدّه . وقال الحسن البصرى وقتادة :
 الشاهد لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال محمد بن على بن الحنفية : قلت لأبى أنت
 الشاهد ؟ فقال : وددت أن أكون أنا هو ، ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 وقيل : هو على بن أبى طالب ؛ روى عن ابن عباس أنه قال : هو على بن أبى طالب ؛
 وروى عن على أنه قال : ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان ؛ فقال
 له رجل : أى شئ نزل فيك ؟ فقال على : **« وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ »** . وقيل : الشاهد هو
 صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه وخالفه ؛ لأن من كان له فضل وعقل فنظر إلى

النبي صلى الله عليه وسلم علم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فاطمأ على هذا ترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، على قول ابن زيد وغيره . وقيل : الشاهد القرآن في نظمته وبلاغته ، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد ؛ قاله الحسين بن الفضل ، فالحاء في « منه » للقرآن . وقال الفراء قال بعضهم : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » الإنجيل ، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق ؛ والحاء في « منه » لله عز وجل . وقيل : البينة معرفة الله التي أشرقت لها القلوب ، والشاهد الذي يتلوه العقل الذي رُكب في دماغه وأشرق صدره بنوره . (وَمِنْ قَبْلِهِ) أى من قبل الإنجيل . (يَكْتُابُ مُوسَى) رفع بالابتداء ، قال أبو إسحق الزجاج : والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم موصوف في كتاب موسى « يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ » . وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ « وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى » بالنصب ؛ وحكاها المهدوى عن الكلبي ؛ يكون معطوفاً على الحاء في « يتلوه » والمعنى : ويتلو كتاب موسى جبريل عليه السلام ؛ وكذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما ؛ المعنى من قبله تلا جبريل كتاب موسى على موسى . ويجوز على ما ذكره ابن عباس أيضاً من هذا القول أن يُرفع « كتاب » على أن يكون المعنى : ومن قبله كتاب موسى كذلك ؛ أى تلاه جبريل على موسى كما تلا القرآن على محمد . (إِمَامًا) نصب على الحال . (وَرَحْمَةً) معطوف . (أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) إشارة إلى بنى إسرائيل ، أى يؤمنون بما في التوراة من البشارة بك ؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتناحرون فهم الذين موعدهم النار ؛ حكاه التشيرى . والحاء في « به » يجوز أن تكون للقرآن ، ويجوز أن تكون للنبي صلى الله عليه وسلم . (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ) أى بالقرآن أو بالنبي عليه السلام . (مِنَ الْأَحْزَابِ) معنى من الملل كلها ؛ عن قتادة ؛ وكنا قال سعيد بن جبير : « الأحزاب » أهل الأديان كلها ؛ لأنهم يتحاربون . وقيل : قريش وحلفائهم . (قَالَتِ الرَّسُولُ) أى هو من أهل النار ؛ وأنشد

حسان :

أوردتموها حياض الموت ضاحية * فالنار موعدها والموت لاقبها

وفي صحيح مسلم من حديث أبي يونس عن النبي صلى الله عليه وسلم : "والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني [ثم يموت^(١)] ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار" . (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ) أى في شك . (مِنْهُ) أى من القرآن . (إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) أى القرآن من الله ؛ قاله مقاتل . وقال الكلبي : المعنى فلا تك في مرية في أن الكافر في النار . « إِنَّهُ الْحَقُّ » أى القول الحق الكائن ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد جميع المكلفين .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٥٦﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) أى لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذباً ، فاضافوا كلامه إلى غيره ، وزعموا أن له شريكا وولدا ، وقالوا للأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله . (أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ) أى يحاسبهم على أعمالهم . (وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ) يعنى الملائكة الحفظة ؛ عن مجاهد وغيره ؛ وقال سفيان : سألت الأعمش عن « الأشهاد » فقال : الملائكة . الضحاك : هم الأنبياء والمرسلون ؛ دليله قوله : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » . وقيل : الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلغوا الرسالات . وقال قتادة : عنى الخلائق أجمع . وفي صحيح مسلم من حديث صفوان بن محرز عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه قال : " وأما الكفار والمنافقون فینادی بهم علی رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله " . (أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) أى بعدد ومخطئه وإباده من رحمته على الذين وضعوا العبادة في غير موضعها .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يجوز أن تكون «الذين» في موضع خفض نعتا للظالمين ، ويجوز أن تكون في موضع رفع ، أى هم الذين . وقيل : هو ابتداء خطاب من الله تعالى ، أى الذين يصدون أنفسهم وضربهم عن الإيمان والطاعة . ﴿ وَيَعْتَوِيهَا عِوَجًا ﴾ أى يدلون بالناس عنها إلى المعاصي والشرك . ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أعاد لفظ « هم » تأكيداً .

قوله تعالى : أُولَئِكَ لَا يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءُ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَا يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فائتين من عذاب الله . وقال ابن عباس : لم يعجزوني أن أمر الأرض فتضعف بهم . ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى أنصاراً ، و « من » زائدة . وقيل : « ما » بمعنى الذى تقديره : أولئك لم يكونوا معجزين لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله ، وهو قول ابن عباس رضى الله عنها . ﴿ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ ﴾ أى على قدر كفرهم ومعاصيهم . ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ « ما » في موضع نصب على أن يكون المعنى : بما كانوا يستطيعون السمع . ﴿ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ ولم يستعملوا ذلك في استماع الحق وإبصاره . والعرب تقول : جزيته ما فعل وما فعل ، فيحذفون الباء مرة ويثبتونها أخرى ، وأنشد سيبويه :^(١)

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَأَفْعَلُ مَا أَمَرْتُ بِهِ * فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَسَبٍ

ويجوز أن تكون « ما » ظرفاً ، والمعنى : يضاعف لهم أبداً ، أى وقت استطاعتهم السمع والبصر ، والله سبحانه يعلمهم في جهنم مستطيعي ذلك أبداً . ويجوز أن تكون « ما » نافية لا موضع لها ، إذ الكلام قد تم قبلها ، والوقف على العذاب كافٍ ، والمعنى : ما كانوا

(١) البيت لسمر بن مدى كرب الأديب . أراد (بالخير) خلف ووصل الفعل ونصب . والنسب : المال

الثابت كالنبيذ ونحوها . وقيل : النسب جميع المال ، فيكون صفة على الأول ، بالغة تأكيداً . (شواهد سيبويه) .

يستطيعون في الدنيا أن يسمعوا مما ينفعون به، ولا أن يصيروا إبصار مهتد . قال الفراء : ما كانوا يستطيعون السمع ؛ لأن الله أצלهم في اللوح المحفوظ . وقال الزجاج : لبغضهم النبي صلى الله عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفقهوا عنه . قال النحاس : وهذا معروف في كلام العرب ؛ يقال : فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان إذا كان ذلك ثقيلًا عليه .

قوله تعالى : **أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ** ﴿٣١﴾ لا يجرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴿٣٢﴾
قوله تعالى : **(أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ)** ابتداء وخبر . **(وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ)** أى ضاع عنهم أقتراؤهم وتلف .

قوله تعالى : **(لَا يَجْرَمُ)** للعلماء فيها أقوال ؛ فقال الخليل وسيبويه : « لَا يَجْرَمُ » بمعنى حق ، « قَلَّا » و « جَرَّمَ » عندهما كلمة واحدة ، و « أَت » عندهما في موضع رفع ؛ وهذا قول الفراء ومحمد بن يزيد ؛ حكاه النحاس . قال المهلوى : وعن الخليل أيضا أن معناها لا بد ولا محالة ، وهو قول الفراء أيضا ؛ ذكره الثعلبي . وقال الزجاج : « لا » هاهنا نفي ؛ وهو رد لقولهم : إن الأصنام تنفعهم ؛ كآك المعنى لا ينفعهم ذلك ، وجرم بمعنى كسب ؛ أى كسب ذلك الفعل لم الخمران ، وقابل كسب مضمر ، و « أَت » منصوبة بيجرم ، كما تقول : كسب جفأؤك زيدا غضبه عليك ؛ وقال الشاعر :

نصبنا رأسه في جُدْع تَحِيل * بما جرمت يده وما آخذينا

أى بما كسبت . وقال الكسائي : معنى « لَا يَجْرَمُ » لا صد ولا منع عن أنهم . وقيل : المعنى لا قطع قاطع ، لخذف الفاعل حين كثر استعماله ؛ والجزم القطع ؛ وقد جرم النخل وأجتره أى صرمه فهو جارم ، وقوم جرم وجزام وهذا زمن الجرام والجرام ، وجرمت صوف الشاة أى جزئته ، وقد جرمت منه أى أخذت منه ؛ مثل جالمت الشيء جالما أى قطعت ،

وجاءت الجزور أجملها جَلَمًا إذا أخذت ما على عظامها من اللحم، وأخذت الشيء بجماعته — ساكنة اللام — إذا أخذته أجمع، وهذه جملة الجزور — بالحريك — أى لجمها أجمع، قاله الجوهري. قال النحاس: وزعم الكسائي أن فيها أربع لغات: لا جرم، ولا عن ذا جرم، ولا أن ذا جرم، قال: بنو عامر يقولون لا ذا جرم، قال: بنو عامر يقولون: لا جراتهم بغير ميم. وحكى الفراء فيه لغتين آخرين قال: بنو عامر يقولون لا ذا جرم، قال: بنو عامر يقولون: لا جرم بضم الجيم.

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)** «الذين» اسم «إِنَّ» و«آمَنُوا» صلة، أى صدقوا. **(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ)** عطف على الصلة. قال ابن عباس: أخبتوا أنابوا. مجاهد: أطاعوا. قتادة: خشعوا وخضعوا. مقاتل: أخلصوا. الحسن: الإخبات الخشوع للخافة الثابتة في القلب؛ وأصل الإخبات الاستواء، من انخبت وهو الأرض المستوية الواسعة؛ فالإخبات الخشوع والاطمئنان، أو الإجابة إلى الله عز وجل المستمرة ذلك على استواء. «إِلَىٰ رَبِّهِمْ» قال الفراء: إلى ربهم ولربهم واحد، وقد يكون المعنى: وجهوا إخباتهم إلى ربهم. **(أُولَٰئِكَ)** خبر «إِنَّ».

قوله تعالى: **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى: **(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ)** ابتداء، والخبر **(كَالْأَعْمَىٰ)** وما بعده. قال الأخفش: أى كمثل الأعشى. النحاس: التقدير مثل فريق الكافر **[كَالْأَعْمَىٰ]** ^(١) والأصم، ومثل فريق المؤمن كالسميع والبصير؛ ولهذا قال: **(هَلْ يَسْتَوِيَانِ)** فرد إلى الفريقين وهما أشنان؛

روى معناه عن قتادة وغيره، قال الضحاك : الأعمى والأصم مثل الكافر . والسميع والبصير مثل المؤمن . وقيل : المعنى هل يستوى الأعمى والبصير ، وهل يستوى الأصم والسميع .
(مثلاً) منصوب على التمييز . (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) في الوصفين وتنتظرون .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتَىٰ لَكَ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾
أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْمِ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ) ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وسلم تنبيها له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم .
(إِنِّي) أى فقال : إِنِّي ؛ لأن في الإرسال معنى القول . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي «أَنِّي» بفتح الهمزة أى أرسلناه بآى لكم نذير مبين . ولم يقل «إنه» لأنه رجع من النبوة إلى خطاب نوح لقومه ؛ كما قال : «وَكُنْتُمْ لَهُ فِي الْأَوَّاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» ثم قال : «تَخَذَهَا يَقُوَّةً» .
قوله تعالى : (إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) أى أتروا الأصنام فلا تعبدوها ، وأطيعوا الله وحده . ومن قرأ «إِنِّي» بالكسر جعله معترضا في الكلام ، والمعنى أرسلناه بالا تعبدوا [إلا الله] . (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْمِ) .

قوله تعالى : فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا تَرَىٰكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا بِأَدَىٰ الْأَرَىٰ وَمَا تَرَىٰ لَكَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكَ كَاذِبِينَ ﴿١٧﴾
فيه أربع مسائل :

- الأولى — قوله تعالى : (فَقَالَ الْمَلَأُ) قال أبو إسحق الزجاج : الملا رؤساء ؛ أى هم مليئون بما يقولون . وقد تقدم هذا في «البقرة» وغيرها . (مَا تَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا) أى (١) قال ابن حطية : وفي هذا نظر ، وإنما هي حكاية غاطلة لقومه ، وليس هذا حقيقة الخروج من غيبة إلى غاطلة ، ولو كان الكلام أن أنظم أرنحوه لصح ذلك .
(٢) داجع ٣ ص ٢٤٣ طيبة أولى أو ثانية .

آدمياً، (مِثْلُنَا) نصب على الحال. و « مثلاً » مضاف إلى معرفة وهو نكرة يقدر فيه التثوين؛ كما قال الشاعر :

* يَا رَبُّ مِثْلَكَ فِي النَّسَاءِ غَيْرِيَّة *

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَزَاكَّ أَتَيْتَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْزِلُوا ﴾ أرادوا جمع أرادوا وأرادوا جمع أرادوا ؛ مثل كَلَبَ وَأَكَلَبَ وَأَكَّالَبَ . وقيل : الأراذل جمع الأَرْدَل ، كَأَسَوْد جمع الأَسَوْد من الحيات . والأَرْدَل التَّذَلُّ ؛ أرادوا أتيتك أَيْسَاؤُنَا وَسَقَطُنَا وسَفَلُنَا . قال الزجاج : نسبهم إلى الحيَاكة ؛ ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها في الدبابة . قال النحاس : الأراذل هم الفقراء ، والذين لا حسب لهم ، والخسيسو الصناعات . وفي الحديث ” إنهم كانوا حاكّةً ورجّامين “ . وكان هذا جهلا منهم ؛ لأنهم طابوا نبي الله صلى الله عليه وسلم بما لا يحب فيه ؛ لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، إنما عليهم أن يأتوا بالبراهين والآيات ، وليس عليهم تغيير الصور والهيئات ، وهم يرسلون إلى الناس جميعا ، فإذا أسلم منهم الدنيا لم يلحقهم من ذلك نقصان ؛ لأن عليهم أن يقبلوا إسلام كل من أسلم منهم .

قلت : الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء ؛ كما قال هِرَقْل لأبي سفيان : أشراف الناس أتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ؛ فقال : هم أتباع الرسل . قال علماءنا ؛ إنما كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف ، وصعوبة الإنفكاك عنها ، والألفة من الاقتياد للغير ؛ والفقير خلى عن تلك الموانع ، فهو سريع إلى الإجابة والاقتياد . وهذا غالب أحوال أهل الدنيا .

الثالثة — اختلف العلماء في تعيين السفلة على أقوال ؛ فذكر ابن المبارك عن سفيان أن السفلة هم الذين يَتَقَلَّسُونَ^(٢) ، ويأتون أبواب القضاة والسلاطين يطلبون الشهادات .

(١) هو أبو جَحْبَنَ الثَّقَفِي ، وقام له بيت :

* يَضَاءُ قَدْ مَتَّيَّ بِطَلَق *

الفرية : المفرة بين العيش . ومَتَّيَّ : أصلا ما تستع به عند طلاقها .

(٢) التقليل : استقبال الرلاة عند تقديمهم بأصناف الهوى .

وقال ثعلب عن ابن الأعرابي: السفلة الذي يأكل الدنيا دينه؛ قيل له: فمن سفلة السفلة؟ قال: الذي يصلح دنياه غيره بفساد دينه. وسئل على رضى الله عنه عن السفلة فقال: الذين إذا اجتمعوا ظفروا، وإذا تفرقوا لم يعرفوا. وقيل لمالك بن أنس رضى الله عنه: من السفلة؟ قال: الذي يسب الصحابة. وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما: الأرذلون الحاككة والتجامون. يحيى بن أكرم: الدباغ والكثاس إذا كان من غير العرب.

الرابعة — إذا قالت المرأة لزوجها: يا سَفِلَة، فقال: إن كنتُ منهم فأنيت طالق؛ فحكي النقاش أن رجلا جاء إلى الترمذى فقال: إن امرأتى قالت لى يا سَفِلَة، فقلت: إن كنتُ سَفِلَة فأنيت طالق؛ قال الترمذى: ما صناعتك؟ قال: ستاك؛ قال: سَفِلَة والله، سَفِلَة والله.

قلت: وعلى ما ذكره ابن المبارك عن سفيان لا تطلق، وكذلك على قول مالك وابن الأعرابي لا يلزمه شيء.

قوله تعالى: ((بَادِيَ الرَّأْيِ)) أى ظاهر الرأى، وباطنهم على خلاف ذلك. يقال: بدا يبدو إذا ظهر؛ كما قال:

* فالיום حين بَدُونُ للنظار *

ويقال للبرية بادية لظهورها. وبدا لى أن أفعل كذا، أى ظهر لى رأى غير الأول. وقال الأزهري: معناه فيا يبدو لنا من الرأى. ويموز أن يكون «بَادِيَ الرَّأْيِ» من بدأ يبدأ وحذف الهمزة. وحقق أبو عمرو الهمزة فقرأ «بَادِيَ الرَّأْيِ» أى أول الرأى؛ أى أتبعوك حين أتبدعوا ينظرون، ولو آمنوا النظر والفكر لم يتبعوك؛ ولا يختلف المعنى ها هنا بالهمز وترك الهمز. وانتصب على حذف «فى» كما قال عز وجل: «وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ». ((وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ)) أى فى أتباعه؛ وهذا مجدهم لنبوته. ((بَلْ تَنْظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)) الخطاب لنوح ومن آمن معه.

قوله تعالى : قَالَ يَقَوْمِ اَرَأَيْتُمْ اِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ اِنَّزِلُكُمْ مَعَهَا وَاتَّبِعْهَا كدِهْرُونَ ﴿١٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا اِنْ اُجِرِيَ اِلَّا عَلَىٰ اِلَٰهِ وَمَا اَنَا بِطَارِدِ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا اِنَّهُمْ مِّلْكُوْا رَبِّيْمْ وَلَكِنِّيْ اُرْسِلُكُمْ قَوْمًا يَّجَاهِلُوْنَ ﴿١٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِيْ مِنَ اِلَٰهِ اِنْ طَرَدْتُمْهُمْ افَلَا تَذَكَّرُوْنَ ﴿٢٠﴾ وَلَا اَقُوْلُ لَكُمْ عِشْيَٰى يُخَآيُنُ اِلَٰهًا وَلَا اَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا اَقُوْلُ اِنِّيْ مَلَكٌ وَلَا اَقُوْلُ لِلَّذِيْنَ تَزِدُّوْا عُيُوْثَكُمْ لَنْ يُؤَيِّسَهُمُ اِلَٰهُ خَيْرًا اِلَٰهُ اَعْلَمُ بِمَا فِىْ اَنْفُسِهِمْ اِنِّىْ اِذَا لَمِنَ الظَّالِمِيْنَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِن رَّيٍّ) أى على يقين ؛ قاله أبو عمران الجوني . وقيل : على معجزة ؛ وقد تقدم في « الأنعام » هذا المعنى . (وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ) أى نبوة ورسالة ؛ عن ابن عباس ؛ وهى رحمة على الخلق . وقيل : الهداية إلى الله بالبراهين . وقيل : الإيمان والإسلام . (فَعَمَّيْتُ طَلِيكَم) أى غميت عليكم الرسالة والهداية فلم تفهموها . يقال : غميتُ عن كذا ، وعَمِيَ على كذا أى لم أفهمه . والمعنى : فعَمَّيت الرحمة ؛ فقيل : هو مقلوب ؛ لأن الرحمة لا تَعَمَى إنما يُعَمَى عنها ؛ فهو كقولك : أدخلت الرحمة ؛ فقيل : هو مقلوب ؛ لأن الرحمة لا تَعَمَى إنما يُعَمَى عنها ؛ فهو كقولك : أدخلت في القلنسوة رأسى ، ودخل الخلف في رجل . وقرأها الأعمش وحزرة والكسائي « فَعَمَّيْتُ » بضم العين وتشديد الميم على ما لم يُسمَّ فاعله ؛ أى فعماها الله طليكم ؛ وكنا فى قراءة أبي « فَعَمَّاهَا » ذكرها الماوردي . (أَنزَلْنَاهُ لَكُمُوهَا) قيل : شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : الهاء ترجع إلى الرحمة . وقيل : إلى البينة ؛ أى أنزلكم قبولها ، وأوجبها عليكم ؟ ! وهو استفهام بمعنى الإنكار ؛ أى لا يمكنى أن أضطركم إلى المعرفة بها ؛ وإنما قصد نوح عليه السلام بهذا القول

أن يرد عليهم . وحكى الكسائي والفراء « أَنْزَلِمُكُّوْهَا » بإسكان الميم الأولى تخفيفاً ؛ وقد أجاز مثل هذا سيويه ، وأُشْد : ^(١)

فَالْيَوْمَ أَشْرَبُ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ * إِنَّمَا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَأَعْلَى

وقال النحاس : ويجوز على قول يونس [في غير القرآن ^(٢)] أَنْزَلِمُكُّهَا يجرى المضمر مجرى المظهر ؛ كما تقول : أَنْزَلِمَكْ ذَلِكَ . (وَأَنْتُمْ هَآكَارَهُونَ) أى لا يصح قبولكم لها مع الكراهة عليها . قال قتادة : والله لو أستطاع نبي الله نوح عليه السلام لألزمها قومه ، ولكنه لم يملك ذلك . قوله تعالى : (وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ) أى على التبليغ ، والدعاء إلى الله ، والإيمان به (مَا لَآ) فينقل عليكم . (إِنِّي أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ) أى ثوابي في تبليغ الرسالة . (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا) سألوه أن يطرد الأراذل الذين آمنوا به ، كما سألت قريش النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد الموالى والفقراء ، حسب ما تقدم « في الأنعام » ^(٣) بيانه ؛ فاجابهم بقوله : (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ) يحتمل أن يكون قال هذا على وجه الإعظام لهم بقاء الله عز وجل ، ويحتمل أن يكون قاله على وجه الاختصاص ؛ أى لو فعلت ذلك لخاصصوني عند الله ، فيجازيهم على إيمانهم ، ويجازى من طردهم . (وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَتَّبِعُونَ) في استزدالكهم لهم ، وسؤالكم طردهم .

قوله تعالى : (وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ) قال الفراء : أى يمننى من عذابه . (إِنِّي طَرَدْتُهُمْ) أى لأجل إيمانهم . (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أدغمت التاء في الذال . ويجوز حذفها فنقول : تذكرون .

قوله تعالى : (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) أخبر بتذللته وتواضعه لله عز وجل ، وأنه لا يدعى ما ليس له من خزائن الله ؛ وهى إنعامه على من يشاء من عباده ؛

(١) البيت لامرئ القيس ، والشاهد فيه تسكين الباء من قوله (أشرب) في حال الرفع والوصل . احتجب الإنم واستحقبه احتجبه . والواو اهل على الشراب ولم يدع له . يقول : حلت لي الخمر فلا أثم بشرها إذا قد ريت بنثرى فيها . وكان قد قرأ لا يشربها حتى يدرك فأرأيه .

(٢) الزيادة من النحاس . (٣) راجع ج ٦ ص ٣١ وما بعدها طيبة أولى أو ثالثة .

وأنه لا يعلم الغيب ؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل . (وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ) أى لا أقول إن منزلي عند الناس منزلة الملائكة . وقد قالت العلماء : الفائدة في الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء ؛ لدوامهم على الطاعة ، وأتصال عبادتهم إلى يوم القيامة ، صلوات الله عليهم أجمعين . وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة » . (وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ) أى تستنفل وتحتقر أعينكم ؛ والأصل تزدريهم حذف الهاء والميم لطول الأسم . والدال مبدلة من تاء ؛ لأن الأصل في تزدري تَزَرِّي ، ولكن التاء تبدل بعد الزاي دالا ؛ لأن الزاي مجهورة والتاء مهموسة ، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخارجها . ويقال : أَزَرَيْتُ عليه إذا عيبته . وَذَرَيْتُ عليه إذا حقّرته . وأنشد الفراء :

يُباعده الصديق وتزدريه * حليته ويهتره الصفي

(لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا) أى ليس لاحتماركم لهم تبطل أجورهم ، أو ينقص ثوابهم . (اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ) فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به . (إِنِّي إِذَا لَمِ الظَّالِمِينَ) أى إن قلت هذا الذى تقدم ذكره . « وَإِنَّا » ملغاة ؛ لأنها متوسطة .

قوله تعالى : (قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ) ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا يُخْبِرُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) أى خاصمتنا فاكثرت خصومتنا وبالغت فيها . والجدل في كلام العرب المبالغة في الخصومة ؛ مشتق من الجدل

وهو شدة القتل؛ ويقال للمبقر أيضا أَجَلٌ لشدته في الطير؛ وقد مضى هذا المعنى في «الأُنعام»^(١) بأشبع من هذا. وقرأ ابن عباس «فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا» ذكره النحاس. والجدل في الدين محمود؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قبله نجح وأفلح، ومن رده خاب وخسر. وأما الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فذموم، وصاحبه في التارين ملوم. «فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُّنَا» أي من العذاب. «إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ» في قولك. قوله تعالى: «قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ» أي إن أراد إهلاككم عذبكم. «وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» أي بفائتين. وقيل: بضالين بكثرتم، لأنهم أعجبوا بذلك؛ كانوا ملأوا الأرض سهلا وجبلا على ما يأتي.

قوله تعالى: «وَلَا يَتَّبِعُكُمْ نَصِيحِي» أي ابلاغى وأجتهادى في إيمانكم. «إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ» أي لأنكم لا تقبلون نصحا؛ وقد تقدم في «براءة»^(٢) معنى النصيحة لغة. «إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» أي يضلكم. وهذا مما يدل على بطلان مذهب المعتزلة والقدرية ومن وافقهما؛ إذ زعموا أن الله تعالى لا يريد أن يعصى العاصي، ولا يكفر الكافر، ولا يغوي الغاوي؛ وأنه يفعل ذلك، والله لا يريد ذلك؛ فردَّ الله عليهم بقوله: «إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ». وقد مضى هذا المعنى في «الفاتحة» وغيرها. وقد أكذبوا شيخهم اللعين إبليس على ما بيناه في «الأعراف» في إغواء الله تعالى إياه حيث قال: «فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي» ولا محيص لهم عن قول نوح عليه السلام: «إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» فاضاف إغواءهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ إذ هو الهادي المضل؛ سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون ظلوما كبيرا. وقيل: «أَنْ يُغْوِيَكُمْ» يهلككم؛ لأن الإضلال يُفضي إلى الهلاك. الطبري: «يغويكم» يهلككم بعذابه؛ حكى عن طيء: أصبح فلان غاويا أي مريضا، وأغويته أهلكته؛ ومنه «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا». «هُوَ رَبُّكُمْ» فالله الإغواء، وإليه الهداية. «وَالَّذِينَ تَرْجِعُونَ» تهديد ووعيد.

(١) راجع ج ٧ ص ٧٧ طبعه أول أو ثانية. (٢) في تفسير قوله تعالى: «ليس على الضمفاء....» آية ٩١ (٣) راجع ج ١ ص ١٤٩ طبعه ثانية أو ثالثة؛ ج ٤ ص ٢٠ طبعه أول أو ثانية.

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ ﴾ يعنون النبي صلى الله عليه وسلم . أقرى اقمعل ؛ أى اختلق القرآن من قبل نفسه ، وما أخبر به عن نوح وقومه ؛ قاله مقاتل . وقال ابن عباس : هو من محاوره نوح لقومه وهو أظهر ؛ لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه ؛ فالخطاب منهم ولهم . ﴿ قُلْ إِنْ أَقْرَبْتُهُ ﴾ أى اختلقته واقتلته ، يعنى الوحي والرسالة . ﴿ فَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى عقاب إبراهيم ، وإن كنت محققا فيما أقوله فليكن عقاب تكذيبى . والإبرام مصدر أجرم ؛ وهو اقتراف السيئة . وقيل : المعنى أى جزاء جرئى وكسبى . وجرم وأجرم بمعنى ؛ عن النحاس وغيره . قال :

طريدٌ عشيرة ورعيٌّ جُرم * بما جرمت يدي وجنى لِسَانِي

ومن قرأ « وإبراهيم » بفتح الهمزة ذهب إلى أنه جمع جُرم ؛ وذكره النحاس أيضا . « وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ ﴾ أى من الكفر والتكذيب .

قوله تعالى : وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَحْطَبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ ﴾ « أنه » فى موضع رفع على أنه اسم ما لم يُسم فاعله . ويجوز أن يكون فى موضع نصب ، ويكون التقدير بأنه . و « آمن » فى موضع نصب « يؤمن » ومعنى الكلام الإيأس من إيمانهم ، واستدامة كفرهم ، تحقيقا لنزول الوعيد بهم . قال الضحاك : فلما علمهم لما أخبر بهذا فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » الآيتين . وقيل : إن رجلا من قوم نوح حمل ابنه على كتفه ، فلما رأى الصبي نوحا قال لأبيه : أعطنى حجرا ؛ فأعطاه حجرا ، ورمى به نوحا عليه السلام فأدامه ؛ فأوحى الله تعالى إليه « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ »

آمن . (فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) أى فلا تنغم بهلاكهم حتى تكون بأثنا ؛ أى حزينا .
والبؤس الحزن ؛ ومنه قول الشاعر :

وكم من خليل أو صميم رزئته * فلم أبتئس والرؤ فيه جليل
يقال أبتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه . والأبتأس حزن فى أستكانه .

قوله تعالى : (وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا) أى أعمل السفينة لتركبها أنت ومن آمن
معهك . « بأعيننا » أى بمرأى منا وحيث نراك . وقال الربيع بن أنس : بحفظنا إياك حفظ
من يرأك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : بحراستنا ؛ والمعنى واحد ؛ فعبّر عن الرؤية
بالأعين ؛ لأن الرؤية تكون بها . ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير ؛ كما قال تعالى : « فَنِعْمَ
الْقَادِرُونَ » « فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ » « وَإِنَّا لَمُؤَسَّدُونَ » . وقد يرجع معنى الأعين فى هذه الآية
وضيها إلى معنى عين ؛ كما قال : « وَتُصْنَعُ عَلَى عَيْنِي » وذلك كله عبارة عن الإدراك والإحاطة ،
وهو سبحانه مثله من الخواص والتشبيه والتكليف ؛ لا رب غيره . وقيل : المعنى « بأعيننا »
أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوننا على حفظك ومعونتك ؛ فيكون الجمع على هذا التكثير
على بابيه . وقيل : « بأعيننا » أى بعلمنا ؛ قاله مقاتل : وقال الضحاك وسفيان : « بأعيننا »
بأمرنا . وقيل : بوحينا . وقيل : بمعونتنا لك على صنعها . « ووحينا » أى على ما أوحينا
إليك من صنعها . (وَلَا تَحْطِطِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) أى لا تطلب إهمالهم فإنى
مُغْرَقَهُمْ .

قوله تعالى : وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا
مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿١٥﴾ فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿١٦﴾ حَتَّى إِذَا
جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَاسِتٍ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلَّ ﴾ أى وطلق يصنع . قال زيد بن أسلم : مكث نوح صلى الله عليه وسلم مائة سنة يغرس الشجر ويقطعها ويبسها ، ومائة سنة يعملها . وروى ابن القاسم عن ابن أشرس عن مالك قال : بلغنى أن قوم نوح مَلَكُوا الأرض ، حتى مَلَكُوا السهل والجبل ، فما يستطيع هؤلاء أن يتلوا إلى هؤلاء ، ولا هؤلاء أن يصعدوا إلى هؤلاء ؛ فكثرت نوح يغرس الشجر مائة عام لعمل السفينة ، ثم جمعها ببسها مائة عام ، وقومه يسخرون ؛ وذلك لما راوه يصنع من ذلك ؛ حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان . وروى عن عمرو بن الحارث قال : عمل نوح سفينة ببقاع دمشق ، وقطع خشبها من جبل لبنان . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : لما استنقذ الله سبحانه وتعالى من في الأصلاب والأرحام من المؤمنين أوحى الله إليه « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فأصنع الفلك » قال : يارب ما أنا بتجار ، قال : « بلى فإن ذلك يعينى » فأخذ القيد ففعله ببسده ، وجعلت يده لا تُحطى ، ففعلوا يمزون به ويقولون : هذا الذى يزعم أنه نبي صار تجارا ؛ فعملها في أربعين سنة .

وحكى الثعلبي وأبو نصر القشيري عن ابن عباس قال : اتخذ نوح السفينة في ستين . زاد الثعلبي : وذلك لأنه لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى الله إليه أن أصنعها بكؤجؤ الطائر . وقال كعب : بناها في ثلاثين سنة ، والله أعلم . المهدوي : وجاء في الخبر أن الملائكة كانت تعلمه كيف يصنعها ، وأختلفوا في طولها وعرضها ؛ فعن ابن عباس رضى الله عنهما كان طولها ثلثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ، وبمكها ثلاثون ذراعا ، وكانت من خشب الساج . وكذا قال الكلبي وقتادة وعمره كان طولها ثلثمائة ذراع . والذراع إلى المنيك قاله سلمان الفارسي . وقال الحسن البصري : إن طول السفينة ألف ذراع ومائتا ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع . وحكاها الثعلبي في كتاب العرائس . وروى حلي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال قال الحواريون ليعسى عليه السلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها ، فأطلق بهم حتى أتى إلى كتيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب ، قال أتدرون ما هذا ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : [هذا كعب^(١) حام بن نوح] قال فضرب الكتيب بمصاه وقال : تم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب من رأسه ، وقد شاب ؛ فقال له عيسى : أهلكذا هلكت ؟ قال : لا بل مت وأنا شاب ، ولكنني ظننت أنها السامة فن ثم شبت . قال : أخبرنا عن سفينة نوح ؟ قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستقائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات ، طبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير . وذكر باقي الخبر على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى . وقال الكلب^(٢) فيا حكاة النقاش : ودخل المساء فيها أربعة أذرع ، وكان لها ثلاثة أبواب ؛ باب فيه السباع والطير ، وباب فيه الوحش ، وباب فيه الرجال والنساء . أبى عباس : جعلها ثلاث بطون ؛ البطن الأسفل للوحوش والسباع والدواب ، والأوسط للطعام والشراب ، وركب هو في البطن الأعلى ، وحمل معه جسد آدم عليه السلام معترضا بين الرجال والنساء ، ثم دفنه بعد بيت المقدس ؛ وكان إبليس معهم في الكوئل . وقيل : جاءت الحية والعقرب لدخول السفينة فقال نوح : لا أحملكما ؛ لأنكما سبب الضرر والبلاء ، فقلنا : احملنا فنحن نضمن لك ألا نضر أحدا ذكرك ؛ فنقرأ حين يخاف مضرتهما « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ » لم تضره ؛ ذكره القشيري وغيره . وذكر الحافظ بن عساكر في التاريخ له مرفوعا من حديث أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال حين يمسى صلى الله على نوح وعلى نوح السلام لم تلدغه عقرب تلك الليلة " . قوله تعالى : (وَكَلَّمَا) ظرف . (مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ تَتَّبِعُوا مِنْهُ) . قال الأخفش واليساوي يقال : تتبعت به ومنه . وفي تنزيههم منه قولان : أحدهما — أنهم كانوا يرونه يبنى سفينته في البر ، فيسخرزون به ويستمزنون ويقولون : يانوح صرت بعد النبوة نجارا . الثاني — لما رآوه يبنى السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا : يانوح

(١) كذا في الطبري والبر المنثور والكنشاف ، وفي الأصل (غير سام بن نوح) .

(٢) جاء في البحر : وأخفقوا في هبتها من التربع والبطول ، وفي مقدار مدة عملها ، وفي المكان الذي عملت فيه ، ومقدار طولها وعرضها على أحوال متعارضة لم يصح منها شيء .

وقال الفخر الرازي : أعلم أن هذه المباحث لا تعجني ، لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها أبية ، ولا يتعلق بمعرفةها فائدة أصلا . (٣) الكوئل : مؤخر السفينة وفيه يكون الملاحون ورجالهم . وقيل : هو السكان .

ما تصنع ؟ قال : أبى يتا يمشى على الماء ؛ فصبوا من قوله وصبوا منه ، قال ابن عباس : ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر ؛ فلذلك صبوا منه ؛ وماء البحار هي بقية الطوفان . (قَالَ إِنَّ تَسْخَرُوا مِنَّا) أى من فعلنا اليوم عند بناء السفينة . (فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ) خدا عند الفرق . والمراد بالسخرية هنا الاستجهال ؛ ومعناه إن تستجهلونا فإننا نستجهلكم كما تستجهلونا .

قوله تعالى : (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) تهديد ، و « مَنْ » متصلة بـ « سوف تعلمون » و « تعلمون » هنا من باب التعدية إلى مفعول ؛ أى فسوف تعلمون الذى يأتيه العذاب . ويجوز أن تكون « مَنْ » استغماية ؛ أى أينما يأتيه العذاب ؟ . وقيل : « مَنْ » في موضع رفع بالابتداء و « يأتيه » الخبر ، و « يخزيه » صفة لعذاب . حكى الكسائى أن أناسا من أهل الحجاز يقولون : سوف تعلمون ؛ وقال من قال : « ستعلمون » أسقط الواو والفاء جميعا . وحكى الكوفيون : سوف تعلمون ؛ ولا يعرف البصريون إلا سوف تفعل ، وستفعل لثتان ليست إحداهما من الأخرى . (وَيَحِلُّ عَلَيْهِ) أى يجب عليه ويترل به . (عَذَابٌ مُّقيمٌ) أى دائم ، يريد عذاب الآخرة .

قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ) اختلف في التنور على أقوال سبعة : الأول — أنه وجه الأرض ، والعرب تسمى وجه الأرض تنورا ؛ قاله ابن عباس وعكرمة والزهرى وابن عيينة ؛ وذلك أنه قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فأركب أنت ومن معك . الثانى — أنه تنور الخبز الذى يخبز فيه ؛ وكان تنورا من حجارة ؛ وكان لحواء حتى صار لنوح ؛ فقيل له : إذا رأيت الماء يفور من التنور فأركب أنت وأصحابك . وأنع الله الماء من التنور ، فعامت به أمماته فقالت : يا نوح فار الماء من التنور ؛ فقال : جاء وعد ربي حقا . هذا قول الحسن ؛ وقاله مجاهد وعطية عن ابن عباس . الثالث — أنه

(١) ورد في اللسان : قد قالوا سو يكون لخلقوا اللام ، وما يكون لخلقوا اللام وأبدلوا العين طلب الخلة ،

وصف يكون لخلقوا العين .

موضع اجتماع الماء في السفينة ؛ عن الحسن أيضا . الرابع — أنه طلوع الفجر ، ونور الصباح ؛ من قولهم تَوَرَّ العَجْر تنويرا ؛ قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه . الخامس — أنه مسجد الكوفة ؛ قاله علي بن أبي طالب أيضا ، وقاله مجاهد . قال مجاهد : كان ناحية التَّوَرَّ بالكوفة . وقال : اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة ، وكان التَّوَرَّ على يمين الداخل مما يلي كئنة . وكان فوران الماء منه ملأ لنوح ، ودليلا على هلاك قومه . قال الشاعر وهو أمية :

فار تنورهم وجأش بماء * صار فوق الجبال حتى علاها

السادس — أنه أعلى الأرض ، والمواضع المرتفعة منها ؛ قاله قتادة .

السابع — أنه العين التي بالجزيرة « عين الورد » رواه عكرمة . وقال مقاتل : كان ذلك تنور آدم ، وإنما كان بالشام بموضع يقال له « عين وردة » . وقال ابن عباس أيضا : فار تنور آدم بالهند . قال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ لأن الله عز وجل أخبرنا أن الماء جاء من السماء والأرض ؛ قال : « فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ مِاءً مُنْهِمِرًا . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا » . فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة . والقوران الغليان . والتَّوَرَّ اسم أعجمي عربيته العرب ، وهو على بناء فَعَل ، لأن أصل بنائه تَرَّ ، وليس في كلام العرب نون قبل راء . وقيل معنى « فار التنور » التمثيل لحضور العذاب ؛ كقولهم يحيى الوطيس إذا أشتد الحرب . والوطيس التَّوَرَّ . ويقال : فارت قدر القوم إذا أشتد حربهم ؛ قال شاعرهم :

تركم قدركم لاشيء فيها * وقدر القوم حامية تفور

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا اجْعَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ يعني ذكرنا وأنثى ؛ لبقاء أصل النسل بعد الطوفان . وقرا حفص « مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ » بتووين « كل » أى من كل شئ ، زَوْجَيْنِ . والقراءتان ترجعان إلى معنى واحد معه آخر لا يستغنى عنه . ويقال للثنتين : هما زوجان ، في كل اثنين لا يستغنى أحدهما عن صاحبه ؛ فإن العرب تسمى كل واحد منهما زوجا . يقال : له زوجا نعل إذا كان له نعلان . وكذلك عنده زوجا حمام ، وزعينة زوجا .

فيود ؛ قال الله تعالى : « وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى » . ويقال للمرأة هي زوج الرجل ، وللرجل هو زوجها . وقد يقال للثنين هما زوج ، وقد يكون الزوجان بمعنى الضَّرين والصَّفين ، وكل ضرب يدعى زوجا ؛ قال الله تعالى : « وَأَنبَتْنَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجَ » أى من كل لون وصنف . وقال الأعشى :

وَكُلَّ زَوْجٍ مِنَ الدِّيَاجِ يَلْبَسُهُ * أَبُو قُدَامَةَ مَحَبُّوْ بَذَاكَ مَعَا

أراد كل ضرب ولون . و « مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ » في موضع نصب بـ « أحمل » . « آئين » تأكيد . « وَأَهْلَكَ » أى وأحمل أهلك . « إِلَّا مَنْ سَبَقَ » . « مَنْ » في موضع نصب بالاستثناء . « عَلَيْهِ الْقَوْلُ » منهم أى بالملاك ؛ وهو أبنة كتمان وأمرأته وأعله كانا كافرين . « وَفِيَّ آمَنَ » قال الضحاك وابن جرير : أى أحمل من آمن بى ، أى من صدقك ؛ فـ « مَنْ » في موضع نصب بـ « أحمل » . « وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ » قال ابن عباس رضى الله عنهما : آمن من قومه ثمانون إنسانا ، منهم ثلاثة من بنيه ؛ سام وحام ويافث ، وثلاث كائن^(١) له . ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهى اليوم تدعى قرية الثمانين بناحية الموصل . وورد فى خبر أنه كان فى السفينة ثمانية أنفس ؛ نوح وزوجه خيرا التى عوقبت ، وبنوه الثلاثة وزوجاتهم ؛ وهو قول قتادة والحكم بن عتيبة وابن جرير ومحمد بن كعب ؛ فأصاب حام أمرأته فى السفينة ، فدعا نوح الله أن يغير نطفته بجاء بالسودان . قال عطاء : ودعا نوح على حام ألا يعدو شعر أولاده أذنانهم ، وأنهم حيثما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام ويافث . وقال الأعمش : كانوا سبعة ؛ نوح وثلاث كائن وثلاثة بنين ؛ وأسقط امرأة نوح . وقال ابن إسحق : كانوا عشرة سوى نساءهم ؛ نوح وبنوه سام وحام ويافث ، وستة أناس ممن كان آمن به ، وأزواجهم جميعا . و « قَلِيلٌ » رفع بآمن ، ولا يجوز نصبه على الاستثناء ؛ لأن الكلام قبله لم يتم ، إلا أن الفائدة فى دخول « إلا » و « ما » أنك لو قلت : آمن معه فلان وفلان جاز أن يكون غيرهم . قد آمن ؛ فإذا جئت بما وإلا ، أوجبت لما بعد إلا ونقيت عن غيرهم .

(١) الكبة (بالفتح) : امرأة الإبن نبال الأخت

قوله تعالى : وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّيْنَهَا وَمُرْسَلَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ قَالَ سَوَاوَىٰ لَكَ جَبَلٌ يَعْصَمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١٢﴾ وَقِيلَ يٰنَارُ أَبْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَاءَ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَىٰ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا) أمرٌ بالركوب ؛ ويحتمل أن يكون من الله تعالى ، ويحتمل أن يكون من نوح لقومه . والركوب الملو على ظهر الشيء . ويقال : ركبته الدين . وفي الكلام حذف ؛ أى أركبوا الماء في السفينة . وقيل : المعنى أركبوها . و « في » للتأكيد كقوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » وقائلة « في » أنهم أمروا أن يكونوا في جوفها لا على ظهرها . قال حكيمه : ركب نوح عليه السلام في الفسلك لعشر خلون من رجب ، وأستوت على الجُودى لعشر خلون من المحرم ؛ فذلك ستة أشهر ؛ وقاله قتادة زاد ؛ وهو يوم عاشوراء ؛ فقال لمن كان معه : من كان صائما فليتم صومه ، ومن لم يكن صائما فليصمه . وذكر الطبري في هذا حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم أن نوحا ركب في السفينة أول يوم في رجب ، وصام الشهر أجمع ، وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراء ، ففيه أرسلت على الجُودى ، فصامه نوح ومن ومعه . وذكر الطبري عن ابن إسحق ما يقتضى أنه أقام على الماء نحو السنة ، وموت بالهيت فطافت به سبعا ، وقد رفعها الله عن الفرق فلم ينلها غرق ، ثم مضت إلى اليمن ، ورجعت إلى الجُودى فاستوت عليه .

قوله تعالى : (بِسْمِ اللَّهِ جَرَّيْنَهَا وَمُرْسَلَهَا) قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيها إلا من شذ ، على معنى بسم الله إجرأها وإرساؤها ؛ فجرأها ومرساها في موضع رفع

بالابتداء ؛ ويجوز أن تكون في موضع نصب ، ويكون التقدير : بسم الله وقت إبحائها ثم حلف وقت ، وأقيم « بجرها » مقامه . وقرأ الأعمش وحزة والكسائي « بسم الله بجرها » بفتح الميم و « مرساها » بضم الميم . وروى يحيى بن عيسى عن الأعمش عن يحيى بن وثاب « بسم الله بجرها ومرساها » بفتح الميم فيهما ؛ على المصدر من جرت تبحر جريا وتبحر ، ورست رسوا ومرسى إذا ثبتت . وقرأ مجاهد وسليمان بن جندب وعاصم الجحدري وأبو رباح العطاردي « بسم الله بجرها ومرسها » نست لله عز وجل في موضع جر . ويجوز أن يكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ ؛ أي هو بجرها ومرسها . ويجوز النصب على الحال . وقال الضحاك : كان نوح عليه السلام إذا قال بسم الله بجرها جرت ، وإذا قال بسم الله مرساها رست . وروى مروان بن سالم عن طلحة بن عبيد الله بن كرز عن الحسين بن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أمان لأمتي من الفرق إذا ركبوا في الفلك بسم الله الرحمن الرحيم » وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ « بسم الله بجرها ومرساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » . وفي هذه الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل ؛ كما بيناه في البسملة ، وألجد الله ، (إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) أي لأهل السفينة ، وروى عن ابن عباس قال : لما كثرت الأرواث والأفئدة أوحى الله إلى نوح أن غمر ذنب الفيل ، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ؛ فقال نوح : لو غمرت ذنب هذا الخنزير ! ففعل ، فخرج منه فأرة فلما وقعا أقبلا على السفينة وجبالها فقرضها ، وتقرض الأمتعة والأزواد حتى خافوا على جبال السفينة ؛ فأوحى الله إلى نوح أن أمسح جبهة الأسد لمسحها ، فخرج منها سنوران فأكلا الفترة ، ولما حمل الأسد في السفينة قال : يارب من أين أطعمه ؟ قال : سوف أشغله ، فأخذته الحنئ ؛ فهو الدهر مجوم . قال ابن عباس : وأول ما حمل نوح من البهائم في الفلك حمل الإوزة ، وآخر ما حمل حمل الحمار ؛ قال : وتعلق إبليس بذنبه ، ويداه قد دخلتا في السفينة ، ورجلاه خارجه بسد ، فجعل الحمار يضطرب

ولا يستطيع أن يدخل ، فصاح به نوح : أدخل وملك ! فجعل يضطرب ؛ فقال : أدخل وملك ! وإن كان معك الشيطان ؛ كلمة زلت على لسانه ، فدخل ووثب الشيطان فدخل ، ثم إن نوحا رآه يغنى في السفينة ، فقال له : يا لعين ما أدخلك بيتي ؟ قال : أنت أذنت لي ، فذكر له ؛ فقال له : قم فانرج . قال : مالك بد في أن تجعلني معك ؛ فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك . وكان مع نوح عليه السلام خرزتان مضيئتان ، واحدة مكان الشمس ، والأخرى مكان القمر . أبى عباس : أحدهما بيضاء كبياض النهار ، والأخرى سوداء كسواد الليل ؛ فكان يعرف بهما مواقيت الصلاة ؛ فإذا أمسوا غلب سواد هذه بياض هذه ، وإذا أصبحوا غلب بياض هذه سواد هذه ؛ على قدر الساعات .

قوله تعالى : (وَيَحْمِلُ يَمِينُهُ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ) الموج جمع موجة ؛ وهي ما أرتفع من جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح . والكاف للتشبيه ، وهي في موضع خفض نعت للموج . وجاء في التفسير أن الماء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعا . (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ) قيل : كان كافرا وأسمه كنعان . وقيل : يام . ويموز على قول سيبويه « ونادى نوح ابنه » بحذف الواو من « ابنه » في اللفظ ، وأنشد :

لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَوْتُ حَادٍ *

فأما « وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ » فقرأه شاذة ، وهي مروية عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وعروة بن الزبير . وزعم أبو حاتم أنها تجوز على أنه يريد « ابنها » لحذف الألف كما تقول : « ابنه » ؛ فحذف الواو ، وقال النحاس : وهذا الذي قاله أبو حاتم لا يجوز على مذهب سيبويه ؛ لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها ، والواو ثقيلة يجوز حذفها . (وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ) أي من دين أبيه . وقيل : عن السفينة . وقيل : إن نوحا لم يعلم أن ابنه كان كافرا ، وأنه

(١) البيت الناجح ، والشاهد في (كانه) حيث حذف الواو ضرورة . وتعامه :

* إِذَا طَلَبَ الْوَسِيقَةَ أَوْ زَمِيرُ *

يصف حمار وحش هائجا يطلب وسيقته ، وهي أتناه التي يضمها ويحبها ؛ من وسقت الشيء جمته . (شواهد سيبويه) .

ظن أنه مؤمن؛ ولذلك قال له: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ وسيأتي . وكان هذا النداء من قبل أن يستيقن القوم الغرق؛ وقبل رؤية اليأس ، بل كان في أول ما فار التنور، وظهرت العلامة لنوح . وقرأ حاصم ﴿يَا بَنِي آدَمَ كُفُّوا عَنِ الْإِبَاءِ﴾ بفتح الياء، والباقون بكسرها . وأصل «يا بني» أن تكون بثلاث ياءات؛ ياء التصغير، وياء الفعل، وياء الإضافة؛ فأدغمت ياء التصغير في لام الفعل، وكسرت لام الفعل من أجل ياء الإضافة، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التثنية، أو لسكونها وسكون الراء في هذا الموضع؛ وهذا أصل قراءة من كسر الياء، وهو أيضا أصل قراءة من فصح؛ لأنه قلب ياء الإضافة ألفا لخفة الألف، ثم حذف الألف ليكونها عوضا من حرف يحذف، أو لسكونها وسكون الراء . قال النحاس: أما قراءة حاصم فشكلة؛ قال أبو حاتم: يريد يا بنيًا ثم يحذف؛ قال النحاس: رأيت علي بن سليمان ينهب إلى أن هذا لا يجوز؛ لأن الألف خفيفة . قال أبو جعفر النحاس: ما علمت أن أحدا من النحويين جوز الكلام في هذا إلا أبا إسحق؛ فإنه زعم أن الفتح من جهتين، والكسر من جهتين؛ فالفتح على أنه يبدل من الياء ألفا؛ قال الله عز وجل إخبارا: «يا ويلتنا» وكما قال الشاعر:

* فَيَا عَجَبًا مِنْ رَحْلِهَا الْمُتَحَمِّلِ *

فيريد يا بنيًا، ثم حذف الألف لالتقاء الساكنين، كما تقول جاءني عبدا الله في التثنية . والجهة الأخرى أن تحذف الألف؛ لأن النداء موضع حذف . والكسر على أن تحذف الياء للنداء . والجهة الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَآوِيَ﴾ أي أربح وانضم . ﴿إِلَى جَبَلٍ يَعْصِيُنِي﴾ أي يمتنع من الماء فلا أغرق . ﴿قَالَ لَا طَاعَةَ لِيَوْمٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي لا مانع؛ فإنه يوم حق فيه العذاب على الكفار . وأنتصب «حاصم» على التبرئة . ويجوز «لا طاعم اليوم» تكون لا بمعنى ليس . ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ في موضع نصب استثناء ليس من الأول؛ أي لكن من رحمه الله فهو يعصمه؛ قاله الزجاج . ويجوز أن يكون في موضع رفع، على أن حاصما بمعنى معصوم؛ مثل «ماء دافق» أي مدفوق؛ فالاستثناء على هذا متصل؛ قال الشاعر:

بَطْلَى الْقِيَامِ رَحِيمُ الْكَلَا * مِائَتَى فَوَادِي يَدِ قَاتِيَا

أَيُّ مَقْتُونَا . وَقَالَ آخَرُ :

دَجَّ الْمَكَارِمَ لَا تَهْضُ لِبَغِيَّتِهَا * وَأَقْعَدَ فُلَانُكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

أَيُّ الْمَطْعُومِ الْمَكْسُوفِ . قَالَ النُّحَاسُ : وَمَنْ أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ «مَنْ» فِي مَوْضِعٍ رَفِيعٍ ، بِمَعْنَى لَا يَعْصِمُ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا الرَّاحِمُ ؛ أَيْ إِلَّا اللَّهُ . وَهَذَا اخْتِيَارُ الطَّبَرِيِّ . وَيُحَسِّنُ هَذَا أَنْكَ لَمْ تَجْعَلْ مَا صَبَا بِمَعْنَى مَعْصُومٍ فَتَخْرِجُهُ مِنْ بَابِهِ ، وَلَا «إِلَّا» بِمَعْنَى «لَكِنْ» . (وَحَالَ يَنْهَمَا الْعَوَجُ) بِمَعْنَى بَيْنَ نَوْحٍ وَأَبْنَةٍ . (فَكَانَ مِنَ الْمُتَفَرِّقِينَ) قِيلَ : إِنَّهُ كَانَ رَاغِبًا عَلَى فَرَسٍ قَدْ بَطَرَ بِنَفْسِهِ ، وَأَعْجَبَ بِهَا ؛ فَلَمَّا رَأَى الْمَاءَ جَاءَ قَالَ : يَا أَبْتَ فَارَ التَّنُورِ ؛ فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ : «يَا بَنِي أَرْكَبْ مَعَنَا» فَلَمَّا اسْتَمَّتِ الْمَرَاஜَعَةُ حَتَّى جَاءَتْ مَوْجَةً عَظِيمَةً فَالْتَقَمَتْهُ هُوَ وَفَرَسُهُ ، وَحِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَوْحٍ فَفَرَّقَ . وَقِيلَ : إِنَّهُ اخْتَذَ لِنَفْسِهِ بَيْتًا مِنْ زَجَاجٍ يَتَحَصَّنُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ ، فَلَمَّا فَارَ التَّنُورَ دَخَلَ فِيهِ وَأَقْفَلَهُ عَلَيْهِ مِنْ دَاخِلٍ ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَفَوِّطُ فِيهِ وَيَبُولُ حَتَّى غَرِقَ بِذَلِكَ . وَقِيلَ : إِنَّ الْجَبَلَ الَّذِي آوَى إِلَيْهِ «طُورُ سِينَاءَ» .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءُ اقْلُبِي) هَذَا مُجَازٌ لِأَنَّهُا مَوَاتٌ . وَقِيلَ : جَعَلَ فِيهَا مَا يُثَبِّرُ بِهِ . وَالَّذِي قَالَ إِنَّهُ مُجَازٌ قَالَ : لَوْ قُتِّشَ كَلَامُ الْعَرَبِ وَالْعِجَمِ مَا وَجَدَ فِيهِ مِثْلَ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى حَسَنِ نَظْمِهَا ، وَبِلَافَةِ رَصْفِهَا ، وَاشْتِمَالِ الْمَعَانِي فِيهَا . وَفِي الْأَثَرِ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَخْلُقُ الْأَرْضَ مِنْ مَطَرٍ أَوْ طَامِنٍ ، وَأَنَّهُ مَأْزِلٌ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَقَطْ إِلَّا بِحِفْظِ مَلَكٍ مُوَكَّلٍ بِهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَاءِ الطُّوفَانِ ؛ فَإِنَّهُ نَخْرُجُ مِنْهُ مَا لَا يَحْفَظُهُ الْمَلَكُ . وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ» بِخَرَجَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ إِلَى أَنْ تَنَاهَى الْأَمْرُ ؛ فَأَمَرَ اللَّهُ الْمَاءَ الْمُنْهَمِرَ مِنَ الْمَاءِ بِالْإِمْسَاكِ ، وَأَمَرَ اللَّهَ الْأَرْضَ بِالْإِبْتِلَاعِ . يَقَالُ : بَلَغَ الْمَاءُ يَبْلَعُهُ مِثْلَ مَنْعٍ يَمْنَعُ وَيَلْبَسُ مِثْلَ حِمْدٍ يَمْحَدُ ؛ لِنَتَانِ حِكَاكُمَا الْكَسَائِي وَالْفَزَاءُ . وَبِالْبَلُوعَةِ

الموضع الذي يشرب الماء . قال ابن العربي : اتقى الماءان على أمر قد قدر ، ما كان في الأرض وما نزل من السماء ؛ فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع ، فلم تَمُصَّ الأرض منه قطرة ، وأمر الأرض بابتلاع ما يخرج منها فقط . وذلك قوله تعالى : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءُ اقْلِي وَيَغِيضِ الْمَاءُ » . وقيل : ميزاته بين الماءين ، فما كان من ماء الأرض أمرها قبلته ، وصار ماء السماء يحارا .

قوله تعالى : (وَيَغِيضِ الْمَاءُ) أى قص ؛ يقال : غاض الشيءُ وغضته أنا ؛ كما يقال : قص بنفسه وقصه غيره ، ويجوز « غيض » بضم الغين . (وَقَضَى الْأَمْرُ) أى أحكم وفرغ منه ؛ يعنى أهلك قوم نوح على تمام وإحكام . ويقال : إن الله تعالى أعظم أرحامهم أى أرحام ناسهم قبل الفرق بأربعين سنة ، فلم يكن فيمن هلك صغير . والصحيح أنه أهلك الولدان بالطوفان ، كما هلكت الطير والسباع ، ولم يكن الفرق عقوبة للصبيان والبهائم والطيور ، بل ماتوا بأجلهم . وحكى أنه لما كثر الماء في السكك خشيت أم صبي عليه ، وكانت تحبه حبا شديدا ، فخرجت به إلى الجبل ، حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثيه ، فلما بلغها الماء آستوت على الجبل ؛ فلما بلغ الماء رقبتها رفعت يديها بأنها حتى ذهب بها الماء ، فلورحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبي .

قوله تعالى : (وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أى هلاكلهم . الجودى جبل يقرب الموصل ، استوت عليه في العاشر من المحرم يوم عاشوراء ، فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطيور والدواب وغيرها فصاموه ، شكرًا لله تعالى ، وقد تقدم هذا المعنى . وقيل : كان ذلك يوم الجمعة . وروى أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترمى على واحد منها فتناولت ، وبقى الجودى لم يتناول تواضعا لله ، فاستوت السفينة عليه ، وبقيت عليه أعوادها . وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة » . وقال مجاهد : شاخت الجبال وتناولت لثلا ينالها الفرق ، فلا

الماء فوقها خمسة عشر ذراعا، وتظامن الجودى، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يفرق، ورست السفينة عليه . وقد قيل : إن الجودى اسم لكل جبل ؛ ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل^(١) :
سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانَا يَعُودُ لَهُ * وَقَبْلَنَا سَبِيحَ الْجُودَى وَالْجُنْدِ

ويقال : إن الجودى من جبال الجنة ؛ فلها آستوت عليه . ويقال : أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر، الجودى بنوح، وطور سيناء موسى، وحراء بمحمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : لما تواضع الجودى وخضع عز ، ولما أرتفع غيره وأستعلى ذل ، وهذه سنة الله فى خلقه ، يرفع من يخشع ، ويضع من ترفع ، ولقد أحسن القائل :
وَإِذَا تَذَلَّلَ الرَّقَابُ تَخَضُّعًا * مِنَّا إِلَيْكَ فَيَعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا

وفى صحيح البخارى ومسلم عن أنس بن مالك قال : كانت ناقة للنبي صلى الله عليه وسلم تُسَمَّى المَضْبَاءُ ، وكانت لا تُسَبِّقُ ، بغاء أعرابى على قعوده ففسبجها ، فاشتد ذلك على المسلمين ، وقالوا : سُبِّحت المَضْبَاءُ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن حقا على الله ألا يرفع شيئا من الدنيا إلا وُضِعَ " . ونرج مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما تَقَصَّصْتُ صدقةً من مالى وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يُبَيِّنَ أحد على أحد ولا يَفْخُرَ أحد على أحد " . نرجه البخارى .

مسئلة : — نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعض ذكر السفينة . ذكر الحافظ ابن عساكر فى التاريخ له عن الحسن أن نوحا أوّل رسول بعثه الله إلى الأرض ؛ فذلك قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا تَحْسِينًا عَامًا » . وكان قد كثرت فيهم المعاصي ، وكثرت الجبابة وعَتُوا عَتْوًا كبيرا ، وكان نوح يدعوهم ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ، وكان صبوراً حلماً ، ولم يلق أحد من الأنبياء أشد مما لقي نوح ؛ فكانوا يدخلون عليه

(١) نسبة اللسان لأمية بن أبى الصلت ، وفى (صحيح ياقوت) : هو زيد بن عمرو ، وقيل لورقة بن نوفل . والجند كفتى : جبل لى نصر بنجد .

فيخففونه حتى يترك ويقدأ، ويضربونه في الخالس ويطرد، وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم ويقول: «رَبِّ أَغْفِرْ لِقَوِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» فكان لا يزيدهم ذلك إلا فرارا منه، حتى أنه ليكلم الرجل منهم فيلثف رأسه بثوبه، ويجعل أصبعيه في أذنيه ليكلا يسمع شيئا من كلامه، فذلك قوله تعالى: «وَلِإِي كُتِّبَ دَعْوَتُهُمْ لِيَتَغَيَّرَ لَحْمُ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَقْبَلُوا نِيَّاتَهُمْ». وقال مجاهد وعبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى ينشئ عليه فإذا أفاق قال: «رَبِّ أَغْفِرْ لِقَوِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». وقال ابن عباس: إن نوحا كان يضرب ثم يُلثِفُ في ليد فيلقى في بيته يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوم، حتى إذا يس من إيمان قومه جاءه رجل ومعه أبنة وهو يتوكأ على عصا، فقال: يا بُنَيَّ أنظر هذا الشيخ لا يفترك، قال: يا أبت أمكنني من العصا، فأخذ العصا ثم قال: ضعي في الأرض فوضعه، فثنى إليه بالعصا فضر به فشبهه شجرة موصجة في رأسه، وسالت الدماء، فقال نوح: «رَبِّ قَدْ تَرَى مَا يَفْعَلُ بِي عِبَادُكَ فَإِنْ يَكْ لَكَ فِي عِبَادِكَ خَيْرَةٌ فَأَهْدِهِمْ وَإِنْ يَكْ غَيْرُ ذَلِكَ فَضْبِرْنِي إِلَى أَنْ تَحْكُمَ وَأَنْتَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال، ولا في أرحام النساء مؤمن، قال: «وَأَوْحَى إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»؛ أي لا تحزن عليهم، «وَأَصْبَحَ الْفُلُكَ بِأَمِينًا وَوَحِينًا» قال: يارب وأين الخشب؟ قال: أغرس الشجر. قال: فغرس الساج حشرين سنة، وكف عن الدماء، وكفوا عن الاستنزاء، وكانوا يسخرون منه؛ فلما أدرك الشجر أمره ربه فقطعها وجففها، فقال: يارب كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: أجعله على ثلاثة صور، رأسه كراس الديك، وجوؤه كجوؤ الطير، وذنبه كذنب الديك، وأجعلها مطبقة وأجعل لها أبوابا في جنبها، وشدها بدمر، يعني مسامير الحديد. وبعث الله جبريل فعلمه صنعة السفينة، وجعلت يده لا تخطئ. قال ابن عباس: كانت دار نوح عليه السلام دمشق، وأنشأ سفينة من خشب لبنان بين زمزم وبين الركن والمقام، فلما كتلت حمل فيها السباع والدواب في الباب الأول، وجعل الوحش والطير في الباب الثاني، وأطبق عليهما،

وجعل أولاد آدم أربعين رجلاً وأربعين امرأة في الباب الأعلى وأطبق عليهم، وجعل الذر معه في الباب الأعلى لضغطها ألا يطاها النواب .

قال الزهرى : إن الله عز وجل بعث ريحا فحمل إليه من كل زوجين اثنين ؛ من السباع والطيور والوحش والبهائم . وقال جعفر بن محمد : بعث الله جبريل فحشرهم ، بفعل يضرب بسديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى ، فيدخله السفينة . وقال زيد بن ثابت : استصعبت على نوح الماعزة أن تدخل السفينة ، فدفعها بيده في ذنبها ؛ فن ثم انكسر ذنبها فصار معقوفا وبدا حيائها . ومضت النعجة حتى دخلت فمسح على ذنبها فستر حيائها ؛ قال إسحق : أخبرنا رجل من أهل العلم أن نوحا حمل أهل السفينة ، وجعل فيها من كل زوجين اثنين ، وحمل من المهدد زوجين ، فأتت المهددة في السفينة قبل أن تظهر الأرض ، فحملها المهدد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكانا ، فلم يجد طينا ولا ترابا ، فرحمه ربه فحفر لها في قفاه قبرا فدفنها فيه ، فذلك الريش الناقع في قفا المهدد موضع القبر ؛ فلذلك نتأت أقفية المهادد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كان حمل نوح معه في السفينة من جميع الشجر وكانت العجوة من الجنة مع نوح في السفينة " . وذكر صاحب كتاب «العروس» وغيره أن نوحا عليه السلام لما أراد أن يبعث من يأتيه بخبر الأرض قال للتجاج : أنا ؛ فأخذها وختم على جناحها وقال لها : أنت محتومة بخاتمي لا تطيرى أبدا ، أنت ينتفع بك أمتي ؛ فبعث الغراب فأصاب جيفة فوق طيها فاحتس فلمنه ، ولذلك يقتل في الحرم ، ودعا عليه بالخوف ؛ فلذلك لا يألف البيوت . وبعث الحمامة فلم تجد قرارا فوقعت على شجرة بأرض سبا فحملت ورقة زيتونة ، ورجعت إلى نوح فلم أنها لم تستمكن من الأرض ، ثم بعثها بعد ذلك فطارت حتى وقعت بوادي الحرم ، فإذا الماء قد نضب من مواضع الكعبة ، وكانت طليتها حمراء ، فاخضبت رجلاها ، ثم جاءت إلى نوح عليه السلام فقالت : بشرى منك أن تهب لي الطوق في عنقي ، والخصاب في رجلي ، وأسكن الحرم ؛ فمسح يده على عنقها وطوقها ، ووهب لها الحجرة في رجليها ، ودعا لها ولتريتها بالبركة . وذكر الثعلبي أنه بعث بعد الغراب

الشُّدْرُج^(١) وكان من جنس اللجج ؛ وقال : لراك أن تتنذر ، فاصاب الخضره والفرجة فلم يرجع ، وأخذ أولاده عنده رهنا إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ) أى دماه . (فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) أى من أهل الذين وعدتهم أن تصيهم من الفرق ؛ ففى الكلام حذف . (وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ) يعنى الصدق . وقال علماؤنا : وإنما سأل نوح ربه أبنه لقوله : « وأهلك » وترك قوله : « إلا من سبق عليه القول » فلما كان عنده من أهله قال : « رب إن أبى من أهل » يدل على ذلك قوله : « ولا تكن مع الكافرين » أى لا تكن ممن لست منهم ؛ لأنه كان عنده مؤمنا فى ظنه ، ولم يك نوح يقول لربه : « إن أبى من أهل » إلا وذلك عنده كذلك ؛ إذ محال أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسأل فى إنجاء بعضهم ؛ وكان أبنه يُسمَر الكفر ويظهر الإيمان ؛ فآخبر الله تعالى نوحا بما هو منفرد به من علم الغيوب ؛ أى علمت من حال أبئك ما لم تعلمه أنت . وقال الحسن : كان منافقا ؛ ولذلك استحل نوح أن يناديه . وعنه أيضا : كان آبن امرأته . دليله قراءة على « ونادى نوح ابنها » . (وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) ابتداء وخبره . أى حكمت على قوم بالنجاة ، وعلى قوم بالفرق .

(١) الشُّدْرُج كسج : طائر يفرد فى البساتين بأصوات طيبة ؛ وموطنه بلاد فارس . (حياة الحيوان) .

: الثانية - قوله تعالى : (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) الذين وعدتهم أن أنجيهم ، قاله سعيد بن جبير . وقال الجمهور : ليس من أهل دينك ولا ولايتك ، فهو على حذف مضاف ، وهذا يدل على أن حكم الاتفاق في الدين أقوى من النسب . (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) قرأ ابن عباس وعروة وعكرمة ويعقوب والكسائي : « إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » أى من الكفر والتكذيب ، وأختره أبو حنيفة . وقرأ الباقر « عَمَلٌ » أى ابنك ذو عمل غير صالح . حذف المضاف ، قاله الزجاج وغيره . قَالَ :

تَرْتَمُّ مَا رَمَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَّرْتُ * فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

أى ذات إقبال وإدبار . وهذا القول والذي قبله يرجع إلى معنى واحد . ويجوز أن تكون الماء للسؤال ، أى إن سؤالك لىأى أن أنجي عمل غير صالح . قاله قتادة . وقال الحسن : معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن أبنه . وكان لغير رشدة ، وقاله أيضا مجاهد : قال قتادة سألت الحسن عنه فقال : والله ما كان أبنه ، قلت إن الله أخبر عن نوح أنه قال : « إن أبى من أهلى » فقال : لم يقل منى ، وهذه إشارة إلى أنه كان ابن أمه من زوج آخر ، فقلت له : إن الله حكى عنه أنه قال : « إن أبى من أهلى » ونادى نوح أبنه « ولا يختلف أهل النكاحين أنه أبنه ، فقال الحسن : ومن يأخذ دينه عن أهل الكتاب ! إنهم يكذبون . وقرأ « بغفائهما » . وقال ابن جرير : ناداه وهو يصعب أنه أبنه ، وكان ولد على فراشه ، وكانت أمه خاتنه فيه ، ولهذا قال : « بغفائهما » . وقال ابن عباس : ما بنت امرأة نبي قط ، وأنه كان أبنه لصلبه . وكذلك قال الضحاك وعكرمة وسعيد ابن جبير وميمون بن مهران وغيرهم ، وأنه كان أبنه لصلبه . وقيل لسعيد بن جبير يقول نوح : « إن أبى من أهلى » أكان من أهله ؟ أكان أبنه ؟ فسبح الله طويلا ثم قال : لا لا إلا الله ! يحدث الله عبدا صلى الله عليه وسلم أنه أبنه ، ونقول إنه ليس أبنه ! نعم كان أبنه ، ولكن كان مخالفا في النية والعمل والدين ، ولهذا قال الله تعالى : « إنه ليس من أهلك » ، وهذا

هو الصحيح في الباب إن شاء الله تعالى لجلالة من قال به؛ وإن قوله : « إنه ليس من أهلك » ليس مما ينفي عنه أنه أبنة . وقوله : « نجاتهما » يعني في الدين لا في الفراش ، وذلك أن هذه كانت تخبر الناس أنه مجنون ، وذلك أنها قالت له : أما ينصرك ربك ؟ فقال لها : نعم . قالت : فتى ؟ قال : إذا فار الثور ، فخرجت تقول لقومها : يا قوم والله إنه لمجنون ، يزعم أنه لا ينصره الله إلا أن يفور هذا الثور ، فهذه خيبتها . وخيانة الأخرى أنها كانت تدل على الأضياف على ما سيأتي إن شاء الله . والله أعلم . وقيل : الولد قد يسمى عملا كما يسمى كسبا ، كما في الخبر « أولادكم من كسبكم » . ذكره القشيري .

الثالثة - في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين . وروى أن ابن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطاه ، قال فعلم مالك أنه قد فهمه الناس ؛ فقال مالك : الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات ، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات . وفيها أيضا دليل على أن الابن من الأهل لغة وشرطا ، ومن أهل البيت ؛ فمن وصى لأهله دخل في ذلك أبنة ، ومن تضمته منزله ، وهو في عياله . وقال تعالى في آية أخرى : « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » فسمى جميع من ضمنه منزله من أهله .

الرابعة - ودلت الآية على قول الحسن ومجاهد وغيرهما أن الولد للفراش ؛ ولذلك قال نوح ما قال آخذنا بظاهر الفراش . وقد روى سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع عبيد بن عمير يقول : نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قضى بالولد للفراش من أجل ابن نوح عليه السلام ؛ ذكره أبو عمر في كتاب « التمهيد » . وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الولد للفراش وللماهر الحجر » يريد الخلية . وقيل : الرجم بالحجارة . وقرأ حُريرة بن الزبير « ونادى نوح أبنا » يريد أبنت أمهاته ، وهي تفسير القراءة المتقدمة عنه وعن علي رضي الله عنه ، وهي حجة للحسن ومجاهد ؛ إلا أنها قراءة شاذة ، فلا تترك المتفق عليها لمخالفة أهل .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْظُمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى أنهلك عن هذا السؤال ، وأحذرك لئلا تكون ، أو كراهية أن تكون من الجاهلين ، أى الآثمين . ومنه قوله تعالى : « يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعْبُدُوا لِلْثَلَاثَةِ أَبَدًا » أى يحذركم الله وينهاكم . وقيل : المعنى أرفئك أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربي : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين ؛ فقال نوح : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام ، فشكر الله تذكله وتواضعه . ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ﴾ ما فرط من السؤال . ﴿ وَتَرَحَّمْ عَلَيَّ ﴾ أى بالتوبة . ﴿ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى أعمالا . فقال : « يا نوح أهبط بإسلام منا » .

قوله تعالى : قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ أى قالت الملائكة ، أو قال الله تعالى له : أهبط من السفينة إلى الأرض ، أو من الجبل إلى الأرض ؛ فقد آبتلت الماء وجفت . « بإسلام منا » أى بإسلامه وأمن . وقيل : بحبسه . ﴿ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ أى نعم ثابتة ؛ مشتق من برك الجبل وهو شوبته وإقامته . ومنه البركة لثبوت الماء فيها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : نوح آدم الأصغر ، لجميع الخلاق الآن من نسله ، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته ؛ هل قول قتاد وغيره ، حسب ما تقدم ؛ وفى التزييل « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » . ﴿ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ﴾ قيل : دخل فى هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة . ودخل فى قوله : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كل كافر إلى يوم القيامة ؛ روى ذلك عن محمد بن كعب . والتقدير على هذا : وعلى ذرية أمم من معك ، وذرية أمم ستمتعهم . وقيل : « من » للتبويض ، وتكون لبيان الجنس . « وأمم ستمتعهم » ارتفع « وأمم » على معنى وتكون أمم . قال الأخفش سعيد كما تقول : كلمت زيدا وعصرو جالس . وأجاز الفراء فى غير القراءة وأمما ، وتقديره : ونمتع أمما . وأعيدت « على » مع

« أم » لأنه معطوف على الكاف من « عليك » وهي ضمير الجور، ولا يعطف على ضمير الجور إلا بإعادة الجار على قول سيويه وغيره . وقد تقدم في « النساء » ^(١) بيان هذا . مستوفى في قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » بالخفض . والباء في قوله : « بسلام » متعلقة بمحذوف ؛ لأنها في موضع الحال ؛ أي أهبط مسلماً عليك . و « مِنَّا » في موضع جر متعلق بمحذوف ؛ لأنه نعت للبركات . وعلى أم متعلق بما تعلق به « عليك » ؛ لأنه أعيد من أجل المعطوف على الكاف . و « من » في قوله « ممن منك » متعلق بمحذوف ؛ لأنه في موضع جر نعت للأم . و « منك » متعلق بفعل محذوف ؛ لأنه صلة « لمن » أي ممن استنقز منك ، أو آمن منك ، أو ركب منك .

قوله تعالى : تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ) أي تلك الأنباء ؛ وفي موضع آخر « ذلك » أي ذلك النبا والقصص من أنباء ما غاب عنك . (نُوحِيهَا إِلَيْكَ) أي لنقف عليها . (مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ) أي كانوا غير عارفين بأمر الطوفان ؛ والجوس الآن يتكرونها ، وقيل : أزد جهلهم بقصة ابن نوح وإن سمعوا أمر الطوفان على الجملة . (فَاصْبِرْ) أي اصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته ، وما تلقى من أذى العرب الكفار ، كما صبر نوح على قومه . (إِنَّ الْعَذَابَ) في الدنيا بالظفر ، وفي الآخرة بالفسوز . (لِلْمُتَّقِينَ) عن الشرك والمعاصي .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿١٦﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَنْجَرْتُمْ ۖ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا

(١) راجع ج ٥ ص ٢ وما بعدها طبعه أدل أو ثانية .

رَبِّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِشَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَثَكَ بِعُضْ ءَالِهَتِنَا إِسْوَاءَ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكُمْ لَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٦٠﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ رَحْمَةً مِنَّا وَنَجَّيْنَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٦٣﴾ وَتِلْكَ ءَادٌ يَجْعَلُونَ رِجْلَهُمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦٤﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ءَلَّا إِنَّ ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ءَلَّا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : (وَإِلَىٰ ءَادٍ ءَاخِئْتُمْ هُودًا) أى وأرسلنا ؛ فهو معطوف على « أرسلنا نوحا » . وقيل له أخوهم لأنه منهم ، وكانت القبيلة تجمعهم ؛ كما تقول : يا أخاتيم . وقيل : إنما قيل له أخوهم لأنه من بنى آدم كما أنهم من بنى آدم ؛ وقد تقدم هذا فى « الأعراف » وكانوا عبدة الأوثان . وقيل : هم حادان ، عاد الأولى وعاد الأخرى ، فهؤلاء هم الأولى ؛ وأما الأخرى فهو شداد وإلحان المذكوران فى قوله تعالى : « إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ » . وعاد اسم

رجل ثم استمر على قوم أنتسبوا إليه . (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) بالخفض على اللفظ، و « غَيْرُهُ » بالرفع على الموضع، و « غَيْرُهُ » بالنصب على الاستثناء . (إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُقْتَرُونَ) أى ما أنتم فى اتخاذكم لها غيره إلا كاذبون عليه جل وعز .

قوله تعالى : (يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي) تقدم معناه ، والفطرة ابتداء الخلق . (أَفَلَا تَمْقُولُونَ) ما جرى على قوم نوح لما كذبوا الرسل .

قوله تعالى : (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) تقدم أول السورة . (يُرْسِلُ السَّمَاءَ) جزم لأنه جواب وفيه معنى المجازاة . (عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا) نصب على الحال، وفيه معنى التكثير، أى يرسل السماء بالمطر متتابعًا يتلو بعضها بعضًا؛ والعرب تحذف الهاء فى مفعول على النسب، وأكثر ما يأتى مفعول من أفعل، وقد جاء هاهنا من فعل؛ لأنه من دُرَّت السماء تَدِيرُ وتَدِيرُ فهو مِدْرَار . وكان قوم هود أعنى عادًا أهل سبأين وزرورع وعمارة، وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن كما تقدم فى « الأعراف » . (وَبَرِّدْكُمْ) عطف على يرسل . (قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) قال مجاهد : شئنة على شدتكم . الضحاك : خصبا إلى خصبكم . على بن عيسى : عزًا على عزكم . عكرمة : ولدا إلى ولدكم . وقيل : إن الله حبس عنهم المطر ثلاث سنين فلم يولد لهم ولد؛ فقال لهم هود : إن أنتم أحيى الله بلادكم ورزقكم المال والولد؛ فقلق القسوة . وقال الزجاج : المعنى يزدكم قوة فى النعم . (وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) أى لا تعرضوا عما أدعواكم إليه، وتقيموا على الكفر .

قوله تعالى : (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ) أى حجة واضحة . (وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) إصرار منهم على الكفر .

قوله تعالى : (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ) أى أصابك . (بَعْثُ إِلَهَيْنَا) أى أصنامنا . (بُسُوفٍ) أى يجنون لسبك إياها، عن ابن عباس وغيره . يقال : عزاه الأمر واعتراه إذا ألمَّ به . ومنه « وَأَطِيعُوا الْقَائِنَ وَالْمُعْتَرَّ » . (قَالَ إِنِّي أَنْشِئُكُمْ آلَ عَلَى نَفْسِي .

﴿ وَأَشْهَدُوا ﴾ أى وأشهدكم ؛ لأنهم كانوا أهل شهادة ، ولكنه نهاية للتقرير ؛ أى لتعرفوا
 ﴿ أَتَىٰ بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أى من عبادة الأصنام التى تعبدونها . ﴿ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾ أى أنتم
 وأوثانكم فى عداوتى وضرمى . ﴿ ثُمَّ لَا تَنْتَظِرُونَ ﴾ أى لا تؤخرون . وهذا القول مع كثرة
 الأعداء يدل على كمال الثقة بنصر الله تعالى ، وهو من أعلام النبوة ، أن يكون الرسول وحده
 يقول لقومه : « فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا » . وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لقريش ، وقال نوح
 صلى الله عليه وسلم : « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ » الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أى رضيت بحكمه ، وثقت بنصره .
 ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أى نفس تدب على الأرض ؛ وهو فى موضع رفع بالابتداء . ﴿ إِلَّا هُوَ آخِذٌ
 بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أى يصرفها كيف يشاء ، ويمنعها مما يشاء ؛ أى فلا تصلون إلى ضرمى . وكل ما فيه
 رُوح يقال له داب ودابة ؛ والهاء للبالغة . وقال الفراء : مالكها ، والقادر عليها ، وقال
 الفتي : قاهرها ؛ لأن من أخذت ناصيته فقد قهرته . وقال الضحاك : يحبسها ثم يمتها ؛
 والمعنى متقارب . والناصية قُصاص الشعر فى مقدم الرأس . ونصوت الرجل أنصوه نصواً
 أى مددت ناصيته . قال ابن جريج : إنما خص الناصية ؛ لأن العرب تستعمل ذلك إذا
 وصفت إنساناً بالدَّلة والخضوع ؛ فيقولون : ما ناصية فلان إلا بيد فلان ؛ أى أنه مطيع له
 يصرفه كيف يشاء . وكانوا إذا أسروا أسيراً وأرادوا إطلاقه والمّن طيه جزوا ناصيته ليعرف
 بذلك نفرا عليه ؛ فخطبهم بما يعرفونه فى كلامهم . وقال الترمذى الحكيم فى « نوارد الأصول »
 قوله تعالى : « مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » وجهه عندنا أن الله تعالى قدر مقادير أعمال
 العباد ، ثم نظر إليها ، ثم خلق خلقه ، وقد نفذ بصره فى جميع ما هم فيه عاملون من قبل أن
 يخلقهم ، فلما خلقهم وضع نور تلك النظرة فى نواصيتهم ؛ فذلك النور أخذ بنواصيتهم ، يحريهم
 إلى أعمالهم المقدرة عليهم يوم المقادير . وخلق الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض
 بخمسين ألف سنة ؛ رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يقول : « قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » . ولهذا

قويت الرسل وصاروا من أولى العزم لأنهم لاحظوا نور النواصي ، وأيقنوا أن جميع خلقه متفادون بتلك الأنوار إلى ما تغذ بصره فيهم من الأعمال ، فأوفرهم حظا من الملاحظة أقوام في العزم ، ولذلك ما قوى هود النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال : « فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » . وإنما سميت ناصية لأن الأعمال قد نصّت وبرزت من غيب الغيب فصارت منصوبة في المقادير ، قد تغذ بصر الخالق في جميع حركات الخلق بقسرة ، ثم وضعت حركات كل من دب على الأرض حيا في جهته بين عينيه ، فسمى ذلك الموضع منه ناصية ؛ لأنها تنص حركات العباد بما قدر ؛ فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات التي نظر الله تعالى إليها قبل أن يخلقها . ووصف ناصية أبي جهل فقال : « نَاصِيَةٌ كَازِبَةٌ خَاطِئَةٌ » يخبر أن النواصي فيها كاذبة خاطئة ؛ فعلى سبيل ما تأوله يستحيل أن تكون الناصية منسوبة إلى الكذب والخطأ . (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) قال النحاس : الصراط في اللغة المنهاج الواضح ، والمعنى أنه الله جل ثناؤه وإن كان يقدر على كل شيء فإنه لا يأخذهم إلا بالحق . وقيل : معناه لا خلل في تدييره ، ولا تفاوت في خلقه سبحانه .

قوله تعالى : (فَإِنْ تَوَلَّوْا) في موضع جزم ؛ فلذلك حذف منه النون ، والأصل تَوَلَّوْا ، لحذف التاء لاجتماع تاءين . (فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلُ بِهِ إِلَيْكُمْ) بمعنى قد بينت لكم . (وَبَسَّخْتُ لِرَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ) أي هلككم وخلق من هو أطوع له منكم يوحدهونه ويعبدونه . « ويستخلف » مقطوع مما قبله فلذلك ارتفع ؛ أو معطوف على ما يجب فيما بعد التاء من قوله : « فقد أبلغتكم » . وروى عن حفص عن عاصم « ويستخلف » بالجرم حملا على موضع التاء وما بعدها ؛ مثل « ويدبرهم في طغيانهم يعمهون » .

قوله تعالى : (وَلَا تَضْرُوبْهُ شَيْئًا) أي بتسويلكم وإعراضكم . (إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ) أي لكل شيء حافظ . « على » بمعنى اللام ، فهو يحفظني من أن تتألوني بسوء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا بهلاك عاد . ﴿ نَجِيئًا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رِجْعَةَ مِينَا ﴾ لأن أحدا لا ينجو إلا برحمة الله تعالى ، وإن كانت له أعمال صالحة . وفي صحيح مسلم والبخارى وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم " لن يُنجى أحدا منكم عمله " قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته " . وقيل : معنى « برحمة منا » بأن بيتنا لم الهدى الذى هو رحمة . وكانوا أربعة آلاف . وقيل : ثلاثة آلاف . ﴿ وَنَجِيئُهُمْ مِنْ هَذَا يَغْلِيظُ ﴾ أى عذاب يوم القيامة . وقيل : هو الريح العقيم كما ذكر الله في « الذاريات » وغيرها وسياق . قال القشيري أبو نصر : والعذاب الذى يتوعد به النبي أمته إذا حضر ينجي الله منه النبي والمؤمنين معه ؛ نعم ! لا يبعد أن يتلى الله نيا وقومه فيعمهم بلاء فيكون ذلك عقوبة للكافرين ، وتحجبا للمؤمنين ، إذا لم يكن مما توعدهم النبي به .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِّلُ بِهَا عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ وحكى الكشاف أن من العرب من لا يصرف « عادا » فيجعله أسماءا للقبيلة . ﴿ بَجَدُّوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى كذبوا بالمعجزات وأنكروها . ﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ يعنى هودا وحده ؛ لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه . ونظيره قوله تعالى : « يأيا الرسل كلوا من الطيبات » يعنى النبي صلى الله عليه وسلم وحده ؛ لأنه لم يكن في عصره رسول سواه ؛ وإنما جمع هذا لأن من كذب رسولا واحدا فقد كفر بجميع الرسل . وقيل : عصوا هودا والرسل قبله ، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لمجدوا الكل . ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أى أتبع سقاطهم رؤساءهم . والجبار المتكبر . والعنيد الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذعن له . قال أبو عبيد : العنيد والعنود والعائد والمعاند المعارض بالخلاف ، ومنه قيل للعرق الذى ينفجر بالدم طائد . قال الرازي :

* إِنِّي كَبِيرٌ لَا أُطِيقُ الْعُنْدَ^(١) *

قوله تعالى : ﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أى ألحقوها . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى وأتبعوا يوم القيامة مثل ذلك ؛ فالتمس على قوله : « ويوم القيامة » . ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا

رَبِّهِمْ ﴿ قَالَ الْفَرَّاءُ : أَيْ كَفَرُوا نِعْمَةً رَبِّهِمْ ، قَالَ : وَيُقَالُ كَفَرْتَهُ وَكَفَرْتَهُ بِهِ ، مِثْلُ شَكَرْتَهُ وَشَكَرْتَ لَهُ . ﴾ (١) أَلَا بُعْدًا لِعَمَادِ قَوْمِ هُودٍ) أَيْ لَا زَالُوا مُبْعِدِينَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ . وَالْبُعْدُ الْهَلَاكُ . وَالْبُعْدُ التَّبَاعُدُ مِنَ الْخَيْرِ ، يُقَالُ : يَبْدُ يَبْعُدُ بَعْدًا إِذَا تَأَخَّرَ وَتَبَاعَدَ . وَيَبْعُدُ يَبْعُدُ بَعْدًا إِذَا هَلَكَ ؛ قَالَ : (٢) لَا يَبْعَدُنَّ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ * سَمِ الْعُدَاةِ وَأَفَّةُ الْجُسُزِ

وَقَالَ النَّابِضَةُ :

فَلَا تَبْعَدُنَّ إِنْ الْمَنِيَّةَ مَنَهْلٌ * وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا بِهِ الْحَالُ زَائِلٌ
قوله تعالى : وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومُ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿ ١٦ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَإِلَى ثَمُودَ) أَيْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ (أَخَاهُمْ) أَيْ فِي النِّسْبِ . (صَالِحًا) . وَقَرَأَ يَحْيَى بْنُ وَثَابٍ « وَإِلَى ثَمُودَ » بِالتَّنْوِينِ فِي كُلِّ الْقُرْآنِ ؛ وَكَذَلِكَ رَوَى عَنْ الْحَسَنِ . وَاخْتَلَفَ سَائِرُ الْفَرَّاءِ فِيهِ فَصَرَفُوهُ فِي مَوْضِعٍ وَلَمْ يَصَرَفُوهُ فِي مَوْضِعٍ . وَزَعَمَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَنَّهُ لَوْلَا مُخَالَفَةُ السَّوَادِ لَكَانَ الْوَجْهَ تَرْكُ الصَّرْفِ ؛ إِذْ كَانَ الْأَغْلَبُ عَلَيْهِ التَّائِيثُ . قَالَ النَّحَّاسُ : الَّذِي قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنْ أَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهِ التَّائِيثُ كَلَامُ مُرْدُودٍ ؛ لِأَنَّهُ ثَمُودًا يُقَالُ لَهُ حَيٌّ ؛ وَيُقَالُ لَهُ قَيْلَةٌ ، وَلَيْسَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْقَيْلَةُ ، بَلِ الْأَمْرُ عَلَى ضِدِّهِ مَا قَالَ عِنْدَ سَيَبَوِيهِ . وَالْأَجُودُ عِنْدَ سَيَبَوِيهِ فِيهِمَا لَمْ يُقَلْ فِيهِ بَنُو فُلَانٍ الصَّرْفُ ؛ نَحْوَ قَرِيشٍ وَثَقِيفٍ وَمَا أَشْبَهَهُمَا ، وَكَذَلِكَ ثَمُودُ ، وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ التَّذْكِيرُ الْأَصْلُ ، وَكَانَ يَقَعُ لَهُ مَذْكَرٌ وَمَوْثٌ كَانَ الْأَصْلُ الْأَخْفَ أَوَّلَى . وَالتَّائِيثُ جَيِّدٌ بِالْفَتْحِ حَسَنٌ . وَأَنشَدَ سَيَبَوِيهِ فِي التَّائِيثِ :

غَلَبَ الْمَسَامِيحَ الْوَلِيدُ سَمَاحَةً * وَكَفَى قَرِيشَ الْمُعْضَلَاتِ وَسَادَهَا

(١) تَقَدَّمَ شَرْحُ الْبَيْتِ فِي هَامِشِ ج ٢ ص ١٤ .

(٢) الْبَيْتُ لِمُذَنَّبِ بْنِ الرَّفَاعِ يَمْدَحُ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ ؛ وَالتَّائِيثُ فِيهِ تَرْكُ صَرْفِ قَرِيشٍ حَلًّا عَلَى مَعْنَى الْقَيْلَةِ ؛ وَالصَّرْفُ فِيهَا أَكْثَرُ وَأَعْرَفُ لِأَنَّهُمْ قَصَدُوا بِهَا قَصْدَ الْحَيِّ ، وَغَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهَا . (شَوَاهِدُ سَيَبَوِيهِ) .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ تقدم .
 ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى ابتداء خلقكم من الأرض ، وذلك أن آدم خلق من الأرض
 على ما تقدم في « البقرة » و « الأنعام » وهم منه . وقيل : أنشأكم في الأرض . ولا يجوز
 إدغام الهاء من « غيره » في الهاء من « هو » إلا على لغة من حذف الواو في الإدراج .
 ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أى جعلكم حُمَارَهَا وَسَكَتَهَا . قال مجاهد : ومعنى « استعمركم » أعمركم
 من قوله : أَعْمَرَ فلان فلانا داره ، فهى له عُمُرَى . وقال قتادة : أسكنكم فيها ؛ وعلى هذين
 القولين تكون استعمل بمعنى أفعَل ؛ مثل استجاب بمعنى أجب . وقال الضحاك : أطال
 أعماركم ، وكانت أعمارهم من ثلثائة إلى ألف . ابن عباس : أعاشكم فيها . زيد بن أسلم :
 أمركم بعبادة ما يحتاجون إليه فيها من بناء مساكن ، وغرس أشجار . وقيل : المعنى ألهكم
 عمارتها من الحرث والفرس وحفر الأنهار وغيرها .

الثالثة - قال ابن العربي قال بعض علماء الشافعية : الاستعمار طلب العبارة ،
 والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب ؛ قال القاضي أبو بكر : تأتى كلمة استعمل في لسان
 العرب على معان ؛ منها ؛ استعمل بمعنى طلب الفعل كقوله : استعملته أى طلبت منه حملانا ؛
 وبمعنى اعتقد ، كقولهم : استعملت هذا الأمر أعتقدته سهلا ، أو وجدته سهلا .
 واستعملته أى أعتقدته عظيما ووجدته ؛ ومنه استعملت بمعنى أصبت ، كقولهم : استعملته
 أى أصبته جيدا ؛ ومنها بمعنى فعل ؛ كقوله : قَر في المكان واستقر ؛ وقالوا وقوله :
 « يستهزئون » « وينسَخرون » منه ؛ فقوله تعالى : « استعمركم فيها » خلقكم لعمارها ،
 لا على معنى استعملته واستعملته أى أصبته جيدا وسهلا ، وهذا يستحيل في الخلق ، فيرجع
 إلى أنه خلق ؛ لأنه الفائدة ، وقد يعبر عن الشيء بفائدته مجازا ؛ ولا يصح أن يقال إنه طلب
 من الله تعالى لعمارها ، فإن هذا اللفظ لا يجوز في حقه ، أما أنه يصح أن يقال أنه استدعى

(٢) راجع ج ٦ ص ٣٨٧ وما بعدها

(١) راجع ج ١ ص ٢٧٩ وما بعدها طيبة ثانية أو ثالثة .

طيبة أولى أو ثانية .

عمارته فإنه جاء بلفظ استعمل، وهو استدعاء الفعل بالقول من هو دونه إذا كان أمراً،
وطالب الفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى [رغبة ^(١)] .

قلت: لم يذكر استعمل بمعنى أفعّل، مثل قوله: استوقد بمعنى أوقد، وقد ذكرناه ^(٢) وهي:
الرابعة - ويكون فيها دليل على الإسكان والعمرى وقد مضى القول في « البقرة »
في السكنى والرقي. وأما العمرى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال: أحدها - أنها تملك للمنافع
الرقة حياة المُعَمَّر مدة عمره، فإن لم يذكر عقبا فمات المُعَمَّر رجعت إلى الذي أعطاه أو لورثته؛
هذا قول القاسم بن محمد ويزيد بن قسيط والليث بن سعد، وهو مشهور مذهب مالك، وأحد
أقوال الشافعي، وقد تقدّم في « البقرة » حجة هذا القول. الثاني - أنها تملك الرقة ومتانها
وهي هبة مبتولة ^(٣)، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأصحابهما والثوري والحسن بن حي وأحمد
ابن حنبل وابن شبرمة وأبي حنيد، قالوا: من أَمَر رجلاً شيئاً حياته فهو له حياته، وبعد
وفاته لورثته؛ لأنه قد ملك رقبتها، وشرط المعطى الحياة والعمر باطل؛ لأن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال: « العمرى جائزة » و« العمرى لمن وهبت له ». الثالث - إن قال
عمرك ولم يذكر المقب كان كالقول الأول؛ وإن قال لمقب كان كالقول الثاني؛ وبه قال
الزهري وأبو ثور وأبو سامة بن عبد الرحمن وابن أبي ذئب، وقد روى عن مالك؛ وهو
ظاهر قوله في الموطأ. والمعروف عنه ونحو أصحابه أنها ترجع إلى المُعَمَّر؛ إذا أقرض
عقب المُعَمَّر؛ إن كان المُعَمَّر حياً، وإلا فإلى من كان حياً من ورثته، وأولى الناس
بميراثه. ولا يملك المُعَمَّر بلفظ العمرى عند مالك وأصحابه رقة شيء من الأشياء،
وإنما يملك بلفظ العمرى المنفعة دون الرقة. وقد قال مالك في الحبس أيضاً: إذا حبس
على رجل وعقبه أنه لا يرجع إليه. وإن حبس على رجل بعينه حياته رجع إليه، وكذلك
العمرى قياساً، وهو ظاهر الموطأ. وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله

(١) الزيادة عن ابن العربي . (٢) راجع ج ١ ص ٢١٢ طبع ثانية أمانة . (٣) راجع ج ١
ص ٢٩٩ وما بعدها طبع ثانية أمانة . (٤) مبتولة : ماضية غير راجعة إلى الواهب .

عليه وسلم قال : « أَيُّمَا رَجُلٍ أَعْمَرَ رَجُلًا عُمُرِي لَهُ وَلَعِقِبِهِ فَقَدْ أَعْطَيْتُكَهَا وَعَقِبُكَ مَا بَقِيَ مِنْكَ أَحَدٌ فَلَهَا مِنْ أَعْطِيهَا وَأَنْهَا لَا تَرْجِعَ إِلَى صَاحِبِهَا مِنْ أَجْلِ أَنْهُ أَعْطَى عَطَاءَ وَقَعَتْ فِيهِ الْمَوَارِيثُ » . وعنه قال : إِنْ الْعُمَرَى الَّتِي أَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ : هِيَ لَكَ وَلَعِقِبِكَ ، فَمَا إِذَا قَالَ : هِيَ لَكَ مَا عِشْتَ فَلَهَا تَرْجِعَ إِلَى صَاحِبِهَا ، قَالَ مَعْمَرٌ : وَبِذَلِكَ كَانَ الزَّهْرِيُّ يَقُولُ .

قلت : معنى القرآن يجرى مع أهل القول الثانى ؛ لأن الله سبحانه قال : « وَأَسْتَعْمِرَكُمْ » بمعنى أعمركم ؛ فأعمر الرجل الصالح فيها مدة حياته بالعمل الصالح ، وبعد موته بالذكر الجليل والثناء الحسن ، وبالعكس الرجل الفاجر ؛ فالدينيا ظرف لها حياة وموت . وقد يقال : إِنْ الثناء الحسن يجرى بجرى العقب ، وفى التنزيل : « وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدِّيقٍ فِي الْآخِرِينَ » أى ثناء حسنا ، وقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم . وقال : « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمُ الْبَاقِينَ » وقال : « وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِهِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ » .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أى سلوه المغفرة من عبادة الأصنام . ﴿ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ ﴾ أى أرجعوا إلى عبادته . ﴿ إِنْ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ أى قريب الإجابة لمن دعاه . وقد مضى فى « البقرة » عند قوله : « فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ » القول فيه .

قوله تعالى : قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّآ لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٧٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَعَآثَىٰ مِنْهُ رَحْمَةٌ مِّن يَّسَّرَ مِّنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ قَمَا تَزِيدُونَنى غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿٧٨﴾ وَيَقَوْمِ هَٰذِهِ نَافَةٌ اللَّهُ لَكُمُ آيَةٌ فَكُذِّبُوا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا

يُسُوًّا فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعَذَابُ غَيْرِ مَكْذُوبٍ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَتَقْوَىٰ الْغَزِيرُ ﴿١٨﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جثمين ﴿١٩﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۖ آلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۖ آلَا بَعْدَ لَثَمُودَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ﴾ أى كانوا يرجون رجوعه الى دينهم ، فلما دعاهم الى الله قالوا : اقطع رجائنا منك . ﴿ أَتَنهَانَا ﴾ استفهام معناه الإنكار . ﴿ أَنَّنَعْبُدَ ﴾ أى عن أن نعبد . ﴿ مَا كَانَ يَبْعُدُ آبَاؤُنَا ﴾ فان فى محل نصب بإسقاط حرف الجر . ﴿ وَإِنَّا لَنَاقِلُ شَكَّ ﴾ وفى سورة « إبراهيم » « وَإِنَّا » والأصل وَإِنَّا ، فاستقل ثلاث نونات فأسقط الثالثة . ﴿ يَمَّا تَدْعُونَا ﴾ الخطاب لصالح . وفى سورة « إبراهيم » « تَدْعُونَا » لأن الخطاب للرسل . ﴿ إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ من أربته فانا أربيه إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة . قال المذلل^(١) :

كُنْتُ إِذَا أَتَوْتُهُ مِنْ غَيْبٍ * يَشُمُّ عِطْفِي وَيَسْبُرُ قَوِي
كَأَنَّمَا أَرْبُتُهُ رَبِّبٌ *

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَأْقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَن آتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ تقدم معناه فى قول نوح . ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ استفهام معناه الفى ؛ أى لا ينصرنى منه إن عصيته أحد . ﴿ قَمَّازٍ يَدُوْنِي فَيْرْتَحِسِرُ ﴾ أى تضليل وإبعاد من الخير ؛ قاله الفراء .

(١) هو خاله بن زهير المذلل كما فى اللسان ؛ ومصدر البيت الأول :

* يا قوم مال دأبا ذوقب *

(٢) (يزنوبى) : يجذبه إليه :

والتخسير لهم لاله صلى الله عليه وسلم ؛ كانه قال : غير تخسير لكم لالى . وقيل : المعنى ما تريدونى باحتجاجكم بدين آباءكم غير بصيرة بخسارتكم ؛ عن ابن عباس .

قوله تعالى : (وَيَأْقُومُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ) ابتداء وخبر . (لَكُمْ آيَةٌ) نصب على الحال ، والعامل معنى الإشارة أو التنبيه فى « هذه » . وإنما قيل ناقة الله ؛ لأنه أخرجها لهم من جبل — على ما طلبوا — على أنهم يؤمنون . وقيل : أخرجها من حفرة صماء منفردة فى ناحية الجحش يقال لها الكائنة ، فلما خرجت الناقة — على ما طلبوا — قال لهم صالح : « هذه ناقة الله لكم آية » . (فَذَرُوهَا تَأْكُلْ) أمر وجوابه ؛ وحذفت النون من « فذروها » لأنه أمر . ولا يقال وذّر ولا واذر إلا شاذ . وللنحويين فيه قولان ؛ قال سيبويه : استغنوا عنه بترك . وقال غيره : لما كانت الواو ثقيلة وكان فى الكلام فعل بمعنى لا واو فيه النوى ؛ قال أبو إسحق الزجاج : ويجوز رفع « تأكل » على الحال والاستئناف . (وَلَا تَمْسُوهَا) جزم بالنهى . (يُسَوِّ) قال الفراء : بقر . (فَيَأْخُذْكُمْ) جواب النهى . (عَذَابٌ قَرِيبٌ) أى قريب من عقربها . قوله تعالى : (فَمَقَرُّوْهَا فَقَالَ يَمَتُّوْا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ) فيه مستثنان :

الأولى — قوله تعالى : (فَمَقَرُّوْهَا) إنما عقربها بعضهم ؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا الباقين . وقد تقدّم الكلام فى عقربها فى « الأعراف » . ويأتى أيضا . (فَقَالَ يَمَتُّوْا) أى قال لهم صالح تمتعوا ؛ أى بنعم الله عز وجل قبل العذاب . (فِى دَارِكُمْ) أى فى بلدكم ، ولو أراد المنزل لقال فى دوركم . وقيل : أى يتمتع كل واحد منكم فى داره ومسكنه ؛ كقوله : « يخرجكم طفلا » أى كل واحد طفلا . وصبر عن التمتع بالحياة لأن الميت لا يتلذذ ولا يتمتع بشئ ؛ فقمرت يوم الأربعاء ، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأطعمهم العذاب يوم الأحد . وإنما أقاموا ثلاثة أيام ؛ لأن الفصيل رغا ثلاثا على ما تقدم فى « الأعراف » فأصغرت ألوانهم فى اليوم الأول ، ثم أحمرت فى الثانى ، ثم أسودت فى الثالث ، وهلكوا فى الرابع ؛ وقد تقدّم فى « الأعراف » .

الثانية — استدلت علماءنا بإجاء الله العذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافرين إذا لم يُنجح على إقامة أربع ليالٍ قصر؛ لأن الثلاثة الأيام خارجة عن حكم الإقامة. وقد تقدم في «النساء» ما للعلاء في هذا.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي غير كذب. وقيل: غير مكذوب فيه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا. ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ تقدم. ﴿وَمِنْ نَحْنِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي ونجيناهم من نحرى يومئذ؛ أي من فضيحته وذاته. وقيل: الواو زائدة؛ أي نجيناهم من نحرى يومئذ. ولا يجوز زيادتها عند سيويه وأهل البصرة، وعند الكوفيين يجوز زيادتها مع «لسا» و«حتى» لا غير. وقرأ نافع والكسائي: «يَوْمَئِذٍ» بالنصب. الباكون بالكسر على إضافة «يوم» إلى «إذ». وقال أبو حاتم: حدثنا أبو زيد عن أبي عمرو أنه قرأ «ومن نحرى يومئذٍ» أدم الياء في الياء، وأضاف، وكسر الميم في «يومئذٍ». قال النحاس: الذي يرويه الصحويون — مثل سيويه ومن قاربه عن أبي عمرو في مثل هذا — الإخفاء؛ فاما الإدغام فلا يجوز، لأنه يلتقي ساكنان، ولا يجوز، كسر الزاي.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْبَةَ﴾ أي في اليوم الرابع صيغ بهم فأتوا؛ وذكر لأن الصيعة والصباح واحد. قيل: صيعة جبريل. وقيل: صيعة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض، فحطمت قلوبهم وماتوا. وقال هنا: «وأخذ الذين ظلموا الصيعة» وقال في «الأعراف» «فاخذتهم الرجفة» وقد تقدم بيانه هناك. وفي التفسير: أنهم لما أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض ما مقامكم أن يأتكم الأمر بشنة؟! قالوا: لما نصنع؟ فآخذوا سيوفهم ورمحهم وصددهم، وكانوا فيما يقال أثنى عشر ألف قبيلة، في كل قبيلة اثنا عشر ألف مقاتل، فوقفوا على الطرق والفجاج، زعموا يلاقون العذاب؛ فأوحى الله تعالى إلى الملك الموكل بالشمس أن يسد بهم نحرها،

فأدناها من ربهم فاشتوت أيديهم، وتدلت ألسنتهم على صدورهم من العطش، ومات كل ما كان معهم من البهائم . وجعل الماء يتفوق من تلك العيون من غيانه حتى يبلغ السماء، لا يسقط على شيء إلا أهلكه من شدة حره، فزالوا كذلك، وأوحى الله إلى ملك الموت ألا يقبض أرواحهم تعذيبا لهم إلى أن غربت الشمس؛ فصيح بهم فأهلكوا . (فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ) أى ساقطين على وجوههم، قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت . (أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعِدَ تَمُودَ) تقدم معناه .

قوله تعالى : (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَالَتْ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿٦٨﴾ وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ فَضْحِكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٦٩﴾)

قوله تعالى : (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى) هذه قصة لوط عليه السلام، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام ^(لوط) لحا، وكانت قرى لوط بنواحي الشام، وإبراهيم ببلاد فلسطين، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم، فظنهم أضيافا . وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام؛ قاله ابن عباس . الضحاك : كانوا تسعة . السدى : أحد عشر ملكا على صورة الغلمان الحسن الوجوه، ذوو وضاعة وجمال بارع . (بِالْبُشْرَى) قيل : بالولد . وقيل : بإهلاك قوم لوط . وقيل : بشروه بأنهم رسل الله عز وجل، وأنه لا خوف عليه . (قَالُوا سَلَامًا) نصب بوقوع الفعل عليه؛ كما تقول : قالوا خيرا . وهذا اختيار الطبري . وأما قوله : « جَيِّقُولُونَ ثَلَاثَةً » فالثلاثة آسم غير مرقول . ولو رفعا جميعا

أو نصباً جميعاً « قالوا سلاماً قال سلام » جاز في العربية . وقيل : أنتصب على المصدر .
 وقيل : « قالوا سلاماً » أى فاتحوه بصواب من القول . كما قال : « وإذا خاطبهم الجاهلون
 قالوا سلاماً » أى صواباً ؛ فسلاماً معنى قولهم لا لفظه ؛ قال معناه ابن العربي وأختره .
 قال : ألا ترى أن الله تعالى لما أراد ذكر اللفظ قاله بعينه فقال مخبراً عن الملائكة : « سلام
 عليكم بما صبرتم » « سلام عليكم طيبتم » . وقيل : دَعَا لَهُ ؛ والمعنى سَلَيْتَ سَلَامًا . (١) قال
 سلام (٢) في رفعه وجهان : أحدهما — على إضمار مبتدأ أى هو سلام ، وأمرى سلام .
 والآخر بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية ؛ فاضمر الخبر . وجاز سلام على التنكير لكثرة
 استعماله ، فحذف الألف واللام كما حذف من لاهم في قولك اللهم . وقرئ « سَلِّمْ » قال
 الفراء : السَلِّم والسَّلَام بمعنى ؛ مثل الحَلِّ والحلال .

قوله تعالى : (فَكَيْفَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) فيه أربع عشرة مسألة :^(١)

الاولى — قوله تعالى : (فَكَيْفَ أَنْ جَاءَ) « أن » بمعنى حتى ، قاله كبار
 النحويين ؛ حكاه ابن العربي . التقدير : فما لبث حتى جاء . وقيل : « أن » في موضع
 نصب بسقوط حرف الجر ؛ التقدير : فما لبث عن أن جاء ؛ أى ما أبطأ عن مجيئه بعجل ؛
 فلما حذف حرف الجر بقى « أن » في محل نصب . وفى « لبث » ضمير اسم إبراهيم .
 و « ما » نافية ؛ قاله سيويه . وقال الفراء : فما لبث مجيئه ؛ أى ما أبطأ مجيئه ؛ فأن
 في موضع رفع ، ولا ضمير في « لبث » ، و « ما » نافية ؛ ويصح أن تكون « ما » بمعنى الذى ،
 وفى « لبث » ضمير إبراهيم و « أن جاء » خبر « ما » أى فالذى لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل
 حنيذ . و « حنيذ » مشوى . وقيل : هو المشوى بجز الحجارة من غير أن تسم النار .
 يقال : حنذت الشاة أحنيذها حنذاً أى شويتها ، وجعلت فوقها حجارة تحمى لتنضجها فهي
 حنيذ . وحنذت القرس أحنيذه حنذاً ، وهو أن تحضره شوطاً أو شوطين ثم تظاهر عليه
 ليلال في الشمس ليعرق ؛ فهو محنوذ وحنيذ ؛ فإن لم يعرق قيل بكذا . وحنذ موضع قريب

(١) كذا في الأصل والمسائل المذكورة هي في آية ٧٠ و ٧١ أيضاً لا في هذه الآية لحسب .

من المدينة . وقيل : الحنيد السميطة . ابن عباس وغيره : حنيد نضيح . وحنيد بمعنى محنود ؛ وإنما جاء بسجل لأن البقر كانت أكثر أمواله .

الثانية — في هذه الآية من أدب الضيف أن يُعجل قراه ، فيقدم الموجود الميسر في الحال ، ثم يتبعه بنسيره إن كان له حجة ، ولا يتكلف ما يضر به . والضيافة من مكالم الأخلاق ، ومن آداب الإسلام ، ومن خلق النبيين والصالحين . وإبراهيم أوّل من أضاف على ما تقدم في « البقرة » وليست بواجبة عند عامة أهل العلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « الضيافة ثلاثة أيام وبجائزته يوم وليلة فما كان وراء ذلك فهو صدقة » . والجائزة العطية والصلة التي أصلها على التنب . وقال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » . وإكرام الجار ليس بواجب إجماعاً ، فالضيافة مثله . والله أعلم . وذهب الليث إلى وجوبها تمسكاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « ليلة الضيف حق » إلى غير ذلك من الأحاديث . وفيما أشرنا إليه كفاية ، والله الموفق للهداية . قال ابن العربي : وقد قال قوم : إن وجوب الضيافة كان في صدر الإسلام ثم نسخ ، وهذا ضعيف ؛ فإن الوجوب لم يثبت ، والناسخ لم يرد ؛ وذكر حديث أبي سعيد الخدري نرجه الأئمة ، وفيه : « فأستضيفناهم فأبوا أن يضيفونا فلُدغ سيد ذلك الحى » الحديث . وقال هذا ظاهر في أن الضيافة لو كانت حقاً لآلَم النبي صلى الله عليه وسلم القوم الذين آبرأ ، ولَيِّن لهم ذلك .

الثالثة — اختلف العلماء فيمن يخاطب بها ؛ فذهب الشافعي ومحمد بن عبد الحكم إلى أن المخاطب بها أهل الحضر والبادية . وقال مالك : ليس على أهل الحضر ضيافة . قال شعنون : إنما الضيافة على أهل القرى ، وأما الحضر فالفندق يتزل فيه المسافر . واحتجوا بحديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الضيافة على أهل الوبر وليست على أهل المدر » . وهذا حديث لا يصح ، وإبراهيم ابن أنس عبد الرزاق متروك الحديث منسوب

إلى الكذب ، وهذا مما انفرد به ، ونسب إلى وضعه ؛ قاله أبو عمر بن عبد البر . قال ابن العربي : الضيافة حقيقة فرض على الكفاية ، ومن الناس من قال : إنها واجبة في القرى حيث لا طعام ولا مأوى ، بخلاف الحواضر فإنها مشحونة بالمأواة والأقوات ؛ ولا شك أن الضيف كريم ، والضيافة كرامة ؛ فإن كان غريبا فهي فريضة .

الرابعة — قال ابن العربي قال بعض علمائنا : كانت ضيافة إبراهيم قليلة فشكرها الحبيب من الحبيب ، وهذا حكم بالظن في موضع القطع ، وبالقياص في موضع النقل ؛ من أين علم أنه قليل ؟ ! بل قد نقل المفسرون أن الملائكة كانوا ثلاثة ؛ جبريل وميكائيل وإسرافيل صلى الله عليهم وسلم ؛ وعجل الثلاثة عظيم ؛ لما هذا التفسير لكاتب الله بالرى ؟ ! هذا بأمانة الله هو التفسير المذموم فاجتنبوه فقد علمتموه .

الخامسة — السنة إذا قُدِّم للضيف الطعام أن يبادر المقدم إليه بالأكل ، وإن كرامة الضيف تعجيل التقديم ، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول ؛ فلما قبضوا أيديهم نكرم إبراهيم ؛ لأنهم خرجوا عن العادة ، وخالفوا السنة ، وخاف أن يكون وراهم مكروه يقصدونه ؛ وروى أنهم كانوا يَنْكُتُونَ بِقِدَاحٍ كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل أيديهم إلى اللحم ؛ فلما رأى ذلك منهم " نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً " أى أضمر . وقيل : أحس ؛ والوجوس الدخول ؛ قال الشاعر :

جاء السريدُ بقرطاسٍ يُحِبُّ به * فاوجسَ القلبُ من قرطاسه جزاءً ..

« خيفة » خوفا ؛ أى فرعا . وكانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شرا ؛ فقالت الملائكة ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ .

السادسة — من أدب الطعام أن لصاحب الضيف أن ينظر في ضيفه هل يأكل أم لا ؟ وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة لا بتجديد النظر . روى أن أعرابيا أكل مع

(١) قِدَاح (جمع قِدَح بالكسر) : السهم قيل أن ينعل ويرابش .

سليمان بن عبد الملك ، فرأى سليمان في لقمة الأعرابي شعرة فقال له : أزل الشعرة عن لقمتك ؛ فقال له : أتحظر إلى نظر من يرى الشعرة في لقمتي ؟ ! والله لا أكلت ممل .

قلت : وقد ذكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان ، وأن

الأعرابي نرج من عنده وهو يقول :

وَلَا تُوتُ خَيْرٌ مِنْ [زبارة ^(١)] باخل * يُلاحِظُ أطرافَ الأَكِيلِ على عَمَدٍ

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَنِّيهِمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ يقول أنكرهم ؛

تقول : نكرتك وأنكرتك واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهده ؛ قال الشاعر :

وَأُنْكِرُنِي وما كانَ الذي نَكِرْتُ * من الحوادثِ إلا الشَّيْبَ والصَّلَمَا

بجمع بين اللتين ، ويقال : نكرت لما تراه بعينك ، وأنكرت لما تراه بقلبك .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ﴾ ابتداء وخبر ، أي قائمة بحيث ترى الملائكة .

قيل : كانت من وراء الستر ، وقيل : كانت تخدم الملائكة وهو جالس . وقال محمد بن

إسحق : قائمة تصلي . وفي قراءة عبد الله بن مسعود « وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ وهو قاعد » .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ فَضَحِكْتُ ﴾ قال مجاهد وعكرمة : حاضت ، وكانت آيسة ؛

تحقيقاً للبهشة ؛ وأشد على ذلك اللغويون :

وإني لآتي العِرسَ عند طُهورها * وأهجرُها يوماً إذا تُكُّ ضاحِكًا

وقال آخر :

وَضَحِكُ الأَرانبِ فوق الصِّفا * كَثِيلِ دِمِ الجُوفِ يومَ اللِّقا

والعرب تقول : ضحكت الأرنب إذا حاضت ؛ وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما

وعكرمة ؛ أخذ من قولهم : ضحكت الكافورة — وهي قشرة الطلعة — إذا انشقت . وقد أنكر

بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت . وقال الجمهور : هو

الضحك المعروف ، واختلفوا فيه ؛ فقيل : هو ضحك التعجب ؛ قال أبو ذؤيب :

(١) كذا في المقد القريب ، وفي الأصول (سارة) . (٢) البيت لا معنى .

جفاء بمنزج لم ير الناس مثله * هو الضحك^(١) إلا أنه عمل النحل

وقال مقاتل : ضحك من خوف إبراهيم ، وعدته من ثلاثة نفر ، وإبراهيم في حشمه وخدمه ، وكان إبراهيم يقوم وحده بمائة رجل . قال : وليس الضحك الحيف في اللغة بمستقيم . وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك ؛ قال الفراء : لم أسمعه من ثفة ؛ وإنما هو كناية . وروى أن الملائكة مسحت العجل ، فقام من موضعه فلحق بأمه ، فضحكت سارة عند ذلك فبشروها بإسحق . ويقال : كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة تخديمهم ، فذلك قوله : « وأمرأته قائمة » أى قائمة في خدمتهم . ويقال : « قائمة » لروع إبراهيم « فضيحت » لقولهم : « لا تخف » سرورا بالأمن . وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير ؛ المعنى : فبشروها بإسحق فضيحت ؛ أى ضحكت سرورا بالولد ، وقد هيئت ؛ والله أعلم أى ذلك كان . قال النحاس فيه أقوال : أحسنها — أنهم لما لم ياكلوا أنكرهم وخافهم ؛ فلما قالوا لا تخف ، وأخبروه أنهم رسل ، فرح بذلك ، فضحكت أمرأته سرورا بفرجه . وقيل : إنها كانت قالت له : أحسب أن هؤلاء القوم سينزل بهم عذاب فظم لوطا إليك ، فلما جاءت الرسل بما قالته سرت به فضحكت ؛ قال النحاس : وهذا إن صح إسناده فهو حسن . والضحك أن يكشف الأسنان . ويجوز أن يكون الضحك إشراف الوجه ؛ تقول : رأيت فلانا ضاحكا ؛ أى مشرقا ، وأنتيت على روضة تضحك ؛ أى مشرقا . وفي الحديث « إن الله يبعث السحاب فيضحك أحسن الضحك » . جعل أنجليه عن البرق ضحكا ؛ وهذا كلام مستعار . وروى عن رجل من قراء مكة يقال له محمد بن زياد الأعرابي « فضحكت » بفتح الحاء ؛ قال المهدوي : وفتح « الحاء » من « فضحكت » غير معروف . وضحك يضحك ضحكا وضحكا وضحكا^(١) أربع لئات . والضحكة المرة الواحدة ، ومنه قول كثير :

* غلقت لضحكته رقاب المال^(٢) *

قاله الجوهري :

(١) وفسر الضحك هنا بالمثل أو التندب . راجع اللسان مادة (ضحك) .
(٢) صدر البيت : * غمر الداء إذا تبسم ضاحكا *

(١) الزيادة عن كتب اللغة .

العاشرة - روى مسلم عن مهبل بن سعد قال : دعا أبو أسيد الساعدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في عُمره ، فكانت أمرأته يومئذ خادمتهم وهى العروس . قال مهبل : أتدرون ما سقت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أنقعت له تمرات من الليل في تور^(١) ، فلما أكل سقته إياه . وأخرجه البخاري وترجم له « باب قيام المرأة على الرجال في العرس وخدمتهم بالنفس » . قال علماؤنا : فيه جواز خدمة العروس زوجها وأصحابه في عُمرها . وفيه أنه لا بأس أن يعرض الرجل أهله على صالح إخوانه ، ويستخذهن لهم . ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب . والله أعلم .

الحادية عشرة - ذكر الطبري أن إبراهيم عليه السلام لما قدم السجل قالوا : لا تأكل طعاما إلا بجن ؛ فقال لهم : « ثمنه أن تذكروا الله في أوله وتحمده في آخره » فقال جبريل لأصحابه : بحق أخذ الله هذا خيلا . قال علماؤنا : ولم يأكلوا لأت الملائكة لا تأكل . وقد كان من الجائز كما ييسر الله للملائكة أن يتشكّلوا في صفة الآدمي جسدا وهيئة أن ييسر لهم أكل الطعام ؛ إلا أنه في قول العلماء أرسلهم في صفة الآدمي وتكلف إبراهيم عليه السلام الضيافة [حتى إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشرى بخافة^(٢)] .

الثانية عشرة - ودل هذا على أن التسمية في أول الطعام ، والحمد في آخره مشروع في الأمم قبلنا ؛ وقد جاء في الإسرائيليات أن إبراهيم عليه السلام كان لا يأكل وحده ؛ فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معه ، فلقى يوما رجلا ، فلما جلس معه على الطعام ، قال له إبراهيم : سمع الله ، قال الرجل لا أدري ما الله ؟ فقال له : فانخرج عن طعاعى ، فلما خرج نزل إليه جبريل فقال له يقول الله : إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بمخلت عليه بالقمة ؛ فخرج إبراهيم فرما يهتز وداعه ، وقال : أرجع ، فقال : لا أرجع حتى تخبرنى لم تردنى لغير معنى ؟ فأخبره بالأمر ؛ فقال : هذا رب كريم ، آمنت ؛ ودخل وسمى الله وأكل مؤمنا .

(١) التور : إنا ، شرب فيه العرب ، وقد يتوسأ منه ؛ ويصنع من صفراء حجارة .

(٢) الزيادة عن ابن العربي .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾ لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر تمت سائة أن يكون لها ابن ، وأيسر لكبر سنّها ، فبشرت بولد يكون نبياً وولد نبياً ، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ قرأ حمزة وعبد الله بن عامر « يعقوب » بالنصب . ورفع الباقون ؛ فالرفع على معنى : ويحبث لها من وراء إسحق يعقوب . ويجوز أن يرتفع بالفعل الذي يعمل في « من » كأن المعنى : وثبت لها من وراء إسحق يعقوب . ويجوز أن يرتفع بالأبداء ، ويكون في موضع الحال ؛ أى بشروها بإسحق مقابل له يعقوب . والنصب على معنى : ووهبنا لها من وراء إسحق يعقوب . وأجاز الكسائي والأخفش وأبو حاتم أن يكون « يعقوب » في موضع جر على معنى : وبشرناها من وراء إسحق بـيعقوب . قال الفراء : ولا يجوز الخفض إلا بإعادة الحرف الخافض ؛ قال سيبويه ولوقلت : مررت بزيد أؤل من أمس وأمس عمرو كان قبيحا ؛ لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه وهو الواو ، كما تفرق بين الجار والمجرور ؛ لأن الجاز لا يفصل بينه وبين المجرور ، ولا بينه وبين الواو .

قوله تعالى : قَالَتْ يَنْدَوِيلَتَيَّ ۚ أَلِدُ وَأَنَاْ مَجْهُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ

هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾

فيه مستثنات :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا وَيْلَتَا ۖ ﴾ قال الزجاج : أصلها يا ويلتي ؛ فأبدل من الباء ألف ، لأنها أخف من الباء والكسرة ؛ ولم ترد الدماء على نفسها بالويل ، ولكنها كلمة تخفف على أفواه النساء إذا طرا عليهم ما يعجب منهن ؛ وعجبت من ولادتها وكون بعلمها شيخاً لخروجه عن العادة ، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر . و﴿ أَلِدُ ﴾ استفهام معناه التعجب . ﴿ وَأَنَاْ مَجْهُوزٌ ﴾ أى شيخه . ولقد عجّزت تعجّز عجّزا وعجّزت تعجّزا ؛ أى طعنت في السن .

(١) والوجه عنده (وأمس بعمرو) .

وقد يقال : عجوزة أيضا . وعجزت المرأة بكسر الجيم ؛ عظمت عجيزتها عجزا وعجزا بضم العين
وفتحها ، قال مجاهد : كانت بنت تسع وتسعين سنة . وقال ابن إسحق : كانت بنت تسعين .
وقيل غير هذا .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَهَذَا بَعْلٌ ﴾ أى زوجى . ﴿ شَيْخًا ﴾ نصب على الحال ،
والعامل فيه التنبيه أو الإشارة . « وهذا بعل » ابتداء وخبر . وقال الأخفش : وفي قراءة
أبن مسعود وأبى « وهذا بعل شيخ » قال النحاس : كما تقول هذا زيد قائم ؛ فزيد بدل من
هذا ، وقائم خبر الابتداء . ويجوز أن يكون « هذا » مبتدأ « وزيد قائم » خبرين ؛ وحكى
سيديه : « هذا حلوة حامض » . وقيل : كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : ابن مائة ؛
فكان يزيد عليها في قول مجاهد سنة . وقيل : إنها عرضت بقولها : « وهذا بعل شيخا » أى
عن ترك غشيانها لها . وسأمة هذه امرأة إبراهيم بنت هاران بن ناحور بن شاروع بن ارفو بن
فالغ ، وهى بنت عم إبراهيم . ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أى الذى بشرتمون به لشيء عجيب .
قوله تعالى : قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ
عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٢﴾
فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ لما قالت : « وأنا عجوز وهذا
بعل شيخا » وتعجبت أنكرت الملائكة عليها تعجبها من أمر الله ، أى من قضائه وقدره ؛
أى لا عجب من أن يرزقها الله الولد ، وهو إسحق . وبهذه الآية استدلت كثير من العلماء على
أن الذبيح إسماعيل ، وأنه آمن من إسحق ؛ لأنها بشرت بأن إسحق يعيش حتى يولد له
يعقوب . وميثاق الكلام في هذا ؛ وبيانه في « المصافات » ^(١) إن شاء الله تعالى .

(١) في تفسير قوله تعالى : « فلما بلغ معه السعى » آية ١٠٢ إلى قوله تعالى : « ومن ذريتهما بحسن وظلام
نفسه مبين » آية ١١٣ .

الثانية - قوله تعالى : (رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ) مبتدأ ، والخبر (عَلَيْكُمْ) وحكى سيويه « عليكم » بكسر الكاف لجاورها الياء . وهل هو خبر أو دعاء ؟ وكونه إخباراً أشرف ؛ لأن ذلك يقتضى حصول الرحمة والبركة لهم ؛ المعنى : أوصل الله لكم رحمته وبركاته أهل البيت . وكونه دعاء إنما يقتضى أنه أمر يُرجى ولم يتحصل بعد . ونصب « أهل البيت » على الاختصاص ؛ وهذا مذهب سيويه . وقيل على النداء .

الثالثة - هذه الآية تعطى أن زوجة الرجل من أهل البيت ؛ فدل هذا على أن أزواج الأنبياء من أهل البيت ؛ فمأثرة رضى الله عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ من قال الله فيهم : « وَيُطَهِّرُهُمْ تَطْهِيراً » وسيأتى .

الرابعة - ودلت الآية أيضاً على أن منتهى السلام « وبركاته » كما أخبر الله عن صالحى عباده « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » . والبركة النمو والزيادة ؛ ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا في ولد إبراهيم وسارة . وروى مالك عن وهب بن كيسان عن أبي نعيم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : كنت جالسا عند عبد الله بن عباس فدخل عليه رجل من أهل اليمن فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ؛ ثم زاد شيئاً مع ذلك ؛ فقال ابن عباس - وهو يومئذ قد ذهب بصره - من هذا ؟ فقالوا اليماني الذى يشاك ؛ فعرفوه أياه ؛ فقال : إن السلام انتهى إلى البركة . وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال : دخلت المسجد فإذا أنا بالنبي صلى الله عليه وسلم في عصبة من أصحابه ؛ فقلت : السلام عليكم ؛ فقال : « وعليك السلام ورحمة الله عشرون لى وعشرون لك » . قال : ودخلت الثانية ؛ فقلت : السلام عليكم ورحمة الله فقال : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لى وعشرون لك » . فدخلت الثالثة فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فقال : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لى وثلاثون لك أنا وأنت في السلام سواء » . (إِنَّهُ حَيْدٌ حَيْدٌ) أى محمود ماجد . وقد بينهما في « الأسماء » .

قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا
 فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتْلُو آيَاتِهِمْ فَأُعْرِضُ
 عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَاتٍ مِنْ غَيْرِ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾
 قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أى الخوف ؛ يقال : ارتاع من كذا إذا
 خاف ؛ قال النابغة :

فارتاع من صَوْتِ كَلَابٍ فَبَاتَ لَهُ • طَوَعَ الشَّوَابِيتَ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرَدٍ
 ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ أى يباسحق ويعقوب . وقال قتادة : بشروه بأنهم إنما أتوا بالعذاب
 إلى قوم لوط ، وأنه لا يخاف . ﴿يُجَادِلُنَا﴾ أى يجادل رسلنا ؛ وأضاف إلى نفسه ، لأنهم نزّلوا
 بأمره . وهذه المجادلة رواها حميد بن هلال عن جُنْدُب عن حُذَيْفَةَ ؛ وذلك أنهم لما قالوا :
 « إنا مهلكو أهل هذه القرية » قال لهم : أرايتم إن كان فيها خمسون من المسلمين
 أتهلكونهم ؟ قالوا : لا . قال : فأربعون ؟ قالوا : لا . قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا . قال :
 فعشرون ؟ قالوا : لا . قال : فإن كان فيها عشرة — أو خمسة شك حميد — قالوا : لا
 قال قتادة : نحواً منه ؛ قال فقال يعنى إبراهيم : قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير
 فيهم . وقيل إن إبراهيم قال : أرايتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا . فقال
 إبراهيم عند ذلك : « إنا فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيته وأهله إلا أمراته
 كانت من الغابرين » . وقال عبد الرحمن بن سُمَيَّة : كانوا أربعمائة ألف ، أبى جريح : وكان
 في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف . ومذهب الأخفش والكسائي أن « يجادلنا » فى موضع
 « جادلنا » . قال النحاس : لما كان جواب « لما » يجب أن يكون بالماضى جعل المستقبل
 مكانه ؛ كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل فجعل الماضى مكانه . وفيه جواب آخر — أن
 يكون « يجادلنا » فى موضع الحال ؛ أى أقبل يجادلنا ؛ وهذا قول الفراء . ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ

(١) الكلاب : صاحب الكلاب . يصف الشاعر ثورا وحشيا بأنه بات من الخوف الذى أحركه ، والبرد الذى
 أصابه ميت سوء ، ومجهل ذلك الحال يسر أعماه .

أَوَاهُ مَيْبٌ ﴿١١﴾ تقسم في « براءة » معنى « لأواه حليم » . والمنيب الراجح ؛ يقال : أناب إنا رجع . وإبراهيم صلى الله عليه وسلم كان راجعا إلى الله تعالى في أموره كلها . وقيل : الأواه المتأوه أسفا على ما قد فات قوم لوط من الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ أى دع عنك الجدال في قوم لوط . ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أى عذابه لهم . ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ ﴾ أى نازل بهم . ﴿ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ أى غير مصروف عنهم ولا مدفوع .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ وَبِأَنفُسِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿١٢﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿١٤﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ إِيَّائِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿١٥﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ ﴿١٧﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ ﴾ لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم ، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ بصرت بنات لوط - وهما تستقيان - بالملائكة

ورأنا هيئة حسنة؛ فقالنا: ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا: من موضع كذا نريد هذه القرية .
 قالنا: فإن أهلها أصحاب الفواحش؛ فقالوا: أيها من يضيفنا؟ قالنا: نعم! هذا الشيخ؛
 وأشارتا إلى لوط؛ فلما رأى لوط هيئةهم خاف قومه عليهم . ﴿سَيِّئَ رِيْسِهِمْ﴾ أى ساء مجيئهم؛
 يقال: ساء يسوء فهو لازم، وساءه يسوءه فهو متعد أيضا، وإن شئت ضمنت السين؛ لأن
 أصلها الضم، والأصل سُوئى بهم من السوء؛ قلبت حركة الواو على السين فانقلبت ياء،
 وإن خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء فقلت: «سَيِّئَ رِيْسِهِمْ» غنفا، ولغة شاذة بالتشديد .
 ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أى ضاق صدره يجيئهم وكرهه . وقيل: ضاق وسعه وطاقته . وأصله
 أن يترع البعير بيديه في سيرة ذرعا على قدر سعة خطوه؛ فإذا حِيلَ على أكثر من طَوْفه ضاق
 عن ذلك، وضعف وهذ عنقه؛ فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع . وقيل هو من ذرعه
 القى أى غلبه؛ أى ضاق عن حبسه المكروه في نفسه، وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من
 جامهم، وما يعلم من فسق قومه . وقال: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أى شديد في الشر . وقال
 الشاعر:

وَإِنَّكَ إِلَّا تَرْضَى بَكَرَ بْنَ وَاثِلٍ * يَكُنْ لَكَ يَوْمَ الْعِرَاقِ عَصِيبٌ

وقال آخر:

يَوْمٌ عَصِيبٌ يَعَصِيبُ الْأَبْطَالَ * عَصَبَ الْقَوَى السَّلْمِ الطَّوَالَا

ويقال: عَصِيبٌ وَعَصِيبٌ عَلَى الْكَثِيرِ؛ أى مكروه مجتمع الشر وقد عصب؛ أى عصب
 بالشر عصابة؛ ومنه قيل: عَصْبَةٌ وَعَصَابَةٌ أى مجتمعو الكلمة؛ أى مجتمعون في أنفسهم .
 وَعَصْبَةُ الرَّجُلِ الْمُتَجَمِّعُونَ مَعَهُ فِي النَّسَبِ؛ وَتَعَصَّبَتْ لِفُلَانٍ صُرْتُ كَعَصْبَتِهِ، وَرَجُلٌ مَعْصُوبٌ،
 أى مجتمع الخلق .

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ في موضع الحال . «يهرعون» أى يسرعون .
 قال الكسائي والفراء وغيرهما من أهل اللغة: لَا يَكُونُ الْإِهْرَاعُ إِلَّا إِسْرَاعًا مَعَ رِعْدَةٍ؛ يقال:
 أَهْرَعَ الرَّجُلُ إِهْرَاعًا أَيْ أَسْرَعَ فِي رِعْدَةٍ مِنْ بَرْدٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ حُمًى، وَهُوَ مُهْرَعٌ؛ قَالَ مُهْلِيلُ:

بِغَاوَا يَهُرْعُونَ وَهُمْ أَسَارَى * تَقْوُدُهُمْ عَلَى رَغَمِ الْأَنْوِفِ

وقال آخر :

* بِمَجَلَّاتٍ نَحْوَهُ مَهَارِع *

وهذا مثل : أوليع فلان بالأمر ، وأرعد زيد ، وزهى فلان ، وتجيء ولا تستعمل إلا على هذا الوجه . وقيل : أهرع أى أهرمه حرصه ؛ وعلى هذا « يهرعون » أى يُسْتَحْتَوْنَ عليه . ومن قال بالأول قال : لم يسمع إلا أهرع الرجل أى أسرع ؛ على لفظ ما لم يسم فاعله . قال ابن القوطية : هرع الإنسان هَرَمًا ، وأهرع : سيق وأستعجل . وقال الهروي : يقال : هرع الرجل وأهرع أى أَسِجَحَتْ . قال ابن عباس وقتادة والسدي : « يهرعون » يهرولون . الضحاك : يَسْعَوْنَ . ابن عيينة : كأنهم يدفعون . وقال شمر بن عطية : هو مشى بين الهرولة والجَزَى . وقال الحسن : مشى بين مشيين ؛ والمعنى متقارب . وكان سبب إسماعهم ماروى أن امرأة لوط الكافرة ، لما رأت الأضياف وجماهم وهيتهم ، خرجت حتى أتت مجالس قومها ، فقالت لهم : إن لوطا قد أضاف الليلة فنية ما رؤى مثلهم جمالا ، وكذا وكذا ؛ فحينئذ جاءوا يهرعون إليه ، ويذكرون أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطا في حرث له . وقيل : وجدوا أبنته تستقي ماء في نهر سدوم ؛ فسألوها الدلالة على من يضيفهم ، ورات هيتهم تخافت عليهم من قوم لوط ، وقالت لهم : مكانكم ! وذهبت إلى أبيها فأخبرته ، فخرج إليهم ؛ فقالوا : نريد أن تضيفنا الليلة ؛ فقال لهم : أوما سمعتم بعمل هؤلاء القوم ؟ فقالوا : وما عملهم ؟ فقال أشهد بالله إنهم لشر قوم في الأرض — وقد كان الله عز وجل قال ملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات — فلما قال لوط هذه المقالة ، قال جبريل لأصحابه : هذه واحدة ، وتردد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات ، ثم دخل بهم المدينة .

قوله تعالى : (وَمَنْ قَبْلَ) أى ومن قبل عصى الرسل . وقيل : من قبل لوط . (كَانُوا يَفْعَلُونَ السَّيِّئَاتِ) أى كانت عاداتهم إثيان الرجال . فلما جاءوا إلى لوط وقصصوا أضيافه

قام إليهم لوط مدافعا ، وقال : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ ابتداء وخبر . وقد اختلف في قوله : « هَؤُلَاءِ بَنَاتِي » فقيل : كان له ثلاث بنات من صلبه . وقيل : بنتان ؛ رثيا وزعوراء ؛ فقيل : كان لهما سيدتان مطاعان فأراد أن يزوجهما أختيه . وقيل : نكحهما في هذه الحالة إلى النكاح ، وكانت سنتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة ؛ وقد كان هذا في أول الإسلام جائزا ثم نسخ ؛ فزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنتا له من عتبة بن أبي لمب . والأخرى من أبي العاص بن الربيع قبل الوحي ، وكانا كافرين . وقالت فرقة - منهم مجاهد وسعيد بن جبير - أشار بقوله : « بَنَاتِي » إلى النساء جملة ؛ إذ نبي القوم أب لهما ؛ ويقوى هذا أن قراءة ابن مسعود « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهن » . وقالت طائفة : إنما كان الكلام مدافعة ولم يرد إرضاء ؛ روى هذا القول عن أبي عبيدة ؛ كما يقال لمن ينهى عن أكل مال الغير : التحذير أحل لك من هذا . وقال عكرمة : لم يمرض عليهم بناته ولا بنات أمته ، وإنما قال لهن هذا لينصرفوا .

قوله تعالى : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ابتداء وخبر ؛ أي أزوجكموهن ؛ فهو أظهر لكم مما تريدون ، أي أحل . والطهارة التنزه عما لا يحل . وقال ابن عباس : كان رؤسائهم خطبوا بناته فلم يجمعهم ، وأراد ذلك اليوم أن يهدى أضيافه بناته . وليس ألف « أظهر » للتفضيل حتى يتوهم أن في نكاح [الرجال] طهارة ، بل هو كقولك : الله أكبر وأعلى وأجل ، وإن لم يكن تفضيلا ؛ وهذا جائز شائع في كلام العرب ، ولم يكابر الله تعالى أحد حتى يكون الله تعالى أكبر منه . وقد قال أبو سفيان بن حرب يوم أحد : ^١ « أَهْلُ هَبْلٍ أَهْلُ هَبْلٍ » فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : « قل الله أعلى وأجل » . وهبل لم يكن قط عاليا ولا جليلا . وقرأ العامة برفع الراء . وقرأ الحسن وعيسى بن عمرو « هُنَّ أَطْهَرُ » بالنصب على الحال . و « هن » عماد . ولا يميز الخليل وسيبويه والأخفش أن يكون « هن » هاهنا عمادا ، وإنما يكون عمادا فيما لا يتم الكلام إلا بما بعدها ، نحو كان زيد هو أخاك ، لتدل بها على أن الأخ ليس بنعت .

(١) في الأصل (النساء) وهو محرف . (٢) أي أظهر دينك .

قال الزجاج : ويدل بها على أن كان محتاج إلى خبر . وقال غيره : يدل بها على أن الخبر معرفة أو ما قاربها .

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُوا فِي صَبِيئِكُمْ ﴾ أي لا تهنئوني ولا تذلوني . ومنه قول حسان :

فأنزلك ربى يا عتيب بن مالك * ولتلك قبل الموت إحدى الصواعق
مددت يميناً للنبي تعمداً * ودبت فاه قطعاً بالسوارق
ويموز أن يكون من الخزاية ؛ وهو الحياء ، وأنجل ؛ قال ذو الرمة :
خزاية أدركته بعد جوثته * من جانب الحبل غلوها بها الغضب
وقال آخر :

من البيض لا تخزي إذا الريح ألصقت * بها مرطها أو زایل الحبل جيدها
وضيف يقع للأثنين والجمع على لفظ الواحد ؛ لأنه في الأصل مصدر ؛ قال الشاعر :
لا تسمى الدهر شفار الجازر * للضيف والضيف أحق زائر

ويموز فيه التثنية والجمع ؛ والأقول أكثر كقولك : رجال صوم وفطر وزور . وتخزي الرجل خزاية ؛ أي استحيا مثل ذل وهان . وتخزي خزياً إذا انفضح ؛ يخزي فيهما جميعاً . ثم ويخضم بقوله : ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ أي شديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وقيل : « رشيد » أي ذورشد . أو بمعنى راشد أو مرشد ، أي صالح أو مصلح . ابن عباس : مؤمن . أبو مالك : ناه عن المنكر . وقيل : الرشيد بمعنى الرشد ، والرشد والرشد الهدى والاستقامة . ويموز أن يكون بمعنى المرشد ؛ كالحكيم بمعنى المحكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ ﴾ روى أن قوم لوط خطبوا بناته فردهن ، وكانت ستهن أن من رد في خطبة امرأة لم يحل له أبداً ؛ فذلك قوله تعالى :

(١) (نزاية) أي من الخزاية . والحبل هو حبل الزبل . والكلام في وصف نور وحش تطارده الكلاب . وقوله : حتى إذا حوت في الأرض راجعه * كبر ولو شاء نجى قسه الحرب يعني أن الثورائف من الحرب فرجع إلى الكلاب .

« قالوا لقد علمت ما لنا في بنائك من حق » وبعد ألا تكون هذه الخاصية فوجه الكلام أنه ليس لنا إلى بنائك تعلق، ولا حق قصدنا، ولا لنا عادة نطلب ذلك ، (وَأَنْتَ لَتَعْلَمَ مَا نُرِيدُ) إشارة إلى الأضياف .

قوله تعالى : (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ) لما رأى استقرارهم في غيهم ، وضعف عنهم ، ولم يقدر على دفعهم ، تمنى لو وجد عوناً على ردهم ، فقال على جهة التضعيف والاستكثارة : « لو أن لي بكم قوة » أى أنصاراً وأعواناً . وقال ابن عباس : أراد الولد . و « أنت » فى موضع رفع بفعل مضمر ، تقديره : لو اتفق أو وقع . وهذا يطرد فى « أن » التابعة لـ « لو » . وجواب « لو » محذوف ، أى لرددت أهل الفساد ، وجلت بينهم وبين ما يريدون . (أَوْ أَوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) أى ألبأ وأنضوى . وقرئ « أَوْ أَوَى » بالنصب عطفاً على « قوة » كأنه قال : لو أن لي بكم قوة أو إيواء إلى ركن شديد ، أى وأن أوى ، فهو منصوب بإضمار « أن » ومراد لوط بالركن المشيرة ، والمنعة بالكثرة . وبلغ به قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع عليه بما عند الله تعالى ، فيروى أن الملائكة وجدت عليه حين قال هذه الكلمات ، وقالوا : إن ركلك لشديد . وفى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ^(١) « يرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد » الحديث ، وقد تقدم فى « البقرة » ، وخرجه الترمذى ، وزاد « ما بعث الله بعده نبياً إلا فى ثروة من قومه » ، قال محمد بن عمرو : والثروة الكثرة والمنعة ؛ حديث حسن . ويروى أن لوطاً عليه السلام لما غلبه قومه ، وهموا بكسر الباب وهو يسكنه ، قالت له الرسل : تنح عن الباب ، فتنحى وانفتح الباب ، فضرهم جبريل بمحاضه فطمس أعينهم ، وعصوا وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاء ؛ قال الله تعالى : « ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم » . وقال ابن عباس وأهل التفسير : أغلق لوط بابَه والملائكة معه فى الدار ، وهو يناظر قومه ويتأشدهم من وراء الباب ، وهم يباحون تسوُّراً للجنار ، فلما رأت الملائكة مالتى من الجهد والركب والنصب بسببهم ، قالوا : يا لوط إن ركلك لشديد ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ،

وإنا رسل ربك ؛ فافتح الباب ودعنا وإياهم ؛ ففتح الباب فضر بهم جبريل مجناحه على ما تقدم . وقيل : أخذ جبريل قبضة من تراب وأذراها في وجوههم ، فأوصل الله إلى عين من بعد ومن قرب من ذلك التراب فطمس أعينهم ، فلم يعرفوا طريقا ، ولا أهدوا إلى بيوتهم ، وجعلوا يقولون : النجاء النجاء ! فإن في بيت لوط قوما هم أسحر من على وجه الأرض ، وقد سمحونا فاعموا أبصارنا . وجعلوا يقولون : يا لوط كما أنت حتى نصبح نسترى ؛ يتوعدونه .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ لما رأت الملائكة حزنه واضطرابه ومدافعتيه عرفوه بأنفسهم ، فلما علم أنهم رسل مكن قومه من الدخول ، فأمر جبريل عليه السلام يده على أعينهم فعموا ، وعلى أيديهم فحقت . ﴿ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ أى بمكره . ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ قرئ « فأسر » بوصل الألف وقطعها ؛ لفتان فصيحتان . قال الله تعالى : « وَاللَّيْلَ إِذَا بَسَر » وقال : « مُبْحَانَ الَّذِي أَمْسَى » . وقال النابغة : جفع بين اللغتين : أسرت عليه من الجوزاء سارية^(١) * تزجي الشمال عليه جامد البرد وقال آخر :

سعى التضيرة ربه الحندير * أسرت إليك ولم تكن تسرى
وقد قيل : « فَأَسْرِ » بالقطع إذا سار من أول الليل ، وسرى إذا سار من آخره ؛ ولا يقال في النهار إلا سار ، وقال لبيد :

إذا المرء أسرى ليلة ظن أنه * قضى عملاً والمرء ما عاش عامل

وقال عبد الله بن رواحة :

عند الصياح يحمّد القوم السرى * وتجنّلي عنهم غيابات الكرى

﴿ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ قال ابن عباس : بطائفة من الليل . الضحاك : ببقية من الليل . قتادة : بعد مضى صدر من الليل . الأخفش : بعد جنح من الليل . ابن الأعرابي : بساعة من الليل . وقيل : بظلمة من الليل . وقيل : بعد هدوء من الليل . وقيل : هزيع من

(١) ويروى (سرت) . يقول : إن السحابة سرت في الجوزاء ، فذلك شبهها بالجوزاء .

الليل . وكلها متقاربة ؛ وقيل : إنه نصف الليل ؛ مأخوذ من قطعه نصفين ؛ ومنه قول الشاعر^(١) :

ونائحة تنوحُ يقطع ليل * على رجل بقارة الصعيد

فإن قيل : السرى لا يكون إلا بالليل ، فما معنى « يقطع من الليل » ؟ فالجواب : أنه لو لم يقل : « يقطع من الليل » جاز أن يكون أوله . (وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ : أى لا ينظر وراءه منكم أحد ؛ قاله مجاهد . ابن عباس : لا يتخلف منكم أحد . على بن عيسى : لا يشغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو متاع . (إِلَّا أَمْرًا تَكُ) بالنصب ؛ وهى القراءة الواضحة البينة المعنى ؛ أى فأسر وأهلك إلا أمراً تَكُ ، وكذا فى قراءة ابن مسعود « فأسر وأهلك إلا أمراً تَكُ » فهو استثناء من الأهل . وعلى هذا لم يخرج بها معه . وقد قال الله عز وجل : « كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ » أى من الباقين . وقرأ أبو عمرو وآبن كثير « إِلَّا أَمْرًا تَكُ » بالرفع على البدل من « أحد » . وانكر هذه القراءة جماعة منهم أبو عبيد ؛ وقال : لا يصح ذلك إلا برفع « يلتفت » ويكون نعتاً ؛ لأن المعنى يصير - إذا أبدلت وجزمت - أن المرأة أبيع لها الالتفات ، وليس المعنى كذلك . قال النحاس : وهذا الحمل من أبى عبيد وغيره على مثل أبى عمرو مع جلالته ومحله من العربية لا يجب أن يكون ؛ والرفع على البدل له معنى صحيح . والتأويل له على ما حكى محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد أن يقول الرجل لحاجبه : لا يخرج فلان ؛ فلفظ النهى لفلان ومعناه للعاظم ؛ أى لا تدعه يخرج ؛ ومثله قولك : لا يقيم أحد إلا زيد ؛ يكون معناه : إنهم عن القيام إلا زيدا ؛ وكذا النهى للوط ولفظه لغيره ؛ كأنه قال : إنهم لا يلتفت منهم أحد إلا أمراً تَكُ . ويجوز أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات لأنه كلام تام ؛ أى لا يلتفت منكم أحد إلا أمراً تَكُ فإنها تلتفت وتهلك ، وأن لوطاً خرج بها ، ونهى من معه من أسرى بهم ألا يلتفت ، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجته ؛ فإنها لما سمعت هتة العذاب التفت وقالت : واقوما ! فادركها حجر فقتلها . (إِنَّهُ مُصِيبُهَا)

أى من العذاب . والكآفة في « إنه » ترجع إلى الأمر والشأن ؛ أى فإن الأمر والشأن والقصة . (مُصِيبُهُمَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) لما قالت الملائكة : « إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ » قال لوط : الآن الآن . استعملهم بالعذاب لفظه على قومه ، فقالوا : (أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) وقرأ عيسى ابن عمر « أليس الصُّبْحُ » بضم الباء وهى لغة . ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتاً لملاكهم ؛ لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع . وقال بعض أهل التفسير : إن لوطاً خرج بابتئيه ليس معه غيرها عند طلوع الفجر ، وأن الملائكة قالت له : إن الله قد وكل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد ، وخطف برق ، وصواعق عظيمة ، وقد ذكرنا لم أن لوطاً سيخرج فلا تؤذوه ؛ وأمارته أنه لا يلتفت ، ولا تلتفت أبنائه فلا يهولنك ما ترى ؛ فخرج لوط وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم . قوله تعالى : (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) أى عذابنا . (جَعَلْنَا طَالِيَهَا سَافِلَهَا) وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، وهى خمس : سلمو — وهى القرية العظمى — وطامورا ، ودادوما ، وضعوه ، وقم^(١) ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ؛ حتى سمع أهل السماء نقيق حرمهم وصياح ديكهم ، لم تكنفى لهم جرة ، ولم ينكسر لهم إناء ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، وأتبعهم الله بالجمجمة . مقاتل : أهلكت أربعة ، ونجت ضعوه . وقيل : فيهذا ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ) دليل على أن من فعل فعلهم حكاه الرجم ؛ وقد تقدم في « الأعراف » . وفى التفسير : أمطرننا فى العذاب ، ومطرنا فى الرحمة . وأما كلام العرب فيقال : مطرت السماء وأمطرت ؛ حكاه الهروى . واختلف فى « السجيل » فقال النحاس^(٢) : السجيل الشديد الكثير ؛ وسجيل وسجين اللام والتون أختان . وقال أبو عبيدة : السجيل الشديد الكثير ؛ وأنشد^(٣) :

* ضَرْبًا تَوَاصَى بِهِ الْأَبْطَالُ بِحَيَاتَا *

(١) فى ضبط هذه القرى اختلاف ؛ فلما ذكرها بعض المفسرين . (٢) راجع به ٧ ص ٢٤٣ طبة أول اراتانية . (٣) كذا فى بعض الأصول ، وفى البعض الآخر (البخارى) . (٤) سياتى اليه بتمامه فى ص ٨٣ .

قال النحاس : وردّ عليه هذا القول عبد الله بن مسلم وقال : هذا محجل وذلك محجل فكيف يستشهد به ؟ قال النحاس : وهذا الرد لا يلزم ؛ لأن أبا عبيدة ذهب إلى أن اللام تبدل من التون لقرب إحداهما من الأخرى ؛ وقول أبي عبيدة يردّ من جهة أخرى ؛ وهى أنه لو كان على قوله لكان حجارة محجلاً ؛ لأنه لا يقال حجارة من شديد ؛ لأن شديداً نعت . وحكى أبو عبيدة عن الفراء أنه قد يقال لحجارة الأرحاء محجل . وحكى عنه محمد بن الجهم أن محجلاً طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء . وقالت طائفة منهم ابن عباس وسعيد بن جبير وابن إسحق : إن محجلاً لفظة غير عربية عربت ، أصلها سنج ورجل . ويقال : سنك وركل ؛ بالكاف موضع الحميم ، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فعملتهما اسماً واحداً . وقيل : هو من لغة العرب . وقال قتادة وعكرمة : السجيل الطين بدليل قوله : « ليرسل عليهم حجارة من طين » . وقال الحسن : كان أصل الحجارة طينا فشددت . والسجيل عند العرب كل شديد صلب . وقال الضحاك : يعنى الآجر . وقال ابن زيد : طين طبخ حتى كان كالآجر ؛ وعنه أن محجلاً اسم السماء الدنيا ؛ ذكره الهروي ؛ وحكاه التلعي عن أبي العالية ؛ وقال ابن عطية : وهذا ضعيف يردّه وصفه بـ « منضود » . وعن عكرمة أنه بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض منه نزلت الحجارة . وقيل : هى جبال فى السماء ، وهى التى أشار الله تعالى إليها بقوله : « ويتزل من السماء من جبال فيها من برد » . وقيل : هو مما يحجل لهم أى كتب لهم أن يصيبهم ؛ فهو فى معنى يحجل ؛ قال الله تعالى : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَصِيبُكَ . يَكَابُ مَرْقُومٌ » قاله الزجاج وأختره . وقيل : هو فيل من أمجسته أى أرسلته ؛ فكأنها مرسلّة عليهم . وقيل : هو من أمجسته إذا أعطيته ؛ فكأنه عذاب أعطوه ؛ قال :

مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلْ مَا جَدَا * يَمْلَأُ الدُّلُو إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ

(١) البيت للفضل بن عباس بن حبة بن أبي لمب . وأصل المساجلة أن يستق ساقيان فيخرج كل واحد منهما في سمحه (دلو) مثل ما يخرج الآخر فاهما تكل فقد غلب ؛ فغربه العرب مثلاً لقنطرة . والكر : الحبل الذى يشد على الدلو بعد المني وهو الحبل الأول .

وقال أهل الممانى : السَّجِيل والسَّجِين الشديد من الحجر والضَّرب ؛ قال ابن مقبل :

وَرَجَلَةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً ^(١) * ضَرْبًا تَوَاصَى بِهِ الْأَبْطَالُ سَيِّئًا

(منضود) قال ابن عباس : متابع . وقال قتادة : نُضِد بعضها فوق بعض . وقال الزبيع : نُضِد بعضها على بعض حتى صار جسدا واحدا . وقال عكرمة : مصفوف . وقال بعضهم مرصوص ؛ والمعنى متقارب . يقال : نُضِدَت المتاع والآلِين إذا جعلت بعضها على بعض ، فهو منضود ونُضِيد ونُضِد ؛ قال :

* وَرَفَعَتْهُ إِلَى السَّجَّيْنِ فَالْتَضِيدِ *

وقال أبو بكر الهذلي : مُعَد ؛ أى هو ما أعدّه الله لأعدائه الظلمة . (مُسَوِّمَةٌ) أى معامة ، من السِّيا وهى العلامة ؛ أى كان عليها أمثال الخواتيم . وقيل : مكتوب على كل حجر أرم من رُمى به ، وكانت لاتشا كل حجارة الأرض . وقال الفراء : زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد فى بياض ، فذلك تسويمها . وقال كعب : كانت معامة بياض وحمرة ، وقال الشاعر ^(٢) :

فَلَا مَ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْحَسَنِ يَأْفِئًا * لَهُ سِيْمَاءٌ لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرِ

و «مُسَوِّمَةٌ» من نعت حجارة . و «منضود» من نعت «سجيل» . وفى قوله : (عند ربك) دليل على أنها ليست من حجارة الأرض ؛ قاله الحسن . (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ) يعنى قوم لوط ؛ أى لم تكن تخطئهم . وقال مجاهد : يُرْهِبُ قُرَيْشًا ؛ المعنى : ما الحجارة من ظالمى قومك يا محمد ببعيد . وقال قتادة وعكرمة : يعنى ظالمى هذه الأمة ؛ والله ما أجار الله منها ظالما بعد . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «سيكون فى آخر أمتى قوم يكتنى رجالهم بالرجال ونسائهم بالنساء فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قوم لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل» ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ

(١) روى فى اللسان : (يضرِبون البيض من مرض) .

(٢) البيت لأبيد بن عطاء الفزاري يمدح عميلة حين قاسمه ماله ؛ وبهذه :

كَانَ الثَّرَاءُ عَقَّتْ فَوْقَ نَحْرِهِ * وَفِي جَيْدِهِ الشَّعْرَى وَفِي وَجْهِهِ الْقَمَرُ

وقوله : (له سيماء لا تشق على البصر) أى يفرح به من يراه .

بَعِيدٌ . وفي رواية عنه عليه السلام " لا تذهب الليالي والأيام حتى تستحل هذه الأمة أدبار الرجال كما استحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف هذه الأمة حجارة من ربك " . وقيل : المعنى ما هذه القرى من الظالمين ببعيد ؛ وهي بين الشام والمدينة . وجاء « ببعيد » مذكرا على معنى يمكن بعيد ، وفي الحجارة التي أمطرت قولان : أحدهما — أنها أمطرت على المدن حين رفضها جبريل . الثاني — أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها وكان خارجا عنها .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۖ قَالَ يَنْقُومَ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بِحَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ ﴿١٦٦﴾ وَيَنْقُومُ أَوْفُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٦٧﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٦٨﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَحْتَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا كَسَبُوا ۖ إِنَّكَ لَآتٍ الْحَلِيمَ الرَّشِيدُ ﴿١٦٩﴾ قَالَ يَنْقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفَكَ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٧٠﴾ وَيَنْقُومُ لَا يَجْرِمَنَّكَ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكَ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿١٧١﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿١٧٢﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّنَكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ

وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ ﴿١٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ اأَرْهَيْتُ أَعْرُءَ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ
وَأَتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٨﴾ وَيَقَوْمِ
اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَمَنْ هُوَ كَذِيبٌ وَارْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿١٩﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ
فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثَمِينَ ﴿٢٠﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ
كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : (وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا) أى وأرسلنا إلى مدِين ، ومدِين هم قوم
شعيب . وفى تسميتهم بذلك قولان : أحدهما — أنهم بنو مدِين بن إبراهيم ؛ فقيل : مدِين
والمراد بنو مدِين . كما يقال مُضَرُّ والمراد بنو مُضَر . الثانى — أنه أسم مدِينتهم ، ففسبوا
إليها . قال النحاس : لا يتصرف مدِين لأنه أسم مدينة ؛ وقد تقدّم فى « الأعراف »^(١) هذا
المعنى وزائدة . (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) هتَم . (وَلَا تَقْصُوا أَلْيَاتِ
وَالْمَزَازَ) كانوا مع كفرهم أهل بحس وتطفيف ؛ كان إذا جامعهم البائع بالطعام أخذوا بكل
زائد ، وأستوفوا بناية ما يقدرون وظلموا ؛ وإن جامعهم مشتري للطعام باعوه بكل ناقص ،
وشخصوا له بناية ما يقدرون ؛ فأمرُوا بالإيمان إقلاعا عن الشرك ، وبالوفاء نهيًا عن التطفيف .
(إِنِّي أَرَأَيْتُمْ يَتَّبِعُرْ) أى فى سعة من الرزق ، وكثرة من النعم . وقال الحسن : كان سعرهم
رخيصا . (وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٌ) وصف اليوم بالإحاطة ، وأراد وصف ذلك
اليوم بالإحاطة بهم ؛ فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم ، وهو كقولك :
يوم شديد ؛ أى شديد حره . واختلف فى ذلك العذاب ؛ فقيل : هو عذاب النار فى الآخرة .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤٧ طبعة أدب أدبية .

وقيل : مذاب الاستئصال في الدنيا . وقيل : غلاء السعر؛ روى معناه عن ابن عباس .
وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ما أظهر قوم البخس في المكيال والميزان
إلا ابتلاهم الله بالفحط والغلاء " . وقد تقدم .

قوله تعالى : (وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن
التطيف تأكيذا . والإيفاء الإتمام . « بالقسط » أى بالعدل والحق، والمقصود أن يصل
كل ذى نصيب إلى نصيبه ؛ وليس يريد إيفاء المكيل والموزون لأنه لم يقل : أوفوا بالمكيال
والميزان ؛ بل أراد لا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود، وكذا الصنجات . (وَلَا تَجَسَّسُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ) أى لا تنقصوهم مما استحقوه شيئا . (وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) بين أن
الخيانة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض ؛ وقد مضى في « الأعراف » زيادة
لهذا ، والحمد لله .

قوله تعالى : (بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ) أى ما يقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر
بركة، وأحد طائفة مما تبقونه أتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبر والظلم؛ قال معناه الطبري .
وغیره . وقال مجاهد : « بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ » يريد طاعته . وقال الزبيع : وصية الله . وقال
الفتراء : مراقبة الله . بن زيد : رحمة الله . قتادة والحسن : حفظكم من ربكم خير لكم . وقال
ابن عباس : رزق الله خير لكم . (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا
إن كانوا مؤمنين . وقيل : يحتمل أنهم كانوا يعترفون بأن الله خالقهم فحافظهم بهذا . (وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِحَافِظٍ) أى رقيب أرقبكم عند كلكم ووزنكم؛ أى لا يمكنني شهود كل معاملة تصدر
منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق . وقيل : أى لا يتبها لى أن أحفظكم من إزالة نعم الله عليكم
بمصاصكم .

قوله تعالى : (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ) وقرئ « أَصَلَاتُكَ » من غير جمع . (تَأْمُرُكَ أَنْ
تُفْرِكَ مَا بَيْنَهُمْ) « أن » في موضع تفسير؛ قال الكسائي : موضعها خفض على إضمار الباء .

وروى أن شعيبا عليه السلام كان كثير الصلاة، مواظبا على العبادة فرضها ونفلها ويقول : الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فلما أمرهم ونهاهم عبروه بما رأوه يستمر عليه من كثرة الصلاة، واستهزؤا به فقالوا ما أخبر الله عنهم . وقيل : إن الصلاة هنا بمعنى القراءة ، قاله سفيان عن الأعمش ، أى قراءة تك تأمرك ؛ ويدل هذا على أنهم كانوا كفارا . وقال الحسن : لم يبعث الله نبيا إلا فرض عليه الصلاة والزكاة . (أَوْ أَنَّ نَفْعَلٍ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ) زعم الفراء أن التقدير : أو تنها أن تفعل في أموالنا ما نشاء . وقرأ السلمي والضحاك ابن قيس «أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء» بالياء في الفعلين ، والمعنى : ما نشاء أنت يا شعيب . وقال النحاس : «أو أن» على هذه القراءة معطوفة على «أن» الأولى . وروى عن زيد بن أسلم أنه قال : كان مما نهاهم عنه حذف الدرهم . وقيل : معنى «أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء» إذا راضينا فيما بيننا بالبخس فلم تمنعنا منه ١٩ . (إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) يعنون عند نفسك بزعمك ، ومثله في صفة أبي جهل : «ذق إنك أنت العزيز الكريم» أى عند نفسك بزعمك . وقيل : قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية ، قاله قتادة . ومنه قولهم للبهشي : أبو البيضاء ، ولا يبيض أبو الجحون ؛ ومنه قول خزنة جهنم لأبي جهل : «ذق إنك أنت العزيز الكريم» . وقال سفيان بن عيينة : العرب تصف الشيء بضمته للتطير والتفاؤل ؛ كما قيل للدينغ سليم ، وللغلاة مفازة . وقيل : هو تعريض أرادوا به السب ؛ وأحسن من هذا كله ، ويدل ما قبله على صحته ، أى إنك أنت الحليم الرشيد حقا ، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آبائنا ! ويدل عليه «أصلناك تأمرك أن نترك ما يعبد آبائنا» أنكروا لما رأوا من كثرة صلاته وعبادته ، وأنه حليم رشيد بأن يكون يأمرهم بترك ما كان يعبد آبائهم ، وبعده أيضا ما يدل عليه «قَالَ يَأْقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا» أى أفلا أنهاركم عن الضلال ؟ وهذا كله يدل على أنهم قالوه على وجه الحقيقة ، وأنه اعتقادهم فيه . ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بني قريظة للنبي صلى الله عليه وسلم حين قال لهم : «يا إخوة القردة» فقالوا : يا عبد ما علمناك جهولا !

(١) حذف الشيء قطعه من أطرافه . (٢) الجحون هنا الأسود .

مسئلة - قال أهل التفسير: كان مما ينههم عنه، وعذبوا لأجله قطع الدنانير والدرهم؛ كانوا يقرضون من أطراف الصباح لتفضل لهم القراضة، وكانوا يتعاملون على الصباح عدا، وعلى المقروضة وزنا، وكانوا يخسبون في الوزن، وقال ابن وهب قال مالك: كانوا يكسرون الدنانير والدرهم، وكذلك قال جماعة من المفسرين المتقدمين كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم وغيرهما؛ وكسرهما ذنب عظيم. وفي كتاب أبي داود عن طلحة بن عبد الله عن أبيه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس؛ فإنها إذا كانت صحاحا قام معناها، وظهرت فائدتها، وإذا كسرت صارت سلعة، وبطلت منها الفائدة؛ فأضر ذلك بالناس، ولذلك حرم. وقد قيل في تأويل قوله تعالى: «وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون» أنهم كانوا يكسرون الدرهم؛ قاله زيد بن أسلم. قال أبو عمر بن عبد البر: زعموا أنه لم يكن بالمدينة أصل بتأويل القرآن من زيد بن أسلم بعد محمد بن كعب القرظي.

مسئلة: قال أصبغ قال عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة مولى زيد بن الحارث العتقي: من كسرهما لم تقبل شهادته، وإن اعتذر بالجهالة لم يعذر، وليس هذا موضع عذر؛ قال ابن العربي: أما قوله: لم تقبل شهادته فلا نه أتى كبيرة، والكبائر تسقط العدالة دون الصغائر؛ وأما قوله: لا يقبل عذره بالجهالة في هذا فلا نه أمر بين لا يخفى على أحد، وإنما يقبل العذر إذا ظهر الصديق فيه، أو خفي وجه الصديق فيه، وكان الله أعلم به من العبد؛ كما قال مالك.

مسئلة: إذا كان هذا معصية وفسادا ترد به الشهادة فإنه يعاقب من فعل ذلك. ومروءة ابن المسيب برجل قد جلد فقال: ما هذا؟ قال: رجل يقطع الدنانير والدرهم؛ قال ابن المسيب: هذا من الفساد في الأرض؛ ولم ينكر جلده؛ ونحوه عن سفيان، وقال أبو عبد الرحمن النخعي: كنت قاعدا عند عمر بن عبد العزيز وهو إذ ذاك أمير المدينة فأتني برجل وقد شُهد عليه فضر به وحلقه، وأمر فطيف به، وأمره أن يقول: هذا جزء من يقطع

الدرهم؛ ثم أمر أن يرث إليه؛ فقال : إنه لم يمتنع أن أقطع بذلك إلا أني لم أكن تقدمت في ذلك قبل اليوم، وقد تقدمت في ذلك فن شاء فليقطع . قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما أدبه بالسوط فلا كلام فيه ، وأما حلقه فقد فعله عمر ؛ وقد كنت أيام الحكم أضرب وأحلق ، وإنما كنت أفعل ذلك بمن يرى شعره حونا له على المعصية ، وطريقا إلى التجمل به في الفساد ، وهذا هو الواجب في كل طريق للمعصية ، أن يقطع إذا كان غير مؤثر في البدن ، وأما قطع يده فإنما أخذ ذلك عمر من فصل السرقة ؛ وذلك أن قرض الدرهم غير كسرهما ، فإن الكسر إفساد الوصف ، والقرض تنقيص للقدر ، فهو أخذ مال على جهة الاختفاء ؛ فإن قيل : أليس الخرز أصلا في القطع ؟ قلنا : يحتمل أن يكون عمر يرى أن تهيتها للفصل بين الخلق دينارا أو درهما يحرزها ، ويحز كل شيء على قدر حاله ؛ وقد أنهذ ذلك ابن الزبير ، وقطع يد رجل في قطع الدنانير والدرهم . وقد قال علماءنا المالكية : إن الدنانير والدرهم خواتيم الله عليها اسمه ؛ ولو قطع على قول أهل التأويل من كسر خاتما كان أهلا لذلك ، أو من كسر خاتم سلطان عليه اسمه أدب ؛ وخاتم الله تقضى به الحوائج فلا يستويان في العقوبة . قال ابن العربي : وأرى أن يقطع في قرضها دون كسرهما ، وقد كنت أفعل ذلك أيام تولي الحكم ، إلا أني كنت محفوقا بالجهال ، فلم أجب بسبب المقال للفسدة الضلال ، فن قدر عليه يوما من أهل الحق فليفعله أحسبا بالله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ . ﴿ تَقْسِمُ . ﴾ ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي واسعا حلالا ؛ وكان شعيب عليه السلام كثير المال ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقيل : أراد به الهدى والتوفيق ، والعلم والمعرفة ؛ وفي الكلام حذف ، وهو ما ذكرناه ؛ أي أفلا أنها كم عن الضلال ! وقيل : المعنى « أرايتم إن كنت على بيعة من ربي » أتبع الضلال . وقيل : المعنى « أرايتم إن كنت على بيعة من ربي » أنا مروني بالعصيان في البخس والتطفيف ، وقد أغنانى الله . ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَافَكُمْ ﴾ في موضع نصب بـ « ماريد » . ﴿ إِلَىٰ مَا أَنَا كُفٌّ عَنْهُ ﴾ أي ليس أنها كم عن شيء وأرعبه ، كما لا أنك ما أمرتك به . ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ ﴾

مَا اسْتَطَعْتُ) أى ما أريد إلا فعل الصلاح؛ أى أن تصلحوا دنياكم بالعدل، وآخرتم بالعبادة؛ وقال: «ما استطعت» لأن الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة. و«ما» مصدرية؛ أى إن أريد إلا الإصلاح جهدى واستطاعنى. (وَمَا تَوْفِيقِي) أى رشدى، والتوفيق الرشد. (إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) أى اعتمدت. (وَالِيَهُ أُذِيبُ) أى أرجع فيما يترلى من جميع الثواب. وقيل: إليه أرجع فى الآخرة. وقيل: إن الإنابة الدطاء؛ ومعناه وله أدعو.

قوله تعالى: (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ) وقرأ يحيى بن وثاب «يُجْرِمَنَّكُمْ». (شِقَاقِي) فى موضع رفع. (أَنْ يُصِيبَكُمْ) فى موضع نصب؛ أى لا يحملنكم معاداتى على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار؛ قاله الحسن وقتادة. وقيل: لا يكسبنكم شقاق إصابتكم العذاب، كما أصاب من كان قبلكم؛ قاله الزجاج. وقد تقدم معنى «يجرمكم» فى «المائدة»^(١) و«الشقاق» فى «البقرة»^(٢) وهو هنا بمعنى العداوة؛ قاله السدى؛ ومنه قول الأخطل:
أَلَا مَنْ مُبْلَغٌ عَنِّي رَسُولًا * فَكَيْفَ وَجَدْتُمْ طَعْمَ الشَّقَاقِ^(٣)

وقال الحسن: إضرارى. وقال قتادة: فراق. (وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٌ) وذلك أنهم كانوا حديثى عهد بهلاك قوم لوط. وقيل: وما ديار قوم لوط منكم بعيد؛ أى بمكان بعيد؛ فلذلك وحد البعيد. قال الكسائى: أى دورهم فى دوركم.

قوله تعالى: (وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) تقدم. (إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ وَدُودٌ) آسمان من أسمائه سبحانه، وقد بيناهما فى كتاب «الأسنى فى شرح الأسماء الحسنى». قال الجوهري: وِدِدْتُ الرجل أَوَدَهُ وَذَا إِذَا أَحْبَبْتَهُ، والودود المحب، والود والودّة والمودة المحبة. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيبا قال: «ذاك خطيب الأنبياء».

(١) راجع ج ٦ ص ٤٤ وما بعدها طيبة أول أر ثانية .

(٢) راجع ج ٢ ص ١٤٢ طيبة ثانية .

(٣) الرسول هنا بمعنى الرسالة .

قوله تعالى : **(قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ)** أى ما نفقههم ؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث والنشور ، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله . وقيل : قالوا ذلك إعراضا عن سماحه ، واحتقارا للكلامه ؛ يقال : نفقه فقهه إذا فهم فقهها ، وحكى الكسائى فقهه فقهها ^(١) . **(وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا)** قيل : إنه كان مصابا ببصره ؛ قاله سعيد ابن جبير وقتادة . وقيل : كان ضعيف البصر ؛ قاله الثورى ، وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقتادة . قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن حير تقول للأعمى ضعيف ؛ أى قد ضعف بذهاب بصره ؛ كما يقال له ضرر ؛ أى قد ضر بذهاب بصره ؛ كما يقال له : مكفوف ؛ أى قد كف عن النظر بذهاب بصره . قال الحسن : معناه مهين . وقيل : المعنى ضعيف البدن ؛ حكاه علي بن عيسى . وقال السدى : وحيدا ليس لك جند وأعوان . تقدر بها على مخالفتنا ، وقيل : قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها . « وضعيفا » نصب على الحال . **(وَلَوْلَا رَهْطُكَ)** رفع بالابتداء ؛ ورهط الرجل عشرته الذى يستند إليههم ويتقوى بهم ؛ ومنه الراهطاء لجحر اليربوع ؛ لأنه يتوق به ويحبا فيه ولده . ومعنى **(لَرَجْمَاكَ)** لقتلاك بالرجم ، وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة ، وكان رهطه من أهل ملتهم . وقيل : معنى « لرجمناك » لشتمناك ؛ ومنه قول الحمدي :

تراجمنا بمز القبول حتى • نصيرك أتنا فرسا رهان

والرجم أيضا اللرم ؛ ومنه الشيطان الرجيم . **(وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِمُرِيٍّ)** أى ما أنت علينا بظالم ولا قاهر ولا ممتنع .

قوله تعالى : **(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي)** « أَرَهْطِي » رفع بالابتداء ؛ والمعنى أرهطى فى قلوبكم **(أَعَزَّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ)** وأعظم وأجل وهو يملككم . **(وَأَتَّخِذُوهُ وِرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا)** أى اتخذتم ما جعلتمكم به من أمر الله ظهوريا ؛ أى جعلتموه وراء ظهوركم ، وامتنعتم من قتلى مخافة قومي ؛

(١) عبارة الأصول هنا مضطربة ، وصوبت عن كتب اللغة ؛ وعبارة الأصل : فقه فقهه إذا فهم فقهها وقها ، وحكى الكسائى فقهها ، وقفه فقهها إذا صار قها .

يقال : جعلت أمره يظهر إذا قصرت فيه ، وقد مضى في «البقرة» . (إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ)^(١)
أى من الكفر والمعصية . (مُحِطٌ) أى عليم . وقيل : حفظ .

قوله تعالى : (وَيَأْتُواكُمْ عَلَى مَكَاتِكُمْ إِلَى عَامِلٍ سَوْفَ تَعْمَلُونَ) تهديد ووعد ؛
وقد تقدم في « الأنعام » . (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) أى يهلكه . و « من » في موضع
نصب ، مثل « يَسْلُمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ » . (وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ) عطف عليها . وقيل :
أى وسوف تعلمون من هو كاذب منا . وقيل : في محل رفع ؛ تقديره : ويخزي من هو
كاذب . وقيل : تقديره ومن هو كاذب فسيعلم كذبه ، ويذوق وبال أمره . وزعم الفراء
أنهم إنما جاءوا بـ « هو » في « ومن هو كاذب » لأنهم لا يقولون مَنْ قائم ؛ إنما يقولون :
مَنْ قام ، وَمَنْ يقوم ، وَمَنْ القائم ؛ فزادوا « هو » ليكون جملة تقوم مقام فعل ويقَعْلُ . قال
النحاس : ويدل على خلاف هذا قوله :

مَنْ رَسُولِي إِلَى الثَّرَيَّا يَأْتِي * ضِيقْتُ ذَرْعًا يَهْجِرُهَا وَالْكَثَابُ

(وَأَرْقُبُوا لِيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ) أى أنظروا العذاب والسخط ، فإني منتظر النصر والرحمة .

قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) قيل : صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم
من أجسادهم . (نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ) أى
صيحة جبريل . وأنت الفعل على لفظ الصيحة ، وقال في قصة صالح : « وأخذ الذين ظلموا
الصيحة » فذكر على معنى الصباح . قال ابن عباس : ما أهلك الله اثنين بعذاب واحد إلا
قوم صالح وقوم شعيب ، أهلكهم الله بالصيحة ؛ غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من
تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم . (فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَانُوا
يَقْنُونَ فِيهَا آلَ ابْنِ مَرْيَمَ كَا بَدَلَتْ مَوَدَّةَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَانَ عَدَاوَتُهُمْ بَيْنَهُمْ وَكَانُوا فِي شُكٍّ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) تقدم معناه . وحكى الكسائي أن أبا عبد الرحمن
الساجي قرأ « كَا بَدَلَتْ مَوَدَّةَ بَنِي إِسْرَءِيلَ » بضم العين . قال النحاس : المعروف في اللغة أنه يقال بعد

(١) راجع ج ٢ ص ٤٠ طبة ثانية .

(٢) راجع ج ٧ ص ٨٩ طبة أولى أو ثانية .

(٣) هو صبر بن أبي ربيعة .

يَبْعُدُ بَعْدًا وَيُبْعَدُ إِذَا هَلَكَ . وقال المهدوي : من ضم العين من «بعدت» فهي لغة تستعمل في الخير والشر ، ومصدرها البُعد ؛ وبعِدت تستعمل في الشر خاصة ؛ يقال : يَبْعُدُ يَبْعُدُ بَعْدًا ؛ فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللعنة ؛ وقد يجتمع معنى اللتين لتقاربهما في المعنى ؛ فيكون مما جاء مصدره على غير لفظه لتقارب المعاني .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿١٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا) بين أنه أتبع النبي النبي لإقامة الحجّة ، وإزاحة كل علة « يَا أَيُّهَا » أي بالتوراة . وقيل : بالمعجزات . (وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ) أي حجة بينه ؛ يعني العصا . وقد مضى في « آل عمران » معنى السلطان واشتقاقه فلا معنى للإعادة . (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ) أي شأنه وحاله ، حتى أخذوه لها ، وخالفوا أمر الله تعالى . (وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) أي بسديد يؤدي إلى صواب . وقيل : « برشيد » أي بمرشد إلى خير .

قوله تعالى : (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) يعني أنه يتقدمهم إلى النار إذ هورئسهم . يقال : قدّمهم يقدّمهم قدّما وقدّوما إذا تقدّمهم . (فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ) أي أدخلهم فيها . ذكر بلفظ الماضي ؛ والمعنى فيوردهم النار ؛ وما تحقق وجوده فكانه كان ؛ فلهذا يعبر عن المستقبل بالماضي . (وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ) أي بئس المدخل المدخول ؛ ولم يقل بئس لأن الكلام يرجع إلى المورود ؛ وهو كما تقول : نعم المنزل دارك ، ونعمت المنزل دارك . والمورود الماء الذي يورد ، والموضع الذي يورد ؛ وهو بمعنى المفعول .

قوله تعالى: (وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً) أى فى الدنيا . (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ) أى ولعنة يوم القيامة ؛ وقد تقدم هذا المعنى . (يُسْ أَرْفُدُ الْمَرْفُودُ) حكى الكسائى وأبو صيدة : رَفَدْتُهُ أَرْفُدُهُ رَفْدًا ؛ أى أعتته وأعطيته . وأسَم العطية الرَّفْد ؛ أى بئس العطاء والإعانة . والرَفْد أيضا القدح الضخم ؛ قاله الجوهري ، والتقدير : بئس الرَّفْد رَفْدُ المَرْفُود . وذكر الماوردى أن الرَفْد بفتح الراء القدح ، والرَفْد بكسرهما فى القدح من الشراب ؛ حكى ذلك عن الأصمعى ؛ فكانه ذم بذلك ما يسقونه فى النار . وقيل : إن الرَفْد الزيادة ؛ أى بئس ما يرفدون به بعد الفرق النار ؛ قاله الكلبي .

قوله تعالى : ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِيلٍ ﴿١١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٣﴾ وَمَا نُؤْتِرْهُمْ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدودٍ ﴿١٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَنُفِثَ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْآخِرَةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ ﴿١٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرَّةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوَفُّوهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى تَقْصُصُ عَلَيْكَ) «ذلك» رفع على إضمار مبتدأ، أى الأمر ذلك . وإن شئت بالابتداء؛ والمعنى: ذلك النبا المتقدم من أنباء الفرى تقصه عليك . (مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ) قال قتادة : القائم ما كان خاويًا على عروشه، والحصيد ما لا أثر له . وقيل : القائم العامر، والحصيد الخراب؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد : قائم خاوية على عروشها، وحصيد مستأصل؛ يعنى محصودا كالزرع إذا حصد؛ قال الشاعر :

والناس في قسم المنيّة بينهم * كالزرع منه قائمٌ وحصيدٌ

(١١)

وقال آخر :

إنما نحن مثلُ خامةٍ زرع * فتى يأتِ ياتٍ مُحْصِصُهُ

قال الأخفش سعيد : حصيد أى محصود، وجمعه حصدى وحصاد مثل مريض ومرضى؛ قال : يكون فيمن يعقل حصدى، مثل قتل وقيل . (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ) أصل الظلم فى اللغة وضع الشيء فى غير موضعه، وقد تقدم فى «البقرة» مستوفى . (وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) بالكفر والمعاصى . وحكى سيويه أنه يقال : ظلم إياه . (فَأَخَذَتْ) أى دفعت . (عَنْهُمْ) آهتُهم التى يدعون من دون الله من شئ . فى الكلام حذف؛ أى التى كانوا يدعون؛ أى يعبدون . (لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) أى غير تخسير؛ قاله مجاهد وقاتدة .

وقال لبيد :

فلقد يليت وكل صاحب جنة * ليل يعود وذاكم التتبيب

والتيابُ الهلاك والخسران، وفيه إضمار؛ أى ما زادتهم عبادة الأصنام، لحذف المضاف؛ أى كانت عبادتهم إياها قد خسرتهم ثواب الآخرة .

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى) أى كما أخذ هذه الفرى التى كانت لنوح وصاد وثمود يأخذ جميع الفرى الظالمة . وقرأ حاصم المجحدى وطلحة بن مصرف « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى » . وعن المجحدى أيضا « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ » كالجماعة « إِذَا أَخَذَ

(١) البيت للعرامح؛ كما فى اللسان . (٢) راجع ج ١ ص ٣٠٩ وما بعدها طبة ثانية أرتالة .

القرى» . قال المهدوي : من قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ » فهو إخبار عما جاءت به العادة في إهلاك من تقدم من الأمم ؛ والمعنى : وكذلك أخذ ربك من أخذه من الأمم المهلكة إذ أخذهم . وقراءة الجماعة على أنه مصدر، والمعنى : كذلك أخذ ربك من أراد إهلاكه متى أخذه ، فإذا لمضى ؛ أى حين أخذ القرى ؛ وإذا المستقبل . (وَيَحْيَى ظَالِمًا) أى وأهلها ظالمون ، غنّف المضاف مثل : « وأسأل القرية » . (إِنَّ أَخَذَهُ الْيَمُّ شَدِيدٌ) أى عقوبته لأهل الشرك موجعة غليظة . وفي صحيح مسلم والترمذي من حديث أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى على الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) أى لعبرة وموعظة . (لِمَنْ خَفَ عَذَابَ الْآخِرَةِ) . (ذَلِكَ يَوْمٌ) ابتداء وخبر . (مجموع) من فته . (لَهُ النَّاسُ) أسم ما لم يسم فاعله ؛ ولهذا لم يقل مجموعون ؛ فإن قدرت ارتفاع « الناس » بالابتداء ، والخبر « مجموع له » فإنما لم يقل : مجموعون على هذا التقدير ؛ لأن « له » يقوم مقام الفاعل . والجمع الحشر ؛ أى يحشرون لذلك اليوم . (وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) أى يشهده البر والفاجر ، ويشهده أهل السماء . وقد ذكرنا هذين اليمين مع خبرهما من أسماء القيامة في كتاب « التذكرة » وبيناهما والحمد لله .

قوله تعالى : (وَمَا تُؤْنِسُ) أى ما تؤخر ذلك اليوم . (إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ) أى لأجل سبق به قضاءنا ، وهو معدود عندنا . (يَوْمَ يَأْتِي) وقرئ « يوم يأت » لأن الياء تحذف إذا كانت قبلها كسرة ؛ تقول : لا أدري ؛ ذكره القشيري . قال النحاس : قرأه أهل المدينة وأبو عمرو والكسائي بإثبات الياء في الإدراج ، وحذفها في الوقف ؛ وروى أن أبا وابن مسعود قرأا « يوم يأتى » بالياء في الوقف والوصل . وقرأ الأعمش وحمة « يوم يأت » بغير ياء في الوقف والوصل ؛ قال أبو جعفر النحاس : الوجه في هذا ألا يوقف عليه ، وأن يوصل بالياء ؛ لأن جماعة من النحويين قالوا : لا تحذف الياء ، ولا يحزم الشيء بغير جازم ؛ فاما الوقف بغير ياء ففيه قول الكسائي ؛ قال : لأن الفعل السالم يوقف عليه كالحزوم ، لحذف الياء ، كما

تُحذف الضمة. وأما قراءة حمزة فقد احتج أبو عبيد لحذف الياء في الوصل والوقف بمجتنبين؛ إحداهما — أنه زعم أنه رآه في الإمام الذي يقال له إنه مصحف عثمان رضي الله عنه بنير ياء . والجهة الأخرى — أنه حكى أنها لثة هَذِيل؛ تقول: ما أدري؛ قال النحاس: أما حجتهم بمصحف عثمان رضي الله عنه فشئ يردّه عليه أكثر العلماء؛ قال مالك بن أنس رحمه الله: سألت عن مصحف عثمان رضي الله عنه فقيل لي ذَهَب؛ وأما حجتهم بقولهم: «ما أدري» فلا حجة فيه؛ لأن هذا الحذف قد حكاه النحويون القدماء، وذكروا علته، وأنه لا يقاس عليه. وأنشد القراء في حذف الياء:

كَفَّاكَ كَفٌّ مَا يَلْقَى دِرْهَمًا * جوداً وأخرى تُعْطِ بالسيف الدِّمَاءَ

أى تعطى، وقد حكى سيويه والتحليل أن العرب تقول: لا أدري؛ فتحذف الياء ويجتزئ بالكسرة، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال. قال الزجاج: والأجود في النحو وإثبات الياء؛ قال: والذي أراه أتباع المصحف وإجماع القراء؛ لأن القراءة سنة؛ وقد جاء مثله في كلام العرب. (لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِ) الأصل نَتَكَلِّمُ؛ حذف إحدى التائمين تخفيفاً، وفيه إضمار، أى لا نتكلم فيه نفس إلا بالماذون فيه من حسن الكلام؛ لأنهم ملجئون إلى ترك التقييع. وقيل: المعنى لا تكلم بحجة ولا شفاعة إلا بإذنه. وقيل: إن لهم في الموقف وقتاً يمنعون فيه من الكلام إلا بإذنه. وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد في الدين، فيقول لم قال: «لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِ» و«هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ» وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَرُونَ». وقال في موضع من ذكر القيامة: «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوِّمُونَ». وقال: «يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُجَادِلًا عَنْ نَفْسِهَا». وقال: «وَيَقُومُهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ». وقال: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ». والجواب ما ذكرناه، وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضاً، وطرح بعضهم الذنوب على بعض؛ فاما التكلم والنطق بحجة لهم فلا؛ وهذا كما تقول للذي يخاطبك كثيراً، وخطابه فارغ عن الحجة: ما تكلمت بشيء، وما نطقت بشيء؛ فسمى من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم. وقال

قوم : ذلك اليوم طويل ، وله مواطن ومواقف في بعضها يمنعون من الكلام ، وفي بعضها يطلق لهم الكلام ؛ فهذا يدل على أنه لا نتكلم نفس إلا بإذنه . (فَنَهُمُ شَيْئًا وَسَعِيدٌ) أى من الأنفس ، أو من الناس ؛ وقد ذكّرهم في قوله : « يوم مجموع له الناس » . والشقي الذي كتبت عليه الشقاوة . والسعيد الذي كتبت عليه السعادة ؛ قال لبيد :

فَنَهُمُ سَعِيدٌ أَخَذَ بِنِصْبِيهِ * وَمِنْهُمْ شَقِيٌّ بِالْمَعِيشَةِ قَانِعٌ

وروى الترمذى عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب قال : لما نزلت هذه الآية « فَنَهُمُ شَيْئًا وَسَعِيدٌ » سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا نبي الله فعلام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه ، أو على شيء لم يُفرغ منه ؟ فقال : « بل على شيء قد فُربغ وجرحت به الأقدام يا عمر ولكن كل مُيسر لما خُلِقَ له » . هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر ؛ وقد تقدّم في « الأصراف »^(١) .

قوله تعالى : (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا) ابتداء . (فَنَيَّ النَّارَ) في موضع الخبر ، وكذا (لَّهُمْ) فيها زفير وشهيق . قال أبو العالية : الزفير من الصدر ، والشهيق من الحلق ؛ وعنه أيضا ضد ذلك . وقال الزجاج : الزفير من شدة الأنيب ، والشهيق من الأنيب المرتفع جدا ؛ قال : وزعم أهل اللغة من الكوفيين والبصريين أن الزفير بمثلة ابتداء صوت الحير في الشهيق ، والشهيق بمثلة [آخر] صوت الحمار في النهيق . وقال ابن عباس عكسه ؛ قال : الزفير الصوت الشديد ، والشهيق الصوت الضعيف . وقال الضحاك ومقاتل : الزفير مثل أول نهيق الحمار ، والشهيق مثل آخره حين فرغ من صوته ؛ قال الشاعر :

حَسَرَجٌ فِي الْجُوفِ يَحْيِلُ^(٢) أَوْ شَهَقٌ * حَتَّى يُقَالَ نَاهَقٌ وَمَا نَهَقُ

وقيل : الزفير إخراج النفس ، وهو أن يمتلئ الجوف غما فيخرج بالنفس ، والشهيق رد النفس . وقيل : الزفير ترديد النفس من شدة الحزن ؛ مأخوذ من الزفر وهو الجمل على الظهر لشدة ؛

(١) راجع ج ٧ ص ٣١٤ لمبة أول أو ثانية . (٢) هو البعاج والبيت من قصيدة له يصف فيها المغازاة مطلعها :

وَقَامَ الْأَعْمَقُ خَاوِي الْمَهْرَقُ * مَشَتْهُ الْأَعْلَامُ لِمَاعِ الْخَفَقِ

(٣) السحيل : الصوت الذي يدور في صدر الحمار .

والشقيق النفس الطويل الممتد؛ مأخوذ من قولهم : جبل شاقق؛ أى طويل . والزفير والشقيق من أصوات المخزومين .

قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ « ما دامت » في موضع نصب على الظرف؛ أى دوام السموات والأرض، والتقدير : وقت ذلك . وأختلف في تأويل هذا ؛ فقالت طائفة منهم الضحاك : المعنى مادامت سموات الجنة والنار وأرضهما . والسماء كل ما ملاك فاطلك، والأرض ما استقر عليه قدمك؛ وفي التزويل : « وأورثا الأرض تنبؤاً من الجنة حيث نساء » . وقيل : أراد به العماء والأرض المعهودتين في الدنيا ، وأجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده ؛ كقولهم : لا آتيك ما جئ ليلاً ، أو سأل سبيلاً ، وما أختلف الليل والنهار ، وما ناح الحمام ، وما دامت السموات والأرض ، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية ؛ فأوهمهم الله تخليد الكفرة بذلك ، وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض . وعن ابن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش ، وأن السموات والأرض في الآخرة تردان إلى النور الذي أخذتا منه ؛ فهما دائماًتان أبداً في نور العرش :

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ في موضع نصب ؛ لأنه استثناء ليس من الأول ؛ وقد اختلف فيه على أقوال عشرة : الأول — أنه استثناء من قوله : « ففى النار » كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ؛ وهذا قول رواه أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري أو جابر رضى الله عنهما . وإنما لم يقل من شاء ؛ لأن المراد العدد لا الأشخاص ؛ كقوله : « ما طاب لكم » . وعن أبي نضرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إلا من شاء ألا يدخلهم وإن شقوا بالمعصية » . الثانى — أن الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدة من النار ؛ وعلى هذا يكون قوله : « فأما الذين شقوا » عاماً في الكفرة والعصاة ، ويكون الاستثناء من « خالدين » ؛ قاله قتادة والضحاك وأبو سنان وغيرهم . وفى الصحيح من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يدخل

ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحممة ^(١) أخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال هؤلاء الجنةيون « وقد تقدم هذا المعنى في « النساء » وغيرها . الثالث — أن الاستثناء من الزفير والشهيق ؛ أى لم فيها زفير وشهيق إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب الذى لم يذكره ، وكذلك لأهل الجنة من النعيم ما ذكر ، وما لم يذكر . حكاه ابن الأنباري . الرابع — قال ابن مسعود : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » لا يموتون فيها ، ولا يخرجون منها « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » وهو أن يامر النار فتاكلهم وتقتنهم ، ثم يبدل خلقهم .

قلت : وهذا القول خاص بالكافر ، والاستثناء له في الأكل ، وتجديد الخلق . الخامس — أن « إِلَّا » بمعنى « سوى » كما تقول في الكلام : ما معى رجل إلا زيد ، ولى عليك ألفا درهم إلا الألف التى لى عليك . قيل : فالمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود . السادس — أنه استثناء من الإخراج ، وهو لا يريد أن يخرجهم منها ، كما تقول في الكلام : أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره ، وأنت مقم على ذلك الفعل ؛ فالمعنى أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم ؛ ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها ؛ ذكر هذين القولين الزجاج عن أهل اللغة ؛ قال : ولأهل المماني قولان آخران ؛ فأحد القولين : « خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك » من مقدار موقفهم على رأس قبورهم ، وللحاسبة ، وقدر مكثهم في الدنيا ، والبرزخ ، والوقوف للحساب . والقول الآخر — وقوع الاستثناء في الزيادة على النعيم والعذاب ، وتقديره : « خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك » من زيادة النعيم لأهل النعيم ، وزيادة العذاب لأهل الجحيم .

قلت : فالاستثناء في الزيادة من الخلود على مدة كون السماء والأرض المعهودتين في الدنيا ؛ واختاره الترمذى الحكيم أبو عبد الله محمد بن على ؛ أى خالدين فيها مقدار دوام السموات والأرض ، وذلك مدة العالم ، والسماء والأرض وقت يتغيران فيه ؛ وهو قوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ » فخلق الله سبحانه الآدميين وطاعلهم ، وأشتري منهم أنفسهم وأموالهم

(١) الحم : الرباد والحمم وكل ما احترق من النار ، والواحدة حممة .

بالجنة ، وعلى ذلك بايعهم يوم الميثاق ، فمن وفى بالمعهد فله الجنة ، ومن ذهب برقبته يخذل في النار بمقدار دوام السموات والأرض ؛ فإنما دامت للعامة ؛ وكذلك أهل الجنة خلود في الجنة بمقدار ذلك ؛ فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع في مشيئة الله ؛ قال الله تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » فيخلد أهل الدارين بمقدار دوامهما ، وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة ؛ ثم أوجب لهم الأبد في كلتا الدارين لحق الأبدية ، فمن لقيه موحدا لأحدثته بقى في داره أبدا ، ومن لقيه مشركا بأحدثته إلهسا بقى في السجن أبدا ؛ فأعلم الله العباد مقدار الخلود ، ثم قال : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » من زيادة المدة التي تعجز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لها ؛ فبالاعتقاد دام خلودهم في الدارين أبدا . وقد قيل : إن « إلّا » بمعنى الوار ، قاله الفراء وبعض أهل النظر وهو — الثامن — والمعنى : وما شاء ربك من الزيادة في الخلود على مدة دوام السموات والأرض في الدنيا . وقد قيل في قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى ولا الذين ظلموا . وقال الشاعر ^(١) :
وكلُّ أرح مفرقه أخسوه * لعمركم أهلك إلا الفرقدان

أى والفرقدان . وقال أبو محمد مكي : وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون « إلّا » بمعنى الوار ، وقد مضى في « البقرة » ^(٢) بيانه . وقيل : معناه كما شاء ربك ؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » أى كما قد سلف ، وهو — التاسع — العاشر — وهو أن قوله تعالى : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » إنما ذلك على طريق الاستثناء الذى ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام ؛ فهو على حدّ قوله تعالى : « لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ » فهو استثناء فى واجب ، وهذا الاستثناء فى حكم الشرط كذلك ؛ كأنه قال : إن شاء ربك ، فليس يوصف بمنصل ولا منقطع ؛ ويؤيده ويقويه قوله تعالى : « عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ » ونحوه عن أبي حنيفة قال : تقدمت حزيمة المشيئة من الله تعالى

(١) البيت لمبرور بن سعدى كرب . وقيل : هو لحضرى بن عامر . ويجوز أن تكون « إلّا » هنا بمعنى غير . قال سيوريه : كأنه قال وكل أخ غير الفرقدين مفارقة أخوه ؛ فقد نمت « كلا » بها . (٢) راجع ج ٢ ص ١٦٩ ملحة ثانية .

في خلود الفريقين في الدارين ؛ فوقع لفظ الاستثناء ، والعزيمة قد تقدمت في الخلود ، قال : وهذا مثل قوله تعالى : « تَدْخُلُן الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ » وقد علم أنهم يدخلونه حتماً ، فلم يلزم الاستثناء في الموضوعين خياراً ؛ إذ المشيئة قد تقدمت بالعزيمة في الخلود في الدارين والدخول في المسجد الحرام ؛ ونحوه عن الفقهاء . وقول — حادى عشر — وهو أن الأشقياء هم السعداء ، والسعداء هم الأشقياء لا ضيرهم ، والاستثناء في الموضوعين راجع إليهم ؛ وبيانه أن « ما » بمعنى « من » ، « استثنى الله عز وجل من الداخلين في النار المخلفين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما معهم من الإيمان ؛ واستثنى من الداخلين في الجنة المخلفين فيها الذين يدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم يخرجون منها إلى الجنة ، وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثانى ؛ كأنه قال تعالى : فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ألا يخلفه فيها ، وهم الخارجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بإيمانهم وشفاعته محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهم بدخولهم النار يسمون الأشقياء ، وبدخولهم الجنة يسمون السعداء ؛ كما روى الضحاك عن ابن عباس إذ قال : الذين سَعِدُوا شَقُّوا بدخول النار ثم سَعِدُوا بالخروج منها ودخولهم الجنة .

وقرأ الأعمش وحفص وحزرة والكسائي « وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا » بضم السين . وقال أبو عمرو : والدليل على أنه سَعِدُوا أن الأول شَقُّوا ولم يقل أشقوا . قال النحاس : ورأيت على بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي « سَعِدُوا » مع علمه بالعربية ! إذ كان هذا الحنا لا يجوز ؛ لأنه إما يقال : سَعِدَ فلان وأسعده الله ، وأسعد مثل أمرئ ؛ وإما احتج الكسائي بقولهم : مسعود ولا حجة له فيه ؛ لأنه يقال : مكان مسعود فيه ، ثم يحذف فيه ويسمى به . قال المهدوى : ومن ضم السين من « سَعِدُوا » فهو محمول على قولهم : مسعود ، وهو شاذ قليل ؛ لأنه لا يقال سَعِدَ الله ، إنما يقال : أسعده الله . وقال الثعلبي : « سَعِدُوا » بضم السين أى رزقوا السعادة ؛ يقال : سَعِدَ وأسعد بمعنى واحد . وقرأ الباقر « سَعِدُوا » بفتح

السين قياساً على «شَقُوا» وأختره أبو عبيد وأبو حاتم . وقال الجوهري : والسعادة خلاف الشقاوة ؛ تقول : منه سَعِدَ الرجل بالكسر فهو سَعِيدٌ ، مثل سَلِمَ فهو سَلِيمٌ ، وسُعِدَ فهو مسعود ؛ ولا يقال فيه مُسَعَّدٌ ، كأنهم استغنوا عنه بمسعود . وقال القشيري : أبو نصر عبد الرحيم : وقد ورد سَعَدَهُ الله فهو مسعود ، وأسعده الله فهو مسعد ؛ فهذا يقوى قول الكوفيين . وقال سيويه : لا يقال سَعِدَ فلان كما لا يقال شَقِيَ فلان ؛ لأنه مما لا يتعدى . (عطاء غير مجذوذ) أى غير مقطوع ؛ من جَذَّه يَجْذُهُ أى قطعه ؛ قال النابغة :

يَجْذُ السُّلُوقُ المضاعفَ نَسْجُهُ * وتُوَقَّدُ بالصِّقَاجِ نارُ الحَبَابِيبِ^(١)

قوله تعالى : (فَلَا تَكُ) جزم بالنهى ، وحذفت النون لكثرة الاستعمال . (فِي مِرْيَةٍ) أى فى شك . (مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ) من الآلهة أنها باطل ، وأحسن من هذا : أى قل يا محمد لكل من شك « لائِك فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ » أن الله عز وجل ما أمرهم به ، وإنما يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون تقليداً لهم . (وَإِنَّا لَمَوْفُقُهُمْ نَصِيْبُهُمْ فَيَرَوْهُمْ مُقْرَنِينَ) فيه ثلاثة أقوال : أحدها — نصيبهم من الرزق ؛ قاله أبو العالية . الثانى — نصيبهم من العذاب ؛ قاله ابن زيد . الثالث — ما أُعِدُّوا به من خير أو شر ؛ قاله ابن عباس رضى الله عنهما .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ^(٢)

قوله تعالى : (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ) الكلمة : أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح ؛ ولولا ذلك لفضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر . قيل المراد بين المختلفين فى كتاب موسى ؛ فإنهم كانوا بين مصدق ومكذب . وقيل : بين هؤلاء المختلفين فىك يا محمد بتعجيل العقاب ، ولكن سبق

(١) البيت للناطقة الذيانى يصف فيه السيوف . ويروى (ويوتدن) . والسُّلُوق : النوع المنسوب الى سلوق ؛ قرية باليمن . والمضاعف : الذى نسج حلقتين . والصِّقَاج : الحجارة الرماض . والحباب : ذباب له شعاع باقيل ، وقيل : نار الحباب ما اقتح من شر النار في الهواء بمهادم حجرين .

الحكم بتأخير العقاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . (وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) إن حملت على قوم موسى؛ أى لى شك من كتاب موسى فهم فى شك من القرآن .

قوله تعالى : وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِقِينَ رَبَّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

خَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِقِينَ رَبَّكَ أَعْمَلَهُمْ) أى إن كلاً من الأمم التى عددها هم يرون جزاء أفعالهم ؛ فكذلك قومك يا محمد ، وأختلف القراء فى قراءة ((وَإِنْ كَلَّا)) فقراء أهل الحرمين - نافع وآبن كثير وأبو بكر معهم - «وَإِنْ كَلَّا» بالتخفيف ، على أنها «إن» المخففة من الثقلية معجمة ؛ وقد ذكر هذا الخليل وسيبويه ، قال سيبويه : حدثنا من أنق به أنه سمع العرب تقول : إِنْ زَيْدًا لَمُنْطَلَقٌ ؛ وأشد قول الشاعر :^(١)
 * كَأَنْ ظَلِيَّةً تَعْطُو إِلَى وَارِقٍ السَّلَمِ *

أراد كأنها ظليبة تخفف ونصب ما بعدها ؛ والبصريون يجوزون تخفيف «إِنْ» المشتدة مع إعمالها ؛ وأنكر ذلك الكسائى وقال : ما أدرى على أى شىء قرئ «وَإِنْ كَلَّا» ا وزعم الفراء أنه نصب «كَلَّا» فى قراءة من خفف بقوله : «لِيُؤْفِقِينَ» أى وإن ليؤفقيهم كلاً ؛ وأنكر ذلك جميع النحويين ، وقالوا : هذا من كبير الغلط ؛ لا يجوز عند أحد زيدا لأضربه^(٢) . وشدد الباقون «إِنْ» ونصبوا بها «كَلَّا» على أصلها ، وقرأ حاصم وحزة وآبن حاصر «لَمَّا» بالتشديد ، وخففها الباقون على معنى : وإن كلاً ليؤفقيهم ، جعلوا «ما» صلة . وقيل : دخلت لتفصل بين اللامين اللتين تتليان القسم ، وكلاهما مفتوح ففصل بينهما بـ «ما» . وقال الزجاج : لام «لَمَّا» لام «إِنْ» و «ما» زائدة مؤكدة ؛ تقول : إن زيدا لمنطلق ؛ فإت

(١) هو : آبن صريم الشكرى ؛ وصدر البيت :

* وروما توافينا بوجه مقسم *

يجوز نصب الظليبة بكان شبيها بالفعل إذا حذف وصل ، والخبر محذوف لعل السامع . ويجوز جر الظليبة على تقدير : كظليبة ، وأن زائدة مؤكدة . (٢) قال الطبرى : وذلك أن العرب لا تنصب بفعل بعد لام اليمين اسماء قبلها .

تقتضى أن يدخل على خبرها أو اسمها لام كقولك : إنا لله لنفوس رحيم ، وقوله : « إن في ذلك لذكرى » . واللام في « ليوفينهم » هي التي يتأق بها القسم ، وتدخل على الفعل ويلزمها النون المشددة أو المخففة ؛ ولما اجتمعت اللامان فصل بينهما بـ « ما » و « ما » زائدة مؤكدة . وقال الفراء : « ما » بمعنى « من » كقوله : « وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيُطِغَنَّ » أى وإنا كلاً لمن ليوفينهم ، واللام في « ليوفينهم » للقسم ؛ وهذا يرجع معناه إلى قول الزجاج ، غير أن « ما » عند الزجاج زائدة وعند الفراء اسم بمعنى « من » . وقيل : ليست بزائدة ، بل هي اسم دخل عليها لام التأكيد ، وهى خبر « إنا » و « ليوفينهم » جواب القسم ؛ التقدير : وإنا كلاً خلق ليوفينهم ربك أعمالهم . وقيل : « ما » بمعنى « من » كقوله : « فَأَكْثَرُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » أى من ؛ وهذا كله هو قول الفراء بعينه . وأما من شدد « ما » وقرأ « وَإِنَّ كُلاً لَّمَّا » بالتشديد فيهما — وهو حمزة ومن واقفه — فقيل : إنه لحن ؛ حكى عن محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز ؛ ولا يقال : إنا زيدا إلا لضربته ، ولا لآ لضربته . وقال الكسائي : الله أعلم بهذه القراءة ، وما أحرف لها وجها . وقال أيضاً هو وأبو على الفارسي : التشديد فيهما مشكل . قال الضاحك وفيه : وللنحويين في ذلك أقوال : الأول — أن أصلها « لمن ما » فقبلت النون ميماً ، واجتمعت ثلاث ميمات ، فحذفت الوسطى فصارت « لما » و « ما » على هذا القول بمعنى « من » تقديره : وإن كلاً لمن الذين ؛ كقولهم :

وإِنِّي لَأَصْدِرُ الْأَمْرَ وَجْهَهُ * إِذَا هُوَ أَعْيَا بِالسَّبِيلِ مَصَادِرَهُ

وزيف الزجاج هذا القول ، وقال : « من » اسم على حرفين فلا يجوز حذفه . الثانى — أن الأصل لمن ، فحذفت الميم المكسورة لأجتماع الميمات ، والتقدير : وإنا كلاً لمن خلق ليوفينهم . وقيل : « لَمَّا » مصدر « لم » وجاءت بغير تنوين حملاً للوصول على الوقف ؛ فهى على هذا كقوله : « وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْثَلًا » أى جامعا لآل المأكول ؛ فالتقدير على هذا : وإن كلاً ليوفينهم ربك أعمالهم توفية لَمَّا ؛ أى جامعة لأعمالهم جمعا ، فهو كقولك : قياما لأقومين . وقد قرأ الزهرى « لَمَّا » بالتشديد والتنوين على هذا المعنى . الثالث —

أن «لما» بمعنى «إلا» حكى أهل اللغة: سألتك بالله لما فعلت، بمعنى إلا فعلت؛ ومثله قوله تعالى: «إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيَّ حَافِظٌ» أى إلا عليها؛ بمعنى الآية: ما كل واحد منهم إلا ليوفيهن؛ قال القشيري: وزيف الزجاج هذا القول بأنه لا نفى لقوله: «وَلَا يَنْكَلَا لِمَا» حتى تقتدر «إلا» ولا يقال: ذهب الناس لما زيد. الرابع — قال أبو عثمان السائزى: الأصل وإن كَلَامًا بخفيف «لما» ثم ثقلت، كقوله:

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَرَى جَدًّا * فِي حَامِنَا ذَا بَعْدَ مَا أَخَصَبَا^(١)

وقال أبو إسحق الزجاج: هذا خطأ! إنما يخفف المتثقل، ولا يثقل الخفيف. الخامس — قال أبو عبيد القاسم بن سلام: يجوز أن يكون التشديد من قولهم: لَمَسْتُ الشيءَ لَمًّا إذا جمعته، ثم بنى منه فعل، كما قرئ «ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا ثَوْرِي» بغير تنوين وبتنوين؛ فالألف على هذا للتأنيث، وتعال على هذا القول لأصحاب الإمالة؛ قال أبو إسحق: القول الذى لا يجوز غيره عندى أن تكون مخففة من الثقلية، وتكون بمعنى «ما» مثل: «إن كل نفس لما عليها حافظ» وكذا أيضا تشدد على أصلها، وتكون بمعنى «ما» و«لما» بمعنى «إلا» حكى ذلك الخليل وسيبويه وجميع البصريين؛ وأن «لما» يستعمل بمعنى «إلا».

قلت: هذا القول الذى ارتضاه الزجاج حكاه عنه النحاس وغيره؛ وقد تقدم مثله وتضعيف الزجاج له، إلا أن ذلك القول «إِنْ» فيه نافية، وهنا مخففة من الثقلية فافتقرا^(١). وبقيت قراءتان؛ قال أبو حاتم: وفي حرف أبي «وَلَا يَنْكَلَا لِمَا يَوْمَئِذٍ» . وروى عن الأعمش «وَلَا يَنْكَلَا لِمَا» بخفيف «إن» ورفع «كل» وتشديد «لما». قال النحاس: وهذه القراءات المخالفة للسواد تكون فيها «إِنْ» بمعنى «ما» لا غير، وتكون على التفسير؛ لأنه لا يجوز أن يقرأ بما خالف السواد إلا على هذه الجهة. «إِنَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ خَيْرًا» تهديد ووعيد.

(١) البيت لرؤبة.

(١) وردت العبارة الآتية بإحدى النسخ تصويريا لعبارة القرطبي، وبذلك بكلمة

(حاشية): (صواب ما ذكره الشيخ رحمه الله أن يقول: إلا أن هذا القول «إِنْ» فيه نافية والقول المتقدم «إِنْ» فيه مخففة من الثقلية فافتقرا).

قوله تعالى : فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمِن تَابِ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا
إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره . وقيل :
له والمراد أمته ؛ قاله السُّدِّي . وقيل : « استقم » أطلب الإقامة على الدين من الله وأسأله
ذلك . فتكون السين سين السؤال ؛ كما قول : استغفر الله أطلب الغفران . والاستقامة
الاستقرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة البين والشمال ؛ أى فاستقم على أمثال أمر الله .
وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام
قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ! قال : « قل أمنت بالله ثم استقم » . وروى الثَّارِىُّ أبو محمد
فى مسنده عن عثمان بن حاضِر الأزدي قال : دخلت على ابن عباس فقلت أوصنى ! فقال :
نعم ! عليك بتقوى الله والاستقامة ، أتبع ولا تتبدع . (وَمِن تَابِ مَعَكَ) أى استقم أنت
وهم ؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده ممن أتبعه من أمته . قال ابن عباس :
ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هى أشد ولا أشق من هذه الآية عليه ؛ ولذلك
قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشيب ! فقال : « شَيْبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا » وقد
تقدم فى أوّل السورة . وروى عن أبى عبد الرحمن السُّلَمِى قال سمعت أبا على السَّريّ يقول :
رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام فقلت : يا رسول الله ! روى عنك أنك قلت :
« شَيْبَتْنِي هُودٌ » فقال : « نعم » فقلت له : ما الذى شيبك منها ؟ فقصص الأنبياء وهلاك
الأمم ؟ فقال : « لا ولكن قوله : « فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ » » . (وَلَا تَطْغَوْا) نهى عن
الطغيان . والطغيان مجاوزة الحد ؛ ومنه « إِنَّا نَأْتِي الْمَاءَ » . وقيل : أى لا تعجبوا على أحد .
قوله تعالى : وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ
مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٢﴾

(١) فى الأصل (الشنوى) وصوب عن (الدر المنثور) .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكُنُوا ﴾ الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به ، قال قتادة : معناه لا تؤدوهم ولا تطيعوهم . ابن جريح : لا تملوا إليهم . أبو العالية : لا ترضوا أعمالهم ؛ وكله متقارب . وقال ابن زيد : « الركون هنا الإذعان وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم » .

الثانية — قرأ الجمهور « تَرْكُنُوا » بفتح الكاف ؛ قال أبو عمرو : هي لغة أهل الحجاز . وقرأ طلحة بن مُصَرِّفٍ وقَتادة وغيرهما « تَرْكُنُوا » بضم الكاف ؛ قال الفراء : وهي لغة تميم وقيس . وجوز قوم رَكَنَ يَرَكُنُ مثل مَتَعَ يَمْتَعُ .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قيل : أهل الشرك . وقيل : طاعة فيهم وفي العصاة ، على نحو قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا » الآية ؛ وقد تقدم . وهذا هو الصحيح في معنى الآية ، وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ؛ فإن محبتهم كفر أو معصية ؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة ؛ وقد قال ^(٢) حليم :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارب يقتدي
فإن كانت الصحبة عن ضرورة وثقة فقد مضى القول فيها في « آل عمران » و « المائدة » .
وصحبة الظالم على التيقية مستثناة من النهي بحال الاضطراب . والله أعلم .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ قَسَمْتُ النَّارَ ﴾ أى تحرقكم بخالطتهم ومصاحبتهم وممالأتهم على إعراضهم وموافقتهم في أمورهم .

قوله تعالى : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ
الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلَّذِينَ ^(١)

(١) الإِدْهَانُ : المصانعة . (٢) هو طرفة بن العبد . (٣) راجع ج ٤ ص ٥٧ وما بعدها
طبعة أملى أرفانة . (٤) راجع ج ٦ ص ٢١٧ طبعة أملى أرفانة .

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرِيقَ النَّهَارِ ﴾ لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة ؛ وخصها بالذكر لأنها ثمانية الإيمان ، وإليها يُفزع في النواصب ؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . وقال شيوخ الصوفية : إن المراد بهذه الآية استغراق الأوقات بالعبادة فرضا ونفلا ؛ قال آبن العربي : وهذا ضعيف ، فإن الأمر لم يتناول ذلك لا واجبا [فإنها خمس صلوات ^(١)] ولا نفلا ، فإن الأوراد معلومة ، وأوقات التواقل المرغب فيها محصورة ، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها التذنب على البذل لا على العموم ، وليس ذلك في قوة بشر .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ طَرِيقَ النَّهَارِ ﴾ قال مجاهد : الطَّرْفُ الأول صلاة الصبح ، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر ؛ واختاره آبن عطية . وقيل : الطَّرْفان الصبح والمغرب ؛ قاله آبن عباس والحسن . ومن الحسن أيضا : الطَّرْف الثاني العصر وحده ؛ وقاله قتادة والضحاك . وقيل : الطَّرْفان الظهر والعصر . وألّف المغرب والعشاء والصبح ؛ كأن هذا القائل راعى جهر القراءة . وحكى الماوردي أن الطَّرْف الأول صلاة الصبح باتفاق .

قلت : وهذا الاتفاق ينقضه القول الذي قبله . ورجح الطبري أن الطرفين الصبح والمغرب ، وأنه ظاهر ؛ قال آبن عطية : ورد عليه بأن المغرب لا تدخل فيه لأنها من صلاة الليل . قال آبن العربي : والمعجب من الطبري الذي يرى أن طرفي النهار الصبح والمغرب وهما طرفا الليل ! فقلب القوس رَكُوعَةً ^(٢) ، وحاد عن البرجاس غَلُوة ؛ قال الطبري : والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح ، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب ؛ ولم يجمع معه على ذلك أحد .

(١) (حزبه) : نزل به مهم ، أو أصابه غم . (٢) الزيادة عن آبن العربي . (٣) لفظ المثل كما في الصحاح وغيره (مارت القوس ركوة) ويضرب في الأدبار واقلاب الأمور . (٤) البرجاس (بالضم) : غرض على رأس ربح أو نحوه موله . والغلوقة : قدر دية مهم .

قلت : هذا تحامل من ابن العربي في الرد ، وأنه لم يجمع معه على ذلك أحد ؛ وقد ذكرنا عن مجاهد أن الطرف الأول صلاة الصبح ، وقد وقع الاتفاق — إلا من شذ — بأن من أكل أو جامع بعد طلوع الفجر متعمدا أن يومه ذلك يوم فطر ، وعليه القضاء والكفارة ، وما ذلك إلا وما بعد طلوع الفجر من النهار ؛ فدل على صحة ما قاله الطبري في الصبح ؛ وتبقى عليه المغرب والرد عليه فيه ما تقدم . والله أعلم .

الثالثة — قوله تعالى : (**وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ**) أى في زلف من الليل ، والزلف الساعات القريبة بعضها من بعض ؛ ومنه سميت المزدلفة ؛ لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة . وقرأ ابن القعقاع وابن أبي إسحق وغيرهما « **وَزُلْفَا** » بضم اللام جمع زَلَفٍ لأنه قد نطق بزلف ، ويجوز أن يكون واحده « **زُلْفَة** » لفظة ؛ كبُسرة وبُسْر ، في لفظة من ضم السين . وقرأ ابن محيصن « **وَزُلْفَا** » من الليل بإسكان اللام ؛ والواحدة زُلْفَة تجمع جمع الأجناس التي هي أشخاص كذرة وذرة وبر . وقرأ مجاهد وابن محيصن أيضا « **زُلْفَى** » مثل قُرْبَى . وقرأ الباقر « **وَزُلْفَا** » بفتح اللام كقرفة وغَرْف . قال ابن الأعرابي : الزلف الساعات ، واحدها زُلْفَة . وقال قوم : الزلفة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس ؛ فعل هذا يكون المراد بزلف الليل صلاة العتمة ؛ قاله ابن عباس . وقال الحسن : المغرب والعشاء . وقيل : المغرب والعشاء والصبح ؛ وقد تقدم . وقال الأخفش يعني صلاة الليل ولم يعين .

الرابعة — قوله تعالى : (**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ بِهِنَّ السَّيِّئَاتِ**) ذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين إلى أن الحسنات هاهنا هي الصلوات الخمس . وقال مجاهد : الحسنات قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ؛ قال ابن عطية : وهذا على جهة المثال في الحسنات ، والذي يظهر أن اللفظ عام في الحسنات خاص في السيئات ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « **مَا أَجْتَنَّتِ الْجَبَائِرُ** » .

قلت : سبب النزول يعضد قول الجمهور ؛ نزلت في رجل من الأنصار ، قيل : هو أبو اليسر بن عمرو . وقيل : اسمه عباد ؛ خلا بأسرأة قبلها وتلذذ بها فيما دون الفرج . روى

الترمذى عن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إني عالجْتُ امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أَمْسُها وأنا هذا فاقِضْ فيَّ ما شئت " فقال له عمر : لقد مترك الله ! لو سترت على نفسك فلم يردَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ، فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فدعاه ، فقال عليه : « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ » إلى آخر الآية فقال رجل من القوم : هذا له خاصة ؟ قال : " [١] بل للناس كافة " . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وخرج أيضا عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبله حرام فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن كفارتها فترت : « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » فقال الرجل : ألي هذه يا رسول الله ؟ فقال : " لك ولن عمل بها من أمتي " . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وروى عن أبي اليسر قال : أنتني امرأة تتابع تمرا فقلت : إن في البيت تمرا أطيب من هذا فدخلت معي في البيت فاهويت إليها فقبلتها ، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال : أستر على نفسك وتُب ولا تُخبر أحدا فلم أصبر ، فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال : أستر على نفسك وتُب ولا تُخبر أحدا فلم أصبر ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : " أَخْلَفْتُ غَازِيَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي أَهْلِهِ بِمَثَلِ هَذَا " حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة ، حتى ظن أنه من أهل النار . قال : وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله إليه « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ » . قال أبو اليسر : فأتيته فقرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحابه : يا رسول الله ! ألهذا خاصة أم للناس عامة ؟ فقال : " بل للناس عامة " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن ^(٢) غريب ، وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره ، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أعرض عنه ، وأقيمت صلاة العصر فلما فرغ منها نزل جبريل عليه السلام عليه بالآية فدعاه فقال له :

(٢) الذي في صحيح الترمذى (صحيح) بدل (غريب) .

(١) الزيادة عن الترمذى .

” أشهدت معنا الصلاة “ قال نعم ؛ قال : ” أذهب فإنها كفارة لما فعلت “ . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تلا عليه هذه الآية قال له : ” قم فصل أربع ركعات “ . والله أعلم . وخرج الترمذى الحكيم في « نواذر الأصول » من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” لم أر شيئا أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثه لذنب قديم ، « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » “ .

الخامسة — دلت الآية مع هذه الأحاديث على أن القبلة الحرام واللس الحرام لا يجب فيهما الحد ؛ وقد يستدل به على أن لا حد ولا أدب على الرجل والمرأة وإن وجدا في ثوب واحد ، وهو اختيار ابن المنذر ؛ لأنه لما ذكر اختلاف العلماء في هذه المسئلة ذكر هذا الحديث مشيرا إلى أنه لا يجب عليهما شيء ، وسيأتى ما للعلماء في هذا في « النور »^(١) إن شاء الله تعالى .

السادسة — ذكر الله سبحانه في كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقال : « أقم الصلاة » الآية . وقال : « أقم الصلاة ليدلوك الشمس » الآية . وقال : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تطهرون » . وقال : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » . وقال : « وأركعوا واسجدوا » . وقال : « وقوموا لله قانتين » . وقال : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » على ما تقدم . وقال : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها » أى بقراءتك ؛ وهذا كله مجمل أجمله في كتابه ، وأحال على نبيه في بيانه ؛ فقال جل ذكره : « وأزلنا إليك الذكر تبين للناس ما نزل إليهم » فبين صلى الله عليه وسلم مواقيت الصلاة ، وعدد الركعات والسجادات ، وصفة جميع الصلوات فرضا ومستها ، وما لا تصح إلا به من الفرائض ، وما يستحب فيها من السنن والفضائل ؛ فقال في صحيح البخارى : ” صلوا كما رأيتموني أصلى “ . ونقل ذلك عنه الكافة عن الكافة ، على ما هو معلوم ، ولم يمت النبي صلى الله عليه وسلم حتى

(١) راجع المسئلة السابعة في تفسير آية ٢ .

بَيْنَ جَمِيعٍ مَا بَالُنَّاسٍ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ؛ فَكَلَّمَ الدِّينَ، وَأَوْضَحَ السَّبِيلَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» .

قوله تعالى: (ذَلِكَ ذِكْرِي لِلَّذِينَ كَرِهُوا) أى القرآن موعظة وتوبة لمن انعط وتذكر؛ وخص الذّاكرين بالذّكر لأنهم المستفدون بالذّكرى . والذّكرى مصدر جاء بالف التانيث .

قوله تعالى: وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى: (وَأَصْبِرْ) أى على الصلاة؛ كقوله: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا» . وقيل: المعنى وأصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى . (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) . يعنى المصلين .

قوله تعالى: (فَلَوْلَا كَانَ) أى هلا كان . (مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ) أى من الأمم التى قبلكم . (أُولُوا بَقِيَّةً) أى أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر . (يَنْهَوْنَ) قومهم . (عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ) لما أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات؛ وهذا توبيخ للكفار . وقيل: لولا هاهنا للمنى؛ أى ما كان من قبلكم؛ كقوله: فلولا كانت قرية آمنت أى ما كانت . (إِلَّا قَلِيلًا) استثناء منقطع؛ أى لكن قليلا . (مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ) نوا عن الفساد فى الأرض . قيل: هم قوم يونس؛ لقوله: «إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ» . وقيل: هم أتباع الأنبياء وأهل الحق . (وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى أشركوا وعصوا . (مَا أُتْرِفُوا فِيهِ) أى من الاشتغال بالمال واللذات، وإيثار ذلك على الآخرة . (وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْطَلِحُونَ ﴿١٧٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُونَ مَخْتَلِفِينَ ﴿١٧٨﴾ إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا مَلَأَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٩﴾

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى) أى أهل القرى . (يَظْلِمُ) أى يظلم ويكفر . (وَأَهْلُهَا مُصْطَلِحُونَ) أى فيما بينهم فى تعاطى الحقوق ؛ أى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى يضاف إليه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب بخس الميالك والميزان ، وقوم لوط بالواط ؛ ودل هذا على أن المعاصى أقرب إلى عذاب الاستئصال فى الدنيا من الشرك ، وإن كان عذاب الشرك فى الآخرة أصعب . وفى صحيح الترمذى من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده " وقد تقدم . وقيل : المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها ماسون ، فإنه يكون ذلك ظلما لهم وتقصا من حقهم ، أى ما أهلك قوما إلا بعد إغذار وإنذار . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمه وإن كان على نهاية الصلاح ؛ لأنه تصرف فى ملكه ؛ دليله قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » . وقيل : المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون ؛ أى مخلصون فى الإيمان . فالظلم المعاصى على هذا .

قوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) قال سعيد بن جبیر : على ملة الإسلام وحدها . وقال الفصاحك : أهل دين واحد ، أهل ضلالة أو أهل هدى . (وَلَا يَرَاؤُونَ مَخْتَلِفِينَ) أى على أديان شتى ؛ قاله مجاهد وقادة . (إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ) استثناء منقطع ؛ أى لكن من رحم ربك بالإيمان والهدى فإنه لم يختلف . وقيل : مختلfin فى الرزق ، فهذا

غنى وهذا فقير «إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» بالقناعة؛ قاله الحسن . (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) قال الحسن ومقاتل وعطاء : إيماء الإشارة للاختلاف؛ أى وللإختلاف خلقهم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : ولرحمته خلقهم ؛ وإنما قال : «ولذلك» ولم يقل ولتك، والرحمة مؤنثة لأنه مصدر؛ وأيضا فإن تأنيث الرحمة غير حقيق، فحملت على معنى الفضل . وقيل : الإشارة بذلك للاختلاف والرحمة ، وقد يشار بهذلك «إلى شيئين متضادين ؛ كقوله تعالى : «لَا فَاْرِضْ وَلَا يَكْرَهُوا بَيْنَ ذَلِكَ» ولم يقل بين ذينك ولا تينك ، وقال : «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» وقال : «وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا يَخَافُهَا وَأَنتَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا» وكذلك قوله : «قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا» وهذا أحسن الأقوال إن شاء الله تعالى ؛ لأنه يم ، أى وليا ذكر خلقهم ؛ وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب ؛ قال أشهب : سألت مالكا عن هذه الآية قال : خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير ؛ أى خلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة . وزوى عن ابن عباس أيضا قال : خلقهم فريقين ، فريفا رحمه وفريقا لا رحمه . قال المهدوى : وفى الكلام على هذا التقدير تقديم وتأخير ؛ المعنى : ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ؛ ولذلك خلقهم . وقيل هو متعلق بقوله : «ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٌ» والمعنى : ولشهود ذلك اليوم خلقهم . وقيل هو متعلق بقوله : «فِيهِمْ شِقْوَتٌ وَسَعِيدٌ» أى للسعادة والشقاوة خلقهم .

قوله تعالى : (وَمَتَّ كَلِمَةً رَبُّكَ) معنى «تمت» ثبت ذلك كما أخبر وقد رُفِىَ أزيله وتام الكلمة امتناعها عن قبول التغير والتبديل . (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) «من» لبيان الجنس ؛ أى من جلس الجنة وجلس الناس . «أجمعين» تأكيد ؛ وكما أخبر أنه يملأ ناره كذلك أخبر على لسان نبيه أنه يملأ جته بقوله : «ولكل واحدة منكم ماؤها» . خريجه البخارى من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

قوله تعالى : **وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ ۖ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾**

قوله تعالى : **(وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ)** « كلا » نصب بـ «نَقُصُّ» معناه وكل الذي يحتاج إليه من أنباء الرسل قصص عليك . وقال الأخفش : « كَلَّا » حال مقدمة ، كقولك : كَلَّا ضربت القوم . **(عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ)** أى من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم . **(مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)** أى على أداء الرسالة ، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى . وقيل : تزيدك به ثباتاً و يقيناً . وقال ابن عباس : ما نثبت به قلبك . وقال ابن جريج : نُصَبِّرُ بِهِ قلبك حتى لا تتزعزع . وقال أهل المعاني : نُطَيِّبُ ، والمعنى متقارب . و « ما » بدل من « كلا » المعنى : نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . **(وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ)** أى فى هذه السورة ؛ عن ابن عباس وأبى موسى وغيرهما ؛ وخص هذه السورة لأن فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار . وقيل : خصها بالذكر تأكيداً وإن كان الحق فى كل القرآن . وقال قتادة والحسن : المعنى فى هذه الدنيا يريد النبوة . **(وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)** الموعظة ما يتعظ به من إهلاك الأمم الماضية ، والقرون الخالية المكذبة ؛ وهذا تشریف لهذه السورة ؛ لأن غيرها من السور قد جاء فيها الحق والموعظة والذكر ولم يقل فيها كما قال فى هذه على التخصيص . « **وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** » أى يتذكرون ما نزل من هلك فتيو بون ؛ وخص المؤمنين لأنهم المتعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء .

قوله تعالى : **وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١١٦﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾**

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ﴾ تهديد ووعيد. ﴿إِنَّا عَامِلُونَ . وَآتَيْنَاكُمْ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ تهديد آخر، وقد تقدم معناه .

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى غيبهما وشهادتهما؛ لحذف لدلالة المعنى . وقال ابن عباس : خزانة السموات والأرض . وقال الضحاك : جميع ما غاب عن العباد فيهما . وقال الباقر : غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض . وقال أبو علي الفارسي : « وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى علم ما غاب فيهما ؛ أضاف الغيب وهو مضاف إلى المفعول توسعاً ؛ لأنه حذف حرف الجر ؛ تقول : غبت في الأرض وغبت ببلد كذا . ﴿وَإِلَيْهِ رُجْعُ الْأُمُورِ كُلِّهَا﴾ أى يوم القيامة ؛ إذ ليس لمخلوق أمر إلا بإذنه . وقرأ نافع وحفص «رُجْعُ» بضم الراء وفتح الجيم ؛ أى يُرَدُّ . ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أى ألبأ إليه واثق به . ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أى يمازى كلاً بعمله . وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالتاء على المخاطبة . الباقر بياء على الخبر . قال الأخفش سعيد : «يعملون» إذا لم يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم معهم ؛ قال : وقال بعضهم «تعملون» بالتاء لأنه خاطب النبي صلى الله عليه وسلم وقال : قل لهم «وما ربك بغير غافل عما تعملون» . وقال كعب الأحبار : خاتمة التوراة خاتمة «هود» من قوله : «وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» إلى آخر السورة . تمت سورة «هود» ويتلوها سورة «يوسف» عليه السلام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف عليه السلام

وهي مكية كلها . وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها . وروى أن اليهود سألو رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فأنزلت السورة ؛ وسبأى . وقال سعد ابن أبي وقاص : أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ففلاهم زمانا فقالوا : لو قصصت علينا ؛ فأنزل « تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ » ففلاهم زمانا فقالوا : لو حدثنا ؛ فأنزل : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » . قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكرّمها بمعنى واحد في وجوه مختلفة ، بإلفاظ متباعدة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكرّمها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكثر ، ولا على معارضة غير المتكرر ، والإعجاز لمن تأمل .

قوله تعالى : **الَّذِي تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿الَّذِي﴾ تقدم القول فيه ؛ والتقدير هنا : تلك آيات الكتاب ، على الابتداء والخبر . وقيل : «الَّذِي» أسم السورة ؛ أي هذه السورة المسماة «الر» . ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يعني القرآن المبين ؛ أي المبين حلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه . وهُداه وبركته . وقيل : أي هذه تلك الآيات التي كنتم توصلون بها في التوراة .

قوله تعالى : **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ يجوز أن يكون المعنى : إنا أنزلنا القرآن عربياً ؛ فصب «قُرْآنًا» على الحال ؛ أي مجعول . و«عَرَبِيًّا» نعت لقوله قُرْآنًا . ويجوز أن يكون توطئة للحال ، كما تقول : مررت بزيد رجلاً صالحاً ، و«عَرَبِيًّا» على الحال ،

أى يُقرأ بلسانكم يا معشر العرب . أَعْرَبَ يَنْ ، ومنه «الَّتِيبُ تُعْرَبُ عَنْ فَمِهَا» .
 (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) أى لكى تعلموا معانيه ، وتفهموا ما فيه . وبعض العرب يأتى بأن
 مع «لعل» تشبيها بمعنى . واللام فى «لعل» زائدة للتوكيد ؛ كما قال الشاعر^(١) :
 * يَا أَبَتَا عَلَّكَ أَوْ عَسَاكَ *

وقيل : «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أى لتكونوا على رجاء من تدبره ؛ فيعود معنى الشك إليهم لا إلى
 الكتاب ، ولا إلى الله عز وجل . وقيل : معنى «أزلناه» أى أزلنا خبر يوسف ؛ قال
 النحاس : وهذا أشبه بالمعنى ؛ لأنه يروى أن اليهود قالوا : سلوه لم أنتقل آل يعقوب من
 الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ؛ فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقا لما فى التوراة ،
 وفيه زيادة ليست عندهم . فكان هذا للنبي صلى الله عليه وسلم — إذ أخبرهم ولم يكن يقرأ
 كتابا ولا هو فى موضع حجاب — بمنزلة إحياء عيسى عليه السلام الميت على ما يأتى فيه .

قوله تعالى : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
 هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ) ابتداء وخبر . (أَحْسَنَ الْقَصَصِ) بمعنى المصدر ،
 والتقدير : قصصنا أحسن القصص . وأصل القصص تتبع الشيء ، ومنه قوله تعالى : «وَقَالَتْ
 لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ» أى تبتى أثره ؛ فالتأص يتبع الآثار فيخبر بها . والحسن يعود إلى القصص
 لا إلى القصة . يقال : فلان حسن الاقتصاص للحديث أى جيد السأفة له . وقيل :
 القصص ليس مصدرا ، بل هو فى معنى الاسم ، كما يقال : الله رجاؤنا ، أى مرجؤنا ؛ فالمعنى
 على هذا : نحن نخبرك بأحسن الأخبار . (بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) أى بوحينا ف «حا» مع الفعل
 بمنزلة المصدر . (هَذَا الْقُرْآنَ) نصب القرآن على أنه نعت لهذا ، أو بدل منه ، أو عطف
 بيان . وأجاز الفراء الحذف ؛ قال : على التكرير ؛ وهو عند البصريين على البدل من «ما» .

(١) الرجز العجاج ؛ وصدر البيت .

* تقول يحنى قد أتى أناكا *

وأجاز أبو إسحق الرغف على إضمار مبتدأ ؛ كأن سائلا سألته عن الوحي فقبل له : هو القرآن .
 ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْقَائِلِينَ ﴾ أي من العاقلين عما عرفتك .

مسئلة - واختلف العلماء لم تُسميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأفاضيل ؟
 فقيل : لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة ؛ وبيانه قوله في آخرها : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » . وقيل : سماها أحسن القصص بحسن مجازة يوسف عن إخوته ، وصبره على أذاهم ، وعفوه عنهم - بعد إلتقائهم - عن ذكر ما تعاطوه ، وكرمه في العفو عنهم ، حتى قال : « لَا تَتُوبَ عَلَيْهِمْ الْيَوْمَ » . وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين ، والحق والإنس والأنعام والطير ، وسير الملوك والملك ، والتجار والعلماء والجهال ، والرجال والنساء وجيلهن ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسيرة وتبوير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتبوير المعاش ، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا . وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما . وقيل : « أحسن » هنا بمعنى أعجب . وقال بعض أهل المعاني : إنما كانت أحسن القصص لأن كل من ذكر فيها كان ماله السعادة ؛ انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته ، وأمرأة العزيز ؛ قيل : ولذلك أيضا أسلم بيوسف وحسن إسلامه ، ومستعبر الرؤيا الساقى ، والشاهد فيما يقال ؛ فما كان أمر الجميع إلا إلى خير .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ
 كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (إِذْ قَالَ يُوسُفُ) « إذ » في موضع نصب على الظرف ؛ أي اذكر لهم حين قال يوسف . وقراءة العامة بضم السين . وقرأ طلحة ابن مُصَرِّف « يُوسُف » بالهمزة وكسر السين . وحكى أبو زيد « يُوسُف » بالهمزة وفتح السين . ولم ينصرف لأنه أعجمي ؛ وقيل : هو عربي . وسئل أبو الحسن الأقطع - وكان حكيما - عن « يوسف » فقال : الأُسُف في اللغة

الحزن؛ والأسيف العبد، وقد آخضها في يوسف؛ فلذلك سُمي يوسف «(لأبيه يا أبت)» بكسر التاء قراءة أبي عمرو وطاسم ونافع وحزمة والكسائي، وهي عند البصريين علامة التانيث أدخلت على الأب في النداء خاصة بدلا من ياء الإضافة، وقد تدخل علامة التانيث على المذكر فيقال: رجل نُكَّمة وهُرَّاة؛ قال النحاس: إذا قلت «يا أبت» بكسر التاء فالتاء عند سيبويه بدل من ياء الإضافة؛ ولا يجوز على قوله الوقف إلا بالهاء، وله على قوله دلائل: منها—أن قولك: «يا أبة» يؤدَّى عن معنى «يا أباي»؛ وأنه لا يقال: «يا أبت» إلا في المعرفة؛ ولا يقال: جاءني أبت، ولا تستعمل العرب هذا إلا في النداء خاصة، ولا يقال: «يا أبتى» لأن التاء بدل من الياء فلا يُجمع بينهما. وزعم الفراء أنه إذا قال: «يا أبت» فكسر دل على الياء لاضير؛ لأن الياء في النية. وزعم أبو إسحق أن هذا خطأ، والحق ما قال؛ كيف تكون الياء في النية وليس يقال: «يا أبتى»؟! وقرأ أبو جعفر والأعرج وعبد الله بن عامر «يا أبت» بفتح التاء؛ قال البصريون: أرادوا «يا أبتى» بالياء، ثم أبدلت الياء ألفا فصارت: «يا أبتا» فحذفت الألف وبقيت الفتحة على التاء. وقيل: للأصل الكسر، ثم أبدل من الكسرة فتحة، كما يبدل من الياء ألف فيقال: يا غلاما أقبل. وأجاز الفراء «يا أبت» بضم التاء. «(إني رأيتُ أحدَ عشرَ كوكبا)» ليس بين النحويين اختلاف أنه يقال: جاءني أحدَ عشرَ، ورأيتُ ومررتُ بأحدَ عشرَ، وكذلك ثلاثة عشرَ وسبعة عشرَ وما بينهما؛ جعلوا الاسمين اسمًا واحدًا وأعربوها بأخف الحركات. قال السهيلي: أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مستندًا؛ رواه الحرث بن أبي أسامة قال: جاء بستانة — وهو رجل من أهل الكتاب — فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الأحد عشر كوكبا الذي رأى يوسف فقال: الحرثان والطارق والذئبال وقابس والمصبيح والضروح وذو الكنفات وذو القرع والفلق ووثاب والعمودان؛ رآها يوسف عليه السلام تسجد له. قال ابن عباس وقائدة: الكواكب إخوته، والشمس أمه، والقمر أبوه. وقال قائدة أيضا: الشمس خالته، لأن أمه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت

(١) كذا في «مقد الجمان» للبني، وفي الأصل «الضلع».

أَيْسَهُ . (رَأَيْتُمْ) توكيد . وقال : « رَأَيْتُمْ لِي مَاجِدِينَ » بقاء مذكرا ، فالقول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنهما كما يخبر عن يعقل . وقد تقدم هذا المعنى في قوله : « وَرَأَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ » . والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزله ، وإن كان خارجا عن الأصل .

قوله تعالى : قَالَ يَبْنَئِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِنْخَوْرَتَكَ فِيمَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٠﴾
فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا) أى يحالوا في هلاكك ، لأن تأويلها ظاهر ، وربما يحلمهم الشيطان على قصدك بسوء حيثئذ . واللام في « لك » تأكيد ، كقوله : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » .

الثانية - الرؤيا حالة شريفة ، ومثلة رفيعة ، قال صلى الله عليه وسلم : « لم يبق بعدى من الميشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادرة براها الرجل الصالح أو ترى له » . وقال : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا » . وحكم صلى الله عليه وسلم بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، وروى « من سبعين جزءا » . وروى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما « جزء من أربعين جزءا من النبوة » . ومن حديث ابن عمر « جزء من تسعة وأربعين جزءا » . ومن حديث العباس « جزء من خمسين جزءا من النبوة » . ومن حديث أنس « من ستة وعشرين » . وعن عبادة بن الصامت « من أربعة وأربعين من النبوة » . والصحيح منها حديث الستة والأربعين ، ويتلوه في الصحة حديث السبعين ، ولم يخرج مسلم في صحيحه غير هذين الحديثين ، وأما سائرهما فن أحاديث الشيوخ ، قاله ابن بطلال . قال أبو عبد الله المازرى : والأكثر والأصح عند أهل الحديث « من ستة وأربعين » . قال الطبري : والصواب أن

يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول؛ فأما قوله :
 "إنها جزء من سبعين جزءا من النبوة" فإن ذلك قول عام في كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل
 مسلم رآها في منامه على أى أحواله كان؛ وأما قوله : "إنها من أربعين - أو - ستة وأربعين"
 فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التي ذكرت عن الصديق - رضى الله عنه - أنه
 كان بهاء؛ فمن كان من أهل إمساخ الوضوء في السبرات^(١)، والصبر في الله على المكروهات،
 وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فرؤياه الصالحة - إن شاء الله - جزء من أربعين جزءا من
 النبوة، ومن كانت حاله في ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقة بين الجزءين؛ ما بين الأربعين
 إلى الستين، لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين؛ وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بن
 عبد البر فقال : اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندي اختلاف
 تضاد وتدافع - والله أعلم - لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على
 حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدين المتين، وحسن اليقين؛ فعلى قدر
 اختلاف الناس فيها وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد؛ فمن خلصت نيته
 في عبادة ربه وبقية وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة أقرب؛ كما أن الأنبياء
 يتفاضلون؛ قال الله تعالى : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » .

قلت : فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض
 وطرحه؛ ذكر أبو سعيد الأسفأقي^٢ عن بعض أهل العلم قال : معنى قوله : "جزء من ستة
 وأربعين جزءا من النبوة" فإن الله تعالى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم في النبوة
 ثلاثة وعشرين عاما - فيأرواه عكمة وعمرو بن دينار عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما -
 فإذا نسبنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عاما وجدنا ذلك جزءا من ستة وأربعين جزءا؛
 وإلى هذا القول أشار المازري^٣ في كتابه «المعلم»، واختاره القنوي^٤ في تفسيره من سورة
 «يونس» عند قوله تعالى : «لم البشرى» . وهو فاسد من وجهين : أحدهما - ما رواه

(١) الصبرات (جمع صبرة) بسكون الياء : شدة البرد .

أبو سلمة عن ابن عباس وعائشة أن مدة الوحي كانت عشرين سنة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث على رأس أربعين ، فأقام بمكة عشرين سنة ، وهو قول عروة والشعبي وابن شهاب والحسن وعطاء الخراساني وسعيد بن المسيب على اختلاف عنه ، وهي رواية ربيعة وأبي غالب عن أنس ، وإذا ثبت هذا الحديث بطل ذلك التأويل : الثاني — أن سائر الأحاديث في الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى .

الثالثة — إنما كانت الرؤيا جزءا من النبوة ؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران ، وقلب الأعيان ، والاطلاع على شيء من علم الغيب ؛ كما قال عليه السلام : " إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصادقة في النوم " الحديث . وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله ، وأنها من النبوة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " الرؤيا من الله والحلم من الشيطان " وأن التصديق بها حق ، ولما التأويل الحسن ، وربما أغنى بعضها عن التأويل ، وفيها من بدع الله ولطفه ما يزيد المؤمن في إيمانه ، ولا خلاف في هذا بين أهل الدين والحق من أهل الزاى والأثر ، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشذمة من المعتزلة .

الرابعة — إن قيل : إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءا من النبوة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلف أهلا لها ؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم من لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة ؛ كتنام رؤيا الملك الذى رأى سبع بقرات ، ومنام الفتيين فى السجن ، ورؤيا مجتصر^{مؤيد} الذى فسرهما دانيال فى ذهاب ملكه ، ورؤيا كسرى فى ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنام طائفة ، عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمره وهى كافرة ، وقد ترجم البخارى « باب رؤيا أهل السجن » فالجواب — أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم فى بعض الأوقات لا تكون من الوحي ولا من النبوة ؛ إذ ليس كل من صدق فى حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوة ؛ وقد تقدم فى « الأنعام » أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق ، لكن ذلك على التدور والقلبة ، فكذلك رؤيا هؤلاء ؛ قال المهلب : إنما ترجم البخارى

بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءا من النبوة.

الخامسة — الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلها موافقا لما في اللوح المحفوظ، والتي هي من خبر الأضغاث هي الحلم، وهي المضافة إلى الشيطان، وإنما سميت ضغثا؛ لأن فيها أشياء متضادة؛ قال معناه المهلب. وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا أقساما تنفي عن قول كل قائل؛ روى عوف بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الرؤيا ثلاثة منها أهوايل الشيطان يحزن ابن آدم ومنها ما يتم به في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة". قال قلت: سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم! سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

السادسة — قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ الآية. الرؤيا مصدر رأى في المنام رؤيا على وزن فُعِلَ كَالسَّقْيَا والبُشْرَى؛ وألفه للتأنيث ولذلك لم ينصرف. وقد اختلف العلماء في حقيقة الرؤيا؛ فقليل: هي إدراك في أجزاء لم تحلها آفة، كالنوم المستغرق وغيره؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا في آخر الليل لقلة ظلية النوم، فيخلق الله تعالى للرأى علما ناشئا، ويخلق له الذي يراه على ما يراه ليصبح الإدراك، قال ابن العربي: ولا يرى في المنام إلا ما يصبح إدراكه في اليقظة، ولذلك لا يرى في المنام شخصا قائما قاعدا بحال، وإنما يرى الحائزات المعنويات. وقيل: إن الله ملكا يعرض المرئيات على المحل المدرك من الأنائم، فيمثل له صوراً محسوسة؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع في الوجود، وتارة تكون لمعانى معقولة غير محسوسة، وفي الحالتين تكون مبشرة أو منذرة؛ قال صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم وغيره: "رأيت^(١) سوداء تارة الرأس تنخرج من المدينة إلى مهيبة فأولتها الحمى".

(١) أي امرأة سوداء، كما في رواية الساق. (٢) المهيبة: هي الخيفة؛ ميثاق أهل الشام.

و"رأيت سبى قد أقطع صدره وبقرا ثمحر فأولئها رجل من أهل بيتي يقتل والبقر نفر من أصحابي يقتلون". و"رأيت أنى أدخلت يدى فى درج حصينة فأولئها المدينة". و"رأيت فى يدى سوارين فأولئها كذاين يخرجان بعدى". إلى غير ذلك مما ضربت له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أولاً، ومنها ما لا يظهر إلا بعد الفكر؛ وقد رأى الناس فى زمن يوسف عليه السلام بقرا فأولها يوسف الستين، ورأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فأولها بياخته وأبويه.

السابعة — إن قيل: إن يوسف عليه السلام كان صغيرا وقت رؤياه، والصغير لا حكم لفعله، فكيف تكون له رؤيا لما حكم حتى يقول له أبوه: «لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ»؟ فالجواب — أن الرؤيا إدراك حقيقة على ما قدمناه، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقى فى اليقظة، وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى فى المنام؛ وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وجدت كما رأى فلا اعتراض؛ روى أن يوسف عليه السلام كان ابن اثنتى عشرة سنة.

الثامنة — هذه الآية أصل فى ألا تنقص الرؤيا على غير شقيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها؛ روى أبو رزين المقرئ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الرؤيا جزء من أربعين جزءا من النبوة والرؤيا معلقة برسل طائر ما لم يتحدث بها صاحبها فإذا حدث بها وقعت فلا تحدثوا بها إلا طائلا أو محيا أو ناصحا" أخرجه الترمذى وقال فيه: حديث حسن صحيح؛ وأبو رزين اسمه لقيط بن عامر. وقيل لمالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أيا النبوة يلعب؟ وقال مالك: لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيرا أخبر به، وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت؛ قيل: فهل يعبرها على الخير وهى عنده على المكروه فنقول من قال إنها على ما تأولت عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة.

التاسعة — وفى هذه الآية دليل على أن مباحا أن يحذر المسلم أخاه المسلم من يخافه عليه، ولا يكون داخلا فى معنى الغيبة؛ لأن يعقوب — عليه السلام — قد حذر يوسف أن

يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدا، وفيها أيضا ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخفى غائلته حسدا وكيدا ؛ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " استمعنوا على [الإنجاح]^(١) حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود ". وفيها أيضا دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا ؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم ، ولم يبال بذلك من نفسه ؛ فإن الرجل يود أن يكون ولده خيرا منه ، والأخ لا يود ذلك لأخيه . ويدل أيضا على أن يعقوب عليه السلام كان أحسن من بنيه حسد يوسف وبغضه ؛ فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن تتل بذلك صدورهم ، فعملوا الخيلة في هلاكه ؛ ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت ، ووقع في كتاب الطبري لابن زيد أنهم كانوا أنبياء ، وهذا يرد القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوي ، وعن حقوق الآباء ، وتعرض مؤمن للهلاك ، والتأمر في قتله ، ولا التفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء ، ولا يستحيل في العقل زلة نبي ، إلا أن هذه الزلة قد جمعت أنواعا من الجائر ، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها ، وإنما اختلفوا في الصغائر على ما تقدم ويأتي .

العاشرة — روى البخاري عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لم يبق من النبوة إلا المبشرات " قالوا : وما المبشرات ؟ قال : " الرؤيا الصالحة " وهذا الحديث بظاهره يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك ؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تسررائها ، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رقعا به ورحمة ، ليستعد لتزول البلاء قبل وقوعه ؛ فإن أدرك تأولها بنفسه ، ولا سأل عنها من له أهلية ذلك . وقد رأى الشافعي رضي الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حنبل تثل على محبته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك ، وقد تقدم في « يونس » في تفسير قوله تعالى : « نَسُفُ الْبَشَرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أنها الرؤيا الصالحة . وهذا وحديث البخاري مخرجه على الأغلب ، والله أعلم .

(١) الزيادة من « الجامع الصغير » .

الحادية عشرة — روى البخارى عن أبى سلمة قال : لقد كنت أرى الرؤيا فتعرضنى حتى سمعت أبا قتادة يقول ؛ وأنا كنت لأرى الرؤيا فتعرضنى حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يجب فلا يحدث به إلا من يجب وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها وليتفضل ثلاث مرات ولا يحدث بها أحدا فإنها لن تضره “ . قال علماؤنا : جعل الله الاستعاذة منها عما يرفع أذاها ؛ ألا ترى قول أبى قتادة : إني كنت لأرى الرؤيا هي أثقل على من الجبل ، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئا . وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” وإذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليصق عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثا وليتحول عن جنبه الذى كان عليه “ . وفى حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل “ . قال علماؤنا : وهذا كله ليس بمتعارض ، وإنما هذا الأمر بالتحول ، والصلاة زيادة ، فعل الرأى أن يفعل الجميع ، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع ؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور ؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحول عن جنبه ، وإذا تمضمض تفل وبصق ، وإذا قام إلى الصلاة تعوذ ودعا وتضرع لله تعالى فى أن يكفيه شرها فى حال هي أقرب الأحوال إلى الإجابة ، وذلك السحر من الليل .

قوله تعالى : **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُمِيتُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾**

قوله تعالى : (**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ**) الكاف فى موضع نصب ؛ لأنها نعت لمصدر محذوف ، وكذلك الكاف فى قوله : **« كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ »** و **« مَا »** كافة . وقيل : **« وكذلك »** أى كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك ، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا . قال مقاتل : بالسجود لك . الحسن : بالنبوة . والأجتناء اختيار معالى الأمور للجن ، وأصله من جهيت

الشيء أى حصّته ، ومنه جَبِيتُ الماء في الحوض ؛ قاله النحاس . وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف عليه السلام ، وتعدد فيا عدده عليه من النعم التي آتاه الله تعالى ، التمكن في الأرض ، وتعليم تأويل الأحاديث ؛ وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا . قال عبد الله بن شداد بن الهاد : كان تفسير رؤيا يوسف صلى الله عليه وسلم بعد أربعين سنة ؛ وذلك منتهى الرؤيا . وعنى بالأحاديث ما يراه الناس في المنام ، وهى معجزة له ؛ فإنه لم يلحقه فيها خطأ . وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها ، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم نحو ذلك ، وكان الصديق رضى الله عنه من أصر الناس لها ، وحصل لابن سيرين فيها التقدم العظيم ، والطبع والإحسان ، ونحوه أو قريب منه كان مسعود بن المسيب فهاذكروا . وقد قيل في تأويل قوله : (وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) أى أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد ، فهو إشارة إلى النبوة ، وهو المقصود بقوله : (وَيُمِثُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) أى بالنبوة . وقيل : بإخراج إخوانك إليك ؛ وقيل : بإنجائك من كل مكروه . (كَمَا آتَاهَا عَلَى أَيْوَمِكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ) بالخلعة ، وإنجائه من النار (وَإِصْحَقَ) بالنبوة . وقيل : من الذبح ؛ قاله عكرمة . وأعلمه الله تعالى بقوله : (وَهَلَى آلَ يَعْقُوبَ) أنه سيمطى بنى يعقوب كلهم بالنبوة ؛ قاله جماعة من المفسرين . (إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ) بما يعطيك . (حَكِيمٌ) في فعله بك .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّالِكِينَ ﴿٧﴾
إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا مَيَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا
لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾ أَفْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَمْلِكُ لَكُمْ وَجْهُ
أُيُكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْلِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّالِكِينَ) يعنى من سأل عن حديثهم . وقرأ أهل مكة « آية » على التوحيد ؛ واختار أبو عبيد « آيات » على الجمع ؛ قال : لأنها خبر كثير . قال النحاس : و « آية » هنا قراءة حسنة ، أى لقد كان للذين سألوا عن خبر

يوسف آية فيها خبروا به ؛ لأنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فقالوا : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج كنبه إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمى ؟ — ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء ؛ وإنما وجه اليهود من المدينة يسألونه عن هذا — فأنزل الله عز وجل سورة « يوسف » جملة واحدة ؛ فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة ؛ فكان ذلك آية للنبي صلى الله عليه وسلم ، بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت . « آيات » موعظة ؛ وقيل : صيرة . وروى أنها في بعض المصاحف « صيرة » . وقيل : بصيرة . وقيل : عجب ؛ تقول فلان آية في العلم والحسن أى عجب . قال الثعلبي في تفسيره : لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه ؛ قال ابن زيد : كانوا أنبياء ، وقالوا : ما يرضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه ! فبهوه بالعداوة ، وقد تقدم رد هذا القول . قال الله تعالى : (**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ**) وأسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم ، وشمعون ولاوى ويهوذا وزبالون ويساسر ، وأهمهم ليا بنت ليان ، وهى بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة نفر ، دان ونفتالى وجاد وأشر ، ثم توفيت ليا فترج يعقوب أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين ، فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلا ، قال السهيلي : وأم يعقوب أسمها رفا ، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين ، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب . وقيل : في أسم الأمتين ليا وتلتا ، كانت إحداهما لراحيل ، والأخرى لأختها ليا ، وكانتا قد وهبتهما ليعقوب ، وكان يعقوب قد جمع بينهما ، ولم يحل لأحد بعده ؛ لقول الله تعالى : (**وَأَنْ تَجْعَلُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ**) . وقد تقدم الرد على ما قاله ابن زيد ، والحمد لله .

قوله تعالى : (**إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ**) « يُوسُف » رفع بالابتداء ؛ واللام للتأكيد ، وهى التى يتلقى بها القسم ؛ أى والله ليوسف . (**وَأَخُوهُ**) عطف عليه . (**أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا**) خبره ، ولا يتنى ولا يجمع لأنه بمعنى الفعل ؛ وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم فتأمروا في كيد . (**وَنَحْنُ عَصَبَةٌ**) أى جماعة ، وكانوا عشرة . والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة ، وقيل : إلى الخمسة عشر . وقيل : ما بين الأربعين إلى العشرة ؛ ولا واحد لها من لفظها كالنفر

والرُحط . (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) لم يريدوا ضلال الدين ، إذ لو أرادوه لكانوا كفاراً ؛ بل أرادوا لقي ذهاب عن وجه التدبير ، في إثارة اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه . وقيل : لقي خطأ بين بلإثارة يوسف وأخاه علينا .

قوله تعالى : (أَقْتُلُوا يُوسُفَ) في الكلام حذف ؛ أي قال قائل منهم : « أقتلوا يوسف » ليكون أحسم لمادة الأمر . (أَوْ اطْرُحُوهُ أَرْضًا) أي في أرض ، فأسقط الخافض وانتصب الأرض ؛ وأشد سيوويه فيما حذف منه « في » :
لَذَنَّهُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُ يَسْلُ مَنَّهُ * فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقُ التَّمَلُّبُ (١)

قال النحاس : إلا أنه في الآية حسن كثير ؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين ، أحدهما بحرف ، فإذا حذف الحرف تعدى الفعل إليه . والقائل قيل : هو شمعون ؛ قاله وهب بن منبه . وقال كعب الأحمار ؛ دان . وقال مقاتل : رويسل ؛ والله أعلم . والمعنى أرضاً تبعد عن أبيه ؛ فلا بد من هذا الإحصار لأنه كان عند أبيه في أرض . (يَبْتَغِ) جزم لأنه جواب الأمر ؛ معناه : يخلص ويصفو (لَكُمْ وَجْهٌ أَيْبِكُمْ) فيقبل عليكم بكميته . (وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ) أي من بعد الذنب ، وقيل : من بعد يوسف . (قَوْمًا صَالِحِينَ) أي تائبين ؛ أي تحذثوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منكم ؛ وفي هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة ، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم . وقيل : « صالحين » أي يصلح شأنكم عند أبيكم من غير إثارة ولا تفضيل .

قوله تعالى : قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٢﴾

(١) البيت لساعدة بن جارية وقد وصف فيه رجلاً من الهز ؛ فشب اضطرابه في نفسه أوفى حال هزه بسلان التلب في سيرة ؛ والسلان : سير سريع في اضطراب . والذن : التام العين . وبروي : لذي أي مستلذ عند الهز إليه . (شواهد سيويه) .

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ ﴾ (القاتل هو يهوذا ، وهو أكبر ولد يعقوب ؛ قاله ابن عباس ، وقيل : روبيل ، وهو ابن خالته ، وهو الذي قال : « فلن أبرح الأرض » . وقيل : شمعون .) ﴿ وَالْقَوَّةُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ (قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة « في غيابة الجب » . وقرأ أهل المدينة « في غيَابَاتِ الجُبِّ » واختار أبو حيد التوحيد ؛ لأنه على موضع واحد القوه فيه ، وأنكر الجمع لهذا . قال النحاس : وهذا تضيق في اللغة ؛ « وغيابات » على الجمع [يجوز من وجهين] : حكى سيبويه مِيرَ عليه عَشِيَّاتٍ وَأَصِيلَاتٍ ، يريد عَشِيَّةً وَأَصِيلًا ، فجعل كل وقت منها عَشِيَّةً وَأَصِيلًا ، فكذا جعل كل موضع مما يُغَيَّبُ غِيَابَةً . [والآخر — أن يكون في الجب غيابات (جماعة) .] ويقال : غاب يَغِيْبُ [^(١) غَيَاً وَغِيَابَةً وَغِيَابًا] كما قال الشاعر :

أَلَا فَالْبَتَّ شَهْرَيْنِ أَوْ نَصَفَ نَالٍ * أَنَا ذَا كُنَّا قَدْ غَيَّبْتَنِي غِيَابِيَا

قال الحروري : والغَيَابَةُ شبه الجَفِّ أو طاق في البر فوق الماء ، يغيب الشيء عن العين . وقال ابن عزيز : كل شيء غيَّبَ عنك شيئاً فهو غِيَابَةٌ . قلت : ومنه قيل للقبر غِيَابَةٌ ؛ قال الشاعر :

فَإِن أَنَا يَوْمًا غَيَّبْتَنِي غِيَابِي * فَسِيرُوا بِسِرِّي فِي الْعَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ

والجب الرِّكِيَّة التي لم تَطْوَى ، فإذا طُوِيَتْ فهي بُرٌّ ؛ قال الأعشى :

لئن كنت في جُبِّ ثَمَانِينَ قَامَةً * وَرُقِيتْ أَسْبَابُ السَّمَاءِ بِسُلْمٍ ^(٢)

وسميت جباً لأنها قُطِعَتْ في الأرض قِطْعًا ؛ وجمع الجب جَبِيَّةٌ وَجَبَابٌ وَأَجَابٌ ؛ وجمع بين الغيابة والجب لأنه أراد القوه في موضع مظلم من الجب حتى لا يلحقه نظر الناظرين . قيل :

(١) الزيادة عن النحاس . (٢) الجف : الناحية من الحوض أو البريا كله الماء فيصير كالكهف .

(٣) بسده :

لَيْسَ بِدِينِكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَهْزَ * وَتَسْلَمَ أَيْ حَتَّى تُبْرِئَ بِلِجَمٍ

وَتَقْرُقَ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَدْعَتْ * كَأَنَّهُ قَدْ صَدَّقَتْهُ مِنَ الدَّمِ

هو بيت المقدس ، وقيل : هو بالأردن ، قاله وهب بن منبه . مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب .

الثانية — قوله تعالى : ((يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ)) جزم على جواب الأمر . وقرا مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة : « تَلْقَظُهُ » بالياء ، وهذا محمول على المعنى ؛ لأن بعض السيارة سيارة ؛ وقال سيويه : سقطت بعض أصحابه ، وأنشد :
وتشرق بالقول الذي قد أذعته * كما شرفت صدر القناة من الدم
وقال آخر :

أَرَى مَرَّ السَّيِّئِ أَخَذَنَ مَنِي * كَمَا أَخَذَ السَّرَّارُ مِنَ الْهِلَالِ^(١)

ولم يقل شَرِقَ ولا أخذت . والسيارة الجمع الذين يسرون في الطريق للسفر ، وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاج إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود ؛ فإن من التقطه من السيارة يحملة إلى موضع بعيد ، وكان هذا وجها في التديير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم ، فربما لا يأذن لهم أبوه ، وربما يطلع على قصدهم .

الثالثة — وفي هذا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أولاد ولا أخرا ؛ لأن الأنبياء لا يدبرون في قتل مسلم ، بل كانوا مسلمين ، فارتكبوا معصية ثم تابوا . وقيل : كانوا أنبياء ، ولا يستحيل في العقل زلة نبي ، فكانت هذه زلة منهم ؛ وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الجائر على ما قدمناه . وقيل : ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله ؛ وهذا أشبه ، والله أعلم .

الرابعة — قال ابن وهب قال مالك : طرَحَ يوسف في الحب وهو غلام ، وكذلك روى ابن القاسم عنه ، يعني أنه كان صغيرا ؛ والدليل عليه قوله تعالى : « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَقْرَبَهُ »

- (١) البيت للأعشى ، وهو يخاطب يزيد بن مسهر الشيباني ، وكانت بينهما مياينة ومهاجاة ؛ فيقول له : يعود عليك مكره ما أذعت من القول ونسبه إلى من القبيح ، فلا تجده غلما . والشرق بالماء كالغصص بالطعام .
(٢) سرار الشعر (ينفتح السن المهمة وكسرها) ومرده : أنزلية منه .

فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » قَالَ : وَلَا يَلْقَاهُ إِلَّا الصَّغِيرُ ؛ وَقَوْلُهُ : « وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ » ذَلِكَ يَخْتَصُّ بِالصَّغَارِ ؛ وَقَوْلُهُمْ : « أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَنَحَافَظُونَ » .

الخامسة — الالتقاط تناول الشيء من الطريق ؛ ومنه اللقيط واللقطة ، ونحن نذكر من أحكامها ما دلت عليه الآية والسنة ، وما قال في ذلك أهل العلم واللغة ؛ قال ابن عرفة : الالتقاط وجود الشيء على غير طلب ؛ ومنه قوله تعالى : « يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » أى يجده من غير أن يخطبه . وقد اختلف العلماء في اللقيط ؛ فقيل : أصله الحرية لغلبة الأحرار على العبيد ؛ وروى عن الحسن بن علي أنه قضى بأن اللقيط حر ، وتلا « وَشَرُّهُ يَشْمَنِ بِحَسِّ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ » وإلى هذا ذهب أشهب صاحب مالك ؛ وهو قول عمر بن الخطاب ، وكذلك روى عن علي وجماعة . وقال إبراهيم النخعي : إن نوى رقه فهو مملوك ، وإن نوى الحسبة فهو حر . وقال مالك في موطنه : الأمر عندنا في المنبوذ أنه حر ، وأن ولأه بجماعة المسلمين ، هم يرثونه ويعقلون عنه ، وبه قال الشافعي ؛ واحتج بقوله عليه السلام : « وَإِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَن أَهْتَقَ » قال : فنفى الولاء عن غير المعتق . واتفق مالك والشافعي وأصحابهما على أن اللقيط لأيوالي أحدا ، ولا يرثه أحد بالولاء . وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين : اللقيط يوالى من شاء ، فمن والاه فهو يرثه ويعقل عنه ؛ وعند أبي حنيفة له أن يتنقل بولائه حيث شاء ، ما لم يعقل عنه الذى والاه ، فإن عقل عنه جناية لم يكن له أن يتنقل عنه بولائه أبدا . وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن علي رضى الله عنه : المنبوذ حر ، فإن أحب أن يوالى الذى التقطه والاه ، وإن أحب أن يوالى غيره والاه ؛ ونحوه عن عطاء ، وهو قول ابن شهاب وطائفة من أهل المدينة ، وهو حر . قال ابن العربي : إنما كان أصل اللقيط الحرية لغلبة الأحرار على العبيد ، فقضى بالغالب ، كما حكم أنه مسلم أخذنا بالغالب ؛ فإن كان في قرية فيها نصارى ومسلمون قال ابن القمام : يحكم بالأغلب ؛ فإن وجد عليه زى اليهود فهو يهودى ، وإن وجد عليه زى النصارى فهو نصرانى ، وإلا فهو مسلم ، إلا أن يكون أكثر أهل القرية

على غير الإسلام . وقال غيره : لو لم يكن فيها إلا مسلم واحد قضى للقيط بالإسلام تغليبا لحكم الإسلام الذي يعلو ولا يُعلى عليه ، وهو مقتضى قول أشهب ؛ قال أشهب : هو مسلم أبدا ، لأني أجعله مسلما على كل حال ، كما أجعله حرا على كل حال . وأختلف الفقهاء في المنبوذ تدل البيّنة على أنه عبد ؛ فقالت طائفة من أهل المدينة : لا يقبل قولها في ذلك ، وإلى هذا ذهب أشهب لقول عمر هو حر ؛ ومن قضى بحريته لم تقبل البيّنة في أنه عبد . وقال ابن القاسم : تقبل البيّنة في ذلك ؛ وهو قول الشافعي والكوفي .

السادسة — قال مالك في اللقيط إذا أنفق عليه الملتقط ثم أقام رجل البيّنة أنه ابنه فإن الملتقط يرجع على الأب إن كان طرحه متعمدا ، وإن لم يكن طرحه ولكنه ضلّ منه فلا شيء على الأب ، والمملتقط متطوع بالشقة . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللقيط فهو متطوع ، إلا أن يأمره الحاكم . وقال الأوزاعي : كل من أنفق على من لا تجب له عليه نفقة يرجع بما أنفق . وقال الشافعي : إن لم يكن للقيط مال وجبت نفقته في بيت المال ، فإن لم يكن ففيه قولان : أحدهما — يستقرض له في ذمته . والثاني — يقسط على المساكين من غير عوض .

السابعة — وأما اللقطة والضوأل فقد اختلف العلماء في حكمهما ؛ فقالت طائفة من أهل العلم : اللقطة والضوأل سواء في المعنى ، والحكم فيهما سواء ؛ وإلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاوي ، وأتكر قول أبي عبيد القاسم بن سلام — أن الضالة لا تكون إلا في الحيوان واللقطة في غير الحيوان — وقال هذا غلط ؛ واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الإفك للمسلمين : « إن أمتكم ضلت فلابدتها » فاطلق ذلك على الفلاة .

الثامنة — أجمع العلماء على أن اللقطة ما لم تكن نافعا يسيرا أو شيئا لا بقاء لها فإنها تُعرف حولا كاملا ، وأجمعوا أن صاحبها إن جاء فهو أحق بها من ملتقطها إذا ثبت له أنه صاحبها ، وأجمعوا أن ملتقطها إن أكلها بعد الحول وأراد صاحبها أن يضمّنه فإن ذلك له ، وإن تصدق بها فصاحبها غير بين التضمين وبين أن يترد على أجزائها ، فأى ذلك تخيير كان ذلك له بإجماع ؛

ولا تنطلق بد ملتقطها عليها بصدقة، ولا تصرف قبل الحول . وأجمعوا أن ضالة الغنم المخوف عليها أن له أكلها .

التاسعة - وأختلف الفقهاء في الأفضل من تركها أو أخذها؛ فمن ذلك أن في الحديث دليلاً على إباحة التفاضل اللقطة وأخذ الضالة ما لم تكن إبلاً . وقال في الشاة: "لَكَ أَوْ لِأَخِيكَ أَوْ لِلذَّبِّ" يحضه على أخذها ، ولم يقل في شيء دعوه حتى يضيع أو يأتيه ربه . ولو كان ترك اللقطة أفضل لأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال في ضالة الإبل ، والله أعلم . وجملة مذهب أصحاب مالك أنه في سعة ، إن شاء أخذها وإن شاء تركها ؛ هذا قول إسماعيل ابن إسحق رحمه الله . وقال المُنْزِي عن الشافعي : لا أحب لأحد ترك اللقطة إن وجدها إذا كان أميناً عليها ؛ قال : وسواء قليل اللقطة وكثيرها .

العاشرة - روى الأئمة مالك وغيره عن زيد بن خالد الجهني قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن اللقطة فقال : "أَعْرِفْ عِقَاصَهَا وَيُكَامَهَا ثُمَّ عَرِّفْهَا سَنَةً فَإِنْ جَاءَ صَاحِبُهَا وَإِلَّا فَشَاتُكَ بِهَا" قال : فضالة الغنم يا رسول الله ؟ قال : "لَكَ أَوْ لِأَخِيكَ أَوْ لِلذَّبِّ" قال : فضالة الإبل ؟ قال : "مَا لَكَ وَلَهَا مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا تَرُدُّ الْمَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا" . وفي حديث أبي قال : "أَحْفَظُ عَدَدَهَا وَوِصَاءَهَا وَيُكَامَهَا فَإِنْ جَاءَ صَاحِبُهَا وَإِلَّا فَاسْتَمِيعْ بِهَا" ففي هذا الحديث زيادة العدد ؛ نرحمه مسلم وغيره . وأجمع العلماء أن عِصَاصَ اللقطة ووكامها من إحدى علاماتها وأدناها عليها ؛ فإذا أتى صاحب اللقطة بجميع أوصافها دفعت له ؛ قال ابن القاسم : يُجِبُّ عَلَى دَفْعِهَا ؛ فإن جاء مستحق يستحقها بيينة لأشهب ، والثاني لأبن القاسم ، ولا تلزمه بيينة عند مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تدفع له إلا إذا أقام بيينة أنها له ؛ وهو بخلاف نص الحديث ؛

(١) العِصَاصُ : الرِوَاءُ الذي يكون به الثقة ؛ جلدًا كان أو غيره . والوكاء هو الخيط الذي يشد به الرِوَاءُ . والمراد بالعِصَاصُ والوكاء أن يعلم الملتقط صدق واصفها من كذبه ، وبالحذاء خفيها ، فهي تحوى بأخفافها على السير وورد الماء والشجر .

ولو كانت البيّنة شرطاً في الدّفع لما كان لذكر العفاص والوكاء والمَدَد معنى ؛ فإنه يستحقها بالبيّنة على كل حال ؛ ولما جاز سكوت النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فإنه تأخير البيان عن وقت الحاجة . والله أعلم .

الحادية عشرة — نص الحديث على الإبل والغنم وبين حكمهما ، وسكت عما عداهما من الحيوان . وقد اختلف علماءنا في البقر هل تلتحق بالإبل أو بالغنم ؟ قولان ؛ وكذلك اختلف أئمتنا في التقاط الخيل والبغال والحمير ، وظاهر قول ابن القاسم أنها تلتقط ، وقال أشهب وآبن كنانة : لا تلتقط ؛ وقول ابن القاسم أصح لقوله عليه السلام : ” احفظ على أخيك المؤمن ضالّته “ .

الثانية عشرة — واختلف العلماء في النفقة على الضّوّال ؛ فقال مالك فيما ذكر عنه ابن القاسم : إن أنفق الملتقط على الدّوابّ والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة ، وسواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره ؛ قال : وله أن يحبس بالنفقة ما أنفق عليه ويكون أحق به كارهن . وقال الشافعي : إذا أنفق على الضّوّال من أخذها فهو متطوع ؛ حكاها عنه الترمذي . وقال المزني عنه : إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت ديناً ، وما ادّعى قيل منه إذا كان مثله قصداً . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللقطة والإبل بغير أمر القاضي فهو متطوع ، وإن أنفق بأمر القاضي فذلك دين على صاحبها إذا جاء ، وله أن يحبسها إذا حضر صاحبها . والنفقة عليها ثلاثة أيام ونحوها ، حتى يأمر القاضي ببيع الشاة وما أشبهها ويقضى بالنفقة .

الثالثة عشرة — ليس في قوله صلى الله عليه وسلم في اللقطة بعد التعريف : ” فاستمتع بها “ أو ” فشأنك بها “ أو ” فهي لك “ أو ” فاستنقها “ أو ” ثم كُلها “ أو ” فهو مال الله يؤتبه من يشاء “ على ما في صحيح مسلم وغيره ما يدل على التملك ، وسقوط الضمان عن الملتقط إذا جاء ربه ؛ فإن في حديث زيد بن خالد الجهمي عن النبي صلى الله عليه وسلم : ” فإن لم تعرف^(١)

(١) (إن لم تعرف) : أي إن لم تعرف صاحبها .

فاستنقها ولكن وديعة عندك فإن جاء صاحبها يوما من الدهر فاذا إليه " في رواية " ثم كلها فإن جاء صاحبها فاذا إليه " خرجه البخاري ومسلم . وأجمع العلماء على أن صاحبها متى جاء فهو أحق بها ، إلا ما ذهب إليه داود من أن الملتقط يملك اللقطة بعد التعريف ؛ لتلك الظواهر ، ولا التفات لقوله ، لمخالفة الناس ، ولقوله عليه السلام : " فاذا إليه " .

قوله تعالى : **قَالُوا يَتَابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصَحُونَ** ﴿١٧﴾ **أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ** ﴿١٨﴾

قوله تعالى : **(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ)** قيل الحسن : أي حسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك بنى يعقوب ! ولذا قيل : الأب جلاب والأخ سلاب ؛ فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الاحتيال . وقالوا ليعقوب : « يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » وقيل : لما تفاوضوا واقتروا على رأى المتكلم الثانى عادوا الى يعقوب عليه السلام وقالوا هذا القول . وفيه دليل على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتى . قرأ يزيد بن القعقاع وعمر بن عبید والزهرى « لَا تَأْمَنَّا » بالأدغام ، وبغير إشمام وهو القياس ؛ لأن سبيل ما يدغم أن يكون ساكنا . وقرأ طلحة بن مصرف « لَا تَأْمَنَّا » بنونين ظاهرتين على الأصل . وقرأ يحيى بن قثاب وأبو رزين — وروى عن الأعمش — « لَا تَيْمَنَّا » بكسر التاء ، وهى لغة تميم ؛ يقولون : أنت تَضْرِبُ ؛ وقد تقدم . وقرأ سائر الناس بالإدغام والإشمام لبطل على حال الحرف قبل إدغامه . **(وَإِنَّا لَهُ لَنَصَحُونَ)** أى فى حفظه وغفلته حتى نرذه إليك . قال مقاتل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ وذلك أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم : « أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا » الآية ؛ فيثبت قال أبوهم : « إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَنْ تَلْعَبُوا بِهِ » فقالوا حينئذ جوابا لقوله : « مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » الآية . **(أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا)** إلى الصحراء **(يَرْتَع وَيَلْعَب)** « غدا » ظرف ، والأصل عند سيويه غَدُوْهُ ، وقد نطق به على الأصل ؛ قال النضر بن شميل : ما بين الفجر وصلاة الصبح يقال له غُدُوْهُ ،

وكذا بكرة . « نزع ونلعب » بالنون وإسكان العين قراءة أهل البصرة . والمعروف من قراءة أهل مكة « نَزَعَ » بالنون وكسر العين . وقراءة أهل الكوفة « نَزَعَ وَيَلْعَبُ » بإياء وإسكان العين . وقراءة أهل المدينة بإياء وكسر العين ؛ القراءة الأولى من قول العرب رَزَعَ الإنسان والبعير إذا أَكَلَا كيف شاء ؛ والمعنى : تنسج في الحصب ؛ وكل مخصب راع ؛ قال :

« فَأَرِنِي قَزَاةً لَاهِنًا كَالْمَرْتَعِ »^(١)

وقال آخر :

تَرْتَعُ مَا غَفَلْتُ حَتَّى إِذَا أَذْكُرْتُ * فَأُنَمَّا هِيَ إِبْقَالٌ وَإِدْبَارُ

وقال آخر :

أَكْفَرًا بِمَدِّ رَدِّ الْمَوْتِ حَتَّى * وَبِمَدِّ عَطَاكَ الْمَاءِ الرُّبَا

أى الزاتمة لكثرة المرحى . وروى معمر عن قتادة « ترع » تسعى ؛ قال النحاس : أخذه من قوله : « إِنَا ذهبنا نستيق » لأن المعنى : نستيق فى العَدْوِ إلى غاية بعينها ؛ وكذا « يرتع » بإسكان العين ، إلا أنه ليوسف وحده صلى الله عليه وسلم . « ويرتع » بكسر العين من رعى الغنم ، أى ليتدرب بذلك ويترجل ؛ فزة يرتع ، وصره يلعب لصغره . وقال الفُتَيْي « نزع » تتعاضن وتتخافض ، ويرعى بمضنا بمضا ؛ من قولك : رماك الله ، أى حفظك . « ونلعب » من اللعب . وقيل لأبى عمرو بن العلاء : كيف قالوا « ونلعب » وهم أنبياء ؟ فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء . وقيل : المراد باللعب المباح من الانبساط ، لا اللعب المحظور الذى هو ضد الحق ؛ ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم « ونلعب » . ومنه قوله عليه السلام : « فَهَلَّا يَكْرًا تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ »^(٢)

(١) فى الأصل (« رعى ») وهو يحريف . (٢) اليت لنفسه من قصيدة تروى بها أخاها حمصرا . ومعنى (ترع) ترمى . تصف ناقة أو بقرة قد دنت ولها ، فكلمها غفلت عنه رمت ، فإذا أذكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت ؛ فضربتها مثلا لقتلها أخاها حمصرا . (٣) هو القمام . (٤) الخطاب بالمرء من عبد الله ؛ وذكر ملا على بن الطيبي : أن الملاحظة عبارة عن الألفة الثابتة ، فان اللبيب قد تكون معلقة القلب بالزوج الأول ، فلم تكن محبتها كاملة ، بخلاف البكر .

وقرأ مجاهد وقتادة : « بُرِّعَ » على معنى يُرَبِّع مطيته ، فحذف المفعول ؛ « ويلعب » بالرفع على الاستئناف ؛ والمعنى : وهو ممن يلعب . (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) من كل ما تخاف عليه . ثم يحتمل أنهم كانوا يخرجون ركبانا ، ويحتمل أنهم كانوا رجالة . وقد نقل أنهم حملوا يوسف على أكتافهم ما دام يعقوب يراهم ، ثم لما ظابوا عن عينه طرحوه ليعسوا معهم لإضرار به .

قوله تعالى : قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا نَلَّحِسُونَا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ) في موضع رفع ؛ أي ذهابكم به . أخبر عن حزنه لغيبته . (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّبُّ) وذلك أنه رأى في منامه أن الذئب شد على يوسف ، فلذلك خافه عليه ؛ قاله الكلبي . وقيل : إنه رأى في منامه كأنه على ذروة جبل ، وكان يوسف في بطن الوادي ، فإذا عشرة من الذئاب قد آحتوشته تريد أكله ، فدرأ عنه واحد ، ثم انشقت الأرض فتورى يوسف فيها ثلاثة أيام ؛ فكانت العشرة أخوته ، لما تماشوا على قتله ، والذي دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا ، وتوارى في الأرض هو مقامه في الحب ثلاثة أيام . وقيل : إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه ، وأنه أرادهم بالذئب ؛ فخوفه إنما كان من قتلهم له ، فكفى عنهم بالذئب مسطرة لهم ؛ قال ابن عباس : فمما هم ذئابا . وقيل : ماخافهم عليه ، ولو خافهم ما أرسله معهم ، وإنما خاف الذئب ؛ لأنه أغلب ما يخاف في الصحارى . والذئب مأخوذ من تَذَابَّت الرِّيح إذا جاءت من كل وجه ؛ كذا قال أحمد بن يحيى ؛ قال : والذئب مهموز

(١) (برِّع) من أَرَبَعَ ؛ وقد ورد في الأصول بالياء ؛ والذي في تفسير ابن عطية والألوسی وأبي حيان من مجاهد وقتادة هو (بالنون) وجرم (تلب) قال ابن عطية : (وقراءة مجاهد وقتادة «ترع» بضم النون وكسر التاء ، و«تلب» بالنون والجرم) . (٢) ورد في روح المعاني أن هذا الاشتقاق عند الزخري ، وقال الأصبهي : إن تذاست مشتق من الذئب ؛ لأن الذئب يعضه في عذوه ؛ وتضرب بأن أخذ الفعل من الأسماء الجاردة قليل بخلاف لفتياس .

لأنه يبيىء من كل وجه . وروى ورش عن نافع « الذَّبُّ » بغير همز ، لما كانت الهمزة ساكنة وقبلها كسرة تخففها صارت ياء . (وَأَنْتُمْ عَنْهُ قَائِلُونَ) أى مشتغلون بالرعى .

قوله تعالى : (قَالُوا لَنْ أَكُلَهُ الذَّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ) أى جماعة نرى الذَّبُّ ثم لا نرده عنه . (إِنَّا إِذَا نَحَّاسِرُونَ) فى حفظنا أغنامنا ؛ أى إذا كنا لا تقدر على دفع الذَّبُّ عن أختينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا . وقيل : « نحاسرون » يلهلون بحقه . وقبل لما جازون .

قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْخَبْرِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ) « أن » فى موضع نصب ؛ أى على أن يجعلوه فى غيبة الحب . قيل فى القصة : إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقا غليظا ليحفظته ، وسأله إلى روبيل وقال : يا روبيل ! إنه صغير ، وتعلم يا بنى شفتى عليه ؛ فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فأسقاه ، وإن أحمأ فأحمله ثم عجل برده إلى . قال : فأخذوا يحملونه على أكافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر ، ويعقوب يُسيعهم ميلا ثم رجع ؛ فلما انقطع بصر أيهم عنهم رماه الذى كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر ، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشد مما عند الآخر من النيف والعسف ؛ فاستغاث بروبيل وقال : « أنت أكبر إخوتى ، والخليفة من بعد والدى على ، وأقرب الأخوة إلى ، فارحمى وأرحم ضعفى » فطمه لطمه شديدة وقال : لا قرابة بينى وبينك ، فادع الأحد عشر كوكبا فتنبك منا ؛ فلم أن قدحهم من أجل رؤياه ، فتعلق بأخيه يهوذا وقال : يا أنى ! أرحم ضعفى وعجزى وحدائى سنى ، وأرحم قلب أيبك يعقوب ؛ فما أسرع ما تناسيت وصيته ونقضت عهده ؛ فرق قلب يهوذا فقال : والله لا يصلون إليك أبدا ما دمت حيا ، ثم قال : يا إخوتاه ! إن قتل النفس التى حرم الله من أعظم الخطايا ، فردوا هذا الصبي إلى أبيه ، ونهأه

ألا يحسنت والده بشيء مما جرى أبداً ، فقال له إخوته : والله ما تريد إلا أن تكون لك المكنانة عند يعقوب ، والله لئن لم تدعه لنقتلنك معه ، قال : فإن أبيتم إلا ذلك فهاتنا هذا الحب المحش القفر ، الذي هو ماوى الحيات والحوام فألقوه فيه ، فإن أصيب بشيء من ذلك فهو المراد ، وقد استرحم من دمه ، وإن انفلت على أيدي سيارة يذهبون به إلى أرض فهو المراد ، فاجمع رأيهم على ذلك ، فهو قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْحَبِّ ﴾ وجواب « لما » محذوف ، أى فلما ذهبوا به واجمعوا على طرحه في الحب عظمت فتنتهم . وقيل : جواب « لما » قولهم : « قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » . وقيل التقدير : فلما ذهبوا به من عند أبيهم واجمعوا أن يجعلوه في غيبة الحب جعلوه فيها ، هذا على مذهب البصريين ، وأما على قول الكوفيين فالجواب « أوحينا » والواو مقحمة ، والواو صندهم تزد مع لمّا وحتى ، قال الله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » أى فتحت ، وقوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَسْرُنَا وَقَارَ التَّنُورُ » أى فار . قال امرئ القيس :

* فَلَمَّا أَجَرْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَأَتَقَى ^(١) *

أى اتقى ، ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا أَسَامَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ » أى ناديناه . وفى قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ دليل على نبوته فى ذلك الوقت . قال الحسن ومجاهد والضحاك وقتادة : أعطاه الله النبوة وهو فى الحب على حجر مرتفع عن الماء . وقال الكلبي : ألقى فى الحب وهو ابن ثمانى عشرة سنة ، فما كان صغيراً ، ومن قال كان صغيراً فلا يبعد فى العقل أن يتبأ الصغير ويوحى إليه . وقيل : كان وحى إلهام كقوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » . وقيل : كان مناباً ، والأوّل أظهر — والله أعلم — وأن جبريل جاءه بالوحى .

قوله تعالى : ﴿ لَتُبْلَغُنَّهُمُ بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه أوحى إليه أنه سيقامهم ويوبخهم على ما صنعوا ، فعلى هذا يكون الوحى بعد إلقائه فى الحب تقوية لقلبه ، وتبشيراً له بالسلامة . الثانى — أنه أوحى إليه بالذى يصنعون به ، فعلى هذا الوحى قبل إلقائه

في الحبّ إنذارا له . (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) أنك يوسف ؛ وذلك أن الله تعالى أمره لما أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وأخوته بمكانه . وقيل : بوحى الله تعالى بالنبوة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . وقيل : « الهاء » ليعقوب ؛ أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف ، وأنه سيرفرهم بأمره ، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه ، والله أعلم . وبما ذكر من قصته إذ أتى في الحبّ — ما ذكره السدي وغيره — أن إخوته لما جعلوا يدلونه في البئر لتعلق بشفير البئر ، فربطوا يديه وتزعوا قميصه ؛ فقال : يا إخواناه ! ردّوا عليّ قميصي أتوارى به في هذا الحبّ ، فإن متّ كان كفيّ ، وإن عشت أوارى به عورتى ؛ فقالوا : أدع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا فتؤنسك وتكسك ؛ فقال : إني لم أر شيئا ، فدلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها القوه لإرادة أن يسقط فيموت ؛ فكان في البئر ماء فسقط فيه ، ثم آوى إلى صخرة فقام عليها . وقيل : إن شمعون هو الذي قطع الحبل لإرادة أن يتفتت على الصخرة ، وكان جبريل تحت ساق العرش ، فأوحى الله إليه أن أدرك عبيدى ؛ قال جبريل : فأمرعت وهبطت حتى طارضته بين الرمي والوقوع فأقصده على الصخرة سالما . وكان ذلك الحبّ مأوى الهوام ؛ فقام على الصخرة وجعل يبكي ، فنادوه ، فظن أنها رحمة عليه أدركتهم ، فأجابهم ؛ فأرادوا أن يرضخوه بالصخرة فمنعهم يهوذا ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام ؛ فلما وقع عريانا نزل جبريل إليه ؛ وكان إبراهيم حين أتى في النار عريانا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فالبسّه إياه ، فكان ذلك عند إبراهيم ، ثم ورثه إسحق ، ثم ورثه يعقوب ، فلما شبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في تمويذة وجعله في عنقه ، فكان لا يفارقه ؛ فلما أتى في الحبّ عريانا أخرج جبريل ذلك القميص فالبسّه إياه . قال وهب : فلما قام على الصخرة قال : يا إخواناه ! إن لكل ميت وصية ، فاسمعوا وصيتي ، قالوا : وما هي ؟ قال : إذا اجتمعتم كلكم فأنس بعضكم بعضا فاذكروا وحشتي ، وإذا أكلتم فاذكروا جوعى ، وإذا شربتم فاذكروا عطشى ، وإذا رأيتم غريبا فاذكروا غربي ، وإذا رأيتم شابا فاذكروا شبابى ؛ فقال له جبريل : يا يوسف ! كُفّ عن هذا واشتغل بالدعاء ، فإن الدعاء عند الله

بمكان ؛ ثم علمه فقال : قل اللهم يا مؤنس كل غريب ، يا صاحب كل وحيد ، يا ملجأ كل خائف ، يا كاشف كل كرب ، يا عالم كل نجوى ، يا منتهى كل شكوى ، يا حاضر كل ملأ ، يا حيّ يا قيوم ! أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي ، حتى لا يكون لي هم ولا شغل غيرك ، وأن تجعل لي من أمرى فرجا ومخرجا ، إنك على كل شيء قدير ؛ فقالت الملائكة : إلهنا ! نسمع صوتا ودعاء ، الصوت صوت صبي ، والدعاء دعاء نبي . وقال الضمك : نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو في الحب فقال له : ألا أحملك كلمات إذا أنت قاتن عجل الله لك خروجك من هذا الحب ؟ فقال : نعم ! فقال له : قل يا صانع كل مصنوع ، يا جابر كل كسير ، يا شاهد كل تجوى ، يا حاضر كل ملأ ، يا مفرج كل كرب ، يا صاحب كل غريب ، يا مؤنس كل وحيد ، آيتي بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجو أحدا سواك ؛ فرددها يوسف في ليلته مرارا ، فانجبه الله في صبيحة يومه ذلك من الحب .

قوله تعالى : **وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ** ﴿١١﴾

فيه مستلطات :

الأولى — قوله تعالى : « **وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً** » أى ليلا ، وهو ظرف يكون في موضع الحال ؛ وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة ؛ ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحياء في العتمة ، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتطلع في الاعتذار ؛ فروى أن يعقوب عليه السلام لما سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟ أجرى في الغم شيء ؟ قالوا : لا . قال : فأين يوسف ؟ قالوا : ذهبنا نستبق فأكله الذئب ؛ فبكى وصاح وقال : أين قيصه ؟ على ما أتى بيانه . وقال السدي وابن جبان : إنه لما قالوا أكله الذئب نثر مغشيا عليه ، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ؛ قال وهب : ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نفس يعقوب فلم يحس بنفس ، ولم يتحرك له عرق ؛ فقال لهم يهوذا : ويل لنا من ديان يوم الدين ! ضيعنا أخانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يبق يعقوب إلا يرد السحر ، فافاق ورأسه في حجر روبيل ؛

فقال : ياروبيل ! ألم آتتك على ولدي ؟ ألم أعهد إليك عهدا ؟ فقال : يا أبت ! كُفَّ عني بكاءك أخبرك ؛ فكفَّ يعقوب بكاءه فقال : يا أبت « إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » .

الثانية — قال صاحبنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصمتا ؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى ؛ كما قال حكيم :

إِذَا أَشْتَبَكْتَ دَمْعُوعٌ فِي خُدُودٍ * تَيَّبَتْ مِنْ بَكْيٍ مِمَّنْ تَبَاكَ

قوله تعالى : قَالُوا يَكْبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿٧﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « نستبق » فتعل ، من المسابقة . وقيل : أى نقتضيل ؛ وكذا في قراءة عبد الله « إنا ذهبنا نقتضيل » وهو نوع من المسابقة ؛ قاله الزجاج . وقال الأزهري : النضال في السهام ، والرَّهَان في الخيل ، والمسابقة تجمعهما . قال القشيري أبو نصر : « نستبق » أى في الرمي ، أو على الفرس ، أو على الأقدام ؛ والفرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العدو ، لأنه الآلة في قتال العدو ، ودفع الذئب عن الأغنام . وقال السدي وأبن حبان : « نستبق » نشدد جريا لئلا نرى أينما سبق . قال ابن العربي : المسابقة شريعة في الشريعة ، وخصلة بدعية ، وعون على الحرب ؛ وقد فعلها صلى الله عليه وسلم بنفسه وبجيلة ، وسابق عائشة رضي الله عنها على قدميه فسبقها ؛ فلما كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقته ؛ فقال لها : « هذه بتلك » .

قلت : وسابق سلمة بن الأكوع رجلا لها رجعوا من ذي قرد إلى المدينة فسبقه سلمة ؛

خرجه مسلم .

الثانية — وروى مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخليل التي قد أُضْمِرَت^(١) [من الحَفَاءِ^(٢)] وكان أمدُها ثَلَاثَةَ الْوَدَاعِ^(٣)، وسابق بين الخليل التي لم تُضْمَرْ من الثَّيَّةِ إلى مسجد بنى زُرَيْقٍ، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها، وهذا الحديث مع صحته في هذا الباب تضمن ثلاثة شروط ؛ فلا تجوز المسابقة بدونها، وهى : أن المسافة لا بد أن تكون معلومة . الثانى — أن تكون الخليل متساوية الأحوال . الثالث — ألا يسابق المضمّر مع غير المضمّر في أمد واحد وغاية واحدة . والليل التي يجب أن تُضْمَرَ ويسابق عليها، وتقام هذه السّنة فيها هى الخليل المعدّة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن .

الثالثة — وأما المسابقة بالتّصال والإبل، فروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا منزلاً فإنا من يصلح بخياه، ومنا من يتفضّل، وذكر الحديث . وخرج النسائي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا سَبَقَ إِلَّا فِي تَصَلٍّ أَوْ خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ " . وثبت ذكر التّصل من حديث ابن أبي ذئب عن نافع بن أبي نافع عن أبي هريرة ، ذكره النسائي ؛ وبه يقول فقهاء الحجاز والعراق . وروى البخاري عن أنس قال : كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة تسمى العَصْبَاء لا تُسَبَقُ — قال حميد : أو لا تكاد تُسَبَقُ — بغاء أعرابي على قومود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى صرفه ؛ فقال : " حقّ على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه " .

الرابعة — أجمع المسلمون على أن السَّبَقَ لا يجوز على وجه الرّهان إلا في الخلف والحافر والتّصل ؛ قال الشافعي : ما عدا هذه الثلاثة فالسَّبَقُ فيها قار . وقد زاد أبو البختريّ

(١) ضمير الخليل : هو أن يظهر عليها بالطف حتى تسمن ، ثم لا تطف إلا قوتاً لتخف . وقيل : تشد عليها مروجها ، وتجعل بالأجلة حتى تفرق تحتها ، فيذهب رهلها ويستدلها ، ويكون ذلك لفزور أو سباق .

(٢) الزيادة عن (موطأ مالك) . والحففاء (باله ويقصر) : موضع بالمدينة بينه وبين ثنية الوداع ستة أميال أو سبعة . (٣) الثنية في الجبل كالغنية فيه ، وقيل : هو الطريق العالي فيه ، وقيل : أعلى المسيل في رأسه ؛ وثنية الوداع مشقة على المدينة سميت بذلك ؛ لأن من سافر إلى مكة كان يودع ثمّ ؛ ومنها إلى مسجد بنى زريق ميل .

(٤) «لا سبق» : هو وضع الباء ما يجعل للسابق على سبقه من المال ؛ وبالسكون مصدر . قال الخطابي : الصحيح رواية الفتح ؛ أى لا يحمل أخذ المال بالمسابقة إلا في هذه الثلاثة .

الفاضي في حديث الخلف والحافر والتصل «أو جَنَاح» وهي لفظة وضعها للرشيد، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته ؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال . وقد روى عن مالك أنه قال : لا سَبَق إلا في الخيل والرمي ؛ لأنه قوة على أهل الحرب ؛ قال : وسَبَق الخيل أحب إلينا من سَبَق الرمي . وظاهر الحديث يسوّى بين السَبَق على التَّجَبّ والسَبَق على الخيل . وقد منع بعض العلماء الزهان في كل شيء إلا في الخيل ؛ لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليها . وروى عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة ؛ وقد تُؤَوَّل قوله ؛ لأن حمله على العموم يؤدّي إلى إجازة الفهار ، وهو محزم باتفاق .

الخامسة — لا يجوز السَبَق في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم ، كما ذكرنا ؛ وكذلك الرمي لا يجوز السَبَق فيه إلا بغاية معلومة ورشَق معلوم ، ونوع من الإحصاء ؛ مشروط ^(١) خَسْفًا أو إصابة بغير شرط . والأَسباق ثلاثة : سَبَق يعطيه الوالي والرجل غير الوالي من ماله متفقًا ما فيجمل للسابق شيئًا معلومًا ؛ فمن سبق أخذه . وسَبَق يخرج أحدهما المتسابقين دون صاحبه ، فإن سبقه صاحبه أخذه ، وإن سبق هو صاحبه أخذه ؛ وحسن أن يعضيه في الوجه الذي أخرجه له ، ولا يرجع إلى ماله ؛ وهذا مما لا خلاف فيه . والسَبَق الثالث — اختلاف فيه ؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئًا مثل ما يخرج صاحبه ، فأيهما سبق أحرز سبقه وسَبَق صاحبه ؛ وهذا الوجه لا يجوز حتى يدخل بينهما محللًا لا يأمنا أن يسبقهما ؛ فإن سبق المحلّل أحرز السَبَقين جميعًا وأخذهما وحده ، وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سبقه وأخذ سبق صاحبه ، ولا شيء للمحلّل فيه ، ولا شيء عليه . وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كن لم يسبق واحد منهما . وقال أبو علي بن خيران — من أصحاب الشافعي — : وحكم الفرس المحلّل أن يكون مجهولًا جريه ؛ ونهى محللًا لأنه محلّل السَبَق للمتسابقين أوله . وآتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلّل واشتروط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سبقه وسَبَق صاحبه أنه فُار ، ولا يجوز . وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله

(١) عسق السهم ونزق إذا أصاب الرمية وقذفها .

عليه وسلم قال : " من أدخل فرسا بين فرسين وهو لا يأمن أن يسبق فليس يقار ومن أدخله وهو يأمن أن يسبق فهو قار " . وفي الموطأ عن سعيد بن مسيب قال : ليس برهان الخيل بأس إذا دخل فيها محلل ، فإن سبق أخذ السبق ، وإن سبق لم يكن عليه شيء ، وبهذا قال الشافعي وجهور أهل العلم . واختلف في ذلك قول مالك ؛ فقال مرة لا يجب المحلل في الخيل ، ولا نأخذ فيه بقول سعيد ، ثم قال : لا يجوز إلا بالمحلل ؛ وهو الأجود من قوله .

السادسة — ولا يحمل على الخيل والإبل في المسابقة إلا محتمل ، ولو ركبها أربابها كان أولى ؛ وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : لا يركب الخيل في السباق إلا أربابها . وقال الشافعي : وأقل السبق أن يسبق بالهادي^(١) أو بعضه ، أو بالكفل أو بعضه ، والسبق من الرماة على هذا النحو عنده ؛ وقول محمد بن الحسن في هذا الباب نحو قول الشافعي .

السابعة — روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سابق أبا بكر وعمر ، فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلى أبو بكر وثلاث عمر ؛ ومعنى وصلى أبو بكر : يعنى أن رأس فرسه كان عند صلا فرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصلوان موضع العجز .

قوله تعالى : ﴿ وَرَكَعًا يُسَبِّحُ عِنْدَ مَتَاعِنَا ﴾ أى عند ثيابنا وأهشتنا حارسا لها . ﴿ فَأَكَلَهُ الذُّبَابُ ﴾ وذلك أنهم لما ممعوا أباهم يقول : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبَابُ » أخذوا ذلك من فيه فحزموها به ؛ لأنه كان أظهر المخاوف عليه . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ أى بمصدق . ﴿ وَلَوْ كُنَّا ﴾ أى وإن كنا ؛ قاله المبرد وأبن إسحق . ﴿ صَادِقِينَ ﴾ في قولنا ؛ ولم يصدقهم يعقوب لما ظهر منهم من قوة التهمة ، وكثرة الأدلة ، على خلاف ما قالوه ؛ على ما أتى بيانه . وقيل : « ولو كنا صادقين » أى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقنا ، ولاهتمنا في هذه القضية ، لشدة محبتك في يوسف ؛ قال معناه الطبري والزجاج وغيرهما .

(١) الهادي : الملق لتقدمه ؛ واجمع (هواذ) .

قوله تعالى : وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ
 أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿٣٨﴾
 قوله تعالى : (وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « بِدَمٍ كَذِبٍ » قال مجاهد : كان دم تخته أو جدى ذبوه .
 وقال قتادة : كان دم ظبية ؛ أى جاءوا على قيصه بدم مكتوب فيه ؛ فوصف الدم بالمصدر ،
 فصار تقديره : بدم ذى كذب ؛ مثل : « وأسأل القرية » والفاعل والمفعول قد يسميان
 بالمصدر ؛ يقال : هذا ضرب الأمير ، أى مضروبه ، وماء سكب أى مسكوب ، وماء غور
 أى غائر ، ورجل عدل أى عادل .

وقرأ الحسن وعائشة : « بِدَمٍ كَذِبٍ » بالتدال غير المعجمة ، أى بدم طرى ؛ يقال
 للدم الطرى الكذب . وحكى أنه المتغير ؛ قاله الشعبي . والكذب أيضا البياض الذى يخرج
 فى أظفار الأحداث ؛ فيجوز أن يكون شبه الدم فى القميص البياض الذى يخرج فى الظفر
 من جهة اختلاف اللونين .

الثانية — قال صباؤنا رحمة الله عليهم : لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم
 قرّن الله بهذه العلامة علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التثقيب ؛ إذ لا يمكن أنفاس
 الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق ؛ ولما تأمل يعقوب عليه
 السلام القميص فلم يجد فيه تحرقا ولا أثرا استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا
 الذئب حكيما ياكل يوسف ولا يخرق القميص ! قاله ابن عباس وغيره ؛ روى إسرائيل عن
 يمالك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان الدم دم تخته . وروى سفيان عن يمالك
 عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نظر إليه قال كذبتم ؛ لو كان الذئب أكله لخرق القميص .
 وحكى الماوردى أن فى القميص ثلاث آيات : حين جاءوا عليه بدم كذب ، وحين قُذِ
 قيصه من دبر ، وحين ألقي على وجهه أبوه فارتدت بصيرا .

قلت : وهذا مردود؛ فإن القميص الذى جاءوا عليه بالدم غير القميص الذى قُذِّ، وغير القميص الذى أتاه البشير به . وقد قيل : إن القميص الذى قُذِّ هو الذى أتى به فارتدَّ بصيرا، على ما يأتى بيانه آخر السورة إن شاء الله تعالى . وروى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه؛ فاختلف قولهم، فأتهمهم، فقال لهم يعقوب : تزعمون أنى الذئب أكله، ولو أكله لشقَّ قميصه قبل أن يفضى إلى جلده، وما أرى بالقميص من شقٍّ؛ وتزعمون أن اللصوص قتلوه، ولو قتلوه لأخذوا قميصه؛ هل يريدون إلا ثيابه ؟ ! فقالوا عند ذلك : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ » عن الحسن وغيره؛ أى لو كنا موصوفين بالصدق لانهتينا .

الثالثة : أستدل الفقهاء بهذه الآية فى أعمال الأمارات فى مسائل من الفقه كالقسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام أستدل على كذبهم بصحة القميص؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فإ ترجح منها قضى بيجاب الترجيح، وهى قوة التهمة؛ ولا خلاف بالحكم بها، قاله ابن العربى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - روى أن يعقوب لما قالوا له : « فأكله الذئب » قال لهم : لم يترك الذئب له عضوا فتأتونى به أستانس به ؟ ! ألم يترك لى ثوبا أشم فيه رائحته ؟ قالوا : بلى ! هذا قميصه ملطوخ بدمه ؛ فذلك قوله تعالى : « وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَثِيرٍ » فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه : أرونى قميصه، فأروه فشمه وقبله، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيه شقا ولا تمزيقا؛ فقال : والله الذى لا إله إلا هو ما رأيت كاليوم ذئبا أحكم منه ؛ أكل ابنى واختلسه من قميصه ولم يمزقه عليه ؛ وعلم أن الأمر ليس كما قالوا، وأن الذئب لم يأكله، فأعرض عنهم كالغضب بآكيا حزينا وقال : يا معشر ولدى ! دلونى على ولدى؛ فإن كان حيا رددته إلى، وإن كان ميتا كفنته ودفنته ؛ فقبل قالوا حينئذ : ألم تروا إلى أينى كيف يكذبنا فى مقالنا اتمالوا نخرجه من الحب وقطعه عضوا عضوا، ونأت أبانا بأحد أعضائه فيصدقنا

في مقاتلتنا ويقطع بأسه ؛ فقال يهوذا : والله ثمن فعلتم لأكونن لكم عدوا ما بقيت ، ولأخبرن أبائكم بسوء صنيعكم ؛ قالوا : فإذا منعنا من هذا فعمالوا نصطد له ذنبا ، قال : فاصطادوا ذنبا ولطخوه بالدم ، وأوثقوه بالحبال ، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا : يا أبانا ! إن هذا الذنب الذي يحمل بأغنامنا ويفترسها ، ولعله الذي أبجنا بأخينا لا نترك فيه ، وهذا دمه عليه ؛ فقال يعقوب : أطلقوه ؛ فأطلقوه ، وتبصص له الذنب ، فأقبل يدنو ويعقوب يقول له : آدن آدن ؛ حتى ألصق خذه بجسده فقال له يعقوب : أيها الذنب ! لم تجعني بولدي وأورثني حزنا طويلا ؟ ثم قال : اللهم أنطقه ، فأنطقه الله تعالى فقال : والذي أمطفأك نيا ما أكلت لحمه ، ولا مرقت جلده ، ولا نثفت شجرة من شعرائه ، ووالله ! مالى بولذك عهد ، وإنما أنا ذئب غريب أقبلت من نواحي مصر في طلب أخ لي فقد ، فلا أدرى أى هو أم ميت ، فاصطادنى أولادك وأوثقونى ، وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش ، وتالله ! لا أقتت في بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش ؛ فأطلقه يعقوب وقال : والله لقد أتيتكم بالجمعة على أنفسكم ؛ هذا ذئب بهم نخرج يتبع ذمام أخيه ، وأتم ضيعتم أخاكم ، وقد علمت أن الذئب يرى مما جتم به . (بَلْ سَوَّلَتْ) أى زينت . (لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً) غير ما تصفون وتذكرون . ثم قال توطئة لنفسه : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) وهى :

الثانية — قال الزجاج : أى فشأنى والذي أعتقده صبر جميل . وقال قطرب : أى فصبرى صبر جميل . وقيل : أى فصبر جميل أولى بى ، فهو مبتدأ وخبره محذوف . ويرى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال : " هو الذى لا شكوى معه " . وسيأتى له مزيد بيان آخر السورة إن شاء الله . قال أبو حاتم : قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسف « فصبرا جميلا » قال : وكذا قرأ الأئمة العقبلى ، قال وكذا فى مصحف أنس وأبى صالح . قال المبرد « فصبر جميل » بالرفع أولى من النصب ؛ لأن المعنى : قال رب عندى صبر جميل ؛ قال : وإنما النصب على المصدر ، أى فلا صبرتك صبرا جميلا ؛ قال :

شَكَاَ إِلَى جَمَلٍ طَوَّلَ السَّرَى * صَبْرًا جَمِيلًا فَكَلَمَاتًا مُبْتَلَى

والصبر الجميل هو الذى لا جزع فيه ولا شكوى . وقيل : المعنى لا أعاشركم على كتابة الوجه وعبوس الجبين ، بل أعاشركم على ما كنت عليه معكم ؛ وفى هذا ما يدل على أنه عفا عن مؤاخذتهم . وعن حبيب بن أبى ثابت أن يعقوب كان قد سقط حاجباه على عينيه ، فكان يرفعهما بخرقة ؛ ف قيل له : ما هذا ؟ قال : طول الزمان وكثرة الأحزان ؛ فأوحى الله إليه أتشكونى يا يعقوب ؟ ! قال : يارب ! خطيئة أخطأتها فاغفر لى . (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) ابتداء وخبر . (عَلَى مَا تَصِفُونَ) أى على احتمال ما تصفون من الكذب .

الثالثة — قال ابن رفاعه : ينبغي لأهل الراى أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب صلى الله عليه وسلم وهو نبيّ ؛ حين قال له بنوه : « إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِي وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ » قال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » فأصاب هنا ؛ ثم قالوا له : « إِنَّ أَبْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَيْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ » قال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا » فلم يصب .

قوله تعالى : وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَى هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةٌ ^{عِط} وَاللَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ) أى رفقة مائة يسرون من الشام إلى مصر فأخطوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبا من الحب ، وكان الحب فى قفرة بعيدة من العمران ، إنما هو لزعة والمجتاز ، وكانت ماءه ملحا فعذب حين ألقى فيه يوسف . (فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ) فذكر على المعنى ؛ ولو قال : فأرسلت واردها لكان على اللفظ ، مثل « وجاءت » . والوارد الذى يرد الماء يستقى للقوم ؛ وكان اسمه — فيما ذكر المفسرون — مالك بن دعر ، ^(٢)

(١) ويروى (صبر جميل) فى البيت ، ويحمل على إضمار مبتدأ أو خبر . ويروى (صبرا جميلا) على نداء الجمل .

(٢) دعر : هو بالهال المهملة وبالذال تصحيف كما فى القاموس .

من العرب العاربة . (فَأَتَى دُلُوهُ) أى أرسله ؛ يقال : أدلى دلوه إذا أرسلها ليلاها ، ودلّاه أى أخرجها ؛ عن الأصمعي وغيره . ودلّا — من ذوات الواو — يدلو دلوًا ، أى جذب وأنخرج ، وكذلك أدلى إذا أرسل ، فلما ثقل ردوه إلى الباء ، لأنها أخف من الواو ؛ قاله الكوفيون . وقال الخليل وسيبويه : لما جاوز ثلاثة أحرف رجع إلى الباء ؛ اتباعًا للمستقبل . وجمع دلو في أقل العدد أدلّ فإذا كثرت قلت : دُلِّيْ ودُلِّيْ ؛ فقلت الواو ياء ، إلا أن الجمع بابه التنكير ، ويفرق بين الواحد والجمع ؛ ودلّاه أيضا . فتعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر ، أحسن ما يكون من الغلمان . قال صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء من صحيح مسلم : ” فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطى شَطْرَ الحسن “ . وقال كعب الأحبار : كان يوسف حسن الوجه ، جعد الشعر ، خضم العينين ، مستوى الخلق ، أبيض اللون ، غليظ الساعدين والمضفين ، تميم البطن ، صغير السرة ، إذا اهتم رأيت النور من ضواحه ، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع الشمس من ثنياه ، لا يستطيع أحد وصفه ؛ وكان حسنة كضوء النهار عند الليل ، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المصيبة . وقيل : إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة ؛ وكانت قد أعطيت سدس الحسن ؛ فلما رآه مالك بن دُعر قال : « يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ » هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة ؛ إلا أن ابن أبي إسحق فإنه قرأ « يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ » فقلب الألف ياء ، لأن هذه الباء يكرمها قبلها ، فلما لم يحز كسر الألف كان قلبها عوضا . وقرأ أهل الكوفة « يَا بُشْرَى » غير مضاف ؛ وفي معناه قولان : أحدهما — اسم الغلام ، والثاني — يا أيها البشري هذا حينك وأوانك . قال قتادة والسدي : لما أدلى المدلى دلوه تعلق بها يوسف فقال : يا بشري هذا غلام ؛ قال قتادة : بشر أصحابه بأنه وجد عبدا . وقال السدي : نادى رجلا اسمه بشري . قال النحاس : قول قتادة أولى ؛ لأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا يسيرا ؛ وإنما يأتي بالكناية كما قال عز وجل : « وَيَوْمَ يَبْصُرُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » وهو عتبة ابن أبي معيط ، وبسده « يَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا » وهو أمية

ابن خلف ؛ قاله النحاس والمعنى في نداء البشرى : التبشير لمن حضر ؛ وهو أوكد من قولك تبشرت ، كما تقول : يا عبياه ! أى يا عجب هذا من أيامك ومن آياتك ، فاحضر ؛ هذا مذهب سيويه ، وكذا قال السهيلي . وقيل هو كما تقول : واسروراه ! وأن البشرى مصدر من الاستبشار ؛ وهذا أصح لأنه لو كان اسما علما لم يكن مضافا إلى ضمير المتكلم ؛ وعلى هذا يكون « بشرى » في موضع نصب ، لأنه نداء مضاف ؛ ومعنى النداء ها هنا التنبيه ، أى انتبهوا لفرحتي وسروري ؛ وعلى قول السدي يكون في موضع رفع كما تقول : يا زيد هذا غلام . ويجوز أن يكون عمله نصباً كقولك ياربلا ، وقوله : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » ولكنه لم ينون « بشرى » لأنه لا ينصرف . (وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً) الهاء نكايه عن يوسف عليه السلام ؛ فاما الواو فلكايه عن إخوته . وقيل : عن التجار الذين اشتروه ، وقيل عن الوارد وأصحابه . « بضاعه » نصب على الحال . قال مجاهد : أسره مالك بن دعر وأصحابه من التجار الذين معهم في الرقعة ، وقالوا لهم : هو بضاعه استبضعناها بعض أهل الشام أو أهل هذا الماء إلى مصر ؛ وإنما قالوا هذا خيفة الشركة . وقال ابن عباس أمرته إخوة يوسف بضاعه لما أخرج من الحب ؛ وذلك أنهم جاعوا فقالوا : بئس ما صنعتم ! هذا عبد لنا أبق ، وقالوا ليوسف بالعبرانية : إما أن تهز لنا بالعبودية فتبيعك من هؤلاء ، وإما أن تأخذك فنقتلك ؛ فقال : أنا أقولكم بالعبودية ، فأقر لم فباعوه منهم . وقيل : إن يهوذا وصى أخاه يوسف بلسانهم أن أعترف لأخوتك بالعبودية فإني أخشى إن لم تفعل قتلوك ؛ فلعل الله أن يعمل لك خرجا ، وتقيو من القتل ، فكتّم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ؛ فقال مالك : والله ما هذه سمّة العبيد ؛ قالوا : هو تربّي في مجورنا ، وتخلق بأخلاقنا ، وتأذب بأدابنا ؛ فقال : ما تقول يا غلام ؟ قال : صدقوا ! تربيت في مجورهم ، وتخلقت بأخلاقهم ؛ فقال مالك : إن بستموه مني أشتريته منكم ؛ فباعوه منه ؛ فذلك :

قوله تعالى : **وَأَسْرُوهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ**

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَشَرُّهُ) يقال : شريت بمعنى أشرت ، وشريت بمعنى بست لئله ، قال الشاعر ^(١) :

وَشَرِيْتُ بُرْدًا لَيْتَنِي * مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَةً

أى بست . وقال آخر :

فلما شَرَّها فاضتِ العَيْنُ حَبْرَةً * وفي الصدرِ حُرَّازٌ من اللُّومِ حَامِزٌ ^(٢)

(بَيِّنٌ بَيِّنٌ) أى نقص ، وهو هنا مصدر وضع موضع الاسم ؛ أى باعوه بمن مبخوس ، أى منقوص . ولم يكن قصد إخوته ما يستفيدونه من ثمنه ، وإنما كان قصدهم ما يستفيدونه من خلق وجه أبيهم عنه . وقيل : إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسف أخرج من الحب فأخبر إخوته فباعوا وباعوه من الواردة . وقيل : لا ! بل عادوا بعد ثلاث إلى البئر يتعزفون الخبر ، فرأوا أثر السيارة فاتبعوهم وقالوا : هذا عبدنا أبى منا فباعوه منهم . وقال قتادة : « بئس ظلم . وقال الضحاك ومقاتل والسدى وابن عطاء : « بئس » حرام . وقال ابن العربي : ولا وجه له ، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة ؛ لأن إخوته إن كانوا باعوه فلم يكن قصدهم ما يستفيدونه من ثمنه ، وإنما كان قصدهم ما يستفيدون من خلق وجه أبيهم عنه ؛ وإن كان الذين باعوه الواردة فإنهم أخفوه مقتطعا ، أو قالوا لأصحابهم : أرسل معنا بضاعة فرأوا أنهم لم يعطوا عنه ثمنًا وأن ما أخذوا فيه ربح كله .

قلت : قوله « وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة » يدل على أنهم لو أخذوا القيمة فيه كاملة كان ذلك جائزا وليس كذلك ؛ فدل على صحة ما قاله السدى وغيره ؛ لأنهم أوقفوا البيع على نفس لا يجوز بيعها ، فلذلك كان لا يحل لهم ثمنه . وقال عكرمة والشَّعْبِي : قليل . وقال ابن حبان : زَيْفٌ . وعن ابن عباس وابن مسعود باعوه بعشرين درهما أخذ كل واحد من إخوته درهمين ، وكانوا عشرة ؛ قاله قتادة والسدى . وقال أبو العالية

(١) هو : يَزِيدُ بْنُ مَرْغَ الْجَمْرِيِّ ؛ و (برد) اسم عبد كان له ثمن على يده . (٢) البيت للشيخ ، قاله في رجل باع قوسه من رجل . وحامز : حاصر ، وقيل : أى مض محرق . (اللمان) .

ومقاتل : اثنين وعشرين درهما ، وكانوا أحد عشر أخذ كل واحد درهمن ؛ وقاله مجاهد .
وقال عكرمة : أربعين درهما ؛ وما روى عن الصحابة أولى . و « بنحس » من نعت
« ثمن » . « دراهم » على البدل والتفسير له . ويقال : دراهم على أنه جمع درهم ، وقد
يكون اسما للجمع عند سبويه ، ويكون أيضا عنده على أنه مد الكسرة فصارت ياء ، وليس
هذا مثل مد المقصور ؛ لأن مد المقصور لا يجوز عند البصريين في شعر ولا غيره . وأنشد
النحويون :

تَسْنِي يَدَاهَا الْحَصَى فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ * فَتَى الدَّرَاهِمِ تَتَقَادُ الصَّبَارِيفُ^(١)

(مَعْدُوْدَةٌ) نعت ؛ وهذا يدل على أن الأثمان كانت تجرى عندهم عدًا لا وزنًا بوزن . وقيل :
هو عبارة عن قلة الثمن ؛ لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها ؛ وذلك أنهم كانوا لا يزنون
ما دون الأوقية ، وهي أربعون درهما .

الثانية — قال القاضي ابن العربي : وأصل التقدين الوزن ؛ قال صلى الله عليه وسلم :
« لا يتبعوا الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة إلا وزنًا بوزن من زاد أو أوزاد فقد أربى » .
والزنة لا فائدة فيها إلا المقدار ؛ فأما عينها فلا منفعة فيه ، ولكن جرى فيها المد تخفيفًا عن
الخلق لكثرة المعاملة ، فيشق الوزن ؛ حتى لو ضرب مثاقيل أو دراهم بلأز بيع بعضها ببعض
عدًا إذا لم يكن فيها نقصان ولا رجحان ؛ فإن نقصت ماد الأمر إلى الوزن ؛ ولأجل ذلك
كان كسرها أو قرضها من الفساد في الأرض حسب ما تقدم .

الثالثة — وأختلف العلماء في الدرهم والدنانير هل تتعين أم لا ؟ وقد اختلفت
الرواية في ذلك عن مالك ؛ فذهب أشهب إلى أن ذلك لا يتعين ، وهو الظاهر من قول
مالك ؛ وبه قال أبو حنيفة . وذهب ابن القاسم إلى أنها تتعين ، وحكى عن الكرخي ؛ وبه
قال الشافعي . وفائدة الخلاف أنا إذا قلنا لا تتعين فإذا قال : بتك هذه الدنانير بهذه

(١) البيت للقرظي ؛ وصف ثاقفة مريضة السيف في الهواجر ؛ فتبه خروج الحصى من تحت مناسمها بارتجاع الدرهم
عن الأصابع إذا تفتت .

الدرهم تملقت الدنانير بذمة صاحبها ، والدرهم بذمة صاحبها ، ولو تعينت ثم تلفت لم يتناقض بذمتها شيء ، وبطل العقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها .

الرابعة — روى عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قضى في اللقيط أنه حر ، وفرأ : « وَشَرُّهُ يَتَمَنَّي بِحُسْ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وقد مضى القول فيه .

الخامسة — قوله تعالى : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » قيل : المراد إخوته . وقيل : السيارة . وقيل : الواردة ؛ وعلى أى تقدير فلم يكن عندهم غيبطا ، لا عند الإخوة ؛ لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله ، ولا عند السيارة لقول الأخوة إنه عبد أبى منا — والزهد قلة الرغبة — ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم ، ورأوا أن القليل من ثمنه في الانفراد أولى .

السادسة — في هذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير ، ويكون البيع لازما ؛ ولهذا قال مالك : لو باع دُرَّة ذات خطر عظيم بدرهم ثم قال لم أعلم أنها دُرَّة وحسبها شُحْلَبَةٌ لزم البيع ولم يلتفت إلى قوله . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » أى في حسنه ؛ لأن الله تعالى وإن أعطى يوسف شطر الحسن صرف عنه دواعى نفوس القوم إليه لإكرامه . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » لم يعلموا منزلته عند الله تعالى . وحكى سيويه والكشافى زهدت وزهدت بكسر الميم ونصحها .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَتْهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ) قيل : الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال ؛ إذ لم يكن ذلك عقداً ، مثل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى » . وقيل : إنهم ظنوه في ظاهر الحال اشتراء ، بغرى هذا اللفظ على ظاهر الظن . قال الضحاك : هذا الذي اشتراه ملك مصر ، ولقبه العزيز . السهيلي : وأسمه قطفير . وقال ابن إسحق : إطفير بن رويحب اشتراه لامرأته راعيل ؛ ذكره المساوردي . وقيل : كان اسمها زليخا . وكان الله ألقى حبة يوسف على قلب العزيز ، فأوصى به أهله ؛ ذكره القشيري . وقد ذكر القولين في اسمها الثعلبي وغيره . وقال ابن عباس : إنما اشتراه قطفير وزير ملك مصر ، وهو الريان بن الوليد . وقيل : الوليد بن الريان ، وهو رجل من الهلقة . وقيل : هو فرعون موسى ؛ لقول موسى : « وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ » وأنه عاش أربعاً وستين سنة . وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف ، على ما يأتي في « ظفر »^(١) بيانه . وكان هذا العزيز الذي اشترى يوسف على خزان الملك ؛ واشترى يوسف من مالك بن دُعر بعشرين ديناراً ، وزاده حلة ونملين . وقيل : اشتراه من أهل الترفقة . وقيل : تزايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعنبراً وحريراً وورقاً وذهباً ولآلئ وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله ؛ فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن ؛ قاله وهب بن منبه . وقال وهب أيضاً وغيره : ولما اشترى مالك بن دُعر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتاباً : « هذا ما اشترى مالك بن دُعر من بني يعقوب ، وهم فلان وفلان مملوكاً لم بعشرين درهماً ، وقد شرطوا له أنه أبقي ، وأنه لا يتقلب به إلا مقيداً مسلسلاً ، وأعطاهم على ذلك عهد الله » قال : فودعهم يوسف عند ذلك ، وجعل يقول : حفظكم الله وإن ضيعتموني ، نصركم الله وإن خذتموني ، رحمكم الله وإن لم ترحموني ؛ قالوا : فألفت الأغنام ما في بطونها دماً عبيطاً لشدة هذا التوديع ، وحملوه على قتب بنير غطاء ولا وطاء ، مقيداً مكبلاً مسلسلاً ، فتر على مقبرة آل كتمان فرأى قبر أمه . وقد كان وكل به أسود يحرسه فنفل الأسود — فألقى يوسف نفسه على قبر أمه وجعل يتمرغ

ويعتق القبر ويضطرب ويقول : يا أناه ! أرفى رأسك ترى ولدك مكبلا مقيدا مسلسلا مغلولاً ، فزقوا بيني وبين والدي ، فأسألى الله أن يجمع بيننا في مستقر رحته إنه أرحم الراحمين ، فتفقدته الأسود على البعير فلم يره ، فقفا أثره ، فإذا هو بدياض على قبر ، فأمله فإذا هو بإيه ، فركضه برجله في التراب ومرغه وضربه ضرباً وجيعاً ، فقال له : لا تفعل ! والله ما هزيت ولا أقيت ، وإنما مررت بقبر أى فأحببت أن أودعها ، ولن أرجع إلى ما تكرون ، فقال الأسود : والله إنك لعبد سوء ، تدعو أباك مرة وأملك أخرى ! فهلا كان هذا عند مواليك ؟ فرفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إن كانت لى عندك خطيئة أخلفت بها وجهى فأسالك بحق آبائى إبراهيم وإسمحق ويعقوب أن تغفر لى وترجمنى ، فضجّت الملائكة في السماء ، ونزل جبريل فقال له : يا يوسف ! غُضَّ صوتك فقد أبكيت ملائكة السماء ! أقرئيد أن أقلب الأرض فأجعل عاليها سافلها ؟ قال : تثبت يا جبريل ، فإن الله حلیم لا يعجل ، فضرب الأرض بمحناحه فأظلمت ، وارتفع الغبار ، وكسفت الشمس ، وبقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضاً ، فقال رئيس القافلة : من أحدث منكم حدثاً ؟ — فأنى أسافر منذ كيت وكيت ما أصابنى قطّ مثل هذا — فقال الأسود : أنا لطمت ذلك النلام العبرانى فرفع يده إلى السماء وتكلم بكلام لا عرفه ، ولا أشك أنه دعا علينا ، فقال له : ما أردت إلا هلاكنا ! أيننا به ، فأناه به ، فقال له : يا غلام ! لقد لطمتك بغداة ما رأيت ، فإن كنت تقتص فائقص من شئت ، وإن كنت تعفو فهو الفطن بك ، قال : قد عفوت رجاء أن يعفو الله عني ، فأنجلت الثبرة ، وظهرت الشمس ، وأضاء مشارق الأرض ومغاربها ، وجعل التاجر يزوره بالنداة والعشى ويكرمه ، حتى وصل إلى مصر فاغتسل في نيلها وأذهب الله عنه كآبة السفر ، وردّ عليه جماله ، ودخل به البلد نهاراً فسطع نوره على الجدران ، وأوقفوه للبيع فاشتراه قطفير وزير الملك ، قاله ابن عباس على ما تقدم . وقيل : إن هذا الملك لم يمت حتى آمن وأتبع يوسف على دينه ، ثم مات الملك ويوسف يومئذ على خزانة الأرض ، فملك بعده قابوس وكان كافراً ، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى . « اكريمي مشواه » أى منزله ومقامه بطيب الطعام واللباس الحسن ، وهو

مأخوذ من نوى بالمكان أى أقام به؛ وقد تقدم فى «آل عمران» وغيره. (١) عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا) أى يكفينا بعض المهمات إذا بلغ . (أَوْ يَخْضَهُ وَلَدًا) قال ابن عباس : كان حصورا لا يولد له ، وكذا قال ابن إسحق : كان قطفيرا يأتى النساء ولا يولد له . فإن قيل : كيف قال «أَوْ يَخْضَهُ وَلَدًا» وهو ملكه ، والولدية مع العبدية لتناقض ؟ قيل له : يمتقه ثم يتخذه ولدا بالتبني ؛ وكان التبنى فى الأمم معلوما عندهم ، وكذلك كان فى أول الإسلام ، على ما يأتى بيانه فى «الأحزاب» (٢) إن شاء الله تعالى . وقال عبد الله بن مسعود : أحسن الناس فراسة ثلاثة ؛ العزيز حين تفرس فى يوسف فقال : «عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ يَخْضَهُ وَلَدًا» ، وبنت شعيب حين قالت لأبيها فى موسى «أَسْتَأْجِرُهُ إِنْ خَيْرَ مِنْ أَسْتَأْجِرْتُ الْقَوَى الْأَمِينُ» ، وأبو بكر حين استخلف عمر . قال ابن العربى : عجبا للفرسين فى اتفاقهم على جلب هذا الخبر ! والفراسة هى علم غريب على ما يأتى بيانه فى سورة «الجمعر» (٣) وليس كذلك فيما نقلوه ؛ لأن الصديق إنما ولى عمر التجربة فى الأعمال ، والمواظبة على الصحة وطولها ، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمنة ، وليس ذلك من طريق الفراسة ؛ وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البينة على ما يأتى بيانه فى «القصص» (٤) . وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة ؛ لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة . والله أعلم .

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) الكاف فى موضع نصب ؛ أى وكما أنقذناه من إخوته ومن الجلب فكذلك مكنا له ؛ أى عطفنا عليه قلب الملك الذى آخراه حتى تمكن من الأمر والنهى فى البلد الذى الملك مستول عليه . (وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) أى فعلنا ذلك تصديقا لقول يعقوب : «وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» . وقيل : المعنى مكناه لنوحى إليه بكلام منا ، ونعلمه تأويله وتفسيره ، وتأويل الرؤيا ، وتم الكلام . (وَاللَّهُ ظَالِمٌ عَلَى أَمْرِهِ) الهاء راجعة إلى الله تعالى ؛ أى لا يغلب الله شئ ، بل هو الغالب على أمر

(١) راجع ج ٤ ص ٢٣٣ طبة أول أدتانية . (٢) راجع المسئلة الأولى والثانية فى تفسير آية ٥ .

(٣) راجع تفسير آية ٧٥ . (٤) راجع تفسير آية ٢٦ .

نفسه فيما يريد أن يقول له : كن فيكون . وقيل : ترجع إلى يوسف ؛ أي الله غالب على أمر يوسف يدبره ويحوطه ولا يكله إلى غيره ، حتى لا يصل إليه كيد كائد . (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أي لا يطلعون على غيبه . وقيل : المراد بالأكثر الجميع ؛ لأن أحدا لا يعلم الغيب . وقيل : هو مجرى على ظاهره ؛ إذ قد يُطلع من يريد على بعض غيبه . وقيل : المعنى « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أن الله غالب على أمره ، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر . وقالت الحكماء في هذه الآية : « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ » حيث أمره يعقوب ألا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى قص ، ثم أراد إخوته قتله فغلب أمر الله حتى صار ملكا ومجدا بين يديه ، ثم أراد الإخوة أن يخلو لم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم ، وأفكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة ، فقال : « يَا أَسَفًا عَلَى يُوسُفَ » ثم تدبروا أن يكونوا من بعده قوما صالحين ، أي تائبين فغلب أمر الله حتى نسوا الذنب وأصروا عليه حتى أقروا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنة ، وقالوا لأبيهم : « إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ » ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص فلم يخدع وقال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً » ثم احتلوا في أن تزول محبة من قلب أبيهم فغلب أمر الله فزادت المحبة والشوق في قلبه ، ثم دبرت امرأة العزيز أنها إن أبدته بالكلام فلبته ، فغلب أمر الله حتى قال العزيز : « أَسْتَغْفِرُ لِدُنْكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ » ، ثم دبر يوسف أن يخلص من السجن بذكر الساق فغلب أمر الله ففسى الساق ، وليث يوسف في السجن يضع ستين .

قوله تعالى : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ) « أَشُدَّهُ » عند سيوويه جمع ، واحده شدة . وقال الكسائي : واحده شد ؛ كما قال الشاعر :
عَهْدِي بِهِ شَدَّ النَّهَارِ كَأَمَّا * خُضِبَ اللَّبَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعِظِيمِ

(١) هو فترة البس . وشد النهار : أي أشده ، بيني أعلاه . واللبان : الصدر ، وقيل : وسطه . وقيل : ما بين الدين ، ويرى : « اللبان » . والعظم صبرة شبر أو نبت يصبح به ، أو الرمية ، وهي شجرة وروثها خضاب .

وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب؛ ومعناه استكمال القوة ثم يكون النقصان بعد . وقال مجاهد وقتادة : الْأَشَدُّ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً . وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك ابن أنس : الْأَشَدُّ بُلُوغُ الْحُلُمِ ؛ وقد مضى ما للعلماء في هذا في «النساء» و «الأحكام» مستوفى . (آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) قيل : جعلناه المستولى على الحكم ، فكان يحكم في سلطان الملك ؛ أى وآتيناه علما بالحكم . وقال مجاهد : العقل والفهم والنبوة . وقيل : الحكم النبوة ، والعلم علم الدين ؛ وقيل : علم الرؤيا ؛ ومن قال أوتي النبوة صبيا قال : لما بلغ أشده زدها فهما وعلمها . (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) يعنى المؤمنين . وقيل : الصابرين على النوائب كما صبر يوسف ؛ قاله الضحاك . وقال الطبري : هذا وإن كان مخرجه ظاهرا على كل محسن فالمراد به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول الله تعالى : كما فعلت هذا بيوسف بعد أن قامى ما قامى ثم أعطيت ما أعطيت ، كذلك أنجزك من مشركى قومك الذين يقصدونك بالسداوة ، وأمكن لك فى الأرض .

قوله تعالى : وَرَأَوْنَهُ الْآلِيَّ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بَرَّهْنَ رِبَّهُ كَذَلِكَ لَصُرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : (وَرَأَوْنَهُ الْآلِيَّ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ) وهى امرأة العزيز ، طلبت منه أن يواقعها ، وأصل المراءاة الإرادة والطلب برفق ولين . والرؤد والرؤاد طلب الكلاء ؛ وقيل : هى من رؤيد ؛ يقال : فلان يمشى رؤيدا ، أى برفق ؛ والمراءودة الرفق فى الطلب ؛ يقال

(١) راجع ج ٥ ص ٣٤ وما بعدها طبة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٧ ص ١٣٤ وما بعدها

طبة أولى أو ثانية .

في الرجل : راودها عن نفسها ، وفي المرأة راودته عن نفسه . والرَّود الثاني ؛ يقال : أرودني أمهلني . (وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ) غَلَقَ للكثير ، ولا يقال : غَلَقَ الباب ؛ وأغْلَقَ يقع للكثير والتليل ؛ كما قال الفَرَزْدَقُ في أبي عمرو بن العلاء :

ما زِلْتُ أَغْلِقُ أَبْوَابًا وَأَنْتَحِبُهَا * حَتَّى أَتَيْتُ أَبَا عَمْرٍو بْنِ عَمَارٍ

يقال : إنها كانت سبعة أبواب ظَلَمَتْها ثم دَحَتْه إلى نفسها . (وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) أَي هَلَمْ وأقبل وتعال ؛ ولا مصدر له ولا تصريف . قال النحاس : فيها سبع قراءات ؛ فمن أجل ما فيها وأصحها إسنادا ما رواه الأعمش عن أبي وائل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقرأ « هَيْتَ لَكَ » قال فقلت : إن قوما يقرءونها « هيت لك » فقال : إنما أقرأ كما عَلَّمْتُ . قال أبو جعفر : وبعضهم يقول عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يبعد ذلك ؛ لأن قوله : إنما أقرأ كما عَلَّمْتُ يدل على أنه مرفوع ، وهذه القراءة بفتح التاء والهاء هي الصحيحة من قراءة ابن عباس وسعيد بن جبيرة والحسن وعبيد بن عمير ؛ وبها قرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصم والأعمش وحزمة والكسائي . قال عبد الله بن مسعود : لا تقطعوا في القرآن ؛ فإنما هو مثل قول أحدكم : هَلَمْ وتعال . وقرأ ابن أبي إسحاق النحوي « قالت هَيْتَ لَكَ » بفتح الهاء وكسر التاء . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ وأبن كثير « هَيْتَ لَكَ » بفتح الهاء وضم التاء ؛ قال طَرَفَةُ :

ليس قومي بالأبعدين إذا ما * قال داج من العَشِيرَةِ هَيْتَ

فهذه ثلاث قراءات الهاء فيهن مفتوحة . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع « وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ » بكسر الهاء وفتح التاء . وقرأ يحيى بن وثاب « وَقَالَتْ هَيْتُ لَكَ » بكسر الهاء وبعدها ياء ساكنة والتاء مضمومة . وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس ومجاهد وعكرمة « وَقَالَتْ هَيْتُ لَكَ » بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة . وعن ابن عامر وأهل الشام « وَقَالَتْ هَيْتُ » بكسر الهاء وبالحمزة وفتح التاء ؛ قال أبو جعفر : « هَيْتُ لَكَ » بفتح التاء لانتفاء الساكنين ، لأنه صوت نحو مَوَّة وصَهَّ يجب ألا يعرب ،

والفتح خفيف ، لأن قبل التاء ياء مثل أين وكيف ؛ ومن كسر التاء فإنما كسرهما لأن الأصل الكسر ؛ لأن الساكن إذا حرك حرك إلى الكسر ، ومن ضم فلأن فيه معنى الغاية ؛ أى قالت : دطأى لك ، فلما حذفت الإضافة بنى على الضم ؛ مثل حيثُ وبعدُ . وقراءة أهل المدينة فيها قولان : أحدهما — أن يكون الفتح لالتقاء الساكنين كما مر . والآخر — أن يكون فعلا من هَاء يهـىء مثل جاء يهـىء ؛ فيكون المعنى فى « هَيْتُ » أى حسنت هيئتكَ ، ويكون « لَكَ » من كلام آخر ، كما تقول : لَكَ أخى . ومن همز وضم التاء فهو فعل بمعنى تهيأتُ لك ؛ وكذلك من قرأ « هَيْتُ لَكَ » . وأنكر أبو عمرو هذه القراءة ؛ قال أبو عبيدة — معمر بن المثنى : سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء وضم التاء مهموزا فقال أبو عمرو : باطل ؛ جعلها من تهيأت ! اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهى إلى اليمن هل تعرف أحدا يقول هذا ؟ ! وقال الكسائى أيضا : لم تُحَكَّ « هَيْتُ » عن العرب . قال عكرمة : « هَيْتُ لَكَ » أى تهيأت لك وتزينت وتحسنت ، وهى قراءة خير مرضية ، لأنها لم تسمع فى العربية . قال النحاس : وهى جيدة عند البصريين ؛ لأنه يقال : هَاءَ الرجل يهـاء ويهـىء هياءَ فهـاء يهـىء مثل جاء يهـىء ، وهَيْتُ مثل جِئْتُ . وكسر الهاء فى « هيت » لفظة لقوم يؤثرون كسر الهاء على فتحها . قال الزجاج : أوجد القراءات « هَيْتُ » بفتح الهاء والتاء ؛ قال طرفة :

ليس قومي بالأبعدين إذا ما * قال دايج من العشرة هَيْتُ
بفتح الهاء والتاء .

وقال الشاعر فى علي بن أبى طالب رضى الله عنه :

أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتيتا
إن العراق وأهلته * سلم إليك فهيت هيتا

قال ابن عباس والحسن : « هيت » كلمة بالمرىانية تدعوه إلى نفسها . وقال السدى : معناها بالقبطية هلم لك . قال أبو عبيد كان الكسائى يقول : هى لفظة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز معناه تعال ؛ قال أبو عبيد : فسألت شيعفا طالبا من حوران فذكر أنها

لنتهم ؛ وبه قال عكرمة . وقال مجاهد وغيره : هي لغة عربية تدعوه بها إلى نفعها ، وهي كلمة حث وإقبال على الأشياء ؛ قال الجوهري : يقال هَوَّتَ به وهَيْتَ به إذا صاح به ودعاه ؛ قال :

قَدْ رَأَيْتِي أَنَّ الْكَرَى أَسْكَا * لَوْ كَانَتْ مَعْنِيًا بِهَا لَهَيْتَا

أى صاح ؛ وقال آخر :

* يَحْدُو بِهَا كُلُّ قَى هَيَاتِ *

قوله تعالى : (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ) أى أعوذ بالله واستجير به مما دعوتنى إليه ؛ وهو مصدر ، أى أعوذ بالله معاذاً ، فيحذف المفعول ويتنصب المصدر بالفعل المحذوف ، ويضاف المصدر إلى اسم الله كما يضاف المصدر إلى المفعول ، كما تقول : مررت بزيد مرور عمرو أى كمرورى بعمرو . (إِنَّهُ رَبِّى) يعنى زوجها ، أى هو سيدى أكرمنى فلا أخونه ؛ قاله مجاهد وأبن إسحق والسدى . وقال الزجاج : أى إن الله ربى تولانى بلطفه ، فلا أركب ما حرّمه . (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) وفى الخبر أنها قالت له : يا يوسف ! ما أحسن صورة وجهك ! قال : فى الرّحِمِ صَوْرَتِي رَبِّى ؛ قالت : يا يوسف ما أحسن شَعْرَكَ ! قال : هو أول شيء يَسْلَى مِنِّى فى قبرى ؛ قالت : يا يوسف ! ما أحسن حينك ؟ قال : بهما أنظر إلى ربى . قالت : يا يوسف ! أرفع بصرَكَ فَانْظُرْ فى وجهى ، قال : إني أخاف العمى فى آخرى . قالت : يا يوسف ! أدن منكَ وتباعد منى ؟ قال : أريد بذلك القرب من ربى . قالت : يا يوسف ! الْقَيْطُونَ فَاَدْخُلْ مَعِى ، قال : الْقَيْطُونَ لَا يَسْتَرِنِى مِنْ رَبِّى . قالت : يا يوسف ! فراش الحرير قد فرشته لك ، قم فاقتض حاجتى ، قال : إذا يذهب من الجنة نصيبى ؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها ؛ إلى أن همّ بها . وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يَمْلُئْنَ إلى يوسف مَيْسَلُ شهوة حتى نبأه الله ، فألقى عليه هيئة النبوة ؛ فشغلت هيئته كل من رآه عن حسنه . واختلف العلماء فى همّه ؛ ولا خلاف أن همّها كان المعصية ، وأما يوسف فهمّ بها

(١) القيطون : المخدع ، أعمى ، وقيل : بلغة أهل مصر ويربر .

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ولكن لما رأى البرهان ما هم؛ وهذا لوجوب المعصية للأنبياء؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فإذا في الكلام تقديم وتأخير؛ أى لولا أن رأى برهان ربه هم بها . قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله: « وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا » الآية ، قال أبو عبيدة : هذا على التقديم والتأخير؛ كأنه أراد ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لم يهمل بها . وقال أحمد بن يحيى : أى همت زليخا بالمعصية وكانت مصرة ، وهم يوسف ولم يواقع ما هم به ؛ فبين المهمتين فرق ، ذكر هذين القولين المروى في كتابه . قال جميل :

هَمَّتْ بِهِمْ مِنْ بُنْيَنَةِ لَوْ بَدَا * شَفِيتُ غَلِيلَاتِ الْهَوَى مِنْ فُؤَادِيَا

آخر :

هَمَّتْ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكَدْتُ وَلَيْتَنِي * تَرَكْتُ عَلَى عَثَاثٍ تَبْكِي حَلَاثُلِي

فهذا كله حديث نفس من غير عزم . وقيل : هم بها تمنى زوجيتها . وقيل : هم بها أى بضربها ودفعها عن نفسه ، والبرهان كفه عن الضرب ؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضررها . وقيل : إن هم يوسف كان معصية ، وأنه جلس منها مجلس الرجل من أمراته ؛ وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وطائفتهم ، فيما ذكر القشيري أبو نصر ، وابن الأنباري والنحاس والماوردي وغيرهم . قال ابن عباس : حلَّ الهَيَّانُ ^(١) وجلس منها مجلس الخائن ، وعنه : استلقت على قفاها وقعد بين رجلها يتزع ثيابها . وقال سعيد ابن جبير : أطلق تَمَكَّةَ سراويله . وقال مجاهد : حلَّ السراويل حتى بلغ الأليتين ، وجلس منها مجلس الرجل من أمراته . قال ابن عباس : ولما قال : « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ وَالْقَيْبُ » قال له جبريل : ولا حين هممت بها يا يوسف ؟ ! فقال عند ذلك : « وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي » . قالوا : والآنكفاف في مثل هذه الحالة دالٌّ على الإخلاص ، وأعظم الثواب .

قلت : وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذى الكفـل حسب ما يأتى بيانه فى «ص»^(١)
 إن شاء الله تعالى . وجواب «لولا» على هذا محذوف ؛ أى لولا أن رأى برهان ربه لأمضى
 ما هم به ؛ ومثله «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ» وجوابه لم تتنافسوا ؛ قال ابن عطية : روى هذا
 القول عن ابن عباس وجماعة من السلف ، وقالوا : الحكمة فى ذلك أن يكون مثلاً للذين يروا
 أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم ، ولم يوبقه القرب من الذنب ،
 وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجل زليخا وأخذ فى حل
 ثيابه ونكته ونحو ذلك ، وهى قد استلقت له ؛ حكاه الطبرى . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام :
 وأبن عباس ومن دونه لا يختلفون فى أنه هم بها ، وهو أعلم بالله ويتأويل كتابه ، وأشد تعظيماً
 للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم . وقال الحسن : إن الله عز وجل لم يذكر معاصى
 الأنبياء ليعيهم بها ؛ ولكنه ذكرها لئلا يئسوا من التوبة . الفوزى : مع أن زليخة الأنبياء حكما ؛
 زيادة الرجل ، وشدة الحياء بالخل ، والتخل عن عجب العمل ، والتلذذ بنعمة العفو بعد
 الأمل ، وكونهم أمة رجاء أهل الزلل . قال القشيرى أبو نصر : وقال قوم جرى من يوسف
 هم ، وكان ذلك حركة طبع من غير تصبم للمقد على الفعل ؛ وما كان من هذا القبيل لا يؤاخذ
 به العبد ، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب المساء البارد ، وتناول الطعام اللذيذ ، فإذا
 لم يأكل ولم يشرب ، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجم فى النفس ؛
 والبرهان صرفه عن هذا الهم حتى لم يصبر عزما مصمما .

قلت : هذا قول حسن ؛ ومن قال به الحسن . قال ابن عطية : الذى أقول به فى هذه
 الآية إن كون يوسف فى هذه النازلة لم يصح كونه نبياً ، ولا تظاهرت به رواية ؛ وإذا كان
 كذلك فهو مؤمن قد أوتى حكماً وعاباً ، ويجوز عليه الهم الذى هو إرادة الشئ دون موافقته
 وأن يستصحب الخاطر الردى على ما فى ذلك من الخطيئة ؛ وإن فرضناه نبياً فى ذلك الوقت
 فلا يجوز عليه عندى إلا الهم الذى هو خاطر ، ولا يصح عليه شئ مما ذكر من حل نكته

(١) راجع تفسير آية ٨٤ من السورة المذكورة ، آية ٨٥ من سورة « الأنبياء » .

ونحوه؛ لأن العصمة مع النبوة . وما روى من أنه قيل له : « تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء » فإنما معناه العدة بالنبوة فيما بعد .

قلت : ما ذكره من التفصيل صحيح؛ لكن قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ » يدل على أنه كان نبياً على ما ذكرناه، وهو قول جماعة من العلماء؛ وإن كان نبياً فلم يبق إلا أن يكون الهيم الذي هم به ما يخطر في النفس ولا يثبت في الصدر؛ وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذه عن الخلق، إذ لا قدرة للكلف على دفعه؛ ويكون قوله : « وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي » — إن كان من قول يوسف — أى من هذا الهيم، ويكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف، لخلافة النفس لما زكى به قبل وبرئ؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال : « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَجَلَامًا » حل ما تقدم بيانه، وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه جق؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنى ومقدماته، وخيانة السيد والجار والأجنبي في أهله؛ لما تعرض لأمراء العزيز، ولا أجاب إلى المراودة، بل أدبر عنها وفر منها؛ حكمة خُص بها، وعملًا بمقتضى ما علمه الله . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال أرقبوه فإن عملها فاكثبوا له بمثلها وإن تركها فاكثبوا له حسنة إنما تركها من جرأ^(١) " . وقال عليه السلام مخبرا عن ربه : " إذا هم عبدى بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة " فإذا كان ما بهم به العبد من السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب؛ وفي الصحيح : " إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تعمل أو تكلّم به " وقد تقدم . قال ابن العربي : كان بمدينة السلام إمام من أئمة الصوفية، — وأى إمام — يعرف بابن عطاء ! تكلّم يوما على يوسف وأخبره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه؛ فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليفة من كل طائفة فقال : يا شيخ ! يا سيدنا ! فإذا يوسف هم وما تم؟ قال : نعم ! لأن العناية من ثم . فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم، وانظر إلى فطنة العاى في سؤاله ،

(١) من جرأ : أى من أجل ؛ وفي نسخة من صحيح مسلم " من جرأ " .

وجواب العالم في اختصاره وأستيفائه؛ ولذلك قال علماء الصوفية : إن فائدة قوله « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِزًّا » إنما أعطاه ذلك إيان غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة .

قلت : وإذا تقرر عصمته وبرأته ببناء الله تعالى عليه فلا يصح ما قال مُصَعَّب بن عثمان : إن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها ، فاشتاقت امرأة قسامته نفسها فامتنع عليها وذكرها ، فقالت : إن لم تفعل لأشهرتك ؛ فخرج وتركها ، فرأى في منامه يوسف الصديق عليه السلام جالسا فقال : أنت يوسف ؟ فقال : أنا يوسف الذي هممتُ ، وأنت سليمان الذي لم تهتم ؟ ! فإن هذا يقتضي أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوة وهو محال ؛ ولو قدرنا يوسف غير نبي فدرجته الولاية ، فيكون محفوفا كهو ؛ ولو غلقت على سليمان الأبواب ، وروجع في المقال والخطاب ، والكلام والجواب مع طول الصعوبة لخيف عليه الفتنة ، وعظيم المحنة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ والجواب محذوف لعلم السامع ؛ أي لكان ما كان . وهذا البرهان غير مذكور في القرآن ؛ فروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أن زليخا قامت إلى صنم مكمل بالدر والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أستحي من إلهي هذا أن يراني في هذه الصورة ؛ فقال يوسف : أنا أولى أن أستحي من الله ؛ وهذا أحسن ما قيل فيه ، لأن فيه إقامة الدليل . وقيل : رأى مكتوبا في سقف البيت « وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَى إِنَّهُ كَاتِبٌ فَاحِشَةٌ وَسَاءَ سَيِّلا » . وقال ابن عباس : بدت كف مكتوب عليها « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ » وقال قوم : تذكر عهد الله وميثاقه . وقيل : نودي يا يوسف ! أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء ؟ ! وقيل : رأى صورة يعقوب على الجدران عاضا على أظفاره يتوعده فسكن ، ونرجعت شهرته من أنامله ؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وأبو صالح وسعيد بن جبير . وروى الأعمش عن مجاهد قال : حل سراويله فتمثل له يعقوب ، وقال له : يا يوسف ! فولى هاربا . وروى سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جبير قال : مثل له يعقوب فضرب

صدره فخرجت شهوته من أنامله ؛ قال مجاهد : فولد لكل واحد من أولاد يعقوب أنثى عشر ذكرا إلا يوسف لم يولد له إلا غلامان ، ونقص بتلك الشهوة ولده ؛ وقيل غير هذا . وبالجمله : فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوى إيمانه ، وأمتع عن المعصية .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ الكاف من « كذلك » يجوز أن تكون رفعا ، بأن يكون خبر ابتداء محذوف ، التقدير : البراهين كذلك ، ويكون نعتا لمصدر محذوف ؛ أى أريناه البراهين رؤية كذلك . والسوء الشهوة ، والفحشاء المباشرة . وقيل : السوء الثناء القبيح ، والفحشاء الزنى . وقيل : السوء خيانة صاحبه ، والفحشاء ركوب الفاحشة . وقيل : السوء عقوبة الملك العزيز . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر « المخلصين » بكسر اللام ؛ وتأويلها الذين أخلصوا طاعة الله . وقرأ الباقر بن فتح اللام ، وتأويلها : الذين أخلصهم الله لرسالته . وقد كان يوسف صلى الله عليه وسلم بهاتين الصفتين ؛ لأنه كان غليظا فى طاعة الله تعالى ، مستخلصا لرسالة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ .

فيه مستلطات :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ قالت العلماء : وهذا من اختصار القرآن المعجز الذى يجتمع فيه المعانى ؛ وذلك أنه لما رأى برهان ربه هرب منها فتعاديا ، هى لئلا يترده إلى نفسها ، وهو ليهرب عنها ، فادركته قبل أن يخرج « وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ » أى من خلفه ؛ فقبضت فى أعلى قميصه فتخزق القميص عند طوقه ، ونزل التخزيق إلى أسفل القميص .

والاستباق طلب السبق إلى الشيء ؛ ومنه السباق . والفقد القطع ، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولا ؛ قال الناجية ^(١) :

تَقْدُ السَّوْقِيَّ الْمُضَاغَفَ تَسْبُهُ * وَتُوْقِدُ الْبُصْفَاجَ نَارَ الْحُبَّاجِيحِ

والقَطُّ بالطاء يستعمل فيما كان عَرْضًا . وقال المفضل بن حرب : قرأت في مصحف « فلما رأى قَيْصَهُ عَطَّ مِنْ دُبُرٍ » أى شق . قال يعقوب : العط الشق في الجلد الصحيح والثوب الصحيح . وحذفت الألف من « استبقا » في اللفظ لسكونها ومسكون اللام بعدها ؛ كما يقال : جاءني عبدا الله في التنية ؛ ومن العرب من يقول : جاءني عبدا الله بإثبات الألف بغير همز ، ويجمع بين ساكتين ؛ لأن الثاني مدغم ، والأول حرف مد ولين . ومنهم من يقول : عبدا الله بإثبات الألف والهمز ، كما تقول في الوقف .

الثانية — في الآية دليل على القياس والاعتبار ، والعمل بالعرف والعادة ؛ لما ذكر من قد القميص مقبلا ومدبرا ، وهذا أمر انفرد به المالكية في كتبهم ؛ وذلك أن القميص إذا جُيِّد من خلف تمزق من تلك الجهة ، وإذا جُيِّد من قدام تمزق من تلك الجهة ، وهذا هو الأغلب .

قوله تعالى : (وَالْقَبَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ) أى وجدا العزيز عند الباب ، وعنى بالسيد الزوج ؛ والقبط يسمون الزوج سيِّدا . يقال : ألفاه وصادفه ووارطه ووالطه ولاطه كله بمعنى واحد ؛ فلما رأت زوجها طلبت وجهها للحملة وكادت فقالت : (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا) أى زنى . (إِلَّا أَنْ يُسَجِّنَ أَوْ عَذَابُ الْإِلْمِ) تقول : يُضْرَب ضربا وجيما . و « ما جزاء » ابتداء ، وخبره « أن يسجن » . « أو عذاب » عطف على موضع « أن يسجن » لأن المعنى : إلا السجِن . ويجوز أو عذابا أيما بمعنى : أو يعذب عذابا أيما ؛ قاله الكسائي .

(١) يصف السيف ، وقد تقدم شرح البيت . يامش ص ١٠٣ من هذا الجزء .

(٢) كذا البياضة في الأصل وفي « البحر المحيط » ، ولم تحف على مادة (وارتط والاط ولاط) بمعنى (الفز) في معجم اللغة .

قوله تعالى : قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا
 إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧٨﴾
 وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٩﴾
 فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ
 عَظِيمٌ ﴿٨٠﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ
 مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا) .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء : لما برأت نفسها ولم تكن صادقة في حبه — لأن من شأن
 المحب إثارة المحبوب — قال « هي راودتني عن نفسي » نطق يوسف بالحق في مقابلة بهتها
 وكذبا عليه . قال نوف الشامي وغيره : كأن يوسف عليه السلام لم يين عن كشف القضية ،
 فلما بفت به غضب فقال الحق .

الثانية — (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا) لأنهما لما تعارضا في القول أحتاج الملك إلى
 شاهد يعلم الصادق من الكاذب ، فشهد شاهد من أهلها ، أي حكم حاكم من أهلها ، لأنه
 حكم منه وليس بشهادة . وقد اختلف في هذا الشاهد على أقوال أربعة : الأول — أنه
 طفل في المهد تكلم ، قال السهيلي : وهو الصحيح ، للحديث الوارد فيه عن النبي صلى الله عليه
 وسلم ، وهو قوله : ” لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة “ وذكر فيهم شاهد يوسف . وقال
 القشيري أبو نصر : قيل كان صبيا في المهد في الدار وهو ابن خالتها ، وروى سعيد بن
 جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” تكلم أربعة وهم صغار “ فذكر
 منهم شاهد يوسف ، فهذا قول . الثاني — أن الشاهد قد التقيص ، رواه ابن أبي نجيع
 عن مجاهد ، وهو مجاز صحيح من جهة اللغة ، فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال ،

وقد تضيف العرب الكلام إلى الجمادات وتحجر عنها بما هي عليه من الصفات ، وذلك كثير في أشعارها وكلامها ؛ ومن أحلاه قول بعضهم : قال الخياط للوثة لم تَشْقِيْ؟ قال له : سَلْ من يَدْفِنِيْ . إلا أن قول الله تعالى بعد « من أهلها » يطل أن يكون القميص . الثالث — أنه خَلَقَ من خَلْقِ الله تعالى ليس بإنسي ولا بجني ؛ قاله مجاهد أيضا ؛ وهذا رده قوله : « من أهلها » . الرابع — أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره في أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، وكان مع زوجها فقال : قد سمعت الاستبداد والجلبة من وراء الباب ، وشق القميص ، فلا يدرى أيكما كان قدام صاحبه ؛ فإن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة ، وإن كان من خلفه فهو صادق ؛ فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف ؛ هذا قول الحسن وعكرمة وقتادة والضحاك ومجاهد أيضا والسدي . قال السدي : كان ابن عمها ؛ وروى عن ابن عباس ، وهو الصحيح في الباب ، وإله أعلم . وروى عن ابن عباس — رواه إسرائيل عن سيماء عن عكرمة — قال : كان رجلا ذالحة . وقال سفيان عن جابر عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال : كان من خاصة الملك . وقال عكرمة : لم يكن بصبي ، ولكن كان رجلا حكيما . وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال : كان رجلا . قال أبو جعفر النحاس : والأشبه بالمعنى — والله أعلم — أن يكون رجلا عاقلا حكيما شاوره الملك بغاء بهذه الدلالة ؛ ولو كان طفلا لكنت شهادته ليوسف صلى الله عليه وسلم تنفى عن أن يأتى بدليل من العادة ؛ لأن كلام الطفل آية معجزة ، فكأن أوضح من الاستدلال بالعادة ؛ وليس هذا بخالف للحديث « تكلم أربعة وهم صغار » منهم صاحب يوسف ؛ يكون المعنى : صغيرا ليس بشيخ ؛ وفي هذا دليل آخر وهو : أن ابن عباس رضى الله عنهما روى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد توارثت الرواية عنه أن صاحب يوسف ليس بصبي .

قلت : قد روى عن ابن عباس وأبي هريرة وابن جبير وهلال بن يساف^(١١) والضحاك أنه كان صبيا في المهد ؛ إلا أنه لو كان صبيا تكلم لكان الدليل نفس كلامه ، دون أن يحتاج إلى

(١) هو بالكسر وقد يفتح .

استدلال بالقيص، وكان يكون ذلك نرق عادة، ونوع معجزة، والله أعلم. وسياق من تكلم في المهدي من الصبيان في سورة « البروج » إن شاء الله .

الثالثة — إذا تنزلنا على أن يكون الشاهد طفلا صغيرا فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات كما ذكرنا؛ وإذا كان رجلا فيصح أن يكون حجة بالحكم بالعلامة في اللقطة وكثير من المواضع؛ حتى قال مالك في اللصوص: إذا وجدت معهم أمتعة بغشاء قوم فأدعوها، وليست لهم بيئة فإن السلطان يتلوم لهم في ذلك؛ فإن لم يأت خبرهم فدعها إليهم. وقال محمد في متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل: إن ما كان للرجل فهو للرجل، وما كان للنساء فهو للمرأة، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل. وكان شريح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات في الحكومات؛ وأصل ذلك هذه الآية، والله أعلم.

قوله تعالى: (إِنْ كَانَ قَبِيضُهُ قَدْ مِنْ قَبْلٍ) كان في موضع جزم بالشرط، وفيه من النحو ما يشكل؛ لأن حروف الشرط تترد الماضي إلى المستقبل، وليس هذا في كان؛ فقال المبرد محمد بن يزيد: هذا لقوة كان، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال. وقال الزجاج: المعنى إن يكن؛ أي إن يعلم، والعلم لم يقع، وكذا الكون لأنه يؤدي عن العلم. «قَدْ مِنْ قَبْلٍ» نغبر عن «كان» بالفعل الماضي؛ كما قال زهير:

وكان طوى كشفا على مُسْتَكِنَةٍ * فلا هو أبداها ولم يتقدّم^(٢)

وقرأ يحيى بن يعمر وأبن أبي إسحق «مِنْ قَبْلٍ» بضم القاف والباء واللام، وكذا «دُبُرٌ» قال الزجاج: يحملهما غايتين كقبْل وبعْد؛ كأنه قال: من قَبْلِهِ ومن دُبُرِهِ، فلما حذف المضاف إليه — وهو مراد — صار المضاف غاية نفسه بعد أن كان المضاف إليه غاية له. ويجوز «مِنْ قَبْلٍ» «ومن دُبُرٍ» بفتح الراء واللام تشبيها بما لا ينصرف؛ لأنه معرفة ومزال عن بابه. وروى محبوب عن أبي عمرو «مِنْ قَبْلٍ» «ومن دُبُرٍ» غفغان مجروران.

(١) التلوم: انتظار لأمر تريده. (٢) الكشع: الجنب؛ ويقال: طوى كشعه على كذا إذا أخضه. والمستكنة: الحقد. ويروى: (ولم يتجسم).

قوله تعالى : (فَلَمَّا رَأَىٰ قَيْصَهُ قَدْ مِنْ دُرِّي قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ) قيل : قال لها ذلك العزيز عند قولها « مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا » . وقيل : قاله لها الشاهد . والكيد : المكر والحيلة ، وقد تقدم في « الأنفال » . (١) (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) وإنما قال « عظيم » لعظم فتنتهن وأحياهن في التخلص من ورطتهن . وقال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول « إن كيد الشيطان كان ضعيفا » وقال « إن كيدكن عظيم » » .

قوله تعالى : (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) القائل هذا هو الشاهد . و « يوسف » نداء مفرد ، أى يا يوسف ، غذف . « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » أى لا تذكره لأحد وأكنمه . ثم أقبل عليها فقال : وَأَنْتِ (أَسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ) يقول : استغفري زوجك من ذنبك لا يعاقبك . (إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ) ولم يقل من الخاطئات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث ، فنقلب المذكر ؛ والمعنى : من الناس الخاططين ، أو من القوم الخاططين ؛ مثل « إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ » « وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِئِينَ » . وقيل : إن القائل ليوسف أعرض ولها استغفري زوجها الملك ؛ وفيه قولان : أحدهما — أنه لم يكن غيورا ؛ فذلك كان سائما . وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود . الثانى — أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كفى بادرته وعفا عنها .

قوله تعالى : وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَعًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرِجْ عَلَيْنَ رَأْيَهُ وَ أَكْبَرْتُهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّرَ يَفْعَلُ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ((وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ)) ويقال: «نِسْوَةٌ» بضم النون، وهي قراءة الأعمش والمفضل والسكيت، والجمع الكثير نساء . ويجوز: وقالت نسوة، وقال نسوة، مثل قالت الأعراب وقال الأعراب؛ وذلك أن القصة آتت في أهل مصر فتحدثت النساء . قيل: امرأة ساق العز، وأمرأة خيازه، وأمرأة صاحب دوابه، وأمرأة صاحب بجنه . وقيل: امرأة الحاجب؛ عن ابن عباس وفيه . ((تَرَاوَدُّ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ)) التقى في كلام العرب الشاب، والمرأة فتاة . ((قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا)) قيل: شغفها غلبها . وقيل: دخل حبه في شغافها؛ عن مجاهد وغيره . وروى عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال: دخل تحت شغافها . وقال الحسن: الشَّغَفَ باطن القلب . السدى وأبو عبيد: شغاف القلب غلافه، وهو جلدة عليه . وقيل: هو وسط القلب؛ والمعنى في هذه الأقوال متقارب، والمعنى: وصل حبه إلى شغافها فغلب عليه؛ قال النابغة:

وقد حال هم دون ذلك داخل * دخول الشَّغَافِ تبتغيه الأصابع^(١)

وقد قيل: إن الشَّغَافَ داء؛ وأنشد الأصمعي للرازي:

* يتبعها وهي له شَغَاف *

وقرأ أبو جعفر بن محمد وابن محيصن والحسن «شَغَفَهَا» بالعين غير معجمة؛ قال ابن الأعرابي: معناه أحرق حبه قلبها؛ قال: وعلى الأول العمل . قال الجوهري: وشَغَفَهُ الحبُّ أحرق قلبه . وقال أبو زيد: أمرضه . وقد شَغِفَ بكنا فهو مشعوف . وقرأ الحسن «قَدْ شَغَفَهَا» قال: بَطَّنَهَا حُبًّا . قال النحاس: معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب؛

(١) يعني أصابع الطبيب؛ يقول: قد حال عن البكاء، حل الذي يارهم دخل في القزود، حتى أصابه منه داء .

لأن شِعَافَ الجبال أعالِيا ؛ وقد شَغِفَ بذلك شَغَفًا بِإِسْكَانِ التَّيْنِ إِذَا أُوْلِعَ بِهِ ؛ إِلَّا أَنْ
أَبَا عِيْدَةَ أَشْدَدُّ يَتِ أَحْمَرُ الْقَيْسِ :

لَتَقْتَلِيْ وَقد شَغَفْتُ فَوَادِعَهَا * كَمَا شَغَفَ الْمَهْنُوَّةُ الرَّجُلَ الطَّالِي

قال : فشبهت لوعة الحبَّ وجواه بذلك . وروى عن الشعبي أنه قال : الشغف بالعين
المعجمة حبٌ ، والشغف بالعين غير المعجمة جنون . قال الطحاس : وحكى « قد شَغَفَهَا »
بكسر العين ، ولا يعرف في كلام العرب إلا « شَغَفَهَا » بفتح العين ، وكذا « شَغَفَهَا » أى تركها
مشغوفة . وقال سعيد بن أبى عَرُوبَةَ عن الحسن : الشَّغَافُ حجاب القلب ، والشَّغَافُ
سويداء القلب ، فلو وصل الحب إلى الشَّغَاف لامت ؛ وقال الحسن : ويقال إن
الشَّغَافَ الجلدة اللاصقة بالقلب التى لا ترى ، وهى الجلدة البيضاء ، فلصق حبه بقلها كصق
الجلدة بالقلب .

قوله تعالى : (إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) أى فى هذا الفعل . وقال قتادة : « فتأها »
وهو قى زوجها ، لأن يوسف كان عندهم فى حكم المالك ، وكان ينفذ أمرها فيه . وقال
مقاتل عن أبى عثمان النهديّ عن سلمان الفارسيّ قال : إن امرأة العزيز استوهبت زوجها
يوسف فوهبه لها ، وقال : ما تصنعين به ؟ قالت : أتخذه ولدا ؛ قال : هو لك ؛ فربته حتى
أرفع وفى نفسها منه ما فى نفسها ، فكانت تنكشف له وتزين وتدعوه من وجه اللطف
فمصمه الله .

قوله تعالى : (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ) أى بنيتن لإياها ، وأحياهن فى ذمها . وقيل :
لأنها أطعنن واستأمنن فأفشين سرها ، فسمى ذلك مكرا . وقوله : (أَرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ)
فى الكلام حذف ؛ أى أرسلت إليهن تدعوهن إلى وليمة لتوقعهن فيها وقعت فيه ؛ فقال مجاهد
عن أبى عباس إن امرأة العزيز قالت لزوجها : إني أريد أن أتخذ طعاما فأدعو هؤلاء النسوة ؛
فقال لها : افعل ؛ فاتخذت طعاما ، ثم تجلست لهن البيوت ؛ فجلست أى زينت ؛ والتجد ما يتجد

١ () المهنوءة : المظلة بالقطران ، وإذا هى البعر بالقطران يجده له قلة مع حرقه ، كحرقه الحموى مع قلة .

به البيت من المتاع أى يُزِين، والجمع يُجود؛ عن أبى عبيد؛ والتنجيد التزين؛ وأرسلت إليهن أن يحضرن طعامها، ولا يتخلف منكن امرأة من سميت. قال وهب بن منبه: إنهن كن أربعين امرأة بفرن على كره منهن، وقد قال فيهن أمية بن أبى الصلت:

حتى إذا جفنها قسرا * ومهدت لهن أنضادا وبكبا^(١)

ويروى أنماطا. قال وهب: بفرن وأخذت مجالسهن. (وَأَعَدَّتْ لهن مَتَكًا) أى هيات لهن مجالس يتكئن عليها. قال ابن جبير: فى كل مجلس جَآم فيه عسل وأترج وسكن حاد. وقرأ مجاهد وسعيد بن جبیر «مَتَكًا» مخففا غير مهموز، والمتك هو الأترج بلغة القبط، وكذلك فسره مجاهد. روى سفيان عن منصور عن مجاهد قال: المتك متقلا الطعام، والمتك مخففا الأترج؛ وقال الشاعر:

شَرِبُ الإِمِّم بِالصُّبُوحِ جَهَارًا * وَتَرَى الْمُتَكَ بَيْنَنَا مُسْتَارًا

وقد تقول أزد شونة: الأترجة المتكة؛ قال الجوهري: المتك ما تبقى الخلاتة. وأصل المتك الزماورد^(٢). والمتك من النساء التى لم تخفص^(٣). قال الفراء: حدثني شيخ من ثقات أهل البصرة أن المتك مخففا الزماورد. وقال بعضهم: لأنه الأترج؛ حكاه الأخفش. بن زيد: أترجا وصلا يؤكل به؛ قال الشاعر:

فَطَلْنَا بنَمِيَّةٍ وَأَتَكْنَا * وَشَرَبْنَا الحَلَالَ من قُلَّةِ

أى أكلنا.

النحاس: قوله تعالى: (وَأَعَدَّتْ) من العتاد؛ وهو كل ما جعلته عتدة لشيء. (مَتَكًا) أصح ما قيل فيه ما رواه علي بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: مجالسنا، وأما قول جماعة من أهل التفسير إنه الطعام فيجوز على تقدير: طعام متكاً، مثل «وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ»؛ ودل على

(١) كذا البيت فى الأصل. (٢) الزماورد: الرقاق المقفوف بالهم وغيره، أو هو شئ يشبه الأترج.

(٣) خفص الجارية: غنبا، وكذا الصبي، والأمرف أن الخفص لجماعة والخناص للصبي. (٤) هو جبل

ابن معمر: والغلال جمع قلة؛ والقة الحب العظيم. وقيل: البحرة الكبيرة. وقيل: الكوز الصغير. وقيل: غير ذلك.

هذا الخلف «وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا» لأن حضور النساء معهن سكاكين إنما هو لطعام يُقطع بالسكاكين ؛ كذا قال في كتاب «إعراب القرآن» له . وقال في كتاب «معاني القرآن» : «وبوي نَعَمَر عن قتادة قال : «المتكا» الطعام . وقيل : «المتكا» كل ما أتى عليه عند طعام أو شراب أو حديث ؛ وهذا هو المعروف عند أهل اللغة ، إلا أن الروايات قد صحت بذلك . وحكى القتيبي أنه يقال : أتكنا عند فلان أى أكلنا ، والأصل في «متكا» موتكا ، ومثله مُتَرَن ومُتَعَد ؛ لأنه من وزنت ووجدت ووكت ، ويقال : أتكنا سِكِّينَا أتكنا ، (كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينَا) مفعولان ؛ وحكى الكسائي والقراء أن السكين يذكروا ويؤنث ، وأنشد القراء :

فَعِيَتْ فِي السَّامِ غَدَاةٌ قُرٌّ * بسكينٍ مَوْقِصَةِ النَّصَابِ

الجوهري : «والغالب عليه التذكير» وقال :

يُرَى نَاصِحًا نِيحًا بَدَا إِذَا حَلَا * فذلك سكينٌ على الحلي حاذق

الأصمعي : لا يعرف في السكين إلا التذكير .

قوله تعالى : «(وَقَالَتْ أَخْرِجْ طَلِقِينَ)» بضم التاء لالتقاء الساكنين ؛ لأن الكسرة تثقل إذا كان بعدها ضمة ، وكسرت التاء على الأصل . قبل إنها قالت لمن : لا تقطن ولا تأكلن حتى أمليكن ، ثم قالت لخادماها : إذا قلت لك أدع لي إيلاد فادع يوسف ؛ وإيل : صنم كانوا يعبدونه ، وكان يوسف عليه السلام يعمل في الطين ، وقد شدَّ مِثْرَهُ ، وحسَر من ذراعيه ؛ فقالت لخادم : أدع لي إيلاد ؛ أى أدع لي الرب ؛ وإيل بالعبرانية الرب ؛ قال : فتعجب النسوة وقلن : كيف يحيى ؟ ! فصعدت الخادم فدعت يوسف ، فلما انحدر قالت لمن : أقطنن مامعكن . (فَالْمَلِكُ رَأَى أَنَّهُ أَبْغَرُّهُ وَوَقَطْنَهُ أَيْدِيَهُنَّ) بالمدى حتى بلغت السكاكين إلى العظم ، قاله وهب بن منبه . سعيد بن جبير : لم يخرج طين حتى زيتته ، فخرج طين بقاء فدهش فيه ، وتغيرن لحسن وجهه وزينه وما عليه ، فغلن يقطن أيديهن ، ويحسن أنهن يقطن الأثر ؛ واختلف

في معنى « أَكْبَرُهُ » فروى جُوَيْر عَنْ الضَّمَّالِ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ : أَعْظَمُهُ وَهَبْتُهُ وَعَنْهُ أَيْضًا أَمْنَيْنِ وَأَمْذِينَ مِنَ النَّهْشِ ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا مَا رَأَيْنَ الْفُضْلَ مِنْ فَوْقِ قَارَةٍ * صَهْلَنَ وَأَكْبَرَنَ الْمُنَى الْمُدْفَقَا^(١)

وَقَالَ أَبُو سَمَانَ عَنْ مَعْدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ : إِنَّهُمْ قَالُوا أَمْذِينَ صَحْقًا وَهَبَ بِنِ مُنْبَةٍ : عَشَقْنَاهُ حَتَّى مَاتَ مِنْهُنَّ عَشْرَةٌ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ دَهْشًا وَحَيْرَةً وَوَجْدًا بِيُوسُفَ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ حَضَنَ مِنَ النَّهْشِ ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ وَمِقَاتِلُ وَالسَّديُّ ؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

نَاقَى النِّسَاءِ عَلَى أَطْهَارِهِنَّ وَلَا * نَاقَى النِّسَاءِ إِذَا أَكْبَرَنَ الْإِبْكَارَا

وَأَنْكَرَ ذَلِكَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُ وَقَالُوا : لَيْسَ ذَلِكَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَلَكِنَّهُ يَحْوِزُ أَنْ يَكُنَّ حَضَنَ مِنْ شِدَّةِ إِعْظَامِهِنَّ لَهُ ، وَقَدْ تَفَرَّعَ الْمَرْأَةُ فَتَسْقُطَ وَلَدُهَا أَوْ تَحِيضُ . قَالَ الزَّجَّاجُ : يَقَالُ أَكْبَرُهُ ، وَلَا يَقَالُ حَضَنُهُ ، فَلَيْسَ الْإِبْكَارُ بِمَعْنَى الْحِيضِ ؛ وَأَجَابَ الْأَزْهَرِيُّ فَقَالَ : يَحْوِزُ أَكْبَرْتُ بِمَعْنَى حَاضَتْ ؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا حَاضَتْ فِي الْإِبْتِدَاءِ تَرْجِعُ مِنْ حَيْزِ الصَّغَرِ إِلَى الْكِبَرِ ؛ قَالَ : وَالْهَاءُ فِي « أَكْبَرُهُ » يَحْوِزُ أَنْ تَكُونَ هَاءُ الْوَقْفِ لَا هَاءَ الْكَلَامَةِ ؛ وَهَذَا مُزِيْفٌ ، لِأَنَّ هَاءَ الْوَقْفِ تَسْقُطُ فِي الْوَصْلِ ، وَأَمَّا مِنْهُ قَوْلُ أَبِي الْأَنْبَارِيِّ : إِنَّ الْهَاءَ كَلَامِيَّةٌ عَنْ مَصْدَرِ الْفِعْلِ ؛ أَيْ أَكْبَرَنَ الْإِبْكَارَا ، بِمَعْنَى حَضَنَ حَيْضًا . وَعَلَى قَوْلِ أَبِي عَبَّاسٍ الْأَوَّلِ تَعُودُ الْهَاءُ إِلَى يُوسُفَ ؛ أَيْ أَعْظَمَنَ يُوسُفَ وَأَجَلَّلَنَّهُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : قَطَعْنَهَا حَتَّى أَلْقَيْنَهَا . وَقِيلَ : خَدَشْنَهَا . وَرَوَى أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي تَيْجٍ قَالَ : سَرًّا بِالسَّكِينِ ، قَالَ النُّعْمَانُ : يَرِيدُ مُجَاهِدٌ أَنَّهُ لَيْسَ قَطْعًا تَبِينٍ مِنْهُ الْيَدُ ، إِنَّمَا هُوَ خَدَشَ وَحَرَّ ، وَذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي الْفَلَاكَةِ أَنْ يَقَالَ إِذَا خَدَشَ الْإِنْسَانُ يَدَ صَاحِبِهِ قَطَعَ يَدَهُ . وَقَالَ عِكْرَمَةُ : « أَيْدِيَهُنَّ » أَكْأَمَهُنَّ ، وَفِيهِ بُعْدٌ . وَقِيلَ : أَنَا مَلَهْنُ ، أَيْ مَا وَجَدْنَاهُ أَلَا فِي الْقَطْعِ وَالْجَرَحِ ، أَيْ لَشَغْلَ قُلُوبِهِنَّ بِيُوسُفَ ، وَالتَّقْطِيعُ يُشِيرُ إِلَى الْكَثْرَةِ ، فَيُمْكِنُ أَنْ تَرْجِعَ الْكَثْرَةُ إِلَى وَاحِدَةٍ بَرَحَتْ يَدُهَا فِي مَوَاضِعَ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى عَدَدِهِنَّ .

(١) القارة : الجبل الصغير المنقطع عن الجبال ، وقيل : الصخرة الطويلة ، وقيل غير ذلك .

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أى معاذ الله. وروى الأصمعي عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن الملاء « وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ » بإثبات الألف وهو الأصل، ومن حذفها جعل اللام في « لله » عوضا منها . وفيها أربع لغات؛ يقال : حَاشَاكَ وَحَاشَا لَكَ وَحَاشَ لَكَ وَحَاشَا لَكَ . ويقال : حَاشَا زَيْدٌ وَحَاشَا زَيْدًا ؛ قال النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : النصب أولى ؛ لأنه قد صحح أنها فعلٌ لقولهم حاش لزيد، والحرف لا يحذف منه ؛ وقد قال النابتة :

(١١)
* وَلَا أَحَاشِي مِنَ الْأَنْوَامِ مِنْ أَحَدٍ *

وقال بعضهم : حَاشَ حرف ، وأحاشى فعل . ويدل على كون حاشا فعلا وقوع حرف الجر بعدها . وحكى أبو زيد عن أعرابي : اللهم أغفر لي ولن يسمع ، حاشا الشيطان وأبا الأصمعي ؛ فنصب بها . وقرأ الحسن « وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ » بإسكان الشين، وعنه أيضا « حاش الإله » . ابن مسعود وأبي : « حَاشَ اللَّهُ » بغير لام، ومنه قول الشاعر :

حاشا أبي ثوبان إثم به * ضنا عن الملاءة والشتم

قال الزجاج : وأصل الكلمة من الحاشية ، والحشأ بمعنى الناحية، تقول : كنت في حشأ فلان أى في ناحيته ؛ فقولك : حاشا لزيد أى تنحى زيد من هذا وتباعد عنه ، والاستثناء إخراج وتنحية عن جملة المذكورين . وقال أبو علي : هو فاعل من المحاشاة ؛ أى حاشا يوسف وصار في حاشية وناحية مما يُقرب به ، أو من أن يكون بشرا ؛ فحاشا وحاش في الاستثناء حرف جر عند سيدييه ، وعلى ما قال المبرد وأبو علي فعل .

قوله تعالى : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ قال الخليل وسيدييه : « ما » بمنزلة ليس ؛ تقول : ليس زيد قائما ، و « مَا هَذَا بَشَرًا » و « مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ » . وقال الكوفيون : لما حذف الباء

(١) صدر البيت : * ولا أرى فاعلا في الناس يشبه *

وهو من قصيدة يعلح بها النعمان ويهتد إليه . (٢) كلام مشهور . (٣) هوسيرة بن عمرو الأسدي ، وقيل : هو الجميع الأسدي ، وأصح مقتضى الظاهر . والملاءة : القوم .

نصبت، وشرح هذا - فيا قاله أحمد بن يحيى - أنك إذا قلت : ما زيد بمنطلق، فوضع الباء موضع نصب، وهكذا سائر حروف الانقضا، فلما حذفت الباء نصبت لتدل على محلها، قال : وهذا قول الفراء، قال : ولم تعمل «ما» شيئا، فالزمهم البصريون أن يقولوا : زيد القمر، لأن المعنى كالقمر ! فرد أحمد بن يحيى بأن قال : الباء أدخل في حروف الانقضا من الكاف، لأن الكاف تكون أسما . قال النحاس : لا يصح إلا قول البصريين، وهذا القول يتناقض، لأن الفراء أجاز نصا ما بمنطلق زيد، وأنشد :

أَمَا وَاللَّهِ أَنَّهُ لَوْ كُنْتُ حُرًّا * وَمَا بِالْحُرِّ أَنْتَ وَلَا الْعَتِيقُ

ومنع نصا النصب، ولا نعلم بين النحويين اختلافا أنه جائز : ما فيك براغب زيد، وما إليك بقاصد عمرو، ثم يحذفون الباء ويرفعون . وحكى البصريون والكوفيون ما زيد منطلقا بالرفع، وحكى البصريون أنها لغة تميم، وأنشدوا :

أَتَيْتُمَا تَجْعَلُونِي إِلَى نَدَا * وَمَا تَيْمٌ لَدَى حَسَبٍ نَدِيدٌ

النَّد والنَّدِيد والنَّدِيدَةُ المِثْل والنَّظِير . وحكى الكسائي أنها لغة تيمامة وتجد . وزعم الفراء أن الرفع أقوى الوجهين، قال أبو إسحق : وهذا غلط، كتاب الله عز وجل وأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى وأولى .

قلت : وفي مصحف حفصة رضي الله عنها «مَا هَذَا بِبَشِيرٍ» ذكره الفَرَزْدِيُّ . قال التَّشِيرِيُّ أبو نصر : وذكرَتِ السُّورَةُ أَنْ [صورة] يوسف أحسن من صورة البشر، بل هو في صورة ملك، وقال الله تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» والجمع بين الآيتين أن قولهم : «حاش الله» تبرئة ليوسف عما رمته به امرأة العزيز من المراودة؛ أي بعد يوسف عن هذا؛ وقولهم : «الله» أي خلوفه، أي براعة الله من هذا؛ أي قد نجح يوسف من ذلك، فليس هذا من الصورة في شيء، والمعنى : أنه في التبرئة عن المعاصي كاللائكة؛ فعلى هذا لا تنافس . وقيل : المراد تنزيهه عن مشابهة البشر في الصورة، لفرط جماله . وقوله : «الله» تأكيد لهذا المعنى؛ فعلى هذا المعنى قالت النساء ذلك ظنا منهن أن صورة الملك أحسن، وما بلغهن قوله :

تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» فإنه من كتابنا . وقد ظن بعض الضعفة أن هذا القول لو كان ظنا باطلا ممنه لوجب على الله أن يرد عليهن ، ويبين كذبهن ، وهذا باطل ؛ إذ لا وجوب على الله تعالى ، وليس كل ما يخبر به الله سبحانه من كفر الكافرين وكذب الكاذبين يجب عليه اثب يقرن به الرد عليه ؛ وأيضا أهل العرف قد يقولون في التقييد كأنه شيطان ، وفي الحسن كأنه ملك ؛ أي لم ير مثله ، لأن الناس لا يرون الملائكة ؛ فهو بناء على ظن أن صورة الملك أحسن ، أو على الإخبار بظاهرة أخلاقه وبعمده عن التهم . (إن هذا إلا ملك) أي ما هذا إلا ملك ؛ وقال الشاعر :

فَلَسْتُ لِأَنْتَى وَلَكِنْ لِمَلَأِكَ * تَتَرَّلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

وروى عن الحسن «مَا هَذَا بِشَرٍّ» بكسر الباء والشين ، أي ما هذا عبدا مشترى ، أي ما ينبغي لمثل هذا أن يباع ، فوضع المصدر موضع اسم المفعول ، كما قال : «أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ» أي مصيدته ، وشبهه كثير . ويجوز أن يكون المعنى : ما هذا بمن ، أي مثله لا يثنى ولا يقوم ؛ فيراد بالشراء على هذا الثمن المشتري به ، كقولك : ما هذا بألف إذا نفيت قول القائل هذا بألف ، فالباء على هذا متعلقة بمحذوف هو الخبر ، كأنه قال : ما هذا مقدرا بشراء . وقراءة العامة أشبه ؛ لأن بعده «إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» مبالغة في تفضيله في جنب الملائكة تعظيما لشأنه ، ولأن مثل «بِشَرٍّ» يكتب في المصحف بالياء .

قوله تعالى : «فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ» لما رأت أفتانين يوسف أظهرت حذر نفسها بقولها : «لُمْتُنِّي فِيهِ» أي بحبه ، و «ذلك» بمعنى «هذا» وهو اختيار الطبري . وقيل : الهاء للحب ، و «ذلك» على بابه ، والمعنى : ذلكن الحب الذي لمتني فيه ، أي حب هذا هو ذلك الحب . والوهم الوصف بالقيح . ثم أقرت وقالت : «وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ» أي استعصم ؛

(١) هو وجان من عبد القيس جاهلي ، يمدح بعض الملوك ، قيل : هو النعمان ، وقال ابن السرياني : هو لأبي وجزة يمدح به عبد الله بن الزبير . وملك — كما قال الكسائي — أصله ملك بتقديم الهزة ؛ من الألوكة ، وهي الرسالة ، ثم قلبت وقدمت اللام قبل : ملك ، ثم تركت هزته لكثرة الاستعمال فقيل : ملك ، فلما جمعه ودعوا إليه فقالوا : ملائكة وملائك أيضا . (اللسان) .

وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية. وقيل : « أستعصم » أى أستعصى، والمعنى واحد . (وَلَيْتَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيْسَجْنَ) ماودته المراودة بمحضر منهن، وهتكت جلباب الحياء، وودعت بالسجن إن لم يفعل، وإنما فعلت هذا حين لم تحش لومًا ولا مقالا خلاف أول أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها . (وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِغِينَ) أى الأذلاء . وخط المصحف « وليكونا » بالألف وتقرأ بنون مخففة للتأكيد ونون التأكيد تثقل وتخفف والوقف على قوله : « ليسجن » بالنون لأنها مثقلة، وعلى « ليكونا » بالألف لأنها مخففة، وهى تشبه نون الإعراب فى قولك : رأيت رجلا وزيدا وعمرا، ومثله قوله : « لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » ونحوها الوقف عليها بالألف، كقول الأعرابي :

* وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّهُ فَاحِشٌ ^(١) *

أراد فاحشًا، فلما وقف عليه كان الوقف بالألف .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ
وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾
فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَّفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : (قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) أى دخول السجن ، لخفف المضاف ، قاله الزجاج والتماس . « أحب إلى » أى أسهل على وأهون من الوقوع فى المعصية ، لا أن دخول السجن مما يحب على التحقيق . وحكى أن يوسف عليه السلام لما قال : « السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » أوحى الله إليه « يا يوسف ! أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحب إلى »، ولو قلت العافية أحب إلى لعوفيت . وحكى أبو حاتم أن عثمان أبى عفان رضى الله عنه قرأ « السَّجْنُ » بفتح السين وحكى أن ذلك قراءة بن أبى إسحق .

(١) صدر البيت : * وَذَا النَّصَبِ الْمُنْصَوْبِ لَا تَنْسَكُهُ *

وهو من قصيدة يملح بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعبد الرحمن الأعرج ويعقوب؛ وهو مصدر يتجنى تجنّياً . (وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ) أى كيد النسوان . وقيل : كيد النسوة اللاتي رأينه؛ فإنهن أمرنه بمطالعة امرأة العزيز؛ وكان له : هي مظلومة وقد ظلمتها . وقيل : طلبت كل واحدة أن تخلو به للنصيحة في امرأة العزيز؛ والقصد بذلك أن تعذله في حقها؛ وتأمره بمساعدتها؛ فعمله يحجب؛ فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف ! أقض لى حاجتى فأنا خير لك من سيدتك؛ تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده؛ فقال : يا رب كانت واحدة فصرن جماعة . وقيل : كيد امرأة العزيز فيما دعت إليه من الفاحشة؛ وكفى عنها بمخاطب الجمع إما لتعظيم شأنها في الخطاب؛ وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض . والكيد الاحتيال والاجتهاد؛ ولهذا سميت الحرب كيدا لاحتيال الناس فيها؛ قال عمر بن الخطاب :

تَرَأَيْتُ نَفْسًا تَكِيدُكَ أَمْ شَيْءٌ * وَكَيْدُ النَّاسِ بَعْجٌ مَا تَكِيدُ

(أَصْبَحُ إِلَيْهِنَّ) جواب الشرط ، أى أبل إليهن ؛ من صبا يصبو - إذا مال وأشتاق - صبوا وصبوة؛ قال :

إِلَى هُنْدٍ صَبَا قَلْبِي * وَهَنْدٌ مِثْلُهَا يُصْبِي

أى إن لم تلتطف لى فى اجتناب المعصية وقعت فيها . (وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) أى ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم، أو ممن يعمل عمل الجاهل؛ ودل هذا على أن أحدا لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله؛ ودل أيضا على قبح الجهل والذم لصاحبه ،

قوله تعالى : (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ) لَمَّا قَالَ . (وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ) تعزى للدعاء ، وكأنه قال : اللهم أصرف عني كيدهن ؛ فاستجاب له دعاءه ، ولطف به وعصمه عن الوقوع فى الزنى . (كَيْدُهُنَّ) قيل : لأنهن جمع قد راودنه عن نفسه . وقيل : يعنى كيد النساء . وقيل : يعنى كيد امرأة العزيز ، على ما ذكر فى الآية قبل ؛ والعموم أولى .

قوله تعالى : ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُنَّتْهُ

حَتَّىٰ خَبِيرٍ ﴿٥٩﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ) أى ظهر للعزير وأهل مشورته من بعد أن رأوا علامات براءة يوسف -- من قد القيص من دبر ، وشهادة الشاهد ، وحرَّ الأيدى ، وقلة صبرهنَّ عن لقاء يوسف - أن يسجنوه كتبنا للقصة ألا تشيع في العامة ، وللمحاولة بينه وبينها . وقيل : هي البركات التي كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم ؛ والأول أصح . قال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس في قوله : «ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ» قال : القيص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الآيات ، وقطع الأيدى من الآيات ، وإعظام النساء إياه من الآيات . وقيل : أبلغها الخجل من الناس ، والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحباب مكان خوف النهاب ، لتشتفى إذا منعت من نظره ؛ قال :

وما صَبَّأَيْهِ مشتاقٍ على أمل * من اللقاء كمشاقٍ بلا أمل

أو كادت رجاء أن يَمْلَ حسبه فينزل قمبه .

الثانية - قوله تعالى : (لَيْسَ جُنَّتْهُ) «يسجنته» في موضع الفاعل ؛ أى ظهر لهم أن يسجنوه ؛ وهذا قول سيوريه ، قال المبرد : وهذا غلط ؛ لا يكون الفاعل جملة ، ولكن الفاعل ما دل عليه «بدا» وهو المصدر ؛ أى بدا لهم بداء ؛ فحذف لأن الفعل يدل عليه ؛ كما قال الشاعر :

وَحَقٌّ لِمَنْ أَبُو مَوْسَى أَبَوْهُ * يُوقِّعُهُ الَّذِي نَصَبَ الْجِبَالَ

أى وحق الحق ، فحذف . وقيل : المعنى ثم بدا لهم رأى لم يكونوا يعرفونه ؛ وحذف هذا لأن في الكلام دليلا عليه ، وحذف أيضا القول ؛ أى قالوا : ليسجنته ، واللام جواب ليمين مضمرة ؛ قاله الفراء ، وهو فعل مذكرا لا فعل مؤنث ؛ ولو كان فعلا مؤنثا لكان يسجنانه ؛

ويدل على هذا قوله «لم» ولم يقل لمن ، فكأنه أخبر عن النسوة وأعاونهن فغلب المذكر ؛
قوله أبو علي ، وقال السدي : كان سبب حبس يوسف أن امرأة العزيز شكت إليه أنه
شهرها ونشر خبرها ؛ فالضمير على هذا في «لم» لللك .

الثالثة - قوله تعالى : (حَتَّىٰ يَجِيئَ) أى إلى مدة غير معلومة ؛ قاله كثير من
المفسرين . وقال ابن عباس : إلى انقطاع ما شاع في المدينة . وقال سعيد بن جبير :
سنة أشهر . وحكى الكا أنه عني ثلاثة عشر شهرا . حكمة : تسع سنين . الكشي : خمس
سنين . مقاتل : [أنثى عشرة سنة ^(١)] . وقد مضى في «البقرة» القول في الجين وما يرتبط
به من الأحكام . وقال وهب : أقام في السجن اثني عشرة سنة . و «حتى» بمعنى إلى ؛
كقوله : «حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ» . وجعل الله الحبس تطهيرا ليوسف من همه بالمرأة . وكان
العزى - وإن عرف براعة يوسف - أطاع المرأة في محبوس يوسف . قال ابن عباس : سحر
يوسف ثلاث عترات : حين هم بها فسجن ، وحين قال للقي : «أذكرني عند ربك» فلبث
في السجن بضع سنين ، وحين قال لأخوته : «إِنكُمْ لَسَارِقُونَ» فقالوا : «إِنْ سَرِقْنَا فَقَدْ
سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ» .

الرابعة - أكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن ، وأقام خمسة أعوام ،
وما رضى بذلك لعظيم منزلته وشريف قدره ؛ ولو أكره رجل بالسجن على الزنى ما جاز له
إجماعا . فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء ، والمصحيح أنه إذا كان قادحا فإنه
يسقط عنه إثم الزنى وحده . وقد قال بعض العلماء : إنه لا يسقط عنه الحد ، وهو ضعيف ؛
فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين ، ولا يصرفه بين بلايين ؛ فإنه من أعظم الحرج
في الدين «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» . وسيأتى بيان هذا في «النمل» إن شاء الله .
وعبر يوسف ، واستغاذ به من الكيد ، فاستجاب له على ما تقدم .

(١) الزيادة من (روح المعاني) وتفسير (القمي الرازي) . (٢) راجع ج ١ ص ٣٢١ وما بعدها
طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِثَتَا يَتَّوِيلَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْقَانِهِ إِلَّا نَبَاتَكُمَا يَتَّوِيلُهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَيْهِ رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي لِبِرِّهِمْ وَلَا يَشْعَقُ وَيَعْقُوبُ مَا كَانَ لَنَا أَنْ شَرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ) « فتیان » ثلثية فتي ؛ وهو من ذوات الباء ، وقولهم : اَلْفَتْشَاذَ . قال وهب وغيره : حمل يوسف إلى السجن مقيدا على حمار ، وطيف به « هذا جزء من بعضي سيدته » وهو يقول : هذا أيسر من مَقَطَّعَاتِ النَّبِرَانِ (١) ، وسراويل القَطْرَانِ ، وشرب الخمر ، وأكل الزقوم ؛ فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قد أقطع رجاؤهم ، واشتد بلاؤهم ؛ فجعل يقول لهم : أصبروا وأبشروا تؤجروا ؛ فقالوا له : يا فتى ! ما أحسن حديثك ! لقد يورك لنا في جوارك ، من أنت يا فتى ؟ قال : أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب ، ابن ذبيح الله إسحق ، ابن خليل الله إبراهيم . وقال ابن عباس : لما قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبراني قد فضضني ، وأنا أريد أن تسجنه ، فسجنه في السجن ؛ فكان يُعْزَى فيه الحزين ، ويعود فيه المريض ، ويدأى فيه الجريح ، ويصل الليل كله ، ويبكي حتى تبكي معه جُدُرُ البيوت وسقفها والأبواب ، وطهر به السجن ، واستأنس به أهل السجن ؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس في السجن .

(١) مقطعات النيران : هي على نحو قوله تعالى : « فطمت لهم ثياب من نار » أي غطيت وسويت وجعلت لبوسا لهم .

مع يوسف ، وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه ، ثم قال : يا يوسف ! لقد أحبتك حباً لم أحب شيئاً حبك ، فقال : أعوذ بالله من حبك ، قال : ولم ذلك ؟ فقال : أحبني أبي ففعل بي إخواني ما فعلوه ، وأحبتي سيدي فقتل بي مائري ، فكان في حبسه حتى غضب الملك على خبازه وصاحب شرابه ، وذلك أن الملك عُمرَ فيهم فملّوه ، فندسوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يسأله جميعاً ، فأجاب الخباز وأبي صاحب الشراب ، فانطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك ، فأمر الملك بهما ، فاستأنسا بيوسف ، فذلك قوله : « وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ » وقد قيل : إن الخباز وضع السم في الطعام ، فلما حضر الطعام قال الساق : أيها الملك ! لا تأكل فإن الطعام مسموم . وقال الخباز : لا تشرب ! فإن الشراب مسموم ، فقال الملك للساق : أشرب ! فشرب فلم يضره ، وقال الخباز : كُلْ ، فأبى ، فجزب الطعام على حيوان فنفق مكانه ، فحبسهما سنة ، وبقي في السجن تلك المدة مع يوسف . وأسم الساق منجا ، والآخ مجلت ، ذكره التعلبي عن كعب . وقال النقاش : اسم أحدهما شرهم ، والآخ سرهم ، الأول بالشين المعجمة ، والآخ بالسين المهملة . وقال الطبري : الذي رأى أنه يعصر نحرهما هو بنوه ، قال السبيل : وذكر اسم الآخ ولم أقيد . وقال فتيان : لأنهما كانا عبيدين ، والعبد يسمى فتى ، صغيراً كان أو كبيراً ، ذكره الماوردي . وقال القشيري : ولعل الفتى كان اسماً للعبد في صرفهم ، ولهذا قال : « تَرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » . ويحتمل أن يكون الفتى اسماً لل خادم وإن لم يكن مملوكاً . ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف أو بعده أو قبله ، غير أنهما دخلا معه البيت الذي كان فيه . « قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَأَيْتُ أُعْصِرُ نَخْرًا » أي عبا ، كان يوسف قال لأهل السجن : إني أصبر الأحلام ، فقال أحد الفتيين لصاحبه : تعال حتى نجرب هذا العبد العبراني ، فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً ، قاله ابن مسعود . وحكى الطبري أنهما سألاه عن علمه فقال : إني أصبر الرؤيا ، فسألاه عن رؤياهما . قال ابن عباس ومجاهد : كانت رؤيا صديق رأياها وسألاه عنها ، ولذلك صديق ناولها . وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ »

حديثاً . وقيل : إنها كانت رؤيا كذب سالا عنها تجريباً ، وهذا قول ابن مسعود والسدي . وقيل : إن المصلوب منهما كان كاذباً ، والآخر صادقاً ، قاله أبو مجلز . وروى الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من تعلم كاذباً كُفِّ يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين [^(١)] ولن يعقد بينهما » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وعن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كذب في حكمة كُفِّ يوم القيامة عقده شعيرة » . قال : حديث حسن . قال ابن عباس : لنا رأيا رؤياهما أصبهما مكروبين ، فقال لهما يوسف : ما لي أراكما مكروبين ؟ قالا : يا سيدنا ! إنا رأينا ما كرهنا ، قال : فقصا علي ، فقصا عليه ، قالا : نبئنا بتأويل ما رأينا ، وهذا يدل على أنها كانت رؤيا منام . (إنا نراك من المحسنين) فأحسانه ما كان يهود المرضى ويدأويهم ، ويُعزّي الحزاني ، قال الضحاك : كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به ، وإذا ضاق وسّع له ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له . وقيل : « من المحسنين » أي العالمين الذين أحسنوا العلم ، قاله الفراء . وقال ابن إسحاق : « من المحسنين » لنا إن قسّمته ، كما تقول : أفضل كذا وأنت عمن . قال : فما رأينا ؟ قال الخياط : رأيت كافي اختبرت في ثلاثة تناخير ، وجعلته في ثلاث سلال ، فوضعت على رأسي ، بلغه الطير فأكل منه . وقال الآخر : رأيت كافي أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض ، فمصرتهن في ثلاث أوان ، ثم صفيته فسقيت الملك كمادق فيا مضى ، فذلك قوله : « إني أراي أعصر نحرًا » أي عنباً ، بلغة عمان ، قاله الضحاك . وقرأ ابن مسعود : « إني أراي أعصر عنبًا » ، وقال الأصمعي : أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابيا ومعه عنب فقال له : ما مأك ؟ قال : نحر . وقيل : معنى « أعصر نحرًا » أي عنب نحر ، فحذف المضاف . ويقال : تخرمة وتخر وتخر وتخر ، مثل تمره وتمر وتخر . قال « لهما يوسف » : (لا يأتيكما طعام

(١) الزيادة عن صحيح الترمذي ، قال شارحه : لما تبعه نظري ظهر لي أن الخبر بما لم يرفعه من الكلام عقدًا ، فإلا لم يشعر به أي لم يلمسه . فقيل له أعقد بين شعيرتين ولا يعقد له ذلك أبداً ، عقدة لعقد بين كلمتين لم يكن منها شيء ، فتكون العقدة من جنس الحبسة .

تَرْزُقَانِهِ) يعني لا يجهنكما غذا. طعام من متركا (إِلَّا نَبَاتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ) تعلمنا أني أعلم تأويل رؤياكما ، فقلنا : أفعل ! فقال لهما : يجهنكما كذا وكذا ، فكان على ما قال ؛ وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف . وبين أن الله خصه بهذا العلم لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، يعني دين الملك . ومعنى الكلام عندى : العلم بتأويل رؤياكما ، والعلم بما يأتينكما من طعامكما والعلم بدين الله ، فاسمعوا أولا ما يتعلق بالدين لتتسبوا ، ولهذا لم يصر لهما حتى دماهما إلى الإسلام ، فقال : « يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَأَيْتَ مَتَفَرَّقُونَ شَيْعَرًا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ » الآية كلها ، على ما يأتى . وقيل : علم أن أحدهما مقتول فدماهما إلى الإسلام ليستعدا به . وقيل : إن يوسف كره أن يبر لهما ما سلاه لما علمه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما ، وأخذ في ضيره فقال : « لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تَرْزُقَانِهِ » في النوم (إِلَّا نَبَاتُكُمَا) بتفسيره في اليقظة ، قاله السدى ، فقلنا له : هذا من فعل العزافين والكهنة ، فقال لهما يوسف عليه السلام : ما أنا بكاهن ، وإنما ذلك مما عظمي به ربى ، إنى لا أخبركما به تكهنا وتنجيا ، بل هو بوحى من الله عز وجل . وقال ابن جرير : كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما معروفا فأرسل به إليه ، فالمنى : لا يأتينكما طعام تَرْزُقَانِهِ في اليقظة ، فعلى هذا « تَرْزُقَانِهِ » أى يجرى عليكما من جهة الملك أو ضيره . ويحتمل يرزقكما الله . قال الحسن : كان يضربهما بما غاب ، كيمى عليه السلام . وقيل : إنما دماهما بذلك إلى الإسلام ، وجعل المعجزة التى يستدلان بها إخبارهما بالغيوب .

قوله تعالى : (وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) لأنهم أنبياء على الحق . (مَا كَانَ) أى ما يبنى . (لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) « مِنْ » للتأكيد ، كقوله : ما جاءنى من أحد . وقوله تعالى : (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا) إشارة إلى عصمته من الزنى . (وَعَلَى النَّاسِ) أى على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك . وقيل : « ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا » إذ جعلنا أنبياء ، « وَعَلَى النَّاسِ » إذ جعلنا الرسل إليهم . (وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) على نعمه بالتوحيد والإيمان .

قوله تعالى : **يَصَلِحِي السِّجْنَ** أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٠﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : **(يَصَلِحِي السِّجْنَ)** أى يماسكنى السجن ؛ وذكر الصلحة لطول مقامهما فيه ، كقولك : أصحاب الجنة ، وأصحاب النار . **(أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ)** أى فى الصغر والكبر والتوسط ، أو متفرقون فى العدد . **(خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)** وقيل : الخطاب لما ولأهل السجن ، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله تعالى ، فقال ذلك إلزاما للصحة ؛ أى آلهة شتى لا تضر ولا تنفع «خير أَمْ الله الواحد القهار» الذى قهر كل شئ . نظيره «الله خير مما يُشْرَكُونَ» . وقيل : أشار بالفرق إلى أنه لو تعدد الإله لتفرقوا فى الإرادة ولعلنا بعضهم على بعض ، وبين أنها إذا تفرقت لم تكن آلهة .

قوله تعالى : **(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ)** بين عجز الأصنام وضعفها فقال : «ما تعبدون من دونه» أى من دون الله إلا ذوات أسماء لا معانى لها . **(سَمِيْتُمُوهَا)** من تلقاء أنفسكم . وقيل : غنى بالأسماء المسميات ؛ أى ما تعبدون إلا أصناما ليس لها من الإلهية شئ إلا الاسم ؛ لأنها جادات . وقال : «ما تعبدون» وقد ابتدأ بخطاب الاثنين ؛ لأنه قصد جميع من هو على مثل حالهما من الشرك . **(إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ)** حذف المفعول الثانى للدلالة ؛ والمعنى : سميتموها آلهة من عند أنفسكم . **(مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)** ذلك فى كتاب . قال سعيد بن جبیر : **(مِنْ سُلْطَانٍ)** أى من حجة . **(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)** الذى هو خالق الكل . **(أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)** . **(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)** . أى القويم . **(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)** .

قوله تعالى : **يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ نَحْرًا**
وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ
تَسْتَفْتِيَانِ ﴿١١﴾

فيه مستطان :

الأولى - قوله تعالى : **(أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ نَحْرًا)** أى قال للساق : إنك تزد على عملك الذى كنت عليه من سقى الملك بعد ثلاثة أيام ، وقال لآخر : وأما أنت فتدعى إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك ، قال : والله ما رأيت شيئا ؛ قال : رأيت أو لم تر **(قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)** . وحكى أهل اللغة أن سقى وأسقى لغتان بمعنى واحد ، كما قال الشاعر ^(١) :

سَقَى قَوْمِي نَبِيَّ مَجْدٍ وَأَسْقَى * مُسَيَّرًا وَالْقِبَائِلَ مِنْ هَلَالِ

قال النحاس : الذى عليه أكثر أهل اللغة أن معنى سقاء ناوله فشرب ، أو صَبَّ الماء في حلقه ، ومعنى أسقاه جعل له سقيا ؛ قال الله تعالى : **« وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً قَرَارًا »** .

الثانية - قال علماءنا : إن قيل من كذب في رؤياه ففسرها العاقل به أيلزمه حكمها؟ قلنا : لا يلزمه ؛ وإنما كان ذلك في يوسف لأنه نبي ، وتعبير النبي حكم ، وقد قال : إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعالى ما أخبر كما قال تحقيقا لنبوته ؛ فإن قيل : فقد روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إني رأيت كأنى أعشبت ثم أعشبت ثم أعشبت ثم أجذبت ، فقال له عمر : أنت رجل تؤمن ثم تكفر ، ثم تؤمن ثم تكفر ، ثم تموت كافرا ؛ فقال الرجل : ما رأيت شيئا ؛ فقال له عمر : قد قُضِيَ لك ما قُضِيَ لصاحب يوسف ؛ قلنا : ليست لأحد بعد عمر ؛ لأن عمر كان محدثا ، وإذا تكلم به وقع ،

(١) هوليذ ؛ ومجد : ابنة تيم بن غالب بن فهر ، وهى أم كلاب وكليب بن ربيعة . وقاعل سق هو المخر .

(٢) محدث : ملهم ، أو يلقى في روعه الشيء ، أو يجري الصواب على لسانه من غير قصد . (القسطلاني) .

على ما ورد في أخباره ؛ وهي كثيرة ؛ منها — أنه دخل عليه رجل فقال له : أظنك كاهنًا فكان كما ظن ؛ خرج به البخاري . ومنها — أنه سأل رجلًا عن اسمه فقال له أسماء فيها النار كلها ، فقال له : أدرك أهلك فقد أحترقوا ، فكان كما قال ، خرج به الموطأ . وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الحجر» ^(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ
فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٢٥﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ) «ظن» هنا بمعنى أيقن ، في قول أكثر المفسرين . وفسره قتادة على الظن الذي هو خلاف اليقين ؛ قال : إنما ظن يوسف نجاته لأن العابر يظن ظنًا وركب يخلق ما يشاء ؛ والأول أصح وأشبه بحال الأنبياء ، وأن ما قاله للفتيين في تعبير الرؤيا كان عن وحى ، وإنما يكون ظنًا في حكم الناس ، وأما في حق الأنبياء فإن حكمهم حق كيفما وقع .

الثانية — قوله تعالى : (اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) أى سيذك ، وذلك معروف في اللغة أن يقال للسيد رب ؛ قال الأعشى :

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يُكَدِّرُ نِعْمَةً * وَإِذَا تَنَوَّضْتُ فِي الْمَهَارِقِ أَتَشَدَّا ^(٢)

أى أذكركم رأيت ، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للذك ، وأخبره أنى مظلوم محبوس بلا ذنب . وفى صحيح مسلم وفيه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَقْلُ أَحَدُكُمْ أَمَقِي رَبِّكَ أَطْعَمَ رَبُّكَ وَضَوَّ رَبُّكَ وَلَا يَقْلُ أَحَدُكُمْ رَبِّي وَلِيَقْلُ سَيِّدِي مَوْلَايَ وَلَا يَقْلُ أَحَدُكُمْ عِبْدِي أَمَتِي وَلِيَقْلُ قَتَايَ قَتَايَ غَلَامِي » . وفى القرآن : « اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ » إلى

(١) في تفسير قوله تعالى : « إن في ذلك لآيات لقوم يعين » آية ٧٥ .

(٢) ويرى (ينشد بالمهاريق) يقول : إذا تَوَضَّعَ بما في الكتب أجاب ؛ أى إذا سئل أصلى . والمهريق : الصحيفة .

رَبِّكَ «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» أَيْ صَاحِبِي ، بِمَعْنَى الْعَزِيزِ . وَيُقَالُ لِكُلِّ مَنْ قَامَ بِإِصْلَاحِ شَيْءٍ وَاتِّمَامِهِ قَدْ رُبَّهَ يَرْبِيهِ ، فَهُوَ رَبٌّ لَهُ . قَالَ الْعُلَمَاءُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «لَا يَقُلُ أَحَدُكُمْ» «وَلْيَقُلْ» مِنْ بَابِ الْإِشْرَادِ إِلَى إِطْلَاقِ اسْمِ الْأَوَّلَى ؛ لِأَنَّهُ إِطْلَاقُ ذَلِكَ الْاسْمِ مُحَرَّمٌ ، وَلِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ «أَنَّ تِلَا الْأُمَّةُ رَبُّهَا» أَيْ مَالِكُهَا وَسَيِّدُهَا ، وَهَذَا مُوَافِقٌ لِلْقُرْآنِ فِي إِطْلَاقِ ذَلِكَ اللَّفْظِ ؛ فَكَانَ مَحَلُّ النِّهْيِ فِي هَذَا الْبَابِ أَلَّا تَتَّخِذَ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ عَادَةً فَتُتْرَكَ الْأَوَّلَى وَالْأَحْسَنُ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ قَوْلَ الرَّجُلِ عَبْدِي وَأُمِّي يَجْمَعُ مَعْنَيْنِ : أَحَدُهُمَا — أَنَّ الْعَبْدِيَّةَ بِالْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هِيَ لِلَّهِ تَعَالَى ؛ فَفِي قَوْلِ الْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ لِمُلُوكِهِ عَبْدِي وَأُمِّي تَعْظِيمٌ عَلَيْهِ ، وَإِضَافَةٌ لَهُ إِلَى نَفْسِهِ بِمَا أَضَافَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ إِلَى نَفْسِهِ ؛ وَذَلِكَ خَيْرٌ جَائِزٌ . وَالثَّانِي — أَنَّ الْمُلُوكَ يَدْخُلُهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فِي آسْتِصْغَارِهِ بِتِلْكَ التَّسْمِيَةِ ، فَيَحْمِلُهُ ذَلِكَ عَلَى سُوءِ الطَّاعَةِ . وَقَالَ ابْنُ شُبَّانٍ فِي «الزَّاهِي» «لَا يَقُلُ السَّيِّدُ عَبْدِي وَأُمِّي وَلَا يَقُلُ الْمُلُوكُ رَبِّي وَلَا رَبِّي» وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ . وَقِيلَ : إِنَّمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا يَقُلُ الْعَبْدُ رَبِّي وَلْيَقُلْ سَيِّدِي» لِأَنَّ الرَّبَّ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُسْتَعْمَلَةِ بِالِاتِّفَاقِ ؛ وَأَخْتَلَفَ فِي السَّيِّدِ هَلْ هُوَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَمْ لَا ؟ فَإِذَا قُلْنَا لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ فَالْفَرْقُ وَاضِعٌ ؛ إِذْ لَا التَّبَاسُ وَلَا إِشْكَالٌ ، وَإِذَا قُلْنَا إِنَّهُ مِنْ أَسْمَاءِهِ فَلَيْسَ فِي الشُّهُورَةِ وَلَا الْإِسْتِمَالِ كَلْفُظُ الرَّبِّ ؛ لِيَحْصَلَ الْفَرْقُ . وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ جَائِزًا فِي شَرْعِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

الثَّالِثَةُ — قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) الضَّمِيرُ فِي «فَأَنسَاهُ» فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا — أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَيْ أَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ اللَّهِ عَنْهُ وَجَلَّ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ يُوسُفَ لِسَاقِ الْمَلِكِ — حِينَ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَنْجُو وَيَعُودُ إِلَى حَالَتِهِ الْأَوَّلَى مَعَ الْمَلِكِ — «أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ» نَسِيَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ أَنْ يَشْكُرَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغِيثَ بِهِ ، وَجَنَحَ إِلَى الْإِعْتِمَادِ بِمَخْلُوقٍ ؛ فَعُوقِبَ بِاللَّبْثِ . قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عُمَرَ الْيَكْنَدِيُّ : دَخَلَ جَبْرِيلُ عَلَى يُوسُفَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّجْنِ فَعَرَفَهُ يُوسُفَ ، فَقَالَ : يَا أَخَا الْمُنْذَرِينَ ! يَهْرُوكَ مَا لِي أَرَاكَ بَيْنَ الْخَلَاطَيْنِ ؟ ! فَقَالَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا طَاهِرَ الطَّاهِرِينَ ! يَهْرُوكَ

السلام رب العالمين ويقول : أما استجيت إذ استغثت بالأنبياء ؟ ! وعزتي ! لأبليتك في السجن بضع سنين ، فقال : يا جبريل ! أهو عني راض ؟ قال : نعم ! قال : لا أبالي الساعة . وروى أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى في ذلك وطول سجنه ، وقال له : يا يوسف ! من خلصك من القتل من أيدي إخوانك ؟ ! قال : الله تعالى ، قال : فمن أخرجك من الحب ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن عصمك من الفاحشة ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف وثقت بمخلوق وترك ربك فلم تسأله ؟ ! قال : يا رب كلمة زلت مني ! أسألك بالله إبراهيم وإسحق والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمي ، فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين . وروى أبو سامة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قال " أذكرني عند ربك " ما لبث في السجن بضع سنين " ، وقال ابن عباس : عوقب يوسف بطول الحبس بضع سنين لما قال للذي نجا منهما " أذكرني عند ربك " ولو ذكر يوسف ربه لخلصه . وروى إسماعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا كلمة يوسف — يعني قوله " أذكرني عند ربك " — ما لبث في السجن ما لبث " قال : ثم يبكي الحسن ويقول : نحن ينزل بنا الأمر فلنشكو إلى الناس . وقيل : إن الهاء تعود على التاجي ، فهو الناسي ؛ أي أنسى الشيطان السابق أن يذكر يوسف ربه ، أي لسيده ، وفيه حذف ، أي أنساه الشيطان ذكره لربه ؛ وقد رجع بعض العلماء هذا القول فقال : لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لما استحق العقاب باللبث في السجن ؛ إذ الناسي غير مؤاخذ . وأجاب أهل القول الأول بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك ، فلما ترك ذكر الله ودماء الشيطان إلى ذلك عوقب ؛ رد عليهم أهل القول الثاني بقوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَآذَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » فدل على أن الناسي السابق لا يوسف ؛ مع قوله تعالى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان ، وليس له على الأنبياء سلطنة ؟ ! قيل : أما

النسيان فلا عصمة للأنبيا عنه إلا في وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبتلون به، فإنهم معصومون فيه؛ وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقاً، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم؛ قال صلى الله عليه وسلم: "نسى آدم فلسيت ذريته". وقال: "إنما أنا بشر أنسى كما تنسون". وقد تقدم.

الرابعة - قوله تعالى: ((فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِتِينَ)) البضع قطعة من الدهر تختلف فيها؛ قال يعقوب عن ابن زيد: يقال بَضْعٌ وبَضْعٌ بفتح الباء وكسرهما، قال أكثرهم: ولا يقال بضع ومائة، وإنما هو إلى التسعين. وقال المروى: العرب تستعمل البضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبضع والبضعة واحد، ومعناها القطعة من العدد. وحكى أبو عبيدة أنه قال: البضع مادون نصف العقد، يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: "وكم البضع" فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: "أذهب فزائد في الخطر"^(١). وعلى هذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الثعلبي. قال الماوردي: وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقطرب. وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع، وقاله الأصمعي. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفراء: والبضع لا يُذكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المائة. وفي المسند التي لبث فيها يوسف مسجوناً ثلاثة أقاليل: أحدها - سبع سنين، قاله ابن جرير وقادة وهوب بن مُنبّه، قال وهب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين. الثاني - أثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس. الثالث - أربع عشرة

(١) انظر (بالبحريك): الزمن والحظ. والحديث في شأن مراعاة أبي بكر رضي الله عنه لفريش على غلبة الروم؛ وكان المسلمون يحبون غلبة الروم على فارس، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وكانت فريش لا تحب ذلك، لأنهم وفارس ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان بيعت، وقد جعل أبو بكر الأجل بينه وبينهم ست سنين على رواية، وثلاث سنين على أخرى، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أذهب فزائد في الخطر وما دد في الأجل"، وكان ذلك قبل تحريم الزمان. راجع صحيح الترمذي في تفسير قوله تعالى: «كَمْ غَلَبَتِ الرُّومَ ...» الآية.

سنة، قاله الضحاك . وقال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس قال : مكث يوسف في السجن نحسا وبضما . وأشتاقه من بضعت الشيء أى قطعته، فهو قطعة من العدد ، فعاقب الله يوسف بأن حُيس سبع سنين أو تسع سنين بعد الخمس التى مضت، فالبضع مدة العقوبة لامة الحبس كله . قال وهب ابن منبه : حبس يوسف في السجن سبع سنين، ومكث أيوب في البلاء سبع سنين، وعُذِبَ بِمُتَصَرِّ الْمَسْخِ سَبْعَ سِنِينَ . وقال عبدالله بن راشد البصرى عن سعيد بن أبى عمرو : إن البضع ما بين الخمس إلى الاثنتى عشرة سنة .

الخامسة - في هذه الآية دليل على جواز التعاقب بالأسباب وإن كان اليقين حاصلًا، فإن الأمور بيد مُسَبِّهَا، ولكنه جعلها سلسلة، ورُكِبَ بعضها على بعض، فصحريكها سنة، والتحويل على المنتهى يقين . والذي يدل على جواز ذلك نسبة ما جرى من اللسان إلى الشيطان كما جرى لموسى في لقيا الخضر، وهنا بين فتأملوه .

قوله تعالى : وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عَجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيَهَا أَلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ) لما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه، فترل جبريل فسلم على يوسف وبشّره بالفرج وقال : إن الله مخرجك من سجنك، وممكن لك في الأرض، بذل لك ملوكها، ويطيعك جبارتها، ومعطيك الكلمة العليا على اخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهى كيت وكيت، وتأويلها كذا وكذا، فإلبث في السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أولا ليوسف بلاء وشدة، وجعلها آخرًا بشرى ورحمة، وذلك أن الملك الأكبر الرّيان بن الوليد رأى في نومه كأنما خرج من نهر يابس سبعُ بقراتٍ سِمَانٍ ، فى أفرق سبْعٍ عَجَافٍ - أى مهازيل - وقد أقبلت العجاف على السّمان فأخذن بأذانهن فأكلنهن، إلا القرنين، ورأى سبع سنبلات خُضْرٍ قد أقبل

عليهن سبع يابسات فأكلتهن حتى أتين طليهن فلم يبق منهن شيء وهن يابسات، وكذلك البقر كنَّ عجافاً فلم يزد فيهن شيء من أكلهن السَّمان، فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكهانة والتَّجامة والعرافة والسَّحر، وأشرف قومه، فقال: «يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَفْئُوتِي فِي رُؤْيَايَ» فقص عليهم، فقال القوم: «أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ» قال ابن جُرَيْج قال لى عطاء: إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا. وقال جُوَيْر عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن الرؤيا منها حق، ومنها أضغاث أحلام، يعنى بها الكاذبة. وقال المروى: قوله تعالى «أضغاث أحلام» أى أخلاط أحلام. والضَّغْثُ فى اللغة الحُزْمَةُ من الشيء كالقبل والكلأ وما أشبههما، أى قالوا: ليست رؤياك بيّنة، والأحلام الرؤيا المختلطة. وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا أهاويلها. وقال أبو عبيدة: الأضغاث مالا تأويل له من الرؤيا.

قوله تعالى: (سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ) حذفت الهاء من «سبع» فرقا بين المذكر والمؤنث. «سمان» من نعت البقرات، ويعموز فى غير القرآن سبع بقرات سماناً، نعت للسبع، وكذا حُضْرًا، قال الفراء: ومثله «سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا». وقد مضى فى سورة «البقرة»^(١) اشتقاقها ومعناها. وقال طيِّب بن أبى طالب رضى الله عنه: المِعِز والبقر إذا دخلت المدينة فإن كانت سماناً فهى سِنَى رخاء، وإن كانت عجافاً كانت شداداً، وإن كانت المدينة مدينة بحر وإبان سفر قدمت سفن على عددها وحالها، وإلا كانت فِتْنَةً مترادفة، كأنها وجوه البقر، كما فى الخبر «يشبه بعضها بعضاً». وفى خبر آخر فى الفتن «كأنها صياحى البقر»^(٢) يريد لتشابهها، إلا أن تكون صُفْرًا كلها فإنها أمراض تدخل على الناس، وإن كانت مختلفة الألوان، شبيعة القرون وكان الناس ينفرون منها، أو كأن النار والدخان يخرج من أفواهها فإنه عسكر أو غارة، أو عدو يضرب طليهم، ويتزل بساحتهم. وقد تدل البقرة على الزوجة والخدم والغلة والسنة؛ لما يكون فيها من الولد والغلة والنبات. (يَا أَكْلَهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ) من عَجَفَ يَعْجَفُ، على وزن عَظُمَ يَعْظُمُ، وروى عَجَفَ يَعْجَفُ على وزن حَمِدَ يَحْمَدُ.

(١) راجع ج ١ ص ٢١٦ طبعة ثانية أو ثالثة. (٢) صياحى البقر: قرونها.

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَفْئُونِي فِي رُؤْيَايَ) جمع الرؤيا رُؤْيَى ، أى أخبرونى بحكم هذه الرؤيا . (إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) العبارة مشتقة من عبور النهر ، بمعنى صَبَرَت النهر ، بلغت شاطئه ، فعابر الرؤيا يعبر بما يؤول إليه أمرها . واللام فى « للرؤيا » للتبيين ، أى إن كنتم تعبرون ، ثم بين فقال : للرؤيا ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾

فيه مستثنان :

الأولى — قوله تعالى : (أَضْغَتْ) قال الفراء : ويحوز « أضغاث أحلام » قال النحاس : النصب بعيد ، لأن المعنى : لم تر شيئا له تأويل ، إنما هى أضغاث أحلام ، أى أخلاط . وواحد الأضغاث ضِغْث ، يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ضِغْث ، قال الشاعر :

• كَضِغْثِ حُلْمٍ غَرَّ مِنْهُ حَالِمُهُ •

قوله تعالى : (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ) قال الزجاج : المعنى بتأويل الأحلام المختلطة ، نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له ، لا أنهم نفوا عن أنفسهم علم التأويل . وقيل : نفوا عن أنفسهم علم التعبير . والأضغاث على هذا الجماعات من الرؤيا التى منها صحيحة ومنها باطلة ، ولهذا قال الساقى : « أَنَا أَتَبَيَّنُّكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » فعلم أن القوم عجزوا عن التأويل ، لا أنهم أذعوا ألا تأويل لها . وقيل : إنهم لم يقصدوا تفسيرها ، وإنما أرادوا معوجها من صدر الملك حتى لا تشغل باله ، وعلى هذا أيضا فعندهم علم . و « الأحلام » جمع حُلْم ، والحلم بالضم ما يراه النائم ، تقول منه حَلَمَ بالفتح وأَحْلَمَ ، وتقول : حَلَمْتُ بكنا وسَهَمْتُهُ ، قال :

فَحَلَمْتُهَا وَبَنُو رَيْدَةَ دُونَهَا • لَا يَبْعَدَنَّ خِيَالُهَا الْحُلُومَ

وأصله الأناة ، ومنه الحِلْمُ ضد الطيش ؛ فليل لما يرى فى النوم حُلْمَ لأن النوم حالة أناة وسكون ودعة .

(١) رَيْدَةَ : أبوسى من العرب ، يقال لم الرفيدات ؛ كما يقال لآل هيرة الهيرات . اللسان .

الثانية - في الآية دليل على بطلان قول من يقول : إن الرؤيا على أول ما تعبر ، لأن القوم قالوا : « أضغاث أحلام » ولم تقع كذلك ؛ فإن يوسف فسر ما على سنى الجذب وانخصب ، فكان كما عبر ؛ وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر ، فإذا صيرت وقعت .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٢٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا) يعني ساقى الملك . « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » أى بعد حين ، عن ابن عباس وغيره ؛ ومنه « إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » وأصله الجملة من الحين . وقال ابن درستويه : ^(١) والأمة لا تكون الحين إلا على حذف مضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، كأنه قال - والله أعلم - : وادكر بعد حين أمة ، أو بعد زمن أمة ، وما أشبه ذلك ؛ والأمة الجماعة الكثيرة من الناس . قال الأخفش : هو في اللفظ واحد ، وفي المعنى جمع ؛ وكل جنس من الحيوان أمة ؛ وفي الحديث : « لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها » .

قوله تعالى : (وَادَّكَرَ) أى تذكر حاجة يوسف ، وهو قوله : « أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ » . وقرأ ابن عباس - فيما روى عفاً عن همام عن قتادة عن عكرمة عنه - « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » . النحاس : والمعروف من قراءة ابن عباس وعكرمة والضحاك « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » ، بفتح المعزة وتخفيف الميم ؛ أى بعد نسيان ؛ قال الشاعر :

أَيَّمْتُ وَكُنْتُ لَا أُنْسَى حَدِيثًا • كَذَاكَ الدَّهْرُ يُودِي بِالْعُقُولِ

وعن شُبَيْلِ بْنِ عَزْرَةَ الضَّبَّيِّ « بَعْدَ أُمَّةٍ » بفتح الألف وإسكان الميم وهما خالصة ؛ وهو مثل الأمة ، وهما لغتان ، ومعناها النسيان ؛ ويقال : أُمَّة يَأْمُهُ أُمَّهَذَا إِذَا نَسِيَ ؛ فعلى هذا

(١) هو عبد الله بن جعفر بن درستويه (بضم الدال والراء) وضبطه ابن ماكولا (بفتحهما) .

«وَأَذْكُرْ بَعْدَ أَمْرِ» ؛ ذكره النحاس ؛ ورجل أمه ذاهب العقل . قال الجوهري : وأما ما في حديث الزهري «أمه» بمعنى أقز وأعترف فهي لغة غير مشهورة . وقرأ الأزهري العُقبَل — «بَعْدَ أَمْرٍ» أى بعد نعمة ؛ أى بعد أن أنعم الله عليه بالنجاة . ثم قيل : نسي النقي يوسف لقضاء الله تعالى في بقاءه في السجن مدة . وقيل : ما نسي ، ولكنه خاف أن يذكر الملك الذنب الذى بسببه حبس هو وانحسار ؛ فقوله : «وَأَذْكُرْ» أى ذكر وأخبر . قال النحاس : أصل أَذْكُرْ أَذْكُرْ ؛ والذال قريبة المخرج من التاء ؛ ولم يجوز إدغامها فيها لأن الذال مجهورة ، والتاء مهموسة ، فلو أذغموا ذهب الجر ، فأبدلوا من موضع التاء حرفا مجهورا وهو الدال ؛ وكان أولى من الطاء لأن الطاء مطبقة ؛ فصار أَذْكُرْ ، فأذغموا الذال في الدال لرخاوة الدال ولينها ؛ ثم قال : (أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ) أى أنا أخبركم . وقرأ الحسن «أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ» وقال : كيف ينبئهم العليج ؟ ! قال النحاس : ومعنى «أَنْبِئُكُمْ» صحيح حسن ؛ أى أنا أخبركم إذا سَأَلْتُ . (فَأَرْسَلُونَا) خاطب الملك ولكن بلفظ التعظيم ، أو خاطب الملك وأهل مجلسه . (يُوسُفُ) نداء مفرد ، وكذا (الصَّدِيقُ) أى الكثير الصدق . (أَقَيْنَا) أى فارسوه ؛ بقاءه إلى يوسف فقال : أيها الصديق ! وسأله عن رؤيا الملك . «لَعَلَّ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ» أى إلى الملك وأصحابه . (لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) التعبير ، أو «لعلهم يعلمون» مكانك من الفضل والعلم فتخرج . ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيما له .

قوله تعالى : قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَائِمًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : (قَالَ تَزْرَعُونَ) لما أعلمه بالرؤيا جعل يفسرها له ، فقال : السبع من البقرات السمان والسبلات الخضر سبع سنين غصبات ؛ وأما البقرات الجفاف

والسبيلات اليابسات فسبع سنين مجذبات ؛ فذلك قوله : « تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا » أى متوالية متتابعة ؛ وهو مصدر على غير المصدر ، لأن معنى « تزرعون » تدأبون كعادتكم فى الزراعة سبع سنين . وقيل : هو حال ؛ أى دائنين . وقيل : صفة لسبع سنين ؛ أى دائبة . وحكى أبو حاتم عن يعقوب « دأبًا » بتحريك الهمزة ؛ وكذا روى حفص عن عاصم ، وهما لفتان^(١) ، وفيه قولان قول أبى حاتم : إنه من دَئِب . قال النحاس : ولا يعرف أهل اللغة إلا دَأَب . والقول الآخر — إنه حُرِّكَ لأن فيه حرفا من حروف الخلق ؛ قاله الفراء ، قال : وكذلك كل حرف فُتِحَ أوله وسكن ثانيه فتثقله جائزا إذا كان ثانيه همزة ، أو هاء ، أو عينا ، أو غينا ، أو خاء ، أو واء ؛ وأصله العادة ؛ قال^(٢) :

• كَدَأَبِكَ مِنْ أُمِّ الْخَوَيْرِثِ قَبْلَهَا •

وقد مضى فى « آل عمران » القول فيه . « فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبِيلِهِ » قيل : لئلا يسوس ، وليكون أبقي ؛ وهكذا الأمر فى ديار مصر . « إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ » أى استخرجوا مما تحتاجون إليه بقدر الحاجة ؛ وهذا القول منه أمر ، والأول خبر . ويحتمل أن يكون الأول أيضا أمرا ، وإن كان الأظهر منه الخبر ؛ فيكون المعنى : « تزرعون » أى أزرعوا .

الثانية — هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال ؛ فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يُفُوت شيئا منها فهو مفسدة ، ودفعه مصلحة ؛ ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ؛ ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصليتين إلى السعادة الأخرية ، ومرعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده ، من غير وجوب عليه ، ولا استحقاق ؛ هذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين ؛ وبسطه فى أصول الفقه .

(١) الفتان « دأبا » بجرىك الهمزة و « دأبا » بكونها وهى قراءة الجمهور من السبعة كما فى تفسير ابن عطية .

(٢) هو أمرؤ القيس ؛ وتعام البيت : • وجارتها أم الرباب بماسل •

(٣) راجع ج ٤ ص ٢٢ وما بعدها طبة أول أو ثانية .

قوله تعالى : ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٢٦﴾

فيه مستلذان :

الأولى — قوله تعالى : (سَبْعٌ شِدَادٌ) يعنى السَّتين المَجدبات . (يَأْكُلْنَ) مجاز ، والمعنى يأكل أهلهن . (مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ) أى ما أَدْنَرْتُمْ لِأَجْلِهِنَّ ؛ ونحوه قول القائل : نهارك يا مغرور سهوٌ و غفلةٌ * وَلَيْلَكَ نومٌ والرَّدَى لك لازمٌ

والنهار لا يسهو ، واللَّيل لا ينام ؛ وإنما يُسْهِى فى النهار ، ويُنام فى الليل . وحكى زيد ابن أسلم عن أبيه : أن يوسف كان يضع طعام الاثنين فيقرِّبه إلى رجل واحد فإى كل بعضه ، حتى إذا كان يومٌ قرِّبه له فأكله كله ؛ فقال يوسف : هذا أوَّل يوم من السَّبع الشِّداد . (إِلَّا قَلِيلًا) نصب على الاستثناء . (مِمَّا تَحْصِنُونَ) أى مما تحبسون لترعوا ؛ لأن فى استبقاء البذر تحصين الأقوات . وقال أبو عبيدة : تحززون . وقال قتادة : « تحصنون » تدخرون ، والمعنى واحد ؛ وهو يدلُّ على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة .

الثانية — هذه الآية أصل فى صحة رؤيا الكافر ، وأنها تُخْرِج على حسب ما رأى ، لا سيما إذا تعلقت بمؤمن ؛ فكيف إذا كانت آية لنبيٍّ ، ومعجزة لرسول ، وتصديقاً لمصطفى التبليغ ، وحجة للواسطة بين الله — جل جلاله — وعباده .

قوله تعالى : ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عِلْمٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عِلْمٌ) هذا خبر من يوسف عليه السلام عما لم يكن فى رؤيا الملك ، ولكنه من علم الغيب الذى آتاه الله . قال قتادة : زاده الله عِلْمَ سَنَةٍ لم يسأله

عنها إظهارا لفضله ، وإعلاما لمكانه من العلم ومعرفته . (فِيهِ يَفْأُتُ النَّاسُ) من الإفاضة أو النوث ؛ غَوَتْ الرجل قال وأغواه ، والأسم النوثُ والنُوث والغَوَاتُ ؛ واستغاثني فلان فأغثته ، والأسم الغياث ؛ صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها . والنيث المطر ؛ وقد غاث الغيث الأرض أى أصابها ؛ واث الله البلادَ ينيثها غيثا ، ويغيث الأرضُ تُغاثُ غيثا ، فهي أرض مَغيثة ومغيوثه ؛ بمعنى « يفاث الناس » يُمطرون . (وَفِيهِ يَمُصُّونَ) قال ابن عباس : يمصرون الأعناب واللبن ؛ ذكره البخارى . وروى حجاج عن ابن جريح قال : يمصرون العنب نخرا والسَّمسم دُهنًا ، والزيتون زيتا . وقيل : أراد حلب الألبان لكثرتها ؛ ويدل ذلك على كثرة النبات . وقيل : « يمصرون » أى يَتَجُون ؛ وهو من العَصْر ، وهى المتجاة . قال أبو عبيدة : والعصر بالتحريك المتجأ والمتجاة ، وكذلك العَصْر ؛ قال أبو زيد ^(١) :

صَادِيًا يَسْتَفِيثُ غَيْرَ مُفَاثٍ * وَلَقَدْ كَانَ عَصْرَ الْمُتَجَوِّدِ

والمُتَجَوِّدُ الفَزَع . واعتصرتُ بفلان وتَمَصَّرْتُ أى التجأت إليه . قال أبو النوث : « يَمُصُّونَ » يَسْتَفِيثُونَ ؛ وهو من عصر العنب . واعتصرت ما له أى استخرجته من يده . وقرأ عيسى « تَمُصُّونَ » بضم التاء وفتح الصاد ، ومعناه : تُمَطَّرُونَ ؛ من قوله : « وَأَزَلَّنا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً تَجَاجًا » وكذلك معنى « تَمُصُّونَ » بضم التاء وكسر الصاد ، فيمن قرأه كذلك .

قوله تعالى : وَقَالَ أَلَمَلِكُ أُنْتُنِي بِهِ قَلْبًا جَاءَهُ أَرْسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلَّهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿١٢٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْأُنْتَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢١﴾

(١) قاله فى رثاء ابن أخته وكان مات عطشا فى طريق مكة .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيهِ﴾ أى فذهب الرسول فأخبر الملك، فقال: آتوني به. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ أى يأمره بالخروج قال: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَأَسْأَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ أى حال النسوة. ﴿الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْسِهِنَّ﴾ فأبى أن يخرج إلا أن تصح براءته لملك مما قيد به، وأنه حبس بلا جرم. روى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم [ابن الكريم]^(١) يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم — قال — ولو لبثت في السجن ما لبثت ثم جاءنى الرسول أجبت — ثم قرأ — « فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيسهن » — قال — ورحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد [إذ قال « لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد^(٢)] لما بعث الله من بعده نبيا إلا في ذروة من قومه". وروى البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له «أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمنن قلبي»" وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يرحم الله أنس يوسف لقد كان صابرا حلما ولو لبثت في السجن ما لبثته أجبت الداعى ولم أتمس العذر". وروى نحوه هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك، في كتاب التفسير من صحيح البخارى، وليس لأبى القاسم في الديوان غيره. وفي رواية الطبري "يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلى نخرجت مريعا أن كان حلما ذا أناة". وقال صلى الله عليه وسلم: "لقد عجبتم من يوسف وصبره وكرمه والله ينفرله حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى ولقد عجبتم منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب". قال أبى عطية: كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبرا، وطلب لبراءة الساحة؛ وذلك أنه — فيما روى — خشى أن يخرج وينال من الملك

(١) الزيادة من صحيح الترمذى . (٢) الزيادة عن صحيح الترمذى .

(٣) الحديث في تفسير الطبري يختلف في اللفظ عما هنا .

مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحا فيراه الناس بتلك العين أبدا ويقولون : هذا الذي راود امرأة مولاة ؛ فأراد يوسف عليه السلام أن يبين براءته ، ويحقق مثله من العفة والخير ؛ وحينئذ يخرج للأحطاء والمنزلة ؛ فلهمذا قال للرسول : أرجع إلى ربك وقل له ما بال النسوة ، ومقصود يوسف عليه السلام إنما كان : وقل له يستقصي عن ذنبي ، وينظر في أمري هل مجتنب بحق أو بظلم ؛ ونكّب عن امرأة العزيز حُسن عشرة ، ورعاية لزمام الملك العزيز له .

فإن قيل : كيف مدح النبي صلى الله عليه وسلم يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج ، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ؟ فالجواب في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأي ، له جهة أيضا من الجوده ؛ يقول : لو كنت أنا لبادرت بالخروج ، ثم حاولت بيان صغرى بعد ذلك ؛ وذلك أن هذه القصص والتوازل هي معرّضة لأن يقتدى الناس بها إلى يوم القيامة ؛ فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الناس على الأحزم من الأمور ؛ وذلك أن ترك الخزم في مثل هذه النازلة ، التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ، ربما نتج له البقاء في سجنه ، وانصرفت نفس مخرجه عنه ، وإن كان يوسف عليه السلام آمن من ذلك بعلمه من الله ، فغيره من الناس لا يأمن ذلك ؛ فالحالة التي ذهب إليها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه إليها حالة حزم ، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ ذَكَرَ النِّسَاءَ جملةً ليدخل فيهنّ امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح ؛ وذلك حُسن عشرة وأدب ؛ وفي الكلام مخوف ، أي فاسأله أن يتعرف ما بال النسوة . قال ابن عباس : فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز — وكان قد مات العزيز — فدعاهنّ قُلْ مَا خَطْبُكُنَّ أَيُّ مَا شِئْتُنَّ . ﴿ إِذْ رَاوَدَتْهُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وذلك أن كل واحدة منهنّ كلمت يوسف في حقّ نفسها ، على ما تقدّم ، أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت امرأة العزيز ، فكان ذلك مراودة منهنّ . ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أي معاذ الله . ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ أي زنى . ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ لما رأت إقراره ببراءة يوسف ، وخافت أن يشهدن عليها إن أنكرت أقوت

هى أيضاً؛ وكان ذلك لطفاً من الله بـيوسف . و « حَصَّصَ الْحَقُّ » أى تَبَيَّنَ وظهر؛ وأصله حَصَصَ، ففعل : حَصَّصَ ؛ كما قال : كَبَكَبُوا فى كَبِوا ، وكَفَكَفَ فى كَفَفَ ؛ قاله الزجاج وغيره . وأصل الحَصَّصَ استنبال الشيء ؛ يقال : حَصَّ شعره إذا استأصله جزاً ؛ قال أبو قيس بن الأَمَلْت :

قَدْ حَصَّصْتُ الْبَيْضَةَ رَأْسِي قَا * أَطْعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعٍ ^(١)

وَسَنَّةٌ حَصَّاءُ أَى جِرْدَاءُ لَا خَيْرَ فِيهَا ، قَالَ جَرِير :

يَاوَى إِلَيْكُمْ بَلَا مِّنْ وَلَا بَحِيد * مِنْ سَاقِهِ السَّنَةُ الْحَصَّاءُ وَالذَّيْبُ

كأنه أراد أن يقول : والضعيع ، وهى السنة المجذبة ؛ فوضع الذئب موضعه لأجل القافية ؛ معنى « حصَّصَ الحق » أى أقطع عن الباطل بظهوره وثباته ؛ قال :

أَلَا مَن مُبْلِغٌ عَنِّي خَدَاشًا فَإِنَّهُ * كَذُوبٌ إِذَا مَا حَصَّصَ الْحَقُّ ظَالِمٌ

وقيل : هو مشتق من الحِصَّة ؛ فالمعنى : بَانت حِصَّةُ الْحَقِّ مِنْ حِصَّةِ الْبَاطِل . وقال مجاهد وقتادة : وأصله مأخوذ من قولهم : حَصَّ شعره إذا استأصل قطعه ؛ ومنه الحِصَّةُ من الأرض إذا قطعت منها . والحِصِّصُ بالكسر التراب والمجارة ؛ ذكره الجوهري . (أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) وهذا القول منها — وإن لم يكن سأل عنه — إظهار ثبوته وتحقيق لصدق يوسف وكرامته ؛ لأن إقرار المقر على نفسه أقوى من الشهادة عليه ؛ فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار ، حتى لا يخامر نفساً ظن ، ولا يخالطها شك . وشدَّتْ التَّوْبَةُ فى « حَطْبُكُنَّ » و « رَاوَدْتُنَّ » لأنها بمنزلة الميم والواو فى المذكر .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٠﴾ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنِّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥١﴾

(١) البَيْضَةُ : الخوفه ؛ والتهجاع : التوبة الخفيفة .

قوله تعالى : (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ وَالْقَيْبُ) اختلف فيمن قاله ، قيل : هو من قول امرأة العزيز ، وهو متصل بقولها : « الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أى أقررت بالصدق ليعلم أنى لم أخنه بالكذب عليه ، ولم أذكره بسوء وهو غائب ، بل صدقت وحدثت عن الخيانة ؛ ثم قالت : « وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي » بل أنا راودته ؛ وعلى هذا هى كانت مقرة بالصانع ، ولهذا قالت : « إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » . وقيل : هو من قول يوسف ؛ أى قال يوسف ذلك الأمر الذى فعلته ، من رد الرسول « لِيَعْلَمَ » العزيز « أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ وَالْقَيْبُ » قاله الحسن وقتادة وغيرهما . ومعنى « بالغيب » وهو غائب . وإنما قال يوسف ذلك بحضرة الملك ، وقال : « لِيَعْلَمَ » على الغائب توقيرا لذلك . وقيل : قاله إذ عاد إليه الرسول وهو فى السجن بعد ؛ قال ابن عباس : جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه ؛ فقال يوسف : « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ وَالْقَيْبُ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ » أى لم أخن سيدى بالغيب ؛ فقال جبريل عليه السلام : يا يوسف ! ولأحين حَلَّتْ الْإِزَارُ ، وجلست مجلس الرجل من المرأة ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي » الآية . وقال السدى : إنما قالت له امرأة العزيز ولأحين حَلَّتْ سَرَائِيلُكَ يا يوسف ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي » . وقيل : « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ » من قول العزيز ؛ أى ذلك ليعلم يوسف أنى لم أخنه بالغيب ، وأنى لم أخفل عن مجازاته على أمانته . (وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) معناه : أن الله لا يهدي الخائنين بكيلهم .

قوله تعالى : (وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي) قيل : هو من قول المرأة . وقال التفسيرى : فالظاهر أن قوله « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ » وقوله : « وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي » من قول يوسف .

قلت : إذا احتمل أن يكون من قول المرأة فالقول به أولى حتى يبرئ يوسف من حلّ الإزار والسراويل ؛ وإذا قدرناه من قول يوسف فيكون مما خطر بقلبه ، على ما قدمناه من القول المختار فى قوله : « وَهُمْ بِهَا » . قال أبو بكر الأنبارى : من الناس من يقول : « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ وَالْقَيْبُ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » من كلام امرأة العزيز ؛

لأنه متصل بقوله : « أَنَا رَأَوْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » وهذا مذهب الذين ينفون
 الهم عن يوسف عليه السلام ؛ فن بنى على قولهم قال : من قوله « قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ » إلى
 قوله : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » كلام متصل ببعضه ببعض ، ولا يكون فيه وقف تام على
 حقيقة ؛ ولستأختار هذا القول ولا نذهب إليه . وقال الحسن : لما قال يوسف « ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ
 أَتَى لَمْ أَخُوهُ بِالْغَيْبِ » كره نبي الله أن يكون قد زكى نفسه فقال : « وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي » وتركبة
 النفس مذمومة ؛ قال الله تعالى : « فَلَا تَزْكُوا أَنفُسَكُمْ » وقد بيناه في « النساء » . وقيل :
 هو من قول العزيز أى وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف . (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)
 أى مشتبهة له . (إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) في موضع نصب بالاستثناء ؛ و « ما » بمعنى من ؛
 أى إلا من رحم ربي فعصمه ؛ و « ما » بمعنى من كثير ؛ قال الله تعالى : « فَانْكَبُوا مَا طَابَ
 لَكُمْ مِنَ النَّسَاءِ » وهو استثناء منقطع ، لأنه استثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأماراة
 بالسوء ؛ وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما تقولون في صاحب لكم إن
 أتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتهموه أفضى بكم إلى شراية وإن أهنتهم وأعربتهم وأجعتهموه
 أفضى بكم إلى خير غاية » قالوا : يا رسول الله ! هذا شر صاحب في الأرض . قال :
 « فوالذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم » .

قوله تعالى : وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمُوهُ
 قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي) لما ثبت للملك براءته مما نسب
 إليه ؛ وتحقيق في القصة أمانته ، وفهم أيضا صبره وجلده عظمت منزلته عنده ، وتيقن حسن
 جلالة قال : « أتؤتونى به أستخلصه لنفسي » فانظر إلى قول الملك أولا - حين تحقق صلبه -
 « أتؤتونى به » فقط ، فلما فعل يوسف ما فعل ثانيا قال : « أتؤتونى به أستخلصه لنفسي »
 روى عن وهب بن منبه قال : لما دعى يوسف وقف بالباب فقال : حسبي ربي من خلقه ،

عَزَّ جَرْهُ، وَجَلَّ ثَنَاهُ وَلَا إِلَهَ فِيهِ؛ ثُمَّ دَخَلَ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى الْمَلِكِ نَزَلَ عَنْ سُريره فخره ساجداً،
 ثُمَّ أَقْبَدَهُ الْمَلِكُ مَعَهُ عَلَى سُريره فَقَالَ: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾. (قال) له يوسف:
 ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ نَجِيزٌ﴾ (عليه) بوجوه تصرفاتها. وقيل: حافظ
 للحساب، عليم بالألسن. وفي الخبر: «يُرَحِّمُ اللَّهُ أَحْمَقَ يَوْسُفَ لَوْ لَمْ يَقُلْ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ
 لَأَسْتَعْمَلَهُ مِنْ سَاعَتِهِ وَلَكِنْ أَنْزَلَكُمْ سَنَةً». وقيل: إنما تأخر تعليقك إلى سنة لأنه لم يقل
 إن شاء الله. وقد قيل في هذه القصة: إن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال:
 اللهم إني أسألك بغيرك من خيره، وأعوذ بك من شره وشر غيره، ثم سلم على الملك بالعبرانية
 فقال: ما هذا اللسان؟ قال: هذا لسان عمي إسماعيل، ثم دعا بالعبرانية فقال: ما هذا
 اللسان؟ قال: لسان آباء إبراهيم وإسماعيل ويعقوب؛ وكان الملك يتكلم بلساننا،
 فكلمنا كلم يوسف بلسان أجاهه يوسف بذلك اللسان، فأعجب الملك أمره، وكان يوسف
 إذ ذاك ابن ثلاثين سنة؛ ثم أجلسه على سريره وقال: أحب أن أسمع منك رؤياي، قال
 يوسف: نعم أيها الملك! رأيت سبع بقرات يمان شهباً غراً حسناً، كشفت لك عنهن النيل
 فظلمن عليك من شاطئه تسحب أخلافها لنا؛ فبينما أنت تنظر إليهن وتتعجب من حسنهن
 إذ نضبت النيل فغار ماؤه، وبدأ أسنه، ففرج من حمته ووحله سبع بقرات عجاف شعث
 فخر مقلصات البطون، ليس هن ضرور ولا أخلاف، هن أنياب وأضراس، وأكف
 كأكف الكلاب وخراطيم تكراطم السباع، فاخطلطن بالسمان فافترسنهن اقتراس السباع،
 فأكلن لحومهن، وشرقن جلودهن، وحطمن عظامهن، ومشمشن عظمهن؛ فبينما أنت تنظر
 وتتعجب كيف ظلمنهن وهن مهزليل! ثم لم يظهر منهن سمن ولا زيادة بنسب أكلهن!
 إذا سبع سنابل خضر طريات ناعمات، مملئات حياً وماء، وإلى جانبهن سبع يابسات ليس
 فيهن ماء ولا خضرة في منبت واحد، عروقهن في الثرى والماء، فبينما أنت تقول في نفسك:
 أي شيء هذا؟ هؤلاء خضر مثمرات، وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد، وأصولهن

في الماء، إذ هبَّت ريحٌ فذرت الأوراق من البإسبات السود على الخضر المثمرات، فأشعلت
 فيهن النار فأحرقتهن؛ فصرن سودا مغبرات؛ فاتهبت منخورا أيها الملك؛ فقال الملك:
 والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كان عجبا بأعجب مما سمعتُ منك! فما ترى في رؤياي أيها
 الصديق؟ فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرا كثيرا في هذه السنين المخصبة؛
 فإنك لو زرعت على حجر أو مدر لنبت، وأظهر الله فيه النماء والبركة، ثم ترفع الزرع في قصبه
 وسبله تنفي له المخازن العظام؛ فيكون القصب والسبل علقا للدواب، وحبه للناس، وتامر
 الناس فيرفعون من طعامهم إلى أمراك الخمس؛ فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر
 ومن حولها، ويأتيك الخلق من النواحي يبتارون منك، ويجمع عندك من الكنوز ما لا يجتمع
 لأحد قبلك؛ فقال الملك: ومن لي بتدبير هذه الأمور؟ ولو جمعت أهل مصر جميعا
 ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أمناء؛ فقال يوسف عليه السلام: «أجعلني على خزانة الأرض»
 أي على خزان أرضك؛ وهي جمع خزانة؛ ودخلت الألف واللام عوضا من الإضافة، نقول
 النافذة:

لَهُمْ شِمَاءٌ لَمْ يُعْطِهَا اللَّهُ غَيْرُهُمْ * مِنَ الْجُودِ وَالْأَحْلَامِ غَيْرُكَوَادِبِ

قوله تعالى: «أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي» جزم لأنه جواب الأمر؛ وهذا يدل على أن قوله:
 «ذَلِكَ يَسْلَمُ» جرى في السجدة. ويحتمل أنه جرى عند الملك، ثم قال في مجلس آخر:
 «أَسْأَلُكَ بِهِ» تأكيد. «أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي» أي أجعله خالصا لنفسي، أفوض إليه أمر
 مملكتي؛ فذهبوا بفاعوا به؛ ودل على هذا «فَلَمَّا كَلَّمَهُ» أي كلم الملك يوسف، وسأله
 عن الرؤيا فأجاب يوسف؛ ف«قَالَ» الملك: «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ» أي متمكن
 نافذ القول، «أمين» لا تخاف غدرا.

قوله تعالى: قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ قال معبد بن منصور : سمعت مالك بن أنس يقول : مصر خزانة الأرض ، أما سمعت إلى قوله : « أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ » أى على حفظها ، غنّف المضاف . ﴿ إِنِّي خَفِيفٌ ﴾ لما وُلِّيت ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأمره . وفى التفسير : إني حاسب كاتب ، وأنه أول من كتب فى القراطيس . وقيل : « خفيظ » لتقدير الأوقات « طيم » بسنن المجاعات . قال جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله أنى يوسف لو لم يقل أجعل على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أئثر ذلك عنه سنة " . قال ابن عباس : لما انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوجه وردّاه بسيفه^(١) ، ووضع له مبررا من ذهب ، مكللا بالدر والياقوت ، وضرب عليه حلة من إستبرق ، وكان طول السرى ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع ، عليه ثلاثون فراشا وستون مِرْقَعة^(٢) ، ثم أمره أن يخرج ، فخرج متوجا ، لونه كالنرجس ، ووجهه كالقمر ، يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه ، فجلس على السرير ودانت له الملوك ، ودخل الملك بته مع نسائه ، وقوض إليه أمر مصر ، وعزل قطيفر عما كان عليه ، وجعل يوسف مكانه . قال ابن زيد : كان لفرعون ملك مصر خزان كثيرة غير الطعام ، فسلم سلطانه كله إليه ، وهلك قطيفر تلك الليالى ، فزوج الملك يوسف راعيل امرأة العزيز ، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيرا مما كنت تريدن ؟ ! فقالت : أيها الصديق لا تلمنى ؛ فإنى كنت امرأة حسنة ناعمة كما ترى ، وكان صاحبنى لا يأتى النساء ، وكنت كما جعلك الله من الحسن فغلبت نفسى ، فوجدها يوسف عنراء فاصابها فولدت له رجلين : إفرائيم ابن يوسف ، ومنشا بن يوسف . وقال وهب بن منبه : إنما كان تزويجه زليخا امرأة العزيز بين دخلتى الإخوة ، وذلك أن زليخا مات زوجها ويوسف فى السجن ، وذهب مالها وعمرى بصرها بكاء على يوسف ، فبصارت تكفف الناس ، فمنهم من يرجعها ومنهم من لا يرجعها ،

(١) رداه بسيفه : قلعه به . (٢) المِرْقَعة (بالكسر) : المتكا والمخدة .

وكان يوسف يركب في كل أسبوع مرة في موكب زهاء مائة ألف من عطاء قومه ، فقبل لها : لو تعرضت له لعله يسفك بشئ ؛ ثم قيل لها : لا تفعل ، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسيء إليك ، فقالت : أنا أعلم بحيل حبيبي منكم ، ثم تركته حتى إذا ركب في موكبه ، فنادت بأهل صوته : سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم ، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم ، فقال يوسف : ما هذه ؟ فاتوا بها ، فقالت : أنا التي كنت أخدمك على صدور قديمي ، وأرجل جثثك بيدي ، وتريت في بيتي ، وأكرمت مثواك ، لكن فرط ما فرط من جهلي وعُتْزِي فذقت وبال أمرى ، فذهب مالي ، وتضعض ركني ، وطلال ذلي ، وعيى بصري ، وبعد ما كنت مغبولة أهل مصر صرت مرحومتهم ، أتكفف الناس ، فمنهم من يرحمني ، ومنهم من لا يرحمني ، وهذا جزاء المفسدين ؛ فبكى يوسف بكاء شديداً ، ثم قال لها : هل بقيت تجددين مما كان في نفسك من حبك لي شيئا ؟ فقالت : والله لنظرة إلى وجهك أحب إلي من الدنيا بخلافها ، لكن ناولني صدر سوطك ، فناولها فوضعتته على صدرها ، فوجد للسوط في يده اضطراباً وارتعاشاً من حَقَقان قلبها ، فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسل إليها رسولا : إن كنتِ أيمتاً تزوجناك ، وإن كنتِ ذات بعل أغنيناك ، فقالت للرسول : أعوذ بالله أن يستهزئ بي الملك ! لم يُدْفِ أيام شبابي وغناي ومالي وعزّي أفيريدني اليوم وأنا عجوز عمية فقيرة ؟ ! فاعلمه الرسول بمقاتلتها ، فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرضت له ، فقال لها : ألم يملكك الرسول ؟ فقالت : قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحب إلي من الدنيا وما فيها ، فأمر بها فأصلح من شأنها وهيئت ، ثم زُفَّت إليه ، فقام يوسف بصلّى ويدعو الله ، وقامت وراءه ، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها ، فردّ الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته ، إكراما ليوسف عليه السلام لما عَفَّ عن محارم الله ، فأصابها فإذا هي عذراء ، فسأها ، فقالت : يا نبي الله إن زوجي كان عينا لا يأتي النساء ، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف ، قال : فعاشا في حَفْض عيش ، كل يوم يحمّد الله لما خيرا ، وولدت له ولدين ، لإفرائيم ومنشبا . وفيما روى

أن الله ألقي في قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان في قلبها، فقال لما : ما شأنك لاثميني كما كنت في أول مرة ؟ فقالت : لما ذقت محبة الله تعالى شغلني ذلك عن كل شيء .

الثانية — قال بعض أهل العلم : في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وبغوره فلا يجوز ذلك. وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليوم خير جائر، والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه . والله أعلم . قال الماوردي : فإن كان المولى ظالما فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبله على قولين : أحدهما — جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف وثق من قبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقه بفعله لا بفعل غيره . الثاني — أنه لا يجوز ذلك ؛ لما فيه من تولى الظالمين بالمعونة لهم، وتركيتهم بتقدي أعمالهم ؛ فاجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين : أحدهما — أن فرعون يوسف كان صالحا، وإنما الطاغى فرعون موسى . الثاني — أنه نظر في أملاكه دون أعماله، فزال عنه التبعة فيه . قال الماوردي : والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام : أحدها — ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهد في تنفيذه كالصدقات والزكوات ، فيجوز توليه من جهة الظالم ، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز نفوذ أمر أبه به قد أغنى عن التقليد . والقسم الثاني — ما لا يجوز أن يتفردوا به ويلزم الاجتهاد في مصيرفه كأموال النىء ، فلا يجوز توليه من جهة الظالم ؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويمتهد فيما لا يستحق . والقسم الثالث — ما يجوز أن يتولاه لأهله، والاجتهاد فيه مدخل كالتضاييا والأحكام ، فعقد التقليد محلول ، فإن كان النظر تنفيذا للحكم بين متراضيين ، وتوسطا بين مجبورين جاز ، وإن كان إلزام إجبار لم يجر .

الثالثة — ودلت الآية أيضا على جواز أن يخطب الإنسان غملا يكون له أهلا؛ فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سُمرة قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

” يا عبد الرحمن لا تسأل الإمامة فإنك إن أُعطيها عن مسئلة وُكِّلت إليها وإن أُعطيها عن غير مسئلة أُعنت عليها“. وعن أبي بردة قال قال أبو موسى : أقبِلْتُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعى رجلان من الأشعرين ، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري ، فكلاهما سأل العمل ، والنبي صلى الله عليه وسلم يستاك ، فقال : ” ما تقول يا أبا موسى — أو يا عبد الله بن قيس — “ قال قلت : والذي بئتك بالحق ما أظلماني على ما في أنفسهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل ، قال : وكأني أنظر إلى سِوَاكَه تحت شفته وقد قَلَصْتُ^(١) ، فقال : ” ان — أو — لا نستعمل على عملنا من أراد “ وذكر الحديث ، خرجه مسلم أيضا وغيره ، فالجواب : أولا — أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرضا متعينا عليه ، فإنه لم يكن هناك غيره ، وكذا الحكم اليوم ، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لثنين ذلك عليه ، ووجب أن يتولأها ويسأل ذلك ، ويخير بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك ، كما قال يوسف عليه السلام ، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب ، لقوله عليه السلام لعبد الرحمن : ” لا تسأل الإمامة “ فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه ، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك ، وهذا معنى قوله عليه السلام : ” وُكِّلت إليها “ ومن أباحها لعامة بأفاتها ، ولخوفه من التقصير في حقوقها فَرَّ منها ، ثم إن أبطل بها فيرجى له التخلص منها ، وهو معنى قوله : ” أُعِينَ عليها “ . الثاني — أنه لم يقل : إني حبيب كريم ، وإن كان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم “ ولا قال : إني جميل مليح ، إنما قال : « إني حفيظ حليم » فسألها بالحفظ والعلم ، لا بالنسب والجمال . الثالث — إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله

(١) قَلَصْتُ : أَخْبَضْتُ وَأَكْزَرْتُ .

تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ » . الرابع - أنه رأى ذلك فرضا متعينا عليه ؛ لأنه لم يكن هنالك غيره ، وهو الأظهر ، والله أعلم . ودلت الآية أيضا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل ؛ قال الماوردي : وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما أقترن بوصلة ، أو تعلق بطاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تركية ومراعاة ، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ؛ فإن يوسف دعت الضرورة إليه لما سبق من حاله ، ولما يرجو من الظفر بأهله .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَهْلَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُبرُ الْأَخِيرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) أى ومثل هذا الإنعام الذى أنعمنا عليه فى هجرته إلى قلب الملك ، وإمجاؤه من السجن مكانه فى الأرض ؛ أقدرناه على ما يريد . وقال الجكا الطبرى قوله : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » دليل على إجازة الحيلة فى التوصل إلى المباح ، وما فيه النبطة والصلاح ، واستخراج الحقوق ، ومثله قوله تعالى : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ » وحديث أبى سعيد الخدرى :^(١) فى حامل خير ، والذى أقاده من النمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قاله .

قلت : وهذا مردود على ما يأتى . يقال : مَكَّنَاهُ وَمَكَّنَالَهُ ، قال الله تعالى : « مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ » . قال الطبرى : استخلف الملك الأكبر الوليد بن الریان يوسف على عمل قطفير وعزله ؛ قال مجاهد : وأسلم على يديه . قال ابن عباس : ملكه بعد ستة

(١) الحديث : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا على خير ، فجاءه بمرجوب ، وهو نوع جيد من أنواع النمر ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل تمر خبير هكذا » فقال : لا والله يا رسول الله ، إننا نأخذ الصاع من هذا بالصاعين بالثلاثة ، فقال : « لا تامل مع الجمع بالهراهم ثم ابتع بالهراهم بجيتا » . (البخارى) .

ونصف . وروى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن يوسف قال إني حفيظ عليم إن شاء الله الملك في وقته " . ثم مات إطفير فزوجه الوليد بزوجة إطفير راعيل ، فدخل بها يوسف فوجدها عذراء ، وولدت له ولدين : إفراميم ومنشا ، أبني يوسف ، ومن زعم أنها زليخا قال : لم يتزوجها يوسف ، وأنها لما رأته في موكبها بكت ، ثم قالت : الحمد لله الذي جعل الملوك عبيدا بالمعصية ، والحمد لله الذي جعل العبيد بالطاعة ملوكا ، فضمها إليه ، فكانت من عياله حتى ماتت عنده ، ولم يتزوجها ؛ ذكره المساوردي ؛ وهو خلاف ما تقدم عن وهب ، وذكره الثعلبي ؛ فاقه أعلم . ولما قوض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطف بالناس ، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به ، وأقام فيهم العدل ، فأحببه الرجال والنساء ، قال وهب والسدي وابن عباس وغيرهم : ثم دخلت السنون الخصبية ، فأمر يوسف بإصلاح المزارع ، وأمرهم أن يتوسعوا في الزراعة ، فلما أدركت القلة أمر بها بجمع ، ثم بنى لها الأهرام ، بجمعت فيها في تلك السنة قلة ضاقت عنها المخازن لكثرتها ، ثم جمع عليه غلة كل سنة كذلك ، حتى إذا انقضت السبع الخصبية وجاءت السنون المجذبة نزل جبريل وقال : يا أهل مصر جوعوا ؛ فإن الله سلب طبعكم الجوع سبع سنين . وقال بعض أهل الحكمة : للجوع والفحط علامتان : أحدهما — أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة ، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت عليه قبل ذلك ، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية . والثانية — أن يفقد الطعام فلا يوجد رأسا ويمز إلى الغاية ، فاجتمعت هاتان علامتان في عهد يوسف ، فانتبه الرجال والنساء والصبيان ينادون الجوع الجوع ! ! ولا يكون ولا يشبعون ، وانتبه الملك ينادى الجوع الجوع ! ! قال : فدما له يوسف فأبرأه الله من ذلك ، ثم أصبح فتادى يوسف في أرض مصر كلها ؛ معاشر الناس ! لا يزرع أحد زرعاً فيضيع البذر ولا يطلع شيء . وجاءت تلك السنون بهول عظيم لا يوصف ؛ قال ابن عباس : لما كان ابتداء الفحط بينا الملك في جوف الليل أصابه الجوع في نصف الليل ، فنهف الملك يا يوسف ! الجوع الجوع ! ! فقال يوسف : هذا أوان الفحط ؛ فلما دخلت أول سنة من سنّي الفحط هلك فيها كل شيء أعذوه في السنين

الخصبة ، فجعل أهل مصر يتاعون الطعام من يوسف ؛ فباعهم أول سنة بالقنود ، حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه ؛ وباعهم في السنة الثانية بالحنى والجواهر ، حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء ؛ وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب ، حتى أحتوى عليها أجمع ، وباعهم في السنة الرابعة بالبيد والإماء ، حتى أحتوى على الكل ؛ وباعهم في السنة الخامسة بالمغار والضباع ، حتى ملكها كلها ؛ وباعهم في السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقهم جميعا ؛ وباعهم في السنة السابعة برقابهم ، حتى لم يبق بمصر حر ولا عبد إلا صار عبدا له ؛ فقال الناس : والله مارأينا ملكا أجلا ولا أعظم من هذا ؛ فقال يوسف لملك مصر : كيف رأيت صنع ربى فيما خَوَّلنى ! والآن كل هذا لك ، فما ترى فيه ؟ فقال : فوضت إليك الأمر فافعل ما شئت ، وإنما نحن لك تبع ؛ وما أنا بالذى يستنكف عن عبادتك وطاعتك ، وأنا إلا من بعض ممالكك ، وخَوَّل من خَوَّلَكَ ؛ فقال يوسف عليه السلام : لئى لم أعتقهم من الجوع لأستعبدهم ، ولم أجرم من البلاء لأكون عليهم بلاء ؛ ولئى أشهد الله وأشهدك أنى أعتقت أهل مصر عن آخرهم ، ورددت عليهم أموالهم وأملأكمهم ، ورددت عليك ملكك بشرط أن تستن بسبى . وروى أن يوسف طيه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك السنين ، ففيل له : اتجوع ويهلك خزائن الأرض ؟ فقال : لئى أخاف إن شبع أن أنسى الجائع ؛ وأمر يوسف طباطبا الملك أن يحصل غداءه نصف النهار ، حتى يذوق الملك طعم الجوع ، فلا ينسى الجاعين ؛ فمن تم جعل الملوك غداهم نصف النهار .

قوله تعالى : ﴿ تُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى بإحساننا والرحمة النعمة والإحسان .
 ﴿ وَلَا تُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى ثوابهم . وقال ابن عباس وهب : يعنى الصابرين ؛ لصبره في الحب ، وفى الرق ، وفى السجن ، وفى صبره عن محارم الله عما دعت إليه المرأة . وقال السارودى : وأختلف فيما أوتي به يوسف من هذه الحال على قولين : أحدهما — أنه ثواب من الله تعالى على ما ابتلاه . الثانى — أنه أنعم عليه بذلك تفضيلا منه طيه ، وثوابه باق على حاله فى الآخرة .

قوله تعالى : (وَلَا جُبرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ) أى ما نعطيه فى الآخرة خيراً وأكثر مما أعطيناه فى الدنيا ؛ لأن أجر الآخرة دائم ، وأجر الدنيا ينقطع ؛ وظاهر الآية العموم فى كل مؤمن متق ، وأنشدوا :
 أَمَا فى رسول الله يوسفُ أسوةٌ * لمثلِكَ محبوباً على الظلم والإفك
 أقام جميل القبر فى الحبس برهة * قال به الصبرُ الجميل إلى الملك
 وكتب بعضهم إلى صديق له :

وراء مضيق الخوف مُنْسَحُ الأَمْنِ * وأول مفروج به آخرُ الحزن
 فلا تيتسن فائقه ملكٌ يوسفًا * خزانته بعد الخلاص من السجن

وأشيد بعضهم :

إذا الحادثات بَلَنَ التَّهَيُّ * وكادت تَذُوبُ لَمَسِ المُهْجِ
 وحلَّ البلاءُ وقَلَّ المَرْءُ * فعند التناهي يكونُ الفرجُ

والشعر فى هذا المعنى كثير .

قوله تعالى : (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ) أى جاءوا إلى مصر لِمَا أصابهم القحط ليمتاروا ؛ وهذا من اختصار القرآن المجز . قال ابن عباس وغيره : لما أصاب الناس القحط والشدة ، ونزل ذلك بأرض كنعان بحث يعقوب عليه السلام ولده ليميرة ، وذاع أمر يوسف عليه السلام فى الآفاق ، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته ؛ وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدة بالناس يجلس عند البيع بنفسه ، فيعطيه من الطعام على عدد رؤوسهم ، لكل رأس وسقاً . (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ) يوسف (وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) لأنهم خفوه صبياً ، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من التملكة ، مع طول المدة ؛ وهى أربعون سنة . وقيل : أنكروه لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر . وقيل : رأوه لابس حرير ، وفى حقه طوق ذهب ، وعلى رأسه تاج ، وقد تزياً بزي فرعون مصر ؛ ويوسف

الْمُتْرَلِينَ) فيه وجهان - أحدهما - أنه خير المضيقين ، لأنه أحسن ضيقهم ؛ قاله مجاهد .
الثاني - وهو محتمل ؛ أي خير من نزلت عليه من المأمونين ؛ وهو على التأويل الأول مأخوذ
من التزل وهو الطعام ، وعلى الثاني من المنزل وهو الدار .

قوله تعالى : (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي) أي فلا أبيعكم شيئاً فيما بعد ،
لأنه قد وقاهم كيلهم في هذه الحال . (وَلَا تَقْرَبُونَ) أي لا أتزلكم عندى منزلة القريب ،
ولم يرد أنهم يبعدوا منه ولا يعودوا إليه ؛ لأنه على العود حتم . قال السدي : وطلب منهم
رهينة حتى يرجعوا ؛ فارتبش شعون عنده ؛ قال الكلبي : إنما اختار شعون منهم لأنه كان يوم
الجبب أحملهم قولاً ، وأحسنهم رأياً . و« تقربون » في موضع جزم بالنهي ، فلذلك حذفت
منه الياء ؛ لأنه رأس آية ؛ ولو كان خبراً لكان « تقربون » بفتح النون .

قوله تعالى : (قَالُوا سَوَاءٌ عِنْدَ آبَاءِ) أي سنطلبه منه ، ونسأله أن يرسله معنا .
(وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) أي لضامنون المجيء به ، ومحتالون في ذلك .

مسئلة - إن قيل : كيف أستجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه ؟
قيل له : عن هذا أربعة أجوبة : أحدها - يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك
ابتلاء ليعقوب ، ليعظم له الثواب ؛ فأتبع أمره فيه . الثاني - يجوز أن يكون أراد بذلك
أن يبه يعقوب على حال يوسف عليهما السلام . الثالث - لتضاعف المسرة ليعقوب
برجوع ولديه عليه . الرابع - ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته ؛ لئلا كان منه
إليه ؛ والأول أظهر ، والله أعلم .

قوله تعالى : (وَقَالَ لِفَتَاتِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

قوله تعالى : (وَقَالَ لِفَتَاتِهِ) هذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وطام ؛ وهو اختيار
أبي حاتم والنعاس وغيرهما . وقرأ سائر الكوفيين « لِفَتَاتِيَه » وهو اختيار أبي عبيد ؛ قال :

وهو في مصحف عبد الله كذلك . قال الثعلبي : وهما لعتان جيدتان ؛ مثل الصبيان والصبية . قال النحاس : « لعتانته » غالف للسواد الأعظم ؛ لأنه في السواد لا ألف فيه ولا نون ، ولا يترك السواد المجتمع عليه لهذا الإسناد المنقطع ؛ وأيضا لأن فتية أشبه من فتيان ؛ لأن فتية عند العرب لأقل العبد ، والقليل بأن يجعلوا البضاعة في الرجال أشبه . وكان هؤلاء الفتية يسوّون جهازهم ، ولهذا أمكنهم جعل بضاعتهم في رحالهم . ويحوز أن يكونوا أحرارا ، وكانوا أعوانا له ، وبضاعتهم أثمان ما اشتروه من الطعام . وقيل : كانت دراهم ودنانير . وقال ابن عباس : النعال والأدم ومتاع المسافر ويسمى رَحْلا ؛ قال ابن الأثيري : يقال للوعاء رَحْل ، وللبيت رَحْل . وقال : (لَلَّهْم يَمْرِؤُنَهَا) بلواز ألا تسلم في الطريق . وقيل : إنما فعل ذلك ليرجعوا إذا وجدوا ذلك ؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمنه . وقيل : ليستعينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام . وقيل : استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام . وقيل : ليروا فضله ، ويرضوا في الرجوع إليه .

قوله تعالى : فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنًا نَّكَتِلْ وَإِنَّا لَمُرَّحِفُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿٥١﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْنَهُمْ وَجَدُوا بِضَئْتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَئْتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَنًا وَزَدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٌ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : (فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ) لأنه قال لهم : « فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي » وأخبروه بما كان من أمرهم وإكرامهم لياه ، وأن شمعون مرتين حتى يعلم صدق قولهم . (فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنًا نَّكَتِلْ) أى قالوا عند ذلك :

« فأرسل معنا أخانا نكل » والأصل نكال ؛ حذف الضمة من اللام للجرم ، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين . وقراءة أهل الحرمين وأبي عمرو وعاصم « نكل » بالنون ، وقرأ سائر الكوفيين « يكل » بالياء ؛ والأول اختيار أبي عبيد ، ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكل ؛ وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده . قال النحاس : وهذا لا يلزم ؛ لأنه لا يخلو الكلام من أحد جهتين ؛ أن يكون المعنى : فأرسل أخانا يكل معنا ؛ فيكون للجميع ، أو يكون التقدير على غير التقديم والتأخير ؛ فيكون في الكلام دليل على الجميع ، لقوله : « فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا يَكِلْ لَكُمْ عِنْدِي » . (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) من أن يناله سوء .

قوله تعالى : (قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ) أى قد فرطتم في يوسف فكيف آمنكم على أخيه ! . (فَأَلَّفَهُ خَيْرِ حَفِظًا) نصب على البيان ؛ وهذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين « حَافِظًا » على الحال . وقال الزجاج : على البيان ؛ وفي هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرساله معهم ؛ ومعنى الآية : حفظ الله له خير من حفظكم إياه . قال كعب الأحبار : لما قال يعقوب : « فألفه خير حافظا » قال الله تعالى : وعزتي وجلالي لأردنك إليك أبنيك كليهما بعد ما توكلت على .

قوله تعالى : (وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ) الآية ليس فيها معنى يشكل . (مَا نَبِئُكَ) « ما » استفهام في موضع نصب ؛ والمعنى : أى شئ نطلب وراء هذا ؟ ! وقى لنا الكيل ، ورده علينا الثن ؛ أرادوا بذلك أن يطيبوا نفس أبيهم . وقيل : هى نافية ؛ أى لا نبئك منك دراهم ولا بضاعة ، بل تكفيتنا بضاعتنا هذه التى ردت إلينا . وروى عن علقمة « ردت إلينا » بكسر الزاء ؛ لأن الأصل رُدت ، فلما أدغمت قلبت حركة الدال على الزاء . وقوله : (وَتَمِيرُ أَهْلَنَا) أى تجلب لهم الطعام ؛ قال الشاعر :

بَعَثْتُكَ مَاتِرًا فَكُنْتَ حَوْلًا * مَتَى يَأْتِي غِيَاثُكَ مَنْ تُنِيبُ

وقرأ السامى بضم النون ، أى نعينهم على الميرة . (وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلَ يَسِيرٍ) أى يحمل بعير لبنيامين .

قوله تعالى : قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١١﴾

فيه مسئلتان :

الأولى - قوله تعالى : (تُوْتُونَ) أى تعطون . (مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ) أى عهدا يوثق به . قال السدى : حلفوا بالله ليردنه إليه ولا يُسلمونه ؛ واللام فى (لَتَأْتُنِي) لام القسم . (إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) قال مجاهد : إلا أن تهلكوا أو تموتوا . وقال قتادة : إلا أن تغلبوا عليه . قال الزجاج : وهو فى موضع نصب . (فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ) قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (أى حافظ للحلف . وقيل : حفيظ للعهد قائم بالتدبير والعدل .

الثانية - هذه الآية أصل فى جواز الجمالة بالعين والوثيقة بالنفس ؛ وقد اختلف العلماء فى ذلك ؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء : هى جائزة إذا كان المحتمل به مالا . وقد ضعف الشافعى الجمالة بالوجه فى المال ؛ وله قول كقول مالك ، وقال عثمان البتى : إذا تكفل بنفس فى قصاص أو جراح فإنه إن لم يبع به لزمه الدية وأرض الجراح ، وكانت له فى مال الجانى ، إذ لا قصاص على الكفيل ؛ فهذه ثلاثة أقوال فى الجمالة بالوجه . والصواب تفرقة مالك فى ذلك ، وأنها تكون فى المال ، ولا تكون فى حد أو تعزير ، على ما يأتى بيانه .

قوله تعالى : وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمُّ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

(١) الجمالة : الكفالة .

فيه سبع مسائل :

الأولى — لما عزموا على الخروج خشي عليهم العين ، فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد ، وكانت مصر لها أربعة أبواب ؛ وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلا لرجل واحد ؛ وكانوا أهل جمال وكال وبسطة ؛ قاله ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم .

الثانية — وإذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرز من العين ، والعين حق ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن العين لتدخل القبر والجل القدر" . وفي تمؤذه عليه السلام : "أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة" ما يدل على ذلك . روى مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أبيه يقول : اغتسل أبو سهل بن حنيف بالأنوار فتزعج^(١) جبة كانت عليه ، وعامر بن ربيعة ينظر ، قال : وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلاء ، قال فقال له عامر بن ربيعة : ما رأيت كالיום ولا جلد صدراء ، فوعك سهل مكانه وأشدت وعكه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر أن سهلا وُعِكَ ، وأنه غير راضٍ بمك يا رسول الله ؛ فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره سهل بالذي كان من شأن عامر ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "علام يقتل أحدكم أخاه ألا بَوَّكَّتْ^(٢) إنا العين حق تَوْضَأُ له" فتوضأ له عامر ، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس ؛ في رواية "أغتسل" فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه ودخل لزاره في قديم ثم صب عليه ؛ فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس . وركب سعد بن أبي وقاص يوما فنظرت إليه امرأة فقالت : إن أميركم هذا يعلم أنه أهضم الكشعين ؛ فرجع إلى منزله فسقط ، فبلغه ما قالت المرأة ، فأرسل إليها فغسلت له ؛ فقضى هذين الحديثين أن العين حق ، وأنها تقتل كما قال صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا قول علماء الأئمة ، ومذهب أهل السنة ؛ وقد أنكرته طوائف من المبتدعة ، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأئمة ، وبما يشاهد من ذلك في الوجود ؛ فكف من رجل

(١) الأنوار: ماء بالمدينة . (٢) برك : قال برك الله فيه ؛ وهذا القول يطل تأخير العين وساقى معناه .

أدخلته العين القبر ، وكَم من جمل ظهر أدخلته القدر ، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال : « وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » . قال الأصمعي : رأيت رجلا عينا سمع بقرة تحلب فأعجبه فتحبها فقال : أيتها هذه ؟ فقالوا : الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها ، فهلكتا جميعا ، المورى بها والمورى عنها . قال الأصمعي . وسمعت يقول : إذا رأيتُ الشيء يعجبني وجدلتُ حرارة فتخرج من عيني .

الثالثة — واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبرِّك ؛ فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة ؛ ألا ترى قوله عليه السلام لعامر : « أَلَا بَرَكْتُ » فدل على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا بَرَكَ العائن ، وإنما إنما تعدو إذا لم يُبرِّك . والتبريك أن يقول : تبارك الله أحسن الخالقين ! اللهم بارك فيه .

الرابعة — العائن إذا أصاب بعينه ولم يُبرِّك فإنه يؤمر بالاختسار ، ويُجبر على ذلك إن أباه ؛ لأن الأمر على الوجوب ، لاسميا هذا ؛ فإنه قد يخاف على آلمين الحلاك ، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ما يتفقع به أخوه ولا يضره هو ، ولا سميا إذا كان بسببه وكان الجاني عليه . انضمامه — من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعا لضرره ؛ وقد قال بعض العلماء : يأمره الإمام بلزوم بيته ؛ وإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به ، ويكف أذاه عن الناس . وقد قيل : إنه يُنفى ؛ وحديث مالك الذي ذكرناه يرد هذه الأقوال ؛ فإنه عليه السلام لم يأمر في عامر بحبس ولا بنفى ، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا ، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسد به ؛ ومن قال يحبس ويؤمر بلزوم بيته فذلك احتياط ودفع ضرر ، والله أعلم .

السادسة — روى مالك عن حميد بن قيس المكي أنه قال : دُخِل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بابي جعفر بن أبي طالب فقال لحاضتهما : « مالى أراهما ضارعين^(١) » فقالت حاضتهما : يا رسول الله ! إنه أسرع إليهما العين ، ولم يمنعا أن تسترقق لهما إلا أنا لا ندرى ما يوافقك من ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استرققا لهما فإنه

لو سبق شيء القدر سبقته العين . وهذا الحديث منقطع ، ولكنه محفوظ لأسماء بنت عميس الخثعمية عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة متصلة صحاح ؛ وفيه أن الرقي مما يستدفع به البلاء ، وأن العين تؤثر في الإنسان وتضرعه ، أى تضعفه وتخله ؛ وذلك بقضاء الله تعالى وقدره . ويقال : إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار ، والله أعلم .

السابعة — أمر صلى الله عليه وسلم في حديث أبي أمامة العائى بالأغتسال للعين ، وأمر هنا بالاسترقاء ؛ قال صلاؤنا : إنما يسترى من العين إذا لم يعرف العائى ؛ وأما إذا عرف الذى أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة ، والله أعلم .

قوله تعالى : (وَمَا أَفْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) أى من شيء أحذره عليكم ؛ أى لا ينفع الحذر مع القدر . (إِنْ الْحُكْمُ) أى الأمر والقضاء . (إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) أى أطمعت ووثقت (وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

قوله تعالى : وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهُ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أُخِيهِ ثُمَّ أَدْنَىٰ أَذْنَ مُؤَدِّنَ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكَ لَسَّرِقُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ) أى من أبواب شق . (مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) إن أراد إيقاع مكروه بهم . (إِلَّا حَاجَةٌ) استثناء ليس من الأول . (فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا) أى خاطر خطر بقلبه ؛ وهو وصيته أن يتفزقوا ؛ قال مجاهد : خشية العين ، وقد تقدم القول فيه . وقيل : لتلا يرى الملك مدمدم وقوتهم

فيطش بهم حسداً أو حذراً؛ قاله بعض المتأخرين، واختاره النحاس، وقال : ولا معنى للعين هاهنا . ودلت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذر أخاه مما يخاف عليه، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم .

قوله تعالى : (وَإِنَّهُ) يعني يعقوب . (لَتُرَوَّيَنَّ مِنْ آيِهِ) أى بأمر دينه . (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أى لا يعلمون ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه . وقيل : « لدو علم » أى عمل؛ فإن العلم أول أسباب العمل، فسمى ما هو بسببه .

قوله تعالى : (وَكَأَنَّهُمْ دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ) قال قتادة : ضمه إليه، وأنزله معه . وقيل : أمر أن يزل كل اثنين في منزل، فبقى أخوه منفرداً فضمه إليه وقال : أشفقت عليه من الوحدة، وقال له سراً من إخوته : (إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئَسْ) أى لا تحزن (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

قوله تعالى : (فَلَبَّأَ جَهَنَّمَ مَجْهَازُهُمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ) لما عرف بنيامين أنه يوسف قال له : لا تردني إليهم، فقال : قد علمت اختتام يعقوب بي فيزداد غمّه، فأبي بنيامين الخروج؛ فقال يوسف : لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يجعل بك : فقال : لا أبالي أقدس الصواع في رحله؛ إما بنفسه من حيث لم يطلع عليه أحد، أو أمر بعض خواصه بذلك . والتجهيز التسريح وتجهيز الأمن؛ ومنه جَهَّزَ على الجريح أى قتله، ونجّز أمره . والسقاية والصواع شيء واحد؛ إناه له رأسان في وسطه مقيض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويكال الطعام بالرأس الآخر؛ قاله النقاش عن ابن عباس، وكل شيء يشرب به فهو صواع؛ وأنشد :

• تَشْرَبُ الْخَمْرَ بِالصَّوَاعِ جِهَارًا^(١) •

واختلف في جلسته؛ فروى شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان صواع الملك شيء من فضة يشبه الكوكب، من فضة مرصع بالجواهر، يجعل على الرأس؛

(١) البيت تقدّم في ص ١٧٨ من هذا الجزء .

وكان للعباس واحد في الجاهلية، وسأله مالك بن الأزرق ما الصنوع؟ قال : الإناء؛ قال فيه الأعشى :

لَهْ دَرَمَكْ فِي رَأْسِهِ وَمَشَارِبٌ * وَقِدْرٌ وَطَبَّاخٌ وَصَاعٌ وَدَيْسِقٌ^(١)

وقال عكرمة: كان من فضة . وقال عبد الرحمن بن زيد : كان من ذهب؛ وبه كال طعامهم مبالغة في إكرامهم . وقيل : إنما كان يكال به لعزة الطعام . والصاع يذكّر ويؤنث ؛ فن أنثه قال : أَصُوْعٌ ، مثل أدور ، ومن ذكره قال أَصَوَاعٌ ، مثل أثواب . وقال مجاهد وأبو صالح : الصاع الطَّرِجْهَالَةُ بلفظة خمر . وفيه قراءات : « صَوَاعٌ » قراءة العامة ؛ و« صُوعٌ » بالعين المعجمة ، وهى قراءة يحيى بن يعمر ؛ قال : وكان إناءً أُصِيعَ من ذهب . « وَصُوعٌ » بالعين غير المعجمة قراءة أبى رجاء . « وَصُوعٌ » بصاد مضمومة وواو ساكنة وعين غير معجمة قراءة أبى . « وَصُبَاعٌ » بياء بين الصاد والألف ؛ قراءة سعيد بن جبير . « وصاع » بألف بين الصاد والعين ؛ وهى قراءة أبى هريرة .

قوله تعالى : (ثُمَّ أَذْنٌ مَّوْذَنٌ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) أى نادى مناد وأعلم . « وَأَذْنٌ » للتكثير ؛ فكانه نادى مرارا « أَيُّهَا الْعَبْرُ » . والعبر ما أمتير عليه من الخمر والإبل والبغال . قال مجاهد : كان عيرهم حميرا . قال أبو حبيدة : العبر الإبل المرحولة المركوبة ؛ والمعنى : يا أصحاب العبر ، كقوله : « وأسأل القرية » . يا خيل الله اركبي : أى أصحاب خيل الله ، وسيأتى . وهنا اعتراضان : الأول — إن قيل : كيف رضى بنيامين بالقعود طوعا وفيه حقوق الأب بزيادة الحزن ، وواقفه على ذلك يوسف ؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم برّاء وهو — الثانى — فالجواب عن الأول : أن الحزن كان قد ظلب على يعقوب بحيث لا يؤثّر فيه فقد بنيامين كل التأثير ، أولا نراه لما فقدته قال : « يا أسفا على يوسف » ولم يعترض على بنيامين ؛ ولعل يوسف إنما واقفه على القعود بوحي ؛ فلا اعتراض . وأما نسبة

(١) الديسق : خوان من فضة . واليت من قمبذة يمدح بها الخلق مطالها .

أرقت وما هذا السهاد المؤرق * وما في من سقم وما في مشق

يوسف السارقة إلى إخوته فالجواب : أن القوم كانوا قد سرقوه من أبيه فألقوه في الحب ، ثم باعوه ، فاستحقوا هذا الاسم بذلك الفعل ، فصدق إطلاق ذلك عليهم . جواب آخر - وهو أنه أراد أنها أليز حالكم حال السراق ؛ والمعنى : إنك شيئاً لنغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه . جواب آخر - وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه ، وفصله عنهم إليه ؛ وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدس الصاح في رحله ، ولا أخبره بنفسه . وقد قيل : إن معنى الكلام الاستفهام ؛ أى أو إنكم لسارقون ، كقوله : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ » أى أو تلك نعمة تمنها على ؟ والغرض ألا يعزى إلى يوسف الكذب .

قوله تعالى : قَالُوا وَاقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) . البعير هنا الجمل في قول أكثر المفسرين . وقيل : إنه الجار ، وهى لغة لبعض العرب ؛ قاله مجاهد وأخبره . وقال مجاهد : الزعيم هو المؤذن الذى قال : « أيتها العير » . والزعيم والكفيل والجميل والضمين والقيل سواء . والزعيم الرئيس . قال : ^(١)

وَلَمَّا زَعِمَ إِنْ رَجَعْتُ مُمْلَكًا * يَسْتَرِي تَرَى مِنْهُ الْفِرَاقَ أَزُورًا

(١) هو أمرؤ القيس . والفراق : سبيح يصيح بين يدي الأسد كأنه يندب الناس ؛ وهو فارسي معرب . والأزور : المائل في شق ؛ أى إن ملكتي فيصراني أسير سيرا شديداً يميل من الفراق من شدته بجانبه .

وقالت لى الأخيلة ترى أخاصا :^(١)

وَحَرَّقَ عَنْهُ الْقَمِيصُ نَحْلَهُ * يَوْمَ الْقَاءِ مِنَ الْحَيَاءِ سَقِيًا
حَتَّى إِذَا رَفَعَ اللَّوَاءَ رَأَيْتُهُ * [تَحْتَ اللَّوَاءِ] عَلَى الْخَيْسِ زَعِيًا^(٢)

الثانية — إن قيل : كيف ضمن حمل البعير وهو مجهول ، وضمان المجهول لا يصح ؟ قيل له : حمل البعير كان معينا معلوما عندهم كالوَسْقِ ؛ فصح ضمانه ، غير أنه بدل مال السارق ، ولا يحمل السارق ذلك ، فلمله كان يصح في شرعهم ، أو كان هذا جعالة ، وبذل مال لمن يفتش ويطلب .

الثالثة — قال بعض العلماء : في هذه الآية دليلان : أحدهما — جواز الجعل وقد أجزئ للضرورة ؛ فإنه يجوز فيه من الجهالة ما لا يجوز في غيره ؛ فإذا قال الرجل : من فعل كذا فله كذا صح . وشأن الجعل أن يكون أحد الطرفين معلوما والآخر مجهولا للضرورة إليه ؛ بخلاف الإجارة ؛ فإنه يتقدر فيها العوض والمعووض من الجهتين ؛ وهو من العقود الحائزة التي يجوز لأحدهما فسخه ؛ إلا أن المجهول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع وبعده ، إذا رضى بإسقاط حقه ، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجهول له في العمل ، ولا يشترط في عقد الجعل حضور المتعاقدين ، كسائر العقود ؛ لقوله : « وَلَئِنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ » وبهذا كله قال الشافعي .

الرابعة — متى قال الإنسان : من جاء بعبدي الآبق فله دينار لزمه ما جعله فيه إذا جاء به ؛ فلو جاء به من غير ضمان لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من جاء بآبق فله أر بعون درهما » ولم يفصل بين من جاء به من عقد ضمان أو غير عقد . قال ابن خزيمة : وهذا قال أصحابنا ؛ إن من فعل بالإنسان ما يجب عليه أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك ، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفعل ذلك بالأجر .

قلت : وخالفنا في هذا كله الشافعي .

(١) كذا في الأصل ولله ترقى توبة . وفي صفته يترق القميص أقوال : الأول — أن ذلك إشارة إلى جذب الغفلة له . الثاني — أنه يؤثر مجداً ثابته فيكسوها ويكنى بمعاوزها . الثالث — أنه غليظ المنكبة ؛ وإذا كان كذلك أصرع الخرق إلى قيصة . الرابع — أنه كثير التزوات متصل الأسفار ؛ ففيه منخرق لذلك .

(٢) كذا في « أمالي القائل » « والشعر والشراء » و « الحامسة » وفي الأصول : يوم الحياج .

الخامسة - الدليل الثاني - جواز الكفالة على الرجل ؛ لأن المؤذن الضامن هو
غير يوسف عليه السلام . قال علماؤنا : إذا قال الرجل تجملت أو تكفّلت أو ضمنت أو وأنا
حميل لك أو زعيم أو كفيل أو ضامن أو قيسل ، أو هو لك عندى أو على أو إلى أو قبلى
فذلك كله حالة لازمة . وقد اختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه ؛ هل يلزمه
ضمان المال أم لا ؟ فقال الكوفيون : من تكفل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذى على المطلوب
إن مات ؛ وهو أحد قولى الشافعى فى المشهور عنه . وقال مالك والليث والأوزاعى : إذا
تكفل بنفسه وعليه مال فإنه إن لم يأت به غرم المال ، ويرجع به على المطلوب ؛ فإن اشترط
ضمان نفسه أو وجهه وقال : لا ضمن المال فلا شيء عليه من المال ، والوجه لمن أوجب
غرم المال أن الكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدم ، وإنما يطلب بمال ؛
فإذا ضمنه ولم يأت به فكأنه فوته عليه ، وعزّه منه ؛ فلذلك لزمه المال . وأحتج الطحاوى
للكوفيين فقال : أما ضمان المال بموت المكفول فلا معنى له ؛ لأنه إنما تكفل بالنفس
ولم يتكفل بالمال ، فبحال أن يلزمه ما لم يتكفل به .

السادسة - وأختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال ؛ هل للطالب أن يأخذ
من شاء منهما ؟ فقال الثورى والكوفيون والأوزاعى والشافعى وأحمد وإسحق : يأخذ من
شاء حتى يستوفى حقه ؛ وهذا كان قول مالك ثم رجع عنه فقال : لا يؤخذ الكفيل إلا أن
يفلس الغريم أو يغبى ؛ لأن التبديلة بالذى عليه الحق أولى ، إلا أن يكون معصوماً فإنه يؤخذ
من الجليل ، لأنه معذور فى أخذه فى هذه الحالة ؛ وهذا قول حسن . والقياس أن للرجل
مطالبة أى الرجلين شاء . وقال ابن أبى ليلى : إذا ضمن الرجل عن صاحبه ما لا تحول على
الكفيل وبرئ صاحب الأصل ، إلا أن يشترط المكفول له عليهما أن يأخذ أيهما شاء ؛
وأحتج بإمرة الميت من الدين بضمان أبى قتادة^(١) ونحوه قال أبو ثور .

(١) الحديث : روى سلية بن الأكوع أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بمجاعة فقال : "هل عليه من دين" قالوا :
نعم ، قال : "هل ترك شيئاً" قالوا : لا ، قال : "صلوا على صاحبكم" قال أبو قتادة : صلى عليه يارسول الله
وصل دينه ؛ فمضى عليه .

السابعة — الزعامة لا تكون إلا في الحقوق التي تجوز النيابة فيها ، مما يتعلق بالذمة من الأموال ، وكان ثابتاً مستقراً ؛ فلا تصح الجمالة بالكتابة لأنها ليست بدين ثابت مستقر ؛ لأن البعد إن عجز رقب وأفسخت الكتابة ؛ وأما كل حق لا يقوم به أحد عن أحد كالحدود فلا كفالة فيه ، ويسجن المدعى عليه الحد ، حتى ينظر في أمره . وشذ أبو يوسف ومحمد فأجازا الكفالة في الحدود والقصاص ، وقالوا : إذا قال المذنوب أو المدعى القصاص يبتقى حاضرة كفله ثلاثة أيام ؛ وأحتج لهم الطحاوي بما رواه حمزة ابن عمرو عن عمرو بن مسعود وجابر بن عبد الله والأشعث أنهم حكوا بالكفالة بالنفس بمحض الصحابة .

قوله تعالى : **قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا فَا بَرَأؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٥﴾ قَالُوا بَرَأؤُهُ مِنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَرَأؤُهُ كَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾** قوله تعالى : **(قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ)** يروى أنهم كانوا لا يتزلون على أحد ظلماء ، ولا يرعون زرع أحد ، وأنهم جمعوا على أفواه إلبهم الأيكة لئلا تبسث في زروع الناس . ثم قال : **(وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ)** يروى أنهم ردوا البضاعة التي كانت في رحالهم ؛ أي فن رد ما وجد فكيف يكون سارقاً ؟ !

قوله تعالى : **(قَالُوا فَا بَرَأؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)** المعنى : فما جزاء الفاعل إن بان كذبكم ؟ فاجاب إخوة يوسف : **(بَرَأؤُهُ مِنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَرَأؤُهُ)** أي يُستعبد ويُسرق . «بَرَأؤُهُ» مبتدأ ، و «مِنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ» خبره ؛ والتقدير : جزاؤه استعباد مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ ؛ فهو كناية عن الاستعباد ؛ وفي الجملة معنى التوكيد ، كما تقول : جزاء من سرق القطع فهذا جزاؤه . **(كَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ)** أي كذلك نفع في الظالمين إذا سرقوا أن يُسْتَرْقُوا ؛ وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه . وقولهم هذا قول من لم يَسْتَرْب بنفسه ؛

لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحله ، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعي ما أخذ؛ قاله الحسن والسدي وغيرهما .

مسئلة - قد تقدم في سورة « المائدة » ^(١) أن القطع في السرقة ناسخ لما تقدم من الشرائع ، أو لما كان في شرع يعقوب من استرقاق السارق ، والله أعلم .

قوله تعالى : **فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : **(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ)** إنما بدأ يوسف برحالم لنفى التهمة والرؤية من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه . والوعاء يقال بضم الواو وكسرهما ، لنتان ؛ وهو ما يحفظ فيه المتاع ويصونه . **(ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ)** يعنى بنيامين ؛ أى استخرج السقاية أو الصواع عند من يؤث ، وقال : **« وَلَمَّا جَاءَ بِهِ »** فذكر ؛ فلما رأى ذلك إخوته نكسوا رءوسهم ، وظنوا الظنون كلها ، وأقبلوا عليه وقالوا : **« وَيْلَكَ يَا بَنِيَامِينَ ! مَا رَأَيْنَا كَالْيَوْمِ قَطْ ، وَلَدْتَ أَمَك »** راحيل « أخوين لَبَّسِينَ ! قال لهم أخوهم : والله ما سرقته ، ولا علم لى بمن وضعه فى متاعى . ويروى أنهم قالوا له : **« يَا بَنِيَامِينَ ! أَمْرَقْتَ ؟ قال : لا والله ؛ قالوا : فمن جعل الصواع فى رحلك ؟ قال : الذى جعل البضاعة فى رحالك . ويقال : إن المقتنض كان إذا فرغ من رَحْل رجل استغفر الله عز وجل تائباً من فعله ذك ؛ وظاهر كلام قتادة وغيره أن المستغفر كان يوسف ؛ لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصواع حتى فرغ منهم ، وأتى إلى رَحْل بنيامين فقال : ما أظن هذا الفتى رضى بهذا ولا أخذ شيئاً ، فقال له إخوته : والله لا نبرح حتى تفتشه ؛ فهو أطيّب لنفسك ونفوسنا ؛ ففتش فأخرج السقاية ؛ وهذا التفتيش من يوسف يقتضى أن المؤذّن سرقهم برأيه ؛ فيقال : إن جميع ذلك كان بأمر من الله تعالى ؛ ويقول ذلك قوله تعالى : **« كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ »** .**

قوله تعالى : (كَذَلِكَ كَذَبْنَا لِيُوسُفَ) .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « كَذَبْنَا » معناه صنعنا ؛ عن ابن عباس . القَتْبِيُّ : دَبَرْنَا .
ابن الأنباري : أردنا ؛ قال الشاعر :

كادت وكدت وتلك خير إرادة * لو طاد من عهد الصِّبَا ما قد مَضَى

وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلا ، خلافا
لأبي حنيفة في تجويزه الحيل وإن خالفت الأصول ، وتحرمت التحليل .

الثانية — أجمع العلماء على أن للرجل قبل حلول الحول التصرف في ماله بالبيع
والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة ؛ وأجمعوا على أنه إذا حال الحول وأظل الساعي أنه لا يحل
له التحيل ولا القصدان ، ولا أن يفترق بين مجتمع ، ولا أن يجمع بين متفرق . وقال مالك :
إذا قوت من ماله شيئا ينوى به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه لزمته الزكاة عند
الحول ، أخذنا منه بقوله طيه السلام : « خَشْيَةُ الصَّدَقَةِ » . وقال أبو حنيفة : إن نوى
بتفريقه الفرار من الزكاة قبل الحول بيوم لا يضره ؛ لأن الزكاة لا تلزم إلا بنجام الحول ،
ولا يتوجه إليه معنى قوله : « خَشْيَةُ الصَّدَقَةِ » إلا حينئذ . قال ابن العربي : سمعت أبا بكر
محمد بن الوليد الفهري وغيره يقول : كان شيخنا قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي
الذامغانى صاحب عشرات آلاف من المال ، فكان إذا جاء رأس الحول دما بذبه فقال لهم :
كبرت سنِّي ، وضعت قُوَّتِي ، وهذا مال لا أحاجه فهو لكم ، ثم يخرجوه فيحمله الرجال على
أعناقهم إلى دور بذبه ؛ فإذا جاء رأس الحول ودما بذبه لأمر قالوا : يا أبانا ! إنما أئمتنا حياتك ،
وأما المال فائى رغبة لنا فيه مادمت حيا ؛ أنت ومالك لنا ، نفذه إليك ، ويسير الرجال
به حتى يضعوه بين يديه ، فيرده إلى موضعه ؛ يريد بتبديل الملك إسقاط الزكاة على رأى أبي
حنيفة في التفريق بين المجتمع ، والجمع بين المتفرق ؛ وهذا خطب عظيم ؛ وقد صنف البخاري
رضي الله عنه في جامعه كتابا مقصودا فقال : « كتاب الحيل » .

قلت : وترجم فيه أبوابا منها : « باب الزكاة وألا يفرق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرق خشية الصدقة » . وأدخل فيه حديث أنس بن مالك ، وأن أبا بكر كتب له فريضة الصدقة ؛ وحديث طلحة بن عبيد الله أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نازرا الرأس ، الحديث ؛ وفي آخره : « أفلح إن صدق » أو « دخل الجنة إن صدق » . وقال بعض الناس : في عشرين ومائة بغير حقتان ؛ فإن أهلكها متعمدا أو وهبها أو احتال فيها فرارا من الزكاة فلا شيء عليه ؛ ثم أردف بحديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يكون كثر أحدكم يوم القيامة شجاعا أقرع له زببتان ويقول أنا كثرك » الحديث . قال المهلب : إنما قصد البخاري في هذا الباب أن يعرفك أن كل حيلة يتحيل بها أحد في إسقاط الزكاة فإن إثم ذلك عليه ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما منع من جمع الغنم وتفريقها خشية الصدقة فهم منه هذا المعنى ، وفهم من قوله : « أفلح إن صدق » أن من رام أن ينقص شيئا من فرائض الله بحيلة يخالها أنه لا يفلح ، ولا يقرم بذلك عذره عند الله ؛ وما أجازاه الفقهاء من تصرف صاحب المال في ماله قرب حلول الحول إنما هو ما لم يرد بذلك المهرب من الزكاة ؛ ومن نوى ذلك فالإثم عنه خير ساقط ، والله حسيبه ؛ وهو كمن فر من صيام رمضان قبل رؤية الهلال بيوم ، وأستعمل سفرا لا يحتاج إليه ، رغبة عن فرض الله الذي كتبه الله على المؤمنين ؛ فالوعيد متوجه عليه ؛ ألا ترى عقوبة من منع الزكاة يوم القيامة بأى وجه متعمدا كيف تطؤه الإبل ، ويمثل له ماله شجاعا أقرع ؟ ! وهذا يدل على أن الفرار من الزكاة لا يخل ، وهو مطالب بذلك في الآخرة .

الثالثة — قال ابن العربي : قال بعض علماء الشافعية في قوله تعالى « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » دليل على وجه الحيلة إلى المباح ، واستخراج الحقوق ؛ وهذا وهم عظيم ؛ وقوله تعالى : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » قيل فيه : كما مكَّنَّا ليوسف ملك نفسه عن امرأة العزيز مكَّنَّا له ملك الأرض عن العزيز ، أو مثله مما لا يشبه ما ذكره . قال الشفيعي : ومثله قوله عز وجل : « وَخُذْ سِدْرَكَ صِفْتًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ » وهذا ليس

حيلة، إنما هو حمل لليمين على الألفاظ أو على المقاصد . قال الشَّعْوِيُّ : ومثله حديث أبي سعيد الخدري في حامل خير أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بقر جَنِيْب ، الحديث ؛ ومقصود الشافعية من هذا الحديث أنه عليه السلام أمره أن يبيع جمعا ويتاج جَنِيْبَا من الذي باع منه الجمع أو من غيره . وقالت المالكية : معناه من غيره ؛ لئلا يكون جَنِيْبَا بجمع ، والدرهم ربا ؛ كما قال ابن عباس : بحرية بجمرة والدرهم ربا ^(٢١) .

قوله تعالى : ﴿ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أي سلطانه ، عن ابن عباس . ابن عيسى : عادته ، أي بظلم بلا حجة . مجاهد : في حكمة ؛ وهو استرقاق السَّراق . ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أي إلا بأن يشاء الله أن يجعل السقاية في رحله تَعْلَةً وعذرا له . وقال قتادة : بل كان حكم الملك الضرب والقرم ضعفين ، ولكن شاء الله أن يجري على ألسنتهم حكم بني إسرائيل ، على ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ نَزَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ﴾ أي بالعلم والإيمان . وقرئ « نزع درجات من نشأ » بمعنى : نزع من نشأ درجات ؛ وقد مضى في « الأنعام » وقوله : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ روى إسرائيل عن سَمَّاك عن عِكْرَمَةَ عن ابن عباس قال : يكون ذا أعلم من ذا ، وذا أعلم من ذا ، والله فوق كل عالم . وروى سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير قال : كما عند ابن عباس رحمه الله فتحدث بحديث فتعجب منه رجل فقال : سبحان الله ! وفوق كل ذي علم علم ؛ فقال ابن عباس : بلس ما قلت ؛ الله العليم وهو فوق كل عالم .

قوله تعالى : قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ كَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَبْنَؤُهَا الْعَزِيزُ إِنْ لَّهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴿٢٣﴾ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عَنْدَهُوَ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴿٢٥﴾

(١) الجمع : تمر مخططة من أنواع متفرقة ، وليس مرغوبة فيه . (٢) كذا في الأصل وفي « إحكام القرآن لابن العربي » . (٣) راجع ج ٧ ص ٣٠ وما بعدها طيبة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّ يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ المعنى : أى اقتدى بأخيه ، ولو اقتدى بنا ما سرق ؛ وإنما قالوا ذلك ليعروا من فعله ، لأنه ليس من أمهم ؛ وأنه لما سرق فقد جذب به عرق أخيه السارق ؛ لأن الاشتراك فى الأسباب يشاكل فى الأخلاق . وقد اختلفوا فى السرقة التى نسبوا إلى يوسف ؛ فروى عن مجاهد وغيره أن عمه يوسف بنت لإسحق كانت أكبر من يعقوب ، وكانت صارت إليها منطقة لإسحق لبسها ؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالسنة ، وهذا مما نسخ حكمة بشرنا ، وكان من سرق أسْتَعِيد . وكانت عمه يوسف حضنته وأحبته حباً شديداً ؛ فلما ترعرع وشب قال لها يعقوب : سألنى يوسف إلى ، فلست أقدر أن يغيب عني ساعة ؛ فولعت به ، وأشفقت من فراقه ، فقالت له : دعه عندي أياما أنظر إليه . فلما خرج من عندها يعقوب عملت إلى منطقة لإسحق لغزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : لقد فقدت منطقة لإسحق ، فانظروا من أخذها ومن أصابها ؛ فالتفتت ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوا ؛ فوجدت مع يوسف . فقالت : إنه والله لى سلم أصنع فيه ما شئت ؛ ثم أتاهها يعقوب فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذلك . إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ؛ فأمسكته حتى ماتت ؛ فبذلك صيره إخوته فى قولهم : « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » . ومن ها هنا تعلم يوسف وضع السقاية فى رجل أخيه كما عملت به عمته . وقال سعيد بن جبير : إنما أمرته أن يسرق صتماً كان لجلته أبى أمه ، فسرقه وكسره وألقاه على الطريق ، وكان ذلك منهما تغييراً للذكر ؛ فرموه بالمرقة وعبروه بها ؛ وقاله قتادة . وفى كتاب الزواج أنه كان صنم ذهب . وقال عطية العوفي : إنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عرق نغباه فعيروه بذلك . وقيل : إنه كان يسرق من طعام المائدة للساكين ؛ حكاه ابن عيسى . وقيل : إنهم كذبوا عليه فيما نسبوا إليه ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي ثَمَنِهِ وَلَمْ يُسَلِّمْهَا لَهُمْ ﴾ أى أسرى نفسه قولهم : « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » قاله ابن حجر وأبن عيسى . وقيل : إنه أسرى نفسه

قوله : « أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا » ثم جهر فقال : « والله أعلم بما تصفون » أى الله أعلم أنّ ما قلتم كذب ، وإنّ ، فكانت لله رضا . وقد قيل : إن إخوة يوسف فى ذلك الوقت ما كانوا أنبياء .

قوله تعالى : (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ) خاطبوه باسم العزيز إذ كان فى تلك اللحظة بمنزلة الأول أو موته . وقولهم : « إن له أباً شيخاً كبيراً » أى كبير القدر ، ولم يريدوا كبر السن ؛ لأن ذلك معروف من حال الشيخ . « فخذ أحداً مكانه » أى عبداً بدله . وقد قيل : إن هذا مجاز ؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حريستى بدل من قد أحكمت السنة عندهم رقه ؛ وإنما هذا كما تقول لمن تركه فعله : أقتنى ولا تفعل كذا وكذا ، وأنت لا تريد أن يقتلك ، ولكنك مبالغ فى استنزاله . ويحتمل أن يكون قولهم : « فخذ أحداً مكانه » حقيقة ؛ وبعبارة طيهم وهم أنبياء أن يروا استرقاق حراً ، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الجمالة ؛ أى خذ أحداً مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك ؛ ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه ؛ ويعرف يعقوب جلية الأمر ؛ ففتح يوسف عليه السلام من ذلك ، إذ الجمالة فى الحدود ونحوها — بمعنى إحضار المضمون فقط — جائزة مع التراضى ، غير لازم إذا أبى الطالب ؛ وإما الجمالة فى مثل هذا على أن يلزم الحيل ما كان يلزم المضمون من عقوبة ، ولا يجوز إجماعاً . وفى « الواضحة » أن الجمالة فى الوجه فقط فى الحدود جائزة ، إلا فى النفس . وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة فى النفس . واختلف فيها عن الشافعى ؛ فسرّة ضعفها ، ومرة أجازها .

قوله تعالى : (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) يحتمل أن يريدوا وصفه بما رأوا من إحسانه فى جميع أفعاله معهم ، ويحتمل أن يريدوا : إنا نرى لك إحساناً علينا فى هذه اليد إن أسديتها إلينا ؛ وهذا تأويل أبين لصح .

قوله تعالى : (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ) مصدر . (أَنْ نَأْخُذَ) فى موضع نصب ؛ أى من أن نأخذ . (إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا) فى موضع نصب ؛ « سنأخذ » . (مَتَاعًا عَنْهُمْ) أى معاذ الله أن نأخذ البرى ، بالمجرم ، ونخالف ما تعاهدنا عليه . (إِنَّا إِذَا نَظَرْنَا إِلَيْكَ) أى أن نأخذ غيره .

قوله تعالى : فَلَمَّا اسْتَلَبُوا مِنْهُ خُلُوصًا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُرَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى : (فَلَمَّا اسْتَلَبُوا مِنْهُ) أى يَلْسُوا ؛ مثل نَجِبَ وَاسْتَجَبَ ، وَتَخَيَّرَ وَاسْتَسْخَرَ . (خُلُوصًا) أى أَفْرَدُوا وليس هو معهم . (نَجِيًّا) نصب على الحال من المضمَر في « خُلُوصًا » وهو واحد يؤدَّى عن جمع ؛ كما في هذه الآية ؛ ويقع على الواحد كقوله تعالى : « وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا » وجمعه أَنجِيَّة ؛ قال الشاعر :
 (١)

لَئِنْ لَمْ يَأْذَنْ لِي مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَكْبَرُ * وَأَضْطَرَبَ الْقَوْمُ أَضْطِرَابَ الْأَرَشَةِ
 * هُنَاكَ أَوْصَيْتَنِي وَلَا تُوصِي بَيْنَهُ *

وقرأ ابن كثير « اسْتَلَبُوا » ، « وَلَا تَأْيِسُوا » ، « إِنَّهُ لَا يَأْسُ » ، « أَفَلَمْ يَأْسَ » ، بالف من غير همز على القلب ؛ قدمت الهمزة وأتت الياء ، ثم قلبت الهمزة ألفاً لأنها ساكنة قبلها فتحة ؛ والأصل قراءة الجماعة ؛ لأن المصدر ما جاء إلا على تقديم الياء — يَأْسُ — والإيَّاس ليس بمصدر أَيْسَ ، بل هو مصدر أُسْتُه أَوْسًا وَإِيَّاسًا أى أعطيته . وقال قوم : أَيْسَ وَيُسُ لثنتان ؛ أى فلما يَلْسُوا من رد أخيهم إليهم تشاوروا فيما بينهم لا يخاطبهم غيرهم من الناس ، يتناجون فيما عَرَضَ لهم . والتجى فعليل بمعنى المناجى .

قوله تعالى : (قَالَ كَبِيرُهُمْ) قال قتادة : هو روبيل ، كان أكبرهم في السن . مجاهد : هو شمعون ، كان أكبرهم في الرأى . وقال الكلبي : هوذا ؛ وكان أعظمهم . وقال محمد ابن كعب وابن إسحق : هو لآوى ، وهو أبو الأنبياء . (أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ

(١) هو يهيم بن زئيل اليربوعي يصف قوماً أتتهم السير والسفر ، فرقدوا على رءسهم ، واضطربوا طبعاً ، وشك بعضهم على نافته حذار سقطه . وقيل : إنما ضربه مثلاً لنزول الأمر المهم . والأرشية الحبال التي يستقي بها ، والمراد أنه ثابت الجأش . و (أَوْصَيْتَنِي وَلَا تُوصِي) بالياء لأنه يخاطب مؤنثاً .

مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ) أى عهدا من الله فى حفظ أبنه، وردّه إليه. (وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ) «ما» فى عمل نصب عطفًا على «أَت» والمعنى: ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ طيكم موثقا من الله، وتعلموا تفريطكم فى يوسف؛ ذكره النحاس وغيره. و«مِن» فى قوله: «وَمِن قَبْلُ» متعلقة بـ«تعلموا». ويجوز أن تكون «ما» زائدة؛ فيتعلق الظرفان اللذان هما «من قبل» و«فى يوسف» بالفعل وهو «فرطتم». ويجوز أن تكون «ما» والفعل مصدرًا، و«من قبل» متعلقًا بفعل مضمر؛ التقدير: تفريطكم فى يوسف واقع من قبل؛ فما والفعل فى موضع رفع بالابتداء، والخبر هو الفعل المضمر الذى يتعلق به «من قبل». (فَإِنَّ أَوَّلَ بَرٍّ أَتَى الْأَرْضَ) أى ألزمها، ولا أبرح مقيا فيها؛ يقال: برّح برّاحًا وبرّوحًا أى زال، فإذا دخل النفى صار مثبتًا. (حَتَّى يَأْتِيَ إِلَى أَبِيهِ) بالرجوع فإنى استحى منه. (أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ لِي) بالمرز مع أمى فامضى معه إلى أبى. وقيل: المعنى أو يحكم الله لى بالسيف فأحارب وأخذ أمى، أو أعجز فأعزف بعذر، وذلك أن يعقوب قال: «لَتَأْتِيَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ» ومن حارب وعجز فقد أحبط به؛ وقال ابن عباس: وكان يهودا إذا غضب وأخذ السيف فلا يرّد وجهه مائة ألف؛ يقوم شعره فى صدره مثل المسّال فتنفذ من ثيابه. وجاء فى الخبر أن يهودا قال لأخوته — وكان أشدهم غضبًا — : إما أن تكفونى الملك ومن معه أكفكم أهل مصر؛ وإما أن تكفونى أهل مصر أكفكم الملك ومن معه؛ قالوا: بل أكفنا الملك ومن معه نكفك أهل مصر؛ فبعث واحدا من إخوته فعدّوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق؛ فأخذ كل واحد منهم سوقا؛ ثم إن يهودا دخل على يوسف وقال: أيها الملك! لئن لم تخلّ معنا أخانا لأصيحن صيحة لأتّين فى مدينتك حاملا إلا أسقطت ما فى بطنها؛ وكان ذلك خاصا فيهم عند الغضب؛ فغضبه يوسف وأسمعه كلمة، فغضب يهودا وأشتد غضبه، وانتفجت شعراته، وكذا كان كل واحد من بنى يعقوب؛ كان إذا غضب، أقشمت جلده، وانتفخ جسده، وظهرت شعرات ظهره من تحت الثوب، حتى تقطر من كل شعرة قطرة دم؛ وإذا ضرب الأرض برجله تزلزلت وتهلّم البليان، وإن صاح صيحة لم تسمعه حامل من النساء والبهائم

والطير إلا وضعت ما في بطنها، تماما أو غير تمام؛ فلا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دما، أو تمسكه
يد من نسل يعقوب؛ فلما علم يوسف أن غضب أخيه يهوذا قد تم وكل كَلَم ولدا له صغيرا
بالقبطية، وأمره أن يضع يده بين كتفي يهوذا من حيث لا يراه؛ ففعل فسكن غضبه وألقى
السيف، فالتفت يمينا وشمالا لعله يرى أحدا من إخوته فلم ير؛ فخرج مسرعا إلى إخوته
وقال: هل حضرتي منكم أحد؟ قالوا: لا! قال: فأين ذهب شمعون؟ قالوا: ذهب
إلى الجبل، فخرج فلقيه، وقد احتمل صخرة عظيمة؛ قال: ما تصنع بهذه؟ قال: أذهب
إلى السوق الذي وقع في نصبي أشدخ بها رؤوس كل من فيه؛ قال: فارجع فردّها أو فالفها
في البحر، ولا تحدثن حدّثا؛ فوالذي آخذ إبراهيم خليلا! لقد مسّني كفّ من نسل يعقوب؛
ثم دخلوا على يوسف، وكان يوسف أشدّهم بطشا، فقال: يا معشر العبرانيين! أنظنون أنه
ليس أحد أشدّ منكم قوة، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحون فركّكه برجله فدّسا به
من خلف الجدار - الرُّكْل الضرب بالرجل الواحدة؛ وقد ركّكه يركّكه؛ قاله الجوهري - ثم
أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرّعه، وقال: هات الحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب
أعناقهم، ثم صعد على سريره، وجلس على فراشه، وأمر بصّواعه فوضع بين يديه، ثم قرعه
نقرة فخرج طنينه، فالتفت إليهم وقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنه يقول:
لأنه ليس على قلب أبي هؤلاء هم ولا غم ولا كرب إلا بسببهم، ثم قرع نقرة ثانية وقال: إنه
يخبرني أن هؤلاء أخذوا أخاهم صغيرا فحسدوه وزعموه من أيهم ثم ألقوه؛ فقالوا: أيها العزيز!
آستر علينا ستر الله عليك، وآمن علينا من الله عليك؛ فنقره نقرة الثالثة وقال إنه يقول:
إن هؤلاء طرحوا صغيرهم في الحب، ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس، وزعموا لأيهم أن الذئب
أكله؛ ثم قرعه رابعة وقال: إنه يخبرني أنكم أذنبتم ذنبا منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه؛
ولم تنوبوا إليه؛ ثم قرعه خامسة وقال إنه يقول: إن أخاهم الذي زعموا أنه هلك لن تنهب
الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا؛ ثم قرع سادسة وقال إنه يقول: لو كنتم أنبياء
أو بنى أنبياء ما كذبت ولا عقتم والدكم؛ لأجعلنكم نكالا للعالمين. آيتوني بالحدادين أقطع

أيديهم وأرجلهم ، ففضّروا وبكوا وأظهروا التوبة وقالوا : لو قد أصبنا أخانا يوسف إذ هو حي لتكون طوع يده ، وتزاي يطا علينا برجله ؛ فلما رأى ذلك يوسف من إخوته بكى وقال لهم : انزعجوا عني ! قد خليت سبيلكم إكراما لأبيكم ، ولولا هو لجلعتكم نكالا .

قوله تعالى : **أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَّابَانَا إِنَّا أَبْنَاءُكَ سَرَقَ**

وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : **(أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ)** قاله الذي قال : « **فَلَنَ أَرْجِعَ إِلَىٰ الْأَرْضِ** » . **(فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ أَبْنَاءَكَ سَرَقَ)** وقرا ابن عباس والضحاك وأبو زرير « **إِنَّ أَبْنَاءَكَ سَرَقَ** » . النحاس : وحدثني محمد بن أحمد بن عمر قال حدثنا ابن شاذان قال حدثنا أحمد بن أبي سريح البغدادي قال : سمعت الكسائي يقرأ « **يَا أَبَانَا إِنَّ أَبْنَاءَكَ سَرَقَ** » بضم السين وتشديد الزاء مكسورة ؛ على ما لم يُسم فاصله ؛ أي تُسب إلى السرقة ورؤى بها ؛ مثل خوثته وفسقته وفجورته إذا نسبته إلى هذه الخلال . وقال الزجاج : « **سَرَقَ** » يمتثل معنيين : أحدهما — علم منه السرقة ، والآخر — أنهم بالسرقة . قال الجوهري : والسرقة والسرقة بكسر الراء فيها هو آسم الشيء المسروق ، والمصدر سَرَقَ يسرق سرقة بالفتح .

قوله تعالى : **(وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا)** .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « **وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا** » يريدون ما شهدنا قط إلا بما علمنا ، وأما الآن فقد شهدنا بالظاهر وما تعلم الغيب ؛ كأنهم وقعت لهم تهمة من قول بنيامين : **دَسَّ** هذا في رحلي من دَسَّ بضاعتكم في رحالكم ؛ قال معناه ابن إسحق . وقيل المعنى : ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يُسَرَّقُ إلا بما علمنا من دينك ؛ قاله ابن زيد . **(وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ)** أي لم تعلم وقت أخذنا منك أنه يسرق فلا نأخذه . وقال مجاهد وقتادة : ما كنا

(١) هو العباس بن الفضل بن شاذان ، كما في « غايه النباية » .


نعم أن أبناك يُسرق ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا : نحفظ أخانا فيما نطبق . وقال ابن عباس : يعنون أنه سرق ليلا وهم نيام، والغيب هو الليل بلغة حمير ؛ وعنه : ما كنا نعلم ما يصنع في ليلة ونهاره وذهابه وإيابه . وقيل : ما دام برأى منا لم يجر خَلَل ، فلما غاب عنا خفيت عنا حالته . وقيل معناه : قد أخذت السرقة من رَحْلِهِ ، ونحن أُنزجناها وننظر إليها ، ولا علم لنا بالغيب ، فظلمهم سرقوه ولم يسرق .

الثانية — تضمنت هذه الآية جواز الشهادة بأى وجه حصل العلم بها ؛ فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلا وشرعا ، فلا تسمع إلا بمن علم ، ولا تقبل إلا منهم ، وهذا هو الأصل في الشهادات ؛ ولهذا قال أصحابنا : شهادة الأعمى جائزة ، وشهادة المستمع جائزة ، وشهادة الأعمس إذا فهمت إشارته جائزة ؛ وكذلك الشهادة على الخطأ — إذا تيقن أنه خطئه أو خطأ فلان — صحيحة ؛ فكل من حصل له العلم ببنىء جاز أن يشهد به وإن لم يشهده المشهود عليه ؛ قال الله تعالى : « **إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشَّهَدَاءِ خَيْرُ الشَّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَها »** وقد مضى في **« البقرة »** ^(١) .

الثالثة — اختلف قول مالك في شهادة المروء ؛ وهو أن يقول : مررت بفلان فسمعتة يقول كذا ؛ فإن استوعب القول شهد في أحد قوليهِ ، وفي القول الآخر لا يشهد حتى يشهده ؛ والصحيح أن الشهادة عند الاستيعاب ؛ وبه قال جماعة العلماء ، وهو الحق ؛ لأنه حصل المطلوب ، وتعين عليه أداء العلم ؛ فكان خير الشهاداء إذا علم المشهود له ، وشر الشهاداء إذا كتمها .

الرابعة — إذا أَدعى رجل شهادة لا يحتملها عمره ردَّت ؛ لأنه أَدعى باطلا فأكذبه العيان ظاهرا .

قوله تعالى : **وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا**

وَلِنَّا لَصَدِّقُونَ 

فيه مستثان :

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَآسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ﴾ حَقَّقُوا بها شهادتهم عنده، ورفضوا التهمة عن أنفسهم لثلاثتهم بقولهم . « وآسال القرية » أى أهلها ؛ فحذف؛ ويريدون بالقرية مصر . وقيل : قرية من قراها نزولوا بها وأمتاروا منها . وقيل المعنى : « وآسال القرية » وإن كانت جمادا، فانت نبي الله، وهو ينطق الجماد لك، وعلى هذا فلاحاجة إلى إضمار؛ قال سيويه : ولا يجوز كَلَّمْ هندا وأنت تريد غلام هند ؛ لأن هذا يُشكَل . والقول في السير كالقول في القرية سواء . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ في قولنا .

الثانية — في هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حق، وعلم أنه قد بَطَلَ به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهم أن يرفع التهمة وكل ربية عن نفسه ، ويصرح بالحق الذي هو عليه، حتى لا يبقى لأحد مُتَكَلِّمٌ ؛ وقد فعل هذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله للرجلين اللذين مرَّا وهو قد خرج مع صفيّة ^(١) يَقبلُها من المسجد على رسلِكنا إنما هي صفيّة بنت حُجَيَّة فقالا : سبحان الله ! وكَبُرَ عليهما ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغَ التَّم وإني خَشِيتُ أَنْ يَهْزِفَ فِي قُلُوبِكَا شَيْطَانٌ “ رواه البخارى ومسلم .

قوله تعالى : قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ الْاَنفُسُ كُرْ اَمْرًا فَعَصِرَ جَمِيلٌ عَسَى اَللهُ اَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا اِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٧﴾

فيه مستثان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أى زَلَّلَتْ . ﴿ لَكُمُ اَنفُسُكُمْ ﴾ ان أبى سَرَق وما سَرَق، وإنما ذلك لأمر يريدُه الله . ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى فشأنى صبر جميل ؛ أو صبر جميل أولى بي، على ما تقدّم أوّل السورة .

(١) يَقبلُها : يردّها .

الثانية - الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضا والتسليم لحيره عليه وهو العليم الحكيم، وبقتهدى يعقوب وماتر النبيين، صلوات الله عليهم. وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال: ما من جرعتين يتجرعهما العبد أحب إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو. وقال ابن جريح عن مجاهد في قوله تعالى: «فصبر جميل» أي لا أشكو ذلك إلى أحد. وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ بَثَّ لَمْ يَصِرْ». وقد تقدم في «البقرة» أن الصبر عند أول الصدمة، وثواب من ذكر مصيبته وأسترجع وإن تقدم عهدا، وقال جوير عن الضمك عن ابن عباس قال: إن يعقوب أعطى على يوسف أجرة مائة شهيد، وكذلك من أحسب من هذه الأمة في مصيبته فله أجر يعقوب عليه السلام.

قوله تعالى: «عَمَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا») لأنه كان عنده أن يوسف صلى الله عليه وسلم لم يمت، وإنما غاب عنه خبره؛ لأن يوسف حُمل وهو عبد لا يملك لنفسه شيئا، ثم اشتراه الملك فكان في داره لا يظهر للناس، ثم حبس، فلما تمكن آحتال في أن يعمل أبوه خبره؛ ولم يوجه برسول لأنه كره من إخوته أن يعرفوا ذلك، فلا يدعوا الرسول يصل إليه. وقال: «بهم» لأنهم ثلاثة؛ يوسف وأخوه، والمتخلف من أجل أخيه، وهو القائل: «فلن أبيع الأرض». «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ» بحال. «الْحَكِيمُ» فيما يقضى.

قوله تعالى: «وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسُفُ عَلَى يَوْسُفَ وَأَيُّضْتُ عَيْنَاهُ

مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَبِيمٌ»

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: «وَتَوَلَّى عَنْهُمْ») أي أعرض عنهم؛ وذلك أن يعقوب لما بلغه

خبر بنيامين نكثاً حزنه، وبلغ جهده، وجدد الله مصيبته له في يوسف فقال: «يَا أَسَفَا

عَلَى يُوسُفَ ﴿ وَنَسِيَ أَبْنَهُ بَنِيَامِينَ فَلَمْ يَذْكُرْهُ ۚ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : لَمْ يَكُنْ عِنْدَ يَعْقُوبَ مَا فِي كِتَابِنَا مِنَ الِاسْتِرْجَاعِ ، وَلَوْ كَانَ عِنْدَهُ لَمَّا قَالَ : « يَا أَسْفَا عَلَى يُونُسَ » . قَالَ قَتَادَةُ وَالْحَسَنُ : وَالْمَعْنَى يَا حَزَنَاهُ ! وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضُّحَّاكُ : يَا جِرْعَاهُ ! قَالَ كَثِيرٌ : فَيَا أَسْفَا لِلْقَلْبِ كَيْفَ أَنْصَرَفَهُ * وَلِلنَّفْسِ لَمَّا سُلِّتَ قَتَسَلَتْ

وَالْأَسْفُ شِدَّةُ الْحُزْنِ عَلَى مَا فَاتَ . وَالنَّدَاءُ عَلَى مَعْنَى : تَعَالَى يَا أَسْفُ فَإِنَّهُ مِنْ أَوْفَاتِكَ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : الْأَصْلُ يَا أَسْفَى ؛ فَأَبْدَلَ مِنَ الْيَاءِ أَلِفَ لُحْفَةِ الْفَتْحَةِ . ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ ﴾ قِيلَ : لَمْ يَبْصُرْهُمَا سِتُّ سَنِينَ ، وَأَنَّهُ عَمِيَ ؛ قَالَهُ مِقَاتٌ . وَقِيلَ : قَدْ تَبَيَّضَتِ الْعَيْنُ وَبَقِيَ شَيْءٌ مِنَ الرُّؤْيَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَالِ يَعْقُوبَ ؛ وَإِنَّمَا أَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْبُكَاءِ ، وَلَكِنْ سَبَبُ الْبُكَاءِ الْحُزْنُ ، فَلِهَذَا قَالَ : « مِنَ الْحُزَنِ » . وَقِيلَ : إِنْ يَعْقُوبَ كَانَ يَصَلِّي ، وَيُوسُفَ نَائِمًا مُعْتَزِلًا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَغَطَّ فِي نَوْمِهِ ، فَالْتَفَتَ يَعْقُوبَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ غَطَّ ثَانِيَةً فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ غَطَّ ثَالِثَةً فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ سُرُورًا بِهِ وَبِغَطِيظِهِ ؛ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَلَائِكَتِهِ « أَنْظَرُوا إِلَى صَفِيٍّ وَأَبْنِ خَلِيلٍ قَائِمًا فِي مَنَاجَاتِي يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِي ، وَعِزَّتِي وَجَلَّالِي ! لِأَنْزِعَنَّ الْحَدِيقَتَيْنِ اللَّتَيْنِ الَّتِفْتُ بِهِمَا ، وَلَأُفَرِّقَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ الَّتِفْتُ إِلَيْهِ بِمَا نِينَ سَنَةً ؛ لِيَعْلَمَ الْعَالَمُونَ أَنَّ مَنْ قَامَ بَيْنَ يَدَيَّ يَحِبُّ عَلَيْهِ مِرَاقِبَةً نَظَرِي » .

الثانية — هذا يدل على أن الالتفات في الصلاة — وإن لم يُبْطَل — يدل على العقوبة عليها، والتقص فيها ، وقد رَوَى البخاري عن عائشة قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال : ” هو آخلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد “ . وسيأتي ما للعالماء في هذا في أول سورة « المؤمنين » موعبا إن شاء الله تعالى .

الثالثة — قال النحاس : فإن سأل قوم عن معنى شدة حزن يعقوب — صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا — فللعالماء في هذا ثلاثة أجوبة : منها — أن يعقوب صلى الله عليه وسلم لما علم أن يوسف صلى الله عليه وسلم حَيٌّ خَافَ عَلَى دِينِهِ ، فَاشْتَدَّ حُزْنُهُ لِذَلِكَ . وَقِيلَ : إِنَّمَا حُزْنٌ لِأَنَّهُ سَلَّمَ إِلَيْهِمْ صَغِيرًا ، فَندم على ذلك . والجواب الثالث — وهو أَيْبَنُ — هُوَ أَنَّ

الحزن ليس بمحظور، وإنما المحذور الأوليّة وشق الثياب، والكلام بما لا ينبغي. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسطخ الرب". وقد بين الله جلّ وعزّ ذلك بقوله: «فَهُوَ كَظِيمٌ» أى مكظوم مملوء من الحزن يمسك عليه لا يبيته؛ ومنه كَظُمَ الغيظ وهو إخفاؤه؛ فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه؛ قال الله تعالى: «إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ» أى مملوء كرباً. ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم؛ وهو المشتمل على حزنه. وعن ابن عباس: كَظُمَ مغموم؛ قال الشاعر:

فَإِنْ أَكْ كَافِلًا لِّصَاحِبِ شَاسٍ * فَيَأْتِي الْيَوْمَ مُنْطَلِقٌ لِّسَانِي

وقال ابن جريح عن مجاهد عن ابن عباس قال: ذهب حيناؤه من الحزن «فَهُوَ كَظِيمٌ» قال: فهو مكروب. وقال مقاتل بن سليمان عن عطاء عن ابن عباس في قوله: «فَهُوَ كَظِيمٌ» قال: فهو كَيِّدٌ؛ يقول: يعلم أن يوسف حي، وأنه لا يدري أين هو؛ فهو كَيِّدٌ من ذلك. قال الجوهري: الكَيِّدُ الحزن المكتوم؛ تقول منه كَيَّدَ الرَّجُلُ فُهو كَيِّدٌ وَكَيِّدٌ. النحاس: يقال فلان كَظِيمٌ وكَظِيمٌ؛ أى حزين لا يشكو حزنه؛ قال الشاعر:

لَحْضَضْتُ قَوِي وَأَحْسَبْتُ قِتَالَهُ * وَالْقَوْمُ مِنْ خَوْفِ الْمَنَابِ كَظُمَ

قوله تعالى: قَالُوا تَأَلَّوْا تَأَلَّوْا تَفْتَنُوا تَذَكَّرْ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَرَّتِ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى: (قَالُوا تَأَلَّوْا تَفْتَنُوا تَذَكَّرْ يُوسُفَ) أى قال له ولده: «تأله تفتنا تذكر يوسف حتى تكون حرَضاً أو تكون من الهالكين» ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَرَّتِ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ قال الكسائي: فَتَنَّا وَفَتِنْتُ أَفعل ذلك؛ أى مازلت. وزعم الفراء أن «ولا» مضمر؛ أى لا تفتنا، وأنشد:

قُلْتُ يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا * وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي

(١) البيت لا مرئ القيس و«يمين» بالرفع على الابتداء وإضمار الخبر؛ والتقدير: يمين الله لازمي؛ وبالتصديق على إضمار فعل، وهو كثير في كلام العرب كقولهم: أمانة الله. وقد وصف أنه طرق محبوبته فخرقه الرقباء، وأمره بالانصراف، فقال لها هذا، وأراد: لا أبرح خلف «لا». والأوصال (جمع وصل) وهي المفصل.

وقال أمرؤ القيس :

أرى المرء ذا الأذود يُصبح مُحْرَضًا * كلإحراضٍ يَكْرِ في الديارِ مَرِيضًا^(١)

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه المم إذا أسقمه ، ورجل حارض أى أحق . وقرا أنس « حرضا » بضم الحاء وسكون الراء ، أى مثل عود الأشتان . وقرا الحسن بضم الحاء والراء . قال الجوهري : الحرض والحرض الأشتان . (أو تكون من المالكين) أى الميتين ، وهو قول الجميع ؛ وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة عليه ، وإن كانوا السبب في ذلك . قوله تعالى : (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي) حقيقة البث في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء

المهلكة التي لا يتأهل أن يخفيها ؛ وهومن بثته أى فرقه ، فسميت المصيبة بئاً مجازاً ؛ قال ذوالرمة :

وَقَفْتُ عَلَى رَجٍ لَيْسَ فَأَقِي * فَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأَخَاطِبُهُ
وَأُسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أُشْبُهُ * تُكَلِّمُنِي أَتَجَارُهُ وَيَلَايِبُهُ^(٢)

وقال ابن عباس : « بَثِّي » هُمى . الحسن : حاجتى . وقيل : أشد الحزن ، وحقيقته ما ذكرناه . (وَخَرْنِي إِلَى اللَّهِ) معطوف عليه ، أعاده بنير لفظه . (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) أى أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأنى سأمجد له . قاله ابن عباس . وقناة : إني أعلم من إحسان الله تعالى إلى ما يوجب حسن ظنى به . وقيل : قال يعقوب الملك الموت هل قبضت رُوح يوسف ؟ قال : لا ، فأكد هذا رجاءه . وقال السدى : أعلم أن يوسف حى ، وذلك أنه لما أخبره ولده بسيرة الملك وعذله وخُلفه وقوله أحسست نفس يعقوب أنه ولده فطمع ، وقال : لعله يوسف .

قوله تعالى : يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠﴾

(١) الأذود : جمع فرد ، وهو القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع . والكر : الفتى من الإبل ؛ يقول : أرى المرء ذا المال يذكره المرم والمرض ، والقناة : بعد ذلك فلا تنفى كثرة ماله ، كما أن البكر يذكره ذلك .

(٢) أسقيه : أدهره بالسقى .

قوله تعالى : (يَا بَنِي آدَمُ أَهْبُوا فَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ) هذا يدل على أنه تيقن حياته ؛ إما بالرؤيا ، وإما بإتفاق الله تعالى الذنب كما في أول القصة ، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض رُوحه ؛ وهو أظهر . والتَّحَسُّس طلب الشيء بالحواس ؛ فهو تفعل من الحس ، أى أذهبوا إلى هذا الذى طلب منكم أخاكم ، وأختال عليكم فى أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه ؛ ويروى أن ملك الموت قال له : أطلبه من هاهنا ! وأشار إلى ناحية مصر . وقيل : إن يعقوب تنبه على يوسف برقة البضاعة ، واحتباس أخيه ، وإظهار الكرامة ؛ فلذلك وجههم إلى جهة مصر دون غيرها . (وَلَا تَيْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ) أى لا تقنطوا من فرج الله ؛ قاله ابن زيد ؛ يريد : أن المؤمن يرجو فرج الله ، والكافر يقنط فى الشدة . وقال قتادة والضحاك : من رحمة الله . (إِنَّهُ لَا يَيْتَسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) دليل على أن القنوط من الكثرة ، وهو اليأس ، ومبائى فى « الزمر » بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْفُضْرُ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مِنْ جَنْةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ) أى المحتج . (مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْفُضْرُ) هذه المرة الثالثة من عودهم إلى مصر ؛ وفى الكلام حذف ، أى نفرجوا إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف قالوا : « مَسَّنَا » أى أصابنا « وَأَهْلَنَّا الْفُضْر » أى الجوع والحاجة ؛ وفى هذا دليل على جواز الشكوى عند الضر ، أى الجوع ، بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره أن يسدى حاله إلى من يرجو منه النفع ، كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه ؛ ولا يكون ذلك قدسا فى التوكل ، وهذا ما لم يكن التشكى على سبيل التخطئ والصبر والتجهد فى الثواب أحسن ، والتعفف عن المسئلة أفضل ، وأحسن الكلام

(١) فى تفسير قوله تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ... » آية ٥٣ من السورة المذكورة .

في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى ؛ وذلك قول يعقوب : « إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون » أي من جميل صنعه ، وغريب لطفه ، وعائده على عباده ؛ فاما الشكوى على غير مثلك فهو السفه ، إلا أن يكون على وجه البت والتسلي ؛ كما قال ابن دريد :

لَا تَحْسَبَنَّ يَا دَهْرُ أَتَى ضَارِعٌ * لِنَكْبَةٍ تَعْرِفُنِي عَرَقُ الْمَدَى
مَا رَسَتْ مِنْ هَوَاتِ الْأَفْلَاكُ مِنْ * جَوَانِبِ الْحَوَاطِيهِ مَا شَكَا
لِكَبِّهَا نَفْسُهُ مَصْدُورٌ إِذَا * بَجَاشَ لُغَامٌ مِنْ تَوَاحِيهَا غَمَا^(١)

قوله تعالى : (وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ) البضاعة القطعة من المال يقصد بها شراء شيء ؛ تقول : أبضعت الشيء وأسبضته أي جعلته بضاعة ؛ وفي المثل : كسببضعت التمر إلى هجر .^(٢)

قوله تعالى : (مُزَجَّاةٌ) صفة لبضاعة ؛ والإجزاء السوق بدفع ؛ ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي تَهَابًا » والمعنى أنها بضاعة تدفع ، ولا يقبلها كل أحد . قال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة . واختلف في تمييزها ؛ ف قيل : كانت قديداً وحش ؛ ذكره الواقدي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وقيل : خلق الغرائر والحبال ؛ روى عن ابن عباس . وقيل : مناع الأهراب صوف وسمن ؛ قاله عبد الله بن الحارث . وقيل : الحبة الخضراء والصنوبر وهو البطم ، حب شجر بالشام ، يؤكل ويمصر الزيت منه لعمل الصابون ؛ قاله أبو صالح ؛ فباعوها بدرهم لا تنفق في الطعام ، وتنفق فيما بين الناس ؛ فقالوا : أخذها منا بحساب جباد تنفق في الطعام . وقيل : درهم رديئة ؛ قاله ابن عباس أيضاً . وقيل : ليس عليها صورة يوسف ، وكانت دراهم مصر عليها صورة يوسف . وقال الضمك : النعال والأدم ؛ وعنه كانت سويقاً منخلًا . والله أعلم .

(١) النعام : الزبد ؛ وهو ما يلتقيه البئر من فة ؛ وغما : سقط ؛ يقال : غما البئر الزبد إذا رماء بنفض رأسه

ومشفره . (٢) هجر : مدينة بالبحرين .

قوله تعالى : (فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا) .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » يريدون كما يبيع بالدرهم الجياد لا تتقصنا بمكان دراهمتنا ؛ وهذا قول أكثر المفسرين . وقال ابن جرير : « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » يريدون الكيل الذي كان قد كاله لأخيهم . « وتصدق علينا » أى تفضل علينا بما بين سعر الجياد والريثة ، قاله سعيد بن جبيرة والسدي والحسن ؛ لأن الصدقة تحرم على الأنبياء . وقيل المعنى : « تصدق علينا » بالزيادة على حقنا ؛ قاله سفيان بن عيينة . قال مجاهد : ولم تحرم الصدقة إلا على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن جرير : المعنى « تصدق علينا » برء أخينا إلينا . وقال ابن شجرة : « تصدق علينا » تجوز عنا ؛ وأشهد بقول الشاعر :

تَصَدَّقْ عَلَيْنَا يَا أَبْنَ عَفَّانَ وَأَحْسِبْ * وَأَمْرَ عَلِيٍّ الْأَشْمَرَى كَيْلًا

(إِنْ اللَّهَ يَجْزَى الْمُتَصَدِّقِينَ) يعنى في الآخرة ؛ يقال : هذا من معاريض الكلام ؛ لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم ، فلذلك لم يقولوا : إن الله يحزرك بصدقتك ، فقالوا لفظاً يومه أنهم أرادوه ، وهم يصح لهم إخراجها بالتأويل ؛ قاله النقاش . وفي الحديث : « إن في المعاريض لمدوحة من الكذب » .

الثانية — استدل مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيل على البائع ؛ قال ابن القاسم وابن نافع قال مالك : قالوا ليوسف « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » فكان يوسف هو الذى يكيل ، وكذلك الوزان والعداد وغيرهم ؛ لأن الرجل إذا باع عتة معلومة من طعامه ، وأوجب العقد عليه ، وجب عليه أن يبرزها ويميز حق المشتري من حقه ، إلا أن يبيع منه شيئاً — صبرة أو مالا حق توفيقه — نفلى بينه وبينه ، فما جرى على المبيع فهو على المبتاع ؛ وليس كذلك ما فيه حق توفية من كيل أو وزن ، ألا ترى أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفية ، وإن تلف فهو منه قبل التوفية .

(١) المعاريض : جمع معارض ، من التمريض وهو خلاف التمريض من القول .

الثالثة — وأما أجرة النقد فلي البائع ؛ لأن المبتاع الدافع لدرامته يقول : إنها طيبة ، فانت الذي تدعى الرذاة فأنظر لنفسك ؛ وأيضا فإن النفع يقع له فصار الأجر عليه ، وكذلك لا يجب على الذي عليه القصاص ؛ لأنه لا يجب عليه أن يقطع يد نفسه ، إلا أن يمكن من ذلك طائما ؛ ألا ترى أن فرضا عليه أن يهدى يده ، ويصالح عليه إذا طلب المقتص ذلك منه ، فأجر القطاع على المقتص . وقال الشافعي في المشهور عنه : إنها على المقتص منه كالبائع .

الرابعة — يكره للرجل أن يقول في دعائه : اللهم تصدق علي ؛ لأن الصدقة إنما تكون من بيتي الثواب ، والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم لا رب غيره ؛ وسمع الحسن رجلا يقول : اللهم تصدق علي ؛ فقال الحسن : يا هذا ! إن الله لا يتصدق إنما يتصدق من بيتي الثواب ؛ أما سمعت قول الله تعالى : « إن الله يميز المتصدقين » قل : اللهم أعطني وفضل علي .

قوله تعالى : قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَأَنْتَ الَّذِي كُنَّا نَبْغِي قَالَ أَتَأْتُونَ الْمَسْجِدَ وَالْمَسْجِدَ لِلَّهِ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ ﴿١١١﴾ قَالَ لَا تَغْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٢﴾ أَذْهَبُوا بِقِمِيصِي هَذَا فَأَلْقَوْهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأُنْتَوَىٰ بِأَهْلِكُمُ أَجْمَعِينَ ﴿١١٣﴾

قوله تعالى : (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ) . استفهام بمعنى التذكير والتوبيخ ، وهو الذي قال الله : « لَتَذْكُرَنَّ^(١)هم^(٢) بآسرهم » . (إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ) دليل على أنهم

(١) أي تصديق قول الله ، كما في تفسير القرطبي .

كانوا صغارا في وقت أخذهم ليوسف ، غير أنبياء ؛ لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته ، ويدل على أنه حسلت حاكم الآن ؛ أى فعلتم ذلك إذ أنتم صغار جهال ؛ قال معناه ابن عباس والحسن ؛ ويكون قولهم : « وإن كنا لحاطئين » على هذا ، لأنهم كبروا ولم يجبروا أباهم بما فعلوا حياء وخوفا منه . وقيل : جاهلون بما تؤول إليه العاقبة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَأَتَيْنَاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ لما دخلوا عليه فقالوا : « مَسْنَا وَهَذَا الضَّرُّ » فغضبوا له وتواضعوا رِقًّا لهم ، وعرفتهم بنفسه ، فقال : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟ فتنبهوا فقالوا : « أَأَتَيْنَاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ » قاله ابن إسحق . وقيل : إن يوسف تيمم فشبهوه بيوسف واستفهموا . قال ابن عباس لما قال لهم : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف » الآية ، ثم تبسم يوسف — وكان إذا تبسم كأن ثناياه للؤلؤ المنظوم — فشبهوه بيوسف ، فقالوا له على جهة الاستفهام : « أَأَتَيْنَاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ » . وعن ابن عباس أيضا أن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه ، وكان في قرنه علامة ، وكان يعقوب مثلها شبه الشامة ، فلما قال لهم : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف » رفع التاج عنه فعرفوه ، فقالوا : « أَأَتَيْنَاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ » . وقال ابن عباس : كتب يعقوب إليه يطلب ردّ ابنه ، وفي الكتاب : من يعقوب صفى الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر — أما بعد — فإنا أهل بيت بلاء وعن ، ابتلى الله جدى إبراهيم بنمرد وناره ، ثم ابتلى أبى إسحق بالذبح ، ثم ابتلانى بولد كان لى أحبّ أولادى لى حتى كُفّ بصرى من البكاء ، ولانى لم أسرق ولم ألد سارقا والسلام . فلما قرأ يوسف الكتاب أرعدت مفاصله ، واشتدّ جلده ، وأرغى عيذه بالبكاء ، وعيل صبره فباح بالسر . وقرأ ابن كثير « إنك » على الخبر ، ويجوز أن تكون هذه القراءة استفهاما كقوله : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ » . ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ ﴾ أى أنا المظلوم والمراد قتله ، ولم يقل أنا هو تعظيما للقصة . ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أى بالنجاة والملك . ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ أى يتق الله ويصبر على المصائب وعن المعاصى . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى الصابرين فى بلاءه ، القامعين بطاعته . وقرأ ابن كثير « إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ » بإثبات الياء ، والقراءة به جائزة على أن تجعل

«مَنْ» بمعنى الذى، وتدخل «يَتَّقِ» فى الصلوة، فتثبت الياء لا غير، وترفع «ويصبر». وقد يجوز أن تجزم «ويصبر» على أن تجعل «يَتَّقِ» فى موضع جزم «ومن» للشرط، وتثبت الياء، وتجعل علامة الجزم حذف الضمة التى كانت فى الياء على الأصل، كما قال :

ثم نادى إذا دخلت دمشقاً * يا يزيد بن خالد بن يزيد

وقال آخر :

ألم ياتيك والانباء تنبى * بما لاقت بكون نبي زياد

وقراءة الجماعة ظاهرة، والهاء فى «إنه» كناية من الحديث، والجملة الخبر.

قوله تعالى : (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا) الأصل همزتان خفت الثانية، ولا يجوز تحقيقها، وأسم الفاعل مؤثر، والمصدر إثارة. ويقال آثرت التراب إثارة فانا مؤثر، وهو أيضا على أفعل ثم أصل، والأصل أثير نقلت حركة الياء على التاء، فانقلبت الياء ألفا، ثم حذفت لالتقاء الساكنين. وآثرت الحديث على قلت فانا آثر، والمعنى : لقد فضلك الله علينا، واختارك بالعلم والحلم والحكم والعقل والملك. (وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ) أى مذنبين من خطيئ يحطأ إذا أتى الخطيئة، وفى ضمن هذا سؤال العفو. وقيل لابن عباس : كيف قالوا «وإن كنا لخاطئين» وقد تعمدوا لذلك؟ قال : وإن تعمدوا لذلك، وما تعمدوا حتى أخطوا الحق، وكذلك كل من أتى ذنبا تحطى المنهاج الذى عليه من الحق، حتى يقع فى الشبهة والمعصية.

قوله تعالى : (لَا تَتَرَبَّعَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ) أى قال يوسف — وكان حليما موقفا — : «لا تتريب عليكم اليوم» وتم الكلام. ومعنى «اليوم» : الوقت. والتريب التبعير والتوبيخ، أى لا تميز ولا توبخ ولا لوم عليكم اليوم؛ قاله سفيان الثوري وغيره؛ ومنه قوله عليه السلام : «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يُترَب عليها» أى لا يُعبرها؛ وقال بشر : ففَقَوْتُ عنهم عَقْوَ غَيْرِ مُثَرَّبٍ * وتركتم لعقاب يوم سسرمد

(١) كذا فى الأصل وإعراب القرآن التماس. ويلاحظ أن من الفعل وارداً ياء، وعليه فالأصل أنثور، فقلت حركة الراول إلى ما قبلها فقلت ألفا، ثم حذفت — عند اتصال الفعل بشئ متحرك — لالتقاء الساكنين.

وقال الأصمعي : ثَبُتَ عليه وعَرِّبْتُ عليه بمعنى إذا قُبِحَتْ عليه فعله . وقال الزجاج : المعنى لا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة ، وحق الإخوة ، ولكم عندى العفو والصفح ؛ وأصل التثريب الإفساد ، وهى لغة أهل الحجاز . وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بمُضَادَّتِي الباب يوم فتح مكة ، وقد لَادَ الناسُ بالبيت فقال : « الحمد لله الذى صدق وَعْدَهُ ونصر عِبْدَهُ وهَزَمَ الأحزاب وحَدَهُ » ثم قال : « ماذا تظنون يا معشر قريش ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم وقد قَدَّرْتَ ؟ قال : « وأنا أقول كما قال أنى يوسف « لا تثريب عليكم اليوم » » فقال عمر رضى الله عنه : فِفَضْتُ عَرَقًا من الحياء من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ذلك أنى كنت قد قلت لهم حين دخلت مكة : اليوم ننتقم منكم ونفعل ، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال استحييت من قولى . (يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ) مستقبل فيه معنى الدماء ؛ سأل الله أن يستر عليهم ويرحمهم . وأجاز الأخفش الوقف على « عليكم » والأول هو المستعمل ؛ فإن فى الوقف على « عليكم » والابتداء بـ « اليوم يغفر الله لكم » جَزَمَ بالمغفرة فى اليوم ، وذلك لا يكون إلا عن وحى ، وهذا بين . وقال عطاء الخراسانى : طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ ؛ ألم تر قول يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » وقال يعقوب : « سوف أستغفر لكم ربى » .

قوله تعالى : (أَذْهَبُوا بِقِمِيصِي هَذَا) نعت للقميص ، والقميص مذكر ، فأما قول الشاعر :

تَدْعُو هَوَازَانَ الْقَمِيصُ مُفَاضَّةً * فَوْقَ النَّطَاقِ تُنْشِدُ بِالْأُزْرَارِ

فتدريه : [والقميص] دِرْعُ مُفَاضَّة . قاله النحاس . وقال ابن السدى عن أبيه عن مجاهد : قال لم يوسف « أَذْهَبُوا بِقِمِيصِي هَذَا فَالْقَوَى عَلَى وَجْهِ أُنَى بَابِ بَصِيرَا » قال : كان يوسف أعلم بالله من أن يعلم أن قميصه يَرُدُّ على يعقوب بصره ، ولكن ذلك قميص إبراهيم الذى ألبسه الله فى النار من حرير الجنة ، وكان كساه إسحق ، وكان إسحق كساه يعقوب ، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص فى قَصَبَةٍ من فضة وعلقه فى عُتْقِ يوسف ، لِمَا كَانَ يخاف عليه من

العين، وأخبره جبريل بأن أرسل قيصك فإن فيه ريح الجنة، وريح الجنة لا يقع على سليم ولا مُبْتَلَى إلا عَوَى . وقال الحسن : لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره، وكان الذي حمل قيصه يهوذا، قال ليوسف : أنا الذي حملت إليه قيصك بدم كذب فأخزنته، وأنا الذي أحمله الآن لأمرته، وليعود إليه بصره، فغلمه، حكاه السدي . (وَأُتْرِفِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) لتتخذوا مصر دارا . قال مسروق : فكانوا ثلاثة وتسعين ، ما بين رجل وأمرأة . وقد قيل : إن القميص الذي بعثه هو القميص الذي قُد من دُبره، ليعلم يعقوب أنه عِصَم من الزنى، والقول الأول أصح، وقد روى مرفوعا من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : ذكره القشيري - والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تَفْنِدُونِ ﴿١٥﴾ قَالُوا تَأَلَّهَ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا يَبْنَأُنَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ) أى خرجت متطلعة من مصر إلى الشام، يقال : فصلَّ فُصُولًا، وفصلته فُصُلًا، فهو لازم ومتعد . (قَالَ أَبُوهُمْ) أى قال لمن حضر من قراسته من لم يخرج إلى مصر وهم ولد ولده : (إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) . وقد يحتمل أن يكون خرج بعض بنيه، فقال لمن بقى : « إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تَفْنِدُونِ » . قال ابن عباس : هاجت ريح فخلت ريح قيص يوسف إليه، وبينهما مسيرة ثمان ليال . وقال الحسن : مسيرة عشر ليال؛

وعنه أيضا مسيرة شهر . وقال مالك رضى الله عنه : إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طرفه . وقال مجاهد : هبت ريح فصمقت القميص^(١) فراحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب ، فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فعند ذلك قال : «إني لأجد» أى أشم ؛ فهو وجود حاسة الشم . (لَوْلَا أَنْ تُفْتَنُونَ) قال ابن عباس ومجاهد : لولا أن تُسَفَّهون ؛ ومنه قول النابغة :
لَا سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ الْمَلِكُ لَهُ * قُمْ فِي الْبَرِّيَّةِ فَأَحْدُثْهَا عَرِيَّةً^(٢) الْفَنْدِ
أى عن السَّفَه . وقال سعيد بن جبير والضحاك : لولا أن تكذبون . والفند الكذب . وقد أفند إفنادا كذب ؛ ومنه قول الشاعر :

هل في آفتخار الكريم من أود^(٣) * أم هل لقول الصدوق من فند
أى من كذب . وقيل : لولا أن تُفَبِّحُونَ ؛ فإله أبو عمرو ؛ والتفند التَّبْخِيع ، قال الشاعر :
يا صاحبي دما لومي وتَفْنِدى * فليس ما فات من أصرى بمردود
وقال ابن الأعرابي : «لولا أن تُفْتَنُونَ» لولا أن تُضَعَّفُوا رأيي ؛ وقاله ابن إسحق . والتفند ضعف الرأي من كبر . وقول رابع : تُضَلَّلُونَ ، قاله أبو عبيدة . وقال الأخفش : تلوموني ؛ والتفند اللوم وتضعيف الرأي . وقال الحسن وقتادة ومجاهد أيضا : تُهْرَمُونَ ؛ وكله متقارب المعنى ، وهو راجع إلى التمييز وتضعيف الرأي ؛ يقال فندته تفنديدا إذا عجزته ، كما قال :

* أهلكنى باللوم والتفند

ويقال : أفند إذا تكلم بالخطأ ؛ والفند الخطأ في الكلام والرأي ، كما قال النابغة :

* ... فَأَحْدُثْهَا عَرِيَّةً الْفَنْدِ *

أى أمتعها عن الفساد في العقل ، ومن ذلك قيل : اللوم تفندي ؛ قال الشاعر :

يا عاذلَ دَمَا الْمَلَامِ وَأَقْصِرَا * طَالَ الْمَوَى وَأَطْلَمَا التَّفْنِيدا

(١) صفت الرِّيح التي ، وصفته إذا قلبه ميتا ومثالا ورددته . (٢) شبه الشاعر النعمان سبيدا سليمان عليه السلام لعظم ملكه ؛ وقيل البيت :

ولا أرى فاعلا في الناس يشبه * ولا أحاسنى من الأفرام من أحد

(٣) أود : خرج .

ويقال : أَفَنَدَ فَلَانًا الدَّهْرُ إِذَا أَفْسَدَهُ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ مُقْبِلٍ :

دَعِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ مَا أَرَادَ فَإِنَّهُ * إِذَا كُفِّتِ الْإِفَادُ بِالْبَيْسِ أَفْنَدَا

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ أي لفي ذهاب عن طريق الصواب . وقال ابن عباس وابن زيد : لفي خطيئتك الماضي من حب يوسف لانتفاسه . وقال سعيد بن جبير : لفي جنونك القديم . قال الحسن : وهذا حقوق . وقال قتادة وسفيان : لفي محبتك القديمة . وقيل : إنما قالوا هذا ؛ لأن يوسف عندهم كان قد مات . وقيل : إن الذي قال له ذلك من بني معه من ولده ولم يكن عندهم الخبر . وقيل : قال له ذلك من كان معه من أهله وقربائه . وقيل : بنو بنيه وكانوا صغاراً ؛ فافقه أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَى جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أي على عينيه . ﴿ فَأَرَادَ يَصِيْرًا ﴾ « أَنْ » زائفة ، والبشير قيل هو شمعون . وقيل : يهوذا قال : أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبت به مُلَطَّخًا بالدم ؛ قاله ابن عباس . وعن السدي أنه قال لإخوته : قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص التُّرَّة فدعوني أذهب إليه بقميص الفُرَّة . وقال يحيى بن يمان عن سفيان : لما جاء البشير إلى يعقوب قال له : على أي دين تركت يوسف ؟ قال : على الإسلام ؛ قال : الآن تمت النعمة ؛ وقال الحسن : لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئاً يُشبه به ؛ فقال : والله ما أصبْتُ عندنا شيئاً ، وما خبِزنا شيئاً منذ سبع ليال ، ولكن هوذا الله عليك سكرات الموت .

قلت : وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز ، وأفضل العطايا والنخائر . ودلت هذه الآية على جواز البذل والهبات عند البشائر . وفي الباب حديث كعب بن مالك — الطويل — وفيه : « فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشِّرني نزعْتُ ثوبي فكسوتهما إياه بشارته » وذكر الحديث ، وقد تقدَّم بكاؤه في قصة الثلاثة الذين خَلَفُوا^(١) ، وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليل على جواز مثل ذلك إذا أَرَجَى حصول ما يستبشر به ، وهو دليل على

(١) راجع ج ٨ ص ٢٨٢ وما بعدها طبعة أول مرة ثانية .

جواز إظهار الفرج بعد زوال النعم والتَّرحُّ . ومن هذا الباب جواز حَذَاقَةِ الصَّيْدَانِ ، وإطعام الطعام فيها ، وقد تحرَّعَ عمر بعد سورة «البقرة» جَزُوراً . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَنُفِثُ مِنْ أَلْفٍ مِّنَ اللَّهِ مَلَآ تَعْمَلُونَ ﴾ ذَكَّرَهُمْ قوله : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ في الكلام حذف ، التقدير : فلما رجعوا من مصر قالوا يا أبانا ؟ وهذا يدل على أن الذي قال له : « تالله إنك لفي ضلالك القديم » بنو بنيه أو غيرهم من قرابته وأهله لاولده ؛ فإنهم كانوا غُيَّياً ، وكان يكون ذلك زيادة في العقوق . والله أعلم . وإنما سألوهُ المغفرة ، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله .

قلت : وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلماً في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالماً له ؛ فإنه يجب عليه أن يتَحَلَّلَ له ويخبره بالمظْلَمَةِ وقدرها ؛ وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا ؟ فيه خلاف ، والصحيح أنه لا ينفع ؛ فإنه لو أخبره بمظْلَمَةٍ لها قَدْرٌ وبِأَلٍّ ربما لم تطب نفس المظلوم في التحلُّل منها . والله أعلم . وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له مظْلَمَةٌ لأخيه من عَرْضِهِ أَوْ شَيْءٌ فَلْيَحْلِلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخِذْ مِنْ سَيِّئَاتٍ صَاحِبِهِ فَيُحِلَّ عَلَيْهِ » قال المهلب فقوله صلى الله عليه وسلم : « أَخِذْ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ » يجب أن تكون المظْلَمَةُ معلومة القدر مشاراً إليها مبيّنة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ قال ابن عباس : أُمِرَ دعاءه إلى السَّحَرِ . وقال المُتَنَبِّئُ بن الصَّبَّاحِ عن طاوس قال : سَحَرُ لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ ، ووافق ذلك ليلة عاشوراء . وفي دعاء الحَفِيطِ — من كتاب الترمذی — عن ابن عباس أنه قال : بينا نحن عند رسول الله

صلى الله عليه وسلم لما جاءه على بن أبي طالب - رضى الله عنه - فقال : - بأبي أنت وأمي -
 قُلْتَ هذا القرآن من صدري ، فما أجدني أقدر عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « أفلا أملكك كلمات ينفعك الله بهن وينفع بهن من علمته ويثبت ما تعلمت في صدرك »
 قال : أجل يا رسول الله ! فعلمني ؛ قال : « إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم في ثلث
 الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال أنس يعقوب لبنيه « سوف
 أستغفر لكم ربى » يقول حتى تأتي ليلة الجمعة » وذكر الحديث . وقال أيوب بن أبي تيمية
 السخنياني عن سعيد بن جبير قال : « سوف أستغفر لكم ربى » في الليالي البيض ، في الثالثة عشرة ،
 والرابعة عشرة ، والخامسة عشرة فإن الدعاء فيها مستجاب . وعن عامر الشعبي قال : « سوف
 أستغفر لكم ربى » أى أسأل يوسف إن عفا عنكم أستغفرت لكم ربى ؛ وذكر سفيان بن داود
 قال : حدثنا هشام قال حدثنا عبد الرحمن بن إسماعيل عن محارب بن دثار عن عمه قال :
 كنت أتى المسجد فى السحر فأمر بدار أبى مسعود فاسمعه يقول : اللهم إنك أمرتني
 فاطمت ، ودعوتني فأجبت ، وهذا سحر فأغفرلى ؛ فقلت أبى مسعود قُلْتَ : كلمات اسمك
 تقولن فى السحر ؟ فقال : إن يعقوب أحربيه إلى السحر بقوله : « سوف أستغفر لكم ربى » .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ﴾ أى قَصراً كان له هناك . ﴿ أَوَى إِلَيْهِ أَبُو يَهُئِىَ ﴾
 قيل : إن يوسف بعث مع البشير مائى راحلة وجهازا ، وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده
 جميعا ؛ فلما دخلوا عليه أوى إليه أبويه ، أى ضم ؛ ويعنى بأبويه أباه وخالته ، وكانت أمه
 قد ماتت فى ولادة أخيه بنيامين . وقيل : أحيا الله أمه تحقيقا للرؤيا حتى صحبت له ، قاله
 الحسن ؛ وقد تقدم فى « البقرة » أن الله تعالى أحيا لنبىه عليه السلام أباه وأمه فأما به .

قوله تعالى : ﴿ آدْخُلُوا مِصرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾ قال ابن جرير : أى سوف أستغفر لكم
 ربى إن شاء الله ؛ قال : وهذا من تقديم القرآن وتأخيره ؛ قال النحاس : يذهب ابن جرير إلى أنهم
 قد دخلوا مصر فكيف يقول : « آدْخُلُوا مِصرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » . وقيل : إنما قال « إِنْ شَاءَ اللَّهُ »
 تبركا وجرما . « آمين » من القحط ، أو من فرعون ؛ وكانوا لا يدخلونها إلا بجوازه .

قوله تعالى : وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ مُجْدِبًا وَقَالَ يَبْنَوتُ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَسَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ) قال قتادة : يريد السرير، وقد تقدمت بحملها ؛ وقد يعبر بالعرش عن الملك والملك نفسه ؛ ومنه قول النابغة الذباني :

• عُرُوشٌ تَفَانُوا بِعَدِيٍّ وَأَمْنَةٍ •

(١١)
وقد تقدم •

قوله تعالى : (وَخَرُّوا لَهُ مُجْدِبًا) •

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَخَرُّوا لَهُ مُجْدِبًا » الهاء في « خَرُّوا لَهُ » قيل : إنها تعود على الله تعالى، المعنى : وخرروا شكرًا لله مجدبًا ؛ ويوسف كالقَبْلَةَ لتحقيق رؤياه، وروى عن الحسن ؛ قال النقاش : وهذا خطأ ؛ والهاء راجعة إلى يوسف لقوله تعالى في أول السورة : « رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ » . وكان تحيتهم أن يسجدوا للشرىف، والصغير الكبير، مجدب يعقوب وسنائه وإخوته ليوسف عليه السلام، فاقشعر جلده وقال : « هذا تأويل رؤياي من قبل » وكان بين رؤيا يوسف وبين تأويلها آثنتان وعشرون سنة . وقال سلمان الفارسي : عبد الله بن شداد : أربعون سنة ؛ قال عبد الله بن شداد : وذلك آخر ما تبطل الرؤيا . وقال قتادة : خمس وثلاثون سنة . وقال السدي وسعيد بن جبيرة وعكرمة : ست وثلاثون سنة . وقال الحسن وجرير ابن فرقد وقُضَيْل بن عِيَّاض : ثمانون سنة . وقال وهب بن منبه : ألقى يوسف في الحب وهو ابن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد أن التقى بآبيه ثلاثا وعشرين

سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة. وفي التوراة مائة وست وعشرون سنة. وولد ليوسف من امرأة العزيز افرائيم ومنشا ورحمة امرأة أيوب . وبين يوسف وموسى أربعمائة سنة . وقيل : إن يعقوب بقى عند يوسف عشرين سنة ، ثم توفى صلى الله عليه وسلم . وقيل : أقام عنده ثمانى عشرة سنة . وقال بعض المحدثين : بضعا وأربعين سنة ؛ وكان بين يعقوب ويوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله . وقال ابن إسحق : ثمانى عشرة سنة ، والله أعلم .

الثانية — قال سعيد بن جبيرة عن قتادة عن الحسن — في قوله « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » — قال : لم يكن سجودا ، ولكنه سُنة كانت فيهم ، يُومنون برؤسهم إيماء ، كذلك كانت تحييتهم . وقال الثوري والضحاك وغيرهما : كان مجودا كالسجود الملهود عندنا ، وهو كان تحييتهم . وقيل : كان انحناء كالركوع ، ولم يكن خرورا على الأرض ، وهكذا كان سلامهم بالتكفي والانحناء ، وقد نسخ الله ذلك كله في شرعنا ، وجعل الكلام بدلا عن الانحناء . وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أى وجه كان وإنما كان تحية لآبادة ، قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة .

قلت : هذا الانحناء والتكفي الذى نُسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية ، وعند العجم ، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض ؛ حتى أنت أحدهم إذا لم يُقَم له وسَدَ في نفسه كأنه لا يُؤْبَهُ به ، وأنه لا قَدْرَ له ؛ وكذلك إذا ألقوا أنحنى بعضهم لبعض ، عادة مستمرة ، ووراثَة مستقرة ، لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء ؛ نكَبوا عن السير ، وأعرضوا عن السنن . وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسول الله ! أينحنى بعضنا إلى بعض إذا ألقينا ؟ قال : " لا " ؛ قلنا : أفيعتق بعضنا بعضا ؟ قال " لا " . قلنا : أفيصالح بعضنا بعضا ؟ قال " نعم " . نرحله أبو عمر في " التمهيد " . فإن قيل : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قوموا إلى سيدكم وخيركم " — يعنى سعد بن معاذ — قلنا : ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعينة ؛ وقد قيل : إنما كان قيامهم ليقربوه عن الحماري ؛ وأيضا فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثر ذلك في نفسه ، فإن أثر فيه وأعجب به ورأى لنفسه خطئا لم يجزعونه على ذلك ؛

لقوله صلى الله عليه وسلم : " من مرّه أن يَمُتَلَ له النَّاسُ قياماً فلينبأ مقعده من النار " .
 ونبأ عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجهه أكرمَ طيهم من وجه رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه ، لما يصفون من كراهته لذلك .

الثالثة — فإن قيل : فما تقول في الإشارة بالإصبع ؟ قيل له : ذلك جائز إذا بعد
 عنك ، لتعين له به وقت السلام ، فإن كان دانياً فلا ؛ وقد قيل بالمنع في القرب والبعد ؛
 لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من تشبّه بذيئنا فليس منا " . وقال :
 " لا تُسلموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالأَكْفِ والتّصارى بالإشارة " . وإذا
 سلّم فإنه لا يثنى ، ولا أن يُقبَل مع السلام يده ، ولأن الاحتناء على معنى التواضع لا ينبغي
 إلا لله . وأما قبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم ، ولا يتبعون على أفعالهم التي أحدثوها تعظيماً
 منهم لكبرائهم ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تقوموا عند رأسي كما تقوم الأعاجم عند
 رموس أكاسرتها " فهذا مثله . ولا بأس بالمصافحة ؛ فقد صاغ النبي صلى الله عليه وسلم جعفر
 ابن أبي طالب حين قدم من الحبشة ، وأمر بها ، وندب إليها ، وقال : " تصافحوا يذهب
 الغِل " وروى غالب التَّمَار عن الشَّعْبِي أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا إذا التقوا
 تصافحوا ، وإذا قدموا من سفر تماقوا ؛ فإن قيل : فقد كره مالك المصافحة ؟ قلنا : روى
 ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمماقاة ؛ وذهب إلى هذا يَحْيَى بن وضرة عن أصحابنا ؛
 وقد روى عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة ، وهو الذي يدل عليه معنى ما في الموطأ ؛
 وعلى جواز المصافحة جماعة العلماء من السلف والخلف . قال ابن العربي : إنما كره مالك
 المصافحة لأنه لم يرها أمراً عاماً في الدين ، ولا منقولاً نقل السلام ؛ ولو كانت منه لامتدّت معه .

قلت : قد جاء في المصافحة حديث يدل على الترغيب فيها ، والآداب عليها والمحافضة ؛ وهو
 ما رواه البراء بن عازب قال : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدي فقلت : يا رسول
 الله ! أن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم ؟ فقال : " نحن أحق بالمصافحة منهم مامن
 مسابغين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا ألقيت ذنوبهما بينهما " .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ولم يقل من الحبّ استعمالاً للكرم؛ لئلا يذكّر إخوته صنيعهم بعد عفوهم بقوله : « لا تريب عليكم » .

قلت : وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية : ذكر الجحاف في وقت الصفا جفاً ، وهو قول صحيح دلّ عليه الكتاب . وقيل : لأن في دخوله السجن كان باختياره بقوله : « رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » وكان في الحبّ بإرادة الله تعالى له . وقيل : لأنه كان في السجن مع اللصوص والعصاة ، وفي الحبّ مع الله تعالى ؛ وأيضاً فإن المنّة في النجاة من السجن كانت أكبر ، لأنه دخله بسبب أمرهم به ؛ وأيضاً دخله باختياره إذ قال : « رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ » فكان الكرب فيه أكثر ؛ وقال فيه أيضاً : « أذكرني عند ربك » فعوقب فيه . (وجاء يحمي من البدو) يروى أن مسكن يعقوب كان بارض كنعان ، وكانوا أهل مواش وبرية ؛ وقيل : كان يعقوب تمول إلى بادية وسكنها ، وأن الله لم يبعث نبياً من أهل البادية . وقيل : إنه كان خرج إلى بدّا ، وهو موضع ؛ وإياه عني جميل بقوله :

وَأَنْتِ الَّتِي حَبَبْتَ شَعْبًا إِلَى بَدَا * إِلَى وَأَوْطَانِي بِلَادٌ سِوَاهَا

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل . يقال : بدّا القومُ بدّوا إذا أتوا بدّا ، كما يقال : غاروا غوراً أى أتوا الغور ؛ والمعنى : وجاء بكم من مكاتب بدّا ، ذكره القشيري ، وحكاه الماوردي عن الضحاك عن ابن عباس . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ بإيقاع الحسد ؛ قاله ابن عباس . وقيل : أفسد ما بيني وبين إخوتي ؛ أحال ذنبهم على الشيطان تكريماً منه . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أى رفيق بعباده . وقال الخطابي : اللطيف هو البرّ بعباده الذي يلفظ بهم من حيث لا يهابون ، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يمتنبون ؛ كقوله : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء » . وقيل : اللطيف العالم بدقائق الأمور ؛ والمراد هنا الإكرام والرفق . قال قتادة : لطف يوسف بإخراجه من السجن ، وجاءه بأهله من البدو ، وزرع من قلبه نزع الشيطان . ويروى أن يعقوب لما قدم بأهله وولده وشارف أرض مصر وبلغ ذلك يوسف أستاذن فرعون - واسمه الريان - أن يأذن له في تلقى أبيه يعقوب ، وأخبره

(١) شُب : موضع بين المدينة والثمام . و(بدّا) يروى منونا وغير منون .

بقدمه فأذن له ، وأمر الملا من أصحابه بالكوب معه ؛ فخرج يوسف والملاك معه في أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خلق الله أعلم بهم ؛ وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب ، فكان يعقوب يمشي متكئا على يد يهوذا ؛ فنظر يعقوب إلى الخليل والناس والعساكر فقال : يا يهوذا ! هذا فرعون مصر ؟ قال : لا ، بل هذا ابنك يوسف ؛ فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليدأه بالسلام ^(١) فشنع من ذلك ، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل ؛ فابتدأ يعقوب بالسلام فقال : السلام عليك يا مذهب الأحران ، وبكى وبكى معه يوسف ؛ فبكى يعقوب فرحا ، وبكى يوسف لما رأى أباه من الحزن ؛ قال ابن عباس : فالبكاء أربعة ؛ بكاء من الخوف ، وبكاء من الجزع ، وبكاء من الفرح ، وبكاء رياء . ثم قال يعقوب : الحمد لله الذي أقر عيني بعد الحموم والأحران ، ودخل مصر في اثنين وثمانين من أهل بيته ؛ فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيف ألف ؛ وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام ؛ رواه عكرمة عن ابن عباس . وحكى ابن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنسانا مابين رجل وأمرأة ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة وسبعون ألفا ، وقال الربيع بن خيثم : دخلوها وهم اثنتان وسبعون ألفا ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف . وقال وهب : دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنسانا مابين رجل وأمرأة وصغير ، وخرجوا منها مع موسى فرارا من فرعون ، وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا مقاتلين ، سوى الذرية والمرضى والزمنى ؛ وكانت الذرية ألف ومائتي ألف سوى المقاتلة . وقال أهل التواريخ : أقام يعقوب بمصر أربعين سنة في أعظم حال ونعمة ، ومات بمصر ، وأوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه بمصر بالشام ففعل ، ثم أنصرف إلى مصر . قال سعيد ابن جبير : نقل يعقوب صلى الله عليه وسلم في تابوت من ساج إلى بيت المقدس ، ووافق ذلك يوم مات عيسو ، فدفن في قبر واحد ؛ فمن ثم تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس ، من قتل ذلك منهم ؛ وولد يعقوب وعيسو في بطن واحد ، ودفن في قبر واحد ، وكان عمرهما جميعا مائة وسبعين سنة .

(١) أي منه يعقوب عليه السلام لأن القادم يسلم ؛ قاله النبي في « عقد الجمان » . وقال الأوسى : يعلم أن يعقوب أكرم على الله منه .

قوله تعالى : رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى : (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) قال قتادة :
لم يمتِّ الموت أحد ، نبي ولا غيره إلا يوسف عليه السلام ؛ حين تكلمت عليه النعم وجمع له
الشمل أشناق إلى لقاء ربه عز وجل . وقيل : إن يوسف لم يمتِّ الموت ، وإنما تمنى
الوفاة على الإسلام ؛ أى إذا جاء أجل توفى مسلما ؛ وهذا قول الجمهور . وقال سهل بن
عبد الله التستري : لا يمتِّ الموت إلا ثلاث : رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يفتّر
من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاق محب للقاء الله عز وجل ؛ وثبت في الصحيح عن أنس قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يمتِّن أحدكم الموت لضُرَّ نزل به فإن كان لا بد متنيا
فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي " رواه مسلم . وفيه
عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يمتِّ أحدكم الموت ولا يدع به ^{إلا}
من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم أقطع عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا " .
وإذا ثبت هذا فكيف يقال : إن يوسف عليه السلام تمى الموت والخروج من الدنيا وقطع
العمل ؟ هذا بعيد ! إلا أن يقال : إن ذلك كان جائزا في شرعه ؛ أما أنه يجوز تمى الموت
والدعاء به عند ظهور الفتن وظلمتها ، وخوف ذهاب الدين ، على ما بيناه في كتاب « التذكرة » .
« ومن » من قوله : « مِنَ الْمُلْكِ » للتبويض ؛ وكذلك قوله : « وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ »
لأن مُلْك مصر ما كان كل المُلْك ، وعلم التعبير ما كان كل العلوم . وقيل : « مِنْ » للجنس ؛
كقوله : « فَاجْتَلِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » . وقيل : للتأكيد . أى آتيتنى الملك وعلمتني
تأويل الأحاديث .

(١) قيل : وجه صحة حفظه على النفي من حيث إنه بمعنى النفي . وقال ابن جرير : فيه إيماء إلى أن الأول نهي
على يابه ، ويكون قد جمع بين لفتي حذف حرف اللام وإثباته .

قوله تعالى : (فَأَيُّ الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) نصب على التعت للنداء ، وهو رب ، وهو نداء مضاف ، والتقدير : يارب ! ويجوز أن يكون نداء ثانيا . والفاطر الخالق ، فهو سبحانه فاطر الموجودات ، أى خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء ، ولا مثال سبق ، وقد تقدم هذا المعنى فى « البقرة » مستوفى ، عند قوله : « يَدْبِغُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » وزدناه بيانا فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ، (أَنْتَ وَلِيِّى) أى ناصرى ومتولى أمورى فى الدنيا والآخرة . (تَوَفِّىْ مُسْلِمًا) (تَوَفِّىْ بِالصَّالِحِينَ) يريد آباءه الثلاثة ؛ إبراهيم وإسماعيل ويعقوب ، فنوفاه الله — طاهرا طيبا صلى الله عليه وسلم — بمصر ، ودفن فى النيل فى صندوق من رخام ، وذلك أنه لما مات تشاح الناس عليه ، كلٌ يحب أن يدفن فى محله ، لما يرجون من بركته ، واجتمعوا على ذلك حتى هموا بالقتال ، فأرأوا أن يدفنوه فى النيل من حيث مفترق الماء بمصر ، فيمطر عليه الماء ، ثم يتفرق فى جميع مصر ، فيكونوا فيه شرعا ففعلوا ؛ فلما خرج موسى بنى إسرائيل أخرجه من النيل ، ونقل تابوته بعد أربعين سنة إلى بيت المقدس ، فدفنوه مع آبائه لدعوته : « وَالْحَقِّىْ بِالصَّالِحِينَ » وكان عمره مائة عام وسبعة أعوام . وعن الحسن قال : ألقى يوسف فى الحب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ، ثم جمع له شمله فعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة ؛ وكان له من الولد لإفرائيم ، ومنشا ، ورحمة ، زوجة أيوب ، فى قول ابن لهيعة . قال الزهرى : وولد لإفرائيم — ابن يوسف — نون بن إفرائيم ، وولد لنون يوشع ، فهو يوشع بن نون ، وهو قى موسى الذى كان معه صاحب أمره ، ونباه الله فى زمن موسى عليه السلام ، فكان بعده نبيا ، وهو الذى أفتح أريحا ، وقتل من كان بها من الجبابرة ، واستوقت له الشمس حسب ما تقدم فى « المائدة » . وولد لمنشا بن يوسف موسى بن منشا ، قبل موسى بن عمران ؛ وأهل التوراة يزعمون أنه هو الذى طلب العالم ليتعلم منه حتى أدركه ، والعالم هو الذى خرق

(٢) راجع ج ٦ ص ١٣٠ وما بعدها طيبة

(١) راجع ج ٢ ص ٨٦ وما بعدها طيبة ثانية .

أول أرفائة .

السفينة، وقتل الغلام، وبني الجدار، وموسى بن ميثا معه حتى بلغ معه حيث بلغ، وكان ابن عباس ينكر ذلك؛ والحق الذي قاله ابن عباس؛ وكذلك في القرآن. ثم كان بين يوسف وموسى أم وقرون، وكان فيا بينهما شعيب، صلوات الله عليهم أجمعين.

قوله تعالى: **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَتَيْسَهُمْ إِذْ أَتَوْهُمْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾**

قوله تعالى: **(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ)** ابتداء وخبر. **(نُوحِيهِ إِلَيْكَ)** خبر ثان. قال الزجاج: ويعجز أن يكون «ذلك» بمعنى الذي، و«نوحيه إليك» خبره؛ أى الذى من أنباء الغيب نوحيه إليك؛ يعنى هو الذى قصصنا عليك يا محمد من أمر يوسف من أخبار الغيب «نوحيه إليك» أى نعلمك بوحى هذا إليك. **(وَمَا كُنْتَ لَتَيْسَهُمْ)** أى مع اخوة يوسف **(إِذْ أَتَوْهُمْ أَمْرَهُمْ)** فى إلقاء يوسف فى الحب. **(وَهُمْ يَمْكُرُونَ)** أى بيوسف فى إلقاءه فى الحب. وقيل: «يمكرون» يعقوب حين جاعوه بالقميص ملطخا بالدم؛ أى ما شاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها.

قوله تعالى: **(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ مُؤْمِنِينَ)** ظن أن العرب لما سأله عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون، فلم يؤمنوا؛ فترلت الآية تسلياً للنبي صلى الله عليه وسلم؛ أى ليس تقدر على هداية من أردت هدايته؛ تقول: حرص يحرس، مثل: ضرب يضرب. وفى لغة ضميعة حرص يحرس مثل حمد يحمّد. والحرص طلب الشيء باختيار.

قوله تعالى: **(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)** «من» صلة؛ أى ما تسألهم جعلاً. **(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ)** أى عظة وتذكرة **(لِلْعَالَمِينَ)**.

قوله تعالى : وَكَانَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥٦﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٥٧﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥٨﴾ قُلْ هَلْ مِنْ دُونِ سَبِيلٍ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥٩﴾

قوله تعالى : (وَكَانَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) قال الخليل وسيبويه : هي « أى » دخل عليها كاف التشبيه وبُيِّنَتْ معها ، فصار في الكلام معنى كَمْ ، وقد مضى في « آل عمران » القول فيها مستوفى . ومضى القول في آية « السموات والأرض » في « البقرة » . وقيل : الآيات آثار عقوبات الأمم السالفة ؛ أى هم غافلون معرضون عن تأملها ، وقرأ عكرمة وعمر بن قنديل « وَالْأَرْضِ » رفعا ابتداء ، وخبره « يَمُرُّونَ عَلَيْهَا » . وقرأ السدى « وَالْأَرْضِ » نصباً بإضمار فعل ، والوقف على هاتين القراءتين على « السموات » . وقرأ ابن مسعود « يمشون عليها » .

قوله تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) نزلت في قوم أفزو بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها ، وهم يعبدون الأوثان ؛ قاله الحسن وبجاهد وطاهر والشعمي وأكثر المفسرين . وقال عكرمة هو قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » ثم يصفونه بغير صفته ويعملون له أندادا ؛ وعن الحسن أيضا أنهم أهل كتاب معهم شرك وإيمان ، آمنوا بالله وكفروا بحمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يصح إيمانهم ؛ حكاه ابن الأنباري . وقال ابن عباس : نزلت في تليسة مشركي العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك . وعنه أيضا أنهم النصاري . وعنه أيضا أنهم المشبهة ، آمنوا بجملا وأشركوا

(١) راجع ج ٤ ص ٢٢٨ وما بعدها طبعه أول أو ثانية .

(٢) راجع ج ٢ ص ١٩٢ وما بعدها طبعه ثانية .

مُفَصَّلًا. وقيل : نزلت في المنافقين؛ المعنى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ » أى باللسان إلا وهو كافر بقلبه، ذكره الماوردي عن الحسن أيضا . وقال عطاء : هذا في الدلاء؛ وذلك أن الكفار ينسبون ربهم في الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدلاء؛ بيانه : « وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » الآية . وقوله : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِيزِهِ » الآية؛ وفي آية أخرى « وَإِذَا مَسَّهُ الشُّرُّ فَدُودَعَاءٌ مَرِيضٌ » . وقيل : معناها أنهم يدعون الله ينجيهم من الهلكة، فإذا أنجاهم قال قائلهم : لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللص، ونحو هذا . فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان، ووقايته منسوبة إلى الكلب .

قلت : قد يقع في هذا القول والذي قبله كثير من عوام المسلمين؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وقيل : نزلت هذه الآية في قصة الدخان؛ وذلك أن أهل مكة لما غشيهم الدخان في سنى القحط قالوا : « رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » فذلك إيمانهم، وشركهم عودهم إلى الكفر بعد كشف العذاب؛ بيانه قوله : « إِنَّكُمْ كَاذِبُونَ » والسود لا يكون إلا بعد ابتداء؛ فيكون معنى « إلا وهم مشركون » أى إلا وهم كاذبون، والله أعلم .

قوله تعالى : « أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ » قال ابن عباس : ^(١) مجللة . وقال مجاهد : عذاب يغشاهم؛ نظيره « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » . وقال قتادة : وقية تقع لهم . وقال الضحاك : يعنى الصواعق والقوارع . « أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّمَاءُ سَاقِطَةً » يعنى القيامة . « بَنَّةٌ » نصب على الحال؛ وأصله المصدر . وقال المبرد : جاء من العرب حال بعد نكرة؛ وهو قولهم : وَقَعَ امْرُؤُهُ بَنَّةً وَبَنَاءَةً؛ قال النحاس : ومعنى « بننة » إصابة من حيث لم يتوقع . « وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » وهو تأكيد . وقوله « بننة » قال ابن عباس : تصبح الصيحة بالناس وهم في أسواقهم ومواضعهم، كما قال : « تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » على ما يأتى .

(١) مجللة : مائة التعلية .

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ ابتداء وخبر؛ أى قل يا محمد هذه طريق وسُتَى ومنهاجى؛
قاله ابن زيد . وقال الربيع : دعوتى . مقاتل : دينى ، والمعنى واحد؛ أى الذى أنا عليه
وأدعو إليه يؤدى إلى الجنة . (عَلَى بَصِيرَةٍ) أى على يقين وحق؛ ومنه : فلان مستبصر بهذا .
(أَنَا) توكيد . (وَمَنِ اتَّبَعَنِي) عطف على المضمر . (وَسُبْحَانَ اللَّهِ) أى قل يا محمد : «وسبحان
الله» . (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) الذين يتخذون من دون الله أندادا .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ
أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ حَتَّى إِذَا
اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَنْ نَشَاءُ
وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ هذا رد على
القائلين : «لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» أى أرسلنا رجالا ليس فيهم امرأة ولا جِنٌّ ولا مَلَكٌ ؛ وهذا
يرد ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن في النساء أربع نبيات خَوَاءُ وآسية وأُمّ
موسى ومريم» . وقد تقدم في «آل عمران» شئ من هذا . «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» يريد المدائن ؛
ولم يبعث الله نبيا من أهل البادية لنبله الجفاء والقسوة على أهل البدو ؛ ولأن أهل الأمصار
أعقل وأحلم وأفضل وأعلم . قال الحسن : لم يبعث الله نبيا من أهل البادية قط ، ولا من
النساء ، ولا من الجح . وقال قتادة : «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» أى من أهل الأمصار ؛ لأنهم
أعلم وأحلم . وقال العلماء : من شرط الرسول أن يكون رجلا آدميا مدنيا ؛ وإنما قالوا آدميا
تحرزا ؛ من قوله : «يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾ إلى مصارع الأمم المكذبة لأنيانهم فيعتبروا . ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ابتداء وخبره . وزعم القراء أن الدار هي الآخرة ؛ وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ ، كيوم الخميس ، وبارحة الأولى ؛ قال الشاعر :

ولو أقوت عليك ديارُ عيسى * عرفتَ اللؤلؤَ عِرْفانَ اليقين^(١)

أى عِرْفَانًا بقيتنا ؛ واحتج الكسائي بقولهم : صلاة الأولى ؛ واحتج الأخفش بمسجد الجامع . قال النحاس : إضافة الشيء إلى نفسه محال ؛ لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعرف به ؛ والأجود الصلاة الأولى ، ومن قال صلاة الأولى فعناه : عند صلاة القرية الأولى ؛ وإنما سميت الأولى لأنها أول ما صلّى حين فرضت الصلاة ، وأول ما أظهر ؛ فلذلك قيل لها أيضا الظُّهر . والتقدير : ولدان حال الآخرة خير ، وهذا قول البصريين ؛ والمراد بهذه الدار الجنة ؛ أى هى خير للثقلين . وقرئ « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ » . وقرأ نافع وعاصم ويعقوب وغيرهم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ البناء على الخطاب . الباقرن بالياء على الخبر .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴾ تقدم القراءة فيه ومعناه . ﴿ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾^(٢) وهذه الآية فيما تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم . وهذا الباب عظيم ، وخطره جسيم ، ينبغي الوقوف عليه لئلا يزول الإنسان فيكون في سواء الجحيم . المعنى : وما أرسلنا قبلك بأحمد إلا رجالا ثم لم ناعقب أمهم بالعقاب « حتى إذا استيسس الرسل » أى يسئوا من إيمان قومهم « وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا » بالتشديد ؛ أى أيقنوا أن قومهم كذبوهم . وقيل المعنى : حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذبوهم ، لَا أَنَّ الْقَوْمَ كَذَّبُوا ، ولكن الأنبياء ظنوا وحسبوا أنهم يكذبونهم ؛ أى خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شك ؛ فيكون « وَظَنُوا » على بابه في هذا التأويل . وقرأ ابن عباس وآبن مسعود وأبو عبد الرحمن السُّكُتِي وأبو جعفر بن التّعقاع والحسن وقّادة وأبو رجاء المَطَارِدِي وعاصم وحزمة والكسائي ويحيى بن وثّاب والأعمش وخلف « كُذِّبُوا » بالتحذيف ؛ أى ظنّ القوم أن الرسل كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ،

(١) روى رواية : « فإنك لو حلت ديار عيسى » . (٢) راجع من ٢٤١ من هذا الجزء .

ولم يصدقوا . وقيل : المعنى ظن الأمم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا به . بن نصرهم . وفي رواية عن ابن عباس ؛ ظن الرسل أن الله أخلف ما وعدهم . وقيل : لم تصح هذا الرواية ؛ لأنه لا يظن الرسل هذا الظن ، ومن ظن هذا الظن لا يستحق النصر ؛ فكيف قال : ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرًا ﴾ ؟ ! قال القشيري أبو نصر : ولا يبعد إن صححت الرواية أن المراد خطر بقلوب البشر هذا من غير أن يتحققوه في نفوسهم ؛ وفي الخبر : " إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم ينطق به لسانٌ أو تعمل به " . ويموز أن يقال : قربوا من ذلك الظن ؛ كقولك : بلغت المنزل ، أى قربت منه . وذكر الثعلبي والنحاس عن ابن عباس قال : كانوا بشرا فضمّعوا من طول البلاء ، ونسّوا وظنّوا أنهم أخلفوا ؛ ثم سلا : « حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » . وقال الترمذي الحكيم : وجهه عندنا أن الرسل كانت تخاف بعد ما وعد الله النصر ، لا من تهمة بوعدهم الله ، ولكن لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثاً يتقضى ذلك الشرط والمهد الذي عهد إليهم ؛ فكانت إذا طالت المدة دخلهم الإياس والظنون من هذا الوجه . وقال المهدوي عن ابن عباس : ظنّت الرسل أنهم قد أخلفوا على ما يلحق البشر ؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّمُ الْمَوْتَى » الآية . والقراءة الأولى أولى . وقرأ مجاهد وحيد — « قَدْ كَذَّبُوا » بفتح الكاف والذال مخففاً ، على معنى : وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا ، لما رأوا من تفضل الله عز وجل في تأخير العذاب . ويموز أن يكون المعنى : و [لما] أيقن الرسل أن قومهم قد كذبوا على الله بكفرهم جاء الرسل نصرنا . وفي البخاري عن عروة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عز وجل : « حتى إذا استيأس الرسل » قال قلت : أكنّبوا أم كُذّبوا ؟ قالت عائشة : كُذّبوا . قلت : فقد آسفتموهما أن قومهم كذبهم فما هو بالظن ؟ قالت : أجل ! لعمرى ! لقد آسفتموهما بذلك ؛ فقلت لها : « وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا » قالت : معاذ الله ! لم تكن الرسل تظن ذلك بريها . قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل [الذين آمنوا] بربههم وصدقهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأثر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل [

من كذبهم من قومهم ، وظننت الرسل أن أتباعهم كذبهم جاءهم نصرنا عند ذلك .
 وفي قوله تعالى : « جاءهم نصرنا » قولان : أحدهما — جاء الرسل نصر الله ؛ قاله مجاهد .
 الثاني — جاء قومهم عذاب الله ؛ قاله ابن عباس . (فَجِئَ مِنْ نَشَأٍ) قيل : الأنبياء ومن آمن
 معهم . وروى عن عاصم « فَجِئَ مِنْ نَشَأٍ » بنون واحدة مفتوحة الياء ، و « مِنْ » في موضع
 رفع ، اسم ما لم يُسم فاعله ؛ واختار أبو عبيد هذه القراءة لأنها في مصحف عثمان وسائر
 مصاحف البلدان بنون واحدة . وقرأ ابن محيصن « فَتَجَا » فعل ماض ، و « مِنْ » في موضع
 رفع لأنه الفاعل ، وعلى قراءة الباقيين نصبا على المفعول . (وَلَا يَرْدُ بَاسُهُ) أى عذابنا . (عَنِ الْقَوْمِ
 الْمُجْرِمِينَ) أى الكافرين المشركين .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
 حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ
 وَهَدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ) أى فى قصة يوسف وأبيه وإخوته ، أو فى قصص
 الأمم (عِبْرَةٌ) أى فكرة وتذكرة وعظة . (لِأُولِي الْأَلْبَابِ) أى العقول . وقال محمد بن إسحق
 عن الزهري عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي : إن يعقوب عاش مائة سنة وسبعا
 وأربعين سنة ، وتوفى أخوه يعقوب معه فى يوم واحد ، وتوفى فى قبر واحد ؛ فذلك قوله :
 « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » إلى آخر السورة . (مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى)
 أى ما كان القرآن حديثا يفتري ، أو ما كانت هذه القصة حديثا يفتري . (وَلَكِنْ تَصْدِيقُ
 الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) أى ما كان قبله من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى ؛ وهذا تأويل
 من زعم أنه القرآن . (وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ) مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام ، والشرائع
 والأحكام . (وَهَدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدينة في قول الكلبي ومقاتل . وقال ابن عباس وقتادة : مدينة إلا آيتين منها نزلتا بمكة؛ وهما قوله عز وجل : « وَلَوْ أَن قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » [إلى آخرهما]^(١) .

قوله تعالى : الْمَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : (الْمَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) تقدم القول فيها . (وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ) يعنى وهذا القرآن الذى أنزل إليك (مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) لا كما يقول المشركون : إنك تأتي به من تلقاء نفسك ؛ فاعتصم به ، وأعمل بما فيه . قال مقاتل : نزلت حين قال المشركون : إن محمدا أتى بالقرآن من تلقاء نفسه . « والذى » في موضع رفع عطفا على « آيات » أو على الابتداء ، و « الحق » خبره ؛ ويجوز أن يكون موضعه جرا على تقدير : وآيات الذى أنزل إليك ، وارتفاع « الحق » على هذا على إضمار مبتدأ ، تقديره : ذلك الحق ؛ كقوله تعالى : « وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقُّ » يعنى ذلك الحق . قال الفراء : وإن شئت جعلت « الذى » خفضا نعنا للكتاب ، وإن كانت فيه الواو كما يقال : أنا هنا هذا الكتاب عن أبى حفص والفاروق ؛ ومنه قول الشاعر :

إلى الملك القسرم وابن المهام • وليث الكتيبة في المزدحم^(٢)
يريد : إلى الملك ألقرم بن المهام ، ليث الكتيبة . (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) .

(١) الزيادة من تفسير البحر . (٢) القرم (فتح الحاف) : السيد؛ والكتيبة : الجيش؛ والمزدحم : على الازدحام .

قوله تعالى : **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ بِغَيْرِ أَسْفَافٍ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأُمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾**

قوله تعالى : **(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)** الآية . لما بين تعالى أن القرآن حق ، بين أن من أنزله قادر على الكمال ، فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته ، وقد تقدم هذا المعنى . وفي قوله : **« بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا »** قولان : أحدهما — أنها مرفوعة بغير عمد ترونها ، قاله قتادة وإيَّاس بن معاوية وغيرهما . الثاني — لها عمد ، ولكن لا زناه ، قال ابن عباس : لها عمد على جبل قاف ، ويمكن أن يقال على هذا القول : العمد قدرته التي يُمسِكُ بها السموات والأرض ، وهي غير مرئية لنا ، ذكره الزجاج . وقال ابن عباس أيضا : هي توحيد المؤمن . أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر ، ذكره الغزوي . والعمد جمع عمود ، قال النابغة :

وَحَيْسَ الْجَنُّ إِنِّي قَدْ أَذْنْتُ لَمْ * يَنْوَنَ تَدْمَرُ بِالصَّفَاحِ وَالْعَمَدِ

(ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) تقدم الكلام فيه . **(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)** أى ذلَّهما لمنافع خلقه ومصالح عبادِه ، وكل مخلوق مُذَلَّلٌ لِمَخْلُقٍ . **(كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى)** أى إلى وقت معلوم ، وهو فناء الدنيا ، وقيام الساعة آتى عندها تُكْوَرُ الشمس ، ويُحَسَفُ القمر ، وتتكدر النجوم ، وتنتثر الكواكب . وقال ابن عباس : أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلها التي يبتهان إليها لايجاوزانها . وقيل : معنى الأجل المسمى أن القمر يقطع فلكه في شهر ، والشمس في سنة . **(يُدِيرُ الْأُمْرَ)** أى يصرفه على ما يريد . **(يُفَصِّلُ الْآيَاتِ)** أى يُبَيِّنُهَا ، أى من قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة ، ولهذا قال : **(لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)** .

(١) ويرى : وخبر الجن . وخيس : ذلل ؛ وتدمر : يهد بالشام سبعا سبعا طبعه عليه السلام . والصَّفَاحُ جارة

عراض رفاق . وعمد : جمع عمود . (٢) راجع ج ٧ ص ٢١٩ طبعه أولى أمانة .

قوله تعالى : **وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا**^ط
وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ^ط **إِنَّ**
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ** ﴾ لما بين آيات السموات بين آيات الأرض ؛
 أى بسط الأرض طولاً وعرضاً . ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ** ﴾ أى جبلاً ثوابت ، واحداها راسية ،
 لأن الأرض ترسوها ، أى تثبت ، والإرساء الثبوت ؛ قال عنترة :
فَصَبَرْتُ مَا رِفَّةً لَدَيْكَ حُرَّةٌ * تَرَسُو إِذَا قَفَسَ الْجَبَانِ تَطْلُعُ^ط
 وقال جميل :

أُحِبُّهَا وَالَّذِي أَرَمَى قَوَاعِدُهُ * حُبًّا إِذَا ظَهَرَتْ آيَاتُهُ بَطَلْنَا
 وقال ابن عباس وعطاء : **أَوَّلُ جَبَلٍ وَضِعَ عَلَى الْأَرْضِ أَبُو قُبَيْسٍ** .^(١)

مسئلة — فى هذه الآية رد على من زعم أن الأرض كالكرة ، ورد على من زعم أن
 الأرض تنوى أبوابها عليها ؛ وزعم ابن الراوندى أن تحت الأرض جميعاً صعداً كالريح الصاعدة ؛
 وهى منحدره فاعتدل الماوى والصعدي فى الجرم والقوة فتوافقا . وزعم آخرون أن الأرض
 مركبة من جسمين ، أحدهما منحدر ، والآخر مصعد ، فاعتدلا ، فلذلك وقفت . والذى عليه
 المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومداها ، وأن حركتها إنما تكون
 فى العادة بزلزلة تصيبها . وقوله تعالى : ﴿ **وَأَنْهَارًا** ﴾ أى مياه جارفة فى الأرض ، فيها
 منافع الخلق . ﴿ **وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ** ﴾ بمعنى صنفين . قال أبو عبيدة :
 الزوج واحد ، ويكون اثنين . الفراء : يعنى بالزوجين هاهنا الذكر والأنثى ؛ وهذا خلاف

(١) قبل البيت :

وصرفت أن منقح إن تأتى * لا ينهى منها الفرار الأسرع

(٢) أبو قبيس : جبل مشرف على مسجد مكة .

النَّص . وقيل : معنى « زوجين » نومان ، كالحلوة والحامض ، والرطب واليابس ، والأبيض والأسود ، والصغير والكبير . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) أى دلالات وعلامات (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

قوله تعالى : وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨١﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ) فى الكلام حذف ؛ المعنى : وفى الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات ؛ كما قال : « مَرَايِلُ تَقِيكُمْ الْحَرَّ » والمعنى : وتقبيكم البرد ، ثم حذف لعلم السامع . والمتجاورات المدن وما كان عامرا ، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر .

الثانية — قوله تعالى : « متجاورات » أى قرى متدانيات ، ترابها واحد ، وماؤها واحد ، وفيها زروع وجنات ، ثم تفاوتت فى الثمار والثمار ؛ فيكون البعض حلوا ، والبعض حامضا ، والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغير والكبير واللون والمطعم ، وإن أنبسط الشمس والقمر على الجميع على نفس واحد ؛ وفى هذا أدل دليل على وحدانيته وعظم صمديته ، والإرشاد لمن ضل عن معرفته ؛ فإنه نبه سبحانه بقوله : « تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ » على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقدور بقدرته ؛ وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع ؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاصل له الطبيعة لما وقع الاختلاف . وقيل : وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين الإقاع ؛ فمن تربة عذبة ، ومن تربة سيخة مع تجاورهما ؛ وهذا أيضا من دلالات كمال قدرته ؛ جل وعز تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا .

الثالثة - ذهبت الكفرة - لعنهم الله - إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع، وأدعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أفزوا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراض . وقالت فرقة: بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلا؛ والدليل على أن الحادث لابد له من محدث أنه يتحدث في وقت، ويحدث ما هو من جنسه في وقت آخر؛ فلو كان حدوثه في وقته لا اختصاصه به لوجب أن يحدث في وقته كل ما هو من جنسه؛ وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن اختصاصه به لأجل تخصيص خصصه به ، لولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده؛ وأسيفاء هذا في علم الكلام.

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ قرأ الحسن « وَجَنَّتْ » بكسر التاء، على تقدير: وجعل فيها جنات؛ فهو محمول على قوله : « وَجَلَّ فَيَّارَ وَاسِي » . ويجوز أن تكون مجزورة على الحمل على « كل » التقدير : ومن كل الثمرات، ومن جنات ، الباقون : « جَنَّتْ » بالرفع على تقدير : وبينهما جنات . ﴿ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صُنُونٌ وَغَيْرُ صُنُونٍ ﴾ بالرفع . ابن كثير وأبو عمرو وحفص عطفًا على الجنات؛ أي على تقدير : وفي الأرض زرع ونخيل . وخفضا الباقون نسقا على الأعناب ؛ فيكون الزرع والنخيل من الجنات؛ ويجوز أن يكون معطوفا على « كل » حسب ما تقدم في « وجنات » . وقرأ مجاهد والسلمي وغيرهما « صُنُونٌ » بضم الصاد ، الباقون بالكسر ؛ وهما لغتان ؛ وهما جمع صنو، وهى النخلات والنخلتان ، يجمعهن أصل واحد، وتشتب منه رءوس فتصير نخيلا؛ نظيرها قنوان، واحدها قنؤ، وروى أبو إسحق عن البراء قال : الصنُون المجتمع ، وغير الصنُون المتفرق ؛ النحاس : وكذلك هو في اللغة . يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صنُون . والصنُون المثل ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « عَمَّ الرَّجُلُ صُنُونُ أَبِيهِ » . ولا فرق فيها بين التثنية والجمع ، ولا بالإعراب ؛ فعرب نون الجمع ، ونكسر نون التثنية ؛ قال الشاعر :

العلمُ والحلمُ جَلَّتَا كَرِيمَ ۖ
للره زَيْنٌ إِذَا هُمَا أَجْتَمَعَا
صُنُونٍ لَا يُسْتَمُّ حُسْنُهُمَا ۖ
إِلَّا يَجْعُ ذَا وَذَلِكَ مَعَا

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ كصالح بن آدم وخبيثهم ، أبوهم واحد ؛ قاله النحاس والبحار . وقرأ حاصم وابن عامر « يُسْقَى » بالياء ، أى يُسْقَى ذلك كله . وقرأ الباقون بالتاء ، لقوله : « جنات » واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة ؛ قال أبو عمرو : والتائب أحسن ، لقوله : ﴿ وَفُضِّلَ بَعْضُهُا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾ ولم يقل بعضه . وقرأ حمزة والكسائي وغيرهما « وَيُفَضَّلُ » بالياء ردأ على قوله : « يُدَبَّرُ الْأَمْرَ » و « يُفَضَّلُ » و « يُقَشَّى » . الباقون بالنون على معنى : ونحن نفضل . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لعلى رضى الله عنه : « الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة » ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَتَجَلِّوْرَاتٌ » حتى بلغ قوله : « يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ » و « الْأَكْلِ » الثمر . قال ابن عباس : يعنى الحلو والحامض والفارسي والدقل . وروى مرفوعا من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قوله تعالى : ﴿ وَفُضِّلَ بَعْضُهُا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾ قال : « الفارسي والدقل والحلو والحامض » ذكره الثعلبي . قال الحسن : المراد بهذه الآية المثل ؛ ضربه الله تعالى لبنى آدم ، أصلهم واحد ، وهم مختلفون في الخير والشر والإيمان والكفر ، كاختلاف الثمار التى تسقى بماء واحد ؛ ومنه قول الشاعر :

الناس كالثبت والنبت ألوان * منها شجر الصندل والكافور والبان

* ومنها شجر ينضج طول التهر قطران *

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَوَدَّا كَمَا تَرَأَوْنَا لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَوَلَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأَوَلَيْكَ الْأَعْغَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأَوَلَيْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَسَجِّبْ قَوْلَهُمْ ﴾ أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث ؛ والله تعالى لا يتعجب ، ولا يجوز عليه التعجب ؛ لأنه تغير النفس بما تنفى أسبابه ؛ وإنا ذكر ذلك ليصعّب منه تبيّه والمؤمنون . وقيل المعنى : أى إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأنى خالق السموات والأرض والثمار المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يصعب منه الخلق ؛ لأن الإعادة فى معنى الابتداء . وقيل : الآية فى منكى الصانع ؛ أى إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المنفى لا بدّ له من مغير فهو محل التعجب ؛ ونظم الآية يدل على الأول والثانى ؛ لقوله : ﴿ أَيْنَا كُنَّا تَرَابًا ﴾ أى أنبعت إذا كنا ترابا ؟ ! . ﴿ أَيْنَا لَقِيَ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وقرئ «إِنَّا» . و (الْأَغْلَالُ) جمع غُلٍّ ؛ وهو طَوَّقٌ تُشَدُّ به اليد إلى العُنُقِ ، أى يُنَلَوْنَ يوم القيامة ؛ بدليل قوله : « إِذِ الْغُلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ » إلى قوله : « ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » . وقيل : الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم .

قوله تعالى : وَيَسْتَعْمِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ كُنَّا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْمِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أى لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب ؛ قيل هو قولهم : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ » . قال قتادة : طلبوا العقوبة قبل العافية ؛ وقد حكى سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . وقيل : « قبل الحسنه » أى قبل الإيمان الذى يرمى به الأمان والحسنات . و (الْمَثَلَاتُ) العقوبات ؛ الواحدة مَثَلَةٌ . وروى عن الأعمش أنه قرأ « الْمَثَلَاتُ » بضم الميم وإسكان الشاء ؛ وهذا جمع مَثَلَةٌ ، ويجوز

« الْمُتَلَات » تبدل من الضمة فتحة لثقلها ، وقيل : يُؤنّى بالفتحة عَوْضًا من الهاء .
 وروى عن الأعمش أنه قرأ « الْمُتَلَات » بفتح الميم وإسكان التاء ؛ فهذا جمع مُثْلَةٌ ، ثم حذف
 الضمة لثقلها ؛ ذكره جميعه النحاس رحمه الله . وطى قراءة الجماعة واحده مُثْلَةٌ ، نحو صَدَفُهُ ؛
 وتميم تضم التاء والميم جميعا ، واحدها على لغتهم مُثْلَةٌ ، بضم الميم وجرم التاء ؛ مثل : غُرْفَةٌ
 وَغُرْفَاتٌ ، والفعل منه مَثَّلْتُ به أمثلُ مثلاً ، بفتح الميم وسكون التاء . (وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَذُو مَغْفِرَةٍ) أى لنو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا ، وعن المذنبين إذا تابوا . وقال
 ابن عباس : أرجى آية فى كتاب الله تعالى « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » .
 (وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) إذا أصرروا على الكفر . وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد
 عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه
 لما هنا أحدنا عيش ولولا عقابه ووعيده وصدا به لا تكمل كل أحد " .

قوله تعالى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا) أى هَلَا (أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ) .
 لما أقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ)
 أى مُعَلِّمٌ . (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) أى نبي يدعوهم إلى الله . وقيل : الهادي الله ؛ أى عليك
 الإنذار ، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم .

قوله تعالى : اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ
 وَمَا تَرْذَلْنَ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٥٠﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٥١﴾
 فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى) أى من ذكر وأنثى ، صبيح وقبيح ،
 صالح وطالح ؛ وقد تقدم فى سورة « الأنعام » أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده
 (١) راجع ج ٧ ص ١ وما بعدها طبعة أول أدقانية .

لا شريك له ؛ وذكرنا هناك حديث البخارى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «مفاتيح الغيب خمس» الحديث . وفيه «لا يعلم ما تنفيض الأرحام إلا الله» .
وآخلف العلماء في تأويل قوله : (وَمَا تَنْفِضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزِدُّهُ) فقال قتادة : المعنى ما تُسْقِطُ قبل التسعة الأشهر ، وما تزداد فوق التسعة ؛ وكذلك قال ابن عباس . وقال مجاهد : إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك نقصانا في ولدها ؛ فإن زادت على التسعة كان تمامها لما نقص ؛ وعنه : الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم ، والزيادة ما تزداد منه . وقيل : الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد ، كنقصان إصبع أو غيرها ، وزيادة إصبع أو غيرها . وقيل : الغيض انقطاع دم الحيض « وما تزداد » بدم النفاس بعد الوضع .

الثانية — في هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض ؛ وهو مذهب مالك والشافعى في أحد قولي . وقال عطاء والشعبى وغيرهما : لا تحيض ؛ وبه قال أبو حنيفة ؛ ودليله الآية . قال ابن عباس في تأويلها : إنه حيض الحبالى ، وكذلك روى عن عكرمة ومجاهد ؛ وهو قول عائشة ؛ وأنها كانت تنفى النساء الحوامل إذا حضن أن يتركهن الصلاة ؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون ، ولم ينكر منهم أحد عليها ، فصار كالإجماع ؛ قاله ابن عباس . قال ابن القصار : وذكر أن رجلين تنازعا ولدا ، فترافعا إلى عمر رضى الله عنه فعرضه على القافة ، فالحقه القافة بهما ، فعلاه عمر بالدرّة ، وسأل نسوة من قریش فقال : أنظرن ما شأن هذا الولد؟ فقُنن : إن الأول خلا بها وخلاها ، فحاضت على الحمل ، فظنت أن عنتها انقضت ؛ فدخل بها الثانى ، فاتعش الولد بماء الثانى ؛ فقال عمر : الله أكبر! وألحقه بالأول ، ولم يقل إن الحامل لا تحيض ، ولا قال ذلك أحد من الصحابة ؛ فدل أنه إجماع ، والله أعلم . احتج المخالف بأن قال لو كان الحامل تحيض ، وكان ماتراه المرأة من الدم حيضا لما صح استبراء الأمة بحيض ؛ وهو إجماع . وروى عن مالك في كتاب محمد ما يقتضى أنه ليس بحيض .

الثالثة — في هذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر ، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر ، وأن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر .

الرابعة — وهذه الستة الأشهر هي بالأهلة كسائر أشهر الشريعة؛ ولذلك قد روى في المذهب عن بعض أصحاب مالك، وأظنه في كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لملة نقص الأشهر وزيادتها؛ حكاه ابن عطية .

الخامسة — وأختلف العلماء في أكثر الحمل؛ فروى ابن جريح عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت : لا يكون الحمل أكثر من ستين قدر ما يتحول ظل المغزل؛ ذكره التار فطى . وقالت جميلة بنت سعد — أخت عبيد بن سعد وعن الليث بن سعد — : إن أكثره ثلاث سنين . وعن الشافعي أربع سنين؛ وروى عن مالك في إحدى روايته، والمشهور عنه خمس سنين؛ وروى عنه لاحد له، ولو زاد على العشرة الأعوام؛ وهي الرواية الثالثة عنه . وعن الزهري ست وسبع . قال أبو عمر : ومن الصحابة من يجعله إلى سبع؛ والشافعي : مدة الغاية منها أربع سنين . والكوفيون يقولون : ستان لا غير . ومحمد بن عبد الحكم يقول : سنة لا أكثر . وداود يقول : تسعة أشهر ، لا يكون عنده حمل أكثر منها . قال أبو عمر : وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد، والرد إلى ما عرفت من أمر النساء ، والله التوفيق . روى التار فطى عن الوليد بن مسلم قال : قلت لمالك بن أنس إني حدثت عن عائشة أنها قالت : لا تريد المرأة في حملها على ستين قدر ظل المغزل، فقال : سبحان الله ! من يقول هذا؟ ! هذه جارتنا امرأة محمد بن نجبلان، تحمل وتضع في أربع سنين، امرأة صدق، وزوجها رجل صدق؛ حملت ثلاثة أبطن في اثنتي عشرة سنة، تحمل كل بطن أربع سنين . وذكره المبارك ابن مجاهد قال : مشهور عندنا كانت امرأة محمد بن نجبلان تحمل وتضع في أربع سنين، وكانت تسمى حامله الفيل . وروى أيضا قال : بينا مالك بن دينار يوما جالس إذ جاءه رجل فقال : يا أبا يحيى ! أدع لامرأة حبلى منذ أربع سنين قد أصبحت في كرب شديد ؛ فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال : ما يرى هؤلاء القوم إلا أنا أنبياء ! ثم قرأ ، ثم دعا ، ثم قال : اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجها عنها الساعة ، وإن كان في بطنها جارية فأبدلها غلاما ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك

أثم الكلب ، ورفع مالك يده ، ورفع الناس أيديهم ، وجاء الرسول إلى الرجل فقال : أدرك أمر أنك ، فذهب الرجل ، فما حظ مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جعد قَطَطٌ ^(١) ، ابن أربع سنين ، قد استوت أسنانه ، ما قُطعت سراه ؛ ورؤى أيضا أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ! إني غبت عن امرأتى ستين بغثت وهى حبلى ، فشاور عمر الناس في رجحها ، فقال معاذ بن جبل : يا أمير المؤمنين ! إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما في بطنها سبيل ، فاتركها حتى تضع ، فتركها ، فوضعت غلاما قد خرجت نتيته ؛ فعرف الرجل الشبه فقال : ابنى ووب الكعبة ! ؛ فقال عمر : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ؛ لولا معاذ لهلك عمر . وقال الضحاك : وضعتنى أمى وقد حملت بى فى بطنها ستين ، فولدتنى وقد خرجت سنّى . ويدكر عن مالك أنه حمل به فى بطن أمه ستان ، وقيل : ثلاث سنين ، ويقال إن محمد بن عجلان مكث فى بطن أمه ثلاث سنين ، فماتت به وهو يضطرب اضطرابا شديدا ، فشق بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه . وقال حماد ابن سلمة : إنما سمي هريم بن حبان هريما لأنه بقى فى بطن أمه أربع سنين . وذكر الفزرى أن الضحاك ولد لستين ، وقد طلعت سنه فسُمى ضحّاكا . عباد بن العوام : ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاما شعره إلى منكبيه ، فمز به طير فقال : كش .

السادسة — قال ابن خُوَيْرَمَتَداد : أقل الحيض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره مأخوذ من طريق الاجتهاد ؛ لأن علم ذلك استأثر الله به ، فلا يجوز أن يحكم فى شئ منه إلا بقدر ما أظهره لنا ، ووُجد ظاهرا فى النساء نادرا أو معتادا ؛ ولما وجدنا امرأة قد حملت أربع سنين وخمس سنين حكينا بذلك ، والنفاس والحيض لم نجد فيه أمرا مستقرا رجعتا فيه إلى ما يوجد فى النادر منهن .

السابعة — قال ابن العربى : نقل بعض المتساهلين عن المالكيين أن أكثر الحمل تسعة أشهر ؛ وهذا ما لم ينطق به قط إلا الهالكى ، وهم الطبائعيون الذين يزعمون أن مدبر الحمل

(١) جعد قَطَط : شديد الجودة . (٢) مر العبي : ما قطعه الناقة .

في الرَّحْم الكواكب السبعة؛ تأخذه شهرا شهرا، ويكون الشهر الرابع منها للشمس؛ ولذلك يتحرك ويضطرب؛ وإذا تكامل التداول في السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد في الشهر الثامن إلى زُحل، فيُقِلُّه بِرَدِّه؛ فياليتنى تمكنت من مناظرتهم أو مقالتهم ! ما بال المرجع بعد تمام الدور يكون إلى زُحل دون غيره ؟ الله أخبركم بهذا أم على الله تفكرون ؟ ! وإذا جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لا يجوز أن يعود التدوير إلى ثلاث أو أربع، أو يعود إلى جميعها مرتين أو ثلاثا ؟ ! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة ! .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ يعني من التقصان والزيادة . ويقال : « بمقدار » قدر خروج الولد من بطن أمه، وقدر مكثه في بطنها إلى خروجه . وقال قتادة : في الرزق والأجل . والمقدار القدر؛ وعموم الآية يتناول كل ذلك، والله سبحانه أعلم .

قلت : هذه الآية تمدح الله سبحانه وتعالى بها بأنه عالم الغيب والشهادة؛ أي هو عالم بما غاب عن الخلق، وبما شهده . فالغيب مصدر بمعنى الغائب . والشهادة مصدر بمعنى الشاهد؛ فبشبه سبحانه على أنفراده بعلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق، فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد؛ فأما أهل الطب الذين يستدلون بالأمارات والعلامات فإن قطعوا بذلك فهو كفر، وإن قالوا إنها تجربة تركوا وما هم عليه، ولم يقدح ذلك في المدوح؛ فإن العادة يجوز أن تكسرها، والعلم لا يجوز تبذله . و ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ الذي كل شيء دونه . ﴿ الْمُتَعَالَى ﴾ عما يقول المشركون، المستعلى على كل شيء بقدرته وقهره؛ وقد ذكرناهما في شرح الأسماء مستوفى، والحمد لله .

قوله تعالى : سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ إسرار القول : ما حثت به المرء نفسه، والجهر ما حدث به غيره؛ والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرته الإنسان من

خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر . و « منكم » يحتمل أن يكون وصفا لـ « سواء »
 التقدير : **سِرٌّ** من **أَسْرَ وَجْهٌ** من **جَهْرٍ** سواء منكم ؛ ويجوز أن يتعلق « بسواء » على معنى :
 يستوى منكم ، كقولك : مررت بزيد . ويجوز أن يكون على تقدير : **سِرٌّ** من **أَسْرَ** منكم
 و**جَهْرٌ** من **جَهْرٍ** منكم . ويجوز أن يكون التقدير . ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر
 به ، كما تقول عدل زيد وعمرو أى ذوا عدل . وقيل : « سواء » أى مستو ، فلا يحتاج إلى
 تقدير حذف مضاف . (**وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ**) أى يستوى فى علم الله
 السر والجهر ، والظاهر فى الطرقات ، والمستخفى فى الظلمات . وقال الأخفش وقطرب
 المستخفى بالليل الظاهر ؛ ومنه **خَفِيتُ الشَّيْءَ وَأَخْفَيْتُهُ** أى أظهرته ؛ وأخفيت الشئ أى
 أسخرجته ؛ ومنه قيل للنَّبَّاشِ المَخْنِي . وقال امرؤ القيس :

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا * خَفَاهُنَّ وَدَّقُ مِنْ عَيْشِي مُجَلِّبٌ

والبَّارِبِ المتوارى ، أى الداخِل سَرَّاءً ؛ ومنه قولهم : **أَسْرَبَ** الوحش إذا دخل فى بَكَاسِهِ .
 وقال ابن عباس : « مستخف » مستتر ، « وسارب » ظاهر . مجاهد : « مستخف »
 بالمعاصى ، « وسارب » ظاهر . وقيل : معنى « سارب » ذاهب ؛ الكسانى : **سَرَبَ**
يَسْرُبُ سَرَبًا وَسَرُوبًا إذا ذهب ؛ وقال الشاعر :^(٢)

وَكُلُّ أَنَاسٍ قَارِبُوا قَيْدَ خَلِيلِهِمْ * وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبٌ

أى ذاهب . وقال أبو رجاء : **السَّارِبُ** الذاهب على وجهه فى الأرض ؛ قال الشاعر :^(٣)

* أَيْ مَرَبٍ وَكُنْتُ خَيْرَ سَرُوبٍ *

وقال الفتي : « سارب بالنهار » أى منصرف فى حوائجه بسرعة ؛ من قولهم : **أَسْرَبَ**
 الماء . وقال الأصمى : **خَلَّ سَرَبُهُ** أى طريقه .

(١) أضاف (جمع حق) : وهو مرب فى الأرض إلى موضع آخر ، واحتماه امرؤ القيس بحجرة الفتوة
 والدوق : المطر . وبيت مجلب : مصوت ، ويرى مجلب (بالهاء) . (٢) هو الأخنس بن شهاب التغلبي
 ويريد أن الناس أقاموا فى موضع واحد لا يجترئون على الفتنة ، وحسبوا خلهم عن أن يتقدم ننتبه إليهم خوفا
 أن يثار عليا ، ونحن أعزاء خلنا قيد خلنا ليهب حيث شاء . (٣) هو قيس بن الخطيم ، وتما البيت :
 * وتقرب الأحلام خير قريب *

قوله تعالى : لَمْ مَعَقِبْتُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿لَمْ مَعَقِبْتُمْ﴾ أى الله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ؛ فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار . وقال : «مُعَقَّبَاتٌ» والملائكة ذُكْران لأنه جمع مُعَقِّبَةٌ ؛ يقال : مَلَكَ مُعَقَّبٌ ، وملائكة مُعَقِّبَةٌ ، ثم مُعَقَّبَاتٌ جمع الجمع . وقرأ بعضهم — «لَهُ مُعَقِّبٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ» ، ومعاقب جمع مُعَقِّبٌ ؛ وقيل للملائكة معقبة على لفظ الملائكة . وقيل : أنت لكثرة ذلك منهم ؛ نحو نَسَابَةٌ وعلامة وراوية ؛ قاله الجوهري وغيره . والتعقب العود بعد البدء ؛ قال الله تعالى : «وَلَىٰ مُدْرِكَاؤُكُمْ يَعْقِبُ» أى لم يرجع ؛ وفي الحديث : «مُعَقَّبَاتٌ لَا يُحِيبُ قَائِلُهُنَّ — أو — فاطلُهُنَّ» فذكر التسبيح والتحميد والتكبير . قال أبو الهيثم : سُمِّيَن «مُعَقَّبَاتٌ» لأنهن عادت مرة بعد مرة ، فَعِلَ من عَمِلَ عملاً ثم عاد إليه فقد عَقَّبَ . والمُعَقَّبَاتُ من الإبل اللواتي يقمن عند أعجاز الإبل المعتركات على الحوض ؛ فإذا آنصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى . وقوله : ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أى المستخفي بالليل والسابر بالنهار . ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ اختلف في الحفظ ؛ فقيل : يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوام والأشياء المضرة ، لطفاً منه به ، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه ؛ قاله ابن عباس وعلي بن أبى طالب رضى الله عنهما . قال أبو جابر : جاء رجل من مراد إلى علي فقال : احترس فإن ناساً من مراد يريدون قتلك ؛ فقال : إن مع كل

(١) قال الزمخشري : جمع معقب أو معقبة بتشديد القاف فهما ، والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير . وقال ابن جني : إنه تكسير معقب كطعم ومطاعم ، كأنه جمع على معاينة ، ثم حذفت الواو . من الجمع وعوضت الياء عنها ؛ قال الأمامي : ولله الأظهر . «روح المعاني» . (٢) الحديث في الدعاء وهو يتجاءل في «صحيح مسلم» : «مُعَقَّبَاتٌ لَا يُحِيبُ قَائِلُهُنَّ» فذكر كل صلاة مكتوبة ثلاث وثلاثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميدة وأربع وثلاثون تكبيرة . «سميت معقبات لأنهن عادت مرة بعد مرة ، أولاً لأنها تقال عقب كل صلاة .

(٣) مراد (بالضم) وكثره دال مهمة) : قبيلة من قبائل العرب سميت بأبيها .

رجل مَلِكِينَ يَحْفَظَانَهُ مَا لَمْ يُقَدَّرْ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدَرُ خَلَّيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ الْأَجَلَ حِصْنِ حَصِينَةٍ؛ وَعَلَى هَذَا «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» أَيْ بِأَمْرِ اللَّهِ وَبِلَاذَنِهِ؛ فـ «مِنْ» بِمَعْنَى الْبَاءِ؛ وَحُرُوفُ الصِّفَاتِ يَقُومُ بَعْضُهَا بِمَقَامِ بَعْضٍ. وَقِيلَ: «مِنْ» بِمَعْنَى «عَنْ»؛ أَيْ يَحْفَظُونَهُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَهَذَا قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ؛ أَيْ حَفَظَهُمْ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ؛ وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ؛ يَقُولُ: كَسَوْتَهُ عَنْ عُرَى وَمِنْ عُرَى؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَنْ وَجَلٍ: «أَطْعَمَهُمْ مِنْ جَوْعٍ» أَيْ عَنْ جَوْعٍ. وَقِيلَ: يَحْفَظُونَهُ مِنْ مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ، حَتَّى لَا تَحُلَّ بِهِ عِقَابُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَنْبَغِي مَا يَقُومُ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْعَافِيَةِ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بَأْتَنَفُسِهِمْ بِالْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ؛ فَإِذَا أَصْرُوا حَانَ الْأَجَلَ الْمَضْرُوبُ وَنَزَلَتْ بِهِمُ النِّعْمَةُ، وَتَزُولُ عَنْهُمْ الْحَقْفَةُ الْمُعَقَّبَاتِ. وَقِيلَ: يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْإِلْحَنِ؛ قَالَ كَعْبٌ: لَوْلَا أَنْتَ اللَّهُ وَكَلَّ بِكُمْ مَلَائِكَةُ يَذْبُونُ عَنْكُمْ فِي مَطْعَمِكُمْ وَمَشْرَبِكُمْ وَعَوَارِئِكُمْ لَتَخَطَّفَتْكُمُ الْإِلْحُ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ؛ وَخَصَّمَهُمْ بِأَن قَالَ: «مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مَعَانِينَ؛ كَمَا قَالَ: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» أَيْ لَيْسَ مِمَّا تَشَاهِدُونَهُ أَتَمَّ. وَقَالَ الْفَزَاءُ فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهُ: لَهُ مَعَقَّبَاتٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ؛ وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ جَاهِدٍ وَأَبْنِ جُرَيْجٍ وَالنَّخَعِيِّ؛ وَعَلَى أَنَّ مَلَائِكَةَ الْعَذَابِ وَالْإِلْحَنَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ لَا تَقْدِيمُ فِيهِ وَلَا تَأْخِيرُ. وَقَالَ أَبُو جُرَيْجٍ: إِنْ الْمَعْنَى يَحْفَظُونَ عَلَيْهِ عَمَلَهُ، فَخَذَفَ الْمُضَافُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَكْتُبُونَ أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ. وَيُجَوِزُ إِذَا كَانَتِ الْمَعَقَّبَاتُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ تَكُونَ الْهَاءُ فِي «لَهُ» اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا ذَكَرْنَا؛ وَيُجَوِزُ أَنْ تَكُونَ لِلنَّخَعِيِّ، فَهَذَا قَوْلٌ. وَقِيلَ: «لَهُ مَعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ» يَعْنِي بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أَيْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَحْفَظُهُ مِنْ أَمْدَانِهِ؛ وَقَدْ جَرَى ذِكْرُ الرَّسُولِ فِي قَوْلِهِ: «لَوْلَا أُتْرِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِلَّا مَا أَنْتَ مُنْذِرٌ» أَيْ سِوَاهُ مِنْكُمْ مِنْ أَمْرِ الْقَوْلِ وَمِنْ جَهْرِ بِهِ فِي أَنَّهُ لَا يَضُرُّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ لَهُ مَعَقَّبَاتٌ يَحْفَظُونَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَيُجَوِزُ أَنْ يَرْجِعَ هَذَا إِلَى جَمِيعِ الرُّسُلِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قَالَ: «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» أَيْ يَحْفَظُونَ الْهَادِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ.

وقول رابع — أن المراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم

يحفظونهم ؛ فإذا جاء أمر الله لم يُقنوا عنهم من الله شيئا ؛ قاله ابن عباس وعِكرمة ؛ وكذلك قال الضحاك : هو السلطان المحتزم من أمر الله المشرك . وقد قيل : إن في الكلام على هذا التأويل نفيا محذوفا ، تقديره : لا يحفظونه من أمر الله تعالى ؛ ذكره الماوردي . قال المهدي : ومن جعل المعقبات الحرس فالمعنى : يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه . وقيل : سواء من أسر القول ومن جهر به فله حراس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصي ، ويحفظونه من أن ينجح فيه وعظ ؛ قال القشيري : وهذا لا يمنع الرب من الإهمال إلى أن يحق العذاب ؛ وهو إذا قهر هذا المعاصي ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سببا للعقوبة ؛ فكانه الذي يحل العقوبة بنفسه ؛ فقله : « يحفظونه من أمر الله » أى من امتثال أمر الله . وقال عبد الرحمن بن زيد : المعقبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه في عبادته ؛ قال الماوردي : ومن قال بهذا القول ففي تأويل قوله « يحفظونه من أمر الله » وجهان : أحدهما — يحفظونه من الموت ما لم يأت أجل ؛ قاله الضحاك . الثاني — يحفظونه من الحق والهوام المؤذية ، ما لم يأت قدره — قاله أبو أمامة وكعب الأحبار — فإذا جاء المقدور خلوا عنه ؛ والصحيح أن المعقبات الملائكة ، وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن جريح ؛ وروى عن ابن عباس ، واختاره النحاس ، وأحجج بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » الحديث ، رواه الأئمة . وروى الأئمة عن عمرو بن ابن عباس قرا — « معقبات من بين يديه وورقائه من خلقه [من أمر الله] يحفظونه » فهذا قد بين المعنى . وقال تاج الدين السيوطي : دخل عثمان رضي الله تعالى عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! أخبرني عن العبدكم معه من ملك ؟ قال : « ملك عن يمينك يكتب الحسنات وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذي على اليمين أمير على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشرها وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين أكتب قال لعله يستغفر الله تعالى ويتوب فإذا قال ثلاثا قال نعم أكتب أراحنا الله تعالى منه

فبئس القرين هو ما أقل مراقبته الله عز وجل وأقل استحيائه منا يقول الله تعالى « مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى « لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » [وملك قابض على ناصيتك فإذا تواضعت لله رفضك وإذا تجبرت على الله قصصك^(١)] وملكان على شفتيك وليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد وآله وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك وملكان على عييك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي يتداولون ملائكة الليل على ملائكة النهار لأن ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمي وإبليس مع ابن آدم بالنهار وولده بالليل ، ذكره الثعلبي . قال الحسن : المعقبات أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر . وأختار الطبري أن المعقبات المواكب بين أيدي الأمراء وخلفهم ؛ والهاء في « له » هن ؛ على ما تقدم . وقال العلماء رضوان الله عليهم : إن الله سبحانه جعل أواصره على وجهين : أحدهما — قضى حوله ووقوعه بصاحبه ؛ فذلك لا يدفعه أحد ولا يغيره . والآخر — قضى بحبه ولم يقض حوله ووقوعه ، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظ .

قوله تعالى : (إِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْقَوْمِ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما يقوم حتى يقع منهم تغير ، إما منهم أو من الناظر لهم ، أو من هو منهم بسبب ؛ كما غير الله بالمنزعين يوم أُحد بسبب تغير الرماة بأنفسهم ، إلى غير هذا من أمثلة الشريعة ؛ فليس معنى الآية أنه ليس يزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب ، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم — وقد سُئِلَ أَنَّهُ لَكَ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قال — : « نَعَمْ إِذَا كُثِرَ الْخَبْرُ » . والله أعلم .

قوله تعالى : (وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا) أى هلاكا وعذابا (فَلَا سَرَدَ لَهُ) . وقيل : إذا أراد بهم بلاء من أراض وأسقام فلا مرد لبلائه . وقيل : إذا أراد الله بقوم سوءا أعمى

(١) الزيادة من تفسير الطبري وغيره . (٢) المراد بالثبث التمسك والتمسك .

أبصارهم حتى يثأروا ما فيه البلاء ويعملوه ؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، حتى يبحث أحدهم عن حشفه بكفّه ، ويسعى يقدمه إلى إراقة دمه . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴾ أى ملجأ ؛ وهو معنى قول السدي . وقيل : من ناصر يمتنعهم من عذابه ؛ وقال الشاعر :

* ما في السماء سوى الرحمن من وال *

وَوَالٍ وَلَّى كَقَادِرٍ وَقَدِيرٍ .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي آلِهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ أى بالمطر . « والسحاب » جمع ، والواحدة سحابة ، وتُحَبُّ وتُحَابُّ في الجمع أيضا . ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾ قد مضى في « البقرة » القول في الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة ؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته ، وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز ؛ أى يريكم البرق في السماء خوفا للسافر ، فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والهلول والصواعق ؛ قال الله تعالى : « أَذَى مِنْ مَطَرٍ » وطمعا للحاضر أن يكون عقبه مطر ويخضب ؛ قال معناه قتادة ومجاهد وغيرهما . وقال الحسن : خوفا من صواعق البرق ، وطمعا في غيثه المزيل للقيحط . ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ قال مجاهد : أى الماء . « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ » من قال إن الرعد صوت السحاب فيجوز أن يُسَبِّح الرعد بدليل خلق الحياة فيه ؛ ودليل صحة هذا القول قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » فلو كان الرعد ملكا لدخل في جملة الملائكة . ومن قال إنه ملك قال : معنى « من خيفته » من خيفة الله ؛ قاله الطبري وغيره . قال ابن عباس : إن الملائكة

خائفون من الله ليس تكوف ابن آدم؛ لا يعرف واحد منهم من على يمينه ومن على يساره، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب؛ وعنه قال : الزعد ملك يسوق السحاب ، وإن بخار الماء لفي نفرة إبهامه ، وأنه مؤكل بالسحاب يصرفه حيث يؤمر ، وأنه يسبح الله ؛ فإذا سبح الزعد لم يبق ملك في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح ، فندها ينزل القطر ، وعنه أيضا كان إذا سمع صوت الزعد قال : سبحان الذي سبحت له . وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه أنه كان إذا سمع صوت الزعد قال : سبحان الذي يسبح الزعد بحمده والملائكة من خيفته ، ثم يقول : إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد . وقيل : إنه ملك جالس على كرسي بين السماء والأرض ، وعن يمينه سبعون ألف ملك ، وعن يساره مثل ذلك ؛ فإذا أقبل على يمينه وسبح سبح الجميع من خوف الله ، وإذا أقبل على يساره وسبح سبح الجميع من خوف الله . (وَيُرْسَلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ) ذكر المساوردي عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب ومجاهد : نزلت في يهودي قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أخبرني ! من أي شيء ربك ، أين لؤلؤ أم من يافوت ؟ بغات صاعقة فأحرقته . وقيل : نزلت في بعض كفار العرب ؛ قال الحسن : كان رجل من طواغيت العرب بعث النبي صلى الله عليه وسلم نفرا يدعوونه إلى الله ورسوله والإسلام فقال لهم : أخبروني عن رب محمد ما هو ، وتم هو ، أين فضة أم من حديد أم نحاس ؟ فاستعظم القوم مقاتله ؛ فقال : أجيئ محمدا إلى رب لا يعرفه ! فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليه مرارا وهو يقول مثل هذا ؛ فبينما التفري نازعونه ويدعونه إذ ارتفعت بحماسة فكانت فوق رؤوسهم ، فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة ، فأحرق الكافر وهم جلوس ؛ فوجدوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالوا : أحترق صاحبكم ، فقالوا : من أين علمتم ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم « وَيُرْسَلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » ذكره التلعي عن الحسن ، والششيري بمعناه عن أنس ، ومسياتي . وقيل : نزلت الآية في أربد بن ربيعة أمي لبيد بن ربيعة ، وفي عامر بن الطفيل ؛ قال ابن عباس : أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة

العامريان يريدان النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد جالس في نفر من أصحابه ، فدخلوا المسجد ، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور ، وكان من أجل الناس ؛ فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا يارسول الله عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك ؛ فقال : "دَعْنِي فَإِنَّ يَرِدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يَهْدِيهِ" فأقبل حتى قام عليه فقال : يا عجمي ما لي إن أسلمت ؟ فقال : "لَكَ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَطَلَبُكَ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ" . قال : أتجعل لي الأمر من بعدك ؟ قال : "ليس ذلك لي إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء" . قال : أفتجعلني على الوبر وأنت على المدر ؟ قال : "لا" . قال : فما تجعل لي ؟ قال : "أجعل لك أَعْنَةَ الخيل تنزرو عليها في سبيل الله" . قال : أو ليس لي أَعْنَةُ الخيل اليوم ؟ قم معي أكلبك ؛ فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عامر أوما إلى أَرَبْدَ : إذا رأيته أكلبه فُدِّرْ من خلفه وأضر به بالسيف ؛ فجعل يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم ويواجهه ؛ فاخترط أَرَبْدَ من سيفه شبرا ثم حبسه الله ، فلم يقدر على سَلِّهِ ، وبست يده على سيفه ، وأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائفٍ صابح فأحرقته ، ووتى عامر هاربا وقال : يا عجمي ! دعوت ربك على أَرَبْدَ حتى قتله ؛ والله لأملأنها عليك خيلا جُرْدًا ، وفتيانا مُرْدًا ؛ فقال عليه السلام : "يمنعك الله من ذلك وأبناء قَيْلَةٍ" ، يعني الأَوْسَ والخَزْرَجَ ؛ فقتل عامر بنت امرأة سُلَولِيَّةَ ؛ وأصبح وهو يقول : والله لئن أُصْحِرْتُ لمجدِّ وصاحبه — يريد ملك الموت — لأنفذهما برمي ؛ فأرسل الله ملكا فلطمه بمحناحه فأذراه في التراب ؛ ونحرت على ركبته ضَلَّةٌ عظيمة في الوقت ؛ فعاد إلى بيت السُلَولِيَّةَ وهو يقول : غُدَّةٌ كفدة البعير ، وموت في بيت سُلَولِيَّةَ ؛ ثم ركب على فرسه فمات على ظهره . وروى يزيد بن ربيعة أخاه أَرَبْدَ فقال :

يَا مَيَّنْ هَلَّا بِكَ يَرَبْدُ إِذْ قَدْ * سَأَا وَفَامَ الْخُصْمُومَ فِي كَبْدِ
أَخْضَى عَلَى أَرَبْدَ الْخُتُوفَ وَلَا * أَرْهَبُ نَوَّ السَّكَا وَالْأَسَدِ
بَجَعِي الزَّمَدُ وَالصَّوَالِقُ بِالْفَا * رِسَ يَوْمَ الْكِرِيَّةِ النَّجِدِ^(١)

(٢) أذراه : قله وري به .

(٤) التجد : السريع الإجابة .

(١) أحمر الرجل : إذا نرج إلى الصمراء .

(٣) كبد : شدة وعاء .

وفيه قال :

لَنَا الرَّزِيَّةُ لَأَرْزِيَّةٍ مِثْلُهَا * فَقَدَانُ كُلِّ أَيْحَ كَضْوَى الْكَوْكَبِ
يَا أَرْبَدَ الْخَيْرِ الْكَرِيمِ جُدُّوهُ * أَفَرَدْتَنِي أَمِثْنِي بِقَرْنٍ أَعْضَبُ^(١)
وَأَسْلَمَ لِيَبْدَ بِذَلِكَ رَضَى اللَّهُ عَنْهُ .

مسئلة — روى أبان عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تأخذ الصاعقة ذا كرا لله عز وجل » . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد يقول : « سبحان من يسمع الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير لأن أصابته صاعقة فعلت ديتسه » . وذكر الخطيب من حديث سليمان بن علي عن صبد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال : كنا مع عمر في سفر فأصابنا رعد وبرد ، فقال لنا كعب : من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسمع الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عوفي مما يكون في ذلك الرعد ؛ ففعلنا فعوفينا ؛ ثم لقيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلذا بردة^(٢) قد أصابت أنفه فأثرت به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ قال : بردة أصابت أنفي فأثرت ، فقلت : إن كعبا حين سمع الرعد قال لنا : من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسمع الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عوفي مما يكون في ذلك الرعد ؛ ففعلنا فعوفينا ؛ فقال عمر : أفلا قلتم لنا حتى نقولها ؟ وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة »^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾ يعنى جدال اليهودى حين سأل عن الله تعالى : من أى شىء هو ؟ قاله مجاهد . وقال ابن جريج : جدال أربد فيما هم به من قتل النبي صلى الله عليه وسلم . ويجوز أن يكون « وهم يجادلون في الله » حالا ، ويجوز أن يكون منقطعاً . وروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى عظيم من المشركين يدعوه إلى الله عز وجل ، فقال لرسول الله : أخبرني عن إهلك هذا ! أهو من فضة أم من ذهب أم من نحاس ؟

(١) قرن أعضب : يسود .

(٢) البرد (بالضريك) : حب النعام .

(٣) راجع ج ١ ص ٢١٦ وما بعدها طيبة ثانية أو ثالثة .

فاستعظم ذلك؛ فرجع إليه فأعلمه؛ فقال: «أرجع إليه فأدعه» فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نزل: «وهم يجادلون في الله» . (وهو شديد المحال) قال ابن الأعرابي: «المحال» المكر، والمكر من الله عز وجل التدبير بالحق. النحاس: المكر من الله لإصبال المكره إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وروى ابن اليزيدي عن أبي زيد «وهو شديد المحال» أي النعمة. وقال الأزهري: «المحال» أي القوة والشدة. والمحل: الشدة؛ الميم أصلية، وما حلت فلاناً محالاً أي قاوته حتى يقين أنها أشد. وقال أبو عبيد: «المحال» العقوبة والمكره. وقال ابن عرفة: «المحال» الجدل؛ يقال: ما حل عن أمره أي جادل. وقال القتيبي: أي شديد الكيد وأصله من الخيلة، جعل ميم كيم المكان؛ وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. وقال الأزهري: غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة؛ بل هي أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية؛ مثل: مهاد وملاك ومراس، وغير ذلك من الحروف. ومفعل إذا كانت من بنات الثلاثة فإنه يميء بإظهار الواو مثل: مِرْزود ومَحْمُول ومَحْمُور، وغيرها من الحروف؛ وقال: وقرأ الأعرج — «وهو شديد المحال» بفتح الميم؛ وجاء نفسه على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول؛ ذكر هذا كله أبو عبيد الهروي، إلا ما ذكرناه أولاً عن ابن الأعرابي؛ وأقاويل الصحابة والتابعين بمعناها، وهي ثمانية: أولها — شديد العداوة، قاله ابن عباس. وثانيها — شديد الحول، قاله ابن عباس أيضاً. وثالثها — شديد الأخذ، قاله علي بن أبي طالب. ورابعها — شديد الحقد، قاله ابن عباس. وخامسها — شديد القوة، قاله مجاهد. وسادسها — شديد الغضب، قاله وهب بن منبه. وسابعها — شديد الهلاك بالحل، وهو القحط؛ قاله الحسن أيضاً. وثامنها — شديد الخيلة؛ قاله قتادة. وقال أبو عبيدة معمر: المحال والمحاللة المأكرة والمغالبة؛ وأنشد لا عشي:

فروع تنبع يستتر في غصني الحب * يد كثير الندى شديد المحال

وقال آخر: ^(١)

وَلَبَسَ بَيْنَ أَقْوَامٍ فَكُلٌّ * أَمَدَّ لَهُ الشَّغَابُ وَالْمَحَالَا

وقال عبد المطلب :

لَأَهْمَّ ابْنَ الْمَرْءِ يَمَّ * نَحَّ رَحْلُهُ فَأَمْنَعُ حِلَالَك ^(٢)

لَا يَغْلِبَنَّ صَليْبُهُمْ وَحَيَا * لَمْ عَدُوا حِمَالَك

قوله تعالى : لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَيِّضٍ كَفَيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أى لله دعوة الصديق . قال ابن عباس وقتادة وغيرهما :

لا إله إلا الله . وقال الحسن : إن الله هو الحق ، فدعاؤه دعوة الحق . وقيل : إن الإخلاص في الدعاء هو دعوة الحق ؛ قاله بعض المتأخرين . وقيل : دعوة الحق دعاؤه عند الخوف ؛ فإنه لا يدعى فيه إلا إياه ، كما قال : « ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ » ؛ قال المازندراني : وهو أشبه بسباق الآية ؛ لأنه قال : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى الأصنام والأوثان . ﴿ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ﴾ أى لا يستجيبون لهم دعاء ، ولا يسمعون لهم نداء . ﴿ إِلَّا كَبَيِّضٍ كَفَيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ ﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثلا لياسمهم من الإجابة لدعائهم ؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يذكره مثلا بالقابض الماء باليد ؛ قال :

فأصبحتُ فيما كان بيني وبينها * من الودّ مثل القابض الماء باليد

(١) هو ذر الزمة ، والبيت من قصيدة يمدح بها بلال بن أبي ردة بن أبي موسى . والقبس : الاختلاط . والشغاب : قال الأصمعي : الشغزية ضرب من الحيلة في الصراع ، وهو أن يدخل الرجل من صاحبه فيصرعه ؛ والمعنى : فكمل رجل من القوم أعطاه حجة وكيدا . (٢) الحلال (بالكسر) : القوم المقيدون المتجاوزون ؛ يريد بهم سكان الحرم .

وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه: أحدها — أن الذي يدعو إلها من دون الله كالظلمات الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً، لأن الماء لا يستجيب، وما الماء ببالغ إليه؛ قاله مجاهد. الثاني — أنه كالظلمات الذي يرى خياله في الماء، وقد بسط كفه فيه ليلبغ فاه وما هو ببالغه، لكذب ظنه، وفساد توهمه؛ قاله ابن عباس. الثالث — أنه كجاسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجد في كفه شيء منه. وزعم القراء أن المراد بالماء هاهنا البئر؛ لأنها معدن للماء، وأن المثل كن مديده إلى البئر بغير رشاء؛ وشاهده قول الشاعر:

فإن الماء ماء أبي وجدي * ويرى ذو حفرته وذو طويته

قال علي رضي الله عنه: هو كالمطشان على شفة البئر، فلا يبلغ قعر البئر، ولا الماء يرتفع إليه؛ ومعنى «إلا جاسط» إلا كاستجابة باسط كفيه «إلى الماء» فالمصدر مضاف إلى الباسط، ثم حذف المضاف؛ وفاعل المصدر المضاف مراد في المعنى وهو الماء؛ والمعنى: إلا كإجابة باسط كفيه إلى الماء؛ واللام في قوله: «ليبلغ فاه» متعلقة باليسط؛ وقوله: «وما هو ببالغه» كناية عن الماء؛ أي وما الماء ببالغ فاه، ويجوز أن يكون «هو» كناية عن الفم؛ أي ما الفم ببالغ الماء. (وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال، لأنها شرك. وقيل: إلا في ضلال أي يضل عنهم ذلك الدعاء، فلا يجدون منه سبيلاً؛ كما قال: «أَيُّكُمْ كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا». وقال ابن عباس: أي أصوات الكافرين محبوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم.

قوله تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلُّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) قال الحسن وقتادة وغيرهما: المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كرها بالسيف. وعن قتادة أيضاً يسجد الكافر كارهاً حين لا ينفعه الإيمان. وقال الزجاج: يسجد الكافر كرهاً ما فيه من الخضوع وأثر الضعفة.

وقال ابن زيد : « طوعا » من دخل في الإسلام رغبة و « كرها » من دخل فيه رهبة بالسيف .
وقيل : « طوعا » من طالت مدة إسلامه فألف السجود ، و « كرها » من يكره نفسه لله تعالى ؛ فالآية في المؤمنين ، وعلى هذا يكون معنى « والأرض » وبعض من في الأرض . قال
القشيري : وفي الآية مسلكان : أحدهما — أنها عامة والمراد بها التخصيص ؛ فالمؤمن يسجد
طوعا ، وبعض الكفار يسجدون لإكراهها وخوفا كالمنافقين ؛ فالآية محمولة على هؤلاء ؛ ذكره
الفراء . وقيل على هذا القول : الآية في المؤمنين ؛ منهم من يسجد طوعا لا يثقل عليه السجود ،
ومنهم من يثقل عليه ؛ لأن الترام التكليف مشقة ، ولكنهم يتحملون المشقة إخلاصا وإيمانا ،
إلى أن يالفوا الحق ويمرنوا عليه . والمسلك الثاني — وهو الصحيح — إجراء الآية على التعميم ؛
وعلى هذا طريقان : أحدهما — أن المؤمن يسجد طوعا ، وأما الكافر فأمور بالسجود مؤاخذ
به . والثاني — وهو الحق — أن المؤمن يسجد ببدنه طوعا ، وكل مخلوق من المؤمن والكافر
يسجد من حيث إنه مخلوق ، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع ؛ وهذا كقوله : « وَإِنْ مِنْ
شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة . (وَظَلَّ اللَّهُمَّ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ)
أي ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدو والآصال ؛ لأنها تين في هذين الوقتين ، وتعمل من
ناحية إلى ناحية ؛ وذلك تصريف الله إياها على ما يشاء ؛ وهو كقوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى
مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ » قاله ابن عباس
وغيره . وقال مجاهد : ظل المؤمن يسجد طوعا وهو طائع ، وظل الكافر يسجد كرها وهو
كاره . وقال ابن الأنباري : يجعل للظلال عقول تسجد بها وتخشع بها ، كما جعل للجبال
أنفهام حتى خاطبت وخوطبت . قال القشيري : في هذا نظره ؛ لأن الجبل عين ، فيمكن أن
يكون له عقل بشرط تقدير الحياة ، وأما الظلال فأناظر وأعراض ، ولا يتصور تقدير الحياة
لها ، والسجود بمعنى الميل ؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب ؛ يقال : سجدت النخلة
أى مالت . و « الآصال » جمع أصل ، والأصل جمع أصيل ؛ وهو ما بين العصر إلى التروب ،
ثم أصائل جمع الجمع ؛ قال أبو ذؤيب الهذلي :
لَعَمْرِي لَأَنْتَ الْبَيْتُ أَكْرَمُ أَهْلُهُ ۖ وَأَقْعَدُ فِي أَفْيَئَتِهِ بِالْأَصَائِلِ

و «ظِلَّاهُمْ» يجوز أن يكون معطوفاً على «مَنْ» ويجوز أن يكون أرفع بالابتداء والخبر محذوف؛ التقدير: وظلَّاهُمْ مُجِدُّ بِالْعَدُوِّ وَالْإِصَال . «والعدو» يجوز أن يكون مصدراً، ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوى كونه جمعا مقابلة الجمع الذي هو الإصال به .

قوله تعالى: **قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلِيفَهُ فَنَشَبَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦٦﴾**

قوله تعالى: **(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)** أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين: «قل من رب السموات والأرض» ثم أمره أن يقول: هو الله إلزاما للعبادة إن لم يقولوا ذلك، وجهلوا من هو. **(قُلْ أَتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)** هذا يدل على اعتقادهم بأن الله هو الخالق [وإلا] لم يكن للاحتجاج بقوله: «قل أتخذتم من دونه أولياء» معنى؛ دليبه قوله: «وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» أي فإذا اعترفتم فلم تعبدون غيره؟! وذلك الغير لا ينفع ولا يضر؛ وهو إلزام صحيح. ثم ضرب لهم مثلاً فقال: **(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)** فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق، والمشرِك الذي لا يبصر الحق. وقيل: الأنعمى مثل لما عبده من دون الله، والبصير مثل الله تعالى: **(أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ)** أي الشرك والإيمان. وقرأ ابن محيصن وأبو بكر والاعمش وحزرة والكسائي «يستوي» بآلاء لتقدم الفعل؛ ولأن تأنيث «الظلمات» ليس بحقيقي. الباقون بالناء؛ واختاره أبو عبيد، قال: لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل. و«الظلمات والنور» مثل الإيمان والكفر؛ ونحن لا نقف على كيفية ذلك. **(أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلِيفَهُ فَنَشَبَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ)** هذا من تمام الاحتجاج؛ أي خلق غير الله مثل

خلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم . (قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) أى قل لهم يا محمد : الله خالق كل شيء ، فلزم لذلك أن يعبدوه كل شيء . والآية رد على المشركين والقدريه الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله . (وَهُوَ الْوَاحِدُ) قبل كل شيء . (الْقَهَّارُ) الغالب لكل شيء ، الذى يغلب فى مراده كل مرید . قال القشيري أبو نصر : ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع ؛ أى سألهم عن خالق السموات والأرض ، فإنه يسهل تقرير الحق فيه عليهم ، ويقرب الأمر من الضرورة ؛ فإن تجزأ الجباد وتجزأ كل مخلوق عن السموات والأرض معلوم ؛ وإذا تقرّر هذا وبأن أن الصانع هو الله فكيف يجوز اعتداد الشريك له ؟ ! وبين في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعا لا شبيهه الخلق ، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك ، فم يعلم أن الفعل من اثنين ؟ !

قوله تعالى : **أُنزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝١٧** لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ هُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلُهٗ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُم سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝١٨ أَقْنِ يَٰعِلْمُ إِنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝١٩ قوله تعالى : (أُنزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا)

ضرب مثلا للحق والباطل ؛ فشبه الكفر بالزبد الذى يسلو الماء ، فإنه يضمحل ويبقى بجنبات الأودية ، وتدفعه الرياح ؛ فكذلك يذهب الكفر ويضمحل ، على ما نهيته . قال مجاهد :

« فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا » قال : بقدر ملثها . وقال ابن جرير : بقدر صغرها وكبرها . وقرأ الأزهري العقيلي والحسن « يَقْدَرُهَا » بسكون الدال ، والمعنى واحد . وقيل : معناها بما قدر لها . والأودية جمع الوادي ، وسمى واديا لخروجه وسيلانه ، فالوادي على هذا اسم للسائل . وقال أبو علي : « أودية » توسع ، أى سال ماؤها لخفف ، قال : ومعنى « بقدرها » يقدر مياهها ، لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها . « فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا » أى طالعا عاليا مرتفعا فوق الماء ، وتم الكلام ، قاله مجاهد . ثم قال : « وَيَمَّا يَوْفُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ » وهو المثل الثانى . « أَهْأَاءَ حَلِيَّةٍ » أى حلية الذهب والفضة . « أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ » قال مجاهد : الحديد والنحاس والرصاص . وقوله : « زبد مثله » أى يعلو هذه الأشياء زبد كما يعلو السيل ؛ وإنما احتمل السيل الزبد لأن الماء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبدا ، كذلك ما يوقد عليه فى النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما ينبت فى الأرض من المعادن فقد خالطه التراب ؛ فلما يوقد عليه ليدوب فيزياله تراب الأرض . وقوله : « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً » قال مجاهد : جودا . وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو ابن العلاء : أَجْفَأَتِ الْقِدْرُ إِذَا غَلَّتْ حَتَّى يَنْصَبَ زَبَدُهَا ، وَإِذَا جَمَدَ فِي أَسْفَلِهَا . وَالْجُفَاءُ مَا أَجْفَاهُ الْوَادِى أَيْ رَمَى بِهِ . وَحَكَى أَبُو عُبَيْدَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رُوْبَةَ يَقْرَأُ « جُفَاءً » قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : يَقَالُ أَجْفَلَتِ الْقِدْرُ إِذَا قَذِفَتْ بِزَبَدِهَا ، وَأَجْفَلَتِ الرِّيحُ السَّحَابَ إِذَا قَطَعَتْهُ . « وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّكُمْ فِي الْأَرْضِ » قال مجاهد : هو الماء الخالص الصافي . وقيل : الماء وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص ؛ وهو أن المثلين ضربهما الله للحق في ثباته ، والباطل في اضطرابه ؛ فالباطل وإن علا فى بعض الأحوال فإنه يضمحل كاضمحلال الزبد والخبث . وقيل : المراد مثل ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب ؛ فشبه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه ، وشبه القلوب بالأودية يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل فى الأودية بحسب سعتها وضيقها . قال ابن عباس : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » قال قرآنا ؛ « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا » قال : الأودية قلوب العباد . قال صاحب

(١)

«سوق العروس»: إن صح هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مثل القرآن بالماء، ومثل القلوب بالأودية، ومثل الحكم بالصافي، ومثل المتشابه بالزبد. وقيل: الزبد غايل النفس وغوائل الشك ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان تلعبها، كما أن ماء السيل يجري صافيا فيرفع ما يجمد في الوادى باقيا، وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السلية، والأخلاق الزكية، التي بها جمال الرجال، وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء، وبهما قيمة الأشياء. وقرأ حيد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحزمة والكسائي وحفص «يوقدون» بالياء، واختاره أبو عبيد لقوله: «ينفع الناس» فأخبر، ولا تخاطبة هاهنا. الباقيون بالناء لقوله في أول الكلام: «أفأنتخذتم من دونه أولياء» الآية. وقوله: «في النار» متعلق بمحذوف، وهو في موضع الحال، وذو الحال الماء التي في «عليه» التقدير: ومما توقدون عليه ثابتا في النار أو كائنا. وفي قوله: «في النار» ضمير صر فوج يعود إلى الماء التي هي آسم ذى الحال. ولا يستقيم أن يتعلق «في النار» بـ«يوقدون» من حيث لا يستقيم أوقدت عليه في النار؛ لأن الموقد عليه يكون في النار، فيصير قوله «في النار» غير مفيد. وقوله: «أنتقاء حلية» مفعول له. «زبد مثله» ابتداء وخبر؛ أي زبد مثل زبد السيل. وقيل: إن خبر «زبد» قوله: «في النار». الكسائي: «زبد» ابتداء، و«مثله» نعت له، والخبر في الجملة التي قبله، وهو «مما يوقدون». (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) أي كما بين لكم هذه الأمثال فكذلك يضربها بينات. تم الكلام، ثم قال: (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ) أي أجابوا؛ استجاب بمعنى أجاب، قال:

* فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ يُجِيب *

وقد تقدم؛ أي أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والتبوات. (الْحَسَنَى) لأنها في نهاية الحسن. وقيل: من الحسنى النصر في الدنيا، والنعيم المقيم غدا. (وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ)

(١) هو: أبو مشرعة الكريم بن عبد الصمد الطبري، نزل مكة المكرمة، المتوفى بها سنة ٤٧٨هـ وتكابه: «سوق العروس» في علم القراءات. (كشف الظنون).

(٢) هو كعب بن سعد القنري رضى أخاه أبا المغوار، ومدر البيت: * وداع دعا يا من يجيب إلى الهدى *

أى لم يحيوا إلى الإيمان به . ﴿لَوْ أَنَّ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أى من الأموال . ﴿وَمِثْلَهُنَّ﴾ ملك لهم ﴿لَا تَتَدَّبَّرُوا بِهِ﴾ من عذاب يوم القيامة ؛ نظيره في «آل عمران» «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» ، «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَى بِهِ» حسب ما تقدم بيانه هناك . ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أى لا يقبل لهم حسنة ، ولا يتجاوز لهم عن سيئة . وقال فرقد السبخي قال إبراهيم النخعي : يا فرقد ! أتدري ما سوء الحساب ؟ قلت : لا ! قال : أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يفقد منه شيء . ﴿وَمَاوَاهُمْ﴾ أى مسكنهم ومقامهم . ﴿جَهَنَّمَ رِئَاسَ الْإِلَهَادِ﴾ أى الفراش الذى مهدوا لأنفسهم .

قوله تعالى : ﴿أَمَّا يَلْمِزُكَ إِنَّمَا أَزْلَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَبُنْ هُوَ أَعْمَى﴾ هذا مثل ضربه الله للؤمن والكافر ، وروى أنها نزلت في حصة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وأبى جهل لعنه الله ، والمراد باللعى عصى القلب ، والجاهل بالدين عصى القلب . ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ .

قوله تعالى : الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾

فيه مسائلان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ هذا من صفة ذوى الألباب ؛ أى إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله . والعهد أسم للجلس ؛ أى بجميع عهود الله ، وهى أوامره ونواهيها التى وصى بها عبده ؛ ويدخل فى هذه الألفاظ التزام جميع الفروض ، وتجنب جميع الماصى . وقوله : ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ يحتمل أن يريد به جنس المواثيق ، أى إذا عقدوا فى طاعة الله عهدا لم ينقضوه . قال قتادة : تقدم الله إلى عباده فى نقض الميثاق ونهى عنه فى بضع وعشرين آية ؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه ، وهو الذى أخذه

(١) راجع ج ٤ ص ٢١ وما بعدها ، ص ١٣١ وما بعدها طبعه أول مرة .

(٢) السبخي (بفتح) إلى السبعة موضع بالبرية .

الله على عباده حين أخرجهم من صُلب أبيهم آدم . وقال القفال : هو ما رُكِبَ في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات .

الثانية — روى أبو داود وغيره عن عوف بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال : " ألا تباعون رسول الله صلى الله عليه وسلم " وكنا حديث عهد ببيعة قفلنا : قد باعناك [حتى قالها ثلاثا ؛ فبسطنا أيدينا فباعناه ، فقال قائل : يا رسول الله ! إنا قد باعناك ^(١)] فلي ماذا نبايعك ؟ قال : " أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الصلوات الخمس وتطيعوا وتُطيعوا — وأمر كلمة خفية — قال لا تسألوا الناس شيئا " قال : ولقد كان بعض أولئك النفر يسقط مسوطه فما يسأل أحدا أن يناوله إياه . قال ابن العربي : من أعظم الموانع في الذكر ألا يسأل سواه ؛ فقد كان أبو حمزة الخراساني من كبار العباد سمع أن أناسا بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يسألوا أحدا شيئا ، الحديث ؛ فقال أبو حمزة : رب ! إن هؤلاء طاهدوا نيك إذ راوه ، وأنا أعاهدك ألا أسأل أحدا شيئا ؛ قال : نخرج حاججا من الشام يريد مكة فيينا هو يمشي في الطريق من الليل إذ بقي عن أصحابه لئذ ثم أتبعهم ، فيينا هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق ؛ فلما حلّ في قعره قال : أستغيث لعل أحدا يسمعي . ثم قال : إن الذي طاهدته يراني ويسمعي ، والله ! لا تكلمت بحرف للبشر ، ثم لم يلبث إلا يسيرا إذ مرّ بذلك البئر نفر ، فلما رآه على حاشية الطريق قالوا : إنه لينبئ سدد هذا البئر ؛ ثم قطعوا خشبا ونصبوها على فم البئر وغطوها بالتراب ؛ فلما رأى ذلك أبو حمزة قال : هذه مهلكة ، ثم أراد أن يستغيث بهم ، ثم قال : والله ! لا أخرج منها أبدا ؛ ثم رجع إلى نفسه فقال : ليس قد طاهدت من يرالك ؟ فسكّت وتوكل ، ثم استند في قعر البئر مقكرا في أمره فإذا بالتراب يقع عليه ؛ وانخشب يرفع عنه ، وسمع في أثناء ذلك من يقول : هات يدك ! قال : فأعطيته يدي فألقني في مرة واحدة إلى فم البئر ، فخرجت فلم أر أحدا ؛ فسمعت هاتفا يقول : كيف رأيت ثمرة التوكل ، وأنشد :

نَهَانِي حَيَاتِي مِنْكَ أَنْ أَكْشَفَ الْهَوَى * فَأَغْنَيْتَنِي بِالْعِلْمِ مِنْكَ عَنِ الْكَشَفِ
تَلَطَّفْتَ فِي أَمْرِي فَأَبْدَيْتَ شَاهِدِي * إِلَى ظَائِي وَاللَّطْفُ يُدْرِكُ بِاللَّطْفِ
تَرَأَيْتَ لِي بِالْعِلْمِ حَتَّى كَانَمَا * تُخَبِّرُنِي بِالْغَيْبِ أَنْكَ فِي كَفِّ
أَرَأَيْتَ وَبَنِي مِنْ هَيْبَتِي لَكَ وَحَشَةً * فَتَوَسَّسَنِي بِاللَّطْفِ مِنْكَ وَبِالْعَطْفِ
وَمُنْجِي مَحِبًّا أَنْتَ فِي الْحُبِّ حَقِيقُهُ * وَذَا عَجَبٌ كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَتِيفِ

قال ابن العربي : هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال ، فاقننوا به إن شاء الله تهتدوا . قال أبو الفرج الجوزي : سكوت هذا الرجل في هذا المقام على التوكل برحمه إعانة على نفسه ، وذلك لا يحل ؛ ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافي استغاثته في تلك الحالة ؛ كما لم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوكل بإخفائه الخروج من مكة ، واستنجاره دليلا ، واستكلامه ذلك الأمر ، واستناره في الغار ، وقوله لسُرَّاقَة : « أَخِيفْ عَنَّا » . فالتوكل الممدوح لا يُتَّال بفعل محظور ؛ وسكوت هذا الواقع في البر محظور عليه ؛ وبيان ذلك أن الله تعالى قد خلق لآله دعى آله يدفع عنه بها الضرر ، وآله يحتجب بها النفع ، فإذا عطَّلها مدعيًا للتوكل كان ذلك جهلا بالتوكل ، وردًا لحكمة التواضع ؛ لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله تعالى ، وليس من ضرورته قطع الأسباب ؛ ولو أن إنسانا جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار ؛ قاله سفيان الثوري وغيره ، لأنه قد دُلَّ على طريق السلامة ، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه . وقال أبو الفرج : ولا التفات إلى قول أبي حمزة : « بقاء أسد فأخبرني » فإنه إن صح ذلك فقد يقع مثله اتفاقا ، وقد يكون لطفا من الله تعالى بالعبد الجاهل ؛ ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف به ، إنما ينكر فعله الذي هو كسبه ، وهو إعانتته على نفسه التي هي وديعة لله تعالى عنده ، وقد أمره بحفظها .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقُوبَةُ الدَّارِ ﴿١٠﴾ جَنَّتْ عَذْرُوكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ
وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ
مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١١﴾ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقُوبَةُ الدَّارِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) ظاهر في صلة الأرحام؛ وهو قول قتادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات . (وَيُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) قيل : في قطع الرحم . وقيل : في جميع المعاصي . (وَيُخْشَوْنَ سُوءَ الْحِسَابِ) « سوء الحساب » الاستقصاء فيه والمناقشة؛ ومن فُوقِش الحساب عُدْب . وقال ابن عباس وسعيد بن جبيرة : معنى « يصلون ما أمر الله به » الإيمان بجميع الكتب والرسل كلها . الحسن : هو صلة عهد صلى الله عليه وسلم . ويحتمل رابعا : أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح ، « ويخشون ربهم » فنيا أمرهم بوصله ، « ويخافون سوء الحساب » في تركه؛ والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا ، والله توفيقنا .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ) قيل : « الذين » مستأنف؛ لأن « صبروا » ماض فلا ينعطف على « يوفون » . وقيل : هو من وصف من تقدم ، ويجوز الوصف تارة بلفظ الماضي ، وتارة بلفظ المستقبل؛ لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا؛ ولما كان « الذين » يتضمن الشرط [و] الماضي في الشرط كالمستقبل جاز ذلك؛ ولهذا قال : « الذين يوفون » ثم قال : « والذين صبروا » ثم عطف عليه فقال : « ويدبرون بالحسنة السيئة » . قال ابن زيد : صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصية الله . وقال عطاء : صبروا على الرزايا والمصائب ، والحوادث والنوايب . وقال أبو عمران الجوني : صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله . (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) أدوها بفروضها وخشوعها في مواقيتها . (وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) يعني الزكاة المفروضة؛ عن ابن عباس ، وقد مضى القول في هذا في « البقرة » وغيرها . (وَيَدْرُؤُونَ

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ) أى يذفون بالعمل الصالح المني من الأعمال؛ قاله ابن عباس. ابن زيد: يذفون الشر بالخير. سعيد بن جبير: يذفون المنكر بالمعروف. الضحاك: يذفون الفحش بالسلام. جُؤَيْر: يذفون الظلم بالعفو. ابن شجرة: يذفون الذنب بالتوبة. القُتَيْبِي: يذفون سفه الجاهل بالحلم؛ فالفقه السيئة، والحلم الحسنة. وقيل: إذا هموا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يذفون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فهذه تسعة أقوال، معناها كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم؛ ونظيره: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» ومنه قوله عليه السلام لمعاذ: «وَأَتْبَعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالَقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ».

قوله تعالى: (أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى عاقبة الآخرة، وهى الجنة بدل النار، والدار فدا داران: الجنة للطيع، والنار للعاصي؛ فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لا محالة. وقيل: عنى بالدار دار الدنيا؛ أى لهم جزاء ما عملوا من الطاعات فى دار الدنيا.

قوله تعالى: (جَنَّاتٌ مِّنْ دُونِهَا يَدْخُلُونَهَا) أى لهم جنات عدن؛ ف«جنات عدن» بدل من «عقي». ويحوز أن تكون تفسيراً لـ«عقي الدار» أى لهم دخول جنات عدن؛ لأن «عقي الدار» حدث، و«جنات عدن» عين، والحدث إنما يفسر بحدث مثله؛ فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول. ويحوز أن يكون «جنات عدن» خبر ابتداء محذوف. و«جنات عدن» وسط الجنة وقصبتها، وسقفها عرش الرحمن؛ قاله القُشَيْرِيُّ أبو نصر عبد الرحيم. وفى صحيح البخارى: «إذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تخرج أنهار الجنة». فيحتمل أن يكون «جنات» كذلك، إن صح فكذلك خبر. وقال عبد الله بن عمرو: إن فى الجنة قصراً يقال له عدن، حوله البروج والمروج، فيه ألف باب، على كل باب خمسة آلاف حِبرة لا يدخله إلا نبي^(١) أو صدِّيق أو شهيد. و«عدن» مأخوذ من عدن بالمكان إذا أقام فيه؛ على ما يأتى بيانه فى سورة «الكهف» إن شاء الله. (وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) يجوز أن

(١) الخبر (بكر الحاء المهمة وضما) : ضرب من البرد البينة منز . (٢) آية ٣١ .

يكون معطوفاً على « أولئك » المعنى : أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقبي الدار . ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير المرفوع في « يدخلونها » وحسن العطف لما حال الضمير المنصوب بينهما . ويجوز أن يكون المعنى : يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم ، أى من كان صالحاً ؛ لا يدخلونها بالأنساب . ويجوز أن يكون موضع « مَنْ » نصبا على تقدير : يدخلونها مع من صلح من آبائهم ، وإن لم يعمل مثل أعمالهم يلحقه الله بهم كرامة لهم . وقال ابن عباس : هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول ؛ ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التبعية . قال القشيري : وفي هذا نظراً ؛ لأنه لا بد من الإيمان ، فالقول في اشتراط العمل الصالح كالقول في اشتراط الإيمان ؛ فالأظهر أن هذا الصلاح في جملة الأعمال ، والمعنى : أن النعمة عقداً تتم عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع قربائهم في الجنة ، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه ؛ بل برحمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ أى بالتحف والهدايا من عند الله تكملة لهم . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى يقولون : سلام عليكم ؛ فاضمر القول ، أى قد سلمت من الآفات والمحن . وقيل : هو دعاء لهم بدوام السلامة ، وإن كانوا سالمين ؛ أى سلمكم الله ، فهو خبر معناه الدعاء ؛ ويتضمن الاعتراف بالعبودية . ﴿ وَمَا صَبْرَتْكُمْ ﴾ أى بصبركم ؛ ذمها مع الفعل بمعنى المصدر ، والباء في « بما » متعلقة بمعنى « سلام عليكم » . ويجوز أن تتعلق بـ « صبرتم » أى هذه الكرامة بصبركم ، أى على أمر الله تعالى ونهيه ؛ قاله سعيد بن جبير . وقيل : على الفقر في الدنيا ؛ قاله أبو عمران الجوني . وقيل : على الجهاد في سبيل الله ؛ كما روى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " المجاهدون الذين تُسَدُّ بهم الثغور وتُثَقِّبهم المكاره فيموت أحدهم وحاجته في نفسه لا يستطيع لما قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار " . وقال محمد بن إبراهيم : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : " السلام عليكم بما صبرتم فنعم

عقبى الدار» وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان؛ وذكره البيهقي عن أبي هريرة قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي الشهداء، فإذا أتى فُرْصَةُ الشَّعْبِ^(١) يقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار». ثم كان أبو بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم يفعله، وكان عمر بعد أبي بكر يفعله، وكان عثمان بعد عمر يفعله؛ وقال الحسن البصري رحمه الله: «بما صبرتم» عن فضول الدنيا. وقيل: «بما صبرتم» على ملازمة الطاعة، ومفارقة المعصية؛ قال معناه الفضيل بن عياض. ابن زيد: «بما صبرتم» عما تحبونه إذا قدتموه. ويحتمل سابعاً — «بما صبرتم» عن اتباع الشهوات. وعن عبد الله بن سلام وعلى بن الحسين رضى الله عنهم [أنهما قالاً]: إذا كان يوم القيامة ينادى مناد ليقيم أهل الصبر؛ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم: أنطلقوا إلى الجنة، فتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة؛ قالوا: قبل الحساب؟ قالوا نعم! فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبرناها من معاصي الله، وصبرناها على البلاء والحن في الدنيا. قال على بن الحسين: فتقول لهم الملائكة: أدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. وقال ابن سلام: فتقول لهم الملائكة: «سلام عليكم بما صبرتم». (فَنِعْمَ عَقْبَى الدَّارِ) أى نعم عاقبة الدار التي كنتم فيها؛ علمت فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه؛ فالعقبى على هذا اسم، و«الدار» هي الدنيا. وقال أبو عمران الجوني: «فنعم عقبى الدار» الجنة عن النار. وعنه: «فنعم عقبى الدار» الجنة عن الدنيا.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ^(٢) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَنَعٌ^(٣)

(١) فرصة الشعب: فوّهة. والشعب: ما اخرج بين جبلين. والشهداء كانوا يجبل أحد.

(٢) في الأصل: «أند قال».

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ) لما ذكر المؤمنين بعهدده،
والمواصلين لأمره ، وذكر ما لهم ذكر عكسهم . نقض الميثاق : ترك أمره . وقيل : إهمال
عقوبتهم ، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى . (وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)
أى من الأرحام، والإيمان بجميع الأنبياء . (وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) أى بالكفر وأرتكاب
المعاصي . (أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ الْآلَةُ) أى الطرد والإبعاد من الرحمة . (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الدَّارُ) أى سوء
المنقلب ، وهو جهنم . وقال سعد بن أبي وقاص : والله الذى لا إله إلا هو ! إنهم الحُرورية .
قوله تعالى : (اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) لما ذكر عاقبة المؤمنين وعاقبة
المشرك بين أنه تعالى الذى يسطر الرزق ويقدر فى الدنيا ، لأنها دار امتحان ؛ فبسط الرزق
على الكافر لا يدل على كرامته ، والتقدير على بعض المؤمنين لا يدل على إلهائهم . « ويقدر »
أى يضيّق ، ومنه « وَمَنْ قَدَّرَ طَيْبَهُ رَزَقَهُ » أى ضيق . وقيل : « يقدر » يعطى بقدر
الكفاية . (وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يعنى مشرك مكة ؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها ، وجهلوا
ما عند الله ؛ وهو معطوف على « ويفسدون فى الأرض » . وفى الآية تقديم وتأخير ؛
التقدير : والذين يتقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون
فى الأرض وفيحوا بالحياة الدنيا . (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ) أى فى جنبها (إِلَّا مَتَاعٌ)
أى متاع من الأمتعة ؛ كالقصة^(١) والسكرجة . وقال مجاهد : شئ قليل ذاهب ؛ من متاع النهار
إذا ارتفع ، فلا بد له من زوال . ابن عباس : زائد كراد الراعى . وقيل : متاع الحياة الدنيا
ما يستمتع بها منها . وقيل : ما يترقد منها إلى الآخرة ، من التقوى والعمل الصالح ؛ « ولم
سوء الدار » ثم ابتداء « الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر » أى يوسع ويضيّق .

قوله تعالى : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ
قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٣٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٣٨﴾

(١) السكرجة : إناء صغير يؤكل فيه الشئ القليل من الأدم ، وهى فارسية .

قوله تعالى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ) بين في مواضع أن اقتراح الآيات على الرسل جهل ، بعد أن رأوا آية واحدة تدل على الصدق ؛ والقائل عبد الله بن أبي أمية وأصحابه حين طالبوا النبي صلى الله عليه وسلم بالآيات . (قُلْ إِنْ أَنْتُمْ عَنِ اللَّهِ) عز وجل (يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ) أى كما أضلكم بعد ما أنزل من الآيات وحرّمكم الاستدلال بها يضلكم عند نزول غيرها . (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ) أى من رجع . والهاء في « إليه » للحق ، أو للإسلام ، أو لله عز وجل ؛ على تقدير : ويهدى إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه . وقيل : هى للنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا) « الذين » في موضع نصب ، لأنه مفعول ؛ أى يهدى الله الذين آمنوا . وقيل بدل من قوله : « من أناب » فهو في محل نصب أيضا . (وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ) أى تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن ؛ قال : أى وهم تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله بالسلمة ؛ قاله قتادة . وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : بالقرآن . وقال سفيان ابن عيينة : بأمره . مقاتل : بوعده . ابن عباس : بالحلف باسمه ، أو تطمئن بذكر فضله وإنعامه ؛ كما تؤجل بذكر عدله وأنتقامه وقضائه . وقيل : « بذكر الله » أى يذكر الله ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة . (أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) أى قلوب المؤمنين . قال ابن عباس : هذا في الحلف ؛ فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه . وقيل : « بذكر الله » أى بطاعة الله . وقيل : بشوابه الله . وقيل : بوعده الله . وقال مجاهد : هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ

مَعَابٌ)

قوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ) ابتداء وخبر . وقيل : معناه لهم طُوبَى ؛ فـ « طُوبَى » رفع بالابتداء ، ويجوز أن يكون موضعه نصبا على تقدير : جعل

لهم طوبى ، ويعطف عليه « وحسن مأب » على الوجهين المذكورين ، فترفع أو تنصب .
 وذكر عبد الزاق : أخبرنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن عمرو بن أبي يزيد البكالى عن عتبة
 ابن عبد السلمي قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الجنة وذكر الخوض
 فقال : فيها فاكهة ؟ قال : « نعم شجرة تدعى طوبى » . قال : يارسول الله أى شجر أرضنا
 تشبه ؟ قال : « لا تشبه شيئا من شجر أرضك أأتيت الشام هناك شجرة تدعى الجوزة تلذت
 على ساق ويفترش أعلاها » . قال : يارسول الله ألما عظم أصلها ؟ قال : « لو أرتحلت جدمة
 من إبل أهلك ما أحطت بأصلها حتى تنكسر رقوتها هَرَمًا » . وذكر الحديث ، وقد كتبهناه
 بكالته في أبواب الجنة من كتاب « التذكرة » ، والحمد لله . وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا معمر
 عن الأشعث عن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال : في الجنة شجرة يقال لها
 طوبى ، يقول الله تعالى لها : فتفتق لعبدى عما شاء ، فتفتق له عن فرس بسرجه ولحامه
 وهيئته كما شاء ، وتفتق عن الراحلة برجلها وزمامها وهيئتها كما شاء ، وعن التجائب والنياب .
 وذكر ابن وهب من حديث شهر بن حوشب عن أبي أمامة الباهلي قال : « طوبى » شجرة
 في الجنة ليس منها دار إلا فيها غصن منها ، ولا طير حسن إلا هو فيها ، ولا ثمرة إلا هي منها ؛
 وقد قيل : إن أصلها في قصر النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة ، ثم تنقسم فروعها على منازل
 أهل الجنة ، كما أنتشر منه العلم والإيمان على جميع أهل الدنيا . وقال ابن عباس : « طوبى
 لهم » فرح لهم وفرحة عين ، وعنه أيضا أن « طوبى » أمم الجنة بالجشبية ؛ وقاله سعيد بن جبيرة .
 الربيع بن أنس : هو البستان ببلعة الهند ؛ قال القشيري : إن صح هذا فهو وفاق بين اللغتين .
 وقال قتادة : « طوبى لهم » حسنى لهم . عكرمة : نعمى لهم . إبراهيم النخعي : خير لهم ؛
 وعنه أيضا كرامة من الله لهم . الضحاك : غبطة لهم . النحاس : وهذه الأقوال متقاربة ؛
 لأن طوبى فعل من الطيب ؛ أى العيش الطيب لهم ؛ وهذه الأشياء ترجع إلى الشيء الطيب .
 وقال الزجاج : طوبى فعل من الطيب ، وهى الحالة المستطابة لهم ؛ والأصل طُوبى ، فصارت
 الياء واوا لسكونها وضُم ما قبلها ، كما قالوا : موسى ومويعن .

قلت : والصحيح أنها شجرة ؛ للحديث المرفوع الذي ذكرناه ، وهو صحيح على ما ذكره السهيلي ؛ ذكره أبو عمر في التمهيد ، ومنه نقلناه ؛ وذكره أيضا التعلي في تفسيره ؛ وذكر أيضا المهدي والقشيري عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " طوبى شجرة في الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه ثلثت الحل والجلل وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة " . ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع التعلي . وقال ابن عباس : « طوبى » شجرة في الجنة أصلها في دار على ، وفي دار كل مؤمن منها غصن . وقال أبو جعفر محمد بن علي : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : « طوبى لهم وحسن مآب » قال : « شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة » ثم سئل عنها مرة أخرى فقال : « شجرة أصلها في دار علي وفروعها في الجنة » فقيل له : يا رسول الله ! سئلت عنها فقلت : « أصلها في داري وفروعها في الجنة » ثم سئلت عنها فقلت : « أصلها في دار علي وفروعها في الجنة » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن داري ودار علي خذا في الجنة واحدة في مكان واحد » . وعنه صلى الله عليه وسلم : « هي شجرة أصلها في داري وما من دار من دوركم إلا مدنى فيها غصن منها » . (وَحَسُنَ مَا يَ) آب إذا رجع . وقيل تقدير الكلام : الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله وعملوا الصالحات طوبى لهم .

قوله تعالى : كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ) أى أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك ؛ قاله الحسن . وقيل : شبه الإنعام على من أرسل إليه عهد عليه السلام بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله . (لَتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) يعنى القرآن . (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ) قال مقاتل وأبى جريح : نزلت في صلح الحديبية حين أرادوا

أن يكتبوا كتاب الصُّلح ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ : ” أكتب بسم الله الرحمن الرحيم “ فقال سُهَيْل بن عمرو والمشركون : ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة ، بنون مُسَيْلَمَةَ الكَذَّاب ؛ أكتب باسمك اللهم ، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ : ” أكتب هذا ما صالح عليه عهد رسول الله “ فقال مشركو قريش : لئن كنت رسول الله ثم فالتناك وصددناك لقد ظلمناك ؛ ولكن أكتب : هذا ما صالح عليه عهد بن عبد الله ؛ فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : دعنا نقاظهم ؛ فقال : ” لا ولكن أكتب ما يريدون “ فترتل . وقال ابن عباس : نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : ” آسجدوا للرحمن “ قالوا : وما الرحمن ؟ فترتل (قُلْ) لم يا عهد : الذى أنكرتم (هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) ولا معبود سواه ؛ هو واحد بذاته ، وإن اختلفت أسمائه صفاته . (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) وأتمدت ووثقت . (وَإِلَيْهِ مَتَابِ) أى مرجعى غذا ، واليوم أيضا عليه توكلت ووثقت ، رضا بقضائه ، وتسلياً لأمره . وقيل : سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فى الجحر ويقول : ” يا الله يارحمن “ قال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهم ؛ فنزلت هذه الآية ، ونزل « قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْادْعُوا الرَّحْمَنَ » .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ أَلْمُوتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِصَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) هذا متصل بقوله : « لولا أنزل عليه آية من ربه » وذلك أن نفرا من مشركى مكة فهم أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية

المخزوميان جلسوا خلف الكعبة ، ثم أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتاهم ؛ فقال له عبد الله : إن شرك أن تتبعك فسّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأنهبا عنا حتى تنفسح ؛ فإنها أرض ضيقة ، وأجعل لنا فيها عيونا وأنهارا ، حتى نفرس ونزرع ؛ فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حين سخر له الجبال تسير معه ، وسخر لنا الريح فنركبها إلى الشام ففضى عليها ميرتنا وحوائجنا ، ثم ترجع من يومنا ؛ فقد كان سليمان سخرت له الريح كما زعمت ؛ فلست بأهون على ربك من سليمان بن داود . وأخي لنا قصَب جتلك ، أو من شئت أنت من موتانا نسأله ، أحق ما تقول أنت أم باطل ؟ فإن عيسى كان يحيى الموتى ، ولست بأهون على الله منه ؛ فأزل الله تعالى : « ولو أن قرآنا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » الآية ؛ قال معناه الزبير بن العوام وبجاهد وقتادة والضحاك ؛ والجواب محذوف تقديره : لكان هذا القرآن ، لكن حذف إيجازا ، لما في ظاهر الكلام من الدلالة عليه ؛ كما قال أمرؤ القيس :

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً * وَلَكِنَّا نَفْسٌ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا

يعنى لما ن على ؛ هذا معنى قول قتادة ؛ قال : لو فعل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم . وقيل : الجواب متقدم ، وفي الكلام تقديم وتأخير ؛ أى وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا . الفراء : يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن . الزجاج : « ولو أن قرآنا » إلى قوله : « الموتى » لما آمنوا ؛ والجواب المضمر هنا ما أظهر في قوله : « وَلَوْ أَنَّ تَزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ » إلى قوله : « مَا كَانُوا يُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . (بَلَى لَهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا) أى هو المالك لجميع الأمور ، الفاعل لما يشاء منها ، فليس ما تتمسونه بما يكون بالقرآن ، إنما يكون بأمر الله .

قوله تعالى : (أَلَمْ يَبَيِّنْ لِلَّذِينَ آمَنُوا) قال الفراء قال الكلبي : « يبيّن » بمعنى يعلم ، لنة التفعّح ؛ وحكاه القشيري عن ابن عباس ؛ أى أفلم يعلموا ؛ وقاله الجوهري في الصحاح .

وقيل : هولة هَوَازِنه ؛ أى أفلم يعلم ؛ عن ابن عباس ومجاهد والحسن . وقال أبو عبيدة :
 أفلم يعلموا ويتبينوا ، وأشد في ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النَّصْرِيّ^(١) :
 أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَسْرُونِي * أَلَمْ تَيْسُوا أَنَّ ابْنَ قَارِسٍ زَهْدَمَ
 يَسْرُونِي مِنَ الْمَيْسَرِ ، وقد تقدّم في « البقرة » وروى يأسرونى من الأسر . وقال ربّاح
 ابن حدى :

أَلَمْ يَيْسَ الْأَقْوَامُ أَنِّي [أَنَا] أَبْنُهُ * وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَائِيًا

في كتاب الردّ « أنى أنا أبنه » وكذا ذكره الفَرَوْنِيّ : ألم يعلم ؛ والمعنى على هذا : أفلم يعلم الذين
 آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات . وقيل : هو من اليأس
 المعروف ؛ أى أفلم يئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار ، لعلمهم أن الله تعالى لو أراد
 هدايتهم لهداهم ؛ لأن المؤمنين تمنّوا نزول الآيات طمعا في إيمان الكفار . وقرا على
 وابن عباس : « أَفَلَمْ يَتَّبِعِ الَّذِينَ آمَنُوا » من البيان . قال القُشَيْرِيّ : وقيل لابن عباس
 المكتوب « أفلم يئس » قال : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس ؛ أى زاد بعض الحسروف
 حتى صار « يئس » . قال أبو بكر الأنباري : روى عكرمة عن ابن أبي نجيح أنه قرأ - « أفلم
 يتبين الذين آمنوا » وبها احتجّ من زعم أنه الصواب في التلاوة ؛ وهو باطل عن ابن عباس ،
 لأن مجاهدا وسعيد ابن جبّير حكيا الحرف عن ابن عباس ، على ما هو في المصحف بقراءة
 أبي عمرو وروايته عن مجاهد وسعيد بن جبّير عن ابن عباس ؛ ثم إن معناه : أفلم يتبين ؛
 فإن كان مراد الله تحت اللفظة التي خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها ، وتأتى بتأويلها ،
 وإن أراد الله المعنى الآخر الذى اليأس فيه ليس من طريق العلم فقد سقط مما أوردوا ؛

(١) ذكر في « لسان العرب » أن قاتل البيت هو حميم بن وثيل اليربوعي ؛ قال : وذكر بعض العلماء أنه
 لولده جابر بن حميم بدليل قوله فيه : « أنى ابن قاروس زهدم » وزهدم : فرس حميم . وقوله : يسرونى من إيسار
 الجزور ؛ أى يجزرونى ويقتسونى ، وذكر ذلك لأنه كان قد وقع عليه سياء فضربوا عليه باليسر يتحاسون على نسمة
 ندائه . (٢) راجع ٣ ص ٥٣ طبعة أول أو ثانية . (٣) لم ترد في الأصول لفظة « أنا »
 والواجب إثباتها كما في كتاب « الرد » إذ أن البيت من الطويل ، وجوبها لا يستقيم .

وَأَمَّا سَقُوطُهُ يَبْطُلُ الْفَرَّانَ ، وَلَزِمَ أَصْحَابَهُ الْهَتَانُ . (أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ) « أَنْ » خَفِضَ مِنَ الثَّقِيلَةِ ، أَيْ أَنَّهُ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ (لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا) وَهُوَ يَرِدُّ عَلَى الْقَدَرِ وَغَيْرِهِمْ .
 قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ) أَيْ دَاهِيَةٌ تَفْجُؤُهُمْ بِكَفَرِهِمْ وَعَتَوْهُمْ ، وَيُقَالُ : قَرَعَهُ أَمْرٌ إِذَا أَصَابَهُ ، وَاجْمَعَ قَوَارِعَ ، وَالْأَصْلُ فِي الْقَرَعِ الضَّرْبُ ، قَالَ :

أَفَنِي تِلَادِي وَمَا جَعَلْتُ مِنْ نَسَبٍ * قَرَعُ الْقَوَاقِيزِ أَقْوَاهُ الْإِبَارِيقِ

أَيْ لَا يَزَالُ الْكَافِرُونَ يُصِيبُهُمْ دَاهِيَةٌ مَهْلِكَةٌ مِنْ صَاعِقَةٍ كَمَا أَصَابَ أُرْدُ أَوْ مِنْ قَتْلِ أَوْ أَسْرِ أَوْ جَدْبٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْبَلَاءِ ، كَمَا نَزَلَ بِالْمُسْتَزِينَ ، وَهُمْ رُؤَسَاءُ الْمَشْرِكِينَ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : الْقَارِعَةُ النُّكْبَةُ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَعِكْرِمَةُ : الْقَارِعَةُ الطَّلَاعُ وَالسَّرَايَا الَّتِي كَانَ يُنْفِذُهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ . (أَوْ تَحُلُّ) أَيْ الْقَارِعَةُ (قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ) قَالَهُ قَتَادَةُ وَالْحَسَنُ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَوْ تَحُلُّ أَنْتَ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ . وَقِيلَ : نَزَلَتِ الْآيَةُ بِالْمَدِينَةِ ، أَيْ لَا تَزَالُ تُصِيبُهُمُ الْقَوَارِعُ فَتَنْزِلُ بِسَاحَتِهِمْ أَوْ بِالْقَرْبِ مِنْهُمْ كَقَرَى الْمَدِينَةَ وَمَكَّةَ . (حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ) فِي فَتْحِ مَكَّةَ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ . وَقِيلَ : نَزَلَتْ بِمَكَّةَ ، أَيْ تُصِيبُهُمُ الْقَوَارِعُ ، وَتَخْرُجُ عَنْهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ يَا عَجَدُ ، فَتَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ، أَوْ تَحُلُّ بِهِمْ حَاصِرًا لَهُمْ ، وَهَذِهِ الْحَاصِرَةُ لِأَهْلِ الطَّائِفِ ، وَلِفِلَاحِ خَيْبَرَ ، وَيَأْتِي وَعْدُ اللَّهِ بِالْإِذْنِ لَكَ فِي قِتَالِهِمْ وَفَهْرِهِمْ . وَقَالَ الْحَسَنُ : وَعْدُ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخْلَلْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٣﴾ أَقْنِ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا

(١) هُوَ الْأَنْفِيسُ الْأَسَدِيُّ ، وَاسْمُهُ الْمُتَمَرَّةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ . وَالتَّلَادُ : الْمَالُ الْقَدِيمُ الْمُرَوِّثُ . وَالتَّسْبُ : الضِّيَاعُ وَالْبَسَاتِينُ وَمَا جَدَدَهُ بِسَمِهِ . وَالْقَوَاقِيزُ (جَمْعُ قَاغُوزَةٍ) : هِيَ أَرَاكُنٌ يَشْرَبُ بِهَا الْخَمْرُ .

عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٦٠﴾ لَهُمْ عَذَابٌ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ يَرْسُلُ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ تقدم معنى الاستهزاء في «البقرة» ومعنى الإملاء في «آل عمران» أي يخبر بهم، وأزرى عليهم؛ فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان في علمي أنه يؤمن منهم؛ فلما حق القضاء أخذتهم بالعقوبة .
﴿فَكَيْفَ كَانَ مَقَاب﴾ أي فكيف رأيت ما صنعت بهم، فكذلك أصنع بمشركي قومك .

قوله تعالى : ﴿أَفَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ليس هذا القيام القيام الذي هو ضد القعود، بل هو بمعنى التولي لأمر الخلق؛ كما يقال : قام فلان بشغل كذا؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أي يقدرها على الكسب، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها؛ فالمعنى : أنه حافظ لا يفغل، والجواب محذوف؛ والمعنى : أفن هو حافظ لا يفغل كمن يفغل . وقيل : أفن هو قائم أي عالم؛ قاله الأعمش . قال الشاعر :
فلولا رجالٌ من قريشٍ أحرزة * سرقتم ثياب البيت والله قائم

أي عالم؛ فافقه عالم بكسب كل نفس . وقيل : المراد بذلك الملائكة الموكلون ببني آدم، عن الضحاك . ﴿وَجَعَلُوا﴾ حال ؛ أي قد جعلوا، أو عطف على «استهزى» أي استهزءوا وجعلوا؛ أي سموا ﴿لِلَّهِ مُشْرَكًا﴾ يعني أصناما جعلوها آلهة . ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد : «سموهم» أي بنوا أسماعهم، على جهة التهديد؛ أي إنما يسمون : الآلات والعزى ومناة وهبل . ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَ مَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ «أم» استفهام توبيخ، أي أتنبؤونه؛ وهو على التحقيق عطف على استفهام متقدم في المعنى؛ لأن قوله : «سموهم» معناه : ألهم أسماء الخالقين «أم تنبؤونه بما لا يعلم في الأرض»؟ . وقيل : المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه، أم بظاهر من القول يعلمه؟ فإن قالوا : بباطن لا يعلمه أحوالوا، وإن قالوا :

(١) راجع ج ١ ص ٢٠٧ وما بعدها طبة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع ج ٤ ص ٢٨٦ وما بعدها طبة أولى أو ثانية .

بظاهر يعلمه قتل لم : سموهم ؛ فإذا سموهم اللات والعزى قتل لم : إن الله لا يعلم لنفسه شريكا . وقيل : « أم تثبتونه » عطف على قوله : « أفن هو قائم » أى أفن هو قائم ، أم تثبتون الله بما لا يعلم ؛ أى أنتم تدعون الله شريكا ، والله لا يعلم نفسه شريكا ؛ أفثبتونه بشريك له فى الأرض وهو لا يعلمه ! وإنما خص الأرض بنفى الشريك عنها وإن لم يكن له شريك فى غير الأرض لأنهم ادّعوا له شركاء فى الأرض . ومعنى (**أَمْ يَظَاهِرُونَ الْقَوْلَ**) : الذى أنزل الله على أنبيائه . وقال قتادة : معناه يبطل من القول ؛ ومنه قول الشاعر :

أَعِزَّتْ أَلْبَانُهُمْ وَلِحُومُهَا * وَذَلِكَ عَارٌ يَا بْنَ رَيْطَةَ ظَاهِرُ

أى باطل . وقال الضحاك : يكذب من القول . ويحتمل خامسا — أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم ؛ ويكون معنى الكلام : اتخبرونه بذلك مشاهدين ، أم تقولون محتجين . (**بَلْ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمُ**) أى دع هذا ! بل زين للذين كفروا مكرم ؛ قيل : استدرك على هذا الوجه ، أى ليس لله شريك ، لكن زين للذين كفروا مكرم . وقرأ ابن عباس ومجاهد — (**بَلْ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمُ**) مسمى الفاعل ؛ وصلى قراءة الجماعة فالذى زين للكافرين مكرم الله تعالى ، وقيل : الشيطان . ويجوز أن يسمى الكفر مكرًا ؛ لأن مكرم بالرسول كان كفرا . (**وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ**) أى صدهم الله ؛ وهى قراءة حمزة والكسائى . الباقون بالفتح ؛ أى صدوا غيرهم ؛ واختاره أبو حاتم ، اعتبارا بقوله : (**وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ**) وقوله : « **هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** » . وقراءة الضم أيضا حسنة فى « زين » و « صدوا » لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك فى مذهب أهل السنة ؛ ففيه إثبات التَّكْذِبِ ، وهو اختيار أبى عبيد . وقرأ يحيى بن وثاب وعطمة — « **وَصُدُّوا** » بكسر الصاد ؛ وكذلك « **هَٰذِهِ يَضَاعَتَانِ رَدَّتْ إِلَيْنَا** » بكسر الراء أيضا على ما لم يسم فاعله ؛ وأصلها صَبَدُوا وَرُدَّتْ ، فلما أدغمت الدال الأولى فى الثانية نقلت حركتها على ما قبلها فانكسر . (**وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ**) مجذولانه (**قَالَهُ مِنْ هَادٍ**) أى موق ؛ وفى هذا إثبات قراءة الكوفيين ومن تابعهم ؛ لقوله : « **ومن يضلِّل الله** » ، فكذلك قوله : « **وَصُدُّوا** » . ومعظم القراء

يقفون على التلّال من غير الياء ؛ وكذلك والٍ وواقٍ ؛ لأنك تقول في الرجل : هذا قاضٍ ووالٍ وهادٍ ، فتحذف الياء لسكونها والتقاءها مع التنوين . وقرئ « فإله من هادى » ، و « والى » و « واقٍ » بالياء ؛ وهو على لغة من يقول ؛ هذا داعى ووالى وواقٍ بالياء ؛ لأن حذف الياء في حالة الوصل لا لتقاءها مع التنوين ، وقراءتنا هذا في الوقف ؛ فردت الياء فصار هادى ووالى وواقٍ . وقال الخليل في نداء قاضٍ : يا قاضى بإثبات الياء ؛ إذ لا تنوين مع النداء ، كما لا تنوين في نحو الداعى والمتعالى .

قوله تعالى : (لَهْمُ مَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى للشركين الصائدين بالقتل والسبي والإسار ، وغير ذلك من الأسقام والمصائب . (وَلَمَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ) أى أشدّ ؛ من قولك : شقّ على كذا يشقّ . (وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ) أى مانع يمنعهم من مذباه ولا دافع . و « مِنْ » زائدة .

قوله تعالى : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْثَرُ دَائِمٍ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ أَنْهَارٌ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ) اختلف النحاة في رفع « مثل » فقال سيبويه : أرتفع بالابتداء والخبر محذوف ؛ والتقدير : وفيها يتلّ طليكم مثل الجنة . وقال الخليل : أرتفع بالابتداء وخبره « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى صفة الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار ؛ كقولك : قولى يقوم زيد ؛ فقولى مبتدأ ، ويقوم زيد خبره ؛ والمثل بمعنى الصفة موجود ؛ قال الله تعالى : (ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ) وقال : « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » أى الصفة العليا ، وأنكره أبو حنيفة ؛ لم يسمع مثل بمعنى الصفة ؛ إنما معناه الشبه ؛ ألا تراه يجرى مجراه في مواضعه ومتصرفاته ، كقولهم : مررت برجل مثلك ؛ كما تقول : مررت برجل شبيهك ؛ قال : ويفسد أيضا من جهة المعنى ؛ لأن مثلا

إذا كان معناه صفة كان تقدير الكلام : صفة الجنة التي فيها أنهار ، وذلك غير مستقيم ؛ لأن الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها . وقال الزجاج : مثل الله عز وجل لنا ما غاب عنا بما زاه ؛ والمعنى : مثل الجنة جنة تجرى من تحتها الأنهار ؛ وأنكره أبو علي فقال : لا يخلو المثل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه ، وفي كلا الوجهين لا يصبح ما قاله ؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصبح ، لأنك إذا قلت : صفة الجنة جنة ، فجعلت الجنة خبراً لم يستقم ذلك ؛ لأن الجنة لا تكون الصفة ، وكذلك أيضاً شبه الجنة جنة ؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المسألة التي بين المتماثلين ، وهو حدث ، والجنة غير حدث ؛ فلا يكون الأول والثاني . وقال الفراء : المثل مقسم للتأكيد ؛ والمعنى : الجنة التي وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار ؛ والعرب تفعل ذلك كثيراً بالمثل ؛ كقوله : « ليس كمثل شيء » ؛ أي ليس هو كشيء . وقيل التقدير : صفة الجنة التي وعد المتقون صفة جنة « تجرى من تحتها الأنهار » . وقيل معناه : شبه الجنة التي وعد المتقون في الحسن والنعمة والخلود كشبه النار في العذاب والشدة والخلود ؛ قاله مقاتل .

﴿ أَكُلُّهَا دَائِمٌ ﴾ لا ينقطع ؛ وفي الخبر : « إذا أخذت عمرة عادت مكانها أخرى » وقد بيناه في التذكرة . ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ أي وظلها كذلك ؛ غنفاً ؛ أي ثمرها لا ينقطع ، وظلها لا يزول ؛ وهذا رد على الجهمية في زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويفنى . ﴿ تِلْكَ عِقَى الَّذِينَ أَتَقَوَّا عِقَىٰ وَكَافِرِينَ النَّارِ ﴾ أي عاقبة أمر المكذبين وأخبرتهم النار يدخلونها .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .
 وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَهِي إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابِدُكُمْ ۚ

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أي بعض من أوتي الكتاب يفرح بالقرآن ، كابن سلام وسلمان ، والذين جاءوا من الحبشة ؛ فاللفظ عام ، والمراد الخصوص . وقال قتادة : هم أصحاب عهد صلى الله عليه وسلم يفرحون بنور القرآن ؛ وقاله مجاهد

وابن زيد . وعن مجاهد أيضا أنهم مؤمنو أهل الكتاب . وقيل : هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم . وقال أكثر العلماء : كان ذكر الرحمن في القرآن قليلا في أول ما أنزل ، فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة ؛ فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؛ فأنزل الله تعالى : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا الرِّحْمَ أَيْمًا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » فقالت قريش : ما بال محمد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو إلهين ، الله والرحمن ! والله ما نعرف الرحمن إلا الرحمن البسامة ، يعنون مُسَلِّمَةَ الْكُتَاب ؛ فتزلت : « وَهُمْ يَذْكُرُ الرِّحْمَ هُم كَايُفُونَ » « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرِّحْمِ » فخرج مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن ؛ فأنزل الله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا هُم الْكِتَابُ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » . (وَمِنَ الْأَحْزَابِ) يعنى مشركى مكة ، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل : هم العرب المتحزون على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : من أصداء المسلمين من ينكر بعض ما في القرآن ؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء ، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض . (قُلِ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ) قراءة الجماعة بالنصب عطفا على « أعبد » . وقرأ أبو خالد بالرفع على الاستئناف ؛ أى أفرد بالعبادة وحده لاشريك له ، واتبرأ عن المشركين ، ومن قال : المسيح ابن الله وعزير ابن الله ، ومن اعتقد التشبيه كاليهود . (إِلَيْهِ أَدْعُوا) أى إلى عبادته أَدْعُوا الناس . (وَإِلَيْهِ مَابِ) أى أرجع فى أمورى كلها .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) أى وكما أنزلنا عليك القرآن فانكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيا ؛ وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عربى ، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضا . وقيل نظم الآية : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيا ، أى بلسان العرب ؛ ويريد بالحكم ما فيه

من الأحكام . وقيل : أراد بالحكم العربي القرآن كله ؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم .
 ﴿وَلَيْنِ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى أهواء المشركين فى عبادة ما دُون الله ، وفى التوجيه إلى غير
 الكعبة . ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أى ناصر ينصرك . ﴿وَلَا وَاقٍ﴾
 يمنعك من عذابه ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد الأئمة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا
 وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ
 كِتَابٌ ﴿٣٨﴾

فيه مستثان :

الأولى — قيل إن اليهود طابوا على النبي صلى الله عليه وسلم الأزواج ، وعيرته بذلك
 وقالوا : ما نرى لهذا الرجل همه إلا النساء والنكاح ، ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن
 النساء ؛ فانزل الله هذه الآية ، وذكرهم أمر داود وسليمان فقال : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ
 وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أى جعلناهم بشرا يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا ، وإنما
 التخصيص فى الوحى .

الثانية — هذه الآية تدل على الترغيب فى النكاح والحض عليه ، ونهى عن التبتل ،
 وهو ترك النكاح ، وهذه سنة المرسلين كما نصت عليه هذه الآية ، والسنة واردة بمعناها ؛
 قال صلى الله عليه وسلم : ” تزوجوا فإنى مكاتبكم الأثم “ الحديث . وقد تقدم فى «آل عمران» .
 وقال : ” من تزوج فقد استكمل نصف الدين فليتق الله فى النصف الثانى “ . ومعنى ذلك
 أن النكاح يعف عن الزنى ، والعفاف أحد التخصيصين اللتين ضمن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 عليهما الجنة فقال : ” من وفاه الله شرأتين ورج الجنة ما بين تحييه وما بين رجليه “ أخرجه
 الموطأ وغيره . وفى صحيح البخارى عن أنس قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي

صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ! قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فقال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا ، وقال الآخر : إني أصوم الدهر فلا أفطر . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج ؛ بخاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصل وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني " . نخرجه مسلم بمعناه ؛ وهذا بين . وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولو أجازه له ذلك لأخَصَّصْتِنَا ، وقد تقدّم في « آل عمران » الحُصَّ على طلب الولد والزَّاد على من جهل ذلك . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : إني لأتزوج المرأة وما لى فيها من حاجة ، وأطؤها وما أشتهاها ؛ قيل له : وما يملكك على ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : سمى أن يخرج الله مني من يكافريه النبي صلى الله عليه وسلم النبيين يوم القيامة ؛ وإني سمعته يقول : "عليكم بالأنكار فإنهم أعذبُ أفواهاً وأحسن أخلاقاً وأنشَقَ أرحاما وإني مكائر بكم الأمم يوم القيامة " ، يعنى بقوله : "أنشَقَ أرحاما" أقبل للولد ؛ ويقال للراة الكثيرة الولد نائق ؛ لأنها ترى بالأولاد رَمِيَا . ونخرج أبو داود عن معقل بن يسار قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أصبحت امرأة ذات حسب وجمال ، وأنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال " لا " ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة فقال : " تزوجوا الودود الولود فإني مكائر بكم الأمم " . صححه أبو محمد عبد الحق وحسبك .

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) عاد الكلام إلى ما اقترحوا من الآيات — ما تقدم ذكره في هذه السورة — فأنزل ذلك فيهم ؛ وظاهر الكلام حَظَرُ ومعناه النفي ؛ لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه . (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) أى لكل أمر قضاه الله كتاب عند الله ؛ قاله الحسن . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، المعنى : لكل كتاب أجل ؛ قاله الفراء والضحاك ؛ أى لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ، ووقت معلوم ؛ نظيره « لكل نَبَأٌ مستقر » ؛

يَنْ أَنْ الْمَرَادَ لَيْسَ عَلَى اقْتِرَاحِ الْأَئِمِّ فِي نَزُولِ الْعَذَابِ، بَلْ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى لِكُلِّ مَدَّةٍ كِتَابٌ مَكْتُوبٌ، وَأَمْرٌ مَقْدَرٌ لَا تَقِفُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ . وَذَكَرَ التِّرْمِذِيُّ الْحَكِيمُ فِي « نَوَادِرِ الْأَصُولِ » عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا أَرْتَقَى مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طُورَ سَيْنَاءَ رَأَى الْجَبَّارُ فِي إصْبَعِهِ خَاتَمًا، فَقَالَ : يَا مُوسَى مَا هَذَا ؟ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ، قَالَ : شَيْءٌ مِنْ حُلِيِّ الرِّجَالِ، قَالَ : فَهَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَسْمَائِ مَكْتُوبٍ أَوْ كَلَامٍ ؟ قَالَ : لَا، قَالَ : فَاصْنَعْ عَلَيْهِ « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » .

قوله تعالى : يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَيُعِزُّهُ وَأَمَّا أَنْ يَكْتُبَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ) أى يَمْحُو مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابِ مَا يَشَاءُ أَنْ يُوَقِّعَهُ بِأَهْلِهِ وَيَأْتِي بِهِ « وَيُثَبِّتُ » مَا يَشَاءُ ، أى يُؤَيِّدُهُ إِلَى وَقْتِهِ ؛ يُقَالُ : مَحَوْتُ الْكِتَابَ مَحْوًا، أَيْ أَذْهَبْتُ أَثَرَهُ . « وَيُثَبِّتُ » أَيْ وَيُثَبِّتُهُ، كَقَوْلِهِ : « وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » أَيْ وَالذَّاكِرَاتِ لِلَّهِ .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم « وَيُثَبِّتُ » بِالْتَّخْفِيفِ، وَشَدَّدَ الْبَاقُونَ؛ وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَاخْتِيَارُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبِي عُبَيْدٍ لِكَثْرَةِ مَنْ قَرَأَ بِهَا؛ لِقَوْلِهِ : « يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » . وَقَالَ ابْنُ عَمْرٍو : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ إِلَّا السَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ وَالْمَوْتَ » . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ إِلَّا أَشْيَاءَ الْخَلْقِ وَالْخَلْقُ وَالْأَجَلُ وَالرِّزْقُ وَالسَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ؛ وَهِيَ : هُمَا كِتَابَانِ سِوَى أَمِّ الْكِتَابِ، يَمْحُو اللَّهُ مِنْهُمَا مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ، (وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ مِنْهُ شَيْءٌ . قَالَ الْقُشَيْرِيُّ : وَقِيلَ السَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ وَالْخَلْقُ وَالرِّزْقُ لَا تَتَغَيَّرُ؛ فَالْآيَةُ فِيهَا عِلْمٌ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ؛ وَفِي هَذَا الْقَوْلِ نَوْعٌ تَحْكَمُ .

قلت : مثل هذا لا يدرك بالرأى والاجتهاد، وإنما يؤخذ توقيفا، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة في جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم؛ وهذا

يروى معناه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأبن مسعود وأبن وائل وكعب الأحبار وغيرهم، وهو قول الكلبي . وعن أبى عثمان النهدي " أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول : اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها ، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فأعني وأثبتني في أهل السعادة والمنفرة ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وقال ابن مسعود : اللهم إن كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم ، وإن كنت كتبتني في الأشقياء فأعني من الأشقياء وأكتبني في السعداء ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ؛ وعندك أم الكتاب . وكان أبو وائل يكثر أن يدعو : اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فأح وأكتبنا سعداء ، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . وقال كعب لعمر بن الخطاب : لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة : « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . وقال مالك ابن دينار في المرأة التي دعا لها : اللهم إن كان في بطنها جارية فأيدبها غلاما فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . وقد تقدم في الصحيحين عن أبى هريرة قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "مَنْ سَرَّ أَنْ يُسَبَّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحْمَةً" (١) . ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ أَحَبَّ" فذكره بلفظه سواء ؛ وفيه تأويلان : أحدهما — معنوى ، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذكر الحسن ، والأجر المتكرر ، فكانه لم يمض . والآثر — يؤخر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ ، والذي في علم الله ثابت لا تبدل له ، كما قال : « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . وقيل لأبن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدَّ اللَّهُ فِي عَمْرِهِ وَأَجَلُهُ وَيُسَبَّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ وَلْيَصِلْ رَحْمَةً" كيف يزداد في العمر والأجل ؟ ! فقال : قال الله عز وجل : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ » . فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته ، والأجل

الثاني — يعنى المسمى عنده — من حين وفاته إلى يوم يلقاه فى البرزخ لا يعلمه إلا الله ؛ فإذا أتى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله فى أجل عمره الأول من أجل البرزخ ما شاء ، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أجل عمره فى الدنيا ما شاء ، فيزيده فى أجل البرزخ ؛ فإذا تحتم الأجل فى صلبه السابق امتنع الزيادة والنقصان ؛ لقوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » فتوافق الخبر والآية ؛ وهذه زيادة فى نفس العمر وذات الأجل على ظاهر اللفظ ، فى اختيار خبر الأمة ، والله أعلم . وقال مجاهد : يُحكم الله أمر السنة فى رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، إلا الحياة والموت ، والشقاء والسعادة ؛ وقد مضى القول فيه . وقال الضحاك : يحو الله ما يشاء من ديوان الحفظ ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب ؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس . وقال الكلبي : يحو من الرزق ويزيد فيه ، ويحو من الأجل ويزيد فيه ، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم سئل الكلبي عن هذه الآية فقال : يكتب القول كله ، حتى إذا كان يوم الخميس طرحت منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب ، مثل قولك : أكلت وشربت ودخلت ونجست ونحوه ، وهو صادق ؛ ويثبت ما فيه الثواب والعقاب . وقال قتادة وابن زيد وسعيد بن جبير : يحو الله ما يشاء من الفرائض والنوافل فيلغسه ويبدله ، ويثبت ما يشاء فلا يفسخه ، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده فى أم الكتاب ؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدوي عن ابن عباس ؛ قال النحاس : وحدثننا بكر بن مهمل ، قال حدثنا أبو صالح ، عن معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس « يحو الله ما يشاء » يقول : يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه ، « ويثبت ما يشاء » فلا يبدله ، « وعند أم الكتاب » يقول : جملة ذلك عنده فى أم الكتاب ، الناسخ والمنسوخ . وقال سعيد بن جبير أيضا : يغفر ما يشاء — يعنى — من ذنوب عباده ، ويترك ما يشاء فلا يغفره . وقال عكرمة : يحو ما يشاء — يعنى بالتوبة — جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات [قال تعالى] : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا » الآية . وقال

الحسن : « يحو الله ما يشاء » من جاء أجله « ويثبت » من لم يأت أجله . وقال الحسن : يحو الآباء ، ويثبت الأبناء . وعنه أيضا : يُنسى الحَفَظَةُ من الذنوب ولا يُنسى . وقال السدي : « يحو الله ما يشاء » يعني : القمر « ويثبت » يعني : الشمس ؛ بيانه قوله : « فَحَوَّنا آيةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً » وقال الربيع بن أنس : هذا في الأرواح حالة النوم ؛ يقبضها عند النوم ، ثم إذا أراد موته فجأة أمسكه ، ومن أراد بقاءه أثبتته وروّده إلى صاحبه ؛ بيانه قوله : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » الآية . وقال علي بن أبي طالب : يحو الله ما يشاء من القرون ، كقوله : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ » ويثبت ما يشاء منها ، كقوله : « ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » فيمحو قرنا ، ويثبت قرنا ، وقيل : هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله ، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله ؛ فهو الذي يحو ، والذي يثبت : الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب ، فيمحوه الله من ديوان السبئات ، ويثبته في ديوان الحسنات ؛ ذكره الثعلبي والمارودي عن ابن عباس . وقيل : يحو الله ما يشاء — يعني الدنيا — ويثبت الآخرة . وقال قيس بن عباد في اليوم العاشر من رجب : هو اليوم الذي يحو الله فيه ما يشاء ، ويثبت فيه ما يشاء ؛ وقد تقدّم عن مجاهد أن ذلك يكون في رمضان . وقال ابن عباس : إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام ، من دُرّة بيضاء ، لها دَقَتان من ياقوتة حمراء ، لله في كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة ، يثبت ما يشاء ويحو ما يشاء . وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إن الله سبحانه يفتح الذكري ثلاث ساعات يَبْقِيَنَّ من الليل فينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيثبت ما يشاء ويحو ما يشاء “ . والعقيدة أنه لا تبدل لقضاء الله ؛ وهذا المحو والإثبات بما سبق به القضاء ، وقد تقدّم أن من القضاء ما يكون واقعا محتموا ، وهو الثابت ؛ ومنه ما يكون مصروفا بأسباب ، وهو المحو ، والله أعلم . الغزوي : وعندى أن ما في اللوح نخرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة ؛ فيحتمل التبدل ؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال ؛ وما في علمه من تقدير الأشياء لا يتبدل . « وعنده أم الكتاب » أى أصل ما كتب من الآجال

وغيرها . وقيل : أم الكتاب اللوح المحفوظ الذي لا يتبدل ولا يغير . وقد قيل : إنه يجري فيه التبديل . وقيل : إنما يجري في الجرائد الأخر . وسئل ابن عباس عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق ، وما خلقه عاملون ؛ فقال لعلمه : كن كتابا ، ولا تبدل في علم الله ، وعنه أنه الذكر ؛ دليله قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ » وهذا يرجع معناه إلى الأول ؛ وهو معنى قول كعب . قال كعب الأحمار : أم الكتاب علم الله تعالى بما خالق وبما هو خالق .

قوله تعالى : وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٦٠﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : (وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ) « ما » زائلة ، والتقدير : وإن نرينك بعض الذي نعدهم ، أى من العذاب ؛ لقوله : « لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقوله : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » أى إن أريناك بعض ما وعدناهم (أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ) فليس عليك إلا البلاغ ؛ أى التبليغ ؛ (وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) أى الجزاء والعقوبة .

قوله تعالى : (أَوْلَمْ يَرَوْا) يعنى أهل مكة . (أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ) أى نقصدها . (نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) اختلف فيه ؛ فقال ابن عباس ومجاهد : « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » موت عاصيها وصلحائها . قال التفسيرى : وعلى هذا فالأطراف الأشراف ؛ وقد قال ابن الأعرابي : الطَّرْفُ والطَّرْفُ الرجل الكريم ؛ ولكن هذا القول بعيد ، لأن مقصود الآية : أنا أريناهم نقصان في أمورهم ، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز ؛ إلا أن يحمل قول ابن عباس على موت أحبار اليهود والنصارى . وقال مجاهد أيضا

وقتادة والحسن : هو ما يطلب عليه المسلمون مما في أيدي المشركين ؛ وروى ذلك عن ابن عباس ، وعنه أيضا هو خراب الأرض حتى يكون العمران في ناحية منها ؛ وعن مجاهد : نقصانها خرابها وموت أهلها . وذكر وكيع بن الجراح عن طلحة بن عبيد عن عطاء بن أبي رباح في قول الله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : ذهب فقهاؤها وخيار أهلها . قال أبو عمر بن عبد البر : قول عطاء في تأويل الآية حسن جدا ، تلقاه أهل العلم بالقبول .

قلت : وحكاية المهدي عن مجاهد وابن عمر ، وهذا نص القول الأول نفسه ؛ روى سفيان عن منصور عن مجاهد « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : موت الفقهاء والعلماء ؛ ومعروف في اللغة أن الطرف الكريم من كل شيء ؛ وهذا خلاف ما أرتضاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم من قول ابن عباس . وقال عكرمة والتنجي : هو النقصان وقبض الأنفس . قال أحدهما : ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك^(١) . وقال الآخر : لضاق عليك حش^١ تبرز فيه . وقيل : المراد به هلاك من هلك من الأمم قبل قریش وهلاك أرضهم بعدهم ؛ والمعنى : أولم تر قریش هلاك من قبلهم ، وخراب أرضهم بعدهم ؟ ! أفلا يخافون أن يحل بهم مثل ذلك ؛ وروى ذلك أيضا عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج . وعن ابن عباس أيضا أنه نقص بركات الأرض وتمارها وأهلها . وقيل : نقصها ببحور ولاتها .

قلت : وهذا صحيح معنى ؛ فإن الجور والظلم يخرّب البلاد ، يقتل أهلها وأجلائها عنها ، وترفع من الأرض البركة ، والله أعلم .

قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ) أى ليس يتعقب حكمه أحد بنقص ولا تنبير . (وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) أى الانتقام من الكافرين ، سريع الثواب المؤمنين . وقيل : لا يحتاج في حسابه إلى روية قلب ، ولا عقد بئان ؛ حسب ما تقدّم في « البقرة » بيانه .

قوله تعالى : وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ﴿١٧﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أى من قبل مشركى مكة ، مكروا بالرسول وكادوا لهم وكفروا بهم . (فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا) أى هو مخلوق له مكر الماكرين ، فلا يضر إلا بإذنه . وقيل : لله خبر المكر؛ أى يجازيهم به . (يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ) من خير وشر ، فيجازى عليه . (وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ) كذا قراءة نافع وأبن كثير وأبى عمرو . الباقون : « الكفار » على الجمع . وقيل : عنى أبو جهل . (لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ) أى طاب دار الدنيا ثوابا وعقابا ، أولين الثواب والعقاب فى الدار الآخرة ؛ وهذا تهديد ووعد .

قوله تعالى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا) قال قتادة : هم مشركو العرب ؛ أى لست بنبي ولا رسول ، وإنما أنت متقول ؛ أى لما لم ياتهم بما أفتروا قالوا ذلك . (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ) أى قل لهم يا عباد : « كفى بالله » أى كفى الله (شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) بصدق وكذبكم . (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) وهذا احتجاج على مشركى العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب — من آمن منهم — فى التفسير . وقيل : كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم ؛ وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسيّ وتميم الداريّ والنجاشي وأصحابه ؛ قاله قتادة وسعيد بن جبير . وروى الترمذى عن ابن أنس عبد الله بن سلام قال : لما أريد [قتل] عثمان جاء عبد الله بن سلام فقال له عثمان : ما جاء بك ؟ قال : جئت فى نصرتك ؛ قال : أخرج إلى الناس فأطردهم عنى ، فإنك خارج خيرلى من داخل ؛ فخرج عبد الله بن سلام إلى الناس فقال : أيها الناس ! إنه كان أسمى فى الجاهلية فلان ، فماني

رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ، ونزلت في آيات من كتاب الله ، فنزلت في « وسَمِعَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ قَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » ونزلت في « قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » الحديث . وقد كتبناه بكمالها في كتاب « التذكرة » . وقال فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله . وقال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير « ومن عنده علم الكتاب » ؟ قال : هو عبد الله بن سلام .

قلت : وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية وأبن سلام ما أسلم إلا بالمدينة ؟ ذكره الثعلبي . وقال القشيري : وقال ابن جبير السورة مكية وأبن سلام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة ؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على ابن سلام ؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل ؛ وهو قول ابن عباس . وقال الحسن ومجاهد والضحاك : هو الله تعالى ؛ وكانوا يقرءون « وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ » وينكرون على من يقول : هو عبد الله بن سلام وسلمان ؛ لأنهم يرون أن السورة مكية ، وهؤلاء أسلموا بالمدينة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ » وإن كان في الرواية ضعف ؛ وروى ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وروى محبوب عن اسمعيل بن محمد الجماني أنه قرأ كذلك — « وَمِنْ عِنْدِهِ » بكسر الميم والعين والدال « عِلْمُ الْكِتَابِ » بضم العين ورفع الكتاب . وقال عبد الله بن عطاء : قلت لأبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام فقال : إنما ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية . وقيل : جميع المؤمنين ، والله أعلم . قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما من قال إنه علي بن علي فقول على أحد وجهين : إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك ؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه . ولقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » وهو حديث باطل ؛ النبي صلى الله عليه وسلم مدينة علم وأصحابه أبوابها ؛ فمنهم الباب المنفوس ، ومنهم المتوسط ، على قدر منازلهم في العلوم . وأما من قال

لأنهم جميع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن يعلم الكتاب، ويدرك وجه إعجازه، ويشهد للنبي صلى الله عليه وسلم بصدقه .

قلت : فالكتاب على هذا هو القرآن . وأما من قال هو عبد الله بن سلام فعول على حديث الترمذى ؛ وليس يمتنع أن ينزل في عبد الله بن سلام شيئا ويتناول جميع المؤمنين لفظا ؛ ويعضده من النظام أن قوله تعالى : « وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى قريشا ؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى ، الذين هم إلى معرفة النبوة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان . قال النحاس : وقول من قال هو عبد الله بن سلام وضميره يشمل أيضا ؛ لأن البراهين إذا صحت وعرفها من قرأ الكتب التي أنزلت قبل القرآن كان أمرا مؤكدا ؛ والله أعلم بحقيقة ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة إبراهيم

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها مدينتين
وقيل : ثلاث نزلت في الذين حاربوا الله ورسوله وهي قوله تعالى : « أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا
نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا » إلى قوله : « فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ » .

قوله تعالى : أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ، أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا

إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا) تقدم معناه . (لِيُخْرِجَ النَّاسَ) أى بالكاتب ،
وهو القرآن ، أى بدلتكم إليه . (مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) أى من ظلمات الكفر والضلالة
والجهل إلى نور الإيمان والعلم ، وهذا على التمثيل ، لأن الكفر بمنزلة الظلمة ، والإسلام بمنزلة
النور . وقيل : من البدعة إلى السنة ، ومن الشك إلى اليقين ، والمنفى متقارب . (بِإِذْنِ
رَبِّهِمْ) أى بتوفيقه وإياهم ولطفه بهم ، وإلباء في « بإذن ربهم » متعلقة بـ « تخرج » وأضيف
الفعل إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الداعي والمُنْذِرُ الهادي . (إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)
هو كقولك : خرجت إلى زيد العاقل الفاضل من غير واو ، لأنهما شيء واحد ، والله هو
العزیز الذي لا مثل له ولا شبه . وقيل : « العزيز » الذي لا يغلبه ظالم . وقيل : « العزيز »
المنيع في ملكه وسلطانه . « الحميد » أى المحمود بكل لسان ، والمحمّد في كل مكان على كل حال .
وروى ياقوت عن ابن عباس قال : كان قوم آمنوا بعيسى بن مريم ، وقوم كفروا به ، فلب
بعث محمد صلى الله عليه وسلم آمن به الذين كفروا بعيسى ، وكفر الذين آمنوا بعيسى ، فنزلت
هذه الآية ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : **اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ**
لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ
بَعِيدٍ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : **(اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)** أى ملكا وعبيدا
وأختراعا وخلقا . وقرأ نافع وأبن حامر وغيرهما «**اللَّهُ**» بالرفع على الابتداء «**الذى**» خبره . وقيل :
«**الذى**» صفة ، والخبر مضمرة أى الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض قادر على كل
شئ . الباقيون بالخفض نمطا للعزیز الحميد فقدم التعت على المنعت كقولك : مررت
بالظريف زيد . وقيل : على البذل من «**الحميد**» وليس صفة ؛ لأن اسم الله صارا كالعلم
فلا يوصف ؛ كما لا يوصف بزيد وعمره ، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى ؛ لأن
معناه أنه المنفرد بقدرة الإيجاد . وقال أبو عمرو : وانخفض على التقديم والتأخير ، مجازه :
إلى صراط الله العزيز الحميد الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . وكان يعقوب إذا وقف
على «**الحميد**» رفع ، وإذا وصل خفض على التعت . قال ابن الأنبارى : من خفض وقف
على «**وما فى الأرض**» .

(١١)
قوله تعالى : **(وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)** قد تقدم معنى الويل فى «**البقرة**»
وقال الزجاج : هى كلمة تقال للعذاب والمهلكة . «**من عذاب شديد**» أى فى جهنم .
(الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أى يختارونها على الآخرة ، والكافرون يفعلون ذلك . «**فالذين**»
فى موضع خفض صفة لهم . وقيل : فى موضع رفع خبر ابتداء مضمرة ؛ أى هم الذين
وقيل : «**الذين يستحبون**» مبتدأ وخبره «**أولئك**» . وكل من أثر الدنيا وزهرتها ، وأستحب

البقاء في نعيمها على النعم في الآخرة، وصدد عن منبيل الله — أى صرف الناس عنه وهو دين الله، الذى جاءت به الرسل، في قول ابن عباس وغيره — فهو داخل في هذه الآية؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون" وهو حديث صحيح، وما أكثر ما هم في هذه الأزمان، والله المستعان. وقيل: «يستحبون» أى يلتصقون الدنيا من غير وجهها؛ لأن نعمة الله لا تلتصق إلا بطاعته دون معصيته. (وَيَتَفَوَّنَهَا عِوَجًا) أى يطلبون لها زينا وميلا لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم. والسبيل تذكر وتؤنس. والعيوج بكسر العين في الدين والأمر والأرض، وفي كل ما لم يكن قائما؛ وبفتح العين في كل ما كان قائما، كالحائط والرُّخ ونحوه؛ وقد تقدم في «آل عمران» وغيرها. (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) أى ذهاب عن الحق بعيد عنه.

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ) أى قبلك يا محمد (إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ) أى بلغتهم، ليبينوا لهم أمر دينهم؛ ووحيد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة؛ فهي اسم جنس يقع على القليل والكثير؛ ولا حجة للمعجم وغيرهم في هذه الآية؛ لأن كل من ترجم له ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ترجمة يفهمها لزمته الترجمة؛ وقد قال الله تعالى: «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا». وقال صلى الله عليه وسلم: "أُرسل كل نبي إلى أمته بلسانها وأرسلني الله إلى كل أحر وأسود من خلقه". وقال صلى الله عليه وسلم: "والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار". نخرجه مسلم، وقد تقدم. (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ردة على القدرية في نفوذ المشيئة، وهو مستأنف، وليس بمعطوف على

« ليين » لأن الإرسال إنما وقع للثنين لا للإضلال . ويجوز النصب في « يضل » لأن الإرسال صار سببا للإضلال ؛ فيكون كقوله : « لِيَكُونَ لَهُمْ عُدُوًّا وَحَرًّا » وإنما صار الإرسال سببا للإضلال لأنهم كفروا به لما جاءهم ؛ فصار كأنه سبب لكفرهم . (وهو العزيز الحكيم) تقدم معناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَرِّهُمْ بِآيِسٍ اللَّهِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا) أي بحجتنا وبراهيننا ؛ أي بالمعجزات الدالة على صدقه . قال مجاهد : هي التسع الآيات . (أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) نظيره قوله تعالى لنينا عليه السلام أول السورة : «لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» . وقيل : « أَنْ » هنا بمعنى أي ، كقوله تعالى : «وَأُطْلِقَ الْمَلَأَ مِنْهُمْ أَنْ آمَشُوا» أي آمشوا .

قوله تعالى : (وَذَرِّهُمْ بِآيِسٍ اللَّهِ) أي قل لهم قولا يتذكرون به أيام الله تعالى . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : بنعم الله عليهم ؛ وقاله أبي بن كعب ورواه مرفوعا ؛ أي بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن آتبه ، إلى سائر النعم ؛ وقد تسمى النعم بالأيام ؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم :
(٢)

* وَأَيَّامٍ لَنَا غُرٌ طَوَالٍ *

(١) الآيات التسع هي : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والصار وبده والسنين ونقص من الثمرات .
(٢) البيت من معلقته ونماه :

© حصينا الملك فيها أن ندينا *

وقد يكون تسميتا غرا لعلوم على الملك وانتاتهم منه ، فأيامهم غر لهم ، وطوال على أهداتهم ؛ وعليه فلا دليل في البيت على أن الأيام بمعنى النعم . وأيام بالجر صلت على (أيام) في البيت قبله ، ويجوز أن يجعل الراود بدلا من ربه .

وعن ابن عباس أيضا ومقاتل : بوقائع الله في الأمم السابقة ؛ يقال فلان عالم بأيام العرب ، أى بوقائعها . قال ابن زيد : يعنى الأيام التى انتقم فيها من الأمم الخالية ؛ وكذلك روى ابن وهب عن مالك قال : بلاؤه . وقال الطبرى : وعظهم بما سلف في الأيام الماضية لهم ؛ أى بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة ؛ وقد كانوا عبيدا مستذلين ؛ واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” بينا موسى عليه السلام في قومه يُذكّرهم بأيام الله وأيام الله بلاؤه ونعماؤه “ وذكر حديث الخضر ؛ ودل هذا على جواز الوعظ المرقق للقلوب ، المقصود لليقين ، الخالى من كلّ بدعة ، والمتره عن كل ضلالة وشبهة . (**إِنْ فِي ذَلِكَ**) أى في التذكير بأيام الله (**لآيَاتٍ**) أى دلالات . (**لِكُلِّ صَبَّارٍ**) أى كثير الصبر على طاعة الله ، وعن معاصيه . (**شَكُورٍ**) لنعم الله . وقال قتادة : هو العبد ؛ إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلي صبر . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر — ثم تلا هذه الآية — « **إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** » . ونحوه عن الشعبي موقوفا . وتوآرى الحسن البصرى عن المجتاج سبع سنين ، فلما بلغه موته قال : اللهم قد أمتّه فأمتّه سُنَّتُهُ ، وسجد شكرا ، وقرأ « **إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** » . وإنما خص بالآيات كل صبار شكور لأنه يعتبر بها ولا يفضل عنها ؛ كما قال : « **إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّحْشَاهَا** » وإن كان منذرا للجميع .

قوله تعالى : **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِثُونَ أَسْمَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ** ٧٠ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ٧١

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجْتُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾^(١) تقدم في «البقرة» مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ قيل : هو من قول موسى لقومه . وقيل : هو من قول الله ؛ أى وأذكركم يا محمد إذ قال ربك كذا . و «تأذَّن» وأذَّن بمعنى أعلم ؛ مثل أوعَدَ وتوَعَّدَ ؛ روى معنى ذلك عن الحسن وغيره . ومنه الأذان ، لأنه إعلام ؛ قال الشاعر :

فَلَمْ تَسْعُرْ بَضْوَى الصَّبِيحِ حَتَّى * سَمِعْنَا فِي مَجَالِسِنَا الْأَذِينَ

وكان ابن مسعود يقرأ « وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ » والمعنى واحد . ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أى لئن شكرتم إنعمى لأزيدنكم من فضلى . الحسن : لئن شكرتم نعمتى لأزيدنكم من طاعى . ابن عباس : لئن وَحَدَّثْتُمْ وَأَطَعْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ من الثواب ، والمعنى متقارب فى هذه الأقوال ؛ والآية نصٌّ فى أن الشكر سبب المزيد ؛ وقد تقدم فى «البقرة»^(٢) ما للعلماء فى معنى الشكر . وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال : ألا تتقوى بنعمة على معاصيه . وحكى عن داود عليه السلام أنه قال : أى رب كيف أشكرك ، وشكرى لك نعمة مجددة منك على . قال : يا داود الآن شكرتى . قلت : لحقيقة الشكر على هذا الاعتراف بالنعمة للنعم ، وألا يصرفها فى غير طاعته ؛ وأنشد الهادى وهو يا كل :

أَنَا لَكَ رِزْقُهُ لَتَقَوْمَ فِيهِ * بطاعته وتشكر بعض حقه
فلم تشكر لنعمته ولكن * قويت على معاصيه برزقه

فُتِّصَ بالقيمة ، وحنقته العبرة . وقال جعفر الصادق : إذا سمعت النعمة نعمة الشكر فتأهب للزيد . ﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ أى يجذمت حتى . وقيل : نعى ؛ وعَدَ بالعذاب على الكفر ، كما وعَدَ بالزيادة على الشكر ، وحذفت الفاء التى فى جواب الشرط من «إن» للشهرة .

(١) راجع ج ١ ص ٣٣١ وما بعدها طبة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٧١ وما بعدها طبة ثانية .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ
وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
وَإِنَّا لَنِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)
أى لا يلحقه بذلك نقص، بل هو الغنى، «الحميد» أى المحمود.

قوله تعالى : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ) النبا الخبر، والجمع
الأنباء؛ قال :^(١)

* أَلَمْ يَأْتِكُمْ وَالْأَنْبَاءُ تَتَنِي *

ثم قيل : هو من قول موسى . وقيل : من قول الله ؛ أى وأذكر يا عبد إذ قال ربك كذا .
وقيل : هو ابتداء خطاب من الله تعالى . وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهور قصصه الله
في كتابه . وقوله : (وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ) أى لا يحصى عددهم إلا الله ،
ولا يعرف نسبهم إلا الله ؛ والنسبون وإن نسبوا إلى آدم فلا يتدون إحصاء جميع
الأمم ، وإنما ينسبون البعض ، ويمسكون عن نسب البعض ؛ وقد روى عن النبي صلى الله
عليه وسلم لما سمع النساين ينسبون إلى معد بن عدنان ثم زادوا فقال : «كذب النسايون
إن الله يقول « لا يعلمهم إلا الله » . » . وقد روى عن حُرَّة بن الزبير أنه قال : ما وجدنا
أحدًا يعرف ما بين عدنان وإسماعيل . وقال ابن عباس : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون

(١) القائل هو : تيس بن زهير ، وتام البيت : * بما لاقت ليون بن زياد * . وبعده :

وعبسها على القرشي تشرى * بأدراع وأسياف حداد

وبنو زياد : الربيع بن زياد وإخوته ، أخذت قيس درما فاستاق تيس إبل الربيع لمكة وراحها لهد الله بن عدنان —
وهو مراده بالقرشي — يلدوح وسيوف .

أبلا يعرفون . وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ « لا يعلمهم إلا الله » : كذب السابون .
 (جاءتهم رؤسهم بالبينات) أى بالهجج والدلائل . (فردوا أيديهم في أفواههم) أى جعل
 أولئك القوم أيديهم في أفواههم ليعضوها عضاً مما جاء به الرسل ، إذ كان فيه تسفيه
 أحلامهم ، وشتم أصنامهم ؛ قاله ابن مسعود ، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد ، وقرأ « عضوا
 عليكم الأنامل من الغيظ » . وقال ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم
 إلى أفواههم . وقال أبو صالح : كانوا إذا قال لهم نبيهم أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم
 إلى أفواههم : أين آسكت ، تكذيباً له ، ورداً لقوله ؛ وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى ،
 والضميران للكفار ، والقول الأول أصحها إسناداً ؛ قال أبو عبيد : حدثنا عبد الرحمن بن مهيدي
 عن سفيان عن أبي إسحق عن أبي الأحوص عبد الله في قوله تعالى « فردوا أيديهم في أفواههم »
 قال عضوا عليها غيظاً ؛ وقال الشاعر :

لَوْ أَنَّ سَلَمَى أَبْصَرَتْ تَحْدِي (١)
 وَدَقَّةً فِي عَظِيمِ مَنَاقٍ وَيَدِي
 وَبَعْدَ أَهْلِي وَجَفَاءَ عُوْدِي * عَضْتُ مِنَ الْوَجْدِ بِأَطْرَافِ الْيَدِ

وقد مضى هذا المعنى في « آل عمران » مجوداً ، والحمد لله . وقال مجاهد وقتادة : ردوا على الرسل
 قولهم وكذبوهم بأفواههم ؛ فالضمير الأول للرسل ، والثاني للكفار . وقال الحسن وغيره :
 جعلوا أيديهم في أفواه الرسل رداً لقولهم ؛ فالضمير الأول على هذا للكفار ، والثاني للرسل .
 وقيل معناه : أوامروا للرسل أن يسكتوا . وقال مقاتل : أخذوا أيدي الرسل ووضعوها
 على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم . وقيل : رد الرسل أيدي القوم في أفواههم .
 وقيل : إن الأيدي هنا التهم ؛ أى ردوا نيم الرسل بأفواههم ، أى بالنطق والتكذيب ؛ وبجىء
 الرسل بالشرائع نعم ؛ والمعنى : كذبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل . و « في » بمعنى الباء ؛
 يقال : جلست في البيت وبالييت ، وحروف الصفات يقام بعضها مقام بعض . وقال
 أبو عبيدة : هو ضرب مثل ؛ أى لم يؤمنوا ولم يطيعوا ؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن

(١) التخذد : أن يضطرب اللحم من الهزال . (٢) راجع ج ٤ ص ١٨٢ طبعة أول أوثانية .

الجواب وسكت قد ردّ يده في فيه ؛ وقاله الأخفش أيضا . وقال القُتَيْبِيُّ : لم نسمع أحدا من العرب يقول : ردّ يده في فيه إذا ترك ما أمر به ، وإنما المعنى : عضوا على الأيدي حنقا وغيظا ؛ لقول الشاعر :

تَرُدُّونَ فِي فِيهِ غِشَّ الْحَسُو * دِ حَتَّى يَعْصُ عَلَى الْإَكْفَا

يعنى أنهم ينفطون الجسود حتى يعص على أصابعه وكفيه . وقال آخر :

قَدِ انْتَى أَنَامِلُهُ أَرْمَةً * فَاصْحَى يَعْصُ عَلَى الْوَيْطِيفَا

وقالوا : — يعنى الأثم للرسول — ((إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ)) أى بالإرسال على زعمكم ، لا أنهم أفزوا أنهم أرسلوا . ((وَإِنَّا لَنَفِي شَكٍّ)) أى فى ريب وغمربة . ((بِمَا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ)) من التوحيد . ((مُرِيبٌ)) أى موجب للريبة ؛ يقال : أربته إذ فعلت أمرا أوجب ريبة وشكًا ؛ أى نظن أنكم تطالبون الملك والدينيا .

قوله تعالى : **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنتُمْ إِلَّا أَبْسَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِرُسُلٍ مُّثْلِنَا مُبِينٍ** ﴿١٠﴾

قوله تعالى : **(قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ)** استفهام معناه الإنكار ؛ أى لا شك فى الله ، أى فى توحيده ؛ فإله قنادة . وقيل : فى طاعته . ويحتمل وجهنا ثالثا : أى قدرة الله شك ؟ ! لأنهم متفقون عليها ويختلفون فى عداها ؛ يدل عليه قوله : **(فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)** خالقها ومخرعها ومنشئها وموجدتها بعد العدم ، لينبه على قدرته فلا يجوز العبادة إلا له . **(يَدْعُوكُمْ)** أى إلى طاعته بالرسال والكتب . **(لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ)** قال أبو عبيد : « من » زائدة . وقال سيبويه : هى للتبعيض ؛ ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجميع .

(١) أزمه : ضياء ؛ والوظائف لكل ذى أربع : بما فوق الرنخ إلى مفصل الساق .

وقيل : « من » للبذل وليست بزانة ولا مُبَغَّضَةٌ ؛ أى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب .
 (وَيُؤْتِرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) يعنى الموت ، فلا يمدبكم فى الدنيا . (قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ) أى ما
 أنتم . (إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا) فى الهيئة والصورة ؛ تأكلون مما نأكل ، وتشربون مما نشرب ،
 ولستم ملائكة . (تُرِيدُونَ أَنْ تَصْطَلُوا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) من الأصنام والأوثان .
 (فَأَتَوْنَا سُُلْطَانٍ مِّنْ بَيْنِ) أى بحجة ظاهرة ؛ وكان هذا محالا منهم ؛ فإن الرسل ما دعوا إلا
 ومعهم المعجزات .

قوله تعالى : قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
 يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ
 إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٧١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ
 عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧٢﴾

قوله تعالى : (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) أى فى الصورة والهيئة كما قلتم .
 (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) أى يتفضل عليه بالنبوة . وقيل : بالتوفيق والحكمة
 والمعرفة والهداية . وقال سهل بن عبد الله : بتلاوة القرآن وفهم ما فيه .

قلت : وهذا قول حسن ؛ وقد نرجح الطبري من حديث ابن عمر قال قلت لأبى ذر : يا أبا
 أوصنى ؛ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتنى فقال : " ما من يوم ولا ليلة
 ولا ساعة إلا وقع فيه صدقة يقر بها على من يشاء من عباده وما من الله تعالى على عباده بمثل أن
 يهجمهم ذكركه . " (وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ) أى بحجة وآية (إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) أى بمشيئته ،
 وليس ذلك فى قدرتنا ؛ أى لا نستطيع أن نأتى بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته ؛ فلفظه لفظ
 الخبر ومعناه النفى ؛ لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه . (وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)
 تقدم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ « ما » استفهام في موضع رفع بالابتداء ، و « لنا » انطير ، وما بعدها في موضع الحال ، التقدير : أى شئ لنا في ترك التوكل على الله . ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ أى الطريق الذى يوصل إلى رحمته ، ويخفى من مخطئه ونقمته . ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ ﴾ لام قسم ، مجازة : والله لنصبرن ﴿ عَلَى مَا آذَيْنُونَا ﴾ به ، أى من الإهانة والضرب ، والتكذيب والقتل ، ثقة بالله أنه يكفينا ويثينا ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٦٧﴾ قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ اللام لام قسم ، أى والله لنخرجنكم ، ﴿ أَوْ لَتَعُوذُنَّ ﴾ أى حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا ، قاله الطبري وغيره . قال ابن العربي : وهو غير مفتقر إلى هذا التقدير ، فإن « أو » على بابها من التخيير ، غير الكفار الرسل بين أن يعودوا في ملتهم أو يخرجوهم من أرضهم ، وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا ﴾ وقد تقدم هذا المعنى في « الأعراف » وغيرها . ﴿ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أى إلى ديننا ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أى مقامه بين يدي يوم القيامة ، فأضيف المصدر إلى الفاعل . والمقام مصدر كالقيام ، يقال : قام قياما ومقاما ، وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به . والمقام بفتح الميم مكان الإقامة ، وبالضم فعل الإقامة ، و « ذلك لمن خاف مقامى » أى قباي عليه ، ومراد بقبى له ، قال الله تعالى : « أَفَنُؤْفِقُكُمْ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » . وقال الأخفش : « ذلك لمن خاف مقامى » أى عذابي ، « وخاف وعيد » أى القرآن وزواجره . وقيل : إنه العذاب . والوعيد اللامع من الوعد .

قوله تعالى : **وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾** مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَجْعَلُهُمْ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيُبَايِسُهُ **الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾**

قوله تعالى : **(وَاسْتَفْتَحُوا)** أى **وَاسْتَنْصَرُوا** أى **أُذِنَ لِلرَّسْلِ فِي الْإِسْتِفْتَاخِ عَلَى قَوْمِهِمْ** ، والدعاء بهلاكهم ؛ قاله ابن عباس وغيره ، وقد مضى في « البقرة »^(١) . ومنه الحديث : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يَسْتَفْتَحُ بِصَعَالِكِ الْمُهَاجِرِينَ ، أى يَسْتَنْصِرُ . وقال ابن زيد : استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش : **«اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ** » الآية ؛ وروى عن ابن عباس . وقيل قال الرسول : **«لَهُمْ كَذِبُونِي فَاتْنَحِ بَنِي وَبَيْنَهُمْ قَتَحًا»** وقالت الأمم : إن كان هؤلاء صادقين فعذبنا ، عن ابن عباس أيضا ؛ نظيره **«أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** » **«أَتَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** » . **(وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)** الجبار المتكبر الذى لا يرى لأحد عليه حقا ؛ هكذا هو عند أهل اللغة ، ذكره النحاس . والعنيد المعاند للحق والمجانِبُ له ، عن ابن عباس وغيره ؛ يقال : عَنَدَ عَنْ قَوْمِهِ أى تَبَاعَدَ عَنْهُمْ . وقيل : هو من العَنَد ، وهو الناحية ومائد فلان أى أخذ في ناحية مُعْرِضًا ؛ قال الشاعر :

إِذَا تَزَلْتُ فَأَجْعَلُونِي وَسَطًا ۖ لِي كَيْرٌ لَا أُطِيقُ الْعُنْدَا

وقال الحرورى : قوله تعالى : **« جبار عنيد »** أى جائر عن القصد ؛ وهو العنود والعنيد والعائد ؛ وفي حديث ابن عباس وسئل عن المستحاضة فقال : إنه عِرْقُ عَائِدٍ . قال أبو عبيد : هو الذى عَنَدَ وَبَقِيَ كالإنسان يعاند ؛ فهذا العرق في كثرة ما يخرج منه بمنزلة . وقال شمر : العائد الذى لا يرقأ . وقال عمر بن عبد العزيز : أضْمُ الْعُنُودُ ؛ قال الليث : العنود من الإبل الذى لا يخالطها إنما هو في ناحية أبدا ؛ أراد من هم بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفُ به إليها . وقال مقاتل : العنيد المتكبر . وقال ابن كيسان : هو الشاخب بأفنه . وقيل : العنود والعنيد الذى

يتكبر على الرسل ويذهب عن طريق الحق فلا يسلكها ؛ تقول العرب : شر الإبل العنود
الذى يخرج عن الطريق . وقيل : العنيد العاصي . وقال قتادة : العنيد الذى أبى أن يقول
لا إله إلا الله .

قلت : والجبار والعنيد فى الآية بمعنى واحد، وإن كان اللفظ مختلفا ، وكل متباعد عن
الحق جبار وعنيد أى متكبر . وقيل : إن المراد به فى الآية أبو جهل ؛ ذكره المهدوى .
وحكى الماوردى فى كتاب « أدب الدنيا والدين » أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاعل
يوما فى المصحف فخرج له قوله عز وجل : « وأستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » فزق
المصحف وأنشأ يقول :

أَتَوَصَّدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * فَمَا أَنَا ذَاكَ جَبَّارٌ صَنِيدٌ

إِذَا مَا جِئْتَ رَبِّكَ يَوْمَ حَشِيرٍ * فَقُلْ يَا رَبِّ مَنْ فِي الْوَلِيدِ

فلم يلبث أياما حتى قُتل شر قتلة، وصُلب رأسه على قصره، ثم حلى سور بلده .

قوله تعالى : (مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ) أى من وراء ذلك الكافر جهنم ، أى من بعد هلاكه .
وراء بمعنى بعد ؛ قال النابغة :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً * وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْهَرَمِ مَذْهَبٌ

أى بعد الله جل جلاله ، وكذلك قوله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أى من بعده ،

وقوله تعالى : « وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ » أى بما سواه ؛ قاله الفراء . وقال أبو عبيد : بما

بعده . وقيل : « من ورائه » أى من أمامه ، ومنه قول الشاعر :

وَمِنْ وَرَائِكَ يَوْمٌ أَنْتَ بِالْأَنَّةِ * لَا حَاضِرٌ مُعِجِزٌ عَنْهُ وَلَا بَادِى

وقال آخر :

أَتَرْجُوْ بَنُوْ مَرْوَانَ مِمِّعِيْ وَطَاعَتِيْ * وَقَوْمِيْ تَمِّمُ وَالْفَلَاحُ وَرَائِيْ

وقال ليلى :

أَلَيْسَ وَرَائِيْ إِنْ [تَرَاخَتْ] مِثْقَالِي * لَزُومُ الْمَصَا تَحْتَى عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ

(١) كذا فى ديوانه ، وفى الأصل : « إن بلغت مئتي » .

مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) قال ابن عباس : أى يأتية أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله ، ومن فوقه وتحتة ومن قدماه وخلفه ، كقوله : « لَسْمٌ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » . وقال إبراهيم التيمي : يأتية من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره ؛ لآلام التي في كل مكان من جسده . وقال الضحاك : إنه ليأتية الموت من كل ناحية ومكان حتى من إبهام رجله . وقال الأخفش : معنى البلايا التي تصيب الكافر في النار سماها موتا ، وهى من أعظم الموت . وقيل : إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وُكِّلَ به نوع من العذاب ، لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها في فرد لحظة ؛ إما حية تنهشه ، أو عقرب تأسبه ، أو نار تأسفه ، أو قيد برجله ، أو ضل في عنقه ، أو سلسلة يقرن بها ، أو تابوت يكون فيه ، أو زقوم أو حميم ، أو غير ذلك من العذاب . وقال محمد بن كعب : إذا دما الكافر في جهنم بالشراب فراه مات موتات ، فإذا دنا منه مات موتات ، فإذا شرب منه مات موتات ؛ فذلك قوله : « وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » . قال الضحاك : لا يموت فيستريح . وقال ابن جرير : تعلق روحه في حنجرتة فلا تخرج من فيه فيموت ، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنتفعه الحياة ؛ ونظيره قوله : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا » . وقيل : يخلق الله في جسده آلاما كل واحد منها كالموت . وقيل : « وما هو بميت » لتناول شدة الموت به ، وامتداد سكراته عليه ؛ ليكون ذلك زيادة في عذابه .

قلت : ويظهر من هذا أنه يموت ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « وَلَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِجْوَؤُهُ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » وبذلك وردت السنة ؛ فأحوال الكفار أحوال من استولى عليه سكرات الموت دائما ، والله أعلم . (وَمِنْ وَرَائِهِ) أى من أمامه . (عَذَابٌ غَلِيظٌ) أى شديد متواصل الآلام من غير قنور ؛ ومنه قوله : « وَلَيَجِدُنَا فِيكُمْ غَلَظَةً » أى شدة وقوة . وقال فضيل بن عياض في قول الله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » قال : ههنا الألفاظ .

قوله تعالى : مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أََعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ
الرَّيْحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّالُّونَ
الْعَبِيدُ ﴿١٥٥﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى : (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أََعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ) اختاف النحويون في رفع «مثل» فقال سيبويه : أرتفع بالابتداء والخبر مضمرة التقدير : وفيما يتلى عليكم أو يقص «مثل الذين كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» ثم أبتدأ فقال : «أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ» أى كمثل رماد (أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ) . وقال الزجاج : أى مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالهم كرماد ، وهو عند الفراء على إلقاء المثل ، التقدير : والذين كفروا برَبِّهم أعمالهم كرماد . وعنه أيضا أنه على حذف مضاف ، التقدير : مثل أعمال الذين كفروا برَبِّهم كرماد ؛ وذكر الأول عنه المهدوى ، والثاني التُّشَيْرِيُّ والتعلبي . ويجوز أن يكون مبتدأ كما يقال : صفة فلان أسمر ، «فمثل» بمعنى صفة . ويجوز في الكلام جر «أعمالهم» على بدل الاشتغال من «الذين» واتصل هذا بقوله : «وَحَابَّ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» والمعنى : أعمالهم مُحَبَّطَةٌ غير مقبولة . والرماد ما بقى بعد احتراق الشيء ؛ فضرب الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفار في أنه يحرقها كما تحرق الرِّيحُ الشديدة الرَّمَادَ في يوم عاصف ، والعصف شدة الريح ، وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى . وفي وصف اليوم بالنُصُوف ثلاثة أقاويل : أحدها — أن النُصُوف وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصف به ؛ لأن الريح تكون فيه ، بخلاف أن يقال : يوم عاصف ، كما يقال : يوم حارّ ويوم بارد ، والبرد والحَرُّ فيها . والثاني — أن يريد «في يوم عاصف» الريح ؛ لأنها ذكرت في أول الكلمة ، كما قال الشاعر :
* إِذَا جَاءَ يَوْمٌ مُظْلِمُ الشَّمْسِ كَاسِفٌ *

يريد كاسف الشمس لخفف ؛ لأنه قد مر ذكره ؛ ذكرهما الهروي . والثالث — أنه من نعت الريح ، غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل : مُجْرَضَبٌ حَرِيبٌ ؛ ذكره

التعالي والمأوردى . وقرا ابن إسحق وإبراهيم بن أبي بكر « في يوم عاصف » ^(١) « (لَا يَقْدِرُونَ) »
يعنى الكفار . « (يَا كَسْبُوا عَلَى شَيْءٍ) » يريد فى الآخرة ؛ أى من ثواب ما عملوا من البر
فى الدنيا ، لإحباطه بالكفر . « (ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) » أى الخسران الكبير ؛ وإنما
جعله كبيرا بعيدا لقوات استدراكه بالموت .

قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » (الرؤية هنا رؤية
القلب ؛ لأن المعنى : ألم ينته علمك إليه . وقرا حمزة والكسائى — « خَالِقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ » . ومعنى « بالحق » ليستدل بهما على قدرته . « (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ) » أيها الناس ؛
أى هو قادر على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء ؛ فلا تعصوه فإنكم إن عصيتموه يذهبكم
(وَيَأْتِى بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) أفضل وأطوع منكم ؛ إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة فى الإبدال .
(وَمَا ذَكَ عَلَى اللَّهِ يُعْزِى) أى منيع متعذر .

قوله تعالى : وَهَرَّوْا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا
كُلَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا
لَوْ هَدَّوْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ
مُحِصٍ ۖ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ
الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ
دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْوُمُونِى وَلَوْ مَوْا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ
وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ

(١) هذه القراءة بإضافة يوم إلى عاصف ، ومن قرأ بها أقام الصفة مقام الموصوف ؛ أى فى يوم

قوله تعالى : (وَبَرُّوا اللَّهَ جَمِيعًا) أى برّوا من قُبُورِهِمْ ، يعنى يوم الْقِيَامَةِ . والبرُّوز الظهور . والبرّاز المكان الواسع لظهوره ؛ ومنه امرأة بُرْزَة أى تظهر للناس ؛ فعنى « برّوا » ظهوروا من قُبُورِهِمْ . وجاء بلفظ الماضى ومعناه الاستقبال ، وأنصل هذا بقوله : « وَحَابَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » أى وقاربوا لما استفتحوا فأهلكوا ، ثم بعثوا للحساب فبرّوا لله جميعا لايستريح عنه سائر . « لله » لأجل أمر الله إليهم بالبروز . (فَقَالَ الضُّعْفَاءُ) يعنى الاتباع (لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) وهم القادة (إِنَّا نَكُنَّا لَكُمْ تَبَعًا) يجوز أن يكون تبع مصدر ؛ التقدير : ذوى تبع . ويجوز أن يكون جمع تابع ؛ مثل حارس وحرس ، وخادم وخدم ، وراصد ورصد ، وباقر وبقر . (قَهْلَ أَنْتُمْ مُنْتَوُونَ) أى دافعون عنا (مِنْ مَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) أى شيئا ، و « من » صلة ؛ يقال : أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغنا إذا أوصل إليه النفع . (قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ) أى لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه . وقيل : لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها . وقيل ؛ لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه . (سَوَاءٌ عَلَيْنَا هَذَا ابْتَدَأَ خَبْرَهُ « أَجْرَعْنَا » أى : (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ) أى من مهرب وملجأ . ويجوز أن يكون بمعنى المصدر ، وبمعنى الأكم ؛ يقال : حَاصَ فلان عن كذا أى فرّ وراغ يمحى حصبا وحِوَصًا وحِصْبَانًا ؛ والمعنى : ما لنا وجه نتباعد به عن النار . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول أهل النار إذا اشتد بهم العذاب تعالوا نصبر فيصبرون نعمائة تام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا هَلُمَّ فلتنجزع فلتنجزعون ويصيحون نعمائة تام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا « سواء علينا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ » . وقال محمد بن كعب القرظى : ذَكَرْنَا أَنْ أَهْلَ النَّارِ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : يَا هَؤُلَاءِ ! قَدْ نَزَلَ بِكُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْعَذَابِ مَا قَدْ تَرَوْا ، فَهَلُمَّ فَلْنَصْبِرْ ؛ فَلَمَّا الصَّبْرُ يَنْفَعُنَا كَمَا صَبَرَ أَهْلُ الطَّاعَةِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَتَنْفَعُهُمُ الصَّبْرُ إِذْ صَبَرُوا ؛ فَاجْعَلُوا رَأْيَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ فَصَبَرُوا ، فَطَالَ صَبْرُهُمْ فَخَزَعُوا ، فَتَادُوا : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ » أى منجى ، فقام إبليس عند ذلك فقال : « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ

وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْهُمُونِي
وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ يَقول: لست بمخبر عنكم شيئا «وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ
بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ» الحديث بطوله، وقد كتبناه في كتاب «التذكرة» بجماله.

قوله تعالى: ((وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ)) قال الحسن: يقف إبليس يوم القيامة
خطيبا في جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعا، ومعنى «لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ» أى حُصِّلَ
أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، على ما يأتي بيانه في «مرسيم» عليها السلام.
((إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ)) يعنى البعث والجنة والنار وثواب المطيع وعقاب العاصي
فصدقكم وعده، ووعدتكم أن لا بعث ولا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب فأخلفتكم.
وروى ابن المبارك من حديث عُبَيْدِ بْنِ حَامِرٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث
الشفاعة قال: «يَقُولُ عِيسَى أَدْلَكُمْ عَلَى النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ فَيَأْتُونَ فَيَأْذَنُ اللَّهُ لِي أَنْ أَقُومَ فَيُثَوِّرُ
مَجْلِسٌ مِنْ أَطْيَبِ رِيحٍ شَمَمَهَا أَحَدٌ حَتَّى آتَى رَبِّي فَيُشْفِعُنِي وَيَجْعَلُ لِي نُورًا مِنْ شَعْرِ رَأْسِي
إِلَى ظَهْرِ قَدَمِي ثُمَّ يَقُولُ الْكَافِرُونَ قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَمْ يَنْ يَشْفَعْ لَنَا فَيَقُولُونَ
مَا هُوَ ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ هُوَ الَّذِي أَضَلَّنَا فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَمْ يَشْفَعْ لَنَا
فَإِنَّكَ أَضَلَّنَا فَيُثَوِّرُ مَجْلِسُهُ مِنْ أَتَنِ رِيحٍ شَمَمَهَا أَحَدٌ ثُمَّ يَعْظُمُ نَحْبُهُمْ يَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ: «إِنَّ اللَّهَ
وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ» الآية. «وَعَدَ الْحَقُّ» هو إضافة الشيء إلى نفسه كقولهم:
مسجد الجامع؛ قال الفراء قال البصريون: وعَدَكُمْ وَعَدَ الْيَوْمَ الْحَقُّ أَوْ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْوَعْدَ الْحَقُّ
فصدقكم؛ غذف المصدر لدلالة الحال. ((وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)) أى من حجة وبيان؛
أى ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزينت لكم في الدنيا ((إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي))
أى أغويتكم فتابتموني. وقيل: لم أقهركم على ما دعوتكم إليه. «إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ» هو
استثناء منقطع؛ أى لكن دعوتكم بالوسواس فاستجبتم لي باختياركم «فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْمُوا
أَنْفُسَكُمْ». وقيل: «وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ» أى على قلوبكم وموضع إيمانكم لكن

(١) في تفسير قوله تعالى: «وَأَنذَرْتُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ...» آية ٣٩ من السورة المذكورة.

دعوتكم فاستجبت لي؛ وهذا على أنه خَطَبَ العاصيَ المؤمنَ والكافرَ الجاحد؛ وفيه نظر لقوله :
 « لما قضى الأمر » فإنه يدل على أنه خَطَبَ الكفارَ دونَ العاصينَ الموحدين ؛ وانه أعلم .
 ﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ إذا جِئْتُمُونِي من غير حجة . ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أى
 بمخبركم . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ﴾ أى بمغني . والصراخ والمستصرخ هو الذى يطلب النصرة
 والمعاونة ، والمُصْرِخ هو المُغِيث . قال سلامة بن جندل :
 نكأ إذا ما أمانا صارخاً فزِعُ ۝ كَانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرَعَ الظَّنَّادِيبَ ^(١)
 وقال أُمَيَّة بن أبى الصَّلْت :
 ولا تَجْزَعُوا إِنِّي لَكُمْ مُصْرِخٌ ۝ وليس لكم عندى غناء ولا نصرُ

يقال : صَرَخَ فلان أى استغاث بِصُرْخٍ صَرَخاً وصَرَخاً وصَرَخَةً . وأصطرخ بمعنى صَرَخ .
 والتَّصْرِخُ تكلف الصُّرَاخ . والمُصْرِخُ المُغِيث ، والمستصرخ المستغيث ؛ تقول منه : استصرخني
 فأصْرخته . والصَّيرِخُ صوت المستصرخ . والصَّيرِخُ أيضاً الصَّارِخ ، وهو المُغِيثُ والمستغيثُ ،
 وهو من الأضداد ؛ قاله الجوهري . وقراءة العامة « بِمُصْرِخِي » بفتح الباء . وقرأ الأعمش
 وحمة « بِمُصْرِخِي » بكسر الباء . والأصل فيها بمصرخين فذهبت النون للإضافة ، وأدغمت
 ياء الجماعة فى ياء الإضافة ، فمن نصب فلاجل التضعيف ، ولأن ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها
 تعين فيها الفتح مثل : هَوَاىَ وَعَصَاىَ ، فإن تحرك ما قبلها جاز الفتح والإسكان ، مثل : غَلَامِيْ
 وَغُلَامِيْ ، ومن كسر فالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر ، لأن الباء أخت الكسرة . وقال
 الفراء : قراءة حمزة وَهَمَّ مِنْهُ ، وَقَلَّ مِنْ سَلَمٍ مِنْهُمْ عن خطأ . وقال الزجاج : هذه قراءة رديئة
 ولا وجه لها إلا وجه ضعيف . وقال قُطْرُبُ : هذه لغة بنى يَرْبُوعَ يزيدون على ياء الإضافة
 ياء . الْقَشْدَرِيّ : والذى ينبنى عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم
 فلا يجوز أن يقال فيه هو خطأ أو قبيح أو ردىء ، بل هو فى القرآن فصيح ، وفيه ما هو أنصح
 منه ، فلعل هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذى قرأ به حمزة أنصح . ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي
 (١) الظنايب (جمع) ظنوب ؛ وهو حرف الساق اليابس من قدم . وقرع الظنوب أن يقرع الرجل ظنوب
 البحر ليتخذه فيركبه ؛ والمراد هنا مرة الإجابة . (٢) أى من الفراء .

مِنْ قَبْلُ) أى كُفِرَتْ بِإِشْرَاكُمْ لِإِيَّايَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الطَّاعَةِ ؛ فـ « مَا » بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ .
 وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : (١) إِنِّي كُفِرْتُ الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّرِكِ بِاللَّهِ تَعَالَى . قَتَادَةُ :
 إِنِّي عَصَيْتُ اللَّهَ . الثَّوْرِيُّ : كُفِرَتْ بِطَاعَتِكُمْ لِإِيَّايَ فِي الدُّنْيَا . (إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .
 وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْإِمَامِيَّةِ وَمَنْ كَانَ عَلَى طَرِيقِهِمْ ؛ أَنْظِرْ إِلَى قَوْلِ
 الْمُتَبَوِّعِينَ : « لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ » وَقَوْلِ إِبْلِيسَ : « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ » كَيْفَ
 اعْتَرَفُوا بِالْحَقِّ فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ فِي دَرَكَاتِ النَّارِ ؛ كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : « كُنَّا أَلْفِي
 فِيهَا فَوَجَّ سَأَلُنَا نَزَّزْتَنَا » إِلَى قَوْلِهِ : « فَأَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ » وَاعْتَرَفَهُمْ فِي دَرَكَاتِ لُغَى بِالْحَقِّ
 لَيْسَ بِنَافِعٍ ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُ الْإِعْتِرَافُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا
 بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » وَ « عَسَى » مِنْ اللَّهِ وَاجِبَةٌ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحِبُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٢﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ) أَي فِي جَنَّاتٍ لِأَن دَخَلَتْ
 لَا يَتَعَدَّى ، كَمَا لَا يَتَعَدَّى تَقْيِضُهُ وَهُوَ نَجِجَتْ ، وَلَا يِقَاسُ عَلَيْهِ ؛ قَالَ الْمُهَدِّوِيُّ . وَلَمَّا أَخْبَرَ
 تَعَالَى بِحَالِ أَهْلِ النَّارِ أَخْبَرَ بِحَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَيْضًا . وَقِرَاءَةُ الْجَمَاعَةِ « أُدْخِلَ » عَلَى أَنَّهُ فَعْلٌ
 مَبْنِيٌّ لِلْفِعُولِ . وَقَرَأَ الْحَسَنُ « وَأَدْخِلُ » عَلَى الْأَسْتِقْبَالِ وَالْأَسْتِنْافِ . (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) أَي
 بِأَمْرِهِ . وَقِيلَ : بِمَشِيئَتِهِ وَيَسِيرِهِ . وَقَالَ : « بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » وَلَمْ يَقُلْ : بِإِذْنِ تَعْظِيمٍ وَتَفْخِيمٍ .
 (يُحِبُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) تَقْدِيمُ فِي « يُونُسَ » . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : أَلَّا تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ
 أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٣﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا
 وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

فيه مستثنان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ لما ذكر تعالى مثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتكت به الريح في يوم عاصف ، ذكر مثل أقوال المؤمنين وغيرها ، ثم فسّر ذلك المثل فقال : ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ الثمر ، فحذف لدلالة الكلام عليه . قال ابن عباس : الكلمة الطيبة لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن . وقال مجاهد وابن جريح : الكلمة الطيبة الإيمان . عطية العوفي والزيّج بن أنس : هي المؤمن نفسه . وقال مجاهد أيضا وعكرمة : الشجرة النخلة ؛ فيجوز أن يكون المعنى : أصل الكلمة في قلب المؤمن — وهو الإيمان — شبه بالنخلة في المنبت ، وشبه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النخلة ، وثواب الله له بالثمر . وروى من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” إن مثل الإيمان كمثل شجرة ثابتة الإيمان عروقها والصلاة أصلها والزكاة فروعها والصيام أغصانها والثأدي في الله نباتها وحسن الخلق ورقها والكف عن محارم الله ثمرتها “ ، ويجوز أن يكون المعنى : أصل النخلة ثابت في الأرض ؛ أي عروقها تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها ، فهي زاكية نامية . ونرجح الترمذي من حديث أنس بن مالك قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتاع فيه رطب ، فقال : ” مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفروعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها “ — قال — هي النخلة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار — قال — هي الخنظل “ . وروى عن أنس قوله [وقال] : وهو أصح . ونرجح الدارقطني عن ابن عمر قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت “ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أتدرون ما هي “ فوقع في نفسي أنها النخلة . قال السهيلي : ولا يصح فيها ما روى عن علي بن أبي طالب أنها جوزة الهند ؛ لما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عمر ” إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المؤمن خبروني ما هي — ثم قال — هي النخلة “ نرجحه مالك في « الموطأ » من رواية ابن القاسم وغيره إلا يبيح فأنه أسقطه من روايته . ونرجحه أهل الصحيح وزاد (١) القناع : الطبق الذي يؤكل عليه . (٢) أي قال الترمذي : والحديث الموقوف أصح .

فيه الحارث بن أسامة زيادة تساوى رحلة^(١) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وهي النخلة لا تسقط لها أئمة وكذلك المؤمن لا تسقط له دهوة» فيين معنى الحديث والمأثلة .

قلت : وذكر الغزوي عنه عليه السلام «مثل المؤمن كالنخلة إن صاحبه نفعك وإن جالسته نفعك وإن شاورته نفعك كالنخلة كل شيء منها ينفع به» . وقال: «كلوا من نعمتكم» يعني النخلة خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام، وكذلك أنها برأسها تبقى، وبقلها تنحيا، ونمورها بامتزاج الذكور والأنثى. وقد قيل: إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شُبهت به؛ وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تشعبت الفصوص من جوانبها، والنخلة إذا قطع رأسها ينبت وزهبت أصلا؛ ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان في الالتفاح لأنها لا تحمل حتى تُلْقَح قال النبي صلى الله عليه وسلم: «خير المال سكة مأبورة ومُهْرَةٌ مأبورة» . والإبرار اللقاح وسيأتي في سورة «الحجر» بيانه . ولأنها من فضلة طينة آدم . ويقال: إن الله عز وجل لما صور آدم من الطين فضلت قطعة طين فصورها بيده وغرسها في جنة عدن . قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أكرموا عمتكم» قالوا: ومن عمتنا يا رسول الله؟ قال: «النخلة» . (تَوَرَّى أَكْلُهَا كُلَّ حِينٍ) قال الربيع: «كل حين» غُدوة وعَشِيَّة كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخره؛ وقاله ابن عباس . وعنه «تَوَرَّى أَكْلُهَا كُلَّ حِينٍ» قال: هو شجرة الهند لا تستعمل من ثمرة، تحمل في كل شهر، شبه عمل المؤمن لله عز وجل في كل وقت بالنخلة التي تَوَرَّى أَكْلُهَا في أوقات مختلفة . وقال الضحاك: كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفا يؤكل في جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلها . قال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره، وأنشد الأصمعي بيت النابغة:

تَنَازَرُهَا الرَّاقُونَ مِنْ سَوْءِ سَمِيهَا * تَطْلُقُهُ حِينَ وَحِينَ تَرُاجِعُ^(٢)

(١) كذا في الأصل . (٢) السكة: الطريقة المصطفة من النمل، والمهرة المأمورة الكثيرة النسل والنتاج؛ أراد خير المال نتاج أوزرع . (٣) في تفسير قوله تعالى: «وأرسلنا الرياح لوائح» آية ٢٢ . (٤) البيت في وصف حية؛ و «تنأذرها الراقون» أي أئذ بعضهم بضاً ألا يتعرضوا لها . ومعنى «تطلقه حينا وحينا تراجع» أنها تخفى الأرباع عن السلم تارة وتارة تشتد عليه . ويريد: «من سوء سمها» أي أنها لا تحجب الراقى لا أنها صماء وقوطم؛ أسمع من حية .

فهذا بين لك أن الحين بمعنى الوقت، فالإيمان ثابت في قلب المؤمن، وعمله وقوله وتبسيحه عالي مرتفع في السماء ارتفاع فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما يُنال من ثمرة النخلة في أوقات السنة كلها، من الرطب والبُسْر والبلح والزُّهو^(١) والتمر والطلع . وفي رواية عن ابن عباس : إن الشجرة الطيبة شجرة في الجنة تتمر في كل وقت . و «مثلا» مفعول بـ «ضرب» ، « وكلمة » بدل منه ، والكاف في قوله : « كشجرة » في موضع نصب على الحال من « كلمة » التقدير : كلمة طيبة مشبهة بشجرة طيبة .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ تَوَرَّقُوا أَكْثَهَا كُلِّ حِينٍ ﴾ لما كانت الأشجار تَوَرَّقُ أكلها كل سنة مرة كان في ذلك بيان حكم الحين ؛ ولهذا قلنا : من حلف ألا يكلم فلانا حيناً ولا يقول كذا حيناً إن الحين سنة . وقد ورد الحين في موضع آخر يراد به أكثر من ذلك لقوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ » قيل في « التفسير » : أربعون ماما . وحكى عكرمة أن رجلاً قال : إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامه حُرٌّ ، فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله ، فسأني عنها فقلت : إن من الحين حيناً لا يدرك ، قوله : « وَإِنْ أَذْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » فأرى أن مُسْك ما بين صرام النخلة إلى تحملها ، فكأنه أعجبه ؛ وهو قول أبي حنيفة في الحين أنه ستة أشهر ابتاعاً لعكرمة وغيره . وقد مضى ما للعلباء في الحين في « البقرة » مستوفى والحمد لله . ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى الأشباه للناس . ﴿ لَّهُمْ يَنْدَرُونَ ﴾ ويعتبرون ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثِّلَتْ مِّن فَوْقِ الْأَرْضِ مَأْلَكًا مِّن قَرَارٍ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ الكلمة الخبيثة كلمة الكفر . وقيل : الكافر نفسه . والشجرة الخبيثة شجرة الحنظل كما في حديث أنس ، وهو قول ابن عباس ومجاهد

(١) الزهو : البسر المرن . (٢) صرام النخلة : حين يقطع ثمرها . (٣) راجع به ١ ص ٣٢١ وما بعدها طيبة ثانية أو ثالثة .

وغيرهما، وعن ابن عباس أيضا أنها شجرة لم تخلق على الأرض . وقيل : هي شجرة التوم؛
عن ابن عباس أيضا . وقيل : الكَّأَة أو الطَّحْطِبة . وقيل : الكَشُوث، وهي شجرة لا ورق
لها ولا عروق في الأرض؛ قال الشاعر :

« وَمِنْ كَشُوثٍ فَلَا أَصْلَ وَلَا وَرَقٍ ^(١) »

(أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ) أَقْتَلَتْ مِنْ أَصْلِهَا؛ قاله ابن عباس؛ ومنه قول لَقِيطَ :

هو الجلاء الذي يَحْتَثُّ أَصْلَكُمْ « فَن رَأَى مِثْلَ ذَا يَوْمًا وَمِنْ سَمِعَا

وقال المؤرج : أَخَذَتْ جَنْبَهَا وَهِيَ نَفْسُهَا ، وَالْجَنَّةُ شَخْصُ الْإِنْسَانِ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا . وَجَنَّهُ
قَلْعُهُ ، وَأَجَنَّتْهُ أَقْتَلَتْهُ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ؛ أَيْ لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ رَاسِخٌ يَشْرَبُ بِعُرْوَقِهِ مِنْ
الْأَرْضِ ، (مَاتَهَا مِنْ قَرَارٍ) أَيْ مِنْ أَصْلِ فِي الْأَرْضِ . وَقِيلَ : مِنْ ثَبَاتٍ ؛ فَكَذَلِكَ الْكَافِرُ
لَا حِجَّةَ لَهُ وَلَا ثَبَاتٍ وَلَا خَيْرَ فِيهِ ، وَمَا يَصْعَدُ لَهُ قَوْلٌ طَيِّبٌ وَلَا عَمَلٌ صَالِحٌ . وَرَوَى مُعَاوِيَةُ
ابْنُ صَالِحٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً » قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
« كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ » قَالَ : الْمُؤْمِنُ ؛ « أَصْلُهَا ثَابِتٌ » لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثَابِتَةٌ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ ؛
« وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ » قَالَ : الشُّرْكُ ، « كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ » قَالَ : الْمُشْرِكُ ؛ « أَجَنَّتْ مِنْ فَوْقِ
الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ » أَيْ لَيْسَ لِلشُّرْكِ أَصْلٌ يَعْمَلُ عَلَيْهِ . وَقِيلَ : يَرْجِعُ الْمَثَلُ إِلَى الدَّمَاءِ
إِلَى الْإِيمَانِ وَالدَّمَاءِ إِلَى الشُّرْكِ ؛ لِأَنَّ الْكَلِمَةَ يَفْهَمُ مِنْهَا الْقَوْلُ وَالدَّمَاءُ إِلَى الشَّيْءِ .

قوله تعالى : يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ) قال ابن عباس : هو
لا إله إلا الله . وروى النسائي عن البراء قال قال : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت

(١) تمامه :

* وَلَا نَسِمْ وَلَا ظُلَّ وَلَا ثَمَرُ *

يريد أنهم لا حسب لهم ولا نسب . (٢) هو لقيط بن معمر الإيادي ، والبيت من قصيدة يثب بها إلى قومه
يخدرهم كسرى وجيشه ؛ فلم يلتفتوا إلى قوله ، فظفروا بهم كسرى وعزهم .

في الحياة الدنيا وفي الآخرة « نزلت في عذاب القبر؟ يقال : من ربك ؟ فيقول : ربّي الله ودينى دين محمد ، فذلك قوله : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » .

قلت : وقد جاء هكذا موقوفاً في بعض طرق مسلم عن البراء [أنه] قوله ، والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم وكتاب السنن وأبى داود وابن ماجه وغيرهم عن البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم وذكر البخاري ، حدثنا جعفر بن عمر ، قال حدثنا شعبة عن طلحة بن مرثد عن سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أُنشد المؤمن في قبره آتاه آت ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » . وقد بنا هذا الباب في كتاب « التذكرة » وبيننا هناك من يفتن في قبره ويُسأل ، فمن أراد الوقوف عليه تأمله هناك . وقال سهل بن عمار : رأيت يزيد بن هرون في المنام بعد موته ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أتاني في قبري ملكان فظان غليظان ، فقالا : ما دينك ومن ربك ومن نبيك ؟ فأخذت بلحيتي البيضاء وقلت : المثل يقال هذا وقد صلبت الناس جواباً كما ثمانين سنة ؟ ! فذهبوا وقالوا : أكتبته عن حريز بن عثمان ؟ قلت نعم ! فقالوا : إنه كان يبغيض [علياً] فأبغضه الله . وقيل : معنى « يثبت الله » يديمهم الله على القول الثابت ، ومنه قول عبد الله بن رَوَاحَة :

يُثَبِّتُ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ * ثَلَاثَتِ مُوسَى وَتَصْرَا كَالَّذِي نُصِرَا

وقيل : يثبتهم في الدارين جزاء لهم على القول الثابت . وقال القفال وجماعة : « في الحياة الدنيا » أى في القبر ؛ لأن الموتى في الدنيا إلى أن يعثوا « وفي الآخرة » أى عند الحساب ؛ وحكاية الماوردي عن البراء قال : المراد بالحياة الدنيا المسألة في القبر ، وبالأخرة المسألة في القيامة : (وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ) أى عن حجتهم في قبورهم كما ضلوا في الدنيا

(١) أى قول البراء . (٢) في الأصل « عيان » ومنه في كتاب « التذكرة » لؤلؤ . والذي

في « تهذيب التهذيب » أنه كان يفيض طياً .

بكفرهم فلا يُلقَئهم كلمة الحق، فإذا سُئلوا في قبورهم قالوا : لا ندري ؛ فيقول : لا درَيتَ ولا تَئيتَ ؛ وعند ذلك يُضرب بالمقاييع ^(١) على ما ثبت في الأخبار ؛ وقد ذكرنا ذلك في كتاب « التذكرة » . وقيل : يمهلهم حتى يزدادوا ضلالا في الدنيا . ﴿ وَيَقُولُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ من مذاب قوم وإضلال قوم . وقيل : إن سبب نزول هذه الآية ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصف سُوءَ مُسْأَلَةِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ وما يكون من جواب الميت قال عمر : يا رسول الله أليكون معي عقل ؟ قال : « نعم » قال : كُفيتُ إذا ؟ فانزل الله عز وجل هذه الآية .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ أَلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ أى جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا ، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم ؛ عن ابن عباس وعلي وغيرهما . وقيل : نزلت في المشركين الذين قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر . قال أبو الطُّفَيْل : سمعت عليا رضى الله عنه يقول : هم قريش الذين تُجرحوا يوم بدر . وقيل : نزلت في الأبخريين من قريش بنى غزوم وبنى أمية ، فأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين ؛ وأما بنو غزوم فاهلكوا يوم بدر ؛ قاله علي بن أبى طالب وعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما . وقول رابع : أنهم متنصرون العرب جبلة بن الأيئسم وأصحابه حين لطم فجعل له عمر القصاص بمثلها ، فلم يرض وأنف فأرمد متنصرا ولحق بالروم في جماعة من قومه عن ابن عباس وقتادة . ولما صار إلى بلد الروم ندم فقال :

(١) قبل في معنى « ولا تليت » : ولا طوت ؛ أى لا قرأت ؛ من تلاطرو ، وقالوا تليت بإلها يعاقب بها الإله .

(٢) المقامع : سياط من حديد وروسها معوية .

تَنَصَّرَ الْأَشْرَافُ مِنْ عَارِ لَقْمَةٍ * وَمَا كَانَ فِيهَا لَوْ صَبَرْتُ لَهَا ضَرَرٌ
تَكْتَفِي مِنْهَا بِلَجَاجٍ وَتَحْوَةٍ * وَبَعْتُ لَهَا الْعَيْنَ الصَّحِيحَةَ بِالْعَوَرِ
فِيَالَيْتِي أَرَعَى الْخَاضَ بِبِلْدَةٍ * وَلَمْ أَنْكَرِ الْقَوْلَ الَّذِي قَالَهُ عُمَرُ

وقال الحسن : إنما عامة في جميع المشركين . (وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ) أى أنزلوهم . قال ابن عباس : هم قادة المشركين يوم بدر أحلوا قومهم ؛ أى الذين اتبعوهم . (دَارُ الْبَوَارِ) قيل : جهنم ؛ قاله ابن زيد . وقيل : يوم بدر ؛ قاله علي بن أبى طالب ومجاهد . والبوار الهلاك ؛ ومنه قول الشاعر :

فَلَمْ أَرْ مِثْلَهُمْ أَبْطَالَ حَرْبٍ * غَدَاةَ الْحَرْبِ إِذْ خِيفَ الْبَوَارُ

(جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا) بين أن دار البوار جهنم كما قال ابن زيد ، وعلى هذا لا يجوز الوقف على « دار البوار » ؛ لأن جهنم منصوبة على الترجمة عن « دار البوار » فلورفعها رافع بإضمار ، على معنى : هى جهنم ، أو بما عاد من الضمير فى « يصلونها » حسن الوقف على « دار البوار » . (وَيَأْسُ الْقَرَارِ) أى المستقر . قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا) أى أصناما عبدوها ؛ وقد تقدم فى « البقرة » . (يُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) أى عن دينه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء ، وكذلك فى الجح « لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » ومثله فى « لقمان » و « الزمر » وصحها الباقون على معنى يضلوا الناس عن سبيله ، وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يضلون عن سبيل الله على اللزوم ، أى عاقبتهم إلى الإضلال والضلال ؛ فهذه لام العاقبة . (قُلْ تَتَّبِعُوا) وعيد لهم ، وهو إشارة إلى تهليل ما هم فيه من ملأ الدنيا إذ هو منقطع . (فَإِنْ مَصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ) أى مردكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم .

قوله تعالى : قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَعْجَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى إن أهل مكة بدلوا نعمة الله بالكفر ، فقل لمن آمن وحق عبوديته أن ﴿ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ يعنى الصلوات الخمس ، أى قل لهم أقيموا ، والأمر معه شرط مقدّر ، هـول : أطلع الله يدخلك الجنة ؛ أى إن أطلعته يدخلك الجنة ؛ هذا قول الفراء . وقال الزجاج : « يقيموا » مجزوم بمعنى اللام ، أى لقيموا فأسقطت اللام لأن الأمر دل على الغائب بـ « قل » . قال ويحتمل أن يقال : « يقيموا » جواب أمر محذوف ؛ أى قل لهم أقيموا الصلاة يقيموا الصلاة . ﴿ وَيَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ يعنى الزكاة ؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الجمهور : السر ما خفى والعلانية ما ظهر . وقال القاسم ابن يحيى : إن السر التطوع والعلانية الفرض ، وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة » ﴿ بَجُودًا عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ ﴾ تقدم فى « البقرة » أيضا . و « خلال » جمع خلة كقوله وقيل . قال :

* فَلَسْتُ بِمَقْلٍ لِلْخِلَالِ وَلَا قَالِي *

قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْجَرَ بِهِ مِنَ الشِّجَارِ رِزْقًا لَكُمْ وَخَرَّ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَخَرَّ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿٢٢٢﴾ وَخَرَّ لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبِينَ وَخَرَّ لَكُمْ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ﴿٢٢٣﴾ وَإِذْ أَنْتُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٢٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى أبداعها واخترعها على غير مثال سبق . ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من السحاب . ﴿ مَاءً فَأَنْجَرَ بِهِ مِنَ الشِّجَارِ ﴾ أى من الشجر

(١) راجع ج ٣ ص ٣٣٢ وما بعدها طيبة أول أو ثانية . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٦٦ وما بعدها

طيبة أول أو ثانية . (٣) قاله امرؤ القيس ، وصدر البيت :

* صرفت الهوى عن من خشية الردى *

(١١) ثمرات (رِزْقًا لَكُمْ) . (وَيَخْرُجُ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) تقدم معناه في «البقرة» .
 (وَيَخْرُجُ لَكُمْ الْأَنْهَارُ) يعني البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وترزعوا ، والبحار المسالحة
 لاختلاف المنافع من الجهات . (وَيَخْرُجُ لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَيْنِ) أى فى إصلاح
 ما يصلحان من النبات وغيره ، والدُّؤوب مرور الشيء فى العمل على عادة جارية . وقيل :
 دائبين فى السير امتثالاً لأمر الله ، والمعنى يجرى إلى يوم القيامة لا يفتران ؛ روى معناه عن
 ابن عباس . (وَيَخْرُجُ لَكُمْ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ) أى لتسكنوا فى الليل ، ولتبتغوا من فضله فى النهار ،
 كما قال : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » .

قوله تعالى : (وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) أى أعطاكم من كل مسؤل سألتموه شيئاً ؛
 مخفف عن الأخفش . وقيل : المعنى وأتاكم من كل ما سألتموه ، ومن كل ما لم تسألوه ،
 مخفف ، فلم نسأله شئاً ولا قرا ولا كثيراً من نعمه التى أبدأنا بها . وهذا كما قال :
 « سَرَّابِيلٌ يَفِيكُمُ الْحَرَّ » على ما يأتى . وقيل : « مِنْ » زائدة ؛ أى أتاكم كل ما سألتموه .
 وقرأ ابن عباس والضحاك وغيرهما « وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ » بالتثنية « مَا سَأَلْتُمُوهُ » وقد رويت
 هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقادة ؛ هى على النفى أى من كل ما لم تسألوه ؛ كالشمس
 والقمر وغيرهما . وقيل : من كل شئ ما سألتموه أى الذى سألتموه . (وَأَنْ تَعْبُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ)
 أى نعم الله لا تحصى ولا تطلقوا عدّها ، ولا تهوموا بحصرها لكثرتها ، كالسمع والبصر وتقويم
 الصور إلى غير ذلك من العافية والرزق ؛ وهذه النعم من الله ، فلم تبدلون نعمه الله بالكفر ؟ !
 وهلا استعتمت بها على الطاعة ؟ ! (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَفْ لُوْمٌ كَفَّارٌ) الإنسان لفظ جنس وأراد به
 الخصوص ؛ قال ابن عباس : أراد أبا جهل . وقيل : جميع الكفار .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي
 وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٦٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ
 تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا) (١) يعنى مكة وقد مضى في « البقرة » (١١) . (وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) أى أجعلنى جانباً عن عبادتها، وأراد بقوله : « بنى » بنيه من صلبه وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنماً . وقيل : هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له . وقرأ الجندري وصيبى « وَأَجْنِبْنِي » بقطع الألف والمعنى واحد ؛ يقال : جَنَيْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ ، وَأَجْنَبْتُهُ وَجَنَبْتُهُ إِيَّاهُ فَتَجَانَبْتُهُ وَأَجْنَبْتُهُ أَيْ تَرَكْتُهُ . وكان إبراهيم التَّيْمِيُّ يقول فى قصصه : من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول : « وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » كما عبدها أبى وقوى .

قوله تعالى : (رَبِّ إِنِّي أَخْضَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ) لما كانت سبباً للإضلال أضاف الفعل اليه مجازاً، فإن الأصنام جمادات لا تفعل . (مِّنْ تَبِعَنِي) فى التوحيد . (فَإِنَّهُ مِنِّي) أى من أهل دى . (وَمَنْ عَصَانِي) أى أصر على الشرك . (فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) قيل : قال هذا قبل أن يموت فله أن الله أن لا يفر أن يشرك به . وقيل : غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت . وقال مقاتل بن حيان : « وَمَنْ عَصَانِي » فى دون الشرك .

قوله تعالى : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٦٧﴾
فيه ست مسائل :

الأولى — روى البخارى عن ابن عباس : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ؛ اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبنوها إسماعيل وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس

(١) راجع ج ٢ ص ١١٧ وما بعدها طبعه ثانية . (٢) المطلق : النطاق وهو أن تلبس المرأة ثوباً ثم تشد وسطها بشئ ، وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال فلا تكثر فى ذيلها .

بها ماء، فوضعها هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قَتَّى إبراهيمُ منطلقا فبعثته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شيء، قالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت إذا لا يُضَيِّعُنَا، ثم رجعت، فأطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: «رَبِّ إِنِّي اسْكَنْتُ مِنْ دُرِّي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» حتى بلغ «يشكرون» وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا تقدما فى السَّقاء عطِشَ وعطِشَ آبُها، وجعلت تنظر إليه يَتَلَوَّى — أو قال يَتَلَبَّطُ^(١) — فأطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصِّفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، فهبطت من الصِّفا، حتى إذا بلغت الوادى، رفعت طرفَ دَرْعِها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادى، ثم أتت المروة فقامت عليه، فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات؛ قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فذلك سعى الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت: صِهْ! تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت: قد اسمعت إن كان عندك غَوَاثُ! فإذا حى بالملك عند موضع زمزم فَبَحَثْ بَعْقِيَه — أو قال بجناحه — حتى ظهر الماء، فجعلت تُخَوِّضُه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تنرف من الماء فى سِقَائِها وهو يَفُور بعدما تغرف؛ قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم — أو قال لو لم تغرف من الماء — لكانت زمزم عينا مَعِينَا» قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافى الضيعة فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضَيِّعُ أهله؛ وذكر الحديث بطوله.

(١) يَتَلَبَّطُ: يَتَمَرَّغُ. (٢) غَوَاثُ (بالفتح) كالتيات (بالكسر) من الإغاثَةِ وهى الإِغَاةُ؛ وقد روى بالضم والكسر. (٣) «وتخول بيدها هذا»: هو حكاية فعلها وهو من إطلاق القول على الفعل. (قسطانى).

مسئلة - لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا في طرح ولده وعياله بأرض مضربة أتكالا على العزيز الرحيم ، وأقتداء بفعل إبراهيم الخليل ، كما تقوله غلاة الصوفية في حقيقة التوكل ، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله في الحديث : الله أسرك بهذا ؟ قال : نعم . وقد روى أن سارة لما غارت من هاجر بعد أن ولدت لإسماعيل خرج بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة ، فروى أنه ركب البراق هو وهاجر والطفل بجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة ، وترك أبنته وأمه هناك وركب منصرفا من يومه ، فكان ذلك كله بوحى من الله تعالى ، فلما ولى دعا بضمن هذه الآية .

الثانية - لما أراد الله تأسيس الحال ، وتمهيد المقام ، وخطّ الموضوع للبيت المكرم ، والبلد المحرم ، أرسل الملك فبحث عن الماء ، وأقامه مقام الغذاء ، وفي الصحيح أن أبا ذر رضى الله عنه أحرأ به ثلاثين من يوم وإيلة ، قال أبو ذر : ما كان لى طعام إلا ماء زمزم فسميت حتى تكثرت عكنى ، وما أجد على كبدى تخفة جوع^(١) ، وذكر الحديث . وروى الدارقطني عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ماء زمزم لى شرب الدار قطنى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ماء زمزم لى شرب له إن شربته تشفى به شفاك الله وإن شربته لشبعك أشبعك الله به وإن شربته لقطع ظمئك قطعه وهى هزمة جبريل وسقيا الله لإسماعيل " . وروى أيضا عن عكرمة قال كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال : اللهم إنى أسألك علما نافعا ، ورزقا واسعا ، وشفاء من كل داء . قال ابن العرب : وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صححت نيته ، وسلمت طوبته ، ولم يكن به مكذبا ، ولا يشربه مجربا ، فإن الله مع المتوكلين ، وهو يفضح المجرمين . وقال أبو عبد الله محمد بن على الترمذى وحديث أبى رحمه الله قال : دخلت الطواف فى ليلة ظلماء فأخذنى من البول ما شغلنى ، فجعلت أعصر حتى أذانى ، وخفت إن خرجت من المسجد أن أطأ بعض تلك الأقدام ، وذلك أيام الحج ، فذكرت هذا الحديث ، فدخلت زمزم ففضلت منه^(٢) ، فذهب عنى إلى الصباح . وروى عن عبد الله بن عمرو : وإن فى زمزم عينا فى الجنة من قبل الركن .

(١) تخفة الجوع : وقته وهزاله . (٢) هزمة جبريل : أى شربها بربطه فنع الماء .

(٣) تفضل : أكثر من الشرب حتى تمدد بجنبه وأضلعه .

الثالثة — قوله تعالى : « وَمِنْ ذُرِّيَّتِي » « مِنْ » في قوله تعالى : « من ذريتي » للتبويض أى أسكنت بعض ذريتي ، يعنى لاسماعيل وأمه ، لأن إسحق كان بالشام . وقيل : هى صلة ؛ أى أسكنت ذريتي .

الرابعة — قوله تعالى : « عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ » يدل على أن البيت كان قديماً على ما روى قبل الطوفان ، وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة » . وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محرم ، أى يحرم فيه ما يستباح فى غيره من جماع وأستحلال . وقيل : محرم على الجلبارة ، وأن تنهك حرمة ، ويستخف بمحقه ؛ قاله قتادة وغيره . وقد مضى القول فى هذا فى « المائدة »^(٢) .

الخامسة — قوله تعالى : « رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » خَصَّهَا من جملة الدين لفضلها فيه ، ومكانها منه ، وهى عهد الله عند العباد ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « خمس صلوات كتبهن الله على العباد » الحديث . واللام فى « ليقموا الصلاة » لام كي ؛ هذا هو الظاهر فيها وتكون متعلقة بـ « أسكنت » ويصح أن تكون لام أمر ، كأنه رَغِبَ إلى الله أن يوفقههم لإقامة الصلاة .

السادسة — تَضَمَّنَتْ هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ؛ لأن معنى « رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقموا الصلاة فيه . وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة فى المسجد الحرام أفضل من الصلاة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بمائة صلاة ، واحتجوا بحديث عبد الله بن الزبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة » قال الإمام الحافظ أبو عمر : وأستند هذا الحديث حبيب المسلم عن عطاء بن أبى رباح عن عبد الله

(١) راجع ج ٢ ص ١٢٠ وما بعدها طبع ثانية . (٢) راجع ج ٦ ص ٣٢٥ طبع أولى مرة ثانية .

ابن الزبير وجوده ، ولم يخلط في لفظه ولا في معناه ، وكان ثقة . قال ابن أبي خيثمة سمعت يحيى بن معين يقول : حبيب المعلم ثقة . وذكر عبد الله بن أحمد قال سمعت أبي يقول : حبيب المعلم ثقة ما أصح حديثه . وسئل أبو زرعة الرازي عن حبيب المعلم فقال : بصرى ثقة . قلت — وقد تخرج حديث حبيب المعلم هذا عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن الزبير عن النبي صلى الله عليه وسلم الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم التميمي البستي في المسند الصحيح له ، فالحديث صحيح وهو الحجّة عند التنازع والاختلاف ، والحمد لله . قال أبو عمر : وقد روى عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل حديث ابن الزبير ، رواه موسى الجهمي عن نافع عن ابن عمر ، وموسى الجهمي ثقة ، أثنى عليه القطان وأحمد ويحيى وجماعتهم ، وروى عنه شعبة والثوري ويحيى بن سعيد ، وروى حكيم بن سيف ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم بن عطاء بن أبي رباح ، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف فيما سواه " وحكيم بن سيف هذا شيخ من أهل الرقة قد روى عنه أبو زرعة الرازي ، وأخذ عنه ابن وضاح ، وهو عندهم شيخ صدوق لا بأس به . فإن كان حفيظ فهما حديثان ، وإلا فالقول قول حبيب المعلم . وروى محمد بن وضاح ، حدثنا يوسف بن عدي عن عمر بن عبيد عن عبد الملك عن عطاء بن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل " قال أبو عمر : وهذا كله نص في موضع الخلاف قاطع له عند من أئيم رشه ، ولم يمل به عصيته . وذكر ابن حبيب عن مطرف وعن أصبغ عن ابن وهب أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم على ما في هذا الباب . وقد اتفق مالك وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يبرز لها في كل بلد إلا مكة فإنها تُصلّى في المسجد الحرام . وكان عمر وعلي وآبن مسعود وأبو الدرداء وجابر يفضلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم ، وإلى هذا ذهب الشافعي ، وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين ، وروى مثله عن مالك ؛ ذكر ابن وهب في جامعه عن مالك أن

آدم عليه السلام لما أبط إلى الأرض قال : يارب هذه أحب إليك أن تُعبد فيها ؟ قال : بل مكة . والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيل المدينة ، واختلف أهل البصرة والبنغازيون في ذلك فطائفة تقول مكة ، وطائفة تقول المدينة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْتِدَىٰ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ الأفتدة جمع فؤاد وهي القلوب . وقد يُعبر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر :

وإن فؤاداً فادى بصباية * إليك على طول المدى لصبور

وقيل : جمع فؤد ، والأصل أؤدة ، فقد تمت الفاء وقلبت الواو ياء كما هي ، فكأنه قال : واجعل وفؤدا من الناس تهوى إليهم ؛ أي تزغ ؛ يقال : هوى نحوه إذا مال ، وهوت الناقة تهوى هويها فهي هاوية إذا علت عدوا شديدا كأنها في هواء برز ، وقوله : « تهوى إليهم » مأخوذ منه . قال ابن عباس ومجاهد : لو قال أفتدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس ، ولكن قال : « من الناس » فهم المسلمون ؛ فقوله : « تهوى إليهم » أي تحن إليهم ، وتحن إلى زيارة البيت . وقرأ مجاهد « تهوى إليهم » أي تهواهم وتجلهم . ﴿ وَأَرْزُقْهُمْ مِنْ ثَمَرَاتِ أَلْهَمُهُمْ نَشْرُوكُونَ ﴾ فاستجاب الله دعاءه ، وأثبت لهم بالطائف سائر الأشجار ، وبما يجب إليهم من الأمصار . وفي صحيح البخاري عن ابن عباس الحديث الطويل وقد ذكرنا بعضه : « جاء إبراهيم بعد ما تزوج اسمعيل يطالع تركته فلم يجد اسمعيل ، فسأل أمراة عنه فقالت : خرج يتبنى لنا ، ثم سأله عن عيشهم وحياتهم فقالت : نحن بشرٌ نحن في ضيق وشدة ؛ فشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرقي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه ، فلما جاء اسمعيل كأنه أتى شيئا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألني عنك فآخبرته ، وسألني كيف عيشتنا فأخبرته أنا في جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : أصرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بباك ؛ قال : ذاك أبي وقد أصرني أن أفارقك الحق ؛ فأهلك ؛ فطلقها وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجدهم ، ودخل على أمراة فسألها عنه فقالت : خرج يتبنى لنا . قال :

(١) أي كأنه أبصر رأى شيئا لم يهده .

كيف أتم ؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت : نحن بغير وسعة وأثنت على الله . قال : ما طعامكم ؟ قالت : اللهم . قال فما شربكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم دعا لم فيه " قال : فهما لا يتخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقه ؛ وذكر الحديث . وقال ابن عباس : قول إبراهيم « فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم » سأل أن يجعل الله الناس يهويون السكني بمكة ، فيصير بيتا محزما ، وكل ذلك كان والحمد لله . وأول من سكنه جرهم . ففى البخارى - بعد قوله : وإن الله لا يضيع أهله - وكان البيت مرتفعا من الأرض كالراية تأتيه السيول فتأخذ من يمينه ومن شماله ، وكذلك حتى مرت بهم رقة من جرهم فافلين من طريق كذا ، فزلوا بأسفل مكة ، فأروا طائرا عافيا فقالوا : إن هذا الطائر ليؤد على ماء ! تعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ؛ فأرسلوا جريا^(٢) أو جريين فإذا هم بالماء ، فأخبروهم بالماء فاقبلوا . قال : وأتم إسماعيل عند الماء ؛ فقالوا أئاذنين لنا أن نزل عندك ؟ قالت : نعم ولكن لا حق لكم في الماء . قالوا : نعم . قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " [فألقى^(٣)] ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس " فزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، شب الغلام ، ومات أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته ؛ الحديث .

قوله تال : رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٣﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤﴾

(١) التالف هنا هو الذى يتردد على الماء ولا يفيض . (٢) الجرى : الرسول .

(٣) ألقى أى وجد ذلك الحى الجرهمي أم إسماعيل ، ألقى استقذان جرهم بالزول أم إسماعيل والحال أنها تحب الأنس ؛ فقابل ألقى (ذلك) و(ذلك) إشارة إلى الاستقذان .

قوله تعالى : « رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ » أى ليس يخفى عليك شيء من أحوالنا . وقال ابن عباس ومقاتل : تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أسيكا بواد غير ذى زرع . « وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » قيل : هو من قول إبراهيم . وقيل : هو من قول الله تعالى لما قال إبراهيم : « رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ » قال الله : « وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » . « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ » أى على كبر سنى وسنّ أمراى ؛ قال ابن عباس : ولده إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسمحق وهو ابن مائة وأثنتي عشرة سنة . وقال سعيد بن جبير : بُشِّرَ إبراهيمُ بإسمحق بعد عشر ومائة مسنة . « (إِنْ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) » . قوله تعالى : « (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ) » أى من التائبين الى الإسلام والتزام أحكامه . « (وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) » أى وأجعل من ذريعتى من يقيمها . « (رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ) » أى عبادتى كما قال : « وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » . وقال عليه السلام : « الدُّعَاءُ خُطُّ الْعِبَادَةِ » وقد تقدم في «البقرة» . « (رَبَّنَا آغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) » قيل : استغفر إبراهيم لوالديه قيل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله قال القُشَيْرِيُّ : ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر صهره في استغفاره لأبيه دون أمه .

قلت : وصل هذا قراءة سعيد بن جبير « رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ » يعنى أباه . وقيل : استغفر لهما طمعا في إيمانهما . وقيل : استغفر لهما بشرط أن يُسَلِّما . وقيل : أراد آدم وحواء . وقد روى أن العبد إذا قال : اللهم آغفر لى ولوالدى وكان أبواه قد ماتا كافرين أنصرفت المغفرة إلى آدم وحواء لأنهما والدا الخلق أجمع . وقيل : إنه أراد ولديه إسماعيل وإسمحق . وكان إبراهيم التَّخَى يقرأ « وَلِوَالِدَيَّ » يعنى أبنيه ، وكذلك قرأ يحيى بن يعمر ذكره الماوردى والنحاس . « (وَلِلْمُؤْمِنِينَ) » قال ابن عباس : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : «لِلْمُؤْمِنِينَ» كلهم وهو أظهر . « (يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) » أى يوم يقوم الناس للحساب .

قوله تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ
لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ
إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْغَلَتُهُمْ هَوَاهُ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ) وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أعجبه من أفعال المشركين وغافلهم دين إبراهيم ؛ أى أصبر كما صبر إبراهيم ، وأعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنة الله إهمال العصاة مدة . قال ميون بن يهوان : هذا وصيد للظالم ، وتمزية للظالم . (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ) يعنى مشركى مكة يمهلهم ويؤخر مذابهم . وقراءة العامة « يؤخرهم » بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ » . وقرأ الحسن والسلمي وروى عن أبي عمرو أيضا « يؤخرهم » بالنون للتعظيم . (لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) أى لا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم ، قاله الفراء . يقال : شَخَصَ الرَّجُلُ بَصَرَهُ وَتَخَصَّصَ الْبَصَرُ نَفْسَهُ أى سَمَا وَطَمَحَ من هول ما يرى . قال ابن عباس : تَشْخَصُ أَبْصَارُ الْخَلَائِقِ يَوْمَئِذٍ إِلَى الْهَوَاءِ لَشِدَّةِ الْحَيْرَةِ فَلَا يَرْمَضُونَ . (مُهْطِعِينَ) أى مسرعين ؛ قاله الحسن وقنادة وسعيد بن جبير ؛ مأخوذ من أهطع يهطع إهطاعا إذا أسرع . ومنه قوله تعالى : « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ » أى مسرعين . قال الشاعر :

بِدَجَلَةٍ دَارَهُمْ وَلَقَدْ أَرَاهُمْ * بِدَجَلَةٍ مُهْطِعِينَ إِلَى السَّامِعِ

وقيل : المهطع الذى ينظر في ذلّ وخشوع ؛ أى ناظرين من غير أن يظرفوا ؛ قاله ابن عباس ، وقال مجاهد والضحاك : « مهطعين » أى مديى النظر . وقال النحاس : والمعروف في اللغة أن يقال : أهطع إذا أسرع ؛ قال أبو عبيد : وقد يكون الوجهان جميعا يعنى الإسراع مع أدامة النظر . وقال ابن زيد : المهطع الذى لا يرفع رأسه . (مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ) أى رافعى رءوسهم ينظرون في ذلّ . وإقناع الرأس رفعه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . قال ابن عرفة والقُتَيْبِيُّ وغيرهما : المقنع الذى يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه ؛ ومنه الإقناع في الصلاة (١)

(١) الإقناع في الصلاة أن يرفع المصل رأسه حتى يكون أعلى من ظهره .

وأقنع صوته إذا رفعه . وقال الحسن : وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد .
وقيل : ناكسى رؤوسهم ؛ قال المهدوي : ويقال أقنع إذا رفع رأسه ، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلة
وخضوعا ، والآية محتملة الوجهين ، وقاله المبرد ، والقول الأول أعرف في اللغة ؛ قال الرازي :
أَنفَضَ نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَقْنَعَا * كَأَنَّمَا أَبْصَرَ شَيْئًا أَظْمَعَا

وقال الشَّيْخُ بصف إبلا :

يُبَايِرُ كُنَّ الْعِضَاءَ بِمُقْتَنَاتٍ * نَوَاجِدُهُنَّ كَالْحَدِيدِ الْوَقِيعِ

يعنى : برعوس مرفوعات إليها لتناولهن . ومنه قيل : مقتنة لارتفاعها . ومنه قَنِع
الرجل إذا رَضِيَ ؛ أى رفع رأسه عن السؤال ، وقَنِع إذا سأل أى أتى ما ينقُص منه ؛ عن
النحاس . ومن مُقْنَع أى معطوفة أسنانه إلى داخل . ورجل مُقْنَعٌ بالتشديد ؛ أى عليه بيضة ؛
قاله الجوهري ، (لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ) أى لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي
شاحصة النظر . يقال : طَرَفَ الرَّجُلُ يَطْرِفُ طَرْفًا إذا أَطْبَقَ جَفَنَهُ عَلَى الْآخَرِ ، نَسَى النَّظَرَ
طَرْفًا لأنه به يكون . والطَّرْفُ العين . قال عترة :

وَأَغْضُ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارِي * حَتَّى يُوَارِيَ جَارِي مَا وَاهَا

وقال جميل :

وَأَقْصِرْ طَرْفِي دُونَ جُحِيلِ كَرَامَةٍ * لِحَيْلٍ وَلِلطَّرِيفِ الَّذِي أَنَا قَاصِرُهُ

(وَأَقْصِرْهُمْ هَوَاءً) أى لا تغنى شيئا من شدة الخوف . ابن عباس : خالية من كل خير .
السدي : خرجت قلوبهم من صدورهم فنشبت في حلقهم ؛ وقال مجاهد ومرة وابن زيد :
خاوية خربة متخرقة ليس فيها خير ولا عقل ؛ كقولك في البيت الذى ليس فيه شيء :
إنما هو هواء ، وقاله ابن عباس . والهواء في اللغة المحجوف الخالي ؛ ومنه قول حسان :

أَلَا أُلْبِغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي * فَأَنْتَ جُحُوفٌ تُحِبُّ هَوَاءً

(١) أنفض رأسه : حركة . (٢) العضاء : كل شجر ينظم له شوك . والحدأ (فتح الحاء) وقيل (بكرها)

جمع حدأة ، وهى الفأس ذات الرأسين ؛ والوقيع : المحدد . شبه الشاعر أسنان الإبل بالقوس في الحدة .

(٣) المحوف والمجوف : الجبان الذى لا قلب له . والنخب : من النخب بمعنى التزع . يقال : رجل نجب
أى جبان ؛ كأنه متزع الفؤاد .

وقال زهير يصف ناقة صغيرة الرأس :

كَانَ الرَّحْلُ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ^(١) * مِنَ الظَّلْبَانِ جُجُجُوهُ هَوَاءٌ

فارغ أى خال ؛ وفى التثنية : « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُؤَمَّى فَارِغًا » أى من كل شئ إلا من هم موسى . وقيل : فى الكلام إضمار ؛ أى ذات هواء وخلاء .

قوله تعالى : وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آتِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ^(٢) أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (وَأَنْذِرِ النَّاسَ) قال ابن عباس : أراد أهل مكة . (يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ) وهو يوم القيامة ؛ أى خوفهم ذلك اليوم . وإنما خصهم بيوم العذاب وإن كان يوم الثواب لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصي . (فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى فى ذلك اليوم (رَبَّنَا آتِنَا) أى أسئلهنا . (إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق فى الآخرة . (نَجِبْ دَعْوَتَكَ) أى إلى الإسلام (وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ) . فيجابوا : (أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ) يعنى فى دار الدنيا . (مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ) قال مجاهد : هو قسم قريش أنهم لا يبعثون . ابن جريج : هو ما حكاه عنهم فى قوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ مَيُوتٍ » . « مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيه تأويلان : أحدهما - ما لكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة ؛ أى لا تبعثون ولا تمحرون ؛ وهذا قول مجاهد . الثانى - « ما لكم من زوال » أى من العذاب . وذكر البيهقي عن محمد بن كعب القرظي قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله فى أربعة ، فإذا كان فى الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً ، يقولون : « رَبَّنَا آمَنَّا أَكْثَرَيْنِ وَأَحْصَيْنَا أَكْثَرَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » فيجيبهم الله « ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » .

(١) « فوق صعل » : شبه الناقة فى مرضها بالظلم ، فكان رحلها فوقه . والصعل : الصغير الرأس ، وبذلك يوصف الظلم .

ثم يقولون : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » فيجيبهم الله تعالى « فَذُوقُوا يَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخْرِنا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَفْجِجِ الرُّسُلَ » فيجيبهم الله تعالى « أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » فيجيبهم الله تعالى : « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » . ويقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » فيجيبهم الله تعالى : « آخَسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّبُوا » فلا يتكلمون بعدها أبداً ، خرجه ابن المبارك في « دلائقه » بأطول من هذا — وقد كتبه في كتاب « النذكرة » — وزاد في الحديث « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ » . وقد مكروا مكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » قال هذه الثالثة ، وذكر الحديث وزاد بعد قوله : « آخَسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّبُوا » فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء ، وأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم في وجه بعض ، وأطبقت عليهم ؛ قال : لخذني الأثر ، ابن أبي الأثر ، أنه ذكر له أن ذلك قوله : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » . فوله تعالى : « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ٥٥ » وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ٥٦ »

قوله تعالى : « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ » أى في بلاد ثمود ونحوها فهلا اعتبرتم بمساكنهم ، بعد ما تبين لكم ما فعلنا بهم ، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال في القرآن . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ « وَتَبَيَّنَ لَكُمْ » بنون واجزء على أنه مستقبل ومعناه الماضي ، وليناسب قوله : « كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ » . وقراءة الجماعة « وَتَبَيَّنَ » وهى مثلها في المعنى ؛ لأن ذلك لا يتبين لهم إلا بتبيين الله لإياهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ أى بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة؛ عن ابن عباس وغيره . ﴿ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَيَتَوَلَّى مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ « إن » بمعنى « ما » أى ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهنه ؛ « وإن » بمعنى « ما » فى القرآن فى مواضع خمسة : أحدها هذا . الثانى — « فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ » . الثالث — « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَآتَيْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا إِى مَا سَاءَ » . الرابع — « قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ » . الخامس — « وَلَقَدْ مَكَنَاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ » . وقرأ الجماعة « وإن كان » بالنون وقرأ عمرو بن عليّ وابن مسعود وأبو « وإن كاد » بالذال . والعامة على كسر اللام فى « لتزول » على أنها لام المحو وفتح اللام الثانية نصبا . وقرأ بن محيصن وابن جرير والكسائي « لتزول » بفتح اللام الأولى على أنها لام الابتداء ورفع الثانية « وإن » مخففة من الثقيلة ، ومعنى هذه القراءة استعظام مكرهم ، أى ولقد عظّم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه ؛ قال الطبري : الاختيار القراءة الأولى ؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة ؛ قال أبو بكر الأنباري : ولا حجة على مصحف المسلمين فى الحديث الذى حدّثناه أحمد بن الحسين : حدّثنا عثمان بن أبي شيبة حدّثنا وكيع بن الجراح عن إسرائيل عن أبي إسحق عن عبد الرحمن بن دانييل قال سمعت على بن أبي طالب رضى الله عنه يقول : إن جبّارا من الجبابرة قال لا انتهى حتى أعلم من فى السموات ، فعمد إلى فراخ نُسور ، فأمر أن تطعم اللحم ، حتى أشتدت وعَصَلَتْ وأمتلجت أمر بأن يُخَذَّ تابوتٌ يسمع فيه رجلين ، وأن يجعل فيه عصا فى رأسها لم شديد حرته ، وأن يُسْتَوْتَق من أرجل النُسور بالأوتاد ، وتُشَدَّ إلى قوائم التابوت ، ثم جلس هو وصاحب له فى التابوت وأثَارَ النُسور ، فلما رأت اللحم طلبته ، بلعلت ترفع التابوت حتى بلغت به ما شاء الله ؛ فقال الجبّار لصاحبه : أفتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : أرى الجبال كأنها ذهاب ، فقال : أغلق الباب ، ثم صعدت بالتابوت ما شاء الله أن تصعد ، فقال الجبّار لصاحبه : أفتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : ما أرى إلا السماء وما تزداد منا إلا بُعْدا ، فقال : تَكْسُ العَصَا فنكسها ، فاهتضت النُسور . فلما وقع التابوت على الأرض سمعت له هتة كادت الجبال تزول عن

مراتبها منها؛ قال : فسمعت علياً رضي الله عنه يقرأ « وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَتَرُولٌ » بفتح اللام الأولى من « لتزول » وضم الثانية . وقد ذكر الثعلبي هذا الخبر بمعناه ، وأن الجبار هو التزود الذي حاج إبراهيم في ربه ، وقال عكرمة : كان معه في التابوت غلام أمرد ، وقد حمل القوس والنبل فرمى بهما فعاد إليه ملطخاً بالدماء وقال : كُفَيْتُ نَفْسَكَ إِلَهَ السَّيَاءِ . قال عكرمة : تَلَطَّخَ بدم سمكة من السماء ، قذفت نفسها إليه من بحر في الهواء معلق . وقيل : طائر من الطير أصابه السهم ثم أمر نمrod صاحبه أن يضرب العصا وأن يُنَكِّسَ اللحم ، فهبطت النسور بالتابوت ، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنسور ففزعت ، وظنت أنه قد حدث بها حدث من السماء ، وأتت الساعة قد قامت ، فذلك قوله : « وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَتَرُولٌ مِنْهُ الْجِبَالُ » . قال القشيري : وهذا جائز بتقدير خلق الحياة في الجبال . وذكر المسوردي عن ابن عباس : أن التزود بن كنعان بن الصرح في قرية الرّس من موائد الكوفة ، وجعل طولها خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعاً ، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعاً ، وصعد منه مع النسور ، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء أخذها حصناً ، وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه ، فأتى الله بنيانه من القواعد ، فداعى الصرح إليهم فهلكوا جميعاً ، فهذا معنى « وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ » وفي الجبال التي عتّى زوالها بمكرهم وجهان : أحدهما — جبال الأرض . الثاني — الإسلام والقرآن ؛ لأنه لبوته وروسوخه كالجبال . وقال القشيري : « وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرَهُمْ » أي هو عالم بذلك فيجازيهم ، أو عند الله جزاء مكرهم لحذف المضاف . « وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَتَرُولٌ مِنْهُ الْجِبَالُ » بكسر اللام ؛ أي ما كان مكرهم مكرًا يكون له أثر وخطر عند الله تعالى ، فالجبال مثل لأمر النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ » في تقديرهم « لَتَرُولٌ مِنْهُ الْجِبَالُ » وتؤثر في إبطال الإسلام . وقرئ « لَتَرُولٌ مِنْهُ الْجِبَالُ » بفتح اللام الأولى وضم الثانية ؛ أي كان مكرًا عظيمًا تزول منه الجبال ، ولكن الله حفظ رسول الله صلى الله

(١) تعقب هذه القصة ابن حطية في تفسيره ببيان حكاها عن الطبري بقوله : « وذلك عندي لا يصح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفي هذه القصة ضعف من طريق المعنى ، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسراكا وصف ، وبعد أن ينزل أحد بنفسه في مثل هذا » . (٢) عبارة الثعلبي في « قصص الأنبياء » : « كُفَيْتُ شَفْلَ إِلَهٍ السَّيَاءِ » .

عليه وسلم، وهو كقوله تعالى : « وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرًا كَبَرًا » والجبال لا تزول ولكن العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون .

قوله تعالى : فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ خَائِفًا فِيهِ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

ذُو أَنْتِقَامٍ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ خَائِفًا فِيهِ رَسُولُهُ) اسمُ الله تعالى و « مخلف » مفعولا تحسب ؛ و « رَسُولُهُ » مفعول « وَفِيهِ » وهو على الاتساع، والمعنى : مخلف وعده رسله ؛ قال الشاعر :

تَرَى الثَّوْرَ فِيهَا مُدْخِلَ الظِّلِّ رَأْسُهُ * وَسَائِرُهُ يَأْتِي إِلَى الشَّمْسِ أَجْمَعِ^(١)

قال القتيبي : هو من المقدم الذي يوضحه التأخير، والمؤخر الذي يوضحه التقديم، وسواء في قولك : مخلف وعده رسله ، ومخلف رسله وعده . (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ) أى من أعدائه . ومن أسمائه المنتقم وقد بيناه في « الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » .

قوله تعالى : يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَهَزُوا لِلَّهِ

الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٥٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥٩﴾ سَرَّابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٦٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٦١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : (يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ) أى أذكر يوم تبدل الأرض، فتكون متعلقة بما قبله . وقيل : هو صفة لقوله : « يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » . واختلف في كيفية تبديل

(١) يصف الشاعر هامة عند ألبات النيران إلى كنفها ، ترى الثور مدخلا لرأسه في ظل كاسه لما يجده من الحرارة، وسائرُه بارز الشمس .

الأرض، فقال كثير من الناس : إن تبذل الأرض عبارة عن تغير صفاتها، وقسوية آكامها، ونسف جبالها، ومد أرضها؛ ورواه ابن مسعود رضى الله عنه؛ أخرجه ابن ماجه في سننه وذكره ابن المبارك من حديث شهر بن حوشب، قال حدثني ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة مُدَّت الأرض مدَّ الأديم وزيد في سمعها كفا وكفا؛ وذكر الحديث . وروى مرفوعا من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "تُبذل الأرض غير الأرض فيبسطلها ويمسدها مد الأديم العكاظي" لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ثم يزرع الله الخلق زجرة فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأولى [من كان في بطنها ففى بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها] "ذكره الفزوني" . وتبديل السماء تكوير شمسها وقمرها، وتناثر نجومها؛ قاله ابن عباس . وقيل : اختلاف أحوالها، فرة كالمهل ومرة كاللذان؛ حكاه ابن الأنباري؛ وقد ذكرنا هذا الباب مبينا في كتاب «التذكرة» وذكرنا ما للعالماء في ذلك، وأن الصحيح إزالة هذه الأرض حسب ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم . روى مسلم عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بغاه حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك؛ وذكر الحديث، وفيه : فقال اليهودي "أين يكون الناس يوم تبذل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "في الظلمة دون الجسر"^(١) وذكر الحديث . ونخرج عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : «يوم تبذل الأرض غير الأرض والسموات» فأين يكون الناس يومئذ؟ قال : "على الصراط" أخرجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء، وأخرجه الترمذي عن عائشة وأنها هي السائلة، قال : هذا حديث حسن صحيح؛ فهذه الأحاديث تنص على أن السموات والأرض تبذل وتزال، ويخلق الله أرضا أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجسر . وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه

(١) أديم عكاظي : منسوب إلى عكاظ، وهو ما حل إليها نبيجها . وعكاظ : اسم سوق من أسواق الجاهلية مشهورة كانت بقرب مكة . (٢) عبارة الأمل هنا نافعة ومحرقة، والزيادة والتصويب من تفسير الطبري وكتاب «التذكرة» للؤلؤ . (٣) الجسر : الصراط .

وسلم: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّخْلِ لَيْسَ فِيهَا عَمَلٌ لِأَحَدٍ». وقال جابر: سألت أبا جعفر محمد بن علي عن قول الله عز وجل: «يَوْمَ تَبْدِلُ الْأَرْضَ خَيْرِ الْأَرْضِ» قال: تَبْدِلُ خُبْرَةً يَأْكُلُ مِنْهَا الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثم قرأ «وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ». وقال ابن مسعود: إنها تبديل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يُعْمَلْ عليها خطيئة. وقال ابن عباس: بأرض من فضة بيضاء. وقال علي رضي الله عنه: تبديل الأرض يومئذ من فضة والماء من ذهب وهذا تبديل العين، وحسبك. ((وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)) أى من قبورهم، وقد تقدّم.

قوله تعالى: ((وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ)) وهم المشركون. ((يَوْمَئِذٍ)) أى يوم القيامة. ((مُقَرَّنِينَ)) أى مشدودين ((فِي الْأَصْفَادِ)) وهى الأغلال والقيود، واحداها صَفْدٌ وَصَفْدٌ. ويقال: صَفَّدْتُهُ صَفَّدَا أى قيدته والكم صَفَّدٌ، فإذا أردت التكثير قلت: صَفَّدْتُهُ تَصْفِيدَا، قال عمرو ابن كلثوم:

فَأَبَوْا بِالنَّهَابِ وَبِالسَّبَايَا * وَأَبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفِّدِينَ

أى مقيدينا. وقال حسان:

مِنْ كُلِّ مَأْسُورٍ يُسَدُّ صَفَادُهُ * صَفِيرًا إِذَا لَاقَى الْكَرْهَةَ حَامٍ

أى غلّه. وأصْفَدْتُهُ إصْفَادَا أعطيته. وقيل: صَفَّدْتُهُ وَأَصْفَدْتُهُ جَارِيَانٍ فِي الْقَيْدِ وَالْإِعْطَاءِ جَمِيعًا، قال النابغة:

* فَلَمْ أَعْرِضْ أَبَيْتَ اللَّعْنِ بِالْمَصْفِدِ * ((١٢))

فَالصَّفْدُ الْمَطَاءُ لِأَنَّهُ يُقَيَّدُ وَيُعِيدُ، قال أبو الطيب:

وَقَيَّدْتُ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ حَبَّةً * وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقِيدَا ((١٣))

(١) النقي: الدقيق الحواري. والحواري: ما حوّر أى بطن. والهم الأثر.

(٢) معنى أبوت اللعن: أى أبوت أن تأتي شيئا تلحن عليه، وصدر البيت:

* هَذَا الشَّاءُ إِنْ تَسَمِعَ لِقَائَهُ *

(٣) القرا (بالفتح): الدار ونواحيها، وكل ما استترت به، تقول: أنا في ذرا فلان أى في كنفه وسره.

قيل : يقرن كل كافر مع شيطان في غُل ، بيانه قوله : « أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » .
يعنى قرناءهم من الشياطين . وقيل : إنهم الكفار يجمعون في الأصفاة كما اجتمعوا في الدنيا
على المعاصي . (سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قِطْرَانٍ) أى قصصهم ، عن ابن دُرَيْد وغيره ، واحدها سِرْبَالٌ ،
والفعل سَرَبْتُ وَسَرَبْتُ ضَرَى ، قال كعب بن مالك :

تَلَقَّيْتُكُمْ حُصْبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهْمٌ * مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ فِي الْحَبِجَا سَرَّابِلُ

« مِنْ قِطْرَانٍ » يعنى قطران الإبل الذى تُثَبِّأ به ؛ قاله الحسن . وذلك أبلغ لاشتعال النار فيهم .
وفى الصحيح أن النائحة إذا لم تُنَبِّ قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سِرْبَالٌ من قطران
ويزرع من جَرَب . وروى عن حماد أنهم قالوا هو الشَّحَاس . وقرأ عيسى بن عمر : « قَطْرَانٍ »
بفتح القاف وتسكين الطاء ، وفيه قراءة ثالثة : كسر القاف وحزم الطاء ؛ ومنه قول أبى النجم :
جَوْنٌ كَأَنَّ السَّرَقَ الْمُتَوَحَّاهُ * لَيْسَهُ الْقِطْرَانُ وَالْمُسُوحَا

وقراءة رابعة : « مِنْ قِطْرَيْنِ » رويت عن ابن عباس وأبى هريرة وعكرمة وسعيد بن جبيرة
وبعقوب ؛ والقِطْرُ الشحاس والصُّفْرُ المذاب ؛ ومنه قوله تعالى : « أَتَوْنِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا » .
والآن : الذى قد أتتهى إلى حره ؛ ومنه قوله تعالى : « وَبَيْنَ حَيْمِ آدَمَ » (وَتَشَى)
أى تضرب (وَجُوهَهُمُ النَّارُ) فَتَشِيهَا . (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ) أى بما كسبت .
(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) تَقْدِم .

قوله تعالى : (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ) أى هذا الذى أنزلنا إليك بلاغ ؛ أى تبليغ وعظة .
(وَلِيُنذِرُوا بِهِ) أى ليخوفوا عقاب الله عز وجل . وقرئ : « وَلِيُنذِرُوا » بفتح الياء والذال ،
يقال : تَذَرْتُ بالشئ أَثَرًا إذا علمت به فاستعددت له ، ولم يستعملوا منه مصدرا كما لم يستعملوا
من عسى وليس ، وكأنهم استغنوا بأن والفعل كقولك : سَرَرْتُ أَنْ تَذَرْتُ بالشئ . (وَلِيَعْلَمُوا)
أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ) أى وليعلموا وحدانية الله بما أقام من الحجج والبراهين . (وَلِيَذَّكَّرُ أُولُو

(١) تنح الرق تخرج من الجله . (٢) « قطره » : ضبطه فى « روح المعاني » بفتح القاف وكسر الطاء وتونين
الراء ، ومثله فى « البحر المحیط » ، وضبطه بفتح القاف وكسرهما مع سكون اللام ، ففيه ثلاث لغات .

الْأَنْبِيَاءُ) أى وليتَعظ أصحاب العقول . وهذه اللامات فى و « ليندروا » و « ليعلموا » .
و « ليدكر » متعلقة بمجنوف ؛ التقدير : ولذلك أُنزلناه . وروى يمان بن رثاب أن هذه
الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وسئل بعضهم هل لكتاب الله عنوان ؟
فقال : نعم ؛ قيل : وأين هو ؟ قال قوله تعالى : « هذا بلاغ للناس ولينذروا به »
إلى آخرها . تم تفسير سورة إبراهيم عليه السلام والحمد لله .



ثم الجزء التاسع من تفسير القرطبي
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء العاشر، وأوله :
سورة « الحجر »



كُتِبَ طبع الجزء التاسع من كتاب "الجامع لأحكام القرآن للقرطبي"
بمطبعة دار الكتب المصرية في يوم الثلاثاء ٨ ذو القعدة سنة ١٣٥٨
(١٩ ديسمبر سنة ١٩٣٩) م

مجلد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨/٧٢/٥٠٠٠)

دَارُ الْكِتَابِ الْمِصْرِيَّةِ

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَحْمَدَ الْأَنْصَارِيِّ الْقُرْطُبِيِّ

الجزء العاشر

المطبعة

مطبعة دار الكتاب المصرية

١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م

الطبعة الثانية مطبعة دار الكتب المصرية

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

فهرس الجزء العاشر

تفسير سورة الحجر

صفحة

- ١ تفسير قوله تعالى : « أَرَأَيْتَ آيَاتِ الْكُتُبِ وَفَرَّانِ مَبِينِ » ١
- ١ تفسير قوله تعالى : « رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ... » الآية . الكلام على « رُبَّمَا »
تفسير قوله تعالى : « ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ ... » فيه مسألتان :
- ٢ بيان أن الآية منسوخة بالسيف . النهى عن طول الأمل والحرص على الدنيا .
- ٣ تفسير قوله تعالى : « وما أَهْلَكَا مِنْ قَرْيَةٍ ... » الآيات ٣
- تفسير قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر ... » الآيات . بيان أن الله تعالى حفظ القرآن من أن يزداد فيه أو ينقص منه ، فلم يزل محفوظا إلى اليوم ٥
- ٦ تفسير قوله تعالى : « ولقد أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ... » الآية . ما جاء في معنى « الشَّيْعِ » .
- تفسير قوله تعالى : « كَذَلِكَ نَسُكُّكَ فِي قُلُوبِ ... » الآيات . اختلاف العلماء في عود الضمير ، هل هو عائد على القرآن ، أو على الضلال والشرك والاستهزاء .
- ٧ تفسير قوله تعالى : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ ... » الآيات . الكلام في عود الضمير في قوله « عَلَيْهِمْ » و « فَظَلُّوا » . ما في معنى قوله « سَكَّرْتُ » من أقوال .
- ٨ تفسير قوله تعالى : « وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ... » الآيات . الدليل على كمال قدرة الله تعالى . بيان أسماء هذه البروج ، وأنه يستدل بها على الطرقات والأوقات والخصب والجذب . بيان أن الشياطين كانت لا تمجج عن السماء ، وأنهم كانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنة ويزيدون عليها إلى مبعث النبي عليه السلام . رثيم بالشهب عند استراق السمع . اختلف في الشهاب هل يقتل أم لا . وهل كان رمي بالشهب قبل المبعث ٩
- ١٢ تفسير قوله تعالى : « وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ » الآيات ١٢
- تفسير قوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاحِقَ ... » الآية . فيه خمس مسائل : الكلام على الرياح . قول العلماء في لقاح القمح ، وإبار النخل . إجماعهم أن البستان

صفحة

- إذا انشق طلع إنائه فأخر إباره وقصد أبر غيره أن حكمة حكم ما أبر . وأن الثمر
المؤبر لا يدخل مع الأصول في البيع إلا بالشرط . انتهى عن بيع الملاخ، وهل
هى الفحول من الإبل، أو الإناث التى فى بطونها أولادها ... ١٥ ...
تفسير قوله تعالى : « ولقد علمنا المستقلين منكم ولقد علمنا المستأخرين » فيه ثلاث
مسائل : بيان ما فى الآية من التأويلات . الدليل على فضل أول الوقت
فى الصلاة، وعلى فضل الصف الأول فيها، وكذا فضل الصف الأول فى القتال ١٩
تفسير قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال » الآيات . الكلام على
المادة التى خلق منها آدم عليه السلام، والمادة التى خلق منها الجن ... ٢١ ...
تفسير قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا ... » الآيات . أقوال
العلماء فى الروح، وأن يعبد الملائكة لادم كان يعبد تحية لاسجود عبادة ... ٢٤ ...
تفسير قوله تعالى : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس ... » الآيات . الكلام
على الاستثناء فى هذه الآية . الفرق بين الشياطين والجن ، اخلف الفقهاء
فى جواز الاستثناء من المجلس غير المجلس . امتناع إبليس من السجود .
الدليل على جواز استثناء القليل من الكثير والعكس . أبواب جهنم وتخصيص
كل طائفة بباب ... ٢٥ ...
تفسير قوله تعالى : « إن المتقين فى جنات وعيون ... » بيان المراد بالعيون ... ٣٢ ...
تفسير قوله تعالى : « وَزَعَمْنَا مَا فى صدورهم من غَلٍّ ... » كيف يتزع الغل من قلوب
المتقين، وهل هو فى الدنيا أم فى الآخرة . ما قيل فى السر ... ٣٣ ...
تفسير قوله تعالى : « تَبَيَّنَّ عِبَادِي أَنى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » . بيان سبب نزول الآية ... ٣٤ ...
تفسير قوله تعالى : « وَتَبَيَّنَّ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ... » الآيات . تبشير الملائكة لإبراهيم
بإسحاق عليهما السلام وتحميته من ذلك . بيان أوجه القراءات فى قوله
« تَبَشَّرُونَ » وقوله « من القاطنين » . أقوال العلماء فى الاستثناء الواقع فى هذه
الآيات ، وإجماعهم على أن الاستثناء من التثنية إثبات ، ومن الإثبات نفى ... ٣٤ ...
تفسير قوله تعالى : « فلما جاء آل لوط المرسلون ... » الآيات . قدوم الملائكة
إلى لوط عليه السلام، وقصة لوط مع قومه لما أرادوا الفاحشة منهم ... ٣٨ ...

- تفسير قوله تعالى : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ » فيه ثلاث مسائل :
- إجماع المفسرين على أن هذا قسم من الله تعالى بحياة محمد عليه السلام تشريفه .
- بيان أن القسم بقولك « لعمرى ولعمرى » ونحوه جاء في أشعار العرب ، والكثير من العلماء على كراهيته . مذهب مالك فيمن قال : لعمرى ، واليتين والزيتون ، ونحو هذا ؛ أن اليمين والقسم حاصل به مبعثاته لا بالخلق ... ٣٩ ...
- تفسير قوله تعالى : « فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّبْحَةَ مَثْرَقِينَ » الآيات ... ٤٢ ...
- تفسير قوله تعالى : « إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ » فيه مسألتان : ما جاء في التوسم والفراسة . هل يحكم بالفراسة في الأحكام ... ٤٢ ...
- تفسير قوله تعالى : « وَإِنَّا لَنَسِيلٌ لَّيَمِينٌ ... » الآيات . بيان معنى « الأيكة » .
- تفسير قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْجُبْرِ الْمُرْسَلِينَ » . ما جاء في معاني « الجبر » والمراد به هنا . استنبط العلماء من هذه الآية ثمان مسائل : كراهة دخول مساكين الذين ظلموا أنفسهم . ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تملكه الإبل والبهايم . أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلف ما يجن من بر ثمود الإبل . في أمره عليه السلام بلف الإبل العجين دليل على جواز حمل الرجل التجارة إلى كلابه ليأكلوها . الدليل على التبرك بأثار الأنبياء والصالحين . ما جاء من النهي عن الصلاة في بعض المواضع . جواز التيمم على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طاهرا نظيفا . البستان الذي يلي فيه النتن والمذرة ليكرم لا يصلى فيه حتى يسقى ثلاث مررات ... ٤٥ ...
- تفسير قوله تعالى : « وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا معرضِينَ ... » الآيات . قيل :
- إن المراد بالآيات الثاقفة ، بيان ما كان فيها من آيات ... ٥٣ ...
- تفسير قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » . اختلف العلماء في السبع المتاني ، هل هي الفاتحة أم غيرها ... ٥٤ ...
- تفسير قوله تعالى : « لَا تَمْنُنْ عَلَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ... » الآية . سبب نزول الآية . الزجر عن التشوف إلى متاع الدنيا على الدوام ... ٥٦ ...
- تفسير قوله تعالى : « وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ، كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ... » الآيات . اختلف في « المقسمين » على أقوال سبعة . ما جاء في قوله « عِصِينَ » ... ٥٧ ...

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « فَوَرَّبُّكَ لِنَسَائِهِمْ أَجْمَعِينَ ... » الآية تدل على محاسبة الجميع
وسؤالهم كافرهم ومؤمنهم ؛ إلا من دخل الجنة بغير حساب . سؤال الكافر
ومحاسبته ٥٩
- تفسير قوله تعالى : « فَأَصْدَغْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ... » الآية . بيان
المراد من قوله « فَأَصْدَغْ » . ذكر الخمسة الذين كانوا يستهزئون برسول الله
صلى الله عليه وسلم وسبب هلاكهم ٦١
- تفسير قوله تعالى : « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » المراد بالتسبيح هنا
الصلاة . الجمهور من العلماء على أن هذه الآية ليست محل سجود ٦٣
- تفسير قوله تعالى : « وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » معنى « اليقين » . الفرق
بين الرجل يقول لأمرائه : أنت طالق أبدا ، أو يقول : طلقها حياتها ٦٤

سورة النحل

- تفسير قوله تعالى : « أَتَى أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ... » بيان المراد في قوله « أَمْرُ اللَّهِ »
تفسير قوله تعالى : « يَتَزَلُّ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ... » الآية . أوجه القراءات
في قوله « يَتَزَلُّ » . اختلاف العلماء في معنى الروح في هذه الآية ٦٧
- تفسير قوله تعالى : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ... » الآية . بيان أدلة
التوحيد ، الاستدلال بخلق الإنسان وأحواله على وجود الله تعالى ٦٨
- تفسير قوله تعالى : « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ... » الآية . فيه ثلاث مسائل :
الكلام على الأنعام . معنى الدفء . في الآية دليل على لباس الصوف ٦٨
- تفسير قوله تعالى : « وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ... » الآية . ما في الأنعام والدواب من الجمال
تفسير قوله تعالى : « وَتَجْعَلُ أَثْقَالَكُمْ ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : المراد من شق
الأنفس ، ومعنى الشق . جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها على قدر ما تحتمله
تفسير قوله تعالى : « وَانْحَلِ الْبَهَالَ وَالْجَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ... » الآية . فيه ثمان مسائل :
ما ملكه الإنسان من الحيوان جازله تسخيره وكراهه ، وأن الكراه يجرى مجرى
اليروع فيما يحل منه ويحرم . الإجماع على أن من أكرهى دابة ليحمل عليها
عشرة أقفزة قبح فحمل عليها ما اشترط أو أخف منه فتلفت أن لا ضمان عليه .

- اختلافهم في الرجل يكثرى الدابة بأجر معلوم الى موضع مسمى، فيتمدى فيتجاوز ذلك المكان ثم يرجع الى المكان المأذون له في المصير اليه . اختلافهم في جواز أكل لحوم الخيل . بيان أن البغال تلحق بالحمير في الحرمة . الدليل على أن الخيل لا زكاة فيها . قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإبل عز لأهلها والغنم بركة والخيل معقود في نواصيها الخير» . الكلام على قوله «ويخلق ما لا تعلمون» ٧٣
- تفسير قوله تعالى : «وملئ الله قصد السبيل ...» الآية . بيان المراد بقصد السبيل ٨١
- تفسير قوله تعالى : «هو الذي أنزل من السماء ماء لكم ...» الآيات . معنى السوم .
- في هذه الآيات دليل على قدرة الله ووحدايته ٨٢
- تفسير قوله تعالى : «وهو الذي ينزع البحر لتأكلوا منه لحما طرياً ...» الآية . فيه تسع مسائل : الكلام على تسخير البحر، اختلاف العلماء في السمك هل يسمى لحماً . بيان أن اللحوم أصناف مختلفة لا يجوز بيع الجنس متفاضلاً . المشهور أن الجراد يجوز بيعه ببعضه ببعض متفاضلاً . اختلاف فيمن حلف ألا يأكل لحماً . المراد بحليلة البحر . لا حرمة على الرجال والنساء فيما يخرج من البحر . الكلام على لبس الذهب والحريير للرجال، والتختم بفضة والتحلل به . من حلف ألا يلبس حلياً فلبس لؤلؤاً لم يحث . معنى الخضر ٨٥
- تفسير قوله تعالى : «وألقى في الأرض روائى أن يمد بك ...» الآية . في الآية دليل على استعمال الأسباب ٩٠
- تفسير قوله تعالى : «وعلامات وبالنجم هم يهتدون» بيان أن العلامات هي معالم الطرق بالنهار . اختلاف في النجوم الذي يقع بها الاهتداء . حكم استقبال القبلة ٩١
- تفسير قوله تعالى : «أفمن يخلق كمن لا يخلق ...» الآيات . بيان أن الله تعالى هو الأحق بالعبادة لأنه هو الخالق للأشياء . بيان أن الآيات تبكت للكفار ٩٣
- تفسير قوله تعالى : «إلهكم الله واحد ...» الآيات . بيان أن الذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم لا تقبل الوعظ . بيان أن الكبر فسق وهو أصل العصيان ... ٩٤
- تفسير قوله تعالى : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ...» الآية . دعوى المشركين أن ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو من الأباطيل والتراهاث ٩٥

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ... » الآية . بيان أن دعاة الضلالة طبعهم مثل أوزار من اتبعهم ٩٦
- تفسير قوله تعالى : « قد مكر الذين من قبلهم ... » الآية . بيان قصة النوردين كنعان وبناؤه الصرح وكيف سقط عليهم ٩٧
- تفسير قوله تعالى : « ثم يوم القيامة يخزيهم ... » الآيات . بيان ما يلقيه المشركون يوم القيامة من الهوان ٩٨
- تفسير قوله تعالى : « وقيل للذين آمنوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ... » الآيات ... ١٠٠
- تفسير قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ... » الآيات . الكلام على إنكار الكفار للبعث ١٠٥
- تفسير قوله تعالى : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » . في الآية دليل على أن القرآن غير مخلوق ، وأن الله تعالى مرید لجميع الحوادث خيرا وشرها ١٠٦
- تفسير قوله تعالى : « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا ... » الآيات . اختلاف العلماء في سبب نزول هذه الآيات . واختلافهم أيضا في الحسنة المرادة في الآية ١٠٦
- تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ... » الآيات . الرد على مشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . بيان أن الرسول عليه السلام مبين عن الله عز وجل مراده مما أبغله في كتابه . الكلام على وعيد المشركين الذين احتالوا في إبطال الإسلام ، ومعنى أخذهم على تخوف ١٠٨
- تفسير قوله تعالى : « ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض ... » الآيات . بيان أن كل ما في السموات والأرض يسجد لله تعالى ١١٢
- تفسير قوله تعالى : « وقال الله لا تتخذوا آلين اثنين ... » الآيات . النهي عن اتخاذ آلهة غير الله . بيان أن الطاعة لا تكون إلا لله ١١٣
- تفسير قوله تعالى : « ويعملون لما لا يسمعون نصيبا مما رزقناهم ... » الآيات . ذكر قبائح المشركين من جعلهم لاهتهم نصيبا من أموالهم يتقربون بها إليهم ، ومن زعمهم أن الملائكة بنات الله ١١٥

- تفسير قوله تعالى : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ... » الآيات .
 بيان بغض العرب في الجاهلية للبنات ، وما كانوا يفعلونه من دفن البنات حية .
 ١١٦ بيان أن البنات بليّة ، وأن في الصبر عليهن والإحسان اليهن ما بقى من النار ...
 تفسير قوله تعالى : « وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ... » الآيات . بيان أن الله تعالى لو أخذ الخلق بما كسبوا مترك على ظهرها من دابة من نجي ولا غيره ...
 ١١٩ تفسير قوله تعالى : « تَأْتِيهِمْ لَقْدَ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ... » الآيات . تسليّة النبي صلى الله عليه وسلم بأن من تقدّمه من الأنبياء قد كفر بهم قومهم ...
 ١٢١ تفسير قوله تعالى : « وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ ... » الآية . فيه عشر مسائل :
 بيان المراد بالأنعام وما فيها من العبرة . الاختلاف في الضمير من قوله « مما » في بطونه « على ماذا يعود . استنبط بعض العلماء من عود هذا الضمير أن لبن الفحل يفيد التحريم . الكلام على تحويل اللبن من الدم . الدليل على أن المنيّ ليس بنجس . الدليل على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وغيره ، وأن لبن الميتة لا يجوز الانتفاع به ، وعلى استعمال الخلوة والأطعمة اللذيذة وتناولها ...
 ١٢٢ تفسير قوله تعالى : « وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ ... » الآية . فيه مسائلان : بيان أن هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر . بيان معنى السكر . أقوال من ذهب من العلماء إلى جواز شرب ما دون السكر من التبيذ ...
 ١٢٧ تفسير قوله تعالى : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ... » الآية . فيه ثلاث مسائل :
 بيان أن الوحي قد يكون بمعنى الإلهام . لم سمى النحل نحلا . الكلام على بيوت النحل ، وأن الله تعالى ألهمها لاتخاذ بيوتها مستدسة ...
 ١٣٣ تفسير قوله تعالى : « ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ... » الآية . فيه تسع مسائل : الجمهور من الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل . اختلف في الضمير من قوله « فيه شفاء للناس » هل هو راجع للعسل أو القرآن . الرد على من زعم أن هذه الآية يراد بها أهل البيت . اختلف في شفاء العسل للناس هل يقتضى العموم في كل حلة وفي كل إنسان أم على الخصوص . الدليل على جواز العلاج بشرب الدواء وغيره ، والرد على الصوفية الذين لا يجوزون المداواة . الاختلاف في زكاة العسل

- صفحة
- تفسير قوله تعالى : « والله خلقكم ثم يتوفاكم ... » الآية . بيان الاحتجاج على منكرو
 ١٤٠ البحث بحالة الإنسان وتطوّراته
- تفسير قوله تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ... » الآية . بيان أن هذا
 ١٤١ مثل ضرب الله تعالى لعبدة الأصنام
- تفسير قوله تعالى : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ... » الآية . فيه خمس
 مسائل : بيان أن الولد يتبع أمه في الرق والحرية . معنى الحفدة . ما جاء
 في خدمة الزوجة في بيت زوجها ، وأن الرجل يخدم زوجته فيما خف من الخدمة
 ١٤٢ ويُعِينها ، وعليه أن ينفق على خادمة واحدة ، وقيل على قدر الثروة والمنزلة
- تفسير قوله تعالى : « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا ... » الآية . بيان أن الله تعالى
 ضرب هذه الآية مثلا بين ضلالة المشركين ، وأنه لا تساوى بينه وبين
 الأصنام . ذكر ما جاء في نقصان رتبة العبد عن الحر في الملكية وأنه لا يملك .
- بيان أن طلاق العبد بيد سيده . بيان أن الرزق ما وقع الاختداء به ١٤٦
- تفسير قوله تعالى : « وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم ... » الآية . اختلف
 في الأبكم والذي يأمر بالعدل ١٤٩
- تفسير قوله تعالى : « وله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة ... » الآيات .
 معنى إتيان الساعة كفتح البصر ١٥٠
- تفسير قوله تعالى : « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ... » الآية . فيه عشر مسائل :
 تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت . جواز الانتفاع بالأصواف
 والأدبار والأشعار . بيان أن صوف الميتة وشعرها طاهر يجوز الانتفاع
 به ، واختلف في القرن والسن والعظم ، وطهارة جلد الميتة إذا دبغ . الكلام
 على جلد الخنزير والكلب وما لا يؤكل لحمه . اختلف في الدباغ التي تطهر به
 جلود الميتة ما هو ١٥٢
- تفسير قوله تعالى : « والله جعل لكم مما خلق ظلالا ... » الآية . فيه ست مسائل :
 بيان أن الله تعالى جعل للناس في الجبال ماوى يحصنون به ويعتزلون عن الخلق
 فيه . الدليل على اتخاذ العباد علة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء ... ١٥٩

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « فإنت تولوا فأنما عليك البلاغ ... » الآيات . بيان أن
إعراض المشركين عن الإسلام لم يكن لعدم معرفتهم نعمة الله بل كانوا يعرفونها
ثم ينكرونها ، وفي معرفتهم وإنكارهم ثمانية أقوال ... ١٦١ ...
تفسير قوله تعالى : « وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ... » الآيات . بيان أن
المشركين يتبعون يوم القيامة أصنامهم التي عبدوها ، وستنطق تلك الآلهة
بتكذيب من عبدها بأنها لم تكن آلهة . زيادة العذاب على المشركين يوم القيامة
١٦٣
تفسير قوله تعالى : « ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم ... » الآية . بيان أن لكل
أمة شهيدا عليها يوم القيامة وإن لم يكن نبيا ... ١٦٤ ...
تفسير قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ... » الآية . فيه ست مسائل :
هذه الآية هي أجمع آية في القرآن لخير يمثل ولشر يختب . الاختلاف في تأويل
العدل والإحسان . إعطاء ذى القربى . معنى الفحشاء والمنكر والبغى ... ١٦٥ ...
تفسير قوله تعالى : « وأوفوا بعهدهم إذا عاهدتم ... » الآية . فيه ثلاث مسائل :
بيان أنه يجب الوفاء بجميع ما يقعد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة
أو موافقة فيما يوافق الدين . اختلف في سبب نزول هذه الآية . الكلام
على حلف الفضول . النهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها ، وما معنى التوكيد
١٦٩
تفسير قوله تعالى : « ولا تكونوا كآلئى نقضت عهدها ... » الآية . المقصود من الآية
النهى عن العود إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم ... ١٧١ ...
تفسير قوله تعالى : « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ... » الآية . النهى عن عقد
الأيمان بالأنطواء على الخديعة والفساد ... ١٧٢ ...
تفسير قوله تعالى : « ولا تشتروا بعهدهم ثمنا قليلا ... » الآيات . التحذير من الرشا
وأخذ الأموال على نقض العهد ... ١٧٣ ...
تفسير قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكرا أو أنثى ... » الآية . ذكر أقوال
العلماء في معنى الحياة الطيبة ... ١٧٤ ...
تفسير قوله تعالى : « فإنا قرأت القرآن فاستعذ بالله ... » الآية . بيان أن الاستعاذة
تكون قبل قراءة القرآن لا بعده ... ١٧٤ ...

- صفحة
- تفسير قوله تعالى : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ... » الآيات . بيان أن
 الشيطان لا سلطان له على المؤمنين المتوكلين ، إنما سلطانه على الكافرين ... ١٧٥
- تفسير قوله تعالى : « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل ... » الآيات .
 الكلام على أن الله تعالى شرع الأحكام وتبدل البعض ببعض ... ١٧٦
- تفسير قوله تعالى : « ولقد علم أنهم يقولون إنما يُعلِّمهُ بَشَرٌ ... » الآيات . بيان
 دعوى المشركين أن النبي صلوات الله عليه إنما يعلمه بشر ، اختلاف العلماء
 في اسمه . الكلام على العجمة ... ١٧٧
- تفسير قوله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه ... » الآية . فيه إحدى وعشرون
 مسألة : بيان أن من ارتد بعد إيمانه فعليه غضب . من هم المرتدون . الكلام
 على من أكرهه المشركون على الكفر . سمح الله تعالى بالكفر به عند الإكراه .
 حكم من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل . بيان أن الرخصة
 إنما جاءت في القول دون الفعل . إجماع العلماء على أن من أكره على قتل غيره
 أنه لا يجوز له الاقدام على قتله ولا انتهاك حرمة يجلد أو غيره . اختلافهم
 في الإكراه على الزنى . الكلام على طلاق المكره وعتاقه وبيعه ونكاحه . هل
 تحل المرأة إذا استكرهت على الزنى . اختلافهم في وجوب الصداق للمستكرهة .
 إذا أكره الإنسان على إسلام أهله لما لا يحل أسأها ولم يقتل نفسه دونها .
 الكلام على يمين المكره . إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجوز له أن يمجرى على لسانه
 إلا يمجرى المأريض . أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر فاختر القتل
 أنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة ، واختلفوا فيمن أكره على غير القتل
 من فعل ما لا يحل له . واختلفوا أيضاً في حد الإكراه ... ١٨٠
- تفسير قوله : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما قُتِلُوا ... » الآية ... ١٩٢
- تفسير قوله تعالى : « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ... » الآية . الكلام على
 محاسبة الروح للجسد يوم القيامة ... ١٩٣
- تفسير قوله تعالى : « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة ... » الآية . بيان أن
 هذه الآية متصلة بذكر المشركين في الآيات السابقة ، وهي ضرب مثل لهم ... ١٩٣

صفحة

- ١٩٥ ... تفسير قوله تعالى : « فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ... » الآيات ...
- تفسير قوله تعالى : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب ... » الآيات . فيه مسائلان : الآية خطاب للكفار الذين حرّموا البحار والسواحب وأحلوا ما في بطون الأنعام وإن كانت ميتة . التحليل والتحرّيم إنما هو لله عز وجل ...
- ١٩٥ ... تفسير قوله تعالى : « وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ... » بين الله تعالى أن الأنعام والحارث حلال لهذه الأمة أما اليهود فحرمت عليهم منها أشياء
- ١٩٧ ... تفسير قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمّةً قانتا لله حنيفًا ... » الآيات . بيان أن الرسول عليه السلام دعا مشركي العرب إلى ملّة إبراهيم ...
- ١٩٧ ... تفسير قوله تعالى : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملّة إبراهيم حنيفا ... » أمر الله نبيه عليه السلام باتباع ملّة إبراهيم في عقائد الشرع دون القرع . جواز اتباع الأفضل للفضول ...
- ١٩٨ ... تفسير قوله تعالى : « إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ... » جعل السبت تفضيلا على اليهود في رفض الأعمال بسبب اختلافهم في تعظيم يوم الجمعة ، كيفية ما وقع لهم من الاختلاف . بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر باتباع الحق ، وحذّر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدد عليهم كما شدد على اليهود ...
- ١٩٩ ... تفسير قوله تعالى : « أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ... » الكلام على أن هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمر النبي عليه السلام أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطّف ولين ...
- ٢٠٠ ... تفسير قوله تعالى : « وإن عاقبتهم فاعقبوا بمثل ما عوقبتهم به ... » الآية : فيه أربع مسائل : الآية نزلت في شأن التمثيل بحجزة عمّ النبي عليه السلام يوم أحد ، وقبل نزلت فيمن أصيب بظلامه ألا ينال من ظلمه إذا تمكّن إلا مثل ظلامته لا يتعدّاه إلى غيره . اختلف فيمن ظلمه رجل في أخذ مال ثم اتّبع الظالم المظلوم على مال هل يجوز له خيانتة في القدر الذي ظلمه . جواز التماثل في القصص ...
- ٢٠٠ ... تفسير قوله تعالى : « واصبر وما صبرك إلا بالله ... » الآيات ...
- ٢٠٢ ...

سورة الإسراء

- تفسير قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ... » الآية . فيه ثمان مسائل :
- الكلام على معنى « سبحان » و « أسرى » . تشرىف النبي صلى الله عليه وسلم بالعبودية . أقوال العلماء فى حديث الإسراء . اختلافهم فى تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة ، وهل كان إسراء بالروح أو الجسد ، معنى بركة المسجد الأقصى .
- بيان مآراه النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات ليلة منمراه ... ٢٠٤
- تفسير قوله تعالى : « واتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى ... » الآيات ... ٢١٢
- تفسير قوله تعالى : « فاذا جاء وعد أولاهما ... » الآيات . أقوال العلماء فى الإفساد الذى وقع من بنى إسرائيل وعقابهم عليه . رد الكثرة لبنى إسرائيل على أعدائهم .
- قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام وما وقع بسبب القتل لبنى إسرائيل ... ٢١٥
- تفسير قوله تعالى : « إن هذا القرآن يهتدى التى هى أقوم ... » الآيات . بيان أن القرآن يهتدى لأقوم الطرق وهو الإيمان والتوحيد ... ٢٢٤
- تفسير قوله تعالى : « ويدع الإنسان بالشردعاه بالخير ... » الآية . النهى عن دعاء الرجل على نفسه وولده . بيان أن طبع الإنسان العجولة ، فيجعل بسؤال الشر كما يجعل بسؤال الخير . بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يجعل دعاءه على من لا يستحق من المؤمنين رحمة وكفارة له ... ٢٢٥
- تفسير قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين ... » الآية . جعل الله الليل والنهار علامتين على وحدانيته وكمال قدرته . الكلام على الآيتين ، وعلى نحو آية الليل .
- الحكمة فى جعل آية النهار مبصرة ... ٢٢٧
- تفسير قوله تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ... » الآيات . أقوال العلماء فى معنى طائر الإنسان ... ٢٢٩
- تفسير قوله تعالى : « من اهتدى فإنا يهتدى لنفسه ... » الآية . بيان أن كل مكلف ملزم بعمله ، ولا تؤخذ نفس بلأثم أخرى . أقوال العلماء فى أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه . الكلام على قوله « وما كنا معذرين حتى نبعث رسولا » هل هذا فى حكم الدنيا وأن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا بعد الإنذار ، أو هو عام فى الدنيا والآخرة . الدليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع ... ٢٣٠

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفياً ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : بيان أن الذنوب سبب في هلاك الأمم ، وأن المعاصي إذا ظهرت ولم تغير كانت سبباً في هلاك الجميع . معنى « أمرنا » ... ٢٣٢
- تفسير قوله تعالى : « من كان يريد العاجلة ... » الآيات . الكلام على صفة المنافق الذي يلبس الإسلام والطاعة لينال عاجل الدنيا . بيان أن من عمل للآخرة وأخلص في عمله قبل منه ... ٢٣٥
- تفسير قوله تعالى : « كَلَّا بُدْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ... » الآيات . بيان أن الله تعالى يرزق المؤمنين والكافرين ... ٢٣٦
- تفسير قوله تعالى : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ... » الآيات . فيه ست عشرة مسألة . بيان أن القضاء يستعمل في اللغة على وجوه . جعل الله تعالى برّ الوالدين مقرراً بعبادته وتوحيده ، وأن من البرّ بهما ألا يتعرض الإنسان لسيئتهما ولا يعقهما . بيان أن حقوق الوالدين مخالفتها في أغراضهما الجائزة لهما . قول العلماء في أن للأُم ثلاثة أرباع البر وللأب الربع . لا يختص برّ الوالدين بأن يكونا مساكين . النهي عن الخروج للجهاد بغير إذن الأبوين إذا لم يتعين الجهاد . اختلافوا في الوالدين المشركين هل يخرج بائنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية . من تمام برّ الوالدين صلة أهل ذمهما . ألزم الله مراعاة أحوالهما في حالة الكبر أكثر مما ألزمه من قبل ، وألا يقل لهما ما يكون فيه أدنى تبهر وأن يجعل نفسه مع أبويه في خير ذلة . ما في قوله « أف » من اللغات ، الخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته . الكلام على الترجع والاستغفار للأبوين ٢٣٦
- تفسير قوله تعالى : « رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي قُلُوبِكُمْ ... » الآية ... ٢٤٦
- تفسير قوله تعالى : « وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ ... » الآيات . الأمر بإتياء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل . النهي عن التبذير في الأموال . بيان حدّ التبذير ٢٤٧
- تفسير قوله تعالى : « وَإِنَّمَا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ ... » الآية ... ٢٤٨
- تفسير قوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ... » الآية . فيه أربع مسائل : بيان أن هذا مجاز عبر به عن البخيل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله .

- صفحة
- النهى عن الإفراط في الإنفاق . بيان أن هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ،
 ٢٤٩ عليه الله كيفية الإنفاق وأمره بالاعتصام
 تفسير قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ... » الآية . الكلام على معنى
 ٢٥٢ الإملاق والخطف
 تفسير قوله تعالى : « ولا تقرّبوا الزنى ... » الآية . تحريم الزنى وأنه من الكبائر ...
 ٢٥٣ تفسير قوله تعالى : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ... » الآيات . بيان
 أنه تعالى قد جعل لوليّ المقتول ظمناً سلطاناً ، اختلف العلماء في الولي وفي معنى
 ٢٥٤ سلطاناً ، في قوله « فلا يسرف في القتل » ثلاثة أقوال
 تفسير قوله تعالى : « وأوفوا الكيل إذا كلفتم ... » الآية . الأمر بإيفاء الكيل والعدل
 ٢٥٦ في الميزان . بيان أن هذه الآية تقتضي أن الكيل على البائع
 تفسير قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم ... » الآية . فيه ست مسائل :
 النهى عن قول الزور والقذف وما أشبه ذلك . بيان أن هذه الآية تضمنت
 الحكم بالقافة ، أسامة بن زيد والقذح في نسبه وحكم مجزئ القائف فيه . استدلال
 جمهور العلماء بسرور النبي صلى الله عليه وسلم بقول مجزئ على الرجوع إلى القافة
 عند التنازع في الولد . اختلف الآخذون بأقوال القافة ؛ هل يؤخذ بذلك في أولاد
 الحوائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء . وهل يكتفى بقول واحد من القافة
 أو لا بد من اثنين لأنها شهادة . بيان أن الله سبحانه يسأل كل عضو من أعضاء
 ٢٥٧ الإنسان عما اكتسب . وقيل : يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده ...
 تفسير قوله تعالى : « ولا تمش في الأرض مرمحاً ... » الآيات . فيه خمس مسائل :
 بيان أن الله تعالى نهى عن الخيلاء وأمر بالتواضع . إقبال الإنسان على الصيد
 ونحوه ترفهاً دون حاجة إلى ذلك داخل في هذه الآية . المراد بجرق الأرض
 ٢٦٠ نقبها لقطعها بالمسافة . استدلال العلماء بهذه الآية على ذم الرقص وتعاطيه ...
 تفسير قوله تعالى : « ذلك مما أوحى إليك ربك ... » الآية . بيان أن الإشارة
 إلى هذه الآداب والقصص والأحكام التي تضمنتها الآيات المتقدمة . الخطاب
 للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد كل من سمع الآية من البشر
 ٢٦٤

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « أفأصفاكم ربكم بالبنين ... » الآية . الرد على القائلين بأن
 الملائكة بنات الله ٢٦٤
- تفسير قوله تعالى : « ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليدّكروا ... » الآية . لم يجعل الله
 القرآن نوحا واحدا ، بل وصدا ووعيدا ومحكما ومتشابها ونهيا وأمرنا وانمنا ومنسوخا
 وأخبارا وأمثالا ٢٦٤
- تفسير قوله تعالى : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون ... » الآيات . الرد على عباد
 الأصنام في اعتقادهم أن الأصنام تقربهم الى الله زُلّقى ٢٦٥
- تفسير قوله تعالى : « تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ... » الآية .
 كل شيء من الجساد وغيره يسبح لله . اختلف في هذا التسبيح هل هو تسبيح
 الدلالة أو تسبيح الحقيقة . الكلام على غرض الأشجار وقراءة القرآن على القبور . ٢٦٦
- تفسير قوله تعالى : « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك ... » الآيات . بيان أن الآية
 نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ القرآن ، فحجب الله
 رسوله عن أبصارهم عند قراءة القرآن ، وكانوا يمرّون به ولا يرونه ٢٦٩
- تفسير قوله تعالى : « نحن أعلم بما يستمعون به ... » الآية . أدعاء المشركين أن النبيّ
 صلى الله عليه وسلم ساحر ومجنون ٢٧٢
- تفسير قوله تعالى : « وقالوا أئمنّا عظاما ورفأنا ... » الآية . بمجد المشركين للبعث وإنكاره
 تفسير قوله تعالى : « قل كونوا حجارة أو حديدًا ... » الآيات . الرد على المشركين
 في إنكارهم البعث . معنى التَّنْفُض . الدّعاء الى المحشر ونخروج أهل القبور . ٢٧٤
- تفسير قوله تعالى : « وقل لعبادى يقولوا التّى هى أحسن ... » الآية . اختلاف
 العلماء في سبب نزول الآية . بيان نزغ الشيطان وإغوائه للإنسان ٢٧٦
- تفسير قوله تعالى : « ربكم أعلم بكم إنّ يشأ ربّكم ... » الآيات . اختلف في هذا
 الخطاب هل هو للمشركين أو للمؤمنين . حاجة اليهود في إنكارهم القرآن . الزبور
 كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ولا فاضل ، بل مجرّد تمجيد ودعاء ٢٧٨
- تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ... » الآية .
 بيان ان من عبدهم المشركون يطلبون من الله القربى ويتضرعون اليه في طلب الجنة . ٢٧٩

- صفحة
- تفسير قوله تعالى : « وإن من قرية إلا نحن مُهلِكُوها ... » الآية . اذا ظهر الزنى والريا في قرية أذن الله في هلاكهم ... ٢٨٠
- تفسير قوله تعالى : « وما متنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ... » الآية . الحكمة في عدم إجابة المشركين الى ما اقترحوه من الآيات . وما هي الآيات » ... ٢٨٠
- تفسير قوله تعالى : « وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ... » الآية . معنى هذه الإحاطة . أقوال العلماء في الرؤيا التي رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت فتنه للناس . الكلام على الشجرة الملعونة . بيان خبر ابن إسحاق عن مسرى الرسول صلوات الله عليه ... ٢٨١
- تفسير قوله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة استجدوا لآدم ... » الآية . قصة إبليس حين عصى وأبى السجود . وعيد إبليس ومن تبعه ... ٢٨٦
- تفسير قوله تعالى : « وَاسْتَفْزِزْ مِنْ أَسْتَفْزِزَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ... » الآية . فيه ست مسائل : بيان أن الأمر أمر تعجيز . وإن المراد بصوت إبليس كل داع يدعو الى معصية الله تعالى . معنى استفزازهم للعباد ومشاركته في الأموال والأولاد . الدليل على تحريم المزمار والغناء واللهو ... ٢٨٨
- تفسير قوله تعالى : « ربكم الذى يُرِجى لكم الفلك فى البحر . » الآية . بيان أن الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده ... ٢٩٠
- تفسير قوله تعالى : « وإذا مسكم الضر فى البحر ... » الآية . بيان أن الآية تحقير لمن يدعى إلها من دون الله ... ٢٩١
- تفسير قوله تعالى : « فامتن أن يحسف بكم ... » الآية . بيان معنى الخسف والحاصب والقاصف ... ٢٩١
- تفسير قوله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم .. » الآية . ذكر ما أمتن الله تعالى به على بنى آدم . تفضيل الملائكة على الإنس والجن . الكلام على تناول الطيبات من الرزق ... ٢٩٣
- تفسير قوله تعالى : « يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ... » الآية . المراد من إمام كل أمة . ٢٩٦

صفحة

- ٢٩٨ تفسير قوله تعالى : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى ... » ...
- ٢٩٩ تفسير قوله تعالى : « وإن كادوا لَيَفْتِنُوكَ عن الذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ... » الآية .
- تفسير قوله تعالى : « ولولا أن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كَلَبْتَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ... » بيان أن هذا تعريف للامة لسلايركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الدين .
- ٣٠٠ الكلام على أنه كلما كانت الدرجة أعل كان العذاب عند المخالفة أعظم ...
- تفسير قوله تعالى : « وإن كادوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ ... » الآية . بيان أن الآية .
- ٣٠١ الآية . قلت في أهل مكة لما هموا بإخراج الرسول عليه السلام من المدينة .
- تفسير قوله تعالى : « أقم الصلاة لِذُلُوكِ الشَّمْسِ ... » الآية . فيه سبع مسائل :
- أمر الله نبيه عليه السلام بالصبر والمحافظة على الصلاة ، وأن هذه الآية إشارة إلى الصلوات المفروضة . معنى الذلوك ومعنى الغسق . اختلف في آخر وقت المغرب . المراد بقرآن الفجر صلاة الصبح . اختلاف العلماء في القراءة في الصلاة .
- ٣٠٢ فضل التكبير بصلاة الصبح ...
- تفسير قوله تعالى : « ومن الليل فَتَهَيَّأْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ... » الآية . فيه ست مسائل :
- معنى التهجد . تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر دون أمته . اختلافهم في المقام المحمود . الكلام على شفاعات النبي عليه السلام . القول في كون القيام بالليل سببا للقيام المحمود ...
- ٣٠٧ تفسير قوله تعالى : « وقل رب أدخلني مدخل صدق ... » الآية . معنى الإدخال ...
- ٣١٢ والإخراج في هذه الآية ...
- تفسير قوله تعالى : « وقل جاء الحق وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ... » الآية . فيه ثلاث مسائل :
- بيان أنه كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما وقد كسرها النبي صلى الله عليه وسلم عند دخوله مكة عام الفتح . في الآية دليل على كسر نصب المشركين وكسر آلة الباطل ومالوا يصلح إلا لمعصية الله تعالى ، كالطناير والعيدان والمزامير ...
- ٣١٣ تفسير قوله تعالى : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة ... » الآية . فيه سبع مسائل :
- القول في كون القرآن شفاء . ما جاء في التداوى بالقرآن . اختلف العلماء في النشرة ، وهي أن تكتب شيئا من أسماء الله أو من القرآن ثم تغسله بالماء

صفحة

- وتمسح به المريض أو تسقيه . تعليق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى على أعناق المرضى على وجه التبرك بها . ما جعله الله تعالى من الرحمة في القرآن وفضل تلاوته . ٣١٥
- تفسير قوله تعالى : « وإذا أعطنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ... » الآية . ٣٢١
- تفسير قوله تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته ... » الآية . الكلام على أن كل واحد يعمل على ما يشاء كل أصله وأخلاقه التي ألهاها ٣٢١
- تفسير قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح ... » الآية . سؤال اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم عن الروح ، الاختلاف فيه . معنى قوله « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . ٣٢٣
- تفسير قوله تعالى : « ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ... » الآية . بيان أن أول ما يفقد من أمر الدين الأمانة ، وآخرها يفقد الصلاة ، وأن القرآن يسرى في ليلة فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب وتصبح الناس كالبهائم . ٣٢٥
- تفسير قوله تعالى : « قل لئن أجمعتم الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ... » الآية . الرد على الكفار في قولهم : لو نشاء لقلنا مثل هذا ٣٢٦
- تفسير قوله تعالى : « ولقد صرنا للناس في هذا القرآن ... » الآية . بيان أن الله تعالى وجه القول في القرآن بكل مثل يجب به الاعتبار من الآيات والعبر والأوامر والنواهي وأفاصيص الأولين ، وقد تبين الحق للمشركين فأبوا إلا الكفر ... ٣٢٧
- تفسير قوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ... » الآية . بيان أن الآية نزلت في رؤساء قريش وبيان ما أقرحوه على النبي عليه السلام ٣٢٧
- تفسير قوله تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذا جاءهم الهدى ... » الآية . الكلام على معاندة المشركين وقولهم : إن الله أجل من أن يكون رسوله من البشر . بيان الحكمة في عدم إرسال الملائكة رسلا ٣٣٢
- تفسير قوله تعالى : « ومن يهتد الله فهو المهتدي » الآية . الكلام على حشر الكفار يوم القيامة ، والرد عليهم في إنكارهم البعث ٣٣٣
- تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... » الآية . اختلاف العلماء في تعيين التسع آيات التي أوتيتها موسى عليه السلام . قصة موسى مع فرعون . الكلام على معنى « مشورا » ٣٣٥

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ... » الآية . اختلف العلماء في المدة التي نزل فيها القرآن . واختلفهم في معنى « على مكث » ... ٣٣٩
- تفسير قوله تعالى : « قل آمنوا به أولا تؤمنوا ... » الآية . قول العلماء في المعنى المراد من قوله « إن الذين أوتوا العلم من قبله » ... ٣٤٠
- تفسير قوله تعالى : « ويقولون سبحان ربنا ... » الآية . في الآية دليل على جواز التسبيح في السجود ... ٣٤١
- تفسير قوله تعالى : « ويخرون للأذقان يسكون ... » الآية . فيه أربع مسائل : شأن العالم أن يخضع عند استماع القرآن ويخضع له . جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالى أو على مصيبته في دين الله . اختلف في الأئمة في الصلاة ... ٣٤١
- تفسير قوله تعالى : « قل آدموا لله أو آدعوا الرحمن ... » الآية . سبب نزول هذه الآية . معنى قوله « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها » . المراد بالصلاة هنا القراءة ... ٣٤٢
- تفسير قوله تعالى : « وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ... » الآية . الرد على اليهود والنصارى والعرب في قولهم : عزير وعيسى والملائكة ذرية الله سبحانه . بيان فضل هذه الآية وأنها خاتمة التوراة ... ٣٤٤

سورة الكهف

- الكلام على فضائل سورة الكهف ... ٣٤٦
- تفسير قوله تعالى : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ... » الآيات . خبر قريش وأجبار اليهود مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وسؤاله عن حديث الفتية ، وعن نبأ رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وعن الروح ما هي . قوله عليه السلام لهم « أخبركم غدا » ولم يقل إن شاء الله ، وتأخر الوحي عنه ... ٣٤٦
- تفسير قوله تعالى : « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ... » الآيات . بيان أن اليهود والنصارى وقريشا نسبوا لله ما ليس لهم به من علم . نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن على من كفر ... ٣٥٣

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها ... » الآيات . فيه مسائلتان :
بيان ما جعله الله تعالى على الأرض من الزينة ، وأقوال العلماء في الزينة
المراد . جعل الله الدنيا مستطابة في ذوقها ، وابتلى الله بها عباده لينظر أيهم
أحسن عملاً . بيان أن حسن العمل أخذ بحق وإففاق في حق مع الإيمان
وَأداء الفرائض واجتناب المحارم . أقوال العلماء في الزهد ... ٣٥٣
- تفسير قوله تعالى : « أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ... »
الآية خطاب للنبي عليه السلام ، وبيان أن ما عظمه عليك السائلون من الكفرة
عن الفتية وعن ذى القرنين وعن الروح ليس بأعجب من آيات الله ، بل خلق
السموات والأرض ، أو شأئك في الإسراء أعجب من خبرهم . معنى الكهف والرقيم
تفسير قوله تعالى : « إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ... » الآيات . حديث الفتية
وفي أى زمن كانوا . بيان أن الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل
والأوطان والأموال خوف الفتنة . الكلام على العزلة . إلقاء النوم على الفتية
وبشهم . الاختلاف في الحزبين . بيان أنهم كانوا شباباً وأحداثاً حكم لهم بالفتوة
حين آمنوا بلا واسطة . قول أهل اللغة في الفتوة ... ٣٥٨
- تفسير قوله تعالى : « وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا ... » الآية . إيمان الفتية بالله تعالى ،
وما حباهم به من عزيم وقوة صبر . بيان أن الصوفية تعلقت في أفعالها بهذه الآية
والرد عليهم . تنديد الفتية بأهل عصرهم في عبادتهم الأصنام تقليداً من
غير حجة ... ٣٦٥
- تفسير قوله تعالى : « وَإِذْ اصْتُرِقُوا وَمَا يَعْبدُونَ إِلَّا اللَّهَ ... » الآية ... ٣٦٧
- تفسير قوله تعالى : « وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ... » الآيات .
بيان أن الله تعالى حفظ أصحاب الكهف عن تعلقق البلاء وتغير الأبدان والألوان
بهم ، والتأذى بحر أو برد . تقليبهم ذات اليمين وذات الشمال لئلا تأكل الأرض
لحمهم . الكلام على كلهم والاختلاف في اسمه ، وهل كان كتاباً حقيقة أم أحدهم .
اقتناء الكلاب والقول فيه . من أحب أهل الخير نال من بركتهم . معنى الوصيد .
بيان أنه لا يمحسر أحد على الدنو من أصحاب الكهف ... ٣٦٨

- تفسير قوله تعالى : « وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ... » الآيات . بيان أن الله تعالى أيقظ أصحاب الكهف من نومهم على ما كانوا عليه من هياتهم في ثيابهم وأحوالهم ، بعث أصحاب الكهف أحدهم ليأتى لهم بالطعام ، في هذه البعثة دليل على الوكالة وصحتها ، وهي جائزة في كل حق تجوز النيابة فيه . بيان أن الآية تضمنت جواز الشركة لأن الورق كان لجميعهم ، جواز أكل الرقاع وخططهم طعامهم معا . ٣٧٤
- تفسير قوله تعالى : « وكذلك أعتنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ... » الآية . اختلاف أهل بلدة الفتية والحشر وبعث الأجساد من القبور . بيان أن إيقاظهم كان دليلا على أن القيامة حق والبعث حق . الكلام على أنهم لما ماتوا ميتة الحق اختلف فيما بيني عليهم ليكون معنسا لهم . النهي عن اتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها . القول في تخصيص القبور والكتابة عليها وارتفاعها والنهي عنه . الكلام على الدفن في التابوت والمقعد ... ٣٧٨
- تفسير قوله تعالى : « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ... » الآية . الكلام على عدة أصحاب الكهف والاختلاف فيه . كلام النحويين على واو العطف هنا ، في الآية دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم ... ٣٨٢
- تفسير قوله تعالى : « ولا تقولن شيء إني فاعل ذلك غدا ... » الآيات . معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم على قوله للكفار : غدا أخبركم ، ولم يقل إن شاء الله . الكلام على الاستثناء في هذه الآية . اختلف في الذكر المأمور به ... ٣٨٤
- تفسير قوله تعالى : « وليثوا في كهفهم ثلثائة سنين ... » الآيات . بيان مدة لبث أصحاب الكهف في كهفهم . هل ماتوا ، أو هم نيام وأجسادهم محفوظة ... ٣٨٦
- تفسير قوله تعالى : « وأتل ما أوحى إليك ... » الآية . تمام قصة أصحاب الكهف ٣٨٩
- تفسير قوله تعالى : « وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ... » الآية . ما اقترحه بعض المؤلفات قلوبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من إبعاد فقراء المسلمين من مجلسه وتقريب صناديد أهل مكة . نهي عن إطاعتهم ... ٣٩٠
- تفسير قوله تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ... » الآية . بيان أن هذا ليس بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر ، وإنما هو وعيد لمن غفل قلبه عن ذكر الله . بيان ما أعد الله للظالمين من العذاب والهوان . معنى السرايق ٣٩٢

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع ... » الآيات .
- ٣٩٥ بيان ما أعد الله للمؤمنين من النعيم والثواب . الكلام على لبس أهل الجنة ...
- تفسير قوله تعالى : « وأضرب لهم مثلاً رجُلين ... » الآيات . بيان أن هذا مثلاً لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف من مجالسة المؤمنين ، الاختلاف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما . قصة الرجلين وما كان من شأنهما . كلام النحاة في لفظ كلنا وكلّ
- ٣٩٨ تفسير قوله تعالى : « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ... » الآيات . بيان أن هذا توبيخ ووصية من الأخ المؤمن للكافر وردّ عليه ، بيان أنه ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » ، فضل « لا حول ولا قوة إلا بالله » . الكلام على المعنى اللغوي لمفردات هذه الآيات ...
- ٤٠٦ تفسير قوله تعالى : « وأضرب لهم مثلاً الحياة الدنيا ... » الآية . بيان أن الله تعالى شبه حالة الدنيا بالماء الذي ينزل من السماء فلا يستقر في موضع ...
- ٤١٢ تفسير قوله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ... » الآية . بيان أن ما كان من زينة الحياة الدنيا فهو غرور يمز ولا يبقى . الكلام على معنى « الباقيات الصالحات » ...
- ٤١٣ تفسير قوله تعالى : « ويوم نسف الجبال ... » الآية ...
- ٤١٦ تفسير قوله تعالى : « وعرضوا على ربك صفّاً ... » الآية . بيان أن هذا خطاب لمنكرى البعث . كيفية العرض يوم القيامة ...
- ٤١٧ تفسير قوله تعالى : « ووضع الكتاب قرى المجرمين ... » الآية . الكلام على الآخرة .
- ٤١٨ تفسير قوله تعالى : « وإذ قلنا لللائكة اسجدوا ... » الآية . توبيخ الكفرة على التخاذل إبليس وذريته أولياء . الكلام على ذريته . بيان أسمائهم وأعمالهم ...
- ٤١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحجر

قوله تعالى : **الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ** ﴿١﴾

تقدم معناه . و «الكاتب» قيل فيه : إنه اسم لجلس الكتب المتقدمة من التوراة والإنجيل ، ثم قرنها بالكتاب المبين . وقيل : الكاتب هو القرآن ، جمع له بين الاسمين .

قوله تعالى : **رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ** ﴿٢﴾

«رُبَّ» لا تدخل على الفعل ، فإذا لحقتها «ما» هيأتها للدخول على الفعل تقول : ربما قام زيد ، وربما يقوم زيد . ويجوز أن تكون «ما» نكرة بمعنى شيء ، و«يود» صفة له ؛ أي رب شيء يود الكافر . وقرأ نافع وعاصم «ربما» مخفف الباء . الباقون مشددة ، وهما لغتان . قال أبو حاتم : أهل الججاز يخففون ربما ؛ قال الشاعر :

رُبَّمَا ضَرِيَّةٌ بِسَيْفٍ صَقِيلٍ * بَيْنَ بُصْرَى وَطَنْةٍ نَجْلَاءِ (٢)

ونعيم وقيس وربيعة ينقلونها . وحكى فيها : رُبَّمَا وَرُبَّمَا ، وَرُبَّمَا وَرُبَّمَا ، بخفيف الباء وتشديدها أيضا (٣) . وأصلها أن تستعمل في القليل وقد تستعمل في الكثير ؛ أي يود الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين ؛ قاله الكوفيون . ومنه قول الشاعر :

(١) راجع ج ٨ ص ٣٠٤ طبة أولى أو ثانية . (٢) البيت لمدى بن الرطلاء النسائي . وبصري : بلدة قرب الشام ، هي كرمي حوران ، كان يقوم فيها سوق للباهلية . قال صاحب خزائن الأدب : «... وإنما صح إضافة بين إلى بصري لاشتراكها على امتداد من الأمكنة ؛ أي بين أماكن بصري ونواحيها . وروى الشريف الحسين في حماسه : «دون بصري» ودون هنا بمعنى قبل أو بمعنى خلف . وقال البني : بمعنى عند . راجع الخزانة في الشاهد التاسع والتسعين بعد السجاية . (٣) قال ابن هشام في المني : «وفي رب ست عشرة لغة : ضم الزاء وفتحها ، وكلاهما مع التشديد والتخفيف . والأوجه الأربعة مع تاء التانيث ، ساكنة أو محركة ، ومع التجرد منها ؛ فهذه اثنا عشرة . والضم والفتح مع إسكان الباء وضم الحرفين مع التشديد ومع التخفيف » .

ألا ربما أهدت لك العين نظرة * فصاراك منها أنها عاك لا تُجدي^(١)

وقال بعضهم : هي للتقليل في هذا الموضع ؛ لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع
لا في كلها ؛ لشغلهم بالمداب ، والله أعلم . وقال : « رَبِّمَا يَوْدُ » وهي إنما تكون لما وقع ؛
لأنه لصدق الوعد كأنه عيان قد كان . ونخرج الطبراني أبو القاسم من حديث جابر بن عبد الله
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ناسا من أمتي يدخلون النار بذنوبهم فيكونون
في النار ما شاء الله أن يكونوا ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم تخالقونا فيه من
تصديقكم وإيمانكم فنعمكم فلا يبقى موحد إلا أخرج الله من النار — ثم قرأ رسول الله صلى
الله عليه وسلم — رَبِّمَا يَوْدُ الذين كفروا لو كانوا مسلمين » . قال الحسن : إذا رأى
المشركون المسلمين وقد دخلوا الجنة ومأواهم في النار تمنوا أنهم كانوا مسلمين . وقال
الضحاك : هذا التمني إنما هو عند المعاينة في الدنيا حين تبين لهم الهدى من الضلالة .
وقيل : في القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذل الكافرين .

قوله تعالى : ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾
فيه مسائلان :

الأولى — قوله تعالى : « ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا » تهديد لهم . « وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ »
أي يشغلهم عن الطاعة . يقال : ألهم عن كذا أي شغله . ولحقه هو عن الشيء يلهم .
« فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا . وهذه الآية منسوخة
بالسيف .

الثانية — في مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعة من
الشقاء جود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدين » . وطول الأمل داء

(١) أي لا تنفي ؛ يقال : ما يجدي عنك هذا أي ما ينفي . وفي بعض نسخ الأمل : لا تجزي ؛ بالزاي ،
وهي بمعنى لا تنفي . ولم نرق لمرة قافية البيت .

عضال ومريض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتدّ علاجه، ولم يفارقه داء ولا نجى فيه دواء، بل أعياء الأطباء ويئس من برئه الحكماء والعلماء . وحقيقة الأمل : الحرص على الدنيا والانتكاب عليها ، والحُبُّ لها والإعراض عن الآخرة . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نجى أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخرها بالبخل والأمل" . وروى عن أبي الدرداء رضى الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال : يا أهل دمشق ، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح ، إنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَجْمَعُونَ كَثِيرًا وَيَبْنُونَ مَشِيدًا وَيَأْمَلُونَ بَعِيدًا ، فَأَصْبَحَ بَعْضُهُمْ بُورًا وَبَنَانُهُمْ قُبُورًا وَأَمْلَهُمْ غُرُورًا . هذه ماد قد ملأت البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً ، فمن يشتري منى اليوم تركتهم بدرهمين ! وأنشد :

ياذا المؤمل آمالاً وإن بئست * منه يزعم أن يحظى بأقصاها

أنى تفوز بما ترجوه ويك وما * أصبحت في همة من تئيل أدناها

وقال الحسن : ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل . وصدق رضى الله عنه ! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخي والتواني ، ويعقب التشاغل والتفاس ، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى . وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يُطلب صاحبه ببرهان ، كما أن قصر الأمل يبعث على العمل ، ويُحيل على المبادرة ، ويحث على المسابقة .

قوله تعالى : وَمَا أَهْلَكَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿١﴾

أى أجل مؤقت كتب لهم في اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلُهَا وَمَا يَسْتَفِخِرُونَ ﴿٢﴾

« من » صلة ، كقولك : ما جاءني من أحد . أى لا يتجاوز أجلها فتريد عليه ، ولا تستقدم قبله . ونظيره قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » ^(١) .

قوله تعالى : وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦٦﴾
لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٧﴾

قوله كفار قريش لحمد صلى الله عليه وسلم على جهة الاستهزاء ، ثم طلبوا منه إتيان الملائكة دلالة على صدقه . و (لَوْ مَا) تحضيض على الفعل كلولا وهلا . وقال الفراء : الميم في « لوما » بدل من اللام في لولا . ومثله استولى على الشيء واستوى عليه ، ومثله خالته وخالته ، فهو غلى وخلى ؛ أى صديق . وصلى هذا يجوز « لوما » بمعنى الخبر ، تقول : لوما زيد لضرب عمرو . قال الكسائي : لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام . قال ابن مقبل : لَوْما الحياء ولوما الدين عبتكما . ببعض ما فيكما إذ عبتا عوى يريد لولا الحياء . وحكى النحاس لوما ولولا وهلا واحد . وأشد أهل اللغة على ذلك : تعسبون عقر النبي أفضل مجديكم . بنى صَوَطَرَى لولا الكي المقنعا أى هلا تعسبون الكي المقنعا .

قوله تعالى : مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٦٨﴾
قرأ حفص وحمة والكسائي (مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ) واختاره أبو عبيد . وقرأ أبو بكر والمفضل « مَا تُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ » . الباقون « مَا تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ » وتقديره : ما تنزل بتاءين حذف إحداهما تخفيفا ، وقد شدد التاء البزى ، واختاره أبو حاتم اعتبارا بقوله : « تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ » . ومعنى (إِلَّا بِالْحَقِّ) إلا بالقرآن . وقيل بالرسالة ، عن مجاهد . وقال الحسن : إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا . (وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ) أى لو نزلت الملائكة بإهلاكهم لم أهملوا ولا قبلت لهم توبة . وقيل : المعنى لو نزلت الملائكة تشهد لك فكفروا

(١) البيت بحر ريجو الفرزدق . والمقر : ضرب قوائم الافة بالسيف . والنبيب (يكر التون) : جمع ناب ، وهي النافة المسية . وضو طرى : هو الزجل الضخم القيم الذى لا غنا عنه ، وهى كفة ذم وسب . والكي : الشجاع المتكى فى سلاحه ؛ لأنه كى نفسه أى شتتها بالدرع والبيضة . والمقنع : الذى على رأسه البيضة والمقنفر . (٢) آية ٤ سورة القدر .

بعد ذلك لم ينظروا . وأصل « إِذَا » إِذْ أَنْ — ومعناه حينئذ — فضع إليها أَنْ ، واستقلوا
الهمزة لحذفوها .

قوله تعالى : **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴿١٠﴾

قوله تعالى : **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ)** يعنى القرآن . **(وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)** من أن يزداد فيه أو ينقص منه . قال قتادة وثابت البناني : حفظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلا أو تنقص منه حقاً ، فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظاً ، وقال في غيره : **« بِمَا أَسْتَحْفِظُوا »** ، فوكل حفظه إليهم فبدلوا وغيروا . أنبأنا الشيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله عن أبيه الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبي الحسن علي بن خلف بن معزوز الكوفي التميمي قال : قرئ على الشيخة العالمة نضر النساء شهبدة بنت أبي نصر أحمد بن الفرج الدينوري وذلك بمنزلة بدار السلام في آخر جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وخمسمائة ، قيل لها : أخبركم الشيخ الأجل العامل نقيب الثقباء أبو الفوارس طراد بن محمد الزيني قراءة عليه وأنت تسمعين سنة تسعين وأربعمائة ، أخبرنا علي بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا أبو علي عيسى بن محمد بن أحمد ابن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز ابن جريح المعروف بالطوماري حدثنا الحسين بن فهم قال : سمعت يحيى بن أكثم يقول : كان للمأمون — وهو أمير إذ ذاك — مجلس نظر ، فدخل في جملة الناس رجل يهودى حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة ، قال : فتكلم فأحسن الكلام والمبارة ، قال : فلما تقوض المجلس دعاه المأمون فقال له : إسرائيل ؟ قال نعم . قال له : أسلم حتى أفعل بك وأصنع ، ووعده . فقال : ديني ودين آبائي وانصرف . قال : فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً ، قال : فتكلم على الفقه فأحسن الكلام ، فلما تقوض المجلس دعاه المأمون وقال : ألسنت صاحبتنا بالأمس ؟ قال له : بلى . قال : فلما كان سبب إسلامك ؟ قال : انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان ، وأنت ترى حسن الخط ،

(١) في قوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيهَا هدى ونور... » آية ٤ سورة المائدة ، وراجع ج ٦ ص ١٨٨ مطبعة أولى أو ثانية .

فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الكنيسة فاشترت منى ، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها البيعة فاشترت منى ، وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت ، وأدخلها الوراقين فتصفحوها ، فلم أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ؛ فعلمت أن هذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سبب إسلامي . قال يحيى بن أكرم : فحججت تلك السنة فلقيت سفیان بن عيينة فذكرت له الخبر فقال لي : مصداق هذا في كتاب الله عز وجل . قال قلت : في أى موضع ؟ قال : في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل : « مَا اسْتَفْظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ » ، فجعل حفظه إليهم فضاع ، وقال عز وجل : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » حفظه الله عز وجل علينا فلم يضع . وقيل : « وإنا له لحافظون » أى لمحمد صلى الله عليه وسلم من أن يتقول طينا أو تنقول عليه . أو « وإنا له لحافظون » من أن يكاد أو يقتل . نظيره « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » . و « نحن » يجوز أن يكون موضعه رفعا بالابتداء و « نزلنا » الخبر . والجملة خبر « إنا » . ويجوز أن يكون « نحن » تأكيداً لاسم « إنا » في موضع نصب ، ولا تكون فاصلة لأن الذى بعدها ليس بمعرفه وإنما هو جملة ، والجل تكون نموتا للتركات فحكها حكم التركات .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٦﴾

المعنى : ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً ، لحذف . والشَّيع جمع شيعه وهى الأئمة ، أى فى أهمهم ؛ قاله ابن عباس وقتادة . الحسن : فى فرقهم . والشَّيعه : الفرقة والطائفة من الناس المتألفة المتفقة الكلمة . فكان الشَّيعِ الفرق ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا » . وأصله مأخوذ من الشَّياع وهو الحطب الصغار يوقد به الجار — كما تقدم فى « الأنعام » . وقال الكلبي : إن الشَّيع هنا القرى .

قوله تعالى : وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥٠﴾
 تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك قيل بمن
 قبلك من الرسل .

قوله تعالى : كَذَلِكَ نَسُكُّكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٥١﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ
 وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَسُكُّكُمْ ﴾ أى الضلال والكفر والاستهزاء والشرك . ﴿ فِي قُلُوبِ
 الْمُجْرِمِينَ ﴾ من قومك ؛ عن الحسن وقتادة وغيرهما . أى كما سلكتهم في قلوب من تقدم من
 شيخ الأولين كذلك نسلكتهم في قلوب مشركي قومك حتى لا يؤمنوا بك ، كما لم يؤمن من قبلهم
 برسولهم . وروى ابن جريج عن مجاهد قال : نسلكتهم بالكذب . والنسل : إدخال الشيء في الشيء
 كإدخال الخيط في الحيط . يقال : سلكه يسلكه سلكاً وسلوكة ، وأسلكه إسلاكاً . وسلك
 الطريق سلوكاً وسلكاً وأسلكه دخله ، والشيء في غيره مثله ، والشيء كذلك والرتخ ، والخيط
 في الجوهر ؛ كقوله قل وأفعل . وقال عدي بن زيد :

(١) * وقد سلكتوك في يوم عاصيب *

والسلك (بالكسر) الخيط . وفي الآية رد على القدرية والمعتلة . وقيل : المعنى نسلكت
 القرآن في قلوبهم فيكذبون به . وقال الحسن ومجاهد وقتادة القول الذى عليه أكثر أهل التفسير ،
 وهو ألزم حجة على المعتلة . وعن الحسن أيضاً : نسلكت الذكر لإلزاما لفجعة ؛ ذكره الفريزى .
 ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى مضت سنة الله بإهلاك الكفار ، فما أقرب هؤلاء من
 الهلاك . وقيل : « خلت سنة الأولين » بمثل ما فعل هؤلاء من التكذيب والكفر ، فهم
 يقتدون بأولئك .

(١) هذا مجزأ البيت ، ومصدره كما في اللسان وشعراء القصصانية :
 * وَكُنْتُ إِذَا خَصِمْتُ لَمْ أَحْزِدْ *

(٢) في الأصول : « وقرأ » .

قوله تعالى : وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾
لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

يقال : ظلّ فعل كذا، أى يفعله بالتهيار . والمصدر الظلول . أى لو أجبوا إلى ما اقترحوا من الآيات لأصروا على الكفر وتعلّوا بالخيالات ؛ كما قالوا للقرآن المعجز : إنه بحر . (يعرجون) من عرج يعرج أى صعيد . والمعارض المصاعد . أى لو صعدوا إلى السماء وشاهدوا الملكوت والملائكة لأصروا على الكفر ؛ عن الحسن وغيره . وقيل : الضمير في «عليهم» للشركين . وفي «فظلوا» للملائكة ، تذهب وتجيء . أى لو كشف هؤلاء حتى يعاينوا أبواباً في السماء تصعد فيها الملائكة وتنزل لقالوا : رأينا بأبصارنا ما لا حقيقة له ؛ عن ابن عباس وقناة . ومعنى (سُكَّرَتْ) سُدَّتْ بالسحر ؛ قاله ابن عباس والضمك . وقال الحسن : سُحِّرَتْ . الكلبي : أغشيت أبصارنا ؛ وعنه أيضاً عجمت . قتادة : أخذت . وقال المؤرج : دبرنا من الدوران ؛ أى صارت أبصارنا سكرى . جُويز : خُدعت . وقال أبو عمرو ابن العلاء : «سكرت» غَشِيَتْ وَغَطَّيَتْ . ومنه قول الشاعر :

وطلعت شمس عليها منفر * وجعلت عين الحرور تُسَكَّرُ

وقال مجاهد : «سكرت» حَبَسَتْ . ومنه قول أوس بن حجر :

فصرت على لسيلة ساهرة * فليست بطلقي ولا ساكرة^(١)

قلت : وهذه أفعال متقاربة يجمعها قولك : مُنِعَتْ . قال ابن عَرِينُز : «سُكَّرَتْ أبصارنا» سُدَّتْ أبصارنا ؛ هو من قولك : سَكَّرْتُ التمر إذا سدته . ويقال : هو من سُكَّرَ الشراب ، كأن العين يلحقها ما يلحق الشراب إذا سكر . وقرأ ابن كثير «سُكَّرَتْ» بالتخفيف ، والباقون بالتشديد . قال ابن الأعرابي : سُكِّرَتْ ملئت . قال المهدي : والتخفيف والتشديد

(١) في اللسان مادة سكر : «جذلت» بالجم والفتح المقترحين ، ومعنى «جذلت» انتصب وثبت لا يرح . وليلة طلق : مشرق لا يرد فيها ولا حر ، ولا مطر ولا قفر . (٢) عبارة ابن الأعرابي كما في نسخ الأصل : «سكرت ملئت ، وسكرت ملئت» ولم تزد في هذا ، ولعله تكرير من النسخ مع تحريف .

في «سكرت» ظاهران، التشديد للتكثير والتخفيف يؤدى عن معناه . والمعروف أن «سكر» لا يتعدى . قال أبو علي : يجوز أن يكون شُيْع متعديا في البصر . ومن قرأ «سِكْرَت» فإنه شبه ماعرض لأبصارهم بحال السكان، كأنها جرت مجرى السكان لعدم تحصيله . وقد قيل : إنه بالتخفيف [من] سكر الشراب، وبالتشديد أُخِذَتْ، ذكرهما الماوردي . وقال النحاس : والمعروف من قراءة مجاهد والحسن «سِكْرَت» بالتخفيف . قال الحسن : أى شُيْحِرَتْ . وحكى أبو عبيد عن أبي عبيدة أنه يقال : سَكُرْتُ أبصارهم إذا غَشِيَتْ سَمَادِيرَ حَتَّى لَا يَبْصُرُوا . وقال الفراء : من قرأ «سَكْرَت» أخذه من سكور الريح . قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة . والأصل فيها ما قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله تعالى، قال : هو من السكر في الشراب . وهذا قول حسن، أى غَشِيَهُمْ ما غَطَى أبصارهم كما غَشَى السَّكْرَانُ ما غَطَى عقله . وسكور الريح سكونها وفتورها، فهو يرجع إلى معنى التحير .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٧﴾

لما ذكر كفر الكافرين وعجز أصنامهم ذكر كمال قدرته لِيُسْتَدَلَّ بها على وحدانيته . والبروج : القصور والمنازل . قال ابن عباس : أى جعانا في السماء بروج الشمس والقمر، أى منازلها . وأسماء هذه البروج : الجمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والمقرب، والقوس، والجذى، والدلو، والحوت . والعرب تُعَدُّ المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجل العلوم، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخشب والجذب . وقالوا : الفلك اثنا عشر برجاً، كل برج ميلان ونصف . وأصل البروج الظهور؛ ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها . وقد تقدّم هذا المعنى في النساء ^(١) . وقال الحسن وقتادة : البروج النجوم، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها . وقيل : الكواكب العظام؛ قاله أبو صالح،

(١) الهادير : ضعف البصر . وقيل : هو النى، الذى يراى الانسان من ضعف بصره عند السكر من الشراب .

(٢) راجع ج ٥ ص ٢٨٤ طبة أولى أوثانية .

يعنى السبعة السيارة . وقال قوم : « بروجا » ؛ أى قصورا ويوتا فيها الحرس ، خلقها الله فى السماء . فافقه أعلم . (وزيناها) يعنى السماء ؛ كما قال فى سورة الملوك : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » . (للناظرين) للمتبرين والمتفكرين .

قوله تعالى : وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾

أى مرجوم . والرجم الرى بالمجارة . وقيل : الرجم اللعن والطرده . وقد تقدم . (١٧) وقال الكسائى : كل رجم فى القرآن فهو بمعنى الشتم . وزعم الكلبي أن السموات كلها لم تحفظ من الشياطين إلى زمن عيسى ، فلما بعث الله تعالى عيسى حفظ منها ثلاث سموات إلى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حفظ جميعها بعد بعثه وحُرس منهم بالشُّب . وقاله ابن عباس رضى الله عنه . قال ابن عباس : وقد كانت الشياطين لا يجوبون عن السماء ، فكانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنة ، فيزيدون عليها تسعا فيحدثون بها أهل الأرض ؛ الكلمة حق والتسع باطل ؛ فإذا رأوا شيئا مما قالوه صدقوه فيما جاءوا به ، فلما ولد عيسى بن مريم عليهما السلام منوا من ثلاث سموات ، فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها ، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمى بشهاب ؛ على ما يأتى .

قوله تعالى : إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ وَشِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾

أى لكن من استرق السمع ، أى انخطفة السيرة ، فهو استثناء منقطع . وقيل ، هو متصل ، أى إلا من استرق السمع . أى حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحى وغيبه ؛ إلا من استرق السمع فانا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحى ، فما الوحى فلا تسمع منه شيئا ؛ لقوله : « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَزُولُونَ » . (١٨) وإذا استمع الشياطين

(١) وهى — حسب ترتيبها التصاعدي — : القمر ، عطارد ، الزهرة ، الشمس ، المريخ ، المشترى ، زحل .
(٢) آية ٥ . (٣) راجع ج ٩ ص ٩١ طبعة أول أو ثالثة . (٤) فى سورة الصافات فى قوله تعالى : « إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ... » آية ٦ وما بعدها . وفى سورة الجن فى قوله تعالى : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ... » آية ٨ وما بعدها . (٥) آية ٢١٢ سورة الشعراء .

إلى شيء ليس يوحى فانهم يقذفونه إلى الكهنة في أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تحيّلهم^(١)؛ ذكره الحسن وابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّبِعُهُ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴾ أتبعه : أدركه وحلقه . شهاب : كوكب مضى .
وكذلك شهاب ثاقب . وقوله : « شهاب قيس » بشعلة نار في رأس عود؛ قاله ابن جرير .
وقال ذو الرمة :

كأنه كوكب في إثر عَفْرِية^(٢) * مسوم في سواد الليل مُنْقَضِب

وسمى الكوكب شهابا لبريقه ، يشبه النار . وقيل : شهاب لشعلة من نار ، فبس لأهل الأرض ، فتحرقهم ولا تعود إذا أحرقت كما إذا أحرقت النار لم تعد ، بخلاف الكوكب فإنه إذا أحرق عاد إلى مكانه . قال ابن عباس : تصعد الشياطين أفواجا تسترق السمع فينفرد المارد منها فيعلو ، فيرمى بالشهاب فيصيب جبهته أو أنفه أو مآشاه الله فيلتب ، فيأتى أصحابه وهو يلبث فيقول : إنه كان من الأمر كذا وكذا ، فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليها تسما ، فيحدثون بها أهل الأرض ، الكلمة حق والتسع باطل . فاذا رأوا شيئا مما قالوا قد كان صدقهم بكل ما جاءوا به من كذبهم . وسيأتي هذا المعنى مرفوعا في سورة « سبا » إن شاء الله تعالى^(٣) .

واختلف في الشهاب هل يقتل أم لا . فقال ابن عباس : الشهاب يجرح ويحرق ويخيل ولا يقتل . وقال الحسن وطائفة : يقتل ، فعل هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان — أحدهما — أنهم يقتلون قبل إلقاءهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم ، فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء ، ولذلك انقطعت الكهانة . والثاني — أنهم يقتلون بعد إلقاءهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن ؛ ولذلك ما يعودون إلى استراقه ، ولو لم يصل لا تقطع الاستراق وانقطع الإحراق ؛ ذكره الماوردي .

(١) الخيل (يسكون الباء) : فساد الأعضاء . (٢) آية ٧ سورة النمل . (٣) أي إشرطان ،
ومسوم : معلم ومنقضب : منقضى من مكانه . (٤) في قوله تعالى : « ولا تنفع الشفاعة عنده » آية ٢٦ .

قلت : والقول الأول أصح على ما يأتي بيانه في «الصفات» . واختلف هل كان رمي بالشهب قبل المبعث ؛ فقال الأكثرون نعم . وقيل لا ، وإنما ذلك بعد المبعث . وسيأتي بيان هذه المسألة في سورة «الجن» إن شاء الله تعالى : وفي «الصفات» أيضا ، قال الزجاج : والرمي بالشهب من آيات النبي صلى الله عليه وسلم مما حدث بعد مولده ؛ لأن الشعراء في القديم لم يذكروه في أشعارهم ، ولم يشبهوا الشيء السريع به كما شبهوا بالبرق وبالسَّيل . ولا يبعد أن يقال : انقضاض الكواكب كان في قديم الزمان ولكنه لم يكن رجوما للشياطين ، ثم صار رجوما حين ولد النبي صلى الله عليه وسلم . وقال العلماء : نحن نرى انقضاض الكواكب ، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ثم يصير نارا إذا أدرك الشيطان . ويجوز أن يقال : يُرمون بشعلة من نار من الهوى فيخيل إلينا أنه نجم سرى . والشهاب في اللغة النار الساطعة . وذكر أبو داود عن عاصم الشعبي قال : لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم رحمت الشياطين بنجوم لم تكن ترجم بها قبل ، فاتوا عبد ياليس بن عمرو الثقفي فقالوا : إن الناس قد فزعوا وقد اعتقوا رقيقهم وسيئوا أنعامهم لما رأوا في النجوم . فقال لهم — وكان رجلا أعمى — : لا تسجلوا ، وانظروا فإن كانت الجيوم التي تُعرف فهي عند فناء الناس ، وإن كانت لا تعرف فهي من حدث . فنظروا فإذا هي نجوم لا تُعرف ، فقالوا : هذا من حدث . فلم يلبثوا حتى سمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : **وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۚ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَكُمْ لَهُمْ يُرْزِقُونَ** ﴿١٠﴾

قوله تعالى : **(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا)** هذا من نعمه أيضا ، وما يدل على كمال قدرته . قال ابن عباس : بسطناها على وجه الماء ؛ كما قال : **«وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا»** أي

(١) في قوله تعالى : «لا يستمعون إلى الملا» الأعلى ... «آية ٨ . (٢) آية ٣٠ سورة النازعات .

بسبطها . وقال : « وَالْأَرْضُ قَرَشْنَاهَا فَتَمَّ الْمَاهِدُونَ ^(١) » . وهو يرد على من زعم أنها كالكرة .
وقد تَمَّ ^(٢) . (وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ) جبالا ثابتة لئلا تتحرك بأهلها . (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) أى مقدر معلوم ؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبير . وإنما قال « موزون » لأن
الوزن يعرف به مقدار الشيء . قال الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرَّة * عندى لكل مُحَاضِمٍ مِيزَانُهُ

وقال قتادة : موزون يعنى مقسوم . وقال مجاهد : موزون معدود . ويقال : هذا كلام
موزون ؛ أى منظوم غير متر . فعل هذا أى أنبتنا فى الأرض ما يوزن من الجواهر والحيوانات
والمعادن . وقد قال الله عز وجل فى الحيوان : « وَأَنْبَتْنَا نَبَاتًا حَسَنًا ^(٣) » . والمقصود من الإنبات
الإنباء والإيجاد . وقيل : (أَنْبَتْنَا فِيهَا) أى فى الجبال (من كل شئ موزون) من الذهب
والفضة والنحاس والرصاص والفضة ، حتى الزرنيخ والكحل ، كل ذلك يوزن وزنا . روى
معناه عن الحسن وابن زيد . وقيل : أنبتنا فى الأرض الثمار مما يكال ويوزن . وقيل :
ما يوزن فيه الأثمان لأنه أجل قدرا وأعم نفعا مما لا ثمن له . (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)
يعنى المطاعم والمشارب التى يعيشون بها ؛ واحدها معيشة (يسكون الياء) . ومنه قول جرير :
تكلّفنى مَعِيشَةُ آلِ زيد * ومَن لى بالمرقق والصناب ^(٤)

والأصل مَعِيشَةٌ على مَفْعِلَةٍ (بتحريك الياء) . وقد تقدّم فى الأعراف . وقيل : إنها الملابس ؛
قاله الحسن . وقيل : إنها التصرف فى أسباب الرزق مدة الحياة . قال الماوردى :
وهو الظاهر . (وَمَنْ لَسَمْتُ لَهُ رِزْقَيْنِ) يريد الدواب والأنعام ؛ قاله مجاهد . وعنده أيضا هم
العبيد والأولاد الذين قال الله فيهم : « نَحْنُ رِزْقُهُمْ ^(٥) » . وإياكم . ولفظ « من » يجوز أن يتناول
العبيد والدواب ؛ لأنه إذا اجتمعوا ؛ لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل ، فُلب من يعقل . أى

(١) آية ٤٨ سورة القاريات . (٢) فى قوله تعالى : « وهو الذى مَدَّ الْأَرْضَ .. » آية ٣ سورة الرعد .
راجع ج ٩ ص ٢٨٠ طبة أولى أوثانية . (٣) آية ٣٧ سورة آل عمران . (٤) الصناب :
الزرد المصروب بالزبيب ، يقدّم به . (٥) راجع ج ٧ ص ١٦٧ طبة أولى أوثانية .
(٦) آية ٣١ سورة الإسراء .

جعلنا لكم فيها معاش وعبيدا وإماء ودواب وأولادا نرزقهم . ولا ترزقونهم . ف«من» على هذا التأويل في موضع نصب ؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : أراد به الوحش . قال سعيد : قرأ علينا منصور « وَمَنْ لَسَمَ لَهُ يَرْزُقِينَ » قال : الوحش . ف«من» على هذا تكون لما لا يعقل ؛ مثل « فَبَيْنَهُمْ مَنْ يَمُوتُ عَلَى بَطْنِهِ ^(٢) » الآية . وهي في محل خفض عطفا على الكاف والميم في قوله : « لكم » . وفيه قبح عند البصريين ؛ فإنه لا يجوز عندهم عطف الظاهر على المضممر إلا بإعادة حرف الجر ؛ مثل مررت به وبزيد . ولا يجوز مررت به وزيد إلا في الشعر . كما قال :

فاليوم قزبت تهجونا وتشيتنا * فأذهب فما بك والأيام من عجب

وقد مضى هذا المعنى في « البقرة » وسورة « النساء » .

قوله تعالى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ) أى وإن من شيء من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ؛ يعنى المطر المنزل من السماء ، لأن به نبات كل شيء . قال الحسن : المطر خزائن كل شيء . وقيل : الخزائن المفاتيح ، أى فى السماء مفاتيح الأرزاق ؛ قاله الكلبي . والمعنى واحد . (وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) أى ولكن لا ننزله إلا على حسب مشيئتنا وعلى حسب حاجة الخلق إليه ؛ كما قال : « وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يُنْشَاءُ » . وروى عن ابن مسعود والحكم بن عيينة وغيرهما أنه ليس عام أكثر مطرا من عام ، ولكن الله يقسمه كيف شاء ، فيمطر قوم ويحرم آخرون ، وربما كان المطر في البحار والقفار . والخزائن جمع الخزانة ، وهو الموضع الذى يستتر فيه الإنسان ما له . والخزانة أيضا مصدر خزَنَ يَخْزِنُ . وما كان في خزانة الإنسان كان مُعَدًّا له . فكذلك ما يقدر عليه الرب

فكانه مُعَدَّ عنده؛ قاله القشيري، وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال: في العرش مثال كل شيء خلقه الله في البر والبحر، وهو تأويل قوله تعالى: «وَأَنْزَلَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ». والإنزال بمعنى الإنشاء والإيجاد؛ كقوله: «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ»^(١) وقوله: «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ»^(٢). وقيل: الإنزال بمعنى الإعطاء، وسماه إنزالاً لأن أحكام الله إنما تنزل من السماء.

قوله تعالى: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحَ لَوْفَحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَبَرِينَ»^(٣)
فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ» قراءة العامة «الرياح» بالجمع. وقرأ حزة بالتوحيد؛ لأن معنى الريح الجمع أيضاً وإن كان لفظها لفظ الواحد. كما يقال: جاءت الريح من كل جانب. كما يقال: أرضٌ سباسب وثوبٌ أخلاق. وكذلك تفعل العرب في كل شيء أوسع. وأما وجه قراءة العامة فلأن الله تعالى نعتها بـ «لوافح» وهي جمع. ومعنى لوافح حوامل؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع. قال الأزهري: وجعل الريح لاحقاً لأنها تحمل السحاب؛ أي يُثَقِّلُهُ وتصرفه ثم تمر به فتستدره، أي تنزله؛ قال الله تعالى: «حَتَّى إِذَا أَثَلَّتْ سَحَابًا نَقَالًا»^(٤) أي حملت. وناقاة لافح وثوق لوافح إذا حملت الأجنة في بطونها. وقيل: لوافح بمعنى مُفْتِحَةٌ وهو الأصل، ولكنها لا تُلْفَحُ إلا وهي في نفسها لافح، كان الريح لَفِّحَتْ بخير. وقيل: ذوات لَفْحٍ، وكل ذلك صحيح؛ أي منها ما يُلْفَحُ الشجر؛ كقولهم: عيشة راضية؛ أي فيها رضاء، وليل نائم؛ أي فيه نوم. ومنها ما تأتي بالسحاب. يقال: لَفِّحَتِ الناقاة (بالكسر) لَفْحًا وَلَفْحًا (بالفتح) فهي لافح. وألفحها الفعل أي أتى إليها

(١) آية ٦ سورة الزمر. (٢) آية ٢٥ سورة الحديد. (٣) السبب: الأرض المستوية البعيدة.

(٤) حَرَّتِ الرِّيحُ السَّحَابَ: إِذَا أَنْزَلَتْ مِنَ الْمَطَرِ. (٥) آية ٥٧ سورة الأعراف.

الماء فحمله ؛ فالرياح كالفضل للسحاب . قال الجوهري : ورياح لوائق ولا يقال مَلاَقْ ، وهو من النوادر . وحكى المهدوى عن أبي عبيدة : لوائق بمعنى مَلاَقْ ، ذهب إلى أنه جمع مُلَاقَةٍ ومُلَاقٍ ، ثم حذف زوائده . وقيل : هو جمع لَاقَةٍ ولَاقٍ ، على معنى ذات اللقاح على النسب . ويمحور أن يكون معنى لَاقٍ حاملا . والعرب تقول للجَنُوب : لَاقٍ وحامِلٌ ، وللشَّمال حائل وعقيم . وقال عبيد بن عمير : يرسل الله المِبْشِرَةَ فتَقَمُّ الأرض قَمًّا ، ثم يرسل المِثْرَةَ فتثير السحاب ، ثم يرسل المُوَلِّقَةَ فتؤلفه ، ثم يبعث اللوائق فتلقح الشجر . وقيل : الريح المَلاَقُ التي تحمل الندى فتعجمه في السحاب ، فإذا اجتمع فيه صار مطرا . وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الريح الجنوب من الجنة وهي الريح اللوائق التي ذكرها الله في كتابه وفيها منافع للناس" . وروى عنه عليه السلام أنه قال : "ما هبت جنوب إلا أتبع الله بها عينا غُدقة" ، وقال أبو بكر بن عياش : لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيها ؛ فالصَّبا تهبجه ، والدُّبور تُلقعه ، والجنوب تُدِّره ، والشَّمال تفرقه .

الثانية — روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم عن مالك — واللفظ لأشهب — قال مالك : قال الله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » فلقاح القمح عندى أن يجيب ويُسْتَبَل ، ولا أدري ما يبس في أكامه ، ولكن يُحِبُّ حتى يكون لو يبس حينئذ لم يكن فساد الأخير فيه . ولقاح الشجر كلها أن تمر ثم يسقط منها ما يسقط ويشبث ما يشبث ، وليس ذلك بأن تورذ . قال ابن العربي : إنما عَوَّل مالك في هذا التفسير على تشبيه لقاح الشجر بلقاح الحمل ، وأن الولد إذا عقد وخلق ونفخ فيه الروح كان بمنزلة حبب الثمر وتسنبله ؛ لأنه سُمِّيَ باسم تشترك فيه كل حاملية وهو اللقاح ، وعليه جاء الحديث "نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الحب حتى يشند" . قال ابن عبد البر : الإِبَار عند أهل العلم في النخل التلقيح ، وهو أن يؤخذ شيء من طلع [ذكور] النخل فيُدْخَل بين ظهرائي طلع الإناث .

ومعنى ذلك في سائر الثمار طلوع الثمرة من التين وغيره حتى تكون الثمرة مرئية منظورا إليها . والمعبر عند مالك وأصحابه فيما يذكر من الثمار التذكير ، وفيما لا يذكر أن يثبت من توارده ما يثبت ويسقط ما يسقط . وحد ذلك في الزرع ظهوره من الأرض ؛ قاله مالك . وقد روى عنه أن إباره أن يجب . ولم يختلف العلماء أن الحائط إذا انشق طلع إفاته فأنحر إباره وقد أرفره من حاله مثل حاله ، أن حكمه حكم ما أبر ؛ لأنه قد جاء عليه وقت الإبار وثمرته ظاهرة بعد تقيها في الحب . فإن أبر بعض الحائط كان مالم يقر تبعاً له . كما أن الحائط إذا بدا صلاحه كان سائر الحائط تبعاً لذلك الصلاح في جواز بيعه .

الثالثة — روى الأئمة كلهم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من ابتاع نخلا بعد أن تؤبر فثمرتها لأذى باعها إلا أن يشترط المبتاع . ومن ابتاع عبداً فإنه للأذى باعه إلا أن يشترطه المبتاع " . قال علماؤنا : إنما لم يدخل الثمر المؤبر مع الأصول في البيع إلا بالشرط ؛ لأنه عين موجودة يحاط بها أمن سقوطها غالباً . بخلاف التي لم تؤبر ؛ إذ ليس سقوطها مأموناً فلم يتحقق لها وجود ، فلم يميز للبائع اشتراطها ولا استثنائها ؛ لأنها كالجنتين . وهذا هو المشهور من مذهب مالك . وقيل : يجوز استثنائها ؛ وهو قول الشافعي .

الرابعة — لو اشترى النخل وبقى الثمر للبائع جاز لمشتري الأصل شراء الثمرة قبل طينها على مشهور قول مالك ، ويرى لها حكم التبعية وإن أفردت بالعقد . وعنه في رواية : لا يجوز . وبذلك قال الشافعي وأبو حنيفة والثوري وأهل الظاهر وفقهاء الحديث . وهو الأظهر من أحاديث النهي عن بيع الثمرة قبل بدو صلاحها .

الخامسة — وبما يتعلق بهذا الباب النهي عن بيع الملائع والملايح الفحول من الإبل ، الواحد ملقح . والملائع أيضا الإناث التي يطلونها أولادها ، الواحدة ملقحة (بفتح القاف) . والملايح مائ يطلون النوق من الأجنة ، الواحدة ملقوسة ؛ من قولهم : لُقِصت ؛ كالحوم من حُم ، والمجنون من جُن . وفي هذا جاء النهي . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم :

أنه نهي عن الخمر وهو يسع ما في بطون الإناث . ونهى عن المضامين والملاقيح . قال أبو عبيد : المضامين ما في البطون ، وهى الأجنة . والملاقيح ما في أصلاب الفحول . وهو قول سعيد بن المسيب وغيره . وقيل بالعكس : إن المضامين ما في ظهور الجمل ، والملاقيح ما في بطون الإناث . وهو قول ابن حبيب وغيره . وأى الأمرين كان ، فعلماء المسلمين مجمعون على أن ذلك لا يجوز . وذكر المزمى عن ابن هشام شاهدا بأن الملاقيح ما في البطون لبعض الأعراب :

مَنِيتِي مَلَاقِحًا فِي الْأَبْطِينِ * تُتَجَّحُ مَا تَلْقَحُ بِمَدِّ أَزْمِينِ^(١)

وذكر الجوهري على ذلك شاهدا قول الرازي :

إِنَّا وَجَدْنَا طَرْدَ الْمَوَامِلِ * خَيْرًا مِنَ الثَّانَانِ وَالْمَسَائِلِ^(٢)

وَعِدَّةُ الْعَامِ وَطِيمَ قَابِلِ * مَلْفُوحَةٌ فِي بطنِ نَابٍ حَامِلِ

قوله تعالى : (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ) أى من السحاب . وكل ما علاك فأنظلك يسمى مياه . وقيل : من جهة السماء . (مَاءٌ) أى قطرا . (فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ) أى جعلنا ذلك المطر لسقيكم ولشرب مواشيكم وأرضكم . وقيل : سقى وأسقى بمعنى . وقيل بالفرق ، وقد تقدم^(٣) . (وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) أى ليست خزائنه عندهم ؛ أى نحن الخازنون لهذا الماء ننزله إذا شئنا ونمسكه إذا شئنا . ومثله « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » ، « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ »^(٤) . وقال سفيان : لستم بما نعين المطر .

قوله تعالى : وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَكْرُؤُونَ ﴿٥﴾

أى الأرض ومن عليها ، ولا يبقى شيء سوانا ، نظيره « إِنَّا نَحْنُ تَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ »^(٦) . فلكل كل شيء لله تعالى . ولكن ملك عباده أملاكا فإذا ماتوا انقطعت

(١) كذا في الأصل . (٢) الموامل : الإبل الهائلة . والثانان : الأنين . والثاب : الطاقة المسنة .
والخائل : القى لم تحمل . (٣) راجع ج ١ ص ١٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ٤٨ سورة الفرقان .
(٥) آية ١٨ سورة المؤمنون . (٦) آية ٤٠ سورة مريم .

الدعوى، فكان الله وارثاً من هذا الوجه . وقيل : الإحياء في هذه الآية إحياء النطفة في الأرحام . فأما البعث فقد ذكره بعد هذا في قوله : « وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يُحْضِرُهُمْ » .

قوله تعالى : وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا
الْمُسْتَفْخِرِينَ ﴿٧٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ) فيه ثمان تأويلات : الأول — « المستقدمين » في الخلق إلى اليوم ، و « المستأخرين » الذين لم يخلقوا بعد ؛ قاله قتادة وعكرمة وغيرهما . الثاني — « المستقدمين » الأموات ، و « المستأخرين » الأحياء ؛ قاله ابن عباس والضحاك . الثالث — « المستقدمين » من تقدم أمة محمد ، و « المستأخرين » أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله مجاهد . الرابع — « المستقدمين » في الطاعة والخير ، و « المستأخرين » في المعصية والشر ؛ قاله الحسن وقتادة أيضاً . الخامس — « المستقدمين » في صفوف الحرب ، و « المستأخرين » فيها ؛ قاله سعيد بن المسيب . السادس — « المستقدمين » من قتل في الجهاد ، و « المستأخرين » من لم يقتل ؛ قاله القرطبي . السابع — « المستقدمين » أول الخلق ، و « المستأخرين » آخر الخلق ؛ قاله الشعبي . الثامن — « المستقدمين » في صفوف الصلاة ، و « المستأخرين » فيها بسبب النساء . وكل هذا معلوم لله تعالى ؛ فإنه عالم بكل موجود ومعدوم ، وعالم بمن خلق وما هو خالقه إلى يوم القيامة . إلا أن القول الثامن هو سبب نزول الآية ؛ لما رواه النسائي والترمذي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن الناس ، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لثلا يراها ، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر ، فإذا ركن نظر من تحت إبطه ، فانزل الله عز وجل : « وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ » . وروى عن أبي الجوزاء ولم يذكر ابن عباس . وهو أصح .

الثانية — هذا يدل على فضل أول الوقت في الصلاة وعلى فضل الصف الأول؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا". فإذا جاء الرجل عند الزوال فزّل في الصف الأول مجاور الإمام، حاز ثلاث مراتب في الفضل: أول الوقت، والصف الأول، ومجاورة الإمام. فإن جاء عند الزوال فزّل في الصف الآخر أو فيما نزل عن الصف الأول، فقد حاز فضل أول الوقت وفاته فضل الصف الأول والمجاورة. فإن جاء وقت الزوال ونزل في الصف الأول دون ما يلي الإمام فقد حاز فضل أول الوقت وفضل الصف الأول، وفاته مجاورة الإمام. فإن جاء بعد الزوال ونزل في الصف الأول فقد فاته فضيلة أول الوقت، وحاز فضيلة الصف الأول ومجاورة الإمام. وهكذا. ومجاورة الإمام لا تكون لكل أحد، وإنما هي كما قال صلى الله عليه وسلم: "يلبّي منكم أولو الأحلام والنهي" الحديث. فما يلي الإمام ينبغي أن يكون لمن كانت هذه صفته، فإن تركها غيره أضر وتقدم هو إلى الموضع؛ لأنه حقه بأمر صاحب الشرع، كالحجّاب هو موضع الإمام تقدم أو تأخر؛ قاله ابن العربي.

قلت: وعليه يحمل قول عمر رضي الله عنه: تأخر يا فلان، تقدم يا فلان؛ ثم يتقدم فيكبر. وقد روى عن كعب أن الرجل من هذه الأمة ليختر ساجدا فيغفر لمن خلفه. وكان كعب يتوسى الصف المؤخر من المسجد رجاء ذلك، ويذكر أنه وجدته كذلك في التوراة. ذكره الترمذي الحكيم في نوادر الأصول. وسيأتي في سورة «الصفافات» زيادة بيان لهذا الباب إن شاء الله تعالى.

الثالثة — وكما تدل هذه الآية على فضل الصف الأول في الصلاة، فكذلك تدل على فضل الصف الأول في القتال؛ فإن القيام في نحر العدو، وبيع العبد نفسه من الله تعالى لا يوازيه عمل؛ فالتقدم إليه أفضل، ولا خلاف فيه ولا خفاء به. ولم يكن أحد يتقدم في الحرب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان أشجع الناس. قال البراء: كنا والله إذا حمز الباس ننتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به، يعني النبي صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى : وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ) أى للحساب والجزاء . (إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) تقدم .^(١)

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ) يعنى آدم عليه السلام . (مِنْ صَلْصَالٍ) أى من طين يابس ، عن ابن عباس وغيره . والصلصال : الطين الحتر خلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جف ، فإذا طيخ بالنار فهو الفخار ، عن أبى عبيدة . وهو قول أكثر المفسرين . وأنشد أهل اللغة :

كَمْثَوِ الْمُصْلَصِلِ الْجَوَالِ^(٢) *

وقال مجاهد : هو الطين المتيّن ، واختاره الكسائى . قال : وهو من قول العرب : صلّ القمّ وأصل إذا أتت - مطبوخا كان أو نيئا - يصل صلولا . قال الخطيب :

ذالك قَمِي يَسْتَلُّ ذَا قَبْذِرِهِ * لَا يُفْسِدُ الْقَمَّ لَدَيْهِ الصَّلُولُ

وطين صلال ومصلال ، أى يصوّت إذا نقرته كما يصوّت الحديد . فكان أوّل ترابا ، أى متفرق الأجزاء ثم بُلّ فصار طينا ، ثم ترك حتى أتت فصار حمّا مسنونا ، أى متغيرا ، ثم يابس فصار صلصالا ، على قول الجمهور . وقد مضى فى «البقرة» بيان هذا . والحمّ : الطين الأسود ، وكذلك الحمأة بالتسكين ، تقول منه : حمئت البئر حمّا (بالتسكين) إذا تزعت حماتها . وحمئت البئر حمّا (بالتحريك) كثرت حماتها . وأحماتها إحماء ألقيت فيها الحمأة ، عن ابن السكيت . وقال أبو عبيدة : الحمأة (بسكون الميم) مثل الكأّة . والجمع حمّ ، مثل تمره وتمر . والحمّ المصدر ، مثل الملح والجزع ، ثم شئى به . والمسنون المتغير . قال ابن عباس : هو التراب المبثّل المنقّ ،

(١) راجع ج ١ ص ٢٨٧ طبع ثانية أو ثالثة . (٢) هذا مجزأ البيت . وقامه كما فى اللسان :

متريين تعدد إذا مبالوا * كمدو المصلصل الجوال

(٣) راجع المسألة الأولى ج ١ ص ٢٧٩ طبع ثانية أو ثالثة .

بفعل صلبا لا كالفتح. ومثله قول مجاهد وقتادة، قالا : المتن المتغير؛ من قولهم : قد
أسن الماء إذا تغير؛ ومنه «يَسْنَهُ» و «مَاءٌ فَيَرَّ أَسْنٌ» . ومنه قول أبي قيس بن الأسلت :
سقت صدأى رُصَابَا غير ذى أسن * كالمسك فُت على ماء العناقيد

وقال الفراء : هو المتغير، وأصله من قولهم : سَنَتَ الحجر على الحجر إذا حككته به، وما يخرج
من الحجرين يقال له السنانة والسنين؛ ومنه المسن . قال الشاعر :
ثم خاصرْتُها إلى القبة الجم * راء تمشى في مَرَمَرٍ مَسْنُونٍ^(١)

أى محكوك مُمسَس . حكى أن يزيد بن معاوية قال لأبيه : ألا ترى عبد الرحمن بن حسان
يُسَبِّبُ بابتك . فقال معاوية : وما قال ؟ فقال قال :

هـى زَهْرَاءُ مِثْلُ لَوْلَاةِ النَّوْ * اص مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونٍ

فقال معاوية : صدق ! فقال يزيد : [إنه يقول^(٢)] :

وإذا ما نَسَبْتُها لم تجدها * فى سَناء من المكارم دون

فقال : صدق ! فقال : أين قوله : ثم خاصرتها ... البيت . فقال معاوية : كذب . وقال
أبو عبيدة : المسنون المصبوب، وهو من قول العرب : سَلَنْتَ الماء وغيره على الوجه إذا
صببته . والسَّن الصب . وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : المسنون الرطب؛
وهذا بمعنى المصبوب؛ لأنه لا يكون مصبوبا إلا وهو رطب . النحاس : وهذا قول حسن؛
لأنه يقال : سَنَنْتُ الشيء أى صببته . قال أبو عمرو بن العلاء : ومنه الأثر المروى^(٣) عن عمر
أنه كان يَسْنُ الماء على وجهه ولا يَسْنَهُ . والشَّن (بالشين) تفريق الماء، وبالسین المهملـة
صبه من غير تفريق . وقال سيبويه : المسنون المصبور . أخذ من سَنَةِ الوجه وهو صورته .
وقال ذو الرمة :

ثُرَيْكٌ سُنَّةٌ وَجْهِهِ مُقْصِرَةٌ * مِلْسَاءٌ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلَا نَدَبٌ^(٤)

(١) فى اللسان : الخضر . (٢) الزيادة عن اللسان . (٣) فى نهاية ابن الأثير : «ابن عمر» .

(٤) السنة : الصورة . والمقرفة : التى دنت من الهبة . والتدب : الأثر من الجراح والقروح . وقوله :
غير مقرفة ؛ أى غير هجيئة ، ضيقة كريمة .

وقال الأخصش : المستون المنصوب القائم ، من قولهم : وجه مسنون إذا كان فيه طول . وقد قيل : إن الصلصال التراب المدقق ، حكاه المهدوي . ومن قال : إن الصلصال هو المنتن فأصله صلال ، فأبدل من إحدى اللامين الصاد . و « مِنْ حَمَلٍ » مفسر لحسن الصلصال ؛ كقولك : أخذت هذا من رجل من العرب .

قوله تعالى : **وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ** ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل خلق آدم . وقال الحسن : يعنى إبليس ، خلقه الله تعالى قبل آدم عليه السلام . وسُمِّيَ جَانًّا لتواريه عن الأعين . وفي صحيح مسلم من حديث ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما صور الله تعالى آدم عليه السلام فى الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يملك^(١) » . ﴿ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ قال ابن مسعود : نار السموم التى خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءا من نار جهنم . وقال ابن عباس : السموم الريح الحارة التى تقتل . وعنه : أنها نار لادخان لها ، والصواعق تكون منها ، وهى نار تكون بين السماء والجباب . فلذا أحدث الله أمرها احترقت الجباب فهوت الصاعقة إلى ما أمرت . فالهامة التى تسمعون نرق ذلك الجباب . وقال الحسن : نار السموم نار دونها خباب ، والذى تسمعون من انقطاع السحاب صوته . وعن ابن عباس أيضا قال : كان إبليس من حى من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة — قال — : وخلق الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار .

قلت : هذا فيه نظر ، فإنه يحتاج إلى سند يقطع العذر ؛ إذ مثله لا يقال من جهة الرأى . وقد تخرج مسلم من حديث عروة عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم » .

(١) أى لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات . وقيل : لا يملك نفسه عند الغضب . وقيل : لا يملك دفع الرواس عنه . (٢) المدة : صوت وقع الحائط ونحوه .

فقوله : " خلقت الملائكة من نور " يقتضى العموم . والله أعلم . وقال الجوهرى : مارج من نار نارٌ لا دخان لها خلق منها الجن ، والسموم الريح الحارة تؤث ؛ يقال منه : سمٌ يؤمنا فهو يوم مسموم ، والجمع سمائم . قال أبو عبيدة : السُّموم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار ، القشيري : وسُميت الريح الحارة سموما لدخولها في مسام البدن .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ) تقدم في «البقرة» . (إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ) من طين (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ) أى سَوَّيت خلقه وصورته . (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي) النفخ إجراء الريح في الشيء . والروح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم . وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ؛ فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً ؛ كقوله : " أرضى وسمائي وبنى وناقة الله وشهر الله " . ومثله « وَرُوحٌ مِّنْهُ » وقد تقدّم في « النساء » مبيّناً . وذكرنا في كتاب (التذكرة) الأحاديث الواردة التي تدل على أن الروح جسم لطيف ، وأن النفس والروح اسمان لمسمى واحد . وسيأتى ذلك إن شاء الله . ومن قال إن الروح هو الحياة قال أراد : فإذا رُكبت فيه الحياة . (فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) أى خروا له ساجدين . وهو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة . والله أن يفضل من يريد ؛ ففضل الأنبياء على الملائكة . وقد تقدم في « البقرة » هذا المعنى . وقال القفال : كانوا أفضل من آدم ، وأمتحنهم بالسجود له تعريضا لهم للثواب الجزيل . وهو مذهب المعتزلة . وقيل : أمروا بالسجود لله عند آدم ، وكان آدم قبله لهم .

(١) راجع ج ١ ص ٢٦١ طبة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع ج ٦ ص ٢٢ طبة أول أو ثانية .

(٣) راجع ج ١ ص ٢٩١ وما بعدها . طبة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ، إِلَّا إِبْلِيسَ) فيه مستثنان :
 الأولى — لا شك أن إبليس كان مأمورا بالسجود ؛ لقوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ » وإنما منعه من ذلك الاستكبار والاستعظام ؛ كما تقدم في « البقرة » بيانه .
 ثم قيل : كان من الملائكة ؛ فهو استثناء من الجنس . وقال قوم : لم يكن من الملائكة ؛ فهو استثناء منقطع . وقد مضى في « البقرة » هذا كله مستوفى . وقال ابن عباس : ابان أبو الجن وليسوا شياطين . والشياطين ولد إبليس ، لا يموتون إلا مع إبليس . والجن يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر . قادم أبو الإنس . والجانب أبو الجن . وإبليس أبو الشياطين ؛ ذكره الماوردي . والذي تقدم في « البقرة » خلاف هذا ، فتأمله هناك .

الثانية — الاستثناء من المجلس غير الجنس صحيح عند الشافعي ، حتى لو قال : فلان على دينار إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا قفيز حنطة ، وما جانس ذلك كان مقبولا ، ويسقط عنه من المبلغ قيمة الثوب والحنطة . ويستوى في ذلك المكيلات والموزونات والمقدرات . وقال مالك وأبو حنيفة رضى الله عنهما : استثناء المكيل من الموزون والموزون من المكيل جائز ، حتى لو استثنى الدراهم من الحنطة والحنطة من الدراهم قبل . فاما إذا استثنى المقومات من المكيلات أو الموزونات ، والمكيلات من المقومات ، مثل أن يقول : على عشرة دنانير إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا دينارا لا يصح الاستثناء ، ويلزم المقتضى جميع المبلغ . وقال محمد بن الحسن : الاستثناء من غير الجنس لا يصح ، ويلزم المقتضى جملة ما اقتربه . والدليل

(١) آية ١٢ سورة الأعراف . راجع ج ٧ ص ١٦٩ طبعه أدل أو ثانية . (٢) راجع ج ١ ص ٢٩٦ طبعه ثانية أو ثالثة . (٣) راجع ج ١ ص ٢٩٤ طبعه ثانية أو ثالثة .

لقول الشافعي أن لفظ الاستثناء يستعمل في الجنس وغير الجنس؛ قال الله تعالى : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا » فاستثنى السلام من جملة اللغو . ومثله « فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إِلَّا إِبْلِيسَ » وإبليس ليس من جملة الملائكة؛ قال الله تعالى : « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » . وقال الشاعر :

وبلدة ليس بها أنيس * إلا اليعاقبة وإلا العيس

فاستثنى اليعاقبة وهي ذكور الظباء ، والعيس وهي الجمال البيض من الأنيس ؛ ومثله قول النابغة :

... * ...

قوله تعالى : قَالَ يَتَّبِعْ إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٦﴾
قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَعْبُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٧﴾
قَالَ فَاتُخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٩﴾
قوله تعالى : (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ) أى ما المانع لك ، (أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)
أى فى ألا تكون . (قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَعْبُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ) بين
تكبره وحسده ، وأنه خير منه ، إذ هو من نار والنار تأكل الطين ؛ كما تقدم فى « الأعراف »
بيانه . (قَالَ فَاتُخْرِجْ مِنْهَا) أى من السموات ، أو من جنة عدن ، أو من جملة الملائكة .
(فَإِنَّكَ رَجِيمٌ) أى مرجوم بالذهب . وقيل : ملعون مشنوم . وقد تقدم هذا كله مستوفى
فى البقرة والأعراف . (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ) أى لعنتى ؛ كما فى سورة « ص » .

(١) آية ٢٥ سورة الواقعة . (٢) آية ٥٠ سورة الكهف . (٣) لم يذكر المؤلف درجة الله عليه
قول النابغة ، أو لعله سقط من النسخ . ولعله يشير إلى قوله :

حلفت يميناً غير ذى مشنوية * ولا علم إلا حسن ظن بصاحب

وهذا البيت أورده سيوريه فى كتابه شاهد على نصب ما يند إلا على الاستثناء المتقطع ؛ لأن حسن الظن ليس من العلم
والمشنوية : الاستثناء فى العيين . والمعنى : حلفت غير مستثنى فى يمين حسن ظن منى بصاحبى تام عدى مقام العلم الذى يوجب
اليمين . (راجع كتاب سيوريه) . (٤) راجع ج ٧ ص ١٧٠ طبعة أولى أو ثانية . (٥) آية ٧٨ .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٦١﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿١٦٣﴾

قوله تعالى : (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) هذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمزله عند الله تعالى ، وأنه أهل أن يحاب له دعاء ؛ ولكن سأل تأخير عذابه زيادة في بلائه ؛ كفعل الآيس من السلامة . وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يبعثون : ألا يموت ؛ لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده . قال الله تعالى : (فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ) يعنى من المؤجلين . (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) قال ابن عباس : أراد به النفخة الأولى ، أى حين تموت الثلاثي . وقيل : الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ، ويجهله إبليس . فيموت إبليس ثم يبعث ؛ قال الله تعالى : « كُلُّ مِّنْ عَلَيْنَا فَاِنٌ ^(١) » . وفى كلام الله تعالى له قولان : أحدهما — كلمه على لسان رسوله . الثانى — كلمه تليظا فى الوعيد لا على وجه التكرمة والتقريب .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٤﴾

قوله تعالى : (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ) تقدم معنى الإغواء والزينة فى الأعرف ^(٢) . وترينه هنا يكون بوجهين : إما بفعل المصاعى ، وإما بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعة . ومعنى (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) أى لأضلنهم عن طريق الهدى . وروى ابن لمبة عبد الله عن نرجس أبى السمع عن أبى الميهم عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس قال يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم فقال الرب وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى " .

(١) آية ٢٦ سورة الرحمن . (٢) راجع ج ٧ ص ١٧٤ و ١٩٥ طبة أدلى أرفانية .

قوله تعالى : **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْأَخْلَاصِينَ** ﴿٤٠﴾

قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام ؛ أى الذين استخلصتهم وأخلصتهم . وقرأ الباقون بكسر اللام ؛ أى الذين أخلصوا لك العبادة من فساد أو رياء . حكى أبو ثمامة أن الحواريين سألوا عيسى عليه السلام عن المخلصين لله فقال : « الذى يعمل ولا يجب أن يحمد الناس » .

قوله تعالى : **قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ** ﴿٤١﴾

قال عمر بن الخطاب : معناه هذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهتد به على الجنة . الحسن : « على » بمعنى إلى . مجاهد والكسائي : هذا على الوعيد والتهديد ؛ كقولك لمن تهتده : طريقك على ومصيرك إلى . وكقوله : « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ ^(١) » . فكان معنى الكلام : هذا طريق مرجعه إلى فأجازى كلاً بعمله ، يعنى طريق العبودية . وقيل : المعنى على أن أدخل على الصراط المستقيم بالبيان والبرهان . وقيل : بالتوفيق والهداية . وقرأ ابن سيرين وقتادة والحسن وقيس بن عباد وأبو رعاء وحميد ويعقوب « هذا صراط على مستقيم » برفع « على » وتنوينه ؛ ومعناه رفيع مستقيم ، أى رفيع فى الدين والحق . وقيل : رفيع أن يُنال ، مستقيم أن يمال .

قوله تعالى : **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ آتَبَعَكَ**

مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : **(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)** قال العلماء : يعنى

على قلوبهم . وقال ابن عينة : أى فى أن يقيمهم فى ذنب يمنهم غسوى ويضيقة عليهم . وهؤلاء الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم .

قلت : لعل قائلا يقول : قد أخبر الله عن صفة آدم وحواء طهما السلام بقوله : « فَازْكُمَا الشَّيْطَانُ ^(١) » ، وعن جملة من أصحاب نبيه بقوله : « إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ^(٢) » فالجواب ما ذكر ، وهو أنه ليس له سلطان على قلوبهم ، ولا موضع إيمانهم ، ولا يلقينهم في ذنب يؤول إلى صم القبول ، بل تزيله التوبة وتصحبه الأوبة . ولم يكن خروج آدم عقوبة لما تناول ، على ما تقدم في « البقرة ^(٣) » بيانه . وأما أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقد مضى القول عنهم في آل عمران ^(٤) . ثم إن قوله سبحانه : « ليس لك عليهم سلطان » يحتمل أن يكون خاصا فيمن حفظه الله ، ويحتمل أن يكون في أكثر الأوقات والأحوال ، وقد يكون في تسلمه تفریح كربة وإزالة غمة ؛ كما فعل ببلال ، إذ أتاه يهتدي كما يهتدى الصبي حتى نام ، ونام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يستيقظوا حتى طلعت الشمس ، وفزعوا وقالوا : ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا ؟ فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس في النوم تفريط » ففزع عنهم . (إِلَّا مَن أَتَى مِنَ الْفَافِينَ) أى الضالين المشركين . أى سلطانه على هؤلاء ؛ دليله « إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ^(٥) » .

الثانية — وهذه الآية والتي قبلها دليل على جواز استثناء القليل من الكثير والكثير من القليل ، مثل أن يقول : عشرة إلا درهما . أو يقول : عشرة إلا تسعة . وقال أحمد ابن حنبل : لا يجوز أن يستثنى إلا قدر النصف لها دونه . وأما استثناء الأكثر من الجملة فلا يصح . ودليلنا هذه الآية ، فإن فيها استثناء « الفافين » من العباد والعباد من الفافين ، وذلك يدل على أن استثناء الأقل من الجملة واستثناء الأكثر من الجملة جائز .

قوله تعالى : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٥٥﴾ هَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿١٥٦﴾

(١) آية ٣٦ سورة البقرة . (٢) آية ١٥٥ سورة آل عمران ، ج ٤ ص ٢٤٣ طبعة أدل أو ثانية .

(٣) راجع ج ١ ص ٣٢١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ١٠٠ سورة النحل .

قوله تعالى : (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْءِدُهُمْ أَجْمَعِينَ) يعنى إبليس ومن اتبعه . (هَلَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ) أى أطباق ، طبق فوق طبق (لكل باب) أى لكل طبقة (مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ) أى حظ معلوم . ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا إبراهيم أبو هارون الفنى قال : سمعت جحطان ابن عبد الله الرقاشى يقول سمعت علياً رضى الله عنه يقول : هل تدرون كيف أبواب جهنم ؟ قلنا : هى مثل أبوابنا . قال لا ، هى هكنا بعضها فوق بعض ، — زاد الثعلبى : ووضع إحدى يديه على الأخرى — وأن الله وضع الجحنان على الأرض ، واليران بعضها فوق بعض ، فأسفلها جهنم ، وفوقها الحطمة ، وفوقها سقر ، وفوقها الجحيم ، وفوقها لظى ، وفوقها السعير ، وفوقها الهاوية ، وكل باب أشد حرا من الذى يليه سبعين مرة .

قلت : كذا وقع هذا التفسير . والذى عليه الأكثر من العلماء أن جهنم أعلى التركات ، وهى مختصة بالعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى التى تخلى من أهلها فتصفق الرياح أبوابها . ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم سعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية . قال الضحاك : فى الترك الأعلى للمحمديون ، وفى الثانى النصارى ، وفى الثالث اليهود ، وفى الرابع الصابئون ، وفى الخامس المجوس ، وفى السادس مشركو العرب ، وفى السابع المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المائدة . قال الله تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » — وقد تقدم فى النساء (١) ، وقال : « ادْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » ، وقال : « مَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِيثَاقِهِ فَأَنَّى يُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » (٢) . وقسم معاذ بن جبل رضى الله عنه العلماء السوء من هذه الأمة تقسيما على تلك الأبواب ؛ ذكرناه فى كتاب (التذكرة) . وروى الترمذى من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سَلَّ سيفه على أمته » قال : حديث غريب . وقال أبى بن كعب : لجهنم سبعة أبواب باب منها للحرورية (٤) . وقال وهب بن منبه : بين كل بايين مسيرة سبعين

(١) راجع ج ٥ ص ٢٤٤ طبة أول أورثانية . (٢) آية ٤٦ سورة غافر . (٣) آية ١١٥ سورة المائدة .

(٤) فى كتاب الدر المنثور للسيوطى : « قال كعب رضى الله عنه : للشهد نور ، ولن قاتل الحرورية عشرة

أنوار . وكان يقول : لجهنم سبعة أبواب ، باب منها الحرورية . قال : ولقد خربوا فى زمان دأود عليه السلام . »

سنة، كل باب أشد حراً من الذى فوقه بسبعين ضعفاً. وقد ذكرنا هذا كله فى كتاب التذكرة.

وروى سلام الطويل عن أبى سفیان عن أنس بن مالك عن النبىِّ صلى الله عليه وسلم فى قول الله تعالى : « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا فى الله، وجزء غفلوا عن الله، وجزء آثروا شهواتهم على الله، وجزء شفقوا غيظهم بغضب الله، وجزء صبروا رغبتهم بحظهم من الله، وجزء عتوا على الله. ذكره الحليمى أبو عبد الله الحسين بن الحسن فى كتاب (منهاج الدين) له، وقال : فإن كان ثابتاً فالمشركون بالله هم التتوية. والشاكون هم الذين لا يدرون أن لهم إلهاً أولاً لله لهم، ويشكون فى شريعته أنها من عنده أم لا. والغاللون عن الله هم الذين يحلونه أصلاً ولا يثبتونه، وهم الدهرية. والمؤثرون شهواتهم على الله هم المنهمكون فى المعاصى؛ لتكذيبهم رسل الله وأمره ونهيه. والشافون غيظهم بغضب الله هم القاتلون أنبياء الله وسائر الدارين إليه، المعدون من ينصح لهم أو يذهب غير مذهبهم. والمصبرون رغبتهم بحظهم من الله هم المتكرون بالبعث والحساب؛ فهم يعبدون ما يرغبون فيه، لهم جميع حظهم من الله تعالى. والعاتون على الله الذين لا يبالون، بأن يكون ما هم فيه حقاً أو باطلاً، فلا يتفكرون ولا يعتبرون ولا يستدلون. والله أعلم بما أراد رسوله صلى الله عليه وسلم إن ثبت الحديث. وروى أن سابان الفارسمى رضى الله عنه لما سمع هذه الآية « وإن جهنم لموعدهم أجمعين » فتر ثلاثة أيام من الخوف لا يعقل، بغيره به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : يا رسول الله، أنزلت هذه الآية « وإن جهنم لموعدهم أجمعين » ؟ فوالذى بعثك بالحق لقد قطعت قلبي؛ فأنزله الله تعالى « إنا المتقين فى جنات ونعيم » . وقال بلال : « كان النبىِّ صلى الله عليه وسلم يصل فى مسجد المدينة وحده، فمرت به امرأة أعرابية فصلت خلفه ولم يعلم بها، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » فخرت الأعرابية مغشياً عليها، وسمع النبىِّ صلى الله عليه وسلم وجبتها فانصرف ودعا بماء فصب

على وجهها حتى أفادت وجلست، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا هذه مالك؟" فقالت: أهدأ شيء من كتاب الله المنزل، أو قوله من تلقاء نفسك؟ فقال: "يا أعرابية، بل هو من كتاب الله تعالى المنزل" فقالت: كل عضو من أعضائي يعذب على كل باب منها؟ قال: "يا أعرابية، بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذب أهل كل منها على قدر أعمالهم" فقالت: والله إنني امرأة مسكينة، مالى مال، ومالى إلا سبعة أعبد، أشهدك يا رسول الله، أن كل عبد منهم عن كل باب من أبواب جهنم حرج لوجه الله تعالى. فأنام جبريل فقال: "يا رسول الله، بشر الأعرابية أن الله قد حرم عليها أبواب جهنم كلها وفتح لها أبواب الجنة كلها".

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ﴾ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ

﴿أَمِينٍ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أى الذين اتقوا الفواحش والشرك. (فِي جَنَّاتٍ) أى بساتين. (وَعُيُونٍ) هى الأنهار الأربعة: ماء ونهر ولبن وعسل. وأما العيون المذكورة فى سورة «الإنسان»: الكافور والزنجبيل والسلسيل، وفى «المطففين»: التسليم، فأتى ذكرها وأهلها إن شاء الله. وضم العين من «عُيُونٍ» على الأصل، والكسر مراعاة للياء، وقرئ بهما. (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ أَمِينٍ) قراءة العامة «ادخلوها» بوصل الألف وضم الخاء، من دخل بدخل، على الأمر. تقديره: قيل ادخلوها. وقرأ الحسن وأبو العالية ورؤيس عن يعقوب «ادخلوها» بضم التنوين ووصل الألف وكسر الخاء على الفعل المجهول، من أدخل. أى أدخلهم الله إياها. ومذهبهم كسر التنوين فى مثل «رحمة أدخلوا الجنة» وشبهه؛ إلا أنهم هاهنا ألغوا حركة الهمزة على التنوين؛ إذ هى ألف قطع، ولكن فيه انتقال من كسر إلى ضم ثم من ضم إلى كسر فيثقل على اللسان. (بِسَلَامٍ) أى بسلامة من كل داء وآفة. وقيل: بتيحة من الله لهم. (أَمِينٍ) أى من الموت والعذاب والعزل والزوال.

قوله تعالى : وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَيْلٍ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٣١﴾ لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ ﴿٣٢﴾

قال ابن عباس : أزل ما يدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عيان، فيشربون من إحدى العينين فيذهب الله ما في قلوبهم من غل، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم، وتجرى عليهم نضرة النعيم، ونحوه عن علي رضي الله عنه . وقال علي بن الحسين : نزلت في أبي بكر وعمر وعلي والصحابه، يعني ما كان بينهم في الجاهلية من الغل . والقول الأول أظهر، يدل عليه سياق الآية . وقال علي رضي الله عنه : أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من هؤلاء . والغل : الحقد والعداوة؛ يقال منه : غل يغفل . ويقال من الغلول وهو السرقة من المغنم : غل يغفل . ويقال من الخيانة : أغل يغسل . كما قال :^(١)
جرى الله عنا حمزة بن نوفل * جزاء يغسل بالأمانة كاذب

وقد مضى هذا في آل عمران . ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلًا ومحبةً ؛ عن مجاهد وغيره . وقيل : الأسرة تدور كيفما شاعوا ، فلا يرى أحد قفا أحد . وقيل : « متقابلين » قد أقبلت عليهم الأزواج وأقبلوا عليهم بالود . وسُرُر جمع سرير . مثل جديد وجدد . وقيل : هو من السرور ؛ فكأنه مكان رفيع مهيأ للسرور . والأول أظهر . قال ابن عباس : على سرر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر ، السرير ما بين صنعاء إلى الجابية وما بين عدن إلى أيلة . « وإخوانا » نصب على الحال من « المتقين »^(٢)

(١) البيت للبربر بن تولب من أبيات في أم أولاده . وكان من حديثها أن أخاه الحارث بن تولب سيد قومه أثار على بني أسد فسي منهم امرأة منهم يقال لها « حمزة بنت نوفل » فوهبها لأخيه التفرقة فحبسها حتى استقرت وولدت له أولاداً ، ثم قالت له في بعض أيامها : إنني قد اشتقت إلى أهل ، فقال لها : إنني أخاف أن صرت إلى أهلك أن تظنني على نفسك فواتقه لترجعن إلي ، ثم خانت عهده . (راجع الأظاني ج ١٩ ص ١٥٨ طبع بولاق) .

(٢) راجع ج ٤ ص ٢٥٥ طبعة أول أوثانية . (٣) صنعاء : موضعان ، أحدهما بآمين وهي العظمى ، وأخرى قرية بالقطفة . والجابية : قرية من أعمال دمشق . وعدن : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن . وأيلة : مدينة على ساحل البحر الأحمر . (عن معجم البلدان) .

أو من المضمر في « ادخلوها » ، أو من المضمر في « آمين » ، أو يكون حالاً مقدرة من الماء والميم في « صدورهم » . (لَا يَسْمُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ) أى إعياء وتعب . (وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ) دليل على أن نعم الجنة دائم لا يزول ، وأن أهلها فيها باقون . أكلها دائم ؛ « إِنَّ هَذَا كِرْزُقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَقَادٍ » .

قوله تعالى : نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢١﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٢٢﴾

هذه الآية وزان قوله عليه السلام : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجهته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . وقد تقدم في الفاتحة . وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكر نفسه وغيره فيخوف ويرجى ، ويكون الخوف في الصلوة أغلب عليه منه في المرض . وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال : « أنضحكون وبين أيديكم الجنة والنار » فشق ذلك عليهم فنزلت الآية . ذكره الماوردي والمهدوي . ولفظ الثعلبي عن ابن عمر قال : أطلع علينا النبي صلى الله عليه وسلم من الباب الذي يدخل منه بنو شيبه ونحن نضحك فقال : « ما لكم تضحكون لا أراكم تضحكون » ثم أدر حتى إذا كان عند المخرج رجعت القهقري فقال لنا : « إني لما خرجت جاءني جبريل فقال يا محمد لم تقط عبادي من رحمتي » نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » . فالتقنوط إياس ، والرجاء إهمال ، وغير الأمور أوساطها .

قوله تعالى : وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٢٣﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٢٤﴾ قَالُوا لَا تَوَجَّلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٢٥﴾ قَالَ أَبَشِّرْهُنِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمِ الْبَشَرِ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (وَبَنَيْنَاهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ) ^(١) ضَيْفُ إِبْرَاهِيمَ : الملائكة الذين بشروه بالولد وبهلاك قوم لوط . وقد تقدم ذكرهم . وكان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان ، وكان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد . وسمى الضيف ضيفاً لإضافته إليك ونزوله إليك . وقد مضى من حكم الضيف في « هود » ما يكفي والمحمد لله . (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ) جمع الخبر لأن الضيف اسم يصلح للواحد والجمع والتثنية والمذكر والمؤنث كالمصدر . ضافه وأضافه أماله ؛ ومنه الحديث « حين تضيف الشمس للغروب » ، وضيفوفة السهم ، والإضافة النحوية . (فَقَالُوا سَلَامًا) أى سألوا سلاماً . (قَالَ إِنَا مِنْكُمْ وَكُمْ يَلُونُ) أى فزعون خائفون ، وإنما قال هذا بعد أن قرب السجل ورآهم لا يأكلون ، على ما تقدم في هود . وقيل : أنكر السلام ولم يكن في بلادهم رسم السلام . (قَالُوا لَا تَوَجَّلْ) أى قالت الملائكة لا تخف . (إِنَا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَالِمٍ) أى حليم ، قاله مقاتل . وقال الجمهور : عالم . وهو إسحاق . (قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَى أَنَّ مَسْنَى الْكِبَرِ) ^(٢) « أَنْتَ » مصدرية ؛ أى على مس الكبر إياى وزوجى ، وقد تقدم في هود وإبراهيم ؛ حيث يقول : « قِيمَ بُشِّرُونَ » استفهام تعجب . وقيل : استفهام حقيق . وقرأ الحسن « تَوَجَّلْ » بضم التاء . والأعشى « بَشِّرْتُمُونِي » بغير ألف ، ونافع وشيبة « بُشِّرُونَ » بكسر النون والتخفيف ؛ مثل « اتَّحَاجُونِي » ^(٣) وقد تقدم تعليله . وقرأ ابن كثير وابن عيص « بُشِّرُونَ » بكسر النون مشددة ، تقديره تبشروننى ، فأدغم النون فى النون . الباكون « بُشِّرُونَ » بنصب النون بغير إضافة .

قوله تعالى : قَالُوا بِشْرَنَّاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (قَالُوا بِشْرَنَّاكَ بِالْحَقِّ) أى بما لاخلف فيه ، وأن الولد لابد منه . (فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ) أى من الآيسين من الولد ، وكان قد أيس من الولد لفرط

(٢) راجع ج ٩ ص ٦٤ طبة أول أو ثانية .

(٤) راجع ج ٩ ص ٦٥ طبة أول أو ثانية .

(٦) راجع ج ٧ ص ٢٨ طبة أول أو ثانية .

(١) راجع ج ٩ ص ٦٢ طبة أول أو ثانية .

(٣) صاف السهم : عدل عن الهدف أو الزبية .

(٥) راجع ج ٩ ص ٦٩ و ٣٧٥

الكبر . وقراءة العامة « من القانطين » بالألف . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب « من القنطين » بلا ألف . وروى عن أبي عمرو . وهو مقصور من « القانطين » . ويجوز أن يكون من لغة من قال : قَنِطَ يَقْنُطُ ؛ مثل حَذِرَ يَحْذِرُ . وفتح النون وكسرها من « يقنط » لغتان قرئ بهما . وحكى فيه « يقنُط » بالضم . ولم يأت فيه « قَنُطَ يَقْنُط » . [و] من فتح النون في الماضي والمستقبل فانه جمع بين اللغتين ، فأخذ في الماضي بلغة من قال : قَنُطَ يَقْنُطَ . وفي المستقبل بلغة من قال : قَنِطَ يَقْنُطُ ؛ ذكره المهدوي .

قوله تعالى : قَالَ وَمَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ ۖ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٦٦﴾

أى المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب . يعنى أنه استبعد الولد لكبر سنه لا أنه قنط من رحمة الله تعالى .

قوله تعالى : قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٦٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٩﴾ إِلَّا أَمْرًا ۖ قَدَرْنَا لَهَا لِلْعَاثِ لِمَن نَّخْتَارُ ﴿٧٠﴾

فيه مستثانان :

الأولى — لما علم أنهم ملائكة — إذ أخبروه بأمر خارق للعادة وهو إسماعيل بالولد — قال : فما خطبكم ؟ والخطب الأمر الخطير . أى فما أمركم وشأنكم وما الذى جئتم به . ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ أى مشركين ضالين . وفي الكلام إضمار ؛ أى أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم . ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ أتباعه وأهل دينه . ﴿ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ ﴾ وقرأ حمزة والكسائى « لَمُنَجِّوهُمْ » بالتخفيف من أنجى . الباقيون : بالتشديد من نجى ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . والنتيجة والإنجاء التخليص . ﴿ إِلَّا أَمْرًا ۖ ﴾ استثنى من آل لوط أمراته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين في الملاك . وقد تاملت قصة قوم لوط

في «الأعراف» وسورة «هود» بما فيه كفاية . (١) «قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَن الْقَائِرِينَ» أي قضينا
وكتبنا إنما لمن الباقيين في العذاب . والغابر : الباقي .
قال : (٢)

لا تكسع الشؤل بأغبارها * إنك لا تدري من النابج

الأغبار بقايا اللبن . وقرأ أبو بكر والمفضل «قَدَرْنَا» بالتخفيف هنا وفي النمل ، وشدد
الباقون . المهرؤى : يقال قدر وقدر ، بمعنى .

الثانية - لا خلاف بين أهل اللسان وضيهم أن الاستثناء من النفي إثبات ومن
الإثبات نفي ؛ فإذا قال رجل : له على عشرة دراهم إلا أربعة إلا درهما ؛ ثبت الإقرار
بسبعة ؛ لأن الدرهم مستثنى من الأربعة ، وهو مثبت لأنه مستثنى من منفي ، وكانت الأربعة
منفية لأنها مستثناة من موجب وهو العشرة ، فعاد الدرهم إلى الستة فصارت سبعة . وكذلك
لو قال : على خمسة دراهم إلا درهما إلا ثلثه ؛ كان عليه أربعة دراهم وثلث . وكذلك إذا
قال : لفلان على عشرة إلا تسعة إلا ثمانية إلا سبعة ؛ كان الاستثناء الثاني راجعا إلى ما قبله ،
والثالث إلى الثاني فيكون عليه درهما ؛ لأن العشرة إثبات والثمانية إثبات فيكون مجموعها
ثمانية عشر . والتسعة نفي والسبعة نفي فيكون ستة عشر تسقط من ثمانية عشر ويبقى درهما ،
وهو القدر الواجب بالإقرار لا غير . فقوله سبحانه : «إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ نَبِيًّا . إِلَّا
آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمَجْعُومُهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا أَمْرَأَتَهُ» فاستثنى آل لوط من القوم المجرمين ، ثم قال :
«إلا أَمْرَأَتَهُ» فاستثنىها من آل لوط ، فرجعت في التأويل إلى القوم المجرمين كما بينا . وهكذا
الحكم في الطلاق ، لو قال لزوجته : أنت طالق ثلاثا إلا اثنتين إلا واحدة طلقت ثنتين ؛ لأن
الواحدة رجعت إلى الباقي من المستثنى منه وهي الثلاث . وكذا كل ما جاء من هذا فنفهمه .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤٣ طيبة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٩ ص ٦٢ طيبة أولى أو ثانية .

(٣) القائل هو الحارث بن حِزَّة . والكسع : ضرب ضرب الناقة بالماء البارد ليحبب لبنها ويزاد في ظهرها فيكون
أقوى لها على الجلب في العام القابل . والشؤل : جمع شائلة وهي من الإبل التي آق عليها من حملها أو وضعها مبعة
أشهر تلغف لبنها . والأغبار : جمع الغبر ، وهي بقية اللبن في الضرع . (٤) في قوله تعالى : «فَاتَّبِعْنَاهُ وَأَهْلَهُ...» آية ٥٧ هـ

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٩﴾ فَأَسِرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : (فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ) أى لا أعرفكم . وقيل : كانوا شبابا ورأى جمالا يخاف عليهم من فتنة قومه ؛ فهذا هو الإنكار . (قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ) أى يشكون أنه نازل بهم ، وهو العذاب . (وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ) أى بالصدق . وقيل : بالعذاب . (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) أى فى هلاكهم . (فَأَسِرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ) تقدم فى هود . (وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ) أى كن من ورائهم لئلا يتخلف منهم أحد فيناله العذاب . (وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ) نُهَوِا عن الالتفات ليجتنبوا فى السير ويتابعوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح . وقيل : المعنى لا يتخلف . (وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ) قال ابن عباس : يعنى الشام . مقاتل : يعنى صَفَدَ ، قرية من قرى لوط . وقد تقدم . وقيل : لأنه مضى إلى أرض الخليل بمكان يقال له اليقين ، وإنما سمي اليقين لأن إبراهيم لما خرجت الرسل شيعهم ، فقال لجبريل : من أين يخسف بهم ؟ قال : « من ها هنا » وحذله حذاً ، وذهب جبريل ؛ فلما جاء لوط جلس عند إبراهيم وارتقبا ذلك العذاب ، فلما اهترت الأرض قال إبراهيم : « أيقنت بالله » فسمى اليقين .

قوله تعالى : وَوَضِعْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٧١﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٧٢﴾ قَالَ إِنَّ هَتُولَاءِ ضَيْقِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٧٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٧٤﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَكُنْ نَهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ هَتُولَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ أى أوحينا إلى لوط . ﴿ ذَلِكَ الْأَمْرُ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ نظيره « قَطَعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا » . ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ أى عند طلوع الصبح . وقد تقدم . ﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ﴾ أى أهل مدينة لوط . ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ مستبشرين بالاضيايف طمعا منهم فى ركوب الفاحشة . ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي ﴾ أى اضيافى . ﴿ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ أى تحجلون . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ يحوز أن يكون من الخزي وهو الذل والهوان ، ويجوز أن يكون من الخزاية وهو الحياء والحجل . وقد تقدم فى هود . ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالِينَ ﴾ أى عن أن تضيف أحدا لأننا نريد منهم الفاحشة . وكانوا يقصدون بفعلهم الغرباء ، عن الحسن . وقد تقدم فى الأعراف . وقيل : أَوَلَمْ تَنْهَكَ عَنْ أَنْ تَكَلِّمْنَا فى أحد من الناس إذا قصدها بالفاحشة . ﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أى قتر وجهن ولا تركنوا إلى الحرام . وقد تقدم بيان هذا فى هود .^(١)

قوله تعالى : لَعَنَّاكَ إِنَّهُمْ لَكَاكِبٌ لَقِيَ سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٦﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال القاضى أبو بكر بن العري : قال المفسرون بأجمعهم أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفا له ، أن قومه من قريش فى سكرتهم يعمهون وفى حيرتهم يترددون .

قلت : وهكذا قال القاضى عياض : أجمع أهل التفسير فى هذا أنه قسم من الله جلّ جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم . وأصله ضم العين من العمر ولكنها فُتحت لكثرة الاستعمال . ومعناه وبقائك يا محمد . وقيل وحيائك . وهذا نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف . قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أكرم البرية عنده . قال ابن العري : « ما الذى يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط ويبلغ به من التشريف

(١) راجع ج ٦ ص ٢٧ طبة أول أرتانية . (٢) راجع ج ٩ ص ٧٧ طبة أول أرتانية .
(٣) راجع ج ٧ ص ٢٤٥ طبة أول أرتانية . (٤) راجع ج ٩ ص ٧٦ طبة أول أرتانية .

ما شاء، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يُرقى ضعفه من شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أكرم على الله منه ؛ أو لا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيم الخليل وموسى التكليم فأعطى ذلك لمحمد، فإذا أقسم بحياة لوط بحياة محمد أرفع . ولا يخرج من كلام إلى كلام لم يخرج له ذكر لغير ضرورة .

قلت : ما قاله حسن ؛ فإنه كان يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلى الله عليه وسلم كلاما معترضا في قصة لوط . قال القشيري أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم في تفسيره : ويحتمل أن يقال : يرجع ذلك إلى قوم لوط، أي كانوا في سكرتهم يعمهون . وقيل : لنا وعظ لوط قومه وقال هؤلاء بناتي قالت الملائكة : يا لوط ، « لعمرك إنهم ألقى سكرتهم يعمهون » ولا يدرون ما يحمل بهم صباحا . فإن قيل : فقد أقسم تعالى بالتين والزيتون وطور سينين ؛ فما في هذا ؟ قيل له : ما من شيء أقسم الله به إلا وذلك دلالة على فضله على ما يدخل في عداده ، فكذلك نبينا صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون أفضل ممن هو في عداده . والعمر والمعمر (بضم العين وفتحها) لغتان ومعناها واحد ؛ إلا أنه لا يستعمل في القسم إلا بالفتح لكثرة الاستعمال . وتقول : عمرك الله ، أي أسأل الله تميرك . و « لعمرك » رفع بالابتداء وخبره محذوف . المعنى لعمرك مما أقسم به .

الثانية — كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان لعمرى ؛ لأن معناه وحياتي . قال إبراهيم النخعي : يكره للرجل أن يقول لعمرى ؛ لأنه حلف بحياة نفسه ، وذلك من كلام ضعفة الرجال . ونحو هذا قال مالك : إن المستضعفين من الرجال والمؤنثين يقسمون بحياتك وعيشك ، وليس من كلام أهل الدُّخْران ، وإن كان الله سبحانه أقسم به في هذه القصة ، فذلك بيان لشرف المنزل والرفعة لمكانه ، فلا يحمل عليه سواء ولا يستعمل في غيره . وقال ابن حبيب : ينبغي أن يُصرف « لعمرك » في الكلام لهذه الآية . وقال قتادة : هو من كلام العرب . قال ابن العربي : وبه أقول ، لكن الشرع قد قطعه في الاستعمال وردَّ القسم إليه .

قلت : القسم بـ « لعمرك ولعمرى » ونحوه في أشعار العرب وفصح كلامها كثير .

قال النابغة :

(١) لَعْمَرِي وَمَا عَمَرِي عَلَى بَهَيْنٍ * لَقَدْ تَطَقَّتْ بَطْلًا عَلَى الْأَفَارِيعِ

آخر :

(٢) لَعْمَرُكَ إِنْ مَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى * لِكَالطَّوْلِ الْمُرْتَحَى وَثِيَاءَ بِالْيَدِ

آخر :

أَيُّهَا الْمَنْكَحُ السُّرْتَا سُبَيْلًا * عَمَرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ

آخر :

إِذَا رَضِيتُ عَلَى بَنُو قُشَيْرٍ * لَعْمَرُ اللَّهِ أَعْجِبْنِي رِضَاهَا

وقال بعض أهل المعاني : لا يجوز هذا ؛ لأنه لا يقال لله عمر ، وإنما هو تعالى أزل . ذكره الزهراوى .

الثالثة — قد مضى الكلام فيما يُحْلَفُ به وما لا يجوز الحلف به فى « المسألة » ، وذكرنا هناك قول أحمد بن حنبل فىمن أقسم بالنبي صلى الله عليه وسلم لزمته الكفارة . قال ابن خُوَيْرِمْ مَتَدَاد : من جَوَزَ الحلف بغير الله تعالى بما يجوز تعظيمه بحق من الحقوق فليس يقول إنها عين لتعلقها بكفارة ؛ إلا أنه من قصد الكذب كان ملوما ؛ لأنه فى الباطن مستخف بما وجب عليه تعظيمه . قالوا : وقوله تعالى « لعمرك » أى وحياك . وإذا أقسم الله تعالى بحياة نبيه فإنما أراد بيان التصريح لنا أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته . وعلى مذهب مالك معنى قوله : « لعمرك » و « التين والزيتون » « والطور » وَكِتَابُ الْمَسْطُورِ » « والنجم إذا هوى » « وَالشَّمْسُ وَنُجُجَهَا » « لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَوَالِدُ مَا وَلَدْتَ » كل هذا معناه : وخالق التين والزيتون ، ورب الكتاب المسطور ، ورب البلد الذى حلت به ، وخالق عيشك وحياتك ، وحق محمد ، فاليمين والقسم حاصل به سبحانه لا بالمخلوق . قال ابن خُوَيْرِمْ مَتَدَاد : ومن جَوَزَ اليمين بغير الله تعالى فأقول قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تحلفوا

(١) أراد بالأفاريع بن قريظ بن حوف ، وكانوا قد وشوا به إلى النعمان . (٢) البيت لطرفة بن العبد .
(٣) راجع ج ٦ ص ٢٦٤ وما بعدها طيبة أرلى أرفاقية .

بِآبَائِكُمْ" وقال : إنما نهي عن الحلف بالآباء الكفار ، ألا ترى أنه قال لما حلفوا بآبائهم : "لجعل عند الله أكرم من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية" . ومالك حل الحديث على ظاهره . قال ابن خُوَيزَمِنَداد : واستدل أيضا من جَوَز ذلك بأن إيمان المسلمين بحرت منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا أن يحلفوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، حتى أن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا حاكم أحدهم صاحبه قال : احلف لي بحق ما حواه هذا القبر ، وبحق ساكن هذا القبر ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك بالحرم والمشاعر العظام ، والأركان والمقام والمحراب وما يُتلى فيه .

قوله تعالى : فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : (فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ) نصب على الحال ، أي وقت شروق الشمس . يقال : أشرقت الشمس أي أضاءت ، وشرفت إذا طلعت . وقيل : هما لنتان بمعنى . وأشرق القوم أي دخلوا في وقت شروق الشمس . مثل أصبحوا وأمسوا ، وهو المراد في الآية . وقيل : أراد شروق الفجر . وقيل : أول العذاب كان عند الصبح وامتد إلى شروق الشمس ، فكان تمام الهلاك عند ذلك . والله أعلم . و « الصيحة » العذاب . وتقدم ذكر « سِجِّيلٍ »^(١) .

قوله تعالى : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾
فيه مسائل ثلاث :

الأولى :- قوله تعالى : (لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) روى الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " للفرسين " وهو قول مجاهد . وروى أبو عيسى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : " اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ — ثُمَّ قَرَأَ — « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ » " . قال : هذا حديث غريب . وقال مقاتل وابن زيد : للتوسمين للتفكرين .^(١)
الضمك : للناظرين . قال الشاعر :

أَوْ كَمَا وَرَدَتْ عَكَظَ قَبِيلَةٍ * بَشُّوا إِلَى عَرَفَتِهِمْ يَتَوَسَّمُ

وقال قتادة : للعتبرين . قال زهير :

وَفِيهِمْ مَلَكٌ لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرٌ * أَتَيْقُ لِعَيْنِ النَّاطِرِ الْمُتَوَسِّمِ

وقال أبو عبيدة : للتبصرين ، والمعنى متقارب . وروى الترمذی الحَكِيم من حديث ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَابَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ " . قال العلاء : التَّوَسُّمُ تَفْعُلُ مِنَ التَّوَسَّمَ ، وَهُوَ الْعَلَامَةُ الَّتِي يَسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى مَطْلُوبٍ غَيْرِهَا . يقال : تَوَسَّمتُ فِيهِ الْخَيْرَ إِذَا رَأَيْتَ مِيسَمَ ذَلِكَ فِيهِ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

إِنِّي تَوَسَّمتُ فِيكَ الْخَيْرَ أَعْرِفْهُ * وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي ثَابِتُ الْبَصَرِ

آخر :

تَوَسَّمتُهُ لَمَّا رَأَيْتُ مِهَابَهُ * عَلَيْهِ وَقَلْتُ الْمَرْءَ مِنْ آلِ هَاشِمٍ

وَاتَّسَمَ الرَّجُلُ إِذَا جَعَلَ لِنَفْسِهِ عَلَامَةً يُعْرِفُ بِهَا . وَتَوَسَّمَ الرَّجُلُ طَلَبَ كَلَامِ التَّوَسُّمِ . وَأَنشَدَ :

وَأَصْبَحَ كَالَّذِينَ النَّوَاعِمُ غُسْنُوهُ * عَلَى وَجْهِهِ مِنْ ظُلْمِ عَيْنِ مُتَوَسِّمٍ

وقال ثعلب : الواسم الناظر إليك من فَرَّقَكَ إِلَى قَدَمِكَ . وَأَصْلُ التَّوَسُّمِ التَّثَبُّتُ وَالتَّفَكُّرُ ؛ مَأْخُذٌ مِنَ التَّوَسُّمِ وَهُوَ التَّأْيِيزُ بِمُحَدِّدَةٍ فِي جِلْدِ الْبَعِيرِ وَغَيْرِهِ ، وَذَلِكَ يَكُونُ بِجُودَةِ الْقَرِيحَةِ وَحَدَّةِ الْخَاطِرِ وَصَفَاءِ الْفِكْرِ . زَادَ فِيهِ : وَتَفْرِيقُ الْقَلْبِ مِنْ حَشْوِ الدُّنْيَا ، وَتَطَهُّرُهُ مِنْ أَدْنَأِ الْمَعَاصِي وَكَدُورَةِ الْأَخْلَاقِ وَفُضُولِ الدُّنْيَا . رَوَى نَهْشَلٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ « لِّلْمُتَوَسِّمِينَ » . قَالَ : لِأَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ . وَزَعَمَتِ الصُّوفِيَّةُ أَنَّهَا كِرَامَةٌ . وَقِيلَ : بَلْ هِيَ اسْتِدْلَالٌ بِالْعَلَامَاتِ ،

(١) هو طريف بن تميم البهزي (عن شواهد سيبويه) .

ومن العلامات ما يبدو ظاهراً لكل أحد وبأول نظرة، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكل أحد ولا يدرك ببادئ النظر. قال الحسن: المتوسمون هم الذين يتوسمون الأمور فيعملون أن الذي أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار؛ فهذا من الدلائل الظاهرة. ومثله قول ابن عباس: ما سألتني أحد عن شيء إلا عرفت أفضيه هو أو خيفه. وروى عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما كانا بفناء الكعبة ورجل على باب المسجد فقال أحدهما: أراه نجاراً، وقال الآخر: بل حدّاداً، فتبادر من حضري إلى الرجل فسأله فقال: كنت نجاراً وأنا اليوم حدّاد. وروى عن جُنْدُب بن عبد الله البجليّ أنه أتى على رجل يقرأ القرآن فوقف فقال: من سمع سمع الله به، ومن رأى رأى الله به. فقلنا له: كأنك عرّضت بهذا الرجل، فقال: إن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم ويخرج غداً حرّاً ربيّاً؛ فكان رأس الحرورية، واسمه مرداس. وروى عن الحسن البصري أنه دخل عليه عمرو بن عبيد فقال: هذا سيد فتیان البصرة إن لم يجِدْ، فكان من أمره من القدر ما كان، حتى هجره طامة لإخوانه. وقال لأيوب: هذا سيد فتیان أهل البصرة، ولم يستثن. وروى عن الشَّعْبِيّ أنه قال لداود الأزدى وهو يُماريه: إنك لا تموت حتى تُكَوَّى في رأسك، وكان كذلك. وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل عليه قوم من مدّرج فيهم الأشر، فصعد فيه النظر وصنّبه وقال: أيهم هذا؟ قالوا: مالك بن الحارث. فقال: ما له قاتله الله! إني لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً؛ فكان منه في الفتنة ما كان. وروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه: أن أنس بن مالك دخل عليه، وكان قد مرّ بالسوق فنظر إلى امرأة، فلما نظر إليه قال عثمان: يدخل أحدكم على وفي عينيه أثر الزنى! فقال له أنس: أَوْحياً يند رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال لا! ولكن برهان وفراصة وصدق. ومثله كثير عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين.

الثانية — قال أبو بكر بن العزبي: «إذا ثبت أن التوسم والتفرس من مدارك المعاني فإن ذلك لا يترتب عليه حكم ولا يؤخذ به موسوم ولا متفرس. وقد كان قاضى القضاة الشافعى المالكي ببغداد أيام كوفى بالشام يحكم بالفراصة في الأحكام، جرياً على طريق إياس

ابن معاوية أيام كان قاضيا، وكان شيخنا نحر الإسلام أبو بكر الشاشي صنّف جزءا في الرد عليه، كتبه لي بخطه وأعطانيه، وذلك صحيح؛ فإن مدارك الأحكام معلومة شرعا مدرّكة قطعاً وليست الفِراسة منها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ لِمَنِ مَقُومٌ﴾ (١) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَنَظَّالِمِينَ﴾ (٣) ﴿فَآتَيْنَاهُمُ الْيَمِينَ﴾ (٤)

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ لِمَنِ مَقُومٌ﴾ (١) يعني قومي قوم لوط. ﴿لِمَنِ مَقُومٌ﴾ أي على طريق قومك يا محمد إلى الشام. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) أي لعبة الصّديقين. ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَنَظَّالِمِينَ﴾ (٣) يريد قوم شعيب، كانوا أصحاب غياض ورياض وشجر ممر. والأَيْكَةُ: القَيْضَةُ، وهي جماعة الشجر، والجمع الأَيْكُ. ويروى أن شجرهم كان دوماً وهو المقل. قال النابغة:

تَجَلَّوْا بِقَادِ مَتَى حَمَامَةِ أَيْكَةٍ * بَرْدًا أَيْسَفَ لِسَانُهُ بِالْإِمْدِ

وقيل: الأَيْكَةُ اسم القرية. وقيل اسم البلدة. وقال أبو عبيدة: الأَيْكَةُ وَلَيْكَةُ مدينتهم، بمثالة بكة من مكة. وتقدم خبر شعيب وقومه. ﴿وَلَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ لِمَنِ مَقُومٌ﴾ (٤) أي بطريق واضح في نفسه، يعني مدينة قوم لوط وبقرة أصحاب الأَيْكَةِ يعتبر بهما من يز عليهما.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١)

الحجر ينطلق على معان: منها حجر الكعبة. ومنها الحرام؛ قال الله تعالى: «وَجِجْرًا مَحْجُورًا» (٢) أي حراماً محرماً. والحجر العقل؛ قال الله تعالى: «لِذِي جِحْرٍ» (٣) والحجر جحر القميص؛ والفتح أفصح. والحجر الفرس الأثني. والحجر ديار ثمود، وهو المراد هنا، أي المدينة؛

(١) آية ٣ سورة الفرقان.

(٢) آية ٥ سورة النجم.

قاله الأزهرى . قتادة : وهى ما بين مكة وتبوك ، وهو الوادى الذى فيه ثمود . الطبرى : هى أرض بين الجحاز والشام ، وهم قوم صالح . وقال : (المُرْسَلِينَ) وهو صالح وحده ، ولكن من كذب نبياً فقد كذب الأنبياء كلهم ؛ لأنهم على دين واحد فى الأصول فلا يجوز التفريق بينهم . وقيل : كذبوا صالحاً ومن تبعه ومن تقدمه من النبيين أيضاً . والله أعلم .

روى البخارى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر فى غزوة تبوك أمرهم ألا يشربوا من شرها ولا يستقوا منها . فقالوا : قد عجنّا وأستقينا . فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهريقوا الماء وأن يطرحوا ذلك العجين . وفى الصحيح عن ابن عمر أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود ، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهريقوا ما استقوا ويلفوا الإبل العجين ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التى تردها الناقة . وروى أيضاً عن ابن عمر قال : ميرتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم " ثم زجر فأصرع .^(١)

قلت : ففى هذه الآية التى بين الشارح حكمها وأوضح أمرها ثمان مسائل ، استنبطها العلماء واختلف فى بعضها الفقهاء ، فأوتوا — كراهة دخول تلك المواضع ، وعليها حمل بعض العلماء دخول مقابر الكفار ؛ فإن دخل الإنسان شيئاً من تلك المواضع والمقابر فعلى الصفة التى أرشد إليها النبي صلى الله عليه وسلم من الاعتبار والخوف والإسراع . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تدخلوا أرض بابل فإنها ملعونة " .

مسئلة : أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهرق ما استقوا من بئر ثمود وإلقاء ما عجن وخبر به لأجل أنه ماء مخطئ ، فلم يحز الانتفاع به فوارا من مخطئ الله . وقال " اصفوه الإبل " .

(١) أى زجر صلى الله عليه وسلم ناهيه .

قلت : وهكذا حكم الماء النجس وما يعجن به . وثانيها — قال مالك : إن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلقه الإبل والبهايم ؛ إذ لا تكليف عليهما ؛ وكذلك قال في السبل النجس : لأنه يعلفه النحل . وثالثها — أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بملف ما عجن بهذا الماء الإبل ، ولم يأمر بطرحه كما أمر في لحوم الخمر الإنسية يوم خيبر ؛ فقد مل على أن لحم الخمر أشد في التحريم وأغلظ في التنجيس . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكسب الحجام أن يعلف الناضخ^(١) والريق ، ولم يكن ذلك لتحريم ولا تنجيس . قال الشافعي : ولو كان حراما لم يأمره أن يطعمه رقيقه ؛ لأنه متعبد فيه كما تعبد في نفسه . ورابعها — في أمره صلى الله عليه وسلم بملف الإبل العجين دليل على جواز حمل الرجل النجاسة إلى كلابه ليأكلوها ؛ خلافا لمن منع ذلك من أصحابنا وقال : تطلق الكلاب عليهما ولا يحملها إليهم . وخامسها — أمره صلى الله عليه وسلم أن يستقوا من بئر الناقة دليل على التبرك بآثار الأنبياء والصالحين ، وإن تصادمت أعصارهم وخفيت آثارهم ؛ كما أن في الأول دليلا على بغض أهل الفساد وذم ديارهم وآثارهم . هذا ، وإن كان التحقيق أن الجمادات غير مؤاخذات ، لكن المقرون بالمحسوب محبوب ، والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض ؛ كما قال كثير :

أحب لحبها السودان حتى * أحب لحبها سود الكلاب

وكما قال آخر :

أمر على الديار ديار ليلى * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما تلك الديار شقق قلبي * ولكن حب من سكن الديارا^(٢)

وسادسها — منع بعض العلماء الصلاة بهذا الموضع وقال : لا تجوز الصلاة فيها لأنها دار منخط وبقعة غضب . قال ابن العربي : فصارت هذه البقعة مستثناة من قوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا " فلا يجوز التيمم بترابها ولا الوضوء من مائها ولا الصلاة

(١) الناضخ : البير يسقى عليه . (٢) الرواية المشهورة : « وما حب الديار » . والبيتان منجوعان ليلي . (راجع تزيانة الأدب في الشاهد التسمين بعد المائتين) .

فيها . وقد روى الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلى في سبع مواطن : فى المزابلة والمجزرة والمقبرة وقارة الطريق ، وفى الحمام وفى معادن الإبل وفوق بيت الله . وفى الباب عن أبى مرثد وجابر وأنس : حديثُ ابن عمر إن سناده ليس بذلك القوى ، وقد تُكلم فى زيد بن جبير من قبيل حفظه . وقد زاد علماءنا : الدار المغصوبة والكنيسة والبيعة والبيت الذى فيه تمائيل ، والأرض المغصوبة أو موضعا تستقبل فيه نائما أو وجه رجل أو جدارا عليه نجاسة . قال ابن العربى : ومن هذه المواضع ما منع لحق الغير ، ومنه ما منع لحق الله تعالى ، ومنه ما منع لأجل النجاسة المحققة أو لغلبيتها ؛ فما منع لأجل النجاسة إن فرش فيه ثوب طاهر كالخام والمقبرة فيها أو إليها فإن ذلك جائز فى المدونة . وذكر أبو مصعب عنه الكراهة . وفرق علماءنا بين المقبرة القديمة والجديدة لأجل النجاسة ، وبين مقبرة المسلمين والمشركين ؛ لأنها دار حذاب وبقعة بخط كالحجر . وقال مالك فى المجموعة : لا يصلى فى أعطان الإبل وإن فرش ثوبا ؛ لأنه رأى لها علتين : الاستتار بها وفنارها فتفسد ^(١) على المفضل صلاته ، فإن كانت واحدة فلا بأس ؛ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ؛ فى الحديث الصحيح . وقال مالك : لا يصلى على بساط فيه تمائيل إلا من ضرورة . وكره ابن القاسم الصلاة إلى القبلة فيها تمائيل ، وفى الدار المغصوبة ، فإن فعل أجه . وذكر بعضهم عن مالك أن الصلاة فى الدار المغصوبة لا تجزى . قال ابن العربى : وذلك عندى بخلاف الأرض فإن الدار لا تدخل إلا بإذن ، والأرض وإن كانت ملكا فإن المسجدية فيها قائمة لا يبطلها الملك .

قلت : الصحيح — إن شاء الله — الذى يدل عليه النظر والخبر أن الصلاة بكل موضع طاهر جائزة صحيحة . وما روى من قوله صلى الله عليه وسلم : " إن هذا واد به شيطان " وقد رواه معمر عن الزهري فقال : وأخرجوا عن الموضع الذى أصابتكم فيه الغفلة . وقول على : نهانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أصلى بأرض بابل فإنها ملعونة . وقوله عليه

(١) فى الموطأ : « لأنها يستترها البول والغائط ؛ فلا تكاد تسلم بآركها من النجاسة » .

(٢) أى نافذة واحدة .

السلام حين مرّ بالحجر من ثمود : " لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين " ونبيه عن الصلاة في مواطن الإبل إلى غير ذلك مما في هذا الباب ، فإنه مردود إلى الأصول المجتمع عليها والدلائل الصحيح بجيها . قال الإمام الحافظ أبو عمر : المختار عندنا في هذا الباب أن ذلك الوادي وغيره من بقاع الأرض جائز أن يصلى فيها كلها ما لم تكن فيها نجاسة متيقنة تمنع من ذلك ، ولا معنى لاعتلال من أعتل بأن موضع النوم عن الصلاة موضع شيطان ، وموضع ملعون لا يجب أن تقام فيه الصلاة ، وكل ما روى في هذا الباب من النهي عن الصلاة في المقبرة وبأرض بابل وأعطان الإبل وغير ذلك مما في هذا المعنى ، كل ذلك عندنا منسوخ ومدفوع لعموم قوله صلى الله عليه وسلم : " جُعلت لي الأرض كلها مسجداً وطهوراً " ، وقوله صلى الله عليه وسلم خبراً : إن ذلك من فضائله ومما خُص به ، وفضائله عند أهل العلم لا يجوز عليها التسخ ولا التبديل ولا النقص ، قال صلى الله عليه وسلم : " أوتيت خمسا - وقد روى مستأ ، وقد روى ثلاثاً وأربعاً ، وهي تنهى إلى أزيد من تسع ، قال فين - " لم يؤتمن أحد قبلي بعثت إلى الأحمر والأسود ونُصرت بالرعب وجُعلت أمتي خير الأمم وأُحلت لي الفنائم وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأوتيت الشفاعة وبعثت بجموع الكليم وبيننا أنا نائم أُتيت بمفاتيح الأرض فوضعت في يدي وأعطيت الكوثور وخيم بي النبيون " رواها جماعة من الصحابة . وبعضهم يذكر بعضها ، ويذكر بعضهم ما لم يذكر غيره ، وهي صحاح كلها . وجائز على فضائله الزيادة وغير جائز فيها نقصانها ؛ ألا ترى أنه كان عبداً قبل أن يكون نبياً ثم كان نبياً قبل أن يكون رسولا ، وكذلك روى عنه . وقال : " ما أدرى ما يفعل بي ولا بكم " ثم نزلت « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » . وسمع رجلا يقول : يا خير البرية ، فقال : " ذاك إبراهيم " وقال : " لا يقولون أحدكم أنا خير من يونس بن مئتا " وقال : " السيد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام " ثم قال بعد ذلك كله : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " . فضائله صلى الله عليه وسلم لم تزل

تزداد إلى أن قبضه الله ؛ فمن هاهنا قلنا : إنه لا يجوز عليها النسخ ولا الاستثناء ولا التقصان ، وجازئها الزيادة . وبقوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً " أجزأ الصلاة فى المقبرة والحمام وفى كل موضع من الأرض إذا كان طاهراً من الأنجاس . وقال صلى الله عليه وسلم لأبى ذر : " حيثما أدركك الصلاة فُصل فإن الأرض كلها مسجد " ذكره البخارى ولم يخص موضعاً من مواضع . وأما من احتج بحديث ابن وهب قال : أخبرنى يحيى بن أيوب عن زيد بن جبير عن داود بن حصين عن نافع عن ابن عمر حديث الترمذى الذى ذكرناه فهو حديث انفرد به زيد بن جبير وأنكره عليه ، ولا يعرف هذا الحديث مستنداً إلا برواية يحيى بن أيوب عن زيد بن جبير . وقد كتب الليث بن سعد إلى عبد الله بن نافع مولى ابن عمر يسأله عن هذا الحديث ، وكتب إليه عبد الله بن نافع لا أعلم من حدث بهذا نافع إلا قد قال عليه الباطل . ذكره الحلوانى عن سعيد بن أبى مرير عن الأيىث ، وليس فيه تخصيص مقبرة المشركين من غيرها . وقد روى عن على بن أبى طالب قال : نهانى جيبى صلى الله عليه وسلم أن أصلى فى المقبرة ، ونهى أن أصلى فى أرض بابل فإنها ملعونة . وإسناده ضعيف مجتمع على ضعفه ، وأبو صالح الذى رواه عن على هو سعيد ابن عبد الرحمن النيفارى ، بصرى ليس بمشهور ولا يصح له سماع عن على ، ومن دونه مجهولون لا يعرفون . قال أبو عمر : وفى الباب عن على من قوله غير مرفوع حديث حسن الإسناد ، رواه الفضل بن دكين قال : حدثنا المنيرة بن أبى الحز الكندى قال حدثنى أبو العنبر شجر بن عيسى قال : خرجنا مع على إلى الحرورية ، فلما جاوزنا سوريا وقع بأرض بابل ، قلنا : يا أمير المؤمنين أمسيت ، الصلاة الصلاة ؛ فابى أن يكلم أحداً . قالوا : يا أمير المؤمنين ، قد أمسيت . قال بلى ، ولكن لا أصلى فى أرض خسف الله بها . والمنيرة بن أبى الحز كوفى ثقة ؛ قاله يحيى بن معين وغيره . وشجر بن عيسى من كبار أصحاب على . وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام " . قال الترمذى : رواه سفيان الثورى عن عمرو بن

يحيى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم مُرْسَلًا، وكأنه أثبت وأصح . قال أبو عمر : فسقط الاحتجاج به عند من لا يرى المرسل حجة ، ولو ثبت كان الوجه ما ذكرنا . ولنا نقول كما قال بعض المتأخرين لمذهب المدنيين : إن المقبرة في هذا الحديث وغيره أريد بها مقبرة المشركين خاصة ؛ فإنه قال : المقبرة والحمام والألف واللام ؛ فغير جائز أن يُرد ذلك إلى مقبرة دون مقبرة أو حمام دون حمام بغير توقيف عليه ، فهو قول لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا خبر صحيح ، ولا مدخل له في القياس ولا في المعقول ، ولا دَلٌّ عليه فحوى الخطاب ولا نخرج عليه الخبر . ولا يخلو تخصيص من خص مقبرة المشركين من أحد وجهين : إما أن يكون من أجل اختلاف الكفار إليها بأقدامهم فلا معنى لخصوص المقبرة بالذكر ؛ لأن كل موضع هم فيه بأجسامهم وأقدامهم فهو كذلك ، وقد جلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم بما لا معنى له . أو يكون من أجل أنها بقعة مخطئ ، فلو كان كذلك ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبني مسجده في مقبرة المشركين وينشئها ويسويها ويبني عليها ، ولو جاز لقائل أن يخص من المقابر مقبرة للصلاة فيها لكانت مقبرة المشركين أولى بالخصوص والاستثناء من أجل هذا الحديث . وكل من كره الصلاة في المقبرة لم يخص مقبرة من مقبرة ؛ لأن الألف واللام إشارة إلى الجنس لا إلى المجهود ، ولو كان بين مقبرة المسلمين والمشركين فرق لبيته صلى الله عليه وسلم ولم يمهله ؛ لأنه بحث مبيتاً . ولو ساء بلهمل أن يقول : مقبرة كذا بلجاز لآثر أن يقول : حمام كذا ؛ لأن في الحديث المقبرة والحمام . وكذلك قوله : المزبلة والمجزرة ؛ غير جائز أن يقال : مزبلة كذا ولا مجزرة كذا ولا طريق كذا ؛ لأن التحكم في دين الله غير جائز .

وأجمع العلماء على أن التيمم على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طيباً طاهراً نظيفاً جائزاً . وكذلك أجمعوا على أن من صلى في كنيسة أو بيعة على موضع طاهر ، أن صلاته ماضية جائزة . وقد تقدم هذا في سورة «براءة»^(١) . ومعلوم أن الكنيسة أقرب إلى أن تكون بقعة مخطئ من المقبرة ؛

لأنها بقعة يعصى الله ويكفر به فيها ، وليس كذلك المقبرة . وقد وردت السنة باتخاذ البيع والكائس مساجد . روى النسائي عن طلق بن علي قال : خرجنا وقدنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه وصلينا معه ، وأخبرناه أن بأرضنا بيعة لنا ، وذكر الحديث . وفيه : " فإذا أتيتم أرضكم فأكسروا بيعكم واتخذوها مسجدا " . وذكر أبو داود عن عثمان بن أبي العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم . وقد تقدم في « راءة » . وحسبك بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم الذي أسس على التقوى مبنيًا في مقبرة المشركين ؛ وهو حجة على كل من كره الصلاة فيها . ومن كره الصلاة في المقبرة سواء كانت لمسلمين أو مشركين الثوري وأبو حنيفة والأوزاعي والشافعي وأصحابهم . وعند الثوري لا يعيد . وعند الشافعي أجزاء إذا صلى في المقبرة في موضع ليس فيه نجاسة ، للأحاديث المألوفة في ذلك ، ولحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا " ، ولحديث أبي مرثد الغنوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها " . وهذان حديثان ثابتان من جهة الإسناد ، ولا حجة فيهما ؛ لأنهما محتملان للتأويل ، ولا يجب أن يمنع من الصلاة في كل موضع طاهر إلا بدليل لا يحتمل تأويلا ، ولم يفرق أحد من فقهاء المسلمين بين مقبرة المسلمين والمشركين إلا ما حكيناه من خطل القول الذي لا يشتغل بمثله ، ولا وجه له في نظر ولا في صحيح أثر .

(١١) وتأمنا — الحائط يلي فيه الثن والعترة ليكرم فلا يصلي فيه حتى يسقى ثلاث مرات ، لما رواه الدارقطني عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحائط يلي فيه العترة والثن قال : " إذا سقى ثلاث مرات فصل فيه " . ونحوه أيضا من حديث نافع عن ابن عمر أنه سئل عن هذه الحيطان التي تأتي فيها العترة وهذا الزبل ، أي يصلي فيها ؟ فقال : إذا سقيت ثلاث مرات فصل فيها . رُفِعَ ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم . اختلفا في الإسناد ، والله أعلم .

قوله تعالى : **وَأَتَيْنَهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ** ﴿١٨﴾

قوله تعالى : **(وَأَتَيْنَهُمْ ءَايَاتِنَا)** أى آياتنا . كقوله : **« آتَيْنَا ذُرِّيَّتَنَا »** أى بذرنا . والمراد الناقة ، وكان فيها آيات جمة : نخرجها من الصخرة ، ودُّنُونُهَا جها عند خروجها ، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة ، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جميعا . ويحتمل أنه كان لصالح آيات أنرسوى الناقة ، كالبر وغيره . **(فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)** أى لم يعتبروا .

قوله تعالى : **وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ** ﴿١٩﴾ **فَأَخَذْتَهُمُ**

الصَّبْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴿٢٠﴾ **فَأَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿٢١﴾

النحت في كلام العرب : البرئ والتعرج . نحت يحنه (بالكسر) نحتا أى براه . والثناء البراية . والمنحت ما نحت به . وفي التزويل **« اتعبدون ما تحتون »** أى تتجرون وتصنعون . فكانوا ينحزون من الجبال يسوتا لأنفسهم بشدة قوتهم . **(ءَامِنِينَ)** أى من أن تسقط عليهم أو تقرب . وقيل : آمنين من الموت . وقيل : من العذاب . **(فَأَخَذْتَهُمُ الصَّبْحَةَ مُصْبِحِينَ)** أى في وقت الصبح ، وهو نصب على الحال . وقد تقدم ذكر الصبحة في هود والأعراف . **(فَأَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)** من الأموال والحصون في الجبال ، ولا ما أعطوه من القوة .

قوله تعالى : **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْغِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ** ﴿٢٢﴾ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلِيقُ الْعَلِيمُ** ﴿٢٣﴾

(١) آية ٩٢ سورة الكهف . (٢) آية ٩٥ سورة الصافات .

(٣) راجع ج ٩ ص ٦١ وج ٧ ص ٢٤٢ طبة أولى وثانية :

قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أى للزوال والفناء .
 وقيل : أى لأجazy المحسن والمعنى ؛ كما قال : « وَلَقَدْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ » . (١) وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ﴿أى
 لكائنة فيجزى كل بعمله . ﴿فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ مثل « وَأَهْرُومُهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا » أى تجاوز
 عنهم يا محمد ، وأعف عفواً حسناً ؛ ثم نسخ بالسيف . قال قتادة : نسخه قوله : «نَحْنُ نُوْتِهِمْ
 وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ» . وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : «لقد جئتكم بالذبح
 وبُعِثْتُ بِالْحَصَادِ وَلَمْ أَبْعَثْ بِالزَّرَامَةِ» قاله عكرمة وبجاهد . وقيل : ليس بمسوخ ، وأنه أمر
 بالصفح في حق نفسه فيما بينه وبينهم . والصفح : الإعراض ؛ عن الحسن وغيره . ﴿إِنْ
 رَبُّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ أى المقتدر للخلق والإخلاق . ﴿الْقَلِيمُ﴾ بأهل الوفاق والنفاق .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْأَمْثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٢٥﴾

اختلف العلماء في السبع المثاني ؛ فقيل : الفاتحة ؛ قاله علي بن أبي طالب وأبو هريرة
 والربيع بن أنس وأبو العالية والحسن وغيرهم ، ورؤى عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه
 ثابتة ، من حديث أبي بن كعب وأبي سعيد بن الملق . وقد تقدم في تفسير الفاتحة ، ونخرج
 الترمذى من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله أم
 القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني » . قال : هذا حديث حسن صحيح . وهذا نص ، وقد
 تقدم في الفاتحة . وقال الشاعر :

نشدكم بمنزل القرآن * أم الكتاب السبع من مثاني

وقال ابن عباس : هى السبع الطول : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ،
 والأنعام ، والأعراف ، والأنفال والتوبة معا ؛ إذ ليس بينهما التسمية . روى النسائي

(١) آية ٣١ سورة النجم . (٢) آية ١٠ سورة المزمل . (٣) آية ٩١ سورة النساء .

(٤) كذا في الأصول وتفسير الطبري . وفي كتاب الجامع الصغير : «بالجهد» . (٥) كذا في الأصول .

(٦) داجع ج ١ ص ٨٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

حدثنا علي بن حجر أخبرنا شريك عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ مَسَبَّحًا مِّنَ الْمُنَافِي ﴾ قال : السبع الطُّول، وسميت مثنى لأن العبر والأحكام والحدود ثبَّتت فيها . وأنكر قوم هذا وقالوا : أزلت هذه الآية بمكة ، ولم ينزل من الطُّول شيء إلا ذاك . وأجيب بأن الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ثم أنزله منها نجوما ، فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنما آتاه محمدا صلى الله عليه وسلم وإن لم ينزل عليه بعد . ومن قال إنها السبع الطول : عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وسعيد بن جبير ومجاهد . وقال جرير :

جزى الله الفرزدق حين يُسمى * مُضِيعًا لِّفَصْلٍ وَالْمَثَانِي

وقيل : المثنى القرآن كله ؛ قال الله تعالى : ﴿ كِتَابًا مُّثْنًى مِّثْنَيْنِ ﴾^(١) . هذا قول الضحاك وطاوس وأبو مالك ، وقاله ابن عباس . وقيل له مثنى لأن الأنبياء والقصص ثبَّتت فيه . وقالت صفية بنت عبد المطلب ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فقد كان نورا ما طعما يهتدى به * يُنَحِّصُ بِتَرْزِيلِ الْقُرْآنِ الْمَعْلَمِ

أى القرآن . وقيل : المراد بالسبع المثنى أقسام القرآن من الأمر والنهى والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعدد نعيم وأنباء قرون ؛ قاله زياد بن أبي مريم ، والصحيح الأول لأنه نص . وقد قدمنا في الفاتحة أنه ليس في تسميتها بالمثنى ما يمنع من تسمية غيرها بذلك ؛ إلا أنه إذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وثبت عنه نص في شيء لا يحتمل التأويل كان الوقوف عنده .

قوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ فيه إضمار تقديره : وهو أن الفاتحة القرآن العظيم لاشتمالها على ما يتعلق بأصول الإسلام . وقد تقدّم في الفاتحة . وقيل : الواو متحمة ، التقدير : ولقد آتيناك سبعا من المثنى القرآن العظيم . ومنه قول الشاعر :

إلى الملك القمر وابن الهمام * وليث الكتبية في المزدحم

وقد تقدّم عند قوله : « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى »^(٢) .

قوله تعالى : لَا تُمَدِّدْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾
فيه مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (لَا تُمَدِّدْ عَيْنَيْكَ) المعنى : قد أغْنَيْتَكَ بالقرآن عما في أيدي الناس ؛ فإنه ليس منا من لم يتغن بالقرآن ؛ أى ليس منا من رأى أنه ليس يغنى بما عنده من القرآن حتى يطمع بصره إلى زخارف الدنيا وعنده معارف المولى . يقال : إنه وافى سبع قوافل من البصرى وأذريات ليهود قُرَيْظَةَ والنَّضِيرَ في يوم واحد ، فيها البرُّ والطيب والجوهر وأمتعة البحر ، فقال المسامون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقويتنا بها وأنفقناها في سبيل الله ، فأَنزَلَ اللهُ تعالى « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني » أى فهمى خير لكم من القوافل السبع ، فلا تَمُدَّنْ أعينكم إليها . وإلى هذا صار ابن عيينة ، وأورد قوله عليه السلام : " ليس منا من لم يتغن بالقرآن " أى من لم يستغن به . وقد تقدم هذا المعنى في أول الكتاب ^(١) . ومعنى (أَزْوَاجًا مِنْهُمْ) أى أمثالا في النعم ، أى الأغنياء بعضهم أمثال بعض في الغنى ، فهم أزواج .

الثانية — هذه الآية تَهْتَضِي الزجر عن التشوف إلى متاع الدنيا على الدوام ، وإقبال العبد على عبادة مولاه . ومثله « وَلَا تُمَدِّدْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ » الآية . وليس كذلك ؛ فإنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حُبِّبَ إِلَى مَنْ دُنِيَاهُ النساء والطيب وجُعِلَتْ قُوَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » . وكان عليه الصلاة والسلام يتشافل بالنساء ، جِيلَةَ الآدمية وتشوف الحُلُقَةَ الإنسانية ، ويحافظ على الطيب ، ولا تَقْزَلُهُ عين إلا في الصلاة لدى مناجاة المولى . ويرى أن مناجاته أخرى من ذلك وأولى . ولم يكن في دين محمد الرهبانية والإقبال على الأعمال الصالحة بالكلية كما كان في دين عيسى ،

(١) راجع ج ١ ص ١٢ طبع ثانية أرنالفة . (٢) آية ١٣١ سورة طه . (٣) كنا في سنن النسائي ومسند الامام أحمد . والذى في الأصول : « حُبِّبَ إِلَى مَنْ دُنِيَاهُ ثلاث ... الخ » وبكلمة « ثلاث » لا يستقيم الكلام .

وأما شرع الله سبحانه حنيفية سمحة خالصة من الحرج خفيفة على الآدمي ، يأخذ من الآدمية بشهواتها ويرجع إلى الله بقلب سليم . ورأى القراء والمخلصون من الفضلاء الانكفاف عن اللذات والخلوص لرب الأرض والسموات اليوم أولى ؛ لما غلب على الدنيا من الحرام ، وأضطر العبد في المعاش إلى مخالطة من لا تجوز مخالطته ومصانعة من تحرم مصانعته ، فكانت القراءة أفضل ، والفرار عن الدنيا أصوب للعبد وأعدل ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " يأتي على الناس زمان يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن " .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ولا تحزن على المشركين إن لم يؤمنوا . وقيل : المعنى لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا فلك في الآخرة أفضل منه . وقيل : لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل العذاب . ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ألن جانبك لمن آمن بك وتواضع لهم . وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرسخ ، فجعل ذلك وصفا لتقريب الإنسان أتباعه . ويقال : فلان خافض الجناح ، أي وقور ساكن . والجناحان من ابن آدم جانباه ؛ ومنه « وَأَصْمَحُّ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ » وجناح الطائر يده . وقال الشاعر :

وحسبك نسيبة لزعم قوم * يمد على أسمى سليم جناحا

أي تواضعا ولينا .

قوله تعالى : وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿١٣٠﴾ كَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى

الْمُقْسِمِينَ ﴿١٣١﴾

في الكلام حذف ؛ أي إني أنا النذير المبين هذا ، لحذف المفعول ، إذ كان الإنذار يدل عليه ، كما قال في موضع آخر : « أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » . وقيل : الكاف زائدة ، أي أنذرتكم ما أنزلنا على المقسمين ؛ كقوله : « لَيْسَ كَيْتَلُهُ شَيْءٌ » . وقيل : أنذرتكم

مثل ما أنزلنا بالمقتسمين . وقيل : المعنى كما أنزلنا على المقتسمين ، أى من العذاب وكفيناك المستهزئين ، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين الذين يتنوّأ ، فإننا كفيناك أولئك الرؤساء الذين كنت تلقى منهم ما تلقى .

وآختلف في « الْمُقْتَسِمِينَ » على أقوال سبعة : الأول — قال مقاتل والفراء : هم ستة عشر رجلاً بشهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فآقتسموا أعقاب مكة وأثابها وبجأها يقولون لمن سلكها : لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدعى النبوة ؛ فإنه مجنون ، وربما قالوا ساحر ، وربما قالوا شاعر ، وربما قالوا كاهن . وثمّوا المقتسمين لأنهم آقتسموا هذه الطرق ، فأماتهم الله شريفة ، وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حَكَّامًا على باب المسجد ، فإذا سأله من النبي صلى الله عليه وسلم قال : صدق أولئك . الثاني — قال قتادة : هم قوم من كفار قريش آقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعرا ، وبعضه صحرا ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأوابين . الثالث — قال ابن عباس : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . وكذلك قال عكرمة : هم أهل الكتاب ، وثمّوا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين ، فيقول بعضهم : هذه السورة لى وهذه السورة لك . وهو القول الرابع . الخامس — قال قتادة : قسموا كتابهم ففرقوه وبلدوه وحرّفوه . السادس — قال زيد بن أسلم : المراد قوم صالح ، تقاسموا على قتله فسمّوا مقتسمين ؛ كما قال تعالى : « تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ » . السابع — قال الأخفش : هم قوم آقتسموا أيماناً تحالفوا عليها . وقيل : إنهم العاص بن وائل وهبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ومنبّه ابن الجراح ؛ ذكره الماوردي .

قوله تعالى : الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿١١﴾

هذه صفة المقتسمين . وقيل : هو مبتدأ وخبره « لنسألهم » . وواحد العِضِينَ عِصَّة ، من عصيت الشيء ، تعصية أى فرقته ؛ وكل فرقة عِصَّة . وقال بعضهم : كانت في الأصل

عِصْوَةٌ فنقصت الواو، ولذلك جمعت عضيين كما قالوا : عِزِينَ في جمع عِزَّة، والأصل عِزْرَةٌ . وكذلك ثُبَّة وثَيْن . ويرجع المعنى إلى ما ذكرناه في المقتسمين . قال ابن عباس : آمنوا ببعض وكفروا ببعض . وقيل : تَوَقَّعُوا أَقَاوِيلَهُمْ فيه فجعلوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا . عضوته أى فرقته . قال الشاعر — هورؤبة — :

* وليس دين الله بالمُعْضَى *

أى بالمتفرق . ويقال : نقصانه الهاء وأصله عَضَّة ؛ لأنَّ العِصَّة والعِضِينَ في لغة قريش السحر . وهم يقولون للساحر : عَاضِهْه والساحرة عَاضِيَهْه . قال الشاعر :

أَعُوذُ بِرَبِّى مِنَ النَّافِثَا * تِىَ فِى عَقْدِ الْعَاضِيَهْ الْمُعْضِيَهْ

وفي الحديث : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العَاضِيَةَ والمُسْتَعْضِيَةَ ، وقُتِرَ : السَّاحِرَةُ والمستسحرة . والمعنى : أكثرُوا الْبُهْتَ على القرآن وتَوَعَّعُوا الكَذْبَ فيه ، فقالوا : سحر وأساطير الأولين ، وأنه مفترى ، إلى غير ذلك . ونظير عِصَّة في النقصان شَفَه ، والأصل شَفَهَة . كما قالوا : سنة ، والأصل سَنَهَة ، فنقصوا الهاء الأصلية وأثبتت هاء العلامة وهى للتأنيث . وقيل : هو من العِصَّة وهى النيمة . والعِصْبِيَّة البهتان ، وهو أن يعصه الإنسان ويقول فيه ما ليس فيه . يقال عَصَّه عَصًّا رماه بالبهتان . وقد أَعْصَهَتْ أى جثت بالبهتان . قال الكسائى : العِصَّة الكذب والبهتان ، وجمعها عِصُونٌ ، مثل عِزَّة وعِزُونٌ ؛ قال تعالى : « الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ مِثِينَ » . ويقال : عَصَّوه أى آمنوا بما أحبوا منه وكفروا بالباقي ، فأحبط كفرهم إيمانهم . وكان الفراء يذهب إلى أنه مأخوذ من العِصَاة ، وهى شجر الوادى ويخرج كالشوك .

قوله تعالى : **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٧﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾**

قوله تعالى : **(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)** أى لَنَسْأَلُنَّ هؤلاء الذين جرى ذكرهم عما عملوا في الدنيا . وفى البخارى : وقال عيسى من أهل العلم فى قوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عما كانوا يعملون » عن لا إله إلا الله .

قلت : وهذا قد روى مرفوعاً ، روى الترمذى الحكيم قال : حدثنا الجارود بن معاذ قال حدثنا الفضل بن موسى عن شريك عن ليث عن بشير بن تريك عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « فوريك لنسألكم أجمعين عما كانوا يعملون » قال : « عن قول لا إله إلا الله » قال أبو عبد الله : معناه عندنا عن صدق لا إله إلا الله ووفائها ؛ وذلك أن الله تعالى ذكر في تنزيهه العمل فقال : « عما كانوا يعملون » ولم يقل عما كانوا يقولون ، وإن كان قد يجوز أن يكون القول أيضا عمل اللسان ، وإنما المعنى به ما يعرفه أهل اللغة أن القول قولٌ والعمل عملٌ . وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عن لا إله إلا الله » أى عن الوفاء بها والصدق لمقامها . كما قال الحسن البصرى : ليس الإيمان بالتحلى ولا الدين بالثنى ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال . ولهذا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة » قيل : يا رسول الله ، وما إخلاصها ؟ قال : « أن تحجزه عن محارم الله » . رواه زيد بن أرقم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عهد إلى أئمة يأتيني أحد من أمتي بلا إله إلا الله لا يخطئ بها شيئا إلا وجبت له الجنة » قالوا : يا رسول الله ، وما الذى يخطئ بلا إله إلا الله ؟ قال : « حرصاً على الدنيا وجمعها ومنعها لها ، يقولون قول الأنبياء يعملون أعمال الجبابرة » . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله ما لم يؤثروا صفة دينهم على دينهم فإذا أثروا صفة دينهم على دينهم ثم قالوا لا إله إلا الله ردت عليهم وقال الله كذبتم » . أما نيتها في نواذر الأصول .

قلت : والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كافرين ومؤمنين ، إلا من دخل الجنة بغير حساب على ما بيناه في كتاب (التذكرة) . فإن قيل : وهل يسأل الكافر ويحاسب ؟ قلنا : فيه خلاف ، وذكرناه في التذكرة . والذى يظهر سؤاله ، للآية وقوله : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ » وقوله : « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ » . فإن قيل : فقد قال تعالى :

« وَلَا يُسَالُّ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » ^(١) وقال : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسَالُّ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ » ^(٢) ، وقال : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ » ^(٣) ، وقال : « إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ مَنجُورُونَ » ^(٤) . قلنا : القيامة مواطن ، لموطن يكون فيه سؤال وكلام ، وموطن لا يكون ذلك فيه . قال عكرمة : القيامة مواطن ، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها . وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل علمتم كذا وكذا ؛ لأن الله عالم بكل شيء ، ولكن يسألهم سؤال تفرغ وتوبيخ فيقول لهم : لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه ؟ واعتمد قطرب هذا القول ، وقيل : « لنسألهم أجمعين » ^(٥) يعني المؤمنين المكلفين ؛ بآئنه قوله تعالى : « ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » ^(٦) . والقول بالعموم أولى كما ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾
إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ) أى بالذى تؤمر به ، أى بلغ رسالة الله جميع الخلق لتقوم الحججة عليهم ، فقد أمر الله بذلك . والصدع : الشق . وتصدع القوم أى تفرقوا ؛ ومنه « يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ » ^(١) أى يتفترقون . وصدعته فأتصدع أى انشق . وأصل الصدع الفرق والشق . قال أبو ذؤيب يصف الجمار وأئنته :

وكانت رِابَةً وكأنه يَسْرُ * يُفِضُ عَلَى الْفِدَاحِ وَيَصْدَعُ ^(٢)

أى يفرق ويشق . فقله : « أَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ » قال الفراء : أراد فأصدع بالأمر ، أى أظهر دينك ، ف « بما » مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر . وقال ابن الأعرابي : معنى اصدع بما تؤمر ، أى اقصد . وقيل : « فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ » أى فوق جمعهم وكتبهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفترقون بأن يجيب البعض ؛ فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفار .

(١) آية ٧٨ سورة القصص . (٢) آية ٣٩ سورة الرحمن . (٣) آية ١٧٤ سورة البقرة .

(٤) آية ١٥ سورة المطففين . (٥) آخر سورة الكاثر . (٦) آية ٤٣ سورة الروم .

(٧) الرابطة : الجملة التى تجمع فيها البهائم . واليسر : صاحب الميسر الذى يضرب بالقداح .

قوله تعالى : « وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » أي عن الاهتمام باستنزائهم وعن المبالاة بقولهم ، فقد برك الله عما يقولون . وقال ابن عباس : هو منسوخ بقوله « فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ^(١) » . وقال عبد الله بن عبيد : ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزل قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر » فخرج هو وأصحابه . وقال مجاهد : أراد الجهر بالقرآن في الصلاة . « وأعرض عن المشركين » لا تبال بهم . وقال ابن إسحاق : لما تآمروا في الشر واكثروا رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستنزاء أنزل الله تعالى « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » إنا كيفناك المستزينين . الذين يعملون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون . والمعنى : اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله ؛ فإن الله كافيك من أذاك كما كافاك المستزينين ، وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة ، وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة . والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن الضحالة ، أهلهم الله جميعاً ، قيل يوم بدر في يوم واحد لاستنزائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وسبب هلاكهم فيما ذكر أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يطوفون بالبيت ، فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر به الأسود ابن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمى ووجعت عينه ، فجعل يضرب رأسه الجدار . ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فامتسقى بطنه فأت منه حبة . (يقال : حنين بالكسر) حَبْنًا وحين للفعول عظم بطنه بالماء الأصفر ، فهو أحبن ، والمرأة حبناء ، قاله في الصحاح .) ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه قبل ذلك بسنين ، وهو يَحْزُ سَبْلَهُ ، وذلك أنه مرّ برجل من خزاعة يريش تَبْلَلًا فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش في رجله ذلك الخدش وليس بشيء ، فانتقص به فقتله . ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أنْخَصَ رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فربص به على شِبْرَةٍ فدخلت في أنْخَصَ رجله شوكة فقتله . ومر به الحارث بن الضحالة ، فأشار إلى رأسه

(١) آية سورة التوبة . (٢) السبل (بالتحريك) : الثياب المسببة ؛ يفعل ذلك كبرا واعتبالا . (٣) الشريق : نبت مجازي يؤكل ، وله شوكة .

(١) فامتخط قبحا فقتله . وقد ذكر في سبب موتهم اختلاف قريب من هذا . وقيل : إنهم المراد بقوله تعالى : « نَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ » (٢) ، شبه ما أصابهم في موتهم بالسقف الواقع عليهم ؛ على ما يأتي .

قوله تعالى : الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾
هذه صفة المستهزئين . وقيل : هو ابتداء وخبره « فسوف يعلمون » .

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٦٧﴾
قوله تعالى : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ) أى قلبك ؛ لأن الصدر محل القلب .
(بِمَا يَقُولُونَ) أى بما تسمعه من تكذيبك ورد قولك ، وتنبأه وينبأه أصحابك من أعدائك .

قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٦٨﴾
فيه مسائلان :

الأولى — قوله تعالى : (فَسَبِّحْ) أى فافزع إلى الصلاة ، فهى غاية التسبيح ونهاية التقديس ؛ وذلك تفسير لقوله : (وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) ولا خفاء أن غاية القرب في الصلاة حال السجود ، كما قال عليه السلام : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأخلصوا الدماء " ، ولذلك خص السجود بالذكر .

الثانية — قال ابن العربى : ظن بعض الناس أن المراد بالأمر هنا السجود نفسه ، فرأى هذا الموضع محل سجود في القرآن ، وقد شاهدت الإمام بجواب زكريا من البيت المقدس طهره الله ، يسجد في هذا الموضع ويمجدت معه فيها ، ولم يره جماهير العلماء .

قلت : قد ذكر أبو بكر النقاش أن ها هنا مجيدة عند أبى حذيفة ويكان بن رثاب ، ورأى أنها واجبة .

قوله تعالى : **وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴿٩١﴾

فيه مسألة واحدة — وهو أن اليقين الموت . أمره بعبادته إذ قصر عباده في خدمته ، وأن ذلك يجب عليه . فإن قيل : فما فائدة قوله « حتى يأتيك اليقين » وكان قوله : « واعبد ربك » كافياً في الأمر بالعبادة . قيل له : الفائدة في هذا أنه لو قال : « واعبد ربك » مطلقاً ثم عبده مرة واحدة كان مطيعاً ؛ وإذا قال « حتى يأتيك اليقين » كان معناه لا تفارق هذا حتى تموت . فإن قيل : كيف قال سبحانه « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ولم يقل أبداً ؛ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله : أبداً ؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد . وقد تقدم هذا المعنى ^(١) . والمراد استمرار العبادة مدة حياته ، كما قال العبد الصالح : وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . ويترتب على هذا أن الرجل إذا قال لاسمائه : أنت طالق أبداً ، وقال : نويت يوماً أو شهرًا كانت عليه الرحمة . ولو قال : طلقته حياتي لم يراجعهما . والدليل على أن اليقين الموت حديث أم العلاء الأنصارية ، وكانت من المبائعات ، وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما عثمان — أعنى عثمان بن مظعون — فقد جاءه اليقين وإنى لأرجوه أن خير والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به » وذكر الحديث ^(٢) . انفرد بإخراجه البخاري رحمه الله ! وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت ثم لا يستعدون له ؛ يعني كأنهم فيه شاكون . وقد قيل : إن اليقين هنا الحق الذي لا ريب فيه من نصرته على أعدائه ؛ قاله ابن شجرة ؛ والأول أصح ، وهو قول مجاهد وقتادة والحسن . والله أعلم . وقد روى جبير بن نفير عن أبي مسلم الخولاني أنه سمعه يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أوحى إلى أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى إلى أن سبّ محمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

(١) راجع ج ٢ ص ٣٣ طبع ثانية . (٢) راجع صحيح البخاري ج ٣ ص ١٥١ طبع بولاق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة النحل

وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ، وتسمى سورة النعم بسبب ما عتد الله فيها من نعمه على عباده . وقيل : هي مكية غير قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ » الآية ؛ نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحزمة وقتل أحد . وغير قوله تعالى : « وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ » . وغير قوله : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا » الآية . وأما قوله : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » فمكي ، في شأن هجرة الحبشة . وقال ابن عباس : هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة ، وهي قوله : « وَلَا تَسْتَوُوا بِهَدْيِ اللَّهِ بَيْنًا قَلِيلًا — إِلَى قَوْلِهِ — يَا حَسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

قوله تعالى : أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ

يُشْرِكُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) قيل : « أَتَى » بمعنى يَأْتِي ؛ فهو كقولك : إن أكرمته أكرمتني . وقد تقدم أن أخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء ؛ لأنه آت لا محالة ، كقوله : « وَتَأْدَى أَصْحَابُ الْحَيَةِ أَصْحَابُ النَّارِ » . و « أَمْرُ اللَّهِ » عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله . قال الحسن وابن جرير والضحاك : إنه ما جاء به القرآن من فرائضه وأحكامه . وفيه بعد ؛ لأنه لم يُنقل أن أحدا من الصحابة استعجل فرائض الله من قبل أن يفرض عليهم ، وأما مستعجلو العذاب والعقاب فذلك منقول عن كثير من كفار قريش

(١) آية ١٢٦ (٢) آية ١٢٧ (٣) آية ١١٠ (٤) آية ٤١ (٥) آية ٩ وما بعدها .

(٦) آية ٤٤ سورة الأعراف .

وغيرهم ، حتى قال النضر بن الحارث : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية ، فاستجبل العذاب .

قلت : قد يستدل الضحاك بقول عمر رضى الله عنه : وافقت ربى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم ، وفى الحجاب ، وفى أسارى بدر ؛ خرجه مسلم والبخارى . وقد تقدم فى سورة البقرة .^(١)
وقال الزجاج : هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم ، وهو كقوله : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ » . وقيل : هو يوم القيامة أو ما يدل على قربها من أشراتها . قال ابن عباس : لما نزلت « أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشْشَقَّ الْقَمَرُ »^(٢) قال الكفار : إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت ، فامسكوا عن بعض ما كنتم تعملون ، فامسكوا وانتظروا فلم يروا شيئا ، فقالوا : ما نرى شيئا ! فنزلت « أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ »^(٣) الآية . فاشفقوا وانتظروا قرب الساعة ، فامتدت الأيام فقالوا : ما نرى شيئا ! فنزلت « أَمَّا أَمْرُ اللَّهِ » فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وخافوا ، فنزلت « فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » فاطمانوا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بأصبعيه : السبابة والى تليها . يقول : أن كادت لتسبقنى فسبقتها . وقال ابن عباس : كان بعث النبي صلى الله عليه وسلم من أشراف الساعة ، وأن جبريل لما مرّ بأهل السموات مبعوثا إلى عهد صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر ، قد قامت الساعة .

قوله تعالى : (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) أى تنزيها له عما يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة ، وذلك أنهم يقولون : لا يقدر أحد على بعث الأموات ، فوصفوه بالعجز الذى لا يوصف به إلا المخلوق ، وذلك شرك . وقيل : « عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى عن إشراكهم . وقيل : « ما » بمعنى الذى ، أى ارتفع عن الذين أشركوا به .

(١) راجع ج ٢ ص ١١٢ طبعة ثانية . (٢) آية ٤٠ سورة هود . (٣) أول سورة القمر .

(٤) أول سورة الأنبياء .

قوله تعالى : يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿١٥﴾

قرأ المفضل عن عاصم « تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ » والأصل تنزل، فالفعل مسند إلى الملائكة .
 وقرأ الكسائي عن أبي بكر عن عاصم باختلاف عنه والأعمش « تُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ » غير مسمى
 الفاعل . وقرأ الجعفي عن أبي بكر عن عاصم « تُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ » بالنون مسمى الفاعل ،
 الباقون « يُنَزَّلُ » بالياء مسمى الفاعل، والضمير فيه لاسم الله عز وجل . وروى عن قتادة
 « تُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ » بالنون والتخفيف . وقرأ الأعمش « تَنْزِلُ » بفتح التاء وكسر الزاي ،
 من النزول . « الْمَلَائِكَةُ » رفعا مثل « تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ » . ^(١) (وَالرُّوحُ) أي بالوحي وهو النبوة ؛
 قاله ابن عباس . نظيره « يُنْفِثُ الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » . الربيع بن أنس :
 بكلام الله وهو القرآن . وقيل : هو بيان الحق الذي يجب اتباعه . وقيل أرواح الخلق ؛
 قاله مجاهد ، لا ينزل ملك إلا ومعه روح . وكذا روى عن ابن عباس أن الروح خلق من خلق
 الله عز وجل كعبور ابن آدم ، لا ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد منهم . وقيل بالرحمة ؛
 قاله الحسن وقتادة . وقيل بالهداية ؛ لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان ، وهو
 معنى قول الزجاج . قال الزجاج : الروح ما كان فيه من أمر الله حياة بالإرشاد إلى أمره .
 وقال أبو عبيدة : الروح هنا جبريل . والباء في قوله : « بِالرُّوحِ » بمعنى مع ، كقولك :
 نخرج بتيابه ، أي مع ثيابه . (مِنْ أَمْرِهِ) أي بأمره . (عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) أي على
 الذين اختارهم الله للنبوة . وهذا رد لفولهم : « لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرَّيْنِ
 عَظِيمِ » . ^(٢) (أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) تحذير من عبادة الأوثان ، ولذلك جاء
 الإنذار ؛ لأن أصله التحذير مما يخاف منه . ودل على ذلك قوله : « فَاتَّقُونِ » . و« أَنْ »
 في موضع نصب بترفع الخافض ، أي بأن أنذروا أهل الكفر بأنه لا إله إلا الله ، ف« أَنْ »
 في محل نصب بسقوط الخافض أو بوقوع الإنذار عليه .

(١) آية ٤ سورة القدر . (٢) آية ١٥ سورة غافر . (٣) آية ٣١ سورة الزمر .

قوله تعالى : **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴿١﴾
 قوله تعالى : (**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ**) أى للزوال والفناء . وقيل :
 « بالحق » أى للدلالة على قدرته ، وأن له أن يتعبد العباد بالطاعة وأن يحيى الخلق بعد الموت .
 (**تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**) أى من هذه الأصنام التى لا تقدر على خلق شئ .

قوله تعالى : **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ** ﴿٢﴾
 قوله تعالى : (**خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ**) لما ذكر الدليل على توحيده ذكر بعده الإنسان
 ومناكحته وتمدى طوره . « والإنسان » اسم للمجنس . وروى أن المراد به أبى بن خلف
 الجهمى ، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال : أترى يحيى الله هذا بعد ما قد رمى .
 وفى هذا أيضا نزل « **أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ** » أى خلق
 الإنسان من ماء يخرج من بين الصلب والترائب ، فنقله أطوارا إلى أن ولد ونشأ بحيث يخاصم
 فى الأمور . فمعنى الكلام التعجب من الإنسان « **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ** » وقوله :
 (**فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ**) أى يخاصم ، كالنسيب بمعنى المناسب . أى يخاصم الله عز وجل فى قدرته .
 و (**مُبِينٌ**) أى ظاهر الخصومة . وقيل : يبين عن نفسه الخصومة بالباطل . والمبين :
 هو المفصح عما فى ضميره بمنطقه .

قوله تعالى : **وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** ﴿٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ**) لما ذكر الإنسان ذكر ما من به عليه .
 والأنعام : الإبل والبقر والغنم . وأكثر ما يقال : نعم وأنعام للإبل ، ويقال للجموع ولا يقال
 للغنم مفردة . قال حسان :

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ * إِلَى عَذْرَاءَ مِثْلَهَا خَلَاءُ^(١)
 دِيَارٌ مِنْ بَنِي الْحَسَنَاسِ قَقْبَرٌ * تُعَقِّبُهَا الرِّوَامِيسُ وَالْمِمْاءُ^(٢)
 وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنْيَسُ * خِلَالَ مُرُوجِهَا نَمٌّ وَشَاءُ

فالتَّمُّ هنا الإِبِلُ خاصةً . وقال الجوهري : والتَّمُّ واحد الأتنام وهي المال الراعية ، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإِبِل . قال القَزَّاء : هو ذَكَرٌ لَا يُؤْتَى ، يقولون : هذا تَمٌّ وَّارِدٌ ، ويجمع على تُمَانٍ مثل حَمَلٍ وَحُمْلَانٍ . والأَتنام تَذَكَّرُ وتَوْتُ ؛ قال الله تعالى : «يَمَّا فِي بُطُونِهِ»^(٣) . وفي موضع «يَمَّا فِي بُطُونِهَا»^(٤) . وانتصب الأَتنام عطفاً على الإنسان ، أو بفعل مقدر ، وهو أوجه .
 الثانية — قوله تعالى : «(دِفءٌ) الدَّفءُ : السَّخَانَةُ ، وهو ما اسْتَدْفَى بِهِ مِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ، مَلَابَسٌ وَخُفٌّ وَقُطْفٌ » وروى عن ابن عباس : دَفَّوْهَا نَسَلَهَا ؛ والله أعلم قال الجوهري في الصحاح : الدَّفءُ نَسَاجُ الإِبِلِ وَأَلْبَانِهَا وما يَنْتَفِعُ بِهِ مِنْهَا ؛ قال الله تعالى : «لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ» . وفي الحديث «لَنَا مِنْ دِفْعِهِمْ مَا سَأَلُوا بِالْمِيثَاقِ» . والدِفءُ أيضاً : السفينة ، تقول منه : دَفَّى الرَّجُلُ دَفَاءً مِثْلَ كِرَاهَةٍ . وكذلك دَفَّى دَفًّا مِثْلَ طَعْمٍ ظمًا . والاسم الدَّفءُ (بالكسر) وهو الشيء الذي يدفئك ، والجمع الأدفَاء . تقول : ما عليه دِفءٌ ؛ لأنه اسم . ولا تقول : ما عليك دَفَاءَةٌ ؛ لأنه مصدر . وتقول : اقعد في دِفءٍ هذا الحائط أَي كِنَةٍ . ورجل دَفَّى عَلَى فَيْلٍ إِذَا لَبَسَ مَا يَدْفِيهِ . وكذلك رجل دَفَّانٌ وَاصِرَةٌ دَفَّائِي . وقد أدفاه الثوب وتدفا هو بالثوب واستدفا به ، وأدفا به وهو افعل ؛ أَي لبس ما يدفئه . ودَفَّوْتُ لَيْتِنَا ، ويوم دَفَّى عَلَى فَيْلٍ وَلَيْلَةٌ دَفِيئَةٌ ، وكذلك الثوب والبيت . والمُدَّفِئَةُ الإِبِلُ الكثيرة ؛ لأن بعضها يدفِي بعضها بأنفاسها ، وقد يشتد . والمُدَّفَاءَةُ الإِبِلُ الكثيرة الأوبار والشحوم ؛ عن الأصمعي . وأُنشد الشماخ :

وَكَيْفَ يَضْبِعُ صَاحِبُ مُدَّفَاتٍ * عَلَى أَثْبَاجِهِنَّ مِنَ الصَّبِيعِ^(٦)

- (١) ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام . وعذراء : قرية بنبوة دمشق . (٢) الحساس : اسم رجل . والرؤاس : الرياح التي تثير التراب وتدفع الأتار . (٣) آية ٦٩ من هذه السورة . (٤) آية ٢١ سورة المؤمنون . (٥) القطف (جمع طيفئة) : كساء له ثعل ؛ أَي وبر . (٦) أثباج : جمع ثبج ، وهو وسطها . وقيل ظهرها . وقيل : ما بين كاهلها وظهورها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَتَاعٌ ﴾ قال ابن عباس : المتاع نسل كل دابة . مجاهد : الركوب والحمل والألبان والحوم والسمن . ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أفرد متعة الأكل بالذكر لأنها معظم المتاع . وقيل : المعنى ومن لحومها تأكلون عند الذبح .

الثالثة - دلت هذه الآية على لباس الصوف ، وقد لبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله كرمي وغيره . وفي حديث المغيرة : فغسل وجهه وطيئه جبة من صوف شامية ضيقة الكمين... الحديث ، أخرجه مسلم وغيره . قال ابن العربي : وهو شعار المتقين ولباس الصالحين وشارة الصحابة والتابعين ، واختيار الزهاد والعارفين ، وهو يلبس لينا وخشنا وجيدا ومقاربا^(١) ورديثا ، وإليه نسب جماعة من الناس الصوفية ؛ لأنه لباسهم في الغالب ، فالإله للنسب والهاء للتأنيث . وقد أنشدني بعض أشياخهم بالبيت المقدس طهره الله :

تساجر الناس في الصوفي واختلفوا * فيه وظنوه مشتقا من الصوفي
ولست أنحمل هذا الاسم غير قتي * صافق فصوفي حتى سمي الصوفي

قوله تعالى : وَلَكُم فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٢٠﴾

الجمال ما يتجمل به ويترين . والجمال : الحسن . وقد جمّل الرجل (بالضم) جمالا فهو جميل ، والمرأة جميلة ، وجملاء أيضا عن الكسائي . وأنشد :

فهى بجملاء كبدير طالع * بنت الخلق جميعا بالجمال

وقول أبي ذؤيب :

* جمالك أيها القلب القريح^(٢) *

يريد : الزم تجملك وحياءك ولا تجزع جزعا قبيحا . قال عماؤنا : فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخلق ، ويكون في الأخلاق الباطنة ، ويكون في الأفعال . فأما جمال الخلق فهو

(١) شئ مقارب (كسر الزاء) : وسط بين الجيد والردى... (٢) هذا صدر البيت ، وبجزءه كما في اللسان :

* سئل من يحب قسرتج *

أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلماً ، فتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبتة لأحد من البشر . وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعدل والعفة ، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد . وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية لحلب المنافع فيهم . وصرف الشر عنهم . وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة ، وهو مرئي بالأبصار موافق للبصائر . ومن جمالها كثرتها وقول الناس إذا رأوها هذه نعم فلان ؛ قاله السدي . ولأنها إذا راحت توقروا حسناتها وعظم شأنها وتملقت القلوب بها ؛ لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنة وضروما ؛ قاله قتادة . ولهذا المعنى قدم الزواج على السراح لشكامل ذمها وسرور النفس بها إذ ذاك . والله أعلم . وروى أشهب عن مالك قال : يقول الله عز وجل « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين ترحون » وذلك في المواشي حين تروح إلى المرعى وتسرح عليه . والزواج رجوعها بالشيء من المرعى ، والسراح بالقدادة ؛ تقول : سرح الإبل أسرحها سرحاً وسروها إذا غدت بها إلى المرعى فخلتها ، وسرحت هي . المتعدى واللازم واحد .

قوله تعالى : **وَيَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمَّ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ**
الْأَنْفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(وَيَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ)** الأقال أنقال الناس من مناع وطعام وغيره ، وهو ما يتقل الإنسان حملة . وقيل : المراد أبدانهم ؛ يدل على ذلك قوله تعالى : **« وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أُنْقَالُهَا ۚ »** . والبلد مكة ، في قول عكرمة . وقيل : هو محمول على العموم في كل بلد مسلكه على الظاهر . وشق النفس : مشقتها وغاية جهدها . وقراءة العامة بكسر الشين . قال الجوهري : والشق المشقة ؛ ومنه قوله تعالى : **« لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ »**

وهذا قد يفتح، حكاه أبو عبيدة . قال المهدوي : وكسر الشين وفتحها في « شق » متقاربان ، وهما بمعنى المشقة ، وهو من الشق في العصا ونحوها ؛ لأنه ينال منها كالمشقة من الإنسان . وقال الثعلبي : وقرأ أبو جعفر « إِلَّا يَسْقُ الْإِنْسِ » وهما لفتان ، مثل رِقَ ورق وجص وجَص وِرطل ورَطْل . ويلشد قول الشاعر بكسر الشين وفتحها :

وذى إبل يَسْعَى وَيَحِبُّهَا لَهُ * أُنْحَى نَصَبٌ مِنْ شِقِّهَا وَذُؤُوبِ

ويحوز أن يكون بمعنى المصدر، من شَقَّتْ عليه أَشَقَّ شَقًّا . والشَّقُّ أيضا بالكسر النصف ، يقال : أخذت شِقَّ الشاة وشِقَّة الشاة . وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى ؛ أى لم تكونوا بالغية إلا بنقص من القوة وذهاب شِق منها ، أى لم تكونوا تبلغوه إلا بنصف قوى أنفسكم وذهاب النصف الآخر . والشَّقُّ أيضا الناحية من الجبل . وفي حديث أم زَرْع : وجدنى فى أهل غُثَيْمَةِ بِشَقِّ . قال أبو عبيد : هو اسم موضع . والشَّقُّ أيضا : الشقيق ، يقال : هو أُنْحَى وشِق نفسى . ويشق اسم كاهن من كهان العرب . والشَّقُّ أيضا : الجانب ؛ ومنه قول امرئ القيس :

إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْصَرَفَتْ لَهُ * بِشَقٍّ وَتَحَى شِقُّهَا لَمْ يُحَوِّلْ

فهو مشترك .

الثانية — مَنْ الله سبحانه بالأنعام عموما ، وَخَصَّ الإِبِلَ هنا بالذكر فى حمل الأثقال على سائر الأنعام ؛ فإن الغنم للترج والذبيح ، والبقر للحرث ، والإبل للعمل . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ^{٢٠} « بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقْرَةً لَهُ قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا التَّفْتَثَ إِلَيْهِ الْبَقْرَةُ فَقَالَتْ إِنِّى لَمْ أَخْلُقْ لِهَذَا وَلَكِنِّى إِنَّمَا خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ فَقَالَ النَّاسُ سُبْحَانَ اللَّهِ تَحْبَا وَفَزَعَا أَبْقَرَةً تُكَلِّمُ » ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ^{٢١} « وَإِنِّى أَوْمِنُ بِهِ وَأَبْرُ بِكَرْوَمِهِ » . فدل هذا الحديث على أن البقر لا يحمل عليها ولا تتركب ، وإنما هى للحرث وللأكل والنسل والرسول ^(٢٢) .

(١) هو الثمرين قول ، كافى اللسان مادة شقق . (٢) الرسل (بالكسر) : الغنم .

الثالثة — في هذه الآية دليل على جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها ، ولكن على قدر ما تحتمله من غير إسراف في الحمل مع الزحف في السير . وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالرفق بها والإراحة لها ومراعاة التفقد لملفها وسقيها . وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ^(١) « إذا سافرتُم في الحُصْب فأعطوا الإبل حظها من الأرض وإذا سافرتُم في السَّنة فبادروا بها نَحْيها » رواه مالك في الموطأ عن أبي عبيد عن خالد بن معدان . وروى معاوية بن قُرة قال : كان لأبي الدرداء جمل يقال له دمون ، فكان يقول : يادمون ، لا تخاصمني عند ربك . فالدواب عُجم لا تقدر أن تحتال لنفسها ما تحتاج إليه ، ولا تقدر أن تُفصح بحوائجها ، فمن ارتفق بمراقبتها ثم ضيَّعها من حوائجها فقد ضيَّع الشكر وتعرض للخصومة بين يدي الله تعالى . وروى مطر بن محمد قال : حدَّثنا أبو داود قال حدَّثنا ابن خالد قال حدَّثنا المسيَّب بن آدم قال . رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ضرب جمَلاً وقال : تمهل على بعيرك ما لا يطيق .

قوله تعالى : **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٨﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(وَالْخَيْلَ)** بالنصب معطوف ، أى وخلق الخيل . وقراً ابن أبي عَبلَةَ « وَالْخَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ » بالرفع فيها كلها . ومُثِّمَت الخيل خيلاً لاختيائها في المشية . وواحد الخيل خائل ، كضائين واحد ضيَّين ، وقيل لا واحد له . وقد تقدم هذا في « آل عمران » ^(٢) ، وذكرنا الأحاديث هناك . ولما أفرد سبحانه الخيل والبغال والحمير بالذكر

(١) قوله « في السنة » أى في القحط وانعدام نبات الأرض من يسها . والنقي (يكسر النون وسكون القاف) هو الخ . ومناه : اسرعوا في السير بالإبل لتصلوا إلى المقصد وفيها بقية من قوتها ؛ إذ ليس في الأرض ما يقربها على السير .
(٢) رابع به ٤ ص ٣٢ طبة أولى أو ثانية .

دل على أنها لم تدخل تحت لفظ الأنعام . وقيل : دخلت ولكن أفردتها بالذكر لما يتعلق بها من الركوب ؛ فإنه يكثر في التحليل والبهال والجمير .

الثانية — قال العلماء : ملكاً الله تعالى الأنعام والدواب وذللها لنا ، وأباح لنا تسخيرها والانتفاع بها رحمة منه تعالى لنا ، وما ملكه الإنسان وجاز له تسخيرها من الحيوان فكأنه له جائز بإجماع أهل العلم ، لا اختلاف بينهم في ذلك . وحكم كراء الرواحل والدواب مذكور في كتب الفقه .

الثالثة — لا خلاف بين العلماء في اكتراء الدواب والرواحل للحمل عليها والسفر بها ؛ لقوله تعالى : « وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ » الآية . وأجازوا أن يُكْرَى الرجل الدابة والراحلة إلى مدينة بعينها وإن لم يُسَمَّ أين يترك منها ، وكَم من منهل يترك فيه ، وكيف صفة مسيره ، وكَم يترك في طريقه ، وأجترأوا بالمتعارفين الناس في ذلك . قال علماؤنا : والكراء يجري مجرى البيوع فيما يحمل منه ويحرم . قال ابن القاسم فيمن أكرت دابة إلى موضع كذا بشرب مَرَوِيٍّ ولم يصف رُقعته وذرعته : لم يميز ؛ لأن مالكا لا يميز هذا في البيع ، ولا يميز في ثمن الكراء إلا ما يحوز في ثمن البيع .

قلت : ولا يختلف في هذا إن شاء الله ؛ لأن ذلك إجارة . قال ابن المنذر : وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن من أكرت دابة ليحمل عليها عشرة أقفزة قمح فحمل عليها ما أشرط فتلفت أن لا شيء عليه . وهكذا إن حمل عليها عشرة أقفزة شعير . واختلفوا فيمن أكرت دابة ليحمل عليها عشرة أقفزة فحمل عليها أحد عشر قفيزاً ، فكان الشافعي وأبو ثور يقولان : هو ضامن لقيمة الدابة وعليه الكراء . وقال ابن أبي ليلى : عليه قيمتها ولا أجر عليه . وفيه قول ثالث — وهو أن عليه الكراء وعليه جزء من أجر وجزء من قيمة الدابة بقدر ما زاد من الحمل ؛ وهذا قول النعمان ويعقوب ومحمد . وقال ابن القاسم صاحب مالكا : لا ضمان عليه في قول مالكا إذا كان القفيز الزائد لا يُقَدَح الدابة ، ويُعلم أن مثله

(١) المثل : المشرب ، ثم كثر ذلك حتى سميت منازل السقار على المياه مثاهل .

لا تمطّب فيه الدابة ، ولربّ الدابة أجر القفيز الزائد مع الكراء الأول ؛ لأن عطبها ليس من أجل الزيادة . وذلك بخلاف مجاوزة المسافة ؛ لأن مجاوزة المسافة تعدّ كنه فيضمن إذا هلك في قليله وكثيره . والزيادة على الحمل المشترك اجتمع فيه إذن وتعدّ ، فإذا كانت الزيادة لا تمطّب في مثلها لم أن هلاكها بما أُذن له فيه .

الرابعة - واختلف أهل العلم في الرجل يكتري الدابة بأجر معلوم إلى موضع مسمّى ، فيتمدّى فيتجاوز ذلك المكان ثم يرجع إلى المكان المأذون له في المصير إليه . فقالت طائفة : إذا جاوز ذلك المكان ضمن . وليس عليه في التمدّى كراء ؛ هكذا قال الثوري . وقال أبو حنيفة : الأجر له فيما سقى ، ولا أجر له فيما لم يسق ؛ لأنه خالف فهو ضامن ، وبه قال يعقوب . وقال الشافعي : عليه الكراء الذي سقى ، وكراء المثل فيما جاوز ذلك ، ولو عطبت لزمه قيمتها . ونحوه قال الفقهاء السبعة ، مشيخة أهل المدينة قالوا : إذا بلغ المسافة ثم زاد فعليه كراء الزيادة إن سلمت وإن هلك ضمن . وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور : عليه الكراء والضمان . قال ابن المنذر : وبه يقول . وقال ابن القاسم : إذا بلغ المكتري الغاية التي اكترى إليها ثم زاد ميلا ونحوه أو أميالا أو زيادة كثيرة فعطبت الدابة ، فربّها كراؤه الأول والخيار في أخذه كراء الزائد بالنّما ما بلغ ، أو قيمة الدابة يوم التمدّى . ابن الموّاز : وقد روى أنه ضامن ولو زاد خُطوة . وقال ابن القاسم عن مالك في زيادة الميل ونحوه : وأما ما يعدل الناس إليه في المرحلة فلا يضمن . وقال ابن حبيب عن ابن الماسحون وأصْبَغ : إذا كانت الزيادة يسيرة أو جاوز الأمد الذي تكارها إليه يسير ، ثم رجع بها سالمة إلى موضع تكارها إليه فماتت ، أو ماتت في الطريق إلى الموضع الذي تكارها إليه ، فليس له إلا كراء الزيادة ، كرهة لما تسلف من الوديعة . ولو زاد كثيرا بما فيه مقام الأيام الكثيرة التي يتغير في مثلها سوقها فهو ضامن ، كما لو ماتت في مجاوزة الأمد أو المسافة ؛ لأنه إذا كانت زيادة يسيرة مما يعلم أن ذلك مما لم يُمنّ على قتلها فهلاكها بعد ردها إلى الموضع المأذون له فيه كهلاك ما تسلف من الوديعة بعد رده لا محالة . وإن كانت الزيادة كثيرة فتلك الزيادة قد أمانت على قتلها .

الخامسة — قال ابن القاسم وابن وهب قال مالك قال الله تعالى : « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً » فجعلها للركوب والزينة ولم يجعلها للأكل؛ ونحوه عن أشهب . ولهذا قال أصحابنا : لا يجوز أكل لحوم الخيل والبغال والحمير؛ لأن الله تعالى لما نص على الركوب والزينة دل على أن ما عده بخلافه . وقال في الأنعام : « وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ » مع ما امتن الله منها من الذئب والمنافع ، فأباح لنا أكلها بالذكاة المشروعة فيها . وبهذه الآية أحتج ابن عباس والحكم بن عيسى ، قال الحكم : لحوم الخيل حرام في كتاب الله ، وقرأ هذه الآية والتي قبلها وقال : هذه للأكل وهذه للركوب . وسئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرها ، وتلا هذه الآية وقال : هذه للركوب ، وقرأ الآية التي قبلها « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ » ثم قال : هذه للأكل ، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعي ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم ، وأحتجوا بما أخرجه أبو داود والنسائي والدارقطني وغيرهم عن صالح بن يحيى بن المقدم ابن معديكر عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي يوم خيبر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير ، وكل ذى ناب من السباع أو غلب من الطير . لفظ الدارقطني . وعند النسائي أيضا عن خالد بن الوليد أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يجل أكل لحوم الخيل والبغال والحمير » . وقال الجمهور من الفقهاء والمحدثين : هي مباحة . وروى عن أبي حنيفة . وشذت طائفة فقالت بالتحريم ؛ منهم الحكم كما ذكرنا ، وروى عن أبي حنيفة ، حكى الثلاث روايات عنه الروائي في بحر المذهب على مذهب الشافعي .

قلت : الصحيح الذي يدل عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل ، وأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة . أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل ، إذ لو دللت عليه لدلت على تحريم لحوم الحمير ، والسورة مكية ، وأي حاجة كانت إلى تجديد تحريم لحوم الحمير عام خيبر وقد ثبت في الأخبار تحليل الخيل على ما يأتي . وأيضا لما ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من منافعها وأهم ما فيها ، وهو حمل الأثقال والأكل ، ولم يذكر الركوب ولا الحث بها ولا غير ذلك مصرحاً به ، وقد تركت ويحتر بها ؛ قال الله تعالى : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا

منها ومنها تأكلون» . وقال في التحليل : « لتركبوها وزينة » فذكر أيضا أغلب منافعه والمقصود منها، ولم يذكر حمل الإفتعال عليها، وقد تحمل كما هو مشاهد فلذلك لم يذكر الأكل . وقد بينه نبيه عليه السلام الذي جعل إليه بيان ما أنزل عليه على ما يأتي، ولا يلزم من كونها خلقت للركوب والزينة ألا تؤكل ، فهذه البقرة قد أنطقها خالقها الذي أنطق كل شيء فقالت : إنما خلقت للحرث . فيلزم من مآل أن التحليل لا تؤكل لأنها خلقت للركوب ألا تؤكل البقرة لأنها خلقت للحرث . وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها، فكذلك التحليل بالسنة الثابتة فيها . روى مسلم من حديث جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم التحليل . وقال النسائي عن جابر : أطعمتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر لحوم التحليل ونهانا عن لحوم الحمر . وفي رواية عن جابر قال : كنا نأكل لحوم التحليل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن قيل : الرواية عن جابر بأنهم أكلوها في خيبر حكاية حال وقضية في عين ، فيحتمل أن يكونوا ذبحوا لضرورة ، ولا يمتنع قضايها الأحوال . قلنا : الرواية عن جابر وإخباره بأنهم كانوا يأكلون لحوم التحليل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيل ذلك الاحتمال ، ولئن سلمناه فعنا حديث أسماء قالت : نحرنا فرسا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة فأكلناه؛ رواه مسلم . وكل تأويل من غير ترجيح في مقابلة النص فإنما هو دعوى ، لا يلتفت إليه ولا يمتزج عليه . وقد روى الدارقطني زيادة حسنة ترفع كل تأويل في حديث أسماء ، قالت أسماء : كان لنا فرس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أرادت أن تموت فذبحناها فأكلناها . فذبحها إنما كان لخوف الموت عليها لا لغير ذلك من الأحوال . وبقائه التوفيق . فإن قيل : حيوان من ذوات الحوافر فلا يؤكل كالخمار ؟ قلنا : هذا قياس الشبه وقد اختلف أرباب الأصول في القول به ، ولئن سلمناه فهو متقضى بالاحتراز ؛ فإنه ذو ظلف وقد باين ذوات الأظلاف ، وعلى أن القياس إذا كان في مقابلة النص فهو فاسد الوضع لا التفات إليه . قال الطبري : وفي إجماعهم على جواز ركوب ما ذكره للأكل دليل على جواز أكل ما ذكره للركوب .

السادسة — وأما البغال فإنها تلحق بالجبر ، إن قلنا إن الخيل لا تؤكل ، فإنها تكون متولدة من عيتين لا يؤكلان . وإن قلنا إن الخيل تؤكل ، فإنها عين متولدة من مأكول وغير مأكول فقلب التحريم على ما يلزم في الأصول . وكذلك ذبح المولود بين كافرين أحدهما من أهل الذكاة والأنرليس من أهلها ، لا تكون ذكاة ولا تحمّل به الذبيحة . وقد مضى في «الأنعام»^(١) الكلام في تحريم الجمر فلا معنى للإعادة . وقد علّل تحريم أكل الجمار بأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلوّط ؛ فسمي رجسا .

السابعة — في الآية دليل على أن الخيل لا زكاة فيها ؛ لأن الله سبحانه منّ علينا بما أباحتها منها وكرّمنا به من منافعتها ، فغير جائز أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل . وقد روى مالك عن عبد الله بن دينار عن سليمان بن يسار عن عمارك بن مالك عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة » . وروى أبو داود عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس في الخيل والرقى زكاة إلا زكاة القطر في الرقي » . وبه قال مالك والشافعي والأوزاعي والليث وأبو يوسف ومحمد . وقال أبو حنيفة : إن كانت إناثا كلها أو ذكورا وإناثا ، ففي كل فرس دينار إذا كانت سائمة ، وإن شاء قومها فأخرج عن كل مائتي درهم خمسة دراهم . واحتج بأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « في الخيل السائمة في كل فرس دينار » وبقوله صلى الله عليه وسلم : « الخيل ثلاثة ... » الحديث . وفيه : « ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها » . والجواب عن الأول أنه حديث لم يروه إلا غورك^(٢) السعدي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر . قال الدارقطني : تفرد به غورك عن جعفر وهو ضعيف جدا ، ومن دونه ضعفاء . وأما الحديث فالحق المذكور فيه هو الخروج عليها إذا وقع التقير وتعين بها لقتال العدو إذا تميّن ذلك عليه ، ويحمل المتقطين عليها إذا احتاجوا لذلك ، وهذا واجب عليه إذا تميّن ذلك ، كما يتعيّن عليه أن يطعمهم عند الضرورة ، فهذه حقوق الله في رقابها . فإن قيل : هذا هو

(١) راجع ج ٧ ص ١١٥ وما بعدها . (٢) هو غورك بن الخضر أبو عبد الله . (عن الدارقطني) .

الحق الذي في ظهورها وبقي الحق الذي في رقابها ؛ قيل : قد روى " لا يلقى حق الله فيها " ولا فرق بين قوله : " حق الله فيها " أو " في رقابها وظهورها " فإن المعنى يرجع إلى شيء واحد ؛ لأن الحق يتعلق بجملة . وقد قال جماعة من العلماء : إن الحق هنا حسن ملكها وتمتد شعبها والإحسان إليها وركوبها غير مشقوق عليها ؛ كما جاء في الحديث " لا تتخذوا ظهورها كرامى " . وإنما خص رقابها بالذكر لأن الرقاب والأعناق تستمر كثيرا في مواضع الحقوق اللازمة والفروض الواجبة ؛ ومنه قوله تعالى : « قَتَحِرُّ رِقَبَةً مُؤْمِنَةً » وكثر عندهم استعمال ذلك واستعارته حتى جعلوه في الرقاب والأموال ؛ ألا ترى قول كثير :

غَمَر الرِّاءَ إِذَا تَهَمَّ ضَاحِكًا * فَلَقْتُ لِيَضْحَكْتَهُ رِقَابُ الْمَالِ^(١)

وأياها فإن الحيوان الذي تجب فيه الزكاة له نصاب من جنسه ، ولما خرجت الخيل عن ذلك صلتها سقوط الزكاة فيها . وأيضا فإنها متفردة دون الذكور تناقض منه ، وليس في الحديث فصل بينهما . وتقيس الإناث على الذكور في نفي الصدقة بأنه حيوان مُقْتَنٍ لنفسه لاندازه ، ولا تجب الزكاة في ذكره فلم تجب في إناثه كالإبل والحمار . وقد روى عنه أنه لا زكاة في إناثها وإن انفردت كذكورها متفردة ، وهذا الذي طبعه الجمهور . قال ابن عبد البر : الخيل في صدقة الخيل عن عمر صحيح من حديث الزهري وغيره . وقد روى من حديث مالك ، رواه عنه جويرية عن الزهري أن السائب بن يزيد قال : لقد رأيت أبي يقوم الخيل ثم يدفع صدقتها إلى عمر . وهذا حجة لأبي حنيفة وشيخه حماد بن أبي سليمان ، لا أعلم أحدا من فقهاء الأمصار أوجب الزكاة في الخيل غيرهما . تفرد به جويرية عن مالك وهو ثقة .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَزِينَةً ﴾ منصوب بإضمار فعل ، المعنى : وجعلها زينة . وقيل : هو مفعول من أجله . والزينة : ما يترتب به ، وهذا الجمال والترف وإن كان من متاع الدنيا فقد أذن الله سبحانه لعباده فيه ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الإبل عنز

(١) النمر : الماء الكثير . ورجل غمر الرءاء ، وغمر الخلق ، أى واسم الخلق . كثير المعروف بمعنى .

لأهلها والغنم بركة والخيل في نواصبها الخير^(١) . خرجه البرقاني وابن ماجه في السنن . وقد تقدم في الأنعام . وإنما جمع النبي صلى الله عليه وسلم العز في الإبل ؛ لأن فيها اللباس والأكل واللبن والجل والغزو وإن نقصها الكر والفز . وجعل البركة في الغنم لما فيها من اللباس والطعام والشراب وكثرة الأولاد ؛ فإنها تلد في العام ثلاث مرات إلى ما يتبعها من السكينة ، وتحمل صاحبها عليه من خفض الجناح ولين الجانب ؛ بخلاف الفئادين أهل الوبر^(٢) . وقرن النبي صلى الله عليه وسلم الخير بنواصي الخيل بقيّة الدهر لما فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعاش ، وما يوصل إليه من قهر الأعداء وظلب الكفار وإعلاء كلمة الله تعالى .

قوله تعالى : (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) قال الجمهور : من الخلق . وقيل : من أنواع الحشرات والحوام في أسافل الأرض والبحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به . وقيل : « ويخلق ما لا تعلمون » مما أعد الله في الجنة لأهلها وفي النار لأهلها ، بما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر . وقال قتادة والسُّدِّي : هو خلق السوس في الثياب والود في الفواكه . ابن عباس : عين تحت العرش ؛ حكاه الماوردي . الثعلبي : وقال ابن عباس عن يمين العرش نهر من النور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبع سبعين مرة ، يدخله جبريل كلّ بحر فيغتسل فيزداد نورا إلى نوره وجمالا إلى جماله وعظما إلى عظمه ، ثم ينتفض فيخرج الله من كل ريشة سبعين ألف قطرة ، ويخرج من كل قطرة سبعة آلاف ملك ، يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك إلى البيت المعمور ، وفي الكعبة سبعون ألفا لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . وقول خامس — وهو ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها أرض بيضاء ، مسيرة الشمس ثلاثين يوما مشحونة خلقا لا يعلمون أن الله تعالى يعصى في الأرض ، قالوا : يا رسول الله ، من ولد آدم ؟ قال : « لا يعلمون أن الله خلق آدم » . قالوا : يا رسول الله ، فأين إبليس منهم ؟ قال : « لا يعلمون أن الله خلق إبليس » — ثم تلا « ويخلق ما لا تعلمون » ذكره الماوردي .

(١) الفئادون : أصحاب الإبل الكثيرة الذين يملك أحدهم المائتين من الإبل إلى الألف .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكر البيهقي عن الشعبي قال : إن لله عبادة من وراء الأندلس كما بينا وبين الأندلس ، ما يرون أن الله عصاه مخلوق ، رَضْرَاضُهُمُ الدُّرُّ ^(١) والياقوت وجبالهم الذهب والفضة ، لا يهرون ولا يزرون ولا يعملون عملا ، لم يغير على أبوابهم لما ثمره طعمهم وشجرها أوراق عراض هي لباسهم ، ذكره في بدء الخلق من (كتاب الأسماء والصفات) . ونرجح من حديث موسى بن عتبة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " .

قوله تعالى : وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ

أَجْمَعِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) أى على الله بيان قصد السبيل ، خذف المضاف وهو البيان . والسبيل : الإسلام ، أى على الله بيانه بالرسول والمهجج والبراهين . وقصد السبيل : استعانة الطريق ؛ يقال : طريق قاصد أى يؤدى إلى المطلوب . (وَمِنْهَا جَائِرٌ) أى ومن السبيل جائر ؛ أى عادل عن الحق فلا يهتدى به ؛ ومنه قول امرئ القيس :
ومن الطريقة جائر وهْدَى * قصد السبيل ومنه ذو دخل
وقال طرفة :

عَدْوِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنْ * يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي

الْعَدْوِيَّةُ سفينة ملسوبة إلى عدوى قرية بالبحرين . والعَدْوِيَّةُ : الملاح ؛ قاله في الصحاح . وفي التبريل « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ » وقد تقدم . ^(٢) وقيل : المعنى ومنهم جائر عن سبيل الحق ، أى عادل عنه فلا يهتدى إليه . وفيهم قولان : أحدهما — أنهم أهل الأهواء المختلفة ؛ قاله ابن عباس . الثاني — ملل الكفر من اليهودية والمجوسية

(١) الرضراض : ما دق من الحصص . (٢) راجع ج ٧ ص ١٣٧ طبعة أملى أرفانية .

والنصرانية . وفي مصحف عبد الله « ومنكم جائر » وكذا قرأ على « ومنكم » بالكاف . وقيل : المعنى وعنها جائر ؛ أى عن السبيل . ف « ين » بمعنى عن . وقال ابن عباس : أى من أراد الله أن يهديه سبيل له طريق الإيمان ، ومن أراد أن يضلّه ثقل عليه الإيمان وفروعه . وقيل : معنى « قَصْدُ السَّبِيلِ » مسيركم ورجوعكم . والسبيل واحدة بمعنى الجمع ، ولذلك أنثى الكتابة فقال : « ومنها » والسبيل مؤنثة في لغة أهل الحجاز .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بين أن المشيئة لله تعالى ، وهو يصحح ما ذهب إليه ابن عباس في تأويل الآية ، ويردّ على القدرية ومن وافقها كما تقدّم .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٥﴾

الشراب ما يشرب ، والشجر معروف . أى ينبت من الأمطار أشجارا وعروشا ونباتا . و﴿ تُسِيمُونَ ﴾ ترعون إيلكم ؛ يقال : سامت السائمة تسوم سوّما أى رعت ، فهى سائمة . والسَّوَامُ والسائم بمعنى ، وهو المال الراعى . وجمع السائم والسائمة سواثم . وأستمتها أنا أى أخرجتها إلى الرعي ، فإنا مُسِمٌّ وهى مُسامة وسائمة . قال :
* أَوَّلَى لَكَ أَبْنٌ مُسِيمةُ الأَجْمَالِ ^(١) *

وأصل السَّوْمُ الإبعاد في المرعى . وقال الزجاج : أخذ من السومة وهى العلامة ؛ أى أنها تؤثر في الأرض علامات برعيها ، أولأنها تُعَلِّمُ للإرسال في المرعى .

قلت : والخيل المسومة تكون المريعية ، وتكون المُعَلِّمة . وقوله : « مُسَوِّمِينَ » قال الأخفش تكون مُعَلِّمِينَ وتكون مُرْسَلِينَ ؛ من قولك : سوّوم فيها الخيل أى أرسلها ، ومنه السائمة ، وإنما جاء بالياء والنون لأن الخيل سوّومت وعليها رجانها .

(١) هذا مجزيت ، ومصدره كما في تفسير الطبري : * مثل ابن زينة أركتر مظه *

قوله تعالى : **يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ**
وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : **(يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ)**
 قرأ أبو بكر عن عاصم « نُئِبِتْ » بالنون على التعظيم . العامة بالياء على معنى ينبت الله لكم ؛
 يقال : نبتت الأرض وأنبئت بمعنى ، ونبت البقل وأنبئت بمعنى . وأنشد الفراء :
 رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم * قطينا بها حتى إذا أنبت البقل

أى نبت . وأنبت الله فهو منبوت ، على غير قياس . وأنبت الغلام نبتت مائته . ونبت الشجر
 غرسه ؛ يقال : نبت أجلك بين عيالك . ونبت الصبي تنبينا ربيته . والمنبت موضع النبات ؛
 يقال : ما أحسن نابتة بنى فلان ؛ أى ما ينبت عليه أموالهم وأولادهم . ونبتت لهم نابتة إذا
 نشأ لهم نشء صغار . وإن بنى فلان لنباتة شر . والنواب من الأحداث الأثمار . والنبيت
 حتى من اليمن . والنبوت شجر ؛ كله عن الجوهرى . **(وَالزَّيْتُونَ)** جمع زيتونة . ويقال
 للشجرة نفسها : زيتونة ، وللشجرة زيتونة . وقد مضى في سورة « الأنعام » حكم زكاة هذه
 الثمار فلامعنى للإعادة **(إِنَّ فِي ذَلِكَ)** الإنزال والإنبات . **(لَآيَةً)** أى دلالة . **(لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)** .

قوله تعالى : **وَيَخَرِّجُ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ**
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : **(وَيَخَرِّجُ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)** أى للسكون والأعمال ؛ كما قال : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ
 جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبَيِّنُوا مِنْ فَضْلِهِ » . **(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ**
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) أى مُدَلَّلَاتٌ لمعرفة الأوقات ونضج الثمار والزرع والاهتداء بالنجوم
 في الظلمات . وقرأ ابن عامر وأهل الشام « والشَّمْسُ والقمرُ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ » بالرفع

على الابتداء والخبر . الباقون بالنصب عطفا على ما قبله . وقرأ حفص عن عاصم برفع
« والتجّوم » ، « مسخراتٌ » خبره . وقرئ « والشمس والقمر والنجوم » بالنصب .
« مسخراتٌ » بالرفع ، وهو خبر ابتداء محذوف أى هى مسخرات ، وهى فى قراءة من نصبها
حال مؤكدة ؛ كقوله : « وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا » . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) أى
عن الله ما نهبهم عليه ووقفهم له .

قوله تعالى : وَمَا ذَرَأَّا لَكُم فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٧﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَمَا ذَرَأَّا) أى وسخر ما ذرا فى الأرض لكم . « ذَرَأَّا » أى
خلق ؛ ذرا الله الخلق يذروهم ذرأ خلقهم ، فهو ذارى ؛ ومنه الذرية وهى نسل الثقلين ،
إلا أن العرب تركت همزا ، واجمع الذرارى . يقال : أنمى الله ذراك وذروك ، أى ذريتك .
وأصل الذرو والذرة التفريق عن جمع . وفى الحديث : ذره النار ؛ أى أنهم خلقوا لها .

الثانية — ما ذراه الله سبحانه منه مسخر مذل كاللواب والأنعام والأشجار وغيرها ،
ومن غير ذلك . والدليل عليه ما رواه مالك فى الموطأ عن كعب الأحبار قال : لولا كلمات أقولهن
لجعلنى يهود حمارا . فقيل له : وما هن ؟ فقال : أعوذ بوجه الله العظيم الذى ليس شئ
أعظم منه ، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، وبأسماء الله الحسنى كلها
ما علمت منها وما لم أعلم ، من شر ما خلق وبرأ وذرأ . وفيه عن يحيى بن سعيد أنه قال :
أُسِّيرَ برسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار ، الحديث .
وفيه : وشر ما ذرأ فى الأرض . وقد ذكرناه وما فى معناه فى غير هذا الموضع .

(١) راجع ج ٢ ص ٢٩ طبعة ثانية . (٢) أى فى حديث عمر رضى الله عنه كتب إلى خاله :
والى لأخذك آل المهيرة ذره النار .

الثالثة - قوله تعالى : (**مَخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ**) « **مَخْتَلِفًا** » نصب على الحال ، و « **أَلْوَانُهُ** » هيئاته ومناظره ، يعنى الدواب والشجر وغيرها . (**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) أى فى اختلاف ألوانها . (**لَايَةً**) أى لعلامة . (**لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**) أى يتفكرون ويعلمون أن فى تسخير هذه المكنونات لعلامات على وحدانية الله تعالى ، وأنه لا يقدر على ذلك أحد غيره .

قوله تعالى : **وَهُوَ الَّذِي يَخْرِجُ الْبَحْرَ لِيَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَيُسَخِّرْجُوا مِنْهُ حِلْيَةً يَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴿١١﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (**وَهُوَ الَّذِي يَخْرِجُ الْبَحْرَ**) تسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله بالركوب والإرفاء وغيره ، وهذه نعمة من نعم الله علينا ، فلو شاء سلطه علينا وأغرقنا . وقد مضى الكلام فى البحر وفى صيده . ^(١) وسماه هنا لحا والمخوم عند مالك ثلاثة أجناس : فلمح ذوات الأربع جنس ، ولحم ذوات الريش جنس ، ولحم ذوات الماء جنس . فلا يجوز بيع الجنس من جنسه متفاضلا ، ويجوز بيع لحم البقر والوحش بلحم الطير والسماك متفاضلا ، وكذلك لحم الطير بلحم البقر والوحش والسماك يجوز متفاضلا . وقال أبو حنيفة : اللحم كلها أصناف مختلفة كأصولها ، فلمح البقر صنف ، ولحم النعم صنف ، ولحم الإبل صنف ، وكذلك الوحش مختلف ، وكذلك الطير ، وكذلك السمك ، وهو أحد قولى الشافعى . والقول الآخر أن الكل من النعم والصيد والطير والسمك جنس واحد لا يجوز التفاضل فيه . والقول الأول هو المشهور من مذهبه عند أصحابه . ودليلنا هو أن الله تعالى فرق بين أسماء الأنعام فى حياتها فقال : « **مَسْنِينِ** أَرْوَاحٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ » ^(٢)

(١) راجع ج ١ ص ٢٨٨ طبع ثانية أوتالفة وج ٦ ص ٣١٨ طبع أولى أدعانية .

(٢) آية ١٤٣ سورة الأنعام .

ثم قال : « وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ » فلما أن أم بالجبع ^(١) إلى اللحم قال : « أحلت لكم بهيمة الأنعام » فجمعها يلحم واحد لتقارب منافعها كتقارب لحم الضأن والمعز . وقال في موضع آخر : « وَلَحْمُ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » ^(٢) وهذا جمع طائر الذي هو الواحد ، لقوله تعالى : « وَلَا طَائِرُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ » فجمع لحم الطير كله باسم واحد . وقال هنا : « تَحْمًا طَيْرِيًّا » فجمع أصناف السمك بذكر واحد ، فكان صفاره كجواره في الجمع بينهما . وقد روى عن ابن عمر أنه سئل عن لحم المعز يلحم الجكاش شيء واحد ؟ فقال لا ؛ ولا يخالف له فصار كالإجماع ، والله أعلم . ولا حجة للمخالف في نهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع الطعام إلا مثلاً بمثل ؛ فإن الطعام في الإطلاق يتناول الحنطة وضرهها من المأكولات ولا يتناول اللحم ؛ ألا ترى أن القائل إذا قال : أكلت اليوم طعاما لم يسبق الفهم منه إلى أكل اللحم ، وأيضا فإنه معارض بقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا اختلف الجنسان فيبعوا كيف شئتم » وهذان جنسان ، وأيضا فقد اتفقنا على جواز بيع اللحم بلحم الطير متفاضلا لا لعل أنه يبيح طعام لا زكاة له يبيع بلحم ليس فيه الزكاة ، كذلك بيع السمك بلحم الطير متفاضلا .

الثانية — وأما الجراد فالمشهور عندنا جواز بيع بعضه ببعض متفاضلا . وذكر عن محمد بن وهب أنه يمنع من ذلك ، وإليه مال بعض المتأخرين ورآه مما يذنب .

الثالثة — اختلف العلماء فيمن حلف ألا يأكل لحما ؛ فقال ابن القاسم : يحنت بكل نوع من هذه الأنواع الأربعة . وقال أشهب في المجموعة . لا يحنت إلا بكل لحوم الأنعام دون الوحش وضره ، مراعاة للعرف والعادة ، وتقديما لها على إطلاق اللفظ اللغوي ، وهو أحسن .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ يعني به اللؤلؤ والمرجان ؛ لقوله تعالى : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » . وإخراج الحلية إنما هي فيما عرف من الملح فقط . ويقال : إن في الزمرذ بحريا . وقد خُطئ الهُدُلَى في قوله في وصف الدرة :

(١) في الأصول : « فلما أن أم بالجبع » . يريد : فلما أن قصد بالجبع إلى اللحم .

(٢) آية ٢١ سورة الواقعة . (٣) آية ٣٨ سورة الأنعام . (٤) آية ٢٢ سورة الرحمن .

بجاء بها من دُرَّة لَطِيْمَةٍ * على وجهها ماء الفرات يَدُمُ^(١)

بجعلها من الماء الحلو . فالحلية حق وهي نَحْلَةُ الله تعالى لآدم وولده . خلق آدم وَتَوَجَّعَ وَكَلَّجَ بأكليل الجنة ، وختم بالخاتم الذي ورثه عنه سليمان بن داود صلوات الله عليهم ، وكان يقال له خاتم المزفيا روى .

الخامسة — امتن الله سبحانه على الرجال والنساء امتنانا عاما بما يخرج من البحر ، فلا يحرم عليهم شيء منه ، وإنما حرم الله تعالى على الرجال الذهب والحري . روى الصحيح عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تألبسوا الحري فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة " . وسأيت في سورة « الحج » الكلام فيه إن شاء الله .^(٢) وروى البخاري عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من ذهب ، وجعل فصه مما يلي باطن كفه ، ونقش فيه محمد رسول الله ، فاتخذ الناس مثله ، فلما رآهم قد اتخذوها رمى به وقال : " لا ألبسه أبدا " ثم اتخذ خاتما من فضة فاتخذ الناس خواتيم الفضة . قال ابن عمر : فلبس الخاتم بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ، حتى وقع من عثمان في بئر أريس .^(٣) قال أبو داود : لم يختلف الناس على عثمان حتى سقط الخاتم من يده . وأجمع العلماء على جواز التحتم بالورق على الجملة للرجال . قال الخطابي : وكره للنساء التحتم بالفضة ؛ لأنه من زي الرجال ، فإن لم يجدن ذهبا فليصفرن بزعفران أو بشبهه . وبجمهور العلماء من السلف والخلف على تحريم اتخاذ الرجال خاتم الذهب ؛ إلا ما روى عن أبي بكر بن عبد الرحمن وخباب ، وهو خلاف شاذ ، وكل منهما لم يلقنهما النبي والنسخ . والله أعلم . وأما ما رواه أنس بن مالك أنه رأى في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتما من ورق يوما واحدا ، ثم إن الناس اصططنوا الخواتم من ورق وليسوها ، فطرح رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتمه فطرح الناس خواتيمهم — أخرجه الصحيحان واللفظ للبخاري — فهو عند العلماء

(١) اللطية : الجمال التي تحمل العطر . وقيل : اللطية العنبر التي لطمت باليد فتفتت به حتى نشت رائحتها .

وهي اللطية . (٢) في قوله تعالى : « إن الله يدخل الدين آمنوا وعملوا الصالحات ... » آية ٢٣ .

(٣) حديثه بالقرب من مسجد قباء .

وهم من ابن شهاب؛ لأن الذي نبذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو خاتم الذهب . رواه عبد العزيز بن صهيب وثابت وقائدة عن أنس ، وهو خلاف ما روى ابن شهاب عن أنس فوجب القضاء بالجماعة على الواحد إذا خالفها ، مع ما يشهد للجماعة من حديث ابن عمر .

السادسة — إذا ثبت جواز التخنم للرجال بخاتم الفضة والتحلّى به ، فقد كره ابن سيرين وغيره من العلماء نقشه وأن يكون فيه ذكر الله . وأجاز نقشه جماعة من العلماء . ثم إذا نقش عليه اسم الله أو كلمة حكمة أو كلمات من القرآن وجعله في شماله ، فهل يدخل به الخلاء ويستنجى بشماله ؟ خففه سعيد بن المسيّب ومالك . قيل لمالك : إن كان في الخاتم ذكر الله ويلبسه في الشمال أيسنّجى به ؟ قال : أرجو أن يكون خفيفا . وروى عنه الكراهة وهو الأول . وعلى المنع من ذلك أكثر أصحابه . وقد روى همام عن ابن جريح عن الزهري عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء وضع خاتمه . قال أبو داود : هذا حديث منكرو . وإنما يعرف عن ابن جريح عن زياد بن سعد عن الزهري عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من ورق ثم ألقاه . قال أبو داود : لم يتحدث بهذا إلا همام .

السابعة — روى البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من فضة ونقش فيه « محمد رسول الله » وقال : " إني اتخذت خاتما من ورق ونقشت فيه عهد رسول الله فلا ينقش أحد على نقشه " . قال علماؤنا : فهذا دليل على جواز نقش اسم صاحب الخاتم على خاتمه . قال مالك : ومن شأن الخلفاء والقضاة نقش أسمائهم على خواتمهم ، ونبيه عليه السلام : لا ينقش أحد على نقش خاتمه ، من أجل أن ذلك اسمه وصفته برسالة الله له إلى خلقه . وروى أهل الشام أنه لا يجوز اتخاذ الخاتم لغير ذي سلطان . وروى في ذلك حديثا عن أبي ربحانة ، وهو حديث لاجمة فيه لضعفه . وقوله عليه السلام : " لا ينقش أحد على نقشه " يرده ، ويدل على جواز اتخاذ الخاتم لجميع الناس ، إذا لم ينقش على نقش خاتمه . وكان نقش خاتم الزهري « محمد يسأل الله العافية » . وكان نقش خاتم مالك « حسبي الله ونعم الوكيل » . وذكر الترمذي الحكيم في (نواذر الأصول) أن نقش خاتم موسى عليه السلام

« لكل أجل كتاب » وقد مضى في الرد^(١) . وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى خاتما بألف درهم فكتب إليه : إنه بلغني أنك اشتريت خاتما بألف درهم ، فبعت وأطعم منه ألف جائع ، واشتر خاتما من حديد بدرهم ، واكتب عليه « رحم الله أمرا عرف قدر نفسه » .

الثامنة — من حلف ألا يلبس حليا فلبس لؤلؤا لم يحنت ، وبه قال أبو حنيفة . قال ابن خزيمة^(٢) : لأن هذا وإن كان الاسم اللغوي يتناوله فلم يقصده باليمين ، والأيمان تخص بالعرف ، ألا ترى أنه لو حلف ألا ينام على فراش فنام على الأرض لم يحنت ، وكذلك لا يستضيء بسراج فجلس في الشمس لا يحنت ، وإن كان الله تعالى قد سمى الأرض فراشا والشمس سراجا . وقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد : من حلف ألا يلبس حليا ولبس اللؤلؤ فإنه يحنت ، لقوله تعالى : « وَاسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا » والذي يخرج منه اللؤلؤ والمرجان .

التاسعة — قوله تعالى : « وَتَرَى الْقُلُكَ مَوَاحِرَ فِيهِ » قد تقدم ذكر القلک وركوب البحر في البقرة^(٣) ، وغيرها . وقوله : « مَوَاحِرَ » قال ابن عباس : جَوَارِي ، من بَحَرَتْ تجرى . سعيد بن جبير : معترضة . الحسن : موافر . قتادة والضحاك : أى تذهب وتجيء ، مقبلة ومدبرة بريح واحدة . وقيل : « مَوَاحِرَ » ملججة في داخل البحر ، وأصل المخَر شق الماء عن يمين وشمال . فخرت السفينة تَمْخَرُ وتَمْخَرُ مَخْرًا ومَخْرًا إذا جرت شق الماء مع صوت ، ومنه قوله تعالى : « وَتَرَى الْقُلُكَ مَوَاحِرَ فِيهِ » يعنى جَوَارِي . قال الجوهري : ومَخَر السائح إذا شق الماء بصدره ، ومَخَر الأرض شقها للزراعة ، ومَخَرها بالماء إذا حبس الماء فيها حتى تصير أريضة ، أى خليقة بجودة نبات الزرع . وقال الطبري : المَخَر في اللغة صوت هبوب الريح ، ولم يمتد كونه في ماء ، وقال : إن من ذلك قول واصل مولى أبي عيينة : إذا أراد أحدكم البول فليتمخَر الريح ، أى لينظر في صوتها في الأجسام من أين تهب ، فيتجنب استقبالها لئلا ترد عليه بولها . « وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى ولتركبوه للتجارة وطلب الريح . « وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ » تقدم جميع هذا في « البقرة » والحمد لله .

(١) راجع ج ٩ ص ٣٢٩ طبة أول أوثانية . (٢) راجع ج ١ ص ٣٨٨ طبة ثالثة أوثانية .
 (٣) راجع ج ٢ ص ١٩٤ طبة ثالثة . (٤) راجع ج ٢ ص ١٩٤ وما بعدها .

قوله تعالى : **وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَانْحَرًّا وَسَبَلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴿١٩﴾

قوله تعالى : **(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ)** أى جبالاً ثابتة . رساً يرسو إذا ثبت وأقام . قال :

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لَذَلِكَ حُرَّةً * تَرَسُوا إِذَا نَفَسَ الْجِبَالُ تَطَلُّعاً^(١)

(أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) أى لئلا تميد ؛ عند الكوفيين . وكراهية أن تميد ؛ على قول البصريين . والمَيْدُ : الاضطراب يمينا وشمالا ؛ ماد الشيء يميد ميدا إذا تحرك ؛ ومادت الأغصان تمايلت ، وماد الرجل تجتر . قال وهب بن منبه : خلق الله الأرض فجعلت تميد وتمور ، فقالت الملائكة : إن هذه غير مقرة أحدا على ظهرها فأصبحت وقد أُرْسِيت بالجبال ، ولم تدر الملائكة مِمَّ خلقت الجبال . وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : لما خلق الله الأرض قَسَمَتْ ومالت وقالت : **أَيُّ رَبٍّ !** أنجعل علي من يعمل بالمعاصي والخطايا ، ويلي علي الخيف والثقل ! فأرسل الله تعالى فيها من الجبال مارتون وما لا ترون . وروى الترمذى فى آخر (كتاب التفسير) حديثا محمد بن بشار حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **"لما خلق الله الأرض جعلت تميد تغلق الجبال فعاد بها عليها فاستقرت فعيجت الملائكة من شدة الجبال قالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال قال نعم الحديد قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد قال نعم النار فقالوا يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار قال نعم الماء قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشد من الماء قال نعم الريح قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح قال نعم ابن آدم تصدق بصدقة يمينه يخفيها من شماله"** . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه .

(١) البيت لمرة العبدى - يقول : حيث قسا عاركة ، أى صابرة . وقوله :

وعلمت أن ميثقى لىب تأتئنى * لا ينجى منها التضرع الأسرع

قلت : وفي هذه الآية أدل دليل على استعمال الأسباب ، وقد كان قادرا على سكونها دون الجبال . وقد تقدم هذا المعنى . (وَأَنهَارًا) أى وجعل فيها أنهارا ، أو ألقى فيها أنهارا . (وَسَيِّلًا) أى طُرُقا ومسالك . (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) أى إلى حيث يقصِدون من البلاد فلا تضلّون ولا تتحيرون .

قوله تعالى : **وَعَلَّمَنَّاكَ وَأَيُّكَ النُّجُومَ ۖ هُمْ يَهْتَدُونَ** ﴿١١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَعَلَّمَنَّاكَ) قال ابن عباس : العلامات معالم الطرق بالنهار ؛ أى جعل للطرق علامات يقع الاهتداء بها . (وَأَيُّكَ النُّجُومَ هُمْ يَهْتَدُونَ) يعنى بالليل ، والنجوم يراد به النجوم . وقرأ ابن وثاب « **وَالنُّجُومَ** » . الحسن : بضم النون والجيم جميعا ومراده النجوم ، فقصه كما قال الشاعر :

إلّ الفقيه بيّنا قاضِ حَكَمَ * أن ترد المساء إذا غاب النُّجُومُ

وكذلك القول لمن قرأ « **النُّجُومَ** » إلا أنه ممكن استخفا . ويمحوز أن يكون النُّجُوم جمع نجم كسُفُوف وسُفُوف . واختلف في النجوم ، فقال الفراء : الجَدَى والفرقدان . وقيل : الثريا . قال الشاعر :

حتى إذا ما استقلَّ النُّجُومُ في ظِلِّس * وغودر البَقْلُ مَلَوًى ومحصود^(١)

أى منه ملوى ومنه محصود ، وذلك عند طلوع الثريا يكون . وقال الكَلْبِيُّ : العلامات الجبال . وقال مجاهد : هى النجوم ؛ لأن من النجوم ما يهتدى بها ، ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها ، وقاله قتادة والنخعي . وقيل : تم الكلام عند قوله « **وعلامات** » ثم ابتداء وقال : « **وَالنُّجُومَ هُمْ يَهْتَدُونَ** » . وعلى الأول : أى وجعل لكم علامات ونجومًا تهتدون بها . ومن العلامات الرياح يهتدى بها . وفى المراد بالاهتداء قولان : أحدهما — فى الأسفار ،

(١) البيت لى الرمة . ومعنى « **استقل** » طلع فى آخر الليل . وفى ديوانه : « **أحصد** » بدل « **غودر** » . وأحصد : حان حصاده .

وهذا قول الجمهور ، الثانى — فى القبلة . وقال ابن عباس : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « وَإِلَّا تَجِدُوا حِمًى يَتَذَكَّرُونَ » قال : " هو الجَدْيُ يَا بْنَ عَبَّاسَ ، عليه قبلكم وبه تهتدون فى بركم وبحركم " ذكره الماوردى .

الثانية — قال ابن العربى : أما جميع النجوم فلا يهتدى بها إلا العارف بمطالعها ومغارها ، والفرق بين الجنبى والشمالى منها ، وذلك قليل فى الآثرين . وأما الثرى فلا يهتدى بها إلا من يهتدى بجميع النجوم . وإنما الهدى لكل أحد بالجدى والفرقدين ؛ لأنها من النجوم المنحصرة المطالع الظاهرة السمّت الثابتة فى المكان ، فإنها تدور على القطب الثابت دورانا محصلا ، فهي أبدا هدى الخلق فى البر إذا عميت الطرق ، وفى البحر عند مجرى السفن ، وفى القبلة إذا جهل السمّت ، وذلك على الجملة بأن تجعل القطب على ظهر منكبك الأيسر لما استقبلت فهو سمت الجهة .

قلت : وسأل ابن عباس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجم فقال : " هو الجدى عليه قبلكم وبه تهتدون فى بركم وبحركم " . وذلك أن آخر الجدى بنات نعش الصغرى والقطب الذى تستوى عليه القبلة بينها .

الثالثة — قال علماءنا : وحكم استقبال القبلة على وجهين : أحدهما — أن يراها ويعاينها فيلزمه استقبالها وإصابتها وقصد جهتها بجميع بدنه . والآثر — أن تكون الكعبة بحيث لا يراها فيلزمه توجه نحوها وتلقاها بالدلائل ، وهى الشمس والقمر والنجوم والرياح وكل ما يمكن به معرفة جهتها ، ومن غابت عنه وصلى مجتهدا إلى غير ناحيتها وهو ممن يمكنه الاجتهاد فلا صلاة له ؛ فإذا صلى مجتهدا مستديلا ثم انكشف له بعد الفراغ من صلاته أنه صلى إلى غير القبلة أعاد إن كان فى وقتها ، وليس ذلك بإيجاب عليه ؛ لأنه قد أدى فرضه على ما أمر به . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة » مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : أَفَنَ يَخْلُقُ كَنَ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَنَ يَخْلُقُ ﴾ هو الله تعالى . ﴿ كَنَ لَا يَخْلُقُ ﴾ يريد الأصنام . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أخبر عن الأوثان التي لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ، كما يخبر عن يعقل من ماتستعمله العرب في ذلك ؛ فإنهم كانوا يعبدونها فذكرت بلفظ « مَنْ » كقوله : « أَلَمْ أَرْجُلْ » . وقيل : لا فتران الضمير في الذكر بالخالق . قال الفراء : هو كقول العرب : اشتبه على الراكب وجهه فلا أدري من ذا ومن ذا ؛ وإن كان أحدهما غير إنسان . قال المهدوي : ويسأل « مَنْ » عن الباري تعالى ولا يسأل عنه بهاء ؛ لأن « ما » إنما يسأل بها عن الأجناس ، والله تعالى ليس بنبي جنس ، ولذلك أجاب موسى عليه السلام حين قال له : « فَمَنْ رَبُّكَ يَا مُوسَى » ولم يجب حين قال له : « وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ » إلا بجواب « مَنْ » وأضرب عن جواب « ما » حين كان السؤال فاسدا . ومعنى الآية : من كان قادرا على خلق الأشياء المتقدمة الذكر كان بالعبادة أحق من هو مخلوق لا يضر ولا ينفع ؛ « هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَارُونِي مَادَّا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » « أَرُونِي مَادَّا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ » .

قوله تعالى : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ تقدم في إبراهيم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » . وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي ما تبطنونه وما تظهرونه . وقد تقدم جميع هذا مستوفى .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

(١) آية ٤٩ سورة طه . (٢) آية ١١ سورة لقمان . (٣) آية ٤٠ سورة طه . (٤) راجع ج ٩ ص ٣٦٧ طبعة أول أرثانية .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) قراءة العامة «تدعون» بالتاء لأن ما قبله خطاب . روى أبو بكر عن حاصم وهبيرة عن حفص «يدعون» بالياء ، وهى قراءة يعقوب . فاما قوله : «مُسْتَكْبِرُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ» فكلهم بالتاء على الخطاب ؛ إلا ما روى هبيرة عن حفص عن حاصم أنه قرأ بالياء . (لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا) أى لا يقدرون على خلق شئ (وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (أَمْ أَمَاتٌ غَيْرَ أَحْيَاءٍ) أى هم أموات ، يعنى الأصنام ، لا أرواح فيها ولا تسمع ولا تبصر ، أى هى جمادات فكيف تعبدونها وأتم أفضل منها بالحياة . (وَمَا يَشْعُرُونَ) يعنى الأصنام . (أَيَّانَ يَسْتَعِثُونَ) وقرأ السُّبَّابِيُّ «أَيَّانَ» بكسر الهمزة ، وهما لفتان ، موضعه نصب بـ«يستعِثون» وهى فى معنى الاستفهام . والمعنى : لا يدرون متى يبعثون . ومبر عنها كما صبر عن الآدميين ؛ لأنهم زعموا أنها تعقل عنهم وتعلم وتشفع لهم عند الله تعالى ، بخرى خطابهم على ذلك . وقد قيل : إن الله يبعث الأصنام يوم القيامة ولها أرواح فتبترأ من عبادتهم ، وهى فى الدنيا جماد لا تعلم متى تبعث . قال ابن عباس ؛ تبعث الأصنام وتركب فيها الأرواح ومعها شياطينا فيتبرءون من عبادتها ، ثم يؤمر بالشياطين والمشركين إلى النار . وقيل : إن الأصنام تطرح فى النار مع عبادتها يوم القيامة ؛ دليله «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» . وقيل : تم الكلام عند قوله : «لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ» ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات ، وهذا الموت موت كفر . «وما يشعرون أيان يبعثون» أى وما يدرى الكفار متى يبعثون ، أى وقت البعث ؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث حتى يستمتعوا اللقاء الله . وقيل : أى وما يدرىهم متى الساعة ، ولعلها تكون قريباً .

قوله تعالى : إِنْ هُكِرَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿١٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لما بين استحالة الإِشْرَاق بالله تعالى بين أن المعبود واحد لا ربَّ غيره ولا معبود سواه . ﴿قَالَتَيْنِ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ أى لا تقبل الوعظ ولا ينفع فيها الذِّكْرُ، وهذا ردٌّ على القدرة . ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أى متكبرون متعظمون عن قبول الحق . وقد تقدم فى « البقرة » معنى الاستكبار . ﴿لَا جِزْمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أى من القول والعمل فيجازيهم . قال الخليل : « لا جرم » كلمة تحقيق ولا تكون إلا جواباً ؛ يقال : فعلوا ذلك ؛ فيقال : لا جرم سيندبون . أى حقا أن لهم النار . وقد مضى القول فى هذا فى « هود » مستوفى . ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أى لا يثيبهم ولا يثيب عليهم . وعن الحسين بن على أنه مرَّ بمساكين قد قدّموا كَمَرًا بينهم وهم يأكلون فقالوا : الغدَاءُ يا أبا عبد الله ، فنزل وجلس معهم وقال « إنه لا يحب المستكبرين » فلما فرغ قال : قد أحببتكم فأجيبوني ؛ فقاموا معه إلى منزله فأطعمهم وسقاهم وأعطاهم وانصرفوا . قال العلماء . وكل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكبر ؛ فإنه فسق يلزمه الإعلان ، وهو أصل العصيان كله . وفى الحديث الصحيح " إن المتكبرين يحشرون أمثال الذَّرِّ يوم القيامة يطوهم الناس بأقدامهم لتكبرهم " . أو كما قال صلى الله عليه وسلم : " تصغر لهم أجسامهم فى المحشر حتى يضرهم صِغَرُهَا وتَظَنُّمُ لَم فى النار حتى يضرهم عَظَمُهَا " .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسْطُورٌ
الْأَوَّلِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ﴾ يعنى وإذا قيل لمن تقدم ذكره من لا يؤمن بالآخرة وقلوبهم منكورة بالبعث « ما ذا أنزل ربكم » . قيل : القائل النضر بن الحارث ، وأن الآية نزلت فيه ، وكان نرجح إلى الحيرة فاشتري أحاديث (كَلِيلَة وَدِمْنَة) فكان يقرأ على قریش ويقول : ما يقرأ محمد على أصحابه إلا أساطير الأولين ؛ أى ليس هو من تنزيل

قوله تعالى : قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ
السَّمَاءِ فَتَخَرَّقَ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ فَفُتِحَ مِنْ قَوْفِهِمْ وَأَنْتَهُمْ أَلْعَدَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أى سبقهم بالكفر أقوام مع الرسل المتقدمين
فكانت العاقبة الجلية للرسول ، (فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَرَّقَ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ مِنْ قَوْفِهِمْ)
قال ابن عباس وزيد بن أسلم وزيهريما : إنه المثلثون بن كتمان وقومه ، أوداوا صعود السماء
وقتل أهلها ، فبنوا الصرح ليصعدوا منه بعد أن صنع بالنسور ما صنع ، فخر ، كما تقدم بيانه
في آخر سورة إبراهيم ^(١) . ومعنى « فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ » أى أتى أمره البنيان ، إما زلزلة
أو ريحا غريبة . قال ابن عباس ووهب : كانت طول الصرح في السماء خمسة آلاف
ذراع ، وعرضه ثلاثة آلاف . وقال كعب ومقاتل : كان طوله فرسخين ، فهبت ريح فالتفت
رأسه في البحر وخر عليهم الباقي . ولما سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس من الفزع يومئذ ،
فكلموا بثلاثة وسبعين لسانا ، فلذلك سُمي بابل ، وما كان لسان قبل ذلك إلا السريانية .
وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة » . وقرأ ابن هُرَيْرٍ وابن مُحَيْصِن « السَّقْفُ » بضم السين
والقاف جميعا ، وضم مجاهد السين وأسكن القاف تخفيفا ، كما تقدم في « وبالنجم » في الوجهين .
والأشبه أن يكون جمع سقف ، والقواعد : أصول البناء ، وإذا اختلت القواعد سقط البناء .
وقوله : (مِنْ قَوْفِهِمْ) قال ابن الأعرابي : وَكَدَّ لِعِبَادِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا حَائِلِينَ تَحْتَهُ . والعرب
تقول : نَحَرَ عَلَيْنَا سَقْفَ وَوَقَعَ عَلَيْنَا حَائِلٌ إِذَا كَانَ يَمْلِكُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَقَعَ عَلَيْهِ . بخفاء بقوله :
« مِنْ قَوْفِهِمْ » ليخرج هذا الشك الذى في كلام العرب فقال : « مِنْ قَوْفِهِمْ » أى عليهم وقع
وكانوا تحته فهلوكوا وما أفلتوا . وقيل : إن المراد بالسقف السماء ، أى إن العذاب أُنْزِلَ
من السماء التى هى فوقهم ، قاله ابن عباس . وقيل : إن قوله : « فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنْ

(١) راجع ج ٩ ص ٣٨١ طبع اول اثنائية . (٢) راجع ج ١ ص ٢٨٣ طبع ثانيا اثنائية .

القواعد» تمثيل، والمعنى: أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه. وقيل: المعنى أحبط الله أعمالهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه. وقيل: المعنى أبطل مكرهم وتديبرهم فهلكوا كما هلك من نزل عليه السقف من فوقه. وعلى هذا اختلف في الذين نزل عليهم السقف؛ فقال ابن عباس وابن زيد ما تقدم. وقيل: إنه مختصر وأصحابه؛ قاله بعض المفسرين. وقيل: المراد المقتسمون الذين ذكروا في سورة الجبر؛ قاله الكلبي. وعلى هذا التأويل يخرج وجه التمثيل، والله أعلم. (وَأَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) أى من حيث ظنوا أنهم في أمان. وقال ابن عباس: يعنى البعوضة التى أهلك الله بها نمرودا.

قوله تعالى: ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْشَقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ) أى يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم. (وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ) أى برزعمكم فى دعواكم، أى الآلهة التى عبدتم دونى، وهو سؤال توبيخ. (الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْأَقُونَ فِيهِمْ) أى تعادون أنبيأى بسببهم، فليدفعوا عنكم هذا العذاب. وقرأ ابن كثير «شُرَكَائِيَ» بياء مفتوحة من غير همز، والباقون بالهمز. نافع «تُشْأَقُونَ» بكسر النون على الإضافة، أى تعادونى فيهم. وفتحها الساقون. (قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) قال ابن عباس: أى الملائكة. وقيل المؤمنون. (إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ) أى الهوان والذل يوم القيامة. (وَالسُّوءَ) أى العذاب. (عَلَى الْكَافِرِينَ).

قوله تعالى: الَّذِينَ يَتَوَقَّعُهُمُ الْمَلَكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا أَسْلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : (الَّذِينَ تَتَوَقَّعُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) هذا من صفة الكافرين .
 و « ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ » نصب على الحال ؛ أى وهم ظالمون أنفسهم إذ أوردوها موارد الهلاك .
 (فَالْقُوا السَّلَامَ) أى الاستسلام . أى أقروا لله بالربوبية وانقادوا عند الموت وقالوا : (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) أى من شرك . فقالت لهم الملائكة : (بَلَى) قد كنتم تعملون الأسواء .
 (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وقال عكرمة : نزلت هذه الآية بالمدينة في قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا ، فانخرجتهم قريش إلى بدر كرها فقتلوا بها ؛ فقال : (الَّذِينَ تَتَوَقَّعُهُمُ الْمَلَائِكَةُ)
 بقبض أرواحهم . (ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) في مقامهم بمكة وتركهم الهجرة . (فَالْقُوا السَّلَامَ)
 يعنى في خروجهم معهم . وفيه ثلاثة أوجه : أحدها — أنه الصلح ؛ قاله الأخفش .
 الثانى — الاستسلام ؛ قاله قطرب . الثالث — الخضوع ؛ قاله مقاتل . (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) يعنى من كفر . (بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) يعنى أن أعمالهم أعمال الكفار .
 وقيل : إن بعض المسلمين لما رأوا قلة المؤمنين رجعوا إلى المشركين ؛ فقلت فيهم . وعلى القول الأول فلا يخرج كافر ولا منافق من الدنيا حتى ينقاد ويستسلم ، ويضع ويذل ، ولا تنفعهم حينئذ توبة ولا إيمان ؛ كما قال : « قَلَمَ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا » وقد تقدم هذا المعنى . وتقدم في « الأنفال » (٢١) إن الكفار يتوقفون بالضرب والمهوان ، وكذلك في « الأنعام » (٢٢) . وقد ذكرناه في كتاب التذكرة .

قوله تعالى : فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليس مَشْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ) أى يقال لهم ذلك عند الموت . وقيل : هو إشارة لهم بمذاب القبر ؛ إذ هو باب من أبواب جهنم للكافرين . وقيل : لا تصل أهل الدركة الثانية إليها مثلاً إلا بدخول الدركة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة هكذا . وقيل : لكل دركة

(١) آتسورة غافر . (٢) راجع ج ٨ ص ٢٨ (٣) راجع ج ٧ ص ١٤٤ وما بعدها .

باب مفرد، فالبعض يدخلون من باب والبعض يدخلون من باب آخر . فآله أعلم . (خَالِدِينَ فِيهَا) أى ماكتسب فيها . (فَلْيَسْ مَثْوًى) أى مقام (الْمُتَكَبِّرِينَ) الذين تكبروا عن الإيمان وعن عبادة الله تعالى ، وقد بينهم بقوله الحق : « لَهُمْ كَأَنُورًا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ^(١) » .

قوله تعالى : وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا) أى قالوا : أنزل خيرا ، وتم الكلام . و « ماذا » على هذا اسم واحد . وكان يرثى الرجل من العرب مكة في أيام الموسم فيسأل المشركين عن محمد عليه السلام فيقولون : ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون . ويسأل المؤمنون فيقولون : أنزل الله عليه الخير والهدى ، والمراد القرآن . وقيل : إن هذا يقال لأهل الإيمان يوم القيامة . قال الثعلبي : فإن قيل : لم يرتفع الجواب في قوله : « أساطير الأولين » وأنتصب في قوله : « خيرا » فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتزويل ، فكانهم قالوا : الذى يقوله محمد هو أساطير الأولين . والمؤمنون آمنوا بالتزويل فقالوا : أنزل خيرا . وهذا مفهوم معناه من الإعراب ، والحمد لله .

قوله تعالى : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) قيل : هو من كلام الله عز وجل . وقيل : هو من جملة كلام الذين اتقوا . والحسنة هنا : الجنة ؛ أى من أطاع الله فله الجنة غدا . وقيل : « للذين أحسنوا » اليوم حسنة في الدنيا من النصر والفتح والغنيمة : (وَلَدَارُ

الْآخِرَةِ خَيْرٌ) أى ما ينالون فى الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا ؛ لفنائها وبقاء الآخرة . (وَلَيْتَمَّ دَارُ الْمُتَّقِينَ) فيه وجهان — قال الحسن : المعنى ولنعم دار المتقين الدنيا ؛ لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة ودخول الجنة . وقيل : المعنى ولنعم دار المتقين الآخرة ؛ وهذا قول الجمهور . وعلى هذا تكون (جَنَّاتٌ عَدْنٌ) بدلا من الدار فلذلك ارتفع . وقيل : ارتفع على تقديره جنان ، فهى مبنية لقوله : « دَارُ الْمُتَّقِينَ » ، أو تكون مرفوعة بالابتداء ، التقدير : جنان عدن نعم دار المتقين . (يَدْخُلُونَهَا) فى موضع الصفة ، أى مدخولة . وقيل : « جَنَّاتٌ » رفع بالابتداء ، وخبره « يَدْخُلُونَهَا » وعلية يُخْرَجُ قول الحسن . والله أعلم . (تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) تقدم معناه فى البقرة .^(١) (هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ) أى مما تمنوه وأرادوه . (كَذَلِكَ يَجْزَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ) أى مثل هذا الجزاء يجزى الله المتقين . (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ) قرأ الأعمش وحمزة « يتوفاهم الملائكة » فى الموضعين بإلقاء ، واختاره أبو عبيد ؛ لما روى عن ابن مسعود أنه قال : إن قريشا زعموا أن الملائكة إناث فذكروهم أتم . الباقون بالتاء ؛ لأن المراد به الجماعة من الملائكة . و(طَيِّبِينَ) فيه ستة أقوال : الأول — « طَيِّبِينَ » طاهرين من الشرك . الثانى — صالحين . الثالث — زاكية أفعالهم وأقوالهم . الرابع — طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله تعالى . الخامس — طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله . السادس — « طيبين » أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم ؛ بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخطئ . والله أعلم . (يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) يحتمل وجهين : أحدهما — أن يكون السلام إنذارا لهم بالوفاة . الثانى — أن يكون تبشيرا لهم بالجنة ؛ لأن السلام أمان . وذكر ابن المبارك قال : حدثنى حيوة قال أخبرنى أبو نصر عن محمد بن كعب القرظى قال : إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال : السلام عليك ولّى الله ، الله يقرأ عليك السلام . ثم نزع بهذه الآية « الَّذِينَ

(١) راجع ج ١ ص ٢٣٩ طبعة ثانية أرفأفة . (٢) استنقعت الماء : اجتمع وثبت . أى إذا اجتمعت

نفس المؤمن فى فيه تريد الخروج ، كما يستنقع الماء فى قراهه ؛ وأراد بالنفس الروح .

تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم . وقال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام . وقال مجاهد : إن المؤمن لبشر بصلاح ولده من بعده لتقر عينه . وقد أتينا على هذا في (كتاب التذكرة) وذكرنا هناك الأخبار الواردة في هذا المعنى ، والحمد لله . وقوله : ((ادخلوا الجنة)) يمتثل وجهين : أحدهما — أن يكون معناه أبشروا بدخول الجنة . الثاني — أن يقولوا ذلك لهم في الآخرة . ((يَأْكُتُمْ تَعْمَلُونَ)) يعنى فى الدنيا من الصالحات .

قوله تعالى : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ((هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ)) هذا راجع إلى الكفار ، أى ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم . وقرأ الأعمش وابن وثاب وحزمة والكسائي وخلف «يأتيهم الملائكة» بالياء . والباقون بالياء على ما تقدم . ((أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ)) أى بالعذاب من القتل كيوم بدر ، أو الزلزلة والخسوف فى الدنيا . وقيل : المراد يوم القيامة . والقوم لم ينتظروا هذه الأشياء لأنهم ما آمنوا بها ، ولكن امتناعهم عن الإيمان أوجب عليهم العذاب ، فاضيف ذلك إليهم ، أى عاقبتهم العذاب . ((كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)) أى أصروا على الكفر فاتاهم أمر الله فهلكوا . ((وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ)) أى بتعذيبهم وإهلاكهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك .

قوله تعالى : فَاصْبِرْهُمْ سِيعَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ قيل : فيه تقديم وتأخير؛ التقدير : كذلك فعل الذين من قبلهم فاصبر سيئات ما عملوا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أظلمهم يظلمون، فاصبر عقوبات كفرهم وجزاء الخبيث من أعمالهم . ﴿ وَحَاقَ بِهِمُ ﴾ أى أحاط بهم ودار به ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى عقاب استهزأهم .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى شيئاً ، و « من » صلة ، قال الزجاج : قالوه استهزاء ، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين . وقد مضى هذا في سورة « الأنعام » مبيناً معنى وإعراباً فلا معنى للإطالة . ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من كان قبلهم بالرسول فأهلكوا . ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى ليس عليهم إلا التبليغ ، وأما الهداية فهي إلى الله تعالى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أى بأن أعبدوا الله ووجوهه . ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أى اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم ، وكل من دعا إلى الضلال . ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ أى أرشده إلى دينه وعبادته .

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أى بالقضاء السابق عليه حتى مات على كفره، وهذا يرّد على القدرية؛ لأنهم زعموا أن الله هدى الناس كلهم ووقفهم للهدى، والله تعالى يقول : «فَبِمَنْ مِّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ» وقد تقدم هذا فى غير موضع .
﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى فسروا معتبرين فى الأرض . ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾
أى كيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والعذاب والمهلك .

قوله تعالى : إِنْ تَحْرِضْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿إِنْ تَحْرِضْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾ أى إن تطلب يا محمد بمجهدك هداهم . ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أى لا يرشد من أضله ، أى من سبق له من الله الضلالة لم يهده . وهذه قراءة ابن مسعود وأهل الكوفة . «يهدى» فعل مستقبل وماضيه هدى . و «مَنْ» فى موضع نصب بـ «يهدى» ويجوز أن يكون هدى يهدى بمعنى اهتدى يهتدى ؛ رواه أبو عبيد عن الفراء قال : كما قرئ «أمن لا يهدى إلا أن يهدى» بمعنى يهتدى . قال أبو عبيد . ولا نعلم أحدا روى هذا غير الفراء ، وليس بمتهم فيما يحكيه . النحاس : حكى لى عن محمد ابن يزيد كأت معنى «لا يهدى مَنْ يُضِلُّ» من علم ذلك منه وسبق ذلك له عنده ، قال : ولا يكون يهدى بمعنى يهتدى إلا أن يكون يهدى أو يهتدى . وعلى قول الفراء «يهدى» بمعنى يهتدى ، فيكون «مَنْ» فى موضع رفع ، والعائد إلى «مَنْ» الهاء المحذوفة من الصلة ، والعائد إلى اسم «إن» الضمير المستكن فى «يُضِلُّ» . وقرأ الباقون «لا يهتدى» بضم الياء وفتح الدال ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، على معنى من أضله الله لم يهده هادى دليله قوله : «مَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ» و «مَنْ» فى موضع رفع على أنه اسم مالم يُسَمَّ فاعله ، وهى بمعنى الذى ، والعائد عليها من صلتها محذوف ، والعائد على اسم إن من «فإن الله» الضمير المستكن فى «يُضِلُّ» . ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ تقدم معناه .

قوله تعالى : **وَأَقْسُمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : **(وَأَقْسُمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ)** هذا تعجيب من صنعهم ، إذ أقسموا بالله وبالنوا في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت . ووجه التعجيب أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجزونه عن بعث الأموات . وقال أبو العالية : كان رجل من المساجين على مشرك دين فقاضاه ، وكان في بعض كلامه : والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا ، فأقسم المشرك بالله : لا يبعث الله من يموت ، فزلت الآية . وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عباس قال له رجل : يا ابن عباس ، إن ناسا يزعمون أن طليبا مبعوث بعد الموت قبل الساعة ، ويتأولون هذه الآية . فقال ابن عباس : كذب أولئك ! إنما هذه الآية عامة للناس ، لو كان على مبعوثا قبل القيامة ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه . **(بَلَىٰ)** هذا رد عليهم ، أى بلى ليعثنهم . **(وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا)** مصدر مؤكد ، لأن قوله « يعثنهم » يدل على الوعد ، أى وعد البعث وعدا حقا . **(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)** أنهم مبعوثون . وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ^{٢٢} قال الله تعالى كذبى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشقى ولم يكن له ذلك فاما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وأما شقه إياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ^(١) . وقد تقدم ، وإياى .

قوله تعالى : **لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ** ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : **(لِيُبَيِّنَ لَهُمُ)** أى ليظهر لهم . **(الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ)** أى من أمر البعث . **(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا)** بالبعث وأقسموا عليه **(أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ)** وقيل : المعنى

ولقد بحثنا في كل أمة رسولا ليبين لهم الذي يختلفون فيه ، والذي يختلف فيه المشركون والمسلمون أمور : منها البعث ، ومنها عبادة الأصنام ، ومنها إقرار قوم بأن عدا حق ولكن منهم من اتبعه التقليد؛ كأبي طالب .

قوله تعالى : **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ رُكُنٌ فَيَكُونُ ﴿١٠﴾**

أعالمهم سهولة الخلق عليه ، أى إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحياهم ، ولا في غير ذلك مما نحدثه ؛ لأننا إنما نقول له كن فيكون . قراءة ابن عامر والكسائي « فيكون » نصبا عطفا على أن نقول . وقال الزجاج : يجوز أن يكون نصبا على جواب « كن » . الباقون بالرفع على معنى فهو يكون . وقد مضى القول فيه في « البقرة » مستوفى . وقال ابن الأنباري : أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله قبل الخلق لأنه بمنزلة ما وجد وشوهد . وفي الآية دليل على أن القرآن غير مخلوق ؛ لأنه لو كان قوله : « كن » مخلوقا لاحتاج إلى قول ثان ، والثاني إلى ثالث وتسلل وكان محالا . وفيها دليل على أن الله سبحانه مريد لجميع الحوادث كلها خيرها وشرها نفعها وضرها ؛ والدليل على ذلك أن من يرى في سلطانه ما يكرهه ولا يريد فلا أحد شئئين : إما لكونه جاهلا لا يدري ، وإما لكونه مغلوبا لا يطيق ، ولا يجوز ذلك في وصفه سبحانه ، وقد قام الدليل على أنه خالق لاكتساب العباد ، ويستحيل أن يكون فاعلا لشيء وهو غير مريد له ؛ لأن أكثر أفعالنا يحصل على خلاف مقصودنا وإرادتنا ، فلم يكن الحق سبحانه مريدا لما لكنت تلك الأفعال تحصل من غير قصد ؛ وهذا قول الطبيعيين ، وقد أجمع الموحدون على خلافه وفساده .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبَوِّنَّهُمْ**

فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا بَأْسَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ قد تقدم في « النساء » معنى الهجرة^(١)، وهي ترك الأوطان والأهل والقرابة في الله أو في دين الله ، وترك السيئات .
 وقيل : « في » بمعنى اللام ، أي الله . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ أي عذبوا في الله . نزلت في صُبيب وبلال وخبّاب وعُمار، عذبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا، فلما خلّوهم هاجروا إلى المدينة ؛ قاله الكلبي . وقيل : نزلت في أبي جندل بن سهيل . وقال قتادة : المراد أصحاب عهد صلى الله عليه وسلم ، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجهم حتى لحق طائفة منهم بالحبيشة ؛ ثم يؤاهم الله تعالى دار الهجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين . والآية تم الجمع . ﴿ لَتَبْتَؤْتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ في الحسنة ستة أقوال : الأول — نزول المدينة ؛ قاله ابن عباس والحسن والشعبي وقتادة . الثاني — الرزق الحسن ؛ قاله مجاهد . الثالث — التصريح مدوهم ؛ قاله الضحاك . الرابع — لأنه لسان صدق ؛ حكاه ابن جريج . الخامس — ما استولوا عليه من فروع البلاد وصار لهم فيها من الولايات . السادس — ما بقى لهم في الدنيا من الثناء وما صار فيها لأولادهم من الشرف . وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله ، والحمد لله . ﴿ وَلَتَجْزِيَنَّ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ ﴾ أي ولا جزاء الآخرة أكبر ، أي أكبر من أن يعلمه أحد قبل أن يشاهده ؛ « وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَيْمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا » . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كان هؤلاء الظالمون يعلمون ذلك . وقيل : هو راجع إلى المؤمنين . أي لو رأوا ثواب الآخرة وعابئوه لعلوا أنه أكبر من حسنة الدنيا . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا دفع إلى المهاجرين العطاء قال : هذا ما وعدكم الله في الدنيا وما آتاكم في الآخرة أكثر ؛ ثم تلا عليهم هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

قيل : ﴿ الَّذِينَ ﴾ بدل من « الذين » الأول . وقيل : من الضمير في « لَتَبْتَؤْتَنَّهُمْ » وقيل : هم الذين صبروا على دينهم . ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ في كل أمورهم . وقال بعض أهل التحقيق : خيار الخلق من إذا نابه أمر صبر ، وإذا عجز عن أمر توكل ؛ قال الله تعالى : « الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » .

(١) راجع ج ٥ ص ٣٤٧ وما بعدها ، طبعه أول أو ثانية : (٢) آية ٢٠ سورة الانسان .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠٨﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ) قراءة العامة « نُوحِيَ » بالياء وفتح الحاء . وقرا حفص عن عاصم « نُوحِيَ إليهم » بنون المظلمة وكسر الحاء . نزلت في مشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا ، فهلا بعث إلينا ملكا ؟ فردّ الله تعالى عليهم بقوله : « وما أرسلنا من قبلك » إلى الأنهم الماضية يا محمد « إلا رجلا » آدميين . (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) قال سفيان : يعني مؤلفي أهل الكتاب . (إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشرا . وقيل : المعنى فاسألوا أهل الكتاب فإن لم يؤمنوا فهم معترفون بأن الرسل كانوا من البشر . رُوِيَ معناه عن ابن عباس ومجاهد . وقال ابن عباس : أهل الذكر أهل القرآن . وقيل : أهل العلم ، والمعنى متقارب . (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ) قيل : « بالبينات » متعلق بـ « أرسلنا » . وفي الكلام تقديم وتأخير ، أي ما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبور إلا رجلا — أي غير رجال ، فـ « إلا » بمعنى غير ؛ كقوله : لا إله إلا الله ، وهذا قول الكلبي — نوحى إليهم . وقيل : في الكلام حذف دل عليه « أرسلنا » أي أرسلناهم بالبينات والزبور . ولا يتعلق « بالبينات » بـ « أرسلنا » الأول على هذا القول ؛ لأن ما قبل « إلا » لا يعمل فيها بعدها ، وإنما يتعلق بأرسلنا المقدرة ، أي أرسلناهم بالبينات . وقيل : مفعول بـ « تعلمون » والياء زائدة ، أو نصب باضمار أعني ؛ كما قال الأعشى :

وليس يُخبر إن أتى الحى خائف * ولا قائل إلا هو المتنبئ

أى أغنى المتعيب . والبنات : الحجج والبراهين . والزُر : الكتب . وقد تقدم فى آل عمران .
 ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ . يعنى القرآن . ﴿ يُتَبَيَّنُ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ فى هذا الكتاب من
 الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم مبين عن الله عز وجل
 مراده مما أجمله فى كتابه من أحكام الصلاة والزكاة ، وغير ذلك مما لم يفصله . وقد تقدم
 هذا المعنى مستوفى فى مقدمة الكتاب ، والحمد لله . ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيتعطون .

قوله تعالى : أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ
 الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ
 فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكَ
 لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أى بالسيئات ، وهذا وعيد للشركين الذين
 احتالوا فى إبطال الإسلام . ﴿ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾ قال ابن عباس : كما خسف
 بقارون ، يقال : خَسَفَ المكانُ يَخْسِفُ خُسُوفًا ذهب فى الأرض ، وخسف الله به الأرض
 خُسُوفًا أى غاب به فيها ؛ ومنه قوله : « نَحْشَقُنَا بِهِ وَيَدَارِهِ الْأَرْضُ » . وخسف هو فى الأرض
 وخسف به . والاستفهام بمعنى الإنكار ؛ أى يجب ألا يأمنوا عقوبة تلحقهم كما لحقت
 المكذبين . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ كما فعل يقوم لوط وغيرهم . وقيل :
 يريد يوم بدر ؛ فإنهم أهلكوا ذلك اليوم ، ولم يكن شيء منه فى حسابهم . ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ
 فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أى فى أسفارهم وتصرفهم ؛ قاله قتادة . ﴿ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى مسابقين الله
 ولا فائزين . وقيل : « فى تَقَلُّبِهِمْ » على فراشهم أينما كانوا . وقال الضمك : بالليل والنهار .
 ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : أى على تنقص من أموالهم

ومواشيهم وزروعهم . وكذا قال ابن الأعرابي : أى على تنقص من الأموال والأشخاص والثرات حتى أهلكهم كلهم . وقال الضحاك : هو من الخوف ؛ المعنى : يأخذ طائفة ويدع طائفة ، فتخاف الباقية أن يزل بها ما نزل بصاحبها . وقال الحسن : « على تحوُّف » أن يأخذ القرية فتخافه القرية الأخرى ، وهذا هو معنى القول الذى قبله بعينه ، وهما راجعان إلى المعنى الأول ، وأن التخوُّف التَّنْقِصُ ؛ تحوُّفه تنقصه ، وتحوُّفه الدهر وتحوُّفه (بالفاء والنون) بمعنى ؛ يقال : تحوَّنى فلان حتَّى إذا تنقصك . قال ذو الرِّمة :

لا، بل هو الشَّقُّ من دار تحوُّننا * مرًّا صحابٌ ومرًّا بارحٌ ترَبُّ^(١)

وقال لبيد :

* تحوُّننا نزولى واربحالى^(٢)

أى تنقص لجهلها وشحمها . وقال الهيثم بن عدي : التخوُّف (بالفاء) التَّنْقِصُ ، لأنه لأردشنة . وأنشد :

تخوُّفَ قَدَرهم مالى وأهدى * سلاسلَ فى الحلوِّق لها صليل

وقال سعيد بن المسيَّب : بينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المنبر قال : يا أيها الناس ، ما تقولون فى قول الله عز وجل : « أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَحَوُّفٍ » فسكت الناس ، فقال شيخ من بنى هذيل : هى لفتنا يا أمير المؤمنين ، التَّخَوُّفُ التَّنْقِصُ . فخرج رجل فقال : يا فلان ، ما فعل ديتك ؟ قال : تحوُّفته ، أى تنقصته ؛ فرجع فأخبر عمر فقال عمر : أتعرف العرب ذلك فى أشعارهم ؟ قال نعم ، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد تمكِّه واكتنازه :

تخوُّف الرَّحْلُ منها تَمَكِّكًا قَرْدًا * كما تخوُّفُ عُوْدَ النَّبْعةِ السَّمْنَ^(٣)

(١) البارح : الريح الحارة فى الصيف التى فيها تراب كثير . (٢) هذا بحر البيت ، ومصدره كافى اللسان :

* مُدافرةٌ تَقْصُصُ بِالرَّدَائِقِ *

(٣) كذا فى جميع الأصول ، والذى فى اللسان أنه لاین مقيل وقيل لى الرمة . (٤) القرد : معناه

هنا : المتراكم لجمه بعضه فوق بعض من السمن . والنبة : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسي .

فقال عمر : يا أيها الناس ، عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم .
تمت السنام بَيْتِكَ تَمَكَّا ، أى طال وارْتَفَعَ ، فهو تامل . والسَّقْنِ والمسْقِنِ ما يُجَرِّبُهُ الخشب .
وقال الليث بن سعد : « على تَخَوُّفٍ » على عجل . وقيل : على تهرِيع بما قدموه من ذنوبهم ،
وهذا مروي عن ابن عباس أيضا . وقال قتادة : « على تَخَوُّفٍ » أن يعاقب أو يتجاوز .
(فَإِنْ رَبَّكُمْ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ) أى لا يعاجل بل يمهل .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يُتَفَوِّسُوا ظِلَّهُ
عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاكِرُونَ ﴿٤٨﴾

قرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيى والأعمش (تروا) بالتاء، على أن الخطاب لجميع
الناس . الباقرن بالياء خبرا عن الذين يمحرون السبائح ؛ وهو الاختيار . (مِنْ شَيْءٍ) يعنى من
جسم قائم له ظل من شجرة أو جبل ؛ قاله ابن عباس . وإن كانت الأشياء كلها سبعة مطيعة
لله تعالى . (يُتَفَوِّسُوا ظِلَّهُ) قرأ أبو عمرو ويعقوب وضميرهما بالتاء لتأنيث الظلال . الباقرن
بالياء ، واختاره أبو عبيد . أى يميل من جانب إلى جانب ، ويكون أول النهار على حال
ويقلص ثم يسود في آخر النهار على حالة أخرى ؛ فدورانها وميلانها من موضع إلى موضع
بمحوردها ؛ ومنه قيل للظل بالمشى : قَبَّهْ ؛ لأنه فاء من المغرب إلى المشرق ، أى رجع . والقبَّه
الرجوع ؛ ومنه « حَتَّى تَقْبَى إِلَى آخِرِ اللَّهِ » . روى معنى هذا القول عن الضحاك وقاتدة وضميرهما ،
وقد مضى هذا المعنى في سورة « الرعد » . وقال الزجاج : يعنى بمحورده الجسم ، وبمحورده انقياده
وما يرى فيه من أثر الصنعة ، وهذا عام في كل جسم . ومعنى (وَهُمْ ذَاكِرُونَ) أى خاضعون
صاغرون . والدخور : الصغار والذل . يقال : ذنر الرجل (بالفتح) فهو ذانر ، وأذنره الله .
وقال ذو الرمة :

فلم يبقَ إلا داخِرٌ في عُيُسٍ * ومنجبر في غير أرضك في جُحْرِ

(١) آية ٩ سورة الحجرات . (٢) راجع ج ٩ ص ٣٠٢ طلبة أدب أو ثانية . (٣) كذا في كتب
الغنة . يقال : بالبحر الضب إذا دخل البحر . والقبَّه في الأصول وديوان ذى الرمة : « منجبر في غير أرضك
في جحر » بتقديم الحاء على الجيم في الكلمتين .

كذا نسبة الماوردي لذي الرمة، ونسبه الجوهري للفرزدق وقال : الخُفَيْس اسمٌ يعني كان بالعراق ؛ أى موضع التذلل . وقال :^(١)

أما تـراني كـبـسًا مُكـبـسًا * بـنـيتُ بـعدَ نافعٍ مُخـبـسًا

وَوَحَّدَ الْيَمِينَ فِي قَوْلِهِ : « عَنِ الْيَمِينِ » وَجَمَعَ الشَّامَ ؛ لِأَن مَعْنَى الْيَمِينَ وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا الْجَمْعُ . وَلَوْ قَالَ : عَنِ الْإِيمَانِ وَالشَّامِ ، وَالْيَمِينَ وَالشَّامِ ، أَوْ الْإِيمَانَ ، أَوْ الْيَمِينَ وَالشَّامَ ، أَوْ الْإِيمَانَ وَالشَّامَ ؛ لِأَن الْمَعْنَى لِلْكَثَرَةِ . وَأَيْضًا فَمِنْ شَأْنِ الْعَرَبِ إِذَا اجْتَمَعَتْ عَلَامَتَانِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ أَنْ يَجْمَعَ أَحَدَاهُمَا وَتَفْرِدَ الْأُخْرَى ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ » وَكَقَوْلِهِ : « وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » وَلَوْ قَالَ عَلَى أَسْمَاعِهِمْ وَإِلَى الْأَنْوَارِ بِلَازٍ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ رَدُّ الْيَمِينَ عَلَى لَفْظِ « مَا » وَالشَّامَ عَلَى مَعْنَاهَا . وَمِثْلُ هَذَا فِي الْكَلَامِ كَثِيرٌ . قَالَ الشَّاعِرُ :
الوارِدُونَ وَيَتَمُّ فِي دُرَا سَبِيلًا * قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ^(٢)

وَلَمْ يَقُلْ جُلُودٌ . وَقِيلَ : وَحَدَّ الْيَمِينَ لِأَنَّهُ الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ وَأَنْتَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الْقِبْلَةِ أَنْبَسْتَ الظِّلَّ عَنِ الْيَمِينِ ثُمَّ فِي حَالٍ يَمِيلُ إِلَى جِهَةِ الشَّامِ ثُمَّ حَالَاتٌ ، فَمِثْلُهَا شَائِلٌ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٦٦﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُوَّتِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦٧﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أَيُّ مِنْ كُلِّ مَا يَدِبُ عَلَى الْأَرْضِ . ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ يَعْنِي الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّمَا أَفْرَدَهُم بِالذِّكْرِ لِأَخْصَاصِهِمْ

(١) القائل هوسيدنا على رضى الله عنه . ونافع : عجم بالكوفة كان غير مستوفى البناء . وكان من نصب ، وكان المحبوسون يربون منه . وقيل : إنه قب وأقلت منه المحبسون ؛ فهدمه على رضى الله عنه وبنى الخفيس لهم من مدر .

(٢) البيت بحرير . ورواية ديوانه : تدهولك تيم وتم في قري سبأ * الخ

(٣) هكذا وردت هذه الجملة في الأصول . ولعل صوابها : لأن الشمس اذا طلعت وانت متوجه الى القبلة انبسط الظل عن اليمين في حال ، ثم يميل الى جهة الشمال في حالات ؛ فمِثْلُهَا شَائِلٌ .

والذى في البحر لأبي حيان : « وقيل : وحد اليمين وجمع الشمال لأن الابتداء عن اليمين ، ثم يقبض شيئاً فشيئاً حالاً بعد حال ، فهو بمعنى الجمع ، فصدق على كل حال لفظة الشمال فتصدق بتعدد الحالات » .

بشرف المتزلة، فميزهم من صفوة الديب بالذكرو وإن دخلوا فيها، كقوله: «فِيهَا فَآكِهَةٌ وَيَحُلُّ وَرَمَانٌ»^(١). وقيل: لخروجهم من جملة ما يندب لما جعل الله لهم من الأجنحة، فلم يدخلوا في الجملة فلذلك ذكروا. وقيل: أراد «وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ» من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب، «وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ» وتسجد ملائكة الأرض. «وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» عن عبادة ربهم. وهذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله. ومعنى «يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ» أى عقاب ربهم ومذابه، لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء. وقيل: المعنى يخافون قدرة ربهم التي هي فوق قدرتهم؛ ففي الكلام حذف. وقيل: معنى «يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ» يعنى الملائكة، يخافون ربهم وهي من فوق ما في الأرض ومع ذلك يخافون؛ فلأن يخاف من دونهم أولى؛ دليل هذا القول قوله تعالى: «وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» يعنى الملائكة.

قوله تعالى: وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخَفُوا إِيَّاهِ الْهَيْنَ آتَيْنِ إِيَّاهُ وَاحِدٌ فَأَيُّ الْفَرِهُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: «وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخَفُوا إِيَّاهِ الْهَيْنَ آتَيْنِ إِيَّاهُ وَاحِدٌ» قيل: المعنى لا تتخذوا آتين إلهين. وقيل: جاء قوله «آتين» توكيدا. ولما كان الإله الحق لا يتمدد وأن كل من يتعدد فليس بإله، اقتصر على ذكر الاثنين؛ لأنه قصد في التعدد. «إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ» يعنى ذاته المقدسة. وقد قام الدليل العقل والشرعى على وحدانيته حسبا تقدم في «البقرة» بيانه^(٢) وذكرناه في اسمه الواحد في شرح الأسماء، والحمد لله. «فَأَيُّ الْفَرِهُونَ» أى خافون. وقد تقدم في «البقرة»^(٣).

قوله تعالى: وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

(١) آية ٦٨ سورة الرحمن . (٢) راجع ج ٢ ص ١٩٠ وما بعدها طبعة ثانية .

(٣) راجع ج ١ ص ٣٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : (وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا) الدين : الطاعة والإخلاص . و « وَاصِبًا » معناه دائماً ؛ قاله الفراء ، حكاه الجوهري . وَصَبَ الشيء يَصْبُ وَصُوبًا ، أى دام . وَوَصَبَ الرجل على الأمر إذا واطب عليه . والمعنى : طاعة الله واجبة أبداً . ومن قال واصباً دائماً : الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك . ومنه قوله تعالى : « وَهُمْ صَدَابٌ وَاصِبٌ » ^(١) أى دائم . وقال اللؤلؤي :

لا أبتنى الحمد القليل بقاءه * بدم يكون الدهر أجمع واصباً
أنشد الغزوى والتملي وغيرهما :

ما أبتنى الحمد القليل بقاءه * يوماً بدم الدهر أجمع واصباً

وقيل : الوصب التعمب والإعياء ؛ أى يجب طاعة الله وإن تعب العبد فيها . ومنه قول الشاعر :
لا يمسك الساق من أين ولا وصب * ولا يعض على شرسوفه الصفر ^(٢)
وقال ابن عباس : « واصباً » واجباً . الفراء والكلبي : خالصاً . (أَفْتَرِ اللَّهُ تَقُونَ) أى لا ينبغي أن تقولوا غير الله . ف « غير » نصب ؛ « تقولون » .

قوله تعالى : وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَنِ اللَّهُ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَلِإِلَهِ تَجَعَّلُونَ ﴿٥٢﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ مُرْسِلِينَ يُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَنِ اللَّهُ) قال الفراء . « ما » بمعنى الجزء . والباء في « بكم » متعلقة بفعل مضمر ، تقديره : وما يكن بكم . (مِنْ نِعْمَةٍ) أى محبة جسم وسعة رزق وولد فن الله . وقيل : المعنى وما بكم من نعمة فن الله هي . (ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ)

(١) آية ٩ سورة الصافات . (٢) الشر لأعشى بأهله . والشر الأول من بيت ، والثاني من بيت آخر . والبيتان :

لا يتأذى لما في القدر يرقبه * ولا يعض على شرسوفه الصفر

لا يهزم الساق من أين ولا نصب * ولا يزال أمام القوم يقتصر

تأذى بالمكان : أقام به . والشرسوف : خسوف . كل حطم رخص يركل — معلق بكل ضلع مثل خسوف الكتف . والصفر (بالجرم) : داء في البطن يصفرمه الوجه . وقيل : الصفر هنا الجرح . واقتصر الأثر : تبهم .

أى السقم والبلاء والقحط . (فَأَلَيْهِ تَجَارُونَ) أى تضجون بالدعاء . يقال : جَارَ يَجَارُ جَوَارًا .
والجَوَارُ مثل الخَوَارِ ، يقال : جَارَ الثور يَجَارُ ، أى صاح . وقرأ بعضهم «عَجَلًا جَسَدًا لَهُ جَوَارٌ» ؛
حكاه الأَخْفَشُ . وجَارَ الرجل إلى الله ، أى تضرَّع بالدعاء . وقال الأعشى يصف بقرة :
فطافت ثلاثًا بين يوم وليلة * وكان الذكر أن تُضيف وتجارا^(١)

(ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ) أى البلاء والسقم . (إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) بعد إزالة
البلاء وبعد الجوار . فعنى الكلام التمجيب من الإشراك بعد النجاة من الهلاك ، وهذا المعنى
مكرر في القرآن ، وقد تقدَّم في « الأنعام » ويونس » ، وأتى في « سبحان » وغيرها . وقال
الزجاج : هذا خاص بمن كفر . (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ) أى ليجحدوا نعمة الله التى أنعم بها عليهم
من كشف الضر والبلاء . أى أشركوا ليجحدوا ، فاللام لام كفى . وقيل لام العاقبة . وقيل :
« لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ » أى ليجعلوا النعمة سببا للكفر ، وكل هذا فعل خبيث ، كما قال :
* والكفر محبة لنفس المنعم^(٢) *

(فَتَمَتُّوا) أمر تهديد . وقرأ عبدالله « قل تمتعوا » . (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) أى عاقبة أمركم .

قوله تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَأَلَّفَ
لِنَسْطُلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) ذكر نوط آخر من
جهالتهم ، وأنهم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضر وينفع — وهى الأصنام — شيئا من أموالهم
يتقربون به إليه ؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرها . « يعلمون » على هذا للمشركين . وقيل هى

(١) كذا فى الأصول . والذى فى اللسان مادة « ضيف » وكتاب سيبويه ج ٢ ص ١٧٤ أنه التابعة الجمعدى .

(٢) فى الأصول : « تليف » بالطاء . والتصويب من اللسان وكتاب سيبويه . وتضيف : تشقق وتجزئ
والتكسر : الإنكار . والجوار : الصياح . والمعنى : أن هذه البقرة فقدت ولدها فطافت تطلبه ثلاث ليل وأيامها ،

ولا إنكار عندها ولا انتصار مما عدا على ولدها إلا أن تشقق وتجزئ وتصيح . (٣) راجع ج ٧ ص ٨ و ج ٨

ص ٣١٧ طبعه أول وثانية . (٤) هذا مجزئ من منطقة عترة ، ومصدره :

* نبتت عمرا غير شاكر نعمتى *

للأوثان ، وجرى بالواو والنون مجرى من يعقل ، فهو رد على « ما » ومفعول يعلم مخدوف ، والتقدير : ويحصل هؤلاء الكفار الأضنام التي لا تعلم شيئا نصيبا . وقد مضى في « الأنعام » تفسير هذا المعنى في قوله : « فقلوا هذا ^(١) لله يرزقهم وهذا لشركائنا » ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال : « تَأْتِيهِمْ لَئْسَتُنَّ » وهذا سؤال توبيخ . « عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ » أى تخلفونه من الكذب على الله أنه أمركم بهذا .

قوله تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾
قوله تعالى : « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ » نزلت في خزيمة وكانت ، فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله ، فكانوا يقولون أحقوا البنات بالبنات . « سُبْحَانَهُ » ثبه نفسه وعظمها عما نسبوه إليه من اتخاذ الأولاد . « وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ » أى يجعلون لأنفسهم البتين ويأفنون من البنات ، وموضع « ما » رفع بالابتداء ، والخبر « لهم » وتم الكلام عند قوله : « سبحانه » . وأجاز الفراء كونها نصبا ، على تقدير : ويجعلون لهم ما يشتهون ، وأنكره الزجاج وقال : العرب تستعمل في مثل هذا ويجعلون لأنفسهم .

قوله تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ » أى أخبر أحدهم بولادة بنت . « ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا » أى متغيرا ، وليس يريد السواد الذى هو ضد البياض ، وإنما هو كناية عن غمه بالبنات ، والعرب تقول لكل من لقي مكروها : قد اسود وجهه غما وحزا ، قاله الزجاج . وحكى الماوردى أن المراد سواد اللون قال : وهو قول الجمهور . « وَهُوَ كَظِيمٌ » أى ممتلئ من الغم ، وقال ابن عباس : حزين . وقال الأخفش : هو الذى يكظم غيظه فلا يظهره . وقيل : إنه المنعوم الذى يطبق فاه فلا يتكلم من الغم ، مأخوذ من الكظامة وهو شد فم القرية ؛ قاله علي بن عيسى . وقد تقدم هذا المعنى في سورة « يوسف » .

(١) رابع ج ٧ ص ٨٩ طبة أول أوثانية . (٢) رابع ج ٩ ص ٢٤٩ طبة أول أوثانية .

قوله تعالى : يَتَوَرَّئِ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى
هُوَ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (يَتَوَرَّئِ مِنَ الْقَوْمِ) أى يخفى ويتغيب . (مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ) أى من سوء الحزن والعار والحياء الذى يلحقه بسبب البنت . (أَيُمْسِكُهُ) ذكر الكناية لأنه مردود على « ما » . (عَلَى هُوَ) أى هوان . وكذا قرأ عيسى التفتنى « على هوان » والهُون الهوان بلفه قريش ؛ قاله اليزيدى وحكاه أبو عبيد عن الكسائى . وقال الفراء : هو القليل بلفه تميم . وقال الكسائى : هو البلاء والمشقة . وقالت الخنساء :

نُهِنَ النَّفُوسَ وَهُوَ النَّفْسُ * مِنْ يَوْمِ الْكَرْبَةِ أَبْقَى لَهَا

وقرأ الأعمش « أَيْمَسِكُهُ عَلَى سُوءٍ » ذكره النحاس ، قال : وقرأ الجحدري « أَمْ يَدُسُّهَا فِي التُّرَابِ » يرده على قوله : « بِالْأُنْثَى » ويلزمه أن يقرأ « أَيْمَسِكُهَا » . وقيل : يرجع الهوان إلى البنت ؛ أى أيمسكها وهى مهانة عنده . وقيل : يرجع إلى المولود له ؛ أيمسكه على رغم أنه أم يدسه فى التراب ، وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حية . قال قتادة : كَانَ مُضَرٌّ وَخُرَامَةٌ يَدْفَنُونَ الْبَنَاتِ أَحْيَاءَ ؛ وَأَشَدَّهُمْ فِي هَذَا تَمِيمٌ . زَعَمُوا خَوْفَ الْقَهْرِ عَلَيْهِمْ وَطَمَعِ غَيْرِ الْأَكْفَاءِ فِيهِمْ . وَكَانَ صَعْبَةً بِنْتُ نَاجِيَةٍ عَمِّ الْفَرَزْدَقِ إِذَا أَحْمَسَ بَشَى مِنْ ذَلِكَ وَجَهَ إِلَى وَالِدِ الْبِنْتِ إِذَا لَا يَسْتَحْيِيهَا بِذَلِكَ . فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ يَفْتَخِرُ :

وَعَمَى الَّذِى مَنَعَ الْوَالِدَاتِ * وَأَحْبَا الْوَلِيدِ فَلَمْ يُؤَادِ

وقيل : دَسَّهَا إِخْفَاؤُهَا عَنْ النَّاسِ حَتَّى لَا تُعْرَفَ ، كَالْمَدْسُوسِ فِي التُّرَابِ لِإِخْفَائِهِ عَنْ الْأَبْصَارِ ؛ وَهَذَا مُحْتَمَلٌ .

مسئلة — ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءتنى امرأة ومعها آبتان لها ، فسألتنى فلم تجد عندى غير تمر واحدة ، فأعطيتها إياها فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئا ، ثم قامت ففرجت وابتاعها ، فدخل على النبی صلى الله عليه وسلم فحدثته

حديثها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "من ابتلى من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار". ففى هذا الحديث ما يدل على أن البنات بلية، ثم أخبر أن فى الصبر عليهن والإحسان إليهن ما يبق من النار. وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما ثمرة، ورفعت إلى فيها ثمرة لتأكلها فاستطعمتها أبشأها فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذى صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار". وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من حال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو" وضم أصابعه، خرجهما أيضا مسلم رحمه الله ! وخرج أبو نعيم الحافظ من حديث الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كانت له بنت فأدبها فأحسن أدبها وأعلمها فأحسن تعليمها وأسبغ عليها من نعم الله التى أسبغ عليه كانت له سترا أو حجابا من النار"، وخطب إلى عقيل بن علفة ابنه الجرباء فقال :

إني وإن سيق إلى المهر * ألف وعبدان وخُور عشر^(١)
 * أحب أصهارى إلى القبر *

وقال عبد الله بن طاهر :

لكل أب بنت يراعى شؤونها * ثلاثة أصهار إذا حمد الصهر
 فبعل يراعها ويذر يكتنأ * وقبر يوارىها وخيرهم القبر

((ألا ساء ما يحككون)) أى فى إضافة البنات إلى خالقهم وإضافة البنين إليهم . نظيره
 « ألكم الذكرو له الأُنثى . تلك إذا قسمة ضيزى » أى جائرة، وسيأتى .^(٢)

(١) المهر : جمع خزانة على غير قياس، وهى الناقة الغزيرة اللبن . (٢) آية ٢١ سورة النجم .

قوله تعالى : **لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴿١٠﴾

قوله تعالى : **(لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)** أى هؤلاء الواصفين لله البنات **(مَثَلُ السَّوْءِ)** أى صفة السوء من الجهل والكفر . وقيل : هو وصفهم الله تعالى بالصاحبة والولد . وقيل : أى العذاب والنار . **(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ)** أى الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد؛ قاله قتادة . وقيل : أى الصفة العليا بأنه خالق رازق قادر ومجاز . وقال ابن عباس : «مثل السوء» النار ، و «المثل الأعلى» شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : ليس كمثله شيء . وقيل : «وله المثل الأعلى» كقوله : «الله نور السموات والأرض مثل نور» . ^(١١) فإن قيل : كيف أضاف المثل هنا إلى نفسه وقد قال : «فلا تضربوا لله الأمثال» فالجواب أن قوله : «فلا تضربوا لله الأمثال» أى الأمثال التى توجب الأشباه والتفائص ؛ أى لا تضربوا لله مثلا يقتضى نقصا وتشبيها بالخلق . والمثل الأعلى وصفه بما لا شبه له ولا نظير ، ^(١٢) جلّ وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا . **(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** تقدم معناه .

قوله تعالى : **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴿١١﴾

قوله تعالى : **(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ)** أى بكفرهم وافترائهم ، وما جملهم . **(مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ)** أى على الأرض ، فهو كناية عن غير مذكور ، لكن دل عليه قوله : **(مِنْ دَابَّةٍ)** فإن الدابة لا تدب إلا على الأرض ، والمعنى المراد من دابة كافرة ، فهو خاص . وقيل : المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء . وقيل : المراد بالآية العموم ؛ أى لو أخذ الله الخلق بما كسبوا مترك على

(١) آية ٣٥ سورة النور . (٢) آية ٧٤ من هذه السورة . (٣) راجع ج ١ ص ٢٨٧ و ٢٨٢

ظهر هذه الأرض من دابة من نحي ولا غيره ؛ وهذا قول الحسن . وقال ابن مسعود وقرأ هذه الآية :
لو أخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العذاب جميع الخلق حتى الجملان في مجرهما ،
ولأمسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض فمات الدواب ، ولكن الله يأخذ بالعمو
والفضل ؛ كما قال : « وَيَعْقُوبُ عَنْ كَثِيرٍ » . (فَأَذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ) أى أجل موتهم ومنتهى
أعمارهم . (لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) وقد تقدم . (٣٢) فإن قيل : فكيف يم بالغلاك
مع أن فيهم مؤمن ليس بظالم ؟ قيل : يجعل هلاك الظالم انتقاما وجزاء ، وهلاك المؤمن
معوضا بشواب الآخرة . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : " إذا أراد الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بُعِثُوا على نياتهم " .
وعن أم سلمة وسئل عن الجيش الذى يخسف به وكان ذلك فى أيام ابن الزبير ، فقالت
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يعوذ بالبيت عائذ فيُبْعَثُ إليه بَعَثٌ فإذا كانوا بيضاء
من الأرض خُسِفَ بهم " فقلت : يا رسول الله ، فكيف بمن كان كارها ؟ قال : " يُخَسَفُ
به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته " . وقد أتينا على هذا المعنى مجودا فى (كتاب
التذكرة) وتقدم فى « المائدة » وآخر « الأنعام » ما فيه كفاية ، والحمد لله . وقيل : « فإذا
جاء أجْلُهُمْ » أى فإذا جاء يوم القيامة . والله أعلم .

قوله تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ
أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ) أى من البنات . (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ)
أى وتقول ألسنتهم الكذب . (أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ) قال مجاهد : هو قولهم أن لهم البنين والله
البنات . « الْكُذِبَ » مفعول « تصف » و « أَتَى » فى محل نصب بدل من الكذب ؛ لأنه

(١) الجملان (بكسر الجيم جمع جعل ، كعرد) : دابة سوداء من دواب الأرض . (٢) آية ٣٠
سورة الشورى . (٣) راجع ج ٧ ص ٢٠٢ طبعه أول أرثانية . (٤) فى صحيح مسلم .
« على أعمالهم » . (٥) راجع ج ٦ ص ٣٤٢ و ج ٧ ص ١٥٧ طبعه أول أرثانية .

بيان له . وقيل : « الحسنی » الجزء الحسن ؛ قاله الزجاج . وقرأ ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وابن محيَّصين « الكُذِّب » برفع الكاف والذال والياء نعتاً للألسنة ؛ وكذا « ولا تقولوا ليَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكُذِبَ » ، والكُذِّب جمع كذوب ؛ مثل رُسُولٍ ورُسُلٍ وصَبُورٍ وصَبْرٍ وشُكُورٍ وشُكْرٍ . (لَا) ردُّ لقولهم ، وتمَّ الكلام ، أي ليس كما تزعمون . (جَرَّمَ أَنْ لَّهُمُ النَّارَ) أي حقا أن لهم النار . وقد تقدّم مستوفٍ . (وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ) متركون مفسدون في النار ؛ قاله ابن الأعرابي وأبو عبيدة والكسائي والفراء ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير أيضاً : مبعدون . فتادة والحسن : معجلون إلى النار مقدمون إليها . والفارط : الذي يتقدم إلى الماء ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنا فرطكم على الخوض » أي متقدمكم . وقال القطامي :

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا * كما تعجل فرطاً لورثاد

والفرط : المتقدمون في طلب الماء . والورثاد : المتأخرون . وقرأ نافع في رواية ورش « مُفْرِطُونَ » بكسر الراء وتخفيفها ، وهي قراءة عبد الله بن مسعود وابن عباس ، ومعناه مسرفون في الذنوب والمعصية ، أي أفرطوا فيها . يقال : أفرط فلان على فلان إذا أربى عليه ، وقال له أكثر مما قال من الشر . وقرأ أبو جعفر القارئ « مُفْرَطُونَ » بكسر الراء وتشديد هاء ، أي مضيعون أمر الله ؛ فهو من التفريط في الواجب .

قوله تعالى : تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ) أي أعمالهم الخبيثة . هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن من تقدّمه من الأنبياء قد كفر بهم قومهم . (فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ) أي ناصرهم في الدنيا على ذنبهم . (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

في الآخرة . وقيل : « فهو وليهم » أى قريبهم في النار . (اليوم) يعنى يوم القيامة ، وأطلق عليه اسم اليوم لشهرته . وقيل يقال لهم يوم القيامة : هذا وليكم فاستنصروا به لينجيكم من العذاب ، على جهة التوبيخ لهم .

قوله تعالى : وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : (وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ) أى القرآن (إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ) من الدين والأحكام فتقوم الحجة عليهم ببيانك . وعطف « هدى ورحمة » على موضع قوله : « لَتُبَيِّنَ » لأن عمله نصب . ومجاز الكلام : وما أزلنا عليك الكتاب إلا تبياناً للناس . (وهدى) أى رشدًا ورحمةً للمؤمنين .

قوله تعالى : وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَاهُ بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : (وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ) أى السحاب . (مَاءً فَأَخْبَاهُ بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا) عاد الكلام إلى تعداد النعم وبيان كمال القدرة . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) أى دلالة على البعث وعلى وحدانيته ؛ إذ علموا أن معبودهم لا يستطيع شيئاً ، فتكون هذه الدلالة . (لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) عن الله تعالى بالقلوب لا بالأذان ؛ « فإنها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التى في الصدور » ^(١) .

قوله تعالى : وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً تَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ قَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي الْأَنْعَامِ ، وَهِيَ هُنَا الْأَصْنَافُ الْأَرْبَعَةُ : الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالضَّأْنُ وَالْمَعْزُ . (لَعِبْرَةً) أَيْ دَلَالَةٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ . وَالْعِبْرَةُ أَصْلُهَا تَمَثِيلُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ لِتَعْرِفِ حَقِيقَتَهُ مِنْ طَرِيقِ الْمَشَاكِلَةِ ، وَبَنَتْهُ « فَأَعْبَرُوا » . وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَزَائِقُ : الْعِبْرَةُ فِي الْأَنْعَامِ تَسْخِيرُهَا لِأَرْبَابِهَا وَطَاعَتُهَا لَهَا ، وَتَعَزُّدُكَ عَلَى رَبِّكَ وَخِلَافُكَ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ . وَمِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ بَرَىءٌ يَجْعَلُ مَذْنِبًا .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ تُسْقِيكُمُ ﴾ قِرَاءَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَابْنِ حَامِرٍ وَعَاصِمٍ فِي رَوَايَةٍ أَبِي بَكْرٍ (بِفَتْحِ النُّونِ) مَنْ سَقَى يُسْقَى . وَقَرَأَ الْبَاقُونَ وَحَفْصٌ عَنْ طَاصِمٍ (بِضَمِّ النُّونِ) مَنْ أَسْقَى يُسْقَى ، وَهِيَ قِرَاءَةُ الْكُوفِيِّينَ وَأَهْلِ مَكَّةَ . قِيلَ : هُمَا لَفْتَانِ . وَقَالَ لَيْدٌ :

سَقَى قَوْمِي بَنِي بَجْدٍ وَأَسْقَى * ثُمَيْرًا وَالتَّقِيَّالَ مِنْ هِلَالٍ

وقيل : يُقَالُ لِمَا كَانَ مِنْ يَدِكَ إِلَى فِيهِ سَقِيتهُ ، فَإِذَا جَعَلْتَ لَهُ شَرِبًا أَوْ عَرَضْتَهُ لِأَنْ يَشْرَبَ بِهِ أَوْ يَزْرَعَهُ قَالَتْ أَسْقِيتهُ ، قَالَ ابْنُ عَرِيزٍ ، وَقَدْ تَهَدَّم . وَقُرَأَتْ فِرْقَةٌ « تُسْقِيكُمُ » بِالتَّاءِ ، وَهِيَ ضَعِيفَةٌ ، يَعْنِي الْأَنْعَامَ . وَقُرِئَ بِالْيَاءِ ، أَيْ يُسْقِيكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . وَالْقِرَاءَةُ عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ الْمُتَقَدِّمَتَيْنِ ؛ فَفَتْحُ النُّونِ لِنَةِ قَرِيشٍ وَضَمُّهَا لِنَةِ حِمِيرٍ .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ عِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الضَّمِيرِ مِنْ قَوْلِهِ : «عِمَّا فِي بُطُونِهِ» عَلَى مَاذَا يَعُودُ . فَقِيلَ : هُوَ عَائِدٌ إِلَى مَاقْبَلِهِ وَهُوَ جَمْعُ الْمُؤْنِثِ . قَالَ سَيُودِيَّةُ : الْعَرَبُ تَخْبِرُ عَنِ الْأَنْعَامِ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ . قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : وَمَا أَرَاهُ عَوَّلَ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَهَذَا لَا يَشْبَهُ مَنْصِبَهُ وَلَا يَلِيقُ بِإِدْرَاكِهِ . وَقِيلَ : لِمَا كَانَ لِقِطْعِ الْجَمْعِ وَهُوَ اسْمُ الْجِنْسِ يَذْكُرُ وَيُؤْنِثُ فَيُقَالُ : هُوَ الْأَنْعَامُ وَهِيَ الْأَنْعَامُ ، جَازَ عَوْدُ الضَّمِيرِ بِالتَّذَكُّيرِ ؛ وَقَالَ الزَّجَاجُ .

(٢) مِنْ آيَةِ ٢ سُورَةِ الْحَشْرِ .

(١) رَاجِعْ ج ٧ ص ١١١ طَبْعَةُ أَوَّلَى أَرْبَعَانِيَّةٍ .

(٣) رَاجِعْ ج ١ ص ١٧ طَبْعَةُ ثَانِيَّةٍ أَرْبَعَانِيَّةٍ .

وقال الكسائي: معناه مما في بطون ما ذكرناه، فهو عائد على المذكور؛ وقد قال الله تعالى: «إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ فَمِنْ شَاءَ ذَكَرْهُ» وقال الشاعر:

* مثل الفِراخ نُصِفَتْ حواصلُهُ *

ومثله كثير، وقال الكسائي: «مما في بطونه» أى مما في بطون بعضه؛ إذ المذكور لا ألبان لها، وهو الذى عول عليه أبو عبيدة. وقال الفراء: الأنعام والتَّعَمُّ واحد، والتَّعَمُّ يذكر، ولهذا تقول العرب: هذا تَمَّ وارد، فرجع الضمير إلى لفظ التَّعَمُّ الذى هو بمعنى الأنعام. قال ابن العربى: إنما رجع التذكير إلى معنى الجمع، والتأنيث إلى معنى الجماعة، فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع، وأنته في سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة فقال: «تُسْقِيكُمْ^(٢) مما في بطونها» وبهذا التأويل ينظم المعنى انتظاما حسنا، والتأنيث باعتبار لفظ الجماعة والتذكير باعتبار لفظ الجمع أكثر من رمل^(٣) يبرين وتنبأ فلسطين.

الرابعة — استنبط بعض العلماء الحجة وهو القاضى إسماعيل من عود هذا الضمير، أن لبن الفحل يفيد التحريم، وقال: إنما جىء به مذكرا لأنه راجع إلى ذكر النعم؛ لأن اللبن للذكر محسوب، ولذلك قضى النبي صلى الله عليه وسلم بأن لبن الفحل يحرم حين أنكرته عائشة في حديث أفلح أخى أبى التَّعَيْس «فلا امرأة السقي وللرجل اللقاح» بخرى الاشتراك فيه بينهما، وقد مضى القول في تحريم لبن الفحل في «النساء» والحمد لله.

الخامسة — قوله تعالى: «مِنْ بَيْنِ قَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا» نَبَّه سبحانه على عظيم قدرته بخروج اللبن خالصا بين القَرْثِ والدم. والقَرْثُ: الزَّيْل الذى يتزل إلى الكَرِش، فإذا خرج لم يُسَمَّ قَرْثًا. يقال: أقرثت الكَرِش إذا أخرجت ما فيها. والمعنى: أن الطعام يكون منه ما فى الكَرِش ويكون منه الدم، ثم يخلص اللبن من الدم؛ فأعلم الله سبحانه أن هذا اللبن يخرج من بين ذلك وبين الدم فى العروق. وقال ابن عباس: إن الدابة تأكل الملف

(١) آية ١١ سورة عبس • (٢) آية ٢١ سورة المؤمنون • (٣) رمل لا تترك أطرافه عن يمين مطلع الشمس من حجر الجمجمة • (ياقوت) • (٤) راجع ج ٥ ص ١١١ طبعة أول أرثانية •

ابن أبي وقاص يفسرك المني من ثوبه . وقال ابن عباس : هو كالنخامة أبطه عنك بإذخرة وامسحه بخرقه . فإن قيل : فقد ثبت عن عائشة أنها قالت : كنت أغسل المني من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخرج إلى الصلاة في ذلك الثوب وأنا أنظر إلى أثر النسل فيه . قلنا : يحتمل أن تكون غسلته استقذارا كالأشياء التي تزال من الثوب كالنجاسة ، ويكون هذا جمعا بين الأحاديث . والله أعلم . وقال مالك وأصحابه والأوزاعي : هو نجس . قال مالك : غسل الاحتلام من الثوب أمر واجب مجتمع عليه عندنا ، وهو قول الكوفيين . وروى عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وجابر بن سمرة أنهم غسلوه من ثيابهم . واختلف فيه عن ابن عمر وعائشة . وعلى هذين القولين في نجاسة المني وطهارته التابعون .

السابعة — في هذه الآية دليل على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وضيره ، فأما لبن الميتة فلا يجوز الانتفاع به ؛ لأنه مائع طاهر حصل في وءاء نجس ، وذلك أن ضريع الميتة نجس واللبن طاهر فإذا حلب صار مأخوذا من وءاء نجس . فأما لبن المرأة الميتة فأختلف أصحابنا فيه ، فمن قال : إن الإنسان طاهر حيا وميتا فهو طاهر . ومن قال : نجس بالموت فهو نجس . وعلى القولين جميعا ثبت الحرمة ؛ لأن الصبي قد يفتدى به كما يفتدى من الحية ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الرضاع ما أنبت اللحم وأنشز العظم " . ولم يخص ، وقد مضى في « النساء » .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ سَأْتِنَا لِلْشَّارِبِينَ ﴾ أى لذيذا هينا لا يقص به من شربه . يقال : ساغ الشراب يسوغ سوطا أى سهل . أدخله في الحلق ، وأساغه شارب ، وسقته أنا أسقته وأسوفه ، يتمدى ولا يتمدى ، والأجود أسقته إساقفة . يقال : أسغ لى غصتى أى أمهلتى ولا تمجلى ، وقال تعالى : ﴿ يَجْعَلُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ » . والسواغ (بكسر السين) ما أسغت به غصتك . يقال : الماء سواغ النقص ؛ ومنه قول الكهيت :

« فكانت سواغا أن جرت بقصة »

وروى أن اللبن لم يشرق به أحد قط ، وروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) راجع ج ٥ ص ١١١ طبعة أول أو ثانية . (٢) آية ١٧ سورة إبراهيم .

التاسعة - في هذه الآية دليل على استعمال الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها ، ولا يقال : إن ذلك يناقض الزهد أو يباعده ، لكن إذا كان من وجهه ومن غير سرف ولا إكثار . وقد تقدم هذا المعنى في « المائدة »^(١) وغيرها . وفي الصحيح عن أنس قال : لقد سقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدرى هذا الشراب كله : العسل والنبذ واللبن والماء . وقد ذكره بعض الفقهاء أكل الفالودج^(٢) واللبن من الطعام ، وأباحه عامة العلماء . وروى عن الحسن أنه كان على مائدة ومعه مالك بن دينار ، فأتى بالفالودج فامتنع عن أكله ، فقال له الحسن : كُلْ ! فَاتَّ عَلَيْكَ فِي الْمَاءِ الْبَارِدِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا .

العاشرة - روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بابتن فشرب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ . وَإِذَا سَقَى لَبَنًا فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يَجْزِي عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا اللَّبَنُ " . قال علماءنا : فكيف لا يكون ذلك وهو أول ما ينتدئ به الإنسان وتبني به الجثث والأبدان ، فهو قوت خلق عن المفاسد به قوام الأجسام ، وقد جعله الله تعالى علامة لجبريل على هداية هذه الأمة التي هي خير الأمم أمة ؛ فقال في الصحيح : " بخافني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال لي جبريل اخترت الفطرة أما إنك لو اخترت الخمر غوت أمتك " . ثم إن في الدعاء بالزيادة منه علامة الخصب وظهور الخيرات والبركات ؛ فهو مبارك كله .

قوله تعالى : وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٧٧﴾
فيه مسائلان :

الأولى - قوله تعالى : (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ) قال الطبري : التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون ؛ تخذف « ما » ودل على حذفه قوله : « منه » . وقيل :

(١) راجع ج ٦ ص ٢٦٠ وما بعدها . وج ٧ ص ١٩١ طيبة أول أو ثانية .

(٢) الفالودج : حلواء يعمل من العقيق والماء والعسل . (عن الألفاظ الفارسية المغربية) .

المحذوف شيء، والأمر قريب . وقيل : معنى « منه » أى من المذكور، فلا يكون في الكلام حذف وهو أولى . ويجوز أن يكون قوله : « ومن ثمرات » عطفا على « الأنعام » ؛ أى ولكم من ثمرات التخيّل والأعشاب عبرة . ويجوز أن يكون معطوفا على « مما » أى ونسقيكم أيضا مشروبات من ثمرات .

الثانية — قوله تعالى : (سَكْرًا) السَّكَرُ ما يُسَكِّرُ ؛ هذا هو المشهور في اللغة . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر . وأراد بالسَّكَرِ الخمر . وبالزُّرْق الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين . وقال بهذا القول ابن جُبَيْر والنَّخَعِيّ والشَّعْبِيّ وأبو ثور . وقد قيل : إن السَّكَرَ الخَلُّ بلغة الحبشة، والزُّرْق الحسن الطعام . وقيل : السَّكَرُ العصير الحلو الحلال، وُسِّمَ سَكْرًا لأنه قد يصير مسكرا إذا بقي ، فإذا بلغ الإسكار حرم . قال ابن العربي : « أسدّ هذه الأقوال قولُ ابن عباس ، ويخرج ذلك على أحد معنيين ، إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر ، وإما أن يكون المعنى : أنعم الله عليكم بثمرات التخيّل والأعشاب تتخذون منه ما حرّم الله عليكم اعتداء منكم ، وما أحل لكم اتفاقا أو قصدا إلى منفعة أنفسكم . والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة ؛ فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء ، وتحريم الخمر مدني » .

قلت : فعلى أن السَّكَرَ الخَلُّ أو العصير الحلو لا نسخ ، وتكون الآية محكمة وهو حسن . قال ابن عباس : الحبشة يسمون الخَلَّ السَّكَرَ ، إلا أن الجمهور على أن السكر الخمر ، منهم ابن مسعود وابن عمر وأبو رزين والحسن ومجاهد وابن أبي لَيْلى والكَلْبِيُّ وغيرهم ممن تقدّم ذكرهم ، كلهم قالوا : السَّكَرُ ما حرّمه الله من ثمرتيهما . وكذا قال أهل اللغة : السَّكَرُ اسم الخمر وما يُسَكِّرُ ، وأنشدوا :

بئس الصُّحاة وبئس الشُّرْبُ شَرِبَهُمْ * إذا جرى فيهم المِزَاءُ والسَّكَرُ
والزُّرْق الحسن : ما أحله الله من ثمرتيهما . وقيل : إن قوله « تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكْرًا » خبرٌ معناه الاستفهام بمعنى الإنكار ؛ أى اتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكْرًا وتَدْعُونَ رِزْقًا حَسَنًا خَلًّا وَزَيْبًا

والتر؛ كقوله : « فهم الخالدون » أى أفهم الخالدون . واقه أعلم . وقال أبو عبيدة :
السكر الطعم ، يقال : هذا سكر لك أى طعم . وأنشد :

• جعلت عيب الأكرمين سكرًا •

أى جعلت ذمهم طعما . وهذا اختيار الطبرى أن السكر ما يطعم من الطعام وحل شربه من ثمار التخليل والأعشاب ، وهو الرزق الحسن ، فاللفظ مختلف والمعنى واحد ؛ مثل « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » وهذا حسن ولا نسخ ، إلا أن الزجاج قال : قول أبى عبيدة هذا لا يعرف ، وأهل التفسير على خلافه ، ولا حجة له فى البيت الذى أنشده ؛ لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمر بعبوب الناس . وقال الحنفيون : المراد بقوله : « سكرًا » ما لا يسكر من الأنثى ؛ والدليل عليه أن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده بما خلق لهم من ذلك ، ولا يقع الامتنان إلا بحمل لا بحرم ، فيكون ذلك دليلا على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ ، فإذا انتهى إلى السكر لم يحزم ، وعَضِدُوا هذا من السنة ؛ كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حرم الله الخمر بعينها والسكر من غيرها » . وبما رواه عبد الملك بن نافع عن ابن عمر قال : رأيت رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عند الركن ، ودفع إليه القدح فرفعه إلى فيه فوجده شديدا فرّده إلى صاحبه ، فقال له حينئذ رجل من القوم : يا رسول الله ، أحرام هو ؟ فقال : « على الرجل » فأتى به فأخذ منه القدح ، ثم دعا بماء فصبه فيه ثم رفعه إلى فيه فقطب ، ثم دعا بماء أيضا فصبه فيه ثم قال : « إذا اعتامت عليكم هذه الأوعية فاكسروا مؤننها بالماء » . وروى أنه عليه السلام كان يُبَدِّلُ له فيشر به ذلك اليوم ، فإذا كان من اليوم الثانى أو الثالث سقاه الخادم إذا تغير ، ولو كان حراما ما سقاه إياه . قال الطحاوى : وقد روى أبو عَوْن التَّقْفَى عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس قال : حرمت الخمر بعينها القليل منها والكثير والسكر من كل شراب ؛ خرجه الدارقطنى أيضا .

(١) آية ٨٦ سورة يوسف .

(٢) الاغلام مجاوزة الحدا ؛ أى إذا جاوزت حدها الذى لا يسكر الى حدها الذى يسكر .

ففي هذا الحديث وما كان مثله ، أن غير الخمر لم تحرم عينه كما حرمت الخمر بعينها ، قالوا : والخمر شراب العنب لا خلاف فيها ، ومن حجّتهم أيضا ما رواه شريك بن عبد الله ، حدثنا أبو إسحاق الهمداني عن عمرو بن ميمون قال قال عمر بن الخطاب : إنا نأكل لحوم هذه الإبل وليس يقطعها في بطوننا إلا النبيذ . قال شريك : ورأيت الثوري يشرب النبيذ في بيت حبر أهل زمانه مالك بن مغول . والجواب أن قولهم : إن الله سبحانه وتعالى آتيت على عباده ولا يكون امتنانه إلا بما أحل فصحيح ؛ بيد أنه يحتمل أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر كما بيناه فيكون ملسوخا كما قدمناه . قال ابن العربي : إن قيل كيف ينسخ هذا وهو خبر والخبر لا يدخله النسخ ، قلنا : هذا كلام من لم يتحقق الشريعة ، وقد بينا أن الخبر إذا كان عن الوجود الحقيقي أو عن إعطاء نواب فضلا من الله فهو الذي لا يدخله النسخ ، فاما إذا تضمن الخبر حكما شرعيا فالأحكام تبدل وتنسخ ، جاءت بخبر أو أمر ، ولا يرجع النسخ إلى نفس اللفظ وإنما يرجع إلى ما تضمنه ، فإذا فهمت هذا خرجتم عن الصنف النبي الذي أخبر الله عن الكفار فيه بقوله : « وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ^(١) » . المعنى أنهم جهلوا أن الرب يأمر بما يشاء ويكلف ما يشاء ، ويرفع من ذلك بعدله ما يشاء وينهت ما يشاء وعنده أم الكتاب .

قلت : هذا تشنيع شنيع حتى يلحق فيه العلماء الأخيار في قصور الفهم بالكفار ، والمسألة أصلية ، وهي أن الأخبار عن الأحكام الشرعية هل يجوز نسخها أم لا ؟ اختلف في ذلك ، والصحيح جوازه لهذه الآية وما كان مثله ، ولأن الخبر عن مشروعية حكم ما يتضمن طاب ذلك المشروع ، وذلك الطلب هو الحكم الشرعي الذي يُستدل على نسخه . والله أعلم . وأما ما ذكرنا من الأحاديث فالأول والثاني ضعيفان ؛ لأنه عليه السلام قد روى عنه بالنقل الثابت أنه قال : « كل شراب أسكر فهو حرام » وقال : « كل مسكر خمر وكل مسكر حرام » وقال : « ما أسكر كثيره فقليله حرام » . قال النسائي : وهؤلاء أهل التبت والمدالة مشهورون

بصبحة النقل، وعبد الملك لا يقوم مقام واحد منهم ولو طأضده من أشكاله جماعة، وبالله التوفيق . وأما الثالث وإن كان صحيحاً فإنه ما كان يسقيه لخدم على أنه مسكر، وإنما كان يسقيه لأنه يتغير الرائحة . وكان صلى الله عليه وسلم يكره أن توجد منه الرائحة، فلذلك لم يشربه، ولذلك تحيل عليه أزواجه في غسل زينب بأن قيل له : إنا نجد منك ريحاً مغايراً، يعني ريحاً منكراً، فلم يشربه بعد . وسبأني في التحريم . وأما حديث ابن عباس فقد روى عنه خلاف ذلك من رواية عطاء وطاوس ومجاهد أنه قال : ما أسكر كثيره فقليله حرام، ورواه عنه قيس ابن دينار . وكذلك فُيه في المسكر، قاله الدارقطني . والحديث الأول رواه عنه عبد الله ابن شداد وقد خالفه الجماعة، فسقط القول به مع ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم . وأما ما روى عن عمر من قوله : ليس يقطع في بطوننا إلا التبيذ، فإنه يريد غير المسكر بدليل ما ذكرنا . وقد روى النسائي عن عتبة بن فرقد قال : كان التبيذ الذي شربه عمر بن الخطاب قد حُلّ . قال النسائي : وما يدل على صحة هذا حديث السائب، قال الحارث بن مسكين قراءة عليه وأنا أسمع عن ابن القاسم : حدثني مالك عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد، أنه أخبره أن عمر بن الخطاب خرج عليهم فقال : إني وجدت من فلان ريح شراب، فزعم أنه شراب الطلاء، وأنا سائل عما شرب، فإن كان مسكراً جلده، بخلافه عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحدّ تاماً . وقد قال في خطبته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما بعد، أيها الناس فإنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة : من العنب والمسل والتمر والحنطة والشعير . والخمر ما خمر العقل . وقد تقدم في «المائة»^(١) . فإن قيل : فقد أحلّ شربه إبراهيم النخعي وأبو جعفر الطحاوي وكان إمام أهل زمانه، وكان مسفيان الثوري يشربه . قلنا : ذكر النسائي في كتابه أن أول من أحل المسكر من الأئمة إبراهيم النخعي، وهذه ذلة من عالم وقد حذرنا من زلة العالم، ولا حجة في قول أحد مع السنة . وذكر النسائي أيضاً عن ابن المبارك قال : ما وجدت الرخصة في المسكر عن أحد صحيحاً إلا عن إبراهيم . قال أبو أسامة : ما رأيت

(١) راجع ج ٦ ص ٢٨٥ طبعة أول أدبانية .

رجلا أطلب العلم من عبد الله بن المبارك الشامات^(١) ومصر واليمن والحجاز . وأما الطحاوي وسفيان لوصح ذلك عنهما لم يحتاج بهما على من خالفهما من الأئمة في تحريم المسكر مع ما ثبت من السنة؛ على أن الطحاوي قد ذكر في كتابه الكبير في الاختلاف خلاف ذلك . قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد له : قال أبو جعفر الطحاوي " اتفقت الأمة على أن عصير العنب إذا اشتد وقُذِفَ بالزبد فهو نمر ومستهل كافر . واختلفوا في تقيع التمر إذا غلى وأسكر . قال : فهذا يدل على أن حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " النمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنب " غير معمول به عندهم؛ لأنهم لو قبلوا الحديث لأكفروا مستحل تقيع التمر؛ فثبت أنه لم يدخل في النمر المحرمة غير عصير العنب الذي قد اشتد وبلغ أن يسكر . قال : ثم لا يخلو من أن يكون التحريم مطلقا بها فقط غير مقيس عليها فربما أو يجب القياس عليها ، فوجدناهم جميعا قد فاسوا عليها تقيع التمر إذا غلى وأسكر كثيره وكذلك تقيع الزبيب . قال : فوجب قياسا على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة . قال : وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كل مسكر حرام " واستغنى عن مسنده لقبول الجميع له ، وإنما اختلف بينهم في تأويله ، فقال بعضهم : أراد به جنس ما يسكر . وقال بعضهم : أراد به ما يقع السكر عنده كما لا يسمى قاتلا إلا مع وجود القتل .

قلت : فهذا يدل على أنه محرم عند الطحاوي لقوله ، فوجب قياسا على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة . وقد روى الدارقطني في سننه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إن الله لم يحرم الخمر لأنها حرام وإنما حرّمها لما قبلها ، فكل شراب يكون عاقبته كما قبل الخمر فهو حرام كتحريم الخمر . قال ابن المنذر : وجاء أهل الكوفة بأخبار معلولة ، وإذا اختلف الناس في الشيء وجب رد ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ، وما روى عن بعض التابعين أنه شرب الشراب الذي يسكر كثيره فللقوم ذنوب يستغفرون

(١) في حاشية السندى على سنن النسائي : « قوله الشامات ، كأنه جمع على إرادة البلاد الشابة » .

الله منها ، وليس يخلو ذلك من أحد معينين : إما مخطئ أخطأ في التأويل على حديث سمعه ، أو رجل أتى ذنبا لعله أن يكثر من الاستغفار لله تعالى ، والنبي صلى الله عليه وسلم حجة الله على الأولين والآخرين من هذه الأمة . وقد قيل في تأويل الآية : إنها إنما ذكرت للاعتبار ، أي من قدر على خلق هذه الأشياء قادر على البعث ، وهذا الاعتبار لا يختلف بأن كانت الخمر حلالا أو حراما ، فأتخاذ السكر لا يدل على التحريم ، وهو كما قال تعالى : « قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » والله أعلم .

قوله تعالى : وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٣٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) قد مضى القول في الوحي وأنه قد يكون بمعنى الإلهام ، وهو ما يخلق الله تعالى في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر ، وهو من قوله تعالى : « وَفَقَّسَ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » . ومن ذلك البهائم وما يخلق الله سبحانه فيها من درك منافعها واجتناب مضارها وتدبير معاشها . وقد أخبر عز وجل بذلك عن الموات فقال : « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ » . قال إبراهيم الحنبل : لله عز وجل في الموات قدرة لم يدر ما هي ، لم يأتها رسول من عند الله ولكن الله تعالى عرفها ذلك ؛ أي ألهمها . ولا خلاف بين المتأولين أن الوحي هنا بمعنى الإلهام . وقرأ يحيى بن وثاب « إلى النَّحْلِ » بفتح الحاء . وسمى نحلا لأن الله عز وجل نحل العسل الذي يخرج منه ؛ قاله الزجاج . الجوهري : والنحل والنحلة الدَّبْرِيق على الذكر والأنثى ، حتى يقال : يَسُوبُ . والنحل يؤنث في لغة أهل الججاز ، وكل جمع ليس بينه وبين واحد إلا الهاء ، وروى من حديث

(٢) آية ٧ سورة الشمس .

(١) راجع ج ٤ ص ٨٥ طبة أملى أو ثانية .

(٣) آية ٤ سورة الزلزلة .

أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّارِ يَجْعَلُهَا عَذَابًا لِأَهْلِ النَّارِ إِلَّا النَّحْلَ » ذكره الترمذى الحكيم (نوادر الأصول) . وروى عن ابن عباس قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النملة والنحلة والمُدهْد والمُصرَد^(١) ، خرج به أبو داود أيضا ، وسيأتي في « النمل » إن شاء الله تعالى .

الثانية — قوله تعالى : (أَنْ آتِيَنِي مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ) هذا إذا لم يكن لها مالك . (وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة الأنواع ، إما في الجبال وكراها ، وإما في متجوف الأشجار ، وإما فيا يعرش ابن آدم من الأجاج والخلايا والحيطان وفيها . وعرش معناه هنا هباً ، وأكثر ما يستعمل فيها يكون من إتيان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها ؛ ومنه العريش الذى صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، ومن هذا لفظة العرش . يقال : عرش يعرش ويعرش (بكسر الراء وضمة) ، وقرئ بهما . قرأ ابن عامر بالضم وسائرهم بالكسر ، واختلف في ذلك عن عامر .

الثالثة — قال ابن العربي : ومن عجيب ما خلق الله في النحل أن أهمها لا تخاذ بيوتها مستدة ، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة ، وذلك أن الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينهما فُرَج ، إلا الشكل المستدس ؛ فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه كالقطعة الواحدة .

قوله تعالى : ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٨﴾

(١) المصرد (كرتب) : طائر فوق المصغور يصيد المصاير . (٢) في قوله تعالى : « حتى إذا أتوا على

واد النمل ... » آية ١٨ (٣) الأجاج : مواضع النمل في الجبل وفيها تصل .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلْ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ وذلك أنها إنما تأكل الثمار من الأشجار .
 ﴿ فَأَسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا ﴾ أى طرق ربك ، والسبل : الطرق ، وأضافها إليه لأنه خالقها .
 أى ادخل طرق ربك لطلب الرزق في الجبال وخالل الشجر . ﴿ ذُلَالًا ﴾ جمع ذلول وهو المتقاد ؛
 أى مطيعة مسخرة . ذ « ذلالا » حال من النحل . أى تنقاد وتذهب حيث شاء صاحبها ؛
 لأنها تتبع أصحابها حيث ذهبوا ؛ قاله ابن زيد . وقيل : المراد بقوله « ذُلَالًا » السبل .
 يقول : مذلل طرقها سهلة للسالك عليها ؛ واختاره الطبري ، و « ذلالا » حال من السبل .
 والبسوب سيد النحل ، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت .

قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ فيه تسع مسائل :
 الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا ﴾ رجع الخطاب إلى الخبر على جهة تعديد
 النعمة والتنبيه على العبرة فقال : « يخرج من بطونها شراب » بنى العسل . وجمهور
 الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل ؛ وورد عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه
 أنه قال في تحميره للدنيا : أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة ، وأشرف شرابه رجيع نحلة .
 فظاهر هذا أنه من غير الفم . وبالجملة فإنه يخرج ولا يدري من فيها أو أسفلها ، ولكن لا يتم
 صلاحه إلا بحمى أنفاسها . وقد صنع أرسطا طاليس بيتا من زجاج لينظر إلى كيفية ما تصنع ،
 فابت أن تعمل حتى لطخت باطن الزجاج بالطين ؛ ذكره الغزنوى . وقال : « من بطونها »
 لأن استحالة الأطعمة لا تكون إلا في البطن .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ يريد أنواعه من الأحمر والأبيض والأصفر
 والجامد والسائل ، والأم واحدة والأولاد مختلفون دليل على أن القدرة توعته بحسب تنوع
 الغذاء ، كما يختلف طعمه بحسب اختلاف المراعى ؛ ومن هذا المعنى قول زينب للنبي صلى الله
 عليه وسلم : « جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعَرَقُطُ^(١) » حين شبهت رائحته برائحة المغافير .

(١) الجرث : الأكل . والعرقط (بالضم) : شجر الطلع ، وله صنف كره الرائحة ، فإذا أكلته النحل حصل في صلبها
 من ريحه . أى شربت صلبا أكلت نحلته من شجر الطلع .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ الضمير للعسل ؛ قاله الجمهور . أى فى العسل شفاء للناس . وروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك والفسراء وابن كيسان : الضمير للقرآن ؛ أى فى القرآن شفاء . النحاس : وهذا قول حسن ؛ أو فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس . وقيل : العسل فيه شفاء ، وهذا القول بين أيضا ؛ لأن أكثر الأشربة والمعجونات التى يتعالج بها أصلها من العسل . قال القاضى أبو بكر بن العربي : من قال إنه القرآن بعيد ما أراه يصح عنهم ، ولو صح نقلا لم يصح عقلا ؛ فإن مساق الكلام كله للعسل ، ليس للقرآن فيه ذكر . قال ابن عطية : وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية يراد بها أهل البيت وبنو هاشم ، وأنهم النحل ، وأن الشراب القرآن والحكمة ، وقد ذكر هذا بعضهم فى مجلس المنصور أبى جعفر العباسى ، فقال له رجل ممن حضر : جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم ، فأضحك الحاضرين وهبت الآخر وظهرت سخافة قوله .

الرابعة — اختلف العلماء فى قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ هل هو على عمومه أم لا ؛ فقالت طائفة : هو على العموم فى كل حال ولكل أحد ، فروى عن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئا إلا جعل عليه عسلا ، حتى الدمل إذا خرج عليه طلى عليه عسلا . وحكى النفاش عن أبى وبرة أنه كان يكتحل بالعسل ويستمشى بالعسل ويتداوى بالعسل . وروى أن عوف بن مالك الأشجى مرض فقيل له : ألا نعالجك ؟ فقال : اتئوتى بالماء ، فإن الله تعالى يقول : « وَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا » ثم قال : اتئوتى بعسل ، فإن الله تعالى يقول : « فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » واتئوتى بزيت ، فإن الله تعالى يقول : « مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ »^(١) بغاموه بذلك كله نخلطه جميعا ثم شربه فبرئ . ومنهم من قال : إنه على العموم إذا خلط بالخل ويطبخ فيأتى شرابا ينفع به فى كل حالة من كل داء . وقالت طائفة : إن ذلك على الخصوص ولا يقتضى العموم فى كل صلة وفى كل إنسان ، بل إنه خبر عن أنه يشفى كما يشفى غيره من

الأدوية في بعض وعلى حال دون حال ؛ ففائدة الآية إخبار منه في أنه دواء لما كثر الشفاء به وصار خليطاً ومُعِيناً للأدوية في الأشربة والمعالجين ؛ وليس هذا بأول لفظ خُصَّصَ فالقرآن مملوء منه ولغة العرب يأتي فيها العام كثيراً بمعنى الخاص والخاص بمعنى العام . ومما يدل على أنه ليس على العموم أن « شفاء » نكرة في سياق الإثبات ، ولا عموم فيها بانفاق أهل اللسان ومحقق أهل العلم ويختلف أهل الأصول . لكن قد حملته طائفة من أهل الصدق والعزم على العموم ، فكانوا يستشفون بالعسل من كل الأوجاع والأمراض ، وكانوا يشفون من ظلمهم ببركة القرآن وبصحة التصديق والإيقان . آين العربي : ومن ضعفت نيته وغلبته على الدين عاذته أخذه مفهوماً على قول الأطباء ، والكلُّ من حَكَمَ القَعَال ما يشاء .

الخامسة — إن قال قائل : قد رأينا من ينفعه العسل ومن يضره ، فكيف يكون شفاء للناس ؟ قيل له : الماء حياة كل شيء وقد رأينا من يقتله الماء إذا أخذه على ما يضاذه من حلة في البدن ، وقد رأينا شفاء العسل في أكثر هذه الأشربة ؛ قال معناه الزجاج . وقد اتفق الأطباء عن بكرة أبيهم على مدح عموم منفعة السَّكَنِجِين في كل مرض ، وأصله العسل وكذلك سائر المعجنات ، على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حَسَمَ داء الإشكال وأزاح وجه الاحتمال حين أمر الذي يَشْتَكِي بطنه بشرب العسل ، فلما أخبره أخوه بأنه لم يزد إلا استطلاقاً أمره بعود الشراب له فبرئ ؛ وقال : « صدق الله وكذب بطن أخيك » .

السادسة — اعترض بعض زنادقة الأطباء على هذا الحديث فقال : قد أجمعت الأطباء على أن العسل يسهل فكيف يوصف لمن به الإسهال ؛ فاجواب أن ذلك القول حق في نفسه لمن حصل له التصديق بنبيه عليه السلام ، فيستعمله على الوجه الذي عينه وفي المحل الذي أمره بمقدنية وحسن طوية ؛ فإنه يرى منفعة ويدرك بركته ، كما قد اتفق لصاحب هذا العسل وغيره كما تقدم . وأما ما حكي من الإجماع فدليل على جهله بالنقل حيث لم يقيد وأطلق . قال الامام أبو عبد الله المازري : ينبغي أن يعلم أن الإسهال يعرض من ضروب كثيرة ، منها الإسهال

(١) السَّكَنِجِين : شراب ستر ؛ أي خل وعسل . (من الألفاظ الفارسية المعربة) .

الحادث عن التَّخْمِ والمِهْضَاتِ؛ والأطباء مجمعون في مثل هذا على أن علاجه بأن يترك للطبيعة وفعلها، وإن احتاجت إلى مُعين على الإسهال أُعِينت مادامت القوة باقية، فأما حبسها فضرر، فإذا وضع هذا قلنا : فيمكن أن يكون ذلك الرجل أصابه الإسهال عن امتلاء ومِهْضَة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بشرب العسل فزاده إلى أن فُتِيت المسألة فوقف الإسهال فوافقه شرب العسل . فإذا خرج هذا عن صناعة الطب أُذِنَ ذلك بمجهول المعترض بتلك الصناعة . قال : ولسنا نستظهر على قول نبيِّنا بأن يصدقهُ الأطباء بل لو كذبوه لكذبناهم ولكفّرناهم وصدّقناه صلى الله عليه وسلم ؛ فإن أوجدونا بالمشاهدة صحة ما قالوه فتفتقر حينئذ إلى تأويل كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخريجه على ما يصح إذ قامت الدلالة على أنه لا يكذب .

السابعة — في قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ دليل على جواز العلاج بشرب الدواء وغير ذلك خلافاً لمن كره ذلك من جَلَّةِ العلماء، وهو يرد على الصوفية الذين يزعمون أن الولاية لا تتم إلا إذا رضى بجميع ما نزل به من البلاء، ولا يجوز له مداواة . ولا معنى لمن أنكر ذلك، روى الصحيح عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” لكل داء دواء فإذا أصيب دواءُ الداءِ برأ باذن الله “ . وروى أبو داود والترمذى عن أسامة بن شريك قال قالت الأعراب : ألا تتداوى يا رسول الله؟ قال : ” نعم . يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحداً “ قالوا : يا رسول الله وما هو؟ قال : ” الهرم “ لفظ الترمذى، وقال : حديث حسن صحيح . وروى عن أبي خزيمة عن أبيه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قللت : يا رسول الله، أرايت رُقِّي نُسْرَقِيها ودواء تتداوى به وتُقاة نَقِيها، هل تُرَدُّ من قَدَرِ الله شيئاً؟ قال : ” هي من قدر الله “ قال : حديث حسن، ولا يعرف لأبي خزيمة غير هذا الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم : ” إن كان في شيء من أدويتكم خير ففى شرطه محجّم أو شربة من عسل أو لَذعة بنار وما أحب أن أكتوى “ أخرجه الصحيح . والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تحصى . وعلى إباحة التداوى والاسترقاء

جمهور العلماء . روى أن ابن عمر اكتبوا من اللقوة ورقى من العرقب . وعن ابن سيرين أن ابن عمر كان يسقى ولده الترياق . وقال مالك : لا بأس بذلك . وقد احتج من كره ذلك بما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دخلت أمة بقضها وقضيضها الجنة كانوا لا يسترقون ولا يكتنون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون " . قالوا : فالواجب على المؤمن أن يترك ذلك اعتصاما بالله وتوكلا عليه وثقة به وانقطاعا إليه ؛ فإن الله تعالى قد علم أيام المرض وأيام الصحة فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا ؛ قال الله تعالى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا » . ومن ذهب إلى هذا جماعة من أهل الفضل والأثر ، وهو قول ابن مسعود وأبي الدرداء رضوان الله عليهما . دخل عثمان بن عفان على ابن مسعود في مرضه الذي قبض فيه فقال له عثمان : ما تشكى ؟ قال ذنوبي . قال : فأتشبهى ؟ قال رحمة ربي . قال : ألا أدهوك طيبيا ؟ قال : الطيب أمرضني ... وذكر الحديث . وسأيت بكلمه في فضل الواقعة إن شاء الله تعالى . وذكر وكيع قال : حدثنا أبو هلال عن معاوية بن قرة قال : مريض أبو الدرداء فعادوه وقالوا : ألا ندعوك طيبيا ؟ قال : الطيب أضعني . وإلى هذا ذهب الربيع بن خثيم . وكره سعيد بن جبسر الرقي . وكان الحسن يكره شرب الأدوية كلها إلا اللبن والعسل . وأجاب الأولون عن الحديث بأنه لا حجة فيه ، لأنه يحتمل أن يكون قصد إلى نوع من الكي مكروه بدليل كي النبي صلى الله عليه وسلم أبيا يوم الأحزاب على أكله لما رُمي . وقال : « الشفاء في ثلاثة » كما تقدم . ويحتمل أن يكون قصد إلى الرقي بما ليس في كتاب الله ، وقد قال سبحانه وتعالى : « وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ » على ما يأتي بيانه . ورقي أصحابه وأمرهم بالرقية ؛ على ما يأتي بيانه .

(١) اللقوة (الفتح) : مرض يمرض للوجه فيه به إلى أحد جانبيه . (٢) الترياق : ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمداجين ، وهو عرقب . (٣) أى دخلوا مجتمعين ، ينقض آثرهم على أولم . وقال ابن الأعرابي : إن النض الحصى الكبار ، والنقض الحصى الصغار ؛ أى دخلوا بالكبير والصغير . (٤) آية ٢٢ سورة الحديد . (٥) الأكل : عرق في وسط القراع . (٦) آية ٨٢ سورة الإسراء .

الثامنة — ذهب مالك وجماعة أصحابه إلى أن لا زكاة في العسل وإن كان مطعوماً مُقْتَنًا . واختلف فيه قول الشافعي، والذي قطع به في قوله الجديدي : أنه لا زكاة فيه . وقال أبو حنيفة بوجوب زكاة العسل في قليله وكثيره؛ لأن النصاب عنده فيه ليس بشرط . وقال محمد بن الحسن : لا شيء فيه حتى يبلغ ثمانية أفران^(١)، والفرق ستة وثلاثون رطلاً من أرطال العراق . وقال أبو يوسف : في كل عشرة أفران زكاة متمسكاً بما رواه الترمذي عن أبي عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « في العسل في كل عشرة أفران زكاة » قال أبو عيسى : في إسناده مقال، ولا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب كبير شيء، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، وبه يقول أحمد وإسحاق، وقال بعض أهل العلم : ليس في العسل شيء .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَةٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي يعتبرون؛ ومن العبرة في النحل بإنصاف النظر وإطاف الفكر في عجيب أمرها . فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة مع البلية الضعيفة، وحذقها باحتياها في تفاوت أحوالها هو الله سبحانه وتعالى؛ كما قال : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » الآية . ثم أنها تأكل الحامض والمُرَّ والحلو والمالح والحشائش الضارة، فيجعله الله تعالى عسلاً حلواً وشفاء، وفي هذا دليل على قدرته .

قوله تعالى : « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْأَعْمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا » إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ بين معناه . (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْأَعْمُرِ) يعني أوداه وأوضعه . وقيل : الذي ينقص قوته وعقله ويصيره إلى الخرف ونحوه . وقال ابن عباس : يعني إلى أسفل العمر، يصير كالصبي الذي لا عقل له؛ والمعنى متقارب . وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ يقول :

(١) في نسخة من الأصل : « نمة أفران » .

”اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمُسْرَمِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبَهْلِ“. وفي حديث سعد بن أبي وقاص ”وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر“ الحديث .
 ترجمه البخاري . (لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا) أى يرجع إلى حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبل من الأمور لفرط الكبر . وقد قيل : هذا لا يكون للمؤمن ، لأن المؤمن لا يتزع عنه علمه . وقيل : المعنى لكيلا يعمل بعد علم شيئا ؛ فمبّر عن العمل بالعلم لاقتفاره إليه ؛ لأن تأخير الكبر في عمله أبلغ من تأخيره في علمه . والمعنى المقصود الاحتجاج على منكرى البعث ، أى الذى رده إلى هذه الحال قادر على أن يميته ثم يحييه .

قوله تعالى : **وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ قُلِ الَّذِينَ فَضَّلُوا بَرَأْدَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴿١٦١﴾

قوله تعالى : (**وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ**) أى جعل منكم غنيا وفقيرا وحرا وعبدًا . (**قُلِ الَّذِينَ فَضَّلُوا**) أى فى الرزق . (**بَرَأْدَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ**) أى لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق شيئا حتى يستوى المملوك والمالك فى المال . وهذا مثل ضربه الله لعبدة الأصنام ، أى إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عبيدى معى سواء ؛ فلما لم يكن يشركهم عبيدهم فى أموالهم لم يحز لهم أن يشاركوا الله تعالى فى عبادة غيره من الأوثان والأصنام وغيرهما مما عبُدوا كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلقه . حكى معناه الطبري ، وقاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم . وعن ابن عباس أيضا أنها نزلت فى نصارى نجران حين قالوا عيسى ابن الله فقال الله لهم « **قُلِ الَّذِينَ فَضَّلُوا بَرَأْدَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** » أى لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتى يكون المولى والعبد فى المال شرعا سواء ، فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم فتجعلون لى ولدا

من عبیدی . ونظیرها « ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ يَمًّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيهِ رَزَقْنَاهُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ » ^(١) على ما يأتي . ودل هذا على أن العبد لا يملك ، على ما يأتي آنفاً ^(٢) .

قوله تعالى : **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِصْيَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ** ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : **(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)** جعل بمعنى خلق ؛ وقد تقدم . **(مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)** يعني آدم خلق منه حواء . وقيل : المعنى جعل لكم من أنفسكم ، أى من جنسكم ونوعكم وعلى خلقكم ؛ كما قال : **« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ »** أى من الآدميين . وفي هذا رد على العرب التي كانت تعتقد أنها كانت تزوج الجن وتباضعها ، حتى روى أن عمرو بن هند تزوج منهم غولاً وكان يخبئها عن البرق لئلا تراه فتشفر ، فلما كان في بعض الليالي لمع البرق وعاينته السحابة فقالت : **عمرو ! ونفرت ، فلم يرها أبدا .** وهذا من أكاذيبها ، وإن كان جائزا في حكم الله وحكمته فهو رد على الفلاسفة الذين ينكرون وجود الجن ويحيلون طعامهم . **(أَزْوَاجًا)** زوج الرجل هي ثانيته ، فإنه فرد فإذا انضافت إليه كانا زوجين ، وإنما جعلت الإضافة إليه دونها لأنه أصلها في الوجود كما تقدم .

(١) آية ٢٨ سورة الروم . يريد بعد قليل . و « آفا » انما تستعمل في الماضي القريب لا في المستقبل القريب . (٢) كذا في نسخ الأصول وأحكام القرآن لابن العربي ، والصواب أنه عمرو بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن ثاؤد ، قال طيابه بن أرفم :

يا قبح الله بن السحابة * عمرو بن يربوع شرار الناس

راجع شرح التور على سقط الزند في شرح بيت أبي العلاء المزدني :

إذا لاح إيماض سقرت وجوها * كافي عمرو والمطلي مسعالي

(٤) السحابة : أُنْخِثَ البيلان .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَيْنَ وَحَفَّةٍ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَيْنَ ﴾ ظاهر في تعديد النعمة في الأنساء ، ووجود الأبناء يكون منهما معا ؛ ولكنه لما كان خلق المولود فيها وانفصاله عنها أضيف إليها ، ولذلك تبعها في الرق والحرية وصار مثلها في المالية . قال ابن العربي : سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء على بن عقيل يقول : إنما تبع الولد الأم في المالية وصار يحكمها في الرق والحرية ؛ لأنه انفصل عن الأب نقطة لقيمة له ولا مالية فيه ولا منفعة ، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلاجل ذلك تبعها . كما لو أكل رجل تمرا في أرض رجل وسقطت منه نواة في الأرض من يد الاكل فصارت نخلة فلأنها ملك صاحب الأرض دون الاكل بإجماع من الأمة لأنها انفصلت عن الاكل ولا قيمة لها .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَحَفَّةٍ ﴾ روى ابن القاسم عن مالك قال وسألته عن قوله تعالى : « بَيْنَ وَحَفَّةٍ » قال : الحفدة الخدم والأعوان في رأي . وروى عن ابن عباس في قوله تعالى : « وَحَفَّةٍ » قال هم الأعوان ، من أعانك فقد حَفَدَكَ . قيل له : فهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم وتقولوه ! أو ما سمعت قول الشاعر :

حَفَدَ الْوَلائدُ حَوْلهنَّ وَأَسابَتْ * بَاكِفِهِنَّ أَزْمَةَ الْأَجْمَالِ

أي أسرعن الخدمة . والولائد : الواحدة وليدة ؛ قال الأعشى :

كَلَفَتْ مَجْهولَهَا نُوقًا يَمَانِيَةً * إِذَا الْحَدَاةُ حَلَّ أَكْسَانَهَا حَفَدُوا ^(١)

أي أسرعوا . وقال ابن عرفة : الحفدة عند العرب الأعوان ، فكل من عمل عملا أطاع فيه وسارع فهو حافد ، قال : ومنه قولهم « إليك نسعى ونحفد » ، والحفدان السرعة . قال أبو عبيد : الحفد العمل والخدمة . وقال الخليل بن أحمد : الحفدة عند العرب الخدم ، وقاله مجاهد . وقال الأزهرى : قيل الحفدة أولاد الأولاد . وروى عن ابن عباس . وقيل الأخشاف ؛ قاله ابن مسعود وعلقمة وأبو الضحا وسعيد بن جبير وإبراهيم ؛

(١) الأكاء : جمع كسى (بالضم) وهو مؤثر العجز .

ومنه قول الشاعر :

فلو أن نفسى طأوغنى لأصيحث * لما حَفَدْتُ ما يُعَدُّ كَثِيرُ
ولكنها نفس على أَيْبَةٍ * عيوف لإصهار اللثام قنودر

وروى زَيْدٌ عن عبد الله قال : الحفدة الأصهار ؛ وقاله إبراهيم ، والمعنى متقارب . قال الأصمعي :
الختن من كان من قبَل المرأة ، مثل أَيْبَا وأخيها وما أشبههما ؛ والأصهار منهما جميعا . يقال :
أصهر فلان إلى بنى فلان وصاهر . وقول عبد الله « هم الأختان » يحتمل المعنيين جميعا .
يحتمل أن يكون أراد أبا المرأة وما أشبهه من أقربائها ، ويحتمل أن يكون أراد وجعل لكم
من أزواجكم بنين وبنات تزوجنهن ، فيكون لكم بسببهن أختان . وقال عكرمة : الحفدة من
نفع الرجل من ولده ؛ وأصله من حَفَدَ يحفد (يفتح العين في الماضي وكسرهما في المستقبل)
إذا أسرع في سيره ؛ كما قال كُثَيْب :

* حَفَدَ الولائد يَنْهِن ... * البيت .

ويقال : حفدت وأحفدت ، لفتان إذا خدست . ويقال : حافد وحَفَدَ ؛ مثل خادم وخَدَمَ ،
وحافد وحفدة مثل كافر وكفرة . قال المهدي : ومن جعل الحفدة الخدم جعله متقطعا
مما قبله ينوي به التقدیم ؛ كأنه قال : جعل لكم حفدة وجعل لكم من أزواجكم بنين .

قلت : ما قاله الأزهرى من أن الحفدة أولاد الأولاد هو ظاهر القرآن بل نصه ؛
الأثرى أنه قال : « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » لجعل الحفدة والبنين منهن .
وقال ابن العربي : الأظهر عندي في قوله « بنين وحفدة » أن البنين أولاد الرجل لصلبته
والحفدة أولاد ولده ، وليس في قوة اللفظ أكثر من هذا ، ويكون تقدير الآية على هذا :
وجعل لكم من أزواجكم بنين ومن البنين حفدة . وقال معناه الحسن .

الثالثة — إذا فرعنا على قول مجاهد وابن عباس ومالك وعلماء اللغة في قولهم إن الحفدة
الخدم والأعوان ، فقد خرجت خدمة الولد والزوجة من القرآن بأبدع بيان ؛ قاله ابن العربي .
روى البخارى وغيره عن سهل بن سعد أن أبا أُسَيْدٍ الساعدى دعا النبي صلى الله عليه وسلم

لمرسة فكانت امرأته خادمهم ... الحديث، وقد تقدم في سورة « هود »^(١) . وفي الصحيح عن عائشة قالت : أنا قلت قلائد بُدِنَ النبي صلى الله عليه وسلم بيدي . الحديث . ولهذا قال صلواتنا : عليها أن تفرش الفراش وتطبخ القدر وتقم الدار ، بحسب حالها وعادة مثلها ؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلَ مِثْلًا مِّنْهَا لَمَثَلِ الْيَمَانِ^(٢) » فكانه جمع لنا فيها السكَن والاستمتاع وضربا من الخدمة بحسب جرى العادة .

الرابعة — ويخدم الرجل زوجته فيما خف من الخدمة ويعينها ، لما روت عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكون في مهنة أهله فإذا سمع الأذان خرج . وهذا قول مالك : ويعينها . وفي أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان ينحسف النمل ويقم البيت ويتعيط الثوب . وقالت عائشة وقد قيل لها : ما كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ؟ قالت : كان بشرا من البشر يقل ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه .

الخامسة — وينفق على خادمة واحدة ، وقيل على أكثر ؛ على قدر الثروة والمنزلة . وهذا أمر دائر على العرف الذي هو أصل من أصول الشريعة ، فإن نساء الأعراب ومسكان البوادي يخدمن أزواجهن في استعذاب الماء وسياسة الدواب ، ونساء الحواضر يخدم المقل منهم زوجته فيما خف ويعينها ، وأما أهل الثروة فيخدمون أزواجهن ويقرفون معهم إذا كان لهم منصب ذلك ؛ فإن كان أمرا مشكلا شرطت عليه الزوجة ذلك ، قشمت أنه قد صرف أنها ممن لا تخدم نفسها فالترم إخدمها ، فينفذ ذلك ويتقطع الدعوى فيه .

قوله تعالى : « وَرَزَقْنَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ » أى من الثمار والحبوب والحيوان . « أَلَيْسَ لِبَاطِلٍ » يعنى الأصنام ؛ قاله ابن عباس . « يُؤْمِنُونَ » قراءة الجمهور بالياء . وقرأ أبو عبد الرحمن بالياء . « وَيُنْعِمَ اللَّهُ » أى بالإسلام . « هُمْ يَكْفُرُونَ » .

(١) راجع ج ٩ ص ٦٨ (٢) آية ١٨٩ سورة الأعراف .

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٦﴾ فَلَا تَضُرُّوْا لِلّٰهِ الْاَمْثَالَ
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمٰوٰتِ) يعنى المطر .
(وَالْأَرْضِ) يعنى النبات . (شَيْئًا) قال الأخفش : هو بدل من الرزق ، وقال الفراء :
هو منصوب بإيقاع الرزق عليه ، أى يعبدون ما لا يملك أن يرزقهم شيئا . (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ)
أى لا يقدرون على شيء ، يعنى الأصنام . (فَلَا تَضُرُّوْا لِلّٰهِ الْاَمْثَالَ) أى لا تشبهوا به هذه
الجمادات ؛ لأنه واحد قادر لا مثل له . وقد تقدم .

قوله تعالى : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا) نبه تعالى على ضلالة المشركين ، وهو منتظم
بما قبله من ذكر نعم الله عليهم وعدم مثل ذلك من آلهتهم . « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا » أى بين
شبهاء ؛ ثم ذكر ذلك فقال : (عَبْدًا مَّمْلُوكًا) أى كما لا يستوى عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره
على شيء ورجل حر قد رزق رزقا حسنا فكذلك أنا وهذه الأصنام . فالذى هو مثال فى هذه
الآية هو عبد بهذه الصفة مملوك لا يقدر على شيء من المال ولا من أمر نفسه ، وإنما
هو مستخر بإرادة سيده . ولا يلزم من الآية أن العبيد كلهم بهذه الصفة ؛ فإن
النكوة والإثبات لا تقتضى الشمول عند أهل اللسان كما تقدم ، وإنما تفيد واحدا ، فإذا كانت
بعد أمر أو نهى أو مضافة إلى مصدر كانت للعموم الشيعى ؛ كقوله : أعتق رجلا ولا تمن

رجلا، والمصدر كاحتاق رقبة، فأى رجل أعتق فقد خرج من عهدته الخطاب، ويصح منه الاستثناء . وقال قتادة : هذا المثل للؤمن والكافر؛ فذهب قتادة إلى أن العبد المملوك هو الكافر؛ لأنه لا ينفع في الآخرة بشيء من عبادته، وإلى أن معنى «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا» المؤمن . والأول طبع الجمهور من أهل التأويل . قال الأصم : المراد بالعبد المملوك الذى ربما يكون أشد من مولاه أسرا وأنضر وجها ، وهو لسيده ذليل لا يقدر إلا على ما أذن له فيه ، فقال الله تعالى ضربا للثال (١) . أى فإذا كان هذا شأنكم وشأن عبيدكم فكيف جعلتم أحمارا مواثا شركاء لله تعالى فى خلقه وعبادته، وهى لا تعقل ولا تسمع .

الثانية — فهم المسلمون من هذه الآية وبما قبلها نقصان رتبة العبد عن الحر فى الملك، وأنه لا يملك شيئا وإن ملك . قال أهل العراق : الرق ينافى الملك، فلا يملك شيئا ألبتة بحال، وهو قول الشافعى فى الحديد، وبه قال الحسن وابن سيرين . ومنهم من قال : يملك إلا أنه ناقص الملك؛ لأن لسيده أن ينتزعه منه أى وقت شاء، وهو قول مالك ومن أتبعه ، وبه قال الشافعى فى القديم . وهو قول أهل الظاهر؛ ولهذا قال أصحابنا : لا تجب عليه عبادة الأموال من زكاة وكفارات ، ولا من عبادات الأبدان ما يقطعه عن خدمة سيده كالسج والجهاد وغير ذلك . وفائدة هذه المسألة أن سيده لو ملكه جارية جاز له أن يطأها بملك اليمين، ولو ملكه أربعين من الغنم خالف عليها الخول لم تجب على السيد زكاتها لأنها ملك غيره، ولا على العبد لأن ملكه غير مستقر . والعراقى يقول : لا يجوز له أن يطأ الجارية، والزكاة فى التصاب واجبة على السيد كما كانت . ودلائل هذه المسئلة للفريقين فى كتب الخلاف . وأدل دليل أنا قوله تعالى : «الله الذى خلقكم ثم رزقكم» فسوى بين العبد والحر فى الرزق والخلق . وقال عليه السلام : «من أعتق عبدا وله مال ...» فأضاف المال إليه . وكان ابن عمر يرى عبده يتسرى فى ماله فلا يعيب عليه ذلك . وروى عن ابن عباس أن عبدا له طلق امرأته طلقين فأمره أن يرجعها بملك اليمين؛ فهذا دليل على أنه يملك ما بيده ويفعل فيه ما يفعل المالك فى ملكه ما لم ينتزعه سيده . والله أعلم .

الثالثة — وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن طلاق العبد بيد سيده ، وعلى أن بيع الأمة طلاقها ؛ معولا على قوله تعالى : « لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ » . قال : فظاهره يفيد أنه لا يقدر على شيء أصلا ، لا على الملك ولا على غيره فهو على عمومته ، إلا أن يدل دليل على خلافه . وفيما ذكرناه عن ابن عمر وابن عباس ما يدل على التخصيص . والله تعالى أعلم .

الرابعة — قال أبو منصور في عقيدته ^(١) : الرزق ما وقع الاغتذاء به . وهذه الآية ترد هذا التخصيص ، وكذلك قوله تعالى : « وَيَمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » ^(٢) ، و « أَتَقْبَحُوا مَا رَزَقْنَاكُمْ » ^(٣) وغير ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « جِئْتُ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُيْحِي » وقوله : « أَرَزَقَ أُمِّي فِي سَنَابِكِ خِيَلِهَا وَأَسِنَّةِ رِمَاحِهَا » . فالغنيمة كلها رزق ، وكل ما صح به الانتفاع فهو رزق ، وهو مراتب : أصلا ما يغذى . وقد حصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوه الانتفاع في قوله : « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَا لِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتُ فَأَنفَيْتُ أَوْ لَبَسْتُ فَأَبْلَيْتُ أَوْ تَصَدَّقْتُ فَأَمْضَيْتُ » . وفي معنى اللباس يدخل الركوب وغير ذلك . وفي السنة المحدثين : السماع رزق ، يتنون سماع الحديث ، وهو صحيح .

الخامسة — قوله تعالى : « وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا » هو المؤمن ، يطيع الله في نفسه وماله . والكافر ما لم ينفق في الطاعة صار كالعبد الذي لا يملك شيئا . « هَلْ يَسْتَوُونَ » أي لا يستوون ، ولم يقل يستويان لكان « من » لأنه أسم مبهم يصلح للواحد والاثنتين والجمع والمذكر والمؤنث . وقيل : « إِنْ عَبْدًا مَمْلُوكًا » ، « وَمَنْ رَزَقْنَاهُ » أريد بهما الشيوع في الجلس . « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أي هو مستحق الحمد دون ما يعبدون من دونه ؛ إذ لا نعمة للاصنام عليهم من يد ولا معروف فتُحمد عليه ، إنما الحمد الكامل لله ؛ لأنه المنعم الخالق . « بَلْ أَكْثَرُهُمْ » أي أكثر المشركين « لَا يَعْلَمُونَ » أن الحمد لي ، وجميع النعمة مني . وذكر الأكثر وهو يريد الجبيع ، فهو خاص أريد به التعميم . وقيل : أي بل أكثر الخلق لا يعلمون ، وذلك أن أكثرهم المشركون .

(١) العقيدة : اسم كتاب لأبي منصور الماتريدي ، وهو محمد بن محمد بن محمود مات بسرقدة ٨٣٣ . راجع كشف الظنون وتاج التراجم في طبقات الحنفية . (٢) آية ٣ سورة البقرة . (٣) آية ٢٥ سورة البقرة .

قوله تعالى : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكُرُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكُرُ) هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوثن ، فالأبكر الذي لا يقدر على شيء هو الوثن ، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى ؛ قاله قتادة وغيره . وقال ابن عباس : الأبكر عبد كان لعثمان رضى الله عنه ، وكان يمرض عليه الإسلام فيأبى ، ويأمر بالعدل عثمان . وعنه أيضا أنه مثل لأبى بكر الصديق ومولى له كافر . وقيل : الأبكر أبو جهل ، والذي يأمر بالعدل عمار بن ياسر العنسي ، وعُتُس (بالنون) حتى من مدحج ، وكان حليفا لبني مخزوم رهط أبى جهل ، وكان أبو جهل يعذبه على الإسلام ويعذب أمه سُمية ، وكانت مولاة لأبى جهل ، وقال لها ذات يوم : إنما آمنت بحمد لأهلك تعيينه لجماله ، ثم طعننا بالرخ في قبيلها فاهت ، فهي أول شهيد مات في الإسلام ، رحما الله . من كتاب النقاش وغيره . وسأيت هذا في آية الإكراه مبينا إن شاء الله تعالى . وقال عطاء : الأبكر أبق بن خلف ، كان لا ينطق بخير . (وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ) أى قومه لأنه كان يؤذيه ويؤذى عثمان بن مظعون . وقال مقاتل : نزلت في هشام بن عمرو بن الحارث ، كان كافرا قليل الخير يهادى النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن الأبكر الكافر ، والذي يأمر بالعدل المؤمن بجملة بجملة ؛ روى عن ابن عباس وهو حسن لأنه يعم . والأبكر الذي لا نطق له . وقيل الذي لا يعقل . وقيل الذي لا يسمع ولا يبصر . وفي التفسير إن الأبكر ها هنا الوثن . بين أنه لا قدرة له ولا أمر ، وأن غيره ينقله ويختبه فهو كل عليه . والله الأمر بالعدل ، الغالب على كل شيء . وقيل : المعنى « وهو كل على مولاة » أى ينقل على وليته وقرباته ، ووبال على صاحبه وابن عمه . وقد يسمى النبي كلاً لنقله على من يكفله ؛ ومنه قول الشاعر :

أَكُولُ لِمَالِ الْكَلِّ قَبْلَ شَبَابِهِ * إِذَا كَانَ عَظَمَ الْكَلِّ غَيْرَ شَدِيدِ

والكَلِّ أيضا الذي لا ولد له ولا والد . والكَلِّ العيال ، والجمع الكُلُول ؛ يقال منه : كَلَّ السَّيِّئُ يَكَلُّ كَلًّا أى غلظت شفرته فلم يقطع . (أَيْتَا يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ) قرأ الجمهور «يُوجِّهُهُ» وهو خط المصحف ؛ أى أيتما يرسله صاحبه لا يأت بخير ، لأنه لا يعرف ولا يفهم ما يقال له ولا يفهم عنه . وقرأ يحيى بن وثاب «أيتما يُوجِّهُهُ» على الفعل المجهول . وروى عن ابن مسعود أيضا «توجَّه» على الخطاب . (هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أى هل يستوى هذا الأبكم ومن يأمر بالعدل على الصراط المستقيم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) تقدم معناه . وهذا متصل بقوله « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى شرع التحايل والتحریم إنما يحسن ممن يحيط بالعواقب والمصالح وأنتم أيها المشركون لا تحيطون بها فلم تتحكون . (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ) وتجاوزون فيها بأعمالكم . والساعة هى الوقت الذى تقوم فيه القيامة ؛ سُميت ساعة لأنها تنفجأ الناس فى ساعة فيموت الخلق بصيحة . واللح : النظر بسرعة ؛ يقال : لحه لحما ولحانا . ووجه التأويل أن الساعة لما كانت آتية ولا بدُّ جعلت من القرب كلمح البصر . وقال الزجاج : لم يرد أن الساعة تأتى فى لمح البصر ، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها ؛ أى يقول للشيء كن فيكون . وقيل : إنما مثل بلمح البصر لأنه يلمح السماء مع ما هى عليه من البعد من الأرض . وقيل : هو تمثيل للقرب ؛ كما يقول القائل : ما السنة إلا لحظة ، وشبهه . وقيل : المعنى هو عند الله كذلك لا عند المخلوقين ؛ دليله قوله : « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَرَأَاهُ قَرِيبًا » . (أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) ليس « أو » للشك بل للتمثيل بأيهما أراد المثل . وقيل : دخلت لشك المخاطب . وقيل : « أو » بمنزلة بل . (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تقدم .

(١) راجع ج ٩ ص ١١٧ (٢) آية ٦ سورة المائدة . (٣) راجع ج ١ ص ٢٢٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : **﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾** ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشيء . وفيه ثلاثة أقاويل : أحدها — لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم . الثاني — لا تعلمون شيئا مما قضى عليكم من السعادة والشقاء . الثالث — لا تعلمون شيئا من منافعكم ، وتم الكلام ، ثم ابتدأ فقال : **﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾** أي التي تعملون بها وتذكرون ، لأن الله جعل ذلك لمبادءه قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم ، أي وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي ، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه ، والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته . والأفئدة : جمع الفؤاد نحو غراب وأغربة . وقد قيل في ضمن قوله « وجعل لكم السمع » إثبات النطق لأن من لم يسمع لم يتكلم ، وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق . وقرا الأعمش وأبن وثاب وحزمة « إمامتكم » هنا وفي النور والزمر والنجم ، بكسر الهمزة والميم ، وأما الكسائي فكسر الهمزة وفتح الميم ، وإنما كان هذا للإتباع . الباقون بضم الهمزة وفتح الميم على الأصل . وأصل الأمهات : أمات ، فزيدت الهاء تأكيداً كما زادوا هاء في أهرقت الماء وأصله أرقط . وقد تقدم هذا المعنى في « الفاتحة » . **﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾** فيه تأويلان : أحدهما — تشكرون نعمه . الثاني — يعني تبصرون آثار صنعه ، لأن إبصارها يؤدي إلى الشكر .

قوله تعالى : **الَّذِينَ يَرْوُوا إِلَى الْطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴿٧٩﴾

(١) في قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ... آية ٦١ (٢) في قوله تعالى : « خلقكم من نفس واحدة ... آية ٦ (٣) في قوله تعالى : « الذين ينجون بآثار الأثم ... آية ٣٢ (٤) رابع جزء ١ ص ١٤٨ طبعة ثانية أرباعية .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرْوُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وابن عامر وحزرة ويعقوب « تروا » بالياء على الخطأ ، واختاره أبو عبيد . الباقون بالياء على الخبر . ﴿ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ مُنْذَلَاتٍ لأمر الله تعالى ، قاله الكلبي . وقيل : « مسخرات » منذلات لمنافعكم . ﴿ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ﴾ الْجَوْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؛ وَأَضَافَ الْجَوَّ إِلَى السَّمَاءِ لارتفاعه عن الأرض . وفي قوله « مسخرات » دليلٌ على مُسَخَّرِ سَخَّرَهَا وَمُدَبَّرِ مَكَّنَهَا مِنَ التَّصَرُّفِ . ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ في حال القبض والبسط والاصطفاف . يبين لهم كيف يعتبرون بها على وحدانيته . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى علامات وعبراً ودلالات . ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله وبما جاءت به رسلهم .

قوله تعالى : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَتُنتَهِأُونَ مِنْهَا فِى صَبَإٍ وَنَسَآءٍ فِيهَا عِشْرَانُ مِائَةٍ (١١) فِيهِ عَشْرُ مَسَآئِلَ :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُم ﴾ معناه صير . وكلُّ ما علاك فأظلك فهو سقف وسما ، وكل ما أَقْلَكَ فهو أرض ، وكلُّ ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار ؛ فإذا انتظمت وأتصلت فهو بيت . وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت ، فذكر أولاً بيوت المدن وهى التى للإقامة الطويلة . وقوله : ﴿ سَكَنًا ﴾ أى يسكنون فيها وتهذا جوارحكم من الحركة ، وقد تحرك فيه وتسكن في غيره ؛ إلا أن القول يخرج على الغالب . وعد هذا في جملة النعم فإنه لو شاء خلق العبد مضطرباً أبداً كالأنفلاك لكان ذلك كما خلق وأراد ، ولو خلقه ساكناً كالأرض لكان كما خلق وأراد ، ولكنه أوجده خلقاً يتصرف للوجهين ، ويختلف حاله بين الحالتين ، وردده كيف وأين . والسَّكَنُ مصدر يوصف به الواحد والجمع . ثم ذكر تعالى بيوت الثقل والرحلة وهى :

الثانية - قال : (وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا) أى من الأنطاع والأدم . (بُيُوتًا) يعنى الخيام والقباب يخف عليكم حملها في الأسفار . (يَوْمَ نَطْعُنْكُمْ) الظعن : سير البادية في الانتجاع^(١) والتحول من موضع إلى موضع ؛ ومنه قول عنترة :

ظعن الذين فراقهم أتوقع * وجرى بينهم الغراب الأقع

والظعن الهودج أيضا ؛ قال :

ألا هل هاجك الأطماع إذ بانوا * وإذ جادت بوشك البين غريان
وقرى بإسكان العين وفتحها كالشعر والشعر . وقيل : يحتمل أن يعم بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف ؛ لأن هذه من الجلود لكونها ثابتة فيها ؛ نحا إلى ذلك ابن سلام . وهو احتمال حسن ، ويكون قوله « وَمِنْ أَصْوَابِهَا » ابتداء كلام ، كأنه قال جعل أظانها ؛ يريد الملابس والوطاء ، وغير ذلك ؛ قال الشاعر :

أهاجتك الظمائن يوم بانوا * بذى الزى الجليل من الأثاث

ويحتمل أن يريد بقوله « من جلود الأنعام » بيوت الأدم فقط كما قدمناه أولا . ويكون قوله « وَمِنْ أَصْوَابِهَا » عطفا على قوله « من جلود الأنعام » أى جعل بيوتا أيضا . قال ابن العربي : « وهذا أمر انتشر في تلك الديار ، وعزبت عنه بلادنا ، فلا تضرب الأخيصة عندنا إلا من الكنان والصوف ، وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم قبة من آدم ، وناهيك من آدم الطائف غلاء في القيمة ، واعتلاء في الصنعة ، وحسنا في البشرة ، ولم يعد ذلك صلى الله عليه وسلم ترفا ولا رآه سرفا ؛ لأنه مما امتن الله سبحانه من نعمته وأذن فيه من متاعه ، وظهرت وجوه منفعته في الاكتنان والاستغلال الذي لا يقدر على الخروج عنه جنس الإنسان . ومن غريب ما جرى أنى زرت بعض المترهدين من الغالطين مع بعض المحدثين ، فدخلنا عليه في خباء تكان فعرض عليه صاحبي المحدث أن يحمله إلى منزله ضيفا ، وقال : إن هذا موضع يكثر فيه الحس والبيت أرفق بك وأطيب لنفسى فيك ؛ فقال : هذا الخباء لنا كثير ، وكان

(١) النجعة والانتجاع : طلب الكلاء ومساقط النيث .

في صنعنا من الحقيق؛ فقلت : ليس كما زعمت ! فقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رئيس الزهاد قبة من آدم طائفي يسافر معها ويستظل بها؛ فُبهِت ، ورأيت على منزلة من التي فتركته مع صاحبي وخرجت عنه » .

الثالثة - قوله تعالى : (وَمِنْ أَصْوَارِهَا وَأَوْبَارَهَا وَأَشْعَارِهَا) أذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووبر الإبل وشعر المعز، كما أذن في الأعظم، وهو ذبحها وأكل لحومها، ولم يذكر القطن والكتان لأنه لم يكن في بلاد العرب المخاطبين به، وإنما عُدَّ عليهم ما أنعم به عليهم، وخطبوا فيما عرفوا بما فهموا . وما قام مقام هذه وناب منابها فيدخل في الاستعمال والنعمة مدخلها؛ وهذا كقوله تعالى : « وَيَتَرَلَّى مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ » ؛ فخطبهم بالبرد لأنهم كانوا يعرفون نزوله كثيرا عندهم، وسكت عن ذكر الثلج؛ لأنه لم يكن في بلادهم، وهو مثله في الصفة والمنفعة، وقد ذكرهما النبي صلى الله عليه وسلم معاً في التطهير فقال : « اللَّهُمَّ اغْسِلْ بِيَاءٍ وَثَلْجٍ وَبَرَدٍ » . قال ابن عباس : الثلج شيء أبيض يتزل من السماء وما رأيت قط . وقيل : إن ترك ذكر القطن والكتان إنما كان إصراراً عن الترف؛ إذ لم يكن عباد الله الصالحين إنما هو الصوف . وهذا فيه نظر؛ فإنه سبحانه يقول : « يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ » حسبما تقدم بيانه في « الأعراف » . وقال هنا : « وَجَعَلَ لَكُم مَرَايِلَ » فأشار إلى القطن والكتان في لفظة « سراييل » والله أعلم . و (أَنَاثَا) قال الخليل : متاعاً منضياً بعضه إلى بعض؛ من أث إذا أكثر . قال :

وَفَرِجَ يَزِينُ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ * أَتَيْتُ كَفَيْنِي النَخْلَةَ الْمُتَعَتِكِلَ (٣)

ابن عباس : « أَنَاثَا » ثيابا . وقد تقدم . وتضمنت هذه الآية جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال ، ولذلك قال أصحابنا : صوف الميتة وشعرها طاهر يجوز

(١) آية ٣٤ سورة النور . (٢) رابع ج ٧ ص ١٨٢ طبعه أول أو ثمانية . (٣) البيت من معلقة امرئ القيس . والفرج : الشعر المتم . والمتن والمنته : ما عن يمين الصلب وشماله من الصلب والحجم . والفاحم : الشديد السواد . والتنو (بالكسر والضم) : المذق وهو الشمرائح . والمتشكل : الذي قد دخل بعضه في بعض لكثرة .

الانتفاع به على كل حال ، ويفسل مخافة أن يكون طَلِقَ به ومنح ؛ وكذلك روت أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا بأس بجسد الميتة إذا دُبغ وصوفها وشعرها إذا غُسل " لأنه مما لا يَحِلُّه الموت ، وسواء كان شعر ما يؤكل لحمه أو لا ، كشعر ابن آدم والخنزير ، فإنه طاهر كله ؛ وبه قال أبو حنيفة ، ولكنه زاد علينا فقال : القرن والسن والعظم مثل الشعر ، قال : لأن هذه الأشياء كلها لا روح فيها فلا تتجس بموت الحيوان . وقال الحسن البصري - واليث بن سعد والأوزاعي - : إن الشعور كلها نجسة ولكنها تطهر بالغسل . وعن الشافعي ثلاث روايات : الأولى - طاهرة لا تتجس بالموت . الثانية - تتجس . الثالثة - الفرق بين شعر ابن آدم وغيره ، فشعر ابن آدم طاهر وما عداه نجس . ودلينا عموم قوله تعالى : « ومن أوصافها » الآية . فمن علينا بأن جعل لنا الانتفاع بها ، ولم يخص شعر الميتة من المذكاة ، فهو عموم إلا أن يمنع منه دليل . وأيضا فإن الأصل كونها طاهرة قبل الموت بإجماع ، فمن زعم أنه انتقل إلى نجاسة فعليه الدليل . فإن قيل قوله : « حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الميتة » وذلك عبارة عن الجملة . قلنا : نخصه بما ذكرنا ؛ فإنه منصوب عليه في ذكر الصوف ، وليس في آيتكم ذكره صريحا ، فكان دليلنا أولى . وأقنه أعلم . وقد عول الشيخ الإمام أبو إسحاق إمام الشافعية ببغداد على أن الشعر جزء متصل بالحيوان خلقه ، فهو ينمى بنمائه ويتجس بموته كسائر الأجزاء . وأجيب بأن النماء ليس بدليل على الحياة ؛ لأن النبات ينمى وليس ينمى . وإذا عولوا على النماء المتصل لما على الحيوان عولنا نحن على الإبانة التي تدل على عدم الإحساس الذي يدل على عدم الحياة . وأما ما ذكره الحنفية في العظم والسن والقرن أنه مثل الشعر ، فالمشهور عندنا أن ذلك نجس كاللحم . وقال ابن وهب مثل قول أبي حنيفة . ولنا قول ثالث - هل تلحق أطراف القرون والأظلاف بأصولها أو بالشعر ، قولان . وكذلك الشعري من الريش حكمه حكم الشعر ، والعظمي منه حكمه حكمه . ودلينا قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تتنعموا من الميتة بشيء " وهذا عام فيها وفي كل جزء منها ، إلا ما قام دليسه ؛ ومن الدليل القاطع على ذلك قوله تعالى : « قال من يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ^(١) » ،

وقال تعالى: «وَأَنْظِرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا» ، وقال: «فَكَسُونَا الْعِظَامَ لَحْمًا» ، وقال: «أَنْتَدَأُ كُنَّا عِظَامًا تَحْرَةً»^(١) ، فالأصل هي العظام ، والروح والحياة فيها كما في اللحم والجلد . وفي حديث عبد الله بن عكيم: «لا تتفصوا من الميتة بإهاب ولا عصب» . فإن قيل: قد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في شاة ميونة: «أَلَا انتفختم بجلدها» ؟ فقالوا: يا رسول الله ، إنها ميتة . فقال: «إِنَّمَا حَرَّمَ أَكْلَهَا» والعظم لا يؤكل . قلنا: العظم يؤكل ، وخاصة عظم الجمل الرضيع والجذى والطير ، وعظم الكبير يشوى ويؤكل . وما ذكرناه قبل يدل على وجود الحياة فيه ، وما كان طاهرا بالحياة ويستباح بالذكاة ينجس بالموت . والله أعلم .

الرابعة — قوله تعالى: (مِنْ جُلُودِ الْإِنْعَامِ) عام في جلد الحي والميت ، فيجوز الانتفاع بجلود الميتة وإن لم تدبغ ، وبه قال ابن شهاب الزهري والليث بن سعد . قال الطحاوي: لم نجد عن أحد من الفقهاء جواز بيع جلد الميتة قبل الدباغ إلا عن الليث . قال أبو عمر: يعني من الفقهاء أئمة الفتوى بالأمصار بعد التابعين ، وأما ابن شهاب فذلك عنه صحيح ، وهو قول إياه جمهور أهل العلم . وقد روى عنهما خلاف هذا القول ، والأول أشهر .

قلت: قد ذكر الدارقطني في مسنده حديث يحيى بن أيوب عن يونس وعقيل عن الزهري ، وحديث ببيعة عن الزبيدي ، وحديث محمد بن كثير العبدى وأبى سلمة المنقرى عن سليمان بن كثير عن الزهري ، وقال في آخرها: هذه أسانيد صحاح .

السادسة — اختلف العلماء في جلد الميتة إذا دبغ هل يطهر أم لا ، فذكر ابن عبد الحكم عن مالك ما يشبه مذهب ابن شهاب في ذلك . وذكره ابن خُوَيْرِ مَنَاد في كتابه عن ابن عبد الحكم أيضا . قال ابن خُوَيْرِ مَنَاد: وهو قول الزهري والليث . قال: والظاهر من مذهب مالك ما ذكره ابن عبد الحكم ، وهو أن الدباغ لا يطهر جلد الميتة ، ولكن يبيح الانتفاع به في الأشياء اليابسة ، ولا يصلى عليه ولا يؤكل فيه . وفي المدونة لابن القاسم

(١) آية ٢٥٩ سورة البقرة . (٢) آية ١٤ سورة المؤمنون . (٣) آية ١١ سورة النازعات .

(٤) اضطربت الأصول في هذه المسائل .

« من اغتصب جلد ميتة غير مدبوغ فآلفه كان عليه قيمته » وحكى أن ذلك قول مالك .
 وذكر أبو الفرج أن مالكا قال : من اغتصب لرجل جلد ميتة غير مدبوغ فلا شيء عليه .
 قال إسماعيل : إلا أن يكون لمجوسى . وروى ابن وهب وابن عبد الحكم عن مالك جواز بيعه ، وهذا في جلد كل ميتة إلا الخنزير وحده ؛ لأن الزكاة لا تعمل فيه ، فالدباغ أولى .
 قال أبو عمر : وكل جلد ذكئ بغائر استعماله للوضوء وغيره . وكان مالك يكره الوضوء في إناء جلد الميتة بعد الدباغ على اختلاف من قوله ، ومرة قال : إنه لم يكرهه إلا في خاصة نفسه ، وتركه الصلاة عليه وبيعته ، وتأبى على ذلك جماعة من أصحابه . وأما أكثر المسلمين فعلى إباحة ذلك وإجازته ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما إهاب دبغ فقد طهر » ، وعلى هذا أكثر أهل الحجاز والعراق من أهل الفقه والحديث ، وهو اختيار ابن وهب .

السابعة — ذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه إلى أنه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة في شيء وإن دبت ؛ لأنها كلهم الميتة . والأخبار بالانتفاع بعد الدباغ تردّ قوله . واحتج بحديث عبد الله بن عكيم — رواه أبو داود — قال : قرئ علينا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرض جهينة وأنا غلام شاب : « ألا تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عصب » . وفي رواية : « قبل موته بشهر » . رواه القاسم بن غيمرة عن عبد الله بن عكيم ، قال : حدثنا مِشْخِةٌ لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إليهم ... قال داود بن علي : سألت يحيى بن معين عن هذا الحديث فضعه وقال : ليس بشيء ، إنما يقول حدثى الأشياء . قال أبو عمر : ولو كان ثابتاً لاحتمال أن يكون مخالفاً للأحاديث المروية عن ابن عباس وعائشة وسلمة بن الحُبَيْق وغيرهم ، لأنه جائز أن يكون معنى حديث ابن عكيم « ألا تنفعوا من الميتة بإهاب » قبل الدباغ ؛ وإذا احتمل ألا يكون مخالفاً فليس لنا أن نجعله مخالفاً ، وطينا أن نستعمل الخبرين ما أمكن ، وحديث عبد الله بن عكيم وإن كان قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بشهر كما جاء في الخبر فيمكن أن تكون قصة ميمونة وسماع ابن عباس منه « أيما إهاب دبغ فقد طهر » قبل موته بجمعة أو دون جمعة ، والله أعلم .

الثامنة - المشهور عندها أن جلد الخنزير لا يدخل في الحديث ولا يتناوله العموم، وكذلك الكلب عند الشافعي. وعند الأوزاعي وأبي ثور : لا يطهر بالدباغ إلا جلد ما يؤكل لحمه . وروى مَعْن بن عيسى عن مالك أنه سئل عن جلد الخنزير إذا دبغ فكرهه . قال ابن وَصَّاح : وصمت مُخْتُونًا يقول لا بأس به ؛ وكذلك قال محمد بن عبد الحكم وداود بن علي وأصحابه ؛ لقوله عليه السلام : ^(١) «أَيُّ مَسْكٍ دَبِغَ قَدَّ طَهَرَ» . قال أبو عمر : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِهَذَا الْقَوْلِ مَعْمُومِ الْجُلُودِ الْمَعْمُودِ الْإِنْتِفَاعَ بِهَا ، فَأَمَّا الْخَنزِيرُ فَلَمْ يَدْخُلِ فِي الْمَعْنَى لِأَنَّهُ غَيْرُ مَعْمُودٍ الْإِنْتِفَاعَ بِجِلْدِهِ ، إِذْ لَا تَعْمَلُ فِيهِ الذِّكَاةُ . ودليل آخر وهو ما قاله النَّصْرُ بْنُ شَيْبَةَ : إن الإهاب جلد البقر والغنم والإبل ، وما عداه فإنما يقال له : جلد لا إهاب .

قلت : وجلد الكلب وما لا يؤكل لحمه أيضا غير معهود الانتفاع به فلا يطهر؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : ^(٢) «أَكَلُ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ حَرَامٌ» فليست الذكاة فيها ذكاة ، كما أنها ليست في الخنزير ذكاة . وروى النَّسَائِيُّ عَنْ الْمُقَدِّمِ بْنِ مَعْدٍ يَكْرُبُ قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ وَمِثْرَةِ الْخَمْرِ . ^(٣)

التاسعة - اختلف الفقهاء في الدباغ التي تطهر به جلود الميتة ما هو ؟ فقال أصحاب مالك وهو المشهور من مذهبه : كل شيء دبغ الجلد من ملح أو قَرظ أو شَبَّ أو غير ذلك فقد جاز الانتفاع به . وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه ، وهو قول داود . وللشافعي في هذه المسئلة قولان : أحدهما - هذا ، والآخر أنه لا يُطَهَّرُ إِلَّا الشَّبُّ وَالْقَرْظُ ؛ لِأَنَّهُ الدَّبَاغُ الْمَعْمُودُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَلَيْهِ نَحَرَجُ الْخَطَأِيَّ - والله أعلم - ما رواه النَّسَائِيُّ عَنْ مِيمُونَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مَرَّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَمْشُونَ شَاةَ لَحْمٍ مِثْلَ الْحَصْبَانِ ؛ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ^(٤) «لَوْ أَخَذْتُمْ إِهَابَهَا» قَالُوا : إِنِّهَا مَيْتَةٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ^(٥) «يُطَهِّرُهَا الْمَاءُ وَالْقَرْظُ» .

(١) المسك (بالتفتح وسكون السين) : الجلد . ونخص بعضهم به جلد السفلة ، ثم كثر حتى صار كل جلد مسكاً ، واجتمع مسك وسوك . (٢) أى عن أن تخرش جلودها على السرج والرجال لجلوس عليها لما فيه من التكبر ، أو لأنه ذى العجم ، أو لأن الشعر نجس لا يقبل الدباغ . (عن شرح سنن النسائي) .

المباشرة - قوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُوا)) الأثاث متاع البيت ، واحدها أَثَاثُهُ ؛ هذا قول أبي زيد الأنصاري . وقال الأموي : الأثاث متاع البيت ، وجمعه أَثَاةٌ وَأَثٌّ . وقال غيرهما : الأثاث جميع أنواع المال ولا واحده من لفظه . وقال الخليل : أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعض حتى يكثر ؛ ومنه شعر أثير أي كثير . وَأَثَّ شعر فلان يَأَثُّ أَثًّا إذا كثرت والتفت ؛ قال امرؤ القيس :

وَفَرَّجَ يَزِينَ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ * أَثِثْتُ كَفَيْنَا النَّحْلَةَ الْمُتَعَثِّلَ

وقيل : الأثاث ما يلبس ويفترش ، وقد تأثت إذا اتخذت أَثَاثًا ، وعن ابن عباس رضي الله عنه « أَثَاثًا » مَالًا . وقد تقدم القول في الحين ؛ وهو هنا وقت غير معين بحسب كل إنسان ، إما بموته وإما بفقد تلك الأشياء التي هي أَثَاثٌ . ومن هذه اللفظة قول الشاعر :

أَهَاجَتِكَ الظُّعْمَانُ يَوْمَ بَانُوا * بِذِي الرِّزَى الْجَبِلِ مِنَ الْأَثَاثِ

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرُبِيلًا تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسُرُبِيلًا تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ (٨١)

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ ظِلَالًا)) الظَّلَال : كل ما يستظل به من البيوت والأشجار . وقوله ﴿ مِّمَّا خَلَقَ)) يعم جميع الأشخاص المظلة .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ أَكْنَانًا)) الأَكْنَان : جمع كَنٍّ ، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك ؛ وهي هنا الغيران في الجبال ، جعلها الله علةً للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها . وفي الصحيح أنه عليه السلام كان في أول أمره يتعبد بنار حراء ويمكث فيه الليالي ... الحديث . وفي صحيح البخاري قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم

من مكة مهاجرا هاربا من قومه فارا بدنه مع صاحبه أبي بكر حتى لحقا بنهار في جبل تور ، فكثنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما فيه عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ^(١) ثَقِفَ لَقْنِ فَيُدْجِجُ مِنْ عِنْدَهُمَا بِسَحَرٍ فَيَصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَأَنَّهُمْ فَلَاسِمِعُ أَمْرًا يَكَادِبَانِ بِهِ إِلَّا وَاهَ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبْرٍ ذَلِكَ حِينَ يَخْطُلُ الظَّلَامُ ، وَوَرَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ نُفَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مُنْعَةً ^(٢) مِنْ غَمٍّ فَيُرِيحُهُمَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَيَبْتَئَانِ فِي رَيْسِلٍ ، وَهُوَ لَبَنٌ مِنتَحِنُهُمَا وَرَضِيْفُهُمَا حَتَّى يَنْقُ بِهِمَا عَامِرُ بْنُ نُفَيْرَةَ بَقْلَسَ ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ ... وَذَكَرَ الْحَدِيثُ .
انفرد بإخراجه البخارى .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ سِرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرْبَ ﴾ يعنى القمص ، واحدها سربال . ﴿ وَسِرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ يعنى الدروع التى تقى الناس فى الحرب ؛ ومنه قول كعب بن زهير :

شُمُّ الْعَرَانِينَ أَبْطَالَ لُبُوسَهُمْ * مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ فِي الْحَيَا سِرَابِيلُ

الرابعة — إن قال قائل : كيف قال « وجعل لكم من الجبال أكثانا » ولم يذكر السهل ، وقال « تقيكم الحرب » ولم يذكر البرد ؟ فالجواب أن القوم كانوا أصحاب جبال ولم يكونوا أصحاب سهل ، وكانوا أهل حر ولم يكونوا أهل برد ، فذكر لهم نعمه التى تختص بهم كما خصهم بذكر الصوف وغيره ، ولم يذكر القطن والكتان ولا التلج — كما تقدم — فإنه لم يكن ببلادهم ؛ قال معناه عطاء الخراسانى وغيره . وأيضا : فذكر أحدهما يدل على الآخر ؛ ومنه قول الشاعر :

وَمَا أَدْرَى إِذَا تَجَمَّتْ أَرْضًا * أُرِيدَ الْخَيْرُ أَيْهَامَا يَلْفِي

الْخَيْرِ الَّذِى أَنَا أَبْتَفِيهِ * أَمْ الشَّرُّ الَّذِى هُوَ يَتَفَنِي

الخامسة — قال العلماء : فى قوله تعالى : ﴿ وَمَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ دليل على اتخاذ العباد عدة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء ، وقد لبسها النبى صلى الله عليه وسلم تقاة

(١) أى حاذق سريع الفهم . (٢) من الكيد ؛ أى يطلب لها ما فيه المكروه . (٣) أى شاة تحلب إناء بالنداء وإناء بالمشى . (٤) الرضيف : اللبن المروض ، وهو الذى طرح فيه الجارة المحلاة ليذهب رنجه .

الجراحة وإن كان يطلب الشهادة، وليس للعبد أن يطلبها بأن يستسلم للخنوف وللطنم بالسنان والضرب بالسيوف، ولكنه يلبس لامة حرب لتكون له قوة على قتال عدوه، ويقاىل لتكون كلمة الله هي العليا، ويفعل الله بعد ما يشاء .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُمِيزُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ قرأ ابن محيصة وحيد « تم » بتاءين ، « نعمته » رفعا على أنها الفاعل . الباقون « يم » بضم الياء على أن الله هو يمتها . و « تسلمون » قراءة ابن عباس وعكرمة « تسلمون » بفتح التاء واللام ، أى تسلمون من الجراح ، وإسناده ضعيف ؛ ورواه عباد بن المؤام من حفظة عن شهر بن ابن عباس . الباقون بضم التاء ، ومعناه تستسلمون وتتقادون إلى معرفة الله وطاعته شكرا على نعمه . قال أبو عبيد : والاختيار قراءة العائنة ؛ لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح .

قوله تعالى : فَلْيَنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى أمرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان . ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ ﴾ أى ليس عليك إلا التبليغ ، وأما الهداية فإلينا .

قوله تعالى : يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ قال السدسى : يعنى حمدا صلى الله عليه وسلم ، أى يعرفون نبوته ﴿ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ وينكرونها . وقال مجاهد : يريد ما عتد الله عليهم فى هذه السورة من النعم ؛ أى يعرفون أنها من عند الله وينكرونها بقولهم إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم . ومثله قال قتادة . وقال عون بن عبد الله : هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا ، ولولا فلان ما أصبت كذا ، وهم يعرفون النفع والضر من عند الله . وقال الكلبي : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرفهم بهذه النعم كلها عرفوها وقالوا : نعم ، هى كلها نعم من الله ، ولكنها (١) لامة الحرب ؛ أداته ؛ وقد ترك المزمع تحقيقا .

بشفاعة أهلكنا . وقيل : يعرفون نعمة الله بتقلبهم فيها ، وينكرونها بترك الشكر عليها . ويحتمل سادسا — يعرفونها في الشدة وينكرونها في الرخاء . ويحتمل سابعا — يعرفونها بأقوالهم وينكرونها بأفعالهم . ويحتمل ثامنا — يعرفونها بقلوبهم ويصيحدونها بالستمهم ؛ نظيرها « وَبَخَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَّا أَنْفُسَهُمْ » (وَأَكْثَرَهُمُ الْكَافِرُونَ)) يعنى جميعهم ؛ حسبما تقدم .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿١٨٤﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) نظيره : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ » وقد تقدم . (ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) أى فى الاعتذار والكلام ؛ كقوله : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ » (١٨٣) . وذلك حين تطبق عليهم جهنم ، كما تقدم فى أول « الحجر » وياى . (وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) يعنى يسترضون ، أى لا يكلفون أن يرضوا ربهم ، لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون . وأصل الكلمة من العتب وهى الموجبة ؛ يقال : عتب عليه يعتب إذا وجد عليه ، فإذا فاوضه ماعتب عليه فيه قيل طابه ، فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب ، والاسم العتبي وهو رجوع المعتوب طيه إلى ما يرضى العاتب ؛ قاله الحرورى . وقال النابغة :

فإن كنتَ مظلوماً فعبداً ظلمته * وإن كنتَ ذا عتبي فثلثك يُعتبُ

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٨٥﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى أشركوا . (الْعَذَابَ) أى عذاب جهنم بالدخول فيها . (فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) أى لا يمهلون ؛ إذ لا توبة لهم ثم .

(١) آية ١٤ سورة النمل . (٢) آية ٤١ سورة النساء . راجع به ص ١٩٧ طبة أدل أو ثمانية .

(٣) آية ٣٦ سورة المرسلات .

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٧﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ) أى أصنامهم وأوثانهم التى عبدوها ، وذلك أن الله يبعث معبودهم فيبعونهم حتى يوردوهم النار . وفى صحيح مسلم : " من كان يعبد شيئا فليتبَّعه فيتَّبِع من كان يعبد الشمس الشمس ويتَّبِع من كان يعبد القمر القمر ويتَّبِع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت " الحديث ، خرجه من حديث أنس ، والترمذى من حديث أبى هريرة ، وفيه : " فَيُمَثِّل لصاحب الصليب صليبه ولصاحب التماوير تماويره ولصاحب النار ناره فيبعون ما كانوا يعبدون " وذكر الحديث . (قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ) أى الذين جعلناهم لك شركاء . (فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ) أى ألقى إليهم الآلهة القول ، أى نطقت بتكذيب من عبدها بأنها لم تكن آلهة ، ولا أمرتهم بعبادتها ، فينطق الله الأصنام حتى تظهر عند ذلك فضيحة الكفار . وقيل : المراد بذلك الملائكة الذين عبدوهم . (وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ) يعنى المشركين ، أى استسلموا لعذابه وخضعوا لعزه . وقيل : استسلم العابد والمعبود واتقادوا لحكمه فيهم . (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أى زال عنهم ما زين لهم الشيطان وما كانوا يؤمنون من شفاعتهم .

قوله تعالى : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٩﴾

(١) ورد هذا الحديث فى صحيح مسلم عن أبى هريرة . راجع كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية .

(٢) راجع الحديث فى سنن الترمذى فى باب صفة الجنة .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ قال ابن مسعود : عقارب أُنْيَاهَا كَالنَّخْلِ الطَّوَالِ، وحيات مثل أَعْنَاقِ الْإِبِلِ، وَأَفَاعِي كَأُنْهِيَ الْبَغَايَةِ^(١) تَضْرِبُهُمْ، فَتَكُ الزِّيَادَةُ . وقيل : المعنى يُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ إِلَى الزَّهْمِ يَرْفِيَادِرُونَ مِنْ شِدَّةِ بَرْدِهِ إِلَى النَّارِ . وقيل : المعنى زِدْنَا الْقَادَةَ عَذَابًا فَوْقَ السُّفْلَةِ، فَأَحَدُ الْعَذَابَيْنِ عَلَى كُفْرِهِمُ وَالْعَذَابِ الْآخِرِ عَلَى صِدْقِهِمْ . ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ ﴾ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ^٢ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَتَزَلَّنَا عَلَيْكَ الْكِتَابُ تَيْبَانًا^٣ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ وهم الأنبياء، شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوا الرسالة ودعَوْهم إِلَى الْإِيمَانِ، فِي كُلِّ زَمَانٍ شَهِيدٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا وَفِيهِمْ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا — أَنَّهُمْ أُمَّةُ الْهِنْدِيِّ الَّذِينَ هُمْ خُلَفَاءُ الْأَنْبِيَاءِ . الثَّانِي — أَنَّهُمُ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ حَفِظُوا اللَّهَ بِهِمْ شُرَائِعَ أَنْبِيَائِهِ .

قلت : فعلى هذا لم تكن فترة إلا وفيها من يوحد الله؛ كقُتَيْبِ بْنِ سَاعِدَةَ، وَزَيْدِ بْنِ عَمْرٍو ابْنِ نُفَيْلٍ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «يُبعَثُ أُمَّةٌ وَحِدَهُ»، وَسَيْطِيعِ^(٢)، وَوَرَقَةَ ابْنِ تَوْفَلٍ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «رَأَيْتُهُ يَنْغَمِسُ فِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ». فَهَؤُلَاءِ وَمَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ حُجَّةً عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِمْ وَشَهِيدًا عَلَيْهِمْ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ « وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ » تَقَدَّمَ فِي الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ .

قوله تعالى : ﴿ وَتَزَلَّنَا عَلَيْكَ الْكِتَابُ تَيْبَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ نظيره : « مَا قَرُطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » وَقَدْ تَقَدَّمَ، فَلْيَنْظُرْ هُنَاكَ . وَقَالَ جَاهِدٌ : تَيْبَانًا لِلْخَلَالِ وَالْحَرَامِ .

(١) الْبَغَايَةُ : جَمَالُ طَوَالِ الْأَعْنَاقِ . (٢) هُوَ كَامِنْ بِنِ ذَيْبٍ ، كَانَ يَتَكَلَّمُ فِي الْخَالِطَةِ ، وَاسْمُهُ : رَيْجُ بْنُ رَيْمَةَ . (رَاجِعِ سِيرَةَ ابْنِ هِشَامٍ ص ٩ طَبْعُ أَوْرِيَا) . (٣) رَاجِعِ ج ٢ ص ١٥٤ طَبْعُ ثَانِيَةِ وَجْهِ ص ١٩٧ طَبْعُ أَوَّلِ أَرْبَعِيَّةٍ . (٤) رَاجِعِ ج ٦ ص ١٩٤ طَبْعُ أَوَّلِ أَرْبَعِيَّةٍ .

قوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴿١٠٣﴾
فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)** روى عن عثمان بن مظعون أنه قال : لما نزلت هذه الآية قرأتها على علي بن أبي طالب رضى الله عنه فتمجّب فقال : يا آل غالب ، اتبعوه فتلحقوا ، فوالله إن الله أرسله ليأمركم بحكام الأخلاق . وفي حديث — إن أبا طالب لما قيل له : إن ابن أخيك زعم أن الله أنزل عليه « **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** » الآية ، قال : اتبعوا ابن أئني ، فوالله إنه لا يأمر إلا بحسن الأخلاق . وقال عكرمة : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على الوليد بن المغيرة « **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** » إلى آخرها ، فقال : يا بن أئني أمد ! فأعاد عليه فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أصله لمؤريق ، وأعله لمشمر ، وما هو بقول بشر ! وذكر التزوي أن عثمان بن مظعون هو القارئ . قال عثمان : ما أسلمت ابتداءً إلا حياة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فاستقر الإيمان في قلبي ، فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال : يا بن أئني أمد ! فأعدت فقال : والله إن له لحلاوة ، ... وذكر تمام الطبر ، وقال ابن مسعود : هذه أجمع آية في القرآن خير عتئل ، ولشر يحتلب . وحكى النقاش قال : يقال زكاة العدل الإحسان ، وزكاة القدرة العفو ، وزكاة الفنى المعروف ، وزكاة الجاه كتب الرجل إلى إخوانه .

الثانية — اختلف العلماء في تأويل العدل والإحسان ؛ فقال ابن عباس : العدل لا إله إلا الله ، والإحسان أداء الفرائض . وقيل : العدل الفرض ، والإحسان النافلة . وقال سفيان بن عيينة : العدل ها هنا استواء السريرة ، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية . علي بن أبي طالب : العدل الإنصاف ، والإحسان التفضل . قال ابن عطية :

العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع في أداء الأمانات، وترك الظلم والإنصاف، وإعطاء الحق . والإحسان هو فعل كل مندوب إليه؛ فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه، ومنها ما هو فرض، إلا أن حدّ الإجزاء منه داخل في العدل، والتكليف الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان . وأما قول ابن عباس ففيه نظر؛ لأن أداء الفرائض هي الإسلام حسبما فسرهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل، وذلك هو العدل، وإنما الإحسان التكيلات والمندوب إليه حسبما يقتضيه تفسير النبي صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فإن صح هذا عن ابن عباس فإنما أراد الفرائض مكملة . وقال ابن العربي: العدل بين العبد وبين ربه إثباتُ حقه تعالى على حفظ نفسه، وتقديمُ رضاه على هواه، والاجتنابُ للزواج والامتنال للآواصر . وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها؛ قال الله تعالى: «وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ» وعُزوبُ الأطماع عن الاتباع، ولزومُ القناعة في كل حال ومعنى . وأما العدل بينه وبين الخلق فبذلُ النصيحة، وتركُ الخيانة فيما قلَّ وكَثُرَ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه، ولا يكون منك إسامة إلى أحد بقول ولا فعل لا في سرٍّ ولا في علن، والصبرُ على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقلُّ ذلك الإنصافُ وترك الأذى .

قلت: هذا التفصيل في العدل حسنٌ وعدل، وأما الإحسان فقد قال علماؤنا: الإحسان مصدر أحسن يُحسن إحساناً . ويقال على معنيين: أحدهما متعد بنفسه؛ كقولك: أحسنت كذا، أى حسنته وكنته، وهو منقول بالهمزة من حسن الشيء . وثانيهما متعد بحرف جر؛ كقولك: أحسنت إلى فلان، أى أوصلت إليه ما ينتفع به .

قلت: وهو في هذه الآية مراد بالمعنيين معاً؛ فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض، حتى أن الطائر في بيئتك والسنور في دارك لا ينبغي أن تقصر تمهده بإحسانك؛ وهو تعالى غنى عن إحسانهم، ومنه الإحسان والنعم والفضل والمنن . وهو في حديث جبريل .

بالمعنى الأول لا بالتاني؛ فإن المعنى الأول راجع إلى إتيان العباد ومراعاتها بأدائها المصححة والمكحلة، ومراقبة الحق فيها، واستحضار عظمته وجلاله حالة الشروع وحالة الاستمرار . وهو المراد بقوله "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ" . وأرباب القلوب في هذه المراقبة على حالين : أحدهما غالب عليه مشاهدة الحق فكأنه يراه . ولعل النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى هذه الحالة بقوله : "وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ" . وثانيهما — لا تتهي إلى هذا ، لكن ينلب عليه أن الحق سبحانه مطلع عليه ومشاهد له ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : «الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقْلِبُكَ فِي السَّجَدِينَ» وقوله : «إِلَّا تَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ لَكَ عِندَ اللَّهِ بَصِيرَةٌ» (١) وقوله : «إِلَّا تَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ لَكَ عِندَ اللَّهِ بَصِيرَةٌ» (٢) .

الثالثة — قوله تعالى : «وَابْتَغِ الْفَرْدَ الْقَرْبَى» أي القرابة ؛ يقول : يعطيهم المال كما قال «وَأَيُّ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ» يعني صلته . وهذا من باب عطف المندوب على الواجب ، وبه استدلل الشافعي في إيجاب إيتاء المكاتب ؛ على ما يأتي بيانه . وإنما خص ذا القربى لأن حقوقهم أؤكد وصلتهم أوجب ؛ لتأكيد حق الرحم التي اشتق الله أسمها من أسمه ، وجعل صلتها من صلته ، فقال في الصحيح : «أَمَّا تَرْضَيْنَ أَنْ أُصِلَ مِنْ وَصْلِكَ وَأُقَطَعَ مِنْ قِطْعِكَ» (٣) ولا سيما إذا كانوا قراء .

الرابعة — قوله تعالى : «وَيَتَنَبَّهْ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ» الفحشاء : الفحش ، وهو كل قبيح من قول أو فعل . ابن عباس : هو الزنى . والمنكر : ما أنكره الشرع بالنهي عنه ، وهو يجمع جميع المعاصي والزنا والذنابات على اختلاف أنواعها . وقيل هو الشرك . والبغي : هو الكبر والظلم والجحد والتعدي ؛ وحقيقته تجاوز الحد ، وهو داخل تحت المنكر ، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماما به لشدة ضرره . وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : "لا ذنب أسرع عقوبةً من بغي" . وقال عليه السلام : "الباغى مصروع" . وقد وعد الله من بغي عليه بالنصر . وفي بعض الكتب المتزلة : لو بقي جبل على جبل لحمل الباغى منهما دكا .

(١) آية ٢١٨ سورة الشعراء . (٢) آية ٦١ سورة يونس . (٣) آية ٢٦ سورة الأنعام .

(٤) راجع صحيح البخاري في كتاب التفسير في سورة محمد وكتاب الأدب والتوحيد ، وصحيح مسلم في كتاب الأدب .

الخامسة - ترجم الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه فقال : (باب قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » ، وقوله : « إنما بئسكم على أنفسكم » ، « ثم بُئِيَ عليه لينصرته الله » ، وترك إثارة الشر على مسلم أو كافر) ثم ذكر حديث عائشة في سحر لبيد ابن الأعصم النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن بطال : فتأول رضى الله عنه من هذه الآيات ترك إثارة الشر على مسلم أو كافر ؛ كما دلَّ عليه حديث عائشة حيث قال عليه السلام : « إنما الله فقد شفانى وأما أنا فأكره أن أثير على الناس شراً » . ووجه ذلك - والله أعلم - أنه تأول في قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الندب بالإحسان إلى المسمى وترك معاقبته على إساءته . فإن قيل : كيف يصح هذا التأويل في آيات البنى . قيل : وجه ذلك - والله أعلم - أنه لما أعلم الله عباده بأن ضرر البنى ينصرف على الباغى بقوله : « إنما بئسكم على أنفسكم » وضمن تعالى نصرة من بُئِيَ عليه ، كان الأولى بمن بُنى عليه شكر الله على ما ضمن من نصرته ومقابلة ذلك بالمغو عن بُنى عليه ؛ وكذلك فعل النبي صلى الله عليه وسلم باليهودى الذى صخره ، وقد كان له الانتقام منه بقوله : « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عُوِِيتُم بِهِ » . ولكن آخر الصنف أخذاً بقوله : « وَلَكِنَّ صَبْرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »^(٢) .

السادسة - تضمنت هذه الآية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد تقدم القول^(٣) فيها . روى أن جماعة رفعت عاملها إلى أبى جعفر المنصور العباسى ، لحاجتها العامل وغلبها ، بأنهم لم يُثبِتُوا عليه كبر ظلم ولا جور فى شيء ؛ فقام قَتَّى من القوم فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإنه عدل ولم يحسن . قال : فعجب أبو جعفر من إصابتها وعزل العامل .

(١) آية ١٢٦ من هذه السورة . (٢) آية ٤٣ سورة الشورى . (٣) راجع ج ٤ ص ٤٧ طبعه أدب أو ثانية .

قوله تعالى : **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** ﴿١٦٩﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ)** لفظة عام لجميع ما يُعقد باللسان ويلزمه الإنسان من بيع أو صلة أو موافقة في أمر موافق للديانة . وهذه الآية مضمن قوله « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » لأن المعنى فيها : افعلوا كذا ، واتهوا عن كذا ؛ فحفظ على ذلك التقدير . وقد قيل : إنما نزلت في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام . وقيل : نزلت في التزام الحلف الذي كان في الجاهلية وجاء الإسلام بالوفاء به ؛ قاله قتادة ومجاهد وأبن زيد ، والعموم يتناول كل ذلك كما بيناه . روى الصحيح عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ وَأَيْمَانُ حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً »** ، يعني في نصرته الحق والقيام به والمواصلة . وهذا كتحويل الحلف الفُضُول الذي ذكره ابن إسحاق قال : اجتمعت قبائل من قريش في دار عبد الله بن جُدعان لشرفه ونسبه ، فعاقدوا وتماهدوا على ألا يجحدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتى تُردَّ عليه مظالمته ؛ فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، أي حلف الفضائل . والفضول هنا جمع فضل للكثرة كفلس وفلوس . روى ابن إسحاق عن ابن شهاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرُ النَّعَمِ لَوْ ادَّعَى بِي فِي الْإِسْلَامِ لِأَجَبْتُ »** . وقال ابن إسحاق : تحامل الوليد بن عتبة على حسين بن علي في مال له ، لسلطان الوليد فإنه كان أميراً على المدينة ؛ فقال له حسين بن علي : **أَحْلِفْ بِاللَّهِ تَنْصِقِي** من حق أو لآخذت سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لأدعوك بحلف الفضول . قال عبد الله بن الزبير : وأنا أحلف والله لئن دُعَاْنَا لَأَخْذَن سَيْفِي ثُمَّ لَأَقُومَنَّ مَعَهُ حَتَّى يَنْتَصِفَ مِنْ حَقِّهِ أَوْ نَمُوتَ بَعِيحًا . وبلغت المِسْوَر بن مَخْرَمَةَ فقال مثل ذلك . وبلغت

(١) في سيرة ابن هشام : « لشرفه » . (٢) في سيرة ابن هشام : « لئن دعا به » .

عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك . فلما بلغ ذلك الوليد أنصفه . قال العلماء : فهذا الحلف الذي كان في الجاهلية هو الذي شته الإسلام وخصه النبي عليه الصلاة والسلام من عموم قوله : « لا حلف في الإسلام » . والحكمة في ذلك أن الشرع جاء بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه وإيصاله إلى المظلوم ، وأوجب ذلك بأصل الشريعة لمحابا عاما على من قدر من المكلفين ، وجعل لهم السبيل على الظالمين فقال تعالى : « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِحَقِّ الْأُولَى » . وفي الصحيح : « أنصر أخاك ظالما أو مظلوما » قالوا : يا رسول الله ، هذا نصره مظلوما فكيف نصره ظالما ؟ قال : « تأخذ على يديه » — في رواية : تمنعه من الظلم — فإن ذلك نصره . وقد تقدم قوله عليه السلام : « إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بمقاب من عنده » .

الثانية — قوله تعالى : (وَلَا تَقْضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا) يقول بعد تشديدها وتخليطها ، يقال : توكد وتأكيد ، ووكد وأكد ، وهما لفتان .

الثالثة — قوله تعالى : (وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْفِيًّا) يعني شهيدا ، ويقال حافظا ، ويقال ضامنا . وإنما قال « بَعْدَ تَوْكِيدِهَا » فرقا بين اليمين المؤكدة بالعزم وبين لغو اليمين . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك : التوكيد هو حلف الإنسان في الشيء الواحد مرارا ، يرد فيه الإيمان ثلاثا أو أكثر من ذلك ، كقوله : والله لا أنقصه من كذا ، والله لا أنقصه من كذا ، والله لا أنقصه من كذا . قال : فكفارة ذلك واحدة مثل كفارة اليمين . وقال يحيى بن سعيد : هي اليهود ، والعهد يمين ، ولكن الفرق بينهما أن العهد لا يكفر . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يُنْتَصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ أَسْتِهِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ يَقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ » . وأما اليمين بالله فقد شرع الله سبحانه فيها الكفارة بمخضلة واحدة ، وحل ما انعقدت عليه اليمين . وقال ابن عمر : التوكيد هو أن يحلف مرتين ، فإن حلف واحدة فلا كفارة فيه . وقد تقدم في المائدة .^(٢٢)

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَخْذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٧١﴾

قوله تعالى : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا) النقص والنكت واحد، والاسم النكت والنقض، والجمع الأنكاث . فشبهت هذه الآية الذي يخلف ويماهد ويبرم عهده ثم يتقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله مُحْكَمًا ثم تُخْلَعُ . ويرى أن امرأة حقاء كانت بمكة تسمى رَيْطَلَة بنت عمرو بن كعب بن مسعد بن تيم بن مُرَّة كانت تفعل ذلك، فيها وقع التشبيه؛ قاله الفراء، وحكاه عبد الله بن كثير والسدسي ولم يسميا المرأة، وقال مجاهد وقتادة : وذلك ضَرْبٌ مِثْلُ، لا على امرأة معينة . و «أنكاثا» نصب على الحال . والدخَل : الدخُل والخديعة والغش . قال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا فهو دَخَل . (أَنَّ تَكُونُ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ) قال المفسرون : نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حلفت أخرى ، ثم جاءت إحداها قبيلة كثيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى وهضمت ههنا ورجعت إلى هذه الكبرى — قاله مجاهد — فقال الله تعالى : لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى أو أكثر أموالا فتنتقضون أيمانكم إذا رأيتم الكثرة والسعة في الدنيا لأعدائكم المشركين . والمقصود النهي عن العود إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم . وقال الفراء : المعنى لا تنفذوا بقرور لقلوبكم وكثرتكم أو لقلوبكم وكثرتهم ، وقد عززتموهم بالإيمان . (أَرْبَىٰ) أى أكثر؛ من رَبَا الشيء يربو إذا كثر . والضمير في « به » يحتمل أن يعود على الوفاء الذي أمر الله به . ويحتمل أن يعود على الرباء ؛ أى أن الله تعالى ابتلى عباده بالتماسد وطلب بعضهم الظهور على بعض، واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد نفسه فيخالقها ممن يتبعها ويعمل بمقتضى هواها ، وهو معنى قوله : (إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) من البعث وغيره .

قوله تعالى : وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) أى على ملة واحدة . (وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ) بخلافه إياهم ؛ صدلاً منه فيهم . (وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) بتوفيقه إياهم ؛ فضلاً منه عليهم ، ولا يُسأل عما يفعل بل تسألون أتم . والآية ترد على أهل القدر كما تقدم . واللام في « وليبين ولتسألن » مع النون المشددة يدلان على قسم مضمر ، أى والله يبين لكم ولتسألن .

قوله تعالى : وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : (وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ) كرر ذلك تأكيداً . (فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا) بمبالغة في النهي عنه لعظم موقعه في الدين وتردده في معاشرات الناس ؛ أى لا تعقدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد فتزِلَّ قدم بعد ثبوتها ، أى عن الأيمان بعد المعرفة بالله . وهذه استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه ؛ لأن القدم إذا زَلَّتْ نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر ؛ ومن هذا المعنى قول كثير :

• فلما توافينا أثبت وزلت •

والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية أو ساقط في ورطة : زَلَّتْ قدمه ؛ كقول الشاعر :

سَمِعْتُكَ مِنْكَ السَّبْقُ إِنْ كُنْتَ سَابِقًا • وَتَقْسِلُ إِنْ زَلَّتْ بِكَ الْقَدَمَانِ

ويقال لمن أخطأ في شيء : زَلَّ فيه . ثم تَوَعَّدَ تعالى بعدُ بعذاب في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة . وهذا الوعيد إنما هو فيمن نقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن من عاهد ثم نقض عهده نرجع عن الإيمان ، ولهذا قال : (وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أى بصدكم . وتذوق السوء في الدنيا هو ما يحل بهم من المكروه .

قوله تعالى : وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : (وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) نهي عن الرشا وأخذ الأموال على قرض العهد ، أى لا تنقضوا عهودكم لقرض قليل من الدنيا . وإنما كان قليلا وإن كثرت لأنه مما يزول ، فهو على التحقيق قليل ، وهو المراد بقوله : « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » فبين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفد وتحول ، وما عند الله من مواهب فضله ونعيم جنته ثابت لا يزول لمن وقى بالعهد وثبت على المقد . ولقد أحسن من قال :

المالُ يَنْفَدُ حِلَّهُ وحرامه * يوما وتبقى في غيد آثامه

ليس التقيُّ يَمُتُّ لِلْأَهْلِ * حتى يطيب شرابه وطعامه ^(١)

آخر :

هَيْبَ الدُّنْيَا تَسَاقُ إِلَيْكَ حَقًّا * أليس مصير ذلك إلى انتقال

وما دنيالك إلا مثلُ فيءٍ * أظلمك ثم آذنب بالزوال

قوله تعالى : (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا) أى على الإسلام والطاعات وعن المصاعى . (أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى من الطاعات ، وجعلها أحسن لأن ما عداها من الحسن مباح ، والجزاء إنما يكون على الطاعات من حيث الوعد من الله . وقرأ عاصم وابن كثير « وَلَنَجْزِيَنَّ » بالنون على التعظيم . الباقون بالياء . وقيل : إن هذه الآية « وَلَا تَشْتَرُوا » إلى هنا نزلت في امرئ القيس بن عابس الكندى وخصمه ابن أسوع ، اختصما في أرض فأراد أسوع امرئ القيس أن يخلف فلما سمع هذه الآية نكل وأقر له بحقه ، والله أعلم .

(١) في نسخ الأصل : * ليس التقي بمن يمر بأهله *

والنصوب عن أدب الدنيا والدن من ٢١٢ طبع بولاق . (٢) الذى فى كتب الصحابة فى ترجمة امرئ القيس ابن عابس أنه دبيعة بن عيدان . وقال صاحب كتاب الإصابة فى ترجمة عيدان بن أسوع : « ذكر مقاتل فى تفسيره أنه الذى حاصر امرأ القيس بن عابس الكندى فى أرضه ، وفيه نزلت « إن الذين يشترون بعهد الله ... » الآية .

قوله تعالى : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٤﴾

قوله تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً) شرط وجوابه . وفي الحياة الطيبة خمسة أقوال : الأول — أنه الرزق الحلال ؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبيرة وعطاء والضحاك . الثاني — القناعة ؛ قاله الحسن البصري وزيد بن وهب ووهب بن منبه ، ورواه الحكم عن عكرمة عن ابن عباس ، وهو قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه . الثالث — توفيقه إلى الطاعات فإنها تؤديه إلى رضوان الله ؛ قال معناه الضحاك . وقال أيضا : من عمل صالحا وهو مؤمن في فاقة وميسرة حياته طيبة ، ومن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه ولا عمل صالحا لمعيشته ضنك لا خير فيها . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هي الجنة ، وقاله الحسن ، وقال : لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة . وقيل هي السعادة ، روى عن ابن عباس أيضا . وقال أبو بكر الوراق : هي حلاوة الطاعة . وقال سهل بن عبد الله التستري : هي أن يتبرع عن العبد تديره ويرد تديره إلى الحق . وقال جعفر الصادق : هي المعرفة بالله ، وصدق المقام بين يدي الله . وقيل : الاستغناء عن الخلق والافتقار إلى الحق . وقيل : الرضا بالقضاء . (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ) أي في الآخرة . (بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . وقال « فلنحيينه » ثم قال « ولنجزينهم » لأن « مَنْ » يصلح للواحد والجمع ، فإعاد مرة على اللفظ ومرة على المعنى ؛ وقد تقدم . وقال أبو صالح : جلس ناس من أهل التوراة وناس من أهل الإنجيل وناس من أهل الأوثان ، فقال هؤلاء : نحن أفضل ، وقال هؤلاء : نحن أفضل ؛ فترلت .

قوله تعالى : فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٧٥﴾

فيه مسألة واحدة — وهي أن هذه الآية متصلة بقوله : « وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتًا لِّكُلِّ شَيْءٍ » فإذا أخذت في قراءته فاستعذ بالله من أن يمرض لك الشيطان فيصدك عن

تدبره والعمل بما فيه ؛ وليس يريد استعذ بعد القراءة ؛ بل هو كقولك : إذا أكلت فقل
بسم الله ؛ أى إذا أردت أن تأكل . وقد روى جبير بن مطعم عن أبيه قال : سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم حين افتتح الصلاة قال : « اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه
وَفَقْهه وَفَقْهه ^(١) » . وروى أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ في صلاته
قبل القراءة . قال الجيّ الطبري : وتُقل عن بعض السلف التعوذ بعد القراءة مطلقا ، احتجاجا
بقوله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ولا شك أن ظاهر
ذلك يقتضي أن تكون الاستعاذة بعد القراءة ؛ كقوله تعالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا
اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا ^(٢) » . إلا أن غيره محتمل ، مثل قوله تعالى : « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا ^(٣) » وإذا
سألوهم مَتَمًّا فاسألوهن من وراء حجاب ^(٤) » وليس المراد به أن يسألها من وراء حجاب بعد
سؤال متقدم . ومثله قول القائل : إذا قلت فأصدق ، وإذا أحرمت فاعتسل ؛ يعنى قبل
الإحرام . والمعنى في جميع ذلك : إذا أردت ذلك ؛ فكذلك الاستعاذة . وقد تقدم هذا المعنى ،
وتقدم القول في الاستعاذة مستوفى ^(٥) .

قوله تعالى : إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿١١﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ
مُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بالإغواء والكفر ، أى ليس
لك قدرة على أن تجعلهم على ذنب لا يُبْفَر ؛ قاله سفيان . وقال مجاهد : لا حجة له على
ما يدعوهم إليه من المعاصي . وقيل : إنه ليس له عليهم سلطان بحال ؛ لأن الله تعالى صرف

(١) الهز : النفس والعجز ، وكل شيء دفعه فقد همزه . والنهخ : الكبر ؛ لأن التكبر يتماثل ويجمع نفسه
ونفسه فيحتاج أن ينهخ . والنفت : قال ابن الأثير : جاء تفسيره في الحديث أنه الشعر ؛ لأنه ينبت من الفم .

(٢) آية ١٠٣ سورة النساء . (٣) آية ١٥٢ سورة الأنعام . (٤) آية ٥٣ سورة الأحزاب .

(٥) راجع ج ١ ص ٨٦ طبعة ثانية أمانة .

سلطانهم عليهم حين قال صدوقه إيليس لعنه الله « ولا غوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين » قال الله تعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من أتبعك من الغاوين » .
قلت : قد بينا أن هذا ما يدخله التخصيص ، وقد أغوى آدم وحواء عليهما السلام بسلطانهم ، وقد شوش على الفضلاء أوقاتهم بقوله : من خلق ربك ؟ حسبا تقدم في أثر الأعراف^(٢) بيانه . « إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ » أى يطيعونه . يقال : توليته أى أطعته ، وتوليت عنه ، أى أعرضت عنه . « وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ » أى بالله ؛ قاله مجاهد والضحاك . وقيل : يرجع « به » إلى الشيطان ؛ قاله الربيع بن أنس والفتني . والمعنى : والذين هم من أجله مشركون . يقال : كفرت بهذه الكلمة ، أى من أجلها . وصار فلان بك عالما ، أى من أجلك . أى والذي تولى الشيطان مشركون بالله .

قوله تعالى : وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : « وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ » قيل : المعنى بدلنا شريعة متقدمة بشريعة مستأخرة ؛ قاله ابن بحر . مجاهد : أى رفعنا آية وجعلنا موضعها غيرها . وقال الجمهور : نسخنا آية بأية أشد منها عليهم . والنسخ والتبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه . وقد تقدم الكلام في النسخ في البقرة مستوفى . « قَالُوا » يريد كفار قريش . « إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ » أى كاذب غثاقى ، وذلك لما رأوا من تبديل الحكم . فقال الله : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أن الله شرع الأحكام وتبديل البعض البعض . وقوله : « قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ

(١) آية ٣٩ وما بعدها سورة الحجر . (٢) راجع ج ٧ ص ٤٨ (٣) راجع ج ٢ ص ٦١ وما بعدها طهية ثانية .

الْقُدُسُ) يعني جبريل، نزل بالقرآن كله ناسخه ومنسوخه . وروى بإسناد صحيح عن عامر الشعبي قال : وَكَلَّ إِسْرَافِيلُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ سَنِينَ ، فَكَانَ يَأْتِيهِ بِالْكَلِمَةِ وَالْكَلِمَةُ ، ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ بِالْقُرْآنِ . وفي صحيح مسلم أيضا أنه نزل عليه بسورة « الحمد » . مَلَكٌ لَمْ يَنْزِلْ إِلَى الْأَرْضِ قَطُّ . كما تقدم في الفاتحة بيانه . (مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) أى من كلام ربك . (لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا) أى بما فيه من الحجج والآيات . (وَهُدًى) أى وهو هدى . (وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ) .

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّلسَّانِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٦﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) اختلف في اسم هذا الذي قالوا إنما يعلمه ؛ ف قيل : هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر ، كان نصرانيا فأسلم ، وكانوا إذا سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم ما مضى وما هو آت مع أنه أتى لم يقرأ قالوا : إنما يعلمه جبر وهو أعجمي ؛ فقال الله تعالى : (لِّلسَّانِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) أى كيف يعلمه جبر وهو أعجمي هذا الكلام الذى لا يستطيع الإنسان والجرب أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها . وذكر النقاش أن مولى جبر كان يضربه ويقول له : أنت تعلم جدا ، فيقول : لا والله ، بل هو يعلمنى ويهدىنى . وقال ابن إسحاق : كان النبي صلى الله عليه وسلم — فيما بلغنى — كثيرا ما يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال له جبر ، عبد بنى الحضرمي ، وكان يقرأ الكتب ، فقال المشركون : والله ما يعلم جدا ما يأتي به إلا جبر النصراني . وقال عكرمة : اسمه يعيش عبد لبني الحضرمي ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقنه القرآن ؛ ذكره الماوردي . وذكر الثعلبي عن عكرمة وقصاده أنه غلام لبني المغيرة اسمه يعيش ، وكان يقرأ الكتب الأعجمية ، فقالت قريش : إنما يعلمه بشر ، فزلت . المهدي عن عكرمة :

(١) راجع ج ١ ص ١١٦ طبة ثانية أو ثالثة .

هو غلام لبنى عامر بن لؤى ، واسمه يعيش . وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي : كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر ، اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر . كذا ذكر الماوردي والقشيري والتعلي ؛ إلا أن التعلي قال : يقال لأحدهما نبت ويكنى أبا فكيهة ، والآخر جبر ، وكانا صبيقتين^(١) يعملان السيوف ؛ وكانا يقرأان كتابا لهم . التعلي : يقرأان التوراة والإنجيل . الماوردي والمهدوي : التوراة . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يترجمهما ويسمع قراءتهما ، وكان المشركون يقولون : يتعلم منهما ، فأنزل الله هذه الآية وأكذبهم . وقيل : عنوا سلمان الفارسي رضى الله عنه ؛ قاله الضحاك . وقيل : نصرانيا بمكة أسمه بلعام ، وكان غلاما يقرأ التوراة ؛ قاله ابن عباس . وكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يباه بلعام . وقال القتيبي : كان بمكة رجل نصراني يقال له أبو ميسرة يتكلم بالرومية ، فرما قعد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الكفار : إنما يتعلم محمد منه ، فزلت . وفي رواية أنه عتاس غلام عتبة بن ربيعة . وقيل : حابس غلام حويطب بن عبد المزى ويسار أبو فكيهة مولى ابن الحضرمي ، وكان قد أسلم . والله أعلم .

قلت : والكل محتمل ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم ربما جلس إليهم في أوقات مختلفة ليعلمهم مما علمه الله ، وكان ذلك بمكة . وقال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ لأنه يجوز أن يكونوا أو أموا إلى هؤلاء جميعا ، وزعموا أنهم يعلمونه .

قلت : وأما ما ذكره الضحاك من أنه سلمان ففيه بعد ؛ لأن سلمان إنما أتى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وهذه الآية مكية . (لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ) الإلحاد : الميل ؛ يقال : لحد وألحد ، أى مال عن القصد . وقد تقدم في الأعراف . وقرأ حمزة « يُلْحِدُونَ » بفتح الياء والحاء ؛ أى لسان الذى يميلون إليه ويشيرون أعجمي . والصُّجْمَةُ : الإخفاء وضد البيان . ورجل أعجم وأمراة عجماء ، أى لا يفصح ؛ ومنه عجم الذنب لاستناره . والعجماء :

البهيمة؛ لأنها لا توضح عن نفسها . وأعجمت الكلاب أى أزلت عجمته . والعرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بكلامهم أعجميا . وقال الفراء : الأعجم الذى فى لسانه عجمة وإن كان من العرب ، والأعجمى أو الأعجمى الذى أصله من العجم . وقال أبو طي : الأعجمى الذى لا يفصح ، سواء كان من العرب أو من العجم ، وكذلك الأعجم والأعجمى المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً . وأراد باللسان القرآن ؛ لأن العرب تقول للقصبدة والبيت : لسان ؛ قال الشاعر :

لسانُ الشَّريِّهْدِيَا إلَيْنَا * وَخُنْتُ وَمَا حَسِبْتُكَ أَنْ تَخُونَا

يعنى باللسان القصبدة . (وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) أى أفصح ما يكون من العربية .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴿١٥٠﴾

قوله تعالى : (**إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ**) أى هؤلاء المشركون الذين لا يؤمنون بالقرآن . (**لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) .

قوله تعالى : **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴿١٥١﴾

قوله تعالى : (**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ**) هذا جواب وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بالأقراء . (**وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**) هذا مبالغة فى وصفهم بالكذب ؛ أى كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم . ويقال : كذب فلان ولا يقال إنه كاذب ؛ لأن الفعل قد يكون لازماً وقد لا يكون لازماً . فأما النعت فيكون لازماً ولهذا يقال : عصي آدم ربه فغوى ، ولا يقال : إنه حاص غاي . فإذا قيل : كذب فلان فهو كاذب ، كان مبالغة فى الوصف بالكذب ؛ قاله القشيري .

قوله تعالى : مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقُلُوبُهُ
مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ
اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ) هذا متصل بقوله تعالى : « وَلَا تَقْضُوا
الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا » فكان مبالغة في الوصف بالكذب ؛ لأن معناه لا تردوا عن بيعة الرسول
صلى الله عليه وسلم . أى من كفر من بعد إيمانه وأرتد فعليه غضب الله . قال الكلبي : نزلت
في عبد الله بن سعد بن أبي مَرْحٍ ومقيس بن صُبابَة وعبد الله بن خَطَلٍّ ، ومقيس بن الوليد بن
المغيرة ، كفروا بعد إيمانهم . ثم قال : (إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ) . وقال الزجاج : « من كفر بالله
من بعد إيمانه » بدل ممن يفترى الكذب ؛ أى إنما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد
إيمانه ؛ لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام فعلقه بما قبله . وقال الأخفش : « مَنْ »
ابتداء وخبره محذوف ، اكتفى منه بخبر « مَنْ » الثانية ؛ كقولك : مَنْ يَأْتِنَا مَنْ يَحْسَنُ نَكْرَمُهُ .

الثانية — قوله تعالى : (إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ) هذه الآية نزلت في عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ ، في قول
أهل التفسير ؛ لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه . قال ابن عباس : أخذه المشركون وأخذوا
أباه وأُمَّهُ سُمَيَّةَ وَصُحْبِيًّا وَبِلَالًا وَخَبَّابًا وَصَالِحًا فَعَذَّبُوهُمْ ، وَرَبَطُوا سُمَيَّةَ بَيْنَ بَيْرَيْنِ وَوُجِئَ
قُبُكُهَا بِحَرِيَّةٍ ، وَقِيلَ لَهَا إِنَّكَ أَسْلَمْتَ مِنْ أَجْلِ الرِّجَالِ ، فَتَلَّتْ وَقَتَلَ زَوْجَهَا يَاسِرًا ، وَهِيَ أَوَّلُ
قَتِيلَيْنِ فِي الْإِسْلَامِ . وَأَمَّا عَمَّارٌ فَأَعْطَاهُمْ مَا أَرَادُوا بِلِسَانِهِ مُكْرَمًا ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ ؟ » قَالَ :
مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فَإِنْ عَادُوا قُتِّدُوا » . وَرَوَى
مَنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : أَوَّلُ شَهِيدَةٍ فِي الْإِسْلَامِ أُمُّ عَمَّارٍ ، قَتَلَهَا أَبُو جَهْلٍ ، وَأَوَّلُ

شهيد من الرجال يهتج مولى عمر . وروى منصور أيضا عن مجاهد قال : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وبلال ، وخبّاب ، وصهيب ، وعمار ، وسميّة أمّ عمار . فاما رسول الله صلى الله عليه وسلم ففنه أبو طالب ، وأما أبو بكر ففنه قومه ، وأخذوا الآخرين فالبسوه أدراع الحديد ، ثم صهروهم في الشمس حتى بلغ منهم الجهد كل مبلغ من حر الحديد والشمس ، فلما كان من العشي أتاهم أبو جهل ومعه حربة ، فجعل يسبهم ويؤذيهم ، وأتى سميّة فجعل يسبها ويرفث^(١) ، ثم طعن فرجها حتى خرجت الحربة من فيها فقتلها ، رضى الله عنها . قال : وقال الآخرون ما مثلوا ؛ إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله ، بغفلوا يعذبونه ويقولون له : ارجع عن دينك ، وهو يقول أحد أحد ؛ حتى ملّوه ، ثم كثفوه وجعلوا في عنقه جبلا من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أخشي مكة^(٢) حتى ملّوه وتركوه ، قال فقال عمار : كلنا تكلم بالذي قالوا — لولا أن الله تداركنا — غير بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله ، فهان على قومه حتى ملّوه وتركوه . والصحيح أن أبا بكر اشتري بلالا فأعتقه . وروى ابن أبي نجيع عن مجاهد أن ناسا من أهل مكة آمنوا ، فكتب إليهم بعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالمدينة : أن هاجروا إلينا ، فإننا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا ، فخرجوا يريدون المدينة حتى أدركتهم قريش بالطريق ، ففنتوهم فكفروا مكهين ، ففهم نزلت هذه الآية . ذكر الروایتين عن مجاهد إسماعيل بن إسحاق . وروى الترمذی عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ما خيرُ عمار بين أمرين إلا اختار أَرشدَهما “ هذا حديث حسن غريب . وروى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن الجنة تستاق إلى ثلاثة على وعمار وسلمان بن ربيعة “ . قال الترمذی : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن صالح .

الثالثة — لما سمع الله عز وجل بالكفر به وهو أصل الشريعة عند الإكراه ولم يؤاخذ به ، حل العلماء عليه فروع الشريعة كلها ، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يترتب

(١) الرفث : القمض من القول . (٢) الأخشيان : الجبلان المطوفان بمكة ؛ وهما أبو قيس والأحر.

عليه حكم؛ وبه جاء الأثر المشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» الحديث. والخبر وإن لم يصح مسنده فإن معناه صحيح باتفاق من العلماء؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربي. وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح، قال: وقد ذكره أبو بكر الأصيلي في الفوائد وابن المنذر في كتاب الإقناع.

الرابعة — أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر؛ هذا قول مالك والكوفيين والشافعي؛ غير محمد بن الحسن فإنه قال: إذا أظهر الشرك كان مرتدا في الظاهر، وفيما بينه وبين الله تعالى على الإسلام، وتبين منه أمراته ولا يصل عليه إن مات، ولا يرث أباه إن مات مسلما. وهذا قول يردّه الكتاب والسنة، قال الله تعالى: «إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ» الآية. وقال: «إِلَّا أَنْ تَقُولُوا مِنْهُمْ قَتْلًا»^(١) وقال: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَلَمِلِي أُنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ» الآية. وقال: «إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ» الآية. فعذر الله المستضعفين الذين يمتنعون من ترك ما أمر الله به، والمكره لا يكون إلا مستضعفا غير ممتنع من فعل ما أمر به؛ قاله البخاري.

الخامسة — ذهب طائفة من العلماء إلى أن الرخصة إنما جاءت في القول، وأما في الفعل فلا رخصة فيه، مثل أن يكرهوا على السجود لنسیر الله أو الصلاة لغير القبلة، أو قتل مسلم أو ضربه أو أكل ماله، أو الزنى وشرب الخمر أو كل الربا؛ يروى هذا عن الحسن البصري، رضى الله عنه. وهو قول الأوزاعي ومختون من علمائنا. وقال محمد بن الحسن: إذا قيل للأسير: أتعبد لهذا الصنم وإلا قتلتك. فقال: إن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد ويكون نيتبه لله تعالى، وإن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه. والصحيح أنه يسجد وإن كان لنسیر القبلة، وما أحرأه بالسجود حينئذ؛ ففي الصحيح عن ابن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان

وجهه، قال : وفيه نزلت « فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا قِيَمَ وَجْهِ اللَّهِ »^(١) في رواية : ويؤثر عليها ، غير أنه لا يصلح عليها المكتوبة . فإذا كان هذا مباحا في السفر في حالة الأمن لتعب التزول عن الدابة للتفعل فكيف بهذا . واحتج من قصر الرخصة على القول بقول ابن مسعود : ما من كلام يندأ عنى سوطين من ذى سلطان إلا كنت متكئا به . فقصر الرخصة على القول ولم يذكر الفعل ، وهذا لا حجة فيه ؛ لأنه يحتمل أن يعمل للكلام مثالا وهو يريد أن الفعل في حكمه . وقالت طائفة : الإكراه في الفعل والقول سواء إذا أمر الإيمان . روى ذلك عن عمر بن الخطاب ومكحول ، وهو قول مالك وطائفة من أهل العراق . روى ابن القاسم عن مالك أن من أكره على شرب الخمر وترك الصلاة أو الإفطار في رمضان ، أن الإيمان عنه مرفوع .

السادسة — أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمة بجلده أو غيره ، ويصبر على البلاء الذي نزل به ، ولا يحمل له أن يقتدى نفسه بغيره ، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة .

واختلف في الزنى ، فقال مطرّف وأصْبَغ وابن عبد الحكم وابن الماسحون : لا يفعل أحد ذلك ، وإن قُتل لم يفعله ، فإن فعله فهو آثم ويلزمه الحد ؛ وبه قال أبو ثور والحسن . قال ابن العربي : الصحيح أنه يجوز الإقدام على الزنى ولا حدّ عليه ، خلافا لمن ألزمه ذلك ؛ لأنه رأى أنها شهوة خلقية لا يتصور الإكراه عليها ، وغفل عن السبب في باعث الشهوة وهو الإلجاء إلى ذلك ، وهو الذي أسقط حكمه ، وإنما يجب الحدّ على شهوة بعث عليها سبب اختياري ، فقاس الشيء على ضده ، فلم يحمل بصواب من عنده . وقال ابن خُوَيْرٍ مندّد في أحكامه : اختلف أصحابنا متى أكره الرجل على الزنى ؛ فقال بعضهم : طيه الحدّ ؛ لأنه إنما يفعل ذلك باختياره . وقال بعضهم : لا حدّ عليه . قال ابن خُوَيْرٍ مندّد : وهو الصحيح ، وقال أبو حنيفة : إن أكرهه غير السلطان حدّ ، وإن أكرهه السلطان فالقياس أن يحدّ ، ولكن استحسن ألا يحدّ . وخالفه صاحباه فقالا : لا حدّ عليه في الوجهين ، ولم يراعا الانتشار ،

(١) آية ١١٥ سورة البقرة ، ج ٢ ص ٧٩ طبعة ثانية .

وقالوا : متى علم أنه يتخلص من القتل بفعل الزنى جاز أن ينتشر . قال ابن المنذر : لا حد عليه ، ولا فرق بين السلطان في ذلك وغير السلطان .

السابعة — اختلف العلماء في طلاق المكروه وعتاقه ؛ فقال الشافعي وأصحابه : لا يلزمه شيء . وذكر ابن وهب عن عمرو بن لحي وابن عباس أنهم كانوا لا يرون طلاقه شيئا . وذكره ابن المنذر عن ابن الزبير وابن عمر وابن عباس وعطاء وطاوس والحسن وشرح والقاسم ومسلم ومالك والأوزاعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور . وأجازت طائفة طلاقه ؛ روى ذلك عن الشعبي والنخعي وأبي قلابة والزهرى وقتادة ، وهو قول الكوفيين . قال أبو حنيفة : طلاق المكروه يلزم ؛ لأنه لم يعدم فيه أكثر من الرضا ، وليس وجوده بشرط في الطلاق كالحال . وهذا قياس باطل ؛ فإن المازل قاصد إلى إيقاع الطلاق راض به ، والمكروه غير راض ولا نية له في الطلاق ، وقد قال عليه السلام : ” إنما الأعمال بالنيات ” . وفي البخاري : وقال ابن عباس فيمن يكرهه اللصوص فيطلق ؛ ليس بشيء ؛ وبه قال ابن عمر وابن الزبير والشعبي والحسن . وقال الشعبي : إن أكرهه اللصوص فليس بطلاق ، وإن أكرهه السلطان فهو طلاق . وفسره ابن عينة فقال : إن اللص يُقَدِّم على قتله والسلطان لا يقتله .

الثامنة — وأما بيع المكروه والمضبوط فله حالتان . الأولى — أن يبيع ماله في حق وجب عليه ؛ فذلك مباح سائغ لا رجوع فيه عند الفقهاء ؛ لأنه يلزمه أداء الحق إلى ربه من غير المبيع ، فلما لم يفعل ذلك كان بيعه اختيارا منه فلزمه . وأما بيع المكروه ظلما أو قهرا فذلك بيع لا يجوز عليه ، وهو أولى بمناعه يأخذه بلائمين ، ويتبع المشتري بالتمن ذلك الظالم ؛ فإن فات المتاع رجع بثمنه أو بقيمته بالأكثر من ذلك على الظالم إذا كان المشتري غير عالم بظلمه . قال مطرف : ومن كان من المشتري يعلم حال المكروه فإنه ضامن لما ابتاع من رقيقه وعروضه كالنصاب ، وكلما أحدث المتاع في ذلك من عتق أو تدبير أو تحبيس فلا يلزم المكروه ، وله أخذ متاعه . قال ثنّون : أجمع أصحابنا وأهل العراق على أن بيع المكروه على الظلم والجور لا يجوز . وقال الأبهري : إنه إجماع .

التاسعة — وأما نكاح المكره ؛ فقال مُحَنُون : أجمع أصحابنا على إبطال نكاح المكره والمكرهه، وقالوا : لا يجوز المقام عليه، لأنه لم ينقذ . قال محمد بن مُحَنُون : وأجاز أهل العراق نكاح المكره، وقالوا : لو أكرهه على أن ينكح امرأة بعشرة آلاف درهم، وصدائق مثلها ألف درهم، أن النكاح جائز وتزومه الألف ويبطل الفضل . قال محمد : فكما أبطلوا الزائد على الألف فكذلك يلزمهم إبطال النكاح بالإكراه . وقولهم خلاف السنة الثابتة في حديث خنساء بنت خذام الأنصارية، ولأمره صلى الله عليه وسلم بالاستئثار في أبضاعهن، وقد تقدم، فلا معنى لقولهم .

العاشرة — فإن وطنها المكره على النكاح غير مكره على الوطء والرضا بالنكاح لزمه النكاح عندنا على المسمى من الصداق ودُرِيَّ عنه الحد، وإن قال : وطنها على غير رضا منى بالنكاح فعليه الحد والصداق المسمى ؛ لأنه مدَّج لإبطال الصداق المسمى، وثُمَّد المرأة إن أقدمت وهي طالبة أنه مكره على النكاح . وأما المكرهه على النكاح وعلى الوطء فلا حدَّ عليها ولها الصداق، ويحدُّ الواطئ ؛ فأعلمه . قاله مُحَنُون .

الحادية عشرة — إذا استكرهت المرأة على الزنى فلا حدَّ عليها ؛ لقوله « إلا من أكره » وقوله عليه السلام : « إن الله تجاوز عن أمي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . ولقول الله تعالى : « فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِيْنَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » ^(١) يريد الفتيات . وبهذا المعنى حكم عمر في الوليدة التي استكرهها العبد فلم يحدَّها . والعلماء متفقون على أنه لا حدَّ على امرأة مستكرهه . وقال مالك : إذا وجدت المرأة حاملا وليس لها زوج فقالت استكرهت فلا يقبل ذلك منها وعليها الحد، إلا أن تكون لها بَيِّنَةٌ أو جاءت تَدْبِي على أنها أوتيت، أو ما أشبه ذلك . واحتج ^(٢) بحديث عمر بن الخطاب أنه قال : الرجم في كتاب الله حق على من زنى من الرجال والنساء إذا أحصن إذا قامت البينة، أو كانت الحبل أو الاعتراف . قال ابن المنذر : وبالقول الأول أقول .

(١) آية ٣٣ سورة النور . (٢) عبارة الموطأ : « أو جاءت تدعى إن كانت بكرا أو استنثت حتى أتيت رجل ذلك ... » الخ .

الثانية عشرة — واختفوا في وجوب الصداق المستكره ؛ فقال عطاء والزهرى : لما
صداق مثلها ؛ وهو قول مالك والشافعى وأحمد وإسحاق وأبى ثور . وقال الثورى : إذا أقيم
الحدة على الذى زنى بها بطل الصداق . وروى ذلك عن الشعبي ، وبه قال أصحاب مالك
وأصحاب الرأى . قال ابن المنذر : القول الأول صحيح .

الثالثة عشرة — إذا أكره الإنسان على إسلام أهله لما لم يحل أسلمها ، ولم يقتل نفسه
دونها ولا احتمل أذية في تخليصها . والأصل في ذلك ما أخرجه البخارى عن أبى هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة ودخل بها قرية فيها
ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فأرسل إليه أن أرسل بها إلى فأرسل بها فقام إليها فقامت
تنوضاً وتصلى فقالت اللهم إن كنت آمنْتُ بك وبرسولك فلا تسلط على هذا الكافر ففط
حتى ركن رجليه " . ودل هذا الحديث أيضاً على أن سارة لما لم يكن عليها ملامه ، فكذلك
لا يكون على المستكره ملامه ، ولا حد فيها هو أكبر من الحلوة . والله أعلم .

الرابعة عشرة — وأما يمين المكره فغير لازمة عند مالك والشافعى وأبى ثور وأكثر
العامة . قال ابن الماجشون : وسواء حلف فيما هو طاعة لله أو فيما هو معصية إذا أكره
على اليمين ؛ وقاله أصبغ . وقال مطزف : إن أكره على اليمين فيما هو لله معصية أو ليس في فعله
طاعة ولا معصية فاليمين فيه ساقطة ، وإن أكره على اليمين فيما هو طاعة مثل أن يأخذ الوالى
رجلاً فاسقاً فيكرهه أن يحلف بالطلاق لا يشرب نمراً ، أولاً يفسق ولا يفسق في عمله ، أو الوالد
يحلف ولده تأديباً له فإن اليمين تلزم ؛ وإن كان المكره قد أخطأ فيما يكلف من ذلك . وقال
به ابن حبيب . وقال أبو حنيفة ومن اتبعه من الكوفيين : إنه إن حلف ألا يفعل ففعل
حينئذ ، قالوا : لأن المكره له أن يورى في يمينه كلها ، فلما لم يور ولا ذهب نيته إلى خلاف
ما أكره عليه فقد قصد إلى اليمين . احتج الأولون بأن قالوا : إذا أكره عليها فنيته مخالفة
لقوله ؛ لأنه كاره لما حلف عليه .

(١) ذكر المؤلف هذا الحديث مختصراً ، فراجعه في شرح التتسلاط ، كتاب البيوع ج ٤ ص ١٢٢ طبعة بولاق .

الخامسة عشرة — قال ابن العربي : ومن غريب الأمر أن علماءنا اختلفوا في الإكراه على الحنث هل يقع به أم لا ؛ وهذه مشكلة عراقية سرت لنا منهم ، لا كانت هذه المسئلة ولا كانوا ! وأى فرق يا معشر أصحابنا بين الإكراه على الإيمان في أنها لا تلزم وبين الحنث في أنه لا يقع ! فأتقوا الله وراجعوا بصائرکم ، ولا تفتروا بهذه الرواية فإنها وصمة في الدراية .

السادسة عشرة — إذا أكره الرجل على أن يحلف وإلا أخذ له مال كأصحاب المكس وظلمة السعاة وأهل الاعتداء ؛ فقال مالك : لا تحية له في ذلك ، وإنما يدرأ المرء يمينه عن بدنه لا ماله . وقال ابن الماجشون : لا يحنث وإن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه . وقال ابن القاسم بقول مطوف ، ورواه عن مالك ؛ وقاله ابن عبد الحكم وأصبيغ .

قلت : قول ابن الماجشون صحيح ؛ لأن المناقصة عن المال كالمناقصة عن النفس ؛ وهو قول الحسن وقتادة وسياتي . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام " وقال : " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " . وروى أبو هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أرايت إن جاء رجل يريد أخذ مالي ؟ قال : " فلا تعطه مالك " . قال : أرايت إن قاتلني ؟ قال : " قاتله " . قال : أرايت إن قتلني ؟ قال : " فأنت شهيد " . قال : أرايت إن قتلته ؟ قال : " هو في النار " . أخرجه مسلم . وقد مضى الكلام فيه . وقال مطوف وابن الماجشون : . وإن بدر الحالف يمينه للوالى الظالم قبل أن يسألهما ليكتب بها عما خاف عليه من ماله وبدنه خلف له فإنها تلزمه . وقاله ابن عبد الحكم وأصبيغ . وقال أيضا ابن الماجشون فيمن أخذه ظالم خلف له بالطلاق ألبنة من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب ، وإنما حلف خوفا من ضربه وقتله وأخذ ماله : فإن كان إنما تبرع بالإيمان غلبة خوف ورجاء النجاة من ظلمه فقد دخل في الإكراه ولا شيء عليه ، وإن لم يحلف على رجاء النجاة فهو حانت .

السابعة عشرة — قال المحققون من العلماء : إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجوز له أن يجزئيه على لسانه إلا بجري المعارض ؛ فإن في المعارض لمنوذة عن الكذب . ومتى لم يكن (١)

(١) المعارض : التورية بالنفي . وأعرض الكلام بمعارضته ومعارضته : كلام يشبه بعضه بضما في المعاني .

كذلك كان كافراً؛ لأن المعارض لا سلطان للإكراه عليها . مثاله — أن يقال له : أكفر بالله فيقول باللهي ، فيزيد الباء ، وكذلك إذا قيل له : أكفر بالنبي فيقول هو كافر بالنبي ، مشدداً وهو المكان المرتفع من الأرض^(١) . ويطلق على ما يعمل من الخوص شبه المائدة ، فيقصد أحدهما بقلبه ويرى من الكفر ويرى من إيمه . فإن قيل له : أكفر بالنبي (مهموزاً) فيقول هو كافر بالنبي يريد بالخبر ، أى خبر كان كطليحة ومُسَيْلَمَة الكذاب . أو يريد به النبي الذي قال فيه الشاعر :

فأصبح رَمّاً دُفِّقَ الحصى * مكان النبي من الكاتب^(٢)

الثامنة عشرة — أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر فاختر القتل أنه أعظم أجراً عند الله ممن آختر الرخصة . وأختلفوا فيمن أكره على غير القتل من فعل ما لا يحصل له ، فقال أصحاب مالك : الأخذ بالشك في ذلك واختيار القتل والضرب أفضل عند الله من الأخذ بالرخصة ، ذكره ابن حبيب ويحسون . وذكر ابن مثنون عن أهل العراق أنه إذا تهدد بقتل أو قطع أو ضرب يخاف منه التلف فله أن يفعل ما أكره عليه من شرب نحر أو أكل خنزير ؛ فإن لم يفعل حتى قتل يخف أن يكون آثماً لأنه كالمضطر . وروى حَبَّاب بن الأَرْت قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برءة له في ظل الكعبة فقلت : ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحْفَرُ له في الأرض فيُجْعَل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمَشَّطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصبته ذلك عن دينه والله لَتَيَمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » . فوصفه صلى الله عليه وسلم بهذا عن الأمم السالفة على جهة المدح لم والصبر على المكروه في ذات الله ، وأنهم لم يكفروا في الظاهر وتبطنوا بالإيمان لينفخوا العذاب عن أنفسهم . وهذه حجة من أثر الضرب

(١) روى الحديث : « لا تصلوا على النبي » أى على الأرض المرتفعة المحدودية . (٢) هو طليحة ابن خويلد بن نوفل الأسدي ، ارتد بعد النبي صلى الله عليه وسلم وأدعى النبوة ثم أسلم . (٣) الرَّم (بالثاء والتاء) : اللهق والكسر . ويريد بالنبي ، المكان المرتفع . والكاتب : الرمل المجيع . (٤) يريد الإسلام .

والقتل والهوان على الرخصة والمقام بدار الجنان . وسياق لهذا مزيد بيان في سورة «الأخود»^(١)
 إن شاء الله تعالى . وذكر أبو بكر محمد بن محمد بن الفرج البغدادي قال : حدثنا شريح بن
 يونس عن إسماعيل بن إبراهيم عن يونس بن حبيد عن الحسن أن عيوثا لمسيبة أخذوا رجلين
 من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فذهبوا بهما إلى مسيبة ، فقال لأحدهما : أشهد أن
 هذا رسول الله ؟ قال نعم . قال : أشهد أني رسول الله ؟ قال نعم . فغلى عنه . وقال
 للآخر : أشهد أن هذا رسول الله ؟ قال نعم . قال : وشهد أني رسول الله ؟ قال : أنا أصم
 لا أسمع ، فقدمه وضرب عنقه . فجاء هذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هلكت !
 قال : «وما أهلكك» ؟ فذكر الحديث ، قال : «أما صاحبك فأخذ بالثقة وأما أنت فأخذت
 بالرخصة . على ما أنت عليه الساعة» ؟ قال : أشهد أنك رسول الله . قال : «أنت على
 ما أنت عليه» . الرخصة فمن حلقه سلطان ظالم على نفسه أو على أن يئله على رجل أو مال
 رجل ؛ فقال الحسن : إذا خاف عليه وعلى ماله فيحلف ولا يكفر يمينه ؛ وهو قول قتادة إذا
 حلف على نفسه أو مال نفسه . وقد تقدم ما للعلماء في هذا . وذكر موسى بن معاوية أن
 أبا سعيد بن أشرس صاحب مالك استخلفه السلطان بتونس على رجل أراد السلطان قتله
 أنه ما آواه ، ولا يعلم له موضعا ؛ قال : حلف له ابن أشرس ؛ وابن أشرس يومئذ قد علم
 موضعه وآواه ، فخلفه بالطلاق ثلاثا ، حلف له ابن أشرس ، ثم قال لاسرائته : اعتزلى فاعتزلته ؛
 ثم ركب ابن أشرس حتى قدم على البهلول بن راشد القيروان ، فأخبره بالخبر ؛ فقال له البهلول :
 قال مالك إنك حانت . فقال ابن أشرس : وأنا سمعت مالك يقول ذلك ، وإنما أردت
 الرخصة ، أو كلام هذا معناه ؛ فقال له البهلول بن راشد : قال الحسن البصري إنه لا حنث
 عليك . قال : فرجع ابن أشرس إلى زوجته وأخذ يقول الحسن . وذكر عبد الملك بن حبيب
 قال : حدثني معبد عن المسيب بن شريك عن أبي شيبة قال : سألت أنس بن مالك عن
 الرجل يؤخذ بالرجل ، هل ترى أن يحلف ليقية يمينه ؟ فقال نعم ، ولأن أحلف سبعين يمينا

(١) هي سورة البرج رقم ٨٥ (٢) عبارة الهرمشر : «أما صاحبك فعلى إيمانه» .

وأحنت أحب إلى أن أذل على مسلم . وقال إدريس بن يحيى كان الوليد بن عبد الملك يأمر جواسيس يتجسسون الخلق يأتونه بالأخبار ، قال : بخلس رجل منهم في حلقه رجاء بن حيوة فسمع بعضهم يقع في الوليد ، فرفع ذلك إليه فقال : يا رجاء ! أذكرك بالسوء بمجلسك ولم تغير ! فقال : ما كان ذلك يا أمير المؤمنين ؟ فقال له الوليد : قل : الله الذي لا إله إلا هو ، قال : الله الذي لا إله إلا هو ، فأمر الوليد بالجاسوس فضربه سبعين سوطاً ، فكان يلقي رجاء فيقول : يا رجاء ، بك يستقي المطر ، وسبعون سوطاً في ظهري ! فيقول رجاء : سبعون سوطاً في ظهرك خير لك من أن يقتل رجل مسلم .

التاسعة عشرة — واختلف العلماء في حد الإكراه ، فروى عن عمر بن الخطاب رضي عنه أنه قال : ليس الرجل آمن على نفسه إذا أخفته أو أوقفته أو ضربته . وقال ابن مسعود : ما كلام يدرك عن سوطين إلا كنت متكلماً به . وقال الحسن : التقيّة جائزة للمؤمن إلى يوم القيامة ؛ إلا أن الله تبارك وتعالى ليس يجعل في القتل تقيّة . وقال النخعي : القيد إكراه ، والسجن إكراه . وهذا قول مالك ، إلا أنه قال : والوعيد المخوف إكراه وإن لم يقع إذا تحقق ظلم ذلك المتعدى وإنفاذه لما يتوعد به ، وليس عند مالك وأصحابه في الضرب والسجن توقيف ، إنما هو ما كان يؤلم من الضرب ، وما كان من سجن يدخل منه الضيق على المكره . وإكراه السلطان وغيره عند مالك إكراه . وتناقض الكوفيون فلم يجعلوا السجن والقيد إكراهاً على شرب الخمر أو كل الميتة ؛ لأنه يخاف منها التلف . وجعلوا إكراهها في إقراره لفلان عندى ألف درهم . قال ابن سحنون : وفي إجماعهم على أن الألم والوجع الشديد إكراه ما ينيل على أن الإكراه يكون من غير تلف نفس . وذهب مالك إلى أن من أكره على يمين بوعيد أو سجن أو ضرب أنه يحلف ولا حنت عليه ؛ وهو قول الشافعي وأحمد وأبي ثور وأكثر العلماء .

الموفية عشرين — ومن هذا الباب ما ثبت إن من المعارض لمندوحة عن الكذب . وروى الأعمش عن إبراهيم النخعي أنه قال : لا بأمن إذا بلغ الرجل عنك شيء أن تقول :

والله، إن الله يعلم ما قلتُ فيك من ذلك من شيء. قال عبد الملك بن حبيب : معناه أن الله يعلم أن الذي قلت ، وهو في ظاهره انتفاء من القول ، ولا حث على من قال ذلك في يمينه ولا كذب عليه في كلامه . وقال النخعي : كان لهم كلام من ألفاظ الأيمان يسمعون به عن أنفسهم ، لا يرون ذلك من الكذب ولا يحنثون فيه الحنث . قال عبد الملك : وكانوا يسمون ذلك المعارض من الكلام ، إذا كان ذلك في غير مكرو ولا خديعة في حق . وقال الأعمش : كان إبراهيم النخعي إذا أتاه أحد يكره الخروج إليه جلس في مسجد بيته وقال لجار بيته : قولي له هو والله في المسجد . وروى مغيرة عن إبراهيم أنه كان يحيز للرجل من البعث إذا عرضوا على أميرهم أن يقول : والله ما أهدى إلا ما سئد لي غيري ، ولا أركب إلا ما حملني غيري ؛ ونحو هذا من الكلام . قال عبد الملك : يعني بقوله « غيري » الله تعالى ، هو سئده وهو يحمله ؛ فلم يكونوا يرون على الرجل في هذا حثا في يمينه ، ولا كذبا في كلامه ، وكانوا يكرهون أن يقال هذا في خديعة وظلم ومُجْدَان^(١) حتى لمن اجتراً وفعل أثم في خديعته ولم تجب عليه كفارة في يمينه .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أى وسَّعه لقبول الكفر ، ولا يقدر أحد على ذلك إلا الله ؛ فهو يرد على القدرة . و « صدرا » نصب على المفعول . ﴿ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو عذاب جهنم .

قوله تعالى : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿٥٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٩﴾

(١) هذا المصدر لم يورده كتب اللغة في هذه المادة .

قوله تعالى : (ذَلِكَ) أى ذلك الغضب . (يَأْتِيهِمْ أَشْجُوهُ الْحِيَآةِ الدُّنْيَا) أى اختاروها على الآخرة . (وَأَنَّ اللَّهَ) « أَتَى » فى موضع خفض عطفا على « بأنهم » . (لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) ثم وصفهم فقال : (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) أى عن فهم المواعظ . (وَتَسْمِعُهُمْ) عن كلام الله تعالى . (وَأَبْصَارَهُمْ) عن النظر فى الآيات . (وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) عما يراد بهم . (لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَالِعُونَ) (١) تقدم .

قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا) هذا كله فى عَمَّار . والمعنى وصبروا على الجهاد ؛ ذكره النحاس . وقال قتادة : نزلت فى قوم خرجوا مهاجرين إلى المدينة بعد أن قتلهم المشركون وعذبوهم ، وقد تقدم ذكرهم فى هذه السورة . وقيل : نزلت فى ابن أبى سرح ، وكانت قد ارتد ولحق بالمشركين فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة ، فاستجار بعتان فأجاره النبي صلى الله عليه وسلم ، ذكره النسائي عن حكمة عن ابن عباس قال : فى سورة الفصل « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره — إلى قوله — ولم حذاب عظيم » ففسخ ، واستثنى من ذلك فقال « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى كان على مصر ، كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فآذله الشيطان فلحق بالكفار فأمر به أن يقتل يوم الفتح ؛ فاستجار له عتات بن عفاف فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُجَدِّدٌ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا) أى إن الله غفور رحيم في ذلك .
 أو ذكّرهم « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها » أى تخاصم وتحتاج عن نفسها ؛ جاء في الخبر
 أن كل أحد يقول يوم القيامة : نفسى نفسى ! من شدة هول يوم القيامة سوى عبد صلى الله
 عليه وسلم فإنه يسأل في أمته . وفي حديث عمر أنه قال لكعب الأحبار : يا كعب ، خوفنا ههنا
 حدثنا نهبنا . فقال له كعب : يا أمير المؤمنين ، والذي نفسى بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل
 عمل سبعين نبيا لأنت عليك تارات لا يمك إلا نفسك ، وإن لجهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب
 ولا نبي منتخب إلا وقع جاثيا على ركبتيه ، حتى إن إبراهيم الخليل ليذلي بالخلعة فيقول : يا رب ،
 أنا خليلك إبراهيم ، لا أسألك اليوم إلا نفسى ! قال : يا كعب ، أين تجد ذلك في كتاب الله ؟
 قال : قوله تعالى : « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوئى كل نفس ما عملت وهم
 لا يظلمون » . وقال ابن عباس في هذه الآية : ما تزال الحصومة بالناس يوم القيامة حتى
 تخاصم الروح الجسد ؛ فتقول الروح : رب ، الروح منك أنت خلقتني ، لم تكن لى يد أبطش بها ،
 ولا رجل أمشي بها ، ولا عين أبصر بها ، ولا أذن أسمع بها ولا عقل أحقل به ، حتى جئت
 فدخلت في هذا الجسد ، فضعف عليه أنواع العذاب ونجنى ؛ فيقول الجسد : رب ، أنت
 خلقتني بيدك فكنت كالخشبة ، ليس لى يد أبطش بها ، ولا قدم أسمى به ، ولا بصر أبصر به ،
 ولا سمع أسمع به ، فجاء هذا كشماع النور ، فيه نطق لسانى ، وبه أبصرت عيني ، وبه مشيت
 رجلى ، وبه سمعت أذنى ، فضعف عليه أنواع العذاب ونجنى منه . قال : فيضرب الله لها
 مثلا أعمى ومقعدا دخلا بستانا فيه ثمار ، فالأعمى لا يبصر الثمرة والمقعدا لا يناولها ، فنادى
 المقعد الأعمى إيتنى فأحلتى آكل وأطعمك ، فدنا منه فحمله ، فأصابوا من الثمرة ؛ فعل من
 يكون العذاب ؟ قال : عليكما جميعا العذاب ؛ ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا
 رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ
 الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٣٣﴾

قوله تعالى : (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً) هذا متصل بذكر المشركين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على مشركي قريش وقال : « اللَّهُمَّ أَشَدُّ وُطْأَتِكَ عَلَى مُضَرٍّ وَأَجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سَيْنِينَ كَسَيْنِي يَوْسُفٌ » . فابْتُلُوا بِالْقَحْطِ حَتَّى أَكَلُوا الْعُظَامَ ، وَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَعَامًا فَفَرَّقَ فِيهِمْ . (كَانَتْ أَمْنَةً) لَا يَبْهَاجُ أَهْلُهَا . (يَا أَيُّهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) مِنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، نَظِيرُهُ « يُجَيِّئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ » ^(١) الْآيَةِ . (فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ) الْأَنْعُمُ : جَمْعُ النِّعْمَةِ ، كَالْأَشَدِّ جَمْعُ الشَّدَةِ . وَقِيلَ : جَمْعُ نَعْمَى ، مِثْلُ بُوَيْسَى وَأَبُوسَ . وَهَذَا الْكَفْرَانُ تَكْذِيبُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ) أَيْ إِذَاقَ أَهْلُهَا . (لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) سَمَاءً لِبَاسًا لِأَنَّهُ يَظْهَرُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْهَزَالِ وَشُعُوبَةِ اللَّوْنِ وَسُوءِ الْحَالِ مَا هُوَ كَاللِّبَاسِ . (يَمَّا كَانُوا يَصْنَعُونَ) أَيْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي . وَقَرَأَهُ حُفْصُ ابْنِ غِيَاثٍ وَنَصْرَبْنِ حَاصِمُ وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ وَالْحَسَنُ وَأَبُو عَمْرٍو فَمَا رَوَى عَنْهُ عَبْدُ الْوَارِثِ وَعَبِيدُ وَعَبَّاسُ . وَالْخَوْفُ « نَصَبًا بِإِيقَاعِ أَذَاقِهَا عَلَيْهِ ، عَطْفًا عَلَى « لِبَاسِ الْجُوعِ » وَأَذَاقِهَا الْخَوْفُ ، وَهُوَ بَعَثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَايَاهُ الَّتِي كَانَتْ تُطِيفُ بِهِمْ . وَأَصْلُ الذُّوقِ بِالْتَمِ ثُمَّ يَسْتَعَارُ فَيُوضَعُ مَوْضِعُ الْإِبْتِلَاءِ . وَضُرِبَ مَكَّةُ مَثَلًا لِفَسَادِهَا مِنَ الْبِلَادِ ، أَيْ أَنَّهَا مَعَ جَوَارِ بَيْتِ اللَّهِ وَعِمَارَةِ مَسْجِدِهِ لَمَّا كَفَرَ أَهْلُهَا أَصَابَهُمُ الْقَحْطُ فَكَيْفَ بَنِيهَا مِنَ الْقُرَى . وَقَدْ قِيلَ : لِأَنَّ الْمَدِينَةَ ، أَمِنَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ كَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ لِقَتْلِ عُثْمَانَ ابْنَ عَفَّانَ ، وَمَا حَدَّثَ بِهَا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْقَتْلِ . وَهَذَا قَوْلُ عَائِشَةَ وَحِفْصَةَ زَوْجَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقِيلَ : إِنَّهُ مِثْلُ مُضَرٍ بِأَيِّ قَرْيَةٍ كَانَتْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ سَائِرِ الْقُرَى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾ هذا يدل على أنها مكة . وهو قول ابن عباس ومجاهد وقادة . ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو الجوع الذي وقع بمكة . وقيل : الشدائد والجوع منها .

قوله تعالى : فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُعْبُدُونَهُ ﴿١١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى كلوا يا معشر المسلمين من الغنائم . وقيل : الخطاب للمشركين ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إليهم بطعام رِقة طيبهم ، وذلك أنهم لما أُبْتُلُوا بالجوع سبع سنين ، وقطع العرب عنهم الميرة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أكلوا العظام المحرقة والحيفة والكلاب الميتة والجلود والعليز ، وهو الوبر يعالج بالدم . ثم إن رؤساء مكة كلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا : هذا عذاب الرجال لما بال النساء والصبيان . وقال له أبو سفيان : يا محمد ، إنك جئت تأمر بصلة الرحم والعفو ، وإن قومك قد هلكوا ؛ فأدع الله لهم . فذما لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأذن للناس بجعل الطعام إليهم وهم بعد مشركون .

قوله تعالى : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ^ط فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾

تقدم في « البقرة » القول فيها مستوفى ^(١) .

قوله تعالى : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيَتَفَتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

(١) راجع ج ٢ ص ٢١٦ وما بعدها طيبة ثانية .

فيه مسائل ثلاث :

الأولى — قوله تعالى : ﴿لَا تَصِفُ﴾ ما هنا مصدرية ، أى لوصف . وقيل : اللام لام سبب وأجل ، أى لا تقول لأجل وصفكم «الكذب» بترفع الخافض ، أى لما تصف ألسنتكم من الكذب . وقروا «الكُذْبُ» بضم الكاف والذال والباء ، نعتاً للألسنة ، وقد تقدم^(١) . وقروا الحسن هنا خاصة «الكَذِبُ» بفتح الكاف وخفض الذال والباء ، نعتاً «لما» ؛ بالتقدير : ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذب . وقيل على البديل من ما ؛ أى ولا تقولوا للكذب الذى تصفه ألسنتكم هذا حلال وهذا حرام ليتقروا على الله الكذب . الآية خطاب للكفار الذين حرّموا البحائر والسوائب وأحلوا ما فى بطون الأنعام وإن كان ميتة . فقوله «هذا حلال» إشارة إلى ميتة بطون الأنعام ، وكل ما أحلوه . وقوله «وهذا حرام» إشارة إلى البحائر والسوائب وكل ما حرّمه . ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُخْلِحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ أى ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عن قريب . وقال الزجاج : أى متاعهم متاع قليل . وقيل : لهم متاع قليل ثم يردون إلى عذاب ألم .

الثانية — أسند الترمذى أبو محمد فى مسنده أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال : ما سمعت إبراهيم قط يقول حلال ولا حرام ، ولكن كان يقول : كانوا يكرهون وكانوا يستحبون . وقال ابن وهب قال مالك : لم يكن من قُتياً الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولوا إياكم كذا وكذا ، ولم أكن لأصنع هذا . ومعنى هذا : أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل ، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا فى حين من الأعيان ، إلا أن يكون البارئ تعالى ينهى بذلك عنه . وما يؤدى إليه الاجتهاد فى أنه حرام يقول : إني أكره [كذا] . وكذلك كان مالك يفعل اقتداءً بمن تقدم من أهل الفتوى . فإن قيل : فقد قال فيمن قال لزوجته أنت على حرام إنها حرام ويكون ثلاثاً . فالجواب أن مالكاً سمع على بن أبى طالب يقول إنها حرام اقتدى به . وقد يقوى الدليل على التحريم

عند المجتهد فلا بأس عند ذلك أن يقول ذلك، كما يقول إن الربا حرام في غير الأعيان الستة^(١)، وكثيرا ما يطلق مالك رحمه الله؛ فذلك حرام لا يصلح في الأموال الربوية وفيها خالف المصالح ونخرج عن طريق المقاصد لقوة الأدلة في ذلك .

قوله تعالى : **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : **(وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا)** بين أن الأنعام والحُرث حلال لهذه الأمة، فاما اليهود فحرمت عليهم منها أشياء . **(حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ)** أى في سورة الأنعام^(٢) . **(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ)** أى بحرّم ماحرّمنا عليهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بحرّمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم؛ كما تقدم في النساء^(٣) .

قوله تعالى : **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : **(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ)** أى الشرك؛ قاله ابن عباس . وقد تقدم في النساء^(٤) .

قوله تعالى : **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : **(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا)** دعا طيه السلام مشركي العرب إلى ملة إبراهيم؛ إذ كان أباهم وبأى البيت الذى به عزهم؛ والأئمة؛ الرجل الجامع للخير، وقد تقدم محامله^(٥) . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال : بلغنى أن عبدا لله بن مسعود

(١) هي الذهب والفضة والبر والشمع والتمر واللح . (٢) راجع ج ٧ ص ١٢٤ طبة أولى أو ثانية .

(٣) راجع ج ٦ ص ١٢ طبة أولى أو ثانية . (٤) راجع ج ٥ ص ٩٢ (٥) راجع ج ٢ ص ١٢٧ طبة ثانية .

قال : يرحم الله معاذاً ! كان أمة قانتاً . فقيل له : يا أبا عبد الرحمن ، إنما ذكر الله عز وجل بهذا إبراهيم عليه السلام . فقال ابن مسعود : إن الأئمة الذي يعلم الناس الخير ، وإن القانت هو المطيع . وقد تقدم القنوت في البقرة ^(١) و « حنيفاً » في الأنعام ^(٢) .

قوله تعالى : **شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَجْتَنِبُهُ وَهَدًى إِلَيْكَ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١﴾**
وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : « شَاكِرًا » أى كان شاكرًا . « لِّأَنْعَمِهِ » لأنهم جمع نعمة ، وقد تقدم . « أَجْتَنِبُهُ » أى اختاره . « وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً قيل : الولد الطيب . وقيل الثناء الحسن . وقيل : النبوة . وقيل : الصلاة مقرونة بالصلاة على محمد طية السلام في التشهد . وقيل : إنه ليس أهل دين إلّا وهم يتولّونه . وقيل : بقاء ضيافته وزيادة قبره . وكل ذلك أعطاه الله وزاده صلى الله عليه وسلم . « وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » . « مِن » بمعنى مع ، أى مع الصالحين ؛ لأنه كان في الدنيا أيضاً مع الصالحين . وقد تقدم هذا في البقرة ^(٣) .

قوله تعالى : **ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾**

قال ابن عمر : أمر باتباعه في مناسك الحج كما علم إبراهيم جبريل عليهما السلام . وقال الطبرى : أمر باتباعه في التبرؤ من الأوثان والتزين بالإسلام . وقيل : أمر باتباعه في جميع ملته إلّا ما أمر بتركه ؛ قاله بعض أصحاب الشافعى على ما حكاه الماوردى . والصحيح الاتباع في عقائد الشرع دون الفروع ؛ لقوله تعالى : « لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » ^(٤) .

(١) راجع المسألة الخامسة ج ٢ ص ٨٦ و ج ٣ ص ٢١٣ (٢) ذكر في الأنعام في موضعين ، (ج ٧ ص ٢٨ ، ١٥٢) ولم يذكر المؤلف اشتقاقه فيها ، وإنما تكلم عليه في سورة البقرة ج ٢ ص ١٣٩ فراجع .
(٣) راجع ج ٢ ص ١٣٣ طبة ثانية . (٤) راجع ج ٦ ص ٢١١ طبة أولى أو ثانية .

مسئلة : في هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للفضول — لما تقدم في الأصول —
والعمل به ، ولا ذلك على الفاضل في ذلك ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء^(١)
عليهم السلام ، وقد أمر بالافتداء بهم فقال : « قَبِدْهُمْ أَقْتَدِه » . وقال هنا : « ثم أوجينا
إِلَيْكَ أَنْ تَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » .

قوله تعالى : **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴿١٤٤﴾

قوله تعالى : **(إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ)** أى لم يكن في شرع
إبراهيم ولا من دينه ، بل كان تمما لا تغليظ فيه ، وكان السبت تغليظا على اليهود في رفض
الأعمال وترك التيسر في المعاش بسبب اختلافهم فيه ، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم
الجمعة فقال : تفرغوا للعبادة في كل سبعة أيام يوما واحدا . فقالوا : لا نريد أن يكون
عيدهم بعد عيدنا ، فاختاروا الأحد . وقد اختلف العلماء في كيفية ما وقع لهم من الاختلاف ؛
فقال طائفة : إن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وعينه لهم ، وأخبرهم بفضيلته
على غيره ، فناظروه أن السبت أفضل ؛ فقال الله له : **”دعهم وما اختاروا لأنفسهم“** .
وقيل : إن الله تعالى لم يعينه لهم ، وإنما أمرهم بتعظيم يوم في الجمعة فاختلف اجتهدهم
في تعيينه ، فعملت اليهود السبت ؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق . وعينت النصراني
يوم الأحد ؛ لأن الله تعالى بدأ فيه بالخلق . فالزم كل منهم ما أداه إليه اجتاده . وعين الله
لهذه الأمة يوم الجمعة من غير أن يكلفهم فضلا منه ونعمة ، فكانت خيرا
الأثم أمة . روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **”نحن
الآخرين الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة بيدهم أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا
وأوتينا من بعدهم فاختلفوا فيه فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذي**

(١) الفرق : الآية . (٢) راجع ٧ ص ٣٥ طية أول أربعة .

اختلفوا فيه فهذانا الله له — قال يوم الجمعة — فالיום لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى .
 فقله : ” فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه “ يقوى قول من قال : إنه لم يعين لهم ، فإنه لو
 ميّن لم وعاندوا لما قيل « اختلفوا » . وإنما كان ينبغي أن يقال اختلفوا فيه وعاندوا .
 ومما يقويه أيضا قوله عليه السلام : ” أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا “ . وهذا نص
 فى المعنى . وقد جاء فى بعض طرقه ” فهذا يومهم الذى فرض الله عليهم اختلفوا فيه “ .
 وهو حجة للقول الأول . وقد روى : ” إن الله كتب الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه
 وهذا الله له فالناس لنا فيه تبع “ .

قوله تعالى : (عَلَى الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِيهِ) يريد فى يوم الجمعة كما بيناه ؛ اختلفوا على نبيهم
 موسى وعيسى . ووجه الاتصال بما قبله أن النبی صلى الله عليه وسلم أمر باتباع الحق ، وحذر
 الله الأمة من الاختلاف عليه فيشتد عليهم كما شدد على اليهود .

قوله تعالى : اذْعُ اِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
 وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ اَحْسَنُ اِنَّ رَبَّكَ هُوَ اَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
 وَهُوَ اَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

فيه مسألة واحدة — هذه الآية نزلت بحكمة فى وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمره أن
 يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطّف ولين دون غاشنة وتعنيف ، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون
 إلى يوم القيامة . فهى حكمة فى جهة العصاة من المؤمنين ، ومنسوخة بالقتال فى حق
 الكافرين . وقد قيل : إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورُجى إيمانه بها دون
 قتال فهى فيه حكمة . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوْا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ
 لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية، نزلت في شأن التمثيل بحزة في يوم أحد، ووقع ذلك في صحيح البخارى وفي كتاب السير. وذهب النحاس إلى أنها مكية، والمعنى متصل بما قبلها من المكي اتصالاً حسناً، لأنها تتلوهج الرتب من الذى يُدعى ويُوعظ، إلى الذى يُمادى، إلى الذى يُمادى على فعله. ولكن ما روى الجمهور أثبت. روى النارقطبي عن ابن عباس قال: لما أنصرف المشركون عن قتلى أحد أنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى منظراً ساء، رأى حزمة قد شُقَّ بطنه، وأصطلم فيه، وجُهدت أذناه، فقال: "لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدى لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثل مكانه بسبعين رجلاً" ثم دعا بريدة وغطى بها وجهه، فخرجت رجلاً فغطى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه وجعل على رجليه من الإذخر، ثم قدمه فكبر عليه عشراً، ثم جعل يحاء بالرجل فيوضع وحزمة مكانه، حتى صلى عليه سبعين صلاة، وكان القتل سبعين، فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ — إِلَى قَوْلِهِ — وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ» فصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يُمثل بأحد. خرج إسماعيل بن إسحاق من حديث أبي هريرة، وحديث ابن عباس أكمل. وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: إنما نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة إلا ينال من ظالمه إذا تمكن إلا مثل ظلامته لا يتبعته إلى غيره. وحكاها الماوردي عن ابن سيرين ومجاهد.

الثانية — وأختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل في أخذ مال ثم آتته الظالم المظلوم على مال، هل يجوز له خيافته في القدر الذى ظلمه؛ فقالت فرقة: له ذلك؛ منهم ابن سيرين وإبراهيم النخعي وسفيان ومجاهد؛ واحتجت بهذه الآية وعموم لفظها. وقال مالك وفرقة معه: لا يجوز له ذلك؛ واحتجوا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أَذِ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ أُتِيََتْكَ وَلَا تَخْنِ مِنْ خَائِكَ". ورواه النارقطبي وقد تقدم هذا في «البقرة» مستوفى^(١).

ووقع في مسند ابن إسحاق أن هذا الحديث إنما ورد في رجل زنى بامرأة آخر، ثم تمكن الآخر من زوجه الثاني بأن تركها عنده وسافر؛ فاستشار ذلك الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمر فقال له: «أد الأمانة إلى من آمنتك ولا تخن من خانك». وعلى هذا يتقوى قول مالك في أمر المال؛ لأن الخيانة لاحقة في ذلك، وهي رذيلة لا انفكاك عنها، فيلغى أن يتجنبها لنفسه؛ فإن تمكن من الانتصاف من مال لم يأمنه عليه فيشبه أن ذلك جائز وكان الله حكم له؛ كما لو تمكن الاخذ بالحكم من الحاكم. وقد قيل: إن هذه الآية منسوخة، نسختها «وأصبر وما صبرك إلا بالله».

الثالثة — في هذه الآية دليل على جواز التماثل في القصاص؛ فمن قتل بمحبة قُتل بها. ومن قتل بحرص قُتل به، ولا يتعدى قدر الواجب، وقد تقدم هذا المعنى في «البقرة» مستوفى^(١)، والحمد لله.

الرابعة — سمي الله تعالى الإذابات في هذه الآية عقوبة، والعقوبة حقيقة إنما هي الثانية، وإنما فعل ذلك ليستوى اللفظان وتناسب دجاجة القول، وهذا بعكس قوله: «ومكروا ومكر الله» وقوله: «الله يستهزئ بهم» فإن الثاني هنا هو المجاز والأول هو الحقيقة؛ قاله ابن عطية.

قوله تعالى: وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

فيه مسألة واحدة — قال ابن زيد: هي منسوخة بالقتال. وجمهور الناس على أنها محكمة. أي اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما طاقوا من المثلة. (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) أي على قتل أحد فإنهم صاروا إلى رحمة الله. (وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ) ضَيْقٌ جمع ضيقة؛ قال الشاعر:

كَشَفَ الضَّيْقَةَ عَنَّا وَفَسَحَ^(٢)

(١) راجع ج ٢ ص ٣٥٥ طبعة ثانية. (٢) هذا مجزيت لا معنى. ومدره كما في اللسان وديوانه.

وقراءة الجمهور بفتح الضاد . وقرأ ابن كثير بكسر الضاد، ورويت عن نافع، وهو غلط من رواه . قال بعض اللغويين : الكسر والفتح في الضاد لفتان في المصدر . قال الأخفش : الضَّبِق والضَّبِق مصدر ضاق يضيق . والمعنى : لا يضيق صدرك من كفرهم . وقال الفراء : الضَّبِق ما ضاق عنه صدرك، والضَّبِق ما يكون في الذي يَتَّسِع ويضيق؛ مثل الدار والثوب . وقال ابن السكيت : هما سواء؛ يقال : في صدره ضَبِق وضَبِق . القَتِي : ضَبِق تخفف ضَبِق؛ أي لا تكن في أمر ضَبِق تخفف؛ مثل هَيْن وهَيْن . وقال ابن عرفة : يقال ضاق الرجل إذا بخل، وأضاق إذا افتقر . وقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ أي الفواحش والجائز بالنصر والمعونة والفضل والبر والتأييد . وتقدم معنى الإحسان . وقيل لمريم بن حبان عند موته : أوصنا؛ فقال : أوصيكم بآيات الله وآخر سورة النمل : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ » إلى آخرها .

تمت سورة النمل، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الاسراء

هذه السورة مكية، إلا ثلاث آيات : قوله عز وجل « وَإِنْ كَذَبُوا لَيَسْتَغْفِرُكَ » ^(١) نزلت حين جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تقيف، وحين قالت اليهود : ليست هذه بأرض الأنبياء . وقوله عز وجل : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ » ^(٢) . وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ » ^(٣) الآية . وقال مقاتل : وقوله عز وجل « إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ » ^(٤) الآية . وقال ابن مسعود رضي الله عنه في بني إسرائيل والكهف [ومريم] : إنهم من المتقين الأول، وهم من تِلَادِي؛ يريد من قديم كسبه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾
فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (سُبْحَانَ) « سبحان » اسم موضوع موضع المصدر، وهو غير ممكن ؛ لأنه لا يجرى بوجوه الإعراب ، ولا تدخل عليه الألف واللام ، ولم يجر منه فعل ، ولم ينصرف لأن في آخره زائدتين ، تقول : سَبَّحت تسبيحا وسُبَّحانا ، مثل كفرت اليمين تكفيرا وكفرا . ومعناه التزيه والبراءة لله عز وجل من كل نقص . فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره ، فأما قول الشاعر :

أقول لما جاءني نَفَرُهُ * سبحانَ من عَظَمَةِ الْفَانِ

فأما ذكره على طريق النادر . وقد روى طلحة بن عبيد الله الفياض أحد العشرة أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما معنى سبحان الله ؟ فقال : « تزيه الله من كل سوء » . والعامل فيه على مذهب سيويه الفعل الذي من معناه لا من لفظه ، إذ لم يجر من لفظه فعل ، وذلك مثل قعد القرقصاء ، واشتمل السماء ؛ فالتقدير عنده : أنزه الله تزيها ؛ فوقع « سبحان الله » مكان قولك تزيها .

(١) كذا في جميع الأصول ، ويلاحظ أن المسائل ست . (٢) البيت للأعشى . يقول هذا لعقمة بن حلاثة الجعفرى في منافرة لعمار بن الطفيل ، وكان الأعشى قد فضل حامرا وتبرا من عقمة ونفخه على حمار (عن الشنفرى) . (٣) السماء ، ضرب من الاشتغال . واشتمال السماء : أن تجلجل جسداك بشوك نحو شملة الاعراب بأكسيتم ، وهو أن ردة الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وطاقه الأيسر ثم ردة ثانية من خلقه على يده اليمنى وطاقه الأيمن فينظم ما جعما .

الثانية - قوله تعالى : (**أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**) « أسرى » فيه لفتان : سرى وأسرى ; كسقى وأسقى ، كما تقدم ^(١) . قال :

أُسِرْتُ عليه من الجوزاء سارية * تُزجى الشمال عليه جامد البرد ^(٢)
وقال آخر :

حتى النضيرة ربة الحنذر * أسرت إلى ولم تكن تسرى ^(٣)
بجمع بين اللتين في اليتين . والإسراء : سير الليل ، يقال : سرت مسرى ومسرى ، وأسريت
إسراء ، قال الشاعر :

وليلة ذات ندى سريت * ولم يلتني من سراها ليت
وقيل : أسرى سار من أول الليل ، وسرى سار من آخره ، والأول أحرف .

الثالثة - قوله تعالى : (**بِعَبْدِهِ**) قال العلماء : لو كان النبي صلى الله عليه وسلم اسم
أشرف منه لسيأ به في تلك الحالة العلية . وفي معناه أنشدوا :

يا قوم قلبي عند زهراء * يعرفه السامع والرأي
لا تدعني إلا بيا حبدها * فإنه أشرف أسمائي
وقد تقدم ^(٤) . قال القشيري : لما رفعه الله تعالى إلى حضرته السنية ، وأرقاه فوق الكواكب
العالية ، ألزمه أمم العبودية تواضعا للأمة .

الرابعة - ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث ، وروى عن الصحابة في كل أقطار
الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه . وذكر النقاش : ممن رواه عشرين صحابيا ، روى الصحيح
عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتيت بالبراق وهو دابة أبيض
[طويل] أوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه - قال - فركبته حتى أتيت
بيت المقدس - قال - فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء - قال - ثم دخلت المسجد

(١) راجع ج ١ ص ١٧ طبعة ثانية أو الثالثة . (٢) البيت الثانية الديباني ، من قصيدته التي مطلعها :
يا دارية بالعليا . (٣) البيت لحسان بن ثابت . (٤) راجع ج ١ ص ٢٣٢ طبعة ثانية أو الثالثة .

فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من نحر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت الفِطْرَةَ — قال — ثم عَرَّج بنا إلى السماء ... » وذكر الحديث .
 ومما ليس في الصحيحين ما ترجمه الآجُرِّيَّ والسَّمَرَقَنْدِيُّ ، قال الآجُرِّي عن أبي سعيد الخدريّ في قوله تعالى « مبيحان الذي أمرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله » قال أبو سعيد : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلة أُسْرِيَ به ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « أُتِيتُ بدابةً هي أشبه الدواب بالبغل له أذنان يضطربان وهو البراق الذي كانت الأنبياء تركبه قبلُ فركبته فانطلق تقع يداه عند منتهى بصره فسمعت نداء عن يميني يا محمد علي رِسْلِكَ حتى أسألك فضيت ولم أُعَرَّج عليه ثم سمعت نداء عن يساري يا محمد علي رِسْلِكَ فضيت ولم أُعَرَّج عليه ثم استقبلتني امرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول علي رِسْلِكَ حتى أسألك فضيت ولم أُعَرَّج ثم أتيت بيت المقدس الأقصى فزلت عن الدابة فأوفقته في الحلقة التي كانت الأنبياء تُوثق بها ثم دخلت المسجد وصليت فيه فقال لي جبريل عليه السلام ما سمعت يا محمد فقلتُ سمعتُ نداءً عن يميني يا محمد علي رِسْلِكَ حتى أسألك فضيت ولم أُعَرَّج فقال ذلك داعي اليهود ولو وقفتَ تهودت أمّتك — قال — ثم سمعت نداءً عن يساري علي رِسْلِكَ حتى أسألك فضيت ولم أُعَرَّج عليه فقال ذلك داعي النصرانيّ أمّا إنك لو وقفتَ لتنصرت أمّتك — قال — ثم استقبلتني امرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول علي رِسْلِكَ فضيت ولم أُعَرَّج عليها فقال تلك الدنيا لو وقفتَ لاخترت الدنيا على الآخرة — قال — ثم أتيت باناءين أحدهما فيه لبن والآخر فيه نحر فقيل لي خذ فأشرب أيهما شئت فأخذت اللبن فشربته فقال لي جبريل أصهت الفِطْرَةَ ولو أنك أخذت الخمر غوت أمّتك ثم جاء بالمراج الذي ترج فيه أرواح بني آدم فإذا هو أحسن ما رأيتُ أو لم تروا إلى الميت كيف يحذّ بصره إليه فرج بنا حتى أتينا باب السماء الدنيا فأستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قالوا ومن معك قال عهد قالوا وقد أرسل إليه ؟

قال نعم ففتحوا لي وسلموا عليّ وإذا ملك يحرس السماء يقال له إسماعيل معه سبعون ألف ملك مع كل ملك مائة ألف ... قال ... وما يعلم جنود ربك إلا هو ... " وذكر الحديث إلى أن قال : " ثم مضينا إلى السماء الخامسة وإذا أنا بهارون بن عمران المحبّ في قومه وحوله تبع كثير من أمته فوصفه النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال طويل اللحية تكاد لحيته تضرب في سُرته ثم مضينا إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى فسلم عليّ ورحب بي - فوصفه النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال - رجل كثير الشعر ولو كان عليه قيصران خرج شعره منهما ... " الحديث . وروى البزار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بفرس فحمل عليه ، كلُّ خطوة منه أقصى بصره ... وذكر الحديث . وقد جاء في صفة البراق من حديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينا أنا نائم في الحجر إذ أتاني آتٍ فخركني برسوله فأتيت الشخص فإذا هو جبريل عليه السلام قائم على باب المسجد معه دابة دون البغل وفوق الحمار وجهها وجه إنسان وخفها خف حافر وذنبها ذنب ثور وعُرْفها عُرْف الفرس فلما أدناها مني جبريل عليه السلام ففرت ونفشت عرقها فمسحها جبريل عليه السلام وقال يا بركة لا تنفري من عهد فوائقه ما ربك ملك مقرب ولا نبيّ مرسل أفضل من عهد صلى الله عليه وسلم ولا أكرم على الله منه قالت قد علمت أنه كذلك وأنه صاحب الشفاعة وإنّي أحبّ أن أكون في شفاعته فقلت أنت في شفاعتي إن شاء الله تعالى ... " الحديث . وذكر أبو سعيد عبد الملك بن محمد التيسابوري عن أبي سعيد الخدري قال : لما مر النبيّ صلى الله عليه وسلم بإدريس عليه السلام في السماء الرابعة قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبيّ الصالح الذي وعدنا أن نراه فلم نره إلا الليلة قال فإذا فيها مريم بنت عمران لها سبعون قصرا من لؤلؤ ولأم موسى بن عمران سبعون قصرا من مرجانة حمراء مكللة باللؤلؤ أبوابها وأبوابها من عرق واحد فلما عرج المعراج إلى السماء الخامسة وتسبيح أهلها سبحان من جمع بين الطلح والنار من قالها مرة واحدة كان له مثل ثوابهم استفتح الباب جبريل عليه السلام ففتح له فإذا هو بكهل لم يرقط كهل أبجل منه عظيم العينين تضرب لحيته

قريباً من سرته قد كاد أن تكون شتمطة ^(١) وحوله قوم جلوس يقص عليهم فقلت يا جبريل من هذا قال هارون المحب في قومه ... " وذكر الحديث .

فهذه نبذة مختصرة من أحاديث الإسراء خارجة عن الصحيحين ، ذكرها أبو الربيع سليمان ابن سبع بكاملها في كتاب (شفاء الصدور) له . ولا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما فرضت على النبي صلى الله عليه وسلم بمكة في حين الإسراء حين عرج به إلى السماء . واختلفوا في تاريخ الإسراء وهيته الصلاة ، وهل كان إسرائاً بروحه أو جسده ؛ فهذه ثلاث مسائل تتعلق بالآية ، وهي مما يلغى الوقوف عليها والبحث عنها ، وهي أهم من سرد تلك الأحاديث ، وأنا أذكر ما وقفت عليه فيها من أقاويل العلماء واختلاف الفقهاء بعون الله تعالى .

فأما المسألة الأولى — وهي هل كان إسرائاً بروحه أو جسده ؛ اختلف في ذلك السلف والخلف ، فذهب طائفة إلى أنه إسرائ بالروح ، ولم يفارق شخصه مضجعه ، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق ، ورؤيا الانبياء حق . ذهب إلى هذا معاوية وعائشة ، وحكى عن الحسن وابن إسحاق . وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح ؛ واحتجوا بقوله تعالى : «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» بفعل المسجد الأقصى غاية الإسراء . قالوا : ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره ، فإنه كان يكون أبلغ في المدح . وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسرائاً بالجسد وفي اليقظة ، وأنه ركب البراق بمكة ، ووصل إلى بيت المقدس وصلى فيه ثم أسرى بجسده . وعلى هذا تدل الأخبار التي أشرنا إليها والآية . وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة ، ولا يُعَدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، ولو كان مناماً لقال بروح عبده ولم يقل بعبده . وقوله «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى» يدل على ذلك . ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولما قالت له أم هاني : لا تحدث الناس

(١) الشمط في الشعر : اعتلاؤه برفين من سواد وبياض .

فيكذبوك، ولا تُقبَل أبو بكر بالتصديق، ولما أمكن قريشاً التشليع والتكذيب، وقد كذب قريش فيما أخبر به حتى آرتد أقوام كانوا آمنوا، فلو كانت بالرؤيا لم يستنكروا، وقد قال له المشركون: إن كنت صادقاً نخبرنا عن غيرنا أين لقيتها؟ قال: «بمكان كذا وكذا مررت عليها ففزع فلان فقيل له: ما رأيت يا فلان، قال: ما رأيت شيئاً! فزأن الإبل قد فقرت». قالوا: فأخبرنا متى تأتينا العير؟ قال: «تأتيكم يوم كذا وكذا». قالوا: آية ساعة؟ قال: «ما أدري، طلوع الشمس من هاهنا أسرع أم طلوع العير من هاهنا». فقال رجل: ذلك اليوم؟ هذه الشمس قد طلعت. وقال رجل: هذه عيركم قد طلعت، واستغربوا النبي صلى الله عليه وسلم عن صفة بيت المقدس فوصفه لهم ولم يكن رآه قبل ذلك. روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد رأيتني في البحر وقريش تسألني عن مسمراى فسألني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ففكرت كزباً ما كُربت مثله قط» — قال — فوفيه الله لي أنظر إليه فما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به. الحديث.

وقد اعترض قول عائشة ومعاوية: «لما أسرى بنفس رسول الله صلى الله عليه وسلم» بأنها كانت صغيرة لم تشهد، ولا حدثت عن النبي صلى الله عليه وسلم. وأما معاوية فكان كافراً في ذلك الوقت غير مشاهد للحال، ولم يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم. ومن أراد الزيادة على ما ذكرنا فليقف على (كتاب الشفاء) للقاضي حياض يحمد من ذلك الشفاء. وقد احتج لعائشة بقوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ» فسماها رؤيا. وهذا يردّه قوله تعالى: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً» ولا يقال في النوم أسرى. وأيضا فقد يقال لرؤية العين: رؤيا، على ما يأتي بيانه في هذه السورة. وفي نصوص الأخبار الثابتة دلالة واضحة على أن الإسرائيل كان بالبدن، وإذا ورد الخبر بشيء هو مجوز في العقل في قدرة الله تعالى فلا طريق إلى الإنكار، لا سيما في زمن حرق الموائد، وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم معاريج، فلا يبعد أن يكون البعض بالرؤيا، وعليه يحمل قوله عليه السلام في الصحيح: «بيننا أنا عند البيت بين النائم واليقظان» الحديث. ويحتمل أن يرد من الإسرائيل إلى نوم. والله أعلم.

(١) أي لم أعرفها حق المعرفة؟ قال: أثبت الشيء وأبواه إذا عرّفه حق المعرفة. (٢) آية ٦ من هذه السورة.

المسألة الثانية — في تاريخ الإسراء ، وقد اختلف العلماء في ذلك أيضا ، واختلف في ذلك على ابن شهاب ؛ فروى عنه موسى بن عقبة أنه أسرى به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة . وروى عنه يونس عن صروة عن عائشة قالت : تُوِّفِتْ خديجة قبل أن تُفرض الصلاة . قال ابن شهاب : وذلك بعد بيعت النبي صلى الله عليه وسلم بسبعة أعوام . وروى عنه الواقصي قال : أسرى به بعد بيعته بخمس سنين . قال ابن شهاب : وفرض الصيام بالمدينة قبل بدر ، وفرضت الزكاة والحج بالمدينة ، وحُرِّمَتِ الخمر بعد أحد . وقال ابن إسحاق : أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس ، وقد فشا الإسلام بمكة في القبائل . وروى عنه يونس بن بكير قال : صَلَّتْ خديجة مع النبي صلى الله عليه وسلم . وسأقي . قال أبو عمر : وهذا يدل على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام ؛ لأن خديجة قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين وقيل بثلاث وقيل بأربع . وقول ابن إسحاق مخالف لقول ابن شهاب ، على أن ابن شهاب قد اختلف عنه كما تقدم . وقال الحرشي : أسرى به ليلة سبع وعشرين من [شهر] ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة . وقال أبو بكر محمد بن علي ابن القاسم الذهبي في تاريخه : أسرى به من مكة إلى بيت المقدس ، وعرج به إلى السماء بعد بيعته بثمانية عشر شهرا . قال أبو عمر : لا أعلم أحدا من أهل السير قال ما حكاه الذهبي ، ولم يُسند قوله إلى أحد ممن يضاف إليه هذا العلم منهم ، ولا رفعه إلى من يحتج به عليهم .

المسألة الثالثة — وأما فرض الصلاة وهيئتها حين فرضت ، فلا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عُرِجَ به إلى السماء ، وذلك منصوب في الصحيح وغيره . وإنما اختلفوا في هيئتها حين فرضت ؛ فروى عن عائشة رضي الله عنها أنها فرضت ركعتين ركعتين ، ثم زيد في صلاة الحضرة فكلت أربعاً ، وأقررت صلاة السفر على ركعتين . وبذلك قال الشعبي وميمون بن مهران ومحمد بن إسحاق . قال الشعبي : إلا المغرب . قال يونس بن بكير : وقال ابن إسحاق ثم إن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم حين فرضت عليه الصلاة يعني في الإسراء فهمزله بعقبه في ناحية

الوادي فأنفجرت حين ماء فتوضأ جبريل ومجد بنظر عليهما السلام فتوضأ وجهه واستنشق وتمضمض ومسح برأسه وأذنيه ورجليه إلى الكعبين ونضح فرجه، ثم قام يصلي ركعتين بأربع سجرات، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقر الله عينه وطابت نفسه وجاءه ما يحب من أمر الله تعالى، فأخذ بيد خديجة ثم أتى بها العين فتوضأ كما توضأ جبريل ثم ركع ركعتين وأربع سجرات هو وخديجة، ثم كان هو وخديجة يصليان سواء. وروى عن ابن عباس أنها فرضت في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين. وكذلك قال نافع بن جبير والحسن بن أبي الحسن البصري، وهو قول ابن جريح، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يوافق ذلك. ولم يختلفوا في أن جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال، فعلم النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة ومواقفها. وروى يونس بن بكير عن سالم مولى أبي المهاجر قال سمعت ميون بن مهران يقول: كان أول الصلاة مثنى، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعاً فصارت سنة، وأقيمت الصلاة للسافر وهي تمام. قال أبو عمر: وهذا إسناد لا يمتنع بمثله، وقوله «فصارت سنة» قول متكرر، وكذلك استثناء الشعبي المغرب وحدها ولم يذكر الصبح قولاً لا معنى له. وقد أجمع المسلمون أن فرض الصلاة في الحضر أربع إلا المغرب والصبح ولا يعرفون غير ذلك عملاً وتقليداً مستقيماً، ولا يضرهم الاختلاف فيما كان أصل فرضها.

الخامسة - قد مضى الكلام في الأذان في «المائدة»^(١) والحمد لله. ومضى في «آل عمران»^(٢) أن أول مسجد وضع في الأرض المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى. وأن بينهما أربعين عاماً من حديث أبي ذر، وبناء سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو ووجه الجمع في ذلك؛ فتأمل هناك فلا معنى للإعادة. ونذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم: «لَا تُسَبِّدُ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِلَى مَسْجِدِي هَذَا وَإِلَى مَسْجِدِ إِبِلَاءَ أَوْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ». نَحْرَجُهُ مَالِكٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ. وفيه ما يدل على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد؛ لهذا قال العلماء: من نذر صلاة في مسجد

لا يصل إليه إلا برحلة وراحلة فلا يفعل ، ويصلي في مسجده ، إلا في الثلاثة المساجد المذكورة فإنه من نذر صلاة فيها نخرج إليها . وقد قال مالك وجماعة من أهل العلم فيمن نذر رباطاً في قُرى يسته : فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط لأنه طاعة لله عز وجل . وقد زاد أبو البختري في هذا الحديث مسجد الجند ، ولا يصح وهو موضوع ، وقد تقدم في مقدمة الكتاب .

السادسة — قوله تعالى : ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ سُمِّيَ الْأَقْصَى لبعده ما بينه وبين المسجد الحرام ، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظم بالزيارة ، ثم قال : ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ قيل : بالثمار ويجاري الأنهار . وقيل : بمن دُفن حوله من الأنبياء والصالحين ؛ وهذا جعله مقبلاً ، وروى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يقول الله تعالى يا شام أنت صفوتي من بلادى وأنا سائق إليك صفوتي من عبادى" ، ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ هذا من باب تلوين الخطاب . والآيات التي أراه الله من العجايب التي أخبر بها الناس ، وإسراؤه من مكة إلى المسجد الأقصى في ليلة وهو مسيرة شهر ، وعروجه إلى السماء ووصفه الأنبياء واحداً واحداً ، حسبما ثبت في صحيح مسلم وغيره . ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقدم^(١) .

قوله تعالى : ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾

أى كرمنا عبداً صلى الله عليه وسلم بالمعراج ، وأكرمنا موسى بالكتاب وهو التوراة . ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أى ذلك الكتاب . وقيل موسى . وقيل معنى الكلام : سبحانه الذى أمرى بعبد له لئلا وآتى موسى الكتاب ؛ نخرج من النبوة إلى الإخبار عن نفسه جل وعز . وقيل : لأن معنى سبحانه الذى أمرى بعبد له لئلا ، معناه أمرين ، يدل عليه ما بعده من قوله : ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ فحمل «وَأَتَيْنَا موسى الكتاب» على المعنى . ﴿أَلَّا يَتَّخِذُوا﴾ قرأ أبو عمرو «يَتَّخِذُوا»

بالياء . الباقون بالتاء . فيكون من باب تلوين الخطاب . (وَيَكَلَّا) أى شربكأ؛ عن مجاهد .
وقيل : كفيلا بأمرهم؛ حكاة الفراء . وقيل : رباً يتوكلون عليه في أمورهم؛ قاله الكلبي .
وقال الفراء : كافيا ؛ والتقدير : عهدنا إليه في الكتاب ألا نتخذوا من دوني وكلا . وقيل :
التقدير لئلا نتخذوا . والويل : من يُوكَل إليه الأمر .

قوله تعالى : ذَرِيَّةٌ مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٤١﴾

أى يا ذرية من حملنا ، على التداء ؛ قاله مجاهد ورواه عنه ابن أبي تيجي . والمراد بالذرية
كل من احتج عليه بالقرآن ، وهم جميع من على الأرض ؛ ذكره المهدوي . وقال الماوردي :
يعنى موسى وقومه من بنى إسرائيل ، والمعنى يا ذرية من حملنا مع نوح لا تشركوا . وذكر نوحا
ليذكرهم بعمدة الإنجاء من الغرق على آبائهم . وروى سفيان عن حميد عن مجاهد أنه قرأ
« ذَرِيَّةٌ » بفتح الذال وتشديد الراء والياء . وروى هذه القراءة عامر بن الواجد عن زيد
ابن ثابت . ورؤى عن زيد بن ثابت أيضا « ذَرِيَّةٌ » بكسر الذال وشدة الراء . ثم بين أن
نوحا كان عبدا شكورا يشكر الله على نعمه ولا يرى الخير إلا من عنده . قال قتادة : كان إذا لبس
ثوبا قال : بسم الله ، فإذا نزع قال : الحمد لله . كذا روى عنه معمر . وروى معمر عن منصور
عن إبراهيم قال : شُكْرُهُ إذا أكل قال : بسم الله ، فإذا فرغ من الأكل قال : الحمد لله .
قال سلمان الفارسي : لأنه كان يحمده الله على طعامه . وقال عمران بن سليم : إنما سمي نوحا
عبدا شكورا لأنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء لأجافنى ، وإذا شرب
قال : الحمد لله الذى سقانى ولو شاء لأظمأنى ، وإذا آكسى قال : الحمد لله الذى كسأنى
ولو شاء لأعمرانى ، وإذا احتذى قال : الحمد لله الذى حذأنى ولو شاء لأحفأنى ، وإذا قضى
حاجته قال : الحمد لله الذى أخرج عني الأذى ولو شاء لحبسني . ومقصود الآية : إنكم
من ذرية نوح وقد كان عبدا شكورا فآتم أحق بالافتداء به دون آبائكم الجهال . وقيل :
المعنى أن موسى كان عبدا شكورا إذ جعله الله من ذرية نوح . وقيل : يجوز أن يكون

« ذرية » مفعولاً ثانياً لـ « تتخذوا » ، ويكون قوله : « ويكلا » يراد به الجمع فيسوغ ذلك في القراءتين جميعاً أعني الياء والتاء في « تتخذوا » . ويجوز أيضاً في القراءتين جميعاً أن يكون « ذرية » بدلاً من قوله « ويكلا » لأنه بمعنى الجمع ؛ فكأنه قال لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح . ويجوز نصبها بإضمار أعني وأمدح ، والعرب قد تنصب على المدح والذم . ويجوز رفعها على البدل من المضمر في « تتخذوا » في قراءة من قرأ بالياء ؛ ولا يحسن ذلك لمن قرأ بالتاء لأن المخاطب لا يبدل منه الغائب . ويجوز جرهما على البدل من بني إسرائيل في الوجهين . فأما « أن » من قوله « لا تتخذوا » فهي على قراءة من قرأ بالياء في موضع نصب بحذف الجار ، التقدير : هديناهم لئلا يتخذوا . ويصلح على قراءة التاء أن تكون زائدة والقول مضمر كما تقدم . ويصلح أن تكون مفسرة بمعنى أى ، لا موضع لها من الإعراب ، وتكون « لا » للنهي فيكون خروجاً من الخبر إلى النهي .

قوله تعالى : وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ) وقرأ سعيد بن جبير وأبو العالية « في الكتاب » على لفظ الجمع . وقد يرد لفظ الواحد ويكون معناه الجمع ؛ فتكون القراءتان بمعنى واحد . ومعنى « قضينا » أعلمنا وأخبرنا ؛ قاله ابن عباس : وقال قتادة : حكنا ؛ وأصل القضاء الإحكام للشئ والفراغ منه . وقيل : قضينا أوحينا ؛ ولذلك قال : « إلى بني إسرائيل » . وعلى قول قتادة يكون « إلى » بمعنى على ؛ أى قضينا عليهم وحكنا . وقاله ابن عباس أيضاً . والمعنى بالكتاب اللوح المحفوظ . (لَتُفْسِدُنَّ) وقرأ ابن عباس « لتفسدن » . ميسمى التثنية « لتفسدن » . والمعنى في القراءتين قريب ؛ لأنهم إذا أفسدوا فسدوا ، والمراد بالفساد مخالفة أحكام التوراة . (في الأرض) يريد أرض الشام وبيت المقدس وما والاها . (مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ) اللام في « لتفسدن ولتعلمن » لام قسم مضمر كما تقدم . (عُلُوًّا كَبِيرًا) أراد التكبر والبغي والطغيان والاستطالة والغلبة والعدوان .

قوله تعالى : فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ جَحَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾

قوله تعالى : (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا) أى أُولَى الْمُؤْتَمِنِ من فسادهم . (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ) هم أهل بابل ، وكان عليهم بِخَنْصَرٍ في المرة الأولى حين كذبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقال قتادة : أرسل عليهم جالوت فقتلهم ، فهو وقومه أولوا بأس شديد . وقال مجاهد : جاءهم جند من فارس يَتَّبِعُسون أخبارهم ومعهم بِخَنْصَرٍ فَوَعَى حديثهم من بين أصحابه ، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال ، وهذا في المرة الأولى ، فكان منهم جَوْشٌ خلال الديار لا قتل ، ذكره القشيري أبو نصر . وذكر المهدي عن مجاهد أنه جاءهم بِخَنْصَرٍ فهزمه بنو إسرائيل ، ثم جاءهم ثانية فقتلهم ودمرهم تدميرا . ورواه ابن أبي تيجان عن مجاهد ؛ ذكره النحاس . وقال محمد بن إسحاق في خبر فيه طول : إن المهزوم سَنَحَارِيبَ ملك بابل ، جاء ومعه ستمائة ألف راية تحت كل راية مائة ألف فارس ففترل حول بيت المقدس فهزمه الله تعالى وأمات جميعهم إلا سَنَحَارِيبَ ونحوه نفر من كتّابه ، وبعث ملك بني إسرائيل واسمه صديقة في طلب سَنَحَارِيبَ فأخذ مع الخمسة ، أحدهم بِخَنْصَرٍ ، فطرح في رقابهم الجسور (٢) وطاف بهم سبعة أيام حول بيت المقدس وإلياء ويرزقهم كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم ، ثم أطلقهم فرجعوا إلى بابل ، ثم مات سَنَحَارِيبَ بعد سبع سنين ، واستخلف بِخَنْصَرٍ وعظمت الأحداث في بني إسرائيل ، واستحلوا المحارم وقتلوا نبيهم شعبا ، فجاءهم بِخَنْصَرٍ ودخل هو وجنوده بيت المقدس وقتل بني إسرائيل حتى أفتانهم . وقال ابن عباس وابن مسعود : أول الفساد قتل زكريا . وقال ابن إسحاق : فسادهم في المرة الأولى قتل شعبا نبي الله في الشجرة ؛ وذلك أنه لما مات صديقة ملكهم مَرِجَ (٣) أمرهم

(١) راجع كتاب قصص الأنبياء ، المسمى بالعرائس ص ٢٥٩ طبع بلاق وتاريخ الطبري ج ٢ قسم أول ص ٢٣٨

وما بعدها طبع أوروبا . (٢) الجوامع : الأغلال ، والواحد جامعة . (٣) مرجع الأمر : فسد

وأخطأ رايتيس المخرج فيه .

وتنافسوا على الملك وقتل بعضهم بعضاً وهم لا يسمعون من نبيهم؛ فقال الله تعالى له قم في قومك أوج على لسانك، فلما فرغ مما أوحى الله إليه عدواً عليه ليقتلوه فهرب فانفلقت له شجرة فدخل فيها، وأدركه الشيطان فأخذ هُدْبَةً من ثوبه فأراهم إياها، فوضعوا المنشار في وسطها ففشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها . وذكر ابن إسحاق أن بعض العلماء أخبره أن زكريا مات موتاً ولم يقتل وإنما المقتول شيئاً . وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى : « ثم بثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار » هو سنحاريب من أهل نينوى بالموصل ملك بابل . وهذا خلاف ما قال ابن إسحاق ، فإله أعلم . وقيل : إنهم المالقة وكانوا كفاراً ، قاله الحسن . ومعنى جاسوا : عاثوا وقتلوا ؛ وكذلك جاسوا وهاسوا وداسوا ؛ قاله ابن عريز ، وهو قول القتيبي . وقرأ ابن عباس : « حاسوا » بالحاء المهملة . قال أبو زيد : الحوس والحوس والهُوس والهُوس : الطواف بالليل . وقال الجوهري : الحوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار ، أى تحسلوها فطلبوا ما فيها كما يحوس الرجل الأخبار أى يطلبها ؛ وكذلك الاجتياص . والجوسان (بالتحريك) الطوفان بالليل ؛ وهو قول أبي عبيدة . وقال الطبري : طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين ؛ فجمع بين قول أهل اللغة . قال ابن عباس : مشوا وترددوا بين الدور والمساكن . وقال الفراء : قتلوكم بين بيوتكم ؛ وأنشد لحسان :

ومنا الذي لاقى بسيف محمد * بغاس به الأعداء عرض العساكر

وقال قطرب : نزلوا ؛ قال :

بُغْسْنَا ديارَهُمْ عَنُوءَ * وَأُبْنَا بِسَادَتِهِمْ مُوقِينَا

(وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا) أى قضاء كانتا لا خلف فيه .

قوله تعالى : ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ

وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ لَكُمْ الْكَوَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى النبوة والرجعة ؛ وذلك لما تبتم وأطعتم . ثم قيل : ذلك بقتل داود جالوت أو بقتل غيره ، على الخلاف فى من قتلهم . ﴿ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ حتى عاد أمرهم كما كان . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ أى أكثر عددا ورجالا من صدوقكم . والنفير من نفر مع الرجل من عشيرته ؛ يقال : نفير ونافر مثل قدير وقادر . ويجوز أن يكون النفير جمع نفر كالكلب والمعيز والعبيد ؛ قال الشاعر :

فَأَكْرَمَ بِقَحْطَانٍ مِّنْ وَالِدٍ * وَجَمِيرٍ أَكْرَمَ بِقَوْمٍ نَفِيرًا

والمعنى : أنهم صاروا بعد هذه الواقعة الأولى أكثر أنفعا ما وأصلح أحوالا ، جزاء من الله تعالى لهم على عودهم إلى الطاعة .

قوله تعالى : ﴿ إِنِ احْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ آخِرَةٍ لِّیَسْتَعْبُوا وَجُوهَكُمْ وَلِیَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِیُتَبَرَّوا مَا عَلَوُا تَلْبِیرًا ۝۱۱ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنِ احْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ أى نعم إحسانكم فائد عليكم . ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أى فعلیها ؛ نحو سلام لك ، أى سلام عليك . قال :

نَحْنُ صَرِيحَا الْيَدَيْنِ وَالْقَلَمِ ۝

أى على اليمين وعلى القلم . وقال الطبرى : اللام بمعنى إلى ، يعنى وإن أسأتم فإليها ، أى فإليها ترجع الإساءة ؛ لقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا » أى إليها . وقيل : فلها الجزاء والعقاب . وقال الحسين بن الفضل : فلها رب يغفر الإساءة . ثم يحتمل أن يكون هذا (١) هذا بحزيت لريمة بن مكرم . وصدوره :

وَحَكَتْ بِالرَّحِ الْغُلُولِ إِعَابَهُ ۝

وقيل هذا البيت :

فَصُرْتُ رَاحِلَةَ التَّلْبِيَةِ نَحْوَهُ ۝ عَمِدًا لِّعَلَّ يَمُضَ مَا لَمْ يَمُضْ

وبعدده :

وَمَضَتْ أَمْرَ بَعْدِهِ جِيَاثًا ۝ نَجَلًا فَاغْرَةً كَشَقْدَ الْأَخِيمِ

وهذه الآيات قبلت يوم التلبية . راجع أمالى القالى ج ٢ ص ٢٧٠ طبع دار الكتب المصرية .

خطابا لبني إسرائيل في أول الأمر؛ أى أسأتم فقل بكم القتل والسبي والتخريب ثم أحسستم فعاد إليكم الملك والسلطان وانتظام الحال . ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو إسرائيل في زمن عهد صلى الله عليه وسلم؛ أى عرفتم استحقاق أسلافكم للمقبولة على العصيان فأرقيبوها مثله . أو يكون خطابا لمشركي قريش على هذا الوجه . (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآيَةِ) من إفسادكم؛ وذلك أنهم قتلوا في المرة الثانية يحيى بن زكريا طليهما السلام، قتله ملك من بني إسرائيل يقال له لاخت؛ قاله القتيبي . وقال الطبري : اسمه هر دوس، ذكره في التاريخ؛ حملة على قتله امرأة اسمها أزيل . وقال السدي : كان ملك بني إسرائيل يكرم يحيى بن زكريا ويستنشيه في الأمر، فاستشاره الملك أن يتزوج بنت امرأة له فنهاه عنها وقال : إنها لا تحل لك؛ فخذت أمها على يحيى عليه السلام، ثم ألبست ابتهايا با حمار قاقا وطيبتها وأرسلتها إلى الملك وهو على شرايه، وأمرتها أن تعرض له، وإن أرادها أبت حتى يعطيها ما تسأله؛ فإذا أجاب سألت أن يؤتى برأس يحيى بن زكريا في طست من ذهب؛ ففعلت ذلك حتى أتى برأس يحيى بن زكريا والراس تنكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول : لا تحل لك؛ لا تحل لك؛ فلما أصبح إذ مده يثقل، فالقى عليه التراب فغلى فوقه، فلم يزل يلقي عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يثقل؛ ذكره الثعلبي وغيره . وذكر ابن عساكر الحافظ في تاريخه عن الحسين بن علي قال : كان ملك من هذه الملوك مات وترك امرأته وأبنته فوريث ملكه أخوه، فأراد أن يتزوج امرأة أخيه، فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك، وكانت الملوك في ذلك الزمان يعملون بأمر الأئبياء، فقال له : لا تتزوجها فإنها بنتي؛ فعرفت ذلك المرأة أنه قد ذكرها وصرفه عنها، فقالت : من أين هذا ! حتى بلغها أنه من قبل يحيى، فقالت : ليقطن يحيى أو ليخرجن من ملكه، فمعدت إلى ابنتها وصنعتها، ثم قالت : اذهبي إلى عمك عند الملاء فإنه إذا رآك سيدعوك ويمسك في حجره، ويقول سليني ما شئت، فإنا لن تسأليني شيئا إلا أعطيتك، فإذا قال لك ذلك فقولى : لا أسأل إلا رأس يحيى . قال : وكانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشيء على رموس الملاء ثم لم يؤخذ له نزع من ملكه؛ ففعلت ذلك . قال : فجعل يأتيه الموت من قتله يحيى،

وجعل يأتيه الموت من نروجه من ملكه ، فأختار ملكه فقتله . قال : فساخت بأثما الأرض . قال ابن جُدعان : فحدثت بهذا الحديث ابن المسيب فقال ألها أخبرك كيف كان قتل زكريا ؟ قلت لا ؛ قال : إن زكريا حيث قُتل ابنه أنطلق هاربا منهم وأتبعوه حتى أتى على شجرة ذات ساق فدعته إليها فأنطوت عليه وبقيت من ثوبه هُدبة تكفّتها الريح ، فأنطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثره بعدها ، ونظروا بتلك الهُدبة فدعوا بالإنشار فقطعوا الشجرة فقطعوه معها .

قلت : وقع في التاريخ الكبير للطبري ^(١) فحدثني أبو السائب قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : بعث عيسى بن مريم يحيى بن زكريا في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس ، قال : كان فيما نهوهم عنه نكاح ابنة الأخ ، قال : وكان للمكهم ابنة أخ تعجبه ... وذكر الخبر بمعناه . وعن ابن عباس قال : بعث يحيى ابن زكريا في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس ، وكان فيما يعلمونهم ينهونهم عن نكاح بنت الأخت ، وكان للمكهم بنت أخت تعجبه ، وكان يريد أن يترجها ، وكان لها كل يوم حاجة يقضيها ، فلما بلغ ذلك أمها أنهم نهوا عن نكاح بنت الأخت قالت لها : إذا دخلت على الملك فقال ألك حاجة فقولى : حاجتي أن تذهب يحيى بن زكريا ؛ فقال : سلبني مسوى هذا ! قالت : ما أسألك إلا هذا . فلما أبت عليه دعا بطست ودعابه فذبحه ، فندرت قطرة من دمه على وجه الأرض فلم تزل تقلى حتى بعث الله عليهم بختنصر فألقى في نفسه أن يقتل على ذلك الدم منهم حتى يسكن ذلك الدم ، فقتل عليه منهم سبعين ألفا ، في رواية خمسة وسبعين ألفا . قال سعيد بن المسيب : هي دية كل نبي . وعن ابن عباس قال : أوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم إنى قتلت يحيى بن زكريا سبعين ألفا ، وإنى قاتل بآبن ابنتك سبعين ألفا وسبعين ألفا . وعن سمير بن عطية قال : قتل على الصخرة التي في بيت المقدس سبعون نيا منهم يحيى بن زكريا . وعن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيى عليه السلام حيث أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبة التي تلى المحراب

(١) راجع ج ٢ قسم أول ص ٧١٣ طبع أوديا .

مما إلى الشرق، فكانت البشرية والشعر على حاله لم يتغير. وعن قُتْرَة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن علي؛ وجررتها بكلاهما. وعن سفيان بن عيينة قال : أوحش ما يكون بن آدم في ثلاثة مواطن : يوم ولد فيخرج إلى دارهم ، وليلة يبيت مع الموتى فيجاور جيرانا لم ير مثلهم ، ويوم يُبعث فيشهد مشهدا لم ير مثله ؛ قال الله تعالى ليحيى في هذه الثلاثة مواطن : « وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » . كله من التاريخ المذكور .

واختلف فيمن كان المبعوث عليهم في المرة الآخرة ؛ فقليل : بختنصر . وقاله القشيري أبو نصر ، لم يذكر فيه . قال السهيلي : وهذا لا يصح ؛ لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى ، وبختنصر كان قبل عيسى بن مريم عليهما السلام بزمان طويل ، وقبل الإسكندر ؛ وبين الإسكندر وعيسى نحو من ثلثمائة سنة ، ولكنه أريد بالمرة الأخرى حين قتلوا شعيا ، فقد كان بختنصر إذ ذاك حيا ، فهو الذي قتلهم وخرّب بيت المقدس وأتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها . وقال الثعلبي : ومن روى أن بختنصر هو الذي غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا فغلط عند أهل السير والأخبار ؛ لأنهم مجمعون على أن بختنصر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم شعيا وفي عهد إرمياء . قالوا : ومن عهد إرمياء وتخريب بختنصر بيت المقدس إلى مولد يحيى ابن زكريا عليهما السلام أربعائة سنة وإحدى وستون سنة ، وذلك أنهم يعدّون من عهد تخريب بيت المقدس إلى عمارته في عهد كوسك^(١) سبعين سنة ، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانية وثمانين سنة ، ثم من بعد مملكة الإسكندر إلى مولد يحيى ثلثائة وثلاثا وستين سنة^(٢) .

قلت : ذكر جميعه الطبري في التاريخ رحمه الله . قال الثعلبي : والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق قال : لما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى — وبعض

(١) الذي في تاريخ الطبري : « كيرش » ولم نوفق لتصويبه . (٢) في الطبري : « ثلثائة وثلاث وستين » . راجع من ٧١٨ من القسم الأول .

الناس يقول : لما قتلوا زكريا — بعث الله إليهم ملكا من ملوك بابل يقال له : نردوس ، فسار إليهم بأهل بابل وظهر عليهم بالشام ، ثم قال لرئيس جنوده : كنت حلفت بإلهي أن أظهر الله علي بيت المقدس لأقتلهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري ، وأمر أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ، فدخل الرئيس بيت المقدس فوجد فيها دماء تغلي ، فسألم فقالوا : دمُ قربان قربناه فلم يتقبل منا منذ ثمانين سنة . قال ما صدقتموني ، فذبح على ذلك الدم سبعة وسبعين رجلا من رؤسائهم فلم يهدأ ، [فأتى بسبعة غلام من غلمانهم فذبحوا على الدم فلم يهدأ ^(١)] ، فأمر بسبعة آلاف من سيوفهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ ، فقال : يا بني إسرائيل ، أصدقوني قبل ألا أترك منكم نافع نار من شيء ولا من ذكر إلا قتلته . فلما رأوا الجهد قالوا : إن هذا دم نبي منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من يخطئ الله فقتلناه ، فهذا دمه ، كان اسمه يحيى بن زكريا ، ما عصى الله قط طرفة عين ولا هم بعصية . فقال : الآن صدقتموني ، ونر ساجدا ثم قال : لمثل هذا ينتقم منكم ، وأمر بفتح الأبواب وقال : أخرجوا من كان هاهنا من جيش نردوس ، وخلا في بني إسرائيل وقال : يا نبي الله ، يا يحيى بن زكريا قد علم ربّي وربك ما قد أصاب قومك من أجلك ، فأهدأ بإذن الله قبل ألا أبقى منهم أحدا . فهدأ دم يحيى بن زكريا بإذن الله عز وجل ، ورفع عنهم القتل وقال : رب ، إني أمنت بما آمن به بنو إسرائيل وصدقت به ، فأوحى الله تعالى إلى رأس من رؤوس الأنبياء : إن هذا الرئيس مؤمن صدوق . ثم قال : إن عتوا نردوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكركم ، وإني لا أعصيه ، فأمرهم فحفرُوا خندقًا وأمر بأموالهم من الإبل والخيل والبغال والحمير والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم إلى العسكر ، وأمر بالقتلى الذين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم ، ثم انصرف عنهم إلى بابل ، وقد كاد أن يفنى بني إسرائيل .

(١) في تاريخ الطبري ص ٧٢١ : « منذ ثمانمائة سنة » .

(٢) زيادة عن تاريخ الطبري .

قلت : قد ورد في هذا الباب حديث مرفوع فيه طول من حديث حذيفة ، وقد كتبهنا في (كتاب التذكرة) مقطعا في أبواب في أخبار المهدي ، نذكر منها هنا ما يبين معنى الآية ويفسرهما حتى لا يحتاج معه إلى بيان ، قال حذيفة : قلت يا رسول الله ، لقد كان بيت المقدس عند الله عظيما جسيم الخطر عظيم القدر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «هو من أجل البيوت ابتناه الله لسلطان بن داود عليهما السلام من ذهب وفضة ودرّ وياقوت وزمرد» : وذلك أن سليمان بن داود لما بناه يتنصر الله له الجن فأتوه بالذهب والفضة من المعادن ، وأتوه بالجواهر والياقوت والزمرد ، ويخبر الله تعالى له الجن حتى بنوه من هذه الأصناف . قال حذيفة : فقلت يا رسول الله ، وكيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن بني إسرائيل لما عصوا الله وقتلوا الأنبياء سلبوا الله عليهم يختنص وهو من المحوس وكان ملكه سبعمائة سنة ، وهو قوله : « فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا » فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان في بيت المقدس من هذه الأصناف فاحتملوها على سبعين ألفا ومائة ألف عجلة حتى أودعوها أرض بابل ، فقاموا يستخدمون بني إسرائيل ويستملكونهم بالخرى والعقاب والنكال مائة عام ، ثم إن الله عز وجل رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى المحوس في أرض بابل ، وأن يستنقذ من في أيديهم من بني إسرائيل ، فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل فاستنقذ من بقى من بني إسرائيل من أيدي المحوس واستنقذ ذلك الحلي الذي كان من بيت المقدس وردّه الله إليه كما كان أول مرة وقال لهم : يا بني إسرائيل إن عدتم إلى المعاصي عدنا عليكم بالسبي والقتل ، وهو قوله : « عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا » فلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصي فسلط الله عليهم ملك الروم قيصر ، وهو قوله : « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليستبروا ما علوا تنبيها » ففزاهم في البر والبحر فسابهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم ، وأخذ حلى جميع بيت المقدس واحتمله على سبعين ألفا ومائة ألف عجلة حتى أودعه

في كنيسة الذهب ، فهو فيها الآن حتى يأخذه المهدي فيرده إلى بيت المقدس ، وهو ألف سفينة وسبعماية سفينة ^(١) يرسى بها على يافا حتى تنقل إلى بيت المقدس وبها يجمع الله الأولين والآخرين ... وذ كر الحديث .

قوله تعالى : (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ) أى من المرتين ؛ وجواب « إذا » مخوف ، تقديره بمشناه ؛ دل عليه « بعثنا » الاول . (لِيُسْوَءَ وَجُوهُكُمْ) أى بالسبي والقتل فيظهر أثر الحزن في وجوهكم ؛ ف « ليسوعوا » متعلق بمخوف ؛ أى بعثنا عبادا ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم . قيل : المراد بالوجوه السادة ؛ أى لِيُذْلَوْهُمْ . وقرأ الكسائي « لنسوء » بنون وفتح الهمة ، فعلٌ مخبر عن نفسه معظم ، اعتبارا بقوله « وقضينا » وبعثنا وردتنا . ونحوه عن علي . وتصديقها قراءة أبيّ « لنسوءت » بالنون وحرف التوكيد . وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثاب وحزمة وابن عامر « ليسوء » بالياء على التوحيد وفتح الهمة ؛ ولها وجهان : أحدهما — ليسوء الله وجوهكم . والثاني — ليسوء الوعد وجوهكم . وقرأ الباقر « ليسوعوا » بالياء وضم الهمة على الجمع ؛ أى ليسوء العباد الذين هم أولوا بأس شديد وجوهكم . (وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأَ) أى ليدمروا ويهلكوا . وقال قطرب : يهدموا ؛ قال الشاعر :

ف الناس إلا عاملان فاعمل * يَتَبَرَّأَ مَا بَيْنِي وَأَخْرَانِ

(مَا عَلُوا) أى غلبوا عليه من بلادكم (تَبَرَّأَ) .

قوله تعالى : عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ

لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ) وهذا مما أخبروا به في كتابهم . و « عسى » وعد من الله أن يكشف عنهم . و « عسى » من الله واجبة . (أَنْ يَرْحَمَكُمُ) بعد انتقامه منهم ، وكذلك كان ؛ فكثّر عددهم وجعل منهم الملوكة . (وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا) قال قتادة :

(١) في الأصول : « رعى بها على يافا » والتصويب عن الفخر المشهور .

فعادوا فبعث الله عليهم محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ فهم يُعطون الجزية بالصغار ؛ وروى عن ابن عباس . وهذا خلاف ما تقدم في الحديث وغيره . وقال القشيري : وقد حلّ العقاب بنى إسرائيل مرتين على أيدي الكفار ، ومرة على أيدي المسلمين . وهذا حين عادوا فعاد الله عليهم . وعلى هذا يصح قول قتادة . (وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا) أى مُحِيطًا وَبِجَنًّا ، من الحَصَر وهو الحبس . قال الجوهري : يقال حصره يحصره حصرا ضيق عليه وأحاط به . والحصير : الضيق البخيل . والحصير : البارية . والحصير : الجنب ، قال الأصمعي : هو ما بين العرق الذى يظهر فى جنب البعير والفرس معتريا لما فوقه إلى منقطع الجنب . والحصير : الملك ؛ لأنه محجوب . قال لبيد :

وَمَقَامِ قُلُوبِ الرِّقَابِ كَأَنَّهُمْ * جُنَّ لَدَى بَابِ الْحَصِيرِ قِيَامِ

ويروى : * وَمَقَامِ قُلُوبِ الرِّقَابِ ... * .

على أن يكون « قلب » بدلا من « مقامة » كأنه قال : ورُبُّ قُلُوبِ الرِّقَابِ . وروى عن أبي عبيدة : * ... لَدَى طَرَفِ الْحَصِيرِ قِيَامِ * .

أتى عند طرف البساط للنعائم بن المنذر . والحصير : المحبس ؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » . قال القشيري : ويقال للذى يفتش حصيرا ؛ حصرا بضمه على بعض بالنسج . وقال الحسن : أى فراشا ومهادا ؛ ذهب إلى الحصير الذى يفرش ، لأن العرب تسمى البساط الصغير حصيرا . قال التلمبى : وهو وجه حسن .

قوله تعالى : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

قوله تعالى : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ) لما ذكر المراج ذكر ما قضى إلى بنى إسرائيل ، وكان ذلك دلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بين أن الكتاب الذى

أنزله الله عليه سبب اعتداء . ومعنى ((لَتَلِيَّ هِيَ أَقْوَمُ)) أى الطريقة التى هى أسد وأعدل وأصوب؛ فـ «التى» نعت لموصوف مخوف، أى الطريقة إلى نص أقوم . وقال الزجاج : الحال التى هى أقوم للحالات ، وهى توحيد الله والإيمان برسله . وقاله الكلبي والفراء .

قوله تعالى : ((وَيَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الصَّالِحَاتِ)) تقدم . ((أَنَّ لَهُمْ)) أى بأن لهم . ((أَجْرًا كَبِيرًا)) أى الجنة . ((وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)) أى ويبشرهم بأن لعذابهم العقاب . والقرآن معظمه وعد ووعيد . وقرأ حمزة والكسائي « وَيَبَشِّرُ » غنفاً بفتح الياء وضم الشين ؛ وقد ذكر^(١) .

قوله تعالى : وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ((وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ)) قال ابن عباس وغيره : هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يجب أن يستجاب له : اللهم أهلكه ، ونحوه . ((دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ)) أى كدعائه ربه أن يهب له العافية ؛ فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر هلك لكن بفضلله لا يستجيب له فى ذلك . نظيره : « وَلَوْ يَسْأَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ » وقد تقدم . وقيل : نزلت فى النضر بن الحارث ، كان يدعو ويقول : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو آفئنا بعذابك^(٢) أليم » . وقيل : هو أن يدعو فى طلب المخطور كما يدعو فى طلب المباح ، قال الشاعر وهو ابن جهم :

أطوف بالبيت فيمن يطوف * وأرفع من مسترَى المسبيل
وأبجد بالليل حتى الصباح * وأتلو من المحكم المنزل
عسى فأرجئهم عن يوسف * يستخر لى ربه الغميل

(١) راجع ج ١ ص ٢٣٨ طبة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع ج ٤ ص ٧٥ طبة أول أو ثانية .

(٣) راجع ج ٨ ص ٣١٤ . (٤) راجع ج ٧ ص ٣٩٨ وج ٨ ص ٣١٥ طبة أولى أو ثانية .

قال الجوهرى: يقال ماعلى فلان تجمل مثال مجلس أى معتمد، والمجمل أيضا: واحد حامل الحاج. والمجمل مثال المرجل: ملاقة السيف. وحذفت الواو من «ويدع الإنسان» فى اللفظ والخط ولم تحذف فى المعنى لأن موضعها رفع لحذفت لاستقبالها اللام الساكنة كقوله تعالى: «سَدَّعُ الزَّيَّاتِيَّةَ» ^(١) «وَيَمِجُّ اللَّهُ الْبَاطِلَ» ^(٢) «وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ» ^(٣) «يُنَادِ الْمُنَادِ» ^(٤) «فَمَا تَعْنِي النَّذْرُ» ^(٥). (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) أى طبعه العجلة، فيعجل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير. وقيل: أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تركب فيه الروح على الكمال. قال سلمان: أول ما خلق الله تعالى من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق جسده، فلما كان عند المصر بقيت رجلاه لم ينفخ فيهما الروح فقال: يارب عجل قبل الليل؛ فذلك قوله: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا». وقال ابن عباس: لما انتهت النفخة إلى مرته نظر إلى جسده فذهب لينهض فلم يقدر؛ فذلك قوله: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا». وقال ابن مسعود: لما دخل الروح فى صفيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوشب قبل أن تبلغ الروح رجليه فجعل يثقل إلى ثمار الجنة؛ فذلك حين يقول: «خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ» ذكره البيهقي. وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لما صور الله تعالى آدم فى الجنة تركه ماشاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خُلِقَ خلقا لا يمتالك» ^(٦) وقد تقدم. وقيل: سلم عليه السلام أسيرا إلى سودة فبات يئن فسألته فقال: أنبئني لشدة القيد والأسر؛ فأرخت من كتافه فلما نامت هرب؛ فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «قطع الله يديك» فلما أصبحت كانت تتوقع الآفة؛ فقال عليه السلام: «إني سألت الله تعالى أن يجعل دعائى على من لا يستحق من أهلى رحمة لأخى بشر أغضب كما يفضب البشر» ونزلت الآية؛ ذكره القشيري أبو نصر رحمه الله. وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

(١) آية ١٨ سورة الباق. (٢) آية ٢٤ سورة الشورى. (٣) آية ١٤٦ سورة النساء.

(٤) آية ٤١ سورة ق. (٥) آية ٥ سورة القمر. (٦) راجع به ١ ص ٢٨١ طبعة ثانية أرناتة.

”اللَّهُمَّ إِنَّمَا مَجَّدَ بَشَرٌ يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ وَإِنِّي قَدْ أَخَذْتُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ فَأَيُّهَا مُؤْمِنِ أَذِيَّتِهِ أَوْ سَبِيَّتِهِ أَوْ جَلَدَتِهِ فَاجْعَلْهَا لَهُ كِفَارَةً وَقُرْبَةً تَهْزُبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ“ .
وفي الباب عن عائشة وجابر . وقيل : معنى « وكان الإنسان عجولا » أى يؤثر العاجل وإن قل ، على الآجل وإن جَل .

قوله تعالى : **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَحَوْنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلْنَاهُ تَفْصِيلًا** ﴿١٧﴾

قوله تعالى : **(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ)** أى علامتين على وحدانيتنا ووجودنا وبكال علمنا وقدرتنا . والآية فيها : إقبال كل واحد منهما من حيث لا يعلم ، وإدباره إلى حيث لا يعلم . ونقصان أحدهما بزيادة الآخر وبالعكس آية أيضا . وكذلك ضوء النهار وظلمة الليل . وقد مضى هذا ^(١) . **(فَحَوْنًا آيَةَ اللَّيْلِ)** ولم يقل : فحونا الليل ، فلما أضاف الآية إلى الليل والنهار دل على أن الآيتين المذكورتين لهما لاهما . و « حَوْنًا » معناه طمسنا .
وفي الخبر أن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام فأمر جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء وكان كالشمس في النور ، والسواد الذي يرى في القمر من أثر المحو . قال ابن عباس : جعل الله الشمس سبعين جزءا والقمر سبعين جزءا ، فحما من نور القمر تسعة وستين جزءا بفعله مع نور الشمس ، فالشمس على مائة [وتسع] وثلاثين جزءا والقمر على جزء واحد . وعنه أيضا : خلق الله شمسين من نور عرشه ، بفعل ما سبق في علمه أن يكون شمسا مثل الدنيا على قدرها ما بين مشارقتها إلى مغاربها ، وجعل القمر دون الشمس ، فأرسل جبريل عليه السلام فأمر جناحه على وجهه ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس ضوءه وبقي نوره ، فالسواد الذي ترونه في القمر أثر المحو ، ولو تركه شمسا لم يعرف الليل من النهار . ذكر

عنه الأول التعلُّقُ والثاني المَهْدِيُّ؛ وميائى مرفوعا . وقال على رضى الله عنه وقتادة : يريد بالحو اللطخة السوداء التى فى القمر ، ليكون ضوء القمر أَقْلَ من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار . (وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً) أى جعلنا شمس مضيئة للأبصار . قال أبو عمرو بن العلاء : أى يُبْصَرُ بها . قال الكسائى : وهو من قول العرب أبصر النهار إذا أضاء ، وصار بحالة يُبْصَرُ بها . وقيل : هو كقولهم خيبت خيبت إذا كان أصحابه خبيثاء . ورجل مضيف إذا كانت دوابه ضعافا ؛ فكذلك النهار مُبْصِرا إذا كانت أهله بصراء . (لَتَبْتَغُوا قَصْداً مِنْ رَبِّكُمْ) يريد التصرف فى المعاش . ولم يذكر السكون فى الليل اكتفاء بما ذكر فى النهار . وقد قال فى موضع آخر : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً » . (وَتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّعَةِ وَالْحِسَابِ) أى لو لم يفعل ذلك لما صُرف الليل من النهار ، ولا كان يُعرف الحساب والعدد . (وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانُهُ تَفْصِيلاً) أى من أحكام التكليف ؛ وهو كقوله : « نَبِيَّانَا لِكُلِّ شَيْءٍ » « مَا قَرَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » . وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لما أبرم الله خلقه فلم يبق من خلقه غير آدم خلق شمساً من نور عرشه وقرا فكانا جميعاً شمسين فأما ما كان فى سابق علم الله أن يدعها شمساً تخلقها مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها وأما ما كانت فى علم الله أن يخلقها قرا تخلقها دون الشمس فى العِظَم ولكن إنما يرى صغرهما من شدة ارتفاع السماء وبعداها من الأرض فلوترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولا كان الأجير يدرى إلى متى يعمل ولا الصائم إلى متى يصوم ولا المرأة كيف تمتد ولا تُندرى أوقات الصلوات والنج ولا تحمل الديون ولا حين يبذرون ويزرعون ولا متى يسكنون للراحة لأبدانهم وكأن الله نظر إلى عباده وهو أرسم بهم من أنفسهم فارسل جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور فذلك قوله وجعلنا الليل والنهار آيتين « الآية » .

(١) راجع ج ٨ ص ٣٦٠ طبعة أولى أرفانية .

(٢) آية ٨٩ سورة النحل .

(٣) آية ٣٨ سورة الأنعام . راجع ج ٦ ص ٤٢٠

قوله تعالى : وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ^ط وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿٧٤﴾ أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَتَبْنَا لِيَوْمِ عَالِيكَ حَسِيبًا ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) قال الزجاج : ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم الفلانة للعنق . وقال ابن عباس : « طائره » عمله وما قُدر عليه من خير وشر ، وهو ملازمه أينما كان . وقال مقاتل والكلبي : خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به . وقال مجاهد : عمله ورزقه ، وعنه : ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة فيها مكتوب شقي أو سعيد . وقال الحسن : « ألزماه طائره » أى شقاوته وسعاده وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير ، أى صار له عند القسمة فى الأزل . وقيل : أراد به التكليف ، أى قدرناه إلزام الشرع ، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به ويترك عما زجر به أمكنه ذلك ، (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا) يعنى كتاب طائره الذى فى عنقه . وقرأ الحسن وأبو رجا ومجاهد : « طيره » بغير ألف ؛ ومنه ما روى فى الخبر « اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ وَلَا طَيْرٌ إِلَّا طَيْرُكَ وَلَا رَبَّ غَيْرُكَ » . وقرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن مُحِصِن وأبو جعفر ويعقوب « وَنُخْرِجُ » بفتح الياء وضم الراء ، على معنى ويخرج له الطائر كتابا ؛ فـ « كتابا » منصوب على الحال ، ويحتمل أن يكون المعنى : ويخرج الطائر فيصير كتابا . وقرأ يحيى بن وثاب « وَيُخْرِجُ » بضم الياء وكسر الراء ؛ وروى عن مجاهد ؛ أى يخرج الله . وقرأ شيبة ومحمد بن السَّمِيع ، وروى أيضا عن أبى جعفر : « وَيُخْرِجُ » بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول ، ومعناه : ويخرج له الطائر كتابا . الباقون « ونخرج » بنون مضمومة وكسر الراء ؛ أى ونحن نخرج . احتج أبو عمرو فى هذه القراءة بقوله « ألزماه » . وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر « يَلْقَاهُ » بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف ، بمعنى يؤثاه . الباقون بفتح الياء خفيفة ، أى يراه منشورا . وقال « منشورا » تعجيلا للبشرى بالحسنة والتوبيخ بالسيئة . وقال

أبو السوار العدوي وقرأ هذه الآية « وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه » قال : هما نشرتان وطية؛ أما ما حيت يابن آدم فصحيفتك المنشورة فأمل فيها ما شئت ، فإذا مت طويت حتى إذا بُعث نُشرت . (اقرأ كتابك) قال الحسن : يقرأ الإنسان كتابه أمياً كان أو غير أمي . (كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) أي محاسباً ، وقال بعض الصلحاء : هذا كتاب ، لسائق قلبه ، وريقك مداده ، وأعضائك قرطاسه ، أنت كنت المُنسِل على حَفَظتك ، ما زيد فيه ولا نقص منه ، ومتى أنكرت منه شيئاً يكون فيه الشاهد منك عليك .

قوله تعالى : مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) أي إنما كل أحد يحاسب عن نفسه لا عن غيره؛ فمن اهتدى فثواب اهتدائه له ، ومن ضل فعقاب كفره عليه . (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) تقدم في الأنعام . وقال ابن عباس : نزلت في الوليد ابن المغيرة ، قال لأهل مكة : اتبعون وأكفروا بحمد عليّ أوزارك ، فنزلت هذه الآية؛ أي إن الوليد لا يحمل آثامكم وإنما إثم كل واحد عليه . يقال : وَزَرَ يَزِرُ وَزْرًا وَوَزْرَةً ، أي إثم . والوزن : الثقل المنقل والجسم أوزار؛ ومنه « يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ » أي أفعال ذنوبهم . وقد وَزَرَ إذا حمل فهو وازر؛ ومنه وزير السلطان الذي يحمل ثقل دولته . والهاء في قوله كناية عن النفس ، أي لا تؤخذ نفس آتمة بإثم أخرى ، حتى أن الولدة تُلقى ولدها يوم القيامة فتقول : يا بني! ألم يكن حجري لك وطاء ، ألم يكن ثديي لك سقاء ، ألم يكن بطني لك وعاء ، ! فيقول : بلى يا أتمة ! فتقول : يا بني! فإن ذنوبي أثقلتني فأحمل عني منها ذنباً واحداً ! فيقول : إليك عني يا أتمة ! فإني بذنبي عنك اليوم مشغول .

مسألة — نزلت عائشة رضى الله عنها بهذه الآية في الرد على ابن عمر حيث قال : إن الميت ليعذب ببكاء أهله . قال علماؤنا : وإنما حملها على ذلك أنه لم تسمعه ، وأنه معارض للآية . ولا وجه لإنكارها ، فإن الرواة لهذا المعنى كثير ؛ كعمر وابنه والمنيرة بن شعبة وقيلة بنت مخزومة ، وهم جازمون بالرواية ؛ فلا وجه لتخطئتهم . ولا معارضة بين الآية والحديث ؛ فإن الحديث محمله على ما إذا كان النوح من وصية الميت ومقتته ، كما كانت الجاهلية تفعله ، حتى قال طرفة :

إذا ميت فانهني بما أنا أهله * وشقي على الجيب يابنت مبيد

وقال :

إلى الحول ثم آمم السلام عليكما * ومن سيك حولاً كاملاً فقد اعتذر

وإلى هذا نحا البخارى . وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم داود إلى اعتقاد ظاهر الحديث ، وأنه إنما يعذب بتوحيهم ؛ لأنه أهمل نهيهم عنه قبل موته وتأديبهم بذلك ، فيعذب بتفريطه في ذلك ؛ وبترك ما أمره الله به من قوله : « قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا » لا بذنب غيره ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ أى لم تترك الخلق سدى ، بل أرسلنا الرسل . وفى هذا دليل على أن الأحكام لا تنبت إلا بالشرع ، خلافاً للعترة القائلين بأن العقل يقيح ويحسن ويبيع ويحظر . وقد تقدم في البقرة القول فيه . والجمهور على أن هذا فى حكم الدنيا ؛ أى أنت الله لا يهلك أمة بعدذاب إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار . وقالت فرقة : هذا عام فى الدنيا والآخرة ، لقوله تعالى : « كُنَّا أُنْزِلْنَاهَا بِفُجْ سَالِمٍ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا » . قال ابن عطية : والذي يعطيه النظر أن بعث آدم عليه السلام بالوحيد وبث المتفقدات فى بنه مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفطر توجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله ، ثم تجد ذلك فى زمن نوح عليه السلام بعد

(١) آية ٦ سورة التحريم . (٢) راجع ١ ص ٢٥١ طبة ثانية أو ثالثة . (٣) آية ٨ سورة الملك .

غرق الكفار . وهذه الآية أيضا يعطى احتمال ألفاظها نحو هذا في الذين لم تصلهم رسالة ، وهم أهل الفترات الذين قد قُترو وجودهم بعض أهل العلم . وأما ما روى من أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال لحديث لم يصح ، ولا يقتضى مانع عليه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف . قال المهدوي : وروى عن أبي هريرة أن الله عز وجل يبعث يوم القيامة رسولا إلى أهل الفترة والأبكم والأصم ، فيطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه في الدنيا ، وتلا الآية ؛ رواه معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة ، ذكره النحاس .

قلت : هذا موقوف ، وسيأتى مرفوعا في آخر سورة طه إن شاء الله تعالى ؛ ولا يصح . وقد استدلل قوم في أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى ؛ وهذا صحيح ، ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل ، والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — أخبر الله تعالى في الآية التي قبل أنه لم يهلك القرى قبل ابتعاث الرسل ، لأنه لا يقع منه ذلك إن فعل ، ولكنه وعد منه ، ولا خلف في وعده . فإذا أراد إهلاك قرية مع تحقيق وعده على ما قاله تعالى أمر مترفيا بالفسق والظلم فيها حتى عليها القول بالتمدير . يعلل أن من هلك هلك بإرادته ، فهو الذي يسبب الأسباب ويسوقها إلى غاياتها ليحق القول السابق من الله تعالى .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ أَمَرْنَا ﴾ قرأ أبو عثمان النهدي وأبو رعاء وأبو العالية ، والربيع ومجاهد والحسن « أَمَرْنَا » بالتشديد ، وهي قراءة على رضى الله عنه ؛ أى سلطانا شرارها فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم . وقال أبو عثمان النهدي « أَمَرْنَا » بتشديد الميم ، جعلناهم

أمراء مسلطين؛ وقاله ابن عَرَبٍ . وتأمر عليهم تسلط عليهم . وقرأ الحسن أيضا وقتادة وأبو حيوة الشامي ويعقوب وخارجة عن نافع وحماد بن مسلمة عن ابن كثير وعليّ وابن عباس باختلاف عنهما «أمرنا» بالمد والتخفيف، أي أكثرنا جبارتها وأمرأها؛ قاله الكسائي . وقال أبو عبيدة : أمرته بالمد وأمرته ، لفتان بمعنى كثرته؛ ومنه الحديث «خير المال مهوراً مأثوراً أو مسكة مأبورة» أي كثيرة التّساج والنّسل . وكذلك قال ابن عَرَبٍ : أمرنا وأمرنا بمعنى واحد؛ أي أكثرنا . وعن الحسن أيضا ويحيى بن يعمر «أمرنا» بالقصر وكسر الميم على فعلنا، ورويت عن ابن عباس . قال قتادة والحسن : المعنى أكثرنا؛ وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد، وأنكره الكسائي وقال : لا يقال من الكثرة إلا أمرنا بالمد؛ قال وأصلها «أمرنا» تخفف ، حكاه المهدوي . وفي الصحاح : وقال أبو الحسن أمر ماله (بالكسر) أي كثر . وأمر القوم أي كثروا؛ قال الشاعر :

• أَمْرُون لَا يَرْتُون سَهْمَ الْقَعْدِ (٢)

وأمر الله ماله (بالمد) . التعليل : ويقال للشيء الكثير أمرٌ ، والفعل منه : أمر القوم بأمرُون أمرًا إذا كثروا . قال ابن مسعود : كنا نقول في الجاهلية للشيء إذا كثروا : أمر أمرٌ بنى فلان؛ قال لبيد :

كُلُّ بَنِي حَرَّةٍ مَصِيرُهُمْ * قُلٌّ وَإِنْ أَكْثَرَتْ مِنَ الْعَدَدِ
إِنْ يَنْبُطُوا يَنْبُطُوا وَإِنْ أَمْرُوا * يَوْمًا يَصِيرُوا لِلْهَلِكِ وَالنَّكَدِ (٣)

- (١) السكة : الطريقة المصطفة من النخل . والمأبورة : الملقحة ؛ يقال : أبرت النخلة وأبرتها؛ فهي مأبورة ومؤبرة . وقيل : السكة سكة الحرث، والمأبورة المصلحة له . أراد : خير المال نتاج وزرع . (ابن الأثير) .
(٢) هذا مجزئ بيت للأعشى وصله :

• طَرَفُونٌ وَلَا دُونَ كُلِّ مَبَارَكٍ •

الطرف والطريف : الكثير الآباء إلى الجده الأكبر . والقعيد : القليل الآباء إلى الجده الأصغر . (٣) يقول : إن غبطوا يرما فانهم يموتون . و «يُبطوا» هاهنا يموتوا . ويرى : «إن يبطوا يبطوا» يموتوا جمعة ؛ كأنهم يموتون من غير مرض . (راجع الديوان) .

قلت : وفي حديث هِرَقل الخديث الصحيح : ^(١) «لقد أمر أمر ابن أبي كبشة ، إنه ليخافه ملك بنى الأصفر» أى كثر . وكله غير متعمد ولذلك أنكروه الكسائي ، والله أعلم . قال المهديوى : ومن قرأ «أمر» فهى لفظة ، ووجه تعدية «أمر» أنه شبهه بعمر من حيث كانت الكثرة أقرب شىء إلى العماره ، فعندى كما عدى عمر . الباقون «أمرنا» من الأمر ؛ أى أمرناهم بالطاعة وإعذارا وإنذارا وتحذيفا ووعيدا . ^(٢) «فَسَقُوا» أى تخرجوا عن الطاعة عاصين لنا . «لَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ» فوجب علينا الوعيد ؛ عن ابن عباس . وقيل : «أمرنا» جعلناهم أمراء ؛ لأن العرب تقول : أمير غير مأمور ، أى غير مؤمر . وقيل : معناه بشتنا مستكبريا . قال هارون : وهى قراءة أبى ^(٣) « بشتنا أكابر مجرميها ففسقوا » ذكره الماوردى . وحكى النحاس : وقال هارون فى قراءة أبى ^(٤) « وإذا أردنا أن نهلك قرية بشتنا فيها أكابر مجرميها فكروا فيها فحق علينا القول » . ويحوز أن يكون «أمرنا» بمعنى أكثرنا ؛ ومنه «خير المال مَهْرَةٌ مأمورة» على ما تقدم . وقال قوم : مأمورة اتباع لما بورة ؛ كالغدايا والعشايا . وكقوله : «يُرِجِعُنْ مَازُورَاتٍ غَيْرَ مَاجُورَاتٍ» . وعلى هذا لا يقال : أمرهم الله ، بمعنى كثرتهم ، بل يقال : أمره وأمره . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة العامة . قال أبو عبيد : وإنما اخترنا «أمرنا» لأن المعانى الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة . والمترف : المنتم ؛ وخُصِّصُوا بالأمر لأن غيرهم تبع لهم .

الثالثة — قوله تعالى : ^(٥) «فَدَمَّرْنَاَهَا» أى استأصلناها بالهلاك . ^(٦) «تَذِيْرًا» ذكر المصدر للبالغة فى العذاب الواقع بهم . وفى الصحيح من حديث زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فَرَمًا مُجَرَّمًا وجهه يقول : «لا إله إلا الله ويُلِّ للعرب من شَرِّ قد اقترَب فُتِحَ اليوم من رَدَم ياجوج وماجوج مثل هذه» وخلق بأصبعه الإبهام وألقى تليها . قالت : فقلت يا رسول الله ، أنهلك وفينا

(١) يريد : رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكان المشركون يقولون لئن صلى الله عليه وسلم «ابن أبي كبشة» شبهه بأبي كبشة ، رجل من خزاعة خالف قريشا فى عبادة الأوثان . أرى كنية وهب بن عبد مناف جدّه صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ؛ لأنه كان نزح إليه فى الشبه . أركنية زوج حليمة السعدية . (٢) كذا فى الأصول .

الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثرت الخبيث » . وقد تقدم الكلام في هذا الباب ، وأن المعاصي إذا ظهرت ولم تُتبرك كانت سببا لهلاك الجميع ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ رِبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ) أي كم من قوم كفروا حل بهم البوار . يخوف كفار مكة ؛ وقد تقدم القول في القرن في أول سورة الأنعام ، والحمد لله . (وَكَفَىٰ رِبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) « خيرا » عليا بهم . « بصيرا » يبصر أعمالهم ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيًا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ) يعني الدنيا ، والمراد الدار العاجلة ؛ فعبّر بالعت عن المنعوت . (عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ) أي لم نعطه منها إلا ما نشاء ثم نؤاخذه بعمله ، وفاقبته دخول النار . (مَذْمُومًا مَذْحُورًا) أي مطردا مبعدا من رحمة الله ، وهذه صفة المنافقين الفاسقين ، والمرائين المداحين ، يلبسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها ، فلا يقبل ذلك العمل منهم في الآخرة ولا يُعطون في الدنيا إلا ما قُسم لهم . وقد تقدم في « هود » أن هذه الآية تنقيد تلك الآيات المطلقة ؛ فتأمل . (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ) أي الدار الآخرة . (وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيًا) أي عمل لها عملها من الطاعات . (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمن . (فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا) أي مقبولا غير

(١) راجع ج ٧ ص ٢٩١ طبة أول أو ثانية ، (٢) راجع ج ٦ ص ٢٩١ طبة أول أو ثانية .

(٣) راجع ج ٢ ص ٣٥ طبة ثانية .

مردود . وقيل : مضاعفاً أى تضاعف لهم الحسنات إلى عشر ، وإلى سبعين وإلى سبعمائة ضعف ، وإلى أضعاف كثيرة ؛ كما روى عن أبي هريرة وقد قيل له : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ليَجْزِي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة ؟ " فقال سمعته يقول : " إن الله ليَجْزِي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة " .

قوله تعالى : **كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾** أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ **لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعَدَ مَذْمُومًا مَحْدُولًا ﴿٢٢﴾**

قوله تعالى : **(كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ)** أعلم أنه يرزق المؤمنين والكافرين . **(وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)** أى عبوساً ممنوعاً ، من حَظَرٍ يَحْظُرُ حَظَرًا وِحْظَارًا . ثم قال تعالى : **(أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)** فى الرزق والعمل ؛ فمن مُقِلٍّ ومكثر . **(وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)** أى للؤمنين ؛ فالكافر وإن وسَّع عليه فى الدنيا مرة ، وقُتِرَ على المؤمن مرة فالآخرة لا تقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم ؛ فمن فاته شئ منها لم يستدركه فيها . وقوله **(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ)** الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . وقيل : الخطاب للإنسان . **(فَتَقْعَدَ)** أى تبق . **(مَذْمُومًا مَحْدُولًا)** لا فاصرك ولا وليا .

قوله تعالى : **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾** **وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾**

فيه ست عشرة مسألة :

الأولى — (قَضَى) أى أمر وألزم وأوجب . قال ابن عباس والحسن وقتادة : وليس هذا قضاء حكم بل هو قضاء أمر . وفي مصحف ابن مسعود « ووصى » وهى قراءة أصحابه وقراءة ابن عباس أيضا وعلى وغيرهما ، وكذلك عند أبي بن كعب . قال ابن عباس : إنما هو « ووصى ربك » فالتصقت إحدى الواوين فقرئت « وقضى ربك » إذ لو كان على القضاء ما عصى الله أحد . وقال الضحاك : تصحفت على قوم « وصى بقضى » حين اختلطت الواو بالهاء وقت كتب المصحف . وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثل قول الضحاك . وقال عن ميمون بن مهران أنه قال : إن على قول ابن عباس لنوراء قال الله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك » ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابن عباس قال ذلك . وقال : لو قلنا هذا لطن الزنادقة فى مصحفنا ، ثم قال علماءنا المتكلمون وغيرهم : القضاء يستعمل فى اللغة على وجوه : فالقضاء بمعنى الأمر ؛ كقوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » معناه أمر . والقضاء بمعنى الخلق ؛ كقوله : « قضاها سن سبع سموات فى يومين »^(١) يعنى خلقهن . والقضاء بمعنى الحكم ؛ كقوله تعالى : « فأفوض ما أنت قاض »^(٢) يعنى أحكم ما أنت تحكم . والقضاء بمعنى الفراغ ؛ كقوله : « قضى الأمر الذى فيه تستفتيان »^(٣) أى فرغ منه ؛ ومنه قوله تعالى « فإذا قضيتُم مناسككم »^(٤) وقوله تعالى : « فإذا قضيت الصلاة »^(٥) . والقضاء بمعنى الإرادة ؛ كقوله تعالى : « إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون »^(٦) . والقضاء بمعنى العهد ؛ كقوله تعالى : « وما كنتم بمخازيب القرآن إذ قضيتمنا إلى مواعى الأمر »^(٧) .

فإذا كان القضاء يحتمل هذه المعانى فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصى بقضاء الله ؛ لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك ، لأن الله تعالى لم يأمر بها ،

- | | | |
|----------------------------|---------------------------|--------------------------|
| (١) آية ١٣ سورة النورى . | (٢) آية ١٢ سورة فصلت . | (٣) آية ١٢ سورة طه . |
| (٤) آية ١٤ سورة يوسف . | (٥) آية ٢٠٠ سورة البقرة . | (٦) آية ١٠ سورة الجمعة . |
| (٧) آية ٤٧ سورة آل عمران . | (٨) آية ٤٤ سورة القصص . | |

فإنه لا يأمر بالفحشاء . وقال زكريا بن سلام : جاء رجل إلى الحسن فقال إنه طلق امرأته ثلاثا . فقال : إنك قد عصيت ربك وبانت منك . فقال الرجل : قضى الله ذلك علي ! فقال الحسن وكان فصيحاً : ما قضى الله ذلك ! أى ما أمر الله به ، وقرأ هذه الآية : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّاه » .

الثانية — أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده ، وجعل برّ الوالدين مقرونا بذلك ، كما قرّن شكرهما بشكره فقال : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّاهُ وَيَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » . وقال : « أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ »^(١) . وفي صحيح البخارى عن عبد الله قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم أى العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قال : ثم أى ؟ قال : « ثم برّ الوالدين » قال ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » فأخبر صلى الله عليه وسلم أن برّ الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التى هى أعظم دعائم الإسلام . ورتب ذلك بـ « ثُمَّ » التى تعطى الترتيب والمهلة .

الثالثة — من البرّ بهما والإحسان إليهما ألا يتعرض لسيئهما ولا يعقهما ؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف ، وبذلك وردت السنة الثابتة ؛ ففى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال « نعم » . يسب الرجل أباه فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه .

الرابعة — عقوب الوالدين مخالفتهما فى أغراضهما الجائزة لهما ، كما أن برّهما موافقتهما على أغراضهما . وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتها فيه ، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية ، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح فى أصله ، وكذلك إذا كان من قبيل المندوب . وقد ذهب بعض الناس إلى أن أمرهما بالمباح يصيره فى حق الولد مندوبا إليه وأمرهما بالمندوب يزيده تأكيداً فى نهيته .

الخامسة - روى الترمذى عن ابن عمر قال : كانت تحب امرأة أحبها ، وكان أبى يكرهها فأمرنى أن أطلقها فأبَيْتُ ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : " يا عبد الله ابن عمر طلق امرأتك " . قال هذا حديث حسن صحيح .

السادسة - روى الصحيح عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحَسَنِ صَحَابَتِي؟ قال : " أُمُّكَ " قال : ثم مَنْ؟ قال : " ثم أُمُّكَ " قال : ثم مَنْ؟ قال : " ثم أُمُّكَ " قال : ثم مَنْ؟ قال : " ثم أُمُّكَ " . فهذا الحديث يدل على أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب ؛ لذكر النبي صلى الله عليه وسلم الأم ثلاث مرات وذكر الأب في الرابعة فقط . وإذا توصل هذا المعنى شهد له البيان . وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب ؛ فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب . ورُوى عن مالك أن رجلا قال له : إن أبى فى بلد السودان ، وقد كتب إلى أن أقدم عليه ، وأنى تمنى من ذلك ؛ فقال له : أطلع أباك ، ولا تمص أمك . فدل قول مالك هذا أن يترهما متساو عنده . وقد سئل الليث عن هذه المسئلة فأمره بطاعة الأم ؛ وزعم أن لما ثلث البر . وحديث أبى هريرة يدل على أن لما ثلاثة أرباع البر ؛ وهو الهجة على من خالف . وقد زعم المحاسبي فى (كتاب الرأية) له أنه لا خلاف بين العلماء أن للأم ثلاثة أرباع البر ولأب الربع ؛ على مقتضى حديث أبى هريرة رضى الله عنه . والله أعلم .

السابعة - لا يختص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين ، بل إن كانا كافرين يترهما ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد ؛ قال الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ » . وفى صحيح البخارى عن أسماء قالت : قدمت أُمى وهى مشركة فى عهد قريش ومثتهم إذ عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم مع أبيها ، فاستفتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : إن أُمى قدمت وهى راضية أفأصلها؟ قال : " نعم صلى عليك " .

(١) كذا فى الأصول . (٢) آية ٨ سورة المنتحة . (٣) قولها راضية : أى راضية فى برى وصلى ، أو راضية عن الإسلام كرامة له .

وروى أيضا عن أمماء قالت : أتتني أمي رغبة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فسألت النبي صلى الله عليه وسلم أصلها ؟ قال : " نعم " . قال ابن عُيينة : فأنزل الله عز وجل فيها : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ » الأول معلق والثاني مسند .

الثامنة — من الإحسان إليهما والبر بهما إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد إلا بإذنهما .
 روى الصحيح عن عهد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد فقال : " أحى والدك " ؟ قال نعم . قال : " ففيمما بجاهد " . لفظ مسلم . في غير الصحيح قال : نعم ؛ وتركتهما ببيان . قال : " اذهب فاصحهما كما أبكتهما " . وفي خبر آخر أنه قال : " نوبك مع أبويك على فراشهما يضاحكانك ويلاعبانك أفضل لك من الجهاد مئى " . ذكره ابن خزيمة . ولفظ البخاري في كتاب بر الوالدين : أخبرنا أبو نعيم أخبرنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبأيه على الهجرة ، وتركه أبويه ببيان فقال : " ارجع إليهما فاصحهما كما أبكتهما " . قال ابن المنذر : في هذا الحديث النهي عن الخروج بغير إذن الأبوين مالم يقع التفير ؛ فإذا وقع وجب الخروج على الجميع . وذلك بين في حديث أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيش الأمراء ... ؛ فذكر قصة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وابن راحة وأن منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى بعد ذلك : أن الصلاة جامعة ؛ فاجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أيها الناس ، أخرجوا فأمّدوا إخوانكم ولا يتخلّفن أحد " فخرج الناس مشاة وركبانا في حرّ شديد . فدلّ قوله : " أخرجوا فأمّدوا إخوانكم " أن العذر في التخلف عن الجهاد إنما هو مالم يقع التفير ؛ مع قوله عليه السلام : " فإذا استغفرت فافقروا " . قلت : وفي هذه الأحاديث دليل على أن المفروض أو المندوبات متى اجتمعت قدّم الأهم منها . وقد استوفى هذا المعنى المحاسبي في كتاب الرماية .

التاسعة — واختلفوا في الوالدين المشركين هل يخرج بإذنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية ؛ فكان الثوري يقول : لا ينزوا إلا بإذنهما . وقال الشافعي : له أن يفزو

بغير إذنهما . قال ابن المنذر : والأجداد آباء ، وألحقات أمهات فلا يفزوا المرء إلا بإذنهم ، ولا اعلم دلالة توجب ذلك لغيرهم من الإخوة ومائر القربات . وكان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله عز وجل .

العائنة - من تمام برهما صلة أهل ودّهما ، ففي الصحيح عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن من أبر البر صلة الرجل أهل ودّ أبيه بعد أن يؤتي" . وروى أبو أسيد وكان بدرياً قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم جالسا فجاء رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، هل بقي من بر والدني من بعد موتها شيء أبرهما به ؟ قال : نعم . الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما بعدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما فهذا الذي بقي عليك . وكان صلى الله عليه وسلم يهدي لصدايق خديجة برأها ووفاء لها وهي زوجته ، فساظنك بالوالدين .

الحادية عشرة - قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَنْتَحِنَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾) خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى برّه لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر ، فالزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل ، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلاً عليه ، فيحتاجان أن يلبس منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يلبس منه ؛ فلذلك خص هذه الحالة بالذكر . وأيضا فطول المكث للزواج يوجب الاستئصال للزواج ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتفتخ لهما أوداجه ، ويستطيل عليهما بدالة البؤة وقلة الديانة ، وأقل المكره ما يظهره بنفسه المتردد من الضجر . وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة ، وهو السلام عن كل عيب فقال : « فَلَا تَقُلْ لَهَا أَفٍّ وَلَا تَهَرَّجْهَا وَقُلْ لَهَا قَوْلًا كَرِيمًا » . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رِغِمَ أَفُّهُ رِغِمَ أَفُّهُ رِغِمَ أَفُّهُ " قيل : من يارسل الله ؟ قال : " من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة " . وقال البخاري في كتاب بر الوالدين : حدثنا مسند حدثنا بشر بن المفضل حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

”رَغِمَ أَنْفٌ رَجُلٌ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَى . رَغِمَ أَنْفٌ رَجُلٌ أَدْرَكَ أَبُوهُ عِنْدَ الْكَبَرِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلْهُ الْخَنَةَ . وَرَغِمَ أَنْفٌ رَجُلٌ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانٌ ثُمَّ أَنْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ “ . حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي أُوَيْسٍ حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ بِلَالٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ هِلَالٍ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ عُجْرَةَ السَّامِيِّ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : إِنْ كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” أَحْضَرُوا الْمُنْبَرَ “ فَلَمَّا خَرَجَ رَقِيٌّ [إِلَى] الْمُنْبَرِ ، فَرَقِيَ فِي أَوَّلِ دَرَجَةٍ مِنْهُ قَالَ آمِينَ ثُمَّ رَقِيَ فِي الثَّانِيَةِ فَقَالَ آمِينَ ثُمَّ لَمَّا رَقِيَ فِي الثَّالِثَةِ قَالَ آمِينَ ، فَلَمَّا فَرِغَ وَزُلَّ مِنَ الْمُنْبَرِ قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَقَدْ سَمِعْنَا مِنْكَ الْيَوْمَ شَيْئًا مَا كُنَّا نَسْمَعُهُ مِنْكَ ؟ قَالَ : ” وَنَسْمَعُوه “ ؟ قُلْنَا نَعَمْ . قَالَ : ” إِنْ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اعْتَرَضَ قَالَ : بَعْدَ مَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرَ لَهُ فَقُلْتُ آمِينَ فَلَمَّا رَقِيتُ فِي الثَّانِيَةِ قَالَ بَعْدَ مَنْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَيْكَ فَقُلْتُ آمِينَ فَلَمَّا رَقِيتُ فِي الثَّالِثَةِ قَالَ بَعْدَ مَنْ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكَبَرِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلْهُ الْخَنَةَ قُلْتُ آمِينَ “ ، حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ حَدَّثَنَا سَلَمَةُ بْنُ وَرْدَانَ سَمِعْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : ارْتَقَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُنْبَرِ دَرَجَةً فَقَالَ آمِينَ ثُمَّ ارْتَقَى دَرَجَةً فَقَالَ آمِينَ ثُمَّ ارْتَقَى الدَّرَجَةَ الثَّالِثَةَ فَقَالَ آمِينَ ، ثُمَّ اسْتَوَى وَجَلَسَ فَقَالَ أَصْحَابُهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، عَلَامَ أَمَنْتَ ؟ قَالَ : ” أَنَأْنَى جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ رَغِمَ أَنْفٌ مَنْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَيْكَ فَقُلْتُ آمِينَ وَرَغِمَ أَنْفٌ مَنْ أَدْرَكَ أَبُوهُ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلْ الْخَنَةَ فَقُلْتُ آمِينَ “ الْحَدِيثُ . فَالْمُعِيدُ الَّذِي يَبَادِرُ اغْتِنَامَ فُرْصَةِ رَهْمَا لثَلَاثَةِ قُوَّتِهِ بِمَوْتِهِمَا فَيَنْتَلِمْ عَلَى ذَلِكَ . وَالشَّقِيُّ مِنْ عَقْمِهِمَا ، لَا سِمَاءَ مِنْ بَلَدِهِ الْأَمْرِ بِهِمَا .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ هُمَا أَفٌّ ﴾ أى لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم . وعن أبي رجاء الطَّارِدِيِّ قَالَ : الْأَفُّ الْكَلَامُ الْقَدَحُ الرَّدِيُّ الْخَلْفِيُّ . وقال مجاهد : معناه إذا رأيت منهما في حال الشَّيْخِ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ الَّذِي رَأَاهُ مِنْكَ فِي الصَّغَرِ فَلَا تَقْدَرُ رَهْمَا وَتَقُولُ أَفٌّ . وَالْآيَةُ أَعَمُّ مِنْ هَذَا . وَالْأَفُّ وَالتَّفُّ وَبِحِ الْإِظْفَارِ . وَيُقَالُ لِكُلِّ مَا يُضْجِرُ وَيُسْتَقْتَلُ : أَفٌّ لَهُ . قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : وَالتَّفُّ أَيْضًا الشَّيْءُ الْخَفِيرُ . وَقُرِئَ « أَفٌّ » مَتَوْنٌ

مخفوض؛ كما تُخَفِّضُ الأصوات وتُنَوِّنُ، تقول: صَيَّوْهُ . وفيه عشر لغات: أَفٌّ، وَأَفٌّ، وَأَفٌّ، وَأَفَّا وَأَفٌّ، وَأَفٌّ، وَأَفَّهُ، وإف لك (بكسر الهمزة)، وَأَفٌّ (بضم الهمزة وتسكين الفاء)، وَأَفَّا (مخففة الفاء) . وفي الحديث: "فألقى طرف ثوبه على أفه ثم قال أف- أف" . قال أبو بكر: معناه استنقار لما شَمَّ . وقال بعضهم: معنى أف الاحتقار والاستقلال؛ أخذ من الأفف وهو القليل . وقال القُتَيْبِيُّ: أصله نفخك الشيء يسقط عليك من رماد وتراب وغير ذلك، ولكن تريد إمالة شيء لتقعده فيه؛ فقلبت هذه الكلمة لكل مستعمل . وقال أبو عمرو ابن العلاء: الأف وسخ بين الأظفار، والثَّفُّ قَلَامَتُهَا . وقال الزجاج: معنى أف التَّنُّ . وقال الأصمعي: الأف وسخ الأذن، والثف وسخ الأظفار؛ فكثرا استعماله حتى ذكر في كل ما يتأذى به . وروى من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو علم الله من العقوق شيئا أردأ من «أف» لذكره فليعمل الباز ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار . وليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة" . قال طبراني: وإنما صار بهذا قوله «أف» للأبوين أردأ شيء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة، ومجد التربية ورد الوصية التي أوصاه في التنزيل . و«أف» كلمة مقولة لكل شيء مرفوض؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه: «أَفْ لَكُمْ وَلَيْتَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ» ^(١) أي رَفَضُ لَكُمْ ولهذه الأصنام معكم .

الثالثة عشرة — قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهَرِّجُهَا﴾ التَّهَرُّجُ: الزجر والنقطة . ﴿وَقُلْ لَهَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي لَيْتًا لطيفًا، مثل: يا ابتاه ويا أمناه، من غير أن يسميها ويكنيها؛ قاله عطاء . وقال ابن البَاحِ التَّحِيْبِيُّ: قلت لسعيد بن المسيَّب كل ما في القرآن من برِّ الوالدين قد عرفته إلا قوله: «وقل لها قولًا كريمًا» ما هذا القول الكريم؟ قال ابن المسيَّب: قول العبد المذنب للسيد القَطِّ الغليظ .

الرابعة عشرة — قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلُّل لها تذلل الرعية للأمير والعبيد للسادة؛ كما أشار إليه سعيد بن

(١) آية ٦٧ سورة الأنبياء . . . (٢) كذا في الأصول، والقي في ابن جرير والدر المنثور: «أبر المذاج» .

المسيب . وَضَرَبَ خَفْضَ الجَنَاحِ وَنَصَبَهُ مِثْلَ الجَنَاحِ الطَّائِرِ حِينَ يَنْتَصِبُ بِجَنَاحِهِ لَوْلَاهُ .
والذَّل : هو اللين . وقراءة الجمهور بضم الذال ، من ذَلَّ يَذَلُّ ذُلًّا وَذِلَّةً وَمِثْلَهُ فَهُوَ ذَالٌ وَذَلِيلٌ .
وقرأ سعيد بن جبير وابن عباس وعروة بن الزبير « الذَّل » بكسر الذال ، ورُويَ عن عاصم ،
من قولهم : ذَابَتْ ذُلُولُ بَيْتِ الذَّلِّ . والذَّل في الدواب المنقاد السهل دون الصعب . فيلبيح
بحكم هذه الآية أن يحمل الإنسان نفسه مع أبيه في خير ذلة ، في أقواله وسكاته ونظره ،
ولا يُجِدُّ إِلَيْهِمَا بَصَرَهُ فَإِنَّ تِلْكَ هِيَ نَظَرَةُ الغَاضِبِ .

الخامسة عشرة — الخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته؛
إذ لم يكن له عليه السلام في ذلك الوقت أبوان . ولم يذكر الذَّل في قوله تعالى : « وَاخْفِضْ
جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » وذكره هنا بحسب عظم الحق وتأكيده . و « مِنْ »
في قوله : « مِنْ الرِّحْمَةِ » لبيان المجلس ، أى إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة
في النفس ، لا بأن يكون ذلك استعمالاً . ويصح أن يكون لانهاء الغاية ، ثم أمر تعالى عباده
بالترحم على آبائهم والدعاء لهم ، وأن ترحمهما كما رحماك وترفق بهما كما رفق بك ، إذ وَلِيَاكَ
صغيراً جاهلاً محتاجاً فأثرك على أنفسهما ، وأسهرهما ليلهما ، وجاعاً وأشبعاك ، وتعزياً وكسواك ،
فلا تهزهما إلا أن يلقا من الكبر الحد الذي كنت فيه من الصبر ، فقلّ منهما ما وَلِيَاً منك ،
ويكون لهما حينئذ فضل التقدم . قال صلى الله عليه وسلم : « لَا يَمُوزِي وَلَدَ الْوَالِدِ إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ
مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ » . وسأى في سورة « مريم » الكلام على هذا الحديث .

السادسة عشرة — قولاً تعالى : (كَمَا رَبَّيَانِي) خص التربية بالذكر لينتد العبد شفقة
الأبوين وتعبهما في التربية ، فيزيده ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما ، وهذا كله في الأبوين
المؤمنين . وقد نهى القرآن عن الاستغفار للشركين الأموات ولو كانوا أولى قُرْبَى ، كما تقدم .
وذكر عن ابن عباس وقتادة أن هذا كله ملبسوخ بقوله : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ
يَسْتَغْفِرُوا لِلشَّارِكِينَ » — إلى قوله — أَسْحَابُ الْجَحِيمِ » فإذا كان والده المسلم ذَمِيئاً استعمل

معهما ما أمره الله به هاهنا، إلا الترحم لما بعد موتهما على الكفرة، لأن هذا وحده نسخ بالآية المذكورة . وقيل : ليس هذا موضع نسخ، فهو دواء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيّين، كما تقدم . أو يكون عموم هذه الآية خُصّ بتلك، لارحة الآخرة، لاسيما وقد قيل إن قوله : « وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا » نزلت في سعد بن أبي وقاص، فإنه أسلم، فالتفت أمه نفسها في الرّمضاء متجرّدة، فذكر ذلك لسعد فقال : لِمَتُ، فَتَزَلَّتْ الآية . وقيل : الآية خاصة في الدواء للأبوين المسلمين . والصواب أن ذلك عموم كما ذكرنا، وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من أمسى مُرَضِيًّا لوالديه وأصبح أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة وإن واحدا فواحدا . ومن أمسى وأصبح مُسَخَطًا لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار وإن واحدا فواحدا " فقال رجل : يا رسول الله، وإن ظلماه ؟ قال : " وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه " . وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، إن أبي أخذ مالي . فقال النبي صلى الله عليه وسلم للرجل : " فأتني بأبيك " فنزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فأسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه " فلما جاء الشيخ قال له النبي صلى الله عليه وسلم : " ما بال أبنتك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله ؟ " فقال : سله يا رسول الله، هل أتفقته إلا على إحدى عمّاته أو خالاته أو على نفسي ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إياه ^(١)، دعنا من هذا . أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك ؟ " فقال الشيخ : والله يا رسول الله، ما زال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا، لقد قلت في نفسي شيئا ما سمعته أذناي . قال : " قل وأنا أسمع " قال قلت :

(١) إياه (بكسر الهمزة) : كلمة استزادة واستنطاق . وإذا قلت « إياه » بالنسب والتبوين فإنما تأمره بالسكوت . وقال ابن سيده : « وإياه (بالكسر) كلمة زجر بمعنى حبسك، وتقول فيقال إياه » . وحكي عن أبيه : « إياه وإياه » في الاستزادة والاستنطاق . وإياه وإياه في الزجر ؛ كقولك : إياه حبسك، وإياه حبسك .

(١) غَدَاؤُكَ مَوْلِدًا وَمُتَّكِ يَافِعَا * تَعَلَّ بِمَا أُجْنِي عَلَيْكَ وَتَهْمَلُ
 إِذَا لَيْلَةً ضَاقَكَ بِالسُّقْمِ لَمْ آتِ * لَسُقْمِكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلُّسُ
 كَانِي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي * طَرِقتَ بِهِ دُونِي فَعَيَّنِي تَهْمَلُ
 نَجَافَ الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْكَ وَإِنِّهَا * تَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ وَقْتُ مُؤْجَلُ
 فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالنَّهَايَةَ الَّتِي * إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَؤْتَمَلُ
 جَعَلْتَ جِرَائِي غِلْظَةً وَفِظَاطَةً * كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعِمُ الْمُنْقَضُ
 فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرَعْ حَقَّ أَبَوَي * فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُصَاقِبُ يَفْعَلُ
 فَأَوْلَيْتَنِي حَقَّ الْجَوَارِ وَلَمْ تَكُنْ * عَلَيَّ بِمَالٍ دُونَ مَا لَكَ تَبْخَلُ

قال : فحينئذ أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بتلايبب ابنه وقال : « أنت ومالك لأبيك » .
 قال الطبراني : الحقي لا يروى — معنى هذا الحديث — عن ابن المنكدر بهذا التمام والشعر
 إلا بهذا الإسناد ، وتفرد به عبيد الله بن خليفة . والله أعلم .

قوله تعالى : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ
 فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ) أى من اعتقاد الرحمة بهما والحق عليهما ،
 أو من غير ذلك من العقوق ، أو من جعل ظاهرهما برهما رياء . وقال ابن جرير : يريد البادرة
 التي تبدر ، كالقنينة والزلة ، تكون من الرجل إلى أبويه أو أحدهما ، لا يريد بذلك بأساً ، قال
 الله تعالى : (إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ) أى صادقين في نية البر بالوالدين فإن الله يغفر البادرة .
 وقوله : (فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا) وعد بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة

(١) نسبت هذه الآيات في أشعار الحماسة لأمية بن أبي الصلت . قال التبريزي : « وروى لابن عبد الأمل .
 وقبل لأبي العباس الأعمى » . (٢) في الأصول : « ووصفك » . وفي أشعار الحماسة : « وعلتك » أى قت
 بؤسك . و « يافعا » شابا . و « تعل » من عل به ، سقاء ثانية . و « أجني » أكسب . و « تهمل » من أنهله ،
 مقياه أوله سقي . (٣) في الحماسة :

إذا ليلت فابتك بالشكوى أنت * لشكواك الخ .

إلى طاعة الله سبحانه وتعالى . قال سعيد بن المسيّب : هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب
ثم يذنب . وقال ابن عباس رضى الله عنه : الأواب : الحفيظ الذى إذا ذكر خطاياہ استغفر
منها . وقال عبيد بن عمير : هم الذين يذكرون ذنوبهم فى الخلاء ثم يستغفرون الله من وجل .
وهذه الأقوال متقاربة . وقال عون المقيّط^(١) : الأوابون هم الذين يصلون صلاة الضحى .
وفى الصحيح : " صلاة الأوابين حين ترمض^(٢) الفصال " . وحقيقة اللفظ من آب يؤوب
إذا رجع .

قوله تعالى : **وَأَيُّ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ
وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ
الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۝**

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(وَأَيُّ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ)** أى كما راعيت حق الوالدين فصل
الرحم ، ثم تصدق على المسكين وابن السبيل . وقال عليّ بن الحسين فى قوله تعالى « **وَأَيُّ
ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ** » : هم قرابة النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أمر صلى الله عليه وسلم بإعطائهم
حقوقهم من بيت المال ، أى من مہم نوى القرى من الفزروالغنيمة ، ويكون خطابا
للولاة أو من قام مقامهم . وألحق فى هذه الآية ما يتعين من صلة الرحم ، وسد الخلة ،
والمواساة عند الحاجة بالمال ، والمعونة بكل وجه .

الثانية — قوله تعالى : **(وَلَا تُبَذِّرْ)** أى لا تسرف فى الإنفاق فى غير حق ، قال
الشافعى رضى الله عنه : والتبذير إنفاق المال فى غير حقه ، ولا تبذير فى عمل الخير . وهذا
قول الجمهور . وقال أشهب عن مالك : التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعه فى غير حقه ،
وهو الإسراف ، وهو حرام لقوله تعالى : **(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ)** وقوله

(١) هو أن يحمى الرضاء ، وهى الزبل ، فهرك الفضال من شدة حرها وإيراتها أخفافها .

« إخوان » يعنى أنهم في حكمهم ؛ إذ المبذّر ساج في إفساد كالشياطين ، أو أنهم يفعلون ما تسؤل لهم أنفسهم ، أو أنهم يُقرّنون بهم غذا في النار ؛ ثلاثة أقوال . والإخوان هنا جمع أخرج من غير النسب ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » . وقوله تعالى : (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) أى أحذروا متابته والتشبه به في الفساد . والشيطان اسم المجلس . وقرأ الضحاك « إخوان الشيطان » على الأفراد ، وكذلك ثبت في مصحف أنس بن مالك رضى الله عنه .

الثالثة — من أنفق ماله في الشهوات زائدا على قدر الحاجات وعرضه بذلك للشغاف فهو مبذّر . ومن أنفق ربح ماله في شهواته وحفظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذّر . ومن أنفق درهما في حرام فهو مبذّر ، ويحجر عليه في نفقته درهم في الحرام ، ولا يحجر عليه إن بذله في الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاق .

قوله تعالى : وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — وهو أنه سبحانه وتعالى خصّ نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : « وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » . وهو تأديب عجيب وقول لطيف بديع ؛ أى لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فتحريمهم . وإنما يجوز أن تعرض عنهم عند عجز تعرض وفاق يعوق ، وأنت عند ذلك ترجو من الله سبحانه وتعالى فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواصلة السائل ؛ فإن قعد بك الحال فقلّ لهم قولا ميسورا .

الثانية — في سبب نزولها ؛ قال ابن زيد : نزلت الآية في قوم كانوا يسئلون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتى أن يعطيهم ؛ لأنه كان يعلم منهم نفقة المال في فساد ،

فكان يُعرض عنهم رغبة في الأجر في منهم لثلاثين عاماً على فسادهم . وقال عطاء الخراساني في قوله تعالى « وَإِنَّمَا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ أَنْتَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » قال : ليس هذا في ذكر الوالدين ، جاء ناس من مَدْيَنَةَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَحْمِلُونَهُ ، فَقَالَ : « لَا أُجِدُّ مَا أَحْكَمُ عَلَيْهِ » فَتَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا ، فَاُنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَإِنَّمَا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ أَنْتَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » . والرحمة التي .

الثالثة — قوله تعالى : « فَقُلْ لَمْ يَكُنِ الْقَوْلُ بِمِيسُورٍ » أمره بالدعاء لهم ، أي يَسِّرْ فَرِّجْهم طيبهم بدعائكم لهم ، وقيل : ادْعُ لَمْ دَعَاءٌ يَتَضَمَّنُ الْفَتْحَ لَهُمُ وَالْإِصْلَاحَ . وقيل : المعنى « وإما تعرضن » أي إن أعرضت يا محمد عن إعطائهم لضيق يد فقل لهم قولاً ميسوراً ، أي أحسن القول وأبسط العذر ، وأدع لهم بسعة الرزق ، وقل إذا وجدتُ فعلتُ وأكرمتُ ، فإن ذلك يعمل في مَسَرَّةٍ نفسه عمل المواصلات . وكان عليه الصلاة والسلام إذا سئل وليس عنده ما يُعْطَى سَكَتَ انتظارا لِرِزْقٍ يَأْتِي مِنَ اللَّهِ مَبْجَاهًا وَتَعَالَى كِرَاهَا الرَّدُّ ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، فَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سئل وليس عنده ما يعطى قال : « يَرْزُقُنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ فَضْلِهِ » . فالرحمة على هذا التأويل الرزق المنتظر . وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة . والضمير في « عنهم » عائد على من تقدم ذكرهم من الآباء والأقارب والمساكين وأبناء السبيل . و « قولاً ميسوراً » أي لينا لطيفاً طيباً ، مفعول بمعنى الفاعل ، من لفظ اليسر كاليمون ، أي وعداً جميلاً ، على ما بيناه . ولقد أحسن من قال :

إِلَّا تَكُنْ وَرَقٌ يَوْهَ الْجُودِ بِهَا * لِلسَّائِلِينَ فَإِنِّي لَيِّنُ الْمُسَوِّدِ

لَا يَتَقَدَّمُ السَّائِلُونَ الْخَيْرَ مِنْ خَلْقٍ * إِنَّمَا تَوَالِي وَإِنَّمَا حَسَنُ مُرَدُّو دِي

تقول : يَسَّرْتَ لَكَ كَذَا إِذَا أَعْدَدْتَهُ .

قوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ

الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ »

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْمَلْ يَدَكَ مَخْلُوءَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ هذا مجاز مبرّه عن البخيل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله ؛ فضرب له مثل الغلّ الذي يمنع من التصرف باليد . وفي صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البخيل والمتصنّق كمثل رجلين عليهما جُبَّتَان من حديد قد أَضْطَوَّتْ أيديهما إلى تُدْيِيَمَا وتَرَأَقِيَمَا فجعل المتصنّق كلما تصنّق بصدقة انبسطت عنه حتى تَغَشَّى أَنَامِلَهُ وَتَغَوَّأَ أثره وجعل البخيل كلما هم بصدقة قَلَصَتْ وأخذت كُلَّ حَلَقَةٍ بِمَكَانِهَا . قال أبو هريرة رضى الله عنه : فأتانا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بأصبعيه هكذا في جيبه فلو رأيتَه يوسّعها ولا يتوسّع .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ ﴾ ضرب بَسْطَ اليد مثلا لذهاب المال ، فإن قبض الكف يحبس ما فيها ، وبسطها يذهب ما فيها . وهذا كله خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ، وكثيرا ما جاء في القرآن ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان سيدهم وواسطتهم إلى ربهم مبرّه عنهم على عادة العرب في ذلك . وأيضا فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يتخزئ شيئا لغد ، وكان يبيع حتى يشتد الجوع على بطنه من الجوع . وكان كثير من الصحابة يتفقون في سبيل الله جميع أموالهم ، فلم يعنفهم النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليهم لصحة يقينهم وشدة بصائرهم . وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط في الإنفاق ، وإخراج ما حوته يده من المال من خيف عليه الحصرة على ما خرج من يده ، فأما من وثق بموعود الله عز وجل وحزب ثوابه فيما أفقه فغير مراد بالآية ، والله أعلم . وقيل : إن هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في خاصة نفسه ، علمه فيه كيفية الإنفاق ، وأمره بالاعتصام . قال جابر وأبن مسعود : جاء غلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أتى

(١) أى انتشرت عنه الجبة . (٢) أى أثر مشيه لسبوعها . (٣) أى انضمت وارتفعت .

(٤) العرب تجمّل القول عبارة من جمع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ فتقول : قال بيده ، أى أخذ . وقال برجله ، أى شىء . وكل ذلك على المجاز والاتساع . (٥) جواب لو مخوف ؛ أى لصعبت .

تسألك كذا وكذا . فقال : « ما عندنا اليوم شيء » . قال : فقول لك اكسني قميصك ؛ فغلق قميصه فدفعه إليه وجلس في البيت عرياناً . وفي رواية جابر : فأذن بلال للصلاة وانتظر رسول صلى الله عليه وسلم يخرج ، واشتغلت القلوب ، فدخل بعضهم فإذا هو عار ؛ فنزلت هذه الآية . وكل هذا في إفتاق الخير . وأما إفتاق الفساد فقليله وكثيره حرام ، كما تقدم .

الثالثة - نهت هذه الآية عن استفراغ الوجد فيما يطراً أولاً من سؤال المؤمنين ؛ لئلا يبقى من يأتي بعد ذلك لاشيء له ، أولئلا يضيع المتيق عياله . ونحوه من كلام الحكمة : ما رأيت قط مرمقاً إلا ومعه حق مضيع . وهذه من آيات فقه الحال فلا يُبين حكمها إلا باعتبار شخص شخص من الناس .

الرابعة - قوله تعالى : (فَتَقَعْدَ مُلُومًا مَّحْسُورًا) قال ابن عرفة : يقول لا تنصرف ولا تأتلف مالك فتبقى محسوراً منقطعاً عن الثقة والتصرف ؛ كما يكون البعير الحسير ، وهو الذي ذهبت قوته فلا أنجعات به ؛ ومنه قوله تعالى : « يَتَقَلَّبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ » (١) أي كليل منقطع . وقال قتادة : أي نادماً على ما سلف منك ؛ فجعله من الحسرة ، وفيه بعد ؛ لأن الفاعل من الحسرة حَسِرَ وحمران ولا يقال محسور . والمعلوم : الذي يلام على إتلاف ماله ، أو يولمه من لا يعطيه .

قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ مُعِيبًا (٢) .

يُعْبَادُهُ خَيْرًا بِصِيرًا (٣)

(١) الرجد (منته الوارد) : اليسار والسعة . (٢) آية سورة المائدة . (٣) هذه الآية لم ينكلم عليها المؤلف ولم تذكر في التسخ التي بين أيدينا ولله تكلم عليها وحصل سقط من السخ . وعجاجة ابن جرير الطبري في كلامه على الآية كما وردت في تفسيره : « يقول تعالى ذكره لئن لم يمدح صلى الله عليه وسلم إن ربك يا محمد يبسط رزقه لمن يشاء من عباده فيوسع عليه . ويقدر على من يشاء ، يقول : ويقدر على من يشاء . منهم فيضيق عليه . » إنه كان يباده خبيراً » يقول : إن ربك ذو خيرة بعباده ، ومن الذي يصلحه السعة في الرزق وتقصد . ومن الذي يصلحه الافتقار والضييق ويهلكه . « بصيرا » يقول : هو ذو بصير يتدبرهم وسياستهم . يقول : فاته إلى محمد إلى أمرنا فإما أمرناك ونهيناك من بسط يدك فيما تبسطها فنهيه وفيمن تبسطها له ، ومن كفها عن تكفها عنه وتكفها فيه ؛ فنحن أعلم بمصالح البباد منك ومن جميع الخلق فأبصر بتدبيرهم »

قوله تعالى : وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ لَكُمْ رِزْقُهُمْ
وَإِنَّمَا كُنَّ لَكُمْ قَتْلُهُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾
فيه مسائل ثلث :

الأولى — قدم مضمي الكلام في هذه الآية في الأنعام، والحمد لله، والإملاق: الفقر وعدم الملك.
أماق الرجل أى لم يبق له إلا الملقات، وهى الحجارة العظام الملس، قال المذنب يصف صائدا:
أَتَيْتُهَا أَقْبَرُ ذُو حَشِيف * إِذَا سَأَمْتُ عَلَى الْمَلَقَاتِ سَامًا
الواحدة ملقة، والأقندر تصغير الأقدار، وهو الرجل القصير. والحشيف من الثياب:
الخلق. وسامت مرمت. وقال تميم: أماق لازم ومتعد، أماق إذا انقصر، وأماق الدهر
ما بيده، قال أوس:
* وَأَمَّا مَا عِنْدِي خُطُوبٌ تَبْلُ *
والأماق ما عندي خطوط تبلى.

الثانية — قوله تعالى : (« خَطَا ») « خَطَا » قراءة الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء
وبالهمزة والقصر. وقرا ابن عامر « خَطَا » بفتح الخاء والطاء والهمزة مقصورة، وهى قراءة
أبي جعفر يزيد. وهاتان قراءتان مأخوذتان من « خطي » إذا أتى الذنب على عمد. قال
ابن عرفة: يقال خَطِيَ في ذنبه خَطَاً إذا أثم فيه، وأخطأ إذا سلك سبيلاً خطأ حامدا أو غير
حامد. قال: ويقال خَطِيَ في معنى أخطأ. وقال الأزهري: يقال خَطِيَ يخطأ خطأً إذا
تعمد الخطأ؛ مثل أثم يَأْثُمُ إِثْمًا، وأخطأ إذا لم يتعمد، إخطأ وخطأ. قال الشاعر:
دَعَيْتَنِي إِثْمًا خَطِيئِي وَصَوَّبَنِي * عَلَى وَإِذَا مَا أَهْلَكْتُ مَالِي^(١)

(١) راجع ج ٧ ص ١٢٠ طبة أولى أو ثانية . (٢) صدر البيت :

* لَمَّا رَأَيْتُ الْعَدَمَ قَدْ تَأَخَّلَ *

(٣) في الأصول : « وإن ما أهلك مالى . والتصويب من كتاب الشعر والشعراء لابن تيمية وطبقات الشعراء
لابن سلام في ترجمة أوس بن عطاء، ولسان العرب في مادة « صوب » . وقبل هذا البيت :

الآلات أمانة يوم نَحُولُ * تَقَطَّعَ بَيْنَ ظِلْفِ الْحَيَالِ

يقول : وإن القى أهلكت إنما هو مال، والمال يستخلف ولم ألتف مرثيا .

ونحو : مكان كان فيه وقعة الحرب لضربة على بن كلاب . (راجع معهم يا قوت) .

والخطأ الأعم يقوم مقام الإخطاء ، وهو ضد الصواب . وفيه لفتان : القصر وهو الجسد ، والمد وهو قليل ، وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما «حَطَأٌ» بفتح الحاء وسكون الطاء وهمزة . وقرأ ابن كثير بكسر الحاء وفتح الطاء ومدّ الهمزة . قال النحاس : ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً ، ولذلك جعلها أبو حاتم خطأ ، قال أبو علي : هي مصدر من خاطأ يخاطع ، وإن كنا لا نجد خاطأ ، ولكن وجدنا تخاطأ ، وهو مطاوع خاطأ ، فدلنا عليه ؛ ومنه قول الشاعر :

تَخَاطَاتِ النَّبَلُ أَحْشَاءَهُ * وَأَثَرُ يَوْمِي فَلَمْ أَتَّجِلْ

وقول الآخر في وصف مهابة :

تَخَاطَأَ الْقَنَاصُ حَتَّى وَجَدْتُهُ * وَخَرَطُوهُ فِي مَتْنَعِ الْمَاءِ رَاسِبُ
الجوهري : تخاطأه أى أخطأه ؛ وقال أرقى بن مطر المازني :

أَلَا أَلْبَسَا خُلَّتِي جَابِرًا * بَارَتْ خَلِيكَ لَمْ يُقْتَلْ
تَخَاطَاتِ النَّبَلُ أَحْشَاءَهُ * وَأَثَرُ يَوْمِي فَلَمْ يَسْجَلْ

وقرأ الحسن «حَطَأَ» بفتح الحاء والطاء والمد في الهمزة . قال أبو حاتم : لا يعرف هذا في اللغة وهي غلط غير جائز . وقال أبو الفتح : الخطأ من أخطأت بمنزلة العطاء من أعطيت ، هو اسم بمعنى المصدر ، وعن الحسن أيضا «حَطَى» بفتح الحاء والطاء متونة من غير همز .

قوله تعالى : وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٦٦﴾

فيه مسألة واحدة :

قال العلماء : قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ﴾ أبلغ من أن يقول : ولا تزنوا ؛ فإن معناه لا تدنوا من الزنى . والزنى بمد ويقصر ، لفتان . قال الشاعر :

كَانَتْ فَرِيضَةً مَا تَقُولُ كَمَا * كَانِ الزَّيْنَاءُ فَرِيضَةَ الرَّحِمِ

و﴿سَبِيلًا﴾ نصب على التمييز ، التقدير : وساء سبيله سبيلا . أى لأنه يؤدى إلى النار . والزنى من الكجائر ، ولا خلاف فيه وفي قبحه لاسميا بحليلة الجار . وينشأ عنه استخدام ولد الغير . (١) أنثى : بمعنى يأنثى ، ويجوز «أنثى» .

والتخاذد أبنا وغير ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه . وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بامرأة يُحجَّ على باب فسطاط فقال : " لعله يريد أن يلتم بها " فقالوا : نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد هممت أن ألعنه لَمَّا يدخل معه قبره كيف يؤرثه وهو لا يحل له كيف يستخدمه وهو لا يحل له " .

قوله تعالى : وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ قد مضى الكلام فيه في الأنعام . قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ أى بغير موجب القتل . ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ ﴾ أى لمستحق دمه . قال ابن خزيمة مناد : الولي يجب أن يكون ذكراً ، لأنه أفرده بالولاية بلفظ التذكير . وذكر إسماعيل بن إسحاق في قوله تعالى : « فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ » ما يدل على خروج المرأة عن مطلق لفظ الولي ، فلا جرم ، ليس للنساء حق في القصاص لذلك ولا أثر

(١) قوله « أتى بامرأة » أى مر عليها في بعض أسفاره . و« المحجم » (بمعن مضبوطة وجمع مكسورة وهاء مهملة) صفة لامرأة ، وهى الحامل التى قربت ولادتها . وقوله : فقال لعله ... الخ فيه حذف تحذيره : فقال عنها فقالوا أمة فلان ، أى نسبه . ومعنى « يلتم بها » : أى يطلبها ، وكانت حاملاً مسبية ، لا يحل لجماعها حتى تضع . وقوله « كيف يؤرثه ... الخ » معناه : أنه قد تناثر ولادتها ستة أشهر ، بحيث يحتمل كون الولد من هذا السابى ، ويحتمل أنه كان من قبله . فعمل تقدير كونه من السابى يكون ولداً له ، ويثوارثان . وعمل تقدير كونه من غير السابى لا يثوارثان هو ولا السابى لعدم القرابة ، بل له استخدامه لأنه مملوك . فتقدير الحديث : أنه قد يستحقه ويجهله أبنا له ويورثه مع أنه لا يحل له توريثه لكونه ليس منه ، ولا يحل توريثه ومزاجته لباقي الورقة . وقد يستعمله استخدام العبيد ويجهله عبداً يملكه ، مع أنه لا يحل له ذلك لكونه منه إذا وضعت له محتملة كونه من كل واحد منهما ، فيجب عليه الامتناع من وطئها خوفاً من هذا المخطور . (راجع شرح التورى على صحيح مسلم ، كتاب النكاح باب تحريم وطء الحامل المسبية) .

(٢) راجع ج ٧ ص ١٢٠ طبعه أول مرة .

لعمريها، وليس لما الاستيفاء. وقال المخالف: إن المراد هاهنا بالولي الوارث؛ وقد قال تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ»، وقال: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَمَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ شَيْءٍ»، وقال: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ» فاقضى ذلك إثبات القود لسائر الورثة؛ وأما ما ذكره من أن الولي في ظاهره على التذكير وهو واحد، كأن ما كان بمعنى الجنس يستوى المذكر والمؤنث فيه، وتتمته في كتب الخلاف. (سُلْطَانًا) أي تسليطاً إن شاء قتل وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدية؛ قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما والضحاك وأشباه والشافعي. وقال ابن وهب قال مالك: السلطان أمر الله. ابن عباس: السلطان الحجة. وقيل: السلطان طلبه حتى يدفع إليه. قال ابن العربي: وهذه الأقوال متقاربة، وأوضحها قول مالك: إنه أمر الله. ثم إن أمر الله عز وجل لم يقع نصاً. فاختلف العلماء فيه؛ فقال ابن القاسم عن مالك وأبي حنيفة: القتل خاصة. وقال أشهب: الحجة؛ كما ذكرنا آنفاً، وبه قال الشافعي. وقد مضى في سورة «البقرة» (٤١) هذا المعنى.

الثانية — قوله تعالى: (فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ) فيه ثلاثة أقوال: لا يقتل غير قاتله؛ قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير. الثاني — لا يقتل بدل وليه اثنين كما كانت العرب تفعله. الثالث — لا يمثل بالقاتل؛ قاله طلق بن حبيب، وكله مراد لأنه إصراف منهى عنه. وقد مضى في «البقرة» القول في هذا مستوفى. وقرأ الجمهور «يُسْرِفُ» بالياء، يريد الولي؛ وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي «تسرف» بالثاء من فوق، وهي قراءة حذيفة. وروى العلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال: هو للقاتل الأول، والمعنى عندنا فلا تسرف أيها القاتل. وقال الطبري: هو على معنى الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والأئمة من بعده. أي لا تقتلوا غير القاتل. وفي حرف أبي «فلا تسرفوا في القتل».

(١) آية ٧١ سورة النورية. (٢) آية ٧٢ سورة الأحقال. (٣) آخر سورة الأحقال. (٤) راجع به ٢ ص ٢٤٤ وما بعدها طبعاً ثانية.

الثالثة — قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ أى مُعَانًا ، يعنى الولي . فإن قيل : ولم من وليّ نخذول لا يصل إلى حقه . قلنا : المعونة تكون بظهور الحجة تارة وباستيفائها أخرى ، ويجمعهما ثالثة ، فأما كان فهو نصر من الله سبحانه وتعالى ، وروى ابن كثير عن مجاهد قال : إن المقتول كان منصوراً . النحاس : ومعنى قوله إن الله نصره بوليّه . وروى أنه في قراءة أبيّ « فلا تسرفوا في القتل إن وليّ المقتول كان منصوراً » . قال النحاس : الأبينّ بالياء ويكون للوليّ ؛ لأنه إنما يقال : لا يسرف إن كان له أن يقتل ، فهذا للوليّ . وقد يجوز بالياء ويكون للوليّ أيضاً ، إلا أنه يحتاج فيه إلى تحويل المخاطبة . قال الضحاك : هذا أول ما نزل من القرآن في شأن القتل ، وهي مكية .

قوله تعالى : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٢٢﴾
فيه مسائل ثلاث :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾
قد مضى الكلام فيه في الأنعام ^(١) .

الثانية — قوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ قد مضى الكلام فيه في غير موضع ^(٢) . قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد . ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ عنه ، لحذف ؛ كقوله : «وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» به وقيل : إن العهد يسأل تبكيته لنافضه فيقال : نقضت ، كما تسأل المؤمودة تبكيته لو ألتها .

قوله تعالى : وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِذَا كُنْتُمْ وَرَثًا بِالْقِسْطِ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْلُغُ أَمْرَهُ سَرًّا ﴿٢٣﴾
ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٢٤﴾

فيه مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُمْتُمْ ﴾ تقدم الكلام فيه أيضا في الأنعام .^(١)
وتقتضي هذه الآية أن الكيل على البائع ، وقد مضى في سورة «يوسف» فلا معنى للإعادة .^(٢)
والقسطاس (بضم القاف وكسر ها) : الميزان بلغة الروم ؛ قاله ابن حزم . وقال الزجاج :
القسطاس : الميزان صغيرا كان أو كبيرا . وقال مجاهد : القسطاس العدل ، وكان يقول :
هي لغة رومية ، وكان الناس قيل لهم : زِنُوا بِمَعْدِلَةٍ فِي وَزْنِكُمْ . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع
وابن مامر وعاصم في رواية أبي بكر «القسطاس» بضم القاف ، وحزرة والكسائي وحفص عن
عاصم (بكسر القاف) وهما لفتان .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أى وفاء الكيل وإقامة الوزن
خير عند ربك وأبرك . « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » أى عاقبة . قال الحسن : ذكر لنا أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقدر رجل على حرام ثم يَدْعُهُ لَيْسَ لِي بِهِ إِلَّا خِيفَةَ اللَّهِ تَعَالَى
إِلَّا أَبْذَلَهُ اللَّهُ فِي حَاجِلِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ مَا هُوَ خَيْرُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ » .

قوله تعالى : وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ
وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ أى لا تتبع ما لا تعلم ولا يَتَّبِعْكَ . قال قتادة :
لا تقل رأيت وأنت لم تر ، وسمعت وأنت لم تسمع ، وطعت وأنت لم تعلم ، وقاله ابن عباس
رضي الله عنهما . قال مجاهد : لا تَدْنُمُ أحدا بما ليس لك به علم ؛ وقاله ابن عباس رضي الله
عنهما أيضا . وقال محمد بن الحنفية : هي شهادة الزور . وقال القتيبي : المعنى لا تتبع الحدس

(١) راجع ج ٧ ص ١٣٠ طبة أدل أو ثانية . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٥٤ طبة أدل أو ثانية .

والظنون؛ وكلها متقاربة . وأصل القَفْوُ التَّبَهُتُ والقَذْفُ بالباطل؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : ” نحن بنو النضر بن كنانة لا قَفْوُ أَمَّا وَلَا نَنْفَى مِنْ أَيْتَانَا “ أى لَا نُسَبُّ أَمَّا . وقال الكَتِيت : —

فلا أرمى البرىء بغير ذنب * ولا أَقْفُوَ الحواصن إن قُفِينَا

يقال : قَفَوْتُهُ أَقْفُوهُ، وقَفَيْتُهُ أَقْفُوهُ، وقَفَيْتُهُ إِذَا اتَّبَعْتَ أثره . ومنه القاففة لتبعهم الآثار وقافية كل شيء آخره ، ومنه قافية الشعر ؛ لأنها تقفو البيت . ومنه اسم النبي صلى الله عليه وسلم المَقْفَى ؛ لأنه جاء آخر الأنبياء . ومنه القائف ، وهو الذى يتبع أثر الشبه . يقال : قاف القائف يقوف إذا فعل ذلك . وتقول : قَفَوْتُ الأثر ، بتقديم القاف على التالف . ابن عطية : ويشبه أن يكون هذا من تلعب العرب فى بعض الألفاظ ، كما قالوا : رَعَمَلِي فى لَعَمَرِي . وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت : قفا وقاف ، مثل عتا وعات . وذهب منذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثل جَبَدَ وجَدَبَ . وبالجملية فهذه الآية تنهى عن قول الزور والقذف ، وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والردية . وقرأ بعض الناس فيما حكى الكسائي « تَقَفْ » بضم القاف وسكون القاء . وقرأ الجراح « والقَاد » بفتح القاء ، وهى لغة لبعض الناس ، وأنكرها أبو حاتم وغيره .

الثانية — قال ابن خُوَيْرِمْ مَنَاد : تضمنت هذه الآية الحكم بالقاففة ؛ لأنه لما قال : « وَلَا تَقَفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » دلَّ على جواز ما لنا به علم ، فكُلُّ ما علمه الإنسان أو غلب على ظنه جاز أن يحكم به ، وبهذا احتججتنا على إثبات القُرعة والخِرص ؛ لأنه ضرب من غلبة الظن ، وقد يُسمَّى علما آتساعا . فالقائف يلحق الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما كما يلحق الفقيه الفريع بالأصل من طريق الشبه . وفى الصحيح عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على مسرورا تَبَرَّقَ أسارير وجهه فقال : ” ألم تَرَى أن جُبَّزًا نظرائى زيد ابن حارثة وأسامة بن زيد عليهما قطيفة قد غَطَّيا رءوسهما وبَدَّتْ أقدامهما فقال إن بعض هذه الأقدام لَمَنَ بعض “ . وفى حديث يونس بن يزيد : ” وكان جُبَّزَ قَاتِمًا “ .

الثالثة — قال الإمام أبو عبد الله المازري : كانت الجاهلية تقدر في نسب أسامة لكونه أسود شديد السواد ، وكان زيد أبوه أبيض من القطن ، هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح . قال القاضي عياض : وقال غير أحمد كان زيد أزهراً اللون ، وكان أسامة شديد الأدمة ؛ وزيد بن حارثة عرقي صريح من كلب ، أصابه سبأ ، حسبا يأتي في سورة « الأحزاب ^(١) » إن شاء الله تعالى .

الرابعة — استدلل جمهور العلماء على الرجوع إلى القافة عند التنازع في الولد ، بسروور النبي صلى الله عليه وسلم بقول هذا القائف ؛ وما كان عليه السلام بالذي يُسر بالباطل ولا يمجبه . ولم يأخذ بذلك أبو حنيفة وإسحاق والثوري وأصحابهم متمسكين بإلقاء النبي صلى الله عليه وسلم الشبه في حديث اللعان ؛ على ما يأتي في سورة « النور » إن شاء الله تعالى .

الخامسة — واختلف الآخزون بأقوال القافة ، هل يؤخذ بذلك في أولاد الحرائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء ، على قولين ؛ فالأول — قول الشافعي ومالك رضي الله عنهما في رواية ابن وهب عنه ، ومشهور مذهب قسره على ولد الأمة . والصحيح ما رواه ابن وهب عنه وقاله الشافعي رضي الله عنه ؛ لأن الحديث الذي هو الأصل في الباب إنما وقع في الحرائر ، فإن أسامة وأباه حران فكيف يُلحق السبب الذي نُخرج عليه دليل الحكم وهو الباعث عليه ، هذا مما لا يجوز عند الأصوليين . وكذلك اختلف هؤلاء ، هل يكتفى بقول واحد من القافة أو لا بُد من اثنين لأنها شهادة ؛ وبالأول قال ابن القاسم وهو ظاهر الخبر بل نصه . وبالتالي قال مالك والشافعي رضي الله عنهما .

السادسة — قوله تعالى : (إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) أي يسأل كل واحد منهم عما اكتسب ، فالقواد يسأل عما أفكر فيه واعتقده ، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع . وقيل : المعنى أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وقواده ؛ ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم : « كلّمك راع وكلّمك مسئول من رعيته »

(١) راجع المسألة الخامسة من قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من ظنين ... » آية ؛

فالإنسان راع على جوارحه ؛ فكأنه قال كل هذه كان الإنسان عنه مسئولاً ، فهو على حذف مضاف ، والمعنى الأول أبلغ في الجملة ؛ فإنه يقع تكذيبه من جوارحه ، وتلك غاية الخزي ؛ كما قال : « الْيَوْمَ نَبْرِئُ عَلَى أَعْيُنِهِمْ وَنُكَفِّرُ عَنْ أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ^(١) » ، وقوله « شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ وَجَلْدَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٢) » . وعبر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك لأنها حواس لها إدراك ، وجعلها في هذه الآية مسئولة ، فهي حالة من يعقل ، فلذلك عبر عنها بأولئك . وقال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى « رَأَيْتُمْ لِي سَاجِدِينَ » : إنما قال : « رَأَيْتُمْ » في نجوم ، لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعل من يعقل عبر عنها بكناية من يعقل ؛ وقد تقدم ^(٣) . وحكى الزجاج أن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك ، وأنشد هو والطبري :

ذُمَّ المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعد أولئك الأيام

وهذا أمر يوقف عنده . وأما البيت فالرواية فيه « الأقوام » والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٢٠﴾ كُلِّ ذَلِكْ كَانَ سَيْئًا عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٢١﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا) هذا تنهى عن الخيلاء وأمر بالتواضع . والمَرَح : شدة الفرح . وقيل : التكبر في المشي . وقيل : تجاوز الإنسان قدره . وقال قتادة : هو الخيلاء في المشي . وقيل : هو البطر والأثر . وقيل : هو النشاط . وهذه الأقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين : أحدهما مذموم والآخر محمود ؛ فالتكبر والبطر والخيلاء وتجاوز الإنسان قدره مذموم والفرح والنشاط محمود . وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما ؛ ففي الحديث الصحيح « اللَّهُ أَفْرَحُ بتوبة العبد من رجل ... » الحديث . والكسل

(١) آية ٦٥ سورة يس . (٢) آية ٢٠ سورة فصلت . (٣) راجع ج ٩ ص ١٢٢ طبة أولى أو ثانية .

مذموم شرعاً والنشاط ضده . وقد يكون التكبر وما في معناه مجحوداً ، وذلك على أعداء الله والظلمة . أسند أبو حاتم محمد بن حبان من ابن جابر بن عتيك عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : **« من الغيرة ما يفيض الله عز وجل ومنها ما يجب الله عز وجل ومن الخيلاء ما يجب الله عز وجل ومنها ما يفيض الله فأما الغيرة التي يجب الله الغيرة في الدين والغيرة التي يفيض الله الغيرة في فريدينه والخيلاء التي يجب الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدقة والاختيال الذي يفيض الله الخيلاء في الباطل »** وأخرجه أبو داود في مصنفه وغيره . وأنشدوا :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا * فكم تحتها قوم هو منك أرفع
وإن كنت في عزٍّ وحِزٍّ ومنعة * فكم مات من قوم هو منك أمتع

الثانية — إقبال الإنسان على الصيد ونحوه ترفعاً دون حاجة إلى ذلك داخل في هذه الآية ، وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معي . وأما الرجل يستريح في اليوم النادر والساعة من يومه ، يُعَمِّم فيها نفسه في التطرح والراحة ليستعين بذلك على شغل من البر ، كقراءة علم أو صلاة ، فليس بداخل في هذه الآية .

قوله تعالى : **(مَرَحًا)** قراءة الجمهور بفتح الراء . وقراءة فرقة فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بناء اسم الفاعل . والأول أبلغ ، فإن قولك : جاء زيد ركضاً أبلغ من قولك : جاء زيد راكضاً ؛ فكذلك قولك مَرَحًا . والمرح المصدر أبلغ من أن يقال مَرِحًا .

الثالثة — قوله تعالى : **(إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ)** يعني لن تتوَجَّعَ باطنها فتعلم ما فيها **(وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا)** أي لن تساوى الجبال بطولك ولا تطاولك . ويقال : نرق الثوب أي شقه ، ونرق الأرض قطعها . والنرق : الواسع من الأرض . أي لن تخرق الأرض بكبرك ومشيك عليها . **(وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا)** بمعطمتك ، أي بقدرتك لا تبلغ هذا المبلغ ، بل أنت عبد ذليل ، محاط بك من تحتك ومن فوقك ، والمحاط محصور ضعيف ؛ فلا يليق بك

(١) في بعض نسخ الأصل : « في اليوم البارد » .

التكبر . والمراد بخرق الأرض هنا ثقبها لا قطعها بالمسافة ؛ والله أعلم . وقال الأزهري : معناه لن تقطعها . النحاس : وهذا آئين ؛ لأنه مأخوذ من الخرق وهي الصحراء الواسعة . ويقال : فلان أخرق من فلان ، أى أكثر سفرا وعزة ومنعة . ويروى أن سبأ ذوق الأرض بأجناده شرقا وغربا وسهلا وجبلا ، وقتل سادة وسبي — وبه سُمي سبأ — ودان له الخاق ، فلما رأى ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيام ثم خرج إليهم فقال : إني لما نلت ما لم ينل أحد رأيت الابتداء بشكر هذه النعم ، فلم أر أوقع في ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت ، فسجدوها لها ، وكان ذلك أول عبادة الشمس ؛ فهذه عاقبة الخيلاء والتكبر والمزج ، نموذ بالله من ذلك .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ « ذلك » إشارة إلى جملة ما تقدم ذكره مما أمر به ونهى عنه . و « ذلك » يصلح للواحد والجمع والمؤنث والمذكر . وقرأ عاصم وأبن عامر وحزمة والكسائي ومسروق « سيئته » على إضافة سيئ إلى الضمير ، ولذلك قال : « مَكْرُوهًا » نصب على خبر كان ، والسيئ : هو المكروه ، وهو الذى لا يرضاه الله عز وجل ولا يأمر به . وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآي من قوله : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ — إلى قوله — كَانَ سَيِّئُهُ » مأمورات بها ومنهيات عنها ، فلا يخبر من الجميع بأنه سيئة فيدخل المأمور به في المنهى عنه . واختار هذه القراءة أبو عبيد . ولأن في قراءة أبي « كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ » فهذه لا تكون إلا للإضافة . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو « سيئة » بالتنوين ؛ أى كل ما نهى الله ورسوله عنه سيئة . وعلى هذا انقطع الكلام عند قوله : « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » ثم قال : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » ، « وَلَا تَمْشِ » ، ثم قال : « كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ » بالتنوين . وقيل : إن قوله « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ » إلى هذه الآية كان سيئة لا حسنة فيه ، بفعلوا « كلا » محيطا بالمنهى عنه دون غيره . وقوله : « مَكْرُوهًا » ليس نعمتا لسيئة ، بل هو بدل منه ؛ والتقدير : كان سيئة وكان مكروها . وقد قيل : إن « مكروها » خبر ثان لكان حمل على لفظة كل ، و « سيئة » محمول على المنهى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبل . وقال بعضهم : هو نعمت لسيئة ؛ لأنه لما كان

تأنيها غير حقيق جاز أن توصف بمذكر . وضعف أبو على الفارسي هذا وقال : إن المؤنث إذا دُكر فإنا ينبغي أن يكون ما بعده مذكرا ، وإنما التسهيل أن يتقدم الفعل المسند إلى المؤنث وهو في صيغة ما يسند إلى المذكر ؛ ألا ترى قول الشاعر :

فلا مزنة ودقت ودقها * ولا أرض أبقل إقبالها

مستقيم عندهم . ولو قال قائل : أبقل أرض لم يكن قبيحا . قال أبو على : ولكن يجوز في قوله « مكروها » أن يكون بدلا من « سيئة » . ويجوز أن يكون حالا من الضمير الذي في « عند ربك » ويكون « عند ربك » في موضع الصفة لسيئة .

الخامسة — استدلل العلماء بهذه الآية على ذم الرقص وتعاطيه . قال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل : قد نص القرآن على النهي عن الرقص فقال : « ولا تمش في الأرض مَرَحًا » وذم الختال ، والرقص أشد المرح والبطر . أولسنا الذين قَسْنَا النبيذ على الخمر لا تفافهما في الإطراب والسكر ، فما بالنا لا نقيس القضيبي وتلحين الشعر معه على الطنبور والمزمار والطبل لأجتماعهما . فما أقبح من ذى لحية ، وكيف إذا كان شبيبة ، يرقص ويصفق على إيقاع الألحان والقضبان ، وخصوصا إن كانت أصوات لنسوان ومردان ، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط ، ثم هو إلى إحدى الدارين ، يَسْتَمْسُ^(١) بالرقص شمس البهائم ، ويصفق تصفيق النسوان ، ولقد رأيت مشايخ في عمري ما بان لهم سن من التيسم فضلا عن الضحك مع إدمان مخالطى لهم . وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله : ولقد حدثني بعض المشايخ عن الإمام الغزالي رضى الله عنه أنه قال : الرقص حلاقة بين الكفتين لا تزول إلا باللعب . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان في « الكهف » وغيرها إن شاء الله تعالى .

(١) شمس الهابة : شردت وجمعت . (٢) في المسألة الثانية من قوله تعالى : « وربطنا على قلوبهم ... » آية ١٤ (٣) في أول سورة لقمان .

قوله تعالى : ذَلِكَ بِمَا أَوْحَيْتُ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ
مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿١٠﴾

الإشارة : «ذلك» إلى هذه الآداب والقصص والأحكام التي تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التي نزل بها جبريل عليه السلام . أي هذه من الأفعال المحمّدة التي تقتضيها حكمة الله عز وجل في عباده ، وخلقها لهم من محاسن الأخلاق والحكمة وقوانين المعاني المحمّدة والأفعال الفاضلة . ثم عطف قوله « ولا تجعل » على ما تقدّم من النواهي . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد كل من سمع الآية من البشر . والمدحور : المهان المبعد المقصى . وقد تقدّم في هذه ^(١) السورة . ويقال في الدعاء : اللهم أذرعنا الشيطان ؛ أي أبعده .

قوله تعالى : أَفَأَصْفَقَكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا
إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿١١﴾

هذا يرّد على من قال من العرب : الملائكة بنات الله ، وكان لهم بنات أيضا مع البنين ، ولكنه أراد : أفأفعل لكم البنين دونهم وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه . ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ أي في الإثم عند الله عز وجل .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ
إِلَّا نُفُورًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أي بينا . وقيل كررنا . ﴿ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ قيل « في » زائدة ، والتقدير : ولقد صرّفنا هذا القرآن ؛ مثل « وأصلح لي في ذريتي » أي أصلح ذريتي . والتصرّف : صرف الشيء من جهة إلى جهة . والمراد بهذا التصريف البيان والتكرير . وقيل : المغاربة ؛ أي قاربنا بين المواضع ليذكروا ويعتبروا ويتعظوا . وقراءة العامة « صرّفنا »

بالتشديد على التكثير حيث وقع . وقرأ الحسن بالتخفيف . وقوله « في هذا القرآن »
يعنى الأمثال والعبر والحكم والمواعظ والأحكام والإعلام . قال الثعلبي : سمعت أبا القاسم
الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبى الطيب : لقوله تعالى « صرفنا » معنيان ؛ أحدهما
لم يجعله نوطاً واحداً بل وعدا ووعيدا ومحكما ومتشابهاً ونهياً وأمرنا وناسخاً ومنسوخاً وأخباراً
وأمثالاً ؛ مثل تصريف الرياح من صباً ودبور وجنوب وشمال ، وتصريف الأفعال من الماضي
والمستقبل والأمر والنهي والفعل والفاعل والمفعول ونحوها . والثاني أنه لم يزل مرة واحدة
بل نجوماً ؛ نحو قوله « وقرآننا فرقناه » ومعناه : أكثرنا صرف جبريل عليه السلام إليك .
(لِيَذْكُرُوا) قراءة يحيى والأعمش وحزمة والكسائي « لِيَذْكُرُوا » غففاً ، وكذلك في الفرقان
« ولقد صرفناه بينهم لِيَذْكُرُوا » . الباقون بالتشديد . واختاره أبو عبيد ؛ لأن معناه ليتذكروا
وليتعظوا . قال المهدوي : من شدد « لِيَذْكُرُوا » أراد التدبر . وكذلك من قرأ « لِيَذْكُرُوا » .
ونظير الأول « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَمَّا هُمْ بِنْدِهِمْ » ^(١) والثاني — « وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ » ^(٢)
(وَمَا يَذْكُرُهُمْ) أى التصريف والتذكير . (إِلَّا نُفُورًا) أى تباعداً عن الحق وغفلة عن
النظر والاعتبار ؛ وذلك لأنهم اعتقدوا في القرآن أنه حيلة ومحر وكهانة وشعر .

قوله تعالى : قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا
إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٥٠﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٥١﴾
قوله تعالى : (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ) هذا متصل بقوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ
إِلَٰهًا آخَرَ » وهو ردة على عبادة الأصنام . (كَمَا يَقُولُونَ) قرأ ابن كثير وحفص « يقولون »
بالياء . الباقون « تقولون » بالياء على الخطأ . (إِذًا لَابْتَغَوْا) يعنى الآلهة . (إِلَى ذِي
الْعَرْشِ سَبِيلًا) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : طلبوا مع الله منازعة وقتالاً كما تفعل
ملوك الدنيا بعضهم ببعض . وقال مسعود بن جبير رضى الله تعالى عنه : المعنى إذا طلبوا

طريقا إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه ، لأنهم شركاؤه . وقال قتادة : المعنى إذا لا بُدَّتْ
الآلهة الثَّربَة إلى ذى العرش سبيلا ، والتست الزُّفَّة عنده لأنهم دونَه ، والقوم اعتقدوا أن
الأصنام تقربهم إلى الله زلفى ، فإذا اعتقدوا فى الأصنام أنها محتاجة إلى الله سبحانه وتعالى فقد
بطل أنها آلهة . (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا) نزه سبحانه نفسه وقُدْسَه ومجده
عما لا يليق به . والتسبيح : التثنية . وقد تقدّم .

قوله تعالى : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ
مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ
حَلِيمًا غَفُورًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) أمداد على السموات
والأرض صغير من يعقل ، لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح . وقوله : (وَمَنْ فِيهِنَّ)
يريد الملائكة والإنس والجن ، ثم عم بعد ذلك الأشياء كلها فى قوله : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ
إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » . واختلف فى هذا العموم ، هل هو مخصص أم لا ؛ فقالت فرقة :
ليس مخصوصا والمراد به تسبيح الدلالة ، وكل محدث يشهد على نفسه بأن الله عز وجل
خالق قادر ، وقالت طائفة : هذا التسبيح حقيقة ، وكل شئ على العموم يسبح تسبيحا
لا يسمعه البشر ولا يفقهه ، ولو كان ما قاله الأولون من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمرا
مفهوما ، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقهه . وأجيبوا بأن المراد بقوله : « لا تفقهون »
الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى فى الأشياء . وقالت
فرقة : قوله « مِنْ شَيْءٍ » عموم ، ومعناه المخصوص فى كل شئ وثام ؛ وليس ذلك فى الجملادات .
ومن هذا قول عكرمة : الشجرة تسبح والأسطوان لا يسبح . وقال يزيد الرقاشي : الحسن وهما
فى طعام وقد قدّم الإخوان : أيسبح هذا الإخوان يا أبا سعيد ؟ فقال : قد كان يسبح مرة ؛
يريد أن الشجرة فى زمن ثمرها واعتدالها كانت تسبح ، وأما الآن فقد صار خوانا مدهونا .

قلت : ويستدلّ لهذا القول من السنة بما ثبت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ على قبرين فقال : «إنهما يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمْ أَحَدُهُمَا فُكِّلَ عَلَيْهِمْ بِالنِّيمَةِ وَأَمَّا الْآخَرُ فُكِّلَ لَيْسَتْ لَهُ مِنْ الْبَوْلِ» قال : فدلّا بعيب رطب فشقه اثنين ، ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا ثم قال : «لعلّه يخفف عنهما ما لم يبيّسا» . فقلوه عليه الصلاة والسلام . « ما لم يبيّسا » إشارة إلى أنهما ما دامتا رطبتين يسبحان ، فإذا يبسا صارا جهادا . والله أعلم . وفي مستند أبي داود الطيالسي : فوضع على أحدهما نصفًا وعلى الآخر نصفًا وقال : « لعلّه أن يهون عليهما العذاب ما دام فيهما من بولتهما شيء » . قال علمائنا : ويستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور ، وإذا خُفّف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن . وقد بينا هذا المعنى في (كتاب التذكرة) بيانا شافيا ، وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يهدى إليه . والحمد لله على ذلك . وصل التاويل الثاني لا يحتاج إلى ذلك ، فإن كل شيء من الجهاد وغيره يسبح .

قلت : ويستدلّ لهذا التاويل وهذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعالى : «وَأَذْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِنَّا نَنْفِرُ الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالْإِشْرَاقِ» ، وقوله : «وَأَنَّ مِنْهَا لَمَّا يَحِيطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» — على قول مجاهد — ، وقوله : «وَنَحْنُ الْجِبَالُ هَذَا . أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا» . وذكر ابن المبارك في (دقائقه) أخبرنا مسعر عن عبد الله بن واصل عن عوف بن عبد الله قال قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : إن الجبل يقول للجبل : يا فلان ، هل مر بك اليوم ذاك الله عز وجل ؟ فإن قال نعم سرّبه . ثم قرأ عبد الله «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا» الآية . قال : أقرأهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير . وفيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ما من صليح ولا رواح إلا تنادى بقاء الأرض بعضها بعضا : يا جاره ، هل مرّ بك اليوم عبد فصلي الله أو ذكر الله عليك ؟ فن قائلة لا ، ومن قائلة نعم ، فإذا قالت نعم رأيت لها بذلك فضلا عليها . وقال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : " لا يسمع صوت المؤذن يحن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة " . رواه ابن ماجه في سننه ، ومالك في موطنه من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه . ونخرج البخارى عن عبد الله رضى الله عنه قال : لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . في غير هذه الرواية عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : كنا نأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيحه . وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن " . قيل : إنه الحجر الأسود ، والله أعلم . والأخبار في هذا المعنى كثيرة ؛ وقد أتينا على جملة منها في اللؤلؤة في شرح العشرينات النبوية للفادارى رحمه الله ، وخبر الجذع أيضا مشهور في هذا الباب نرجه البخارى في مواضع من كتابه . وإذا ثبت ذلك في جماد واحد جاز في جميع الجمادات ، ولا استعالة في شيء من ذلك ؛ فكل شيء يسبح للعموم . وكذا قال النخعي وغيره : هو عام فيما فيه روح وفيما لا روح فيه حتى صرر الباب . واحتجوا بالأخبار التي ذكرنا . وقيل : تسبيح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول : سبحان الله ! لعدم الإدراك منها . وقال الشاعر :

تلقى بتسبيحة من حيث ما انصرفت • وأستقر حشا الرأي بقرطاد

أى يقول من رآها : سبحان خالقها . فالصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأى تخصيص لداود ، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا . وقد نصبت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء فالقول به أولى . والله أعلم . وقرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وحفص وحمة والكسائي وخلف « تفقهون » بالتاء لتأنيث الفاعل . الباؤون بالياء ، واختاره أبو عبيد ، قال : للحال بين الفعل والتأنيث . (إِنَّهُ كَانَ حَلِيًّا) عن ذنوب عباده في الدنيا . (غَفُورًا) للؤمنين في الآخرة .

قوله تعالى : وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٥٥﴾

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت : لما نزلت سورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » أَقْبَلْتُ الْعَوْرَاءُ أُمُّ حَبِيلَ بِنْتُ حَرْبٍ وَلَهَا وَلَوْلَةٌ فِي يَدِهَا فِهْرٌ وَهِيَ تَقُولُ :
 * مَذْمُومًا عَصَيْنَا * وَأَمْرَهُ أَبَيْنَا * وَدِينَهُ قَلَيْنَا *^(١)

وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدٌ فِي الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فَلَمَّا رَأَاهَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ :
 يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ أَقْبَلْتُ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَكَ! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مِنْهُمْ
 لَنْ تَرَانِي » وَقَرَأَ قَرَأْنَا فَاغْتَصِمَ بِهِ كَمَا قَالَ . وَقَرَأَ « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا » . فَوَقَفْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَمْ تَرَسُولَ اللَّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ : يَا أَبَا بَكْرٍ، أَخْبِرْتُ أَنْ صَاحِبَكَ هَاجَى ! فَقَالَ : لَا وَرَبَّ هَذَا الْبَيْتِ
 مَا هَاجَكَ . قَالَ : فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ : قَدْ عَلِمْتُ قَرِيشَ أُنَى ابْنَةِ سَيِّدِهَا . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ
 جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَمَّا نَزَلَتْ « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » جَاءَتْ امْرَأَةُ أَبِي لَهَبٍ إِلَى النَّبِيِّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَوْ تَنَحَّيْتُ عَنْهَا لَتَلَّاسُ مِيعَكَ
 مَا يُوْذِيكَ ، فَإِنَّهَا امْرَأَةٌ بَذِيَّةٌ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّهُ سَيَحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا »
 فَلَمْ تَرَهُ . فَقَالَتْ لِأَبِي بَكْرٍ : يَا أَبَا بَكْرٍ، هَاجَا صَاحِبَكَ ! فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا يَنْطِقُ بِالشَّعْرِ وَلَا يَقُولُهُ .
 فَقَالَتْ : وَإِنَّكَ لِمُصَدِّقُهُ؛ فَاغْتَضَبْتُ رَاجِعَةً . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
 أَمَا رَأَيْتَ؟ قَالَ : « لَا ، مَا زَالَ مَلِكُ بَيْنِي وَبَيْنَا يَسْتَرْنِي حَتَّى ذَهَبْتُ » . وَقَالَ كَعْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 فِي هَذِهِ الْآيَةِ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَرُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِثَلَاثِ آيَاتٍ : الْآيَةُ الَّتِي
 فِي الْكَهْفِ « إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا »^(٢)، وَالْآيَةُ الَّتِي فِي النَّحْلِ

(١) الفهر (بالكسر) : الجرجل . الكف : وقيل : هو الجرجل مطلقا . (٢) هذا ما ورد في سيرة ابن هشام .
 والذي في نسخ الأصل : مَذْمُومًا أَبَيْنَا * وَدِينَهُ قَلَيْنَا (٣) آية ٥٧

«أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَبَعَثَهُمْ وَابْصَارِهِمْ»^(١)، والآية التي في الجاثية «أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَفَلَهُ وَقَفَلَ عَلَى بَصِيرِهِ غَشَاوَةً»^(٢) الآية . فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرأهن يستتر من المشركين . قال كعب بن زريق رضي الله تعالى عنه :
 حدثت بهن رجلا من أهل الشام ، فأتى أرض الروم فأقام بها زمنا ، ثم خرج هاربا فخرجوا في طلبه فقرأ بهن فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه . قال التعلبي : وهذا الذي يروونه عن كعب حدثت به رجلا من أهل الري فأسر بالدَّيْلَم ، فكثرت زمانا ثم خرج هاربا فخرجوا في طلبه فقرأ بهن حتى جعلت ثيابهن لتلمس ثيابه فبا يبصرونه .

قلت : ويزاد إلى هذه الآية أول سورة يس إلى قوله «فهم لا يبصرون» . فإن في السيرة في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ومقام على رضي الله عنه في فراشه قال : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حَفَنَةً من تراب في يده ، وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه فلا يروونه ، فجعل يثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس : «يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . نَزِيلَ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . — إلى قوله — وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » . حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الآيات ، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

قلت : ولقد أتفق لي ببلادنا الأندلس بمحض من مشهور من أعمال قرطبة مثل هذا . وذلك أني هربت أمام العدو وأخبرت إلى ناحية عنه ، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يستترى عنهما شيء ، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن ؛ فعبأ عليّ ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر : هذا ^(٣) دَيْبِلَه ؛ يعنون شيطانا . وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يروني ، والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك . وقيل : الجحاب

(١) آية ١٠٨ (٢) في الأصول : « في الثوري » وهو خطأ . (٣) آية ٢٣ (٤) في بعض الأصول : « الكلب » . (٥) كذا في الأصول . (٦) شيطانا بذلك لأنهم يظن بها في الأسبانية «ديبلو» (بكر الله ال وضع الياء وسكون الباء الموحدة وضع اللام) .

المستور طبع الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة، قاله قتادة . وقال الحسن : أى أنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب فى عدم رؤيته لك حتى كأن على قلوبهم أغطية . وقيل : نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأم جميل امرأة أبى لهب وخوyleب؛ فحجب الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يمزقون به ولا يرونه؛ قاله الزجاج وغيره . وهو معنى القول الأول بعينه، وهو الأظهر فى الآية، والله أعلم . وقوله : (مَسْتُورًا) فيه قولان : أحدهما — أن الحجاب مستور عنكم لا ترونه . والثانى — أن الحجاب ساتر عنكم ما وراءه؛ ويكون مستورا بمعنى ساتر.

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿١٠﴾
قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً) « أَكِنَّة » جمع كَان، وهو ماستر الشيء . وقد تقدم فى « الأنعام » . (أَنَّ يَفْقَهُوهُ) أى لئلا يفقهوه، أو كراهية أن يفقهوه، أى أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم والمعاني . وهذا رد على القدرية . (وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) أى صمًا وثقلا . وفى الكلام إضمار، أى أن يسمعه . (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ) أى قلت : لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن . وقال أبو الجوزاء أوس بن عبد الله : ليس شيء أطرده للشيطان من القلب من قول لا إله إلا الله، ثم تلا « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا » . وقال على بن الحسين : هو قوله بسم الله الرحمن الرحيم . وقد تقدم هذا فى البسملة . (وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) قيل : يعنى بذلك المشركين . وقيل الشياطين . و « نُفُورًا » جمع نافر؛ مثل شهود جمع شاهد، وقعود جمع قاعد، فهو منصوب على الحال . ويمحذر أن يكون مصدرا على غير الصدر؛ إذ كان قوله « وَلَوَّا » بمعنى نفروا، فيكون معناه نفروا نفورا .

قوله تعالى : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) قيل : الباء زائدة في قوله « به » أى يستمعونه . وكانوا يستمعون من النبي صلى الله عليه وسلم القرآن ثم ينفرون فيقولون : هو ساحر ومسحور ؛ كما أخبر الله تعالى به عنهم ؛ قاله قتادة وغيره .

(وَإِذْ هُمْ نَجْوَى) أى متناجون في أمرك . قال قتادة : وكانت نجواهم قولهم إنه مجنون وأنه ساحر وأنه يأتى بأساطير الأولين ، وغير ذلك . وقيل : نزلت حين دعا عتبة أشراف قريش إلى طعام صنعته لهم ، فدخل عليهم النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ؛ فتناجوا ؛ يقولون ساحر ومجنون . وقيل : أمر النبي صلى الله عليه وسلم علياً أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين ؛ ففعل ذلك على ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد ، وقال : " قولوا لا إله إلا الله فلتطيعكم العرب وتدين لكم العرب " فأبوا ، وكانوا يستمعون من النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون بينهم متناجين : هو ساحر وهو مسحور ؛ فنزلت الآية . وقال الزجاج : النَجْوَى اسم للصدر ؛ أى وإذ هم ذو نجوى ، أى سرار . (إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ) أبو جهل والوليد بن المغيرة وأمثالهما . (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا) أى مطبوعاً قد خبله السحر فاخطط عليه أمره ، يقولون ذلك لينفروا عنه الناس . وقال مجاهد : « مسحوراً » أى مخدوعاً ؛ مثله قوله : « فَأَنَّى تُسْحَرُونَ^(١) » أى من أين تخدعون . وقال أبو عبيدة : « مسحوراً » معناه أن له سحرًا ، أى رئة ، فهو لا يستغنى عن الطعام والشراب ؛ فهو مثلكم وليس بملك . وتقول العرب للبدان : قد انتفخ سحره . ولكل من أكل من آدمى وغيره أو شرب مسحوراً ومسحوراً . قال ليبيد :

فَإِنْ تَسَالَيْنَا فِيمَ نَحْنُ فَإِنَّا * عصافيرُ من هذا الأَمامِ المُسَحَّرِ

وقال امرؤ القيس :

أَرَأَنَا مُوَضِّعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ^(١) * وَشَحَرٍ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ

أَي تَفْسُدِي وَتَمْلِي . وفي الحديث عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : مَنْ هَذِهِ إِلَى تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ تَحْجَرِي وَتَحْجَرِي^(٢) .

قوله تعالى : أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

سَبِيلًا ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ عَجِبَهُ مِنْ صَنَعِهِمْ كَيْفَ يَقُولُونَ تَارَةً سَاحِرَ وَتَارَةً مَجْنُونٍ وَتَارَةً شَاعِرَ . ﴿ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أَي حِيلَةً فِي صَدِّ النَّاسِ عَنْكَ . وَقِيلَ : ضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ فَلَا يَجِدُونَ سَبِيلًا ، أَي إِلَى الْمَهْدَى . وَقِيلَ : مَخْرَجًا لِنَاقِضِ كَلَامِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ : مَجْنُونٌ ، سَاحِرٌ ، شَاعِرٌ .

قوله تعالى : وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَقْنَا أَوْنًا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا

جَدِيدًا ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَقْنَا ﴾ أَي قَالُوا وَهُمْ يَتَنَجَّجُونَ لِمَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ وَسَمِعُوا أَمْرَ الْبَعْثِ : لَوْ لَمْ يَكُنْ مَسْحُورًا مَخْدُومًا لِمَا قَالَ هَذَا . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الرُّفَاتُ الْغُبَارُ . مُجَاهِدٌ : التَّرَابُ . وَالرَّفَاتُ مَا تَكَسَّرَ وَبَلَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ كَالْفَتَاتِ وَالْحُطَامِ وَالرُّضَاضِ ؛ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ وَالْكَسَائِيِّ وَالْقَزَّاءِ وَالْأَخْفَشِ . تَقُولُ مِنْهُ : رُفَّتِ الشَّيْءُ رَفَقًا ، أَي حُطِمَ ؛ فَهُوَ مَرْفُوتٌ . ﴿ أَتُنَبِّئُونَا بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ « أَتُنَبِّئُونَا بِخَلْقٍ جَدِيدٍ » اسْتَفْهَامُ الْمُرَادِ بِهِ الْإِنْجَادُ وَالْإِنْكَارُ . وَ« خَلْقًا » نَصَبٌ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ ؛ أَي بَعَثًا جَدِيدًا . وَكَانَ هَذَا غَايَةَ الْإِنْكَارِ مِنْهُمْ .

(١) أَرَضِعَ الرِّجْلَ فِي السَّيْرِ إِذَا أَسْرَعَ . وَقَوْلُهُ « لِأَمْرِ غَيْبٍ » يَرِيدُ الْمَوْتَ ، وَأَنَّهُ تَدَغَّيْبٌ عَنْهُ وَتَحْنٌ تَلْهِى عَنْهُ

بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ . (٢) تَرِيدُ أَنَّهُ مَاتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُسْتَقْدِمٌ إِلَى سَدْرِهِمَا وَمَا يَحَاضِي صَحْرَاهُ (وَهُوَ الرِّقَّةُ) .

قوله تعالى : قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿١٠٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا) أى قل لهم يا محمد كونوا على جهة التعجيز حجارة أو حديدًا فى الشدة والقوة . قال الطبرى : أى إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاما ولما فكرونا أتم حجارة أو حديدًا إن قدرتم . وقال علي بن عيسى : معناه أنكم لو كنتم حجارة أو حديدًا لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم ؛ إلا أنه خرج مخرج الأمر ، لأنه أبلغ فى الإلزام . وقيل : معناه لو كنتم حجارة أو حديدًا لأعاذكم كما بدأكم ، ولأنكم ثم أحياكم . وقال مجاهد : المعنى كونوا ما شئتم فستعادون . النحاس : وهذا قول حسن ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة ، وإنما المعنى أنهم قد أقروا بخالفهم وأنكروا البعث فقيل لهم استسرعوا أن تكونوا ما شئتم ، فلو كنتم حجارة أو حديدًا لبعثتم كما خلقتم أول مرة . (أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ) قال مجاهد : يعنى السموات والأرض والجبال لعظمها فى النفوس . وهو معنى قول قتادة . يقول : كونوا ما شئتم ، فإن الله يبعثكم ثم يبعثكم . وقال ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو ابن العاص وابن جُبَيْر ومجاهد أيضا وعكرمة وأبو صالح والضحاك : يعنى الموت ؛ لأنه ليس شيء أكبر فى نفس ابن آدم منه ؛ قال أمية بن أبى الصلت :

• وَلَوْتُ خَلَقْتُ فِي النَّفُوسِ فَظْلِعُ •

يقول . إنكم لو خلقتم من حجارة أو حديد أو كنتم الموت لأميتنكم ولأبعثنكم ؛ لأن القدرة التى بها أنشأكم بها نعيدكم . وهو معنى قوله : (فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) . وفى الحديث أنه " يُرْفَى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أُمْلَحٌ فيذبح بين الجنة والنار " . وقيل : أراد به البعث ؛ لأنه كان أكبر فى صدورهم ، قاله الكلبي . (فَطَرَكُمْ) خلقكم وأنشأكم . (فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ) أى يحضرون رءوسهم استمراء ؛ يقال :

نَفَضَ رَأْسَهُ يَنْفُضُ وَيَنْفِضُ نَفْضًا وَنُفْضًا ؛ أى تحرك . وأنفض رأسه أى حركه ، كالتعجب من الشيء ؛ ومنه قوله تعالى : « فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ » .

قال الراجز :

* أنفض نحوى رأسه وأقنأ^(١) *

ويقال أيضا : نفض فلان رأسه أى حركه ؛ يتعدى ولا يتعدى ، حكاه الأخفش .
ويقال : نفضت ينفضه ؛ أى تحركت وانقلبت .

قال الراجز :

* ونفضت من هَرَم أسنانها *

وقال آخر :

* لما رأتني أنفضت لي الرأس *

وقال آخر :

لأما في المقرأة إن لم تنهض * بمس يد فوق الحال النفض

الحال والحالة : البكرة العظيمة التى يستقى بها الإبل . (وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ) أى البعث والإمادة وهذا الوقت . (قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا) أى هو قريب ؛ لأن عسى واجب ؛ نظيره « وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا » . و « لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ » . وكل ما هوأت فهو قريب .

قوله تعالى : يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتُمْ

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ) الدعاء : النداء إلى المحشر بكلام تسمعه الخلائق ، يدعوهم الله تعالى فيه بالخروج . وقيل : بالصيحة التى يسمعونها ؛ فتكون داعية لهم إلى الاجتماع فى أرض القيامة . قال صلى الله عليه وسلم : " إِنْكُمْ تَدْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ " . (فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ) أى باستحقاقه الحمد على الإحياء .

(١) أنفض فلان رأسه : وهو أن يرفع بصره ووجهه إلى ما يحال رأسه من البكاء . (٢) آية ٦٣

سورة الأحزاب . (٣) آية ١٧ سورة الشورى .

وقال أبو سهل : أى والحمد لله ؛ كما قال :

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر * لبست ، ولا من قدرة أُنقِصَ
وقيل : حامدين لله تعالى بالستكم ، قال سعيد بن جبير : تخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون
سبحانك وبمجدك ؛ ولكن لا ينفعهم اعتراف ذلك اليوم . وقال ابن عباس : « بحمده »
بأسره ؛ أى تقفرون بأنه خالقكم . وقال قتادة : بمعرفته وطاعته . وقيل : المعنى بقدرته .
وقيل : بدمائه إياكم . قال عطاءنا : وهو الصحيح ؛ فإن النفخ في الصور إنما هو سبب
لخروج أهل القبور ؛ وبالحقيقة إنما هو خروج الخلق بدعوة الحق ، قال الله تعالى : « يَوْمَ
يَدْعُوهُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ » فيقومون يقولون سبحانك اللهم وبمجدك . قال : فيوم القيامة يوم
يبدأ بالحمد ويُنحَمُّ به ؛ قال الله تعالى « يوم يدعوكم تستجيبون بحمده » وقال في آخره « وَقُضِيَ
بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ^(١) « وَتَقْنُتُونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » يعنى بين النفختين ؛
وذلك أن العذاب يُكَفَّفُ عن المعدِّين بين النفختين ، وذلك أربعون أاما فينامون ؛ فذلك قوله
تعالى : « مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرَدَّنَا ^(٢) » فيكون خاصا للكفار . وقال مجاهد : للكافرين جمعة قبل
يوم القيامة يمددون فيها طعم النوم ، فإذا صبح بأهل القبور قاموا مذعورين . وقال قتادة :
المعنى أن الدنيا تخافرت في أعينهم وقلت حين رأوا يوم القيامة . الحسن : « وَتَقْنُتُونَ إِنْ
لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » فى الدنيا لطول لبثكم فى الآخرة .

قوله تعالى : وَقُلْ لِّلْعِبَادِ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ
يَنزِعُ بَيْنَهُمْ ^(٣) إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : (وَقُلْ لِّلْعِبَادِ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) تقدم إعرابه . والآية نزلت
فى عمر بن الخطاب . وذلك أن رجلا من العرب شتمه ، وسبه عمر وهم يقتله ، فكادت تثير
فتنة فأزل الله تعالى فيه : « وَقُلْ لِّلْعِبَادِ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ذكره الثعلبي والمأوردي

(١) آية ٧٥ سورة الزمر . (٢) آية ٥٢ سورة يس . (٣) راجع ج ٩ ص ٢٦٦ طبة اردل اذناية .

وابن عطية والواحدى . وقيل : نزلت لما قال المسلمون : ائذن لنا يا رسول الله في قتالهم فقد طال ايذاؤهم ايانا ، فقال : " لم أؤمر بعد بالقتال " فانزل الله تعالى « وقل لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَن » ؛ قاله الكلبي . وقيل : المعنى قل لعبادى الذين اعترفوا بأنى خالفهم وهم يعبدون الأصنام ، يقولوا التى هى أحسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوة . وقيل : المعنى وقل لعبادى المؤمنين إذا جادلوا الكفار فى التوحيد ، أن يقولوا الكلمة التى هى أحسن . كما قال : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » . وقال الحسن : هو أن يقول للكافر إذا تسطط : هناك الله ! يرحمك الله ! وهذا قبل أن أيسروا بالجهاد . وقيل : المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه ؛ وعلى هذا تكون الآية عامّة فى المؤمن والكافر ، أى قل للجميع . والله أعلم . وقالت طائفة : أمر الله تعالى فى هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصّة ، بحسن الأدب والالفة القول ، وخفض الجناح وأطراح نزغات الشيطان ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : " وكونوا عباد الله إخوانا " . وهذا أحسن ، وتكون الآية محكمة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بالفساد والقضاء العداوة والإغواء . وقد تقدّم فى آخر الأعراف ويوسف . يقال : نزغ بيننا أى أفسد ؛ قاله الزيدى . وقال غيره : النزغ الإغراء . ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ أى شديد العداوة . وقد تقدّم فى البقرة . وفى الخبر " أن قوما جلسوا يذكرون الله عز وجل بخاء الشيطان ليقطع مجلسهم فتمتعه الملائكة بخاء إلى قوم جلسوا قريبا منهم لا يذكر الله فخرش بينهم فتخاصموا وتواشوا فقال هؤلاء الذّاكرون قوما بنا نصلح بين إخواننا فقاموا وقطعوا مجلسهم وفرج بذلك الشيطان " . فهذا من بعض مداوته .

(١) آية ١٠٨ سورة الأنعام . (٢) راجع به ٧ ص ٣٤٧ و به ٩ ص ٢٦٧ طبة أول أو ثالثة .

(٣) راجع به ٢ ص ٢٠٩ طبة ثالثة .

قوله تعالى : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ((رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ)) هذا خطاب للشركين ،
والمعنى : إن يشأ يوفقكم للإسلام فيرحمكم ، أو يمتنكم على الشرك فيعذبكم ؛ قاله ابن جريج .
و « أعلم » بمعنى طم ؛ نحو قولهم : الله أكبر ، بمعنى كبير . وقيل : الخطاب للؤمنين ؛ أى
إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من كفار مكة ، أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم ؛ قاله الكلبي .
((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا)) أى وما وُكِّلناك في منعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم .
وقيل : ما جعلناك كفيلا لم تؤخذ بهم ؛ قاله الكلبي . وقال الشاعر :
ذكرت أبا أروى فبت كائنى * برد الأمور الماضية وكل
أى كفيل .

قوله تعالى : وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا
بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ((وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ))
أعاد بعد أن قال : « ربكم أعلم بكم » ليبين أنه خالقهم وأنه جعلهم مختلفين في أخلاقهم
وصورهم وأحوالهم ومالهم ؛ « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » . وكذا النبيون فضل بعضهم على بعض عن
علم منه بإحسان . وقد مضى القول في هذا في « البقرة » (٢١) . ((وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا)) الزبور :
كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ؛ وإنما هو دعاء وتمجيد وتمجيد .
أى كما آتينا داود الزبور فلا تنكروا أن يؤتى محمد القرآن . وهو في حاجة اليهود .

قوله تعالى : قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ
كُفُوفًا أَنْ يَنْصُرُوا عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ لما ابتليت قريش بالقحط وشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله هذه الآية ؛ أى ادعوا الذين تعبدون من دون الله وزعتم أنهم آلهة . وقال الحسن : يعنى الملائكة وعيسى وعزير . ابن مسعود : يعنى الجن . ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ ﴾ أى القحط سبع سنين ، على قول مقاتل . ﴿ وَلَا تَحْيِيلاً ﴾ من الفقر إلى الفنى ومن السقم إلى الصحة .

قوله تعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْنَا رَهِمًا أَلْوَسِيلًا أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٧٧﴾ قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ « أولئك » مبتدأ « الذين » صفة « أولئك » وضمير الصلة محذوف ؛ أى يدعونهم . يعنى أولئك المدعونون . و ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ خبر ، أو يكون حالا ، و « الَّذِينَ يَدْعُونَ » خبر ؛ أى يدعون إليه عبادا إلى عبادته . وقرأ ابن مسعود « تدعون » بالناء على الخطأ . الباقون بالياء على الخبر . ولا خلاف فى « يبتغون » أنه بالياء . وفى صحيح مسلم من كتاب التفسير عن عبيد الله بن مسعود فى قوله عز وجل : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة » قال : نفر من الجن أسلموا وكانوا يعبدون ، فبقى الذين كانوا يعبدون على عبادتهم وقد أسلم النفر من الجن . فى رواية قال : نزلت فى نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجنيون و [الإنس] الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون ؛ فنزلت « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة » . وعنه أيضا أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائل من العرب ؛ ذكره الماوردى . وقال ابن عباس ومجاهد : عزير وعيسى . و « يبتغون » يطلبون من الله الزلفة والقربة ، ويتضرعون إلى الله تعالى فى طلب الجنة ، وهى الوسيلة . أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم . والماء والميم فى « ربهم » تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعا . وأما « يدعون » فعلى العابدين . « و يبتغون » على المعبودين . ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ ابتداء وخبر . ويجوز أن يكون « أيهم أقرب »

بدلاً من الضمير في « يتفنون » ، والمعنى يتبنى أهم أقرب الوسيلة إلى الله . (« ويرجون رحمته ويخافون عذابه إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ») أى تخوفاً لا أمان لأحد منه ؛ فيلجئ إلى تحذره منه ويخاف . وقال سهل بن عبد الله : الرجاء والخوف زمانان على الإنسان ، فإذا استوياً استقامت أحواله ، وإن رجح أحدهما بطل الآخر .

قوله تعالى : وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْقِيَمَةِ
أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : (« وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا ») أى نغربوها . (« قَبْلَ يَوْمِ أَلْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ») قال مقاتل : أما الصالحة فبالموت ، وأما الطالحة فبالعذاب . وقال ابن مسعود : إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذن الله في هلاكهم . فقبيل : المعنى وإن من قرية ظالمة ؛ يقوى ذلك قوله : « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » . أى فليقتل المشركون ، فإنه ما من قرية كافرة إلا سيحل بها العذاب . (« كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ ») أى في اللوح . (« مَسْطُورًا ») أى مكتوباً . والسطر : الخط والكتابة وهو في الأصل مصدر . والسطر (بالتحريك) ، مثله . قال جرير :

من شاء بآيته مالى وخلعته * ما تكمل التيم في ديوانهم سطرًا

الخلعة (بضم الخاء) : خيار المال . والسطر جمع أسطر ؛ مثل سبب وأسباب ، ثم يجمع على أساطير . وجمع السطر أسطر وسطور ؛ مثل أفلس وفلوس . والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا
الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا نُوحًا نَذَارًا مُبِينًا فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : وما منعنا أن نرسل بالآيات التي اقترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما قيل بمن كان قبلهم . قال معناه قتادة وابن جريح وغيرهما . فأنكر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمناً . وقد تقدم في « الأنعام » وغيرها أنهم طلبوا أن يحول الله لهم الصِّفَا ذهباً وتُنَجَّى الجبال عنهم ؛ فقتل جبريل وقال : « إن شئت كان ما سألت قومك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يهلكوا . وإن شئت استأنيت بهم » . فقال : « لا ، بل استأن بهم » . و « أن » الأولى في محل نصب بوقوع المنع عليهم ، و « أن » الثانية في محل رفع . والباء في « بالآيات » زائدة . ومجاز الكلام : وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين ، والله تعالى لا يكون ممنوعاً عن شيء ؛ فالمعنى المبالغة في أنه لا يفعل ، فكانه قد منع عنه . ثم بين ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمن بها فقال : ﴿ وَأَيُّنَا مُؤَدِّمُ النَّفْثَةِ مُبْصِرٌ ﴾ أي آية دالة مضبوطة تيرة على صدق صالح ، وعلى قدرة الله تعالى . وقد تقدم ذلك . ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أي ظلموا بتكذيبها . وقيل : جحدوا بها وكفروا أنها من عند الله فأستأصلهم الله بالعذاب . ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ فيه خمسة أقوال : الأول — العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للكافرين . الثاني — أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي . الثالث — أنها تقلب الأحوال من صغرى إلى شباب ثم إلى تكهّل ثم إلى مشيب ، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك ؛ وهذا قول أحمد بن حنبل رضي الله عنه . الرابع — القرآن . الخامس — الموت ^(١) التدرج ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا أَرْعَايَ إِلَيْنَا أَرِيكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَرِّقُهُمْ فَإِنْ يُرِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٢٦﴾

(١) راجع ج ٧ ص ٢٢٨ و ج ٩ ص ٦٠ طبعه أولى أو ثانية .

(٢) أي المريع القاسي لا يكاد الناس يتدافعون .

قوله تعالى : ﴿وَيَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَأَنِ الْمَوْتُ يُرْسَلُ فِي يَوْمٍ أُحَادٍ﴾ . ومعنى هذا الإهلاك الموعود ما جرى يوم بدر ويوم الفتح . وقيل : معنى «أحاط بالناس» أى أحاطت قدرته بهم ، فهم فى قبضته لا يقدرّون على الخروج من مشيئته ، قاله مجاهد وابن أبى نجیح . وقال الكلبي : المعنى أحاط علمه بالناس . وقيل : المراد عصمته من الناس أن يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه ، أى وما أرسلناك عليهم حفيظاً ، بل عليك التبليغ ، فبلغ بجمتك فإنا نعصمك منهم ونحفظك ، فلا تهمهم ، وأمض لما أمرك به من تبليغ الرسالة ، فقدرتنا محيطة بالكل ، قال معناه الحسن وعروة وقتادة وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ لما بين أن إنزال آيات القرآن تتضمن التخويف ضمّ إليه ذكر آية الإسراء ، وهى المذكورة فى صدر السورة . وفى البخارى والترمذى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا الّتي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ » قال : هى رؤيا حين أُرِيها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أُسْرِيَ به إلى بيت المقدس . قال : « وَالشَّجَرَةُ الْمُنْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ » هى شجرة الزقوم . قال أبو عيسى الترمذى : هذا حديث صحيح . ويقول ابن عباس قالت عائشة ومعاوية والحسن ومجاهد وقتادة وسعيد ابن جبير والضحاك وابن أبى نجیح وابن زيد . وكانت الفتنه ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه أُسْرِيَ به . وقيل : كانت رؤيا نوم . وهذه الآية تقضى بفساده ، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها ، وما كان أحد لينكرها . وعن ابن عباس قال : الرؤيا التى فى هذه الآية هى رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدخل مكة فى سنة الحديبية ، فَرَدَّ فَأَقْبَتِ الْمُسْلِمُونَ لَدَاكَ ، فنزلت الآية ، فلما كان العام المقبل دخلها ، وأُنزل الله تعالى « لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّؤْيَا بِالْحَقِّ » . وفى هذا التأويل ضعف ؛ لأن السورة مكية وتلك الرؤيا كانت بالمدينة . وقال فى رواية ثالثة : إنه عليه السلام رأى فى المنام بنى مروان يترّون

على منبره زَوَّ القردة، فسأه ذلك فقيل : إنما هي الدنيا أعطوها، فُسرَّى عنه، وما كان له بمكة منبر ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة . وهذا التأويل الثالث قاله أيضا سهل ابن سعد رضى الله عنه . قال سهل : إنما هذه الرؤيا هي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى بنى أمية يترون على منبره زو القردة، فاعثم لذلك، وما استجمع ضاحكا من يومئذ حتى مات صلى الله عليه وسلم . فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من تملكهم وصعودهم يجعلها الله فتنه للناس وامتحانا . وقرأ الحسن بن علي في خطبته في شأن بيعته لمعاوية : « وإن أدري لَأَمَلَهُ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ^(١) » . قال ابن عطية : وفي هذا التأويل نظير، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية .

قوله تعالى : ((وَالشَّجَرَةُ الْمَعْنُوءَةَ فِي الْقُرْآنِ)) فيه تقديم وتأخير، أى ما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنه للناس . وقتلها أنهم لما خُوفوا بها قال أبو جهل استهزاء : هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر والنار تأكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر والزبد، ثم أمر أبو جهل بجارية فأحضرت تمرا وزبدا وقال لأصحابه : تزقوا . وقد قيل : إن القائل ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ابن الزبير حيث قال : كثرة الله من الزقوم في داركم؛ فإنه التمر والزبد بلغة اليمن . وجائز أن يقول كلاهما ذلك . فافتن أيضا لهذه المقالة بعض الضعفاء، فأخبر الله تعالى نبيه عليه السلام أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزقوم فتنه واختبارا ليكفر من سبق عليه الكفر ويصدق من سبق له الإيمان . كما روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قيل له صبيحة الإسراء : إن صاحبك يزعم أنه جاء البارحة من بيت المقدس ! فقال : إن كان قال ذلك فلقد صدق . فقيل له : أتصدق قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدق به بخبر السماء، فكيف لا أصدق به بخبر بيت المقدس، وللماء أبعد منها بكثير .

قلت : ذكر هذا الخبر ابن إسحاق ، ونصه : « قال كان من الحديث فيما بلغني عن مسراه صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري - وأشأه ومعاوية بن أبي سفيان والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزهري - وقتادة وغيرهم من أهل العلم وأُم هانئ بنت أبي طالب ، ما اجتمع في هذا الحديث ، كُلُّ يحدث عنه بعض ما ذكر من أمره حين أسرى به صلى الله عليه وسلم ، وكان في مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله عز وجل في قدرته وسلطانه فيه حيرة لأولى الألباب ، وهدي ورحمة وثبات لمن آمن وصدق وكان من أمر الله تعالى على يقين ، فأسرى به صلى الله عليه وسلم كيف شاء وكما شاء ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها ما يريد . وكان عبد الله بن مسعود فيما بلغني عنه يقول : أُنِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق - وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء قبله تضع حافرهما في منتهى طرفها - فحمل عليها ، ثم نرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض ، حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جمعوا له فصلى بهم ثم أُنِيَ بثلاثة آنية : إناء فيه لبن وإناء فيه نحر؛ وإناء فيه ماء . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فسمعت قائلاً يقول حين عُرِضت عليّ إن أخذ الماء ففرق وغيرت أمته وإن أخذ النحر ففَوِيَّ وَفَوَّت أمته وإن أخذ اللبن فهُدِيَّ وَهُدِيَّتْ أمته قال فأخذت إناء اللبن فشربت فقال لي جبريل هِدِيَّتْ وَهُدِيَّتْ أمتك يا محمد " .

قال ابن إسحاق : وحدثت عن الحسن أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بنينا أنا نائم في الحجر جاءني جبريل عليه السلام فبهمني بقدمه بخلست فلم أدر شيئاً ثم عدت لمضجعي بجاءني الثانية فبهمني بقدمه بخلست فلم أدر شيئاً فعدت لمضجعي بجاءني الثالثة فبهمني بقدمه بخلست فأخذ بنفسي فقمعت معه نفرج إلى باب المسجد فإذا دابة أبيض بين البغل والحمار في نفسيه جناحان يحفز بهما رجله يضع حافرهما في منتهى طرفه فحملني عليه ثم نخرج معي لا يفوتني ولا أفوته " .

قال ابن إسحاق : وحدثت عن قتادة أنه قال : حدثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا دنوت منه لأركبه شمس^(١) فوضع جبريل يده على مرقته ثم قال ألا تستحي يا أبا رائق مما تصنع فوالله ما ركبك عبد الله قبل عهد أكرم عليه منه قال فاستجبا حتى أرفض عرقا ثم قرأ حتى ركبته " .

قال الحسن في حديثه : فضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى معه [جبريل] حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وصيسى في نفر من الأنبياء ، فأمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصل بهم ثم أتى بآباءهم : في أحدهما نمر وفي الآخر لبن ، قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إماء اللبن فشرب منه وترك إماء النمر . قال : فقال له جبريل : هديت الفطرة وهديت أمتك وحرمت عليكم النمر . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبح غداً صلى قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر اليين^(٢) والله إن العير لتطرد شهرام من مكة إلى الشام ، مدبرة شهرام ومقبلة شهرام ، فيذهب ذلك عهد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ! قال : فأرتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ! يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلى فيه ورجع إلى مكة . قال فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ، ها هو ذا في المسجد يتحدث به الناس . فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق لما يصحبكم من ذلك ! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه . ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله ، أحدثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال " نعم " قال : يا نبي الله ، فضفه لي فإني قد جئته ؟ فقال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رفع لي حتى نظرت إليه " فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر رضي الله عنه : صدقت ، أشهد أنك رسول الله . كلما

(١) شمست الآية والقرص شمس : شردت وجمعت ومنعت ظهورها .

وصف له منه شيئاً قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله . قال : حتى إذا انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضى الله عنه : « وأنت يا أبا بكر الصديق » فيومئذ سماه الصديق . قال الحسن : وأنزل الله تعالى فيمن آرتد عن الإسلام لذلك : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ^(١) ونحوهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً » . فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما دخل فيه من حديث قتادة . وذكر باقي الإسماء عن تقدم في السيرة . وقال ابن عباس : هذه الشجرة بنو أمية ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم نفي الحكم . وهذا قول ضعيف محدث والسورة مكية ، فبعد هذا التأويل ؛ إلا أن تكون هذه الآية مدنية ، ولم يثبت ذلك . وقد قالت عائشة لمروان : لعن الله أباك وأنت في صلبه فانت بعض من لعن الله . ثم قال : « والشجرة الملعونة في القرآن » ولم يمر في القرآن لمن هذه الشجرة ، ولكن الله لعن الكفار وهم آكلوها . والمعنى : والشجرة الملعونة في القرآن آكلوها . ويمكن أن يكون هذا على قول العرب لكل طعام مكروه ضار : ملعون . وقال ابن عباس : الشجرة الملعونة هي هذه الشجرة التي تلتوى على الشجر فتقتله ، يعني الكشوث . (ونحوهم) أي بالزقوم . (فما يزيدهم) التخويف إلا الكفر .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴿٣٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَخْتَنَّكَ دُرِّيَّةً إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) تقدم ذكر كون الشيطان صدق الإنسان ، فأبجز الكلام إلى ذكر آدم . والمعنى : اذ كر بتأدي هؤلاء المشركين وعنتهم على ربهم قصة إبليس حين عصى ربه وأبى السجود ، وقال ما قال ، وهو ما أخبر الله تعالى في قوله تعالى :

(١) هذه عبارة الفخر الرازي ، والقي في الأصول : « فانت فطمت من لمة الله » . والقطط : التصير الجمعد من الشعر ، وشعر الزنجي .

((فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَعْجَبُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا)) (١) أى من طين . وهذا استفهام إنكار . وقد تقدم القول في خلق آدم في « البقرة » ، والأُنعام » مستوفى . ((قَالَ أَرَأَيْتَكَ)) أى قال إبليس . والكاف توكيد للمخاطبة . ((هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ)) أى فضله على . ورأى جوهر النار خيرا من جوهر الطين ولم يعلم أن الجواهر متماثلة . وقد تقدم هذا في الأعراف . و « هذا » نصب بأرأيت . « الذى » نعت . والإكرام : اسم جامع لكل ما يحمد . وفى الكلام حذف تقديره : أخبرنى عن هذا الذى فضله على . لم فضله وقد خلقته من نار وخلقته من طين ؟ لحذف لعل السامع . وقيل : لا حاجة إلى تقدير الحذف ؛ أى أنرى هذا الذى كرمته على لأفعلن به كذا وكذا . ومعنى ((لَا أَحْتَنِكَنَّ)) فى قول ابن عباس : لأستولين عليهم . وقاله الفراء . مجاهد : لأحتويهم . ابن زيد : لأضلهم . والمعنى متقارب ؛ أى لأستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال . ولأجتاحتهم . وروى عن العرب : احتنك الجراد الزرع إذا ذهب به كله . وقيل : معناه لأسوقهم حيث شئت وأقودتهم حيث أردت . من قولهم : حنكت الفرس احتنكه وأحنكه حنكا إذا جعلت فى فيه الزنس . وكذلك احتنكه . والقول الأول قريب من هذا ؛ لأنه إنما يأتى على الزرع بالحنك . وقال الشاعر :

أشكو إليك سنة قد أجمعت • جهدا إلى جهيد بنا وأضعفت

• وأحتنكت أموالنا واجتلفت (٢)

((إِلَّا قَلِيلًا)) يعنى المعصومين ، وهم الذين ذكرهم الله فى قوله : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » وإنما قال إبليس ذلك ظنا ؛ كما قال الله تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ » أو علم من طبع البشر تركب الشهوة فيهم ، أو بنى على قول الملائكة : « أَتَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » . وقال الحسن : ظن ذلك لأنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عزما .

قوله تعالى : قَالَ أَذْهَبَ عَنْ بَيْعِكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ بَرَاءٌ وَمِنْكُمْ
بَرَاءٌ مَوْفُورًا ﴿١٧﴾

(١) راجع به ١ من ٢٧٩ طبة ثانية أو ثالثة . وبه ٧ من ١٦٨ طبة أولى أو ثانية .

(٢) أى أذهبت . . (٢) آية ٢٠ سورة صبا . . (٤) آية ٣٠ سورة البقرة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَذْهَبَ ﴾ هذا أمر إهانة ؛ أى اجهد جهديك فقد أنظرناك .
 ﴿ قَن تَبِعَ ﴾ أى أطاعك من ذرية آدم . ﴿ فَإِنْ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ أى وافرا ؛
 عن مجاهد وغيره . وهو نصب على المصدر ، يقال : وفرت أفره وفرا ، ووفر المال بنفسه
 يفر وفورا فهو وافر ؛ فهو لازم ومتعد .

قوله تعالى : وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَقَطَّ مِنْهُمْ بَصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ
 بِخَبِيلِكَ وَرَجِّلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمْ
 الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ ﴾ أى استرل واستخف ؛ وأصله القطع ، ومنه تفزز
 التوب إذا انقطع . والمعنى استرله بقطعك إياه عن الحق . واستفزه الخوف أى استخفه .
 وقعد مستفز أى غير مطمئن . « وَاسْتَفْزِزْ » أمر تعييز ، أى أنت لا تقدر على إحلال
 أحد ، وليس لك على أحد سلطان فأفعل ما شئت .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَبَصَوْتِكَ ﴾ وصوته كل داع يدعو إلى معصية الله تعالى ؛
 عن ابن عباس . مجاهد : الغناء والمزامير واللاهو . الضحاك : صوت المزامير . وكان آدم
 عليه السلام أسكن أولاد هابيل أهل الجبل ، وولد قابيل أسفله ، وفيهم بنات حسان ، فزمر
 اللعين فلم يتماكوا أن آنحدروا فزورا ؛ ذكره الزنوي . وقيل : « بصوتك » بوسوستك .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَبِيلِكَ وَرَجِّلِكَ ﴾ أصل الإجلاب السوق
 بجلبة من السائق ؛ يقال : أجب إجلابا . وأجلب وأجلبة : الأصوات ؛ تقول منه : جلّبوا
 بالتشديد . وجلّب الشيء يجلّبه ويجلّبه جلّبا وجلّبا . وجلبت الشيء إلى نفسه واجتلبته بمعنى .
 وأجلب على العدو إجلابا ؛ أى جمع عليهم . فالعنى أجمع عليهم كما تقدر عليه من مكائيدك .

(١) لم نجد في كتب الفقه « تفزز التوب » بزايين بهذا المعنى ، وإنما هو « تفز » بزاي ثم راء . فليلاحظ .

وقال أكثر المفسرين : يريد كل راكب وماشي في معصية الله تعالى . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس ، فما كان من راكب وماشي يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ورجالاته . وروى سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس قال : كل خيل سارت في معصية الله ، وكل رجل مشى في معصية الله ، وكل مال أصيب من حرام ، وكل ولد ينيته فهو للشيطان . والرجل جمع راجل ؛ مثل حنظل وصاحب . وقرأ حفص « وَرَجُلِكَ » بكسر الجيم وهما لثتان ؛ يقال : رَجُلٌ وَرَجِلٌ بمعنى راجل . وقرأ عكرمة وقتادة « وَرَجَالِكَ » على الجمع .

الرابعة - « وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ » أى اجعل لنفسك شركة في ذلك . فشركته في الأموال إنفاقها في معصية الله ؛ قاله الحسن . وقيل : هى التى أصابوها من غير حيلها ؛ قاله مجاهد . ابن عباس : ما كانوا يحرمونه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام . وقاله قتادة . الضحاك : ما كانوا يذبحونه لأهلهم . والأولاد قيل : هم أولاد الزنى ؛ قاله مجاهد والضحاك وعبد الله بن عباس . وعنه أيضا هو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم من الجرائم . وعنه أيضا : هو تسميتهم عبد الحارث وعبد العزى وعبد اللات وعبد الشمس ونحوه . وقيل : هو صبغة أولادهم في الكفر حتى هودهم ونصروهم ، كصنع النصارى بأولادهم بالغمس في الماء الذى لم ؛ قاله قتادة . وقول خامس - روى عن مجاهد قال : إذا جامع الرجل ولم يُسم أنطوى الجن على إحليله بجامع معه ، فذلك قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِئِنُّ لِبَاسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جِأُنْ » وسياق . وروى من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فيكم مغررين » قلت : يا رسول الله ، وما المغربون ؟ قال : « الذين يشرك فيهم الجن » . رواه الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول) . قال المروى : سموا مغررين لأنه دخل فيهم صرق غريب . قال الترمذى الحكيم : فلجئ مسأمة^(٢) بآدم فى الأمور والاختلاط ؛ فمنهم من يتزوج فيهم ، وكانت يقيس ملكة سبأ أحد أبريها من الجن . وسياق بيانه إن شاء الله تعالى .

(١) آية ٧٤٤٥٦ سورة الرحمن . (٢) المسألة : المباراة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿وَعِدُّهُمْ﴾ أى متهم الأمانى الكاذبة ، وأنه لا قيامة ولا حساب ، وأنه إن كان حساب وجنة ونار فأتهم أولى بالجنة من غيركم . يقويه قوله تعالى : ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤْتِيهِمْ مَّا وَعَدَهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أى باطلا . وقيل « وَعِدُّهُمْ » أى عِدْهم النصرة على من أرادهم بسوء . وهذا الأمر للشيطان تهديد ووعد له . وقيل : استخفاف به وبمن أتبعه .

السادسة — فى الآية ما يدل على تحريم المزامير والغناء واللهو ؛ لقوله : « وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَفْتَمَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ » على قول مجاهد . وما كان من صوت الشيطان أوفعله وما يستحسنه فواجب التتره عنه . وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوت زمارة فوضع أصبعيه فى أذنيه ، وعدل راحته عن الطريق وهو يقول : يا نافع ! أسمع ؟ فأقول نعم ؛ فضى حتى قلت له لا ، فوضع يديه وأعاد راحته إلى الطريق وقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع [صوت] زمارة راع فصنع مثل هذا . قال علماؤنا : إذا كان هذا فعلهم فى حق صوت لا يخرج عن الاعتدال ، فكيف بفناء أهل هذا الزمان وزمرهم . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « لقمان » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ قال ابن عباس : هم المؤمنون . وقد تقدم الكلام فيه . ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أى حاصما من القبول من إبليس ، وحافظا من كيده وسوء مكره .

قوله تعالى : رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْسِلُ لَكَ الْفُلُوكَ فِي الْبَحْرِ لِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْسِلُ لَكُمُ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ ﴾ (١) الإجزاء : السوق ؛ ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِلُ سَحَابًا » . وقال الشاعر :^(٢)

يأبى الراكب المُرْسِي مطيته * سائل بن أسد ما هذه الصُّوت

وإجزاء الفلك : سوقه بالريح اللينة . والفلك هنا جمع ، وقد تقدّم . والبحر الماء الكثير مذبا كان أو ملحا ، وقد غلب هذا الاسم على الملح . وهذه الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده ؛ أى ربكم الذى أقم طيكم بكنا وكذا فلا تشركوا به شيئا . ﴿ تَتَّبِعُوا مَنْ فَضَّلَ ﴾ أى فى التجارات . وقد تقدّم . ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ .^(٣)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ﴾ فَلَمَّا يَجِدَنَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ﴾ « الضر » لفظ يعم خوف الفرق والإمساك عن الجرى . وأحوال حالته اضطرابه وتوجهه . ﴿ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ﴾ « ضل » معناه تلف وقُفِدَ ؛ وهى عبارة تحقير لمن يدعى إلها من دون الله . والمعنى فى هذه الآية : أن الكفار إنما يعتقدون فى أصنامهم أنها شافعة ، وأن لها فضلا ، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم ملها لا يقدر على مدافته أن الأصنام لا فعل لها فى الشدائد العظيم ، فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل . ﴿ فَلَمَّا يَجِدَنَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ أى عن الإخلاص . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ الإنسان هنا الكافر . وقيل : وطبع الإنسان كفورا لنعم إلا من عصمه الله ، فالإنسان لفظ الجنس .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وِكِيلًا ﴾ ﴿١٨﴾

(١) آية ٤٣ سورة النور . (٢) هوربد بن كثير الطائي ؛ كما فى اللسان . (٣) راجع ج ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية . (٤) راجع ج ٢ ص ١١٣ طبعة ثانية .

قوله تعالى : (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ) بين أنه قادر على هلاكهم في البر وإن ساءوا من البحر . والخسيف : أن تنهار الأرض بالشيء ؛ يقال : برَّ خَسِيفٌ إذا انهدم أصلها . وعين خاسف أى غارت حدقتها في الرأس . وعين من الماء خاسفة أى غار ماؤها . وخسفت الشمس أى غابت عن الأرض . وقال أبو عمرو : والخسيف البر التي تخفر في الحجارة فلا ينقطع ماؤها كثرة . والجمع خُسُف . وجانب البر : ناحية الأرض ؛ وسماه جانبا لأنه يصير بعد الخسيف جانبا . وأيضا فإن البحر جانب والبر جانب . وقيل : لأنهم كانوا على ساحل البحر ، وساحله جانب البر ، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر ، فغدرهم ما آمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر . (أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا) يعنى ريحا شديدة ، وهى التى ترمى بالحصباء ، وهى الحصى الصغار ؛ قاله أبو عبيدة والفتي . وقال قتادة : يعنى حجارة من السماء تحصبهم ، كما فصل يقوم لوط . ويقال للسحابة التى ترمى بالبرد : حاصب ، وللريح التى تحمل التراب والحصباء حاصب وحِصبة أيضا . قال لبيد :

جرت عليها أن حوت من أهلها * أذيا لها كلَّ عَصُوفٍ حِصْبَةٍ

وقال الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام يضربنا * بحاصب كنديف القطن مشور

(ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا) أى حافظا ونصيرا يمنعكم من بأس الله .

قوله تعالى : أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فِيرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ نَبِيْعًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى) يعنى فى البحر . (فِيرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ) القاصف : الريح الشديدة التى تكسر بشدة ؛ من قَصَف الشيء يقصفه ؛ أى كسره بشدة . والقصف : الكسر ؛ يقال : قصفت الريح السفينة . وريح قاصف :

شديدة . ورعد قاصف : شديد الصوت . يقال : قَصَفَ الرعدُ وغيره قَصِيفًا . والقَصِيف : هشيم الشجر . والتَقَصَّفَ التكرم . والقصف أيضا : اللهو واللعب ، يقال : إنها مَوْلدة . (فَيُفْرِقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ) أى بكفركم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « نَحْصِفُ بِكُمْ » « أو نُزِيلُ عَلَيْكُمْ » « أن نُعِيدَكُمْ » « فَنُرْسِلُ عَلَيْكُمْ » « فَنُفْرِقُكُمْ » بالنون في الخمسة على التعظيم ، ولقوله : « علينا » الباقون بإياه ؛ لقوله في الآية قبل : « إياه » . وقرأ أبو جعفر وشيبة ورؤيس ومجاهد « فَنُفْرِقُكُمْ » بالتاء نعتا للريح . وعن الحسن وقتادة « فَيُفْرِقُكُمْ » بإياه مع التشديد في الراء . وقرأ أبو جعفر « الرياح » هنا وفي كل القرآن . وقيل : إن القاصف المهلكة في البر ، والماصف المخوفة في البحر ؛ حكاه المازدعي . وقوله : (ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا بِه تَبِعًا) قال مجاهد : ثأرا . النحاس : وهو من النار . وكذلك يقال لكل من طلب بثأر أو ضربه : تبع وتابع ؛ ومنه « فاتباع بالمعروف » (١) أى مطالبة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) فيه ثلاث مسائل (٢) :

الأولى — قوله تعالى : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) الآية . لما ذكر من الترهيب ما ذكر بين النعمة عليهم أيضا . « كرما » تضعيف كرم ؛ أى جعلنا لهم كرما أى شرفا وفضلا . وهذا هو كرم حتى التضامن لا كرم المال . وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة ، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يعمل بإرادته وقصده وتديره . وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس ، وهذا لا يتسع فيه حيوان آتساع بني آدم ؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان ، ويلبسون الثياب ويأكلون المركبات من الأطعمة . وغاية كل حيوان يأكل لحما نباتا أو طعاما غير

مرتب . وحكى الطبري عن جماعة أن التفضيل هو أن يأكل بيده وسائر الحيوان بالفم . وروى عن ابن عباس ؛ ذكره المهدوي والنحاس ؛ وهو قول الكلبي ومقاتل ؛ ذكره السارودي . وقال الضحاك : كرمهم بالنطق والتميز . عطاء : كرمهم بتعديل القامة وامتدادها . يمان : بحسن الصورة . محمد بن كعب : بأن جعل محمدا صلى الله عليه وسلم منهم . وقيل أكرم الرجال بالحق والنساء بالذوائب . وقال محمد بن جرير الطبري : بتسليطهم على سائر الخلق ، وتسخير سائر الخلق لهم . وقيل : بالكلام والخط . وقيل : بالفهم والتمييز . والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف ، وبه يعرف الله وفهم كلامه ، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله ؛ إلا أنه لما لم ينض بكل المراد من العبد بشت الرسل وأزلت الكتب . فثالث الشرع الشمس ، ومثال العقل العين ، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء . وما تقدم من الأقوال بعضه أقوى من بعض . وقد جعل الله في بعض الحيوان خصالا يفضل بها ابن آدم أيضا ؛ بكري الفرس وسمه وإبصاره ، وقوة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك . وإنما التكرم والتفضيل بالعقل كما بيناه . والله أعلم .

الثانية — قالت فرقة : هذه الآية تقتضى تفضيل الملائكة على الإنس والجن من حيث إنهم المستنون في قوله تعالى : « وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ^(١) » . وهذا غير لازم من الآية ، بل التفضيل فيها بين الإنس والجن ؛ فإن هذه الآية إنما عدد الله فيها على بنى آدم ما خصهم به من سائر الحيوان ، والجن هو الكثير المفضول ، والملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول ، ولم نعرض الآية لذكرهم ، بل يحتمل أن الملائكة أفضل ، ويحتمل العكس ، ويحتمل التساوى ، وعلى الجملة فالكلام لا ينتهى فى هذه المسألة إلى القطع . وقد تخاضى قوم من الكلام فى هذا كما تخاضوا من الكلام فى تفضيل بعض الأنبياء على بعض ؛ إذ فى الخبر « لا تخابروا بين الأنبياء ولا تفضلوني على يونس بن متى » . وهذا ليس بشيء ؛ لوجود

النص في القرآن في التفضيل بين الأنبياء . وقد بيناه في « البقرة »^(١) ومضى فيها الكلام في تفضيل الملائكة والمؤمنين^(٢) .

الثالثة — قوله تعالى : (وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) يعني لذيق المطامع والمشارب ، قال مقاتل : السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى ، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها . (وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) أى على البهائم والدواب والوحش والطير بالغلبة والاستيلاء ، والثواب والجزاء والحفظ والتمييز وإصابة الفراسة .

الرابعة — هذه الآية ترد ما روى عن عائشة رضى الله عنها ، قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِيْحَرِمُوا أَنْفُسَكُمْ طَيِّبِ الطَّعَامِ فَإِنَّمَا قَوَى الشَّيْطَانُ أَنْ يَجْرَى فِي الْعُرُوقِ مِنْهَا " . وبه يستدل كثير من الصوفية في ترك أكل الطيبات ، ولا أصل له ؛ لأن القرآن يردّه ، والسنة الثابتة بخلافه ، على ما تقرر في غير موضع . وقد حكى أبو حامد الطوسي قال : كان سهل يقات ورق التبن مدة ، وأكل دُفاق ورق التين ثلاث سنين . وذكر إبراهيم بن البنا قال : صحبت ذا النون من إنيهم إلى الإسكندرية ، فلما كان وقت إفطاره أخرجت قرصا ومِلْحًا كان معي ، وقلت : هَلَمْ . فقال لى : ملحك مدقوق ؟ قلت نعم . قال : لست تُفْلِح ! فنظرت إلى مِرْوَدِهِ وإذا فيه قليل سَوِيْقٍ شعير يسف منه . وقال أبو يزيد : ما أكلت شيئاً مما يأكله بنو آدم أربعين سنة . قال عباؤنا : وهذا مما لا يجوز حمل النفس عليه ؛ لأن الله تعالى أكرم آدمى بالحنطة وجعل قشورها لبهاهم ، فلا يصح مزاحمة الدواب في أكل التبن ، وأما سَوِيْقٍ الشعير فإنه يورث القولنج^(٣) ، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والمِلْحِ الجَرِيش فإنه يخرف مزاجه ؛ لأن خبز الشعير بارد مجفف ، والمِلْحُ يابس قابض يضر الدماغ والبصر . وإذا مالت النفس إلى ما يصلحها مُنِعَتْ فقد قويت حكمة البارئ سبحانه بردها ، ثم يؤثر ذلك في البدن ، فكان هذا الفعل مخالفا للشرع والعقل . ومعلوم أن البدن

(١) راجع ج ٣ ص ٢٦١ طبة أولى أو ثمانية . (٢) راجع ج ١ ص ٢٨٩ طبة ثانية أو ثالثة .

(٣) القولنج : مرض يسوى مؤلم يسر منه خروج الفضل والريح . معزب .

مطية الآدمي، ومتى لم يرقى بالمطية لم تبلغ. وروى عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبدا وعسلا وخبز حواري، فقيل له : هذا كله ؟ فقال : إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدينا صبرنا صبر الرجال . وكان الثوري يأكل اللحم والجنب والقالودج ثم يقوم إلى الصلاة . ومثل هذا عن السلف كثير . وقد تقدم منه ما يكفي في المسألة والأعراف وغيرها . والأول غلو في الدين إن مع عنهم « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ »^(١) .

قوله تعالى : يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِيمَانِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِمِيزَانِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا^(٢)

قوله تعالى : (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِيمَانِهِمْ) روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : « يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِيمَانِهِمْ » قال : « يدعى أحدهم فيعطى كتابه بميزانه ، ويمد له في جسمه ستون ذراعا ، ويبيض وجهه ويحبل على رأسه تاج من لؤلؤ يتألق فينطلق إلى أصحابه فيروونه من بعيد فيقولون اللهم اثنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول أشرقوا لكل منكم مثل هذا — قال — وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له في جسمه ستون ذراعا على صورة آدم ولبس تاجا فبراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من شر هذا ! اللهم لا تأتنا بهذا . قال : فيأتيهم فيقولون اللهم أخزه . فيقول أبعذك الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . ونظير هذا قوله : « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ^(٣) » . والكتاب يسمى إماما ، لأنه يرجع إليه في تعرف أعمالهم . وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك : « بإيمانهم » أي بكتابهم ، أي بكتاب كل إنسان منهم الذي فيه عمله ، دليله « فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِمِيزَانِهِ » . وقال ابن زيد : بالكتاب المنزّل عليهم . أي يدعى كل إنسان

(١) القالودج : حلوة تعد من الفتيق والماء، والسل . وفي لسان (عن الألفاظ الفارسية) .

(٢) راجع ج ٦ ص ٢٢٠ . (٣) راجع ج ٧ ص ١٩٥ طبعة أولى أوثانية .

(٤) آية ٢٧ سورة الحديد . (٥) آية ٢٨ سورة الحاشية .

بكتابه الذى كان يتلوه ؛ فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل القرآن بالقرآن ؛ فيقال : يأهل القرآن ، ماذا علمت ، هل امتثلتم أوامرهم هل اجتنبت نواهيهم ! وهكذا . وقال مجاهد : « بإمامهم » بنبيهم ، والإمام من يؤتم به . فيقال : هاتوا متبى إبراهيم عليه السلام ، هاتوا متبى موسى عليه السلام ، هاتوا متبى الشيطان ، هاتوا متبى الأصنام . فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بإيمانهم ، ويقوم أهل الباطل فيأخذون كتابهم بشياهم . وقاله قتادة . وقال علي رضي الله عنه : بإمام عصرهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » فقال : « كل يدعى بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم فيقول هاتوا متبى إبراهيم هاتوا متبى موسى هاتوا متبى عيسى هاتوا متبى محمدا — عليهم أفضل الصلوات والسلام — فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بإيمانهم ويقول هاتوا متبى الشيطان هاتوا متبى رؤساء الضلالة إمام هدى وإمام ضلالة » . وقال الحسن وأبو العالية : « بإمامهم » أى بأعمالهم . وقاله ابن عباس . فيقال : أين الراضون بالمقدور ، أين الصابرون عن المحدث ، وبماذا هم ، فيُدعون بمن كانوا يأتون به في الدنيا : باحنفى ، ياشافعى ، بامعتلى ، ياقدرى ، ونحوه ؛ فيتبعونه في خير أو شر أو على حق أو باطل ، وهذا معنى قول أبي حبيدة . وقد تقدم . وقال أبو هريرة : يدعى أهل الصدقة من باب الصدقة ، وأهل الجهاد من باب الجهاد ... ، الحديث بطوله . أبو سهل : يقال أين فلان المصل والصوم ، وعكسه الدقاق والنمام . وقال محمد بن كعب : « بإمامهم » بأماهم . وإمام جمع أم . قالت الحكماء : وفي ذلك ثلاثة أوجه من الحكمة ؛ أحدها — لأجل عيسى . والثانى — إظهار لشرف الحسن والحسين . والثالث — للإبلاغ يقتضح أولاد الزنى .

قلت : وفي هذا القول نظر ؛ فإن في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة رُفع لكل غادر لواء فيقال هذه غدر فلان بن فلان » خرجه مسلم والبخارى . فقولهم : « هذه غدر فلان بن فلان »

دليل على أن الناس يُدْعَوْنَ في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وهذا يرد على من قال : إنما يُدْعَوْنَ بأسماء أمتهم لأن في ذلك سترًا على آبائهم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُو۟سِيٰٓرَۥ كِتَابُهُ بَيِّنٰتٍ ۖ هٰذَا يَقْوٰى قَوْلُ مَن قَال : « يَا مَآئِمِهِم » بِكُتُبِهِمْ . وَيَقْوٰىهُ اَيْضًا قَوْلُهُ : « وَكُلُّ شَيْءٍ اَحْصَيْنٰهُ فِىٓ اِمَامٍ مُّبِيۡنٍ » . ﴿ فَاُو۟لٰٓئِكَ يَفۡرَحُوۡنَ بِكُتُبِهِمْ وَلَا يَظۡلُمُوۡنَ فِتۡنًا ۙ ۙ الْفِتۡنَ الَّذِى فِى شِقَ النَّوَا . وَقد مضى فى « النساء » .

قوله تعالى : وَمَن كَانَ فِى هٰذِهِ اَعْمٰى فَهُوَ فِى الْاٰخِرَةِ اَعْمٰى وَأَضَلُّ سَبِيۡلًا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِى هٰذِهِ اَعْمٰى ﴾ أى فى الدنيا من الاعتبار وإبصار الحق . ﴿ فَهُوَ فِى الْاٰخِرَةِ ﴾ أى فى أمر الآخرة ﴿ اَعْمٰى ﴾ . وقال عكرمة : جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسأله عن هذه الآية فقال : اقرءوا ما قبلها « رَبِّكَ الَّذِى يُرْسِى لَكُمُ الْفُلُوكَ فِى الْبَحْرِ — إلى — تَفْصِيلاً » . قال ابن عباس : من كان فى هذه النعم والايات التى رأى أعمى فهو عن الآخرة التى لم يعاين أعمى وأضل سبيلاً . وقيل : المعنى من عمى عن النعم التى أنعم الله بها عليه فى الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى . وقيل : المعنى من كان فى الدنيا التى أمهل فيها وفُتِّحَ له ووُعِدَ بقبول التوبة أعمى فهو فى الآخرة التى لا توبة فيها أعمى . وقال الحسن : من كان فى هذه الدنيا كافراً ضالاً فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً . وقيل : من كان فى الدنيا أعمى عن جميع الله بعنه الله يوم القيامة أعمى ؛ كما قال : « ونحشره يوم القيامة أعمى » الآيات . وقال : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوۡهِهِمْ عَمِيَآ وَبُكَاً وَصُمًّا مَّاۤوَاهُمْ رِجَالٌ ۚ » . وقيل : المعنى فى قوله « فَهُوَ فِى الْاٰخِرَةِ اَعْمٰى » فى جميع الأقوال : أشد عمى ؛ لأنه من عمى القلب ، ولا يقال مثله فى عمى العين . قال الخليل وسيبويه : لأنه خلقه بمزلة

(١) آية ١٢ سورة يس . (٢) راجع جده ٢٤٨ طبة أولى أو ثانية . (٣) آية ٦٦ و٦٧ بعدها .

(٤) آية ١٢٤ سورة طه . (٥) آية ٩٧ من هذه السورة .

اليد والرَّجْل ، فلم يقل ما أعماه كما لا يقال ما أبداه . الأخفش : لم يقل فيه ذلك لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف ، وأصله أعمى . وقد أجاز بعض النحويين ما أعماه وما أعشاه ؛ لأن فعله عَمِيَ وَعَشَى . وقال الفراء : حدثني بالشام شيخ بصرى أنه سمع العرب تقول : ما أسود شعره . قال الشاعر :

ما في المعالي لكم ظل ولا ثمر * وفي المخازي لكم أشباح أشياخ

أما الملوك فأتت اليوم الأمهم * لؤما وأبيضهم سربال طبّاخ

وأما أبو بكر وحزرة والكسائي وخلف الحرفين « أعمى » و « أعمى » وفتح الباقون . وأما أبو عمرو الأول وفتح الثاني . (وَأَضَلَّ سَبِيلًا) يعني أنه لا يجد طريقا إلى الهداية .

قوله تعالى : وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ وَإِلَيْكَ لَتَنفِرَنَّ عَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَا تَجِدُكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾

قال سعيد بن جبير : كان النبي صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود في طوافه ، فمَنَعَتْ قريش وقالوا : لا ندعك تستلم حتى تُنَلِّمَ بآلهتنا . فحدث نفسه وقال : " ما على أن أُلِّمَ بها بعد أن يدعوني أستلم الحجر والله يعلم أني لما كاره " فأبى الله تعالى ذلك وأزل عليه هذه الآية ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس في رواية عطاء : نزلت في وفد ثقيف ، أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه شَطَطًا وقالوا : متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يهدى لها ، فإذا أخذناه كسرناها وأسأمتنا ، وحرم وادينا كما حرمت مكة ، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم ؛ فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك فزلت هذه الآية . وقيل : هو قول أكابر قريش للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرد عنا هؤلاء السُّقَاط والموالى حتى نجلس معك ونسمع منك ؛ فهم بذلك حتى نبى عنه . وقال قتادة : ذكر لنا أن قريشا خلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفتحونه ، ويسودونه ويقاربونه ؛ فقالوا : إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس ، وأنت سيدنا يا سيدنا ؛ وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون ،

ثم عصمه الله من ذلك ، وأنزل الله تعالى هذه الآية . ومعنى ﴿لَيَقْتُلَنَّكَ﴾ أى يزيلونك . يقال : قتل الرجل عن رأيه إذا أزلته عما كان عليه ؛ قاله المروى . وقيل يصرفونك ، والمعنى واحد . ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أى حكم القرآن ؛ لأن فى إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن . ﴿لَيَقْتُلَنَّ عَلَيْنَا غَيْرُهُ﴾ أى لئلا نخلق علينا غير ما أوحينا إليك ، وهو قول ثقيف : وحرم وإديننا كما حرمت مكة ، شجرها وطيرها ووحشها ، فإن سألك العرب لم خصصتهم فقل الله أمرنى بذلك حتى يكون عدوا لك . ﴿وَإِذَا لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلًا﴾ أى لو فعلت ما أرادوا لآخذوك خليلا ؛ أى والوك وصافوك ؛ مأخوذ من الخلطة (بالضم) وهى الصداقة لما بينه لهم . وقيل : « لآخذوك خليلا » أى فقيرا . مأخوذ من الخلطة (بفتح الخاء) وهى الفقر لحاجته إليهم .

قوله تعالى : وَلَوْلَا أَن تَبْتَئَنَّاكَ لَکَدَّ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْعًا قَلِيلًا ﴿٧٧﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَن تَبْتَئَنَّاكَ﴾ أى على الحق وعصمتك من موافقتهم . ﴿لَکَدَّ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ﴾ أى تميل . ﴿شَيْعًا قَلِيلًا﴾ أى ركونا قليلا . قال قتادة : لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام : «اللَّهُمَّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ» . وقيل : ظاهر الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وباطنه إخبار عن ثقيف . والمعنى : وإن كادوا ليركونك ، أى كادوا يظهرون عنك بأنك ملئت إلى قولهم ؛ فنسب فعلهم إليه مجازا وآسأما ؛ كما تقول لرجل : كدت تقتل نفسك ، أى كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت ؛ ذكره المهدوى . وقيل : ما كان منه هم بالركون إليهم ، بل المعنى : ولولا فضل الله عليك لكان منك ميل إلى موافقتهم ، ولكن تم فضل الله عليك فلم تفعل ؛ ذكره القشيري . وقال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوما ، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه .

وقوله : ﴿ إِذَا لَأَذْنَقَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ أى لو ركت لأذنقاك مثل عذاب الحياة في الدنيا ومثل عذاب الممات في الآخرة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وهذا غاية الوعيد . وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم . قال الله تعالى : « يَا مَعْشَرَ النَّبِيِّينَ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُنِيئَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » وضعف الشيء مثله مرتين ، وقد يكون الضعف النصيب ؛ كقوله عز وجل : « لِكُلِّ ضِعْفٍ » أى نصيب . وقد تقدم في الأعراف .

قوله تعالى : وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠﴾

هذه الآية قيل إنها مدنية ؛ حسبما تقدم في أول السورة . قال ابن عباس : حسدت اليهود مقام النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالوا : إن الأنبياء إنما بعثوا بالشأم ، فإن كنت نبيا فأت حق بها ؛ فإنك إن خرجت إليها صدقتك وآمننا بك ؛ فوقع ذلك في قلبه لما يحب من إسلامهم ، فرحل من المدينة على مرحلة فأنزل الله هذه الآية . وقال عبد الرحمن بن غنم : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما نزل تبوك نزل « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ » بعد ما ختمت السورة ، وأمر بالرجوع . وقيل : لأنها مكية . قال مجاهد وقتادة : نزلت في هم أهل مكة بإخراجه ، ولو أخرجه لما أمهلوا ولكن الله أمره بالمهجرة فخرج ، وهذا أحسن ؛ لأن السورة مكية ، ولأن ما قبلها خبر عن أهل مكة ، ولم يهر لليهود ذكر . وقوله : ﴿ مِنْ الْأَرْضِ ﴾ يريد أرض مكة . كقوله : « قُلْنَ أَرَبَّ الْأَرْضِ » أى أرض مصر ؛ دليله « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ » (١) يعني مكة . معناه : هم أهلها بإخراجه ؛ فلهذا أضاف إليها وقال « أَخْرَجْنَاكَ » . وقيل : هم الكفار كلهم أن يستخفوه من أرض العرب بتظاهرهم عليه فتمتع الله ، ولو أخرجه

(١) آية ٣٠ سورة الأحزاب . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٠٥ طبعة أولى أو ثانية . (٣) آية ٨٠ سورة يوسف .

(٤) آية ١٣ سورة محمد . (٥) في الأصول : « إليهم » وهو تحريف .

من أرض العرب لم يمهّلوا، وهو معنى قوله : (وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا) . وقرأ عطاء ابن أبي رباح « لَا يَلْبِثُونَ » الباء مشددة . « خلفك » نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو، ومعناه بفسدك . وقرأ ابن عامر وحفص وحزرة والكسائي « خلفاك » واختاره أبو حاتم، اعتباراً بقوله : « فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ » ومعناه أيضاً بعدك ؛ قال الشاعر :
عَفَّتِ الدِّيَارُ خِلَافَهُمْ فَكَأَنَّمَا * بسط السَّوَاطِطُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرًا

بسط البواسط ، في الماوردي . يقال : شطبت المرأة الجريد إذا شقته لتعمل منه الحصر . قال أبو عبيد : ثم تلقى الشاطبة إلى المنقبة . وقيل : « خلفك » بمعنى بفسدك . « وخلفاك » بمعنى مخالفتك ؛ ذكره ابن الأنباري . (إِلَّا قَلِيلًا) فيه وجهان : أحدهما — أن المدة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر؛ وهذا قول من ذكر أنهم قريش . الثاني — ما بين ذلك وقتل بني قريظة وجلاء بني النضير؛ وهذا قول من ذكر أنهم اليهود .

قوله تعالى : سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا

تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا) أى يعذبون كسنة من قد أرسلنا ؛ فهو نصب بإضمار يعذبون ؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل ؛ قاله الفراء . وقيل : انتصب على معنى سننأسنة من قد أرسلنا . وقيل : هو منصوب على تقدير حذف الكاف ؛ التقدير لا يلبثون خلفك إلا قليلاً كسنة من قد أرسلنا ؛ فلا يوقف على هذا التقدير على قوله : «إلا قليلاً» ويوقف على الأول والثاني . « قبلك من رسلنا » وقف حسن . (وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا) أى لا تخلف في وصلها .

قوله تعالى : أَقِمِ الصَّلَاةَ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ آلِيلٍ وَقُرْءَانَ
الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ لما ذكر مكاييد المشركين أمر نبيه عليه السلام بالصبر والمحافظة على الصلاة ، وفيها طلب النصر على الأعداء . ومثله « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ^(١) » . وتقدم القول في معنى إقامة الصلاة في أول سورة البقرة ^(٢) . وهذه الآية بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة . واختلف العلماء في الذلوك على قولين : أحدهما — أنه زوال الشمس عن كبد السماء ، قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علماء التابعين وغيرهم . الثاني — أن الذلوك هو الغروب ؛ قاله علي وابن مسعود وأبي بن كعب ، وروى عن ابن عباس . قال الماوردي : من جعل الذلوك اسما لغروبها فلأن الإنسان يدلك عينيه براحة لثيبتها حالة المغيب ، ومن جملة اسما لزوالها فلأنه يدلك عينيه لشدة شعاعها . وقال أبو عبيد : دلوكها غروبها . وذلكت برآح يعني الشمس ؛ أي غابت . وأنشد قُطْرِب :

هَذَا مُقَامٌ قَدَّمْتُ رِيَّاحَ * ذَبَّ حَتَّى دَلَكْتُ بَرَّاحَ

براح (يفتح الباء) على وزن حَرَام وقطام ورقاس أمم من أسماء الشمس . ورواه الفراء (بكسر الباء) وهو جمع راحة وهي الكف ؛ أي غابت وهو ينظر إليها وقد جعل كفّه على حاجبه . ومنه قول النجّاج :

والشمس قد كادت تكون دَنَقًا * أدفنها بالراح كي تَرَحَّلَا

قال ابن الأعرابي : الزحولة مكان منحدر أملس ، لأنهم يترحلون فيه . قال : والزحولة كاللحرجة والدفع ؛ يقال : زحلفته فترحلف . ويقال : دلكت الشمس إذا غابت . قال ذو الرمة :

مصابيح ليست باللّواتي تفودها * نجومٌ ولا بالافلات الذّوالك

(١) آية ٩٧ سورة الحجر . (٢) راجع ج ١ ص ١٦٤ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) أي بالبر .

قال ابن عطية : الدلوك هو الميل — في اللغة — فأول الدلوك هو الزوال وآخره هو الغروب . ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكا ، لأنها في حالة ميل . فذكر الله تعالى الصلوات التي تكون في حالة الدلوك وعنده ؛ فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب ، ويصبح أن تكون المغرب داخلة في غسق الليل . وقد ذهب قوم إلى أن صلاة الظهر يتأدى وقتها من الزوال إلى الغروب ؛ لأن الله سبحانه خلق وجوبها على الدلوك ، وهذا دلوك كله ؛ قاله الأوزاعي وأبو حنيفة في تفصيل . وأشار إليه مالك والشافعي في حالة الضرورة .

· الثانية — قوله تعالى : ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ روى مالك عن ابن عباس قال : دلوك الشمس ميلها ، وغسق الليل اجتماع الليل وظلمته . وقال أبو عبيدة : الغسق سواد الليل . قال ابن قيس الرقيات :

إِنْ هَذَا اللَّيْلُ قَدْ غَسَقَا * وَاشْتَكَيْتُ الْمَهْمَ وَالْأَرْقَا

وقد قيل : غسق الليل مغيب الشفق . وقيل : إقبال ظلمته . قال زهير :

ظَلَّتْ تَجْسُودُ يَدَاهَا وَهِيَ لَاهِيَةٌ * حَتَّى إِذَا جَنَّحَ الْإِظْلَامُ وَالْعَسَقُ

يقال : غسق الليل غسوقا . والغسق اسم يفتح السين ، وأصل الكلمة من السيلان ؛ يقال : غَسَقَتِ العين إذا سالت ، تَغْسِقُ ، وَغَسَقَ الجرح غَسَقَانَا ، أى سال منه ماء أصفر . وأغسق المؤذن ، أى أخرج المغرب إلى غسق الليل . وحكى الفراء : غَسَقَ الليل وأغسق ، وظلم وأظلم ، ودجا وأدجى ، وَتَبَسَّ وأغبس ، وَغَيْشَ وأغبش . وكان الربيع بن خثيم يقول للمؤذنه في يوم غيم : أغسق أغسق . يقول : أخرج المغرب حتى يغسق الليل ، وهو إظلامه .

الثالثة — اختلف العلماء في آخر وقت المغرب ؛ فقيل : وقتها وقت واحد لا وقت لها إلا حين تحجب الشمس ، وذلك بين في إمامة جبريل ؛ فإنه صلاها باليومين لوقت واحد وذلك غروب الشمس ، وهو الظاهر من مذهب مالك عند أصحابه . وهو أحد قولي الشافعي في المشهور عنه أيضا ، وبه قال الثوري . وقال مالك في الموطأ : فإذا غاب الشفق فقد خرجت من وقت المغرب ودخل وقت العشاء . وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والحسن

ابن حنّ وأحمد وإسحاق وأبو ثور وداود؛ لأن وقت الغروب إلى الشفق غسق كله . ولحديث أبي موسى ، وفيه : ان النبي صلى الله عليه وسلم صلى بالسائل المغرب في اليوم الثاني فاتح حتى كان عند سقوط الشفق ؛ أخرجه مسلم . قالوا : وهذا أولى من أخبار إمامة جبريل ؛ لأنه متأخر بالمدينة وإمامة جبريل بمكة ، والمتأخر أولى من فعله وأمره ؛ لأنه تأخر لما قبله . وزعم ابن العربي أن هذا القول هو المشهور من مذهب مالك ، وقوله في موطنه الذي أقرأه طول عمره وأملاه في حياته .

والنكتة في هذا أن الأحكام المتعلقة بالأسماء هل تتعلق بأوائلها أو بآخرها أو يرتبط الحكم بجمعها ؟ والأقوى في النظر أن يرتبط الحكم بأوائلها لئلا يكون ذكرها لغواً فإذا ارتبط بأوائلها جرى بعد ذلك النظر في تعلقه بالكل إلى الآخر .

قلت : القول بالتوسعة أرجح . وقد نرجح الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث الأجلع بن عبد الله الكندي عن أبي الزبير عن جابر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قريبا من غروب الشمس فلم يُصَلِّ المغرب حتى أتى سِرف ، وذلك تسعة أميال . وأما القول بالنسخ فليس باليقين وإن كان التاريخ معلوما ؛ فإن الجمع ممكن . قال علماءنا : فمحمل أحاديث جبريل على الأفضلية في وقت المغرب ، ولذلك آتفت الأمة فيها على تعجيلها والمبادرة إليها في حين غروب الشمس . قال ابن خُوَيْرَمَتَداد : ولا نعلم أحدا من المسلمين تأخر بإقامة المغرب في مسجد جماعة عن وقت غروب الشمس . وأحاديث التوسعة تبين وقت الجواز ، فيرتفع التعارض ويصح الجمع ، وهو أولى من الترجيح باتفاق الأصوليين ؛ لأن فيه إعمال كل واحد من الدليلين ، والقول بالنسخ أو الترجيح فيه إسقاط أحدهما . والله أعلم .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ انتصب «قرآن» من وجهين : أحدهما أن يكون معطوفا على الصلاة ؛ المعنى : وأقم قرآن الفجر أى صلاة الصبح ، قاله الفراء . وقال أهل البصرة . انتصب على الإغراء ؛ أى فليكن بقرآن الفجر ؛ قاله الزجاج . وعبر عنها بالقرآن

خاصة دون غيرها من الصلوات؛ لأن القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلة مجهور بها حسبما هو مشهور مسطور؛ عن الزجاج أيضا .

قلت : وقد استقر عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة في الصبح قدرا لا يضر بمن خلفه — يقرأ فيها بطول المفصل ، ويلبها في ذلك الظهر والجمعة — وتخفيف القراءة في المغرب وتوسطها في العصر والعشاء . وقد قيل في العصر : إنها تخفف كالغرب . وأما ما ورد في صحيح مسلم وغيره من الإطالة فيما استقر فيه التقصير ، أو من التقصير فيما استقرت فيه الإطالة ؛ كقراءته في الفجر المعوذتين — كما رواه النسائي — وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور في المغرب ، فتروك بالعمل . ولإنكاره على معاذ التطويل حين أم قومه في العشاء فافتتح سورة البقرة . خرجه الصحيح . وبأمره الأئمة بالتخفيف فقال : ”أيها الناس إن منكم منفرين فأبكم أم الناس فليخفف فإن فيهم الصغير والكبير والريض والسقيم والضعيف وذا الحاجة“ . وقال : ”إذا صلى أحدكم وحده فليطول ما شاء“ . كله مسطور في صحيح الحديث .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَقرآن الفجر ﴾ دليل على أن لا صلاة إلا بقراءة ؛ لأنه سمي الصلاة قرآنا . وقد اختلف العلماء في القراءة في الصلاة فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والفدّ في كل ركعة . وهو مشهور قول مالك . وعنه أيضا أنها واجبة في جُلّ الصلاة . وهو قول إسحاق . وعنه أيضا تجب في ركعة واحدة ؛ قاله الميخنة ومُخَنُون . وعنه أن القراءة لا تجب في شيء من الصلاة . وهو أشدّ الروايات عنه . وحكى عن مالك أيضا أنها تجب في نصف الصلاة ، وإليه ذهب الأوزاعي . وعن الأوزاعي أيضا وأيوب أنها تجب على الإمام والفدّ والمأموم على كل حال . وهو أحد قولي الشافعي . وقد مضى في (الفاتحة) مستوفى .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « وَقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » قال : ”تشهده

ملائكة الليل وملائكة النهار“ هذا حديث حسن صحيح . ورواه علي بن مسير عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” فَضَّلُ صَلَاةَ الْجَمْعِ عَلَى صَلَاةِ الْوَاحِدِ خَمْسَ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ “ . يقول أبو هريرة : اِقْرَعُوا إِن شِئْتُمْ « وَقَرَأَ الْفَجْرَ إِنْ قَرَأَ الْفَجْرَ كَانَ مَشْهُودًا » . ولهذا المعنى يُسَكَّرُ بِهَذِهِ الصَّلَاةِ ، فَمَنْ لَمْ يَكْرَمْ تَشْهَدُ صَلَاتُهُ إِلَّا إِحْدَى الثَّمَانِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ . ولهذا المعنى أيضا قال مالك والشافعي : التغليس بالصبح أفضل . وقال أبو حنيفة : الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار ، فإن فاتته ذلك فالإسفار أولى من التغليس . وهذا مخالف لما كان عليه السلام يفعله من المداومة على التغليس ، وأيضا فإن فيه نفويت شهود ملائكة الليل . والله أعلم .

السابعة — استدلل بعض العلماء بقوله صلى الله عليه وسلم : ” تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار “ على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار . قلت : وعلى هذا فلا تكون صلاة العصر أيضا لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار ، فإن في الصحيح عن النبي الفصبح عليه السلام فيما رواه أبو هريرة : ” يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر “ الحديث . ومعلوم أن صلاة العصر من النهار فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل وليس كذلك ، وإنما هي من النهار كالعصر بدليل الصيام والإيمان ، وهذا واضح .

قوله تعالى : وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَمِنَ اللَّيْلِ) « من » للتبعض . والفاء في قوله « فتَهَجَّدْ » ناسقة على مضمر ، أي قم تهجد . (به) أي بالقرآن . والتهجد من الهجود وهو من الأضداد . يقال : هجد نام ، وهجد سهر ، على الضد . قال الشاعر :

أَلَا زَارَتْ وَأَهْلُ مَنَى هُود * وَلَيْتَ خِيَالَهَا بَنَى يَعُود

آخر:

أَلَا طَرَقْنَا وَالرَّاقِ هُود * فَبَاتَ بِمَلَاتِ النِّوَالِ تَجُود^(١)

يعنى نياما . وهجد وتهجد بمعنى . وهجده أى أتمته ، وهجده أى أيقظته . والتهجد التيقظ بعد رَقْدَةٍ ، فصار اسما للصلاة ؛ لأنه ينتبه لما . فالتهجد القيام إلى الصلاة من النوم . قال معناه الأسود وطلحة وعبد الرحمن بن الأسود وغيرهم . وروى إسماعيل بن إسحاق القاضي من حديث المجاج بن عمر صاحب النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أحسب أحدكم إذا قام من الليل كله أنه قد تهجد ! إنما التهجد الصلاة بعد رَقْدَةٍ ثم الصلاة بعد رَقْدَةٍ ثم الصلاة بعد رَقْدَةٍ . كذلك كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : المجهود النوم . يقال : تهجد الرجل إذا سهر ، وألقى المجهود وهو النوم . ويسمى من قام إلى الصلاة متهجدا ؛ لأن المتهجد هو الذى يُلْقَى المجهود الذى هو النوم عن نفسه . وهذا الفعل جار مجرى تحوُّبٍ وتَحَوُّجٍ وتَأْتَمُّ وتَحْتَدُّ وتَقْدَرُ وتَجَسُّ ؛ إذا ألقى ذلك عن نفسه . ومثله قوله تعالى : « فَظَلَّمُ تَفَكُّهُونَ »^(٢) معناه تستمبون ؛ أى تطرحون الفكاهة عن أنفسكم ، وهى انبساط النفوس وسرورها . يقال رجل فِكِه إذا كان كثير السرور والضحك . والمعنى فى الآية : ووقنا من الليل أسهر به فى صلاة وقراءة .

الثانية — قوله تعالى : (نَافِلَةٌ لَّكَ) أى كرامة لك ؛ قاله مقاتل . واختلف العلماء فى تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر دون أمته ؛ فقيل : كانت صلاة الليل فريضة عليه لقوله : « نافلة لك » أى فريضة زائدة على الفريضة الموضوعة على الأمة .

قلت : وفى هذا التأويل بعد لوجهين : أحدهما — تسمية الفرض بالنفل ، وذلك مجاز لا حقيقة . الثانى — قوله صلى الله عليه وسلم : « خمس صلوات فرضهن الله على العباد » ، وقوله تعالى : « هن خمس وهن خمسون لا يئُلُّ القولُ لَدَى » وهذا نص ، فكيف يقال افترض عليه صلاة زائدة على الخمس ، هذا ما لا يصح ؛ وإن كان قد روى عنه عليه السلام :

(١) اللَّتَةُ (هنا) : ما يتلأ ؛ مثل اللَّحَّة . (٢) آية ٦٥ سورة الواقعة .

” ثلاث على فريضة ولأمتي تطوع قيام الليل والوتر والسواك “ . وقيل : كانت صلاة الليل تطوعاً منه وكانت في الابتداء واجبة على الكل ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة ؛ كما قالت عائشة ، على ما يأتي ميّناً في سورة « المزمل » إن شاء الله تعالى . وعلى هذا يكون الأمر بالنفل على جهة الندب ويكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مغفور له . فهو إذا تطوع بما ليس بواجب عليه كان ذلك زيادة في الدرجات ، وغيره من الأمة تطوعهم كفارات وتدارك لخلل يقع في الفرض ؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : عطية ؛ لأن العبد لا يتال من السعادة عطاء أفضل من التوفيق في العبادة .

الثالثة — قوله تعالى : (عَسَى أَنْ يَمُنَّكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) اختلف في المقام المحمود على أربعة أقوال :

الأول — وهو أصحها — الشفاعة للناس يوم القيامة ؛ قاله حذيفة بن اليمان . وفي صحيح البخاري عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة ^(١) جنّاً كل أمة تبع نبيها تقول : يا فلان اشفع ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود . وفي صحيح مسلم عن أنس قال حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال : ” إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له اشفع لنزيتك فيقول لست لها ولكن عليكم إبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقول لست لها ولكن عليكم موسى فيؤتى موسى فيقول لست لها ولكن عليكم عيسى فيقول لست لها ولكن عليكم محمد صلى الله عليه وسلم فأؤتى فأقول أنا لها “ وذكر الحديث . وروى الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « عَسَى أَنْ يَمُنَّكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا » سئل عنها قال : ” هي الشفاعة “ قال : هذا حديث حسن صحيح .

(١) جنّاً (جمع جنوة مكشورة وخلاً) أى جماعات .

الرابعة — إذا ثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء عليهم السلام، حتى ينتهى الأمر إلى نيتنا محمد صلى الله عليه وسلم فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف ليعجل حسابهم ويراحوا من هول موقفهم، وهى الخاصة به صلى الله عليه وسلم؛ ولأجل ذلك قال: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر". قال النقاش: لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة في السبق إلى الجنة، وشفاعة في أهل الكبائر. ابن عطية: والمشهور أنهما شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة في إخراج المذنبين من النار. وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء. وقال القاضى أبو الفضل عياض: شفاعات نبينا صلى الله عليه وسلم يوم القيامة خمس شفاعات: العامة، والثانية في إدخال قوم الجنة دون حساب، الثالثة في قوم من موحدى أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم نبينا صلى الله عليه وسلم، ومن شاء الله أن يشفع ويدخلون الجنة. وهذه الشفاعة هى التى أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فنعمتها على أصولهم الفاسدة، وهى الاستحقاق العقلى المبنى على التحسين والتقييح. الرابعة فيمن دخل النار من المذنبين فيخرجون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم المؤمنين. الخامسة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترقيعها، وهذه لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأول.

الخامسة — قال القاضى عياض: وعرف بالنقل المستفيض سؤال السلف الصالح لشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يلتفت لقول من قال: إنه يكره أن تسأل الله أن يرزقك شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنها لا تكون إلا للذنبين، فإنها قد تكون كما قدمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات. ثم كل عاقل معترف بالتقصير محتاج إلى العفو غير معتمد بعمله مشفق أن يكون من المالكين، ويلزم هذا القائل ألا يدعوا بالمغفرة والرحمة؛ لأنها لأصحاب الذنوب أيضاً، وهذا كله خلاف ما عرف من دعاء السلف والخلف. روى البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً — صلى الله عليه وسلم — الوسيلة والفضيلة وأبعثه مقاماً محموداً الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة".

القول الثاني — أن المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة .

قلت : وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأول ؛ فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع .
روى الترمذى عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا خفر وببدي لواء الحمد ولا خفر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى " الحديث .

القول الثالث — ما حكاه الطبرى عن فرقة، منها مجاهد ، أنها قالت : المقام المحمود هو أن يجلس الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم معه على كرسية ؛ وروت في ذلك حديثا . وعَضِدَ الطبرى جواز ذلك بشطط من القول ، وهو لا يخرج إلا على تلطف في المعنى ، وفيه بُعد . ولا ينكر مع ذلك أن يروى ، والعلم بتأوله . وذكر النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال : من أنكر هذا الحديث فهو عندنا مُتَمِّمٌ ، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا ، من أنكر جوازه على تأويله . قال أبو عمر ومجاهد : وإن كان أحد الأئمة يتأول القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم : أحدهما هذا والثاني في تأويل قوله تعالى : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِيَّاهَا نَظَرُ^(١) » قال : تنتظر الثواب ؛ ليس من النظر .

قلت : ذكر هذا في باب ابن شهاب في حديث التنزيل . وروى عن مجاهد أيضا في هذه الآية قال : يجلسه على العرش . وهذا تأويل غير مستحيل ؛ لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلها والعرش قائما بذاته ، ثم خلق الأشياء من غير حاجة إليها ، بل إظهارا لقدرته وحكمته ، وليُعرف وجوده وتوحيده ويكال قدرته وعلمه بكل أفعاله المحسنة ، وخلق لنفسه عرشا استوى عليه كما شاء من غير أن صار له مماسا ، أو كان العرش له مكانا . قيل : هو الآن على الصفة التي كان عليها من قبل أن يخلق المكان والزمان ؛ فعلى هذا القول سواء في الجواز أقعد محمد على العرش أو على الأرض ؛ لأن استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والازوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التي تشغل العرش ، بل هو مستقر على عرشه

كما أخبر عن نفسه بلاكثيف . وليس إقاماده مجدداً على العرش موجبا له صفة الربوبية أو مُخرجا له عن صفة العبودية ، بل هو رفع لمحلّه وتشريف له على خلقه . وأما قوله في الإخبار : « معهُ » فهو بمنزلة قوله : « إِنْ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ^(١) » ، و« رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ » ، « وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ^(٢) » ونحو ذلك . كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والخطوة والدرجة الرفيعة ، لا إلى المكان .

الرابع — إخراجنا من النار بشفاعته من يخرج؛ قاله جابر بن عبد الله . ذكره مسلم . وقد ذكرناه في (كتاب التذكرة) والله الموفق .

السادسة — اختلف العلماء في كون القيام بالليل سببا للقيام المحمود على قولين : أحدهما — أن الباري تعالى يجعل ما شاء من فعله سببا لفضله من غير معرفة بوجه الحكمة فيه ، أو بمعرفة وجه الحكمة . الثاني — أن قيام الليل فيه الخلوة مع الباري والمنجاة دون الناس ، فأعطى الخلوة به ومنجائه في قيامه وهو المقام المحمود . ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم ، فأجلهم فيه درجة عهد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه يُعطى ما لا يُعطى أحد ويشفع ما لا يشفع أحد . و« عسى » من الله عز وجل واجبة . و« مقاما » نصب على الظرف . أى في مقام أو إلى مقام . وذكر الطبري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي » . فالمقام الموضع الذي يقوم فيه الإنسان للأمور الجليلة كالمقامات بين يدي الملوك .

قوله تعالى : وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ
وَأَجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴿٢٠﴾

قيل : المعنى أمتي إمامة صدق ، وإعني يوم القيامة مبعث صدق ؛ ليتصل بقوله : « عَسَى أَنْ يَمُنَّكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّجْمُودًا » . كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو لِيُجْزَلَ

(١) آخر سورة الأعراف . (٢) آية ١١ سورة التحريم . (٣) آخر سورة التكموت .

الوعد . وقيل : أدخلني في المأمور وأخرجني من المنهى . وقيل : علمه ما يدعو به في صلاته وغيرها من إخراجهم من بين المشركين وإدخاله موضع الأمن ؛ فأخرجه من مكة وصبره إلى المدينة . وهذا المعنى رواه الترمذى عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة فقلت « وقيل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا » قال : هذا حديث حسن صحيح . وقال الضحاك : هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح أمنا . أبو مهبل : حين رجع من تبوك وقد قال المناقبون : « لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ » ^(١) بمعنى إدخال عز وإخراج نصر إلى مكة . وقيل : المعنى أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوة مدخل صدق وأخرجني منه مخرج صدق إذا أمتني ؛ قال معناه مجاهد . والمدخل والمخرج (بضم الميم) بمعنى الإدخال والإخراج ؛ كقوله : « أنزِلْنِي مُتَرَلًّا مَبَارَكًا » ^(٢) أى إنزالا لا أرى فيه ما أكره . وهى قراءة الدامة . وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم « مدخل » و « مخرج » بفتح الميمين بمعنى الدخول والخروج ؛ فالأول رباعي وهذا ثلاثي . وقال ابن عباس : أدخلني القبر مدخل صدق عند الموت وأخرجني مخرج صدق عند البعث . وقيل : أدخلني حيثما أدخلني بالصدق وأخرجني بالصدق ؛ أى لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه ؛ فإن ذا الوجهين لا يكون وجها عندك . وقيل : الآية عامة في كل ما يتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال ، ويُنتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة . فهى دعاء ، ومعناه : رب أصلح لي وردي في كل الأمور وصدرى . وقوله : « (وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) » قال الشعبي وعكرمة : أى حجة ثابتة . وذهب الحسن إلى أنه العز والنصر وإظهار دينه على الدين كله . قال : فوعده الله لِيَتَرَعَّنَ مُلْكُ فَارَسِ وَالرُّومِ وغيرها فيجمله له .

قوله تعالى : وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ

كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى البخارى والترمذى عن ابن مسعود قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح وحول الكعبة ثمانمائة وستون نُصْباً ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقطعها يَخْصِرُها في يده — وربما قال يعود — ويقول : ” جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد “ لفظ الترمذى . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وكذا في حديث مسلم « نُصْباً » . وفي رواية صفى . قال علامؤنا : إنما كانت بهذا العدد لأنهم كانوا يعظّمون في يوم صفى ويخصّون أعظمها بيومين . وقوله : ” فجعل يقطعها يعود في يده “ يقال : إنما كانت مثبته بالرصاص وأنه كلما طعن منها صفى في وجهه نثر لقفاه ، أو في قفاه نثر لوجهه . وكان يقول : ” جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً “ حكاه أبو عمر والقاضى عياض . وقال القشيرى : فما بقى منها صفى إلا نثر لوجهه ، ثم أمر بها فكسرت .

الثانية — في هذه الآية دليل على كسر نُصْبِ المشركين وجميع الأوثان إذا غاب عليهم ، ويدخل بالمعنى كسر آله الباطل كله ، وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالظناير والعيّدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى . قال ابن المنذر : وفي معنى الأصنام الصُورُ المتخذة من المدّر والخشب وشبهها ، وكل ما يتخذ الناس مما لا متفعة فيه إلا اللهو المنهى عنه . ولا يجوز بيع شيء منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص ، إذا غيّرت عما هي عليه وصارت تُقرأ أو قطعاً فيجوز بيعها والشراء بها . قال المهلب : وما كسر من آلات الباطل وكان في حبسها بعد كسرها متفعة فصاحبها أولى بها مكسورة ؛ إلا أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المال . وقد تقدّم حرق ابن عمر رضى الله عنه . وقد هم النبي صلى الله عليه وسلم بتحريق دور من تخلف عن صلاة الجماعة . وهذا أصل في العقوبة في المال مع قوله عليه السلام في الناقة التي لعنتها صاحبها :

”دعوها فإنها ملعونة“ فأزال ملكها عنها تأديبا لصاحبها ، وعقوبة لها فيما دعت عليه بما دعت به . وقد أراق عمر بن الخطاب رضى الله عنه لثيبا شيب بماء على صاحبه .

الثالثة — ما ذكرنا من تفسير الآية ينظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : ” والله ليتزن ميسى بن مريم حكما عادلا فليكرمه الصليب وليقتل الخنزير وليضع الجزية ولتترك القلاص ^(١) فلا يسعى مليها “ الحديث . نرجه الصحيحان . ومن هذا الباب هتك النبي صلى الله عليه وسلم السر الذي فيه الصور ، وذلك أيضا دليل على إفساد الصور وآلات الملاحى كما ذكرنا . وهذا كله يحظر المنع من اتخاذها ويوجب التنوير على صاحبها . إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم ! وحسبك ! وسيأتى هذا المعنى فى « النمل » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ) أى الإسلام . وقيل : القرآن ؛ قاله مجاهد . وقيل : الجهاد . (وَزَهَقَ الْبَاطِلُ) قيل الشرك . وقيل الشيطان ؛ قاله مجاهد . والصواب تعميم اللفظ بالناية الممكنة ، فيكون التفسير جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه . « وزهق الباطل » : بطل الباطل . ومن هذا زهوق النفس وهو بطلانها . يقال زهقت نفسه زهوقا ، وأزهقتها . (إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) أى لا بقاء له ، والحق الذى يثبت .

قوله تعالى : وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ^٢ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا^(٢) فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَنَزَّلَ) قرأ الجمهور بالنون . وقرأ مجاهد « وَيُزَل » بالياء خفيفة ، ورواها المروزي عن حفص . و « من » لا ابتداء الغاية ، ويصح أن تكون لبيان الجنس ؛ كأنه قال : ونزل ما فيه شفاء من القرآن . وفى الخبر ” من لم يستشف بالقرآن

(١) القلاص (بكر القاف جمع القلوص يفتحها) وهى الثافة الشاة .

فلا شفاء الله . وأنكر بعض المتأولين أن تكون « من » للتبعض ؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه أن بعضه لا شفاء فيه . ابن عطية : وليس يلزمه هذا ، بل يصح أن تكون للتبعض بحسب أن إزالته إنما هو مبعض ؛ فكأنه قال : ونزل من القرآن شيئاً شفاءً ما فيه كله شفاء .

الثانية — اختلف العلماء في كونه شفاء على قولين : أحدهما — أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الرّيب ، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى . الثاني — شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحوه . وقد روى الأئمة — واللفظ للدارقطني — عن أبي سعيد الخدري قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية ثلاثين رجلاً قال : فزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا ؛ قال : فلدغ سيد الحى ، فأتونا فقالوا : فيكم أحد يرقى من العقرب ؟ في رواية ابن قتيبة : إن الملك يموت . قال : قلت أنا نعم ، ولكن لا أقبل حتى تعطونا . فقالوا : فإنا نعطيك ثلاثين شاة . قال : قرأت عليه « الحمد لله رب العالمين » سبع مرات فبرأ . في رواية سليمان بن قتيبة عن أبي سعيد : فأفاق وبرأ . فبعث إلينا بالنزل وبعث إلينا بالشاة ، فاكلنا الطعام أنا وإصحابي وأبوا أن ياكلوا من النعم ، حتى أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته الخبر فقال : « وما يدريك أنها رقية » قلت : يا رسول الله ، شيء ألقى في رؤي . قال : « كلوا وأطعمونا من النعم » خرجه في كتاب السنن . وخرجه في (كتاب المديح^(١)) من حديث السري بن يحيى قال : حدثني المعتز بن سليمان عن ليث بن أبي سليم عن الحسن عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ينفع باذن الله تعالى من البرص والجنون والجذام والبطن والسّل والحُمى والتّفس أن تكتب بزعفران أو بمشق — يعني المغرة — أعوذ بكلمات الله التامة وأسمائه كلّها عامّة من شر السّامة والغائّة ومن شر العين اللّامة ومن شر حامد إذا حسد ومن أبي قزوة وما ولد » . كذا قال ، ولم يقل من شر أبي قزوة . العين اللّامة : التي تصيب بسوء . تقول : أعينه من كل هامة لامة . وأما قوله :

(١) في بعض الأصول : « المديح » ولم نرقى لتصويبه .

(٢) أبو قزوة (بكسر القاف وسكون التاء) : كنية الجليس .

أعيذه من حادثات الأمة فيقول : هو الدهر . ويقال الشدة . والسامة : الخاصة . يقال : كيف السامة والعامه . والسامة السم . ومن أبي فروة وما ولد . وقال : ثلاثة وثلاثون من الملائكة أتوا ربهم عز وجل فقالوا : وَصَبُّ بَارِضَنَا . فقال : خذوا تربة من أرضكم فامسحوا نواصيكم . أو قال : نوصيكم رقية محمد صلى الله عليه وسلم لا أفلع من كنمها أبدا أو أخذ عليها صفدا^(١) . ثم تكتب فاتحة الكتاب وأربع آيات من أول البقرة ، والآية التي فيها تصرف الرياح وآية الكرسي والآيتين اللتين بعدها ، وخواتيم سورة البقرة من موضع « لله ما في السموات وما في الأرض » إلى آخرها ، وعشرا من أول « آل عمران » وعشرا من آخرها ، وأول آية من النساء ، وأول آية من المائدة ، وأول آية من الأنعام ، وأول آية من الأعراف ، والآية التي في الأعراف « إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » حتى تختم الآية ؛ والآية التي في « يونس » من موضع « قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُ بِهَ السَّحَرِ إِنَّ اللَّهَ سَيُطْلِقُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ » ، والآية التي في طه « وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كِبْدَ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى » ، وعشرا من أول الصافات ، و « قل هو الله أحد » ، والمعوذتين . تكتب في إناء نظيف ثم تفصل ثلاث مرات بماء نظيف ثم يحنو منه الوجع ثلاث حنوت ثم يتوضأ منه كوضوئه للصلاة ويتوضأ قبل وضوئه للصلاة حتى يكون على طهر قبل أن يتوضأ به ثم يصب على رأسه وصدره وظهره ولا يستنجي به ثم يصل ركعتين ثم يستشفى الله عز وجل ؛ يفعل ذلك ثلاثة أيام ، قدر ما يكتب في كل يوم كتابا . في رواية : ومن شر أبي قتره وما ولد . وقال : « فامسحوا نواصيكم » ولم يشك . وروى البخاري عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات فلما تقل كنت أنفث عليه بهن وأمسح بيد نفسي لبركتها . فسألت الزهري كيف كان ينفث ؟ قال : كان ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه . وروى مالك عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه

المعوذتين وتَقْل أو تَقْت . قال أبو بكر بن الأنباري : قال اللغويون تفسير « نَفَث » نفخ نفخا ليس معه ريق . ومعنى « تَقْل » نفخ نفخا معه ريق . قال الشاعر :

فَإِنْ يَبْرَأَ فَلَمْ أَثِفْ عَلَيْهِ * وَإِنْ يُقْعِدْ فَقُلْ لَهُ الْفُقُودُ

وقال ذو الرمة :

وَمِنْ جَوْفِ مَاءٍ عَرَضَ الْحَوْلُ فُسُوقَهُ * مَتَى يَحْسُ مِنْهُ مَانِعُ الْقَوْمِ يَتَقَلُّ^(١)

أراد ينفخ بريق . وسيأتي ما للعلماء في النفث في سورة الفلق إن شاء الله تعالى .

الثالثة — روى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره الرُقَى إلا بالمعوذات . قال الطبري : وهذا حديث لا يجوز الاحتجاج بمثله في الدين ؛ إذ في نقله من لا يُعرف . ولو كان صحيحا لكان إما غلطا وإما منسوخا ؛ لقوله عليه السلام في الفاتحة ” ما أدراك أنها رقية “ . وإذا جاز الرق بالمعوذتين وهما سورتان من القرآن كانت الرقية بسائر القرآن مثلهما في الجواز إذ كله قرآن . وروى عنه عليه السلام أنه قال : ” شفاء أمتي في ثلاث آية من كتاب الله أول لقة من غسل أو شربة من عجم “ . وقال رجاء الغنوي : ومن لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له .

الرابعة — وأختلف العلماء في النشرة ، وهي أن يكتب شيئا من أسماء الله أو من القرآن ثم يفسله بالماء ثم يمسح به المريض أو يسقيه ، فأجازها سعيد بن المسيب . قيل له : الرجل يؤخذ عن امرأته أنه أُحْمِلَ عنه ويُنْشَرُ ؟ قال : لا بأس به ، وما ينفع لم يُنه عنه . ولم يرجاهد أن تكتب آيات من القرآن ثم تغسل ثم يسقيه صاحب الفزع . وكانت عائشة تقرأ بالمعوذتين في إناء ثم تأمر أن يُصب على المريض . وقال المازري أبو عبد الله : النشرة أمر معروف عند أهل التعزيم ؛ وتُسمَّى بذلك لأنها تُنشر عن صاحبها أي تُحَلَّ . ومنعها الحسن وإبراهيم النخعي ، قال النخعي : أخاف أن يصيبه بلاء ؛ وكأنه ذهب إلى أنه ما يجيء به القرآن فهو النَّخْيُ ، قال النخعي :

(١) المرض : الخفرة التي تغزو الماء ، وهي المرض والعلق والطعلب . والمناخ (بالهمز) : الذي يزل البئر فيلأ بالهلو . والمناخ (بالناء) : الذي يجلب الهلو .

إلى أن يعقب بلاء أقرب منه إلى أن يفيد شفاء . وقال الحسن : سألت أنسًا فقال : ذكروا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها من الشيطان . وقد روى أبو داود من حديث جابر ابن عبد الله قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النشرة فقال : "من عمل الشيطان". قال ابن عبد البر . وهذه آثار لينة ولها وجوه محتملة ، وقد قيل : إن هذا محمول على ما إذا كانت خارجة عما في كتاب الله وصلة رسوله عليه السلام ، وعن مداواة المعروفة . والنشرة من جنس الطب فهي غسالة شيء له فضل ، فهي كوضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال صلى الله عليه وسلم : "لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك ومن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل" .

قلت : قد ذكرنا النص في النشرة مرفوعا وأن ذلك لا يكون إلا من كتاب الله فليعتمد عليه .
الخامسة — قال مالك : لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله عز وجل على اعتناق المرضى على وجه التبرك بها إذا لم يُرد ملقها بتعليقها مدافعة العين . وهذا معناه قبل أن ينزل به شيء من العين . وعلى هذا القول جماعة أهل العلم ، لا يجوز عندهم أن يعلق على الصحيح من البهائم أو بني آدم شيء من العلائق خوف نزول العين ، وكل ما يعلق بعد نزول البلاء من أسماء الله عز وجل وكتابه رجاء الفرج والبرء من الله تعالى ، فهو كالرقى المباح الذي وردت السنة بإباحته من العين وغيرها . وقد روى عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا فزع أحدكم في نومه فليقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وسوء عقابه ومن شر الشياطين وأن يحضرون" . وكان عبد الله يعلمها ولده من أدرك منهم ، ومن لم يدرك كتبها وعلقها عليه . فإن قيل : فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من علق شيئا وكل إليه" . ورأى ابن مسعود على أم ولده تيممة مربوطة بقبضها جبدا شديدا فقطعها وقال : إن آل ابن مسعود لأغنياء عن الشرك ، ثم قال : إن النائم والرقى والتولة من الشرك . قيل : ما التولة ؟ قال : ما تحببت به لزوجها . وروى عن عقبة بن عامر الجهني قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من علق تيممة فلا أثم الله له

ومن علق ودعة فلا ودع الله له قلباً". قال الخليل بن أحمد : التيمة قلادة فيها عودٌ، والودعة خرز. وقال أبو عمر: التيمة في كلام العرب القلادة، ومعناه عند أهل العلم ما علق في الأعناق من القلائد خشية العين أو غيرها أن تنزل أو لا تنزل قبل أن تنزل . فلا أتم الله عليه صحبته وعافيته، ومن تعلق ودعة — وهي مثلها في المعنى — فلا ودع الله له ؛ أى فلا بارك الله له ما هو فيه من العافية . والله أعلم . وهذا كله تحذير مما كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التائم والقلائد، ويطنون أنها تقيم وتصرف عنهم البلاء، وذلك لا يصرفه إلا الله عز وجل، وهو المماني والمبتلى، لا شريك له . فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كانوا يصنعون من ذلك في جاهليتهم . وعن عائشة قالت : ما تعلق بعد نزول البلاء فليس من النجائم . وقد كره بعض أهل العلم تعليق التيمة على كل حال قبل نزول البلاء وبعده . والقول الأول أصح في الأثر والنظر إن شاء الله تعالى . وما روى عن ابن مسعود يجوز أن يريد بما كره تعليقه غير القرآن أشياء مأخوذة عن العراقيين والكهّان ؛ إذ الاستشفاء بالقرآن معلّقاً وضيع معلّق لا يكون شِركاً، وقوله عليه السلام : "من علق شيئاً وكل إليه" فن علق القرآن ينهى أن يتولاه الله ولا يكله إلى غيره ؛ لأنه تعالى هو المرغوب إليه والمتوكّل عليه في الاستشفاء بالقرآن . وسئل ابن المسيّب عن التعويد أعلق ؟ قال : إذا كان في قصبة أو رقعة يحرز فلا بأس به . وهذا على أن المكتوب قرآن . وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأساً أن يعلق الرجل الشيء من كتاب الله إذا وضعه عند الجماع وعند النائط . ورخص أبو جعفر محمد بن عليّ في التعويد يعلق على الصبيان . وكان ابن سيرين لا يرى بأساً بالشيء من القرآن يعلقه الإنسان .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تفرج الكرب وتطهير العيوب وتكفير الذنوب مع ما تفضل به تعالى من الثواب في تلاوته ؛ كما روى الترمذيّ عن عبد الله ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الله حرف بل أَلِفٌ حَرْفٌ ولامٌ حَرْفٌ وميمٌ حَرْفٌ" . قال هذا حديث حسن صحيح غريب . وقد تقدم . ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ لتكذيبهم . قال

قناة : ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان ، ثم قرأ « وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » الآية . ونظير هذه الآية قوله : « قُلْ هُوَ الَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ^{لِّ}وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى » . وقيل : شفاء في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان .

قوله تعالى : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ ^ط
وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ) أى هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خسارا صفتهم الإعراض عن تدبر آيات الله والكفران لنعمه . وقيل : نزلت في الوليد ابن المغيرة . ومعنى « ناسى بجانبه » أى تكبر وتباعد . وناسى مقلوب منه ، والمعنى : بعد عن القيام بحقوق الله عز وجل ، يقال : ناسى الشيء أى بعد . ونأيته ونأيت عنه بمعنى ، أى بعدت . ونأيته فأنشأى ، أى أبعدته فبعد . وتساءوا تساعدوا . والمتأى : الموضع البعيد . قال النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مُدْرِكِي • وإن خلت أن المتأى عنك واسع

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان « ناء » مثل باع ، الهمزة مؤنثة ، وهو على طريقة القلب من نأى ، كما يقال : راه ورأى . وقيل : هو من التواء وهو النهوض والقيام . وقد يقال أيضا للوقوف والجلوس نوء ، وهو من الأضداد . وقرئ « وثى » بفتح النون وكسر الهمزة . والعامية « نأى » في وزن رأى . (وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا) أى إذا ناله شدة من فقر أو سقم أو بؤس يئس وقطع ، لأنه لا يثق بفضل الله تعالى .

قوله تعالى : قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٨﴾

(١) آية ٤٤ سورة فصلت .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكَلَيْهِ ﴾ قال ابن عباس : ناحيته ، وقاله الضحاك . مجاهد : طبيعته . وعنه : حديثه . ابن زيد : على دينه . الحسن وقتادة : نيته . مقاتل : حيلته . الفراء : على طريقته ومذهبه الذى جُبِلَ عليه . وقيل : قل كل يعمل على ما هو أشكل عنده وأولى بالصواب فى اعتقاده . وقيل : هو ماخوذ من الشكلى ؛ يقال : لست على شَكْلَى ولا شاكلى . قال الشاعر :

كل أمرئ يشبهه فعله * ما يفعل المرء فهو أهله

فالشكل هو المثل والنظير والضرب . كقوله تعالى : « وَأَخْرَجْنَا مِنْ أَزْوَاجٍ^(١) وَالشَّكْلَ (بكسر الشين) : الهيئة . يقال : جارية حسنة الشَّكْل . وهذه الأقوال كلها متقاربة . والمعنى : أن كل أحد يعمل على ما يشاء كل أصله وأخلاقه التى ألفها ، وهذا ذم للكافر ومدح للمؤمن . والآية والتى قبلها نزلتا فى الوليد بن المغيرة ؛ ذكره المهدوى^(٢) . ﴿ قَرَّبَكُمْ أَكْثَرُ مِنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ أى بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كل واحد منهم . وقيل : « اهدى سبيلا » أى أسرع قبولا . وقيل : أحسن ديناً . وحكى أن الصحابة رضوان الله عليهم تذكروا القرآن فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أرفيه آية أربى وأحسن من قوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكَلَيْهِ ﴾ فإنه لا يشاء كل بالعبد إلا العصيان ولا يشاء كل بالرب إلا النفران . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أرفيه آية أربى وأحسن من قوله تعالى : « يُسْمِعُ اللَّهُ^(٣) الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . حَمَّ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ »^(٢) قدم غفران الذنوب على قبول التوبة ، وفى هذا إشارة للمؤمنين . وقال عثمان ابن عفان رضى الله عنه : قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره فلم أرفيه أحسن وأربى من قوله تعالى : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ^(٣) » . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه :

(١) آية ٥٨ سورة ص . (٢) أول سورة غافر . (٣) آية ٤٩ سورة الحجر .

قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

قلت : وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » .

قوله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

روى البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله قال : بينا أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في حَرْث وهو متكئ على عسيب إذ مرَّ اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح . فقال : ما رابكم إليه ؟ وقال بعضهم : لا يستقبلكم بشيء تكرهونه . فقالوا : سلوه . فسأله عن الروح فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئاً ؛ فعلمت أنه يوحى إليه ، فقامت مقامى ، فلما نزل الوحي قال : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » لفظ البخاري . وفي مسلم : فأسكت النبي صلى الله عليه وسلم . وفيه : وما أوتوا . وقد اختلف الناس في الروح المسئول عنه ، أي الروح هو ؟ فقيل : هو جبريل ؛ قاله قتادة . قال : وكان ابن عباس يكتمه . وقيل هو عيسى . وقيل القرآن ، على ما أتى بيانه في آخر الشورى . وقال علي بن أبي طالب : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه ، في كل وجه سبعون ألف لسان ، في كل لسان سبعون ألف لغة ، يسبح الله تعالى بكل تلك اللغات ، يخلق الله تعالى من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة . ذكره الطبري . قال ابن عطية : وما أظن القول يصح عن علي رضي الله عنه .

قلت : أسند البيهقي أخبرنا أبو زكريا عن أبي إسحاق أخبرنا أبو الحسن الطائفي حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (١) آية ٥٣ سورة الزمر . (٢) آية ٨٢ سورة الأنعام . (٣) أي ما دعاكم إلى سؤال تحشرون عابته بأن يستقبلكم بشيء تكرهونه .

عباس في قوله : « ويسألونك عن الروح » يقول : الروح مَلَك . وبإسناده عن معاوية بن صالح حدثني أبو هيران (بكسر الهاء) يزيد بن سُمرة عن حماد بن عمار بن أبي طالب أنه قال في قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح » قال : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه... الحديث بلفظه ومعناه . وروى عطاء عن ابن عباس قال : الروح ملك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه ، يسبح الله إلى يوم القيامة ؛ ذكره النحاس . وعنه : جند من جنود الله لهم أيد وأرجل يأكلون الطعام ؛ ذكره الثوري . وقال الخطابي : وقال بعضهم ، هو ملك من الملائكة بصفة وضعوها من عظم الخلقة . وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد . وقال أهل النظر منهم : إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه في بدن الإنسان ، وكيف أمترجاه بالجسم واتصال الحياة به ، وهذا شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل . وقال أبو صالح : الروح خلق تخلق بى آدم وليسوا ببنى آدم ، لهم أيد وأرجل . والصحيح الإيهام لقوله : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي »^(١) ... أى هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى ، مُمَيَّز له وتواركا تفصيله ؛ ليعرف الإنسان على القطع بجزءه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها . وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا كان بجزءه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تمييز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز .

قوله تعالى : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)^(٢) اختلف فيمن خُوطب بذلك ؛ فقالت فرقة : السائلون فقط . وقال قوم : المراد اليهود بمجملتهم . وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود « وما أوتوا » ورواها عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقالت فرقة : المراد العالم كله . وهو الصحيح ، وعليه قراءة الجمهور « وما أوتيتهم » . وقد قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم : كيف لم تُؤت من العلم إلا قليلا وقد أوتيتنا التوراة وهى الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ؟ فعارضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم الله فتقيلوا . وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله في بعض الأحاديث : « كَلَّا »^(٣) يعنى أن المراد بـ « ما أوتيتهم » جميع^(١) مكان هذه الأصناف في جميع نسخ الأصل : « دليل على خلق الروح » . ولم نل هذه الجملة في سياق الكلام معنى .

العالم . وذلك أن يهود قالت له : نحن عنيت أم قومك . فقال : «كَلَّا» . وفي هذا المعنى نزلت «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ» . ^(١) حتى ذلك الطبري رحمه الله ! وقد قيل : إن الساطئين عن الروح هم قريش ، قالت لهم اليهود : سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فإن أخبركم عن آسئس وأمسك عن واحدة فهو نبي ؛ فأخبرهم خبر أصحاب الكهف وخبر ذى القرنين على ما يأتي . وقال في الروح : «قل الروح من أمر ربي» . أى من الأمر الذى لا يعلمه إلا الله . ذكره المهدوى وغيره من المفسرين عن ابن عباس . قوله تعالى : وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكِيلًا ﴿٢٧﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) يعنى القرآن . أى كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه حتى ينساه الخلق . ويتصل هذا بقوله : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » أى ولو شئنا أن أذهب بذلك القليل لقدرت عليه . (ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكِيلًا) أى ناصرا يرده عليك . (إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) يعنى لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك ؛ فهو استثناء ليس من الأول . وقيل : إلا أن يرحمك ربك فلا يذهب به . (إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا) إذ جعلك سيد ولد آدم ، وأعطاك المقام المحمود وهذا الكتاب العزيز . وقال عبد الله بن مسعود : أول ما تُفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، وأن هذا القرآن كأنه قد نزع منكم ، تُصبحون يوما وما معكم منه شيء . فقال رجل : كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن ! وقد ثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا ، نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناءنا أبناءهم إلى يوم القيامة ! قال : يسرى به في ليلة فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب ، فتصبح الناس كالبهائم . ثم قرأ عبد الله « وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » الآية . أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه قال : أخبرنا أبو الأحوص عن عبد العزيز بن رُفيع عن

شَدَّادٌ بْنُ مَسْقِلٍ قَالَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ - يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ - : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ يَوْشِكُ أَنْ يُتْرَعَ مِنْكُمْ . قَالَ : قُلْتُ كَيْفَ يُتْرَعُ مِنَّا وَقَدْ أَثْبَتَهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِنَا وَثَبَّتَاهُ فِي مَصَاحِفِنَا ! قَالَ : يَسْرَى عَلَيْهِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ فَيُتْرَعُ مَا فِي الْقُلُوبِ وَيَذْهَبُ مَا فِي الْمَصَاحِفِ وَيَصْبَحُ النَّاسُ مِنْهُ فَقَرَاءً . ثُمَّ قَرَأَ : « وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ . وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍ : لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَرْجِعَ الْقُرْآنُ مِنْ حَيْثُ نَزَلَ ، لَهُ دَوَى كَدَوَى النُّحْلِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ مَا بِالْكَ . فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مِنْكَ خَرَجْتَ وَإِلَيْكَ أَعُودُ ، أَتَى فَلَا يُعْمَلُ بِي ، أَتَى وَلَا يُعْمَلُ بِي . قُلْتُ : قَدْ جَاءَ مَعْنَى هَذَا مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ وَحَذِيفَةَ . قَالَ حَذِيفَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "يُدْرَسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يُدْرَسُ وَثْنُ الثَّوْبِ حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا نَسْكٌ وَلَا مَسَدَّةٌ فَيُسْرَى حِلَّ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِي لَيْلَةٍ فَلَا يَبْقَى مِنْهُ فِي الْأَرْضِ آيَةٌ وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَالْمَجُوزَ يَقُولُونَ أَذْرَكْنَا أَبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . وَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا صَلَاةٌ وَلَا صِيَامٌ وَلَا نَسْكٌ وَلَا مَسَدَّةٌ " . قَالَ لَهُ صَلَاةٌ : مَا تَعْنِي عَنْهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ! وَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا صَلَاةٌ وَلَا صِيَامٌ وَلَا نَسْكٌ وَلَا مَسَدَّةٌ ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حَذِيفَةُ ، ثُمَّ رَدَّهَا ثَلَاثًا ، كُلُّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حَذِيفَةُ . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ حَذِيفَةُ فَقَالَ : يَا صَلَاةُ ! تَتَّيْمُهُمُ مِنَ النَّارِ ، ثَلَاثًا . نَحْرَجُهُ ابْنَ مَاجَهَ فِي السَّنَنِ . وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو : خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مَعْصُوبُ الرَّأْسِ مِنْ وَجَعِ فَضْحِكِ ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَحَمْدَ اللَّهَ وَأَمَّنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : " أَيُّهَا النَّاسُ مَا هَذِهِ الْكُتُبُ الَّتِي تَكْتُبُونَ أَكْتُابٌ غَيْرُ كِتَابِ اللَّهِ يَوْشِكُ أَنْ يَغْضِبَ اللَّهَ لِكِتَابِهِ فَلَا يَدْرَعُ وَرَقًا وَلَا قَلْبًا إِلَّا أَخَذَ مِنْهُ " قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَكَيْفَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : " مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا أَبْقَى فِي قَلْبِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ وَالْفَرَزْدَقِيُّ وَغَيْرُهُمَا فِي التَّفْسِيرِ .

قوله تعالى : قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَآ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

أى عوينا ونصبرا؛ مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعر فيقيمونه . نزلت حين قال الكفار : لو نشاء لقلنا مثل هذا ؛ فأكذبهم الله تعالى . وقد مضى القول فى إعجاز القرآن فى أول الكتاب^(١) . والحمد لله . و«لَا يَأْتُونَ» جواب القسم فى «لئن» وقد يجزم على إرادة الشرط . قال الشاعر :
لئن كان ما حدثنيهِ اليوم صادقا * أقيم فى نهار القيظ للشمس باديا

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : « وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ » أى وجهنا القول فيه بكل مثل يجب به الاعتبار؛ من الآيات والمبر والترغيب والترهيب ، والأوامر والنواهي وأقاصيص الأولين ، والحنة والنار والقيامة . « فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » يريد أهل مكة ، بين لهم الحقّ وقسح لهم وأهلهم حتى تبين لهم أنه الحق ، فأبوا إلا الكفر وقت تبين الحق . قال المهدوى : ولا حجة للقدريّ فى قوله : لا يقال أبى إلا لمن أبى فعل ما هو قادر عليه ؛ لأن الكافر وإن كان غير قادر على الإيمان بحكم الله عليه بالإعراض عنه وطبعه على قلبه ، فقد كان قادرا وقت الفسحة والمهلة على طلب الحق وتمييزه من الباطل .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٨٩﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِلِلَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩١﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُحْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٢﴾

(٢) رواية تראה الأدب فى الشاهد الرابع والثلاثين

(١) راجع ج ١ ص ٦٩ طبعه ثانية أو ثالثة .

بعد التسامية : « أعم فى نهار القيظ ... » الخ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ الآية نزلت في رؤساء قريش مثل عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبي سفيان والنضر بن الحارث ، وأبي جهل وعبد الله بن أبي أمية ، وأمّية بن خلف وأبي البَحْرِيِّ ، والوليد بن المغيرة وغيرهم . وذلك أنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن ولم يرضوا به معجزة ، اجتمعوا — فيما ذكر ابن إسحاق وغيره — بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد — صلى الله عليه وسلم — فكلّموه وخاصموه حتى تُسَدُّوا فيه ، فبعثوا إليه أن أشرف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلّموك فأتهم ، بغاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يظن أن قد بدأ لهم فيما كلّمهم فيه بدو ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا يحبّ رشدهم ويميّز عليه عتّهم ، حتى جلس إليهم فقالوا له : يا محمد ! إنا قد بعثنا إليك لننكلك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء وصبت الدين وشتمت الآلهة وسفّقت الأحلام ونزقت الجماعة ، فما نبيّ أمر قبيح إلا قد جثته فيما بيننا وبينك ، أو كما قالوا له . فإن كنت إنما جثت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك ربيّا تراه قد ظلب عليك — وكانوا يسمّون التابع من الجن ربيّا — فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى تُبرئك منه أو تُعذرك . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ما بي ما تقولون ما جثتُ بما جثتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل عليّ كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبَلّغْتُكم رسالات ربي ونصحتُكم لكم فإنّ هبلوا مني ما جثتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم “ أو كما قال صلى الله عليه وسلم . قالوا : يا محمد ، فإن كنت خير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقلّ ماء ولا أشدّ عيشا منا ، فسل لنا ربك الذي يثبثك بما يثبثك به ، فليسير

عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، وليُيسّط لنا بلادنا وليُخْرِق لنا فيها أنهاراً كأَنْهار الشام، وليبعث لنا مَنْ مَضَى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قُصَى بن كلاب؛ فإنه كان شيخَ صِدْقٍ فَنَسأَلُهم عما نقول، أَوْ حقُّ هَؤُلاءِ باطل، فَإِنْ صدَّقوك وصنعت ما سألناك صدَّقناك، وعرفنا به منزلك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولا كما تقول . فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه : ” ما بهنا بُعثت إليكم إنما جئتمكم من الله تعالى بما بعثني به وقد بَلَّغْتكم ما أُرسلْتُ به إليكم فَإِنْ تَقْبَلُوهُ فهو حظكم في الدنيا والآخرة وَإِنْ تَرُدُّوه عَنِّي أَصْبِرْ لِأَمْرِ الله حتى يحكم الله بيني وبينكم “ . قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا نَخْذُ لنفُسك ! سَلْ رَبَّكَ أَنْ يبعث معك مَلَكاً يصدِّقُك بما تقول ويراجعنا عنك، وأسأله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يشفيك بها عما نراك تبتغي؛ فَإِنَّكَ تقوم بالأسواق وتلتبس المعاش كما نلتبسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعث بهذا إليكم ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا — أو كما قال — فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وَإِنْ تَرُدُّوه عَنِّي أَصْبِرْ لِأَمْرِ الله حتى يحكم الله بيني وبينكم “ . قالوا : فَأَسْقِطُ السماء علينا كِسْفًا كما زعمت أَنْ رَبَّكَ إِنْ شاء فعل؛ فَإِنَّا لَنُؤْمِنُ لَكَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلَ . قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ذلك إلى الله عز وجل إِنْ شاء أَنْ يفعل به كما فعل “ . قالوا : يا محمد ، فما عِلْمُ رَبِّكَ أَنَا سَتَجْلِسُ معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدّم إليك فيعلمك بما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذ لم تقبل منك ما جئتنا به . إنه قد بلغنا أَنَّكَ إِنَّمَا يَعْلَمُك هذا رجل من الإمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نُؤْمِنُ بِالرَّحْمَنِ أَبَدًا ، فقد أصدَرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكك . وقال قائلهم : نحن نبسد الملائكة وهي بنات الله . وقال قائلهم : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَ بَالِهٍ والملائكة قِيَالًا . فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن نخزوم، وهو ابن عمته، هو لعائكة بنت عبد المطلب، فقال له : يا محمد ! عرض عليك

فومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا يعرفوها من عندك من الله كما تقول ، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ! ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ! ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ! — أو كما قال له — فوالله لا أومن بك أبدا حتى تنفذ إلى السماء سلما ، ثم ترق فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ، ثم تأتي معك بصلة معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول . وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك ! ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزينا أسفا فاته مما كان يطعم به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مبادئهم إياه كل لفظ ابن إسحاق . وذكر الواحدى عن عكرمة عن ابن عباس : « نازل الله تعالى « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » . (يَنْبُوعًا) يعنى السيون ؛ عن مجاهد . وهى يفعلون ، من نبع ينبع . وقرأ عاصم وحمة والكسائى « تَفْجُرُ لَنَا » مخففة ؛ وأختره أبو حاتم لأن ينبوع واحد . ولم يختلفوا فى تفجير الأنهار أنه مشدد . قال أبو عبيد : والأولى مثله . قال أبو حاتم . ليست مثله ؛ لأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد ، والثانية بعدها الأنهار وهى جمع ، والتشديد يدل على التكثير . أجيب بأن « ينبوعا » وإن كان واحدا فالمراد به الجمع ؛ كما قال مجاهد . ينبوع من الماء ، والجمع ينبوع . وقرأ قتادة « أَوْ يَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ » . (خَلَاهَا) أى وسطها . (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ) قراءة العامة . وقرأ مجاهد « أَوْ يُسْقِطَ السَّمَاءَ » على إسناد الفعل إلى السماء . (كَسَفًا) قطعا عن ابن عباس وغيره . والكسف (فتح السين) جمع كسفة ، وهى قراءة نافع وابن ماهر وطاسم . الباقون « كَسَفًا » بإسكان السين . قال الأخفش : من قرأ كَسَفًا من الماء جعله واحدا ، ومن قرأ كَسَفًا جعله جمعا . قال المهدوى : ومن أسكن السين جاز أن يكون جمع كسفة وجاز أن يكون مصدرا ؛ من كسفت الشيء إذا غطيته . فكانهم قالوا : أسقطها طبقا علينا . وقال الجوهري : الكسفة القطعة من الشيء ؛ يقال : أعطيت كسفة من ثوبك ، والجمع كسف وكسف . ويقال : الكسف والكسفة واحد .

(أَوْ تَأْتِي بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قِيَلًا) أى معاينة؛ عن قتادة وابن جريح . وقال الضحاك وابن عباس : كفيلا . قال مقاتل : شهيدا . مجاهد : هو جمع القبيلة ؛ أى بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة . وقيل : ضمناء يضمنون لنا إتيانك به . (أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ) أى من ذهب ؛ عن ابن عباس وغيره . وأصله الزينة . والمُزَنَّرُفُ المزين . وزخارف الماء طرائقه . وقال مجاهد : كنت لا أدري ما الزُخْرُفُ حتى رأيته في قراءة ابن مسعود « بَيْتٌ مِنْ ذَهَبٍ » أى نحن لا ننقاد لك مع هذا الفقر الذى نرى . (أَوْ تَرُقُّ فِي السَّمَاءِ) أى تصعد؛ يقال : رُقِيتَ في السلمِ أَرُقًا وَرُقِيًّا إذا صعدت . وأرتقيت مثله . (وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفُيْكَ) أى من أجل رُفُيْكَ ، وهو مصدر؛ نحو مضى يمضى مضياً ، وهوى هوى هُويًّا ، كذلك رُقِ يرقى رُفِيًّا . (حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ) أى كتاباً من الله تعالى إلى كل رجل منا؛ كما قال تعالى : « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً » . (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ) وقرأ أهل مكة والشام « قال سبحان ربى » يعنى النبي صلى الله عليه وسلم؛ أى قال ذلك تنزيها لله عز وجل عن أن يعجز عن شيء وعن أن يعترض عليه في فعل . وقيل : هذا كله تعجب عن فرط كفرهم واقتراحاتهم . الباقون « قل » على الأمر؛ أى قل لهم يا محمد (هَلْ كُنْتُ) أى ما أنا (إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) أتبع ما يوحى إلى من ربى ، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التى ليست في قدرة البشر؛ فهل سمعتم أحدا من البشر أتى بهذه الآيات ! وقال بعض الملحدين : ليس هذا جواباً مقنعاً ، وعطّلوا ؛ لأنه أجابهم فقال : إنما أنا بشر لا أقدر على شيء مما سالتونى ، وليس لى أن أتخير على ربى ، ولم تكن الرسل قبلى يأتون أمهم بكل ما يريدونه ويغفونه ، وسبيل سبيلهم ، وكانوا يقتضرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوتهم ، فإذا أناموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يفتروا غيرها ، ولو وجب على الله أن يأتينهم بكل ما يفترونه من الآيات لوجب عليه أن يأتينهم بى يختارونه من الرسل ، ولو وجب لكل إنسان أن يقول : لا أؤمن حتى أوتى بآية خلاف ما طلب غيرى ، وهذا يؤول إلى أن يكون التدبير إلى الناس . وإنما التدبير إلى الله تعالى .

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ) يعني الرسل والكتب من عند الله بالدعاء إليه . (إِلَّا أَنْ قَالُوا) جهلا منهم . (أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا) أى الله أجل من أن يكون رسوله من البشر . فبين الله تعالى فوط عنادهم لأنهم قالوا : أنت مثنا فلا يلزمنا الاقنياد ، وغفلوا عن المعجزة . فـ«أَنْ» الأولى في محل نصب بإسقاط حرف الخفض . و«أَنْ» الثانية في محل رفع بـ«منع» أى وما منع الناس من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا قولهم أبعث الله بشرا رسولا .

قوله تعالى : قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَحْمِلُونَ مِطْمَئِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١٥﴾

أعلم الله تعالى أن الملك إنما يرسل إلى الملائكة ؛ لأنه لو أرسل ملكا إلى الآدميين لم يقدروا أن يروه على الهيئة التي خلق عليها ، وإنما أقدر الأنبياء على ذلك وخلق فيهم ما يقدرون به ؛ ليكون ذلك آية لهم ومعجزة . وقد تقدم في « الأنعام » نظير هذه الآية ؛ وهو قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا » وقد تقدم الكلام فيه .

قوله تعالى : قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٦﴾

يروى أن كفار قريش قالوا حين سمعوا قوله « هل كنت إلا بشرا رسولا » : فن يشهد لك أنك رسول الله . فنزل « قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » .

قوله تعالى : وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَهُمْ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبُكْمًا
وَصُمًّا مَا وَلَّيْنَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلًّا خَبِثَ زَنْدَلُهُمْ سَعِيرًا ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ) أى لو هداهم الله لاهتدوا . (وَمَنْ يُضِلِّ)
فَلَنْ تَجِدَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ) أى لا يهتد بهم أحد . (وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ)
فيه وجهان : أحدهما — أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم ؛ من قول العرب :
قَدِمَ القوم على وجوههم إذا أسرعوا . الثانى — أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى
جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه . وهذا هو الصحيح ؛ لحديث أنس
أن رجلا قال : يا رسول الله ، الذين يحشرون على وجوههم ، أحشر الكافر على وجهه ؟
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أليس الذى أمشاه على الرجلين قادرا على أن يمشيه على
وجهه يوم القيامة " : قال قتادة حين بلغه : بلى وعِزَّة رَبِّنا . أخرجه البخارى . وسلم .
وحسبك . (عُمًى وَبُكْمًا وَصُمًّا) قال ابن عباس والحسن : أى عُمًى عما يسرهم ، بُكْمٌ عن
التكلم بحجة ، صُمٌّ عما ينفعهم ؛ وعلى هذا القول حواشيهم باقية على ما كانت عليه . وقيل :
لأنهم يحشرون على الصفة التى وصفهم الله بها ؛ ليكون ذلك زيادة في عذابهم ، ثم يخلق ذلك
لهم في النار ، فأبصروا ؛ لقوله تعالى : « وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا » ، وتكلموا ؛
لقوله تعالى : « دَعَوْا هَٰؤُلَاءِ ثُبُورًا » ، وسمعوا ؛ لقوله تعالى : « سَمِعُوا لَهَا تَتَنَطَّأ وَزَفِيرًا » .
وقال مقاتل بن سليمان : إذا قيل لهم « اخْسَؤْا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُوا » صاروا عُمًى لا يبصرون صُمًّا
لا يسمعون بُكْمًا لا يفقهون . وقيل : عموا حين دخلوا النار لشدة سوادها ، وانقطع كلامهم
حين قيل لهم : اخْسَؤْا فيها ولا تكلموا . وذهب الزيفر والشميق بسمعهم فلم يسمعوا شيئا .
(مَا وَلَّيْنَاهُمْ جَهَنَّمَ) أى مستقرهم ومقامهم . (كُلًّا خَبِثَ) أى سكنت ؛ عن الضحاك
(١) آية ٥٣ سورة الكهف . (٢) آية ١٣ سورة الفرقان . (٣) آية ١٢ سورة الفرقان .
(٤) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

وغيره . مجاهد طفئت . يقال : خبت النار تنخبو خبوا أى طَفِئَتْ ، وأخْبَيْتُهَا أَنَا . (زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) أى نارا نثلب . وسكون التهايا من غير نقصان فى الآلامهم ولا تخفيف عنهم من عذابهم . وقيل : إذا أرادت أن تَحْبُو . كقوله : « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ^(١) » .

قوله تعالى : ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِعَآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَوْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : (ذَلِكَ جَزَاءُهم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا) أى ذلك العذاب جزاء كفرهم . (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا) أى ترابا . (أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى فقال : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ) قيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، أى أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل لهم أجلا لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم . والأجل : مدة قيامهم فى الدنيا ثم موتهم ، وذلك ما لا شك فيه إذ هو مشاهد . وقيل : هو جواب قولهم : « أَوْ نُسْقِطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتُمْ عَلَيْنَا كِسْفًا » . وقيل : هو يوم القيامة . (فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفُورًا) أى المشركون إلا بحجودا بذلك الأجل وآيات الله . وقيل : ذلك الأجل هو وقت البعث ، ولا ينبغي أن يُسَكَّ فيه .

قوله تعالى : قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ خَرَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّهُمْ تَمَلَّكُونْ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ أى خزائن الأرزاق . وقيل : خزائن النعم ، وهذا أعم . ﴿ إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ من البخل ، وهو جواب قولهم : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوءًا » حتى تتوسع في المعيشة . أى لو توسعتم ليعلمتم أيضا . وقيل : المعنى لو ملك أحد المخلوقين خزائن الله لما جاد بها بحدود الله تعالى ؛ لأمرين : أحدهما — أنه لا بد أن يمسك منها لنفسه وما يعود بمنفعته . الثانى — أنه يخاف الفقر ويخشى المدم . والله تعالى يتعالى في وجوده عن هاتين الحالتين . والإنفاق في هذه الآية بمعنى الفقر ؛ قاله ابن عباس وقتادة . وحكى أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم وأقتر إذا قل ماله . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ أى بخيلا مضيقا . يقال : قتر على عبالة يقر ويقر قتراً وقُتورا إذا ضيق عليهم في النفقة ، وكذلك التقير والإقترار ، ثلاث لغات . وأختلف في هذه الآية على قولين : أحدهما — أنها نزلت في المشركين خاصة ؛ قاله الحسن . والثانى — أنها عامة ، وهو قول الجمهور ؛ وذكره الماوردي .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَعَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ اختلف في هذه الآيات ؛ فقيل : هى بمعنى آيات الكتاب ؛ كما روى الترمذى والنسائى عن صفوان بن عسال المرادى أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله ؛ فقال : لا تقل له نبي فإنه إن سمعنا كان له أربعة أعين ؛ فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تشركوا بالله شيئا ولا تزوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسعروا ولا تمشوا بيريء إلى سلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تفزوا من الزحف — شك شعبة — عليكم [يا معشر] اليهود خاصة ألا تعدوا في السبت » فقبلا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبي . قال :

«فما يمنعكما أن تأسلما» قالا : إن داود دعا الله ألا يزال في ذريته نبيّ وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وقد مضى في البقرة .^(١) وقيل : الآيات بمعنى المعجزات والدلالات . قال ابن عباس والضحاك : الآيات التسع العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ؛ آيات مفصلات . وقال الحسن والشعبي : الخمس المذكورة في «الأعراف» ؛ يعنيان الطوفان وما عطف عليه ، واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات ، وروى نحوه عن الحسن ؛ إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة ، وجعل التاسعة تلقف العصا ما يافكون . وعن مالك كذلك ؛ إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات : البحر والجبل . وقال محمد بن كعب : هي الخمس التي في «الأعراف» والبحر والعصا والجبر والطمس على أموالهم . وقد تقدم شرح هذه الآيات مستوفى والحمد لله .

(فَاسْأَلْ نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ) أى سلهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات ، حسبما تقدم بيانه في يونس . وهذا سؤال استفهام ليعرف اليهود صحة ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم .

(فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا) أى ساحرا بغرائب أفعالك ؛ قاله الفراء وأبو عبيدة . فوضع المفعول موضع الفاعل ؛ كما تقول : هذا مشغوم وميمون ، أى شائم ويا من . وقيل مخدوعا . وقيل مغلوبا ؛ قاله مقاتل . وقيل غير هذا ؛ وقد تقدم . وعن ابن عباس وأبي نعيم أنها قرأ « فَاسْأَلْ نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ » على الخبر ؛ أى سال موسى فرعون أن يخلى نبي إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه .

قوله تعالى : قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَتَزَلُ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرْعَوْنَ مَثْبُورًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَتَزَلُ هَؤُلَاءِ) يعنى الآيات التسع . و « أتزل » بمعنى أوجد . (إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ) أى دلالات يستدل بها على قدرته ووحدايته .

وقراءة العامة « صابت » بفتح التاء ، خطابا لفرعون . وقرأ الكسائي بضم التاء ، وهي قراءة على رضى الله عنه ؛ وقال : والله ما علم عدواؤه ولكن موسى هو الذى علم ، فبلغت ابن عباس فقال : إنها « لقد صابت » ، واحتج بقوله تعالى : « وَبَجَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا » . ونسب فرعون إلى العناد . وقال أبو عبيد : والمأخوذ به عندنا فتح التاء ، وهو الأصح للحنى الذى احتج به ابن عباس ؛ ولأن موسى لا يحتج بقوله : صابت أنا ، وهو الرسول الداعى ، ولو كان مع هذا كله تصح به القراءة عن على لكانت حجة ، ولكن لا تثبت عنه ، إنما هي عن كُثُوم المرادى وهو مجهول لا يعرف ، ولا نعلم أحدا قرأ بها غير الكسائي . وقيل : إنما أضاف موسى إلى فرعون العلم بهذه المعجزات ؛ لأن فرعون قد علم مقدار ما يتبأ للسحرة فعلة ، وأن مثل ما فعل موسى لا يتبأ لساحر ، وأنه لا يقدر على فعله إلا من يفعل الأجسام ويملك السموات والأرض . وقال مجاهد : دخل موسى على فرعون في يوم شاتٍ وعليه قطيفة له ، فالتقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان ، فرأى فرعون جانبي البيت بين قُفْمَيْهَا ، ففزع وأحدث في قطيفته . (وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا) الظن هنا بمعنى التحقيق . والثبور : الهلاك والحسران أيضا . قال الكُتَيْب :

ورأت قُضَاعَةً فِي الْإِيَا * مِنْ رَأَى مَثْبُورٍ وَثَابِرٍ

أى محسور وخامر ، يعنى فى انتمائها إلى اليمن . وقيل : ملعونا . رواه المنهال عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس . وقاله أبان بن تغلب . وأشد :
يا قومنا لا تروموا حربنا سَفْهًا * إِنَّ السَّفْهَاءَ وَإِنَّ الْبَنَى مَثْبُورُ

أى ملعون . وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس : « مَثْبُورًا » ناقص العقل . ونظر المأمون رجلا فقال له : يا مَثْبُور ؛ فسئل عنه قال : قال الرشيد قال المنصور لرجل : مَثْبُور ؛ فسأله فقال : حدثني ميمون بن مهران ... فذكره . وقال قتادة هالكا . وعنه أيضا والحسن ومجاهد : مهلكا . والثَّبُور : الهلاك ؛ يقال : تَبَرَّأته المَثْبُورَ هالكا . وقيل : ممنوعا

من الخير . حكى أهل اللغة : ما تبرك عن كذا أى ما منعك منه . وثبره الله يشبهه ثبراً . قال ابن الزبيري :

إذ أجارى الشيطان فى سنن الله • • • ومن مال مئله مثير

الضحك : « مثيراً » مسحوراً . رد عليه مثل ما قال له باختلاف اللفظ . وقال ابن زيد : « مثيراً » مغبولاً لا عقل له .

قوله تعالى : فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِيزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠١﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اأَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : (فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِيزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ) أى أراد فرعون أن يخرج موسى وبني إسرائيل من أرض مصر بالقتل أو الإبعاد؛ فأهلكه الله عز وجل . (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ) أى من بعد إغراقه (لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اأَسْكُنُوا الْأَرْضَ) أى أرض الشام ومصر . (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ) أى القيامة (جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا) أى من قبوركم مختلطين من كل موضع ، قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون ولا يتحاز أحد منكم إلى قبيله وحيه . وقال ابن عباس وقتادة : جئنا بكم جميعاً من جهات شتى . والمعنى واحد . قال الجوهري : واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى؛ يقال : جاء القوم بلفيفهم ، أى وأخلطهم . وقوله تعالى « جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا » أى مجتمعين مختلطين . وطعام لفيف إذا كان مخلوطاً من جنسين فصاعداً . وفلان لفيف فلان أى صديقه . قال الأصمعي : اللفيف جمع وليس له واحد ، وهو مثل الجميع . والمعنى : أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر ، مختلطين لا يتعارفون . وقال الكلبي : « فإذا جاء وعد الآخرة » يعنى مجئ عيسى عليه السلام من السماء .

قوله تعالى : **وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : **(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ)** هذا متصل بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن . والكناية ترجع الى القرآن . ووجه التكرير في قوله « وبالحق نزل » يجوز أن يكون معنى الأول : أوجبنا إنزاله بالحق . ومعنى الثاني : ونزل وفيه الحق ؛ كقوله خرج بثبابة ، أى وعليه ثيابه . وقيل الباء في « وبالحق » الأول بمعنى مع ، أى مع الحق ؛ كقولك ركب الأمير بسيفه أى مع سيفه . « وبالحق نزل » أى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أى نزل عليه ؛ كما تقول نزلت بزيد . وقيل : يجوز أن يكون المعنى وبالحق قدرنا أن ينزل ، وكذلك نزل .

قوله تعالى : **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا** ﴿٥١﴾

قوله تعالى : **(وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ)** مذهب سيويه أن « قرآنًا » منصوب بفعل مضمير يفسره الظاهر . وقراء جمهور الناس « فرقناه » بخفيف الراء ، ومعناه بيناه وأوضحناه ، وفرقنا فيه بين الحق والباطل ؛ قاله الحسن . وقال ابن عباس : فصلناه . وقراء ابن عباس وعلى وابن مسعود وأبى بن كعب وقنادة وأبو رجاء والشعمي « فرقناه » بالتشديد ، أى أنزلناه شيئاً بعد شيء ، لا جملة واحدة ؛ إلا أن في قراءة ابن مسعود وأبى « فرقناه عليك » .

واختلف في كم نزل القرآن من المدة ؛ ف قيل : في خمس وعشرين سنة . ابن عباس : في ثلاث وعشرين . أنس : في عشرين . وهذا بحسب الخلاف في سن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا خلاف أنه نزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة . وقد مضى هذا في « البقرة » . **(عَلَى مُكْثٍ)** أى تناول في المدة شيئاً بعد شيء . ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود ، أى أنزلناه آية آية وسورة سورة . وأما على القول الأول فيكون « عَلَى مُكْثٍ » أى على ترسل في التلاوة وترتيل ، قاله مجاهد وابن عباس وابن جريج . فيعطى القارئ القراءة حقها من

ترتيبها وتحسينها وتطعيمها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحين ولا تطريب مؤد إلى تغيير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان فإن ذلك حرام على ما تقدم أول الكتاب . وأجمع القراء على ضم الميم من « مَكْتُ » إلا ابن محيصن فإنه قرأ « مَكْتُ » بفتح الميم . ويقال . مَكْتُ ومَكْتُ ومِكْتُ ثلاث لغات . قال مالك : « على مَكْتُ » على تثنية وترسيل .

قوله تعالى : (وَزَلَّاهُ تَنْزِيلًا) مبالغة وتأکید بالمصدر للغي المتقدم ، أى أزلناه نجماً بعد نجم^(٢) ، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا .

قوله تعالى : قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجْرُونَ لِلآذْقَانِ سُجَّدًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا) يعنى القرآن ، وهذا من الله عز وجل على وجه التيكيت لم والتهديد لاهل وجه التخير . (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ) أى من قبل نزول القرآن ونزوح النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم مؤمنو أهل الكتاب ؛ فى قول ابن جريج وغيره . قال ابن جريج : معنى « إذا يتلى عليهم » كتابهم . وقيل القرآن . (يَجْرُونَ لِلآذْقَانِ سُجَّدًا) وقيل : هم قوم من ولد إسماعيل تمسكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبى عليه السلام ، منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل . وحل هذا ليس يريد أوتوا الكتاب بل يريد أوتوا علم الدين . وقال الحسن : الذين أوتوا العلم أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : إنهم ناس من اليهود وهو أظهر لقوله « مِنْ قَبْلِهِ » . (إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ) يعنى القرآن فى قول مجاهد . كانوا إذا سمعوا ما أنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا : « سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا » . وقيل : كانوا إذا تلوا كتابهم وما أنزل عليه من القرآن خشعوا وسجدوا وسبحوا ، وقالوا : هذا هو المذكور فى التوراة ، وهذه صفته ، ووعده الله به واقع لاحتماله ، وجتمعوا إلى الإسلام ؛ فترلت الآية فيهم . وقالت فرقة : المراد بالذين أوتوا العلم من قبله

(١) فى نسخ الأصل : « المودى » . (٢) أى نزل آية .

مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والضمير في « قَبْلَهُ » عائد على القرآن حسب الضمير في قوله « قل آمنوا به » ، وقيل : الضميران لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأستأنف ذكر القرآن في قوله : « إِذَا بَلَغَ لَيْلَهُمْ » .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿٣٨﴾

دليل على جواز التسبيح في السجود . وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثّر أن يقول في سجوده وركوعه « سبحانك اللهم وبمهلك اللهم آغفر لي » .

قوله تعالى : وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿٣٩﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ) هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم . وحق لكل من توسم بالعلم وحصل منه شيئاً أن يجرى إلى هذه المرتبة ، فيخضع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل . وفي مسند الداريمى أبى محمد عن التيمي قال : من أوقى من العلم ما لم يبيكه نخلق ألا يكون أوقى علماً ؛ لأن الله تعالى نعمت العلماء ، ثم تلا هذه الآية . ذكره الطبري أيضاً . والأذقان جمع ذقن ، وهو مجتمع الفقهاء . وقال الحسن : الأذقان عبارة عن الخلق ، أى يضعونها على الأرض في حال السجود ، وهو غاية التواضع . واللام بمعنى على ؛ تقول سقط لفيه أى على فيه . وقال ابن عباس : « ويخرون للأذقان سجداً » أى للوجوه ، وإنما خص الأذقان بالذكر لأن الذقن أقرب شيء من وجه الإنسان . قال ابن خزيمة : ولا يجوز السجود على الذقن ؛ لأن الذقن ها هنا عبارة عن الوجه ، وقد يبرأ بالشئ عما جاوره وببعضه من . جميعه ؛ فيقال : خر لوجهه ساجداً وإن كان لم يسجد على خذّه ولا عينه . ألا ترى إلى قوله :

* نَحَرَصَرِمَا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْقَمِ *

فإنما أراد : نحر صريما على وجهه ويديه .

الثانية - قوله تعالى : ﴿يَبْكُونَ﴾ دليل على جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالى ، أو على معصيته في دين الله ، وأن ذلك لا يقطعها ولا يضرها . ذكر ابن المبارك عن حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء . وفي آداب أبي داود : وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء .

الثالثة - واختلف الفقهاء في الأئين ؛ فقال مالك : الأئين لا يقطع الصلاة للريض ، وأكرهه للصحيح ؛ وبه قال الثوري . وروى ابن الحكم عن مالك : التنحنح والأئين والتفخ لا يقطع الصلاة . وقال ابن القاسم : يقطع . وقال الشافعي : إن كان له حروف تُسمع ويُفهم يقطع الصلاة . وقال أبو حنيفة : إن كان من خوف الله لم يقطع ، وإن كان من وجع قطع . وروى عن أبي يوسف أن صلاته في ذلك كله تامة ؛ لأنه لا يضلومريض ولا ضعيف من أئين .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ تقدم القول في الخشوع في «البقرة» ^(١) ويأتي .

قوله تعالى : قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ سبب نزول هذه الآية أن المشركين سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو "يا الله يا رحمن" فقالوا : كان عهد يأمرنا بدهاء إله واحد وهو يدعو إلهين ؛ قاله ابن عباس . وقال مكحول : تهجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال في دعائه : "يا رحمن يا رحيم" فسمعه رجل

من المشركين ، وكان بالجماعة رجل يسمى الرحمن ، فقال ذلك السامع : ما بال مجد يدعو رحمان الجماعة . فزلت الآية مبيّنة أنهما اسمان لمسمى واحد ؛ فإن دعوتهم بالله فهو ذاك ، وإن دعوتهم بالرحمن فهو ذاك . وقيل : كانوا يكتبون في صدر الكتب : باسمك اللهم ؛ فزلت « إِنَّهُ مِنْ مُلَيَّانَ وَإِنَّهُ يُسَمَّى اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ »^(١) فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال المشركون : هذا الرحيم نرفه فب الرحمن ؛ فزلت الآية . وقيل : إن اليهود قالت : ما لنا لا نسمع في القرآن اسما هو في التوراة كثير ؛ يعنون الرحمن ؛ فزلت الآية . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « أَيُّ مَنْ تَدْعُو لَهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى » أى التى تقتضى أفضل الأوصاف وأشرف المعانى . وحسن الأسماء إنما يتوجه بتحسين الشرع ؛ لإطلاقها والنص عليها . وانضاف إلى ذلك أنها تقتضى معانى حسنا شريفة ، وهى بتوقيف لا يصح وضع اسم لله بنظر إلا بتوقيف من القرآن أو الحديث أو الإجماع . حسبا بيناه فى (الكتاب الأسمى فى شرح أسماء الله الحسنى) .

قوله تعالى : (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا) فيه مستطان :

الأولى — اختلفوا فى مذهب نزولها على خمسة أقوال :

الأول — ما روى ابن عباس فى قوله تعالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا » قال : زلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوار بمكة ، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ؛ فقال الله تعالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ » فيسمع المشركون قراءتك . « وَلَا تُخَافِتْ بِهَا » عن أصحابك . أسمعهم القرآن ولا تجهز ذلك الجهر . (وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) قال : يقول بين الجهر والخافت ؛ أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم . واللفظ لمسلم . والخافتة : خفض الصوت والسكون ؛ يقال لبيت إذا برّد : خفت . قال الشاعر :

لم يبق إلا نفس خافت • ومُقَلَّةٌ لإنسانها باهت

رَقَى لها الشامت مما بها • يَأْوِيحُ مِنْ بَرِّئِهِ الشَّامِت

الثاني — ما رواه مسلم أيضا عن عائشة في قوله عز وجل : « ولا تجهروا بصلاتك ولا تخافت بها » قالت : أنزل هذا في الدعاء .

الثالث — قال ابن سيرين : كان الأعراب يجهرون بتشهدهم فنزلت الآية في ذلك . قلت : وعلى هذا فتكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد ، وقد قال ابن مسعود : من السنة أن تخفي التشهد ، ذكره ابن المنذر .

الرابع — ما روى عن ابن سيرين أيضا أن أبا بكر رضي الله عنه كان يقرأ قراءته ، وكان عمر يجهر بها ، ف قيل لما في ذلك ؟ فقال أبو بكر : إنما أنا جريء ، وهو يعلم حاجتي إليه . وقال عمر : أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوُستَاني ، فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر : ارفع قليلا ، وقيل لعمر اخفض أنت قليلا ، ذكره الطبري وغيره .

الخامس — ما روى عن ابن عباس أيضا أن معناها ولا تجهروا بصلاة النهار ، ولا تخافتوا بصلاة الليل ، ذكره يحيى بن سلام والزهراوى . فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة في النوافل والفرائض ، فأما النوافل فالمصل غير في الجهر والسِر في الليل والنهار ، وكذلك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يفعل الأمرين جميعا . وأما الفرائض فحكها في القراءة معلوم ليلا ونهارا . وقول سادس — قال الحسن : يقول الله لا ترائي بصلاتك تحسنها في العلانية ولا تسيئها في السر . وقال ابن عباس : لا تصل مراثيا للناس ولا تدعها خافة الناس .

الثانية — عبر تعالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبر بالقراءة عن الصلاة في قوله : « وقرآن النجر إن قرآن النجر كان مشهودا » لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر ، لأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود فهي من جملة أجزائها ، فعبر بالجزء عن الجملة وبالجملة عن الجزء على عادة العرب في المجاز وهو كثير ، ومنه الحديث الصحيح : « قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بِنِي وَبَيْنَ عِبْدِي » أى قراءة الفاتحة على ما تقدم .

قوله تعالى : وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْضَ وَلَدًا ﴾ هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذا : عزيز وعيسى والملائكة ذرية الله سبحانه ؛ تعالى الله عن أقوالهم ! ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ لأنه واحد لا شريك له في ملكه ولا في عبادته . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ ﴾ قال مجاهد : المعنى لم يخالف أحدا ولا ابتغى نصر أحد ؛ أي لم يكن له ناصر يغيره من الذل فيكون مدافعا . وقال الكلبي : لم يكن له ولي من اليهود والنصارى ؛ لأنهم أذل الناس ، ردا لقولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه . وقال الحسن بن الفضل : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ » يعني لم يذل فيحتاج إلى ولي ولا ناصر لمزته وكبريائه . ﴿ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا ﴾ أي عظمه عظمة تامة . ويقال : أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال : الله أكبر ؛ أي صفة بأنه أكبر من كل شيء . قال الشاعر :

رأيتُ الله أكبر كل شيء * عاولة وأكثرهم جنودا

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل في الصلاة قال : « الله أكبر » وقد تقدم أول الكتاب . وقال عمر بن الخطاب . قول العبد الله أكبر خير من الدنيا وما فيها . وهذه الآية هي خاتمة التوراة . روى مُطَرِّف عن عبد الله بن كعب قال : افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام وختمت بخاتمة هذه السورة . وفي الخبر أنها آية العز ؛ رواه معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه « وقال الحمد لله الذي » الآية . وقال عبد الحميد بن واصل : سمعت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قرأ وقال الحمد لله الآية كتب الله له من الأجر مثل الأرض والجبال لأن الله تعالى يقول فيمن زعم أن له ولدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال خَرًّا » . وجاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر رجلا شكاً إليه بالدين بأن يقرأ « قل أَدْعُوا اللَّهَ أُوَدِّعُوا الرَّحْمَنَ » — إلى آخر السورة ثم يقول — توكلت على الحي الذي لا يموت ؛ ثلاث مرات .

تمت سورة الإمراء ، والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

تفسير سورة الكهف

وهي مكية في قول جميع المفسرين . وروى عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله « ^(١) جُرْأُهَا » ، والأول أصح . وروى في فضلها من حديث أنس أنه قال : من قرأ بها أُعْطِيَ نورا بين السماء والأرض ووُفِّي بها فتنة القبر . وقال إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك ملائكة عظمتها ما بين السماء والأرض لتأليها مثل ذلك » . قالوا : بلى يا رسول الله ؟ قال : « سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأُعْطِيَ نورا يبلغ السماء ووُفِّي فتنة الدجال » ذكره الثعلبي ، والمهدي أيضا بمعناه . وفي مسند الداريمى عن أبي سعيد الخدري قال : من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق . وفي صحيح مسلم عن أبي الترداء أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال » . وفي رواية « من أتمر الكهف » . وفي مسلم أيضا من حديث النواس بن سميان « من أدركه — يعنى الدجال — فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف » . وذكره الثعلبي . قال : سُمِرَ بن جندب قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظا لم تضره فتنة الدجال » . ومن قرأ السورة كلها دخل الجنة .

قوله تعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنْزِلَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكَثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا ﴾ ذكر ابن إسحاق أن قريشا بثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أبحار يهود وقالوا لها :

سَلَامٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَصِفًا لَمْ يَصِفْتَهُ وَأَخْبَرَاهُمْ بِقَوْلِهِ ؛ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْكَلَابِ الْأَوَّلُ ، وَعِنْدَهُمْ عِلْمٌ لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ ؛ نَخْرُجُ حَتَّى قَدِمَا الْمَدِينَةَ ، فَسَأَلَا أَحْبَارَ يَهُودَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَوَصَفَا لَمْ أَمْرُهُ ، وَأَخْبَرَاهُمْ بَعْضُ قَوْلِهِ ، وَقَالَا لَمْ ؛ إِنَّكُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ وَقَدْ جِئْنَاكُمْ لِنُخْبِرُوكُمْ عَنْ صَاحِبِنَا هَذَا . فَقَالَتْ لَهَا أَحْبَارُ يَهُودَ : سَأَلُوهُ عَنْ ثَلَاثٍ نَأْمُرُكُمْ بِهِنَ ، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ بِهِنَ فَهُوَ نَبِيٌّ مَرْسَلٌ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرَّجُلُ مُتَقَوِّلٌ ، فَرَوَا فِيهِ رَأْيَكُمْ ؛ وَسَلَوَهُ عَنْ ثَنِيَّةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ ، مَا كَانَ أَمْرُهُمْ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لَمْ حَدِيثٌ تَحَبَّبَ . وَسَلَوَهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَافٍ قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، مَا كَانَ تَبَوُّهُ . وَسَلَوَهُ عَنِ الرُّوحِ ، مَا هِيَ ؛ فَلِذَا أَخْبَرَكُمْ بِذَلِكَ فَاتَّبِعُوهُ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهُوَ رَجُلٌ مُتَقَوِّلٌ فَاصْنَعُوا فِي أَمْرِهِ مَا يَدُلُّكُمْ . فَأَقْبَلَ النَّصْرَبِيُّ الْحَارِثُ وَعَقِبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ حَتَّى قَدِمَا مَكَّةَ عَلَى قُرَيْشٍ فَقَالَا : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ! قَدْ جِئْنَاكُمْ بِفَضْلِ مَا يَنْبَغِيكُمْ وَيَنْبَغِي عِدَّةً — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — قَدْ أَمَرَنَا أَحْبَارُ يَهُودَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ أَشْيَاءَ آمَرُونَا بِهَا ، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ عَنْهَا فَهُوَ نَبِيٌّ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرَّجُلُ مُتَقَوِّلٌ ، فَرَوَا فِيهِ رَأْيَكُمْ . فَجَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ، أَخْبَرْنَا عَنْ ثَنِيَّةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ ، قَدْ كَانَتْ لَمْ قِصَّةٌ تَحَبَّبَ ، وَعَنْ رَجُلٍ كَانَ طَوَافًا قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَأَخْبَرَنَا عَنْ الرُّوحِ مَا هِيَ ؟ قَالَ فَقَالَ لَمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” أَخْبَرَكُمْ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ غَدًا “ وَلَمْ يَسْتَنْ . فَانْصَرَفُوا عَنْهُ ، فَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا يَزْعُمُونَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، لَا يُحَدِّثُ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ وَحْيًا وَلَا يَأْتِيهِ جِبْرِيلُ ، حَتَّى أَرْجَفَ أَهْلُ مَكَّةَ وَقَالُوا : وَعَدَنَا مُحَمَّدٌ غَدًا ، وَالْيَوْمَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، وَقَدْ أَصْبَحْنَا مِنْهَا لَا يُخْبِرُنَا بِشَيْءٍ مِمَّا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ ؛ وَحَتَّى أَحْزَنَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْكَثُ الْوَحْيِ عَنْهُ ، وَشَقَّ عَلَيْهِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ ، ثُمَّ جَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِسُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ فِيهَا مَعَانِيَتُهُ إِيَّاهُ عَلَى جِزْنِهِ عَلَيْهِمْ ، وَخَبَّرَهُ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ الثَّنِيَّةِ ، وَالرَّجُلِ الطَّوَّافِ وَالرُّوحِ . قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَذَكَرَ لِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَجِبْرِيلَ : ” لَقَدْ احْتَبَسْتُ عَنْكَ

(١) أَيْ لَمْ يَفْعَلْ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — إِنْ شَاءَ اللَّهُ . (٢) أَرْجَفَ الْقَوْمَ : خَاضُوا فِي الْأَخْبَارِ الْبَيْتَةَ وَذَكَرَ الْقَتَنَ .

يا جبريل حتى سُئِرْتَ ظَنًّا“ فقال له جبريل : « وما نَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ^(١) » . فافتتح السورة بتبارك وتعالى بحمده ، وذكر نبوة رسوله صلى الله عليه وسلم لما أنكروا عليه من ذلك فقال : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب » يعنى محمدا ، إنك رسول منى ، أى تحقيق لما سألوها عنه من نبوتك . « وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ جُوعًا قَيًّا » أى معتدلا لا اختلاف فيه . « لِنُنَبِّئَكَ بِمَا أَنشَأَ مِن لَّدُنْهُ » أى عاجل عقوبته فى الدنيا ، وهذا بابا إلهيا فى الآخرة ، أى من عند ربك الذى بعثك رسولا . « وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا » أى دار الخلد لا يموتون فيها ، الذين صدقوك بما جئت به مما كذبك به غيرهم ، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال . « وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا » يعنى قريشا فى قولهم : إنا نعبد الملائكة وهى بنات الله . « مَا لَهُمُ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِإِبْنِهِمْ » الذين أعظموا فراقهم وعيب دينهم . « كَبُرَتْ كَيْدَهُمْ أَن تَخْرِجَ مِنْ أَقْوَاهِمُ » أى لقولهم إن الملائكة بنات الله . « إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا . فَلَلْأَنفُسُ الْبَاطِلَةِ عَلَى أَقْوَاهِمُ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجوه منهم ، أى لا تفعل . قال ابن هشام : « باخع نفسك » مهلك نفسك ؛ فيما حدثنى أبو عبيدة . قال ذوالرمة :

أَلَا أَيُّهَا الْبَاخِعُ الْوَجْدُ نَفْسَهُ * بَشَى نَحْتَهُ عَنْ يَدَيْهِ الْمَقَادِرُ

وجمعا باخعون وبتعة . وهذا البيت فى قصيدة له . وتقول العرب : قد نَحْتُ لَهُ نَصْحِي ونَفْسِي ، أى جهدت له . « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أهيم أحسن عَمَلًا » قال ابن إسحاق : أى أيهم أتبع لأمرى وأعمل بطاعتي . « وَإِنَّا لَخالِصُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا » أى الأرض ، وإن ما عليها لغاي وزائل ، وإن المرجع إلى فأجزى كلاً بعمله ؛ فلا تأس ولا يحزنك ما ترى وتسمع فيها . قال ابن هشام : الصعيد وجه الأرض ، وجمعه صُعد . قال ذوالرمة يصف ظيئا صفيها :

(١) آية ٦٤ سورة مريم . (٢) سطلها :

لَمَيَّةُ الْمَلَلِ يُجْزَى دَوَارُ * حَقَّتْ السَّوَابِقُ بَعْدَنَا وَالْمَوَاطِرُ

كَأَنَّهُ بِالضُّمَّا تَرَى الصَّعِيدَ بِهِ * دَبَابَةٌ فِي عِظَامِ الرَّاسِ تُرْطُومُ^(١)
وهذا البيت في قصيدة له . والصعيد أيضا : الطريق ، وقد جاء في الحديث : " إياكم
والعودة على الضمعات " يريد الطرق . والجُرْز : الأرض التي لا تنبت شيئا ، وجمعها
أجراز . ويقال : سَنَةٌ جُرْزٌ وَسُنُونُ أَجْرَازٍ ، وهي التي لا يكون فيها مطر . وتكون فيها جدوبة
ويعس وشنة . قال ذو الرقة يصف إبلا :

طَوَى النَّحْزُ وَالْأَجْرَازُ مَا فِي بَطُونِهَا * فَاقْبَيْتِ إِلَّا الضُّلُوعَ الْجَرَاشِعَ^(٢)

قال ابن إسحاق : ثم استقبل قصة الخبر فيها سأله عنه من شأن الفتية فقال : « أُمُّ
حَسِبْتُ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا » أى قد كان من آياتي فيما وضعت
على العباد من محجتي ما هو أعجب من ذلك . قال ابن هشام : والرقيم الكتاب الذي رُقِمَ
بغيرهم ، وجمعه رُقْمٌ ، قال السَّجَّاج :

* وَمُسْتَقَرُّ الْمَصْحَفِ الْمُرْقَمِ *

وهذا البيت في أرجوزة له . قال ابن إسحاق : ثم قال « إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ
فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ
سِنِينَ عَدَدًا . ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِنَا بُرْهَانًا » . ثم قال : « نَحْنُ نَقُصُّ
عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ » أى بصدق الخبر « إِنَّهُمْ قَتِيلَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَى
قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ لَهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا
ضَلُّطًا » أى لم يشركوا بى كما أشركتم بى ما ليس لكم به علم . قال ابن هشام : وَالشُّطُطُ
الضُّلُوعُ ومجاوزة الحق . قال أحمش بن قيس بن ثعلبة :

أَتَنْتَهَوْنَ وَلَا يَنْهَى ذِي شَطِيطٍ * كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَّيْتُ وَالْفَتْلُ

(١) يعنى بالدبابة : النحر . والنحوظوم : النحر ومقوتها . (٢) مغلها :

أمن رُمِّت من نحره منزلة * ماء الصبابة من عينك مسجوم

(٣) للنحر : الضرب والدفع . والجراشع : الغلاظ ، الواحد جرشع . (٤) مغلها :

يأدار سلهى يأكلهى ثم أسلهى * بسمم أرعن بين سمسم

وهذا البيت في قصيدة له . قال ابن إسحاق ^(١) : « هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً أَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ » . قال ابن إسحاق : أى بحجة بالغة . « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . وَإِذْ أَعْرَضُوا عَنْهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ بِنَشْرِكُمْ رَبِّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَسَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا . وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي بَحْوَةٍ مِنْهُ » . قال ابن هشام : تراور تيل ، وهو من الزور . وقال أبو الزحف الكلبي يصف بلدا :

جَدَّبَ الْمُنْدَى مِنْ هَوَانِ أَزُورٍ * يُنْضِي الْمَطَايَا خُمْسَ الْعَشْرِ ^(٢)

وهذان البيتان في أرجوزة له . و « تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ » تجاوزهم وتركهم عن شمالها . قال ذو الرمة :

إِلَى طُعْنٍ يَقْرِضُنْ أَقْوَارَ مُشْرِفٍ * شِمَالًا وَعَنْ أَيْمَانِنِ الْفَوَارِسِ ^(٣)

وهذا البيت في قصيدة له . والفجوة : السعة ، وجمعها الفجاء . قال الشاعر :

الْبَسْتَ قَوْمَكَ عِزَّةً وَمَنْقَصَةً * حَتَّى أَيْبَحُوا وَحَلُّوا بِقُوَّةِ الدَّارِ ^(٤)

« ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ » أى في الحجة على من عرف ذلك من أمودهم من أهل الكتاب من أمر هؤلاء بمسئلتك عنهم في صدق نبؤتك بتحقيق الخبر عنهم . « مَنْ يَدَّ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلَّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا » . وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود وقلبهم ذات اليمين وذات

(١) مطلقا : وقم هرة إن الركب مرتحل * وهل تطلق وداعا أما الرجل

(٢) في اللسان مادة « سمهد » أنه أبو الزحف الكلبي . واستدرك عليه مصحح اللسان بقوله : « قوله الكلبي نسبة لكن كأمير بله إرى » . وما يقوى أنه الكلبي (بالهاء) ما ذكره ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء أنه أبو الزحف بن عطاء بن الحظي ابن عم جبريل الشاعر . ومن الذين أن جبريا بن بن كليب . (٣) قبله :

* ودوت ليلي بله سمهد *

وبله سمهد : بعد مضلة واسع . والمندى : حيث يرتفع ساعة من النهار . والأزور : الطريق المروج . وأنضى البعير : هنله بكثرة السير . والحسن (بكر السنين) من أظناء الإبل ، أن ترى ثلاثة أيام وترد اليوم الرابع . والمشنز : الشديد . (٤) يني باليتين هنا شطرى الرجز .

(٥) القوز (بالفتح) : المال من الزبل كأنه جبل . والفوارس : دمال بالدهناء . (٦) مطلقا :

أَمْ تَسْأَلُ الْيَوْمَ الرُّسُومَ الْفَوَارِسِ * يَجُوزِي وَهْلَ تَمْدِي الْفَقَارِ الْبَاسِ

الشَّيَالِ وَكَلَّهْمُ بِأَسْطُ ذِرَاعَةٍ بِالْوَصِيدِ « قال ابن هشام : الوصيد الباب . قال العبدى وأسمه عبد بن وهب :^(١)

بارض فلاة لا يسد وصيدها * على ومعروف بها غير منكّر

وهذا البيت في أبيات له . والوصيد أيضا الفناء ، وجمعه وصائد ووُصِدَ ووُصِدَان .
« لَوِ اطْلَمْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا — إلى قوله — الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ » أهل السلطان
والملك منهم . « لَتَنَتَخِذَنَّ عَنْهُمْ مَسْجِدًا . يقولون » يعنى أجبار اليهود الذين أمرهم
بالمسئلة عنهم . « ثَلَاثَةَ رَأْسِهِمْ كُلُّهُمْ يَقُولُونَ خَمْسَةَ مِائَةٍ كُلُّهُمْ رَجُمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ
سَبْعَةً وَأَمْتُهُمْ كُلُّهُمْ قُلُ رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُحَارِبْهُمْ » أى لا تكبرهم .
« إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا » فإنهم لا علم لهم بهم . « وَلَا تَقُولُوا لشيءٍ
إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ، إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِي رَبِّي
لَأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا » أى لا تقولن لشيء سألوكم عنه كما قلت في هذا إني أخبركم غدا ،
واسئلين مشيئة الله ، وأذكُر ربك إذا نسيت وقُل عسى أن يهديني ربِّي لخبر ما سألتوني عنه
رشدا ، فإنك لا تدري ما أنا صانع في ذلك . « وَلِيُثِرَ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ سَنَةٍ وَأَرَدُوا يُنْسُوا »
أى سيقولون ذلك . « قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ابْصُرْ بِهِ وَاسْمِعْ
مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا » أى لم يخف عليه شيء مما سألوكم عنه .

قلت : هذا ما وقع في السيرة من خبر أصحاب الكهف ذكرناه على نسقهِ . ويأتى خبر
ذى القرنين ، ثم نعود إلى أوّل السورة فنقول :

قد تقدّم معنى الحمد لله . وزعم الأخفش والكسائي والفراء وأبو عبيد وجمهور المتأولين
أن في أوّل هذه السورة تقديمًا وتأخيرًا ، وأن المعنى : الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب قَيِّمًا
ولم يجعل له عوجًا . و« قَيِّمًا » نصب على الحال . وقال قتادة : الكلام على سياق من غير تقديم
ولا تأخير ، ومعناه : ولم يجعل له عوجًا ولكن جعلناه قَيِّمًا . وقول الضحاك فيه حُسْنٌ ، وأن

(١) في سيرة ابن هشام : « عبيد بن وهب » .

(٢) راجع سيرة ابن هشام ص ١٩٢ طبع أوردبا ، ج ١ ص ٣٢١ طبع مطبعة الحلبي .

المعنى : مستقيم ، أى مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فساد ولا تناقض . وقيل : « قيا » على الكتب السابقة يصنفها . وقيل : « قَيًّا » بالجمع أبداً . « عَوَجًا » مفعول به ؛ والعوج (بكسر العين) فى الدِّينِ والرأى والأمر والطريق . وفتحها فى الأجسام كالخشب والجدار ؛ وقد تقدّم . وليس فى القرآن عِوج ، أى عيب ، أى ليس متناقضاً مختلفاً ؛ كما قال تعالى : « وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ فِرِّ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »^(١) وقيل : أى لم يعمل مخلوقاً ؛ كما روى عن ابن عباس فى قوله تعالى « قُرْآنًا صَرِيحًا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ »^(٢) قال : غير مخلوق . وقال مقاتل : « عِوَجًا » اختلافاً . قال الشاعر :

أدوم بودى للصدى تكرماً * ولا خير فيمن كان فى الود أعوجاً

(لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا) أى لينذر مجد أو القرآن . وفيه إضمار ، أى لينذر الكافرين عقاب الله . وهذا العذاب الشديد قد يكون فى الدنيا وقد يكون فى الآخرة . (مِنْ لَدُنْهُ) أى من عنده . وقرأ أبو بكر عن عاصم « من لدنه » بإسكان الدال وإشمامها الضم وكسر النون ، وإلواء موصولة بباء . الباقون « لدنّه » بضم الدال وإسكان النون وضم المياء . قال الجوهري : وفى « لدن » ثلاث لغات : لدن ، ولدى ، ولد . وقال :

* مِنْ لَدُنْ حَيِّهِ إِلَى مُنْحَوْرِهِ^(٣)

الْمُنْحَوْرُ لَفَةٌ فِي الْمُنْحَوْرِ .

قوله تعالى : (وَيُنْشِرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْشُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ) أى بأن لهم . (أَجْرًا حَسَنًا) وهى الجنة . (مَا كَثِيرٌ) دائم . (فِيهِ أَبَدًا) لا إلى غاية . وإن حملت التثنية على البيان لم يحتج إلى الباء فى « بأن » . والأجر الحسن : الثواب العظيم الذى يؤدى إلى الجنة .

(١) أى معنى قوله « قيا » . (٢) راجع ج ٤ ص ١٥ طبعة أولى أوثانية . (٣) آية ٨٢ سورة النساء راجع ج ٥ ص ٢٨٨ (٤) آية ٢٨ سورة الزمر . (٥) هذا مجزئ لنيلان بن حرت . وصدره كما فى السان :

* يَسْتَوْعِبُ الْيَوْمَ مِنْ بَرِّهِ

والمُنْحَوْرُ (بالهاء المهملة وضم الميم) لفظة فى النحر ، وهو الصدر . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصول وصحاح الجوهري واللسان مادة « نحر » ولدن « بإثاء المعجمة » وهو الأنف . وقد استترك عليه ابن برى فقال : وصواب إنشاءه كما أشده سبوره « إلى منحوه » بإلواء . وصف الشاعر بعبارة أو فرسا بطول الدنى ؛ بطوله يستوعب من حبله الذى يوق به مقدار عينين فما بين طيه ونحوه . واليوع : الباع . والبحرير : الحبل .

قوله تعالى : وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿١٠﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) وهم اليهود ، قالوا عزير ابن الله ، والنصارى قالوا المسيح ابن الله ، وقریش قالت الملائكة بنات الله . فالإنذار في أول السورة عام ، وهذا خاص فيمن قال لله ولد . (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ) « من » صلة ، أى ما لهم بذلك القول علم ؛ لأنهم مقلدة قالوه بغير دليل . (وَلَا لِآبَائِهِمْ) أى أسلافهم . (كَبُرَتْ كَلِمَةً) « كلمة » نصب على البيان ؛ أى كبرت تلك الكلمة كلمة . وقرأ الحسن وبجاهد ويعقوب بن يعمر وابن أبي إسحاق « كلمة » بالرفع ؛ أى عظمت كلمة ؛ يعنى قولهم اتخذ الله ولدا . وعلى هذه القراءة فلا حاجة إلى إضمار . يقال : كبر الشيء إذا عظم . وكبر الرجل إذا أمس . (تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) في موضع الصفة . (إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) أى ما يقولون إلا كذبا .

قوله تعالى : فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ) « باخع » أى مهلك وقاتل ؛ وقد تقدم . « آثارهم » جمع أثر ، ويقال أثر . والمعنى : على أثر تولىهم وإعراضهم عنك . (إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا الْحَدِيثِ) أى القرآن . (آسَفًا) أى حزنا وغضبا على كفرهم ؛ وانتصب على التفسير .

قوله تعالى : إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا) فيه مسألان :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ « ما » و « زينة » مفعولان . والزينة كل ما على وجه الأرض ؛ فهو عموم لأنه دال على باريه . وقال ابن جبير عن ابن عباس : أراد بالزينة الرجال ؛ قال مجاهد . وروى عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاء والأمراء . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا » قال : العلماء زينة الأرض . وقالت فرقة : أراد الثَّم والملايس والثمار والخضرة والمياه ، ونحو هذا مما فيه زينة ؛ ولم يدخل فيه الجبال الصم وكل ما لا زينة فيه كالحيات والعقارب . والقول بالعموم أولى ، وأن كل ما على الأرض فيه زينة من جهة خلقه وصنعه وإحكامه . والآية بسط في التسلية ؛ أى لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنما إنما جعلنا ذلك آمتحاناً واختباراً لأهلها ؛ فمنهم من يتدبر ويؤمن ، ومنهم من يكفر ، ثم يوم القيامة بين أيديهم فلا يعظمون عليك كفرهم فإنما نجازيهم .

الثانية - معنى هذه الآية ينظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الدنيا خضرة حلوة والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون " . وقوله صلى الله عليه وسلم : " إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا " قال : وما زهرة الدنيا ؟ قال : " بركات الأرض " خرجها مسلم وغيره من حديث أبي سعيد الخدري . والمعنى : أن الدنيا مستطابة في ذوقها معجبة في منظرها كآثَرِ الْمُسْتَحَلِّ الْمُعِيبِ الْمُرَآى ؛ فأبتل الله بها عباده لينظر أيهم أحسن عملاً . أى من أزهد فيها وأترك لها ؛ ولا سبيل للعباد إلى معصية ما زينه الله إلا [أن] يعينه على ذلك . ولهذا كانت عمر يقول فيما ذكر البخارى : اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ نَفْرَحَ بِمَا زَيْتُهُ لَنَا ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ أَتَّقِيَ فِي حَقِّهِ . فدعا الله أن يعينه على إتقائه في حقه . وهذا معنى قوله عليه السلام : " فمن أخذ بطيب نفس بوزك له فيه ومن أخذ بإشراف نفس كان كالذى يأكل ولا يشبع " . وهكذا هو المكثّر من الدنيا لا يقنع بما يحصل له منها بل همته جمعها ؛ وذلك لعدم الفهم عن الله تعالى ورسوله ؛ فإن الفتنة معها حاصلةٌ وعدم السلامة ظالبةٌ ، وقد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنمه

الله بما آتاه . وقال ابن عطية : كان أبي رضى الله عنه يقول في قوله « أحسن عملا » : أحسن العمل أخذ بحق وإتقان في حق مع الإيمان ، وأداء القرائض واجتناب المحارم والإكثار من المندوب إليه .

قلت : هذا قول حسن ، وجيز في ألفاظه بليغ في معناه ، وقد جمعه النبي صلى الله عليه وسلم في لفظ واحد وهو قوله لسفيان بن عبد الله الثقفي لما قال : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك — في رواية : ضحك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » ترجمه مسلم . وقال سفيان الثوري : « أحسن عملا » أزهدهم فيها . وكذلك قال أبو عصام المسقلاني : « أحسن عملا » أترك لها . وقد اختلفت عبارات العلماء في الزهد ؛ فقال قوم : قصر الأمل وليس بأكل الخشن وليس العباء ؛ قاله سفيان الثوري . قل عابوا : وصدق رضى الله عنه ! فإن من قصر أمله لم يتأنق في المطعومات ولا يتفنن في الملبوسات ، وأخذ من الدنيا ما يتمر ، واجترأ منها بما يبلغ . وقال قوم : بفض المحمدة وحُب الثناء . وهو قول الأوزاعي ومن ذهب إليه . وقال قوم : ترك الدنيا كلها هو الزهد ؛ أحب تركها أم كره . وهو قول فضيل . وعن بشر بن الحارث قال : حب الدنيا حب لقاء الناس ، والزهد في الدنيا الزهد في لقاء الناس . وعن الفضيل أيضاً : علامة الزهد في الدنيا الزهد في الناس . وقال قوم : لا يكون الزاهد زاهداً حتى يكون ترك الدنيا أحب إليه من أخذها ؛ قاله إبراهيم بن أدهم . وقال قوم : الزهد أن تهذب في الدنيا بقلبك ؛ قاله ابن المبارك . وقالت فرقة : الزهد حب الموت . والقول الأول يعم هذه الأقوال بالمعنى فهو أولى .

قوله تعالى : وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

تقدم بيانه . وقال أبو سهل : تراباً لا نبات به ؛ كأنه قطع نباته . والجُرُز : القطع ، ومنه سنة جُرُز . قال الرازي :

« قد جرحتم السُّنُونُ الأجرار » .

والأرض الجُرُزُ التي لا نبات فيها ولا شيء من عمارة وغيرها ؛ كأنه قطع وأزيل . يعنى يوم القيامة ، فإن الأرض تكون مستوية لا مستتر فيها . النحاس : والجرز في اللغة الأرض التي لا نبات بها . قال الكسائي : يقال جَرَزَتِ الأرضُ تجرُزاً ، وجرزها قوم يجرُزونها إذا أكلوا كل ما جاء فيها من النبات والزرع فهي مجرزة وجرز .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ

أَيُّنَّا عَجَبًا ﴿٦٠﴾

مذهب سيويوه أن « أم » إذا جاءت دون أن يتقدمها ألف استفهام أنها بمعنى بل وألف الاستفهام ، وهى المنقطعة . وقيل : « أم » عطف على معنى الاستفهام فى ذلك ، أو بمعنى ألف الاستفهام على الإنكار . قال الطبرى : وهو تقرير للنبي صلى الله عليه وسلم على حسابه أن أصحاب الكهف كانوا عجباً ، بمعنى إنكار ذلك عليه ؛ أى لا يعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة ، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشيع ؛ هذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وآبن إسحاق . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أن المشركين سألوه عن فتية فُقدوا ، وعن ذى القرنين وعن الروح ، وأبطا الوحى على ما تقدم . فلما نزل قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : أحسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ؛ أى ليسوا بحسب من آياتنا ، بل فى آياتنا ما هو أعجب من خبرهم . الكلبي : خلق السموات والأرض أعجب من خبرهم . الضمك : ما أطلعتك عليه من الغيب أعجب . الجنيذ : شائك فى الإبراء أعجب . الماوردي : معنى الكلام التنى ؛ أى ما حسبت لولا إخبارنا . أبو سهل : استفهام تقرير ؛ أى أحسبت ذلك فإنهم عجب . والكهف : الثقب المتسع فى الجبل ؛ وما لم يتسع فهو غار . وحكى النقاش عن أنس بن مالك أنه قال : الكهف الجبل ؛ وهذا خبر شهير فى اللغة .

واختلف الناس فى الرقيم ؛ فقال ابن عباس : كل شيء فى القرآن أعلمه إلا أربعة : غسلين وحنان والأقواء والرقيم . ومثل مرة عن الرقيم فقال : زعم كعب أنها قرية نرجوا (١) فى الكلمة أربع لغات : جرز ، جرز ، جرز ، جرز .

منها . وقال مجاهد : الرقيم وايد . وقال السدي : الرقيم الصخرة التي كانت على الكهف .
وقال ابن زيد : الرقيم كتاب غم الله علينا أمره ، ولم يشرح لنا قصته . وقالت فرقة : الرقيم
كتاب في لوح من نحاس . وقال ابن عباس : في لوح من رصاص كتب فيه القوم الكفار
الذين فر الغتية منهم قصبتهم وجعلوها تاريخا لهم ، ذكروا وقت قدومهم ، وكما كانوا ، وبين من
كانوا . وكذا قال الفراء ، قال : الرقيم لوح من رصاص كتب فيه أسماءهم وأنسابهم ودينهم
وعمن هربوا . قال ابن عطية : ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوما مؤرخين للحوادث ،
وذلك من نسل الملكة ؛ وهو أمر مفيد . وهذه الأقوال مأخوذة من الرقيم ، ومنه كتاب
مرقوم . ومنه الأرقم لتخطيطه . ومنه رقعة الوادي ؛ أي مكان جرى الماء وأعطاه .
وما روى عن ابن عباس ليس يمتناقص ؛ لأن القول الأول إنما سمعه من كعب . والقول الثاني
يجوز أن يكون عرف الرقيم بعده . وروى عنه سعيد بن جبير قال : ذكر ابن عباس أصحاب
الكهف فقال : إن الغتية قد قُتِلوا فطلبهم أهلهم فلم يجدوهم فرفع ذلك إلى الملك فقال :
ليكون لهم نيا ، وأجبر لونا من رصاص فكتب فيه أسماءهم وجعله في خزانته ؛ فذلك اللوح
هو الرقيم . وقيل : إن مؤمنين كانوا في بيت الملك فكتبنا شأن الغتية وأسمائهم وأنسابهم في لوح
من رصاص ثم جعلناه في تابوت من نحاس وجعلناه في البليان فالفه أعلم . وعن ابن عباس أيضا :
الرقيم كتاب مرقوم كان عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام .
وقال النقاش عن قتادة : الرقيم دراهمهم . وقال أنس بن مالك والشعمي : الرقيم كلهم .
وقال عكرمة : الرقيم الدواة . وقيل : الرقيم اللوح من الذهب تحت الجدار الذي أقامه الخضر .
وقيل : الرقيم أصحاب النار الذي أنطبق عليهم ؛ فذكر كل واحد منهم أصلح عمله .

قلت : وفي هذا خبر معروف أخرجه الصحيحان ، وإليه نحا البخاري . وقال قوم :
أخبر الله عن أصحاب الكهف ، ولم يخبر عن أصحاب الرقيم بشيء . وقال الضحاك : الرقيم بلدة
بالروم فيها غار فيه أحد وعشرون نفسا كانوا نيام على هيئة أصحاب الكهف ، فقل هذا هم

(١) راجع صحيح مسلم ج ٨ ص ٨٩ طبع الانشأة . وقرئ التسلل على صحيح البخاري ج ٢ ص ٢١٧ .
ج ٥ ص ٥٠٩ و ج ٥ ص ٥ طبع يولاق .

فَتِيَّةٌ آخَرُونَ جرى لهم ما جرى لأصحاب الكهف . والله أعلم . وقيل : الرقيم وادٍ دون فلسطين فيه الكهف ، مأخوذ من رَقَّة الوادي وهي موضع الماء ، يقال : طليك بالرقَّة ودع الضَّفَّة ؛ ذكره الفرنزوي . قال ابن عطية : وبالشام على ما سمعت به من ناس كثير [كهف] فيه موتى ، يزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ومعهم كَلْبٌ رَقَّة . وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تسمى لَوْشَة كهف فيه موتى ومعهم كَلْبٌ رَقَّة ، وأكثرهم قد تجرد لحمه وبعضهم متعاسك ، وقد مضت القرون السالفة ولم يجد من علم شأنهم ^(١) . وإشارة . يزعم ناس أنهم أصحاب الكهف ، دخلت إليهم ورأيتهم سنة أربع وخمسة وأهم بهذه الحالة ، وعليهم مسجد ، وقريب منهم بناء رومي يسمى الرقيم ، كأنه قصر مُحَلَّق قد بقي بعض جدرانها ، وهو في فلاة من الأرض خربة ، وباعلى غرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينة دَقْيُوس ، وجدنا في آثارها خرائب من قبور ونحوها .

قلت : ما ذكر من رقيته لم بالأندلس وإنما هم غيرهم ؛ لأن الله تعالى يقول في حق أصحاب الكهف : «لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا» . وقال ابن عباس لما وية لما أراد برقيتهم : قد منع الله من هو خير منك عن ذلك ؛ وسيأتي في آخر القصة . وقال مجاهد في قوله «كانوا من آياتنا عجبا» قال : هم عَجَبٌ . كذا روى ابن جرير عنه ؛ يذهب إلى أنه ليس بإنكار على النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون عنده أنهم عَجَبٌ . وروى ابن نجيم عنه قال : يقول ليس بأعجب آياتنا .

قوله تعالى : إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ) روى أنهم قوم من أبناء أشراف مدينة دقيوس الملك الكافر ، ويقال فيه دقيوس ، وروى أنهم كانوا مطوقين بمسودين

(١) الإشارة : البقية .

بالذهب ذوى ذوائب، وهم من الروم واتبعوا دين عيسى . وقيل : كانوا قبل عيسى .
 واهه أعلم . وقال ابن عباس : إن ملكاً من الملوك يقال له دقيانوس ظهر على مدينة من مدائن
 الروم يقال لها أنسوس . وقيل هى طرسوس وكان بعد زمن عيسى عليه السلام فأمر بعبادة
 الأصنام فدعا أهلها إلى عبادة الأصنام ، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله سرّاً ، فرُفع خبرهم
 إلى الملك وخافوه فهربوا ليلاً ، ومروا براع معه كلب فتبعهم فأَوَّأوا إلى الكهف فتبعهم الملك
 إلى فم النار ، فوجد أثر دخولهم ولم يجد أثر خروجهم ، فدخلوا فأعصى الله أبصارهم فلم يروا شيئاً ،
 فقال الملك : سُدُّوا عليهم باب النار حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً . وروى مجاهد عن ابن عباس
 أيضاً أن هؤلاء الفتية كانوا في دين ملك يعبد الأصنام ويذبح لها ويكفر بالله ، وقد تابعه على
 ذلك أهل المدينة ، فوقع للفتية علم من بعض الحواريين — حسبما ذكر النقاش أو من مؤمنى
 الأعم قبلهم — قاموا بالله ورأوا ببصائرهم قبيح فعل الناس ، فأخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة
 الله ، فرُفع أمرهم إلى الملك وقيل له : إنهم قد فارقوا دينك واستخفوا أهلكم وكفروا بها ،
 فاستحضرهم الملك إلى مجلسه وأمرهم باتباع دينه والذبح لآلهته ، وتوعدهم على فراق ذلك
 بالقتل ، فقالوا له فيما روى : « رَبَّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ — إلى قوله — وَإِذِ اعْتَرَقْنَاهُمْ » .
 وروى أنهم قالوا نحو هذا الكلام وليس به ، فقال لهم الملك : إنكم شبان أغمار لا عقول لكم ،
 وأنا لا أعجل بكم بل أستاذي فأذهبوا إلى منازلكم ودبروا رأيكم وأرجعوا إلى أمري ، وضرب
 لهم في ذلك أجلاً ، ثم إنه سافر خلال الأجل فتشاور الفتية في الهروب بأديانهم ، فقال لهم
 أحدهم : إني أعرف كهفاً في جبل كذا ، كان أبى يدخل فيه غنمه فلنذهب فلنتخف فيه
 حتى يفتح الله لنا ، فخرجوا فيما روى يلبون بالصَّوْبِحَانِ وَالْكُرَّةَ ، وهم يدرجونها إلى نحو
 طريقهم لئلا يشعر الناس بهم . وروى أنهم كانوا مُتَّقِينَ فحضر عيدٌ خرجوا إليه فركبوا
 في جملة الناس ، ثم أخذوا باللعب بالصَّوْبِحَانِ حتى خَلَصُوا بذلك . وروى وهب بن منبه أن
 أول أمرهم إنما كان حوارى لعيسى بن مريم جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولها ،
 فآثر نفسه من صاحب الحمام وكان يعمل فيه ، فرأى صاحب الحمام في أعماله بركة عظيمة ،

فأتى إليه بكل أمره، وعرف ذلك الرجل فتياً من المدينة فعرفهم الله تعالى فأمنوا به واتبعوه على دينه، وأشهرت خطبتهم به؛ فأتى يوماً إلى ذلك الحمام ولقد الملك بأمرأة أراد الخلوة بها، فتناه ذلك الحواري فأتته، ثم جاء مرة أخرى فتناه فشتمه، وأمضى عزمه في دخول الحمام مع البغي، فدخل فأتا فيه جميعاً؛ فأتهم ذلك الحواري وأصحابه بقتلها، ففروا جميعاً حتى دخلوا الكهف . وقيل في خروجهم غير هذا .

وأما الكلب . فروى أنه كان كلب صيد لهم ، وروى أنهم وجدوا في طريقهم زاعياً له . كلب . فأتبعهم الراعي على رأيهم وذهب الكلب معهم ؛ قاله ابن عباس . وأسم الكلب جمران وقيل قطمين .

وأما أسماء أهل الكهف فأعجمية، والسند في معرفتها واه . والذي ذكره الطبري هي هذه : مكسمينا وهو أكبرهم والمتكلم عنهم ، وحسبيلينا ويمليخا ، وهو الذي مضى بالورق إلى المدينة عند بشهم من رقتهم ، ومرطوس وكشوطوش وديفوس ويطونس وبيرونس . قال مقاتل : وكان الكلب لمكسمينا ، وكان أسمهم وصاحب غنم .

الثانية — هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة . وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم فاراً بدينه ، وكذلك أصحابه ، وجلس في الغار حسبما تقدم في سورة « النحل » .^(١) وقد نص الله تعالى على ذلك في « براءة » وقد تقدم .^(٢) وهجروا أوطانهم وتركوا أرضهم وديارهم وأهلهم وأولادهم وقرباتهم وإخوانهم ، رجا السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين . فسكنى الجبال ودخول الغيران ، والعزلة عن الخلق والافتراق بالخالق ، وجواز الفرار من الظالم هي ستة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء . وقد فضّل رسول الله صلى الله عليه وسلم العزلة ، وفضلها جماعة العلماء لا سيما عند ظهور الفتن وفساد الناس ، وقد نص الله تعالى عليها في كتابه فقال : « فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ » .

(١) - راجع ص ١٥٤ من هذا الجزء . (٢) - راجع ص ٨٣ و ١٤٣ وما بعدها .

قال العلماء، الاعتزال عن الناس يكون مرة في الجبال والشعاب، ومرة في السواحل والرباط، ومرة في البيوت، وقد جاء في الخبر: "إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكُتِّب لسانك". ولم يخص موضعا من موضع. وقد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك، لأن كنت بين أظهرهم. وقال ابن المبارك في تفسير العزلة: أن تكون مع القوم فإذا خاضوا في ذكر الله خفض معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فأسكت. وروى البغوي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم". وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "نعم صوامع المؤمنين بيوتهم" من مراسل الحسن وغيره. وقال عقبة بن عامر لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما النجاة يا رسول الله؟ فقال: "بإعقابك أسسك عليك لسانك وليسَعَكَ يَدُكَ وأَبَكَ على خطيئتك". وقال صلى الله عليه وسلم: "يأتي على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم يقيم بها شَعَفَ الجبال ومواقع القطر يقرّ بدينه من الفتن". خرجه البخاري. وذكر علي بن سعد عن أنس بن ماري وأبو داود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كانت سنة ثمانين ومائة فقد حلت لأمتي العزبة والعزلة والترهب في رؤوس الجبال". وذكر أيضا علي بن سعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن برفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من قرّ بدينه من شائق إلى شائق أو هجر إلى هجر فإذا كان ذلك لم تنل المعيشة إلا بمصيبة الله فإذا كان ذلك حلت العزبة". قالوا: "يا رسول الله، كيف تنحل العزبة وأنت تأمرنا بالترويح؟ قال: "إذا كان ذلك كان فساد الرجل على يدي أبويه فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي زوجته فإن لم تكن له زوجة كان هلاكه على يدي ولده فإن لم يكن له ولد كان هلاكه على يدي القرابات والجيران". قالوا: "وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: "يسيرونه بضيق المعيشة ويكفونه ما لا يطيق فمند ذلك يورد نفسه الموارد التي يهلك فيها".

قلت : أحوال الناس في هذا الباب تختلف ، فُرب رجل تكون له قوة على سكنى الكهوف والغيران في الجبال ، وهي أرفع الأحوال لأنها الحالة التي اختارها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في بداية أمره ، ونص عليها في كتابه مخبرا عن الفتية ، فقال : « وإذ أمتزلجهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف » . ورب رجل تكون العزلة له في بيته أخف عليه وأسهل ؛ وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم . ورب رجل متوسط بينهما فيكون له من القوة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم ، فهو معهم في الظاهر ومخالف لهم في الباطن . وذكر ابن المبارك حديثا وُهب بن الورد قال : جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال : إن الناس وقعوا فيما فيه وقعوا ! وقد حدثت نفسي ألا أخالطهم . فقال : لا تفعل ! إنه لا بد لك من الناس ، ولا بد لهم منك ، ولك إليهم حواج ، ولم إليك حواج ، ولكن كن فيهم أصم مميعا ، أعمى بصيرا ، سكوتا تطوقا . وقد قيل : إن كل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معنى الجبال والشعاب ؛ مثل الاعتكاف في المساجد ، ولزوم السواحل للزباط والذكر ، ولزوم البيوت فرارا عن شرور الناس . وإنما جاءت الأحاديث بذكر الشعاب والجبال واتباع الغم — والله أعلم — لأن ذلك هو الأغلب في المواضع التي يُعتزل فيها ؛ فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معناه ؛ كما ذكرنا ، والله الموفق وبه العصمة . وروى عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ^(١)يجب ربك من راعي غنم في رأس شظية ^(٢)الجبل يؤذن بالصلاة ويصل فيقول الله عز وجل انظروا إلى عبدی يؤذن ويقيم الصلاة يخاف مني قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة » . نرجه النسائي .

الثالثة — قوله تعالى : « ^(٣)وهي لنا من أمرنا رشدا » لما قرأوا عن يطلبهم اشتغلوا بالدعاء وخلصوا إلى الله تعالى فقالوا : « ربنا آتانا من لدنك رحمة » أي مغفرة ورزقا . « ^(٤)وهي لنا من أمرنا رشدا » توفيقا للرشاد . وقال ابن عباس : مخرجا من الغار في سلامة . وقيل صوابا . ومن هذا المعنى أنه عليه السلام كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

(١) يجب : كسبح ؛ أي يرضى به ويشبهه . (٢) الشظية (فتح الشين وكسر الظاء) : قطعة من رقعة فدا من الجبل . (٣) أي إذا نزل بهم يوم أو أمابه غم . وفي الأصول : « إذا أجزه » والتصويب عن كتب الحديث .

قوله تعالى : فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾

عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم . وهذه من فصيحات القرآن التي أقوت العرب بالفصوح عن الإتيان بمثله . قال الزجاج : أى منعناهم عن أن يسمعوا ؛ لأن النائم إذا سمع انتبه . وقال ابن عباس : ضربنا على آذانهم بالنوم ؛ أى سدنا آذانهم عن قفوذ الأصوات إليها . وقيل : المعنى « ضربنا على آذانهم » أى فاستجبنا دعاءهم ، وصرفنا عنهم شر قومهم ، وأنماهم . والمعنى كله متقارب . وقال قُطْرُب : هذا كقول العرب ضرب الأمير على يد الرعية إذا منعهم الفساد . وضرب السيد على يد عبده المأذون له في التجارة إذا منعه من التصرف . قال الأسود بن يَمْقُر وكان ضيرياً :

ومن الحوادث لا أباك أثنى * ضُرِبْتُ على الأرض بالأسداد^(١)

وأما تخصيص الاذنان بالذكر فلأنها البوابة التي منها عظم فساد النوم ، وقبيل ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه ، ولا يُستحكم نوم إلا من تَغْلُ السمع . ومن ذِكر الأذن في النوم قوله صلى الله عليه وسلم : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنه » ترجمه الصحيح . أشار عليه السلام إلى رجل طويل النوم ، لا يقوم الليل . و « عَدَدًا » نعت للسنين ؛ أى معدودة ، والقصد به العبارة عن الكثير ؛ لأن القليل لا يحتاج إلى عدد لأنه قد عُرف . والعدد المصدر ، والعدد اسم المعدود كالتَّقْضِ والتَّحْيِطِ . وقال أبو عبيدة : « عددا » نصب على المصدر . ثم قال قوم : بين الله تعالى عدد تلك السنين من بعد فقال : « وَلَيُّوْا فِي كَوْنِهِمْ ثَلَاثَةَ سِنِينَ وَازْدَادُوا سَعًا » .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أُمَدًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ) أى من بعد نومهم . ويقال لمن أُخِي أو أُقِم من نومه مبعوث ؛ لأنه كان ممنوعاً من الانبعاث والتصرف .

(١) واحد الأسداد : سدة ، زهو ذهاب البحر ، يقول : سدت على الطريق ؛ أى هيمت على مذاهبي .

قوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى ﴾ « لنعلم » عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ومشاهدته ؛ وهذا على نحو كلام العرب ، أى لنعلم ذلك موجودا ، وإلا فقد كان الله تعالى علم أى الحزبين أحصى الأمد . وقرأ الزمخشري « ليعلم » بالياء . والحزبان الفريقان . والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفئة إذ ظنوا لبثهم قليلا . والحزب الثاني أهل المدينة الذين بُعثَ الفِئَةُ على عهدهم ، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفئة . وهذا قول الجمهور من المفسرين . وقالت فرقة : هما حزبان من الكافرين ، اختلفا في مدة أصحاب الكهف ؛ وقيل : هما حزبان من المؤمنين . وقيل غير ذلك مما لا يرتبط بالفاظ الآية . و « أحصى » فعل ماض . و « أمدًا » نصب على المفعول به ؛ قاله أبو علي . وقال الفراء : نصب على التمييز . وقال الزجاج : نصب على الظرف ، أى أى الحزبين أحصى للبث في الأمد ، والأمد الغاية . وقال مجاهد : « أمدًا » معناه عددا ، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب . وقال الطبري : « أمدًا » منصوب بـ « لبثوا » . ابن عطية : وهذا غير مُتَّبَعِهِ ، وأما من قال إنه نصب على التفسير فيلحقه من الاختلال أن أفعل لا يكون من فعل رباعي إلا في الشاذ ، و « أحصى » فعل رباعي . وقد يحتاج له بأن يقال : إن أفعل في الرباعي قد كثُرَ كقولك : ما أعطاه لئال وآناه لتخير . وقال في صفة حوضه صلى الله عليه وسلم : « ماؤه أبيض من اللبن » . وقال عمر بن الخطاب : فهو لما سواها أضيع .

قوله تعالى : ﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزُدَّنْهُمْ هُبْنًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ لما اقتضى قوله تعالى « لنعلم أى الحزبين أحصى » اختلافا وقع في أمد الفِئَةِ ، عقب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم بالحق الذي وقع . وقوله تعالى « إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ » أى شباب وأحداث حكم لهم بالقُوَّة حين آمنوا بلا واسطة ؛ كذلك قال أهل اللسان : رأس القُوَّة الإيعان . وقال الحنيد : القُوَّة بذل الندي وكف الأذى وترك الشكوى . وقيل : القُوَّة اجتناب المحارم واستعجال المكارم . وقيل غير هذا . وهذا القول حسن جدا ؛ لأنه يعم بالمعنى جميع ما قيل في القُوَّة .

قوله تعالى : ﴿ وَذَرْنَاهُمْ هُدًى ﴾ أى يترنهم للعمل الصالح ، من الاقطاع إلى الله تعالى ، ومباعدة الناس ، والزهد فى الدنيا ، وهذه زيادة على الإيمان . وقال السدى : زادهم هدى بكتاب الراعى حين طرده ورجوه مخافة أن ينفذ عليهم ويذبحهم ، فرفع الكلب يديه إلى السماء كالداعى فانطقه الله ، فقال : يا قوم ! لم تطردونى ، لم ترجعونى ! لم تضربونى ! فوالله لقد عرفت الله قبل أن تعرفوه بأربعين سنة ، فزادهم الله بذلك هدى .

قوله تعالى : وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ لَئِنْ لَمْ يَنْقُضْ لَنَا إِذَا شَاطَطًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ عبارة عن شدة عزيم وقوة صبر ، أعطاه الله لهم حتى قالوا بين يدي الكفار : « رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ لَئِنْ لَمْ يَنْقُضْ لَنَا إِذَا شَاطَطًا » . ولما كان الفزع وخور النفس يُشبه بالتناسب الانحلال حسن فى شدة النفس وقوة التصميم أن يُشبه الزبط ، ومنه يقال : فلان رابط الحاش ، إذا كان لا تفرق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها . ومنه الزبط على قلب أم موسى . وقوله تعالى : « وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ » ^(١) وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ فيه مسائلان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها — أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدي الملك الكافر — كما تقدم ، وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه ، ورفضوا فى ذات الله هيئته . والمعنى الثانى فيما قيل : إنهم أولاد عظماء تلك المدينة ، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعة ، فقال أسنهم : إني أجد فى نفسى أن ربى رب السموات والأرض ، فقالوا ونحن كذلك نجد فى أنفسنا . فقاموا جميعا فقالوا : « رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ لَئِنْ لَمْ يَنْقُضْ لَنَا إِذَا شَاطَطًا » .

أى لئن دعونا إلها غيره فقد قلنا إذا جوراً ومحالاً . والمعنى الثالث — أن يعبر بالقيام عن اتباعهم بالزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنازلة الناس كما يقول : قام فلان إلى أمر كذا إذا عزم عليه بناية الجدة .

الثانية — قال ابن عطية : تعلقت الصوفية في القيام والقول بقوله « إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض » .

قلت : وهذا تلقى غير صحيح ! هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته ، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته ، ثم هأموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم ، وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء . أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام ! وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان هيهات ! بينهما والله ما بين الأرض والسماء . ثم هذا حرام عند جماعة العلماء ، على ما يأتي بيانه في سورة لقمان إن شاء الله تعالى . وقد تقدم في « مباحات » عند قوله : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا » ما فيه كفاية . وقال الامام أبو بكر الطرسوسى وسئل عن مذهب الصوفية فقال : وأما الرقص والتواجد فأقول من أحدثه أصحاب السامري ، لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل ، على ما يأتي .

قوله تعالى : هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ مِنْ رَبِّكَ فَهُمْ لَكَاظِمُونَ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) أى قال بعضهم لبعض : هؤلاء قومنا ، أى أهل عمرنا وبلدنا ، عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة . (لَوْ لَا) أى هَلَا . (يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ مِنْ رَبِّكَ) أن بحجة على عبادتهم الصنم . وقيل : « عليهم » راجع إلى الآلهة ؛ أى هَلَا أقاموا بينة على الأصنام في كونها آلهة ، فقولهم « لولا » تحضيض بمعنى التعجيز ، وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يلتفت إلى دعواهم .

قوله تعالى : وَإِذْ أَعْرَضْتَهُمْ وَمَا يَعَبدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْرَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ أَعْرَضْتَهُمْ) قيل : هو من قول الله لهم . أى وإذ أَعْرَضْتَهُمْ فَأَوْرَا إلى الكهف . وقيل : هو من قول رئيسهم عليهما ؛ فيما ذكر ابن عطية . وقال الغزوى : رئيسهم مكسلبينا ، قال لهم ذلك ؛ أى إذ أَعْرَضْتَهُمْ وَأَعْرَضْتُمْ مَا يَعْبُدُونَ . ثم استغنى وقال (إِلَّا اللَّهَ) أى إنكم لم تتركوا عبادته ؛ فهو استثناء منقطع . قال ابن عطية : وهذا على تقدير إن الذين فزع أهل الكهف منهم لا يعرفون الله ، ولا علم لهم به ؛ وإنما يعتقدون الأصنام في ألوهيتهم فقط . وإن فرضنا أنهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل لكنهم يشركون أصنامهم معه في العبادة فالاستثناء متصل ؛ لأن الاعتزال وقع في كل ما يعبد الكفار إلا في جهة الله . وفي مصحف عبد الله بن مسعود « وما يعبدون من دون الله » . قال قتادة هذا تفسيرها .

قلت : ويدل على هذا ما ذكره أبو نعيم الحافظ عن عطاء الخراساني في قوله تعالى « وَإِذْ أَعْرَضْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ » قال : كان فتية من قوم يعبدون الله ويعبدون معه آلهة فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله .

ابن عطية : فعل ما قال قتادة تكون « إِلَّا » بمنزلة ضمير ، و « ما » من قوله « وما يعبدون إِلَّا اللَّهَ » في موضع نصب ، عطفا على الضمير في قوله « اعترضوهم » . ومضمن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض : إذا فارقتا الكفار وأفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوى ونتكل على الله ؛ فإنه سييسر لنا رحمته ، وينشرها علينا ، ويهيئ لنا من أمرنا مرفقا . وهذا كله دعاء بحسب الدنيا ، وعلى ثقة كانوا من الله في أمر آخرتهم . وقال أبو جعفر محمد بن علي ابن الحسين رضى الله عنه : كان أصحاب الكهف صياقلة ، واسم الكهف حيوم . (مرفقا) قرئ بكسر الميم وفتحها ، وهو ما يرتفق به . وكذلك مرفق الإنسان ومرفقه ؛ ومنهم من يجعل « المرفق » بفتح الميم الموضع كالمسجد ، وهما لغتان .

قوله تعالى : وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَنَحْسِبُهُمْ أَنْفَاقًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُجْبًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ) أى ترى أيها المخاطب الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم . والمعنى : إنك لو رأيتهم لرأيتهم كذا ؛ لا أن المخاطب رآهم على التحقيق . و« تزاور » تنتحى وتميل ؛ من الأزوار ، والأزور الميل . والأزور في العين المسائل النظر إلى ناحية ، ويستعمل في ضرب العين ؛ كما قال ابن أبي ربيعة :
 * وَجَنَى خَيْفَةَ الْقَوْمِ أَزُورُ ^(١) *

ومن اللفظة قول عنترة :

* فَأَزُورُ مَنْ وَقَعَ الْقَتْلُ بَلْبَانَهُ ^(٢) *

وفي حديث غزوة مؤتة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في سرير عبد الله بن رواحة أزوارا عن سرير جعفر وزيد بن حارثة . وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو « تزاور » بأدغام التاء في الزاى ، والأصل « تزارور » . وقرأ عاصم وحزمة والكسائي « تزاور » مخففة الزاى .

(١) والبيت بتمامه كما في ديوانه :

وتخفى عن الصوت أقبلت ريشة الـ * حجاب ومخفى خشية الحى أزور
 والحجاب (بالضم) : الحية . وقيل هذا البيت :

فلما فقدت الصوت منهم وأطلقت * مصابيح ريشت بالمشاء وأنثور
 وغاب قسركنت أهوى غيوه * ورقح دميأت رنقوم متمسور

(٢) وتمامه : * وشكا إلى يسيرة ونجهم *

والبلان (بالفتح) : الصلور . والتحصن : صوت قطع ليس بالصهيل .

وقرأ ابن عامر « تَرَوَّزَ » مثل تجر . وحكى الفراء « ترَوَّزَ » مثل تحمار ؛ كلها بمعنى واحد .
 (وَإِذَا غَرَبَتِ تَقَرُّضُهُمْ) قرأ الجمهور بالناء على معنى تركهم ؛ قاله مجاهد : وقال قتادة :
 تدعمهم . النحاس : وهذا معروف في اللغة ، حكى البصريون أنه يقال : قرضه يقرضه
 إذا تركه ؛ والمعنى : أنهم كانوا لا تصيبهم شمس ألبنة كرامة لهم ؛ وهو قول ابن عباس . يعني
 أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، أى يمين الكهف ، وإذا غربت تمزجهم
 ذات الشمال ، أى شمال الكهف ، فلا تصيبهم في ابتداء النهار ولا في آخر النهار . وكان كهفهم
 مستقبل بنات نعش في أرض الروم ، فكانت الشمس تميل عنهم طالعة وغاربة وجارية لا تبلغهم
 لتؤذيهم بحرها ، وتغير ألوانهم وتبلي ثيابهم . وقد قيل : إنه كان لكهفهم حاجب من جهة
 الجنوب ، وحاجب من جهة الدبور وهم في زاويته . وذهب الزجاج إلى أن فعل الشمس
 كان آية من الله ، دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك . وقرأت فرقة
 « يقرضهم » بالياء من القرض وهو القطع ، أى يقطعهم الكهف بظله من ضوء الشمس .
 وقيل : « وإذا غربت تقرضهم » أى يصيبهم يسير منها ، مأخوذ من قُرْاضة الذهب والفضة ،
 أى تعطيم الشمس اليسير من شعاعها . وقالوا : كان في مسأهم لهم بالعشي إصلاح لأجسادهم .
 وعلى الجملة فالآية في ذلك أن الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفة لا إلى كهف آخر
 يتأذون فيه بانسباط الشمس عليهم في معظم النهار . وعلى هذا فيمكن أن يكون صرف
 الشمس عنهم بإخلال غمام أو سبب آخر . والمقصود بيان حفظهم عن تضرع البلاء وتغير
 الأبدان والألوان إليهم ، والتأذى ببحر أو برد . (وَهُمْ فِي جَفْوَةٍ مِنْهُ) أى من الكهف . والفجوة
 المتسع ، وجمعها جفوات وجفأ ؛ مثل ركوة وركاء وركوات . وقال الشاعر :

ونحن ملأنا كل واد وجفوة * رجالا وخيلا غير ميل ولا عزل

أى كانوا بحيث يصيبهم نسيم الهواء . (ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) لطف بهم ، وهذا يقوى قول
 الزجاج . وقال أهل التفسير : كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون ؛ فكذلك كان الرأى يحسبهم
 أيقاظا . وقيل : تحسبهم أيقاظا لكثرة قلبهم كالمستيقظ في مضجعه . و (أَيْقَظَا)

جمع يفظ ويقظان، وهو المنتبه . (وَهُمْ رُقُودٌ) كقولهم : وهم قوم ركوع وسجود وقعود؛ فوصف الجمع بالمصدر . (وَنَقْلِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) قال ابن عباس : لثلاث تاكل الأرض لحومهم . قال أبو هريرة : كان لهم في كل عام ثقليتان . وقيل : في كل سنة مرة . وقال مجاهد : في كل سبع سنين مرة . وقالت فرقة : إنما قُلبوا في التسع الأواخر، وأما في الثلاثة فلا . وظاهر كلام المفسرين أن التقلب كان من فعل الله، ويجوز أن يكون من ملك بأمر الله، فيضاف إلى الله تعالى .

قوله تعالى : (وَكَلِّمُهُمْ بِسِطْرٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ) فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَكَلِّمُهُمْ) قال عمرو بن دينار : إن مما أخذ على العقرب ألا تضر أحدا [قَالَ] في ليله أو في نهاره : صلى الله على نوح . وإن مما أخذ على الكلب ألا يضر من حَمَل عليه [إذا قال] : وكلمهم باسط ذراعيه بالوصيد .

أكثر المفسرين على أنه كلب حقيقة، وكان لصيد أحدهم أو لزمه أو غنمه؛ على ما قال مقاتل . واختلف في لونه اختلافا كثيرا، ذكره الثعلبي . تحصيله : أي لون ذكرت أصبت؛ حتى قيل لون الجحر وقيل لون السماء . واختلف أيضا في اسمه؛ فمن على : ريان . ابن عباس : قطمير . الأوزاعي : مشير . عبد الله بن سلام : بسيط . كعب : صها . وهب : قيا . وقيل قطمير؛ ذكره الثعلبي . وكان اقتناء الكلب جائزا في وقتهم، كما هو عندنا اليوم جائز في شرعنا . وقال ابن عباس : هربوا ليلا، وكانوا سبعة فمزوا برأع كلب فأتبعهم على دينهم . وقال كعب : مروا بكنب فنبج لهم فطردوه فعاد فطردوه مرارا، فقسام الكلب على رجله ورفع يديه إلى السماء كهية الداعي، فتطق فقال : لا تخافوا مني ! أنا أحب أحب الله تعالى فناموا حتى أحرسكم .

الثانية — ورد في الصحيح عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من اقتنى كلبا إلا كلب صيد أو ماشية قصص من أجره كل يوم قيراطان" . وروى الصحيح أيضا عن

أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من آتخذ كلبا إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع أتقص من أجرة كل يوم قيراط " . قال الزهري : ودكر لابن عمر قول أبي هريرة فقال : يرحم الله أبا هريرة ! كان صاحب زرع . فقد دلت السنة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية . وجعل القص في أجر من اقتناها على غير ذلك من المنفعة ؛ إما لترويع الكلب المسلمين وتسويشه عليهم بنباحه ، أو لمنع دخول الملائكة البيت ، أو لنجاسته ، على ما يراه الشافعي ، أو لافتحام النبي عن اتخاذ مالا منفعة فيه ؛ والله أعلم . وقال في إحدى الروايتين " قيراطان " وفي الأخرى " قيراط " . وذلك يحتمل أن يكون في نوصين من الكلاب أحدهما أشد أذى من الآخر ، كالأسود الذي أمر عليه السلام بقتله ، ولم يدخله في الاستثناء حين نهى عن قتلها كما هو منصوص في حديث جابر ؛ أخرجه الصحيح . وقال : " عليكم بالأسود البهم ذي التقطين فإنه شيطان " . ويحتمل أن يكون ذلك لاختلاف المواضع ، فيكون ممسكه بالمدينة مثلا أو بمكة ينقص قيراطان وبغيرها قيراط . وأما المباح اتخاذه فلا ينقص ؛ كالفرس والهيئة . والله أعلم .

الثالثة — وكلب الماشية المباح اتخاذه عند مالك هو الذي يسرح معها ، لا الذي يحفظها في الدار من السراق . وكلب الزرع هو الذي يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السراق . وقد أجاز غير مالك اتخاذه لسراق الماشية والزرع . وقد تقدم في «المائدة» من أحكام الكلاب ما فيه كفاية ، والحمد لله .

الرابعة — قال ابن عطية : وحديث أبي رضى الله عنه قال سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة : إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم ؛ كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله .

قلت : إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخاطبته الصالحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وملا فاطنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين

المحبين للأولياء والصالحين ! بل في هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال ، المحبين للنبي صلى الله عليه وسلم وآله خير آل . روى الصحيح عن أنس بن مالك قال : بينا أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم خارجان من المسجد فلقينا رجلاً عند سدة المسجد فقال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أعددت لها " قال : فكأن الرجل آسكناً ، ثم قال : يا رسول الله ، ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكنني أحب الله ورسوله . قال : " فأت مع من أحببت " . في رواية قال أنس بن مالك : لما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي صلى الله عليه وسلم : " فأت مع من أحببت " . قال أنس : فأتنا أحب الله ورسوله وأباً بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم .

قلت : وهذا الذي تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذي نفس ، فكذلك تملقت أطلعتنا بذلك وإن كنا مقصرين ، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين ، كلب أحب قوماً فذكره الله معهم ! فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام ، وحب النبي صلى الله عليه وسلم ، « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » .

وقالت فرقة : لم يكن كلباً حقيقة ، وإنما كان أحدهم ، وكان قد قعد عند باب الغار طليعة^(١) لهم ، ... كما سمى النجم التابع لجوزاء كلباً ، لأنه منها كالكلب من الإنسان ، ويقال له : كلب الجبار . قال ابن عطية : فسمى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع أما لك هذا القول يضعفه ذكر بسط الذراعين فإنها في العرف من صفة الكلب حقيقة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب " . وقد حكى أبو عمر الموطأ في كتاب البواقيت

(١) في بعض نسخ الأصل بعد قوله « طليعة لهم » : « قال ابن عطية : فسمى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع » . وزاها غير لازمة . والذي في حياة الحيوان للدميري في اسم الكلب : « وقال فرقة : كان أحدهم وكان قد قعد عند باب الغار طليعة لهم ، فسمى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع من الناس كما سمى النجم التابع لجوزاء كلباً لأنه منها كالكلب من الإنسان ، وهذا القول يضعفه ... » الخ . (٢) الجبار : اسم الجوزاء .

أنه قرئ « وكالبهم باسط ذراعيه بالوصيد » . فيحتمل أن يريد بالكالب هذا الرجل على ما روى ؛ إذ بسط الذراعين والاصبوغ بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هي هيئة الريبة المستخفي بنفسه . ويحتمل أن يريد بالكالب الكلب . وقرأ جعفر بن محمد الصادق « وكالبهم » يعني صاحب الكلب .

قوله تعالى : ﴿ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضي ؛ لأنها حكاية حال ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب . والذراع من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى . ثم قيل : بسط ذراعيه لطول الملة . وقيل : نام الكلب ، وكان ذلك من الآيات . وقيل : نام مفتوح العين . والوصيد : الفناء ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وابن جبر ، أى فناء الكهف ، والجمع وصائد ووُصِد . وقيل الباب . وقاله ابن عباس أيضا . وأُشْد :

بأرض فضاء لا يُسَدَّ وصيدها * على ومعروفى بها غير منكر

وقد تقدم . وقال عطاء : عتبة الباب ، والباب الموصد هو المغلق . وقد أوصدت الباب وأصدته أى أغلقته . والوصيد : النبات المتقارب الأصول ، فهو مشترك ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ قرأ الجمهور بكسر الواو . والأعشى وبجي بن وثاب بضمها . ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ أى لو أشرفت عليهم لمربت منهم . ﴿ وَلَمَّيْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴾ أى لما حفهم الله تعالى من الرعب واكتشفهم من الهيبة . وقيل : لوحشة مكانهم ؛ وكأنهم آوأم الله إلى هذا المكان الوَحِش^(١) في الظاهر لينفر الناس عنهم . وقيل : كان الناس محجوبين عنهم بالرعب ، لا يمتسح أحد منهم على الدنو إليهم . وقيل : الفرار منهم لطول شعورهم وأظفارهم ؛ ذكره المهدوي والنحاس والزجاج والقشيري . وهذا بعيد ؛ لأنهم لما استيقظوا قال بعضهم لبعض : لبثنا يوما أو بعض يوم . ودل هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها ؛ إلا أن يقال : إنما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم . قال ابن عطية : والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم

آية ، فلم يُبَلِّ لهم ثوب ولم تُغَيَّر صفة ، ولم يُنْكَرَ الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء ، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهم . وقرأ نافع وابن كثير وابن عباس وأهل مكة والمدينة « لَمَلَّتْ مِنْهُمْ » بتشديد اللام على تضعيف المبالغة ؛ أى ملئت ثم ملئت . وقرأ الباقون « ملئت » بالتخفيف ، والتخفيف أشهر في اللغة . وقد جاء التثني في قول المُخَبِّل السَّعْدِي :

وَإِذْ قَتَلَ النَّهْانُ بِالنَّاسِ مُخْرِمًا * فَلَمَّ مِنْ كَعْبِ بْنِ عَوْفٍ سِلَاسِلَهُ

وقرأ الجمهور « رُعْبًا » بإسكان العين . وقرأ بضمها أبو جعفر . قال أبو حاتم : هما لغتان . و « فرارا » نصب على الحال و « رعبا » مفعول ثان أو تمييز .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنِسَاءِ لَوْا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَذَبْتُمْ قَالُوا لَيْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنِسَاءِ لَوْا بَيْنَهُمْ) البعث : التحريك عن سكون . والمعنى : كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدى وقلبناهم بنسائهم أيضا ؛ أى أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيبتهم في ثيابهم وأحوالهم . قال الشاعر :

وَفِيئَانِ صَدَقَ قَدْ بَعَثْتُ بِسُحْرَةٍ * فقاموا جميعا بين عاثٍ وُشَوَانِ^(١)

أى أيقظت . واللام في قوله « لِنِسَاءِ لَوْا » لام الصيرورة وهى لام العاقبة ؛ كقوله « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرًّا » فبعثهم لم يكن لأجل تساؤلهم .

(١) البيت لأمرئ القيس . والسحرة (بالضم) : السحر . وقيل أعلى السحر . وقيل : هو من ثلث اليل الآثر إلى طلوع الفجر .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وذلك أنهم دخلوه غُدوةً وبمشهم الله في آخر النهار ؛ فقال رئيسهم تملخوا أو مكساميننا : الله أعلم بالملئة .

قوله تعالى : ﴿ فَأَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرْقِكُمْ هَٰذَا إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قال ابن عباس : كانت ورقهم كأخفاف الربيع^(١) ؛ ذكره النحاس . وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم « بورقكم » بكسر الراء . وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم « بورقكم » بسكون الراء ، حذفوا الكسرة لنقلها ، وهما لغتان . وقرأ الزجاج « بورقكم » بكسر الواو وسكون الراء . ويروي أنهم انتهبوا جياعا ، وأن المبعوث هو تملخا ، كان أصغرهم ؛ فيما ذكر الفزري . والمدينة : أفسوس ويقال هي طرسوس ، وكان اسمها في الجاهلية أفسوس ؛ فلما جاء الاسلام سموها طرسوس . وقال ابن عباس : كان معهم دراهم عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ قال ابن عباس : أحل ذبيحة ؛ لأن أهل بلدهم كانوا يذبحون حل أسم الصنم ، وكان فيهم قوم يُحْفَنون إيمانهم . ابن عباس : كان عاقبتهم مجوسا . وقيل « أزكى طعاما » أى أكثر بركة . قيل : إنهم أمروه أن يشتري ما يُطْن أنه طعام اثنين أو ثلاثة لئلا يُطْلَع عليهم ، ثم إذا طُبِخ كفى جماعة ؛ ولهذا قيل ذلك الطعام الأرز . وقيل : كان زيبيا . وقيل تمرا ؛ فالله أعلم . وقيل : « أزكى » أطيب . وقيل أرخص . ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى مِنْهُ ﴾ أى قُبُوْت . ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أى فى دخول المدينة وشراء الطعام . ﴿ وَلَا يُسْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أى لا يغيرن . وقيل : إن ظُهر عليه فلا يوقعن إخوانه فى وقع فيه . ﴿ لَهُمْ أَنْ يَطْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجِعُكُمْ ﴾ قال الزجاج : معناه بالجماعة ، وهو أخبث القتل . وقيل : يرموكم بالسب والشتم ؛ والأول أصح ، لأنه كان مازما على قتلهم كما تقدم فى قصصهم . والرجم فيما سلف هى كانت على ما ذكر قبله [عقوبة^(٢)] مخالفة دين الناس إذ هى أشنى بجملة أهل ذلك الدين من حيث إنهم يشتركون فيها .

(١) الربيع (كسر) : القليل يخرج فى الربيع . (٢) زيادة يقتضيا السياق .

الثالثة - في هذه البُنية بالورق دليل على الوكالة وصحتها . وقد وكل على بن أبي طالب أخاه عقيلًا عند عثمان رضى الله عنه ؛ ولا خلاف فيها في الجملة . والوكالة معروفة في الجاهلية والإسلام ؛ ألا ترى إلى عبد الرحمن بن عوف كيف وكل أمية بن خلف بأهله وحاشيته بمكة ؛ أى يحفظهم ، وأمية مشرك ، والترم عبد الرحمن لأمية من حَفِظ حاشيته بالمدينة مثل ذلك مجازةً لصنعه . روى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف قال : كتبت أمية بن خلف كتابًا بأن يحفظنى في صاغيتى بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة ؛ فلما ذكرت الرحمن ؛ قال : لا أعرف الرحمن ! كَاتِبْنِي بِأَمْسِكَ الذى كان في الجاهلية ، فكاتبته عبد عمرو ... وذكر الحديث . قال الأصمعى : صاغية الرجل الذين يملون إليه و يأتونه ؛ وهو مأخوذ من صَغَا يَصْغُو وَيَصْنَى إذا مال ، وكل مائل إلى الشيء أو معه فقد صَغَا إليه وأصغى ؛ من كتاب الأفعال .

الرابعة - الوكالة عقدُ نيابةٍ ، أذن الله سبحانه فيه للحاجة إليه وقيام المصاحبة في ذلك ، إذ ليس كل أحد يقدر على تناول أموره إلا بمعونة من غيره أو بترقه فيستتيب من يريعه . وقد استدلت علمائنا على صحتها بآيات من الكتاب ، منها هذه الآية ، وقوله تعالى : « والعاملين عليها » وقوله « أَذْهَبُوا بِمِصْرِي هَذَا » . وأما من السنة فأحاديث كثيرة ؛ منها حديث عروة البارقي ، وقد تقدّم في آخر الأتعام ^(١) . روى جابر بن عبد الله قال أردت الخروج إلى خيبر فأنيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : إني أردت الخروج إلى خيبر ؛ فقال : « إذا أتيت وكل فخذ منه خمسة عشر وسقًا فإن آبتني منك آيةً فضع يدك على رقبتك ^(٢) » ترجمه أبو داود . والأحاديث كثيرة في هذه المعنى ، وفي إجماع الأمة على جوازها كفاية .

الخامسة - الوكالة جائزة في كل حق يجوز النيابة فيه ، فلو وكل الغاصب لم يحجز ، وكان هو الوكيل ؛ لأن كل محرم فعله لا يجوز النيابة فيه .

السادسة - في هذه الآية نُكْتةٌ بديعة ، وهي أن الوكالة إنما كانت مع التَّيقُّن خوف أن يشعروهم أحد لما كانوا عليه من الخوف على أنفسهم . وجواز توكيل ذوى العذر متفق

(١) راجع ج ٧ ص ١٥٦ طبعة أول أو ثانية . (٢) الترقوة : العظم الذى بين فقرة النحر والماتق .

عليه ؛ فأما من لا عذر له فالجهور على جوازها . وقال أبو حنيفة ومُحَنُّون : لا تجوز . قال ابن العربي : وكأنَّ مُحَنُّونَ تلقَّوه من أسد بن الفُرات فحكم به أيام قضائه ، ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت ؛ إنصافا منهم وإذلالا لهم ، وهو الحق ؛ فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل .

قلت : هذا حسن ؛ فأما أهل الدين والفضل فلهم أن يؤكِّلوا وإن كانوا حاضرين أخصاء . والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما خرَّجه الصحيحان وضميرهما عن أبي هريرة قال : كان لرجل على النبي صلى الله عليه وسلم من الإبل بخاء يتقاضاه فقال : "أعطوه" فطلبوا له سِنَةً فلم يجدوا إلا سِنَةً فوقها ؛ فقال : "أعطوه" فقال : "أوقيتني أوقى الله لك . قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن خيركم أحسنكم قضاء" . لفظ البخاري . فدل هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يُعطوا عنه السن التي كانت عليه ؛ وذلك توكيل منه لهم على ذلك ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم مريضا ولا مسافرا . وهذا يرد قول أبي حنيفة ومُحَنُّون في قولها : أنه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه ؛ وهذا الحديث خلاف قولها .

السابعة — قال ابن خُوَيزِمَنَدَاد : تضمَّنت هذه الآية جواز الشركة لأن الوريق كان لجميعهم . وتضمنت جواز الوكالة لأنهم يمشون من وكَّلوهم بالشراء . وتضمنت جواز أكل الرِّقَاءِ وخططهم طعامهم معا ، وإن كان بعضهم أكثر أَكْلاً من الآخر ؛ ومثله قوله تعالى : « وإن تَخَالُطُوهم فإخوانكم » حسبما تقدم بيانه في «البقرة» . ولهذا قال أصحابنا في المسكين يُتَصَدَّقُ عليه فيخطط بطعام لغنى ثم يأكل معه ؛ إن ذلك جائز . وقد قالوا في المضارب يخطط طعامه بطعام غيره ثم يأكل معه ؛ إن ذلك جائز . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلَّ من اشترى له أُمَحِّيَةً . قال ابن العربي : ليس في الآية دليل على ذلك ؛ لأنه يحتمل أن يكون كل واحد منهم قد أعطاه منفردا فلا يكون فيه اشتراك . ولا مُعَوَّل في هذه المسئلة

إلا على حديثين : أحدهما — أن ابن عمر مَرَّ بِقَوْمٍ يَأْكُلُونَ تَمْرًا فَقَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْإِقْتِرَانِ إِلَّا أَنْ يَسْتَأْذِنَ الرَّجُلُ أَخَاهُ . الثاني — حديث أبي عبيدة في جيش النخبط^(١) . وهذا دون الأول في الظهور ؛ لأنه يحتمل أن يكون أبو عبيدة يعطيهما كفاً من ذلك القوت ولا يجمعهم عليه .

قلت : وما يدل على خلاف هذا من الكتاب قوله تعالى : « وَإِنْ تَخَالَطَوْهُمْ فَإِيَّاهُمْ » وقوله « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا »^(٢) على ما يأتي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ^١ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا^(٣)

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ) أى أطمعنا عليهم وأظهرناهم . و « أَغْتَر » تعديّة غتر بالهمزة ، وأصل الغتر في القدم . (لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) يعنى الأمة المسلمة الذين بُعث أهل الكهف على عهدهم . وذلك أن دقيانوس مات ومضت قرون وملك أهل تلك الدار رجلاً صالحاً ، فأختلف أهل بلده في الحشر وبعث الأجساد من القبور ، فشك في ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا : إنما تحشر الأرواح والجسد تأكله الأرض . وقال بعضهم : تبعث الروح والجسد جميعاً ؛ فكبر ذلك على الملك وبقى حيران لا يدرى كيف يتبين أمره لهم ، حتى لبس المسيح وقعد على الرَّمَاد وتضرع إلى الله تعالى في حجة وبيان ، فأعثر الله على أهل الكهف ؛ فيقال : لأنهم لما بعثوا أحدهم يورقهم إلى المدينة ليأتيهم برزق منها أَسْتَنْكَرَ شَخْصَهُ وَأَسْتَنْكَرَتْ دِرَاهِمَهُ بَعْدَ الْعَهْدِ ، فحُمِلَ إلى الملك وكان صالحاً قد آمن وآمن من معه ، فلما

(١) سموا جيش النخبط لأنهم نهبوا في سرية إلى أرض جبهة فأصابهم جوع فأكلوا النخبط ؛ ففسوا به .

(٢) آية ٦١ سورة النور .

نظر إليه قال : لعل هذا من الفتيّة الذين خرجوا على عهد دقيانوس الملك ، فقد كنت أدعو الله أن يُرينهم ، وسأل الفتى فأخبره ؛ فمَرَّ الملك بذلك وقال : لعل الله قد بعث لكم آية ، فلنسرّ إلى الكهف معه ، فركب مع أهل المدينة إليهم ، فلما دنوا إلى الكهف قال تلميذا : أنا أدخل عليهم لئلا يرعبوا فدخل عليهم فأعلمهم الأمر وأن الأمة أمةُ إسلام ، فرؤى أنهم سُروا بذلك وخرجوا إلى الملك وعظّموه وعظّمهم ثم رجعوا إلى كهفهم . وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدثهم تلميذا ميتة الحق ، على ما يأتي . ورجع من كان شكّ في بعث الأجساد إلى اليقين . فهذا معنى «أعثرنا عليهم» . «ليعلموا أن وعد الله حق» أى يعلم الملك ورعيته أن القيامة حق والبعث حق «إذ يتنازعون بينهم أمرهم» . وإنما استدلوا بذلك الواحد على خبرهم وهاجوا الدخول عليهم فقال الملك : ابنوا عليهم بيّنا ؛ فقال الذين هم على دين الفتية : اتخذوا عليهم مسجدا . وروى أن طائفة كافرة قالت : نبيّ سبعة أو مضيفا ، فناعهم المسامون وقالوا لتخذنّ عليهم مسجدا . وروى أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيّين . وروى عن عبد الله بن عمر أن الله تعالى أعمى على الناس حيثنذ أثرهم وحجبهم عنهم ، فذلك دما إلى بناء البنيان ليكون معلّما لهم . وقيل : إن الملك أراد أن يدفنهم في صندوق من ذهب فاتاه آت منهم في المنام فقال : أردت أن تجعلنا في صندوق من ذهب فلا تفعل ؛ فإننا من التراب خلّقنا وإليه نمود ، فدعنا .

وتنشأ هنا مسائل متنوعة وجائرة ؛ فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها ، إلى غير ذلك مما تضمنته السنة من النهى عنه ممنوع لا يجوز ؛ لما روى أبو داود والترمذى عن ابن عباس قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج . قال الترمذى : وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة حديث ابن عباس حديث حسن . وروى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وآم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحيشة فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنا أولئك إذا كان فيهم

(١) في بعض الأصول : «عن عبيد بن عمير» .

الرجل الصالح قات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرارُ الخلق عند الله تعالى يوم القيامة . لفظ مسلم . قال علماؤنا : وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد . وروى الأئمة عن أبي هريرة الغنوي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها » لفظ مسلم . أى لا يتخذوها قبلة فتصلوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى ، فيؤدى إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام . فحذر النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك ، وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك فقال : « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بن عباس قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طَافَ بطرح تحميصة له على وجهه فإذا أعظم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا . وروى مسلم عن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُخصَّص القبر وأن يُقعد عليه وأن يُبنى عليه . وأخرجه أبو داود والترمذي أيضاً عن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُخصَّص القبور وأن يكتب عليها وأن يُبنى عليها وأن توطأ . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وروى الصحيح عن أبي الهيثم الأسدي قال قال لى علي بن أبي طالب : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته — فى رواية — ولا صورة إلا طمسها . وأخرجه أبو داود والترمذي . قال علماؤنا : ظاهره منع تسليم القبور ورفعها وأن تكون لاطئة . وقد قال به بعض أهل العلم . وذهب الجمهور إلى أن هذا الارتفاع المأمور بإزالته هو ما زاد على التسين ، ويبقى للقبر ما يعرف به ويحترم ، وذلك صفة قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقبر صاحبيه رضى الله عنهما — على ما ذكر مالك فى الموطأ — وقبر أبينا آدم صلى الله عليه وسلم ، على ما رواه الدارقطني .

(١) قوله « إذا أعظم » أى تسخن بالحمية وأخذ بنفسه من شدة الحر . (٢) أى فى حالة الطرح والكشف .

(٣) أى يحذر أنه أن يصنوا بقبره مثل صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم . (٤) قوله « إلا »

بتشديد الهمزة التحضيض . وقيل بفتحها التنبيه .

من حديث ابن عباس . وأما تعلق البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعله فتعجبا وتعظيما . فذلك يهدم ويزال ؛ فإن فيه استعمال زينة الدنيا في أول منازل الآخرة ، وتشبيهاً بمن كان يعظم القبور ويعبدها . وباعتبار هذه المعاني وظواهر النهى ينبغي أن يقال : هو حرام . والسنن في القبر : ارتفاعه قدر شبر ؛ مأخوذ من مسنم البعير . ويرش عليه بالماء لئلا ينثر بالريح . وقال الشافعي لا بأس أن يطئن القبر . وقال أبو حنيفة : لا يحصى القبر ولا يطئن ولا يرفع عليه بناء فيسقط . ولا بأس بوضع الأحجار لتكون علامة ؛ لما رواه أبو بكر الأثرم قال : حدثنا مسدد حدثنا نوح بن دُرَّاج عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد قال : كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تزور قبر حمزة كل جمعة وعاءته بصخرة ؛ ذكره أبو عمر .

وأما الجائزة — فالدفن في الثيابوت ؛ وهو جائز لا سيما في الأرض الرخوة . وروى أن دانيال صلوات الله عليه كان في تابوت من حجر ، وأن يوسف عليه السلام أوصى بأن يتخذ له تابوت من زجاج ويلقى في ركة^(١) مخافة أن يُعبد ، وبقى كذلك إلى زمان موسى صلوات الله عليهم اجمعين ؛ فدثته عليه عجوز فرفمه ووضعته في حظيرة إسحاق عليه السلام . وفي الصحيح عن سعد ابن أبي وقاص أنه قال في مرضه الذي هلك فيه : اتخذوا لي لحداً وأنصبوا عليّ اللبن نصيباً ؛ كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم . المجد : هو أن يشق في الأرض ثم يحفر قبر آخر في جانب الشق من جانب القبلة إن كانت الأرض صلبة يدخل فيه الميت ويسد عليه اللبن . وهو أفضل عندنا من الشق ؛ لأنه الذي اختاره الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم . وبه قال أبو حنيفة قال : السنة المجد . وقال الشافعي : الشق . ويكره الأثر في المجد . وقال الشافعي : لا بأس به لأنه نوع من الحجر . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ؛ لأن الأجر لإحكام البناء ، والقبر وما فيه للبر ، فلا يليق به الإحكام . وعلى هذا يسوّى بين الحجر والآجر . وقيل : إن الأجر أثر النار فيكون تفتؤلاً ؛ فعلى هذا يفرق بين الحجر والآجر . قالوا : ويستحب اللبن والقصب لما روى أنه وضع على قبر النبي صلى الله عليه وسلم حزمة من قصب . وحكى عن الشيخ الإمام

أبى بكر محمد بن الفضل الحنفى رحمه الله أنه يجوز اتخاذ التابوت في بلادهم لرخاوة الأرض .
وقال : لو اتخذنا تابوت من حديد فلا بأس به ؛ لكن ينبغي أن يفرش فيه التراب وتطين
الطبقة العليا بما يلى الميت ، ويُجعل اللين الخفيف على يمين الميت ويساره ليصير بمنزلة الخلد .
قلت : ومن هذا المعنى جعل القטיפفة في قبر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإن المدينة سيخة ،
قال شقران : أنا والله طرحت القטיפفة تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبر . قال
أبو عيسى الترمذى : حديث شقران حديث حسن غريب .

قوله تعالى : سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْبِهِمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ
كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءَ ظَهْرٍ
وَلَا تَسْتَفِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْبِهِمْ كَلْبُهُمْ) الضمير في « سيقولون » يراد به أهل
التوراة ومعاصري محمد صلى الله عليه وسلم . وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا
الاختلاف المنصوص . وقيل : المراد به النصارى ؛ فإن قوما منهم حضروا النبي صلى الله
عليه وسلم من تجران بحرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليعقوبية : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم .
وقالت النسطورية : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . وقال المسلمون : كانوا سبعة ثامنهم كلبهم .
وقيل : هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبي صلى الله عليه وسلم عن أصحاب
الكهف . والواو في قوله « وثامنهم كلبهم » طريق التحويلين أنها واو عطف دخلت في آخر
إخبار عن عددهم ؛ لتفصل أمرهم ، وتدل على أن هذا غاية ما قيل ، ولو سقطت لصح الكلام .
وقالت فرقة منها ابن خالويه : هي واو الثمانية . وحكى الثعلبي عن أبى بكر بن عيَّاش أن قريشا
كانت تقول في عددها ستة سبعة وثمانية ؛ فتدخل الواو في الثمانية . وحكى نحوه الثقال ، فقال :
(١) أرض سبعة : ذات ملح وزر .

إن قوما قالوا العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة ، فإذا احتيج إلى الزيادة عليها استوفف خبر آخر بإدخال الواو ، كقوله « التائبون العابدون — ثم قال — والتاهون عن المنكر والحافظون » .
يدل عليه أنه لما ذكر أبواب جهنم « حتى إذا جاءوها فُتحت أبوابها » بلا واو ، ولما ذكر الجنة قال : « وفتحت أبوابها » بالواو . وقال « خيرا منكن مسلمات » ثم قال « وأبكارا » فالسبعة نهاية العدد عندهم كالعشرة الآن عندنا . قال القشيري أبو نصر : ومثل هذا الكلام تحكي ، ومن أين السبعة نهاية عندهم ! ثم هو منقوض بقوله تعالى : « هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر » ولم يذكر الأسم الثامن بالواو . وقال قوم ممن صار إلى أن عددهم سبعة : إنما ذكر الواو في قوله « سبعة وثامنهم » لينبئه على أن هذا العدد هو الحق ، وأنه ميا بين للأعداد الأخر التي قال فيها أهل الكتاب ؛ ولهذا قال تعالى في الجنتين المتقدمتين « رجعا بالغيب » ولم يذكره في الجملة الثالثة ولم يقدم فيها بشيء ، فكأنه قال لنبئهم هم سبعة وثامنهم كلهم . والرجم : القول بالظن ، يقال لكل ما يُجرص : رَجِمَ فيه ومرجوم ومُرجِم ، كما قال :

وما الحرب إلا ما علمت وذُقت * وما هو عنها بالحديث ^(١) المرجم

قلت : قد ذكر المسوردي والنسفي : وقال ابن جريح ومحمد بن إسحاق كانوا ثمانية ، وجعلوا قوله تعالى « وثامنهم كلهم » أي صاحب كلهم . وهذا مما يقوى طريق التحويل في الواو ، وأنها كما قالوا . وقال القشيري : لم يذكر الواو في قوله : رابعهم سادسهم ، ولو كان بالعكس لكان جائزا ، فطلب الحكمة والعلة في مثل هذه الواو تكلف بعيد ، وهو كقوله في موضع آخر « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب ^(٢) معلوم » . وفي موضع آخر : « إلا لما ^(٣) مننرون . ذكروا » .

قوله تعالى : « قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ » أمر الله تعالى نبيه عليه السلام في هذه الآية أن يرد علم عدتهم إليه عز وجل . ثم أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل . والمراد به قوم من

(١) البيت من معلقة زهير . (٢) آية ٤ سورة الحجر . (٣) آية ٢٠٨ سورة الشعراء .

أهل الكتاب ؛ في قول عطاء . وكان ابن عباس يقول : أنا من ذلك القليل ، كانوا سبعة وثلاثين منهم ، ثم ذكر السبعة بأسمائهم ، والكلب اسمه قطمير كلب أنمر ، فوق القلطي^(١) ودون الكردى . وقال محمد بن سعيد بن المسيب : هو كلب صيني . والصحيح أنه زيبري . وقال : ما بقى بنيسابور محمات إلا كتب عنى هذا الحديث إلا من لم يقدر له . قال : وكتبه أبو عمرو الجيرى عنى .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أى لا تتجادل فى أصحاب الكهف إلا بما أوحىته إليك ؛ وهو رد علم عدتهم إلى الله تعالى . وقيل : معنى المراء الظاهر أن تقول : ليس كما تقولون ، ونحو هذا ، ولا تحتاج على أمر مقتدر فى ذلك . وفى هذا دليل على أن الله تعالى لم يبين لأحد مددكم فلهذا قال « إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا » أى ذاهبا ؛ كما قال :
* وَتِلْكَ شَكَاةُ ظَاهِرٍ عَنْكَ عَارِهَا *^(٢)

ولم يبح له فى هذه الآية أن يمارى ؛ ولكن قوله « إِلَّا مِرَاءً » استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب . سميت مراجعته لهم مراء ثم قيد بأنه ظاهر ؛ ففارق المراء الحقيقي المذموم . والضمير فى قوله « فيهم » عائد على أهل الكهف . وفى قوله « منهم » عائد على أهل الكتاب المعارضين . وقوله : « فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ » يعنى فى عدتهم ؛ وحذفت المدة لدلالة ظاهر القول عليها . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ روى أنه عليه السلام سأل نصارى تجران عنهم فنهى عن السؤال . وفى هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شىء من العلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ ﴿ ١٠١ ﴾ إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ وَآذَرَ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿ ١٠٢ ﴾

(١) القلطي (كرمي) : القصير من الناس والسنابير والكلاب . قال الدمري : « والقلطي : طب صيني » .

(٢) هذا مجزئ بيت لأبي ذؤيب . وصوره :

* وعيرها الراشون أنى أحبا *

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فيه مسائلان : الأولى — قال العلماء : عاتب الله تعالى نبيه عليه السلام على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفنية وذى القرنين : غدا أخبركم بجواب أسئلتكم ؛ ولم يستثن في ذلك . فاحتسب الوحي عنه خمسة عشر يوما حتى شق ذلك عليه وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة . وأمر في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور إني أفعل غدا كذا وكذا ، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل حتى لا يكون محققا لحكم الخبر ؛ فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذبا ، وإذا قال لأفعلن ذلك إن شاء الله نرجع عن أن يكون محققا للخبر عنه . واللام في قوله « لشيء » بمنزلة في ، أو كأنه قال لأجل شيء .

الثانية — قال ابن عطية : وتكلم الناس في هذه الآية في الاستثناء في اليقين ، والآية ليست في الإيمان وإنما هي في مسنة الاستثناء في غير اليقين . وقوله « إلا أن يشاء الله » في الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويحسبه الإيجاز ؛ تقديره : إلا أن يقول إلا أن يشاء الله ؛ أو إلا أن تقول إن شاء الله . فالمعنى : إلا أن تذكر مشيئة الله ؛ فليس « إلا أن يشاء الله » من القول الذي ينهي عنه .

قلت : ما اختاره ابن عطية وأرتضاه هو قول الكسائي والقرطبي والأخفش . وقال البصريون : المعنى إلا بمشيئة الله . فإذا قال الإنسان أنا أفعل هذا إن شاء الله فعناه بمشيئة الله . قال ابن عطية : وقالت فرقة « إلا أن يشاء الله » استثناء من قوله « ولا تقولن » . قال : وهذا قول حكاه الطبري وروى عليه ، وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألا يُحكي . وقد تقدم القول في الاستثناء في اليقين وحكمه في « المسألة » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ فيه مسألة واحدة ، وهو الأمر بالذكر بعد النسيان — واختلف في الذكر للمأمور به ؛ فقيل : هو قوله « وقل عسى أن ينسيك ربّي لأقرب من هذا رشدا » ، قال محمد الكوفي المفسر : إنها بالفاظها عما أمر أن يقولها كل

من لم يستن ، وإنها كفارة لنسيان الاستثناء . وقال الجمهور : هو دعاء مأثور به دون هذا التخصيص . وقيل : هو قوله « إن شاء الله » الذي كان نسيه عند يمينه . حكى عن ابن عباس أنه إن نسي الاستثناء ثم ذكر ولو بعد سنة لم يبحث إن كان حالفاً . وهو قول مجاهد . وحكى إسماعيل بن إسحاق ذلك عن أبي العالصة في قوله تعالى « وأذكر ربك إذا نسيت » قال : يستنقي إذا ذكره . الحسن : ما دام في مجلس الذكر . ابن عباس : مستنق ؛ ذكره الغزنوي قال : فيحمل على تدارك التبرك بالاستثناء للتخلص عن الإثم . فأما الاستثناء المفيد حكماً فلا يصح إلا متصلاً . السدي : أي كل صلاة نسيتها إذا ذكرها . وقيل : استن باسمه لئلا تنسى . وقيل : أذكره متى ما نسيت . وقيل : إذا نسيت شيئاً فأذكره يذكرك . وقيل : أذكره إذا نسيت غيره أو نسيت نفسك ؛ فذلك حقيقة الذكر . وهذه الآية غاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهي استفتاح كلام على الأصح ، وليست من الاستثناء في اليمين بشيء ، وهي بعد تم جميع أمته ؛ لأنه حكم يتردد في الناس لكثرة وقوعه . والله الموفق .

قوله تعالى : وَلَيُثْبِتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿١٥﴾

هذا خبر من الله تعالى عن مئة لبهم . وفي قراءة ابن مسعود « وقالوا لبثوا » . قال الطبري : إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإغثار عليهم إلى مدة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين ، فأخبر الله تعالى نبيه أن هذه المدة في كونهم نياماً ، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر . فأمر الله تعالى أن يرد علم ذلك إليه . قال ابن عطية : فقوله على هذا « لبثوا » الأول يريد في نوم الكهف ، و « لبثوا » الثاني يريد بعد الإغثار إلى مدة عهد صلى الله عليه وسلم ، أو إلى وقت عدهم بالبلاء . مجاهد : إلى وقت نزول القرآن ، الضحاك : إلى أن ماتوا . وقال بعضهم : إنه لما قال « وازدادوا تسعاً » لم يدرك الناس أي ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام . واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك ، فأمر الله تعالى برد العلم إليه في التسع ، فهي على هذا مبهمة . وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنها أعوام ، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعد عيسى

يسير وقد بقيت من الحوارين بقية . وقبل غير هذا على ما يأتي . قال القشيري : لا يفهم من التسع تسع ليال وتسع ساعات لسبق ذكر الستين ؛ كما تقول : حدى مائة درهم وخمسة ؛ والمفهوم منه خمسة دراهم . وقال أبو علي « وازدادوا تسعا » أى ازدادوا لبث تسع ؛ خذف . وقال الضحاك : لما نزلت « ولبنوا في كهفهم ثلثائة » قالوا ستين أم شهر أم جمع أم أيام ؛ فأنزل الله عز وجل « ستين » . وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلثائة سنة شمسية بحساب الأيام ؛ فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي ذكرت التسع ؛ إذ المفهوم عنده من الستين القمرية ؛ وهذه الزيادة هى ما بين الحسنيين . ونحوه ذكر الغزنوي . أى باختلاف سني الشمس والقمر ؛ لأنه يتفاوت في كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة مسنة فيكون في ثلثائة تسع ستين . وقرأ الجمهور « ثلثائة ستين » بثنتين مائة ونصب ستين ، على التقديم والتأخير ؛ أى ستين ثلثائة تقدم الصفة على الموصوف ، فتكون « ستين » على هذا بدلا أو عطف بيان . وقيل : على التفسير والتمييز . و « ستين » في موضع سنة . وقرأ حمزة والكسائي بإضافة مائة إلى ستين ، وترك التنوين ؛ كأنهم جعلوا ستين بمنزلة سنة إذ المعنى بهما واحد . قال أبو علي : هذه الأعداد التي تضاف في المشهور إلى الأحاد نحو ثلثائة رجل وثوب قد تضاف إلى المجموع . وفي مصحف عبد الله « ثلثائة سنة » . وقرأ الضحاك « ثلثائة سنون » بالواو . وقرأ أبو عمرو بخلاف « تسعا » بفتح التاء . وقرأ الجمهور بكسرها . وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة : التقدير ولبنوا في كهفهم ستين ثلثائة .

قوله تعالى : قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصُرْ بِهِ ۖ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا) قيل بعد موتهم إلى نزول القرآن فيهم ، على قول مجاهد . أو إلى أن ماتوا ؛ على قول الضحاك . أو إلى وقت تغيرهم باليل ؛ على ما تقدم . وقيل : بما لبثوا في الكهف ، وهى المدة التي ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادة ونقصانا . أى لا يعلم علم ذلك إلا الله أو من علمه ذلك « لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

قوله تعالى : ((أَبْصِرْهُ وَأَسْمِعْ)) أى ما أبصره وأسمعه . قال قتادة : لا أحد أبصر من الله ولا أسمع . وهذه عبارات عن الإدراك . ويحتمل أن يكون المعنى « أبصر به » أى بوجه وإرشاده هداك وحججك والحق من الأمور ، وأسمع به العالم ، فيكونان أمرين لا على وجه التعجب . وقيل : المعنى أبصرهم وأسمعهم ما قال الله فيهم . ((مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ)) أى لم يكن لأصحاب الكهف ولي يتولى حفظهم دون الله . ويحتمل أن يعود الضمير في « لهم » على معاصري محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار . والمعنى : ما هؤلاء المختلفين في مدة لبثهم ولي دون الله يتولى تدبير أمرهم ، فكيف يكونون أعلم منه ، أو كيف يتعلمون من غير إعلامه إياهم .

قوله تعالى : ((وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)) قرئ بالياء ورفع الكاف ، على معنى الخبر عن الله تعالى . وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رجاء وقاتدة والبخاري « ولا تُشْرِكْ » بالياء من فوق وإسكان الكاف على جهة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويكون قوله « ولا تُشْرِكْ » عطفا على قوله « أبصر به وأسمع » . وقرأ مجاهد « يُشْرِكْ » بالياء من تحت والجزم ، قال يعقوب : لا أعرف وجهه .

مسئلة — اختلف في أصحاب الكهف هل ماتوا وقُتوا ، أو هم نيام وأجسادهم محفوظة ؛ فروى عن ابن عباس أنه مر بالشام في بعض غزواته مع ناس على موضع الكهف وجبله ، فمشى الناس معه إليه فوجدوا عظاما فقالوا : هذه عظام أهل الكهف . فقال لهم ابن عباس : أولئك قوم قُتوا وعُدِموا منذ مدة طويلة ؛ فسمعه راهب فقال : ما كنت أحسب أن أحدا من العرب يعرف هذا ؛ فقيل له : هذا ابن عم نبيتنا صلى الله عليه وسلم . وروى فرقة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لِيَحْجِثَنَّ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَمَعَهُ أَصْحَابُ الْكَهْفِ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَحْجُوا بَعْدَ » وذكره ابن عطية .

قلت : ومكتوب في التوراة والإنجيل أن عيسى بن مريم عبد الله ورسوله ، وأنه يمر بالزَّوْجاء حائجا أو مُتَمِرًا أو يجمع الله له ذلك فيجعل الله حوارية أصحاب الكهف والرقم ، فيموتون حجاجا فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا . وقد ذكرنا هذا الخبر بكلمة في «اب» « التذكرة » ، فعلى هذا هم نيام ولم يموتوا إلى يوم القيامة ؛ بل يموتون قبيل الساعة .

قوله تعالى : **وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا** ﴿١٧﴾

قوله تعالى : **(وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)** قيل : هو من تمام قصة أصحاب الكهف ؛ أى اتبع القرآن فلا يبدل لكلمات الله ولا خلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف . وقال الطبري : لا مغير لما أوعد بكلماته أهل معاصيه والمخالفين لكتابه . **(وَلَنْ يَجِدَ)** أنت **(مِنْ دُونِهِ)** إن لم تتبع القرآن وخالفته . **(مُلْتَحَدًا)** أى ملجأ . وقيل موثلاً . وأصله الميل ؛ ومن لحأت إليه فقد ملت إليه . قال القشيري أبو نصر عبد الرحيم : وهذا أثر قصة أصحاب الكهف . ولما غزا معاوية غزوة المضيق نحو الروم وكان معه ابن عباس فأتته إلى الكهف الذى فيه أصحاب الكهف ؛ فقال معاوية : لو كشف لنا عن هؤلاء فننظر إليهم ؛ فقال ابن عباس : قد منع الله من هو خير منك عن ذلك ، فقال : « لو أطلعت عليهم لوليت منهم فرارا » فقال : لا انتهى حتى أعلم عليهم ، وبثت قوما لذلك ؛ فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فانزعجتهم ؛ ذكره الثعلبي أيضا . وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل الله أن يرثه إياهم ؛ فقال إنك لن ترأهم في دار الدنيا ولكن أبعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : كيف أبعثهم ؟ فقال : أبسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الطرف الآخر عمر وعلى الثالث عثمان وعلى الرابع علي بن أبى طالب ، ثم أذع الريح الرضاء المسخرة لسلطان الله تعالى يأمرها أن تطيعك ؛ ففعل فغلبتهم الريح إلى باب الكهف ، فقلعوا منه حجرا ، فعمل الكلب عليهم فلما رأهم حرك رأسه وبصبعه بآتيه وأومأ إليهم برأسه أن أدخلوا فدخلوا الكهف فقالوا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فرد الله على القتيبة أرواحهم فقاموا بأجمعهم وقالوا : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ؛ فقالوا لهم : معشر الفتيه ، إن النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليكم السلام ؛ فقالوا : وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض ، وطيبكم بما أبلغتم ، وقبلوا

دينه وأسلموا، ثم قالوا : أقرئوا هذا رسول الله منا السلام ، وأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدي . فيقال : إن المهدي يسلم عليهم فيُحييهم الله ثم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون حتى تقوم الساعة ، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان منهم ، ثم رقدتهم الربيع فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " كيف وجدتموهم ؟ " فأخبروه الخبر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اللهم لا تفرق بيني وبين أصحابي وأصهارى وأغفر لمن أحببني وأحب أهل بيتي وخاصتي وأصحابي " . وقيل : إن أصحاب الكهف دخلوا الكهف قبل المسيح ، فأخبر الله تعالى المسيح بخبرهم ثم بُعثوا في الفترة بين عيسى وعهد صلى الله عليه وسلم . وقيل : كانوا قبل موسى عليه السلام وأن موسى ذكرهم في التوراة ؛ ولهذا سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : دخلوا الكهف بعد المسيح ؛ والله أعلم أى ذلك كان .

قوله تعالى : **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطْعَمَنَ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ**) هذا مثل قوله : **« وَلَا تُطْرِدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ »** في سورة « الأنعام » . وقد مضى الكلام فيه . وقال سلمان الفارسي رضى الله عنه : جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عُبَيْة بن حِصْن والأقرع بن حابس فقالوا : يا رسول الله ؛ إنك لو جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم — يعنون سلمان وأباذر وقرءا المساكين ، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم فيها — جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك ، فانزل الله تعالى **« وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ تَجَابَرِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مُمْسِكًا . وَاصْبِرْ**

نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه - حتى بلغ - إنا أعدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها . تهتدهم بالنار . فقام النبي صلى الله عليه وسلم يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله قال : " الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم المَحْيَا ومعكم المَمَات " . (يريدون وجهه) أى طاعته . وقرأ نصر بن حاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » وحجتهم أنها في السواد بالواو . وقال أبو جعفر النحاس : وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو ، ولا تكاد العرب تقول الغدوة لأنها معروفة . وروى عن الحسن « وَلَا تَعُدُّ عَلَيْكَ عَنْهُمْ » أى لا تتجاوز عينك إلى غيرهم من أبناء الدنيا طلبا لزيبتها ؛ حكاه اليزيدي . وقيل : لا تحتقرهم عينك ؛ كما يقال فلان تَبُو عنه العين ؛ أى مستحقرا .

(تَرِيدُ رِيسَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى تترين بمجالسة هؤلاء الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسك ؛ ولم يرد النبي صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك ، ولكن الله نهاه عن أن يفعله ، وليس هذا بأكثر من قوله « لئن أشركت ليحبطن عملك »^(١) . وإن كان الله أعاده من الشرك . و« تريد » فعل مضارع في موضع الحال ؛ أى لا تعد عينك مریدا ؛ كقول أمريئ القيس :
فقلت له لا تبك عينك إنما * نحاول ملكا أو نموت فنعترا

وزعم بعضهم أن حق الكلام : لا تعد عينك عنهم ؛ لأن « تعد » متعد بنفسه . قيل له : والذي وردت به التلاوة من رفع العينين يسؤل إلى معنى التصب فيهما ، إذ كان لا تعد عينك عنهم بمثلة لا تنصرف عينك عنهم ، ومعنى لا تنصرف عينك عنهم لا تنصرف عينك عنهم ؛ فالفعل مسند إلى العينين وهو في الحقيقة موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال تعالى :

(١) في كتاب روح المعاني : « وقرأ الحسن (ولا تعد عينك) بضم التاء وسكون العين وكسر الال المحففة ، من أعداء ، ونصب العينين . وعنه وعن عيسى والأعشى أنهم قرءوا (ولا تعد عينك) بضم التاء وفتح العين وتشديد الال المكسورة ، من عدا يهدي ، ونصب العينين أيضا .

(٢) آية ٦٥ سورة الزمر .

« فَلَا تُحِبِّكَ أَمْوَالُهُمْ » فأسند الإعجاب إلى الأموال ، والمعنى : لا تنجيك يا غدا أموالهم .
 ويزيدك وضوحا قول الزجاج : إن المعنى لا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوى الهيئات والزينة .
 قوله تعالى : (وَلَا تَطْعَمَنْ أَغْفَلًا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا) روى جوير عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى « وَلَا تَطْعَمَنْ أَغْفَلًا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » قال : نزلت فى أمية بن خلف الجهمي . وذلك أنه دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمر كرهه من تجرد الفقراء عنه وتقريب ضناديد أهل مكة ؛ فانزل الله تعالى : « وَلَا تَطْعَمَنْ أَغْفَلًا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » يعنى من ختمنا على قلبه عن التوحيد . (وَأَتَيْعَ هَوَاهُ) يعنى الشرك . (وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) قيل هو من التفريط الذى هو التقصير وتقديم العجز بترك الإيمان . وقيل : من الإفراط ومجاوزة الحد ، وكان القوم قالوا : نحن أشرف مضر إن أسلمنا أسلم الناس ؛ وكان هذا من التكبر والإفراط فى القول . وقيل : « فُرُطًا » أى قلما فى الشر ؛ من قولهم : فُرُطَ منه أمر أى سبق . وقيل : معنى « أَغْفَلًا قَلْبَهُ » وجدناه غافلا ؛ كما تقول : لقيت فلانا فاحمدته ؛ أى وجدته مجودا . وقال عمرو بن معديكرب لبنى الحارث بن كعب : والله لقد سألتكم لها أنجلناكم ، وقائلناكم فما أجبتاكم ، وهاجبتناكم فما أحنمتكم ؛ أى ما وجدناكم بخلاء ولا جبنا ولا مفتحين . وقيل : نزلت « وَلَا تَطْعَمَنْ أَغْفَلًا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » فى حينه بن حصن الفزاري ؛ ذكره عبد الرزاق ، وحكاه النحاس عن سفيان الثوري . والله أعلم .

قوله تعالى : وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ قَدْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنُوا وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٧﴾
 قوله تعالى : (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ قَدْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنُوا وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) « الحق » رفع على خبر الابتداء المضمر ؛ أى قل هو الحق . وقيل : هو رفع على الابتداء ، وخبره فى قوله

«مِنْ رَبِّكُمْ» . ومعنى الآية : قل يا محمد هؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا : أيها الناس ! من ربكم الحق فإليه التوفيق والخذلان ، وبيده المهدى والضلال ، يهدي من يشاء فيؤمن ، ويضل من يشاء فيكفر ، ليس إلى من ذلك شيء ، فألقه يؤي الحق من يشاء وإن كان ضعيفا ، ويحرمه من يشاء وإن كان قويا غنيا ، ولست بطارد المؤمنين لهواكم ، فإن شئتم فآمنوا ، وإن شئتم فأكفروا . وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر ، وإنما هو وعيد وتهديد . أي إن كفرتم فقد أعد لكم النار ، وإن آمنتم فلكم الجنة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ أي أعدنا . ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أي للكافرين الجاحدين . ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ قال الجوهري : السُّرَادِقُ واحد السُّرَادِقَاتِ التي تُحْدَقُ فوق حصن الدار . وكل بيت من كُرسف فهو سرادق . قال رثبة :

يَا حَكَمُ بْنُ الْمُنْذِرِينَ الْجَارُودُ * سُرَادِقُ الْمَحْدُودِ
يَقَالُ : بَيْتٌ مُسَرَّدَقٌ . وقال سلامة بن جندل يذكر أبرويز وقتله النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة :

هو المُنْدَخِلُ النعمانَ بَيْتًا سَمَاءُهُ * صُدُورُ الْقِيُولِ بَعْدَ بَيْتِ مُسَرَّدَقٍ

وقال ابن الأعرابي : « سرادقها » سورها . وعن ابن عباس : حائط من نار . الكلبي : علق تخرج من النار فتحيط بالكفار كالخطيرة . الفتي : السرادق المجزأة التي تكون حول القساط . وقاله ابن عَرِيز . وقيل : هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة ، وهو الذي ذكره الله تعالى في سورة « والمرسلات » حيث يقول : « انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ » وقوله : « وَظِلٌّ مِنْ يَمُومٍ » قاله قتادة . وقيل : إنه البحر المحيط بالدنيا . وروى يَحْيَى بْنُ أَبِي عَمْرٍو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « البحر هو جهنم — ثم تلا — نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا —

(١) الكرسف : القطن ؛ (٢) كذا في الأصل واللسان ، واستترك عليه صاحب اللسان بأنه للكذاب الحرمازي ، وتابعه على هذا سيويه والأمل الشنمري . منح الرازي أحد بن المنذر بن الجارود البدي ، وحكم هذا أحد ولا لبصرة لشام بن عبد الملك . نسي جده الجارود لأنه أغار على قوم فاكتمسح أموالهم ، فنبه بالليل الذي يجرد ما مر به . (٣) بفتح الراء وكسرهما ، ملك من ملوك الفرس . (٤) آية ٣٠ (٥) آية ٤٣ سورة الواقعة .

ثم قال - والله لا أدخلها أبدا مادمت حيا ولا يصيبني منها قطرة - ذكره الماوردي . وخرج
 ابن المبارك من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لسراق
 النار أربع جُدُر كُتِف كل جدار مسيرة أربعين سنة " . وخرجه أبو عيسى الترمذي ، وقال
 فيه : حديث حسن صحيح غريب .

قلت : وهذا يدل على أن السراق ما يملو الكفار من دخان أو نار ، وجُدُرُه مأوصف .
 قوله تعالى : (وَإِنْ يَسْتَفِثُوا يَافُتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ) قال ابن عباس :
 المهل ماء غليظ مثل دُرْدِي^(١) الزيت . مجاهد : القيح والدم . الضحاك : ماء أسود ، وإن
 جهنم لسوداء ، ومائها أسود وشجرها أسود وأهلها أسود . وقال أبو عبيدة : هو كل ما أذيب
 من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس وقزدير ، فتموج بالفلان ، فذلك المهل .
 ونحوه عن ابن مسعود . قال سعيد بن جبير : هو الذي قد انتهى حره . وقال : المهل ضرب
 من القطران ؛ يقال : مهلت البعير فهو ممهول . وقيل : هو السم . والمعنى في هذه الأقوال
 متقارب . وفي الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « كالمهل » قال : " كمثل الزيت
 فإذا قربه إلى وجهه سقطت قروة وجهه " قال أبو عيسى : هذا حديث إنما نعرفه من حديث
 ريشدين بن سعد وريشدين قد تكلم فيه من قبل حفظه . وخرج عن أبي أمامة عن النبي
 صلى الله عليه وسلم في قوله : " وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَجْعَلُهُ " قال : " يقرب إلى فيه فيكرهه
 فإذا أذني منه شوى وجهه ووقعت قروة رأسه إذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره .
 يقول الله تعالى « وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُم » يقول « وإن يستفثوا يافوتوا بماء كالمهل
 يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مُرَتَفَعًا » قال : حديث غريب .

قلت : وهذا يدل على صحة تلك الأقوال ، وأنها مرادة ، والله أعلم . وكذلك نص عليها
 أهل اللغة . في الصحاح « المهل » النحاس المنذاب . ابن الأعرابي : المهل المذاب من

(١) الكنف : جمع كنيف ، وهو الثخين التليظ . (٢) التردى (بالضم) : ما بين في الأسفل .

(٣) آية ١٥ سورة محمد .

الرصاص . وقال أبو عمرو . المهمل حردى الزيت . والمهمل أيضا الفجج والصديد . وفي حديث أبي بكر : أدفنوني في ثوبي هذين فإنهما للمهل والتراب . و (مُرْتَفَقًا) قال مجاهد : معناه مجتمعاً كأنه ذهب إلى معنى المرافقة . ابن عباس : منزلاً . عطاه . وقيل مهاداً . وقال القتيبي : مجلساً . والمضى متقارب ، وأصله من المتكأ ، يقال منه : أرتفت أى أنكأت على المرفق . قال الشاعر :

قالت له وأرتفت ألا فتى * يسوق بالقوم غزالات الضما^(١)

ويقال : ارتفق الرجل إذا نام على مرفقه لا يأتيه نوم . قال أبو ذؤيب الهذلي :

نام الخليلي وث الليل مُرْتَفَقًا * كأن عيني فيها الصاب مدبوح^(٢)

الصاب : عصارة شجر مر .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عِدْنُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝**

ما ذكر ما أعد للكافرين من الهوان ذكر أيضا ما للمؤمنين من الثواب . وفي الكلام إضمار ؛ أى لا نضيع أجر من أحسن منهم عملاً ، فاما من أحسن عملاً من غير المؤمنين فعمله محبط . و « عملاً » نصب على التمييز ، وإن شئت بإيقاع « أحسن » عليه . وقيل :

(١) غزاة الضما وغزالاته : بد ما تنبسط الشمس وتضيئ . وقيل : هو أول الضما إلى مد النهار الأكبر حتى يضيئ من النهار نحو من خمسة . (٢) رواية الديوان : « مُشْتَبِرًا » والمشتبر : الذى قد شجر نفسه وومع يده تحت شجره على حذقه أو على فقه . والشبر : ما بين الخمين . ومشجرح : مشقوق .

« إنا لا نضيق أجز من أحسن عملا » كلام معترض ، والخبر قوله « أولئك لم جنات عدن » و (جنات عدن) سرة الجنة ، أى وسطها وسائر الجنات محيطة بها . وذكرت بلفظ الجمع لسمتها ؛ لأن كل بقعة منها تصلح أن تكون جنة . وقيل : العدن الإقامة ، يقال : عدن بالمكان إذا أقام به . وعدنت البلد توطنته . وعدنت الإبل بمكان كذا لزمته فلم تبرح منه ؛ ومنه « جنات عدن » أى جنات إقامة . ومنه شئ المعدن (بكسر الدال) ؛ لأن الناس يقيمون فيه بالصيف والشتاء . ومركز كل شئ معدنه . والعادن : الناقة المقيمة فى المرى . وعدن بلد ؛ قاله الجوهري . (تجرى من تحميم الأنهار) تقدم فى غير موضع . (يحلون) فيها من أساور من ذهب) وهو جمع سوار . قال سعيد بن جبیر : على كل واحد منهم ثلاثة أسورة : واحد من ذهب ، وواحد من ورق ، وواحد من لؤلؤ .

قلت : هذا منصوص فى القرآن ، قال هنا « من ذهب » وقال فى الحج وفاطر (٣) من ذهب ولؤلؤا وفى الإنسان (٤) من فضة . وقال أبو هريرة : سمعت خليل صلى الله عليه وسلم يقول : « تبلغ الحيلة من المؤمن حيث يبلغ الضوء » ترجمه مسلم . وحكى الفراء : « يحلون » بفتح الهمزة وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة ؛ يقال : حللت المرأة تحل فهى حالية إذا لبست الحلى . وحلى الشئ بمعنى تحلى ؛ ذكره النحاس . والأسوار سوار المرأة ، والجمع أسورة ، وجمع الجمع أساور ، وقرئ « قلولا ألقى عليه أسورة من ذهب » وقد يكون الجمع أساور . وقال الله تعالى « يحلون فيها من أساور من ذهب » قاله الجوهري . وقال ابن عزيز : أساور جمع أسورة ، وأسورة جمع سوار ، وهو الذى يلبس فى الذراع من ذهب ، فإن كان من فضة فهو قلب وجمعه قلبه ؛ فإن كان من قرن أو عاج فهى مسكة وجمعه مسك . قال النحاس : وحكى قطرب فى واحد الأساور أسوار ، وقطرب صاحب شذوذ ، قد تركه يعقوب وغيره فلم يذكره .

(١) - راجع ج ١ ص ٢٣٩ طيبة طيبة ٢٣٩ . (٢) آية ٧٣ . (٣) آية ٢٣

(٤) آية ٢١ (٥) آية ٣٣ سورة الزمزم .

قلت : قد جاء في الصحاح وقال أبو عمرو بن العلاء : واحدها إسمار . وقال المفسرون : لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله تعالى ذلك لأهل الجنة .
 قوله تعالى : (وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ) السندس : الرقيق النخيف ، واحده سندسة ، قاله الكسائي . والإستبرق : ما نحن منه — عن عكرمة — وهو الحرير .
 قال الشاعر :

تراهن يلبسن المشاعر مرة • وإستبرق الديباج طورا لباسها

فالإستبرق الديباج . ابن بحر : المنسوج بالذهب . القتي : فارسي معرب . الجوهري : وتصغيره أبتريق . وقيل : هو استعمل من البريق . والصحيح أنه وفاق بين اللغتين ؛ إذ ليس في القرآن ما ليس من لغة العرب ، على ما تقدم ، والله أعلم .

وخص الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر ؛ لأن البياض يبتد النظر ويؤلم ، والسواد يثلم ، والخضرة بين البياض والسواد ، وذلك يجمع الشعاع . والله أعلم . روى النسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فقال : يا رسول الله ، أخبرنا عن ثياب الجنة ، أخلق يخلق أم نسج ينسج ؟ فضحك بعض القوم . فقال لهم : "م" تضحكون من جاهل يسأل علما " فجلس يسيرا أو قليلا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أين السائل عن ثياب الجنة ؟" فقال : ها هو ذا يا رسول الله ؛ قال "لا بل تشقق عنها ثمر الجنة" قالها ثلاثا . وقال أبو هريرة : دار المؤمن درة مجوفة في وسطها شجرة تثبت الحلال ويأخذ بأصبعه أو قال بأصبعيه سبعين حلة منظمة بالدر والمرجان . ذكره يحيى بن سلام في تفسيره وابن المبارك في رقايقه . وقد ذكرنا إسناده في كتاب التذكرة . وذكر في الحديث أنه يكون على كل واحد منهم الحلة لها وجهان لكل وجه لون ، يتكلمان بصوت يستحسنه سامعه ، يقول أحد الوجهين للآخر : أنا أكرم على وليي . الله منك ، أنا إلى جسده وأنت لا تلي . ويقول الآخر : أنا أكرم على وليي الله منك ، أنا أبصر وجهه وأنت لا تبصر .

قوله تعالى : (مُتَكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ) « الأرائك » جمع أريكة ، وهى المرمر فى الجبال . وقيل القرش فى الجبال ؛ قاله الزجاج . ابن عباس : هى الأسرة من ذهب ، وهى مكللة بالنثر والياقوت عليها الجبال ، الأريكة ما بين صنعاء إلى أيلة وما بين عدن إلى الجابية . وأصل متكبين مُتَوَكِّبِينَ ، وكذلك اتكأ أصله اوتكأ ، وأصل التُّكَّاء وَكَّاءٌ ؛ ومنه التوكأ للتحامل على الشيء ، فقلبت الواو تاء وأدغمت . ورجل وَكَّاءٌ كثير الاتكأ . (نِعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) يعنى الجنات ، عكس « وساءت مرتفقا » . وقد تقدم . ولو كان « فِيمَتْ » لجاز لأنه أسم للجنة . وعلى هذا « وحسنت مرتفقا » . وروى البراء ابن عازب أن أعرابياً قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، والنبي صلى الله عليه وسلم واقف برفات على ناقته المصعباء فقال : إني رجل مسلم فأخبرنى عن هذه الآية « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » الآية ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنت منهم ببعيد ولا هم ببعيد منك هم هؤلاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فأعلم قومك ان هذه الآية نزلت فيهم " ذكره الماوردى ، وأسندته النحاس فى كتاب معانى القرآن ، قال : حدثنا أبو عبد الله أحمد بن على بن سهل قال حدثنا محمد بن حميد قال حدثنا يحيى بن الضريس عن زهير بن معاوية عن أبى إسحاق عن البراء بن عازب قال : قام أعرابى ... ؛ فذكره . وأسندته السبئي فى كتاب الاعلام . وقد رويناه جميع ذلك بالإجازة ، والحمد لله .

قوله تعالى : وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٦٦﴾ كَلَّتَا الْأَجْنَتَيْنِ غَائَتِ أَكْلَهُمَا وَلَمْ تَقْظَامِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلْطَهُمَا نَهْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَانَ لَهُمْ نَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ لِمَ مَثَلًا لِّرَجُلَيْنِ ﴾ هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين ، وهو متصل بقوله « وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ » . واختلف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما ؛ فقال الكلبي : نزلت في أخوين من أهل مكة مخزومين ، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، زوج أم سلمة قبل النبي صلى الله عليه وسلم . والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ، وهما الأخوان المذكوران في سورة « الصافات » في قوله « قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ » ، ^(١) وَرِثَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَرْبَعَةَ آلَافٍ دِينَارٍ ، فَأَنْفَقَ أَحَدُهُمَا مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَطَلَبَ مِنْ أَخِيهِ شَيْئًا فَقَالَ مَا قَالَ ... ؛ ذكره التلمیذ والفشیری . وقيل : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأهل مكة . وقيل : هو مثل بلجیع من آمن بالله وجميع من كفر . وقيل : هو مثل لعينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وصهيب وأصحابه ؛ شبههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا ؛ في قول ابن عباس . وقال مقاتل : اسمه تملیخا . والآخر كافر واسمه قرطوش . وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة الصافات . وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ قال : اسم الخیر منهما تملیخا ، والآخر قرطوش ، وأنها كانا شريكين ثم اقسما المال فصار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار ، فاشتري المؤمن منهما عبيدا بألف وأعتقهم ، وبالألف الثانية ثيابا فكسا المرأة ، وبالألف الثالثة طعاما فاطعم الجوع ، وبني أيضا مساجد ، وفعل خيرا . وأما الآخر فنكح بماله نساء ذوات يسار ، واشتري دواب وبهرا فاستنبحها فنمت له نساء مفترقا ، وأتجر بباقها فربح حتى فاق أهل زمانه غنى ؛ وأدرکت الأول الحاجة ، فأراد أن يستخدم نفسه في جنة يخدمها فقال : لو ذهبت لشريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصليح لي ، بخفاء فلم يكذب بصل إليهِ من غلظ الحجاب ، فلما دخل عليه وعرفه وسأله حاجته قال له : ألم أكن قاسمتك المال نصفين ! فما صنعت بمالك ؟ قال : اشتريت به من الله تعالى ما هو خير منه وأبقى . فقال : أمك

لمن المصدقين، ما أظن الساعة قائمة ! وما أراك إلا سقيماً، وما جزأؤك عندى على سفاهتك إلا الحرمان، أو ما ترى ما صنعتُ أنا بما لى حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أنى كسبتُ وسفهت أنت، اخرج عنى . ثم كان من قصة هذا الغنى ما ذكره الله تعالى فى القرآن من الإحاطة بشره وذهابها أضلاً بما أرسل عليها من السماء من الحُسابان . وقد ذكر الطيبي هذه القصة بلفظ آخر، والمعنى متقارب . قال عطاء : كانا شريكين لها ثمانية آلاف دينار . وقيل : ورثاه من أبيهما وكانا أخوين فأقسماهما، فأشترى أحدهما أرضاً بألف دينار، فقال صاحبه : اللهم إن فلانا قد اشترى أرضاً بألف دينار وإنى أشرت منك أرضاً فى الجنة بألف دينار فتصدق بها، ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار فقال : اللهم إن فلانا بنى داراً بألف دينار وإنى أشرت منك داراً فى الجنة بألف دينار، فتصدق بها، ثم تزوج امرأة فاتفق عليها ألف دينار، فقال : اللهم إن فلانا تزوج امرأة بألف دينار وإنى أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار . ثم اشترى خدماً ومناجراً بألف دينار، وإنى أشرت منك خدماً ومناجراً فى الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار . ثم أصابته حاجة شديدة فقال : لعل صاحبي يتألمى معروفيه فأناؤه فقال : ما فعل مالك ؟ فأخبره قصته فقال : وإنيك لمن المصدقين بهذا الحديث ! والله لا أعطيك شيئاً ! ثم قال له : أنت تعبد الله السماء، وأنا لا أعبد إلا صنماً، فقال صاحبه : والله لأعظنه، فوعظه وذكره وخوفه . فقال : سربنا نصطد السمك، فمن صاد أكثر فهو على حق، فقال له : يا أئى ! إن الدنيا أحقر عند الله من أن يجعلها ثواباً لحسن أو عقاباً لكافر . قال : فأكرهه على الخروج معه، فأبتلاهما الله، بفصل الكافر يرى شبكته ويسمى باسم صنمه، فتطلع متدقة سمكاً . وجعل المؤمن يرى شبكته ويسمى باسم الله فلا يطلع له فيها شئ، فقال له : كيف ترى ! أنا أكثر منك فى الدنيا نصيباً ومتلة وقرأ، كذلك أكون أفضل منك فى الآخرة إن كان ما تقول بربك حقاً . قال : فضج الملك الموكَّل بهما، فأمر الله تعالى جبريل أن يأخذه فيذهب به إلى الحنان فيريه منازل المؤمن فيها، فلما رأى ما أعد الله له قال : وعزتك لا يضره ما ناله من

الدنيا بعد ما يكون مصيره إلى هذا ؛ وأراه منازل الكافر في جهنم فقال : وعزتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا . ثم إن الله تعالى توفى المؤمنين وأهلك الكافر بعذاب من عنده ، فلما استقر المؤمن في الجنة ورأى ما أعد الله له أقبل هو وأصحابه يتساءلون ، فقال : « إني كان لي قرين^١ . يقول أئنك لين المصدقين » الآية فنادى مناد : يا أهل الجنة ! هل أنتم مطَّلعون فأطلع إلى جهنم قرآه في سواء الجحيم ؛ فترلت « واضرب لم مثلاً » .

بين الله تعالى حال الأخوين في الدنيا في هذه السورة ، وبين حالهما في الآخرة في سورة « الصافات » في قوله « إني كان لي قرين^(١) . يقول أئنك لين المصدقين — إلى قوله — لمثل هذا فليعمل العاملون » . قال ابن عطية : وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه في عجائب البلاد أن بحيرة تيس كانت هاتين الجنتين ، وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الآخرة فاتفق في طاعة الله حتى صير الآخرة ، وجرت بينهما المحاورة ففرقها الله تعالى في ليلة ، وإياها عنى بهذه الآية . وقد قيل : إن هذا مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة ، وليس بخبر عن حال متقدمة ، لترهد في الدنيا وترغب في الآخرة ، وجعله زجراً وإنذاراً ؛ ذكره الماوردي . وسياق الآية يدل على خلاف هذا ، والله أعلم .

قوله تعالى : « وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ » أي أطفئناهما من جوانبهما بنخل . والحيفاف الجانب ، وجمعه أحفاف ؛ ويقال : حف القوم بفلان يحفون حفاً ، أي طافوا به ؛ ومنه « حافين من حول العرش^(٢) » . « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَبْراً » أي جعلنا حول الأعصاب النخل ، ووسط الأعصاب الزرع . « كَتَبْنَا الْجَنَّتَيْنِ » أي كل واحدة من الجنتين « آتَتْ أَكْلاً » آتتا ، ولذلك لم يقل آتتا . واختلف في لفظ « كَتَبْنَا وَكَلَّا » هل هو مفرد أو متنى ؛ فقال أهل البصرة : هو مفرد ؛ لأن كَلَّا وكَتَبَا في توكيد الاثنين نظير « كُلُّ » في المجموع ، وهو اسم مفرد غير متنى ؛ فإذا ولي أسما ظاهرا كان في الرفع والنصب وانخفض على حالة واحدة ، تقول : رأيت كَلَّا الرجلين وجاءني كَلَّا الرجلين ومررت بكَلَّا الرجلين ؛ فإذا اتصل بمضمر قلبت الألف ياء في موضع الجر والنصب ، تقول :

(١) آية ٥١ وما بعدها . (٢) آخر سورة الزمر . (٣) كذا في الأصول والصحاح لجوهري

وقد نقله عنه صاحب اللسان . وكان الأولى أن يقال : « فأذا وليه اسم ظاهر ... » .

رَأَيْتَ كِلَيْهِمَا وَمررت بكليهما، كما تقول عليهما . وقال القراء : هو مثنى، وهو مأخوذ من كُلُّ
 نَحَفَّتِ اللام وزيدت الألف للتنثية . وكذلك كلنا للثؤنت، ولا يكونان إلا مضافين ولايتكلم
 بواحد، ولو تكلم به لقليل : كُلٌّ وَكُلٌّ وَكِلَانٌ وَكِلْتَانٌ . واحتج بقول الشاعر :
 فِي كِلْتِ رَجُلَيْهَا سُلَامَى وَاحِدَةٌ * كِلْتَاهُمَا مَقْرُونَةٌ بَرَّاءَةٌ

أراد في إحدى رجلَيْها فأفرد . وهذا القول ضعيف عند أهل البصرة؛ لأنه لو كان مثنى
 لوجب أن تكون ألفه في النصب والجرياء مع الاسم الظاهر، ولأن معنى « كِلَا » غالف
 لمعنى « كل » لأن « كِلَا » للإحاطة و« كِلَا » يدل على شيء مخصوص، وأما هذا الشاعر فأنما
 حذف الألف للضرورة وقدّر أنها زائدة، وما يكون ضرورة لا يجوز أن يجعل حجة، فنبت
 أنه اسم مفرد كَيْسى، إلا أنه وُضع ليدل على التنثية، كما أن قولهم « نحن » اسم مفرد يدل
 على اثنين فما فوقهما، يدل على ذلك قول جرير :

كِلَا يَوْمَيِ أُمَامَةٍ يَوْمٌ صَدُّ^(٢) * وَإِنْ لَمْ نَأْتِهَا إِلَّا لِيَسَامَا

فأخبر عن « كلا » بيوم مفرد، كما أفرد النحير بقوله « آتت » ولو كان مثنى لقال آتتا، ويوما .
 واختلف أيضا في ألف « كلتا »؛ فقال سيبويه : ألف « كلتا » للتأنيث والتاء بدل من لام
 الفعل وهى واو والأصل كلّوا، وإنما أبدلت تاء لأن في التاء علم التأنيث، والألف « في كلتا »
 قد تصير ياء مع المضممر فتخرج عن علم التأنيث، فصار في إبدال الواو تاء تأكيداً للتأنيث .
 وقال أبو عمر الجرجري: التاء ملحقة والألف لام الفعل، وتقديرها عنده : فَعَمَلٌ، ولو كان الأمر
 على ما زعم لقالوا في النسبة إليها كَلْتَوِي، فلما قالوا كَلْوِي وأسقطوا التاء دلّ على أنهم أجروها
 مجرى التاء في أخت إذا نسبت إليها قلت أخوي؛ ذكره الجوهري . قال أبو جعفر النحاس :
 وأجاز النحويون في غير القرآن الحمل على المعنى، وأن تقول : كلتا الجنتين آتتا أكلهما ؛ لأن
 المعنى المختار كلتاها آتتا . وأجاز الفراء : كلتا الجنتين آتى أكله، قال : لأن المعنى كل

(١) السلاى (كجارى) : عظام الأسماك في اليد والقدم . (٢) كذا في الأصول واللسان مادة « كلا » .

وفي ديوانه المطبوع : « يوم صدق » . واليت من قصيدة مظهرها :

الاحى الحازل وانليها ما * وسكا طال فيها ما أقاما

الجبنتين : قال : وق قراءة عبد الله « كلَّ الجنتين أتى أكله » . والمعنى على هذا عند القراءة : كل شيء من الجنتين أتى أكله . والأكل (بضم الهمة) ثمر النخل والشجر . وكل ما يؤكل فهو أكل ؛ ومنه قوله تعالى : « أَكُلَهَا دَامَتْ » وقد تقدم ^(١) .
قوله تعالى : (وَبَقَرَاتٍ خِلَافَ مَا نَهَى) أى أجربنا وشققنا وسط الجنتين بنهر . (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ) قرأ أبو جعفر وثيبة وعاصم ويعقوب وابن أبي إسحاق « ثمر » بفتح التاء والميم ، وكذلك قوله « وأحيط بثمره » جمع ثمرة . قال الجوهري : الثمرة واحدة الثمر والثمرات ، وجمع الثمر ثمار ، مثل جبل وجبال . قال الفراء : وجمع الثمر ثمرٌ ، مثل كتاب وكتب ، وجمع الثمر أثمار ، مثل أعتاق وعتق . والتمر أيضا المسال المتمر ، يخفف وينقل . وقرأ أبو عمرو « وكان له ثمرٌ » بضم التاء وإسكان الميم ، وفسره بأنواع المسال . الباقون بضمها في الحرفين . قال ابن عباس : ذهب فضة وأموال . وقد مضى في « الأنعام » نحو هذا ميّنا . وذكر النحاس : حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمران بن بكار قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي قال : حدثنا شعيب بن إسحاق قال هارون قال حدثني أبان عن ثعلب عن الأعمش أن الجحاح قال : لو سمعت أحدا يقرأ « وكان له ثمرٌ » لقطعت لسانه ، فقلت للأعمش : أتأخذ بذلك ؟ فقال : لا ! ولا تُنَمِّةً يميني . فكان يقرأ « ثمرٌ » ويأخذه من جمع الثمر . قال النحاس : فالتقدير على هذا القول أنه جمع ثمرة على ثمار ، ثم جمع ثمار على ثمر ، وهو حسن في العربية إلا أن القول الأول أشبه والله أعلم ، لأن قوله « كلتا الجنتين أتت أكلها » يدل على أن له ثمرًا .

قوله تعالى: ﴿قَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أى راجعه فى الكلام ويحاو به . والمحاوره المحجابه، والتحاوّر التجاوب . ويقال: كلمته فاحار الى جوابا، ومارجع الى حوياً ولا حويرة ولا حوارة، أى مارد جوابا . ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ النفر: الزهط وهو ما دون العشرة . وأراد هاهنا الاتباع والخدم والولد، حسبا تقدم بيانه .

(١) راجع ج ٩ ص ٣٢٤ (٢) راجع ج ٧ ص ٤٩ (٣) في هذه الكلمة اثنا عشرة لغة :
نعم عين ونعمة ونعام ونعيم (بضمهم) ونسي ونسأى ونسام ونسم ونعمة (بضمهم) ونعمة ونعام (بكسرهما) . ونستحب
الكل باضمار التعليل ؛ أى أفعل ذلك إقناعاً لعلك وإكراماً .

قوله تعالى : **وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنَهَا مُنْقَلِبًا ۖ**

قوله تعالى : **(وَدَخَلَ جَنَّتُهُ)** قيل : أخذ بيد أخيه المؤمن يُطِيف به فيها ويُرِيه إياها . **(وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ)** أى بكفره ، وهو جملة في موضع الحال . ومن أدخل نفسه النار بكفره فهو ظالم لنفسه . **(قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا)** أنكر فناء الدار . **(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً)** أى لا أحسب البعث كائناً . **(وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي)** أى وإن كان بعث فكما أعطاني هذه النعم في الدنيا فسيُعطيني أفضل منه لكأمتي عليه ، وهو معنى قوله : **(لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنَهَا مُنْقَلِبًا)** وإنما قال ذلك لما دعاه أخوه إلى الإيمان بالحق والشر والشر . وفي مصاحف مكة والمدينة والشام « منها » . وفي مصاحف أهل البصرة والكوفة « منها » على التوحيد ، والثنية أولى ، لأن الضمير أقرب إلى الجنتين .

قوله تعالى : **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّفْثَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ۖ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُفِرُّكَ رَبِّي أَحَدًا ۖ**

قوله تعالى : **(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ)** أيونا أو تمليحا ، على الخلاف في اسمه . **(أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّفْثَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا)** وعظه وبين له أن ما اعترف به من هذه الأشياء التي لا ينكرها أحد أبدع من الإعادة . و « سَوَّاهُ رَجُلًا » أى جعلك معتدل القامة وانسلق ، صحيح الأعضاء ذكرا . **(لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي)** كذا قرأه أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ وأبو العالية . وروى عن الكسائي « لكن هو الله » بمعنى لكن الأمر هو الله ربى ، فأضمر اسمها فيها . وقرأ الباقون « لكنا » بإثبات الألف . قال الكسائي : فيه تقديم وتأخير ،

تقديره: لكن الله هو ربى أنا، حذف الهزة من «أنا» طلباً للتحفة لكثرة الاستعمال وأدغمت إحدى التونين فى الأخرى وحذفت ألف «أنا» فى الوصل وأثبتت فى الوقف، وقال النحاس: مذهب الكسائى والقراء والمسايزي أن الأصل لكن أنا فألغيت حركة الهزة على نون لكن وحذفت الهزة وأدغمت النون فى النون فالوقف عليها لكأ وهى ألف أنا لبيان الحركة. وقال أبو عبيد: الأصل لكن أنا، حذف الألف فألغقت نوناً بقاءً بالتشديد لذلك، وأنشدنا الكسائى:

لَمَنِكَ مِنْ هَيْبَةٍ لَوْ سَمِعْتُ * عَلَى هَوَاتٍ كَاذِبٍ مِنْ يَقُولِهَا

أراد: لله إنك، فأسقط إحدى اللامين من «له» وحذف الألف من إنك. وقال آخر بقاءً به على الأصل:

وَتَمِيلُنِي بِالطَّرْفِ أَيْ أَنْتَ مُذْنِبٌ * وَتَقْلِينِي لَكِنَّ إِيَّاكَ لَا أَقْبَلُ

أى لكن أنا. وقال أبو حاتم: ورووا عن عاصم «لكأ هو الله ربى» وزعم أن هذا لحن، يعنى إثبات الألف فى الإدراج. قال الزجاج: إثبات الألف فى «لكأ هو الله ربى» فى الإدراج جيد؛ لأنه قد حذفت الألف من أنا بقاءً بها عوضاً. قال: وفى قراءة أُبَيٍّ «لكن أنا هو الله ربى». وقرأ ابن عامر والمسيلى^(١) عن نافع ورؤيس عن يعقوب «لكأ» فى حال الوقف والوصل معاً بإثبات الألف. وقال الشاعر:

أَنَا سَيْفُ الْعَشِيرَةِ فَأَعْرِفُونِي * حُمَيْدًا قَدْ تَذَرَيْتُ السَّيْئَاتِ

وقال الأعشى:

فَكَيْفَ أَنَا وَأَتَحَالُ الْقَوَائِي * بَعْدَ الْمَشِيبِ كَفَى ذَاكَ عَارًا

ولا خلاف فى إثباتها فى الوقف. (هُوَ اللَّهُ رَبِّي) «هو» ضمير القصص والشأن والأمر؛ كقوله «فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا» وقوله «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ». (وَلَا أَشْرَكَ لَهُ)

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد. وهذه النسبة إلى مسيلة (كسفية) بلدة بالمغرب.

(٢) آية ٩٧ سورة الأنبياء.

رَبِّي أَحَدًا ۝ دَلَّ مَفْهُومُهُ عَلَى أَنَّ الْأَنْخَ الْأَحْرَكَانَ مُشْرَكَا بِاللَّهِ تَعَالَى يَعْبُدُ غَيْرَهُ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ لَا أَرَى الْغَنَى وَالْفَقْرَ إِلَّا مِنْهُ ، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يُسَلِّبَ صَاحِبَ الدُّنْيَا دُنْيَاهُ قَدَّرَ عَلَيْهِ ؛ وَهُوَ الَّذِي آتَانِي الْفَقْرَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ بِجُودِكَ الْبَعْثَ مُصِيبُهُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ تَعْيِيزُ الرَّبِّ مَبْعَاهُ وَتَعَالَى ، وَمَنْ تَجَزَّهَ مَبْعَاهُ وَتَعَالَى شَبَّهَ بِخَلْقِهِ ؛ فَهُوَ إِشْرَاكٌ .

قوله تعالى : وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِنَّ تَرَنِّ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا ۝ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فُتُصِيحَ صَاعِدًا زَلْزَلًا ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۝

قوله تعالى : (وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) فِيهِ مَسْأَلَتَانِ :

الأولى - قوله تعالى : (وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) أَيْ بِالْقَلْبِ ، وَهُوَ تَوْبِيخٌ وَوَعِيَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ لِلْكَافِرِ وَرَدَّ عَلَيْهِ ، إِذْ قَالَ « مَا أَظُنُّ أَنْ يَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا » وَ « مَا » فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ ، تَقْدِيرُهُ : هَذِهِ الْجَنَّةُ هِيَ مَا شَاءَ اللَّهُ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ وَالْفَرَّاءُ : الْأَمْرُ مَا شَاءَ اللَّهُ ، أَوْ هُوَ مَا شَاءَ اللَّهُ ؛ أَيْ الْأَمْرُ مُشِيقَةُ اللَّهِ تَعَالَى . وَقِيلَ : الْجَوَابُ مُضْمَرٌ ، أَيْ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ ، وَمَالًا يَشَاءُ لَا يَكُونُ . (لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) أَيْ مَا اجْتَمَعَ لَكَ مِنَ الْمَالِ فَهُوَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُوَّتِهِ لَا يَقْدِرُكَ وَقُوَّتِكَ ، وَلَوْ شَاءَ لَفَرَّقَ الْبَرَكَةَ مِنْهُ فَلَمْ يَجْتَمِعْ .

الثانية - قَالَ أَشْهَبُ قَالَ مَالِكٌ : يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ دَخَلَ مَسْتَرَلَهُ أَنْ يَقُولَ هَذَا . وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ قَالَ لِي حَفْصُ بْنُ مَيْسَرَةَ : رَأَيْتُ عَلَى بَابِ وَهْبِ بْنِ مَنِبْهٍ مَكْتُوبًا « مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » . وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ : « إِلَّا أَدْلَاكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ . - أَوْ قَالَ كَثْرَةٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ » قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ « لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِذَا قَالَهَا الْعَبْدُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلِمَ » أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ

في صحيحه من حديث أبي موسى . وفيه : فقال " يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة - في رواية على كنز من كنوز الجنة - " قلت : ما هي يا رسول الله ، قال : " لا حول ولا قوة إلا بالله " . وعنه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة أو قال كنز من كنوز الجنة " قلت : بلى ، فقال " لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " . وروى أنه من دخل منزله أو خرج منه فقال : بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله تتافتت عنه الشياطين من بين يديه وأنزل الله تعالى عليه البركات . وقالت عائشة : إذا خرج الرجل من منزله فقال بسم الله قال الملك هُديت ، وإذا قال ما شاء الله قال الملك كُفيت ، وإذا قال لا قوة إلا بالله قال الملك وُقيت . نخرجه الزمذني من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال - يعني إذا خرج من بيته - بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله يقال كُفيت ووُقيت وتفتحى عنه الشيطان " هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . نخرجه أبو داود أيضا وزاد فيه - فقال له : " هُديت وكُفيت ووُقيت " . وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال . " إذا خرج الرجل من باب بيته أو باب داره كان معه ملكان موكلان به فإذا قال بسم الله قالاه هُديت وإذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله قالاه وُقيت وإذا قال توكلت على الله قالاه كُفيت قال فيلقاه قريانه فيقولان ماذا تريدان من رجل قد هُدي ووُقي وكُفي " . وقال الحاكم أبو عبد الله في علوم الحديث : سئل محمد بن إسماعيل بن خزيمة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : " تحتاجت الجنة والنار فقالت هذه - يعني الجنة - يدخلني الضعفاء " من الضعيف ؟ قال : الذي يرى نفسه من الحلول والقوة يعني في اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة . وقال أنس بن مالك قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من رأى شيئا فأنجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره عين " . وقد قال قوم : ما من أحد قال ما شاء الله كان فاصابه شيء إلا رضى به . وروى أن من قال أربعا آمين من أربع : من قال هذه آمين من المئين ، ومن قال حسبنا الله ونعم الوكيل آمن من كيد الشيطان ، ومن قال وأفوض أمري إلى الله آمن مكر الناس ، ومن قال لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين آمن من النعم .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلَمَ مِنْكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴾ « إِنْ » شرط « تَرَىٰ » مجزوم به ، والجواب « فَمَسَىٰ رَبِّي » و « أَنَا » فاصلة لا موضع لها من الإعراب . ويجوز أن تكون في موضع نصب توكيدا للنون والياء . وقرأ عيسى بن عمر « إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلَمَ مِنْكَ » بالرفع ؛ يعمل « أَنَا » مبتدأ و « أَقْلَمَ » خبره ، والجملة في موضع المفعول الثاني ، والمفعول الأول النون والياء ؛ إلا أن الياء حذفت لأن الكسرة تدل عليها ، وإثباتها جيد بالغ وهو الأصل لأنها الاسم على الحقيقة . و (فَمَسَىٰ) بمعنى لعل ، أى فلعل ربى . ﴿ أَنْ يُرِيَّتَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴾ أى فى الآخرة . وقيل فى الدنيا . (وَيُرْسِلَ عَلَيَّ) أى على جنتك . (حُسْبَانًا) أى مرامى من السماء ، واحدها حُسْبَانَةٌ ، قاله الأخفش والتقي وأبو عبيدة . وقال ابن الأعرابى : والحسبانة السحابة ، والحسبانة الوسادة ، والحسبانة الصبغة . وقال الجوهري : والحسبان (بالضم) : العذاب . وقال أبو زيد الكلبي : أصاب الأرض حسبان أى جراد . والحسبان أيضا الحساب ، قال الله تعالى : « الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » . وقد فُسر الحُسْبَانُ هنا بهذا . قال الزجاج : الحسبان من الحساب ؛ أى يرسل طيها عذاب الحساب ، وهو حساب ما اكتسبت يداك ؛ فهو من باب حذف المضاف . والحسبان أيضا : سهام قصار يرمى بها فى طَلْقٍ واحد ، وكان من رمى الأكامرة . والمرامى من السماء عذاب . (فَتُصْبِحُ صَبِيعًا زَلَقًا) يعنى أرضا بيضاء لا ينبت فيها نبات ولا ينبت طيها قدم ، وهى أَصْرَ أرض بعد أن كانت جنة أفنع أرض ؛ و « زَلَقًا » تأكيد لوصف الصبيد ؛ أى تزل عنها الأقدام ملاستها . يقال : مكان زَلَقٌ (بالتحريك) أى دَحْضٌ ، وهو فى الأصل مصدر قولك : زَلَقْتَ رجله تَزَلِقُ زَلَقًا ، وأزلقها غيره . والزلق أيضا عجز الدابة . قال رؤبة :

* كَانَهَا حَقْبَاءُ بَقَاءِ الزَّلَقِ *

والمزَلَقَةُ والمزَلَقَةُ : الموضع الذى لا ينبت عليه قدم . وكذلك الزَلَقَةُ . والزلق الحلق ، زَلَقَ رأسه يَزَلِقُهُ زَلَقًا حلقه ؛ قاله الجوهري . والزلق المخلوق ؛ كالتقص والتقص . وليس المراد

أنها تصير مزقة ، بل المراد أنها لا يبقى فيها نبات كالرأس إذا حلق لا يبقى عليه شعر ،
 قاله القشيري . (أَوْ يَصْبِحُ مَأْثَا غَوْرًا) أى فارتا ذاهبا ، فتكون أعدم أرض لاء بعد
 أن كانت أوجد أرض لاء . والقور مصدر وضع موضع الاسم ؛ كما يقال : رجل صوم
 ويفطر وعدل ورضا وفضل وزور ونساء نوح ؛ ويستوى فيه المذكر والمؤنث والثنية والجمع .
 قال عمرو بن كلثوم :

تظل جباهه نوحا عليه * مقلدة أعتها صقونا

آخر :

هيرقى من دموعها سجاما * ضباع وجاوبى نوحا قياما
 أى نائمات . وقيل : أو يصبح مأثا ذا غور؛ فحذف المضاف ؛ مثل « وأسأل القرية »
 ذكره النحاس . وقال الكسائي : ماء غور . وقد غار الماء يغور غورا وغورا ، أى سفل
 في الأرض ، ويجوز الهمز لأنضم الواو . وغارت عينه تغور غورا وغورا ؛ دخلت في الرأس .
 وغارت نهار لفة فيه . وقال :

* أغارت عينه أم لم تغار *

وغارت الشمس تغور غيارا ، أى غربت . قال أبو ذؤيب :

هل الدهر إلا ليلة ونهارها * وإلا طلوع الشمس ثم غيارها

(فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) أى لن تستطيع رد الماء الفار ، ولا تقدر عليه بحيلة . وقيل : فلن
 تستطيع طلب غيره بدلا منه . وإلى هذا الحديث انتهت مناظرة أخيه وإنذاره .

قوله تعالى : وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا
 وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرْوَتِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) أسم ما لم يسم فاعله مضمر ، وهو المصدر . ويجوز أن
 يكون المخفوض في موضع رفع . ومعنى « أُحيط بثمره » أى أهلك ماله كله . وهذا أول
 ما حقق الله تعالى به إنذار أخيه . (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ) أى فأصبح الكافر يضرب إحدى

يديه على الأخرى ندماً؛ لأن هذا يصدر من التادم . وقيل : يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق؛ وهذا لأن الملك قد يبرعته باليد، من قولهم : في يده مال ، أى في ملكه مال . ودلّ قوله « فاصبح » على أن هذا الإهلاك جرى بالليل ؛ كقوله « فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَاصْبَحْتَ كَالْصَّرِيمِ » ويقال : أنفقتُ في هذه الدار كذا وأنفقت عليها . (وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) أى خالية قد سقط بعضها على بعض ؛ مأخوذ من خَوِيَ النجوم تخوى خياً أُمَحَّتْ ، وذلك إذا سقطت ولم تُظفر في نَوَاشِئِهَا . وأخوت مثله . وخَوَت الدار خَواله أَوَّت ، وكذلك إذا سقطت ؛ ومنه قوله تعالى : « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا » (٢٦) ويقال ساقطة ؛ كما يقال فهي خاوية على عروشها أى ساقطة على سقوفها ؛ فجمع عليه بين هلاك الثمر والأصل ، وهذا من أعظم الجواهر ، مقابلة على بغيه . (وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) أى يا ليتني علمت نعم الله عليّ ، وعرفت أنها كانت بقدرة الله ولم أكفر به . وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم .

قوله تعالى : وَلَوْ تَسَوَّكَ لَهٗ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ تَسَوَّكَ لَهٗ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) « فِئَةٌ » اسم « تكن » و « له » الخبر . « يَنْصُرُونَهُ » في موضع الصفة ، أى فئة ناصرة . ويجوز أن يكون « يَنْصُرُونَهُ » الخبر . والوجه الأول عند سيبويه أولى لأنه قد تقدّم « له » . وأبو العباس يخالفه ، ويحتج بقوله الله عز وجل « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . وقد أجاز سيبويه الآخر . و « يَنْصُرُونَهُ » على معنى فئة ؛ لأن معناها أقوام ، ولو كان على اللفظ لقال ولم تكن له فئة تنصره ؛ أى فرقة وجاعة يلجئ إليهم . (وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا) أى ممتنماً ؛ قاله قتادة . وقيل : مسترداً بدل ما ذهب منه . وقد تقدم اشتقاق الفئة في « آل عمران » (٣) . والماء عوض من الياء التي نقصت

من وسطه، أصله فيءٌ مثلُ فيءٍ، لأنه من فاء، ويجمع على فيئون وفئات، مثل شياتٍ ولذاتٍ ومئات. أى لم تكن له عشيرة يمنعونه من عذاب الله، وضلَّ عنه من أفتخر بهم من الخدم والولد.

قوله تعالى: هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ اختلف في العامل في قوله «هنالك» وهو ظرف، فقيل: العامل فيه «ولم تكن له فئة» ولا كان هنالك؛ أى ما نُصر ولا انتصر هنالك، أى لما أصابه من العذاب. وقيل: تم الكلام عند قوله «متحصرا». والعامل في قوله «هنالك»: «الولاية»، وتقديره على التقديم والتأخير: الولاية لله الحق هنالك، أى في القيامة. وقرأ أبو عمرو والكسائي «الحق» بالرفع نعتا للولاية. وقرأ أهل المدينة وحمة «الحق» بالخفض نعتا لله عز وجل، والتقدير: لله ذى الحق. قال الزجاج: ويجوز «الحق» بالنصب على المصدر والتوكيد؛ كما تقول: هذا لك حقا. وقرأ الأعمش وحمة والكسائي «الولاية» بكسر الواو، الباقون بفتحها، وهما بمعنى واحد كالرضاة والرضاة. وقيل: الولاية بالفتح من الموالاة؛ كقوله «الله ولي الذين آمنوا»^(١). «ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا»^(٢). وبالكسر معنى السلطان والقدرة والإمارة؛ كقوله «والأمر يومئذ لله»^(٣) أى له الملك والحكم يومئذ، أى لا يريد أمره إلى أحد؛ والملك في كل وقت لله ولكن تزول الدماوى والتوهمات يوم القيامة. وقال أبو عبيد: إنها بفتح الواو للخالق، وبكسرها للخلق. ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أى الله خير ثوابا في الدنيا والآخرة لمن آمن به، وليس ثم خير يُرجى منه، ولكنه أراد في ظن الجهال؛ أى هو خير من يُرجى. ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ قرأ حاصم والأعمش وحمة ونجي «عقبا» ساكنة القاف، الباقون بضمها، وهما بمعنى واحد؛ أى هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به. يقال: هذا عاقبة أمر فلان وعقباه وعقبه، أى آخره.

(١) آية ٢٥٧ سورة البقرة . (٢) آية ١١ سورة محمد . (٣) آية ٢٠ سورة الاحقاف .

قوله تعالى : وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَهَاءَ أَزْلَنَّهُ مِنْ
السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى صف هؤلاء المتكبرين الذين سألوك
طرده فقراء المؤمنين مثل الحياة الدنيا، أى شبهها . (كَهَاءَ أَزْلَنَّهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ)
أى بالماء . (نَبَاتُ الْأَرْضِ) حتى امتوى . وقيل : إن النبات اختلط ببعضه بعض من
تزل عليه الماء ؛ لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر . وقد تقدم هذا المعنى فى « يونس »
مبيناً . وقالت الحكماء : إنما شبه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر فى موضع ، كذلك
الدنيا لا تبقى على واحد ، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا ، ولأن الماء
لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفتى ، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يتجلى كذلك الدنيا
لا يسلم أحد دخلها من فتنها وآفتها ، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعاً مزيئاً ، وإذا جاوز
المقدار كان ضاراً مهلكاً ، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفصولها يضر . وفى حديث النبى
صلى الله عليه وسلم قال له رجل : يا رسول الله ، إني أريد أن أكون من الفائزين ؛ قال :
« قَدْ الدُّنْيَا وَخُذْ مِنْهَا كَلَاءً فَإِنْ الْقَلِيلُ مِنْهَا يَكْفِي وَالْكَثِيرُ مِنْهَا يُطْنَى » . وفى صحيح
مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كِفَافًا وَقَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ » .
(فَأَصْبَحَ) أى النبات (هَشِيمًا) أى متكرساً من اليُس متفتتاً ، يعنى باقطاع الماء عنه ،
لخفف ذلك إيحازاً للدلالة الكلام عليه . والهُشَم : كسر الشئ اليابس . والهشيم من النبات
اليابس المتكسر ، والشجرة البالية بأخذها الحاطب كيف يشاء . ومنه قولهم : ما فلان إلا هَشِيمَةٌ
كُرم ؛ إذا كان سمها . ورجل هَشِيم : ضعيف البدن . وتهشم عليه فلان إذا تعطف . واحتشم

ما في ضرع الناقة إذا احتلبه . ويقال : هَتَمَ الثَّيْدُ ؛ ومنه سُمِّيَ هاشم بن عبد مناف واسمه عمرو ، وفيه يقول عبد الله بن الزُّبَيْرِ :

عَمَرُوا الْعُلَا هَتَمَ الثَّيْدَ لِقَوْمِهِ * وَرَجُلٌ مَكَّةَ مُسْتَوْنٌ عِجَافٌ

وكان سبب ذلك أن قريشا أصابهم سَنَوْنٌ ذهبن بالأموال فخرج هاشم إلى الشام فامر بخنز كثير فخبزله ، فجعله في الغرائل على الإبل حتى وافى مكة ، وهشم ذلك الخبز ؛ يعني كمره ورتَّده ، ونحر تلك الإبل ، ثم أمر الطُّهَّاء فطبخوا ، ثم كفا القدور على الجفان فاشبع أهل مكة ؛ فكان ذلك أول الحياء بعد السنة التي أصابتهم ؛ فسمَّى بذلك هاشما . (تَذْرُوهُ الرِّيحُ) أي تفرقه ؛ قاله أبو عبيدة . ابن قتبية : تنسفه . ابن كيسان : تذهب به وتجيء . ابن عباس : تديره ؛ والمعنى متقارب . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « تديره الرِّيح » . قال الكسائي : وفي قراءة عبد الله « تُديره » . يقال : دَرَّه الرِّيحُ تَدْرُوهُ دَرَّوْا [تديره] ذَرَّبا وأذرته تُدْرِيه إِذْراء إذا طارت به . وحكى الفراء : أذريت الرجل عن فرسه أي قلبته . وأشد سيويوه والفراء : فقلت له صَوِّبْ وَلَا تَجْهَدَنَّ * فَيُذْرِكُ^(١) مِنْ أُخْرَى الْقَطَاةِ قَتْرًا

قوله تعالى : (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) من الإنشاء والإفناء والإحياء ، سبحانه !

قوله تعالى : الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ

الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ويموز « زيننا » وهو خبر الابتداء

في التثنية والإفراد . وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن في المال جمالا ونفعا ، وفي البنين قوَّة ودفعا ، فصارا زينة الحياة الدنيا ، لكن معه قريضة الصفة لئلا

(١) في كتاب سيويوه : « فيذتك » وهي رواية أخرى في البيت . وقد نسب سيويوه إل عمرو بن عمار الطائي . ومعنى صوب : أخذ القصد في السير وأرشد بالفرس ولا تجهد . وأخرى القفاة : آخرها والقفاة : مقعد الرفع . (أي مؤخر الظهر حيث يكون ردف الراكب) . يقول هذا لتلايه وقد جملة على فرسه ليصيده له . (راجع الشنترى على كتاب سيويوه) .

والبتين ؛ لأن المعنى : المال والبنون زينة هذه الحياة المحتقرة فلا تُبغىها نفوسكم . وهو ردُّ على عُيُنة بنِ حِصْنٍ وأمثاله لما افتخروا بالثنى والشرف ، فأخبر تعالى أن ما كان من زينة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى ، كالهشيم حين ذرته الريح ؛ إنما يبقى ما كان من زاد القبر وُعدد الآخرة . وكان يقال : لا تعقد قلبك مع المال لأنه فيَّ ذاهب ، ولا مع النساء لأنها اليوم معك وغداً مع غيرك ، ولا مع السلطان لأنه اليوم لك وغداً لغيرك . ويكنى في هذا قول الله تعالى : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ^(١) » . وقال تعالى : « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَنْدُوا لَكُمْ فَاخْتَرُوهُمْ ^(٢) » .

قوله تعالى : ((وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)) أى ما يأتى به سلمان وصُبيب وفقراء المسلمين من الطاعات ((خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا)) أى أفضل ((وَخَيْرٌ أَمْلًا)) أى أفضل أملاً من ذى المال والبتين دون عمل صالح ، وليس في زينة الدنيا خير ، ولكنه نخرج نخرج قوله « أَفَحَبَابُ الْخَنِيَةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ^(٣) » . وقيل : خيرى التحقيق مما يظنه الجهال أنه خير فى ظنهم .

واختلف العلماء فى «الباقيات الصالحات» ؛ فقال ابن عباس وابن جبير وأبو ميسرة وعمر بن شَرْحِبِيل : هى الصلوات الخمس . وعن ابن عباس أيضا : أنها كل عمل صالح . من قول أوفعل يبنى للأخرة . وقاله ابن زيد وربحه الطبرى . وهو الصحيح إن شاء الله ؛ لأن كل ما بقى ثوابه جاز أن يقال له هذا . وقال على رضى الله عنه : الحرت حرثان فحرت الدنيا المال والبنون ؛ وحرث الآخرة الباقيات الصالحات ، وقد يجهن الله تعالى لأقوام . وقال الجمهور : هى الكلمات الماثور فضلها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . نخرجه مالك فى موطنه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيب أنه سمعه يقول فى الباقيات الصالحات : إنما قول العبد الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . أسنده النسائى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله

(١) آية ١٥ سورة الناز . (٢) آية ١٤ سورة الناز . (٣) آية ٢٤ سورة الفرقان .

صلى الله عليه وسلم قال : "استكثروا من الباقيات الصالحات" قيل : وما هي يا رسول الله؟ قال : " التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله" ، صححه أبو محمد عبد الحق رحمه الله ، وروى قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ غُصْنًا فخرطه حتى سقط ورقه وقال : "إن المسلم إذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تحاتت خطاياهم كما تحات هذا خذهن إليك أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهم فأنهم من كنوز الجنة وصفوا بالكلام وهن الباقيات الصالحات" ، ذكره الثعلبي ، وخرجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عليك بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فأنهم يعني يعطون الخطايا كما تحط الشجرة ورقها " ، وأخرجه الترمذى من حديث الأعمش عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بشجرة بأسيّة الورقة فضر بها بمصاة فتناثر الورق فقال : "إن الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر لتساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة" ، قال : هذا حديث غريب ولا نعرف للأعمش سماعا من أنس ، إلا أنه قد رآه ونظر إليه ، ونرجح الترمذى أيضا عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَقْرَأُ أَمْنَكَ مِنَ السَّلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ وَأَنَّهَا قِيَعَانُ وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ" قال : حديث حسن غريب ، خرجه المساوردي بمعناه . وفيه — فقلت : وما غِرَاس الجنة؟ قال : "لا حول ولا قوة إلا بالله" ، وخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ به وهو يُفْرَسُ غَرَسًا فقال : "يا أبا هريرة ما الذي تفرس؟" قلت غِرَاسًا . قال "ألا أدلك على غِرَاس خير من هذا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر يُفْرَسُ لك بكل واحدة شجرة في الجنة" ، وقد قيل : إن الباقيات الصالحات هي النيات والهمّات ؛ لأن بها تقبل الأعمال وترفع ؛ قاله الحسن . وقال حميد بن ثُمَيْر : هن البنات ؛ يدل عليه أوائل الآية ؛ قال الله تعالى : « المساك واليتيم زينة الحياة الدنيا » ثم قال « والباقيات الصالحات » يعني البنات الصالحات هن عند الله لآبائهن خير ثوابا ،

وخير أملا في الآخرة لمن أحسن إليهن، يُلْقِ عليه ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت على امرأة مسكينة... الحليث، وقد ذكرناه في سورة النحل في قوله «يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ» الآية^(١). وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لقد رأيت رجلا من أمّتي أمر به إلى النار فتعلق به بناته وجعلن يصرخن ويقلن ربّ إنه كان يحسن إلينا في الدنيا فرحمه الله بهن». وقال قتادة في قوله تعالى: «فَارَدْنَا أَنْ يَدْخُلَهُمَا رِجْمًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةٌ وَأَقْرَبَ رَحْمًا» قال: أيدلها منه ابنة فتزوجها نبي فولدت له اثني عشر غلاما كلهم أنبياء.

قوله تعالى: وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ((وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً)) قال بعض النحويين: التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نُسَيِّرُ الجبال. قال النحاس: وهذا غلط من أهل الواو. وقيل: المعنى وأذكريوم نُسَيِّرُ الجبال، أي نزيلها من أماكنها من على وجه الأرض، ونسبها كما نُسِر السحاب، كما قال في آية أخرى «وَيَوْمَ نُكْرِسُ السَّعَابِ». ثم تكسر فتعود إلى الأرض، كما قال «وَبُسِّتِ الْجِبَالُ بُسًّا» فكانت هباءً منتهًا. وقرأ ابن كثير والحسن وأبو عمرو وابن عامر «وَيَوْمَ نُسَيِّرُ» بناء مضمومة وفتح الياء. و«الجبال» رفعاً على الفعل المجهول. وقرأ ابن محيصن ومجاهد «وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ» بفتح الراء مخففاً من سار. «الجبال» رفعاً. دليل قراءة أبي عمرو «وإذا الجبال سُيِّرَتْ». ودليل قراءة ابن محيصن «ونُسَيِّرُ الجبال سَيًّا». واختار أبو عبيد القراءة الأولى «نُسَيِّرُ» بالنون لقوله «وحشرناهم». ومعنى ((بَارِزَةً)) ظاهرة، وليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بستان، أي قد أجتثت ثمارها وقلعت جبالها، وهدم بساتينها، فهي بارزة ظاهرة. وعلى هذا القول أهل التفسير. وقيل: «وترى الأرض بارزة» أي برز ما فيها من الكنوز والأموات، كما قال «وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا

وَتَحَلَّتْ^(١) » وقال « وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالًا^(٢) » وهذا قول عطاء . (وَحَشَرْنَا^(٣)هُمْ) أى إلى الموقف . (فَلَمْ نَقْدِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) أى لم ترك ؛ يقال : غادرت كذا أى تركته . قال عترة : غادرته متعفرا أوصاله * والقوم بين بجرج وبجسل

أى تركته . والمغادرة الترك ؛ ومنه القدر ؛ لأنه ترك الوفاء . وإنما مبي الغدير من الماء فديرا لأن الماء ذهب وتركه . ومنه خدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها . يقول : حشرنا برهم وقاجرهم وجنهم وأنسهم .

قوله تعالى : وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : (وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا) « صفا » نصب على الحال . قال مقاتل : يعرضون صفاً بعد صف كالصفوف في الصلاة ، كل أمة وزمرة صفاً ، لا أنهم صف واحد . وقيل جميعاً ، كقوله « ثُمَّ أَتَوْا صَفًّا^(٤) » أى جميعاً . وقيل قياماً . ونرج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن منده في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تبارك وتعالى ينادى يوم القيامة بصوت رفيع غير فطيع يا عبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون أحضروا محبتكم ويسروا جواباً فإنكم مسئولون محاسبون . يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفًا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » .

قلت : هذا الحديث غاية في البيان في تفسير الآية ، ولم يذكره كثير من المفسرين ، وقد كنهناه في كتاب التذكرة ، ومنه نقلناه والحمد لله .

(لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) أى يقال لهم : لقد جئتمونا حفاة عراة ، لا مآل معكم ولا وليا . وقيل فرادى ؛ دليله قوله « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » . وقد تقدم . وقال الزجاج : أى بعثناكم كما خلقناكم . (بَلْ زَعَمْتُمْ) هذا خطاب للمكرى

(١) آية ٤ سورة الانشقاق . (٢) آية ٢ سورة الزلزلة . (٣) آية ٦٤ سورة طه .

(٤) آية ٩٤ سورة الأنعام . راجع ج ٧ ص ٤٢ طبة أول أو ثانية .

البعث؛ أى زعمتم فى الدنيا أن لن تُبعثوا وأن لن نجعل لكم موعدا للبعث . وفى صحيح مسلم من مائسة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يُحْشَرُ الناس يوم القيامة حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا " قلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : " يا عائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض " . « غُرْلًا » أى غير محتونين . وقد تقدم فى « الأنعام » بيانهُ .

قوله تعالى : وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُدْرِكُنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : (وَوُضِعَ الْكِتَابُ) « الكتاب » اسم جنس ، وفيه وجهان : أحدهما — أنها كتب الأعمال فى أيدي العباد ؛ قاله مقاتل . الثانى — أنه وضع الحساب ؛ قاله الكلبي ، فبعد من الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة . والقول الأول أظهر ؛ ذكره ابن المبارك قال : أخبرنا الحكم أو أبو الحكم — شك نعم — عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بنى أسد قال قال عمر لكعب : ويحك يا كعب ! حدثنا من حديث الآخرة ؛ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! إذا كان يوم القيامة رُفِعَ اللوح المحفوظ فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله — قال — ثم يؤتى بالصحف التى فيها أعمال العباد فتشر حول العرش ، وذلك قوله تعالى « وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا — قال الأسدي : الصغيرة مادون الشرك ، والكبيرة الشرك ، إلا أحصاها — قال كعب : ثم يدعى المؤمن فيعطى كتابه يمينه فينظر فيه فإذا حسنته بإديات للناس وهو يقرأ سيئاته ليكلا يقول كانت لى حسنت فلم تذكر فأحب الله أن يربيه عمله كله حتى إذا استقص ما فى الكتاب وجد فى آخر

ذلك كله أنه مغفور وأنتك من أهل الجنة ؛ فعند ذلك يُقْبَل إلى أصحابه ثم يقول « مَاؤُمُ
أَفْرَعُوا كِتَابِيَهٗ . إِنِّي عَلَنْتُ أَنْتَى مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ ^(١) » ثم يدعى بالكافر فيعطى كتابه بشماله ثم يُلَفَّ
فيجعل من وراء ظهره ويلوئى عنقه ؛ فذلك قوله « وَأَمَّا مَنْ أَوْقَى كِتَابَهٗ وَرَاءَ ظَهْرِيَهٗ ^(٢) » فينظر
في كتابه فإذا سيئاته باديات للناس وينظر في حسناته ليكلا يقول أفتأثاب على السيئات . وكان
الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول : يا ويثاه ! خيِّبُوا إلى الله تعالى من الصغائر
قبل الكبائر . قال ابن عباس : الصغيرة التيسم ، والكبيرة الضحك ، يعنى ما كان من ذلك
في معصية الله عز وجل ؛ ذكره الثعلبي . وحكى الماوردي عن ابن عباس أن الصغيرة الضحك .

قلت فيحتمل أن يكون صغيرة إذا لم يكن في معصية ، لأن الضحك من المعصية رضاء بها
والرضا بالمعصية معصية ، وعلى هذا تكون كبيرة ، فيكون وجه الجمع هذا والله أعلم . أو يُعْمَل
الضحك فيما ذكر الماوردي على التيسم ، وقد قال تعالى : « فَهَسَّ صَاحِبًا مِنْ قَوْمَاهُ » . وقال
سعيد بن جبیر : إن الصغائر اللُّمُّ كالميسيس والقُبْل ، والكبيرة المواقمة والزُّن . وقد مضى
في « النساء » بيان هذا . قال قتادة : اشتكى القوم الإحصاء ، وما اشتكى أحد ظلمًا ، فإياكم
وعقوبات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه . وقد مضى . ومعنى « أحصاها »
حدها وأحاط بها ؛ وأضيف الإحصاء إلى الكتاب توسعًا . (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا) أى
وجدوا إحصاء ما عملوا حاضرا . وقيل : وجدوا جزاء ما عملوا حاضرا . (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ
أَحَدًا) أى لا يأخذ أحداً بمجرم أحد ، ولا يأخذ بما لم يعمل به ؛ قاله الضحاك . وقيل :
لا ينقص طالما من ثوابه ولا يزيد عاصيا في عقابه .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
كَانَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) تقدم في « البقرة » هذا مستوفى. قال أبو جعفر النحاس : وفي هذه الآية سؤال ، يقال : ما معنى « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » ففى هذا قولان : أحدهما — وهو مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى أثم الفسق لما أمر فعصى ، فكان سبب الفسق أمر ربه ؛ كما تقول : أطعمته من جوع . والقول الآخر — وهو مذهب محمد بن قُطْرُب أن المعنى : فسق عن رد أمر ربه . (أفتخذونه وذريته أولياء من دُونِي) وقف عن وجل الكفرة على جهة التوبيخ بقوله أفتخذونه يا بنى آدم وذريته أولياء وهم لكم مدوّ أى أعداء ، فهو اسم جلس . (يُلْسِ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) أى بئس عبادة الشيطان بدلا عن عبادة الله . أو بئس إبليس بدلا عن الله . واختلف هل لإبليس ذرية من صلبه ؛ فقال الشعبي : سألني رجل فقال هل لإبليس زوجة ؟ فقلت : إن ذلك عُرْس لم أشهده ، ثم ذكرت قوله « أفتخذونه وذريته أولياء » فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت نعم . وقال مجاهد : إن إبليس أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات ؛ فهذا أصل ذريته . وقيل : إن الله تعالى خلق له في نفذه اليمنى ذكرا وفى اليسرى فرجا ؛ فهو ينكح هذا بهذا ، فيخرج له كل يوم عشر بيضات ، يخرج من كل بيضة سبعون شيطانا وشيطانة ، فهو يخرج وهو يطير ، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم في بنى آدم فتنة . وقال قوم : ليس له أولاد ولا ذرية ، وذريته أحواله من الشياطين . قال القشيري أبو نصر : والجملة أن الله تعالى أخبر أن إبليس أنبأها وذريته ، وأنهم يوسوسون إلى بنى آدم وهم أعداؤهم ، ولا شئت عندنا كيفية في كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس ، فيتوقف الأمر فيه على نقل صحيح .

قلت : الذى ثبت في هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميدى في الجمع بين الصحيحين من الإمام أبى بكر البرقاني أنه نخرج في كتابه مستندا عن أبى محمد عبد الله بن سعيد الحافظ من رواية حاصم عن أبى عثمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكن

أَوَّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فيها باض الشيطان وفرخ . وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه ، والله أعلم . قال ابن عطية : وقوله «وذريته» ظاهر اللفظ يقتضي الموسوسين من الشياطين ، الذين يأتون بالمتكر ويحلون على الباطل . وذكر الطبري وغيره أن مجاهدا قال : ذرية إبليس الشياطين ، وكان معدهم : زَلَنُور صاحب الأسواق ، يضع رأيه في كل سوق بين السماء والأرض ، يجعل تلك الراية على حانوت أول من يفتح وآخر من يغالق . وثبر صاحب المصائب ، يأمر بضرب الوجوه وشق الجيوب ، والدعاء بالويل والحرب . والأعور صاحب أبواب الزنى . ومسوط صاحب الأخبار ، يأتي بها فيلقها في أفواه الناس فلا يجدون لها أصلا . وداسم الذي إذا دخل الرجل بيته فلم يسلم ولم يذكر اسم الله بصره من المتاع ما لم يُرفع وما لم يُحسن موضعه ، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه . قال الأعمش : وإنى ربما دخلت البيت فلم أذكر الله ولم أسلم ، فرأيت مطهرة ققلت : ارفعوا هذه ! وخاصمتهم ، ثم أذكر فأقول : داسم داسم ! أعوذ بالله منه ! زاد الثعلبي وغيره عن مجاهد : والأبيض ، وهو الذي يوسوس للأثياء . ومجهر وهو الذي اختلس خاتم سليمان عليه السلام . والولهان وهو صاحب الطهارة يوسوس فيها . والأثمين وهو صاحب الصلاة يوسوس فيها . ومُمرّة وهو صاحب المزامير وبه يُكَيّ . والمهفاف يكون بالصحارى يُضِلّ الناس ويتهبهم . ومنهم النيلان . وحكي أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفي في كتاب اللؤلؤيات عن مجاهد أن المهفاف هو صاحب الشراب ، ولقسوس صاحب التحريش ، والأعور صاحب أبواب السلطان . قال وقال الداراني : إن لإبليس شيطانا يقال له المتقاضى ، يتقاضى ابن آدم فيخبر بعمل كان عمله في السر منذ عشرين سنة ، فيحدث به في العلانية . قال ابن عطية : وهذا وما جأسه مما لم يأت به سند صحيح ، وقد طوّل النقاش في هذا المعنى وجلب حكايات تبعد عن الصحة ، ولم يترني في هذا صحيح إلا ما في كتاب مسلم من أن للصلاة شيطانا يسمى خُزْب . وذكر الترمذي أن للوضوء شيطانا يسمى الولهان .

قلت : أما ما ذكر من التعيين في الإسم فصحيح ؛ وأما أن له أتباعا وأعوانا وجنودا فمقطوع به ، وقد ذكرنا الحديث الصحيح في أن له أولادا من صلبه ، كما قال مجاهد وغيره .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتى القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيفتنون فيقول الرجل منهم سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث . وفي مسند البزار عن سلمان النابسي قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته " . وفي مسند أحمد بن حنبل قال : أنبأنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السائي عن أبي موسى الأشعري قال : إذا أصبح إبليس بت جنوده فيقول من أضل مسلما ألبسته التاج قال فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلق زوجته ، قال : يوشك أن يترج . ويقول آخر : لم أزل بفلان حتى حق ؛ قال : يوشك أن يبر . قال ويقول القائل : لم أزل بفلان حتى شرب ؛ قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بفلان حتى زنى ؛ قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بفلان حتى قتل ؛ قال : أنت أنت ! وفي صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدأهم منه منزلة أعظمهم فتنة يبيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئا قال ثم يبيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال فيدنيه أو قال فيلترمه ويقول نعم أنت " . وقد تقدم . وسمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعلى بنجر الإسكندرية يقول : إن شيطانا يقال له البيضاوى يتمثل للفقراء المواصلين في الصيام فإذا استحك منهم الجوع وأضر بأدبهم يكشف لهم عن ضياء ونور حتى يملأ عليهم الليوت فيظنون أنهم قد وصلوا وأن ذلك من الله وليس كما ظنوا .



تم الجزء العاشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الحادى عشر، وأوله قوله تعالى :

« ما أهديتهم خلق السموات والأرض »

إصلاح خطأ

صواب	خطأ	ص	ج
لاته	لا تهي	٢ ٣٦٧	١
وكانن ربابة	وكانن ربابة	١ ٥٩	٣
أوس بن حجر	أوس بن حجر	١٢ ٩٨	٣
دير هرقل	دير هرقل	١٧ ٢٨٩	٣
أُكْسُ بَنَاتِي	أُكْسُ بَنَاتِي	١٠ ٣٠٧	٣
يوم تكون	يوم تكون	١٥ ٣٠٧	٣
مع الباء	مع الباء	١٣ ٦٠	٤
فلن يُقبِلَ	فلن يُقبِلَ	١٣ ١٢٨	٤
وما ملكت	أوما ملكت	١٦ ١٨٩	٥
ج ٢ ص ٢٤	ج ٢ ص ٤٤	٢٠ ٣٦٣	٦
فإذا رأى المشركون	فإذا رأوا المشركين	١٥ ٤٠١	٦
جمع مَفْتَح	جمع مَفْتَح	١٢ ١	٧
وأنه سبب الماء	وأنه سبب الماء	١٣ ٢	٧
أفلا نرضاك	فلا نرضاك	١١ ١٧٢	٧
٢٥٢	٢٥٢	٢٥ ٢	٨
أو يَمِعة	أو يَمِعة	٣ ٢٥٥	٨
في حكم الدنيا	في حكم الدنيا	١٧ ٢٣١	١٠
فلم يبرد	فلم يبرد	٧ ٢٢١	١٠
أصدقوني	أصدقوني	٨ ٢٢١	١٠

وقفنا أثناء التصحيح على هذه الأخطاء المطبعية في الأجزاء الماضية أبتناها هنا للفائدة ما

أحمد عبد العليم البردوني
المصحح بالقسم الأدبي
بدار الكتب المصرية



كَمَلُ طَبْعِ الْجُزْءِ الْبَاقِي مِنْ كِتَابِ "الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ لِلْقُرْطُبِيِّ"

مَطْبَعَةُ دَارِ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ فِي يَوْمِ الثَّلَاثَةِ ٢٥ ذُو الْقَعْدَةِ سَنَةِ ١٣٥٩

عَهْدِ نَدِيمٍ

(٢٤ دَيْسَمْبَرِ سَنَةِ ١٩٤٠ م)

مِلَا حِظْ الْمَطْبَعَةِ بِدَارِ الْكُتُبِ

الْمِصْرِيَّةِ

